# تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي

تحقيق

عبد الرزاق المهدي

المجلد الخامس

سورة القصص - سورة الذاريات

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

# تفسير القرآن العظيم

## ( تفسير ابن كثير )

للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل
ابن كثير القرشي الدمشقي
( ٧٠١ - ٧٧٤ هـ )

تحقيق
عبد الرزاق المهدي

المجلد الخامس

سورة القصص - سورة الذاريات

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

1432هـ - 2011 م

ISBN: 978-9953-27-015-9



9 789953 270159

الناشر
دار الكتاب العربي

العنوان : بيروت - شارع ڤردان - بناية بنك بيبلوس - الطابق الثامن
ص. ب. : 11-5769 بيروت 1107 2200 لبنان
هاتف : 861178 - 862905 - 800811 - 800832 (+9611)
فاكس : 805478 (+9611) بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.lb
مواقعنا: www.dar-alkitab-alarabi.com
www.academiainternational.com

# سُورَةُ القَصَصِ

ترتيبها ٢٨ — آياتها ٨٨

[٥١٠٥] قال الإمام أحمدُ بن حَنبل ـ رَحِمه الله ـ: حدثنا يحيى بن آدَمَ، حدثنا وكيعٌ، عن أبيهِ، عن أبي إسحاقَ، عن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسٓمٓ﴾ المئتين، فقال: ما هي مَعِي، ولكن عليكُم مَنْ أخذَها من رسول الله ـ ﷺ ـ: خَبَّاب بن الأرَتّ. قال: فأتينا خَبَّابَ بنَ الأرَتّ، فقرأها علينا، رضي الله عنه(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

تَقَدَّمَ الكلامُ على الحُرُوف المُقطَّعة. وقولُه: ﴿تِلْكَ﴾، أي: هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، أي: الواضح الجليّ الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، وعلم ما قد كانَ وما هُو كائن. وقولُه: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾، كَما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، أي: نذكر لك الأمرَ على ما كان عليه، كأنَّكَ شاهدٌ وكأنَّكَ حاضِرٌ. ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تَكَبَّر وتَجبَّر وطَغَى، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أي: أصنافاً، قد صَرَف كُلَّ صِنفٍ فيما يُريد من أمُورِ دولته. وقولُه: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، يعني: بَني إسرائيلَ. وكانوا في ذلك الوقت خيارَ أهل زَمَانِهم. هذا وقد سُلِّط عليهم هذا الملك الجَبَّار العَنيد يَستعمِلُهم في أخسِّ الأعمال، ويَكدُّهُم ليلاً ونهاراً في أشغالِه وأشغالِ رَعِيَّته، ويقتُل مع هذا أبناءَهُم ويَسْتَحيي نِساءَهم، إهانةً لهم واحتقاراً، وخَوفاً من أن يُوجَد منهم الغلامُ الذي كان قد تَخوَّفَ هو وأهلُ مَملكَتِه من أن يُوجَد منهم غلام يكونُ سَبَبُ هلاكِه وذَهَابُ دَولتِهِ على يَدَيه. وكانت القِبْطُ قد تَلَقَّوا هذا من بَني إسرائيلَ فيما كانوا يَدرُسُونه من قول إبراهيمَ الخَليل، حين وَرَدَ الديار المصريَّة، وجَرَى له مع جبَّارها ما جَرَىٰ، حينَ أخذَ سَارَة لِيتَّخذَهَا جارِيةً، فَصَانها الله منه، ومَنَعها منه بقُدرَته وسُلْطانِه. فبشر إبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ وَلَده أنه سَيُولَد من صُلْبه وذُرِّيته مَن يكونُ هلاكَ مَلِكِ مِصرَ على يَدَيه، فكانتِ القبطُ

(١) أخرجه أحمد ٣٩٨٠ والطبراني ٣٦١٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٨٤: ورجاله ثقات.

تَتَحدَّثُ بهذا عند فِرْعَونَ، فاحترز فِرْعَونُ من ذلكَ، وأمر بِقَتْل ذُكور بني إسرائيل. ولن يَنفعَ حَذَرٌ من قَدَرٍ، لأنَّ أجل الله إذا جاءَ لا يُؤخّر، ولكلِّ أَجَل كتابٌ. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾. وقد فَعَل تعالى ذلك بهم، كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: ٥٩]، أرادَ فِرْعَونُ بِحَوله وقُوَّته أن يَنجو من مُوسَى، فما نَفَعه ذلكَ مع قَدَر الملك العظِيم الذي لا يُخالَفُ أمرُه القَدَري ولا يُغالب، بل نَفَذ حكمُه وجَرَى قلمُه في القِدَم بأن يكونَ هلاكُ فِرْعَونَ على يديه، بل يكونُ هذا الغلامُ الذي احترزت من وُجوده، وقَتَلْتَ بسببه ألوفاً من الوِلْدانِ إنما مَنْشؤه ومَرْباه على فِراشِك، وفي دارِك. وغِذاؤه من طَعَامِك، وأنت تُرَبِّيه وتُدَلِّله وتَتَفدَّاه، وحَتْفُك وهلاكُكَ وهَلاكُ جُنُودِك على يَدَيه، لِتعلَم أنَّ رَبَّ السمواتِ العُلا هو القاهرُ الغالبُ العَظيم، العَزِيزُ القويُّ الشَدِيدُ المِحَالِ، الذي ما شاء كانَ، وما لم يَشأ لم يَكُن.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

ذَكَرُوا أن فِرْعَونَ لما أكثَرَ مِن قَتل ذُكُور بني إسرائيل خافتِ القِبطُ أن يُفني بني إسرائيلَ، فَيَلُون هُم ما كانوا يَلُونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لِفرعَونَ: إنه يُوشِكُ ـ إن استمر هذا الحال ـ أن يموتَ شيوخهُم وغِلمانهم لا يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يَقُومُ به رجالُهم من الأعمال، فَيَخلُصَ إلينا ذلك. فَأَمَرَ بِقَتْلِ الولدان عاماً وتَرْكِهم عاماً، فَوُلِد هارونُ ـ عليه السلام ـ في السنة التي يَتْرُكُون فيها، ووُلِد موسى ـ عليه السلام ـ في السنة التي يَقتُلون فيها الولدَان، وكان لِفرعَونَ أناسٌ مُوكَّلون بذلك، وقَوابل يَدُرْنَ على النساءِ، فَمَن رأينها قد حَمَلت أَحْصَوا اسمَهَا، فإذَا كان وِلادَتُهَا لا يَقبَلُهَا[1] إلاَّ نِساءُ القِبطِ، فإن وَلَدت المرأة جارِيةً تَرَكْنَها وذَهَبْنَ، وإن ولدت غلاماً دَخَل أولئك الذبّاحون بأيديهم الشِّفَارُ المُرهَفَة[2]، فَقَتلوه ومَضَوا قبَّحَهُم الله. فلما حَمَلت أُمُّ مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ بِهِ لم يظهر عليها مَخَايل الحَمْل كَغَيرها، ولم تَفطِن لها الدَّايات، ولكن لما وَضَعَته ذكراً ضَاقت بهِ ذَرْعاً وخافَت عليه خَوْفاً شَديداً وَأَحبَّته حُبّاً زائداً. وكان مُوسى ـ عليه السلام ـ لا يراه أحدٌ إلا أحبَّه، فالسعيدُ من أحبَّه طَبعاً وشَرْعاً قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]. فلما ضاقَت ذَرعاً به أُلهِمَت في سِرِّها، وأُلقِي في خَلَدها، ونُفِث في رُوعِها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾. وذلك أنه كانت دارها على حَافةِ النيل، فاتخذت تابُوتاً، ومَهَدت فيه مَهداً، وجَعلت تُرضِع وَلَدها،

(١) أي: لا يولّدها إلا نساء القبط، والقابلة: المرأة التي تأخذ الولد عند الولادة.
(٢) المرهفة: المسننة المحدّدة.

فإذا دخل عليها أحَدٌ مِمَّن تخافُه جَعَلته في ذلك التَّابُوتِ، وسَيَّرته في البحر، ورَبَطته بحبلٍ عندها. فلما كان في بعض الأيام دَخَل عليها مَن تخافه، فَذَهبت فَوَضعته في ذلك التابُوتِ، وأرسلته في البحر وذَهِلَت عن أن تَرْبِطه، فذهَبَ مَعَ الماءِ واحتَمَلهُ، حتى مَرَّ به على دارِ فِرْعَون، فالتقطه الجواري فاحتمَلنَهُ، فَذَهبْنَ به إلى امرأةِ فِرعَونَ ولا يدْرِين ما فيه، وخَشِين أن يَفتتنَ عليها في فَتْحِه دُونَها، فلما كَشَفت عنه إذا هو غلامٌ من أحسَنِ الخَلْقِ وأجمَلِهِ وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله مَحبَّته في قَلْبها حين نَظَرت إليه، وذلك لسَعَادتِها وما أراد الله من كَرامتها وشَقَاوة بَعلِهَا، ولهذا قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. قال محمد بن إسحاق وغيره: اللامُ هنا لامُ العاقِبَة لا لام التعليل، لأنهم لم يُريدوا بالتقاطِه ذلك. ولا شَكَّ أن ظاهِرَ اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نُظِر إلى معنى السياق فإنه تَبقى اللام للتعليلِ، لأن معناه أن الله ـ تعالى ـ قيَّضهم لالتقاطه ليجعَلَه لهم عَدُوّاً وحزناً فيكون أبلغ في إبطالِ حَذَرِهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾. وقد رُوي عَن أمير المؤمنين عُمَر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية، في تكذيبهم بكتابِ الله وبأقدارِهِ النافِذَة في علمه السابق: «وموسى في علم الله السابق لفرعون عدوٌّ وَحَزَنٌ، قال الله تعالى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾، وقلتم أنتم: لو شاء فِرعَونُ أن يكونَ لموسى وَلِياً وناصراً، والله تعالى يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾، يعني أنَّ فِرعَون لما رآه هَمَّ بقتله خَوفاً من أن يكونَ من بني إسرائيل، فشرَعت امرأتُه آسِيَةُ بنتُ مُزاحِم تُحاجُّ عنه وتَذب دُونَه، وتُحَبِّبه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾، فقال: أما لَكِ فَنَعَم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهَدَاها الله به، وأهلَكَه الله على يَدَيه. وقد تقدَّم في حديث الفُتُون في «سورة طه»[1] هذه القصَّة بطُولِها، من رواية ابن عباس مَرفُوعاً، عند النسائيِّ وغيره. وقولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وقد حَصَلَ لها ذلك، وهَدَاها الله به، وأسكنها الجنَّةَ بِسَبَبِهِ. وقولُها: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أي: أرادت أن تتَّخِذَه وَلَداً وتَتَبنَّاه، وذلك أنَّها لم يكن لَها ولدٌ منه. وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لاَ يَدْرُونَ ما أرادَ الله مِنهُ بالتقاطِهم إيَّاه، من الحِكمة العَظِيمةِ، والحجَّة البالغة.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن فُؤادِ أُمِّ موسى، حين ذَهَب وَلَدُها في البحرِ، أنَّه أصبحَ فارِغاً، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا مِن مُوسى. قاله ابن عباس، ومجاهِدٌ، وعكرمة، وسعيدِ بن جُبير، وأبو عُبيدة، والضَّحَّاك، والحسنُ البصريُّ، وقتادةُ، وغيرهم. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، أي: إن كادت من شِدَّة وَجْدِها وحُزنها وأسَفِها لَتُظهر أنَّه ذَهَب لها ولدٌ، وتُخبر بحالها، لولا أن الله ثَبَّتها وصَبَّرها، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، أي: أمرت ابنتها ـ وكانت كبيرةً تَعِي

(١) وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾، وهو حديث واهٍ.

ما يُقَالُ لها ـ فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾، أي: اتبعي أَثَره، وخُذِي خَبَره، وتَطَلَّبي شأنه من نَواحِي البَلَد. فَخرجت لذلك، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾، قال ابنُ عَبَّاس: عن جَانِبٍ. وقال مجاهدٌ: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾، عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تُريده. وذلك أنه لما استقرَّ موسى عليه السلام بدار فِرْعَون، وأحبَّته امرأةُ المَلِكِ، واستطلقته منه، عَرَضُوا عليه المَرَاضِعَ التي في دَارِهم، فلم يقبل منها ثَدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك. فَخرجوا به إلى السوق لَعلَّهم يجدون امرأة تصلُح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عَرَفته. ولم تُظهر ذلك ولم يَشعُروا بها، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾، أي: تحريماً قَدَرياً، وذلك لكرامة الله له صَانَه عن أن يرتضع غير ثَدْيِ أُمِّه، ولأن الله ـ سبحانه ـ جعل ذلك سبباً إلى رُجُوعِه إلى أُمِّه لِترضِعَه وهي آمِنةٌ بعد ما كانت خائفةً. فلما رأتهم حائِرِينَ فيمن يُرضِعهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾. قال ابن عباس: لما قالت ذلك أخذُوها، وشَكُّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يُدرِيك نُصحُهم له وَشَفَقَتُهم عليه؟ فقالت: نصحُهم له وشفقتهم عليه رغبتُهم في ظؤورة الملك، ورَجَاءُ مَنْفَعَتِهِ. فأرسَلُوهَا. فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم ذَهَبُوا مَعَها إلى منزلهم، فَدَخلُوا به على أُمِّه، فأعطته ثَدْيَها فالتقمه، فَفرِحُوا بذلك فَرَحاً شَدِيداً، وَذَهَبَ البشير إلى امرأةِ المَلِك، فاستدعت أُمَّ موسى، وأحسَنَت إليها، وأعطتها عطاء جَزِيلاً، وهي لا تعرف أنها أُمُّه في الحقيقة، ولكن لكونه وافَق ثَدْيَها. ثم سألتها آسيةُ أن تُقِيم عندها فَتُرضِعَه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أقدِر على المُقام عِندَك. ولكن إن أحببتِ أن أُرضِعَه في بيتي فعلتُ. فأجابتها امرأة فِرْعَونَ إلى ذلك، وأجْرَت عليها النفقةَ والصِّلاتِ والكَسَاوى والإحسانَ الجزيل. فرجعت أُمُّ موسى بوَلَدِها راضيةً مَرْضِيَّةً، قد أبدلها الله من بَعدِ خَوفِها أمناً، في عزٍّ وجاهٍ ورِزقٍ دَارٍّ.

[٥١٠٦] ولهذا جاء في الحديث: «مثلُ الذي يعمَلُ ويحتسِبُ في صَنعته الخيرَ، كمثل أُمِّ موسى تُرضِع ولدها وتأخذ أجْرَها»(١). ولم يكن بين الشدَّةِ والفَرَج إلا القليل، يوم وليلة، أو نحوه، والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر! ما شاء كان وما لم يشأ لم يكُن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وبعدَ كلِّ ضِيقٍ مخرجاً. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، أي: به، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، أي: عليه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: فيما وعدها من رَدِّه إليها، وجَعلِه من المُرسَلِينَ. فحينئذٍ تَحقَّقت بِرَدِّه إليها أنه كائنٌ منهُ رسولٌ من المُرسَلِين، فعاملته في تَرْبِيَته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً. وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: حُكْمَ الله في أفعالِهِ وعواقِبها المحمودة، التي هو المحمودُ عليها في الدُّنيا والآخرةِ، فَرُبَّما يقعُ الأمرُ كريهاً إلى النفوس، وعاقبتُه محمودةٌ في نفسِ الأمرِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ

---

(١) لم أره مسنداً بهذا اللفظ. وأخرج ابن عدي ١/ ٢٩٥ عن معاذ مرفوعاً «مثل الذي يحج من أمتي عن أمتي مثل أم...» بمثله، وإسناده ضعيف.

نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

لَمَّا ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ـ عليه السلام ـ ذكر أنه لَمَّا بلغ أَشُدَّه واستوى، آتاه الله حُكماً وعِلماً، قال مجاهد: يعني النُّبوَّة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. ثم ذكر تعالى سَبَب وُصوله إلى ما كان تعالى قَدَّر له من النُّبوَّة والتكليم في قَضِيَّة قتله ذلك القِبطِيِّ، الذي كان سبب خُروجه من الدِّيار المصريَّة إلى بلاد مَدْيَنَ، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قال ابنُ جُرَيج، عن عَطاءِ الخراسانيِّ، عن ابن عباس: وذلك بين المغربِ والعِشاءِ. وقال ابنُ المُنكَدِر، عن عَطاءِ بن يَسارٍ، عن ابن عباسٍ: كان ذَلك نصف النهار. وكذلك قال سعيدُ بن جُبَيرٍ، وعِكْرِمَةُ، والسدِّي، وقتادةُ. فوجَدَ فيها رَجُلين يقتَتِلان، أي: يَتضاربان ويَتنازعان، هذا من شِيعَتِهِ، أي: من بني إسرائيلَ، وهذا من عَدُوّه، أي: قِبطيٌّ، قاله ابنُ عبَّاس، وقتادةُ، والسدِّي، ومحمدُ بن إسحاقٍ. فاستغاث الإسرائيليُّ بموسَى عليه السلام، وَوَجد مُوسَى فُرصَةً، وَهِي غفلةُ الناسِ، فعَمَد إلى القبطيِّ ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. قال مجاهدٌ: وَكَزه، أي: طَعَنه بجُمْعِ كَفِّه. وقال قتادةُ: وَكَزه بِعَصاً كانت معه. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: كان فيها حتفُه فمات، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾، أي: بما جعلتَ لي من الجاه والعزَّةِ والمنَّةِ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾، أي: مُعِيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، أي الكافِرينَ بكَ، المُخالِفينَ لأمْرِكَ.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ لما قَتَل ذلك القِبطيَّ أنه أصبحَ ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾، أي: من مَعَرَّةِ ما فعل، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾، أي: يَتَلَفَّتُ ويتوقَّع ما يكونُ من هذا الأمرِ، فَمَرَّ في بعضِ الطرُقِ، فإذا ذلك الذي استنصَرَه بالأمسِ على ذلك القبطيِّ يُقاتِلُ آخَرَ، فلما مَرَّ مُوسَى استصرخَه على الآخر، فقال له مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾. أي: ظاهر الغَوَاية كثيرُ الشرِّ. ثم عَزَم على البَطشِ بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيليُّ لِخَوره وضعفِهِ وذِلَّتِهِ أن مُوسَى إنَّما يريدُ قَصْدَه لمَّا سَمِعه يقولُ ذلك، فقالَ يدفع عن نفسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾. وذلك لأنه لم يعلم به إلا هُو ومُوسَى عليه السلام، فلما سَمِعها ذلك القِبطيُّ لَقِفَها من فَمِه، ثم ذهبَ بها إلى باب فِرْعَونَ فألقاها عندهم، فَعَلم بذلك، فاشتدَّ حَنَقُه، وعَزَم على قَتْلِ مُوسَى، فَطَلبُوه وبَعثُوا وراءَه لِيُحضِرُوه لذلك.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾، وَصَفَهُ بالرُّجوليَّة لأنه خالفَ الطريقَ، فَسَلك طريقاً أقربُ من طريقِ الذينَ بُعِثُوا وراءه، فَسَبق إلى مُوسَى، فقال له: يا مُوسَى، ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، أي: يتشاورونَ فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾، أي: من البلد، ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

لَمَّا أخبره ذلك الرجلُ بما تَمالأ عليه فِرعَونُ ودولتُه في أمرِه خَرَج من مصر وحدَه، ولم يَألف ذلك قبلَه، بل كان في رَفاهيةٍ ونعمةٍ ورِياسةٍ، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، أي: يتلفَّتُ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: من فِرعَونَ وملئه. فذكروا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعث له مَلَكاً على فَرَس، فأرشَدَه إلى الطَريقِ، فالله أعلم. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾، أي: أخذ طريقاً سَالِكاً مَهيعاً فَرِح بذلك، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: إلى الطريق الأقْوَم، فَفعل الله به ذلك، وهَدَاه إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة، فَجعله هادياً مَهدِيّاً. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾، أي: ولما وصل إلى مَدْيَن وَوَرَد ماءَها، وكان لها بئر تَرِدُه رِعَاء الشاءِ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾، أي: جماعةً ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أي: تُكَفكِفَان غَنَمَهما أن تَرِد مع غَنَم أولئك الرِّعاءِ لئلا يُؤذَيَا. فلما رآهما موسى ـ عليه السلام ـ رَقَّ لهما ورَحِمَهُما، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾، أي: ما خَبَرُكما لا تَرِدَانِ مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، أي: لا يحصلُ لنا سَقْيٌ إلا بعد فَرَاغِ هؤلاء، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فهذا الحال المُلجِىءُ لنا إلى ما تَرَى. قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

قال أبو بكر بنُ أبي شَيْبَةَ: حدثنا عُبَيد الله، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن عَمْرو بن مَيمونٍ الأَوْدِيّ، عن عُمَر بن الخَطَّاب ـ رَضِي الله عنه ـ أن مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ لما وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ، وَجدَ عليه أُمَّةً من الناسِ يَسقُون، قال: فلما فرغوا أعادُوا الصخرة على البئرِ، ولا يُطيقُ رفعَها إلا عَشَرَةُ رجالٍ، فإذا هو بامرأتين تَذُودَانِ، قال: ما خَطْبُكُمَا؟ فَحدَّثَتَاه، فَأَتى الحجر فَرَفَعه، ثم لم يَسْتَقِ إلا ذنوباً واحداً حتى رَوِيَتِ الغَنَمُ. إسناد صحيح.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، قال ابنُ عباسٍ: سار مُوسَى من مِصرَ إلى مَدْيَن، ليس له طعامٌ إلا البقلُ وَورَقُ الشَّجرِ، وكان حافياً فما وصل إلى مَدْيَنَ حتى سَقَطت نعلُ قَدَمِهِ. وَجَلَس في الظِّل وهو صَفْوَةُ الله من خَلْقِهِ، وإن بطنه لاصقٌ بظهره من الجوع، وإن خُضرَةَ البَقْلِ لَتُرى من داخلِ جَوفِهِ، وإنه لمحتاجٌ إلى شِقِّ تَمرةٍ. وقولُه: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾، قال ابنُ عباس، وابنُ مسعودٍ، والسُدِّي: جَلَس تحت ظِلِّ شَجَرَةٍ. وقال ابنُ جرير: حدثني الحُسَين بن عمرو العَنْقَزِيُّ، حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن عَمرو بن مَيمُون، عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعُودٍ ـ قال: حَثَثْتُ على جَمَلٍ ليلَتَين، حَتَّى صَبَّحت مَدْيَنَ، فسألتُ عن الشَّجَرَةِ التي أَوَى إليها مُوسَى، فإذا شجرةٌ خضراءُ تَرِفُّ، فأهوَى إليها جَمَلي ـ وكان جائعاً ـ فأخذها جملي فعالَجها ساعةً، ثم لفظها. فدعوتُ الله لموسَى ـ عليه السلام ـ ثم انصرفتُ[1]. وفي رِوَايَةٍ عن ابن مَسعُودٍ: أنه ذَهَب إلى الشجرة التي كَلَّم الله منها موسى، كما سيأتي، والله

(١) موقوف ضعيف. الحسين بن عمرو، قال عنه أبو زرعة: كان لا يصدق. وفيه عنعنة أبي إسحق، وهو مدلس.

أعلم. وقال السُّدِّي: كانت من شجر السَّمُر. وقال عطاءُ بنُ السائِبِ: لما قال مُوسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أَسْمَعَ المرأةَ.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما رَجَعتِ المرأتان سَرِيعاً بالغَنَم إلى أبيهما أنكر حَالَهما ومَجيئَهما سَريعاً، فسَألهما عن خبرهما، فقصَّتا عليه ما فَعَل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لِتدعُوَه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، أي: مَشْيَ الحَرائر، كما رُوي عن أمير المؤمنين عُمَر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: جاءت مُسْتَتِرَةً بِكُمِّ دِرْعِها[1].

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا أبو نُعيم، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن عمرو بن ميمون قال: قال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ جاءَتْ تَمشي على استحياءٍ، قائِلَةً بِثَوبها على وَجْهِها، ليست بِسَلْفَعٍ من النساء، خَرَّاجَةٍ وَلَّاجَةٍ، هذا إسناد صحيح. قال الجَوهَرِيُّ: السَّلْفَعُ من الرجال: الجَسُورُ. ومن النساء: الجَرِيئة السَّلِيطَةُ، وَمِنَ النوقِ: الشديدَةُ. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وهذا تأدُّبٌ في العبارة، لم تطلُبه طَلَباً مُطلَقاً لئلا يُوهِمَ رِيبةً، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، يعني: لِيُثِيبك ويُكافِئك على سَقْيِك لِغَنَمِنا. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾، أي: ذَكَر له ما كان من أمره، وما جَرَى له من السبب الذي خَرَج من أجله من بلده، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يقول: طِب نفساً وقَرَّ عيناً، فقد خرجتَ من مَمْلَكَتِهم فلا حُكْم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقد اختلف المفسِّرون في هذا الرجل: مَن هُو؟ على أقوالٍ: أحدها أنه شُعَيبٌ النبيُّ ـ عليه السلام ـ الذي أُرسِلَ إلى أهل مدين. وهذا هو المشهورُ عند كثيرين، وقد قاله الحَسَنُ البَصريَ وغير واحد. ورواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عبد العزيز الأُوَيسِيُّ، حدثنا مالك ابن أَنَس: أنه بلغه أن شُعَيباً هو الذي قَصَّ عليه موسى القَصَصَ، قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[٥١٠٧] وقد روى الطَّبَراني عن سَلَمة بن سعدِ العَنَزيّ أنه وَفَد على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال له: مرحباً بقوم شُعَيب وأَختانِ مُوسَى، هُدِيت[2]. وقال آخرون: بل كان ابن أخي شُعَيب. وقيل: رَجُلٌ مؤمن من قوم شُعَيب. وقال آخرون: كان شُعَيب قبل زمان موسى ـ عليه السلام ـ بِمُدَّة طويلة، لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾. وقد كان هلاكُ قومِ لُوطٍ في زمن الخليل ـ عليه السلام ـ بنص القرآن، وقد عُلِم أنه

(١) درع المرأة: قميصها ـ والمِدْرعة: ثوب لا يكون إلا من صوف.

(٢) ضعيف. أخرجه البزار ٢٨٢٨ والطبراني ٦٣٦٤ من حديث سلمة بن سعد، وإسناده ضعيف، قال في «المجمع» ٦٥٩٠: فيه من لم أعرفهم، وكذا قال الحافظ في «الإصابة» ٢/ ٦٥.

كان بين موسى والخليل - عليهما السلام - مدّةٌ طويلة تزيد على أربعمئة سَنَةٍ، كما ذكره غيرُ واحدٍ. وما قيل: إنَّ شُعَيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احترازٌ من هذا الإشكال. ثم من المُقوّي لكونه ليس بِشُعَيبٍ أنه لو كان إيّاه لأوشَك أن يُنَصَّ على اسمه في القرآن هاهنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قِصَّة موسى، لم يَصِحَّ إسناده[١]، كما سنذكره قريباً إن شاء الله. ثُمَّ من الموجود في كتب بني إسرائيل أَنَّ هذا الرجلَ اسمُه يثرون. والله أعلَمُ. وقال أبو عُبَيدة بنُ عبدِ الله بن مَسْعُودٍ: ويثرون هو ابنُ أخي شُعَيب عليه السلام. وعن أبي حمزة، عن ابن عباس: الذي استأجر مُوسَى يَثْرَى صاحبُ مدْيَنَ. رَوَاه ابنُ جَرير، ثم قال: الصوابُ أَنَّ هذا لا يُدرك إلاَّ بِخَبَرٍ، وَلاَ خَبَر تَجبُ به الحُجَّةُ في ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾، أي: قالت إحدى ابنتَيْ هذا الرجلِ. قيل: هي التي ذَهَبت وَرَاء موسى - عليه السلام - قالت لأبيها: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، أي: لِرِعْيَةِ هذه الغَنَم. قال عمر، وابنُ عباس، وشُرَيح القاضي، وأبو مَالِكٍ، وقتادَةُ، ومُحمَّد بن إسحَاقَ، وغيرُ واحد: لما قالتَ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، قال لها أبوها: وما عِلمُكِ بذلك؟ قالت: إنه رَفَع الصَّخرَةَ التي لا يُطِيق حَمْلَها إلاَ عَشَرَةُ رجالٍ، وإنه لما جئتُ مَعَه تقدمتُ أمامه، فقال لي: كُوني من وَرَائي، فإذا اخْتَلَفتِ الطريقُ فاحذِفي بحصَاةٍ أعلَمُ بها كيفَ الطريقُ لأهتدي إليه. قال سُفيان الثَّورِيُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي عُبَيدَةَ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: أفرسُ الناسِ ثلاثةٌ: أبو بكر حين تَفَرَّس في عُمَر، وصاحب يوسُفَ حين قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، وصاحِبَةُ مُوسَى حينَ قالت: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. قال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾، أي: طَلَب إليه هذا الرجلُ الشيخُ الكبيرُ أن يرعَى غنمه، ويُزَوِّجه إحدى ابنتَيه هاتَين. قال شُعَيب الجَبَئِيُّ: وهما صَفُورا، وَلَيَّا. وقال محمد بن إسحاق: صفورا وشَرَفا، ويقال: لَيَّا. وقد استدلَّ أصحابُ أبي حَنِيفة بهذه الآية على صِحَّة البيع فيما إذا قال: بعتُكَ أَحَدَ هذين العبدين بمئةٍ. فقال: اشتريتُ. أنه يَصِحُّ، والله أعلم.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ﴾، أي: على أن تَرْعَى غنمي ثماني سنين، فإن تَبَرَّعت بزيادةِ سَنَتَين فهو إليكَ، وَإلاَّ ففي ثمانٍ كفايةٌ، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، أي: لا أشاقك، ولا أُوذيك، ولا أُمَارِيكَ. وقد استدلُّوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعيِّ، فيما إذا قال: بعتُكَ هذا بِعَشرةٍ نقداً، أو بعشرين نَسِيئَةً، أنه يصحُّ، ويختار المشتري بأيهما أَخذه صَحَّ.

[٥١٠٨] وحُملَ الحديثُ المروي في سُنَن أبي داودَ: «من باع بَيعتَينِ في بَيْعَةٍ فَلَه أوكَسُهما أو الرِّبا»[٢]. على هذا المذهب. وفي الاستدلالِ بهذه الآيةِ وهذا الحديثِ على هذا المذهبِ نظرٌ، ليس هذا موضعَ بَسْطِهِ لِطُولِه. والله أعلم.

ثم قد استدلَّ أصحابُ الإمامِ أحمدَ ومن تبعهم، في صِحّةِ استئجار الأجير بالطُّعمة والكُسوة بهذه الآية. واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد ابنُ ماجه في كتابه السنَن، حيث قال:

---

(١) سيأتي بعد قليل إن شاء الله.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٣٤٦١ والحاكم ٢/ ٤٥ وابن حبان ٤٩٧٤ والبيهقي ٣/ ٣٤٣ من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن من أجل محمد بن عمرو، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

[٥١٠٩] باب استئجار الأجير عَلَى طعام بَطْنِه: حدثنا محمد بن المُصَفَّى الحِمْصِيّ، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، عن مَسْلَمَة بن علي، عن سعيد بن أبي أيُّوبَ، عن الحارث بن يزيدَ، عن علي بن رَبَاح قال: سمعت عُتبةَ بن النُّدَّرِ يقولُ: كنَّا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقرأ: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾، حتى إذا بَلغ قصَّة موسى قال: «إن موسى آجَرَ نفسَه ثماني سنين ـ أو: عشر سنين ـ على عِفَّةِ فَرْجِهِ وطَعَام بَطْنِه»[١]. وهذا الحديثُ من هذا الوجه ضعيف؛ لأنَّ مَسْلَمَة بنَ علي ـ وهو الخُشني الدِّمشقي البِلاَطِيُّ ـ ضعيفُ الرواية عند الأئمة، ولكن قد رُوِي من وجه آخر، وفيه نَظَر أيضاً.

[٥١١٠] فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكير، حدثني ابن لَهيعَة ـ وحدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا صَفوانُ، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعَةَ ـ عن الحارث بن يزيدَ الحَضْرَميِّ، عن علي بن رَبَاح اللَّخمِيِّ قال: سمعت عُتبةَ بن النُّدَّر السلَمِيَّ ـ صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ يُحدِّث أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ مُوسَى آجر نَفْسَه بعفَّة فَرْجه، وطُعْمَة بَطْنِه»[٢]. وقولُه تعالى إخباراً عن مُوسَى عليه السلام: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٢٨﴾، يقول: إنَّ موسى قال لِصِهره: الأمرُ على ما قلتَ من أنكَ استأجرتَني على ثمانِ سنين، فإن أتممتُ عشراً فمن عِنْدِي، فأنا متى فعلتُ أقلَّهما فقد بَرِئت من العهد، وخرجتُ من الشَّرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾، أي: فلا حَرَج عليَّ مع أن الكامل ـ وإن كان مُباحاً لكنه فاضلٌ من جهة أخرى بدليل من خارج، كما قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

[٥١١١] وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لحمزةَ بن عَمرو الأسلمِي رضي الله عنه، وكان كثير الصيام، وسَأَله عن الصوم في السَّفر ـ فقال: «إن شئتَ فَصُم، وإن شئت فَأَفطِر»[٣]، مع أنَّ فعل الصيام راجحٌ من دليلٍ آخَرَ. هذا وقد دَلَّ على أن مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ إنما فعل أكمَلَ الأجلين وأَتمَّهما.

قال البُخَارِيُّ: حَدَّثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سَعِيدُ بن سُلَيمان، حدثنا مَرْوان بن شُجاع، عن سالم الأفطَس، عن سعيد بن جُبَير قال: سألني يَهُوديٌّ من أهل الحيرة: أَيَّ الأجلين قَضَى موسى؟ فقلت: لا أدرِي حتى أَقدَمَ على حَبْر العَرَب فأسأَله. فَقَدِمتُ فسألتُ ابنَ عباس ـ رضِي الله عنه ـ فقال: قَضَى أكثرَهما وأطيبهما، إنَّ رسولَ الله إذا قال فَعَل. هكذا رواه البخاري، وهكذا رواه حَكِيم بن جُبَير وغيرُه، عن سَعِيد بن جُبَير. ووقَعَ في «حَديث الفُتُون»[٤]، من رواية القاسم بن أبي أيُوبِ، عن سَعِيد بن جُبَير: أن الذي سأله رَجلٌ من أهل النصرانيَّة. والأولُ أشبهُ. والله أعلم. وقد رُوِي من حديثِ ابن عَبَّاسٍ مَرفُوعاً.

[٥١١٢] قال ابن جَرير: حدثنا أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سُفيانُ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يَعقُوبَ، عن الحكم بن أَبَانَ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عَبَّاسٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

---

(١) أخرجه ابن ماجة ٢٤٤٤، وإسناده ضعيف جداً، له علتان: بقية بن الوليد مدلس، وقد عنعن، ومسلمة بن علي الخشني، متروك الحديث روى مناكيره كثيرة، راجع الميزان.

(٢) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٩٤٢ و١٩٤٣ ومسلم ١١٢١ وأبو داود ٢٤٠٢ والترمذي ٧١١ والنسائي ٤/١٨٧ ـ ١٨٨ وابن ماجه ١٦٦٢ وأحمد ٦/٤٦ و١٩٣ وابن حبان ٣٥٦٠ من حديث عائشة.

(٤) تقدم في سورة طه.

«سألتُ جبريلَ: أيَّ الأجلَينِ قَضَى موسى؟ قال: أتَمَّهُمَا وأكْمَلَهُمَا[١]. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الحُمَيدي، عن سُفيانَ ـ وهو ابن عُيينَةَ ـ حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ـ وكان من أسناني أو أصغرَ مني، فذكره. قلت: وإبراهيمُ هذا ليس بمعروف. ورواه البَزَّارُ عن أحمدَ بن أبانَ القُرَشيِّ، عن سُفيانَ بن عُيينَةَ، عن إبراهيم بن أعينَ، عن الحكم بن أَبَانَ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عَبَّاسٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره. ثم قال: لا نعرِفهُ مرفوعاً عن ابن عَبَّاسٍ إلا من هذا الوجه.

[٥١١٢م] وقال ابن أبي حاتم: قُرِىءَ على يُونُسَ بن عبد الأعلى، أنبأنا ابنُ وَهبٍ، أنبأنا عَمرو بن الحارث، عن يحيى بن مَيْمُونٍ الحَضرَميِّ، عن يوسف بن سَرْحٍ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ سُئل: أيَّ الأجلين قَضَى مُوسَى؟ قال: لا عِلْمَ لي. فَسَأَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ جبريلَ، فَقال: لا عِلْمَ لي. فسأل جبْريلُ مَلَكاً فوقَه فقال: لا عِلْمَ لي. فَسَأَل ذلك المَلَك ربَّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ عما سأله عنه جِبْريلُ عَمّا سأله عنه مُحمَّدٌ ـ ﷺ ـ فقال الربُّ ـ سبحانه وتعالى: أَبَرُّهما وأبقاهُما. أو قال: أزكاهُما[٢]. وهذا مُرسَلٌ. وقد جاء مُرسَلاً من وجه آخر.

[٥١١٣] فقال سُنَيد: حدثنا حَجَّاجٌ، عن ابن جُرَيج قال: قال مجاهدٌ: إنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ سأل جبْريلَ: أيَّ الأجلين قَضَى مُوسَى؟ فقال: سَوفَ أسألُ إسرافيلَ. فسأله فقال: سَوْفَ أسأل الربَّ عَزَّ وجَلَّ. فسأله فقال: أَبَرُّهما وأوفاهما[٣].

[٥١١٤] طريقٌ أخرى مُرسَلة أيضاً، قال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ وكيع، حَدَّثنا أبي، حدثنا أبو مَعْشَر، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ: أيَّ الأجلين قَضَى موسى؟ قال: أوفاهما وأَتَمهما[٤]. فهذه طُرُق مُتَعاضدةٌ، ثم قد رُوِي هذا مرفوعاً من رواية أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ.

[٥١١٥] قال الحافظُ أبو بكر البزَّارُ: حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن مُحمَّد بن السَّكَن، حدثنا إسحاق ابن إدريسَ، حدثنا عَوْبَدُ بن أبي عمران الجَوْنيّ، عن أبيه، عن عبد الله بن الصَّامت، عن أبي ذَرٍّ: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ سُئِل: أيَّ الأجلين قَضَى مُوسَى؟ قال: أوفَاهُمَا وأبرَّهما. قال: وإن سُئِلتَ أيَّ المرأتين تَزَوَّج؟ فَقُل:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧٤٠٩، وهو ضعيف لأجل إبراهيم بن يحيىٰ، وهو مجهول. وبهذا الإسناد أخرجه الحميدي ٥٣٥ وأبو يعلىٰ ٢٤٠٨ لكن سقط من إسناد أبي يعلىٰ «إبراهيم بن يحيىٰ» فحسنه الشيخ سليم أسد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٥٠: رجال أبي يعلىٰ رجال الصحيح غير الحكم بن أبان، وهو ثقة اهـ وهذا منهما جرياً على ظاهره. وأخرجه البزار ٢٢٤٥ وفيه ذكر إبراهيم هذا. وكذا عند الحاكم ٢/٤٠٧ لكن قال: عن حفص بن عمر العدني وإبراهيم بن يحيى كلاهما عن الحكم به، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: حفص واهٍ وإبراهيم لا يعرف. اهـ وتابعهما إبراهيم بن أعين وهو ضعيف كما في «الميزان» (٤٥).

وورد من حديث أبي ذر أخرجه الطبراني في «الصغير» ٨١٥ والبزار ٢٢٤٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٥٢: إسناد البزار، فيه إسحق بن إدريس، وهو متروك. وإسناد الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» حسن اهـ قلت: بل في إسناد الطبراني عويد الجوني، وهو متروك. وورد مرسلاً كما سيأتي، فلعل الحديث يتقوى بمجموع طرقه وشواهده، والله أعلم، وانظر «الصحيحة» ١٨٨٠.

(٢) إسناده ضعيف، فهو مرسل، ومرسله مجهول.

(٣) ضعيف جداً. فهو مرسل، وسُنيد ضعيف، وابن جريج عن مجاهد منقطع.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٧٤٠٨ مرسلاً. ، والمرسل من قسم الضعيف، وابن وكيع ضعيف، وأبو معشر ضعفه غير واحد. وبعضه شاهد لما تقدم، وبعضه الآخر غريب، وانظر ما بعده.

الصغرَى مِنهُما[١]. ثم قال البزّارُ: لا نعلم يُروَى عن أبي ذَرٍّ إلاَّ بهذا الإسنادِ. وقد رَوَاه ابنُ أبي حاتم من حديث عَوْبَدِ بن أبي عِمْران، وهو ضَعِيفٌ، وَقَد رُوِي أيضاً نحوُه من حديثِ عُتْبَةَ بن النُّذرِ بزيادةٍ غريبة جداً.

[٥١١٦] فقال أبو بكر البَزّار: حدثنا عمر بن الخطاب السِّجِسْتَاني، حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا الحارثُ بن يزيدَ، عن علي بن رَبَاح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّذرِ يقولُ: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ سُئِلَ: أيَّ الأجلين قَضَى مُوسَى؟ قال: أبَرهما وأوفاهُما. ثم قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: إن مُوسى ـ عليه السلام ـ لما أرادَ فِرَاق شُعَيب ـ عليه السلام ـ أمر امرأته أن تسأل أباها أن يُعطِيهَا من غَنَمه ما يعِيشون به. فأعطاها ما وَلَدت غَنَمُه في ذلك العام من قَالب لَونٍ. قال: فما مَرَّت شاةٌ إلا ضَرَب مُوسَى جَنْبَها بعَصَاه فولدت قَوَالبَ ألوانٍ كُلّها، وولدت ثنتين وثلاثاً، كلُّ شاة ليس فيها فَشُوش، ولا ضَبُوبٌ، ولا كَمْشَةٌ تُفَوِّت الكف، ولا ثَعُولٍ. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إذَا افتتحتُم الشامَ فإنكم سَتَجِدُون بقايا منها، وهي السَّامِرِيَّةُ[٢]. هكذا أورده البَزّار. وقد رَوَاه ابن أبي حاتم بأبسَطَ من هذا، فقال:

[٥١١٧] حدَّثنا أبو زرعة، حدَّثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير، حدثني عبد الله بن لَهيعَةَ (ح) وحدَّثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صَفوانُ، حدثنا الوَلِيدُ، حدثنا عبد الله بن لَهيعَةَ، عن الحارث بن يزيدَ الحَضْرَميّ، عن عَليِّ بن رَباحِ اللَّخميِّ قال: سَمِعتُ عتبةَ بن النُّذر السلَمِيَّ ـ صاحبَ رسول الله ـ ﷺ ـ يُحَدِّثُ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ آجر نَفْسَه بعِفَّةِ فَرْجِه وطَعمَةِ بَطْنِهِ. فلما وَفَى الأجل قيل: يا رسولَ الله، أيَّ الأجلين؟ قال: أبَرَّهما وأوفَاهُما. فلما أراد فِرَاقَ شُعَيب أَمَرَ امرأته أن تسأل أباها أن يُعطِيها من غَنَمِهِ ما يَعِيشُونَ به، فأعطاها ما ولَدت من غَنَمه من قَالِب لونٍ من وَلَدِ ذلك العام، وكانت غَنَمُه سَوْدَاءَ حسناءَ. فانطلق موسى ـ عليه السلام ـ إلى عصاه فَسَمَّاها من طَرَفها، ثم وَضَعَها في أدنى الحوض، ثم أوردها فَسَقَاها، ووقف موسى بإزاءِ الحَوضِ فلم تَصدُر منها شاةٌ إلا ضَربَ جَنبها شاةً شاةً: قال: فَأَتمَتْ وأَتْأَمَتْ، وَوَضَعت كُلُّها قَوَالبَ أَلْوَانٍ، إلا شاةً أو شَاتَين، ليس فيها فَشُوشٌ. قال يحيى: ولا ضَنُوب. وقال صَفْوَانُ: ولا ضَبُوبٌ ـ قال أبو زُرعَةَ: الصوابُ طَنُوبٌ ـ ولا عَزُوزٌ ولا ثعُولٌ ولا كَمْشَةٌ تُفَوِّت الكفَّ. قال النبي ـ ﷺ ـ: لو افتتحتُم الشامَ وجدتُم بقايا تلك الغَنَم، وهي السَّامِرِيَّةُ[٣].

وحدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صَفْوَانُ قال: سَمِعتُ الوَلِيدَ قال: فسألتُ ابنَ لَهِيعَةَ: ما الفَشُوشُ؟ قال: التي تَفُشّ بِلَبِنِها واسعة الشَّخب. قلت: فما الطَّنُوب؟ قال: الطويلة الضرع تَجرُه. قلت: فما العَزُوز؟ قال: ضَيِّقةِ الشَّخْبِ. قلت: فمَا الثَّعُول؟ قال: التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حَلَمتَين. قلت: فما الكَمْشَةُ؟ قال: التي تُفَوّت الكَفَّ، كَمْشَةُ الضَّرْع، صغيرٌ لا يُدرِكُه الكَفُّ. مدارُ هذا الحديثِ على عبد الله بن لَهيعة المصري ـ وفي حِفْظِه سُوءٌ ـ وأخشى أن يكون رفعُه خطأً، والله أعلم. وينبغي أن يُرْوَى: ليس فيها فَشُوشٌ ولا عَزُوزٌ، ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ، ولا كَمْشَةٌ، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة. وقد رَوَى ابن جرير من كلام أنس بن مالك ـ موقوفاً عليه ـ ما يقارب بعضه بإسنادٍ جيدٍ، فقال: حدثنا محمد بن المُثَنَّى،

---

(١) إسناده ضعيف جداً، أخرجه البزار ٢٢٤٤ وفيه إسحق بن إدريس، وهو متروك. وشيخه «عويد الجوني» متروك أيضاً، وقد تفردا بذكر «الصغرى منهما» وأما أصل الحديث فله شواهد وطرق كما تقدم.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه البزار ٢٢٤٦ والطبراني ١٧/ ١٣٤ ـ ١٣٥ وفيه ابن لهيعة، وقد تفرد بهذا الزيادة، وهي غريبة جداً ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ. وأما صدره فله شواهد كما تقدم.

(٣) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة، وقد تفرد فيه بألفاظ منكرة، والظاهر أنه رواه بعد اختلاطه، وعجزه باطل شبه موضوع.

حدثنا معاذُ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادةَ، حدثنا أنس بن مالك قال: لما دَعَا نبيُّ الله مُوسَى ـ عليه السلامَ ـ صاحِبَه إلى الأجل الذي كان بَينَهُما، قال له صاحبه: كلُّ شاةٍ وَلَدت على غير لونها فَلَك وَلَدُها. فَعَمد فَرَفع خيالاً على الماء، فلما رأتِ الخَيَالِ فَزَعت فَجالت جَولةً، فَولدن كُلُهن بُلقاً إلا شاةً واحدةً، فذهب بأولادهنَّ ذلك العام.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قد تَقَدَّم في تفسير الآية قبلها أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ قَضى أتمَّ الأجلين وأوْفاهما وأبرَّهما وأكملَهُما وَأنْقاهما، وقد يُستَفادُ هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾، أي: الأكملَ منهما، والله أعلم. وقال ابنُ أبي نَجِيح، عن مُجاهدٍ: قضى عشر سنين، وبعدها عَشراً أُخرى. وهذا القولُ لم أرَه لغيره، وقد حكاه عنه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، والله أعلم. وقولُه: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، قالوا: كان مُوسى قد اشتاقَ إلى بلادِهِ وأهلِه، فَعزم على زيارتهم في خِفْيَةٍ من فِرعَونَ وقومِه، فَتحمَّل بأهله وما كان معه من الغَنَم التي وَهَبها له صِهرُه، فسلك بهم في ليلة مَطيرة مُظلِمةٍ بارِدَةٍ، فنزل منزلاً، فَجَعلَ كلما أورى زَنْده لا يُضِيءُ شيئاً، فَتَعجَّب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، أي: رأى ناراً تُضِيء له على بُعدٍ، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: حتى أذهب إليها، ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾. وذلك لأنه كان قد أضلَّ الطريق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: قِطْعَةٍ منها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: تتدفّئون بها من البرد. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحيةِ الغَرْب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، فهذا مما يُرشد إلى أن مُوسَى قَصَد النار إلى جِهَةِ القبلة، والجبلُ الغربي عن يمينه، والنارُ وجدَها تضطرم في شجرة خضراء في لِحْفِ الجبل مما يلي الوادي، فَوَقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه: ﴿مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

قال ابنُ جَريرٍ: حَدَّثنا ابنُ وكيعٍ، حدثنا أبو مُعَاوِيةَ، عن الأعمش، عن عَمرو بن مُرَّة، عن أبي عُبَيدةَ، عن عبد الله قال: رأيتُ الشجرة التي نُودِي منها موسى ـ عليه السلام ـ سَمُرَةً خضراء تَرِفّ. إسنادٌ مقارِب[١].

وقال مُحَمَّد بن إسحاق، عن بعض مَن لاَ يتَّهم، عن وَهب بنُ مَنبِّه قال: شجرة من العُلّيقِ، وبعض أهل الكتاب يقول: من العَوسَجِ. وقال قتادة: هي من العَوسَجِ، وعَصَاه من العَوسَجِ.

وقولُه تعالى: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، أي: الذي يُخاطِبُك ويُكلِّمك هو ربُّ العالمين،

---

(١) بل ضعيف. له علل ثلاث، الأولى: سفيان بن وكيع ضعفه غير واحد. والثانية: أبو عبيدة لم يدرك أباه عبد الله بن مسعود، والثالثة: الأعمش مدلس وقد عنعن، والخبر شبه موضوع.

الفعّالُ لما يَشاءُ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه، تعالَى وتَقدَّس وتَنزَّه عن مُماثلة المخلوقاتِ في ذاته، وصفاتِه، وأقوالِه وأفعالِه، سُبحانَه!.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي: الّتي في يَدِكَ. كما قرَّره على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾. والمعنى: أما هذه عَصَاك التي تَعرِفُها؟ ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٠]، فَعَرف وتَحقَّق أن الذي يُخاطبه ويُكلِّمه هو الذي يقولُ للشيءِ: كُن، فيكونُ. كما تَقدَّم بيان ذَلِك في «سورة طه». وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: أي: في حركتها السريعة مع عِظَم خِلْقَتِهَا وقوائمها واتِّساع فَمِها، واصطِكاكِ أنيابها وأضراسِهَا، بحيثُ لا تَمرُّ بصخرةٍ إلا ابتلعتَها، فَتَنحدِرُ في فيها تَتقعقَعُ، كأنها حادرة في وادٍ. فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: ولم يكن يَلتفِتُ، لأن طَبْعَ البَشريَّة ينفِرُ من ذلك. فلما قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾، رَجَع فوقَف في مقامِه الأوَّلَ، ثم قال الله له: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾. أي: إذا أدخلتَ يَدَكَ في جيب دِرْعِك ثُمَّ أخرجتَها فإنها تخرُج تتلألأ، كأنها قِطعةُ قَمرٍ في لَمعان البرقِ. ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير بَرَصٍ.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، قال مجاهد: من الفَزَع. وقال قتادةُ: من الرُّعب. وقال عبد الرحمن بن زَيدِ بن أسلَمَ وابنُ جَريرٍ: مما حَصَل لك من خَوفِكَ من الحَيَّة. والظاهر أنَّ المرادَ أعمُّ من هذا، وهو أنه أُمِر ـ عليه السلام ـ إذا خافَ من شيءٍ أن يَضمَّ إليه جناحَه، وهي يَدُه، فإذا فعل ذلك ذَهَب عنه ما يَجدُه من الخَوف. ورُبَّما إذا استعملَ أحد ذلك على سبيل الاقتداء فَوَضَع يده على فُؤاده، فإنه يزول عنه ما يَجِدُ أو يخافُ، إن شاء الله، وبه الثقة.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثَنا الربيع بن ثَعلَبٍ الشيخُ الصالحُ، أخبرنا أبو إسماعيلَ المؤدِّبُ، عن عبد الله بن مُسلِم، عن مجاهدٍ، قال: كان مُوسَى ـ عليه السلام ـ قد مُلِيءَ قلبُهُ رعباً من فِرْعَونَ، فكان إذا رآه قال: اللهُمَّ، إني أَدْرأُ بك في نحره، وأعوذُ بك من شَرِّه. فَفَرَّغ الله ما كان في قلبِ موسى ـ عليه السلام ـ وجَعَله في قَلبِ فِرْعَون، فكان إذا رآه بَالَ كما يبولُ الحِمَارُ.

وقولُه تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، يعني إلقاءَه العَصَا وجَعْلها حَيَّةً تسعَى، وإدخاله يَدَه في جَيبِه فَتَخرجُ بيضاءَ من غير سُوء ـ دَليلان قاطعان واضحان على قُدرة الفاعلِ المختار، وصحة نُبوَّة مَن جَرَى هذا الخارقُ على يَدَيه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، أي: وَقَومِهِ من الرؤساء والكُبَراء والأَتباعِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: خَارجين عن طاعةِ الله، مُخَالِفين لدينِ الله. والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾

لما أمره الله ـ تعالى ـ بالذَّهاب إلى فِرعَونَ، الذي إنما خَرَج من ديار مصر فِراراً منه وخَوفاً من سَطوتِهِ، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾، يعني ذلك القبطيّ، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، أي: إذا رَأَوني. ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، وذلك أن مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ كان في لسانه لُثغَةٌ بسبب ما كانَ تناوَلَ تلك الجَمْرَة، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدُّرَّة، فأخذ الجمرة فوضَعها على لِسانه، فَحَصل فيه شدة في التعبير، ولهذا

قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٧ ـ ٣٢]، أي: يُؤنِسني فيما أمرتني به من هذا المقَام العَظِيم، وهو القيامُ بأعباءِ النبوّةِ والرسالةِ إلى هذا الملك المتكبّر الجبَّارِ العَنِيد. ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾، أي: وزيراً معيناً ومُقوِّياً لأمري، ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ فيما أقوله وأُخبرُ به عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأن خَبرَ اثنين أنجعُ في النفوسِ من خَبَرِ الواحد، ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾، أي: يُبين لهم عني ما أُكَلِّمُهُم به، فإنه يفهم عني ما لا يَفهَمُون. فلما سأل ذلك قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، أي: سَنُقَوّي أمرك، ونُعِزُّ جانِبَكَ بأخيك، الذي سألت له أن يكون نَبِياً معك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣]، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحدٌ أعظمَ مِنَّةً على أخيه من موسى على هارونَ عليهما السلام، فإنه شَفَعَ فيه حتى جعَله الله نبياً ورسُولاً معه إلى فِرْعَونَ ومَلَئِه، ولهذا قال تعالى في حَقِّ موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، أي: حُجَّةً قاهرة، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ﴾، أي: لا سَبِيلَ لهم إلى الوُصُول إلى أذاكُما بِسبَبِ إبلاغِكُما آياتِ الله، كما قال الله تعالى لرسوله محمد ـ ﷺ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩]، أي: وكفى بالله ناصراً ومُعِيناً ومُؤيداً. ولهذا أخبرَهما أنَّ العاقِبَة لهما ولمن اتَّبعَهُما في الدنيا والآخرةِ، فقال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]. ووَجَّه ابنُ جرير على أن المعنى ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثم يَبتدِىءُ فيقولُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، تَقدِيرُهُ: أنتُما ومَنِ اتَّبعكُما الغالِبُونَ بآياتنا. ولا شك أن هذا المعنى صحيحٌ، وهو حاصلٌ من التوجيهِ الأولِ، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن مَجيءِ مُوسَى وأَخِيه هارونَ إلى فِرْعَونَ ومَلَئِهِ، وعَرْضِه ما آتاهما الله من المُعجزاتِ الباهرة والدَّلالاتِ القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من توحيده واتباع أوامره. فلما عاين فِرْعَونُ ومَلَؤهُ ذلك وشاهدُوه وتحقَّقُوه، وأيقنوا أنه من الله، عَدَلوا بكُفرهم وبغْيهم إلى العِناد والمباهَتَة، وذلك لِطُغيانهم وتَكبُّرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، أي: مُفتَعَلٌ مصنوعٌ وأرادوا مُعارضَته بالحيلة، فما صَعِد معهم ذلك.

وقولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعنُونَ عبادةَ الله وحدَه لا شَريكَ لَه، ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدِّين، ولَم نَرَ الناسَ إلا يُشرِكُون مع الله آلهةً أخرى. فقال مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ مُجيباً لهم:

﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾، يعني مني ومنكم، وسَيَفصِلُ بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، أي: النصرةُ والظفَرُ والتأييدُ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: المشرِكُون بالله.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن كُفرِ فِرعَوْنَ وطُغْيانِه وافترائِه في دَعْوى الإلهيَّةِ لنفسه القَبيحة ـ لَعنَه الله ـ كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤]. وذلك لأنه دَعاهم إلى الاعترافِ له بالإلهيَّة، فأجابوه إلى ذلك لقلَّةِ عُقولهم وسَخافَةِ أذهانهم، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، قال تعالى إخباراً عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٦]. يعني: أنه جَمَع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصرِّحاً لهم بذلك، فأجابوه سامِعينَ مُطِيعين. ولهذا انتقم اللهتعالى منه، فَجعله عِبرةً لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجَهَ موسَى الكليم بذلك فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقولُه: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، أي: أمر وزيره هامان ومدبر رَعِيَّته وعشيرَته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، يعني ليتَّخِذَ له آجُراً لبناءِ الصرح، وهو القصرُ المُنِيفُ الرفيعُ العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، وذلك لأن فِرعَونَ بَنَى هذا الصرحَ الذي لم يُرَ في الدنيا بناءٌ أعلَى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دَعوى إله غير فِرْعَون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، أي: في قوله إن ثَمَّ ربّاً غيري، لا أنه كذبه في أن الله أرسَلَه، لأنه لم يكن يعترفُ بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾. وهذا قولُ ابن جرير.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾، أي: طَغَوا وتجبَّروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدُوا أنه لا معادَ ولا قيامةَ، ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٣ ـ ١٤]. ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾، أي: أغرقناهُم في البحر في صَبيحةٍ واحدةٍ، فلم يبقَ منهم أحدٌ، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، المجرمين، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾، أي: لمن سَلَك وراءَهم وأخذ بطريقتهم، في تكذيب الرسُلِ وتعطيلِ الصانع، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: فاجتمعَ عليهم خِزيُ الدنيا موصولاً بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣]. وقولُه تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾، أي: وشَرَع الله لعنتهم ولعنَةَ مَلِكهم فِرعونَ على ألسنة المؤمنينَ من عباده المتَّبِعين رُسُله، وكما

أنهم في الدنيا مَلْعُونون على ألسنةِ الأنبياء وأتباعِهم، كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾. قال قتادةُ: وهذه الآية كقولِهِ تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٩].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يُخبر تعالى عما أنعَم به على عبدِه ورَسُولِه موسى الكَليم ـ عليه من ربّه الصلاةُ والتسليمُ ـ من إنزال التَّوراة عليه بعد ما أهلَك فِرعونَ ومَلأَه. وقولُه: ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾، يعني أنه بعدَ إنزالِ التَّوراةِ لم يُعذِّب أُمَّةً بعامةٍ، بل أمر المؤمنين أن يُقاتِلُوا أعداءَ الله من المشركين، كما قال: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ٩ ـ ١٠]. وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا ابنُ بَشّار، حَدَّثنا محمدُ وعبدُ الوهاب قالا: حَدَّثنا عوفٌ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد الخُدْري قال: ما أهلكَ الله قوماً بعذاب من السماءِ ولا من الأرض بعدما أُنزلت التوراة على وجه الأرض، غير أهل القَريةِ الذين مُسخوا قردة، ألم تر أن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ الآية. ورواهُ ابنُ أبي حاتم، من حديث عوف بن أبي جَميلَةَ الأعرابيِّ، بنحوه. وهكذا رواه أبو بكر البزَّارُ في مسنده، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد موقوفاً.

[٥١١٨] ثم رواه عن نصر بن علي، عن عبد الأعلى، عن عَوف، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سَعيد ـ رفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا مِنَ الأرض إلا قبل مُوسَى، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾[1]. وقولُه: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾، أي: من العَمَى والغَيّ، ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق، ﴿وَرَحْمَةً﴾، أي: إرشاداً إلى الأعمالِ الصالحة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لَعلَّ الناسَ يتذكَّرونَ به، ويهتَدون بِسَببِهِ.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً على بُرهانِ نُبوَّةِ محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ حيثُ أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سَامعه شاهدٌ ورَاءٍ لما تقدم، وهو رجلٌ أُمي لا يقرأ شيئاً من الكُتب، نشأ بين قوم لا يَعرفُون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مَريَمَ وما كان من أمرِها قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ

---

(١) الصحيح موقوف. أخرجه البزار ٢٢٤٧ و٢٢٤٨ موقوفاً ومرفوعاً، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٥٣: ورجالهما رجال الصحيح اهـ. قلت: تفرد برفعه عبد الأعلى بن عبد الأعلى، وهو وإن روى له الأئمة، فقد لينه ابن سعد وخالفه محمد وعبد الوهاب فروياه كما في تفسير الطبري ٢٧٤٦٠ عن عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد موقوفاً، وتابعهما على ذلك يحيى بن سعيد القطان، وهو أحفظ وأثبت من عبد الأعلى، فالصواب موقوف والمرفوع منكر باطل. والله أعلم.

يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] الآية، أي: ما كنتَ حاضِراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك. وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاءِ الله له وإغراقِ قومه. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩] الآية. وقال في آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ [هود: ١٠٠]، وقال بعد ذكر قِصة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢] الآية. وقال في سورة طه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾، وقال هاهنا بعد ما أخبَرَ عن قِصَّةِ موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداءُ إيحاءِ الله إليه وتكليمه له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾، يعني: يا محمدُ، ما كنتَ بجانب الجَبَل الغربي الذي كَلَّم الله مُوسَى من الشجرةِ التي هي شرقيَّةٌ على شاطىء الوادي، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحَى إليك ذلك، ليجعلهُ حُجَّة وبُرهاناً على قُرونٍ قد تطاوَلَ عهدُها، ونَسُوا حُجَج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياءِ المتقدِّمينَ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي: وما كنتُ مقيماً في أهلِ مَدْيَنَ تتلُو عليهم آياتنا، حين أخبرتَ عن نَبيِّها شُعَيبٍ، وما قال لقومِه، وما رَدُّوا عليه، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رَسُولاً. ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، قال أبو عبد الرحمن النسائي، في التفسير من سُنَنِهِ: أخبرنا علي بن حُجْر، أخبرنا عيسى ـ وهو ابن يُونُسَ ـ عن حَمْزَة الزيّات، عن الأعمش، عن علي بن مُدرِك، عن أبي زُرْعَة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، قال: «نُودوا: أنْ يا أمة محمد، أعطيتُكم قبل أن تسألوني، وَأجبتُكم قبل أن تَدْعُوني». وهكذا رواه ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتم، من حديث جَماعةٍ، عن حمزةَ ـ وهو ابنُ حَبيب الزيَّاتُ ـ عن الأعمش. ورواه ابنُ جَريرٍ من حديث وَكيع ويحيى بن عيسى، عن الأعمشِ، عن عليِّ بن مُدرِك، عن أبي زُرْعَةَ ـ وهو ابن عَمرو بن جرير ـ أنه قال ذلكَ من كلامِهِ، والله أعلم.

وقال مُقاتِلُ بن حَيَّانَ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أُمَتك في أصلابِ آبائِهم أن يُؤمِنُوا بِكَ إذا بُعِثْتَ. وقال قتادةُ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، مُوسَى. وهذا ـ والله أعلم ـ أشبهُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾، ثم أخبر هاهنا بصيغةٍ أُخرَى أخصَّ من ذلك، وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: ما كنتَ مشاهداً لشيءٍ من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرَك به، رحمةً منه بك وبالعبادِ بإرسالك إليهم، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلَّهم يهتدُون بما جئتهم به من الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، أي: وأرسلناك إليهم لِتقيم عليهم الحجة وَلِيَنْقَطِعَ عُذرهم إذا جاءهم عذابٌ من الله بكفرهم، فيحتجُّوا بأنه لم يأتهم رسول ولا نذيرٌ، كما قال تعالى بعد ذكرهِ إنزالَ كتابِهِ المباركِ وهو القرآن: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا

مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩]. والآيات في هذا كثيرة، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن القوم الذين لو عَذَّبهم قبلَ قِيام الحُجَّة عليهم لاحتجُّوا بأنهم لم يأتهم رسولٌ: أنَّهم لما جاءهم الحق من عنده على لسانِ محمد ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليه ـ قالوا على وجه التَّعنُّتِ والعِناد والكُفر والجَهل والإلحاد: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، يعنون ـ والله أعلمُ ـ من الآيات الكثيرةِ، مثل العصا واليد، والطوفانَ والجراد والقُمَّل والضفادع والدَّم، وتنقيصَ الزرُوع والثمار، مما يُضَيِّق على أعداء الله، وكَفَلْقِ البحر وتَظْلِيل الغمام، وإنزال المَنِّ والسَّلْوَى، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحُجج القاهرة، التي أجراها الله على يَدَي موسى ـ عليه السلام ـ حُجَّةً وبرهاناً له على فِرْعَون وَمَلَئِهِ وبني إسرائيل، ومع هذا كُلِّه لم ينجع في فِرْعونَ ومَلَئِه، بل كَفَرُوا بموسى وأخيه هَارُونَ، كما قالوا لهما: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون: ٤٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي: أو لم يكفر البَشَرُ بما أُوتيَ مُوسَى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا سَاحِرانِ تَظَاهَرا﴾[1]، أي: تعاونا، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾، أي: بِكُلٍّ منهما كافِرون وَلِشدَّةِ التلازُمِ والتصاحُبِ والمُقَارَنَةِ بين موسى وهارُون، دَلَّ ذِكرُ أحدِهما على الآخر، كما قال الشاعر:

فَـمَـا أدري إذَا يَـمَّـمْـتُ أرْضـاً ... أُريـدُ الـخَـيْـرَ أَيُّـهُـمَـا يَـلِـيـنـي

أي: فما أدري أَيَلِيني الخير أو الشر؟ قال مجاهدُ بن جَبر: أَمَرتِ اليهودُ قُرَيشاً أن يقولوا لمحمد ـ ﷺ ـ ذلك، فقال الله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرانِ تَظَاهَرا﴾، يعني مُوسى وهارُونَ عليهما السلام. ﴿تَظَٰهَرَا﴾، أي: تَعَاوَنَا وتَنَاصَرَا وصَدَّقَ كُلٌّ منهما الآخَرَ. وهكذا قال سعيدُ بنُ جُبَير وأبو رَزِين في قوله: ﴿سَاحِرانِ﴾، يعنون مُوسَى وهارُونَ. وهذا قول جَيِّدٌ قَوِيٌّ، والله أعلم. وقال مُسلِم بن يسار، عن ابن عباس ﴿قَالُوا سَاحِرانِ تَظَاهَرا﴾، يعني مُوسَى ومُحمَّداً ﷺ. وهذا روايةٌ عن الحَسَن البصريِّ. وقال الحسنُ وقتادةُ: يعني عيسى ومُحمَّداً ﷺ. وهذا فيه بُعدٌ، لأَنَّ عيسى لم يَجْرِ له ذكرٌ هاهُنا، والله أعلم.

وأما من قَرَأ ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، فقال علي بن أبي طلحة والعَوفيُّ، عن ابن عباس: يَعنُون التوراةَ والقرآن. وكذا قال عاصم الجَحْدَرِيّ، والسدِّيّ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، قال السدي: يعني صَدَّقَ كلُّ واحِدٍ مِنهُما الآخَرَ. وقال عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل. وهو رواية عن أبي زرعة، واختاره ابنُ جَرير. وقال الضحاكُ وقتادةُ: الإنجيلُ والقرآن. والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أعلم بالصواب. والظاهر على

(١) هذه قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، وقرأ الكوفيون من السبعة: «سِحْرانِ».

قراءة: ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون التوراة والقرآن، لأنه قال بعده ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، إلى أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾، إلى أن قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤ ـ ١٥٥]، وقالت الجنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال ورَقَةُ بنُ نوفل: هذا الناموسُ الذي أنزلَ على موسى. وقد عُلِم بالضرورة لِذَوِي الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزَل من الكُتُب المتعددة على أنبيائه أكمَلَ ولا أشمَلَ ولا أفصَحَ ولا أعظَمَ ولا أشرَفَ من الكتاب الذي أنزَل على محمد ـ ﷺ ـ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتابُ الذي أنزلَه على مُوسى بن عمران ـ عليه السلام ـ وهو التوراةُ التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيلُ إنما نَزَل مُتمِّماً للتوراةِ ومُحلاً لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: فيما تُدافِعُون به الحقَّ وتعارِضُون به من الباطلِ. قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾، أي: فإن لم يُجيبوك عما قلتَ لهم ولم يَتَّبعوا الحقَّ، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: بلا دليلٍ ولا حُجةٍ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بغير حُجَّةٍ مأخوذةٍ من كتابِ الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾، قال مجاهدٌ: فَصَّلنا لهم القولَ. وقال السدِّي: بَيَّنا لهم القولَ. وقال قتادةُ: يقول تعالى: أخبَرَهم كيفَ صَنَعَ بمن مَضى وكيف هو صَانِعٌ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال مجاهد وغيره: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾، يعني قُريشاً. وهذا هو الظاهرُ، لكن قال حمَّاد بن سَلَمة، عن عَمرو بن دِينارٍ، عن يحيى بن جَعْدَة، عن رِفَاعَةَ القُرَظِيِّ قال: نَزَلت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ في عَشرةٍ أنا أحدُهم. رواه ابنُ جَرِيرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ من حَديثه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يُخبر تعالى عن العُلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يُؤمِنُون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٣]. قال سعيد بن جُبَير: نزلت في سبعين من القِسِّيسين بَعَثهم النجاشي، فلما قَدِموا على النبي ـ ﷺ ـ قرأ عليهم: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلَموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾. يعني: من قبل هذا القرآنِ كُنَّا مُسلِمين. أي: مُوَحِّدين مخلصين لله مستجيبين له. قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾، أي: هؤلاء المُتَّصِفونَ بهذه الصِّفَة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بإيمانهم بالرسول الأول ثم الثاني. ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾، أي: على اتِّباعِ الحق؛ فإنَّ تَجَشُّمَ مثلِ هذا شديدٌ على النفوس.

[٥١١٩] وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي، عن أبي بُرْدَة، عن أبي مُوسَى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة يُؤتَونَ أجرَهم مَرَّتَين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمَنَ بي، وَعبْد مملوك أَدّى حَقَّ الله وَحقَّ مواليه، ورَجُل كانت له أَمَة فَأَدَّبها فأحسَنَ تأديبها، ثم أعتقها فَتَزوَّجها»(١).

[٥١٢٠] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا يحيى بنُ إسحاق السَّيلَحِيني، حدثنا ابن لَهيعَة، عن سُليمان بن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أُمامَة قال: إني لتحتَ رَاحلةِ رسول الله ـ ﷺ ـ يومَ الفتح، فقال قولاً حَسَناً جميلاً، وقال فيما قال: مَن أسلم من أهل الكتابين فله أجره مَرَّتَين، وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين، فله أجرُه، وله ما لنا، وعليه ما علينا(٢).

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أي لا يُقابلون على السيِّء بمثله، ولكن يَعفُون ويَصفَحُون. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ومن الذي رَزقهم من الحلال يُنفِقُون على خَلْقِ الله في النفقاتِ الواجبةِ لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضةِ والمستحبةِ من التطوعات، وصَدَقات النَّفْلِ والقُربْاتِ. وقولُه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾، أي: لا يُخالِطُون أهلَه ولا يُعاشِرُونَهم، بل كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: إذا سَفِه عليهم سَفِيهٌ، وكلَّمهم بما لا يَلِيقُ بهم الجوابُ عنه، أعرضُوا عنه ولم يُقابِلُوه بمثله من الكلام القَبِيح، ولا يَصدُر عنهم إلا كلامٌ طَيِّبٌ. ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: لا نُريد طَريقَ الجاهِلِينَ ولا نُحِبُّها.

قال محمدُ بن إسحاقَ في السِّيرة: ثُمَّ قَدِم على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو بمكَّةَ عِشرُونَ رَجُلاً. أو قريبٌ من ذلك، من النصارى، حين بلغَهم خَبَرُه من الحبشة. فوجدُوه في المسجدِ، فَجَلَسُوا إليه وكَلَّموه وساءلُوه ـ ورجال من قريشٍ في أنديتهم حولَ الكعبة ـ فلما فرغُوا من مساءلةِ رسولِ الله عما أرادوا دَعَاهُم إلى الله وتَلاَ عليهم القرآن، فلما سَمِعوا القرآن فاضت أعيُنهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصَدَّقُوه، وعرفوا منه ما كان يُوصَفُ لهم في كتابهم من أمره. فلما قامُوا عنه اعترضَهم أبو جهل بنُ هشام في نَفَرٍ من قريش، فقالوا لهم: خَيَّبَكُم الله مِنْ ركب! بَعَثكم مَنْ وراءكم مِن أهل دينكم ترتادُون لهم لتأتوهم بخبَرِ الرجل، فلم تَطمئِنَّ مجالسُكم عنده حتى فارقتُم دينكم وصدَّقتموه فيما قال! ما نعلم ركباً أحمقَ منكم! أو كما قالوا لهم. فقالوا: سلامٌ عليكم، لا نُجاهِلُكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَألُ أنفُسنا خَيراً. قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجرانَ، فالله أعلم أيُّ ذلك كان قال: ويقال ـ والله أعلم ـ إن فيهم نزلت هذه الآياتُ:

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٩٧ و٣٠١١ و٣٤٤٦ ومسلم ١٥٤ وأبو داود ٢٠٥٣ والترمذي ١١١٦ والنسائي ٦/ ١١٥ وابن ماجه ١٩٥٦ وأحمد ٤/ ٣٩٥ و٤٠٢ وابن حبان ٢٢٧.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ٢٥٩ والطبراني ٧٧٨٦ و٧٨٥٦. قال الهيثمي في «المجمع» ٣٣٤: فيه القاسم أبو عبد الرحمن، وقد ضعفه أحمد وغيره. اهـ وفيه أيضاً ابن لهيعة، ضعفه الجمهور.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. قال: وقد سألت الزهريَّ عن هذه الآيات: فيمن أُنزلن؟ قال: ما زلتُ أسمعُ من عُلمائنا أنهن أُنزلنَ في النجاشي وأصحابه، والآيات اللاتي في سورة المائدة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ إلى قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: إنك يا محمدُ ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي: ليس إليك ذلك، إنما عليكَ البلاغُ، والله يَهدِي من يشاءُ، وله الحِكمة البالغةُ والحُجَّةُ الدامغةُ، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]. وهذه الآية أخصُّ من هذا كلِّه، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، أي: هو أعلمُ بمن يستحق الهداية ممن يستحقُ الغوايَةَ. وقد ثَبت في الصَّحِيحَين أنها نَزَلت في أبي طالب عَمّ رسول الله ـ ﷺ ـ وقد كان يَحوطُه وينصُره، ويقوم في صَفِّه ويُحبه حُباً طَبيعياً لا شرعياً، فلما حَضَرته الوفاةُ وحان أَجَلُه، دَعاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى الإيمانِ والدخولِ في الإِسلام، فَسبق القَدَرُ فيه، واختُطفِ من يده، فاستمرَّ على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامَّةُ.

[٥١٢١] قال الزهريُّ: حَدَّثني سَعِيدُ بن المُسَيَّب، عن أبيه ـ وهو المسيَّبُ بنُ حَزْنٍ المخزوميُّ، رضي الله عنه ـ قال: لما حضَرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَوَجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أَبي أُميّة بن المُغيرة. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا عَمُّ، قُل: «لا إله إلا الله»، كلمة أشهدُ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية: يا أبا طالب، أترغبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلب؟ فلم يَزل رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَعرِضُها عليه، وَيعُودان له بتلك المقالةِ، حتى قال آخر ما قالَ: هو على مِلَّةِ عبد المطلب. وأبى أن يقولَ: لا إله إلا الله. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أَمَا لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٢). أخرجاه من حديث الزهريّ.

[٥١٢٢] وهكذا رواه مسلم في صحيحه، والترمذيُّ، من حديث يزيدَ بن كيسانَ، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيْرَة قال: لما حَضَرَتْ وفاةُ أبي طالب أتاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا عمّاه، قل: «لا إله إلا الله»، أشهدُ لك بها يوم القيامة. فقال: لولا أن تُعَيِّرني بها قريشٌ، يقولون: ما حَمَله عليه إلا جَزَعِ الموتِ، لأقررْتُ بها عينَك، لا أقولُها إلا لأُقِرَّ بها عينك. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾(٣). وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، لا نعرفه إلا من حديثِ يزيدَ ابن كَيْسَانَ. ورواه الإمامُ أحمدُ، عن يحيى بن سعيدِ القَطَّانِ، عن يزيدَ بن كيسانَ، حَدَّثني أبو حَازم، عن أبي هُرَيْرَةَ، فذكره بنحوه. وهكذا قال ابنُ عباس، وابنُ عُمَر، ومجاهدٌ، والشعبيُّ، وقتادةُ: إنها أُنزِلت في أبي طالب

(١) هذا معضل، لم يسنده ابن إسحق.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٠ و٣٨٨٤ ومسلم ٢٤ والنسائي ٤/ ٩٠ وأحمد ٥/ ٤٣٣ وابن حبان ٩٨٢.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥ والترمذي ٣١٨٨.

حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يقول: «لا إلهَ إلا الله»، فأبى عليه ذلك، وقال: أيِ ابنَ أخي، مِلَّةَ الأشياخِ. وكان آخر ما قال: هو على مِلَّةِ عبدِ المطلب.

[٥١٢٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا حَمَّاد بن سلمَة، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن أبي راشِدٍ قال: كان رسولُ قيصرَ جاراً لي، قال: كتب معي قيصرُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ كتاباً، فأتيته فدفعتُ الكتابَ، فوضعه في حِجْره، ثم قال: مِمَّن الرجلُ؟ قلت: من تَنُوخ. قال: هل لَكَ في دين أبيكَ إبراهيم الحنيفية؟ قلت: إني رسولُ قوم، وعلى دينهم حتى أرجعَ إليهم. فَضَحِكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ونظر إلى أصحابه وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[١].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾، يقولُ تعالى مُخبراً عن اعتذار بعض الكُفَّار في عَدَم اتِّباع الهُدَى حيثُ قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾، أي: نخشى إن اتبعنا ما جئتَ به من الهُدَى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يَقصِدُونا بالأذى والمحاربة، ويَتَخطَّفونا أينما كنا، فقال الله تعالى مُجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾، يَعني هذا الذي اعتَذَرُوا به كَذِبٌ وباطل، لأن الله تعالىٰ جعلهم في بلدٍ أمينٍ، وحَرَم مُعظَّم آمنٍ منذ وُضِع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلمُوا وتابعُوا الحق؟! وقولُه تعالىٰ: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: من سائر الثِّمار مما حوله من الطائفِ وغيره، وكذلك المتاجرُ والأمتعةُ ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: من عندِنا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا قالوا ما قالوا. وقد قال النسَائيُّ: أنبأنا الحسنُ بنُ محمَّدٍ، حدثنا الحجاج، عن ابن جُرَيج، أخبرني ابنُ أبي مُلَيكة قال: قال عَمرو بن شعيب، عن ابن عباس ـ ولم يسمعه منه ـ: أنَّ الحارث بن عامر بن نوفلٍ الذي قال: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقولُ تعالى مُعرِّضاً بأهل مَكَّة في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، أي: طَغَت وأَشِرَت وكَفَرت نعمةَ الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٢ ـ ١١٣]. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي: دَثَرت ديارُهم فلا تُرى إلا مَسَاكِنُهم. وقولُه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، أي: رَجَعت خَراباً ليس فيها أحدٌ.

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم عن ابن مَسْعُودٍ أنه سَمع كعباً يقول لعمر: إن سليمان ـ عليه السلام ـ قال للهامَةِ ـ يعني البُومَةَ ـ مَالَكِ لا تأكلين الزَّرعَ؟ قالت: لأنه أُخرجَ آدمُ بسَببه من الجنة. قال: فَمالَكِ لا تَشربين الماءَ؟ قالت: لأن الله أغرق قَومَ نوح به. قال: فما لك لا تأوين إلا إلى الخَراب؟ قالت: لأنه ميراثُ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ ثم تلا: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾. ثم قال تعالىٰ مُخبراً عن عَدْله، وأنه لا يُهلِك أحداً ظالماً له، وإنما

---

(١) فيه سعيد بن أبي راشد، أشار الذهبي في الميزان ٣١٧٠ إلىٰ أنه مجهول.

يُهلِك مَن أهلَكَ بعد قيام الحُجّة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ ـ وهي مكة ـ ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾، فيه دَلالَةٌ على أن النبيَّ الأُمّيَّ، وهو محمَّدٌ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ المبعوثُ من أُمِّ القرى، رَسولٌ إلى جميع القُرَى من عَرَب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وتمام الدليل: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ٥٨]. فأخبر أنه سَيُهلِكُ كُلَّ قريةٍ قبلَ يوم القيامة، وقد قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فجعل تعالى بعثة النبيِّ الأُمّيِّ شاملةً لجميع القُرَى، لأنه مبعوثٌ إلى أُمِّها وأصلِها التي تَرجع إليها.

[٥١٢٤] وثَبت في الصحيحَين عنه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أنه قال: «بُعِثتُ إلى الأحمَرِ والأسود»(١). ولهذا ختم به الرسالة والنبوَّة، فلا نَبيَّ بعدَه ولا رسولَ، بل شَرْعُه باقٍ بقاء اللَّيل والنهار إلى يوم القيامة. وقيل: المرادُ بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾، أي: أصلِها وعَظِيمتها، كأُمّهات الرساتيقِ والأقاليم. حكاه الزمخشريُّ وابن الجَوْزيّ، وغيرُهما، وليس بِبَعيدٍ.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن حَقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزُّهرةِ الفانية بالنسبة إلى ما أعدَّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العَظِيم المُقِيم، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧].

[٥١٢٥] وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِس أَحَدُكم إصبعه في اليمِّ، فَلْينظُر ماذا يَرْجع إليه»(٢).

وقولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفلا يعقِل مَن يُقدِّم الدُّنيا على الآخرة؟! وقولُه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾، يقولُ تعالى: أَفَمن هو مؤمن مُصَدِّقٌ بما وعدَه الله على صالح أعماله من الثَّواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مُكَذِّبٌ بلِقاء الله وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِه، فهو مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدنيا أياماً قلائلَ، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾. قال مجاهد وقَتادةُ: من المعذَّبين. ثم قد قِيل: إنها نزلَت في رسول الله ـ ﷺ ـ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة، أو حَمْزَةَ وعَليٍّ وأبي جهل. وكلاهما عن مجاهد. والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حينَ أشرفَ على صاحبه، وهو في الدَّرجات وذاك في الدَّرَكات: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

---

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ٢٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٨٥.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى مُخبِراً عما يُوبِّخ به الكفارَ المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدُونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصرُونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، يعني من الشياطين والمَرَدَة والدُّعاة إلى الكفر، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتَّبعوهم، ثم تبرَّؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال الله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧]. ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، أي: لِيخلِّصُوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجُون منهم في الدار الدنيا، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: وتَيَقَّنُوا أنهم صائِرُون إلى النَّارِ لا مَحالَة. وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: فَوَدُّوا حين عايَنُوا العذابَ لو أنهم كانوا من المُهتَدِين في الدار الدنيا. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٢ ـ ٥٣]. وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾، النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوَّات: ماذا كان جوابُكم للمُرسَلين إليكُم؟ وكيف كان حالُكم مَعَهم؟ وهذا كما يُسأل العبدُ في قبره: مَن ربُّك؟ ومن نَبيُّك؟ وما دينُك؟ فأما المؤمن فيشهد أَنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمداً عبدُالله ورسوله. وأما الكافِرُ فيقولُ: هاه! هاه! لا أدري. ولهذا لا جواب له يوم القيامة غيرُ السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾. وقال مُجاهِدٌ: فَعَمِيَتْ عليهُم الحُجَجُ، فَهُم لا يتساءَلُون بالأنساب. وقولُه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: في الدنيا، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾، أي: يومَ القيامةِ و«عَسَى» مِنَ الله مُوجِبَةٌ، فإن هذا واقعٌ بِفَضْلِ الله ومَنِّهِ لا مَحالَة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه المُنفردُ بالخَلْق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازعٌ ولا معقِّبٌ فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، أي: ما يشاء، فما شاء كانَ، وما لم يَشأ لم يَكُن، فالأمور كُلُّها خيرُها وشرُّها بيده، ومَرْجِعُها إليه. وقولُه: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، نفي على أصحِّ القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقد اختار ابن جرير أن (ما) هاهنا بمعنى «الذي»، تقديرُه: ويختار الذي لهم فيه خِيَرَةٌ. وقد احتجَّ بهذا المسلك طائفةُ المعتزِلة على وُجُوبِ مراعاة الأصلح. والصحيحُ أنها نافية. كما نَقَله ابن أبي حاتم، عن ابن عبَّاس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخَلْق والتقدير والاختيار، وأنه لا نَظِير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: من الأصنام والأندادِ، التي لا تخلُق ولا تَختارُ شيئاً. ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: يعلم ما تُكِنُّه الضمائر، وما تَنطَوي عليه السرائرُ، كما يعلَم ما تُبديه الظواهرُ من سائرِ الخلائق، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هو المُنفرد بالإلهيَّة، فلا معبودَ سواه، كما لا ربَّ يخلق ويَختارُ سِواه، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: في جَميع ما يفعَلُه هو المحمودُ عليه، لِعَدْلِه وحِكْمته ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، أي: الذي لا مُعقِّب له، لِقَهرِه وغَلَبته وحِكْمَتِهِ ورَحْمَتهِ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: جميعُكم يومَ القيامة، فَيُجازي كلَّ عاملٍ بعَمَلِه، من خَيرٍ وشَرٍّ، ولا يخفَى عليه منهم خافيةٌ في سائرِ الأعمالِ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُمتنّاً على عباده بما سَخَّر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قِوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعلَ الليلَ دائماً عليهم سَرْمداً إلى يوم القِيامةِ لأضرَّ ذلك بهم، ولَسئِمته النفوسُ وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، أي: تُبصِرُون به وتَستأنِسُونَ بِسَبَبِهِ، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾. ثم أخبَرَ أنه لو جَعَلَ النهار سَرْمداً دائماً مستَمِراً إلى يوم القِيامَةِ لأضرَّ ذلك بهم، ولَتعِبت الأبدانُ وكَلَّت من كثرة الحركات والأشغال. ولهذا قال: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، أي: تَستَريحُون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: خَلَق هذا وهذا، ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: في النهارِ بالأسفارِ والتَّرحالِ، والحَرَكاتِ والأشغالِ. وهذا من باب اللَّف والنشر. وقولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في اللَّيل والنَّهارِ. ومن فاته شيءٌ بالليل استدرَكه بالنَّهار، أو بالنَّهار استدرَكه باللَّيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وهذا أيضاً نداءٌ ثانٍ على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عَبَد مع الله إلهاً آخرَ، يُناديهم الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ على رُؤُوس الأشهادِ فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أي: في الدار الدنيا. ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، قال مجاهد: يعني رَسُولاً. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، أي: على صِحّةِ ما ادعيتموه من أن لله شُرَكاء، ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾، أي: لا إلهَ غيره، أي: فَلَم ينطِقوا ولم يُحيروا جَواباً، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: ذَهبُوا فلم ينْفعُوهم.

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قال الأعمشُ، عن المِنهال بن عَمرو، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ قال: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، قال: كان ابنَ عَمِّه. وهكذا قال إبراهيم النَّخعي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسِمَاك ابنُ حَرب، وقتادةُ، ومالك بن دِينار، وابنُ جُرَيج، وغيرُهم: أنه كان ابنَ عَمّ موسى عليه السلام. قال ابنُ جُرَيج: هو قارون بن يصهَرَ بن قاهِث، وموسى بن عمران بن قاهِث. وزَعَم محمدُ بن إسحاقَ بن يَسَار: أن قارونَ كان عَمّ موسى بن عِمْران عليه السلام. قالن ابنُ جرير: وأكثرُ أهل العلم على أنه كان ابنَ عَمِّه، والله أعلم. وقال قتادة بن دِعَامة: كنا نُحدَّث أنه كان ابنَ عَمّ موسى، وكان يُسمَّى المُنوَّر لحسن صَوته بالتوراةِ، ولكن عَدُوّ الله نافق كما نافَقَ السامِرِيُّ، فأهلكه البغيُ لكثرة ماله. وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَب: زاد في ثِيابِهِ شِبراً طُولاً، تَرَفُّعاً على قَومه. وقولُه: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، أي: الأموال: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أي: لَيثقلُ حملُها الفِئَامَ من الناس لِكَثرتها. قال الأعمش، عن خَيْثَمَة: كانت مفاتيحُ كُنُوز قارونَ من جُلودٍ، كُلُّ مفتاح مثلُ الإصبَع كُلُّ مفتاح على خِزانةٍ على حِدَتِهِ، فإذا رَكِب حملت على ستين بغلاً أغرَّ مُحجّلاً. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، أي: وَعَظه فيما هو فيه صَالِحُو قومِه، فقالوا على سبيل النصح والإرْشاد: لا تَفْرح بما أنتَ فيه، يَعنُون لا تَبطَر بما أنتَ فيه من الأموالِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾. قال ابنُ عباس: يَعني المَرِحِينَ. وقال مجاهد: يعني الأشِرينَ البَطِرين، الذين لا يشكرُون الله على ما أعطاهُم. وقولُه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: استَعمِلْ ما وَهَبَكَ الله من هذا المالِ الجَزيلِ والنِّعمةِ الطائِلَةِ في طاعة رَبِّك والتقرُّب إليه بأنواع القُرُباتِ التي تُحصِّل لك الثوابَ في الدَّارِ الآخِرَةِ. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: ما أباح الله فيها من المآكل والمشارِب والملابسِ والمساكِن والمناكِح، فإن لَربِّكَ عليك حقّاً، ولِنفسِكَ عليكَ حَقّاً، ولأهلِكَ عليك حقّاً، ولزَوْرك[1] عليك حقاً، فآتِ كلَّ ذي حَقّ حَقَّه. ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، أي: أَحسِنْ إلى

(١) أي الزائر.

خَلْقِه كما أحسَنَ هو إليك، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا تَكُن هِمَّتُك بما أنتَ فيه أن تُفسِدَ به الأرضَ، وتُسِيءَ إلى خَلْقِ الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن جواب قارونَ لقومِهِ، حين نَصَحُوه وأَرشَدُوه إلى الخير، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أنا لا أفتقرُ إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المالَ لِعِلْمِه بأني أستَحِقُّه ولمحبَّته لي، فتقديره: إنما أُعطيتُه لعلم الله فيّ أنّي أهل له. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]. أي: على عِلْمٍ مِنَ الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: هذا أَستَحِقُّه. وقد رُوي عن بعضهم أنه أراد: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، أي: إنه كان يعاني عِلْمَ الكِيمياءِ. وهذا القول ضعيف، لأنَّ علم الكيمياء في نفسه علمٌ باطل، لأنَّ قلب الأعيانِ لا يقدِرُ أحدٌ عليها إلا الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

[٥١٢٦] وفي الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: يقول الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذَهَبَ يخلُق كَخَلْقِي، فَلْيَخلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»(١)، وهذا ورد في المُصَوِّرين الذين يُشَبِّهون بِخلق الله في مُجرَّد الصورَةِ الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يُحيلُ ماهيَّة هذه الذاتِ إلى ماهيَّة ذات أُخرَى، هذا زُورٌ ومحال، وجَهل وضَلاَل. وإنما يقدِرون على الصِّبغ في الصورَةِ الظاهرة، وهو كَذِبٌ وزَغَلٌ وتَمويهٌ، وترويجُ أنَّه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قَطعاً لا مَحالة، ولم يثبُت بطريقٍ شَرْعَي أنه صَحَّ مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجَهلة الفَسَقة الأفاكون المُزَوِّرُون، فأما ما يُجريه الله ـ تعالى ـ من خَرْق العوائد على يَدَي بعضِ الأولياء من قَلْبِ بعضِ الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمرٌ لا يُنكِرُه مسلم، ولا يردُّهُ مؤمِنٌ، ولكن هَذا ليس من قَبِيلَ الصِّناعاتِ، وإنما هذا عن مَشيئةِ رَبِّ الأرضِ والسمواتِ، واختياره وفعله، كما رُوي عن حَيَوة بن شُرَيح المِصْري ـ رحمه الله ـ أنه سَأَله سائل، فلم يكن عنده ما يُعطيه، وَرَأَى ضَرُورتَه، فأخذ حَصَاةً من الأرض فَأَجالها في كَفِّه، ثم ألقاها إلى ذلك السائِلِ فإذا هي ذهبٌ أحمَرٌ. والأحاديث والآثار كثيرةٌ جداً يطول ذكرها.

وقال بعضُهم: إنَّ قارونَ كان يَعْلَم الاسمَ الأعظَمَ، فدعا الله فَتَموَّل بِسَببِهِ؛ والصحيحُ المعنى الأول، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ راداً عليه فيما ادَّعاه مِنَ اعتناءِ الله به فيما أعطاه من المال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، أي: قد كان من هو أكثرُ منه مالاً وما كان ذلك عن مَحَبَّةٍ منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكُفرهم وعَدَم شُكرِهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهم. قال قتادةُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، على خَيرٍ عندي. وقال السدِّي: على عِلْمٍ أني أهلٌ لذلك. وقد أجادَ في تفسير هذه الآية الإمام عبدُ الرحمن بنُ زيد بن أسلَمَ، فإنه قالَ في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قال: لولا رِضَا الله عَنِّي ومعرفتُه بفضلي ما أعطاني هذا المَالَ، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٥٣ ومسلم ٢١١١ وأحمد ٢/٢٥٩ وأبو يعلى ٦٠٨٦ من حديث أبي هريرة.

قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. وهكذا يقول من قلّ علمه إذا رأى من وسع الله عليه: لولا أن يستحق ذلك لما أعطي.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يَقولُ تعالى مخبراً عن قارونَ: أنَّه خَرَجَ ذاتَ يوم على قَومِه في زِينةٍ عَظيمةٍ، وَتَجمُّلٍ باهرٍ، مِن مراكبَ وملابسَ عليه وعلى خَدَمه وحَشَمِه، فلمَّا رآه مَن يُريد الحياة الدنيا ويميل إلى زُخرفها وزينتِها تَمنَّوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: ذُو حظٍّ وافر من الدنيا. فلما سَمِع مقالتَهم أهلُ العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: جَزاءُ الله لعبادِه المؤمنينَ الصالِحينَ في الدار الآخرة خير مما ترون، كما في الحديث الصَّحيح:

[٥١٢٧] يقولُ الله تعالى: «أعددتُ لعبادِي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سَمِعت، ولا خَطَر على قَلب بَشَر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]»[(١)]. وقولُه: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾، قال السدِّي: وما يُلقَّى الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تَمام كَلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يُلقَّى هذهِ الكلمةَ إلا الصابرون عن مَحبَّة الدنيا، الراغبُون في الدار الآخرة. وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك، وجعَله مِن كلامِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإخبارِه بذلك.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

لما ذَكر ـ تعالى ـ اختيالَ قارونَ في زِينَتِهِ، وفَخْرَه على قَوْمِهِ وبَغْيَه عليهم، عقَّب ذلك بأنه خَسَف به وبداره الأرض.

[٥١٢٨] كما ثبت في الصَّحيح ـ عند البخاري من حديث الزهري، عن سالم ـ: أن أباه حَدَّثه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بينَا رجلٌ يجرُّ إزارَه إذ خُسِفَ به، فَهُوَ يَتَجلْجَلُ في الأَرضِ إلَى يَومِ القيامَةِ»[(٢)]. ثم رواه من حديث جَرير بن زَيدٍ، عن سالم عن أبي هريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ نحوه.

[٥١٢٩] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا النضرُ بنُ إسماعيلَ أبو المغيرةِ القاصُّ، حدثنا الأعمش، عن عَطيَّة، عن أبي سَعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينا رجل فيمن كان قبلكم خَرَج في بُردين أخضَرين يختال فيهما، أَمَر الله الأرضَ فأَخذَته، فإنه ليتَجلْجَلُ فيها إلى يومِ القِيامَةِ»[(٣)]، تَفرَّد به أحمدُ، وإسنادُه حَسَنٌ.

---

(١) والحديث سيأتي عند تفسيرها إن شاء الله.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٩٠ من حديث سالم، وأخرجه البخاري ٥٧٨٩ ومسلم ٢٠٨٨ من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٣) متن صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٤٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥/ ١٢٦ وقال: رواه أحمد والبزار بأسانيد، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح. ولعل المصنف حسنه لشواهده، وإلا ففيه عطية، وهو ابن سعد العوفي ضعيف. وفي الباب أحاديث أخرى.

[٥١٣٠] وقال الحافظ أبو يعلَى المَوْصِلي: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا مُعَلَّى بن منصور، أخبرني محمَّد بن مُسلم، سَمِعت زياداً النميري يُحَدِّث عن أنس بن مَالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: بينا رجلٌ ممن كَان قبلَكُم خَرَج في بُردَين فاختَالَ فيهما، فَأَمَر الله الأرضَ فَأخذته، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يَوم القِيَامَة»[١]. وقد ذكر الحافظُ محمدُ بن المنذر في كتاب العَجَائب الغريبة بِسَنَدِه عن نوفل بن مُساحق قال: رأيتُ شاباً في مسجدِ نَجْرَانَ، فجعلتُ أنظرُ إليه وأتعجَّبُ من طُوله وتَمامه وَجماله، فقال: مالك تنظرُ إلي؟ فقلتُ: أعجَبُ من جَمالك وكَمَالك! فقال: إن الله ليعجب مِنِّي. قال: فما زال يَنقُص ويَنقُص حتى صَار بطول الشِّبر، فأخذَه بعضُ قَرَابته في كُمِّه وَذَهَب[٢].

وقد ذُكِرَ أنَّ هلاكَ قَارُون كان عن دعوةِ نَبيِّ الله موسى عليه السلام. واختُلف في سببه، فعن ابن عباس والسدِّي أن قارونَ أعطى امرأة بَغياً مالاً على أن تَبْهَت موسى بِحَضْرَة المَلإِ من بَني إسرائيلَ، وهو قائمٌ فيهم يتلُو عليهم كتابَ الله، فتقولُ: يا مُوسَى، إنَّكَ فَعلتَ بي كَذَا وَكَذَا. فلما قالت في الملإ ذلك لموسى ـ عليه السلام ـ أُرْعِدَ من الفَرَق، وأقبل عليها بعدما صَلَّى ركعتين ثم قال: أَنشُدُكِ بالله الذي فَرَق البحر، وأنجاكم من فِرْعَونَ، وفَعَل كذا وكذا، لَمَّا أَخْبَرتِني بالذي حَمَلَكِ على ما قُلتِ؟ فقالت: أما إذ نَشَدْتَني فإنَّ قَارُون أعطاني كذا وكذا، على أن أقولَ لك، وأنا أستغفرُ الله وأتوبُ إليه. فعند ذلك خَرَّ موسَى لله ـ عَزَّ وجلَّ ـ سَاجِداً، وسأل الله في قَارُونَ. فأوحى الله إليه أنِّي قد أمرتُ الأرضَ أن تُطِيعك فيه. فَأَمَر مُوسَى الأرضَ أن تَبْتَلِعَه ودَارَه، فكان ذلك. وقيل: إنَّ قَارُون لَمَّا خَرَج على قَومه في زِينَتِه تلك، وهو راكبٌ على البِغال الشُّهب، وعليه وعلى خَدَمه ثيابُ الأُرْجُوانِ المُصبَّغة، فمرَّ في جَحْفَلِه ذلك على مَجلِس نَبيِّ الله موسى ـ عليه السلام ـ وهو يُذَكِّرهم بأيام الله. فلما رأى النَّاسُ قارونَ انصرفت وُجُوه النَّاسِ حَوْله، يَنظُرون إلى ما هو فيه. فَدَعاه موسى ـ عليه السلام ـ وقال: ما حَمَلك على ما صنعتَ؟ فقال: يا موسَى، أَمَا لَئِن كنت فُضِّلت عَلَيَّ بالنبوة فلقد فُضِّلت عليك بالدنيا، ولئن شِئت لنخرُجَنَّ فَلَتَدْعُوَنَّ عليّ وأدعُو عليك. فَخرج وخَرَج قارون في قومه، فقال موسى: تَدعُو أو أدعو أنا؟ قال: بل أنا أدعُو. فدعا قارون فلم يُجَب له. ثم قال موسى: أدعُوا؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهُمَّ، مُرِ الأرضَ أن تُطيعني اليوم. فأوحى الله إليهِ أنِّي قد فعلتُ. فقال مُوسَى: يا أرضُ، خُذيهم. فأخذتهم إلى أَقْدَامِهم. ثم قال: خُذيهم فأخذتُهم إلى رُكَبِهم، ثم إلى مَنَاكِبهم، ثم قال: أقبلي بِكُنوزِهم وأموالهم. قال: فأقبلت بها حتى نَظَرُوا إليها. ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوَى. فاستوت بهم الأرض. وعن ابن عباس أنه قال: خُسِفَ بهم إلى الأرض السابعة. وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أنه يُخسَفُ بهم كُلَّ يوم قامةٌ، فهم يَتَجلْجلُونَ فيها إلى يوم القيامة. وقد ذكر هاهنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أي: ما أغنى عنه مالُه وما جَمَعه، ولا خَدَمُه وحَشَمُه. ولا دفعوا عنه نِقمَةَ الله وعذابَه ونكَاله، ولا كان هو في نفسِهِ مُنتصِراً لنفسه، فلا ناصِرَ له من نَفْسِه ولا من غيره.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: الذين لما رَأوه في زينته قالوا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾، فَلَمَّا خُسِفَ به أصبحوا يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن

(١) متن صحيح. أخرجه أبو يعلى ٤٣٠٢ وإسناده ضعيف لضعف زياد النميري، لكن للحديث شواهد كما ترى.

(٢) نوفل تابعي ثقة؛ لكن لم يذكر المصنف الإسناد إلى نوفل، والظاهر أنه مركب مصنوع.

يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾، أي: ليس المال بدالّ على رِضا الله عن صاحبه من عباده؛ فإن الله يُعطي ويمنعُ، ويُضيّق ويُوسّع، ويخفِضُ ويرفعُ، وله الحكمةُ التامّةُ والحجّة البالغة.

[٥١٣١] وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن ابن مَسعُود: «إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يُعطِي المال مَن يُحبُّ ومن لا يحب، ولا يُعطِي الإيمانَ إلا مَن يُحبُّ»[١]. ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، أي: لولا لطفُ الله بنا وإحسانُه إلينا لَخسَفَ بنا، كما خَسَف به، لأنّا وَدِدْنا أن نكون مثله. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، يعنون أنه كان كافراً، ولا يُفلحُ الكافرون عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى هاهنا: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾، فقال بعضهم: معناها: «وَيْلَكَ اعلَم أنَّ»، ولكن خُفِّفَت فقيل: «وَيْكَ» ودلّ فتحُ «أنّ» على حذف «اعلم». وهذا القول ضَعّفَه ابنُ جرير. والظاهر أنه قَوِيٌّ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «وَيْكَأَنّ». والكتابةُ أمر وَضعيٌّ اصطلاحي، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. وقيل: معنى «ويكأن»، أي: ألم تَرَ أنّ. قاله قتادةُ. وقيل: معناها «وَيْ كأن»، ففصلها وجعل حرف «وي» للتعجب أو للتنبيه، وكَأنَّ بمعنى أظن وأحسِبُ، قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة: إنها بمعنى: ألم تَرَ أنّ، واستشهد بقول الشاعر:

سَألَتاني الطَّلاق أنْ رَأتاني ... قَلّ مَالي، قَدْ جِئْتُمَاني بِنُكْرِ
وَيْكأنْ مَنْ يَكُن لَه نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ، ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيش ضُرِّ

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يُخبرُ تعالى أنَّ الدار الآخرة ونَعِيمَها المقيمَ الذي لا يَحُول ولاَ يَزُول جَعَلها لعباده المؤمنين المُتَواضِعين، الذين لا يُريدون عُلُوّاً في الأرض، أي: تَرَفُّعاً على خَلْق الله وتعاظُماً عليهم وتَجبُّراً بهم، ولا فساداً فيهم. كما قال عكرمة: العُلُو: التجبر. وقال سعيد بن جُبَير: العُلُو: البغي. وقال سفيان بن سَعِيد الثَّوري، عن منصور، عن مُسلِم البَطِين: العُلو في الأرض: التَّكبُّر بغير حقّ. والفساد: أخذُ المال بغير حَقّ. وقال ابنُ جُرَيج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، تعظُّماً وتجبراً، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عَمَلاً بالمَعَاصِي. وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا ابنُ وَكِيع، حَدَّثنا أبي، عن أشعثَ السمّانِ. عن أبي سَلاّم الأعرَج، عن عَليّ قال: إنَّ الرجل لَيُعجبُه من شِرَاكِ نَعْلِه أن يكون أجود من شِرَاكِ صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾. وهذا محمولٌ على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاوُلَ على غيره، فإن ذلك مذمومٌ.

[٥١٣٢] كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[٢] وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به.

[٥١٣٣] فقد ثَبت أن رَجلاً قال: يا رسولَ الله، إنّي أُحِبُّ أن يكونَ رِدائي حسناً ونَعلي حَسَنةً، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميلٌ يحبُّ الجَمالَ»[٣]. وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، أي: يومَ القيامةِ ﴿فَلَهُۥ

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٦٥ وأبو داود ٤٨٩٥ وابن ماجه ٤٢١٤ من حديث عياض بن حمار.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩١ والترمذي ١٩٩٩ وأحمد ١/٤٥١ من حديث ابن مسعود.

خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، أي: ثوابُ الله خيرٌ مِن حَسَنةِ العبدِ، فكيف والله يضاعِفُه أضعافاً كثيرةً، وهذا مقامُ الفَضلِ. ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام الفَضلِ العَدْلِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بِبَلاغ الرسالةِ وتَلاوةِ القرآن على الناسِ، ومُخبراً له بأنه سَيَرُدُّه إلى مَعَادٍ، وهو يومُ القيامةِ، فيسألُه عما استرعاه من أعباءِ النبوّة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: افترض عليك أداءه إلى الناس، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلِكَ، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

قال السدِّي، عن أبي صَالح، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، يقول: لرادُّكَ إلى الجنّةِ، ثم سائِلُك عن القرآنِ. قال السدِّي: وقال أبو سعيدٍ مثلَها. وقال الحكم بن أبَان، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قال: إلى يوم القيامة. ورواه مالك، عن الزهريّ. وقال الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، إلى الموت. ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وفي بعضها: لَرادُّك إلى مَعْدِنِكَ من الجَنّةِ. وقال مجاهد: يُحيِيك يومَ القيامة. وكذا رُوِي عن عكرمة، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبي قَزَعَة، وأبي مالك، وأبي صالح. وقال الحسن البَصري: إي والله، إن له لمعاداً، يبعثُه الله يومَ القيامة، ثم يُدخِلُه الجنة. وقد رُوِي عن ابن عباس غير ذلك. كما قال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مُقَاتِل، أنبأنا يَعلى، حدثنا سُفيان العُصفُرِيُّ، عن عِكرِمَة، عن ابن عَبّاسٍ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قال: إلى مَكّةَ. وهكذا رواه النسائي في تفسير سُنَنِه، وابنُ جَرير، من حديث يَعْلَى ـ وهو ابن عُبَيد الطنَافِسِي ـ به. وهكذا روى العَوفيّ، عن ابن عباس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها. وقال محمد بن إسحاقَ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، إلى مَوْلِدِك بمكّة.

قال ابنُ أبي حاتم: وقد رُوِي عن ابن عباس، ويحيى بن الجَزّار، وسَعِيد بن جُبَير، وعَطِيّة، والضحّاكِ، نحوُ ذلك. حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر قال: قال سُفيان: فَسَمِعناه من مُقَاتِل منذ سَبعين سنة، عن الضحّاكِ قال: لما خَرَج النبيُّ ـ ﷺ ـ من مكة، فبلغ الجُحفَةَ، اشتاق إلى مَكّةَ، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مَكّةَ[1]. وهذا من كلام الضحّاك يقتضي أنَّ هذه الآية مَدَنيّةٌ، وإن كان مجموعُ السورةِ مَكّياً، والله أعلم. وقد قال عبدُ الرزّاقِ: حدثنا مَعمَرٌ، عن قتادةَ في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ

(١) هذا مرسل، وهو من قسم الضعيف. ومقاتل، هو ابن سليمان، ضعفه غير واحد وكذبه بعضهم.

مَعَادٍ﴾، قال: هذه مما كان ابن عباس يَكتمها. وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم بِسَندِهِ عن نُعَيم القارىء أنه قال في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قال: إلى بيت المقدس. وهذا ـ والله أعلم ـ يرجع إلى قول مَن فَسَّر ذلك بيوم القيامة؛ لأنَّ بيتَ المقدس هو أرضُ المحشَرِ والمَنشَرِ، والله الموفق للصواب. ووجهُ الجَمْعِ بين هذه الأقوال أن ابن عباس فَسَّرَ ذلك تارة برجُوعه إلى مكة، وهو الفَتحُ الذي هو عند ابن عباس أمارةٌ على اقترابِ أجلهِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ كما فَسَّره ابن عباس بسورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، أنه أجلُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ نُعِي إليه، وكان ذلك بحضرة عُمَرَ بن الخطاب، ووافقه عُمَرُ على ذلك، وقال: لا أعلمُ منها غيرَ الذي تعلم. ولهذا فَسَّر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامةِ الذي هو بعد الموتِ، وتارة بالجَنَّةِ التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رِسَالةِ الله وإبلاغِها إلى الثَّقلَين: الجنِّ والإِنسِ، ولأنه أكملُ خَلْقِ الله، وأفصحُ خَلْقِ الله، وأشرفُ خلقِ الله على الإطلاق.

وقولُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: قل لمن خَالفَكَ وكَذَّبك ـ يا محمد ـ من قومك من المشركين ومن تَبِعهم على كُفرهم، قل: رَبِّي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلَمون لمن تكون عاقبةُ الدار، ولِمن تَكون العاقبة والنصرةُ في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى مُذكِّراً لنبيِّه نعمتَه العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، أي: ما كنت تَظنُّ قبل إنزال الوحي إليك أنَّ الوحي يَنزِل عليك، ولكن ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: إنما أُنزل الوحيُ عليكَ من الله من رَحْمَتِهِ بك وبالعبادِ بِسببَك، فإذا مَنَحك بهذه النِّعمةِ العَظِيمَةِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾، أي: مُعِيناً ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ولكن فَارِقْهُم وَنَابِذهُم وخَالِفهُم. ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: لا تتأثر بمخالفتهم لك وصَدِّهم الناس عن طَرِيقِكَ، ولا تَلْوِي على ذلك ولا تُبَالِه، فإن الله مُعلٍ كَلِمَتك، ومؤيِّدٌ دينك، ومظهرٌ ما أُرسِلتَ به على سائرِ الأديانِ، ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: إلى عبادةِ ربِّك وحدَه لا شريكَ له، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقولُه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا تَلِيقُ العبادةُ إلا له، ولا تَنبَغِي الإلهيَّةُ إلا لِعظَمتِهِ. وقولُه تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، إخبارٌ بأنه الدائم الباقي الحيُّ القيُّومُ، الذي تموتُ الخلائق ولا يموتُ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]، فَعَبَّر بالوجه عن الذاتِ، وهكذا قوله هاهنا: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، أي: إلا إيَّاه.

[٥١٣٤] وقد ثَبَت في الصحيح، من طريق أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أصدقُ كَلِمَةٍ قالها شاعرٌ كَلِمَةُ لَبِيد:

ألاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ(١)

وقال مجاهدٌ والثَّوريُّ في قَولِه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا ما أُريد به وجهُه، وحكاه البُخاريُّ في صَحِيحِهِ كالمُقرِّر له. قال ابنُ جرير: ويستشهد مَن قال ذلك بِقولِ الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ العِبَادِ، إِلَيهِ الوَجْهُ والعَمَلُ

وهذا القولُ لا يُنافي القولَ الأول، فإن هذا إخبار عن كُلِّ الأعمال بأنها باطلة إلاَّ ما أُريد بها وجهُ الله ـ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٤٧ ومسلم ٢٢٥٦.

عَزَّ وجلَّ ـ من الأعمال الصالحة المطابقَةِ للشَّرِيعة. والقولُ الأولُ مُقتضَاه أن كل الذَّواتِ فانيةٌ وهالكةٌ وزائلةٌ إلا ذاته ـ تعالى وتَقَدَّسَ ـ فإنه الأوَّل الآخِرُ الذي هو قَبلَ كلِّ شيءٍ وبعدَ كُلِّ شيء. قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدُّنيا في كتاب التفكر والاعتبار: حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر، حدثنا مُسلم بن إبراهيم، حدثنا عُمَر بن سُلَيم الباهليُّ، حدثنا أبو الوليد قال: كان ابن عُمَر إذا أراد أن يَتعاهَدَ قلبه يأتي الخِربَةَ فيقفُ على بابها، فَيُنادِي بصوت حزينٍ فيقول: أينَ أهلُك؟ ثم يَرْجِع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. وقولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، أي: المُلك والتصرُّف، ولا مُعقِّب لِحُكمِهِ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يومَ مَعَادِكم، فَيَجزِيكُم بأعمالكم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ. والله أعلم.

## آخر تفسير سورة القصص، ولله الحمد والمنة

# سورة العنكبوت

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

أما الكلامُ على الحُروفِ المُقَطَّعةُ فقد تَقَدَّم أَوَّل «سُورَةِ البَقَرةِ». وقولُه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ استفهام إنكار، ومعناه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا بُدَّ أن يَبتلِيَ عبادَه المؤمنين بحسَب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصَّحيح:

[٥١٣٥] «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثمَ الصالحون، ثم الأمثلَ فالأمثل، يُبتَلى الرجلُ على حَسب دينه، فإن كان في دينِه صلابَةٌ زِيدَ في البلاءِ»[(١)]. وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ومثلها في «سورة براءة»، وقال في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾، أي: الذي صدقُوا في دعواهم الإيمانَ ممن هو كاذِبٌ في قولِه ودَعواه. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلَمُ ما كان وما يكونُ، وما لم يكُن لو كان كيفَ يكُون. وهذا مُجمَعٌ عليه عند أئمة السنة والجَماعة، ولهذا يقولُ ابن عباس وغيرُه في مثل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، إلا لنرى. وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجُود، والعلم أعَمُّ من الرؤية، فإنه يَتعلَّق بالمعدوم والموجُود.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾، أي: لا يَحسَبنَّ الذين لم يدخُلوا في الإيمان أنهم يتخلَّصُون من هذه الفتنة والامتحان؛ فإن من ورائهم من العقوبة والنَّكال ما هو أغلظُ من هذا وأطَمُّ، ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾، أي: يفوتونا، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: بئس ما يَظُنُّون.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

(١) تقدم في تفسير سورة الأنبياء عند آية: ٨٣.

يقولُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعَمِلَ الصالحات رجاءَ ما عند الله من الثَّواب الجَزِيل، فإن الله سَيُحقق له رَجَاءه، ويوفِّيه عملَه كاملاً موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة، لأنه سميعُ الدعاءِ، بصيرٌ بكل الكائنات، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦]، أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفعُ عَمَلهِ على نفسه، فإن الله غَنيٌّ عن أفعال العباد، ولو كانوا كلُّهم على أتقى قلب رجل واحدٍ منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال الحسن البصريُّ: إن الرجل ليجاهدُ، وما ضَرَب يوماً من الدَّهرِ بسيفٍ. ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جَميعهم مع إحسانه وبرِّه بهم يُجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسنَ الجزاءِ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبلُ القليلَ من الحسنَات، ويُثيب عليها الواحدةَ بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، ويجزي على السيِّئة بمثلها أو يعفُو ويصفَح، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال هاهنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى آمراً عبادَه بالإحسانِ إلى الوالدين بعد الحثِّ على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سببُ وُجودِ الإنسان، ولهما عَلَيه غايةُ الإحسانِ، فالوالدُ بالإنفاق، والوالدةُ بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]. ومع هذه الوصيَّة بالرأفةِ والرحمةِ والإحسانِ إليهما، في مُقابَلة إحسانهما المتقدِّم، قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ﴾، أي: وإن حَرَصا عليك أن تُتابعهما على دينهما إذا كانا مُشركين، فإيَّاك وإياهُما، لا تُطِعْهُما في ذلك، فإن مَرجعَكُم إليَّ يوم القيامة، فأَجزيك بإحسانِكَ إليهما وصَبْرك على دينِكَ، وأحشُرك مع الصالحين لا في زُمرةِ والديك، وإن كُنتَ أقربَ الناس إليهما في الدنيا، فإن المرءَ إنما يُحشر يوم القيامة مع من أحبَّ، أي: حُبّاً دِينياً، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

[٥١٣٦] قال التِّرمذِيُّ عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بَشَّار ومحمد بن المُثَنَّى، حدثنا محمدُ ابن جعفر، حدثنا شُعبَةُ، عن سِمَاكِ بن حَرْب قال: سَمِعت مُصعَب بنَ سعدٍ يُحدِّث عن أبيه سَعدٍ، قال: نَزَلت فيَّ أربعُ آياتٍ. فَذَكَرَ قِصَّةً. وقالت أم سعدٍ: أليس قد أمرك الله بالبرِّ؟ والله لا أطعَمُ طعاماً ولا أشرَبُ شراباً حتى أموتَ أو تكفُرَ. قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعمُوها شَجَروا فاها، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾. . . الآية[1]. وهذا الحديث رَواه الإمام أحمدُ، ومسلمٌ، وأبو داودَ، والنسائيُّ أيضاً، وقال التِّرمذِيُّ: حَسَنٌ صَحيحٌ.

(١) الترمذي ٣١٨٩. وتقدم تخريجه في تفسير سورة الأنفال عند آية: ١.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن صفاتِ قوم من المُكذِّبين الذين يَدَّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبتِ الإيمانُ في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنةٌ ومحنةٌ في الدنيا اعتقدُوا أن هذا من نِقمة الله ـ تعالى ـ بهم، فارتدُّوا عن الإسلام. ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾. قال ابنُ عباس: يعني فتنته أن يَرتَدَّ عن دينه إذا أوذِيَ في الله. وكذا قال غيرُه من عُلماء السَّلَف. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: ولئن جاء نصرٌ قريبٌ من ربِّك ـ يا محمدُ ـ وفَتحٌ ومغانِمُ، ليقولنَّ هؤلاء لكم: إنا كنا معكم. أي: إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]. وقال تعالى مُخبراً عنهما هاهنا: ﴿ﷺ﴾ ﴿مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تُكنُّه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟ وقولُه تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أي: وليختبرنَّ الله الناسَ بالضرَّاء والسرَّاء، ليتميَّزَ هؤلاء من هؤلاء، مَن يُطيع الله في الضَّراءِ والسرَّاءِ، ومَن إنما يُطيعه في حَظِّ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى بعد وقعةِ أُحدٍ التي كان فيها ما كانَ من الاختبارِ والامتحان: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]... الآية. والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كفار قريش أَنَّهم قالوا لمن آمن منهم واتَّبع الهُدَى: ارجعُوا عن دِينكُم إلى دِيننا، واتَّبِعُوا سبيلنا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، أي: آثامكم إن كانت لكم آثامٌ، وذلك علَينا وفي رِقَابنا، كما يقول القائل: «افعل هذا وخَطيئتك في رقبتي». قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي: فيما قالوه: إنهم يحمِلُون عن أولئك خطاياهم. فإنه لا يحمل أحدٌ وِزرَ أحد، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١١]. وقولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، إخبارٌ عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يومَ القيامة يحمِلُون أوزار أنفسهم، وأوزاراً أُخرَ بسَبَبِ ما أضلُّوا من الناس، من غير أن ينقُصَ من أوزارِ أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

[٥١٣٧] وفي الصحيح: «من دعا إلى هُدَىً كان له من الأجر مثلُ أُجورِ من اتَّبعه إلى يوم القيَامة، مِن غَير أن ينقُصَ من أُجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضَلاَلَة كان عليه من الإِثم مثلُ آثام من اتَّبعه إلى يوم القيامة، من غير أن يَنقُصَ من آثامِهم شيئاً»[١].

[٥١٣٨] وفي الصحيح: «ما قُتلت نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأولِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القَتْلَ»[٢].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: يَكذِبون ويَختلِقُون من البهتان.

[٥١٣٩] وقد ذكر ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا صَدَقَةُ، حدثنا عثمان أبو حَفص ابن أبي العاتكة، حدثني سليمانُ بن حَبيب المُحَاربي، عن أبي أُمَامَة أنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ بَلَّغَ ما أُرسِل به، ثم قال: إيَّاكم والظُّلمَ، فإن الله يعزمُ يومَ القيامةِ فيقول: وعزَّتي وجلالي لا يجوزُني اليومَ ظلمٌ! ثم ينادي مناد فيقول: أينَ فلانٌ ابنُ فلانٍ؟ فيأتي يتبعَهُ مِنَ الحسناتِ أمثالُ الجِبَالِ، فيَشخصُ الناسُ إليها أبصارَهم حتى يقومَ بين يَدَي الله الرحمن ـ عَزَّ وجلَّ ـ ثم يأمُر المنادِي فينادي: من كانَت له تَبَاعَةٌ ـ أو: ظَلاَمَة ـ عند فلان بن فلان، فَهَلُمَّ. فَيُقبِلون حتى يَجتَمِعُوا قياماً بين يَدَي الرحمن، فيقولُ الرحمنُ: اقضُوا عَن عبدِي. فيقولون: كيف نَقضِي عنه؟ فيقول لَهُم: خُذُوا لهم من حسناتِهِ. فَلاَ يزالُون يأخذُون منها حتى لا يبقَى له حَسَنةٌ، وقد بَقِي من أصحاب الظلاَماتِ، فيقول: اقضُوا عن عَبدِي. فيقولون: لم يبقَ له حَسَنةٌ. فيقول: خُذُوا من سيئاتهم فاحمِلُوها عليه. ثم نَزَع النبي ـ ﷺ ـ بهذه الآية الكريمةِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[٣].

[٥١٤٠] وهذا الحديثُ له شاهدٌ في الصَّحيح من غير هذا الوَجْهِ: «إنَّ الرجُلَ لَيأتي يومَ القيامة بِحَسَناتٍ أمثَالِ الجبَالِ، وقد ظَلَم هذا، وأخَذَ مال هذا، وأخذ من عِرْضِ هذا. فيأخذ هذا من حَسَناته، وهذا من حَسَناتِهِ، فإذا لم تبق له حَسَنَةٌ أُخِذَ من سيئاتهم فَطُرِح عليه»[٤].

[٥١٤١] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن أبي الحَوَارِيِّ، حدثنا أبو بشر الحَذَّاء، عن أبي حمزة الثُّمَالي، عن معاذ بن جبل ـ رضيَ الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: يا معاذ، إن المؤمن يُسْأَلُ يوم القيامة عن جميع سَعْيِهِ، حتى عن كُحلِ عَينَيهِ، وعن فُتَاتِ الطِّينة بإصْبَعَيهِ، فلا أُلْفِيَنَّكَ تأتي يومَ القيامةِ وأحدٌ أسعدُ بما آتاه الله منك[٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

هذه تَسليةٌ من الله تعالى لعبدِه ورسولِه محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ يُخبره عن نوح عليه السلام:

(١) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٦٧٧ وغيره، وقد تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٣٠.

(٣) إسناده ضعيف. صدقة هو ابن عبد الله، ضعفه غير واحد وكذا شيخه عثمان. ولأصله شاهد، وهو الآتي.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨١ والترمذي ٢٤٢٠ وأحمد ٢/ ٣٧١ وأبو يعلى ٦٤٤٩ من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٥) ضعيف جداً. فإن بين أبي حمزة الثُّمَالي، وبين معاذ رجلين، فهذا معضل، وله علة ثانية، وهي أن الثُّمالي واسمه ثابت بن أبي صفية، متروك الحديث. راجع الميزان ١٣٥٨.

أنه لَبِثَ في قومه هذه المدّة يدعُوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وجِهاراً، ومع هَذا ما زادهم ذلك إلا فِراراً عن الحقّ، وإعراضاً عنه، وتكذِيباً له، وما آمن مَعَه منهم إلا قليلٌ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، أي: بَعْدَ هذه المدة الطويلة ما نَجَع فيهم البلاغُ والإنذار، فأنت ـ يا محمد ـ لا تأسَف على مَن كفر بك من قومك، ولا تحزَن عليهم؛ فإن الله يَهدِي مَن يشاء ويُضِل من يشاء، وبيَدِه الأمرُ وإليه تُرجَعُ الأمورُ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، واعلم أن الله سَيُظهِرُكَ ويَنصُرك ويُؤيِّدُك، ويُذِلُّ عَدُوَّك ويَكبِتُهم ويجعلُهم أسفل سافلين.

قالَ حَمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زَيدٍ، عن يوسُفَ بن ماهك، عن ابن عباس قال: بُعِث نوحٌ وهو لأربعين سنة، ولَبث في قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستينَ عاماً، حتى كَثُر الناسُ وفشُوا. وقال قتادةُ: يقال: إن عُمرَه كلَّه ألفُ سَنَةٍ إلا خمسين عاماً، لبث فيهم قبلَ أن يَدعُوهم ثلاثمئةِ سنةٍ، ودعاهم ثلاثمئةٍ، ولبث بعد الطوفان ثلاثمئةٍ وخمسينَ سنةً. وهذا قول غريب، وظاهر السياق من الآية أنه مَكث في قومه يدعُوهم إلى الله ألفَ سنةٍ إلا خَمسين عاماً. وقال عَونُ بنُ أبي شَدَّادٍ: إن الله أرسلَ نوحاً إلى قومِهِ وهو ابنُ خمسينَ وثلاثمئة سنةٍ، فدعاهم ألف سنةٍ إلا خمسينَ عاماً، ثم عاش بعد ذلك ثلاثمئةٍ وخمسين سنةٍ. وهذا أيضاً غريب، رواه ابن أبي حاتم وابنُ جرير. وقولُ ابن عباس أقربُ، والله أعلم.

وقال الثوريُّ، عن سَلَمة بن كهيل، عن مجاهد قال: قال لي ابنُ عُمَر: كم لَبِثَ نوحٌ في قومه؟ قال قلت: ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، قال: فإن الناس لم يزالُوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومِكَ هذا. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾، أي: الذين آمنُوا بنوحٍ عليه السلام. وقد تَقَدَّم ذكر ذلك مفصلاً في «سورة هود»، وتقدَّم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، أي: وجعلنا تلك السفينةَ باقيةً، إما عينُها كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجُوديّ، أو نوعُها جَعَلَه للناس تذكرةً لِنِعَمِه على الخلق، كيف نجّاهم زَمَن الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢]، وقال هاهنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، أي: وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يُرمَى بها ليست هي التي زينة للسماء. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٣]، ولهذا نظائر كثيرة. وقال ابنُ جرير: لو قيل: إن الضمير في قوله ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، عائدٌ إلى العقوبة، لكان وجهاً. والله أعلم.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسولِهِ وخليلِهِ إبراهيمَ إمام الحُنفاء أنه دعا قومه إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، والإِخلاص له في التقوى، وطَلَب الرزق منه وحدَه لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكورُ على النِّعَم، لا مُسْدِي لها غيره، فقال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾، أي: أخلِصُوا له العبادة والخوفَ، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إذا فعلتم ذلك حَصَل لكم الخيرُ في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشرُّ في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنامَ التي يَعبدُونها والأوثان لا تَضرُّ ولا تنفعُ، وإنما اختلقتُم أنتم لها أسماءَ فَسَمَّيتُموها آلهة، وإنما هي مخلوقةٌ مثلكم. هكذا رَوَى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، والسدِّي. وَرَوى الوالِبيُّ، عن ابن عباس: وتصنَعُون إفكاً، أي: تَنحِتُونها أصناماً ـ وبه قال مجاهد، في رواية، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابنُ جَرير رحمه الله ـ وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغُ في الحَصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤﴾، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، ولهذا قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾، أي: فاطلبُوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، أي: لا عندَ غيره، فإنّ غيرَه لا يَملكُ شيئاً، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾، أي: كُلُوا من رزقه واعبدُوه وحدَه، واشكروا له عَلَى ما أنعَمَ بِهِ عليكم، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم القيامة، فيجازي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِه.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، أي: فَبَلَغكم ما حلَّ بهم من العذاب والنَّكال في مخالفة الرسل، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، يعني إنما على الرسولِ أن يُبَلِّغكم ما أمرَهُ الله ـ تعالى ـ به من الرِّسالةِ، والله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرِصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء. وقال قتادةُ في قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، قال: يُعزي نَبيَّه ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلامُ الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾. وهكذا نصَّ على ذلك ابنُ جرير أيضاً. والظاهرُ من السِّياقِ أن كُلَّ هذا من كلام إبراهيمَ الخليل لِقَوْمِه، يحتج عليهم لإثبات المَعَادِ، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑲ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ⑳ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ㉑ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ㉒ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ㉓﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الخليل ـ عليه السلامُ ـ أنه أرشدَهُم إلى إثباتِ المَعَاد الذي يُنكِرُونَه، بما يشاهدونه في أنفُسِهم من خَلْقِ الله إيَّاهم، بعد أن لم يكونُوا شيئاً مذكوراً، ثم وُجِدُوا وصارُوا أناساً سامعين مُبصرينَ، فالذي بدأ هذا قادرٌ على إعادته؛ فإنه سهلٌ عليه، يَسِيرٌ لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة الباهرة من خَلْقِ الله الأشياء: السمواتِ وما فيها من الكواكب النَّيِّرة، الثَّوابتِ والسيَّاراتِ، والأرضين وما فيها من مِهَادٍ وجبال، وأوديةٍ وبَرارِيٍّ وقفارٍ، وأشجارٍ وأنهارٍ، وثمارٍ وبحارٍ، كل ذلك دالٌّ على حُدُوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كُن، فيكونُ، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑲﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ

يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾. وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦].

وقولُه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾، أي: هو الحاكم المتصرِّف، الذي يفعلُ ما يشاء ويَحكم ما يُريد، لا مُعقِّبَ لِحُكمه، ولا يُسأَل عما يفعل وهم يُسألون، فله الخلقُ والأمرُ، مهما فَعَل فَعَدْلٌ؛ لأنه المالكُ الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رَوَاه أهل السنَن:

[٥١٤٢] «إن الله لو عَذَّبَ أهْلَ سَمَواته وأهل أرضه لَعَذَّبهم وهو غيرُ ظالِم لَهُم»(١). ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾، أي: ترجعُونَ يومَ القيامة.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ أي: لا يُعجِزُه أحدٌ من أهل سَماواته وأرضِه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيءٍ خائفٌ منه، فقيرٌ إليه، وهو الغنيُّ عما سِواه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: جَحدُوها وكفرُوا بالمعاد، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: لا نَصيبَ لهم فيها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: مُوجِعٌ شديد في الدنيا والآخِرَة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كُفرهم وعِنادِهم ومُكابرتهم، ودَفعِهم الحقَّ بالباطلِ: أنه ما كان لهم جوابٌ بعد مقالة إبراهيم هذه المُشتَمِلةِ على الهُدَى والبيانِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهانُ، وتوجَّهتَ عليهم الحُجّة، فَعَدلوا إلى إستعمال جَاهِهم وقُوَّة مُلْكِهم، ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨]، وذلك أنهم حَشَدوا في جَمْع أحطابٍ عظيمةٍ مُدَّةً طويلة، وحَوَّطُوا حَوْلها، ثم أضرمُوا فيها النار فارتفع لها لهبٌ إلى عَنان السماءِ. ولم تُوقَد نارٌ قطُّ أعظَمُ منها، ثم عَمَدوا إلى إبراهيم فَكَتَّفُوه وألقوه في كِفَّة المَنْجَنِيقِ، ثم قذفُوه بها فيها، فَجعلها الله عليه برداً وسَلاماً، وخَرَج منها سالماً بعدما مَكَث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً. فإنه بَذَل نفسَه للرحمن، وجَسَده للنيرانِ، وسَخا بِوَلَدِه للقُربان، وجَعَلَ ماله للضِّيفانِ، ولهذا اجتمَع على مَحَبَّتِهِ جميعُ أهلِ الأديانِ. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾، أي: سَلَّمه الله منها، بأن جعلها عليه بَرداً وَسَلاماً، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، يقول لقومه مقرّعاً لهم وموبخاً على سُوءِ صَنيعهم، في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتُم هذه لِتَجتمعُوا على عبادتها في الدنيا، صداقةً وأُلفةً منكم، بعضُكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾، على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتَّخذْتُم هذا لِتَحصلَ لكم المودّةُ في الدُّنيا فقط. ﴿ثُمَّ

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٦٩٩ وابن ماجه ٧٧ وأحمد ٥/ ١٨٢ و١٨٩ وابن حبان ٧٢٧ والبيهقي ١٠/ ٢٠٤ من حديث زيد بن ثابت، وإسناده قوي. وانظر صحيح أبي داود ٣٩٣٢.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينعكسُ هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضة وشَنآناً، ثم ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاحَدُون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، أي: يلعن الأتباعُ المتبوعين، والمتبوعُونَ الأتباعَ، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ وما لكم من ناصرين، أي: ومَصِيرُكُم ومَرْجِعكم بعد عَرَصاتِ القيامةِ إلى النارِ، وما لكم من ناصرٍ ينصُركم، ولا مُنقِذٍ يُنقِذُكم من عذابِ الله. وهذا حالُ الكافِرينَ، فأما المؤمنونَ فَبِخلافِ ذلك.

[٥١٤٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيلَ الأَحْمَسي، حدثنا أبو عاصم الثقفي، الربيع ابنُ إسماعيل، عن عمرو بن سعيد بن جَعْدَة بن هُبَيرة المخزومي، عن أبيه، عن جَدِّه، عن أم هانىء ـ أختِ علي بن أبي طالب ـ قالت: «قال لي النبي ـ ﷺ ـ أُخبرُك أنَّ الله ـ تعالى ـ يجمَعُ الأولين والآخرين يوم القيامة في صَعِيد واحد، فمن يَدْرِي أينَ الطرفان؟ فقالت: الله ورسوله أعلم. ثم يُنادِي مُنادٍ من تحتِ العَرْش: يا أهلَ التوحيدِ فَيَشْرَئِبُّون ـ قال أبو عاصم: يرفعون رؤُوسَهم ـ ثم يُنادي: يا أهلَ التوحيدِ. ثم يُنادي الثالثة: يا أهلَ التوحيدِ، إن الله قد عَفَا عنكم. قال: فيقوم الناس قد تَعَلَّق بعضُهم ببعضٍ في ظُلاَمَاتِ الدنيا ـ يعني: المَظَالِمَ ـ ثم ينادي: يا أهلَ التوحيد، ليعفو بعضُكم عن بعضٍ، وعلى الله الثوابُ»[1].

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوطٌ، يقال: إنه ابنُ أخي إبراهيم، يقولون هو: لوطُ بن هارانَ بن آزر. يعني: ولم يؤمن به من قَومه سواه وسارَة امرأة الخليل. لكن يقال: كيف الجمعُ بين هذه الآية وبين الحديث الوارِدِ في الصحيح أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارَةَ: ما هي منه؟ فقال: أختي. ثم جاء إليها فقال لها: إني قلتُ له: «إنك أختي»، فلا تُكَذِّبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيرك وغيري، فأنت أختي في الدين. وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ أنه ليس على وجه الأرض زوجانِ على الإسلام غيري وغيرُكِ، فَإنَّ لوطاً ـ عليه السلام ـ آمن به من قومه، وهاجَرَ معه إلى بلاد الشام، ثم أُرسِلَ في حياة الخليل إلى أهل «سَدُوم» وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدَّم وما سيأتي.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾، يَحتَمِلُ عودُ الضمير في قوله ﴿وَقَالَ﴾ على لوطٍ الذي هو أقربُ المذكورين، ويَحْتَمِلُ عودُه إلى إبراهيم، قال ابن عباس، والضحاك: وهو المكنى عنه بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: من قومه. ثم أخبر عنه بأنه اختار المُهَاجَرة من بين أظهرهم ابتغاءَ إظهار الدِّين والتمكُّن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: له العزَّة ولرسُولِه وللمؤمنين به، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامِه القَدَرية والشَّرعيَّة.

[٥١٤٤] وقال قتادةُ: هاجَرَا جميعاً من كُوثى وهي من أرض سوادِ الكوفة إلى الشام. قال: وذُكِرَ لنا أن

(١) إسناده ضعيف جداً، فيه الربيع بن إسماعيل، قال الذهبي في «الميزان» ٢٧٢٩: عن الجعدي من ولد جعدة بن هبيرة، قال أبو حاتم: منكر الحديث اهـ وفي الإسناد مجاهيل أيضاً.

نَبِيّ الله ـ ﷺ ـ قال: إنها ستكونُ هجرةٌ بعد هجرةٍ، ينحاز أهلُ الأرض إلى مُهاجَر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرارُ أهلها، حتى تَلفِظهم أرضُهم وتَقذَرُهم روح الله ـ عز وجلّ ـ، وتَحشُرهم النارُ مع القِرَدَةِ والخنازير، تَبيت معهم إذا باتُوا، وتَقِيل معهم إذا قالُوا، وتأكُل ما سَقَط منهم[١].

[٥١٤٥] وقد أسندَ الإمامُ أحمدُ هذا الحديثَ فَرَواه مُطَوّلاً من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص، قال: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن قتادةَ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: لما جاءتنا بيعةُ يزيدَ بن معاوية، قَدِمت الشامَ فأُخبِرتُ بمقام يقومه نوفُ البَكاليُّ، فجئتُه إذ جاء رجلٌ، فانتبذَ الناس وعليه خَميصَةٌ، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص. فلما رآه نوفٌ أمسَكَ عن الحديث، فقال عبد الله: سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنها ستكون هِجرَةٌ بعد هجرة، فينحاز الناسُ إلى مُهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرارُ أهلها، فتلفِظُهم أَرَضُوهم، تَقْذَرهم نفسُ الرّحمن، تحشرهم النار مع القِرَدة والخنازير، تَبِيتُ معهم إذا باتوا، وتَقِيل معهم إذا قالُوا، وتأكل منهم من تَخلّف». قال: وسَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «سَيخرُج أناسٌ من أمتي من قبل المشرق، يقرؤون القرآن لا يُجاوِز تَرَاقِيَهم، كُلّما خَرَج منهم قَرْنٌ قُطع، كُلّما خَرَج منهم قَرْنٌ قُطِع ـ حتى عَدّها زيادة على عشرين مَرّةً ـ كلما خرج منهم قرن قُطِع، حتى يخرج الدجّال في بَقِيّتهم»[٢]. ورواه الإمام أحمدُ عن أبي داود، وعبد الصمد، كلاهما عن هشام الدّستوَائيِّ، عن قتادةَ، به.

[٥١٤٦] وقد رواه أبو داود في سُنَنِهِ، فقال في كتاب الجهاد، باب ما جاء في سكنى الشام: حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر. حدثنا مُعَاذ بن هشام، حَدّثني أبي، عن قتادة، عن شَهر بن حَوْشَب، عن عبد الله بن عَمرو قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ستكون هجرةٌ بعد هجرةٍ، فخيارُ أهلِ الأرض ألزمُهم مُهاجرَ إبراهيم، ويبقى في الأرض شرارُ أهلِها، تلفِظُهم أرضهم وتَقْذَرهم نَفْسُ الرّحمنِ، وتَحشرُهم النارُ مع القِرَدَةِ والخنازير»[٣].

[٥١٤٧] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيدُ، أخبرنا أبو جَنابٍ يحيى بن أبي حَيَّة، عن شهر بن حَوْشَبٍ قال: سمعتُ عبد الله بن عُمَر يقول: لقد رأيتُنا وما صاحبُ الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم، ثُمّ لقد رأيتنا بآخِرَةٍ الآنَ والدينارُ والدرهمُ أحبُّ إلى أحدِنا من أخِيه المسلم، ولقد سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر، وتبايعتم بالعينَةِ[٤]، وتركتُم الجهادَ في سبيل الله، لَيُلزِمَنّكم الله مَذلّة في أعناقكم لا تُنزَع منكم حتى ترجِعُوا إلى ما كنتم عليه، وتتوبوا إلى الله عزّ وجلّ»، وسَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لتكونَنّ هجرةٌ بعد هجرةٍ إلى مُهاجَر أبيكم إبراهيم، حتى لا يبقى في الأرضينَ إلا شرارُ أهلها وتَلفِظُهم أَرَضُوهم، وَتَقذَرُهم روحُ الرحمن، وتَحشُرهم النار مع القردة والخنازير، تقِيلُ حيث قالوا وتَبيت حيث يبيتون، وما سقط منهُم فلها»، ولقد سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يخرُج من أمتي قومٌ يُسيئون الأعمال، يقرَؤون القرآن لا يُجاوِزُ حَناجرَهم ـ قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: يحقِرُ أحدَكم عِلْمه مع علمهم،

(١) هذا مرسل، أخرجه الطبري ٢٧٧٣٠ لكنه شاهد لما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٢/ ١٩٩ وإسناده حسن في الشواهد لأجل شهر بن حوشب، وأخرجه الحاكم ٤/ ٥١٠ ـ ٥١١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. ويشهد له ما بعده.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٢٤٨٢ وهو حسن في الشواهد.

(٤) العِينة: هو أن يَبيعَ من الرجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقلّ من الثمن الذي باعها به.

يقتلُون أهلَ الإسلام، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثُمَّ إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خَرَجُوا فاقتلُوهُمْ، فَطُوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه، كُلَّما طَلَع منهم قرنٌ قَطَعه الله. فردّد ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ عشرينَ مَرَّة، أو أكثر، وأنا أسمَعُ»(١).

[٥١٤٨] وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحُسَيْن بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا: حدثنا يحيى بن حَمْزَة، حدثنا الأوزاعيُّ، عن نافع ـ وقال أبو النضر، عمن حدثه، عن نافع ـ عن عبد الله ابن عُمَر: أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سَيُهَاجِرُ أهلُ الأرض هِجْرةً بعد هِجْرَةٍ، إلى مُهَاجَرِ إبراهيم، حتى لا يبقى إلاَّ شرارُ أهلِهَا تَلْفِظُهم الأَرضُون وتقذَرُهم روحُ الرحمن، وتحشرُهم النارُ مع القِرَدَةِ والخنازير، تَبيت معهم حيثُ باتُوا، وتَقيل معهم حيثُ قالوا، لها ما سَقَط منهم»(٢). غريبٌ من حديث نافع. والظاهرُ أَنَّ الأوزاعيَّ قد رَواه عن شَيْخٍ له من الضُّعفَاء، والله أعلم. وروايتُه من حديث عبد الله بن عَمْرو ابن العاص أقرب إلى الحفْظِ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، أي: إنَّه لما فَارَق قَومَه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نَبيٍّ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ صالحٌ نبيٌّ في حَيَاةِ جَدِّه. وكذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادةً، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: ويولد لهذا الولدِ وَلدٌ في حياتكما، تَقَرُّ به أعينكما. وكونُ يعقوبَ ولداً لإسحاق نَصَّ عليه القرآن، وثبتت به السنةُ النبوية، قال الله تعـالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

[٥١٤٩] وفي الصَّحيحَين: «إن الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابن الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم»(٣). فأما ما رَواه العَوفيُّ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، قال: «هما وَلَدا إبراهيم» فمعناه أنَّ ولدَ الولدِ بمنزلةِ الوَلَدِ، فإن هذا أمرٌ لا يكاد يَخفَى على من هُو دُون ابنِ عباس.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، هذه خِلْعة سَنِيّة عظِيمة مع اتخاذ الله إيَّاه خليلاً، وجَعْلِهِ له للناس إماماً، أن جَعَل في ذُرّيته النبوّة والكِتَاب، فلم يُوجَد نبي بعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا وهو من سُلالته، فجميعُ أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم، حتى كان آخِرُهم عيسى ابنَ مريم، فقام في مَلَئِهم مبشراً بالنبيِّ العربي القرشي الهاشمي، خاتَم الرسُلِ على الإطلاق، وسَيِّد ولدِ آدمَ في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صَمِيم العرب العَرْباء، من سلاَلَة إسماعيل بنِ إبراهيمَ عليه السلام. ولم يوجد نبيٌّ من سلالة إسماعيلَ سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام من الله.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٨٤، في إسناده يحيى بن أبي حية، قال في التقريب: ضعفوه لكثرة تدليسه اهـ وهو شاهد لما قبله يحسن به، والله أعلم.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» ٩٧١ ومع ضعف إسناده حيث فيه راو لم يسم، لكن يعتبر به على أنه شاهد لما قبله، والله أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة مريم عند آية: ٤٩.

وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: جَمَع الله له بين سَعادةِ الدُّنيا الموصولة بِسَعادَةِ الآخِرَةِ، فكان له في الدنيا الرزقُ الواسِعُ الهنيُّ والمنزل الرَّحْبُ، والمَوْرِدُ العَذْبُ، والزوجةُ الحسَنَة الصالحةُ، والثناءُ الجميلُ، والذكرُ الحسنُ فكلُّ أحدٍ يُحبُّه ويتولاَّه، كما قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وقتادةُ وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أُمِر به وكَمَّل طاعة ربِّه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نبيِّه لوط ـ عليه السلام ـ أنه أنكر على قومه سُوءَ صَنِيعهم، وما كانوا يفعلونه من قَبِيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يَسبقهم إلى هذه الفَعلةِ أحدٌ من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفُرون بالله، ويُكَذِّبون رَسُوله ويُخالِفُون ويَقطَعُون السبيلَ، أي: يقفون في طريق الناس يَقتُلونهم ويأخذُون أموالهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مَجَالسهم التي يجتمعون فيها، لا يُنكِر بعضُهم على بعضٍ شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانُوا يأتون بعضهم بعضاً في المَلإِ، قاله مجاهدٌ. ومن قائل: كانوا يتضارَطُون ويَتَضاحكون؛ قالته عائشة ـ رضي الله عنها ـ والقاسم. ومن قائل: كانوا يُناطِحُون بين الكِبَاش، ويُنَاقِرُون بين الدُّيوك، وكل ذلك كان يَصدُر عنهم، وكانوا شَرّاً من ذَلِكَ.

[٥١٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حَمَّاد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صَغِيرة، حدثنا سِمَاك بن حَرْب، عن أبي صالح ـ مولى أم هانىء ـ عن أُمِّ هانىء قالت: سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ عن قوله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، قال: يَحذِفُون أهلَ الطريقِ، ويَسْخرون منهم، وذلك المُنْكَرُ الذي كانُوا يأتُونه[1]. ورَواه الترمذيُّ، وابنُ جَرير، وابنُ أبي حاتم من حديث أبي أسامةَ حماد بن أسامةَ، عن أبي يونس القُشَيري حاتم بن أبي صَغِيرة به، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفَةَ، حدثنا محمد بن كثير، عن عَمْرو بن قيس، عن الحَكَم، عن مجاهد: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: الصَّفِير، ولَعِب الحَمَام

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٩٠ وأحمد ٦/ ٢٤١ والطبري ١٧٧٤٣ و١٧٧٤٤ والحاكم ٢/ ٤٠٩. حسنه الترمذي، وصححه الحاكم على شرط مسلم! ووقع في التلخيص «على شرط البخاري ومسلم»! والصواب أن إسناده ضعيف، وليس على شرط واحد منهما. فمداره على أبي صالح واسمه باذام، قال في «الميزان»: ضعفه البخاري، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال ابن معين: ما به بأس، وقال إسماعيل بن أبي خالد: كان أبو صالح، يكذب. وله علة ثانية: سماك بن حرب تغير بأخرة، لذا ضعفه الجمهور. ثم إن المتن منكر، فإن ظاهر الآيات تشير إلى أن المنكر الذي كانوا يقترفونه هو «اللواطة» وذلك جهاراً حتى في ناديهم. وإن كانوا يقارفون منكرات أخرى، لكن أشدها ما ذكره القرآن، والله أعلم.

والجُلاهق، والتبوُّل في المجلس، وحَلّ أزرار القَباءِ. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا من كُفرهم واستهزائهم وعِنادِهم. ولهذا استنصَرَ عليهم نَبيُّ الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لَمَّا استنصر لوطٌ ـ عليه السلامُ ـ الله عليهم، بعثَ الله لِنُصرته ملائكةً فَمَرُّوا على إبراهيم ـ عليه السلام ـ في هيئة أضياف، فجاءهم بما يَنبغي للضَّيفِ، فلما رأى أنه لا هِمَّة لهم إلى الطعام نَكِرَهم وأوجَسَ منهم خيفة، فَشرعُوا يؤانسونه ويُبَشِّرونه بوجُود ولدٍ صالح من امرأتِه سارَةَ ـ وكانت حاضِرةً ـ فَتَعجَّبت من ذلك، كما تَقدَّم بيانه في سورة «هود» «والحجر». فلما جاءَتْ إبراهيمَ البُشرى، وأخبروه بأنهم أُرسِلُوا لهلاك قوم لوطٍ، أخذَ يدافع لعلهم يُنظَرُون، لعل الله أن يَهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تُمَالِئُهم على كُفرِهم وَبغيهم ودَبْرِهم. ثم ساروا من عنده فدخلُوا على لوط في صورة شَباب حِسَانٍ، فلما رآهم كذلك ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، أي: اغتمَّ بأمرهم، إن هو أضافهم خافَ عليهم من قومه، وإن لم يُضفهم خَشي عَليهم مِنهُم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة، ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، وذلك أن جبريلَ ـ عليه السلام ـ اقتلع قُراهم من قَرارِ الأرض، ثم رَفعها إلى عَنان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حِجَارةً من سجِّيل منضودٍ، مُسَوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بُحيرة خَبيثة مُنتِنة، وجعلهم عبرةً إلى يوم التناد، وهم من أشدِّ الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾، أي: واضحةً، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن عبده ورسوله شُعَيب ـ عليه السلام ـ أنَّه أنذَر قومَه أهل مَديَن، فأمرهُم بعبادَة الله وحدَه لا شريكَ له، وأن يخافوا بأس الله ونِقْمَتَه وسَطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾. قال ابنُ جرير: قال بعضُهم معناهُ: واخشُوا اليومَ الآخر. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقولُه: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نهاهم عن العَيْثِ في الأرض بالفساد، وهو السعيُ فيها والبَغْيُ على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصُون المِكْيَالَ والميزان، ويقطعُون الطريقَ على الناس، هذا مع كُفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برَجْفَةٍ عظيمةٍ زَلْزَلت عليهم بلادَهم، وَصَيحةٍ أخرجت

القلوبَ من حَنَاجرها، وعذابِ يَوْم الظلَّةِ الذي أزهَقَ الأرواحَ من مُستقَرِّها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تَقدَّمت قصتهُم مبسوطةً في سورة الأعراف، وهُودٍ، والشُّعَرَاءِ. وقولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، قال قتادةُ: مَيِّتين. وقال غيره: قد أُلقِيَ بعضهم على بَعضٍ.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المُكَذِّبة للرسل كيف أبادَهُم وتَنَوَّع في عذابهم، فأخذَهم بالانتقام منهم، فعادٌ قومُ هودٍ ـ عليه السلام ـ، وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبةٌ من حَضْرَموت بلاد اليمن، وثمودُ قومُ صالحٍ وكانوا يسكنون الحِجْرَ قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمرُّ عليها كثيراً، وقارُون صاحبُ الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعَون ملكُ مصر في زمانِ مُوسَى ووزيرُه هامان القِبْطِيان الكافران بالله ورسوله، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، أي: كانت عقوبته بما يُناسِبهُ، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عادٌ، وذلك أنهم قالوا: من أَشَدُّ منا قوة؟! فجاءتهم ريحٌ صَرْصَر باردة شديدةُ البَرْدِ، عاتِيَةٌ شَدِيدَة الهُبُوب جداً، تحملُ عليهم حَصْبَاءَ الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجُل منهم إلى عَنَانِ السماءِ، ثم تَنكُسُه على أُمِّ رأسه فَتَشْدَخُه، فيبقى بَدَناً بلا رأس كأنهم أعجازُ نخل منقَعِر. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمودُ، قامت عليهم الحجَّةُ وظَهرت لهم الدَّلالَةُ، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرةُ، مثل ما سألوا سواءً بسواءٍ، ومع هذا ما آمنوا بل استمرُّوا على طغيانهم وكُفرهم، وتهددُوا نَبِيَّ الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعَّدُوهم بأن يُخرجُوهم ويَرجُمُوهم، فجاءتهم صيحةٌ أخمدَت الأصوات منهم والحركاتِ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو قارونُ الذي طَغَى وبَغَى وعَتَا، وعَصَى الربَّ الأعلى، ومَشَى في الأرضِ مرحاً، وفَرِح ومَرِح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضلُ من غيره، واختال في مِشْيَته، فخسَفَ الله به وبداره الأرضَ، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وهم فرعونُ ووزيرُه هامانُ، وجنودُه عن آخرهم، أُغرِقُوا في صَبيحةٍ واحدةٍ، فلم ينج منهم مُخبرٌ. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، أي: فيما فَعَل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: إنما فَعَلَ ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كَسَبَت أيديهم. وهذا الذي ذكرناه ظاهرُ سياقِ الآيةِ، وهو من باب اللَّفِّ والنَّشرِ، وهو أنه ذَكَر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهتُ على هَذا لأنه قد رُوي أن ابن جُرير قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: قومُ لوط. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، قال: قومُ نوح. وهذا منقطع عن ابن عباس؛ فإن ابن جُريج لم يُدرِكه. ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاكَ قوم نُوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرِّجز من السماء، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق. وقال قتادةُ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قومُ لوطٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، قومُ شُعَيب. وهذا بعيد أيضاً لما تقدَّم، والله أعلم.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثلٌ ضَرَبه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة مِن دُونِ الله، يرجُون نَصْرَهم ورزْقَهم، ويتمسَّكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كَبَيت العنكبُوت في ضَعفه وَوَهَنِه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كَمَن يتمسَّك بِبَيت العنكبُوتِ، فإنه لا يُجدِي عنه شيئاً، فلو عَلِموا هذا الحالَ لما اتَّخذوا من دون الله أولياء. وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبُه لله، وهو مع ذلك يُحسِن العمل في اتباع الشرع فإنه مُتَمَسِّكٌ بالعُروة الوُثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.

ثم قال تعالى مُتوعِّداً لمن عَبَد غيرَه وأشرَك به: إنه تعالى يعلم ما هُم عليه من الأعمال، ويعلَم ما يُشركون به من الأنداد، وسَيَجزيهم وَصْفَهم إنه حكيمٌ عليمٌ. ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أي: وما يَفهَمُها ويتدبَّرُها إلا الرَّاسِخُون في العلم المُتَضلِّعون منه.

[٥١٥١] قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاقُ بن عيسى، حدثني ابنُ لَهيعةَ، عن أبي قَبِيلٍ، عن عَمرو ابن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: عَقَلْتُ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ ألفَ مَثَل. وهذه مَنْقَبة عظيمةٌ لِعَمرو بن العاص ـ رَضِي الله عنه ـ حيث يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(١). وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا عَليُّ بن الحسين، حَدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، حدثنا ابنُ سِنان، عن عَمرو بن مُرّة قال: مَا مَررتُ بآيةٍ من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنَتني، لأني سَمِعتُ الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قُدرته العظيمة: أنه خلق السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، يعني: لا على وَجْهِ العَبَث واللَّعِب، ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾، أي: لدلالةً واضحةً على أنه تعالى المتفرِّدُ بالخَلْقِ والتدبيرِ والإلهيَّةِ. ثم قال تعالى آمراً رَسُولَه والمؤمنين بتلاوةِ القُرآن، وهو قِراءَتُه وإبلاغُه للناس. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾، يعني: أن الصلاة تشتمِلُ على شيئين: على تَرْكِ الفواحِش والمُنكَراتِ، أي: إنَّ مُواظَبَتها تحمِلُ على تَرْكِ ذلك. وقد جاء في حديث عِمْران، وابن عباس مرفوعاً: «من لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر، لم تَزِدْهُ من الله إلا بُعداً».

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٠٣، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف.

## ذِكرُ الآثارِ الوَارِدَةِ في ذَلِكَ:

[٥١٥٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون المُخرِّمي الفَلاَّسُ، حدَّثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ـ دُرُخْتُ ـ حدثنا عمر بن أبي عثمان، حدثنا الحسن، عن عمران بن حُصَين قال: سُئِلَ النبيُّ ـ ﷺ ـ عن قول الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قال: «مَن لم تَنهه صَلاتهُ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكرِ فَلا صلاةَ لَهُ»[١].

[٥١٥٣] وَحَدَّثنا علي بن الحُسَين، حَدَّثنا يحيى بن أبي طَلْحَةَ اليَرْبُوعيُّ، حدثنا أبو مُعَاوية، عَن ليث، عن طاوس، عن ابن عَبَّاس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ لم تَنْهَه صلاتُه عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ لم يَزْدَدْ بها من الله إلا بُعداً»[٢]. ورواه الطَّبَرانيُّ من حَدِيث أبي مُعَاوِيَةَ.

وقال ابنُ جَرِير: حَدَّثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن العلاء بن المُسيَّب، عمن ذكره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قال: فَمَن لم تأمُره صلاتُه بالمعرُوفِ وتنهه عن المنكر لم يَزْدد بصلاته من الله إلا بُعداً. فهذا موقوف.

[٥١٥٤] قال ابنُ جرير: وَحَدَّثنا القاسم، حَدَّثَنَا الحسين، حدثنا عليّ بن هاشم بن البَرِيد، عن جُويبر، عن الضحاك، عن ابن مسعود، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يُطِع الصلاة. وطاعَةُ الصلاة أن تَنْهَى عن الفحشاءِ والمُنْكَر». قال: وقال سُفيان: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾؟ قال: سفيان: إي والله، تأمُرُهُ وتنهاه[٣].

[٥١٥٥] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد، عن جُويبر، عن الضحاك، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال أبو خالد مَرّة: عن عبد الله ـ: لا صَلاَةَ لمن لم يُطِع الصلاة، وطاعةُ الصلاةِ تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر[٤]. والموقوفُ أصحُ، كما رواه الأعمش، عن مالك ابن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيدَ قال: قيل لعبد الله: إن فُلاناً لَيُطِيل الصلاة؟ قال: إن الصَّلاة لا تنفَع إلا مَن أطاعها.

[٥١٥٦] وقال ابن جُرير: وقال علي، حدثنا إسماعيل بن مسلم، عن الحَسَن قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: من صَلَّى صلاةً لم تَنْهَه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَد بها من الله إلا بعداً[٥]. والأصحُ في هذا

---

(١) ضعيف. له علتان، عمر بن أبي عثمان، وهو مجهول. والحسن عن عمران، منقطع. راجع مراسيل ابن أبي حاتم. والصواب أنه عن الحسن مرسل. أخرجه القضاعي ٥٠٨ وإسناده ضعيف، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» ١/ ١٥٠: رواه علي بن معبد في «كتاب الطاعة والمعصية» من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني ١١٠٢٥ وابن أبي حاتم، وابن مردويه، كما في الدر ٥/ ٢٧٩. قال الهيثمي في «المجمع» ٣٥٥٧: فيه ليث بن أبي سُليم، وهو ثقة، لكنه مدلس اهـ كذا قال الهيثمي، وقال الحافظ عنه في «التقريب»: صدوق، اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك اهـ وله طريق آخر أخرجه القضاعي ٥٠٩ وفيه حفص ابن سليمان، وهوضعيف. والصواب وقفه على ابن عباس، كما رواه غير واحد، وانظر الآتي.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٧٧٨٤، فيه جويبر، وهو متروك متهم، والضحاك لم يلق ابن مسعود، ولا أدركه. وقد أخرجه الطبري ٢٧٧٨٢ موقوفاً، وهو الصواب.

(٤) إسناده ضعيف جداً كسابقه، والصواب الوقف كما قال ابن كثير رحمه الله.

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٧٧٨٥، عن الحسن مرسلاً، ومرسلات الحسن واهية، لأنه يحدث عن كل أحد، كما هو مقرر في كتب المصطلح. وأسنده الطبري ٢٧٧٨٦ عن الحسن من قوله. وهو أصح، وكرره ٢٧٧٨٧ عن الحسن وقتادة موقوفاً عليهما. وقد اختار ابن جرير الوقف في هذه الأحاديث جميعاً.
=

كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عبَّاس، والحسَنَ، وقتادَةَ، والأعمشِ، وغيرهم، والله أعلم.

[٥١٥٧] وقال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا يوسف بن مُوسَى، حدثنا جَرِير ـ يعني ابنَ عبدِ الحميد ـ عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أُرَاه عن جابر ـ شَكَّ الأعمش ـ قال: قال رجلٌ للنبي ـ ﷺ ـ: إن فلاناً يُصَلِّي فإذا أصبح سَرَق! قال: «سينهاه ما تقُول»(١).

وحدثنا محمد بن موسى الحَرَشِيُّ، حدثنا زَياد بنُ عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه، ولم يَشُكَّ. ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش، واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة أو غيره، وقال قيس، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابرٍ. وقال جريرٌ وزيادُ بنُ عبدِ الله: عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر.

[٥١٥٨].وقال الإمام أحمد: حَدَّثنا وكيعٌ، حدثنا الأعمش قال: أخبرنا أبو صالح، عن أبي هُرَيرَةَ قال: جاء رَجُلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: إنَّ فلاناً يُصَلِّي بالليل فإذا أصبحَ سَرَق! فقال: إنه سَيَنهاه ما تقُول»(٢).

وتشتَمِلُ الصلاةُ على ذِكْر الله تعالى، وَهُوَ المطلوبُ الأكبرُ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾، أي: أعظم من الأوَّل، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم. وقال أبو العالية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾، قال: إن الصلاةَ فيها ثلاثُ خلالٍ، فكلّ صلاة لا يكون فيها شيءٌ من هذه الخلال فليست بصلاةٍ: الإخلاصُ، والخشيةُ، وذِكْرُ الله. فالإخلاصُ يأمُره بالمعروفِ، والخشيةُ تنهاه عن المنكر، وذِكْرُ الله القرآنُ يأمره وينهَاه. وقال ابنُ عونِ الأنصاريُّ: إذا كنتَ في صلاةٍ فأنتَ في معروفٍ، وقد حَجَزتك عن الفحشاءِ والمنكر، والذي أنتَ فيه من ذِكْرِ الله أكبرُ.

وقال حَمَّادُ بن أبي سُلَيمان: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾، يعني: ما دُمتَ فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾، يقول: وَلَذِكْرُ الله لعبادِه أكبرُ إذا ذكروه من ذكرهم إياه. وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عباس: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾، قال: ذِكْرُ الله عندَ طَعَامِك وعند منامك، قلت: فإنَّ صاحِباً لي في المنزل يقولُ غير الذي تقول؟ قال: وأيَّ شيء يقولُ؟ قلت: قال: يقول الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، فَلَذِكرُ الله إيانا أكبرُ من ذكرِنا إيَّاه. قال: صَدَق. قال: وحدثنا أبِي، حدثنا النُفَيلي، حدثنا إسماعيلَ، عن خالدٍ، عن عِكرمَةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾، قال: لها وَجْهَانِ، قال: ذكرُ الله عندمَا حَرَّمه، قال: وذكرُ الله إيَّاكم أعظمُ من ذِكرِكُم إيَّاه. وقال ابن جرير: حدثني يعقُوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أنبأنا عطاءُ بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابنُ عباس: هل تَدرِي ما قولُه تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾؟ قال: قلتُ: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيحُ والتحميدُ والتكبيرُ في الصلاة، وقراءةُ القرآنِ، ونحوُ ذلك. قال: لقد قلتَ قولاً عَجَباً، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذِكْرُ الله إيَّاكم عند ما أَمَر به أو نَهَى عنه إذا

---

= تنبيه: ثم إن المتن فيه لفظ «لم يزدد من الله إلا بعداً» يعارضه الحديث الآتي وهوقوله «إن صلاته ستنهاه» والثاني أصح إسناداً، والله تعالى أعلم.

(١) حديث صحيح. أخرجه البزار كما في «المجمع» ٢/٢٥٨ من حديث جابر، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢/٤٤٧ والبزار كما في «المجمع» ٢/٢٥٨ وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح اهـ.

ذكرتُموه أكبرُ من ذكركم إياه. وقد رُوِي هذا من غير وجه عن ابن عباس. ورُوِي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسَلْمان الفارسي، وغيرهم، واختاره ابنُ جرير.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قال قتادةُ وغيرُ واحدٍ: هذه الآية منسوخةٌ بآية السيف، ولم يَبْقَ معهم مجادلةٌ، وإنما هو الإسلامُ أو الجزيَةُ أو السيفُ. وقال آخرون: بل هي باقيةٌ محكمةٌ لمن أرادَ الاستبصارَ منهم في الدِّين، فيجادلُ بالتي هي أحسنُ، ليكونَ أنجعَ فيه كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارونَ حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]. وهذا القولُ اختارَه ابنُ جرير، وحكاه عن ابنِ زيدٍ.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾، أي: حادُوا عن وَجْهِ الحقّ، وعَمُوا عن واضح المحجَّةِ، وعانَدُوا وكابَرُوا، فحينئذ يُنتقَلُ من الجِدَالِ إلى الجِلاَدِ، ويُقَاتلون بما يردَعُهم ويمنَعُهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]. قال جابر: أُمِرْنا مَنْ خالَفَ كتابَ الله أن نَضْربه بالسيف. قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداءِ الجزية. وقولُه: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يُعلَمُ صِدقُه ولا كَذِبُه فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مُجملاً مُعلّقاً على شرط، وهو أن يكون مُنزّلاً، لا مُبدّلاً ولا مُؤوّلاً.

[٥١٥٩] قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عُمَر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعِبْرَانية، ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أُنزِل إلينا، وما أُنزِل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون[(١)]. وهذا الحديث تفرد به البخاري.

[٥١٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عُمر، حدثنا يونُس، عن الزهريِّ، أخبرني ابن أبي نَمْلَةَ: أن أبا نَملَةَ الأنصاري أخبره، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ـ ﷺ ـ جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: الله أعلم. قال اليهوديُّ: أنا أشهدُ أنها تتكلم. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا حَدَّثكم أهل الكتاب فلا تُصَدِّقُوهم ولا تُكَذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورُسُلِه وكُتُبه، فإن كان حقاً لم تُكَذِّبوهم، وإن كان باطلاً لم تُصَدِّقوهم»[(٢)]. قلت: وأبو نَمْلَةَ هذا هو: عُمَارة، وقيل: عَمَّار. وقيل: عَمرو بن معاذ بن زُرَارة الأنصاري، رضي الله عنه. ثم ليُعلَمْ أن أكثر ما يُحدِّثون به غالبُه كذبٌ

(١) أخرجه البخاري ٤٤٨٥، وقد تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٦٤٤ وأحمد ٤/١٣٦ وابن حبان ٦٢٥٧ والبيهقي ٢/١٠ وإسناده لين، ابن أبي نملة هو نملة وثقه ابن حبان وحده، وهو مقبول، ولم يتابع على صدره، وعجزه صحيح بشاهده.

وبُهتَان، لأنه قد دخله تحريفٌ وتبديلٌ وتَغييرٌ وتَأويلٌ، وما أقلَّ الصدقَ فيه، ثم ما أقلَّ فائدةَ كثيرٍ منه لو كان صحيحاً. قال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سُفيان، عن سليمان بن عامر، عن عُمَارَة بن عُمَير، عن حُرَيث بن ظُهَير، عن عبد الله ـ هو ابن مَسعُودٍ ـ قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يَهدُوكم وقد ضَلُّوا، إما أن تُكَذِّبوا بحق أو تُصدِّقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال.

وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن عُبَيد الله بن عَبْدِ الله، عن ابن عباس قال: كيف تسألُون أهلَ الكتاب عن شيءٍ وكتابُكم الذي أنزل إليكم على رَسُوله ـ ﷺ ـ أحدثُ، تقرؤونه محضاً لم يُشَب، وقد حَدَّثكم أنَّ أهل الكتاب بَدَّلوا كتابَ الله، وغَيَّرُوه وكَتَبُوا بأيديهم الكتابَ، وقالوا هُو من عند الله، ليشترُوا به ثَمَناً قليلاً؟ ألا ينهاكُم ما جاءكُم من العلم عَن مَسألَتهم؟ لا والله ما رأينا منهُم رَجُلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وقال البخاري: وقال أبو اليَمانِ: أخبرنا شُعَيب، عن الزهريِّ، أخبرني حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سَمِعَ مُعَاوية يُحَدِّث رهطاً من قُرَيش بالمدينة ـ وذَكر كعبَ الأحبار ـ فقَالَ: إن كان من أصدقِ هؤلاء المحدِّثين الذين يحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لَنَبلُوا عليه الكَذِبَ. قلتُ: معناه أنه يقع منه الكذبُ لغةً من غير قَصْدٍ، لأنهُ يُحَدِّث عن صُحُفٍ هو يُحسِنُ بها الظنَّ، وفيها أشياءُ موضوعةٌ ومكذوبةٌ، لأنهم لم يكن في مِلَّتهم حُفَّاظٌ مُتقِنُون كهذه الأمّةِ العظيمة، ومع ذلك وقُرب العَهد وُضِعَت أحاديثُ كثيرةٌ في هذه الأمّة، لا يَعلَمُها إلا الله ومَن مَنَحه الله علماً بذلك، كُلٌّ بِحَسَبِهِ، ولله الحمدُ والمنّةُ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قال ابنُ جريرٍ: يقول الله تعالى: «كما أنزلنا الكُتُبَ على من قَبلكَ ـ يا محمدُ ـ من الرسلِ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب». وهذا الذي قاله حَسَنٌ، ومناسبتُه وارتباطُه جيِّدٌ. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: الذين أخذوه فتَلَوْه حقَّ تِلاوَتِهِ من أحبارهم العُلَماءِ الأذكِيَاء، كعبد الله بن سلام وسَلْمَان الفارسي، وأشباههما. وقولُه: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، يعني: العربَ من قُرَيش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: ما يُكَذِّب بها ويَجحدُ حقَّها إلا من يستُر الحقَّ بالباطِل، ويغطِّي ضوءَ الشمسِ بالوصائل، وهيهات! ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، أي: قد لَبِثتَ في قَومِك ـ يا محمدُ ـ ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمُراً لا تقرأُ كتاباً ولا تُحسِنُ الكتابَة، بل كلُّ أحد من قَومِكَ وغيرهم يعرفُ أنَّك رجلٌ أُمّي لا تقرأُ ولا تَكتُب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وهكذا كان ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ لا يُحسِن الكتابة ولا يَخُطُّ سطراً ولا حَرْفاً بيده. بل كان له كُتَّابٌ يكتبون بين يَدَيهِ الوحيَ والرسائلَ إلى الأقاليم.

ومن زعم من متأخري الفُقَهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجِيِّ ومن تابعه، أنه عليه السلامُ كَتَب يوم

الحُدَيبية: «هذا ما قاضى عليه محمدُ بنُ عبد الله»، فإنما حَمَله على ذلك روايةٌ في صَحيح البخاري: «ثم أَخَذَ فَكَتب». وهذه محمولةٌ على الرواية الأخرى: «ثم أَمَر فَكَتب»[(١)]. ولهذا اشتدَّ النكير من فُقَهاء المغرب والمشرق على مَن قال بقول الباجِيّ، وتَبرؤوا منه، وأنشدُوا في ذلك أقوالاً، وخَطَبُوا به في مَحافلهم. وإنما أراد الرجلُ ـ أعني الباجيَّ، فيما يظهرُ عنه ـ أنه كتب ذلك على وَجْهِ المُعجِزَة، لا أنه كان يُحسِن الكتابةَ.

[٥١٦١] كما قال ـ ﷺ ـ إخباراً عن الدجال: «مكتوبٌ بينَ عينَيهِ: كافر». وفي رواية: «كَ فَ رَ، يقرؤها كل مؤمن»[(٢)].

[٥١٦٢] وما أورَدَه بعضُهم من الحديث أنه لم يَمُت ـ ﷺ ـ حتى تَعَلَّم الكتابة[(٣)]، فَضَعيفٌ لا أصلَ له. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا﴾، أي: تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، تأكيد أيضاً، وخرج مَخرَج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقولُه تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: لو كنتَ تُحسِنُها لارتابَ بعضُ الجَهَلة من الناس فيقول: إنما تَعَلَّم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع عِلمِهم بأنه أميٌ لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦]، وقال هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: هذا القرآنُ آياتٌ بَيِّنةٌ واضحةٌ في الدلالة على الحق، أمراً ونهياً وخَبَراً، يحفظهُ العلماءُ، يَسَّره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧].

[٥١٦٣] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من نبي إلا وقد أُعطِي ما آمَنَ على مِثْلِهِ البشرُ، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً»[(٤)].

[٥١٦٤] وفي حديث عياض بن حِمَار، في صحيح مسلم، يقول الله تعالى: «إني مُبتَلِيك ومُبتلٍ بكَ، ومُنَزِّلٌ عليكَ كتاباً لا يَغسِله الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظانَ»[(٥)]. أي لو غَسل الماءُ المحلَّ المكتوبَ فيه لما احتيجَ إلى ذلك المَحَلّ.

[٥١٦٥] كما جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآنُ في إِهَابٍ ما أحرقَته النارُ»[(٦)]. لأنه محفوظ في

(١) هو بعض حديث الحديبية المشهور، وفيه ذكر الصلح. انظر صحيح البخاري ٢٦٩٨ و٢٦٩٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧١٣١ و٧٤٠٨ ومسلم ٢٩٣٣ وأبو داود ٤٣١٦ و٤٣١٧ وأحمد ٣/ ١٧٣ والترمذي ٢٢٤٦ وأبو يعلى ٣٠١٦ و٣٠١٧ من حديث أنس.

(٣) ذكره الحافظ في «فتح الباري» ٧/ ٥٠٤ وقال: أخرجه ابن أبي شيبة، وعمر بن شبة من طريق مجاهد عن عون بن عبد الله، وهذا مرسل، قال مجاهد: وذكرته للشعبي، فقال: صدق. قد سمعت من يذكر ذلك اهـ وهذا الأثر عن عون والشعبي مرسل. ولا يحتج بالمراسيل في هذا المقام فإن عدة آيات من القرآن الكريم تصف رسول الله ﷺ بأنه أميّ، وكذا جاء في الأحاديث الصحيحة.

(٤) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٤.

(٥) تقدم في تفسير سورة الفرقان عند آية: ٢٠.

(٦) أخرجه الدارمي ٣١٩٢، وأبو يعلى ١٧٤٥ وأحمد ٤/ ١٥١ ـ ١٥٥ والطبراني ٧/ ٣٠٨ من حديث عقبة بن عامر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٢٧: فيه ابن لهيعة، وفيه خلاف اهـ والراوي عنه أحد العبادلة، وهو عبد الله بن يزيد المقرىء، فالإسناد لا بأس به إن شاء الله. وورد من حديث عصمة بن مالك أخرجه الطبراني ١٧/ ١٨٦ وأعله الهيثمي ١١٦٢٨ =

الصدور، مُيَسَّرٌ على الألسنة، مُهَيمِنٌ على القلوب، معجز لفظاً ومعنى. ولهذا جاء في الكُتُب المتقدِّمة، في صِفَة هذه الأمة: أَنَاجِيلُهم في صُدُورهم.

واختار ابنُ جرير أَنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، بل العلمُ بأنك ما كنت تتلُو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولاَ تَخُطُّه بيمينك آياتٌ بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكِتَابِ. ونقله عن قتادَةَ، وابن جُرَيج. وحكَى الأول عن الحَسَن البصري فقط. قلتُ: وهو الذي رَوَاه العوفيُّ عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاكُ، وهو الأظهرُ، والله أعلم. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: ما يُكَذِّب بها ويَبخَسُ حَقَّها ويردُّها إلا الظالمون، أي: المعتدُون المكابرون، الذين يعلَمُون الحقَّ ويَحيدُون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين في تَعَنُّتهم وطَلَبهم آياتٍ ـ يعنُون ـ تُرشِدُهم إلى أنَّ محمداً رسول الله، كما جَاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو عَلِم أنكم تهتَدُون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن ذلك سهلٌ عليه، يَسِير لديه، ولَكِنَّه يعلَم منكم أنما قَصْدُكم التعنُّتُ والامتحانُ، فلا يُجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقولُه: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: إنما بُعِثتُ نَذيراً لكم بَيِّنَ النِّذَارة فعليَّ أن أُبلِغَكم رسالة الله تعالىٰ، و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ثم قال تعالى مبيناً كثرةَ جهلهم، وسَخَافة عقلهم، حيث طَلَبُوا آياتٍ تَدُلُّهم على صِدْقِ محمد ﷺ فيما جاءهم به، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، الذي هو أعظمُ من كلِّ معجزة، إذ عَجَزت الفُصَحاء والبلغاء عن مُعَارضَتِه، بل عن مُعَارضَةِ عَشر سُورٍ من مثله، بل مُعارضَةِ سُورَةٍ منه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾، أي: أو لم يكفهم آيةٌ أنّا أنزلنا عليك هذا الكتابَ العظيم، الذي فيه خَبَرُ ما قبلهم، ونَبأُ ما بعدهم، وحُكم ما بينهم، وأنتَ رَجُلٌ أُمّي لا تَقرَأ ولا تكتُب، ولم تُخَالِط أحداً من أهل الكتاب، فَجِئتَهم بأخبار ما في الصحُفِ الأولى، ببيانِ الصَّواب مما اختلفُوا فيه، وبالحقِّ الواضح البَيِّن الجَليّ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن

= بالفضل بن المختار، وأنه ضعيف اهـ وله علة ثانية أحمد بن رشدين، متهم بالكذب. وورد من حديث سهل بن سعد أخرجه الطبراني ٥٩٠١ وابن عدي ٥/ ٢٩٥ و٦/ ٤٦٩ وأعله الهيثمي ١١٦٢٩ بعبد الوهاب بن الضحاك، وأنه متروك. وأحسن هذه الطرق، طريق ابن لهيعة. فالحديث حسن أو يشبه الحسن، والله أعلم.

يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

[٥١٦٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سَعِيدُ بن أبي سَعِيد، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطِي من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتهُ وَحْياً أوحَاهُ الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1]. أخرجاه من حديث الليث. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إنَّ في هذا القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾، أي: بياناً للحقِّ، وإزاحةً للباطلِ، و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ بما فيه حلول النِّقماتِ ونُزُولِ العقاب بالمكذِّبين والعاصين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾. أي: هو أعلمُ بما تُفِيضُونَ فيه من التَّكذيب، ويعلمُ ما أقولُ لكم من إخباري عنه بأنه أرسلَني، فلو كنتُ كاذِباً عليه لانتقَم منِّي. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، وإنما أنا صادقٌ عليه فيما أخبرتُكم به، ولهذا أَيَّدني بالمُعجزاتِ الواضِحَاتِ، والدلائِلِ القاطِعَاتِ. ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا تخفى عليه خافيةٌ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، أي: يوم مَعَادهم سَيَجزيهم على ما فَعَلُوا، ويُقابِلُهم على ما صَنَعُوا من تكذيبهم بالحقِّ واتِّباعهم الباطلَ، كَذَّبوا برُسُلِ الله مع قيام الأدِلَّةِ على صِدْقِهم، وآمنوا بالطَّوَاغيت والأوثانِ بلا دَليلٍ، فَسَيجْزِيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن جَهلِ المشركين في استعجالِهم عذابَ الله أن يقَعَ بهم، وبأسَ الله أن يَحلَّ عليم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: لولا ما حَتَم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءَهم العذابُ قريباً سريعاً كما استعجَلُوه. ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾، أي: فجاءة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: يستعجِلُون العذابَ وَهُوَ واقعٌ بهم لا محالة. قال شعبة، عن سِمَاكٍ، عن عكرمة قال في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: البحر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عُمَر بن إسماعيلَ بن مُجَالِد، حدثنا أبي، عن مُجَالِدٍ، عن الشعبي: أنه سَمِع ابن عباس يقول: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وجَهَنَّم هو هذا البحرُ الأخضرُ، تنتثر الكواكبُ فيه، وتُكوَّر فيه الشمسُ والقمرُ، ثم يُستوقَدُ فيكون هُوَ جَهَنَّم.

[٥١٦٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حُيَيٍّ، حدثنا صفوان بن يَعْلَى، عن أبيه أنَّ النبي ـ ﷺ ـ قال: «البحرُ هو جَهَنَّم». قالوا لِيَعْلَى. فقال: ألا تَرَون أن الله

---

(١) تقدم قبل قليل، وخرجناه في تفسير آية ٢٤ من سورة البقرة.

تعالىٰ يقول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قال: لا، والذي نفسُ يعلَى بيدِه لا أدخُلُها أبداً حتى أُعرَضَ على الله، ولا يُصِيبُنِي منها قطرةٌ حتى أُعْرَضَ على الله عزَّ وجل(١). هذا تفسيرٌ غريبٌ، وحديثٌ غريبٌ جدّاً، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، فالنار تغشاهُم من سائر جهاتِهم، وهذا أبلغُ في العذابِ الحِسِّي. وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تهديدٌ وتقريعٌ وتوبيخٌ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٨ ـ ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦].

﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

هذا أمرٌ من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين بالهجرةِ من البَلَد الذي لا يَقدِرُون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعةِ، حيث يمكن إقامةُ الدين، بأن يُوَحِّدوا الله ويعبدُوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

[٥١٦٨] قال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن عبد رَبِّه، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني جُبَير بن عَمرو القُرَشي، حدثني أبو سعد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى الزُّبير بن العَوّام، عن الزُّبير بن العَوَّام قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «البلادُ بلادُ الله، والعبادُ عبادُ الله، فَحيثُما أصبتَ خيراً فأقِم»(٢). ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكَّةَ مُقامهم بها، خرجُوا مُهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمَنُوا على دينهم هناك، فوجَدُوا هناك خيرَ المُنزلين، أصحمةَ النجاشيَّ مَلِك الحبشة ـ رَحِمه الله ـ آواهم وأيَّدهم بنصره، وجعلهم سُيُوماً ببلادِهِ. ثم بَعْدَ ذلك هاجرَ رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابُه الباقُون إلى المدينة النَّبويَّة يَثْرِبَ المُطَهَّرة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: أينما كنتُم يدرككم الموتُ، فكونوا في طاعة الله وحيثُ أمركم الله، فهو خيرٌ لكم، فإنَّ الموت لا بدَّ منه، ولا مَحيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازَاه أفضلَ الجزاءِ، ووافاه تمام الثواب. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) حديث منكر. تقدم تخريجه في تفسير سورة الكهف عند آية: ٢٩، وقد ركب الصحابة رضي الله عنهم، البحر في الغزو وغيره، والله أعلم.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ١/١٦٦، ١٤٢٠ وفيه مجاهيل كما في «المجمع» ٦٢٩٨، فهو واهٍ.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: لنُسكننَّهم منازلَ عاليةً في الجنة تجري من تحتها الأنهارُ على اختلافِ أصنافها، من ماءٍ وخمرٍ، وعَسَلٍ ولَبَنٍ، يُصرِّفُونها ويُجرونها حيثُ شاؤوا. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكِثِينَ فيها أبداً لا يَبغُون عنها حِوَلاً، ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، نِعمَت هذه الغرفُ أجراً على أعمال المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على دِينهم، وهاجَرُوا إلى الله، ونابَذُوا الأعداءَ، وفارَقُوا الأهلَ والأقرِباءَ، ابتغاءَ وجهِ الله، ورَجَاءَ ما عنده، وتَصْدِيقَ موعودِه.

[٥١٦٩] قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذِّن، حدثنا الوليدُ بن مسلم، حدثنا معاوية بن سَلاَم، عن أخيه زيد بن سَلاَم، عن جَدِّه أبي سَلاَم الأسود، حدثنا أبو معاوية الأشعريّ: أن أبا مالك الأشعريّ حدَّثه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ حدَّثه: «أن في الجنة غُرَفاً يُرَى ظاهرها من باطِنِها، وباطِنُها من ظاهِرِها، أعدَّها الله لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام»(١). ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كُلِّها في دينهم ودُنْيَاهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرِّزق لا يختصُّ ببُقعةٍ، بل رزقُه تعالى عامٌّ لخلقه حيثُ كانوا وأين كانُوا، بل كانت أرزاقُ المهاجرين حيث هاجروا أكثَرَ وأوسَعَ وأطيبَ؛ فإنهم بعد قليل صاروا حُكَّام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾، أي: لا تطيق جَمْعَه وتحصيلَه ولا تَدَّخرُ شيئاً لغد، ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، أي: الله يُقَيِّض لها رِزْقها على ضَعْفِها، ويُيَسِّره عليها، فيبعث إلى كلِّ مخلوق من الرزق ما يُصلِحهُ حتى الذَّرُّ في قرار الأرض، والطيرِ في الهواء، والحيتانِ في الماء. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

[٥١٧٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهَرَوِيُّ، حدثنا يزيدُ ـ يعني ابنَ هارونَ ـ حدثنا الجَرّاحُ بنُ منهالٍ الجَزَرِيُّ ـ هو أبو العَطوف ـ عن الزهريِّ، عن رجل، عن ابن عُمَر قال: خرجتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى دخل بعضَ حيطانِ المدينة، فجعل يلتقط من التَّمر ويأكلُ، فقال لي: يا ابنَ عُمَر، ما لك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهيه يا رسولَ الله. قال: لكنِّي أشتهيه، وهذه صُبحُ رابعةٍ منذُ لم أذُق طعاماً ولم أجده، ولو شئتُ لدعوتُ ربِّي فأعطاني مثلَ ملك قيصَرَ وكِسْرَى فكيف بكَ يا ابنَ عُمَر إذا بقيتَ في قوم يَخْبَئُونَ رِزقَ سنتهم بِضَعف اليقين؟ قال: فوالله ما بَرِحنا ولا رِمْنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لم يأمُرني بكنز الدنيا، ولا باتباعِ الشَّهواتِ، فمن كَنَز دُنياه يُريد بها حياةً باقيةً فإن الحياةَ بيدِ الله، ألا وإنِّي لا أكنِزُ ديناراً ولا درهماً، ولا أخبأُ رزقاً لغد»(٢). هذا حديثٌ غَريبٌ، وأبو العَطُوفِ الجَزَرِي ضَعِيفٌ. وقد ذكروا أن الغُرَاب إذا فَقَس عن فِرَاخِه البَيْضَ خرجوا وهم بيضٌ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياماً حتى يَسْوَدَّ الريش، فيظل الفَرخُ فاتحاً فاه، يتفقد أبويه. فَيُقيض الله له طيراً صِغاراً كالبَرْغَش فيغشاه فَيتقوَّت منه تلك الأيامَ حتى يَسْوَدَّ ريشه، والأبوانِ

---

(١) جيد. أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٣ وابن حبان ٥٠٩ والطبراني ٣٤٦٦ وإسناده قوي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٢٥٤: ورجاله ثقات. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد ٢/ ١٧٣ والحاكم ١/ ٣٢١، وفي الباب أحاديث.

(٢) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ٦٧٣، وإسناده ضعيف جداً لأجل الجراح بن منهال، كما قال ابن كثير رحمه الله. وعند ابن أبي حاتم علة أخرى، وهي الراوي عن ابن عمر لم يسمّ. وكذا ضعفه السيوطي في «أسباب النزول» ٦٧٣. قلت: الجراح اتهمه ابن حبان بالكذب؛ راجع المجروحين ١/ ٢١٨، ومما يدل على وهنه ما رواه الشيخان «أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم».

يَتَفَقَّدانه كُلَّ وقتٍ، فكلما رأوه أبيض الرِّيش نفَرا عنه، فإذا رأوه قد أسودَّ ريشهُ عَطَفا عليه بالحَضَانة والرزْق، ولهذا قال الشاعرُ:

يـا رَازِقَ الـنـعَّـابِ فـي عُـشِّـهِ وَجَـابِـرَ الـعَـظْـمِ الـكَـسِـيـرِ الـمَـهِـيـضِ(١)

وقد قال الشافعي في جملة كلامٍ له في الأوامر: كقول النبي ـ ﷺ ـ: «سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتُرزَقُوا».

[٥١٧١] قال البيهقي: أخبرنا إملاء أبو الحسن علي بن أحمد عَبْدَانُ، أخبرنا أحمد بن عُبَيد، أخبرنا محمد بن غالب، حدثني محمد بن سِنَانٍ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رَدّاد ـ شيخ من أهل المدينة ـ حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: سافروا تَصِحُّوا وتغنَمُوا(٢). قال: ورويناه عن ابن عَبَّاسٍ.

[٥١٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن دَرَّاج، عن عبد الرحمن بن حُجَيْرَة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «سَافِرُوا تربَحُوا، وصُومُوا تَصِحُّوا، واغزُوا تغنَمُوا»(٣). وقد وَرد مثلُ حديث ابنِ عُمَر عن ابن عباس مرفوعاً، وعن مُعاذِ بن جَبَلٍ موقوفاً. وفي لفظٍ: «سافِرُوا مع ذَوِي الجِدِّ والمَيسَرَةِ»(٤). وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي: لأقوالِ عبادِه، العليمُ بحركَاتِهمْ وسَكَنَاتِهِمْ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى مُقَرِّراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين ـ الذين يَعبُدون مَعَه غيره ـ مُعتَرِفُونَ أنه المستقلُّ بخلق السموات والأرض والشمسِ والقَمَر، وتَسخِير اللَّيل والنَّهار، وأنه الخالقُ الرازقُ لعبادِه ومُقَدِّرُ آجالهم

(١) النعاب: فرخ الغراب، والمقصود: كل طائر. والعظم المهيض: المكسور بعدما كاد ينجبر.

(٢) يشبه الحسن. أخرجه البيهقي ٧/ ١٠٢ وابن عدي ٦/ ١٩٠ والخطيب ١٠/ ٣٨٧ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٥٢٨١ وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الله بن هارون، وهو ضعيف اهـ. قلت: تابع عبد الله بن هارون، غير واحد، وإنما علته محمد بن عبد الرحمن بن الرّداد. فقد ضعفه الجمهور، وبه أعله ابن عدي، وقال: وعامة ما يرويه لا يتابع عليه. وذكره ابن أبي حاتم في «العلل» ٢٢٣٠ من هذا الوجه، وقال: قال أبي: هذا حديث منكر. وله شاهد من حديث ابن عباس. أخرجه ابن عدي ٧/ ٥٧ وفيه نهشل بن سعيد متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس، لكن ورد من طريق آخر أخرجه البيهقي ٧/ ١٠٢ وفيه القاسم بن عبد الرحمن، وهو الأنصاري قال ابن معين ضعيف جداً. كما في الميزان ٦٨٢٠ وعنه بسطام بن حبيب، لم أجد من ترجمه. وورد من حديث أبي سعيد، أخرجه ابن عدي ٣/ ٤٥٤ وأعله بسوار بن مصعب، وقال: عامة ما يرويه غير محفوظ اهـ وفيه عطية العوفي، ضعيف. وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٢/ ٣٨٠ والطبراني في «الأوسط» ١/ ٢٢٥/ ٢/ ٨٤٧٧ من طريقين عن أبي هريرة، أما طريق الإمام أحمد، ففيه ابن لهيعة، وهو ضعيف عند الجمهور، ودرّاج، ضعفه غير واحد، وقال الهيثمي عن رواية الطبراني ٥٠٧٠ «مجمع»: ورجاله ثقات. وهو كما قال إلا أنه معلول، فإن زهير بن محمد روى عنه أهل الشام مناكير كثيرة كما قال الإمام أحمد والبخاري، وقد أجاد الحافظ العراقي إذ قال في «الإحياء» ٣/ ٧٥: إسناده ضعيف اهـ. وورد عن عمر موقوفاً أخرجه عبد الرزاق ١١/ ٤٣٤ وفيه إرسال بين طاوس وعمر. الخلاصة: ورد من طرق عدة وكلها ضعيفة، وبعضها أشد ضعفاً من بعض، والمتن منكر وحسبه الوقف، والله تعالى أعلم.

(٤) لا أصل له في المرفوع بهذا اللفظ، وإنما هو موقوف، والله أعلم.

واختلافَها واختلافَ أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغنيُّ والفقيرُ، وهو العليمُ بما يُصلح كُلاًّ منهم، ومن يَستحِقُّ الغِنَى ممن يستحقُّ الفقرَ، فذَكر أنه المستبدُّ بخَلق الأشياء المتفرِّد بتدبيرها، فإذا كان الأمرُ كذلك فلم يُعبَدُ غيرهُ؟ ولم يَتوكَّل على غَيره؟ فكما أنَّه الواحدُ في مُلكِه فَلْيكُن الواحدَ في عِبادَتِه، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الرُّبوبية. وقد كان المشركونَ يعترِفون بذلك، كما كانوا يقولون في تَلْبيتِهم: «لَبَّيك لا شريكَ لَك، إلا شَريكاً هو لك، تَمْلِكهُ وما مَلَك».

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن حَقارةِ الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دَوامَ لها، وغايةُ ما فيها لهوٌ ولَعِبٌ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، أي: الحياةُ الدائمةُ الحقُّ الذي لا زوالَ لها ولا انقضاءَ، بل هي مُستَمِرَّةٌ أبدَ الآبادِ. وقولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لآثروا ما يبقَى على ما يفنَى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنَّهم عند الاضطرار يدعُونه وحدَه لا شريك له، فهلاَّ يكُون هذا منهم دائماً! ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كقولـه تعالـى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] الآية. وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

[٥١٧٣] وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما افتتح رسول الله ـ ﷺ ـ مَكَّة ذَهَب فاراً منها، فَلَمَّا رَكِبَ في البحر ليذهَب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينةُ، فقال أهلها: يا قَوم، أخلِصُوا لربِّكم الدعاءَ، فإنه لا يُنَجِّي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا يُنَجِّي في البحر غيره فإنَّه لا ينجي غَيْرهُ في البرِّ أيضاً، اللهم لك عَليَّ عهدٌ لَئِن خرجتُ لأذهبنَّ فلأضعَنَّ يَدِي في يد محمد، فلأجِدَنَّه رؤوفاً رحيماً[١]. وكان كذلك. وقولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾، هذه اللام يُسمِّيها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماءِ الأصول لامَ العاقبة، لأنهم لا يَقصِدُون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلكَ وتَقْييضه إياهم لذلك فهي لامُ التعليل. وقد قدَّمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقولُ تعالى مُمتَناً على قريش فيما أحلَّهم من حَرَمه، الذي جعله للناس سواءً العاكفُ فيه والبادي، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فَهم في أمن عظيم، والأعرابُ حولَه يَنهَبُ بعضُهم بعضاً، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾. وقولُه تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾،

---

(١) هذا معضل، فهو ضعيف بهذا اللفظ. وأما خبر رجوع عكرمة بعد أن فرّ يوم الفتح، فإنه خبر مشهور.

أي: أفكان شكرُهم على هذه النعمةِ العظيمةِ أن أشرَكُوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأندادِ و﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، فكفَرُوا بنبيِّ الله وعَبْده ورَسُوله، فكان اللائقُ بهم إخلاصَ العبادةِ لله، وألاَّ يُشرِكُوا به، وتصديقَ الرسولِ وتعظيمَه وتوقيرَه، فَكَذَّبُوه وقاتلُوه وأخرجُوه من بين أظهرهم، ولهذا سَلَبهم الله تعالىٰ ما كانَ أنعمَ به عليهم، وقُتِلَ من قُتِل منهُم ببدرٍ، وصارت الدولةُ لله ولرسوله، ففتح الله على رَسُولِه مَكَّة، وأرغَم آنافَهُم وأذلَّ رِقابَهُم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾، أي: لا أحدَ أشدُّ عقوبة مِمَّن كَذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه. ولم يُوحَ إليه شيءٌ. ومن قال: سَأُنزِلُ مثلَ ما أنزلَ الله. وهكذا لا أحدَ أشدُّ عقوبة مِمَّن كَذَّب بالحق لما جاءه، فالأول مفترٍ، والثاني مُكَذِّب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾، يعني الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: لنُبصِّرَنَّهم سُبُلَنا، أي: طُرُقَنا في الدُّنيا والآخِرَةِ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبِي: حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ، حدثنا عباس الهَمْدَاني أبو أحمد ـ من أهل عَكّا ـ في قول الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾، قال: الذين يعمَلُون بما يَعْلَمون، يَهديهم لما لا يَعْلَمون. قال أحمد بن الحَوَارِيِّ: فحدثت به أبا سُلَيمان ـ يعني الدَّارانيَّ ـ فأعجَبَه، وقال: ليس ينبغي لمن أُلهِمَ شيئاً من الخَير أن يَعْمَل به حتى يَسْمَعَه في الأثر، فإذا سَمِعه في الأثر عَمِل به، وحَمِد الله حين وافق ما في قلبه. وقولُه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الرَّيِّ، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن المُغيرةِ، عن الشَّعبيِّ قال: قال عيسى ابنُ مَرْيَمَ ـ عليه السلامُ ـ إنَّما الإحْسانُ أن تُحسِنَ إلى مَن أَساءَ إليكَ، ليسَ الإحسانُ أن تُحسِنَ إلى مَن أحسَنَ إليكَ. والله أعلَمُ.

## آخر تفسير سورة العنكبوت، ولله الحمد والمنة

# سُورَةُ الرُّومِ

ترتيبها ٣٠ — آياتها ٦٠

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

نزلت هذه الآياتُ حين غَلَب سابورُ ملكُ الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطرَّ هرقل ملكَ الرومِ حتى ألجاه إلى القُسطَنطِينيّة، وحاصره مُدَّةً طويلة، ثم عادت الدولة لهرقلَ كما سيأتي.

[٥١٧٤] قال الإمام أحمد: حَدَّثَنا معاويةُ بن عَمرو، حدثنا أبو إسحاقَ، عن سفيانَ الثوري، عن حبيب بن أبي عَمْرَةَ، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، قال: غُلِبَت وغَلَبت. قال: كان المشركون يُحبُّون أن تَظهَرَ فارسُ على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يَظهَرَ الرومُ على فارس، لأنهم أهل كتاب، فَذُكِر ذلك لأبي بكر، فَذَكره أبو بكر لرسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أما إِنَّهم سَيَغلِبُون. فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعَلْ بيننا وبينكَ أجلاً، فإن ظَهَرْنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظَهَرْتُم كان لكم كَذَا وكذا. فَجعل أجلاً خَمسَ سِنينَ، فلم يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذلك أبو بكر ـ للنبي ـ ﷺ ـ فقال: ألا جعلتها إلى دُونٍ؟! ـ أراه قال: العَشر ـ قال سعيد بن جُبَير: البِضعُ ما دُونَ العشر. ثم ظَهرت الرومُ بعدُ، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾(١). هكذا رواه الترمذيُّ والنَّسائيُّ جَميعاً، عن الحُسَين بن حُرَيثٍ، عن مُعَاويةَ بن عَمرو، عن أبي إسحاقَ الفَزارِيّ، عن سُفيانَ بن سعيد الثَّوريِّ، به. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ، إنما نَعرِفُه من حديث سُفيانَ، عن حَبِيب. ورواه ابنُ أبي حاتم، عن محمدِ بن إسحاقَ الصَّغَاني، عن معاويةَ بن عَمْرو، به. ورواه ابنُ جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن سعيد أبو سَعِيد التَّغلبيُّ، الذي يقال له: ابن أَسْعَدَ، من أَهلِ طَرَسُوسَ، حدثنا أبو إسحاق الفَزارِيّ، فذكره. وعندهم: قال سفيان: فبلغني أنهم غَلَبُوا يومَ بدر.

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٩١٣ والنسائي في «التفسير» ٤٠٩ وأحمد ١/ ٢٧٦ و٣٠٤ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١ وصححه الحاكم ٢/ ٤١٠ على شرطهما ووافقه الذهبي. وله شواهد.

حديث آخر، قال سُلَيمان بن مِهران الأعمش، عن مُسلم، عن مَسْرُوقٍ قال: قال عبدُ الله: خَمسٌ قد مَضَين: الدخان واللِّزام، والبطشةُ، والقَمَر، والرُّوم. أخرجاه.

[٥١٧٥] وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ وكيعٍ، حدثنا المُحاربي، عن داودَ بن أبي هندٍ، عن عامرٍ، هو الشَّعبيُّ ـ عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه ـ قال: كانت فارسُ ظاهرة على الروم، وكان المشركون يُحبُّون أن تظهرَ فَارسُ على الروم. وكان المسلمون يُحبُّون أن تظهرُ الروم على فارس، لأنهم أهلُ كتاب وَهُم أقربُ إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، قالوا: يا أبا بكر، إنَّ صاحِبَك يقول: إن الروم تَظهَرُ على فارس في بضع سنين؟! قال: صَدَق. قالوا: هل لك إلى أن نُقَامِرَك: فبايعوه على أربع قَلائِصَ إلى سبع سنين، فمضت السبعُ ولم يكن شيءٌ، فَفَرِح المشركون بذلك وشَقَّ على المسلمين، فذُكِر ذلك للنبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: ما بضعُ سنينَ عندكم؟ قالوا: دُون العشر. قال: اذهبَ فزايدهم وازدَد سَنَتين في الأجل. قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظُهُورِ الرُّوم على فارس، ففرح المسلمون بذلك، وأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾[١].

[٥١٧٦] حديث آخر، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عُمَر الوكيعي، حدثنا مُؤمّل، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾، قال المشركون لأبي بكر: ألا تَرَى إلى ما يقولُ صاحبُك؟ يزعُم أنَّ الرومَ تَغلِب فارسَ! قال: صَدَق صاحبي. قالوا: هل لك أن نُخاطِرك؟ فَجَعل بينه وبينهم أجلاً، فَحَلَّ الأجلُ قبل أن تَغلِبَ الرومُ فارسَ، فبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فساءَه ذلك وكَرِهَه، وقال لأبي بكر: ما دَعَاكَ إلى هذا؟ قال: تصديقاً لله ولرسوله. فقال: تَعَرَّض لهم وأعظِمَ الخَطَر، واجعله إلى بضع سنين. فأتاهُم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العَودِ، فإنَّ العودَ أحمدُ؟ قالوا: نعم. فلم تَمْضِ تلك السنين حتى غَلَبَتِ الرومُ فارسَ، ورَبَطُوا خُيُولَهم بالمدائن، وبَنَوا الرُّومية. فجاء به أبو بكر إلى النبيّ ـ ﷺ ـ فقال: هذا السُّحت، قال: تَصَدَّق به[٢].

[٥١٧٧] حديثٌ آخرُ، قال أبو عيسى التِّرمِذِيُّ: حدثنا مُحَمَّد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أُوَيس، أخبرني ابنُ أبي الزِّناد، عن أبي الزِّناد، عن عُروَة بن الزُّبير، عن نِيَارِ بن مُكرَمِ الأَسْلَمِيِّ قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، وكان المسلمون يُحبُّون ظُهُورَ الروم عليهم، لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وفي ذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وكانت قُرَيشٌ تُحبُّ ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهلَ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلما أنزل الله هذه الآية

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧٨٧٦ فيه إرسال، الشعبي لم يدرك ابن مسعود، لكن يصلح حديثه شاهداً لما قبله، والله أعلم. وفي بعض ألفاظه غرابة، وحديث ابن عباس المتقدم أحسن سياقاً، والله أعلم.

(٢) رجاله ثقات سوى مؤمّل، وهو ابن إسماعيل، قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق، سيّىء الحفظ، وجاء في «الميزان» ٨٩٤٩: وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: صدوق، كثير الخطأ، وقال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو زرعة: في حديثه خطأ كثير. وذكره أبو داود، فعظمه، ورفع من شأنه اهـ فالرجل ليس بمتروك، لكنه سيء الحفظ، وقد خالف في حديثه هذا، وجاء بألفاظ منكرة، ومنها «أن أبا بكر ربح الخطر...» وحديث ابن عباس، وهو أصح هذه الروايات، وكذا حديث نيار بن مكرم الآتي، مفادهما أنه لم يربح الخطر، كما ترى، والله الموفق.

خَرَجَ أبو بكر يَصِيح في نواحي مكَّة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم، زَعَم صاحبُك أن الروم سَتَغلب فارسَ في بضع سنين، أفلا نُراهنُك على ذلك؟ قال: بلى ـ وذلك قبل تحريم الرهان ـ فارتَهَن أبو بكر والمشركون، وتواضَعُوا الرِّهان، وقالوا لأبي بكر: كَم تجعَلُ؟ البضْعُ ثلاثُ سنين إلى تسع سنين، فَسَمِّ بيننا وبينك وَسَطاً نَنْتَهي إليه. قال: فَسَمَّوا بينهم سِتّ سنين. قال: فَمَضت ستُّ السِّنين قبل أن يَظْهَرُوا، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر، فلما دخلت السنةُ السابعةُ ظهرت الرومُ على فارسٍ، عاب المسلمونَ على أبي بكرٍ تَسْمِيَةَ ستِّ سِنِينَ، قال: لأنَّ الله قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾. قال: فأسلم عند ذلك ناسٌ كثيرٌ[1]. هكذا ساقه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيحٌ، لا نعرفه إلا من حديثِ عبد الرحمن بن أبي الزِّناد. وقد رُوِي نحوُ هذا مُرسَلاً عن جماعةٍ من التابعين، مثل عِكْرِمَةَ، والشعبيِّ، ومجاهدٍ، وقتادَةَ، والسدِّيِّ، والزهرِيِّ، وغيرِهم.

[٥١٧٨] ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سُنَيد بن دَاوُدَ في تفسيره حيثُ قال: حدثني حَجَّاجُ، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عِكْرِمة قال: كانت في فارسَ امرأة لاَ تَلِد إلا الملوكَ الأبطالَ، فدَعاها كسرى فقال: إني أريدُ أن أبعَثَ إلى الروم جَيشاً وأستعمل عليهم رَجُلاً من بَنيك، فأشيري عَلَيَّ، أيَّهُم أستعمِلُ؟ فقالت: هذا فلانٌ، وهو أروَغُ من ثعلب، وأحذَرُ من صقر. وهذا فَرُخَانُ، وهو أنفذ من سِنَان. وهذا شَهْر بُرَازُ، وهو أحلَمُ من كذا ـ تَعْني أولادها الثلاثة ـ فاستَعْمِل أيَّهُم شئت. قال: فإني قد استعملتُ الحليم. فاستعمل شَهْر بُرَازَ، فسار إلى الروم بأهل فارسَ، فظَهَرَ عليهم فقتلهم، وخَرَّب مَدَائِنهم وقَطَع زَيتُونَهم. قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاءَ الخراساني فقال مَا رأيتَ بلادَ الشام؟ قلتُ: لا. قال: أما إنَّكَ لو رأيتها لرأيتَ المَدَائن التي خُرِّبت، والزيتونَ الذي قُطِع، فأتيتُ الشام بعد ذلك فرأيته. قال عطاءٌ الخراسانيُّ: حدثني يحيى بن يَعمر: أنَّ قيصرَ بَعث رجلاً يُدعَى قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى شَهْر بُرَازَ، فالتقيا بأذرعاتٍ وبُصرَى، وهي أدنى الشامِ إليكم، فَلَقيت فارسُ الرومَ، فَغَلبتهم فارسُ. فَفرحت بذلك كفارُ قريشٍ، وكَرِهه المسلمون. قال عِكْرِمَةُ: ولقي المشركون أصحابَ النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: إنكُم أهلُ كتاب، والنصارى أهلُ كتاب، ونحن أميُّون، وقد ظَهَر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إنْ قاتلتمُونا لنظهَرنَّ عليكم، فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾. فخرج أبو بكر الصِّديقُ إلى الكفار فقال: أَفرِحتُم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا. ولا يُقِرَّنَّ الله أعينَكم، فوالله ليُظهِرَنَّ الله الرومَ على فارسَ، أخبرنا بذلك نَبِيُّنا ﷺ. فقام إليه أُبَيُّ بن خَلَفٍ فقال: كذبت يا أبا فُضَيل، فقال له أبو بكر: أنت أكذَبُ يا عدوَّ الله. فقال: أُناحِبُكَ، عشرُ قَلَائِصَ[2] منّي وعَشرُ قَلَائِصَ منك، فإن ظَهَرتِ الرومُ على فارسَ غَرِمتُ، وإن ظَهَرت فارسُ غَرِمتَ، إلى ثلاثِ سِنِينَ. ثم جاء أبو بكر إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فأخبَرَه، فقال: ما هكذا ذكرتُ، إنما البِضعُ ما بين الثلاثِ إلى التسع. فزايِدْه

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١٩٤ وإسناده قوي، إلا أن لفظ «فأسلم عند ذلك ناس كثير» غريب وباقي الحديث قوي، وهو شاهد حسن لحديث ابن عباس المتقدم في أول هذه الروايات، وهو أحسن سياقاً، والله أعلم. وللحديث طرق أخرى، وهي مرسلة، كما ذكر المصنف رحمه الله.

(٢) النحب: المراهنة. القلوص من الإبل: الشابة الباقية على السير.

في الخَطَر ومادَّهُ في الأجل. فخرج أبو بكر فَلَقِي أبيّاً فقال: لَعلَّك نَدِمت؟ فقال: لا، تَعالَ أزايدُكَ في الخَطَر وأُمادُّكَ في الأَجل، فاجعلها مئةَ قَلُوصٍ لمئةِ قَلُوصٍ إلى تسع سِنِينَ. قال: قد فَعَلتُ. فظَهَرتِ الرومُ على فارِسَ قبل ذلك، فغَلبهم المسلمون. قال عكرمةُ: لما أن ظهرت فارسُ على الروم، جلس فَرُّخَانُ يشرب هو وأخوه شَهْر بُرَازَ، فقال لأصحابه: رأيتُ كأني جالسٌ على سرير كِسْرَى، فَبَلَغَتْ كسرى، فكتب كسرى إلى شَهْرَبُرَازَ: إذا أتاك كتابي فابعثْ إليَّ برأس فَرُّخَانَ. فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فَرُّخَان، له نكايةٌ وصوتٌ في العدو، فلا تفعَل. فكتب إليه: إنَّ في رجال فارِسَ خَلَفاً منه. فَعَجِّل إليَّ برأسه. فراجَعَه، فَغضِب كسرى فلم يُجبه، وبعث بَرِيداً إلى أهل فارِسَ: إني قد نزعتُ عنكم شَهْرَبُرَازَ، واستعملتُ عليكم فَرُّخَانَ، ثم دَفَع إلى البَرِيد صَحِيفة لطيفة صغيرة فقال: إذا وَلِيَ فَرُّخَانُ الملك وانقاد له أخُوه، فأعطه هذه. فلما قَرَأ شَهْرَبُرَازَ الكتاب قال: سمعاً وطاعةً. ونزَل عن سَريره، وجَلس فَرُّخَانُ، ودَفَع إليه الصَّحِيفة قال: ائتوني بِشَهْرَبُرَازَ، وقَدَّمه ليضرِبَ عنقه، قال: لا تعْجَل حتى أكتُبَ وَصِيَّتي، قال: نعم. فَدَعا بالسَّفَط فأعطاه ثلاث صحائِفَ وقال: كُلَّ هذا راجعتُ فيكَ كسرى، وأنت أردتَ أن تَقتُلني بكتابٍ واحدٍ. فَردَّ الملك إلى أخيه شَهْرَبُرَازَ، وكتب شَهْرَبُرَازَ إلى قيصر ملك الروم: إنَّ لي إليكَ حاجةً لا تحملها البُرُد ولا تحمِلُها الصُّحُفُ، فالقَني ولا تَلْقَني إلاَّ في خَمسين روميّاً، فإنّي ألقاك في خمسين فارسياً. فأقبل قيصر في خمسمئة ألفِ رُومِيّ، وجعلَ يضع العيونَ بين يدَيه في الطريق، وخاف أن يكون قد مَكَر به، حتى أتاه عيونُه أنه ليس معه إلا خمسُون رَجُلاً. ثم بُسِطَ لهم والتقيا في قُبَّةِ ديباج ضُربت لهما، مع كُلِّ واحد منهما سِكِّينٌ، فدَعَيا تَرجُماناً بينهما، فقال شَهْرَبُرَاز: إن الذين خرَّبوا مدائِنَك أنا وأخي بكيدنا وشَجَاعَتِنا، وإنَّ كسرى حَسَدنا وأراد أن أقتُلَ أخي فأبيتُ، ثم أمر أخي أن يَقتُلني. وقد خلعناه جَميعاً. فنحن نُقاتِلُه مَعَك. قال: قد أصبتُما. ثم أشار أحدُهما إلى صاحبه أن السرَّ بين اثنين فإذا جَاوز اثنين فَشَا. قال: أجل. فَقَتلا الترجُمانَ جَميعاً بِسكِّينيهما، فأهلك الله كِسرَى، وجاء الخبرُ إلى رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ يومَ الحُدَيبية، فَفَرح والمسلمون معه[1]. فهذا سياقٌ غريبٌ، وبناءٌ عَجِيبٌ.

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، قد تَقَدَّم الكلامُ على الحُروف المُقَطَّعة في أوائل السور، في أول سُورَة البقرة. وأما الرومُ فهم من سلالة العِيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عَمِّ بني إسرائيل، ويقال لهم: بَنُو الأصفَر. وكانوا على دين اليونان، واليونانُ من سلالة يَافثَ بن نُوح، أبناءِ عَمِّ التركِ. وكانوا يَعبُدون الكواكِبَ السيَّارة السبعة، ويقال لها: المُتَحيِّرة، ويُصلُّون إلى القُطبِ الشمالي، وهم الذين أَسَّسُوا دمشق، وبَنَوا مَعبدها، وفيه محاريبُ إلى جِهَةِ الشمال. فكان الرومُ على دينهم إلى بعد مَبْعَثِ المسيح بنحو من ثلاثمئة سنة، وكانَ مَن ملك الشام مع الجَزيرة منهم يقال له: قيصَرُ. فكان أولُ مَن دخل في دين النَّصارى من ملوك الروم قسطَنطِينُ بن قسطس، وأمه مريمُ الهيلانية الغندقانية من أرْضِ حَرَّان، كانت قد تَنصَّرت قبله، فَدَعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فَيلسُوفاً، فتابعها ـ يقال: تَقِيَّة ـ واجتمعت به النصارى، وتناظَرُوا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كَثِيراً منتشراً مُتَشَتِّتاً لا يَنضَبِطُ، إلا أنه اتَّفق من جماعتهم ثلاثُمئةٍ وثمانيةَ عَشرَ أسقفاً، فوضعوا لِقُسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأَمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحَقيرة، وَوَضَعُوا له القوانين، يعنُونَ كُتُبَ الأحكام من تحليلِ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧٨٧٣ مع اختصار في بعض ألفاظه، وهو مرسل غريب كما قال الحافظ ابن كثير، وتقدم ما يغني عنه، والله أعلم.

وتحريم وغير ذلك مما يحتاجُون إليه، وغيَّروا دينَ المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه. وصلّوا إلى المشرقَ واعتاضوا عن السبت بالأحَدِ، وعبَدُوا الصَّلِيب وأحلّوا الخنزير. واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس. وغير ذلك من البَوَاعِيث والشعَانين، وجعلوا له البابا وهو كبيرهم، ثم البَتَارِكَة ثم المَطَارنة، ثم الأساقفة والقَسَاقِسة، ثم الشمَامِسَة. وابتدعوا الرهبانية. وبَنَى لهم الملك الكنائسِ والمعابد، وأسَّسَ المدينةَ المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بَنَى في أيامه اثني عشر ألف كنيسةٍ، وبنى بيتَ لحم بثلاثةِ محاريبَ، وبنت أمه القُمَامَة، وهؤلاء هم المَلَكِيَّة، يعنون الذين هم على دين المَلِك. ثم حدثتَ بعدهم اليَعقُوبية أتباع يَعقوبَ الإسكاف، ثم النَّسطُورِية أصحاب نَسطورا، وهم فِرَقٌ وطوائف كثيرة، كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ:

[٥١٧٩] «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعينَ فرقةً»[1]. والغَرَضُ أنهم استمرُّوا على النصرانية، كُلَّما هلك قيصر خلفَه آخرُ بعدَه، حتى كان آخرُهم هرقلَ. وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غَوراً وأقصاهم رَأياً، فتمَلَّكَ عليهم في رِياسَة عظيمة وأُبَّهةٍ كبيرة، فناوأه كِسْرى ملك الفرس، ومَلَكَ البلادَ كالعراق وخَراسَان والرّي، وجميعَ بلادِ العجم، وهو سابُور ذُو الأكتاف. وكانت مملكته أوسَعَ من مملكة قيصَرَ، وله رياسةُ العَجَم وحَماقَةُ الفُرس، وكانوا مَجُوساً يعبدُون النارَ. فَتقدّم عن عكرمة أنه بَعث إليه نُوّابه وجيشَه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسِه في بلاده فَقَهره وكَسَره وقَصَره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قُسطَنطِينيَّة، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تُعظِّمه تعظيماً زائداً، ولم يقدِر كِسرَى على فتح البلاد، ولا أمكنَهُ ذلك لَحَصانتها، لأنَّ نصفها من ناحية البر ونصفَها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم المِيرة والمَدَد من هنالك. فلما طال الأمرُ دَبَّر قيصرُ مكيدةً، ورأى في نفسه خَدِيعة، فطلب من كسرى أن يُقلِعَ عن بلاده على مالٍ يُصالحه عليه، ويَشترِطُ عليه ما شاءَ. فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمةً لا يقدِر عليها أحدٌ من ملوك الدنيا، من ذَهَب وجواهرَ وأقمشةٍ وجوارٍ وخُدَّام وأصنافٍ كثيرة. فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميعَ ما طلب، واستقلَّ عقله لَمَّا طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإيَّاه لعَجَزت قُدرتُهما عن جَمْعِ عُشره، وسأل كسرى أن يُمَكِّنه من الخروج إلى بلادِ الشام وأقاليم مَمْلَكتِهِ، ليسعَى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عَزَم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جَمَع أهلَ مِلَّته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمتَه، في جُندٍ قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها، فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبتَ عشرةَ أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خَرَج جريدَةً في جيشٍ متوسط، هذا وكسرى مُخَيِّم على القُسطَنطِينية ينتظر ليرجِعَ، فركب قيصر من فوره وسار مُسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فَعاثَ في بلادهم قتلاً لرجالها ومَن بها من المُقَاتِلَةِ، أوَّلاً فَأوَّلاً، ولم يزل يقتُل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كُرسيُّ مملكة كِسْرَى، فقتل من بها وأخذ جميع حَوَاصِله وأمواله، وأسر نساءه وحَريمه، وحَلَق رأس وَلَده، ورَكَّبه على حمار وبَعَث مَعَه من الأساوِرَة من قومه في غايةِ الهَوَان والذلّة، وكَتَب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبتَ فَخُذْه. فلما بلغ ذلك كِسرى أَخذه من الغَمّ ما لا يُحصِيه إلا الله عزَّ وجلَّ، واشتد حَنَقه على البلد، فاشتدَّ في حصارها بِكُلِّ ممكن فلم يقدِر على ذلك. فلما عَجز رَكِب ليأخذ عليه الطريقَ من مَخَاضَةِ جَيحُونَ، التي لا مَسْلَكَ لقيصر إلى القُسطنطينية إلا منها، فلما عَلم

---

(١) تقدم تخريجه، وهو حديث صحيح.

قيصرُ بذلك احتال بحيلةٍ عظيمةٍ لم يُسبَق إليها، وهو أن أَرصَدَ جُندَه وحواصله التي معه عند فَم المخاضة، ورَكِب في بعضِ الجيش، وأمر بأحمال من التِّبن والبَعر والرَّوث فَحُمِلَت مَعَه، وسار إلى قَريبٍ من يوم في الماء مُصعداً، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مَرَّت بِكسرَى ظَنَّ هو وجندُه أنهم قد خاضُوا من هنالك، فَرَكبوا في طَلَبهم فَشَغرت المخاضةُ عن الفُرس، وقَدِم قَيصرُ فَأَمَرَهم بالنهُوض في الخَوْض، فخاضُوا وأسرعُوا السير ففاتُوا كِسرَى وجنودَه، ودَخَلُوا القُسطَنطِينيَّة. وكان ذلك يوماً مَشهوداً عند النصارى، وبَقِي كسرى وجيوشُه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصُلُوا عَلَى بلاد قيصرَ، وبلادُهم قد خَرَّبتها الرومُ وأخذُوا حَواصلهم، وسَبَوا ذَرارِيهم. فكان هذا من غَلَب الرومِ فارِسَ، وكان ذلك بعد تسع سِنينَ من غَلَب الفُرسِ للرُوم. وكانت الواقعةُ الكائنةُ بين فارِسَ والرومِ حين غَلَبَت الرومَ بين أذرعاتٍ وبُصرَى، على ما ذكره ابنُ عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجَزيرة، وهي أقربُ بلادِ الروم من فارِسَ، فالله أعلم. ثم كان غَلَبُ الرُوم لفارسَ بعد بضع سنين، وهي تسعُ؛ فإن البِضعَ في كَلام العربِ ما بين الثلاثِ إلى التِّسعِ.

[٥١٨٠] وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذيُّ وابنُ جرير وغيرهما، من حديثِ عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحِي، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عَبد الله، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأبي بكر في مُناحَبَةِ ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ الآية: «ألا احتَطْتَ يا أبا بكرٍ، فإن البِضعَ ما بين الثَّلاثِ إلى التِّسع؟»[١] ثم قال: هذا حديث حَسَنٌ غريبٌ من هذا الوجه. وروى ابنُ جَرِيرٍ، عن عبد الله بن عَمْروٍ أنه قال ذلك؛ والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، أي: من قبلِ ذلك ومن بعدِه، فَبَنى على الضمِّ لما قُطع المضافُ، وهو قوله «قبلُ» عن الإضافة، ونُويَت. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: للرُوم أصحاب قيصَرَ ملكِ الشام، على فارِسَ أصحاب كِسرَى، وهم المجوس. وقد كانت نُصرَةُ الروم على فارِسَ يوم وقعةِ بدر في قولِ طائفةٍ كبيرةٍ من العلماء، كابن عباس، والثَّوري، والسدِّي، وغيرهم.

[٥١٨١] وقد وَرَدَ في الحديث الذي رواه الترمذي وابنُ جرير وابن أبي حاتم، والبزّار، من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سَعيد قال: لما كان يومُ بدر، ظَهرتِ الرومُ على فارِسَ، فَأَعجَبَ ذلك المؤمنين وفَرِحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

وقال آخرون: بل كان نصرة الروم على فارس يومَ الحُدَيبية؛ قاله عِكْرمة، والزهري، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ، ووجَّه بعضهم هذا القولَ بأن قيصَرَ كان قد نَذَر لئن أظفَره الله بِكِسرَى ليمشيَنَّ من حِمص إلى إيلياء،

(١) أخرجه الترمذي ٣١٩١ والطبري ٢٧٨٦٦ وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وتقدم باستيفاء.

(٢) منكر، أخرجه الترمذي ٢٩٣٥ و٣١٩٢ والطبري ٢٧٨٨٠ والواحدي ٦٧٥ من حديث أبي سعيد، وقال الترمذي: حسن غريب! بل هو ضعيف، عطية العوفي، ضعيف الحديث، روى مناكير كثيرة، وربما روى أحاديث عن الكلبي، وهو متروك وكان يكنى بأبي سعيد، فيظن الناس أنه أبو سعيد الخدري، راجع ذلك في الميزان. وللحديث علة أخرى، وهي نكارة المتن، فإن الخبر فيه أن هذه الآيات نزلت في المدينة يوم بدر، مع أن السورة كلها مكية باتفاق كما قال القرطبي.
تنبيه: وقد وهم الألباني حيث جعل حديث أبي سعيد هذا في صحيح الترمذي ٢٥٥٠!!. وانظر تفسير القرطبي ٤٨٨٨ بتحقيقي.

وهو بيت المقدس، شُكراً لله ـ عزّ وجلّ ـ ففعل، فلما بَلَغ بيتَ المَقْدِس لم يخرج منه حتى وافاه كتابُ رسولِ الله ﷺ، الذي بَعَثه مع دِحْيَة بن خَلِيفة، فأعطاهُ دِحيةُ لعظيم بُصرَى، فدفعه عظيم بُصرَى إلى قيصَرَ، فلما وَصَل إليه سأل مَن بالشام مِن عَرَب الحجاز، فَأُحضِرَ له أبو سُفيان صَخْرُ بنُ حَرب الأُمَوِيُّ في جَماعةٍ من كُفَّار قريش وكانوا في غَزَّة، فَجِيء بهم إليه، فَجَلَسُوا بين يديه، فقال: أيُّكم أقربُ نَسَباً بهذا الرجل الذي يزعُم أنه نَبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: أنا. فقال لأصحابه ـ وأجلَسَهم خلفه ـ: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَب فكذِّبوه. فقال أبو سُفيان: فوالله لولا أن يَأثِرُوا عليّ الكَذِبَ لكذبتُ. فسأله هِرقلُ عن نَسَبه وصِفَتِه، فكان فيما سأله أن قال: فهل يَغدِر؟ قال: قلتُ: لا، ونحن منه في مُدّة لا نَدري ما هو صانعٌ فيها يعني بذلك الهُدنة التي كانت قد وَقَعت بين رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وكفار قريش عام الحُدَيبية على وَضع الحرب بينهم عَشرَ سنين ـ فاستدلُّوا بهذا على أن نَصْرَ الرُّومِ على فارِسَ كان عامَ الحُدَيبية، لأن قيصَرَ إنما وَفَى بنذره بعدَ الحُدَيبية، والله أعلم.

ولأصحاب القولِ الأول أن يُجيبوا عن هذا بأنَّ بلاده كانت قد خُرِبَتْ وتَشَعَّثَتْ، فما تَمَكَّن من وفاءِ نَذْرِه حتى أصلَح ما ينبغي إصلاحُه وتَفَقَّدَ بلادَه، ثم بعدَ أربع سِنين من نُصرَتِهِ وَفى بِنَذْرِه، والله أعلم. والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصَرت فارسُ على الروم ساءَ ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الرومُ على فارسَ فَرِح المؤمنون بذلك، لأن الرومَ أهلُ كتاب في الجُملة، فهم أقربُ إلى المؤمنين من المجُوس، كما قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٣]. وقال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليد، حَدَّثني أُسَيدٌ الكلابي، قال: سَمِعتُ العَلاء بن الزبَير الكلابي يحدِّث عن أبيه، قال: رأيت غَلبة فارسَ الرومَ، ثم رأيت غَلَبة الروم فارسَ، ثم رأيت غَلَبة المُسلمِين فارسَ والرومَ، كلُّ ذلك في خَمسَ عَشرة سنةً. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: في انتصارِه وانتقامِه من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. وقولُه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، أي: هذا الذي أخبرناكَ به ـ يا محمدُ ـ من أنا سننصُر الرومَ على فارسَ، وعدٌ من الله حَقٌّ، وخَبَرُ صِدْقٍ لا يُخلَفُ، ولا بُدَّ من كونه ووُقُوعه؛ لأن الله قد جَرَت سُنَّته أن ينصُرَ أقربَ الطائفتين المقتتلتين إلى الحقِّ، ويجعلَ لها العاقبة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: بِحُكم الله في كَونِهِ وأفعالِهِ المُحكَمَة الجارية على وَفقِ العَدْلِ.

وقولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: أكثرُ الناس ليس لهم علمٌ إلا بالدنيا واكتسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاقٌ أذكياءُ في تحصِيلها ووجُوه مكاسبها، وهم غافِلُونَ عما ينفعُهم في الدارِ الآخرةِ، كأن أحدَهم مُغفَّل لا ذِهنَ له ولا فِكْرَةَ. قال الحسن البَصريُّ: والله لَيَبْلُغُ من أحدِهم بدُنياه أنه يَقلِبُ الدرهم على ظُفُره، فَيُخبِرُكَ بوزنه، وما يُحسِنُ يُصَلِّي. وقال ابنُ عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني: الكُفّار، يعرِفُون عُمران الدنيا، وهم في أمرِ الدِّين جُهّالٌ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ

كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى منبِّهاً على التفكُّر في مخلوقاتِه الدالَّة على وُجُوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيرُه ولا ربَّ سِواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾، يعني به النظرَ والتدبُّرَ والتأمُّلَ لخلق الله الأشياءَ من العالم العلويِّ والسفليِّ، وما بينهما من المخلوقاتِ المتنوِّعة، والأجناسِ المُختلفة، فيعلموا أنها ما خُلِقت سُدى، ولا باطلاً، بل بالحقِّ، وأنها مُؤجَّلة إلى أجل مُسمَّى، وهو يومُ القيامة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾. ثم نبَّهَهم على صِدْقِ رُسُلهِ فيما جاؤوا به عنه، بما أيَّدهم به من المعجزات، والدلالاتِ الواضحاتِ، من إهلاك من كَفَر بهم، ونَجاةِ من صَدَّقهم، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: بأفهامِهم وعُقُولهم ونَظَرهم وسَمَاع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: كانت الأممُ الماضيةُ والقرونُ السالفةُ أشدَّ منكم ـ أيها المبعوثُ إليهم محمدٌ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ وأكثرَ أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشارَ ما أُوتوا، ومُكِّنوا في الدنيا تَمكيناً لم تبلُغوا إليه، وعُمِّروا فيها أعماراً طوالاً، فَعَمرُوها أكثر منكم. واستَغلُّوها أكثر من استغلالِكُم، ومع هذا لَمَّا جاءتهم رسُلُهم بالبيِّنات وفَرِحُوا بما أوتوا، أَخَذَهم الله بِذُنوبهم، وما كان لهم من الله من واقٍ، ولا حالت أموالُهم وأولادُهم بينهم وبين بأسِ الله، ولا دَفَعوا عنهم مثقالَ ذَرَّةٍ، وما كان الله لِيَظلِمَهم فيما أحلَّ بهم من العذاب والنَّكال، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: وإنما أُوتُوا من أنفسهم حيثُ كَذَّبوا بآيات الله، واستهزَؤوا بها، وما ذاك إلا بِسَبَبِ ذُنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدِّم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. وعلى هذا تكون السوأى منصوبة مفعولاً لأساؤوا، وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: كانت السوأى عاقِبتُهم، لأنهم كَذَّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فَعَلى هذا تكون السوأى منصوبةً خبر كان. هذا توجيه ابن جريرٍ، ونَقَله عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابنُ أبي حاتمٍ عنهما وعن الضَّحاك بن مُزَاحِمٍ، وهو الظاهرُ، والله أعلم، لقوله: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: كما هو قادرٌ على بَدْأتِهِ فهو قادر على إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم القيامة، فَيُجازِي كلَّ عاملٍ بِعَمَلِه. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾، قال ابن عباس: يَيْأَس المجرمون. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يَكْتَئِبُ

المجرمون. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾، أي: ما شَفَعت فيهم الآلهةُ التي كانوا يَعبُدونَهَا من دون الله، وكَفَرُوا بهم وخَانُوهم أحوجَ ما كانُوا إليهم. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾، قال قتادةُ: هي ـ والله ـ الفُرقة التي لا اجتماعَ بعدها. يعني أنّه إذا رُفع هذا إلى عِلِّيين، وخُفِض هذا إلى أسفل السّافلين، فذاك آخرُ العهد بينهما، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾، قال مجاهد وقتادة: يَنْعَمُون. وقال يحيى بنُ أبي كَثير: يعني سَمَاعَ الغناء. والحَبْرَةُ أعمُّ من هذا كلِّه، قال العَجاج:

فالحمدُ لله الذي أعطى الحَبَرْ مَوَاليَ الحقّ، إنِ المولى شَكَرْ

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾

هذا تسبيحٌ منه تعالى لنفسِه المقدَّسة، وإرشادٌ لعباده إلى تَسْبيحه وتَحميدِه، في هذه الأوقات المتعاقبةِ الدالّة على كَمال قُدرته وعظيم سُلطانه، عند المساء وهو إقبالُ الليل بظلامه، وعند الصباحِ وهو إسفارُ النهار عن ضِيَائِهِ. ثم اعترض بحمده مناسبةً للتّسبيح، وهو التّحميدُ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمودُ على ما خَلَق في السمواتِ والأرض. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، فالعشاء هو: شِدّةُ الظلام، والإظهارُ: قُوّة الضِّياء. فسبحان خالقُ هذا وهذا، ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٣ ـ ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٢]، والآيات في هذا كثيرةٌ.

[٥١٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبّان بن فَائِد، عن سَهْل بن معاذ بن أَنَسِ الجُهَني، عن أبيه عن رَسُولِ الله ﷺ، أنه قال: ألا أُخبِرُكم لم سمّى الله إبراهيمَ خَليلَه الذي وَفَى؟ لأنّه كان يقول كُلّما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾(١).

[٥١٨٣] وقال الطَّبَرانيُّ: حدثنا مُطَّلِبُ بن شُعَيب الأَزْدِي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث ابن سعد، عن سعيد بن بَشِير، عن محمد بن عبد الرحمن بن البَيْلَماني، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾. . . الآية بكمالها، أدرك ما فاته في يومِه، ومن قالها حين يُمسِي أدرك ما فاته في ليلته(٢). إسناد ضعيف. ورواه أبو داود في سننه.

وقولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، هو ما نحنُ فيه من قدرته على خَلْق الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتابعة الكريمة كلُّهَا من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خَلْقَه الأشياء وأضدادَها، ليدلَّ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٩، وإسناده ضعيف جداً: ابن لهيعة، وابن فائد، وابن معاذ، ثلاثتهم ضعفاء، وتقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود ٥٠٧٦ من طريق الليث بهذا الإسناد، وكذا ابن عدي في «الكامل» ٣/ ٣٩٠ وإسناده ضعيف جداً، فيه سعيد بن بشير النجراني، أجمعوا على ضعفه، وبه أعله ابن عدي، ونقل عن البخاري قوله: لا يصح حديثه. وله علة ثانية، محمد بن عبد الرحمن البيلماني، متروك، واتهمه ابن حبان بالوضع. فلا يتقوى بما قبله لشدة ضعفهما.

خلقه على كَمَال قُدرته، فمن ذلك إخراجُ النبات من الحبِّ، والحبِّ من النباتِ. والبَيضِ من الدَّجاجِ، والدَّجَاجِ من البيضِ، والإنسان من النُّطفَة، والنُّطفة من الإنسانِ، والمؤمِن من الكافر، والكافِرِ من المُؤمن.

وقولُه تعالى: ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٤]، وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥ ـ ٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على عَظَمته وكَمال قُدرَته أنه خلق أباكم آدمَ من تُراب، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، فأصلكُم من تُرابٍ، ثم من ماء مهين، ثم تَصَوَّر فكان علقة، ثم مُضغَةً، ثم صار عظاماً مُشَكَّلَةً على شكلِ الإنسان، ثم كَسَا الله تلك العظامَ لحماً، ثم نَفَخ فيه الروحَ، فإذا هو سَمِيع بَصِيرٌ. ثم خَرَج من بطن أُمِّه صَغيراً ضَعِيفَ القُوى والحَرَكة، ثم كُلَّما طال عُمرُه تكامَلَت قُوَاه وحَرَكاتُه حتى آل به الحالُ إلى أن صار يَبني المدائن والحُصُونَ، ويُسافِرُ في أقطارِ الأقاليم، ويركَبُ متنَ البُحُور، ويَدُور أقطارَ الأرض ويَتَكَسَّبُ ويجمعُ الأموال، وله فكرٌ وغَورٌ، ودهاء ومكر، ورأيٌ وعِلم، واتساعٌ في أُمُورِ الدنيا والآخرةِ كُلٌّ بِحَسَبِه. فسبحانَ من أقدرَهم وسَيَّرهم وسَخَّرهم وصرفهم في فُنُونِ المعايش والمكاسب، وفاوتَ بينهم في العُلُوم والفكرةِ، والحُسنِ والقُبح، والغِنَى والفَقرِ، والشَّقَاوَةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٥١٨٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وغُندر قالا: حدثنا عوفٌ، عن قَسَامَةَ بن زُهَير، عن أبي موسى قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الله خَلَق آدم من قَبضةٍ قَبَضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ، جاء منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبينَ ذلك، والخبيثُ والطيِّبُ، والسَّهلُ والحَزْنُ، وبينَ ذلك[(١)]. ورواه أبو داوُدَ والترمذيُّ من طُرُقٍ، عن عَوفٍ الأعرابيِّ بِهِ. وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صَحيحٌ. وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: خَلَق لكم من جنسكم إناثاً يَكُنَّ لكم أزواجاً، ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، يعني بذلك حواءَ، خلقها الله من آدمَ من ضِلَعه الأقصرِ الأيسرِ. ولو أنه جَعَل بَني آدم كُلَّهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخَرَ من غيرِهم، إما من جانٍّ أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينَهم وبين الأزواج، بل كانت تحصُل نَفرَةٌ لو كانت الأزواجُ من غير الجنس. ثم من تَمَام رحمته بِبَني آدَمَ أن جعل أزواجَهُم من جِنسِهِم، وجعل بينَهم وَبينهُنَّ مودةً، وهي المحبَّةُ، ورحمةً، وهي الرأفة، فالرجلُ يُمسِكُ المرأة

---

(١) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ١٢.

إما لمحبَّتِه لها أو لرحمته بها، بأن يكون لها منه ولدٌ، أو محتاجةً إليه في الإنفاق، أو للألْفَةِ بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ومن آياتِ قُدرته العظيمة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خَلْقُ السمواتِ في ارتفاعها واتساعها، وشُفُوفِ أجرامها وزَهارة كواكبها ونُجومها الثَّوابت والسيَّارات، والأرضِ في انخفاضِها وكَثَافتها، وما فيها من جِبَالٍ وأوديةٍ، وبحارٍ وقِفَارٍ، وحيوانٍ وأشجارٍ. وقولُه تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾، يعني: اللغاتِ، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تَتَرٌ لهم لُغَةٌ أخرى، وهؤلاء كُرْجٌ، وهؤلاء رُومٌ، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بَرْبر، وهؤلاء تَكْرُور، وهؤلاء حَبَشَةٌ، وهؤلاء هنودٌ، وهؤلاء عَجَمٌ، وهؤلاء صَقَالبة، وهؤلاء خَزَرٌ، وهؤلاء أرمَنٌ، وهؤلاء أكرادٌ، إلى غير ذلك مما لا يَعلَمُه إلا الله من اختلاف لغاتِ بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي حُلاَهم، فجميعُ أهلِ الأرض بل أهل الدنيا منذ خَلَق الله آدم إلى قيام الساعة: كُلٌّ له عينان وحاجبان، وأنف وَجبين، وفَمٌ وخدَّانِ. وليس يشبه واحدٌ منهم الآخَرَ، بل لا بدَّ أن يفارقَه بشيء من السَّمتِ أو الهيئةِ أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهَرُ عند التأمل، كلُّ وجهٍ منهم أسلوبٌ بذاته وهيئةٌ لا تُشبه الأخرى. ولو توافق جماعةٌ في صفةٍ من جمال أو قُبح، لا بدَّ من فارقٍ بين كُلِّ واحد منهم وبين الآخر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: ومن الآيات ما جَعَل لكم من صفَةِ النوم في الليل والنهار، فيه تحصلُ الراحةُ وسكونُ الحركةِ، وذهابُ الكَلاَلِ والتَّعَبِ، وجعل لكم الانتشارَ والسعيَ في الأسباب والأسفار، وهذا ضدُّ النوم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يَعُونَ.

[٥١٨٥] قال الطبَرانيُّ: حدثنا حَجَّاج بن عِمران السَّدُوسِيُّ، حدثنا عَمرو بن الحُصَين العُقَيلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلاثَةَ، حَدَّثني ثورُ بنُ يَزيدَ، عن خالد بن مَعْدَانَ، سَمِعتُ عبد الملك بن مروانَ يحدِّث عن أبيه، عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: أَصَابَنِي أَرَقٌ من اللَّيل، فَشَكَوتُ ذَٰلِك إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: «قُل: اللهُمَّ، غَارتِ النُّجومُ، وهَدَأَتِ العيونُ، وأَنتَ حَيٌّ قَيُّومٌ، يا حَيُّ يا قيومُ، أَنِمْ عَينِي وأَهدِئ لَيلي». فقلتُها، فذهَبَ عَني[1].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ تارة تَخافُونَ مما يحدُث بعده من أمطار مُزعِجة، أو صواعِقَ متلفة، وتارةً تَرجُونَ وَميضَهُ وما يأتي بعدَه من المَطَر المُحتَاجِ إليه، ولهذا

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني ٤٨١٧ وابن السني ٧٥٤ وابن عدي ٥/ ١٧٩٩ من حديث زيد بن ثابت، وأعله ابن عدي بعمرو بن حصين العقيلي، وقال: تفرد به عمرو بن حصين، وهو مظلم الحديث، وحدث عن الثقات بمناكير، لا يرويها غيره. ووافقه ابن حجر. راجع «الفتوحات الربانية» ٣/ ١٧٧.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعدما كانت هامدةً لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرةٌ ودَلالَةٌ واضحةٌ على المَعادِ وقيام الساعةِ، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا اجتهدَ في اليمين يقول: «لا، والذي تقومُ السماءُ والأرضُ بأمرهِ». أي: هي قائمةٌ ثابتة بأمره لها وتسخيره إيَّاها، ثم إذا كان يومُ القيامة بُدّلت الأرضُ غيرَ الأرض والسموات، وخَرَجتِ الأمواتُ من قُبورها أحياءً بأمره تعالى ودعائِه إيَّاهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، أي: من الأرض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ [يس: ٥٣].

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۝٢٦ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: مِلكُه وعَبيده، ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، أي: خاضِعُونَ خاشِعُونَ طوعاً وكَرهاً.

[٥١٨٦] وفي حديث دَرّاج، عن أبي الهَيثم، عن أبي سَعيدٍ، مرفُوعاً: «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة»(١). وقولُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، قال عليّ ابنُ أبي طلحةَ عن ابن عباس: يعني أيسرُ عليه. وقال مجاهدٌ: الإعادةُ أهونُ عليه من البَدْأَةِ، والبداةُ عليه هَيِّنٌ. وكذا قال عِكْرِمَةُ وغيرُه.

[٥١٨٧] قال البخاريُّ: حَدَّثنا أبو اليمانِ، أخبرنا شُعَيبٌ، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: قال الله تعالى: «كَذَّبَني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُه إياي فقوله: لن يُعِيدني كما بدأني، وليس أولُ الخَلْقِ بأهونَ عَلَيَّ من إعادتِهِ. وَأما شَتْمُه إيَّايَ فقوله: اتخذَ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلِد ولم يُولَد، ولم يَكُن له كُفُواً أحدٌ»(٢). انفَرَد بإخراجه البخاريُّ كما انفرَد بروايته أيضاً من حديث عبد الرزّاق عن مَعْمَر، عن هَمّام، عن أبي هُرَيرَةَ به. وقد رَوَاه الإمامُ أحمدُ منفرِداً به عن حَسَن بن مُوسَى، عن ابن لَهيعة، حدثنا أبو يونُس سُلَيم بن جُبَير، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ بنحوِه، أو مِثْلِهِ. وقال آخرون: كلاهُما بالنِّسبة إلى القُدرةِ على السَّوَاءِ. قال العَوفِيُّ، عن ابن عباس: كلٌّ عليه هَيِّنٌ. وكذا قال الربيعُ بن خُثَيم. ومالَ إليه ابن جرير. وذكر عليه شواهد كثيرة، قال: ويَحْتَمِلُ أن يعودَ الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخَلق، أي: وهو أَهْوَن على الخَلْقِ. وقولُه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقال قتادة: مَثَلُه أنه لا إله إلا هو، ولا ربَّ غيره، وقال مثلَ

---

(١) ضعيف. وتقدم في سورة البقرة: ١١٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٧٤، وقد تقدم.

هذا ابن جرير. وقد أنشد بعض المُفَسّرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إذَا سَكَنَ الغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ ... وَجُنِّبَ أن يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ

تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بِلاَ امْتِرَاءٍ ... كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو والنُّجُومُ

كَذَاكَ قُلُوبُ أرْبَابِ التَّجَلِّي ... يُرَى فِي صَفْوِهَا اللهُ العَظِيمُ

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يُغالَبُ ولا يمانَعُ، بل قد غَلَبَ كُلَّ شيءٍ، وقَهَر كلَّ شيء بقُدرته وسُلطانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعالِه وأقواله، شَرْعاً وقَدَراً. وعن مالك في تفسيره المرويّ عنه، عن محمد بن المنكَدِرِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا مثلٌ ضَرَبه الله ـ تعالى ـ للمشركين به، العابِدين مَعَه غيرَه، الجاعلين له شُرَكاء، وهم مع ذلك مُعترِفُون أنَّ شركاءَه من الأصنام والأندادِ عبيدٌ له ملكٌ له، كما كانوا في تَلْبيتِهم يقولُون: لبّيك لا شريكَ لَك، إلا شريكاً هُوَ لَك، تملِكُه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهَدُونه وتفهمونه من أنفسكم: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، أي: أيَرْتَضِي أحدٌ منكم أن يكونَ عبدُه شريكاً له في مالِهِ، فهو وهو فيه على السَّواءِ؟! ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مِجْلَز: إنَّ مملوكك لا تخافُ أن يُقَاسِمَك مالك، وليس له ذَلِكَ، كذلك الله لا شَرِيكَ له. والمعنى أن أحدكم يَأنَفُ من ذلك، فكيف تجعَلُون لله الأندادَ من خلقه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، أي: من البنات، حيث جَعَلُوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدُهم إذا بُشِر بالأنثى ظَلَّ وجهُه مُسْوداً وهو كَظِيم، يتوارى من القوم من سُوءِ ما بُشِّر به، أيُمسكه على هُونٍ أم يَدُسُّه في التراب، فهم يَأنَفُون من البنات وجَعَلُوا الملائكة بناتِ الله، فنسبوا إليه ما لا يَرْضَونه لأنفُسِهم، فهذا أغلظُ الكُفر. وهكذا في هذا المقام جَعَلُوا له شُرَكَاء من عَبِيده وخَلْقِهِ، وَأحدُهم يأبى غاية الإباء ويأنَفُ غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبدُه شَرِيكَه في مالِهِ، يُساوِيه فيه. ولو شاء لَقَاسَمه عليه، تعالى الله عنه ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً.

[٥١٨٨] قال الطَّبَرانيُّ: حدثنا محمودُ بنُ الفَرَجِ الأصبَهانيُّ، حدثنا إسماعيل بن عَمْرو البَجَليُّ، حدثنا حَمّادُ بن شُعَيب، عن حَبِيب بن أبي ثابتٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبّاسٍ قال: كان يُلَبِّي أهلُ الشِّرْكِ: لَبَّيكَ اللهُمّ لَبَّيك، لَبَّيك لا شريك لك، إلا شَريكاً هو لَك، تَملِكُه وما ملك. فأنزل الله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾(١). ولما كان التنبيهُ بهذا المَثَل على براءَتِهِ تعالى ونَزَاهته بطريقِ الأولى والأحرَى، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى مُبَيِّناً أن المشركين إنما عَبَدُوا غيرَه سَفَهاً من أنفُسِهم وَجَهْلاً، ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾، أي: المشركون ﴿أَهْوَآءَهُم﴾، أي: في عباداتهم الأندادَ بغير عِلم، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾،

(١) أخرجه الطبراني ١٢٣٤٨ وإسناده ضعيف، لضعف حماد بن شعيب، انظر «مجمع الزوائد» ٣/٢٢٣.

أي: لا أحدَ يَهدِيهم إذا كَتَب الله إضلالهم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أي: ليس لهم من قُدرةِ الله مُنقِذٌ ولا مُجيرٌ، ولا محيدَ لهم عنه. لأنه ما شاءَ كانَ، وما لم يَشأ لم يَكُن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقولُ تعالى: فَسدِّد وجهَك واستمرَّ على الدين الذي شَرَعه الله لك، من الحَنيفية مِلَّةِ إبراهيمَ، الذي هَدَاك الله لها، وكمَّلها لك غاية الكَمالِ، وأنتَ مع ذلك لازمٌ فطرتَك السليمةَ، التي فَطَر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خَلقَه على مَعرفَتِه وتَوحيدِه، وأنه لا إلهَ غيرُه، كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

[٥١٨٩] وفي الحديث: «إني خلقتُ عبادي حُنَفاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتَالَتْهُم عن دينهم»(١). وسنذكُر في الأحاديث أن الله ـ تعالى ـ فطر خَلْقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسيَّة.

وقولُه تعالىٰ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، قال بعضُهم: معناه لا تُبدِّلوا خلق الله، فتُغيِّروا الناسَ عن فطرتهم التي فَطَرهم الله عليها. فيكونُ خبراً بمعنى الطَّلَب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا معنى حسنٌ صحيحٌ. وقال آخرون: هو خَبَرٌ على بابه، ومعناه: أنَّه ـ تعالى ـ ساوَى بين خَلقِه كُلِّهم في الفطرةِ على الجِبلَّةِ المستقيمة، لا يُولَد أحدٌ إلا على ذَلك، ولا تَفاوُتَ بين الناس في ذلك. ولهذا قال ابنُ عباس، وإبراهيم النَّخعِيُّ، وَسعِيد بن جُبَير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيدٍ في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، أي: لدين الله. وقال البخاريُّ قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لدين الله، ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]: دِينُ الأوَّلين، و«الفطرة»: الإسلام.

[٥١٩٠] حدثنا عَبْدانُ، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونُس، عن الزُّهريِّ، أخبرني أبو سَلَمَةَ بنُ عبدِ الرحمن: أنَّ أبا هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من مولودٍ يُولَدُ إلا على الفِطْرَةِ، فأبواه يُهَوِّدَانه أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جَمْعَاءَ، هل تُحسُّونَ فيها من جَدْعاءَ؟ ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾»(٢). وَرواه مسلم من حديث عبد الله بن وَهْبٍ، عن يُونُسَ بن يَزيدَ الأيْليِّ، عن الزُّهريِّ، به. وأخرجاه أيضاً من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن هَمَّامٍ، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ.

وفي معنى هذا الحديثِ قد وردت أحاديثُ عن جماعةٍ من الصحابة:

[٥١٩١] فمنهم الأسودُ بن سَرِيع التَّميمي: قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا إسماعيل، حدثنا يونُس، عن الحسن، عن الأسود بن سَرِيع قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وغزوت معه، فأصبتُ ظَفَراً، فَقَتَلَ الناس يومئذ، حتى قتلُوا الولدان. فبلغ ذَلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: ما بالُ أقوام جاوزهم القتل اليومَ حتى قَتَلُوا الذرية؟!

(١) تقدم تخريجه. أخرجه مسلم وغيره.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٧٩.

فقال رجل: يا رسولَ الله، أما هم أبناءُ المشركين؟ فقال: ألا إنما خِيارُكم أبناء المشركين. ثم قال: لا تقتلوا ذُرِّيَّةً، لا تقتلوا ذُرِّيَّةً. وقال: كُلُّ نَسَمَةٍ تُولَد على الفِطْرَة، حَتى يُعرِب عنها لسانُها، فأبواها يُهَوِّدَانِها أو يُنَصِّرانها[١]. ورَوَاه النسائي في كتاب السِّير، عن زياد بن أيُّوبَ، عن هُشَيم، عن يونُسَ ـ وهو ابن عُبَيد ـ عن الحَسَنِ البَصريِّ، به.

[٥١٩٢] ومنهم جابرُ بن عبد الله الأنصاريُّ: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشمٌ، حدثنا أبو جَعفَر، عن الرَّبيع بن أنسٍ، عن الحَسنِ، عن جابر بن عَبدِ الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّ مولودٍ يُولَد على الفِطْرَةِ حتى يُعرِبَ عنه لسانُه، فإذا أعربَ عنه لسانُه إما شاكِراً وَإمَّا كَفُوراً»[٢].

[٥١٩٣] ومنهم عبد الله بن عباس الهاشميُّ: قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا أبو عَوَانَة، حدثنا أبو بِشْرٍ، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ سُئِل عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلمُ بما كانوا عَامِلِين إذْ خَلَقهم»[٣]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليشكري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك.

[٥١٩٤] وقد قال أحمدُ أيضاً: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد ـ يعني ابن سَلَمة ـ أنبأنا عَمَّارُ بن أبي عَمَّار، عن ابن عباس قال: أتى عَلَيَّ زمانٌ وأنا أقولُ: «أولادُ المسلمين مع أولادِ المسلمين، وأولادُ المشركين مع المُشركين»، حَتَّى حَدَّثني فلانٌ عن فلان: أنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ سُئِل عنهم فقال: الله أعلمُ بما كانوا عاملين. قال: فلَقِيت الرجلَ فأخبرني، فأمسكت عن قولي[٤].

[٥١٩٥] ومنهم عياضُ بن حِمَارٍ المجاشعي: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشامُ، حدثنا قتادةُ، عن مُطَرِّف، عن عياض بن حِمار أن رسول الله ـ ﷺ ـ خَطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي ـ عَزَّ وجلَّ ـ أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم مما عَلَّمني في يومي هذا: كُلُّ مال نحلته عبادي حلالٌ، وإني خلقتُ عبادي حُنفاء كُلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطينُ فأضلَّتهم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن يُشركُوا بي ما لم أُنَزِّل به سلطاناً. ثم إنَّ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ نظر إلى أهل الأرض فَمَقتهم، عَرَبَهم وعَجَمهم، إلا بقَايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتَلِيكَ وأَبتلي بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسِلُه الماء تقرؤه نائماً ويقظانَ. ثم إن الله أمرني أن أحرق قُرَيشاً، فقلت: يا ربِّ، إذاً يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبزَة[٥]. قال: استَخرِجْهُم كما استخرجُوكَ، واغزُهم نُغْزِكَ، وأَنفِقْ عليهم فَسنُنفِقُ عليك. وابعث جيشاً نبعثْ خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنَّةِ ثلاثةٌ: ذُو سلطانٍ مُقسِط مُتَصَدِّقٌ موفَّق، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلبِ بكلِّ ذي قُربَى ومُسلِمٍ، ورجل عفيف متعفف ذو عيال فقيرٌ متصدِّق. وأهل النار

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» ٨٦١٦ وأحمد ٣/ ٤٣٥ و٤/ ٢٤ وأبو يعلى ٩٤٢ والطبراني ٨٢٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/٣١٦: وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح اهـ قلت: لكن فيه عنعنة الحسن، وهو مدلس، ولم يثبت سماعه من الأسود، ولبعضه شواهد وانظر «الصحيحة» ٤٠٢.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٨: وفيه أبو جعفر الرازي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات اهـ، قلت: أبو جعفر ضعفه غير واحد، وفيه عنعنة الحسن، لكن لأصله شواهد.

(٣) تقدم في تفسيره سورة الإسراء عند آية: ١٥.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٧٣ وانظر ما تقدم، فإنه في الصحيحين.

(٥) أي يشدخو رأسي، ويشجّوه كما يشدخ الخبز، أي يكسر.

خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تَبَعاً، لا يَبتغُونَ أهلاً ولا مالاً. والخائنُ الذي لا يخفى له طَمَعٌ وإن دَقّ إلا خَانَه. ورجلٌ لا يُصبحُ ولا يُمسِي إلا وهو يُخادِعُك عن أهلك وَمالِك». وذكر البخِيل، أو الكذّاب. والشّنظير: الفحّاشُ[1]. انفرد بإخراجه مسلم. فرواه من طُرُق عن قتادَةَ، به.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: التمسّكَ بالشريعةِ والفِطْرَة السّليمة هو الدينُ القويمُ المستقيمُ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا لا يعرِفه أكثرُ الناس، فَهم عنه ناكبُون، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]... الآية. وقولُه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ـ قال ابنُ زيد، وابن جريج: راجِعين إليه، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، أي: خافُوه وراقِبُوه، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهي الطاعةُ العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: بل من الموحّدين المُخلِصِينَ له العبادةَ، لا يَريدُون بها سِوَاه. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر ـ رضي الله عنه ـ بمعاذ بن جبل فقال: ما قِوامُ هذه الأمّةِ؟ قال معاذُ: ثلاثٌ، وهُنّ المُنجِياتُ: الإخلاصُ، وهي الفطرةُ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاةُ وهي المِلّة، والطاعةُ وهي العِصْمَةُ. فقال عمر: صَدَقت. حدثني يعقوبُ، حدثنا ابنُ عُلَيّة، حدثنا أيوبُ عن أبي قِلابَةَ: أن عُمَر قال لِمُعاذِ: ما قِوامُ هذا الأمر؟ فذكر نحوه.

وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرّقوا دِينَهم، أي: بَدّلُوه وغَيّروه وآمنُوا ببعضٍ وكَفرُوا ببعض. وقرأ بعضُهم: «فارقوا دينهم»، أي: ترَكُوه وراءَ ظُهورِهم، وهؤلاء كاليهود والنّصارى والمجوسِ وعَبَدةِ الأوثانِ، وسائر أهل الأديانِ الباطلةِ مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فأهلُ الأديانِ قبلَنا اختلَفُوا فيما بينهم على آراءٍ ومِلَل باطلة كلّها، وكل فرقةٍ منهم تزعُم أنهم عل شيءٍ، وهذه الأمةُ أيضاً اختلفُوا فيما بينَهم على نحلٍ كلُّها ضلالةٌ إلا واحدةٌ، وهم أهلُ السنةِ والجماعةِ، المُتمسّكُون بكتابِ الله وسُنّةِ رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدرُ الأوّلُ من الصحابةِ والتابعين، وأئمةِ المسلمين في قديمِ الدهرِ وحديثه.

[٥١٩٦] كما رَواه الحاكم في مستدركه أنه سُئِل ـ عليه السلام ـ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الناس أنّهم في حال الاضطرارِ يدعُون الله وحدَه لا شريكَ له، وأنه إذا أسبَغ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٢) حديث حسن صحيح، وتقدم مراراً.

عليهم النِّعم إذا فريقٌ منهم في حال الاختيار يُشركون بالله، ويعبدُون معه غيره. وقولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، هي لام العاقبةِ عند بعضهم، ولامُ التعليل عند آخرين، ولكنها تعليلٌ لِتَقييضِ الله لهم ذلك. ثم تَوعَّدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال بعضهم: والله لو تَوعَّدني حارس دَرْبٍ لخِفتُ منه، فكيفَ والمتوعِّدُ هاهنا هو الذي يقول للشيء: كُن، فيكونُ. ثم قال تعالىٰ مُنكِراً على المشركين فيما اختلقُوه من عبادةِ الأوثانِ بلا دليلٍ ولا حُجّةٍ ولا بُرهانٍ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾، أي: حُجّة، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، أي: يَنطِق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾، وهذا استفهامُ إنكارٍ، أي: لم يكن شيءٌ من ذلك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيثُ هو إلا مَنْ عَصَمه الله وَوَفَّقه، فإن الإنسانَ إذا أصابته نعمةٌ بَطِرَ وقال: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، أي: يفرَحُ في نفسِه ويفخَرُ على غيره، وإذا أصابته شِدّةٌ قَنِط وأيِس أن يحصُل له بعد ذلك خيرٌ بالكلية؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، أي: صَبَرُوا في الضَّرَّاء، وعملوا الصالحات في الرَّخاءِ، كما ثبت في الصَّحيح:

[٥١٩٧] «عَجَباً للمؤمن! لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سَرَّاء شَكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيراً له»(١). وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: هو المتصرِّف الفاعِلُ لذلك بحكمته وعَدْلِه، فيُوسِّعُ على قومٍ ويُضيِّق على آخرينَ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً بإعطاء ذي القُربى حقَّه، أي: من البرِّ والصِّلَةِ، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾، وهو: الذي لا شيءَ له يُنفِقُ عليه، أو له شيءٌ لا يقوم بكفايته، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهو المسافر المحتاج إلى نَفَقةٍ وما يحتاجُ إليه في سَفَرِه، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، أي: النظرَ إليه يومَ القيامةِ، وهو الغايةُ القُصوى، ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا وفي الآخرة. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: مَن أعطى عَطِيّة يُريدُ أن يردَّ الناس عليه أكثَرَ مما أهدى لهم فهذا لا ثوابَ له عند الله. بهذا فَسَّره ابنُ عباس، ومجاهد، والضحَّاك، وقتادةُ، ومحمد بن كعب، والشعبي. وهذا الصنيعُ مباحٌ، وإن كان لا ثواب له فيه، إلا أنه قد نَهى عنه رسول الله ـ ﷺ ـ خاصّةً، قاله الضَّحاك، واستدلَّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ [المدثر: ٦]، أي: لا تُعطِ العطاء تُريد أكثرَ منه. وقال ابن عباس: الرِّبا رِباءانِ، فَرِباً لا يصحُّ، يعني رِبا البيع، ورِباً لا بأس به، وهو هَديّة الرجُلِ يريد فَضلَها وإضعَافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ﴾. وإنما الثوابُ عندَ الله في الزكاةِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾، أي: الذين يضاعِفُ الله لَهم الثوابَ والجزاء.

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٥٣.

[٥١٩٨] كما جاء في الصحيح: «وما تَصدَّق أحد بِعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ إلا أخذَها الرحمنُ بيَمِينه، فَيربِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّه أو فَصيله[١]، حتى تَصِير التمرة أعظَمَ من أُحد»[٢].

وقولُه عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، أي: هو الخالقُ الرازقُ، يُخرجِ الإنسان من بطن أُمِّه عُرياناً لا عِلْمَ له ولا سَمع ولا بَصر ولا قُوىً، ثم يرزُقه جميعَ ذلك بعد ذلك، والرِّياشَ واللِّباس والمالَ والأملاك والمكاسِبَ.

[٥١٩٩] كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعَاوية، حدثنا الأعمش، عن سلام بن شُرَحبيل، عن حَبَّةَ وسَوَاءِ ابني خالدٍ قالا: دَخلنا على النبي ـ ﷺ ـ وهو يُصلِحُ شيئاً فأعَنَّاه، فقال: «لا تيأسَا من الرِّزق ما تَهزَّزَتْ رُؤوسكما؛ فإن الإنسان تَلِدهُ أُمُّه أحمَرَ ليس عليه قِشرةٌ، ثم يَرزُقه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»[٣].

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: بعدَ هذه الحياةِ، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، أي: يومَ القيامةِ. وقولُه تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، أي: الذين تعبدونهم من دُونِ الله، ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾، أي: لا يَقدِر أحدٌ منهم على فِعْلِ شيءٍ من ذلك، بل الله ـ سُبحانه وتعالى ـ هو المستقلُّ بالخَلق والرِّزقِ، والإحياءِ والإماتةِ، ثم يَبعثُ الخلائقَ يومَ القيامة. ولهذا قال بعد هذا كلِّه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتعاظَم وَجَلَّ وعَزَّ عن أن يكُونَ له شريكٌ أو نظيرٌ أو مساوٍ، أو وَلَدٌ أو والدٌ، بل هو الأحدُ الفردُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِد ولم يولَد، ولم يَكُن له كُفُواً أحدٌ.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قال ابن عباس، وعِكرِمةُ، والضحَّاكُ، والسدِّيُّ، وغيرُهم: المراد بالبرِّ هاهنا: الفَيَافي، وبالبحر: الأمصارُ والقُرَى، وفي رواية عن ابن عباس وعِكرِمَةَ: البحر: الأمصارُ، والقُرَى ما كان منها على جانبَ نَهر. وقال آخرون: بل المراد بالبرِّ هو البرُّ المعروف، وبالبحر: البحرُ المعروف. وقال زيد بن رُفَيع: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ يعني: انقطاعَ المطر عن البرِّ يعقُبه القحطُ، وعن البحرِ يعني دوابُّه. رواه ابن أبي حاتم. وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المقرىءُ، عن سُفيانَ، عن حُمَيد بن قيسٍ الأعرج، عن مجاهد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، قال: فسَادُ البرِّ: قتلُ ابن آدمَ، وفسادُ البحرِ: أخْذُ السفينةِ غَصْباً. وقال عطاء الخُراسَاني: المراد بالبرِّ: ما فيه من المدائن والقُرَى، وبالبحر: جَزَائرُه. والقولُ الأول أظهرُ، وعليه الأكثرُ.

[٥٢٠٠] ويؤيده ما ذَكره محمدُ بن إسحاق في السيرة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ صَالَح مَلِك أَيْلَةَ، وكَتب له ببحره، يعني بِبَلده[٤]. ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، أي: بان

(١) الفلوّ: المهر، والفصيل: ولد الناقة.

(٢) انظر حديث عائشة المتقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٧٦. وحديث أبي هريرة المتقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٣.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧٠ ح ١٥٤٢٨ و١٥٤٢٩، ومداره على سلام بن شرحبيل، وهو مقبول كما في التقريب، ووثقه ابن حبان وحده، وبقية رجاله رجال الصحيح، وفيه عنعنة الأعمش، فالإسناد ضعيف.

(٤) هذا معضل، وانظر «الطبقات» ١/ ٢٢٠ لابن سعد.

النقصُ في الثِّمار والزُّروع بِسَبب المعاصي. وقال أبو العالية: مَن عَصَى الله في الأرض فَقَد أفسَدَ في الأرض، لأنَّ صلاحَ الأرضِ والسماء بالطاعة.

[٥٢٠١] ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داودَ: «لَحَدّ يُقَامُ في الأرض أَحَبُّ إلى أهلها مِن أن يُمطَرُوا أربعينَ صَباحاً»[١]. والسببُ في هذا أنّ الحدودَ إذا أُقيمت انكفَّ الناسُ ـ أو أكثرهُم، أو كثيرٌ منهم ـ عن تَعاطي المُحرَّمات، وإذا تُركتِ المعاصي كان سبباً في حصول البَرَكاتِ من السماءِ والأرْضِ، ولهذا إذا نَزَل عيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان فَحَكم بهذه الشريعة المُطَهَّرة في ذلك الوقت، من قَتْلِ الخَنزير وكَسرِ الصليب وَوَضعِ الجِزْية ـ وهو تَرْكُها ـ فلا يُقبَلُ إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجّال وأتباعَه ويأجُوجَ ومأجُوجَ، قيل للأرض: أخرجي بَرَكاتك. فيأكلُ من الرُّمّانة الفِئَامُ من الناس، ويَستَظِلُّون بِقِحفها، ويكفي لبنُ اللَّقحةِ الجَمَاعةَ من الناس. وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعةِ رسول الله ـ ﷺ ـ فكلما أُقيم العدل كثرت البركات والخير.

[٥٢٠٢] ولهذا ثبت في الصحيحين: «أنَّ الفاجِرَ إذا ماتَ تَستَرِيحُ العبادُ والبلادُ، والشجرُ والدوابُّ»[٢].

ولهذا قال الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ: حدثنا مُحمَّدُ والحُسَين قالا: حدثنا عَوفٌ، عن أبي قَحْذَم قال: وَجَد رجلٌ في زمان زياد ـ أو: ابن زيادٍ ـ صُرَّة فيها حَبٌّ ـ يعني من بُرٍّ ـ أمثال النَّوَى عليه مكتوب: هَذا نَبَت في زمانٍ كان يُعمَلُ فيه بالعدل. ورَوَى مالك، عن زيد بن أسلَمَ: أن المرادَ بالفسادِ هاهنا الشركُ. وفيه نظرٌ. وقولُه تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ الآية، أي: يَبْتَلِيهم بنقصِ الأموالِ والأنفس والثَّمرات، اختباراً منه لهم، ومجازاةً على صَنيعِهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: عن المعاصِي، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قَبلِكم، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، أي: فانظروا ماذا حَلَّ بهم من تكذيبِ الرسُلِ وكُفرِ النِّعَم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادَرةِ إلى الاستقامةِ في طاعتِه، والمبادَرةِ إلى الخيراتِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: يومَ القيامةِ، إذا أراد كَونَه فلا رادَّ له، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، أي: يَتفرَّقون، ففريقٌ في الجَنّةِ وفريقٌ في السَّعِير، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: يُجازِيهم مجازاةَ الفضل، الحسنةُ بِعَشر أمثالها، إلى سَبعمئةِ ضِعفٍ، إلى ما يشاءُ الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ومع هذا هو العادلُ فيهم، الذي لا يَجُور.

(١) تقدم في تفسير سورة النور عند آية: ٢ وهو حديث حسن.

(٢) غريب هكذا. ومراد المصنف حديث أبي قتادة الذي أخرجه البخاري ٦٥١٢ ومسلم ٩٥٠ وأحمد ٥/٢٩٦ بنحوه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يذكر تعالى نِعَمه على خَلْقِه في إرساله الرِّياح مُبَشِّراتٍ بين يَدَي رَحمَتِه، بمجيء المطر والغيث عَقِيبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: المَطَرَ الذي ينزله فيُحيي به العبادَ والبلادَ، ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: في البحر، وإنما سيْرها بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: في التجاراتِ والمعايِش، والسَّيرِ من إقليم إلى إقليم، وقُطرٍ إلى قُطرٍ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرُون الله على ما أنعمَ به عليكم من النّعم الظاهِرةِ والباطِنة، التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾، هذه تسليةٌ من الله لعبده ورسوله محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأنه وإن كَذَّبه كثيرٌ من قَومه ومن الناس، فقد كُذبت الرسلُ المتقدِّمون مع ما جاؤوا أُممهم به من الدلائِل الواضحاتِ، ولكن انتقم الله ممن كَذَّبهم وَخَالَفهم، وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هو حَقٌّ أوجبَه على نفسِه الكريمةِ، تكرُّماً وتَفضُّلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

[٥٢٠٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا مُوسَى بن أعينَ، عن ليث، عن شَهر بن حَوْشَب، عن أم الدَّرْدَاءِ، عن أبي الدَّرْدَاء قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: ما من امرىءٍ مُسلِم يَرُدُّ عن عِرْضِ أخيه إلا كان حقاً على الله أن يَرُدَّ عنه نار جهنَّم يوم القيامة. ثم تلاَ هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

بيَّنَ تعالى كيف يَخلُق السحابَ التي يَنزلُ منها الماءُ فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غيرُ واحدٍ، أو مما يشاءُ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، أي: يَمُدُّه فيكثِرُهُ ويُنَمِّيه، ويجعل من القليل كثيراً، يُنشىء سحابةً فتُرى في رَأيِ العين مثل التُّرس، ثم يَبسُطها حتى تملأ أرجاءَ الأُفقِ، وتارةً يأتي السحابُ من نحو البحر ثِقالاً مملوءةً ماءً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال هاهنا. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾، قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٩ وإسناده ضعيف لضعف ليث وهو ابن أبي سليم، وشيخه شهر سيّىء الحفظ، ولأصله شواهد، والوهن فقط في ذكر الآية. وانظر «المجمع» ٧/ ٢٦٧.

الوَرّاق، وقتادةُ: يعني قطعاً. وقال غيره: مُتَراكماً، قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تَرَاه مُدلَهِمّاً ثقيلاً قريباً من الأرض.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، أي: فترى المَطَر، وهو القَطْرُ، يخرج من بين ذلك السَّحاب، ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي: لحاجَتهم إليه يَفرَحُون بنزوله عليهم ووصُوله إليهم. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾، معنى الكلام أن هؤلاءِ القومَ الذين أصابَهم هذا المطر كانوا قانطين آزِلين من نُزُولِ المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم على فاقةٍ، فوقع منهم موقعاً عَظِيماً. وقد اختلف النحاةُ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾، فقال ابنُ جرير: هو تأكيدٌ. وحكاه عن بعض أهلِ العَرَبية. وقال آخرون: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطرُ، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: الإنزالِ ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾. ويحتَمِلُ أن يكونَ ذلك من دِلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً، أي: قد فات عندهم نزولُه وقتاً بعد وقت، فَترقَّبوه في إبّانه فتأخر، فَمَضت مُدّةٌ فترقّبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتةً بعد الإِياس منه والقُنوط، فبعد ما كانت أرضُهم مقشعرة هامدةً أصبحَت وقد اهتزّت وربَت، وأنبتت من كل زَوج بَهيج. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾، يعني المَطَر، ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾. ثم نَبَّه بذلكَ على إحياءِ الأجسادِ بعد مَوتِها وَتفرُّقها وَتمزُّقها، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: إن الذي فَعل ذلك لقادرٌ على إحياءِ الأمواتِ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يابسةً على الزَّرع الذي زَرَعُوه، ونبت وشَبَّ واستوى على سُوقِهِ، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: قد اصفرَّ وشَرَع في الفساد، ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿يَكْفُرُونَ﴾ أي: يَجحَدُون ما تقدَّم إليهم من النعم، كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يعسى بن الطبّاع، حدثنا هُشَيم، عن يعلَى بن عطاءٍ، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمرو قال: «الرياح ثمانيةٌ، أربعة منها رحمةٌ، وأربعةٌ عذابٌ، فأما الرحمة فالناشراتُ والمبشِّرات والمُرسَلاَت والذاريات، وأما العذاب فالعَقيم والصَّرصر، وهما في البر، والعاصِفُ والقاصِفُ، وهما في البحر». فإذا شاء سبحانه وتعالى حَرّكه بحركة الرحمة فجعله رُخَاءً ورحمة ونُشراً بين يَدَي رحمته، ولاقحاً للسحاب يلقحه بحمل الماء، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل. وإن شاء حَرّكه بحَرَكة العذاب، فجعله عقيماً، وأودعه عَذاباً أليماً، وجَعَله نقمةً على من يشاء من عباده، فيجعله صَرْصراً وعاتياً ومفسداً لما يَمُرُّ عليه. والرياح مختلفةٌ في مَهَابِّها، صباً ودَبُورٌ، وجنوب وشمالٌ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظمُ اختلاف، فريحٌ لينة رطبة تغذّي النبات وأبدانَ الحيوان، وأخرى تجفّفه، وأخرى تهلكه وتُعطِبُه، وأخرى تَشدُّه وتُصلّبه، وأخرى تُوهِنُه وتُضعِفُه.

[٥٢٠٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبيد الله ابنُ أخي ابن وَهب، حدثنا عَمّي، حدثنا عبد الله ابنُ عَيّاشٍ، حدثني عبد الله بنُ سُليمان، عن دَرّاج، عن عيسى بن هلال الصدَفي، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: الريحُ مُسَخَّرةٌ من الثانيةِ ـ يعني الأرضَ الثانية ـ فَلَمّا أراد الله أن يُهلِكَ عاداً أَمَر خازنَ الرِّيح أن يُرسِلَ عليهم ريحاً تُهلِك عاداً، فقال: يا ربِّ، أرسلُ عليهم من الريح قَدْرَ مِنخَر الثَّورِ. قال له الجبار تبارك وتعالى: لا، إذاً تُكفأُ الأرضُ ومن عليها، ولكن أُرسِلُ عليهم بقدر خَاتَم، فهي التي قال الله في

كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾[١] [الذاريات: ٤٢]. هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، ورفعهُ مُنكَر. والأظهر أنه من كَلَامِ عَبدِ الله بن عَمرو، رَضِيَ الله تعالىٰ عنه.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾

يقولُ تعالى: كما أنّك ليس في قُدرتك أن تُسمع الأمواتَ في أَجداثِها، ولا تُبلِغُ كَلامَكَ الصُّمَّ الذين لا يَسمَعُون، وهم مع ذلك مُدبِرُون عنك، كذلك لا تَقدِرُ على هِدَاية العُميانَ عن الحقِّ، ورَدِّهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه تعالى بِقُدرَتِه يُسمِع الأموات أصواتَ الأحياءِ إذا شاء، ويهدي مَن يشاء، ويُضِل من يشاء، وليس ذلك لأحدٍ سواه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يَستَمِعُون الحق ويتبعونه، وهذا حالُ المؤمنين، والأول مَثَلُ الكافرين، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾ [الأنعام: ٣٦].

[٥٢٠٥] وقد استدلّت أم المؤمنين عائشةُ ـ رَضِي الله عنها ـ بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾، على تَوهِيم عَبدِ الله بن عُمَر في رِوَايَتِه مخاطبةَ النبيِّ ـ ﷺ ـ القتلى الذين ألقوا في القَلِيب قَلِيب بَدرٍ، بعدَ ثلاثةِ أيّام، ومُعَاتَبَتِه إيّاهم وتقريعَه لهم، حتى قال له عُمَر: يا رسولَ الله، ما تُخاطِب مِن قوم قد جَيَّفُوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمَعَ لما أقولُ منهم، ولكن لا يُجيبون»[٢]. وتأوّلته عائشةُ على أنه قال: «إنهم الآن ليعلَمُون أن ما كنتُ أقولُ لهم حَقٌّ». وقال قتادةُ: أحياهُم الله له حتى سَمِعوا مقالَتَه تقريعاً وتَوبيخاً ونِقمَةً. والصحيحُ عندَ العلماء روايةُ ابنِ عُمَر، لما لها من الشواهد على صِحّتها من وُجوهٍ كثيرةٍ.

[٥٢٠٦] من أشهر ذلك ما رواه ابنُ عبد البرّ مُصَححاً له، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يَمُرُّ بقبر أخيه المسلم، كان يَعرِفه في الدنيا، فَيُسَلِّم عليه، إلا رَدَّ عليه رُوحَه، حتى يَرُدَّ عليه السلام»[٣].

[٥٢٠٧] وثبت عنه ـ ﷺ ـ لأمته إذا سَلّموا على أهل القُبُور أن يُسَلِّموا عليهم سَلامَ مَن يُخاطِبُونَه فيقولُ المُسَلِّم: «السَّلامُ عليكم دارَ قومٍ مُؤمِنين»[٤]. وهذا خطابٌ لمن يسمَع ويعقِل، ولولا هذا الخطابُ لكانُوا

---

(١) والحديث لا أصل له في المرفوع، فيه درّاج أبو السمح، روىٰ مناكير كثيرة، وضعفه الجمهور. وفيه عبد الله بن سليمان، وهو الحميري المصري، قال البزار: حدث بأحاديث لا يتابع عليها، وله علة ثالثة: ابن أخي عبد الله بن وهب ضعفه الجمهور، وذكر بعضهم أنه يخطىء ويصر على ذلك. راجع الميزان. فالإسناد ضعيف جداً، والمتن باطل، فإن الريح ليست من الأرض الثانية كما ورد في هذا الخبر. ثم إن فيه «أنه أرسل على عاد ريحاً بقدر خاتم» وهذا غير صحيح أيضاً، وهو من الإسرائيليات بلا شك، والظاهر أنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو بن العاص يوم اليرموك، وقد وَهِمَ بعض الرواة، فجعله مرفوعاً. وهو مسلسل بالضعفاء كما تقدم. والله الموفق.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ٤٤.

(٣) صححه ابن عبد البر كما ذكر المصنف، وعبد الحق كما في «الإحياء» ٤/ ٤٧٥.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٤٩ والنسائي ١/ ٩٣، ٩٥ وابن ماجه ٤٣٠٦ ومالك في «الموطأ» ١/ ٢٨ وأحمد ٢/ ٣٠٠ و٤٠٨ وابن حبان ١٠٤٦ وابن خزيمة في «صحيحه» ٦ والبغوي في «شرح السنة» ١٥١ والبيهقي ١/ ٨٢ ـ ٨٣، كلهم من حديث أبي هريرة.

بِمَنزلةِ المعدُومِ والجمادِ. والسَّلفُ مُجمِعُون على هذا. وقد تواترت الآثارُ عنهم بأن الميِّتَ يَعرفُ بزيارة الحيِّ له ويستبشر.

[٥٢٠٧م] فَرَوى ابنُ أبي الدنيا في كتاب القُبُور عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من رجل يَزُور قبرَ أَخِيه ويجلس عنده إلا استأنسَ به ورَدَّ عليه حتى يقوم»(١). ورَوَى عَن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا مَرَّ الرجلُ بقبر يعرِفه فَسَلَّم عليه رَدَّ عليه السلام.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِه عن رجلٍ من آل عاصم الجَحْدَرِيّ قال: رأيت عاصماً الجحدريَّ في منامي بعد مَوتِه بسنتين فقلت: أليس قد مُتَّ؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في رَوضةٍ من رِيَاضِ الجنة أنا ونَفَرٌ من أصحابي نجتمع كُلَّ ليلةِ جُمُعة وصَبِيحتها إلى بكر بن عبد الله المُزَني فَنَتلقَّى أخباركم. قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات، قد بَليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح. قال: قلت: فهل تعلَمُون بزيارتنا إيَّاكم؟ قال: نَعلَم بها عَشِيَّة الجمعة ويومَ الجُمُعَةِ كُلَّه ويوم السبت إلى طُلُوع الشمس: قال: قلت: فكيفَ ذلك دُونَ الأيام كلِّها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعَظَمته(٢).

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثنا بكر بن محمد، حدثنا حَسَن القَصَّاب قال: كنت أغدُو مع محمد بن واسع في كلِّ غَدَاة سَبتٍ حتى نأتي أهل الجبَّانِ فنقفُ على القبور فَنُسَلِّم عليهم وندعُو لهم، ثم ننصرف. فقلتُ ذاتَ يوم: لو صَيَّرت هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزُوَّارهم يومَ الجُمُعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها. قال: حدثنا محمد، حدثنا عبد العزيز بن أبان، قال: حدثنا سُفيان الثوريُّ قال: بَلَغني عن الضحَّاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبتِ قبلَ طُلوع الشمسِ عَلِم الميتُ بزيارته، فَقِيل له: وكيفَ ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

حدثنا خالد بن خداش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التيَّاح يقول: كان مُطَرِّفٌ يغدُو فإذا كان يومُ الجمعة أَدْلَج. قال: وسَمِعتُ أبا التيَّاح يقولُ: بَلَغنا أنه كان ينزلُ بغُوطَة، فأقبل ليلةً حتى إذا كان عند المقابر يقومُ وهو على فَرَسه، فرأى أهل القبور، كُلَّ صاحب قبر جالساً على قبره. فقالوا: هذا مُطَرِّفٌ يأتي الجمعة. قال: وتعلمون عندكم يومَ الجُمُعةِ؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقولُ فيه الطيرُ. قلت: وما يقولُون؟ قال: يقولُون: سلامٌ عليكم.

حدثني محمد بن الحُسَين: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا الفضل بنُ المُوفَّق ابن خال سُفيانَ بن عُيَينة قال: لما ماتَ أبي جَزِعتُ عليه جزعاً شَدِيداً، فكنت آتي قبره في كُلِّ يوم، ثم قَصَّرتُ عن ذلك ما شاء الله، ثم إني أتيتُه يوماً فبينا أنا جالسٌ عند القبر غَلَبتني عيناي فَنِمت، فرأيتُ كأن قبرَ أبي قد انفرَجَ، وكأنه قاعدٌ في قبره، مُتَوشِّح أكفانه، عليه سَحْنَةُ الموتى، قال: فكأني بَكَيت لما رأيتُه، قال: يا بُنَي ما بَطَأ بك عَنِّي؟ قلت:

---

(١) ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» ٤/ ٤٧٥، وعزاه لابن أبي الدنيا، وقال: فيه عبد الله بن سمعان، ولم أقف على حاله، ورواه ابن عبد البرّ من حديث ابن عباس، وصححه عبد الحق اهـ.
وله شاهد أخرجه الديلمي في زهر الفردوس ٤/ ١٣ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ضعيف، لا شيء. والله تعالى أعلم.

(٢) هذا الأثر، وما بعده، ذكره المصنف لِلعِظَة فحسب.

وإنك لتعلَمُ بمجيئي؟ قال: ما جئت مرّةً إلا عَلِمتها، وقد كنت تأتيني فَأُسَرُّ بك ويُسَرُّ من حولي بِدُعائك. قال: فكنتُ آتيه بعد ذلِكَ كثيراً.

حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، حدثنا عثمان بن سُوَيد الطُّفاوِيّ ـ قال: وكانت أُمُّه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة ـ قال: لما احتُضِرت رَفعت رأسَها إلى السماء فقالت: يا ذُخري وذَخيرتي، ومَن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مَوتي، لا تخذُلني عند الموتِ ولا تُوحِشني. قال: فماتت، فكنتُ آتيها كُلّ جُمعَة فأدعُو لها وأستغفرُ لها ولأهل القُبُور، فرأيتها ذات يوم في مَنامي، فقلت لها: يا أُمّه، كيفَ أنت؟ قالت: أيْ بُنَيّ، إنّ للموتِ لَكُربةً شديدةً، وإني بحمد الله لَفي بَرزخٍ محمودٍ، يُفرَش فيه الرَّيحان، ونتوسَّدُ السندُسَ، والإِستبرَقَ إلى يوم النُّشورِ. فقلت لها: ألكِ حاجةٌ؟ قالتْ: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تَدَعْ ما كنتَ تصنَعُ من زياراتنا والدعاءِ لنا، فإني لأُبَشَّر بمجيئكَ يومَ الجُمُعَة إذا أقبلتَ مِن أهلك، يقال لي: يا راهِبَة، هذا ابنك قد أقبل، فَأُسَرُّ ويُسَرُّ بذلك مَن حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمنُ الطاعون كان رجلٌ يَختلِف إلى الجبَّان فيشهَدُ الصلاةَ على الجنائز، فإذا أمسى وَقَف على المقابر، فقال: آنسَ الله وَحشتكم، ورَحِمَ غُربَتكم، وتجاوزَ عن مُسيئكم، وقَبِلَ حَسَناتِكم. لا يَزيدُ على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيتُ ذاتَ ليلةٍ وانصرفتُ إلى أهلي ولم آتِ المقابرَ فَأدعُوَ كما كنت أدعُو. قال: فبينما أنا نائمٌ إذا بخلقٍ قد جَاؤوني فقلتُ: ما أنتم؟ وما حاجتُكم؟ قالوا: نحن أهلُ المقابِر، قلت: ما حاجَتُكم؟ قالوا: إنك عَوَّدتَنا منكَ هديَّةً عند انصرافِكَ إلى أهلِكَ. قلت: وما هي: قالوا: الدعواتُ التي كنتَ تَدعُو بها. قال: قلت: فإني أعودُ لذلك، قال: فما تركتُها بعدُ. وأبلغُ مِن ذلِكَ أن الميِّتَ يعلَمُ بِعَمَلِ الحيِّ من أقاربه وإخوانِهِ؟ قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثورٌ بن يزيدَ، عن أبي رُهم، عن أبي أيُّوبَ قال: تُعرَض أعمالُ الأحياءِ على الموتى، فإذا رَأوا حَسَناً فَرحُوا واستبشَرُوا، وَإن رَأوا سُوءاً قالوا: اللهُمّ راجعْ به.

وذكر ابنُ أبي الدُّنيا عن أحمد بن أبي الحَوَارِيّ قال: حدثني محمد أخي قال: دخل عَبَّادُ بن عبادٍ على إبراهيمَ بن صالح، وهو على فِلَسطِينَ فقال: عظني. قال: بم أَعِظُكَ، أصلحك الله؟ بلَغني أن أعمالَ الأحياء تُعرَض على أقاربهم من الموتى فانظر ما يُعرَضُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ من عملك. فبكَى إبراهيمُ حتى أخضَلَ لحيتَهُ.

قال ابن أبي الدُّنيَا: وحدثني محمد بن الحُسَين، حدثني خالد بن عَمْرو الأموي، حدثنا صَدَقة بن سُليمان الجَعْفَرِيُّ قال: كانت لي شِرَّةٌ سَمِجة، فمات أبي، فَتُبتُ ونَدِمت على ما فَرَّطت، ثم زَلَلتُ أيما زَلَّةٍ فرأيتُ أبي في المنام فقال: أي بُنَيّ، ما كان أشدَّ فَرَحي بك وأعمالُك تُعرَض عَلَينا، فَنُشَبِّهُهَا بأعمالِ الصالحين، فلما كانت هذه المرَّةُ استحيَيتُ لذلك حياءً شديداً، فلا تُخزني فيمَن حَولي من الأمواتِ. قال: فكنتُ أسمَعه بعد ذَلِك يقولُ في دُعائه في السَّحر، وكان جاراً لي بالكوفة: أسأَلُكَ إيابةً لا رجعةَ فيها ولا حَوْرَ، يا مُصلح الصالحين، ويا هادي المُضلّين، ويا أرحَمَ الراحمين.

وهذا بابٌ فيه آثار كثيرة عن الصَّحابة، وكان بعضُ الأنصار من أقارب عبد الله بن رَوَاحة يقول: اللّهُمّ إني أعوذُ بك من عَمَلٍ أَخزَى به عندَ عبد الله بن رَوَاحَة، كان يقولُ ذلك بعدِ أن استُشهِدَ عبدُ الله. وقد شُرِعَ السلامُ على الموتى، والسلامُ على مَن لم يشعر ولا يَعْلَم بالمُسَلِّم محالٌ.

[٥٢٠٨] وقد عَلَّم النبيُّ ـ ﷺ ـ؛ أُمَّته إذا رَأَوْا القُبُورَ أن يقولوا: «سلامٌ عليكم أهل الديارِ من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحِقُون، يرحَمُ الله المستقدِمينَ منَّا ومنكُم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافِيَةَ»[(١)].

فهذا السلامُ والخطابُ والنداءُ لِمَوجُودٍ يسمَعُ ويُخاطَبُ ويَعقِل ويَرُدُّ، وإن لم يَسمَع المُسَلِّم الردَّ، والله أعلم.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

يُنَبِّه تعالى على تَنَقُّل الإنسانِ في أطوار الخَلْقِ حَالاً بعد حالٍ، فأصلُه من تُرابٍ، ثم من نُطفةٍ، ثم من عَلَقة، ثم من مُضغة، ثم يصير عظاماً ثم يُكْسَى لحماً، ويُنفَخ فيه الروحُ، ثم يخرُج من بطن أمِّه ضعيفاً نحيفاً واهِنَ القُوَى. ثم يَشِب قليلاً قليلاً حتى يكونَ صغيراً، ثم حدَثاً، ثم مُرَاهِقاً، ثم شاباً. وهو القوةُ بعد الضَعفِ، ثم يشرَعُ في النقصِ فيكتهلُ، ثم يَشِيخ ثم يَهرَمُ، وهو الضَّعفُ بعد القوَّة. فتضعف الهمةُ والحركةُ والبطشُ، وتَشِيبُ اللِّمَّة، وتَتَغير الصفاتُ الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يَفعلُ ما يَشاءُ ويَتصرَّف في عَبِيده بما يُرِيدُ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

[٥٢٠٩] قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، عن فَضْل ويزيدَ، حدثنا فُضَيل بن مرزوق، عن عَطِيَّةَ العَوفِيِّ: قال قَرَأْتُ على ابن عُمَر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، فقال ابن عمر: «الله الذي خلقكم من ضُعف ثم جعل من بعد ضُعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضُعفاً وشيبة»، ثم قال: قرأت على رسولِ الله ـ ﷺ ـ كما قرأتَ عَلَيَّ، فأخَذَ عَلَيَّ كما أخذت عليك[(٢)].

ورواه أبو داود والترمذي ـ وحَسَّنه ـ من حديث فُضَيل، به. ورَوَاه أبو داودَ من حديث عبد الله ابن جابرٍ عن عَطِية، عن أبي سَعيدٍ، بنحوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن جَهل الكُفَّار في الدنيا والآخرة، ففي الدُنيا فَعَلُوا ما فَعَلُوا من عبادة الأوثانِ، وفي الآخرة يكونُ منهم جَهلٌ عظيمٌ أيضاً، فمنه إقسامُهم بالله أنهم ما لَبِثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودُهم بذلك عدمُ قيام الحُجَّة عليهم، وأنهم لم يُنظَروا حتى يُعذَر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، أي: فَيَرُدُّ عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حُجَّة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفُونَ ما لبثوا غير سَاعةٍ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٤ ح ١٠٣ والنسائي ٤/ ٩١ ـ ٩٣ وأحمد ٦/ ٢٢١ من حديث عائشة مطوّلاً.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥٨ وأبو داود ٣٩٧٨ والترمذي ٢٩٣٦ وفيه عطية العوفي، وهو واهٍ. لكن يتأيد بأنه مذهب جمهور القرّاء. قال القرطبي في تفسيره سورة الروم، آية ٥٤: قرأ حمزة وعاصم بفتح الضاد فيهنّ، أي في «ضعف» «ضعف» «ضعفاً» والباقون بالضم. والضم لغة النبي ﷺ، وقال الفراء: الضم لغة قريش. والفتح: لغة تميم، وقال الجوهري: الضَّعْفُ، والضُّعْفُ، خلاف القوة اهـ باختصار.

﴿ٱللَّهِ﴾، أي: في كتابِ الأعمالِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، أي: من يوم خُلِقتم إلى أن بعثتم، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾، أي: يومَ القيامةِ ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾، أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فَعَلُوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أي: ولا هُم يَرجِعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: قد بَيَّنا لهم الحقَّ، ووَضَّحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثالَ ليتبيَّنُوا الحقَّ ويَتْبعُوه. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾، أي: لو رَأَوا أيَّ آيةٍ كانت، سَوَاءٌ كانت باقتراحِهم أو غيره، لا يُؤمنون بها، ويعتقدون أنها سِحرٌ وباطل، كما قالوا في انشقاقِ القَمَر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: اصبر على مخالفتهم وعِنادِهم، فإن الله تعالىٰ مُنجِزٌ لك ما وَعدك من نَصره إيَّاك عليهم، وَجعلِه العاقبةَ لَكَ ولمن اتَّبعَك في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، أي: بل اثبُت على ما بَعَثك الله به، فإنه الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه، ولا تَعدِل عنه وليس فيما سواه هُدىً يُتَّبع، بل الحقُّ مُنحصِرٌ فيه. قال سَعِيدٌ، عن قتادةَ: نادى رَجُلٌ من الخوارج عَلياً ـ رضي الله عنه ـ وهو في الصلاة، صلاةِ الغَداة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]. فأنصتَ له عَليٌّ حتّى فَهِم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقد رَوَاه ابنُ جريرٍ من وجهٍ آخرَ فقال: حَدَّثنا ابنُ وكيع، حدثنا يحيى بن آدَمَ، عن شَريك، عن عثمان بن أبي زُرعَةَ، عن علي بن رَبيعة قال: نادى رجل من الخوارج عَلياً وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾، فأجابه عَليٌّ وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

**طريق أخرى**، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجَعْدِ، أخبرنا شَريك، عن عِمْرانَ بن ظَبْيان، عن أبي يحيى قال: صَلَّى علي ـ رضي الله عنه ـ صلاةَ الفجر، فناداه رجل من الخوارج: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فأجابه علي، وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

## ما رُوي في فَضلِ هذه السُورةِ الشريفةِ، واستحباب قراءتها في الفَجْر:

[٥٢١٠] قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا محمد بن جعفر، عن شُعبَة، عن عبد الملك بن عُمَير، سمعتُ شَبيبَ أبا رَوح يُحدِّث عن رجلٍ من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ صَلَّى بهم في الصبحَ فقرأ

فيها الرّوم فَأَوْهَمَ، فلما انصرف قال: «إنّه يلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يُصَلُّون مَعَنا لا يُحسِنُون الوضُوءَ»[١]، فمن شَهِد الصلاةَ معنا فَلْيحسِن الوُضُوءَ. وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سرٌّ عَجيب، ونَبأٌ غَرِيب، وهو أنه ـ ﷺ ـ تأثر بنقصان وُضُوءِ من ائتَمّ به، فَدَلّ ذلك أن صلاة المأموم متعلّقة بصلاةِ الإمامِ.

# آخر تفسير سورة الروم، ولله الحمد والمنة

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧١ و٥/ ٣٦٨ وإسناده إلى أبي روح صحيح. وأبو روح وثقه ابن حبان، وروى عنه جمع، وقال ابن القطان: لا نعرف له عدالة. فالرجل مختلف فيه، ولا يتابع على عجزه، فالله أعلم، وأما صدره فله شواهد. فالخبر يستأنس به، ولا حجة فيه.

# سورة لقمان

ترتيبها ٣١ — آياتها ٣٤

## وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ② هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ③ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ⑤﴾

تقدَّم في أول «سورة البقرة» عامّة الكلام على ما يتعلّق بصدرْ هذه السورة، وهو أنه ـ تعالى ـ جَعَل هذا القرآن هدى وشفاءً ورحمة للمحسنين، وهمُ الذين أحسَنُوا العملَ في اتّباع الشريعةِ، فأقامُوا الصلاةَ المفروضة بحدُودِها وأوقاتها، وما يتبعُها من نوافلَ راتبةٍ وغير راتبةٍ، وآتوا الزكاة المفروضَةَ عليهم إلى مُستحقّيها، ووصلُوا قَرَاباتهم وأرحامَهم، وأيقنوا بالجزاءِ في الدارِ الآخرةِ، فَرَغِبُوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراءُوا به ولا أرادُوا جَزاءً من الناس ولا شُكُوراً، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾، أي: على بصيرةٍ وبيّنةٍ ومَنهجٍ واضحٍ جليٍّ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ⑥ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾

لما ذَكر تعالى حال السعَداء، وهم الذين يَهتَدُون بكتاب الله ويَنتفِعُون بسماعِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ㉓﴾ [الزمر: ٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضُوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلُوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾. قال: «هو ـ والله ـ الغناء».

قال ابنُ جَريرٍ: حدثني يونُس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني يزيدُ بن يونُسَ، عن أبي صَخرٍ، عن أبي معاويةَ البَجَليِّ، عن سعيد بن جُبَير، عن أبي الصَّهباء البَكري، أنه سَمِعَ عبد الله بن مسعود ـ وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقال عبد الله: الغناءُ، والله الذي لا إله إلا هُو. يُردِدها ثلاث مرات. حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا صفوانُ بن عيسى، أخبرنا حُميد الخَرّاط، عن عَمّارٍ، عن سَعيد بن جُبَير، عن أبي الصَّهباء: أنه سأل ابنَ مسعود عن قولِ الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، قال: الغناء. وكذا قال ابن عباس، وجابر، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد،

ومكحولٌ، وعَمرو بن شُعَيب، وعلي بن بَذِيمة. وقال الحسن البصري: أُنزلت هذه الآيةُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في الغناءِ والمزامير. وقال قتادةُ: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، والله لعلَّه لا يُنفِق فيه مالاً، ولكن اشتراؤه استحبابُه، بِحَسْبِ المرءِ من الضَّلالةِ أن يختارَ حديثَ الباطلِ على حديث الحق، وما يضرُّ على ما ينفعُ. وقيل: أراد بقوله: ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ اشتراءَ المُغَنِّياتِ من الجَوارِي.

[٥٢١١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمَسِيُّ: حدثنا وكيع، عن خَلاَّدٍ الصفَّار، عن عُبَيد الله بن زَحْر، عن علي بن يَزِيدَ، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أُمَامَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: لا يَحلُّ بيعُ المغنيات ولا شراؤهُنَّ، وأكلُ أثمانِهِنَّ حَرَامٌ، وفيهن أنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ عَلَيّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾[1]. وهكذا رَوَاه التِّرمذيُّ وابنُ جَرير، من حديث عُبيد الله بن زَحْرٍ، بنحوه. ثم قال الترمذيّ: هذا حديث غريبٌ. وضَعَّفَ عليُّ بن يزيدَ المذكور. قلتُ: عليٌّ، وشيخُه، والراوِي عنه، كلُّهم ضعفاءُ، والله أعلم.

وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، قال: يعني الشركَ. وبه قال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلَم، واختار ابن جرير أنَّه كلُّ كلام يَصُدُّ عن آياتِ الله واتباع سبيله. وقولُه: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: إنما يصنعُ هذا لِيُخالِفَ الإسلامَ وأهلَهُ. وعلى قراءة فتح الياء، تكون اللامُ لامَ العاقبة، أو تعليلاً للأمر القَدَرِيِّ، أي: قُيِّضوا لذلك ليكونُوا كَذلك. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، قال مجاهد: ويَتَّخذ سبيل الله هُزُواً، يستهزىء بها. وقال قتادةُ: يعني وَيَتَّخذ آياتِ الله هُزُواً. وقولُ مجاهدٍ أولى.

وقولُه تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: كما استهانُوا بآيات الله وسبيلِهِ أُهينوا يومَ القيامة في العذابِ الدائِمِ المستمرّ. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، أي: هذا المقبلُ على اللَّهوِ واللَّعِب والطَّرب، إذا تُليت عليه الآيات القرآنية وَلَّى عنها وأعرضَ وأدبرَ وتَصامَّ وما به من صَمَم، كَأنَّه ما يسمعها، لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاعَ له بِهَا، ولا أَرَبَ له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: يومَ القيامةِ، يؤلمه كما تَألم بسماعِ كِتَابِ الله وآياتِهِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

هذا ذكرُ مآلِ الأبرار من السُّعداء في الدار الآخرة الذين آمَنوا بالله وصَدَّقوا المُرسَلين، وعَمِلوا الأعمالَ الصالحةَ المُتابعةَ لشريعة الله، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: يَتَنَعَّمون فيها بأنواع الملاذِّ والمَسَارّ، من المآكلِ والمشارب، والملابسِ والمساكنِ، والمَرَاكِبِ، والنساءِ والنَّظْرَةِ والسماع الذي لم يخطُر ببال أحد، وهم في ذلك مُقيمون دائماً فيها، لاَ يَظْعَنُونَ ولا يبغُونَ عنها حِوَلاً. وقولُه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، أي: هذا كائنٌ لا محالَةَ؛ لأنه من وَعْدِ الله، والله لا يُخلِفُ الميعادَ، لأنه الكريمُ المنَّان، الفَعَّالُ لما يشاءُ، القادِرُ على كلِّ شيءٍ

(١) حسن دون نزول الآية. أخرجه الترمذي ٣١٩٥ والطبري ٨٠٣٥ و٢٨٠٣٦ و٢٨٠٣٧ من حديث أبي أمامة، وإسناده ضعيف جداً، ابن زحر، وعلي بن يزيد، والقاسم، ثلاثتهم ضعفاء، كما قال ابن كثير رحمه الله. وضعفه الترمذي بقوله: غريب وأعله بعلي بن يزيد اهـ وأضعف الثلاثة علي بن يزيد فإنه متروك. والوهن فقط في عجزه «وفيهنّ أنزل الله...» الحديث. ولعله مدرج، فقد أخرجه ابن ماجة ٢١٦٨ من وجه آخر دون هذه الزيادة وللمرفوع شواهد كثيرة، والمتن حسن.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، الذي قد قهر كُلّ شيءٍ، ودَانَ له كلُّ شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعالِه، الذي جعَلَ القرآن هُدىً للمؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] الآية، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

يُبيِّن سبحانه بهذا قدرتَه العظيمةَ على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، قال الحسن وقتادة: ليس لها عَمدٌ مرئيّة ولا غيرُ مَرْئيَّةٍ. وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عَمَدٌ لا تَرَونَها. وقد تقدَّم تقرير هذه المسألة في أول «سورة الرّعد» بما أغنى عن إعادته. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾، يعني: الجبالَ أرْسَتِ الأرضَ وثَقَّلتها لئلا تَضطرب بأهلها على وَجْهِ الماءِ، ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي: لئلاً تَميد بكم. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، أي: وذرأ فيها من أصنافِ الحيوانات مما لا يعلم عددَ أشكالها وألوانها إلا الذي خَلَقها. ولما قَرَّر سبحانه أنه الخالق نبَّه على أنه الرازق بقولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: من كل زَوْجٍ من النباتِ كريم، أي: حَسَنِ المَنْظَرِ. وقال الشعبيُّ: والناس أيضاً من نَباتِ الأرضِ، فَمَن دخل الجنة فهو كريمٌ، ومن دَخلَ النار فهو لَئيمٌ. وقولُه تعالىٰ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾، أي: هذا الذي ذَكَره تعالى من خَلْقِ السمواتِ والأرض وما بينهما، صادرٌ عن فعلِ الله وخَلْقِه وتقديره، وحدَه لا شريكَ له في ذلك، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: مما تَعبدُون وتَدْعون من الأصنام والأندادِ ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يعني المشركين بالله العابدينَ معه غيرَه، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: جَهل وعَمىً، ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: واضح ظاهر لا خَفَاء به.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

اختلف السلفُ في لُقمانَ ـ عليه السلام ـ هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نُبوَّةٍ؟ على قولين، الأكثرون على الثاني. وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: كان لقمانُ عبداً حَبَشياً نَجّاراً. وقال قتادة، عن عبد الله بن الزُّبير: قلتُ لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لُقمان؟ قال: كان قصيراً أفطسَ الأنْفِ من النُّوبَةِ. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيَّب قال: كان لقمانُ من سُودَانِ مصر، ذا مَشَافِر[1]، أعطاه الله الحكمةَ ومَنَعه النبوّةَ. وقال الأوزاعيُّ رحمه الله: حَدَّثني عبد الرحمن بن حَرْمَلَة قال: جاء رجل أسودُ إلى سعيدِ بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيَّب: لا تحزن من أجل أنّك أسودُ، فإنه كانَ من خير الناس ثلاثةٌ من السودان: بِلالٌ، ومِهْجَع مولى عمر بن الخطاب، ولُقمانُ الحَكيم، كان أسود نُوبيًّا[2] ذا مشافر.

---

(١) المشفر: الشّفة الغليظة.

(٢) النوبة: بلاد واسعة للسودان بجنوب الصّعيد اهـ قاموس.

وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأَشْهَب، عن خالد الرَّبعيِّ قال: كان لقمانُ عبداً حَبَشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبَحْ لنا هذه الشاةَ. فذبحها، قال: أَخْرِجْ أطيبَ مُضغَتَين فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاءَ الله، ثم قال: اذبَح لنا هذه الشاةَ. فَذَبحها، فقال: أخرج أخبَثَ مُضغَتين فيها. فأخرج اللسان والقلب. فقال له مولاه: أمرتُك أن تخرج أطيَبَ مُضغَتَين فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبَثَ مُضغَتَين فأخرجتَهُما. فقال لقمانُ: إنه ليس من شيءٍ أطيَبَ منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا. وقال شعبةُ، عن الحَكَم، عن مجاهدٍ: كان لقمانُ عبداً صالحاً، ولم يَكُن نبياً.

وقال الأعمشُ: قال مجاهدٌ: كان لقمان عبداً أسودَ عظيمَ الشَّفتين، مُشقَّقَ القَدَمين. وقال حَكَّام بن سَلْم، عن سَعِيد الزُّبيدي، عن مجاهد: كان لقمانُ الحَكيم عبداً حَبَشياً غَلِيظَ الشفتَينَ، مُصَفَّح القَدَمين، قاضِياً على بني إسرائيل. وذكر غيرُه أنَّه كانَ قاضِياً على بني إسرائيل في زَمَن داودَ عليه السلام. وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا ابنُ حُمَيدٍ، حدثنا الحَكَم، حدثنا عَمرو بن قيس قال: كان لقمانُ ـ عليه السلام ـ عبداً أسودَ غليظَ الشَّفَتَينِ، مُصَفَّح القَدَمين، فأتاه رجلٌ وهو في مَجلِس أُناسٍ يُحَدِّثهم، فقال له: ألستَ الذي كنتَ ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نَعَم. فقال: فما بَلَغ بِكَ ما أرى؟ قال: صِدْقُ الحديثِ، والصَّمْتُ عمَّا لا يعنِيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوَلِيد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيدَ، عن جابر قال: إن الله رَفَع لقمانَ الحكيم بحكمته، فرآه رجلٌ كان يعرِفه قبل ذلك، فقال: ألستَ عبدَ بني فلان الذي كنتَ تَرعَى بالأمس؟ قال: بلى. قال: فما بَلَغ بك ما أرَى؟ قال: قَدَرُ الله، وأداءُ الأمانةِ، وصِدْقُ الحديثِ، وتَركِي ما لا يَعنِيني. فهذه الآثارُ منها ما هو مُصرَّح فيه بنفي كَونِهِ نَبياً، ومنها ما هو مُشعِرٌ بذلك، لأن كونه عبداً قد مَسَّه الرقُّ ينافي كونَه نبياً؛ لأن الرسُلَ كانت تُبعَث في أحساب قومها. ولهذا كان جمهورُ السَّلَفِ على أنه لم يكن نَبيّاً، وإنما يُنقَل كونُه نَبِيّاً عن عكرمة ـ إن صح السند إليه ـ فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرِمَةَ قال: كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيدَ الجُعفِي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وقال عبدُ الله بن وَهبٍ: أخبرني عبد الله بن عَيَّاش القِتْباني، عن عُمَر مولى غُفْرَةَ قال: وَقَف رجلٌ على لُقمَان الحكيم فقال: أنتَ لقمانُ، أنت عبدُ بني الحَسْحَاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعِي الغَنَم؟ قال: نعم قال: أنت الأسودُ؟ قال: أما سَوادي فظاهرٌ، فما الذي يُعجِبك من أمري. قال: وَطْءُ الناسِ بِسَاطَك، وغَشْيُهم بابَكَ، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي، إن صَغَيتَ إلى ماأقولُ لك كنتَ كذلك. قال لقمان: غَضِّي بَصَري، وكَفِّي لساني، وعِفَّةُ طُعمَتي، وحِفْظِي فرجي، وقولي بصدقي، ووفائي بِعَهدي، وتَكرِمتي ضيفي، وحِفظي جارِي، وتَرْكِي ما لا يَعنِيني، فذاك الذي صَيَّرني كما ترى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عَمرو بن واقد، عن عَبْدَة بن رَبَاح، عن رَبيعة، عن أبي الدَّرداءِ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال يوماً ـ وذُكِرَ لقمانُ الحكيمُ ـ فقال: ما أُوتيَ ما أُوتى عن أهلٍ ولا حالٍ ولا حسبٍ ولا خصالٍ ولكنه كان رجلاً صمصامة سِكّيتاً طويل التفكير عميق النظر لم ينم نهاراً قط، ولم يَرَه أحدٌ قطُّ يبزُق ولا يتنخَّع، ولا يَبُولُ ولاَ يَتَغوَّطُ، ولاَ يغتسِلُ، ولا يعبَثُ ولا يضحَكُ. وكان لا يُعيد منطقاً نَطَقه إلا أن يَقُولَ حكمة يَستَعِيدُها إيَّاه أحدٌ، وكان قد تَزَوَّج ووُلِد له أولادٌ، فماتُوا فلم يَبْكِ عَلَيهم. وكان يَغْشَى السُّلطان، ويأتي الحُكَّام، لينظر ويَتَفَكَّرَ ويَعْتَبِر، فَبِذلك أُوتِيَ ما أُوتي.

وقد ورد أثرٌ غريبٌ عن قتادةَ رواه ابنُ أبي أبي حاتم. فقال: حَدَّثنا أبي، حدثنا العباسُ بن الوليد، حدثنا زيد بن يحيى بن عُبيد الخزاعي، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادةَ قال: خير الله لقمانَ الحَكِيم بين النبوَّةِ والحكمةِ، فاختارَ الحكمةَ على النبوَّةِ. قال: فأتاه جبريلُ وهو نائم فَذَرَ عليه الحِكْمَةِ ـ أو: رَشَّ عليه الحكمة ـ قال: فأصبحَ ينطِقُ بها. قال سَعيدُ: فَسمِعتُ عن قتادة يقولُ: قِيلَ لِلُقمان: كيف اختَرت الحكمةَ على النبوَّةِ وقد خَيَّرَك رَبُّكَ؟ فقال: إنه لو أَرسَلَ إلي بالنبوَّة عَزمَةً لرجوتُ فيه الفوزَ منه، ولكنت أرجو أن أقومَ بها، ولكنه خيَّرني فَخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوّة، فكانت الحكمة أَحبَّ إلي. فهذا من رِوَاية سعيد بن بشير، وفيه ضَعفٌ قد تَكلَّمُوا فيه بسببه، فالله أعلم. والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادَةَ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: الفقه في الإِسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوح إليه.

وقولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: الفهم والعلم والتَّعبير، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾، أي: أمرناه أن يَشكُر الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ على ما آتاه الله ومَنَحه ووَهَبه من الفضل الذي خَصَّصَه به عمن سِوَاه من أبناء جِنْسِه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: إنما يعودُ نفعُ ذلك وثوابُه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وقولُه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، أي: غَنيٌ عن العباد، لا يتضرَّرُ بذلك ولو كَفَر أهلُ الأرضِ كُلُّهم جميعاً، فإنه الغنيُّ عما سواه، فلا إِلَه إلا الله، ولا نعبدُ إلا إيَّاه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن وصِيَّةِ لقمان لولده ـ وهو: لقمانُ بن عنقاءَ بن سَدُون. واسمُ ابنه ثارانُ في قول حكاه السهيلي. وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذِّكر، وأنَّه آتاه الحكمة. وهو يُوصِي ولده الذي هو أشفَقُ الناس عليه وأحبُّهم إليه، فهو حقيقٌ أن يمنحه أفضلَ ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبدَ الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال مُحذِّراً له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، أي: هو أعظمُ الظلم.

[٥٢١٢] قال البخاريُّ: حَدَّثنا قُتَيبةُ، حَدَّثنا جَريرٌ، عن الأعمش، عن إبراهيم عن عَلْقَمَة، عن عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ قال: لَمَّا نَزَلَت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذلك على أصحابِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إنَّه ليس بذاكَ، ألا تسمَع إلى قولِ لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. ورَوَاه مسلم من حديث الأعمش، به.

ثم قَرَنَ بوصيته إيَّاه بعبادة الله وحدَه البرَّ بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن، وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، قال مجاهد: مَشقَّة وَهن الولد. وقال قتادة: جَهداً على جَهدٍ. وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعفٍ.

(١) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

وقولُه تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، أي: تربيتُه وإرضاعُه بعد وَضعِه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ومن هاهنا استنبط ابنُ عباس وغيره من الأئمة أن أقلّ مدة الحمل سِتّة أشهر، لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعَبَها ومَشقّتَها في سَهَرها ليلاً ونهاراً، ليُذَكّر الوَلَد بإحسانها المتقدّم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء.

[٥٢١٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عبد الله بن أبي شيبَة، ومحمودُ بن غيلان قالا: حدثنا عُبَيد الله، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سَعِيد بن وَهب قال: قَدِم علينا معاذُ بن جَبَلٍ، وكان بعثه النبيُّ ـ ﷺ ـ فقام فَحَمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إني رسول رسول الله ـ ﷺ ـ إليكم: أن تعبدُوا الله ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تُطِيعوني لا آلوكُم خيراً، وإن المصيرَ إلى الله، وإلى الجنةِ أو إلى النارِ، إقامةٌ فلا ظَعَنٍ، وخلودٌ فلا موتٍ»(١).

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، أي: وَإن حَرَصا عليك كُلَّ الحرص على أن تُتابعهما على دينهما فلا تَقْبَلْ منهما ذلك، ولا يَمْنَعنّك ذلك من أن تُصاحِبَهما في الدنيا معروفاً، أي مُحسناً إليهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾، يعني المؤمنينَ، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قال الطبراني في كتاب العشرة: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمدَ بن حَنبل، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند: أن سعدَ بن مالك قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾. . . الآية، وقال: كنتَ رجلاً برّاً بأمّي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعدُ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لَتَدعَنَّ دينَكَ هذا أو لا آكلُ ولا أشرَبُ حتى أموت، فتُعَيَّرَ بي، فيُقال: يا قاتل أُمّه. فقلت: لا تفعلي يا أُمّه، فإني لا أدعُ ديني هذا لشيءٍ، فَمَكثت يوماً وليلةً لم تأكُل فأصبَحت قد جَهِدت، فَمَكثتْ يوماً وليلة أخرى لا تأكُل، فأصبَحت قد اشتدَّ جهدُها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أُمّه، تَعلَمِين والله لو كانت لك مئةُ نفسٍ فَخرَجت نَفساً نَفساً ما تَرَكْتُ ديني هذا لشيءٍ، فإن شئتِ فَكُلِي، وإن شِئتِ لا تأكُلي. فأكَلَتْ.

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

هذه وصايا نافعةٌ قد حَكَاها الله تعالى عن لقمان الحكيم، ليمتَثِلَها الناسُ ويقتدُوا بها، فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: إن المظلمَة أو الخطيئة لو كانت مِثقالَ حَبّةِ خردلٍ. وجوّز بعضهم أن

(١) إسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم، وأخرجه الحاكم ١/ ٨٣ من وجه آخر عن حديث معاذ، وصححه وقال الذهبي: ومسلم بن خالد إمام أهل مكة، ومفتيهم، وقد لُيّن. قلت: لكنه توبع عند أبي نعيم في «صفة الجنة» ١٠٧ لكن سقط من إسناده عمرو بن ميمون بين ابن سابط ومعاذ بن جبل.

يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَآ﴾ ضمير الشأن والقصّة، وجوّز على هذا رفع ﴿مِثْقَالَ﴾ والأوّل أولى. وقولُه: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، أي: أحضرَها الله يومَ القيامةِ حين يَضَع الموازين القسط، وجازَى عليها إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. ولو كانت تلك الذَّرّة مُحصّنةً مُحجّبةً في داخل صخرةٍ صَمّاء، أو غائبةً ذاهبةً في أرجاء السمواتِ والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرّةٍ في السموات ولا في الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. أي: لطيفُ العِلم، فلا تخفى عليه الأشياءُ وإن دقّت ولَطُفت وتضاءلَت، ﴿خَبِيرٌ﴾ بِدَبيب النمل في الليل البَهيم.

وقد زَعَمَ بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾، أنها صخرة تحتَ الأرضِين السبع، وذكره السدّيُّ بإسناده ذاك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة إن صحّ ذلك، ويُرْوَى هذا عن عطية العوفي، وأبي مالك، والثوريّ، والمنهال بن عمرو، وغيرهم. وهذا ـ والله أعلم ـ كأنه مُتَلقّى من الإسرائيليّات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المرادَ أن هذه الحَبّة في حقَارتها لو كانت داخِلَ صَخْرَةٍ فإن الله سَيُبْدِيها ويُظهرُها بلطيفِ عِلْمِهِ.

[٥٢١٤] كما قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهَيثم، عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صَمّاء، ليس لها بابٌ ولا كُوّة، لَخرج عملُه للناس كائناً ما كان»(١).

ثم قال: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: بحدُودِها وفروضِها وأوقاتها، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾. عَلِم أن الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا بُدّ أن ينالَه من الناس أذىً، فأمَره بالصّبر وقولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، أي: إنّ الصبر على أذى الناس لَمن عَزْمِ الأُمورِ. وقولُه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: لا تُعرِضْ بوَجْهك عن الناس إذا كلّمْتَهم أو كَلّمُوك، احتقاراً منه لهم، واستكباراً عليهم. ولكن أَلِن جانبك، وابسُط وجهَكَ إليهم، كما جاء في الحديث:

[٥٢١٥] «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبالَ الإزارِ فإنها من المَخيلة، والمَخِيلة لا يُحبُّها الله»(٢).

قال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: لا تتكبر فَتَحْتَقِرَ عبادَ الله وتُعرِضَ عنهم بوجهِكَ إذا كَلّمُوكَ. وكذا روى العَوفيّ وعكرمةُ، عنه. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، لا تتكلّمْ وأنت مُعرِضٌ. وكذا رُوِيَ عن مُجاهِد وعِكْرِمَةَ، ويزيد بن الأصمّ، وأبي الجَوزاءِ، وسعيد بن جُبَير، والضحّاكِ، وابن زَيدٍ، وغيرهم. وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: يعني بذلك التشديقَ في الكلام. والصوابُ القولُ الأول. قال ابن جرير: وأصل الصَّعَر داءٌ يأخذُ الإبلَ في أعناقِها أو رُؤوسِها حتى تُلفتَ أعناقُها عن رُؤوسها، فَيُشَبَّهُ به الرجلُ المتكبّر، ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغْلَبِيّ:

وكُنّا إذا الجَبّارُ صَعّرَ خَدَّهُ أَقَمْنا لَهُ مِن مَيْلِهِ فَتَقَوّما

(١) ضعيف. وتقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٥.

(٢) تقدم تخريجه.

وقال أبو طالب في شِعرِه:

وَكُنَّا قَدِيماً لا نُقِرُّ ظُلامَةً إذا ما ثَنوا صُعْرَ الرُّؤوسِ نُقِيمها

وقولُه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: جَذلاً مُتكبِراً جَبَّاراً عَنِيداً، لا تفعل ذلك يُبْغِضْكَ الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، أي: مُختال مُعْجَب في نفسه، فخور أي: على غيره، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقد تقدم الكلامُ على ذلك في موضعه.

[٥٢١٦] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرميُّ، حدثنا محمد بن عِمرَان بن أبي ليلى، حدثنا أبي، عَنِ ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلَى، عن ثابت ابن قيس بن شَمَّاس قال: ذُكِرَ الكِبرُ عند رسول الله ـ ﷺ ـ فَشَدَّد فيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويُعجبني شِرَاكُ نَعْلي، وعِلاقَةُ سَوطِي، فقال: «ليس ذلك الكبرَ، إنما الكبرُ أن تَسْفَه الحقَّ وتَغمِص الناسَ»(١). ورَوَاه من طريق أُخرى بمثلِه، وفيه قِصَّة طويلةٌ، ومقتَلُ ثابتٍ ووصيَّته بعد موتِهِ.

وقولُه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾، أي: امش مَشْياً مُقتصِداً ليس بالبطيءِ المُتَثَبِّط ولا بالسريع المُفرط، بل عَدلاً وَسَطاً بينَ بينَ. وقولُه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، أي: لا تُبالغ في الكَلام، ولا تَرْفَع صوتَك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، قال مجاهدٌ وغيرُ واحد: إن أقبحَ الأصوات لصوتُ الحَمِير. أي: غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشَبَّه بالحَمِير في عُلُوِّه ورفعِه، ومَعَ هذا هو بغيضٌ إلى الله تعالى. وهذا التشبيهُ في هذا بالحَمِير يقتضي تحريمه وذمَّه غايةَ الذَم؛ لأن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال:

[٥٢١٧] «ليس لنا مثل السوء، العائِدُ في هِبَته كَالْكَلبِ يَقِيء ثم يعودُ في قَيئِهِ»(٢).

[٥٢١٨] وقال النسائي عند تفسير هذه الآية: حدثنا قُتَيبة بنُ سَعيد، حدثنا الليث، عن جَعْفَر بن ربيعة، عن الأَعْرَج، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا سَمِعتُم صياح الدِّيكَةِ فاسألوا الله من فَضْلِهِ، وإذا سَمِعتم نَهيق الحَمير فَتعوَّذوا بالله من الشيطان الرجيم، فإنَّها رَأت شيطاناً»(٣). وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه، من طرق، عن جعفر بن ربيعة، به. وفي بعض الألفاظ: «بالليل»، فالله أعلم.

فهذه وصايا نافعةٌ جدّاً، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لُقمَانَ الحكيم. وقد رُوِي عنه من الحكم والمواعِظ أشياءُ كثيرةٌ، فَلْنَذكُر منها أنمُوذَجاً ودُستُوراً إلى ذلك.

[٥٢١٩] قال الإمام أحمد: حدثنا عَليُّ بن إسحاقَ، أخبرنا ابنُ المبارك، أخبرنا سفيانُ، أخبرني نَهشَلُ بن مُجَمِّع الضَّبِّي، عن قَزَعَة، عن ابن عُمَر ـ رَضي الله عنهما ـ قال: أخبرنا رسول الله ـ ﷺ ـ «أنَّ لُقمَانَ الحكيم كان يقول: إن الله إذا استُودِعَ شيئاً حَفِظه»(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٣١٧ والبزار ٣٥٧٨ «كشف» وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو صدوق سيىء الحفظ، لكن للحديث شواهد راجع «المجمع» ٥/ ١٣٣ ـ ١٣٥ وأصل هذا الحديث في الصحيح بغير هذا السياق.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ١٧٧.

(٣) صحيح. أخرجه ٣٣٠٣ ومسلم ٢٧٢٩ وأبو داود ٥١٠٢ والترمذي ٣٤٥٩ والنسائي في «التفسير» ٤١١.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٨٧ والبيهقي في «الشعب» ٣٣٤٤ وإسناده حسن، رجاله ثقات غير نهشل، وهو صدوق، وكرره البيهقي ٣٣٤٣ من وجه آخر، وإسناده حسن.

[٥٢٢٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُ، حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعيّ، عن مُوسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخيمَرةٍ أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال لقمَانُ لابنِه وهو يَعِظُه: يا بنيّ، إياك والتقنُّع فإنه مَخُوفَةٌ بالليل مَذَمةٌ بالنهار»(١). وقال: حدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن عثمان، حدثنا ضَمْرَةُ، حدثنا السَّريّ بنُ يحيى قال: قال لقمانُ لابنِه: يا بنيّ، إنَّ الحِكْمَةَ أجلَستِ المساكينَ مجالِسَ المُلُوكِ. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَةُ بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا عبد الرحمن المسعُودي، عن عَونِ بن عبد الله قال: قال لقمانُ لابنه: يا بني، إذا أَتَيْتَ نادِيَ قوم فارمهم بِسَهمِ الإِسلام ـ يعني السَّلاَمَ ـ ثم اجلِس في ناحِيَتِهم، فلا تنطق حتى تَرَاهُم قد نَطَقُوا، فإن أفاضُوا في ذِكْرِ الله فَأَجِلْ سَهْمَك معهم، وإن أفاضوا في غير ذَلك فَتَحوّل عنهم إلى غيرهم. وحدثنا أبي، حدثنا عَمْرُو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ضَمْرَةُ، عن حفص بن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قال: وَضَع لقمانُ جراباً من خَرْدَلٍ إلى جانبه، وجَعَل يعظ ابنه وعظةً ويخرجُ خَرْدَلَةً، حتى نَفِذَ الخردلُ، فقال: يا بني، لقد وعظتُك موعظةً لو وُعظَها جبل لَتَفطَّر. قال: فَتَفطَّرَ ابنُه.

[٥٢٢١] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الباقي المَصِّيصي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرّاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائِفِيُّ، حدثنا أَبْيَن بن سفيان المَقدِسيُّ، عن خَلِيفَةَ بن سَلاَّم، عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اتخذُوا السودان، فإنَّ ثلاثةً منهم سادات أهل الجنّة، لقمانُ الحكيم، والنجاشيّ، وَبِلالُ المؤذن»(٢). قال أبو القاسم الطَّبرانيُّ: أراد الحَبَش.

**فصل في الخمول والتواضع**: وذلك مُتَعلِّق بوصيَّةِ لُقمانَ ـ عليه السلام ـ لابنه، وقد جَمَع في ذلك الحافظُ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً، ونحن نذكر منه مقاصده، قال:

[٥٢٢٢] حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله بن موسى المدني، عن أسامةَ بن زيد، عن حَفْص ابن عُبَيد الله بن أنس، عن جده أنس بن مالك: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «رُبَّ أشعثَ ذِي طِمْرَينِ يُصْفَح عن أبواب الناس، لو أقسَمَ على الله لأبرّه»(٣). ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت وعلي بن

---

(١) مرسل، القاسم بن مخيمرة، تابعي، والمرسل من قسم الضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني ١١٤٨٢ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ١٨٠ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ من حديث ابن عباس. قال ابن حبان: أَبْيَن بن سفيان، شيخ يقلب الأخبار، وعثمان بن عبد الرحمن، قد تبرأنا من عهدته، هذا متن باطل لا أصل له. ووافقه ابن الجوزي، وأما الهيثمي فقال في «المجمع» ٧٢٠٩: فيه أبين بن سفيان، وهو ضعيف، قلت: الإسناد ضعيف جداً. وجاء بدون لفظ «اتخذوا» ورد من حديث واثلة، أخرجه الحاكم ٣/ ٢٨٤ لكن جعل بدل «النجاشي» «مهجع مولى رسول الله ﷺ» وصححه الحاكم، وقال الذهبي: كذا قال: «مولى رسول الله ﷺ» ولا أعرف من ذا اهـ وقال الحافظ في «الإصابة» بعد أن ذكر هذا الحديث في ترجمة مِهْجع مولى رسول الله ﷺ، أخشى أن يكون مهجع هو العكي مولى عمر اهـ وفي إسناده إسماعيل بن محمد بن الفضل الشعراني عن جده. قال الذهبي في «الميزان» ٩٣٩: قال الحاكم: ارتبت في لقيه بعض الشيوخ. وله شاهد مرسل أخرجه ابن عساكر كما في «اللآلىء المصنوعة» ١/ ٤٤٨، وعلى العموم إسناد الحديث غير قوي لكنَّ فضل لقمان، والنجاشي، وبلال، ومهجع، ثابت، وإن لم يصح الحديث، والله أعلم.

(٣) صحيح. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨٦٥ و١٠٤٨٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٦٤: وفيه عبد الله بن موسى التيمي، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. قلت: قد توبع عند البيهقي، وللحديث شواهد أحدها في صحيح مسلم ٤٠٢٤.
تنبيه: لم أره في كتاب ابن أبي الدنيا «التواضع والخمول» من هذا الوجه، ولعله سقط من المطبوع.

زيدٍ، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره، وزاد: منهم البَرَاءُ بنُ مالك[(١)].

[٥٢٢٣]ورَوَى أيضاً عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «طُوبَى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حَضَرُوا لم يُعرَفُوا، وإذا غابُوا لم يُفتَقَدُوا، أولئك مصابيح مُجَرَّدُون من كل فِتْنَةٍ غَبْرَاءَ مُشْتَبِهَةٍ»[(٢)].

[٥٢٢٤]وقال أبو بكر بن سهل التِّمِيمي: حدثنا ابنُ أبي مَرْيَمَ، حدثنا نافع بن يزيدَ، عن عياش بن عَبَّاس، عن عيسى بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: عن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ أنه دخل المسجدَ فإذا هو بمعاذِ بن جبل يبكي عند قَبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ما يُبكِيك يا معاذُ؟ قال: حديثٌ سَمِعته من رسول الله ـ ﷺ ـ سمعتُه يقول: «إن اليَسِير من الرِّياء شركٌ، وإنَّ الله يحب الأتقياء الأَخفِياءَ الأثريَاء، الذين إذا غابُوا لم يُفتَقَدُوا، وإذا حَضَروا لم يُعرَفُوا، قلوبُهم مصابيحُ الهُدى، يَنجُون من كلِّ غَبْرَاءَ مُظلِمَةٍ»[(٣)].

[٥٢٢٥]حدثنا الوليدُ بن شُجَاع، حَدَّثنا عَثَّام بن علي، عن حُمَيد بن عِطاءِ الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مَسعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «رُبَّ ذي طِمْرَين لا يُؤبَه له لو أقسَمَ على الله لأَبَرَّه، لو قال: اللهم إني أسألك الجنةَ لأعطاه الجنةَ، ولم يُعطِه من الدنيا شيئاً»[(٤)].

[٥٢٢٦]وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجَعدِ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن مِن أُمَّتي من لو أتى بابَ أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يُعطِه، ولو سأَل الله الجنةَ لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يُعطِه إياها، وما يمنعها إياه لهوانه عليه، ذو طِمْرَينِ لا يُؤبَهُ له، لو أقسَمَ على الله لأبرّه»[(٥)]. وهذا مُرسَلٌ من هذا الوجه.

[٥٢٢٧]وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا عوفٌ قال: قال أبو هُريرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ من ملوك الجنة كُلَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرين لا يُؤبَه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يُؤذَن لهم، وإذا خَطَبُوا النساء لم يُنكَحُوا، وإذا قالوا لم يُنصَت لهم، حَوَائِجُ أَحدهم تَتجلْجَلُ في صدره، لو قُسِّم نورُه يومَ القيامة بين الناس لَوَسِعَهُم»[(٦)]. قال: وأنشدني عُمَر بن شَبَّةَ، عن ابن عائشة قال: قال عبد الله بن المبارك:

---

(١) جعفر عن ثابت عن أنس، رجال الصحيح. وأخرجه الحاكم ٣/ ٢٩١ و٢٩٢٠ من وجه آخر، وإسناده لا بأس به، ويصلح شاهداً لما قبله، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) لم أره في «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا، ولا عند غيره من حديث أنس ولعله سقط من المطبوع، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٩٨٩ والحاكم ١/ ٤ وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» ٨، وفي إسناده عيسى بن عبد الرحمن الزرقي وهو متروك، ومع ذلك صححه الحاكم! وسكت الذهبي.

(٤) صدره صحيح. إسناده ضعيف لضعف حميد الأعرج، والوهن فقط في عجزه، وصدره عند مسلم.
وأخرج البزار ٣٦٢٨ صدره من وجه آخر من حديث ابن مسعود، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٦٤: ورجاله رجال الصحيح غير جارية بن هرم، وقد وثقه ابن حبان على ضعفه اهـ.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١) عن ابن أبي الجعد مرسلاً. وهو ضعيف بهذا التمام. وأخرجه الطبراني في «الأوسط» ٧٥٤٤ من حديث ثوبان دون قوله «ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما يمنعها إياه لهوانه عليه» وصحح إسناده الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٦٤ والعراقي في «تخريج الإحياء».

(٦) إسناده ضعيف، عوف لم يدرك أبا هريرة. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٤٨٦ و١٠٤٨٧ من طريق عوف عن الحسن عن أبي هريرة، وهو منقطع أيضاً. الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

أَلاَ رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ فِي مَنْزِلٍ غَداً زَرَابِيُّهُ مَبْثُوثَةٌ وَنَمَارِقُه
قَدِ اطَّرَدَتْ أنهارُه تحت قَصْرِه وَأَشْرَقَ، والتفَّتْ عَلَيْه حَدَائِقُه

[٥٢٢٨] ورَوَى أيضاً من حديثِ عُبَيد الله بن زَحْرٍ، عن علي بن يزيد[١]، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: قال الله تعالىٰ: «مِنْ أَغبَط أوليائي عندي مُؤمِنٌ خَفِيفُ الحاذ[٢]، ذو حَظٍّ من صلاة، أحسنَ عبادة ربِّه وأطاعه في السرِّ، وكان غامضاً في الناس، لا يُشَار إليه بالأصابع، إن صَبَر على ذلك. قال: ثم نَقَر رسولُ الله بيدِه وقال: عُجِّلت مَنِيَّتُهُ، وقَلَّ تُراثُهُ، وقلَّت بَوَاكيه»[٣].

وعن عبد الله بن عَمْرو قال: أحبُّ عبادِ الله إلى الله الغُرَباءُ. قِيلَ: ومن الغُرَباءُ؟ قال: الفرَّارون بدينهم، يُجمَعُون يومَ القيامةِ إلى عيسى ابن مَرْيَم. وقال الفُضَيل بنُ عَياض: بَلَغني أن الله تعالى يقولُ للعبد يوم القيامة: ألم أُنعِم عليك؟ ألم أُعطِكَ؟ ألم أسترْكَ؟ ألم..؟ ألم..؟ ألم أُخمِلْ ذِكرك؟ ثم قال الفضيل: إن استطعت ألاَّ تُعرَفَ فافعل، وما عَلَيكَ ألاَّ يُثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عندَ الناس مَحمُوداً عند الله. وكان ابن مُحَيريزٍ يقول: اللهمَّ إنِّي أسألُك ذِكراً خَامِلاً. وكان الخليل بنُ أحمَدَ يقول: اللهم اجعَلْنِي عندك من أَرْفَعِ خَلْقِك، واجعَلني في نفسي من أَوْضَع خَلْقِك، وعند الناس من أَوْسَط خَلْقِك.

**بابُ ما جاء في الشُّهرَةِ:**

[٥٢٢٩] ثم قال: حدثنا أحمدُ بن عيسى المِصْرِي، حدثنا ابن وهب، عن عَمْرو بن الحارث وابنِ لَهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سِنَان بن سعد، عن أنس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: حَسْبُ امرىءٍ من الشر ـ إلاَّ مَن عَصَم الله ـ أن يُشِيرَ الناس إليه بالأصابع في دِينِه ودُنياه. وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم[٤]. وروى مثله عن إسحاق بن البُهلُولِ، عن ابن فُدَيكٍ، عن محمد ابن عبد الواحد الأخنسِيِّ، عن عبد الواحد بن أبي كَثير، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً. ورَوَى عن الحسنِ مُرسَلاً نحوه، فقيل للحسن: فإنه يُشَار إليك بالأصابع، فقال: إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق.

وعن عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: لا تَبَدَّى لأن تَشْتَهِرَ، ولا تَرْفَع شَخْصَكَ لِتُذكَرَ وتُعْلَم واكتُم، واصمُت تَسْلَمَ، تَسُرِّ الأبرار، وتَغِيظُ الفجَّار. وقال إبراهيمُ بن أَدْهَمَ ـ رَحِمه الله ـ: ما صَدَقَ الله من أحبَّ الشُّهرَةَ. وقال أيوب: ما صدق الله عَبدٌ إلا سَرَّه ألاَّ يُشْعَرَ بمكانه. وقال مُحَمَّد بن العلاء: من أحبَّ الله أَحَبَّ ألاَّ يعرفَه الناسُ. وقال سِمَاكُ بن سَلَمَةَ: إياكَ وكثرة الأخلاء. وقال أبان بن عثمان: إنْ أحببتَ أن يَسلَمَ لك دينُك فأقِلَّ مِنَ المعارِفِ. وكان أبو العاليةِ إذا جَلَس إليه أكثرُ من ثلاثةٍ نَهَض وتَرَكهم.

---

(١) وقع في الأصل «علي بن زيد»، والتصويب عن كتب التراجم.

(٢) الحاذ: قليل المال والعيال.

(٣) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٣٤٧ وابن ماجه ٤١١٧ وأحمد في «الزهد» ١١ وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» ١٣ وفي الإسناد علي بن يزيد الألهاني متروك، وشيخه القاسم ضعفه الجمهور، والله أعلم. وكلاهما توبع عند ابن ماجه، وعنده أيوب بن سليمان، مجهول.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا (٣٠) وفيه سنان بن سعد، وهو متروك، وكرره ٣١ من حديث جابر وفيه مجاهيل. وكرره ٣٢ عن الحسن مرسلاً. وورد من حديث عمران بن حصين وأبي هريرة وابن عمر وأبي أمامة انظر «العلل المتناهية» ٢/ ٣٤٠ و«إحياء علوم الدين» ٣/ ٢٦٩ و«إتحاف السادة المتقين» ٨/ ٢٣٣، وشعب الإيمان ٢/ ٢٠٦ والطبراني ١٨/ ٢١٠ ـ ٢٢٨ و«الحلية» ٥/ ٢٤٧ فالحديث يتقوىٰ بمجموع هذه الشواهد، وعجزه عند مسلم.

وقال: حَدَّثنا علي بن الجَعد، أخبرنا شعبةُ، عن عَوْفٍ، عن أبي رَجَاءٍ قال: رأى طلحةُ قوماً يمشُونَ معه، فقال: ذُبَابُ طَمَعٍ، وفَرَاشُ النَّار.

وقال ابنُ إدريسَ، عن هارون بن عَنْتَرة، عن سُلَيم بن حَنْظَلَة قال: بينا نحن حول أُبَيٍّ إذ علاه عُمر ابن الخطاب بالدِّرّة وقال: إنها مذَلَّةٌ للتابع، وفِتْنَةٌ للمَتبُوع. وقال ابنُ عونٍ، عن الحسن: خرج ابن مسعود فاتَّبعه أناسٌ، فقال: والله لو تعلَمُون ما أغلِقُ عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان. وقال حَمَّاد بنُ زيدٍ: كنا إذا مَرَرنا على المجلس، وَمَعنا أيُّوبُ، فَسَلَّم ردوا رداً شَدِيداً، فكان ذلك يَغُمُّه. وقال ابنُ عونٍ، عن الحسن: خرج ابن مسعود فاتَّبعه أناسٌ، فقال: والله لو تعلَمُون ما أغلِقُ عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان. وقال عبد الرزَّاق، عن معمر: كان أيوب يطيل قميصه، فقيل له في ذلك، فقال: إن الشهرَةَ فيما مَضَى كانت في طُولِ القَمِيص، واليوم في تَشمِيره. واصطنع مَرَّة نعلين على حَذوِ نعلَي النبي ـ ﷺ ـ فَلَبِسهما أياماً ثم خَلَعُهما، وقال: لم أر الناس يلبسونهما. وقال إبراهيم النخَعي: لا تلبس من الثياب ما يشتهرك الفقهاء، ولا ما يزدريك السُّفهاء. وقال الثوريُّ: كانوا يكرَهُون من الثِّياب الجِيادَ، التي يُشتَهر بها، ويرفَع الناسُ إليه فيها أبصارَهُم، والثيابَ الرديئةَ التي يُحتَقر فيها، ويَستَذل دينه.

وحدثنا خالد بن خِدَاش: حدثنا حَمَّاد، عن أبي حسنة صاحب الزِّيادِيِّ قال: كُنَّا عند أبي قِلابةَ إذ دخلَ عليه رَجُلٌ عليه أكسِيَةٌ، فقال: إيَّاكم وهذا الحمَار النَّهاقَ. وقال الحَسن رَحمه الله: إن قوماً جعلُوا الكِبْرَ في قُلُوبهم والتواضُعَ في ثِيَابهم، فصاحِبُ الكِسَاءِ بِكِسَائِهِ أعجَبُ من صاحب المِطْرَفِ بمِطْرفِهِ، ما لهم تَفَاقَروا؟!. وفي بعض الأخبار أن موسى ـ عليه السلام ـ قال لبني إسرائيلَ: ما لَكُم تأتوني عليكُم ثيابُ الرُّهبان، وقلوبُكم قلوبُ الذِّئَابِ؟! البَسُوا ثيابَ المُلوكِ، وأَلِينُوا قُلوبَكُم بالخَشْيَةِ.

## فصل في حسن الخلق:

[٥٢٣٠] قال أبو التيَّاحِ، عن أنسٍ ـ رَضي الله عنه ـ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ من أحسَنِ النَّاس خُلُقاً[(١)].

[٥٢٣١] وعن عطاء، عن ابن عمر: قيلَ: يا رسولَ الله، أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنُهم خُلقاً[(٢)].

[٥٢٣٢] وعن نُوح بن عَبَّاد، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «إن العبد ليبلُغ بحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَاتِ الآخرةِ، وشرفَ المنازلِ، وإنه لضعيفُ العبادة. وإنه ليبلغُ بِسُوء خُلُقه دَرَكَ جَهَنَّم وهو عابدٌ»[(٣)].

[٥٢٣٣] وعن سِنَان بن هارونَ، عن حُمَيد، عن أَنَسٍ مرفوعاً: «ذَهَبَ حسنُ الخُلق بخير الدنيا والآخرةِ»[(٤)].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٠٣ ومسلم ٢٣١٠ وأبو داود ٤٧٧٣ والترمذي ٢٠١٥ وابن أبي الدنيا ١٦٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٩ وابن أبي الدنيا ١٦٥ وقال البوصيري في «الزوائد»: فروة بن قيس مجهول، وكذلك الراوي عنه، وخبره باطل؛ قاله الذهبي في «طبقات التهذيب» اهـ. وورد من وجه آخر، أخرجه البيهقي في «الشعب» ٧٩٩٣ وإسناده ضعيف لضعف عبيد الله بن سعيد. وحسنه الألباني في «الصحيحة» ١٣٨٤.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٦٨ بهذا الإسناد ورجاله ثقات، سوى نوح بن عباد القرشي وقد وثقه ابن حبان.

(٤) أخرجه أبي الدنيا ١٦٩، ورجاله ثقات سوى سنان بن هارون، قال عنه أبو حاتم: شيخ، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، فالإسناد غير قوي، لكن في الباب أحاديث، والله أعلم.

[٥٢٣٤] والمطلب، عن عائشة مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار»(١).

[٥٢٣٥] وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونُس، حدثنا عبد الله بن إدريسَ، أخبرني أبي وعمي، عن جَدِّي، عن أبي هريرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ عن أكثر ما يُدخلُ الناسَ الجنةَ، فقال: تقوى الله وحسنُ الخلق. وسئل عن أكثر ما يُدخِل الناسَ النارَ، فقال: الأجوفانِ الفَمُ والفَرْجُ(٢).

[٥٢٣٦] وقال أسامة بن شَرِيك: كنت عندَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فجاءته الأعرابُ من كلِّ مَكانٍ، فقالوا: يا رسولَ الله، ما خيرُ ما أُعطِي الإنسانِ؟ قال: «حسن الخلقِ»(٣).

[٥٢٣٧] وقال يَعْلَى بن مَمْلَكٍ، عن أم الدَّرداءِ، عن أبي الدَّرداءِ ـ يبلُغ به ـ قال النبي ـ ﷺ ـ: «ما من شيءٍ أثقلَ في الميزانِ من خُلُقٍ حسن»(٤). وكذا رواه عطاءٌ، عن أم الدرداءِ، به.

[٥٢٣٨] وعن مَسْروقٍ، عن عبد الله بن عَمرو مرفوعاً: «إنَّ مِن خيارِكم أحاسِنَكم أخلاقاً»(٥).

[٥٢٣٩] حدثنا عبد الله بن أبي الدنيا، حدثنا مُحَمَّد بن عُبَيد، عن محمد بن أبي سَارَةَ، عن الحَسَنِ ابن عَليٍّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لَيُعطِي العبدَ من الثَّوابِ على حُسنَ الخُلُق، كما يُعطي المجاهدَ في سَبيل الله، يغدُو عليه الأجرُ ويَرُوحُ»(٦).

[٥٢٤٠] وعن مكحُول، عن أبي ثَعلبةَ مرفوعاً: «إن أحبَّكُم إليَّ وأقربَكُم مِنيِّ مجلساً، أحاسنكُم أخلاقاً، وإن أبغَضكُم إلي وأبعدَكُم مني منزلاً في الجنَّةِ مَسَاوِيكُم أخلاقاً، الثرثارُون المُتَشدِّقُون المُتَفيهِقُونَ»(٧).

[٥٢٤١] وعن أبي أُوَيس، عن محمد بن المنكدِر، عن جابرٍ مرفوعاً: «ألاَ أُخْبِرُكم بأكمَلِكُم إيماناً؟ أحاسنُكُم أخلاقاً، المُوَطَّئون أكنافاً، الَّذِين يَأْلَفُون وَيُؤلَفُون»(٨).

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٤٧٩٨ وأحمد ٦/ ٩٤ وابن حبان ٤٨٠ وإسناده ضعيف إلا أن له شواهد يقوى بها، منها حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد ٢/ ٢٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤ وابن ماجه ٤٢٤٦ وابن حبان ٤٧٦ وابن أبي الدنيا ١٧٠ بهذا الإسناد، ورجاله ثقات، سوى داود بن يزيد الأودي، فقد ضعفه الجمهور، وأصله في الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه ابن أبي الدنيا ١٧١ وأحمد ٤/ ٢٧٨ والحاكم ١/ ١٢١ وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن حبان ٤٨٦ من وجه آخر عن زياد بن علاقة به مطولاً وإسناده صحيح، وله شواهد كثيرة.

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٠٠٢ وابن أبي الدنيا ١٧٢ وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ وإسناده حسن في الشواهد. وأخرجه أبو داود ٤٧٩٩ والترمذي ٢٠٠٣ وابن أبي الدنيا ١٧٣ من وجه آخر عن عطاء به، وقال الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه اهـ. قلت: رجاله ثقات وللحديث شواهد فهو صحيح.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٥٩ ومسلم ٢٣٢١ وأحمد ٢/ ١٦١ وابن أبي الدنيا ١٧٤.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٧٦ بهذا الإسناد، وفيه محمد بن أبي سارة، لا يعرف له سماع من الحسن قاله البخاري، ونقله عنه الذهبي في «الميزان» ٧٥٧٠ والمتن غريب.

(٧) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٣ وابن أبي الدنيا ١٧٧ وابن حبان ٤٨٢ وإسناده منقطع، وله شاهد من حديث جابر عند الترمذي ٢٠١٨ وانظر صحيح الترمذي ١٦٤٢.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٧٨ والبيهقي في «الشعب» ٨١١٨ وإسناده غير قوي لأجل أبي أويس، لكن له شواهد يحسن بها.

[٥٢٤٢] وقال الليث، عن يزيدَ بن عبد الله بن أُسامَةَ، عن بكر بن أبي الفُرَات قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما حَسَّن الله خَلْقَ رَجُلٍ وخُلُقَه فَتَطْعَمَه النَّارُ»[١].

[٥٢٤٣] وعن عبد الله بن غالب الحُدَّاني، عن أبي سعيد مرفوعاً: «خَصْلَتَان لا تجتمعان في مؤمن: البُخْلُ وسوءُ الخُلُق»[٢].

[٥٢٤٤] وقال مَيمُون بن مِهْرَانَ، عن رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من ذَنْبٍ أعظمَ عند الله من سُوءِ الخُلُق، وذلِك أنَّ صاحِبَه لا يخرُج من ذَنْبٍ إلا وقع في آخَرَ»[٣].

[٥٢٤٥] قال: حَدَّثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو المغيرة الأَحْمَسِيُّ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاقَ، عن رَجُل من قريش قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إنَّ الخُلُق الحَسَن لَيُذِيبُ الذنوب كما تُذِيب الشمسُ الجَلِيد، وإنَّ الخُلُقَ السيِّء لَيُفسدُ العَمَل كما يُفسِدُ الخَلُّ العَسَل»[٤].

[٥٢٤٦] وقال عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن جَدِّه، عن أبي هُرَيرة مَرفوعاً: «إنكم لا تَسَعُون الناسَ بأموالِكم، ولكن يَسَعهم منكُم بسطُ وُجوهٍ وحُسن خُلُقٍ»[٥]. وقال محمد بن سِيرِينَ: حُسنُ الخُلُق عَونٌ على الدين.

## فصل في ذم الكبر:

[٥٢٤٧] قال علقمة، عن ابن مسعود ـ رَفَعه ـ: «لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال حَبَّةٍ من كِبْرٍ، ولا يدخُل النارَ من كان في قلبه مثقال حَبَّةٍ من إيمانٍ»[٦].

[٥٢٤٨] وقال إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ، عن أبي سَلَمَة، عن عبد الله بن عَمرو مرفُوعاً: «من كان في قلبه مثقالُ ذَرَّة من كِبْرٍ أكبَّه الله على وجهه في النار»[٧].

[٥٢٤٩] حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو مُعَاوية، عن عُمَر بن راشِدٍ، عن إياس بن سَلَمة، عن أبيه مرفوعاً: «لا يزالُ الرجلُ يذهَبُ بنفسه حتى يُكتَب عند الله من الجَبَّارينَ، فَيُصيبه ما أصابَهُم من

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٠ هكذا مرسلاً، بكر بن أبي الفرات، تابعي، وهو غير مشهور والمتن غريب شبه موضوع.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٢ والترمذي ١٩٦٢ وإسناده ضعيف لأجل صدقة بن موسى الدقيقي.

(٣) باطل. أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٣ وهو مرسل، ميمون بن مهران، تابعي. وله علة ثانية، فيه مروان بن سالم، متروك الحديث.

(٤) ضعيف جداً، أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٤ بهذا الإسناد، وهو معلول عبد الرحمن بن إسحق، أبو شيبة الواسطي، ضعفه الجمهور، وشيخه لم يسمّ، فهاتان علتان للحديث. وأخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨٥٤ من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف انظر «المجمع» ٨/ ٢٤.

(٥) حسن. أخرجه أبو يعلى ٦٥٥٠ وابن أبي الدنيا ١٩٠ والبزار ١٩٧٧ والحاكم ١/ ١٢٤ وقال المنذري في «الترغيب» ٣٩٣٥: رواه أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن اهـ. وانظر «مجمع الزوائد» ٨/ ٢٢. فللحديث شواهد يحسن بها إن شاء الله تعالى.

(٦) أخرجه مسلم ٩١ وأبو داود ٤٠٩١ والترمذي ١٩٩٨ وابن ماجه ٤١٧٣ وأحمد ١/ ٤١٣ و٤١٦ وابن حبان ٢٢٤ وابن أبي الدنيا ١٩٢.

(٧) جيد. أخرجه أحمد ٢/ ٢١٥ وابن أبي الدنيا ١٩٦ وقال المنذري في «الترغيب» ٤٢٩١: رواه أحمد، ورواته رواة الصحيح. وانظر «المجمع» ١/ ٩٨.

العذاب»[١]. وقال مالك بنُ دينار: رَكِبَ سُلَيمانُ بنُ داودَ ـ عليهما السلام ـ ذات يوم البسَاطَ في مئتي ألف من الإنس، ومئتي ألفٍ من الجن، فَرُفعَ حتى سَمِع تَسْبيحَ الملائكةِ في السماء، ثُمَّ خَفَضُوه حتى مَسَّت قدمُه ماءَ البحرِ، فَسَمِعوا صوتاً: لو كان في قَلْب صاحبكم مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كبرٍ لَخُسِفَ به أبعدَ مِمَّا رُفع. قال: حدَّثنا أبو خَيْثَمَة، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، عن حَمَّادِ بن سَلَمة، عن ثابت، عن أنس قال: كان أبو بكر يَخطُبُنا فَيذكُر بَدْءَ خَلْقِ الإنسانِ، حتى إنَّ أحدنا لَيَقذِرُ نفسه، يقول: خَرَج من مجرَى البولِ، مرَّتين.

وقال الشعبيُّ: من قَتَل اثنين فهو جَبَّار، ثم تلا: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩]. وقال الحسنُ: عجَباً لابن آدم يغسل الخُرْءَ بيدِه في اليوم مرتين ثم يَتَكبَّرُ! يعارض جبار السموات! قال: حدثنا خالد بن خِداشٍ، حدثنا حَمَّاد بن زيد، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الضحاك بن سفيان، فذكر حَديث[٢]: ضَرَب مثَلَ الدنيا بما يَخرُجُ من ابن آدم. وقال الحَسَنُ، عن عُتَيٍّ، عن أُبَيٍّ قال: إنَّ مَطْعَمَ ابنِ آدَمَ ضُرِبَ مثلاً للدنيا وإن قَزَّحه[٣] ومَلَّحه. وقال محمد ابن الحُسَين بن علي ـ من ولد علي، رَضِي الله عنه ـ: ما دخل قلْبَ رَجُلٍ شيءٌ من كِبْرٍ إلا نَقَص من عقله بِقَدر ذلك. وقال يُونس بن عبيد: ليس مع السجود كبرٌ، ولا مع التوحيدِ نفاقٌ. ونَظَر طاووسُ إلى عُمَرَ بن عبد العَزيز وهو يختالُ في مِشْيَتِهِ، وذلك قبل أن يُستَخلَفَ، فَطَعن طاووسُ في جَنبِهِ بإصبَعِهِ، وقال: ليس هذا مَشْيَ من في بَطْنه خُرْءٌ؟! فقال له كالمعتذر إليه: يا عَمِّ، لقد ضُرِبَ كُلُّ عُضوٍ مِني على هذه المِشْيَةِ حتى تَعَلَّمتها. قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كانت بَنُو أُمَيَّةَ يضرِبُونَ أولادَهم حتى يَتَعَلَّمُوا هذه المِشْيَةَ.

## فصل في الاختيال:

[٥٢٥٠] عن ابن أبي ليلى، عن ابن بُرَيدَةَ، عن أبيه مَرفُوعاً: «مَنْ جَرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه»[٤]. ورواه عن إسحاقَ بن إسماعيل، عن سُفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عُمَر مرفوعاً، مثله.

[٥٢٥١] وحَدَّثنا محمدُ بن بكار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرَج، عن أبي هُرَيرة مرفوعاً: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره»[٥].

[٥٢٥٢] وقال [صلى الله عليه وسلم][٦]: «بينما رجلٌ يتبختر في بُرْدَيه أعجبته نفسُه، خسَفَ الله به الأرضَ، فهو يَتَجلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة»[٧]. ورَوَى الزُهري عن سالم، عن أبيه: بينما رجل... إلى آخره[٨].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٠٠ وابن أبي الدنيا ١٩٨ وإسناده ضعيف، لضعف عمر بن راشد اليمامي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) ليس بمرفوع.

(٣) القزح: التابل، والمقزحة: نحو من المملحة.

(٤) متن صحيح. أخرجه ابن أبي الدنيا ٢٣٨، وإسناده غير قوي لأجل محمد بن عبد الرحمن. وأخرجه البخاري ٥٧٨٤ ومسلم ٢٠٨٥ وأبو داود ٤٠٨٥ والنسائي ٨/٢٠٨ وابن ماجه ٣٥٦٩ من حديث ابن عمر.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٨٨ ومسلم ٢٠٨٧ وابن أبي الدنيا ٢٣٢ وابن ماجه ٣٥٧١.

(٦) زيادة عن «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا ٢٣٣.

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٨٩ ومسلم ٢٠٨٨ وهو عجز المتقدم عند ابن أبي الدنيا ٢٣٣.

(٨) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٨٥ و٥٧٩٠ والنسائي ٨/٢٠٦ من حديث ابن عمر.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً خلقه على نِعَمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سَخَّر لهم ما في السمواتِ من نُجوم يَستَضِيئُون بها في ليلهم ونَهارهم، وما يخلُق فيها من سَحاب وأمطار وثَلج وبَرَدٍ، وجَعْلِه إياها لهم سَقفاً محفُوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قَرارٍ وأنهارٍ وأشجارٍ وزُرُوعٍ وثمارٍ. وأسبغَ عليهم نِعَمَه الظاهرة والباطِنَة من إرسالِ الرسُل وإنزالِ الكُتُب، وإزاحةِ الشبَه والعِلَل، ثم مع ذلك كلِّه ما آمن الناسُ كلُّهم، بل منهم مَن يُجادِلُ في الله، أي: في تَوحِيده وإرسالِ الرسُل. ومجادَلَتُهُ في ذلك بغير علم، ولا مستند من حُجَّة صَحِيحة، ولا كتابٍ مأثور صَحِيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾، أي: مُبينٍ مُضِيءٍ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، أي: على رسوله من الشرائع المطهرة، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، أي: لم يكن لهم حُجَّة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: فما ظنكم أيها المحتجُّون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خَلَف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عمن أسلَم وجهَه لله، أي: أخلَصَ له العملَ وانقاد لأمره واتَّبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: في عَمَله، باتِّباع ما به أمَر، وتَركِ ما عنه زَجر، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، أي: فقد أخذ مَوثِقاً من الله مَتِيناً أنه لا يُعذِّبه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾، أي: لا تحزَن يا محمد عليهم في كُفرهم بالله وبما جئتَ به، فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعُهم فيُنبِّئُهم بما عملوا، أي: فيَجزيهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فلا تخفى عليه خافية. ثم قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾، أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾، أي: نُلجِئُهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أي: فَظيع صَعْب يَشُقُّ على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩ - ٧٠].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم يَعرِفُون أن الله خالقُ السموات والأرض، وَحدَه لا شريك له، ومع هذا يعبدُون معه شركاءَ يعترفون أنها خَلقٌ له ومِلْكٌ له، ولهذا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إذ قامت عليهم الحجة باعترافهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: هو خَلقُه ومِلكُه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: الغني عما سواه، وكلُّ شيء فقيرٌ إليه، الحميدُ في جميع ما خَلَق، له الحمد في السموات والأرض على ما خَلَق وشَرع، وهُوَ المحمود في الأمور كلِّها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عَظمته وكبريائه وجَلالِه، وأسمائه الحُسنى وصِفَاتِه العُلاَ وكلماته التَّامة التي لا يحيطُ بها أحدٌ، ولا اطِّلاع لبشرٍ على كُنهها وإحصَائِها؛ كما قال سَيِّد البَشر وخَاتِم الرسُلِ:

[٥٢٥٣] «لا أُحصِي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»[(١)]، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، أي: ولـو أن جـمـيـعَ أشـجـارِ الأرضِ جُعِلت أقلاماً، وجُعِل البحرُ مداداً وأمَدَّه سبعةُ أبحرُ معه، فكُتِبت بها كلماتُ الله الدالَّة على عَظَمتِه وصِفَاتِه وجَلالِه لَتكسَّرت الأقلامُ، ونَفِدَ ماءُ البحار، ولو جاء أمثالُها مِداداً. وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يُرَد الحصرُ ولا أنَّ ثَمَّ سبعةَ أبحُرٍ موجودة تُحيط بالعالم، كما يقوله من تَلَقَّاه من كلام الإسرائيليين التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّبُ، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فليس المرادُ بقوله: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخَرَ فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هَلُمَّ جَرًا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماتِه، كما قال الحَسنُ البصريُّ: لو جُعل شَجَرُ الأرضِ أقلاماً، وجُعِل البحرُ مِداداً، وقال الله: إنَّ من أمري كذا، ومن أمري كذا. لَنَفِدَ ما في البُحُورِ، وتَكسَّرت الأقلامُ.

وقال قتادةُ: قال المشركون: إنما هذا كلامٌ يُوشِك أن ينفَدَ، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾، أي: لو كان شجرُ الأرض أقلاماً، ومَعَ البحرِ سبعةُ أبحُر، ما كان لِتنفَد عجائبُ ربِّي وحكمتُه وخَلقُه وعِلمُه. وقال الربيعُ بن أنس: إنَّ مَثَل علم العباد كلِّهم في علم الله كقطرةٍ من ماء البُحُور كلِّها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ . . . الآية. يقولُ: لو كان ذلك البحرُ مداداً لكلمات الله، والشجرُ كلّها أقلاماً، لانكسَرت الأقلامُ، وفَني ماءُ البحرِ، وبَقِيت كلماتُ الله قائمةً لا يُفنِيها شيءٌ، لأنَّ أحداً لا يستطيعُ أن يَقدُر قَدْرَه، ولا يُثني عليه كما يَنبغي، حتى يكونَ هو الذي يُثنِي على نفسه، إن ربنا كما يقولُ، وفوقَ ما نَقُول. وقد رُوي أن هذه الآيةَ نزلت جواباً لليهود.

[٥٢٥٤] قال ابن إسحاق: حَدَثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جُبَير أو عكرمة، عن ابن عباس: أن أحبار يَهُود قالوا لرسولِ الله ـ ﷺ ـ بالمدينة: يا مُحمَّدُ، أرأيتَ قولَكَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٢)] [الإسراء: ٨٥] إيَّانا تُريد أم قومَكَ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: كلاكُما. فقالوا: ألستَ تتلُوا فيما جاءك أنا قد أُوتينا التوراةَ فيها تبيان كلِّ شيءٍ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنَّها في علم الله قليل، وعندَكُم من ذلك ما يكفيكم. وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ . . . الآية. وهكذا رُوي عن عكرمة، وعَطاء بن يسار. وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنيَّة لا مكيَّةٌ، والمشهور أنها مكيَّةٌ، فالله أعلم.

---

(١) تقدم تخريجه، وهو صحيح.

(٢) والحديث أخرجه الطبري ٢٨١٤٩، وفيه محمد بن أبي محمد، وهو مجهول لا يعرف، قاله الذهبي في الميزان.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيزٌ قد عَزَّ كُلَّ شيءٍ وقَهره وغَلَبه، فلا مانعَ لِمَا أرادَ ولا مُخالِفَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خَلْقِه وأمْرِه، وأقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وجميعِ شؤونه. وقولُه تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: ما خَلْقُ جميعِ الناسِ وبَعْثُهم يومَ المعادِ بالنِّسبةِ إلى قدرته إلا كَنِسْبَةِ خَلْقِ نفسٍ واحدةٍ، الجميعُ هينٌ عليه، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، أي: لا يأمُر بالشيءِ إلا مرَّةً واحدةً، فيكون ذلك الشيءُ لا يُحتاجُ إلى تكرُّره وتوكيده. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]. وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، أي: كما هو سَمِيعٌ لأقوالهم بصيرٌ بأفعالهم كَسَمْعِه وبَصَره بالنسبة إلى نفسٍ واحدة كذلك قدرتُه عليهم كقُدرته على نفسٍ واحدةٍ. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾. بمعنى يأخذُ منه في النهار، فيطول ذاك ويقصُر هذا، وهذا يكون زمنَ الصيفِ يطولُ النهار إلى الغاية، ثم يُسرِع في النقص فيطول الليلُ ويقصرُ النهار، وهذا يكون في الشتاء، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قيل: إلى غايةٍ محدُودةٍ، وقِيلَ: إلى يومِ القيامة. وكِلا المعنيين صحيحٌ.

[٥٢٥٥] ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصَّحيحَين: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يا أبا ذَرٍّ، أتدري أين تذهبُ هذه الشمسُ»؟ قلت: الله ورسولُه أعلمُ. قال: فإنها تذهبُ فتسجُد تحتَ العرشِ، ثم تستأذِن ربَّها فيُوشِك أن يقال لها: ارجِعي من حيث جئت»[(١)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن عَطاء بن أبي رَباح، عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فَلَكها، فإذا غَربت جَرَت بالليل في فلكها تحت الأرضِ حتى تَطلُع من مَشرِقها، قالَ: وكذلك القمر»[(٢)]. إسنادُه صحيحٌ.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]، ومعنى هذا أنه تعالى الخالقُ العالم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]. وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾، أي: إنما يُظهر لكم آياتِه لتستدلُّوا بها على أنه الحقُّ، أي: الموجودُ الحقُّ الإلهُ الحقُّ، وأنَّ كُلَّ ما سواه باطلٌ؛ فإنه الغنيُّ عما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، لأن كلَّ ما في السموات والأرض الجميعُ خَلقُه وعَبيدُه، لا يقدِرُ أحدٌ منهم على تحريك ذَرَّةٍ إلا بإذنِه، ولو اجتمع كلُّ أهل الأرض على أن يخلُقوا ذباباً لَعجَزُوا عن ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٢) ما ذكره ابن عباس، فيه نظر.

دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾، أي: العلي الذي لا أعلى منه، الكبيرُ الذي هو أكبرُ من كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ خاضعٌ حقير بالنسبةِ إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

يُخبر تعالى أنه هو الذي سَخَّر البحر لتجريَ فيه الفلكُ بأمره، أي: بلُطفِه وتَسْخيره، فإنه لولا ما جَعَل في الماءِ مِن قُوَّة تُحمَل بها السُّفن لما جرَت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، أي: مِن قُدرته، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي: صَبَّارٍ في الضراء، شَكُورٍ في الرخاءِ. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾، أي: كالجبال والغَمام ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، قال مجاهدٌ: أي كافر. وكأنه فَسَّر المقتصد هاهنا بالجَاحِد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وقال ابنُ زَيدٍ: هو المتوسِّط في العَمَلِ. وهذا الذي قاله ابنُ زيدٍ هو المراد في قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد ههنا هو: المتوسِّط في العمل. ويحتمل أن يكون مراداً ههنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يُقابل ذلك بالعمل التام، والدَّأب في العبادة، والمبادَرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مُقصِّراً والحالة هذه، والله أعلم. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، فالخَتَّار: هو الغَدَّار. قاله مجاهدٌ، والحسن، وقتادةُ، ومالك، عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نَقَض عهده، والخَتْر: أَتَمُّ الغَدْرِ وأبلَغُه، قال عَمْرو بن مَعدِ يكرب:

وَإِنَّــكَ لَــو رَأيــتَ أبــا عُــمَــيــرٍ ... مَــلأتَ يَــدَيْــكَ مِــنْ غَــدْرٍ وَخَــتْــرِ

وقولُه تعالى: ﴿كَفُورٍ﴾، أي: جَحُودٍ للنِّعَم لا يَشكُرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُنذِراً للناس يوم المَعَاد، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه، والخشيةِ من يوم القيامة حيث ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾، أي: لو أراد أن يَفدِيَهُ بنفسِه لما قُبِل منه. وكذلك الولدُ لو أرادَ فداءَ والِدِه بنفسه لم يُقبَلْ منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لا تُلهينَّكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، يعني: الشيطان. قاله ابنُ عباس، ومجاهد، والضحاكُ، وقتادةُ. فإنه يَغُرُّ ابنَ آدم ويَعِدُه ويُمنيه، وليس من ذلك شيءٌ، بل كَمَا قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

قال وهبُ بن مُنَبِّه: قال عُزير عليه السلامُ: لما رأيتُ بلاءَ قَومي اشتدَّ حُزني وكَثُر هَمّي، وأرِق نَومي، فَضَرَعْتُ إلى ربي، وصَلَّيت وصُمت، فأنا في ذلك أتَضرَّعُ أبكي إذ أتاني الملك فقلت له: أخبرني هل تشفَعُ

أرواحُ المصدِّقين للظُّلمة، أو الآباءِ لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء ومُلْكٌ ظاهر، ليس فيه رُخصَةٌ، لا يَتكلَّم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخَذ فيه والدٌ عن ولده، ولا وَلَدٌ عن والده، ولا أخٌ عن أخِيه، ولا عَبدٌ عن سَيِّده، ولا يهتمُّ أحد بِهَم غيره، ولا يحزَن لِحُزنه، ولا أحَد يرحَمُهُ، كلٌّ مُشفِقٌ على نفسِه، لا يُؤخَذ إنسانٌ عن إنسانٍ، كلٌّ يَهُمُّ هَمَّه، ويبكِي عَوْلَهُ، وَيَحْمِلُ وِزرَه، ولا يَحمِلُ وِزرَه مَعَه غيرُه. رواه ابنُ أبي حاتم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

هذه مفاتيحُ الغَيب التي استأثر الله تعالى بِعِلْمِها، فلا يعلَمُها أحدٌ إلا بعد إعلامِه تعالى بها، فَعِلْمُ وَقْتِ الساعةِ لا يعلَمه نبيٌّ مُرسَلٌ ولا ملك مُقرَّب، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزالُ الغيثِ لا يعلَمُه إلا الله، لكن إذا أمر به عَلِمته الملائكةُ الموكَّلون بذلك، ومَن شاء الله مِن خلقه. وكذلك لا يعلَم ما في الأرحام مما يريدُ أن يخلُقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شَقِيّاً أو سعيداً، عَلِم الملائكة الموكَّلون بذلك، ومَن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدرِي نفس ماذا تكسِب غداً في دنياها وأخراها، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أيِّ بلادِ الله كان، لا علمَ لأحدٍ بذلك. وهذه شَبِيهةٌ بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. . . الآية. وقد وَرَدت السنةُ بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

[٥٢٥٦] قال الإمام أحمدُ: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني حُسَين بن وَاقِدٍ، حدثني عبد الله بن بُرَيدة، سَمِعتُ أبي بُرَيدة يقول: سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «خمسٌ لا يعلمُهُنَّ إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾»(١). هذا حديثٌ صحيحُ الإسنادِ، ولم يُخرجُوه.

[٥٢٥٧] حديثُ ابن عُمَر، قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن عبدِ الله بن دينارٍ، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: مفاتيحُ الغيب خَمسٌ لا يَعلمهُنَّ إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾(٢). انفرد بإخراجه البخاري فرواه في كتاب الاستسقاء من صحيحه، عن محمد بن يوسف الفِرْيابيِّ، عن سفيانَ بن سعيد الثوريِّ، به.

[٥٢٥٧م] ورواه في التَّفسير من وَجهٍ آخَرَ فقال: حدثنا يحيى بن سُلَيمان، حدثنا ابنُ وهب، حدثنا عُمَر بن محمد بن زيدِ بن عبد الله بن عُمَر: أنَّ أباه حَدَّثه أن عبد الله بن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مفاتيحُ الغيب خمسٌ». ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾(٣). انفرد به أيضاً.

[٥٢٥٨] ورواه الإمام أحمد عن غُنْدَر، عن شعبة، عن عُمَر بن محمد: أنه سَمع أباه يُحدِّث، عن ابن

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٥/٣٥٣ والبزار ٢٢٤٩ وإسناده على شرط مسلم وانظر «المجمع» ٧/٨٩.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٥٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٨.

عُمر، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أُوتيتُ مفاتيحَ كلِّ شيء إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾»(١).

[٥٢٥٩] حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى، عن شُعبَةَ، حدثني عَمرو بن مُرَّةَ، عن عبد الله بن سَلَمَة قال: قال عبد الله: أُوتي نبيُّكم ـ ﷺ ـ مفاتيحَ كلِّ شيء غير خَمْس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾(٢). وكذا رواه عن مُحَمَّد بن جعفر، عن شُعْبَة، عن عمرو بن مُرَّةَ، به. وزاد في آخره: «قال: قلتُ له: أنت سَمِعته من عبد الله؟ قال: نَعَم. أكثَرَ من خمسين مرةً». ورواه أيضاً عن وكيع، عن مِسْعر، عن عَمْرو بن مُرَّة به. وهذا إسنادٌ حسنٌ على شَرْطِ أصحاب السنَن ولم يخرجُوه.

[٥٢٦٠] حديثُ أبي هُرَيرة، قال البُخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاقُ، عن جَرير، عن أبي حَيَّان، عن أبي زُرعة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسولَ الله، ما الإيمانُ؟ قال: الإيمانُ أن تُؤمن بالله وملائكتِه وكُتُبه ورُسُله ولقائِه، وتُؤمنَ بالبعث الآخرِ. قال: يا رسولَ الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلامُ أن تعبدَ الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيمَ الصلاة، وتؤتى الزكاة المفروضَة، وتصومَ رمضان. فقال: يا رسولَ الله، ما الإحسانُ؟ قال الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تَكُن تراه فإنه يراكَ. قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلَمَ من السائِل، ولكن سأُحَدِّثك عن أشراطها إذا وَلَدت الأَمَةُ رَبَّتها فذاك من أشراطها. وإذا كان الحفاة العراةُ رُؤوس الناسِ فذاكَ من أشراطها، في خمس لا يعلَمُهنَّ إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ . . . الآية، ثم انصرف الرجل فقال: رُدُّوه عليّ، فأخذوا ليردُّوه، فلم يَرَوا شيئاً، فقال: هذا جبريلُ جاء ليعلِّم النَّاسَ دينَهم»(٣). ورواه البخاري أيضاً في «كتاب الإيمان». ومسلم من طُرُقٍ، عن أبي حَيَّان، به. وقد تكلَّمنا عليه في أول «شرح البخاري» وذكرنا ثم حديثَ أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في ذَلك بطوله، وهو من أفرادِ مُسلم.

[٥٢٦١] حديثُ ابنِ عَبّاس، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبدُ الحميد، حدثنا شَهرٌ، حدثنا عبد الله بن عَبَّاس ـ رَضِي الله عنهما ـ قال: جَلَس رسولُ الله ـ ﷺ ـ مَجْلِساً له، فأتاه جبريلُ فجَلَسَ بين يَدَي رسولِ الله ـ ﷺ ـ واضعاً كفَّيه على رُكبَتَي النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، ما الإسلامُ؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: الإسلامُ أن تُسلِم وجهَكَ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه. قال: فإذا فعلتُ ذلك فقد أسلمتُ؟ قال: إذا فعلتَ ذلك فقد أسلمتَ. قال: يا رسولَ الله، فَحدِّثني ما الإيمان؟ قال: الإيمانُ أن تُؤمِنَ بالله، واليوم الآخر، والملائكةِ، والكتاب، والنبيِّينَ، وتُؤمِنَ بالموت، وبالحياةِ بعد الموتِ، وتُؤمِنَ بالجنة والنار، والحِساب والميزان، وتؤمِنَ بالقَدَرِ كُلِّه خيرِه وشَرِّه. قال: فإذا فعلتُ ذلك فقد آمنتُ؟ قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت. قال: يا رسول الله، حَدِّثني ما الإحسانُ؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: الإحسان أن تعملَ لله كأنك تَرَاه، فإن كنت لا تراه فإنه يراكَ. قال: يا رسول الله،

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٨٥ والطبراني في «الكبير» ١٣٣٤٦ ورجال أحمد رجال الصحيح كما في «المجمع» ٨/ ٤٦٢.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ١/ ٤٤٥ وأبو يعلى ٥١٥٣ وإسناده حسن لأجل عبد الله بن سلمة، وهو مختلف فيه وانظر «المجمع» ٨/ ٢٦٣.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٧ ومسلم ٩ من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

فَحدِّثني متى الساعةُ؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هي ـ سبحان الله ـ في خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك، قال: أجل يا رسول فحدثني، قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتَ الأمةَ ولدت رَبَّتَها ـ أو: رَبَّها ـ ورأيتَ أصحابَ الشاءِ يتطاولون في البُنيانِ. ورأيت الحَفاة الجيَاعَ العالة رُؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطِها. قال: يا رسولَ الله، ومن أصحابُ الشاءِ والحُفاةُ الجياعُ العالةُ؟ قال: العربُ[(١)]. حديث غريب، ولم يخرجوه.

[٥٢٦٢] حديثُ رجلٍ من بني عامر، رَوَى الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن منصورٍ، عن رِبْعِيّ بن حِرَاش، عن رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: أألج؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ لخادمه: اخرُجي إليه فإنه لا يُحسِنُ الاستئذان فقولي له: فَلْيَقُل: «السلامُ عليكم، أأدخلُ؟» قال: فسمعتُه يقول ذلك، قلت: السلامُ عليكم، أأدخلُ؟ فَأَذِن فدخلتُ، فقلتُ: بمَ أتيتنا به؟ قال: لم آتكم إلا بخير، أتيتكُم أن تعبدُوا الله وحدَه لا شريك له، وأن تَدَعُوا اللاتَ والعُزَّى، وأن تُصلُّوا بالليل والنهار خمسَ صلوات؛ وأن تصومُوا من السنة شهراً، وأن تَحجُّوا البيتَ، وأن تأخذُوا الزكاة من مالِ أغنيائكم فَتَردُّوها على فُقَرائكم. قال: فقال: هل بَقِي من العلم شيءٌ لا تعلَمُه؟ قال: قد عَلِمَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ خيراً، وإنَّ من العلم ما لا يعلَمُه إلا الله عزَّ وجلَّ: الخمسُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾[(٢)]. وهذا إسناد صحيحٌ.

[٥٢٦٣] وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد: جاء رجلٌ من أهل البادية؛ [قال أبو جعفر أحسبه أنا قال إلى النبي ﷺ][(٣)] فقال: إنَّ امرأتي حُبلى، فأَخبِرني ما تَلِدُ؟ وبلادنا مُجْدِبةٌ فأخبرني متى ينزلُ الغيثُ؟ وقد عَلمتُ متى وُلِدتُ فأخبرني متى أموتُ؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ ـ قال مجاهد: وَهُنَّ مفاتيحُ الغيبِ التي قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[(٤)] [الأنعام: ٥٩]. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير.

وقال الشعبيُّ، عن مسروقٍ، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قال: مَن حَدَّثك أنه يعلَم ما في غدٍ فقد كَذَب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ـ قال قتادة: أشياءُ استأثرَ الله بهنَّ، فلم يُطلع عليهنَّ مَلَكاً مُقرَّباً، ولا نَبياً مرسلاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فلا يَدري أحدٌ من الناس متى تقومُ الساعةُ، في أيِّ سنةٍ أو في أيِّ شهر، أو ليل أو نهار، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فلا يَعْلم أحدٌ متى ينزلُ الغيثُ، ليلاً أو نهاراً، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، فلا يعلَمُ أحدٌ ما في الأرحام، أذكرٌ أم أُنثى، أحمَرُ أو أسودُ، وما هُو؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أخيرٌ أم شرٌ، ولا تَدري يا ابن آدم متى تموتُ؟ لَعلَّك الميتُ غداً، لَعلَّكَ المصابُ غداً، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحدٌ من الناس يدري

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ١/ ٣١٩ وفي إسناده شهر بن حوشب، وحديثه حسن في الشواهد، ويتأيد بما قبله.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٣٦٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٧/ ٤٢ ـ ٤٣: ورجاله كلهم ثقات أئمة.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من تفسير الطبري.

(٤) والحديث ضعيف. أخرجه الطبري ٢٨١٧٣ عن مجاهد مرسلاً. فهو ضعيف، وذكر نزول الآية منكر، فإن السورة مكية.

أين مَضجَعُه من الأرضِ، أفي بحرٍ أم بَرٍّ، أو سَهلٍ أو جَبَل. وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرضٍ، جَعَلَ له إليها حاجةً».

[٥٢٦٤] فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في مُعجمه الكبير، في مسنَدِ أُسامَة بن زيدٍ: حَدَّثنا إسحاقُ بن إبراهيمَ، أخبرنا عبدُ الرزَّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن أيُّوبَ، عن أبي المُلَيح، عن أسامةَ بن زيد قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «ما جعل الله مَنِيَّةَ عبدٍ بأرضٍ إلا جَعَل له فيها حاجة»[١].

[٥٢٦٥] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو داود الحَفَرِيّ، عن سُفيانَ، عن أبي إسحاق، عن مَطَرِ بن عُكَامسٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا قضى الله مَنِيَّةَ عبدٍ بأرضٍ جعل له إليها حاجة» وهكذا رواه الترمذي في «القدر» من حديث سفيان الثوري، به. ثم قال: «حسن غريب، ولا يعرف لمطر عن النبي - ﷺ - غيرُ هذا الحديث»[٢]. وقد رَوَاه أبو داود في «المراسيل»، فالله أعلم.

[٥٢٦٦] وقال الإمام أحمد: «حَدَّثنا إسماعيلُ، حدثنا أيُّوبُ، عن أبي المُلَيح بن أُسَامَة، عن أبي عَزَّةَ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا أرادَ الله قبضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جَعَل له فيها حاجةً - أو قال: بها - حاجةً»[٣]. وأبو عَزَّة هذا هو: يَسَارُ بنُ عَبْدِ الله، ويقال: ابنُ عَبدِ الهُذَلي. وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل بن إبراهيم - وهو ابن عُلَيَّة - وقال: صحيح.

[٥٢٦٧] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عِصَام الأصفهانيُّ، حدثنا المُؤمَّلُ بن إسماعيل حدثنا عُبَيد الله بن أبي حُمَيد، عن أبي المُلَيح، عن أبي عَزَّة الهذلي قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: إذا أراد الله قبضَ عبدٍ بأرضٍ جَعَل له إليها حاجة، فلم ينته حتى يَقدمَها». ثم قرأ رسول الله - ﷺ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[٤].

[٥٢٦٨] حديث آخر، قال الحافِظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا أحمد بن ثابت الجَحْدَرِيّ ومحمد بن يحيى القُطَعي قالا: حدثنا عُمر بن علي، حدثنا إسماعيلُ، عن قَيس، عن عبدِ الله قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا أراد الله قَبضَ عبدٍ بأرضٍ جَعَل له إليها حاجة»[٥]. ثم قال البَزَّارُ: وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه[٦] إلا عُمَر بن علي المُقَدَّمِيُّ.

---

(١) صحيح. أخرجه الطبراني في «الكبير» ٤٦١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ١٩٦: ورجاله رجال الصحيح. اهـ قلت: إسحق حديثه صحيح في الشواهد، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، لكن صحابيه هو أسامة بن عمير والد أبي المليح.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤٦ وأحمد ٥/ ٢٢٧ والقضاعي ١٣٩٦ وصححه الحاكم ١/ ٤٢ ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن غريب اهـ وفي إسناده أبو إسحاق مدلس، وقد عنعن. لكن للحديث شواهد وطرق كما ترى.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤٧ وأحمد ٣/ ٤٢٩ والبخاري في «الأدب المفرد» ١٨١٥ والقضاعي ١٣٩٢ وصححه الحاكم ١/ ٤٢ ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٤) إسناده ضعيف جداً. عبيد الله بن أبي حميد، متروك الحديث، والمتن إلى قوله «حاجة» محفوظ، والوهن في باقيه. وأخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨٤٠٧ من وجه آخر من حديث أبي عزة، وفي إسناده عباد بن صهيب، وهو متروك واتهم بالوضع، وقد وثقه أبو داود كما في «المجمع» ٧/ ١٩٦.

(٥) متن صحيح. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٩٨٨٩ من حديث ابن مسعود، وقال: تابعه هشيم ومحمد بن خالد الوهبي عن إسماعيل اهـ. وإسناد الحديث ضعيف، عمر بن علي وإن روى له الشيخان إلا أنه كثير التدليس، ومع ذلك فقد توبع كما ذكر البيهقي، وللحديث شواهد.

(٦) تقدم أنه رفعه غير واحد، ولعل مراد البزار - رحمه الله - حديث عبد الله بن مسعود فحسب، والله أعلم.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني سليمان بن أبي شيخ قال: أنشدني مُحمَّدُ بن الحَكَم لأعشى هَمْدان:

فَمَا تَزَوّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ ... سِوَى حَنُوط غَدَاةَ البَيْنِ مَعْ خِرَقِ[١]
وَغَيرَ نَفْحَةِ أعْوادٍ تُشَبُّ لَهُ ... وَقلّ ذَلِكَ مِنْ زَاد لِمُنْطَلِقِ!
لاَ تَأسَيَنَّ عَلَى شَيْءٍ، فَكُلّ فَتَى ... إلَى مَنيَّتِه يَسِيرُ في عَنَقِ[٢]
وَكُلّ مَنْ ظَنّ أنّ المَوتَ يُخطِئُه ... مُعَلَّلٌ بِأعَالِيلٍ مِنَ الحَمَقِ
بِأيِّمَا بَلْدَةٍ تُقْدَرْ مَنِيَّتُهُ ... إنْ لا يَسِيرِ إلَيهَا طَائِعاً يُسَقِ

أورده الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وهو أعشى هَمْدَان، وكان الشعبي زَوْجَ أُختِه، وهو مُزَوّج بِأُختِ الشعبي أيضاً، وقد كان مِمَّن طَلَب العِلْم وتَفَقَّه، ثم عَدَل إلى صناعةِ الشعر فعُرِفَ به.

[٥٢٦٩] وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة، كلاهما عن عُمر بن علي مرفوعاً: «إذا كان أجلُ أحدكم بأرض أوْثَبَته إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أَثَرِه، قَبَضه الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ فتقول الأرض يوم القيامة: رَبِّ، هذا ما أودَعْتني»[٣].

[٥٢٧٠] قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما جعل الله منية عبد بأرض، إلا جعل له إليها حاجة»[٤].

## آخر تفسير «سورة لقمان»
## والحمد لله رب العالمين، وهو حسبُنا ونعم الوكيل

---

(١) الحنوط: كل طيب يخلط للميت. والبين: الفرقة والبعد.
(٢) العنق: السير السريع.
(٣) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٦٣ والبيهقي في «الشعب» ٩٨٨٩ من حديث ابن مسعود وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وانظر الحديث السابق.
(٤) تقدم قبل خمسة أحاديث، وهو صحيح، وأسامة هو ابن عمير والد أبي المليح، وليس ابن زيد كما وقع أولاً.

# سورة السجدة

ترتيبها ٣٢ — آياتها ٧٣

## وهي مكية

[٥٢٧١] قال البخاريُّ في كتاب الجُمُعة: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سُفيان، عن سَعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هُرمُزَ الأعرَج، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ يقرأُ في الفَجر يوم الجُمُعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدَة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾(١). ورَواه مسلمٌ أيضاً من حديثِ سفيانَ الثَّوريِّ، به.

[٥٢٧٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسودُ بن عامر، أخبرنا الحسنُ بن صَالح، عن لَيثٍ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ لا ينامُ حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾(٢). تَفَرَّدَ به أحمد.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾

قد تقدَّم الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة بما أغنَى عن إعادَتِهِ هاهنا. وقولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، أي: لا شكَّ فيه ولا مِرية أنه مُنَزَّلٌ ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثم قال مُخبِراً عن المشركين: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، بل يقُولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، أي: اختلقه من تِلقاءِ نفسه، ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، أي: يَتَّبِعون الحقَّ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٨٩١ ومسلم ٨٨٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٠٤ والدارمي ٢/ ٤٥٥ والحاكم ٢/ ٤١٢ وأحمد ٣/ ٣٤٠ من طريق ليث عن أبي الزبير عن جابر به. قال الترمذي وكذا الحاكم: وروى زهير ـ بن معاوية ـ هذا الحديث، عن أبي الزبير، قال: قلت له: سمعته من جابر؟ قال: لم أسمعه من جابر، إنما سمعته من صفوان، أو ابن صفوان اهـ ومع ذلك، صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي!! والصواب أن ليث بن أبي سُليم، لم يرو له مسلم في الأصول، وإنما روى له متابعة. وقد ضعفه الجمهور، وأبو الزبير مدلس، وقد أقرّ أنه لم يسمعه من جابر، وإنما سمعه من شيخه، وهو صفوان بن عبد الله بن أمية. وهو تابعي، ولم يذكر أبو الزبير أن صفوان بن عبدالله رواه عن جابر، فالخبر غير قوي. ولفظ «لا ينام» غريب، ولو كان «كان يقرأ» فلا يعني أنه على الدوام. فهذا أقرب.

يُخبر تعالى أنه الخالقُ للأشياءِ، فَخلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما في سِتَّةِ أيام، ثم استوى على العَرْش، وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾، أي: بل هو المالكُ لأزمَّةِ الأمُور، الخالقُ لِكُلِّ شيءٍ، المُدبِّرُ لِكُلِّ شيءٍ القادِرُ على كُلِّ شيءٍ، فَلا وَليَّ لِخلْقِه سِوَاه، ولا شَفِيعَ إلاَّ مِن بعدِ إذْنِه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، يعني: أيُّها العابدُون غيرَه، المتوكِّلُون على مَنْ عَداه، تعالى وتَقَدَّس وتَنزَّه أن يكونَ له نظيرٌ أو شريك أو نَدِيدٌ، أو وَزِير أو عَدِيل، لا إله إلا هُو، ولا ربَّ سِواه.

[٥٢٧٣] وقد أورد النسائي هاهنا حديثاً فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثني محمد بن الصباح، حدثنا أبو عُبيدة الحدَّادُ، حدثنا الأخضَر بن عجلان، عن ابن جُرَيجِ المَكِّي، عن عَطَاءٍ، عن أبي هُرَيرة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أخذ بِيَدي فقال: «إنَّ الله خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما في سِتَّةِ أيام، ثم استوى على العَرْشِ في اليوم السابع، فخلق التربةَ يومَ السبتِ، والجبالَ يومَ الأحدِ، والشجَرَ يومَ الاثنَيْنِ، والمكرُوهَ يومَ الثلاثاءِ، والنورَ يومَ الأربعاء، والدوابَّ يومَ الخميسِ، وآدم يومَ الجُمُعَةِ في آخر ساعةٍ من النهارِ بعدَ العصرِ، وخَلَقه من أديم الأرضِ، بأحمرِها وأسوَدِها، وطِيبهَا وخَبيثها، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيِّب والخَبيثَ»[١]. هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتناً، وقد أخرج مُسلِمٌ والنسائيُّ أيضاً من حديث الحجَّاج بن مُحمَّدِ الأعورِ، عن ابن جُرَيج، عن إسماعيل بن أُمَيَّةَ، عن أيُّوبَ ابنُ خالدٍ، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوٍ من هذا السياق. وقد عَلَّله البخاريُّ في كتاب «التاريخ الكبير» فقال: «وقال بعضُهم: أبو هُرَيرَة عن كعبِ الأحبار، وهو أصحُّ». وكذا عَلَّله غيرُ واحدٍ من الحُفَاظِ، والله أعلم.

وقولُه تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾، أي: يَتنزلُ أمرُه من أعلى السموات إلى أقصى تخُوم الأرض السابعةِ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وتُرفَع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مَسِيرةُ خمسمئة سنةٍ، وسُمك السماءِ خَمسمئةِ سنةٍ. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، والضحاكُ: النزول من المَلَك في مَسِيرة خمسمئة عام، وصعوده في مسيرة خمسمئةِ عام، ولكنه يقطعُها في طَرْفَةِ عين، ولهذا قال تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: المدبرُ لهذه الأمورِ الذي هو شَهيد على أعمال عباده، يَرْفَع إليه جَليلها وحَقِيرها، وصَغِيرها وكَبِيرها، هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قد عزَّ كلَّ شيء فَقهره وغَلَبه، ودانت له العبادُ والرقابُ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين فهو عزيزٌ في رحمته، رَحِيم في عِزَّتِهِ وهذا هو الكمال، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خَلْقَ الأشياءِ وأتقنَها وأحكمَها. وقال مالكٌ، عن زيدِ بن أسلَمَ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، قال: «أحسن خَلْقَ كُلِّ شيءٍ». كأنه جعَله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر تعالىٰ خَلْق السمواتِ والأرض، شرَع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالىٰ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾، يعني خَلْق أبا

(١) تقدم الكلام عليه باستيفاء في سورة البقرة آية ٢٩ وهو ضعيف وإن كان في صحيح مسلم.

البشر آدَمَ من طينٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾، أي: يتناسَلُون كذلك من نُطفةٍ تخرجُ من بين صُلْبِ الرَّجُلِ وتَرائبِ المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، يعني: آدم، لما خلَقه من تراب خلقه سَوياً مُستقيماً، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، يعني: العقول: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: بهذه القُوَى التي رزقكموها الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ فالسعيدُ من استعملها في طاعةِ رَبِّه ـ عَزَّ وجلَّ.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعادَ حيثُ قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تَمزَّقت أجسامُنا وتفرَّقت في أجزاء الأرض وذَهبت، ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؟ أي: أئنا لَنَعُودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيدٌ بالنسبة إلى قُدَرِهم العاجزَة، لا بالنسبة إلى قُدرةِ الذي بَدَأَهم وخَلَقهم من العَدَم، الذي إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقُول له كُنْ فيكونُ، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن مَلَك الموت شخصٌ معيَّنٌ من الملائكة، كما هو المتبادر من حديثِ البراء المتقدم ذكره في «سُورَةِ إبراهيم»، وقد سُمِّي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادةُ وغيرُ واحدٍ، وله أعوان. وهكذا ورد في الحديثِ أن أعوانه ينتَزِعُون الأرواحَ من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقومَ تناولها مَلَكُ الموتِ. قال مجاهد: حُويَت له الأرضُ فَجُعِلَت له مثلَ الطَّسْتِ، يتناوَلُ منها حيثُ يَشاءُ. ورواه زُهير بن محمد، عن النبي ـ ﷺ ـ بِنَحوه مرسلاً[1]. وقاله ابنُ عباس رضي الله عنهما.

[٥٢٧٤] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المُقرىء، حدثنا عَمْرو بن شمر قال: سمعت جَعفَر بن محمَّد قال: سَمِعت أبي يقول: نَظَر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى مَلَك الموتِ عند رأس رَجُلٍ من الأنصار، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: يا مَلَك الموت، ارفُق بصاحبي فإنه مؤمن. فقال مَلَكُ الموتِ: يا محمَّدُ، طِبْ نفساً وقَرّ عَيناً فإنّي بكلِّ مُؤمِن رَفِيقٌ، واعلَم أنَّ ما في الأرض بيت مَدَر ولا شَعَرٍ، في بَرٍّ ولا بَحرٍ، إلا وأنا أتصفَّحُه في كلِّ يوم خَمْسَ مرات، حتى إني لأعرَفُ بصغيرهم وكَبيرهم منهُم بأنفُسِهم، والله ـ يا محمَّد ـ لو أني أردتُ أن أقبِض رُوح بعوضةٍ ما قَدَرتُ على ذلك حتى يكونَ الله هو الآمر بقَبضها. قال جعفرٌ: بلغني أنه إنما يَتَصفَّحهم في مواقيت الصلاة، فإذا حَضَرهُم عند الموتِ فإن كان ممن يحافِظُ على الصلاةِ دنا منه المَلَكُ، ودَفَع عنه الشيطانَ، ولَقَّنه المَلَكُ «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، في تلك الحال العظيمة[2]. وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن ميسرة قال: سَمِعت مجاهداً يقول: ما

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٣٣٢ لابن أبي حاتم عن زهير بن محمد، وهذا معضل، لا مرسل. وهو ضعيف بكل حال، وهو صحيح من جهة معناه. والله تعالى أعلم.

(٢) باطل، أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٤٧٥ وهذا معضل، وله علة ثانية، عمرو بن شمر متروك الحديث، وقد اتهمه ابن حبان بالوضع. ووصله الطبراني، والبزار كما في «المجمع» ٣٩٢٨ وابن شاهين في «الجنائز» وابن مندة في «المعرفة» وابن قانع كما في «الإصابة» ١/ ٤٢٥ كلهم عن عمرو بن شمر عن جعفر بن محمد عن أبيه سمعت الحارث بن الخزرج الأنصاري عن أبيه مرفوعاً، قال الحافظ: عمرو بن شمر، متروك اهـ وأما الهيثمي فقال في «المجمع»: فيه عمر بن شمر الجعفي، والحارث بن الخزرج، ولم أجد من ترجمهما اهـ وقد أصاب ـ رحمه الله في الحارث، فهو مجهول، وأما عمرو ـ فتحرف =

على ظهر الأرض من بيت شَعَرٍ أو مَدَرٍ إلا ومَلَكُ الموتِ يُطِيف به كُلَّ يوم مَرَّتَين. وقال كعبُ الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهلِ الدنيا إلا ومَلَكُ الموتِ يقومُ على بابه كُلَّ يوم سبعَ مَرَّاتٍ. ينظر هل فيه أحد أُمِرَ به أن يَتوفَّاه. رواه ابنُ أبي حاتم. وقولُه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يومَ مَعادكم وقيامِكم من قُبُوركم لجزائكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن حال المشركين يومَ القيامة، وقالهم حين عاينوا البعث، وقامُوا بين يدَي الله حقِيرين ذَليلين، ناكِسي رُؤوسهم، أي: من الحياء والخَجلِ، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، أي: نحنُ الآنَ نسمَعُ قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وكذلك يَعُودون على أنفسهم بالملامة إذا دَخلُوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدار الدنيا، ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، أي: قد أيقنَّا وتحققنا أن وعدَك حَقٌّ ولقاءكَ حقٌّ، وقد عَلِم الربُّ تعالى منهم أنه ولو أعادَهُم إلى الدارِ الدنيا لكانوا كما كانُوا فيها كفاراً يُكذِّبون آياتِ الله ويُخالِفُون رُسُله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩]. وقال هاهنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، أي: من الصِّنفين، قد ذَرأتهم للنار، لا مَحيدَ لهم عنها ولا مَحيصَ لهم منها، نعوذُ بالله وكلماتِه التامَّة من ذلك. ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، أي: يُقَال لأهلِ النارِ على سَبِيل التَّقريع والتَّوبيخ: ذوقوا هذا العذابَ بسببِ تكذيبكم به، واستبعادكم وُقُوعَه، وتَناسيكم له، إذ عاملتُموه مُعاملة من هو ناسٍ له، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: سَنُعامِلُكم معاملةَ الناسي، لأنه تعالى لا ينسَى شيئاً ولا يَضِلّ عنه شيءٌ، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بِسَبَبِ كُفرِكم وتَكذِيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٣٠].

---

= عنده إلى «عمر» لذا قال لم أجده، وهو متروك متهم كما تقدم، والحديث منكر، بل موضوع، والحمل فيه على عمرو بن شمر. جاء في «الميزان» ٦٣٨٤: قال يحيىٰ: ليس بشيء، وقال الجوزجاني: زائغ كذاب. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي والدارقطني: متروك. وقال سليمان الشاذكوني: كان يضع على الروافض.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي: إنما يُصدِّق بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾، أي: استمَعُوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: عن اتِّباعها والانقياد لها، كما يفعَلُه الجَهَلة من الكَفَرة الفَجَرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، يعني بذلك قِيامَ الليل، وتركَ النوم والاضطجاع على الفُرُش الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾، يعني بذلك قيامَ الليل. وعن أنس، وعكرمةَ، ومحمد بن المنكدر، وأبي حازم، وقتادة: هو الصلاةُ بين العشاءين. وعن أنسٍ أيضاً: هو انتظار صلاة العَتَمةِ. رواه ابن جرير بإسنادٍ جَيِّد. وقال الضحَّاكُ: هو صلاةُ العشاء في جَماعة، وصَلاةَ الغداة في جَماعةٍ. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: خوفاً من وَبِيل عِقَابه، وطمعاً في جزيل ثَوابه. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فيجمَعُون بين فعل القُرُبات اللازمة والمتعدِّية، ومُقدَّم هؤلاء وسيِّدهم وفخرهُم في الدنيا والآخرة رسولُ الله ـ ﷺ ـ كما قال عبد الله بن رَوَاحةَ رضي الله عنه:

وَفِـينَـا رَسُـولُ اللهِ يَـتْـلُـو كِـتَـابَـهُ ... إِذَا انْـشَـقَّ مَـعْـرُوفٌ مِـنَ الـصُّـبْـحِ سَـاطِـعُ
أَرَانَـا الـهُـدَى بَـعْـدَ الـعَـمَـى، فَـقُـلُـوبُـنَـا ... بِـهِ مُـوقِـنَـاتٌ أَنَّ مَـا قَـالَ وَاقِـعُ
يَـبِـيـتُ يُـجَـافِـي جَـنْـبَـهُ عَـنْ فِـرَاشِـهِ ... إِذَا اسْـتَـثْـقَـلَـتْ بِـالْـمُـشْـرِكِـيـنَ الـمَـضَـاجِـعُ

[٥٢٧٥] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا روحٌ وعفانُ قالا: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمَة، أخبرنا عطاءُ بنُ السائب، عن مُرّة الهَمْدَانيّ، عن ابن مَسعُودٍ، عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «عَجِب رَبُّنا من رَجُلين: رجلٍ ثار من وِطَائِه ولِحَافِهِ، من بَين حِبِّهِ وأهله إلى صَلاَتِه، فيقول ربُّنا: أيَا ملائكتي، انظُروا إلى عَبدِي، ثَارَ من فِرَاشِهِ ووطائِهِ، ومن بين حِبِّه وأهلِهِ إلى صَلاَتِهِ رغبةً فيما عندي، وشَفقَةً مما عندي. ورَجُل غزا في سبيل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ فانهزَمُوا، فعلم ما عليه من الفرَارِ، وما له في الرجوع، فَرجَع حتى أُهرِيقَ دمُه، رغبةً فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أُهرِيقَ دَمُه»[1]. وهكذا رواهُ أبو داودَ في «الجهاد» عن موسى بن إسماعيل عن حَمَّاد بن سَلَمة بِنَحوِه.

[٥٢٧٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمر، عن عاصم بن أبي النَّجُودِ، عن أبي وائلٍ، عن معاذ بن جَبَلٍ قال: كنتُ مع النبيِّ ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ، فأصبحتُ يوماً قَرِيباً منه، ونحن نَسِيرُ، فقلت: يا نبيَّ الله، أخبرني بعمل يُدخِلني الجنة ويُباعدني من النار. قال: لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسير على مَن يَسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تشركُ به شيئاً، وتُقِيمُ الصلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضَانَ، وتحجُ البيتَ. ثم قال: ألا أدلُّكَ على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفِىءُ الخَطِيئةَ، وصلاةُ الرجلِ في جَوف الليل. ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، حتى بَلَغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: ألا أخبرُكَ برأس الأمر وعَمُودِهِ وذِرْوَةِ

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٢٥٣٦ وأحمد ١/٤١٦ وابن حبان ٢٥٥٧ وصححه الحاكم ٢/ ١١٢، ووافقه الذهبي، وهو حسن، وحماد سمع من عطاء قبل اختلاطه، وفي الباب أحاديث.

سَنَامه؟ فقلتُ: بَلَى، يا رسولَ الله. فقال: رأس الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاةُ، وذروةُ سَنَامِهِ الجهَادُ في سبيل الله. ثم قال: ألا أُخبِرُك بملاك ذلك كلِّه؟ فقلت: بَلَى، يا نبي الله، فأخذ بِلِسَانِه ثم قال: كُفَّ عليك هذا. فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخَذُون بما نَتَكلَّم به؟ فقال: ثكلتك أُمُّكَ يا مُعاذُ، وهَل يَكُبُّ النَاسَ في النار على وُجُوهِهم - أو قال: على مَنَاخِرِهم - إلا حصائدُ ألسِنَتِهِم[(١)]. ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سُنَنِهم، من طرق عن مَعمر، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٥٢٧٧] وقد رَواه ابنُ جَرِيرٍ من حديث شُعبَةَ، عن الحكم قال: سَمِعتُ عروة بن الزبير يحدث عن معاذ بن جبل: أن رسول الله - ﷺ - قال له: ألا أَدُلُّكَ على أبواب الخير: الصوم جُنَّةٌ، والصدقةُ تُكفِّر الخطيئةَ، وقيامُ العبدِ في جَوفِ الليل، وتَلا هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[(٢)]. وَرَواه أيضاً من حديثِ الثَوري، عن مَنصُورِ بنِ المُعتَمِرِ، عن الحكم، عن مَيمُونِ بن أبي شَبيب، عن معاذ عن النبي - ﷺ - بنحوه. ومن حديث الأعمش، عن حَبيب بن أبي ثابت والحكمِ، عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ مرفوعاً بنحوه.

[٥٢٧٨] ومن حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن شَهرٍ، عن معاذ بن جبل، عن النبي - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، قال: «قيامُ العبدِ من اللَّيلِ»[(٣)].

[٥٢٧٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان الواسطي، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا فِطْر ابن خليفَةَ، عن حبيب بن أبي ثابت والحكم وحَكِيم بن جُبَير، عن ميمون بن أبي شَبِيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي - ﷺ - في غزوة تَبُوكَ فقال: إن شئت أنبأتك بأبواب الخير: الصومُ جُنَّةٌ، والصدقة تُطفِىء الخطيئة، وقيام الرجل في جَوفِ الليل، ثم تلا رسولُ الله - ﷺ -: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[(٤)].

[٥٢٨٠] ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بن سَعِيد، حدثنا عَلِي بن مُسهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حَوشَبٍ، عن أسماءَ بنت يَزيدَ قالت: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا جَمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يُسمِعُ الخلائق: سَيَعلم أهلُ الجمع اليومَ مَن أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: لِيقُم الذين كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾... الآية، فيقومون وَهُم قليل»[(٥)].

[٥٢٨١] وقال البَزّار: حدثنا عبدُ الله بن شَبيب، حدثنا الوليد بنُ عطاء بن الأغرِّ، حدثنا عبد الحميد ابن سُلَيمان، حدثني مُصعَب، عن زيدِ بن أسلَمَ، عن أبيه قال: قال بلالٌ لما نَزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، الآية. كنا نجلِسُ في المجلس، وناسٌ من أصحاب رسولِ الله - ﷺ - يُصَلُّون بعد المغرب

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٦١٦ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٩٢ وابن ماجه ٣٩٧٣ وأحمد ٥/ ٢٣١ وقال الترمذي حسن صحيح. قلت: أبو وائل عن معاذ منقطع، ووصله أحمد ٥/ ٢٣٥ - ٢٤٥ - ٢٤٨ من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ، وهذا إسناد حسن في الشواهد، وله طرق.

(٢) حسن. أخرجه الطبري ٢٨٢٣٧ وهو منقطع بين عروة ومعاذ، لكن له طرق.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٢٤٠ وإسناده ضعيف لانقطاعه، وهو بهذا اللفظ ضعيف، والصواب ما قبله.

(٤) حسن. رجاله ثقات، لكن ميمون لم يثبت سماعه من معاذ، وللحديث طرق يحسن بها، وأخرجه الطبري ٢٨٢٣٨ و٢٨٢٣٩ من طرق عن ميمون به.

(٥) تقدم في سورة النور: ٣٧.

إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾(١). ثم قال: لا نعلم روى أسلم عن بلالٍ سواه، وليس له طريقٌ عن بلال غير هذه الطريق.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: فلا يعلَمُ أحد عظمة ما أَخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يَطَّلع على مثلها أحد، لَمّا أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثوابِ جَزاءً وفاقاً؛ فإن الجَزاء من جِنْسِ العَمَل. قال الحسن البصريّ: أخفى قوم العمل فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطُر على قلب بَشرٍ. رواه ابن أبي حاتم.

[٥٢٨٢] قال البخاريُّ: قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾... الآية. حَدَثنا علي ابن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رَأَت ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلْب بَشَرٍ». قال أبو هُرَيرَةَ: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قال: وحَدَّثنا سفيانُ، حدثنا أبو الزِّنادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرَة قال: قال الله مِثْلَه، قيل لسفيان: روايةً؟ قال: فأيُّ شيء؟(٢). قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح: قرأ أبو هُريرَةَ: «قرَّاتِ أعين». ورواهُ مُسلِمٌ والترمذِيُّ من حديث سفيان بن عُيَينة، به. وقال الترمذي: «حَسَن صحيح».

[٥٢٨٣] ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا أبو أُسامَةَ، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحينَ مالا عينٌ رأت، ولا أذن سَمِعت ولا خَطَر على قلب بشر، ذُخراً مِنْ بَلهِ ما أُطْلِعتُم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾(٣). انفرد به البُخاريُّ من هذا الوَجْهِ.

[٥٢٨٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن هَمّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرَةَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله تعالى قال: أعددتُ لعبادِي الصالِحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ»(٤). أخرجاه في الصحيحين من رواية عبد الرزاقِ. ورواه الترمذي في التفسير، وابنُ جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عَمْروٍ، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ بمثله. ثم قال الترمذي: «هذا حديث حَسَنٌ صحيح».

[٥٢٨٥] وقال حَمّاد بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أبي رافعٍ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال حَمّاد: أحسبه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن يَدخُل الجنّةَ ينعَم لا يَيأَسُ، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنى شبابه، في الجَنّة ما لا عينٌ رَأَت ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ»(٥). رواه مُسلمٌ من حَديثِ حَمّادِ بن سَلَمَة به.

[٥٢٨٦] وقال الإِمام أحمدُ: حدثنا هارونُ، حدثنا ابنُ وهبٍ، حدثني أبو صَخر، أَنَّ أبا حازم حَدَّثه

---

(١) أخرجه البزار ٢٢٥٠ «كشف» وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٩٠: رواه البزار عن شيخه، وهو ضعيف اهـ والمتن غريب، والصحيح ما تقدم وأن المراد قيام الليل.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٩ ومسلم ٢٨٢٤ والترمذي ٣١٩٧ وابن حبان ٣٦٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٠ ومسلم ٢٨٢٤ وابن ماجه ٤٣٢٨ وأحمد ٢/ ٤٦٦.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤٩٨ وأحمد ٢/ ٣١٣ ولم أره في «صحيح مسلم» من رواية عبد الرزاق؛ وأخرجه أحمد ٢/ ٣١٣ والطبري ٢٨٢٥٣ من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة به.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٣٨٣٦ وأحمد ٢/ ٣٦٩ و٤٠٧ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٩٧.

قال: سَمِعتُ سهل بن سَعد الساعِدِيَّ ـ رضي الله عنه ـ يقول: شهدت من رسول الله ـ ﷺ ـ مَجلِساً وصفَ فيه الجنةَ، حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سَمِعت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾[١]. وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارونَ بن مَعرُوفٍ، وهارونَ بن سعيدٍ، كلاهُما عن ابن وَهب، به.

[٥٢٨٧] وقال ابنُ جَرير: حدثني العباسُ بنُ أبي طالب، حدثنا مُعَلّى بنُ أَسَدٍ، حدثنا سَلاّم بن أبي مُطيع، عن قتادةَ، عن عُقبَةَ بن عبد الغافِر، عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ يَروِي عن رَبّه ـ عَزَّ وَجلَّ ـ قال: «أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلب بَشرٍ»[٢]. لم يخرجوه.

[٥٢٨٨] وقال مسلم أيضاً في صحيحه: حدثنا ابنُ أبي عُمَرَ وغيره، حدثنا سفيانُ، حدثنا مُطَرّفُ بن طَرِيفٍ وعبدُ الملك بنُ سعيدٍ، سَمِعَا الشعبيَّ يخبرُ عن المغيرة بن شُعبَةَ قال: سَمِعتُه على المنبر ـ يرفَعُه إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: «سَأَل موسى ـ عليه السلام ـ ربه ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما أدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخلِ الجنةَ، فيقول: أيْ رب، كيفَ وقد نزَل الناس منازِلهم، وأخذوا أخَذَاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لَه مثل مُلْك مَلِكٍ من مُلُوك الدنيا؟ فيقول: رَضيتُ ربِّ. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رَضِيت ربِّي. فيقول: هذا لك وعشرةُ أمثالِه، ولك ما اشتهت نفسُك ولَذّت عينُك. فيقول: رضيتُ ربِّ قال: رَبِّ، فأعلاهُم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غَرَسْتُ كرامتهم بِيَدِي، وخَتَمتُ عليها، فلم تَرَ عَينٌ، ولم تسمَعَ أُذُنٌ، ولم يَخطُر على قلبِ بَشَرٍ. قال: ومصداقُه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[٣]. ورواه الترمذي عن ابن أبي عُمَر، به وقال: «حسن صحيحٌ». قال: «وَرَواه بعضُهم عن الشعبي، عن المغيرة ولم يرفعه، والمرفوع أصح».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفرُ بنُ مُنير المدائني، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد، حدثنا زياد بن خَيْثَمَة، عن محمد بن جُحَادة، عن عامر بن عبد الواحد قال: بلغني أنَّ الرجلَ من أهل الجنّةِ يمكثُ في مكانه سبعينَ سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأةٍ أحسَنَ مما كان فيه، فتقول له: قد أَنَى لك أن يكون لنا منك نصيبٌ. فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من المَزِيد. فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفتُ فإذا هو بامرأة أحسَنَ مما كان فيه، فتقول له: قد أَنَى لك أن يكون لَنا منك نصيبٌ. فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا الذي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. وقال ابن لَهيعة: حدثني عطاءُ بن دينار، عن سَعيد بن جُبَير قال: تدخُل عليهم الملائكة في مقدار كلِّ يوم من أيام الدنيا ثلاثَ مَرّاتٍ، معهم التحَف من الله من جناتِ عدنٍ ما ليسَ في جنّاتِهم، وذلك قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ويُخبرون أنَّ الله عنهُم راضٍ.

وقال ابن جرير: حدثنا سهلُ بن مُوسَى الرازيُّ، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صَفوان بن عمرو، عن أبي اليمانِ الهَوْزَنِيِّ ـ أو غيره ـ قال: الجنةُ مئةُ درجةٍ، أوّلهادَرَجةُ فِضّةٍ، وأرضها فضةٌ، ومساكنها فضة، وآنِيَتُها

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٢٥ وأحمد ٥/ ٣٣٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٢٥٦ وأبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٢٦٢ وإسناده غير قوي، سلاّم ثقة لكن في روايته عن قتادة ضعف، ومع ذلك للحديث شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٩، والترمذي ٣١٩٨ وابن حبان ٦٢١٦.

فِضَّةٌ وتُرابُها المسكُ. والثانية ذهبٌ، وأرضُها ذهبٌ، ومساكنها ذَهَبٌ، آنيتها ذهب وتُرَابُها المسكُ. والثالثة لؤلؤ، وأرضها لؤلؤ، ومساكِنُها اللؤلؤ، وآنيتُها اللؤلؤ، وترابها المسكُ، وسبع وتسعون بعد ذلك، ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلبِ بَشرٍ. ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[٥٢٨٩] وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا معتَمِرُ بن سليمان، عن الحكم بن أبانَ، عن الغطريفِ، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ عن الرُّوح الأمين قال: «يُؤتَى بحسنات العبد وسيئاته، فَيَنقُصُ بعضُها من بعضٍ، فإن بَقِيت حسنةٌ واحدةٌ وَسَّعَ الله له في الجَنَّةِ، قال: فدخلتُ على يزداد فَحدَّث بمثل هذا الحديث، قال: فقلت: فإن ذهبت الحَسَنَة؟ قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾. قلت قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، قال: العبد يعمل سراً أسرَّه إلى الله، لم يُعلم به الناسَ، فَأسَرّ له يومَ القيامةِ قُرَّة أعينٍ»[1].

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يُساوي في حُكمه يوم القيامة مَن كان مُؤمناً بآياته مُتَّبعاً لرُسُلِه، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرُسُلِ الله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾، أي: عند الله يومَ القيامةِ. وقد ذَكَر عطاءُ بن يَسَار والسدِّي وغيرهما: أنها نَزَلت في عَليِّ بن أبي طالب، وعُقبَةَ بن أبي مُعَيطٍ. ولهذا فَصَّل حُكمهم فقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: صَدَقَت قلوبُهم بآيات الله وعَمِلُوا بمقتضاها، وهي الصالحات، ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، أي: التي فيها المساكنُ والدُّورُ والغُرَف العالية، ﴿نُزُلًۢا﴾، أي: ضيافةً وكرامةً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾، أي: خَرَجوا عن الطاعة، ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، كقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]. قال الفُضَيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثَّقة، وإن الأرجُلَ لمقيَّدة، وإنَّ اللهبَ ليَرفَعُهم، والملائكة تقمَعُهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٨٢٥٥، وإسناده ضعيف، الحكم غير قوي، والغطريف، وهو: أبو هارون اليماني. ذكره البخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم من غير جرح ولا تعديل، ووثقه ابن حبان على قاعدته في توثيق المجاهيل. فإنه روى عنه الحكم بن أبان فحسب، فهو مجهول، ويزداد ويقال: أزداد، قال أبو حاتم: مجهول، والله أعلم.

ٱلْأَكْبَرِ﴾، قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مَصَائبَ الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه. ورُوي مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادةَ، وعبد الكريم الجَزَري، وخُصَيف، وقال ابن عباس ـ في رواية عنه ـ: يعني به إقامة الحدُود عليهم. وقال البَرَاء بن عازب، ومجاهدٌ، وأبو عُبَيدةَ: يعني به عذابَ القبر.

وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص وأبي عُبَيدة، عن عبد الله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، قال: سِنُون أصابتهُم. وقال عبد الله بنُ الإمام أحمدَ: حدثني عبَيد الله بن عُمَر القَوَارِيرِيّ، حدثنا يحيى بنُ سَعِيدٍ، عن شُعبَةَ، عن قتادة، عن عَروةَ، عن الحسن العُرَني، عن يحيى بن الجَزّار، عن ابن أبي ليلى، عن أُبيِّ بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة واللزام[1]. ورواه مسلم من حديث شعبة، به موقوفاً نحوه. وعند البخاري عن ابن مسعود، نحوه. وقال عبد الله بن مسعود أيضاً، في رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسَّبي يوم بَدْرٍ. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم. قال السدِّيُّ وغيره: لم يبق بيتٌ بمكةَ إلا دَخله الحزنُ على قَتِيلٍ له أو أَسيرٍ، فَأُصِيبُوا أو غرِمُوا، ومنهم من جُمعَ له الأمران. وقولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، أي: لا أظلم ممن ذَكَّرَه الله بآياته وبيَّنها له ووضَّحها، ثم بعد ذلك تركها وجَحَدها وأعرضَ عنها وتَناساها، كأنه لا يَعرفُها. قال قتادة ـ رَحِمَه الله ـ إياكم والإعراضَ عن ذكرِ الله، فإنَّ من أعرضَ عن ذكرِهِ فقد اغترَّ أكبرَ الغِرَّةِ، وأَعْوَزَ أشدَّ العَوْزَةِ، وعَظُمَ من أعظم الذُّنُوبِ. ولهذا قالَ متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، أي: سأنتقمُ ممن فَعَل ذلك أشد الانتقام.

[٥٢٩٠] وقال ابنُ جرير: حَدَّثني عِمرانُ بن بَكّار الكَلاَعِيُّ، حدثنا محمد بن المُبَارك، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، حدثنا عبد العزيز بن عُبَيد الله، عن عُبَادة بن نُسَيٍّ، عن جُنَادة بن أبي أُميَّةَ، عن مُعَاذ ابن جَبَل قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: ثلاثٌ من فَعَلهُنَّ فقد أجرَمَ، من عَقَد لواءً في غير حَقٍّ، أو عَق والِدَيه، أو مَشَى مع ظالم يَنصرُه، فقد أجرَمَ، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[2]. ورَواه ابنُ أبي حاتم، من حديثِ إسماعيل بن عَيَّاشٍ، به. وهذا حَديثٌ غَريبٌ جِداً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبدِه ورسُوله موسى ـ عليه السلام ـ أنه آتاه الكتاب وهو التوراة. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، قال قتادة: يعني به ليلة الإسراءِ.

[٥٢٩١] ثم روى عن أبي العاليةِ الرِّياحِيِّ قال: حَدَّثني ابنُ عَمِّ نَبيِّكم ـ يعني ابنَ عباس ـ قال: قال

(١) موقوف صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ١٢٨ وأصله عند مسلم.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٨٢٩٨، والطبراني ٢٠/ ٦١، وفيه عبد العزيز بن عبيد الله الصهيبي قال الذهبي في الميزان ٥١١٥: واهٍ، ضعفه أبو حاتم وابن معين وابن المديني. ما روىٰ عنه سوى إسماعيل بن عياش اهـ، وضعفه الهيثمي في المجمع ١١٢٦٩ بعبد العزيز.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أُريتُ ليلةَ أُسرِيَ بي موسى بنُ عمران رجلاً آدمَ طُوَالاً جَعْداً، كأنه من رِجَالِ شَنُوءَة. ورأيتُ عيسى رجلاً مَرْبُوعَ الخَلْق، إلى الحُمْرَةِ والبياض، سَبْطَ الرأسه. ورأيت مالكاً خَازِنَ النار والدجال»، في آيات أراهُنَّ الله إيَّاه، ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أنه قد رأى مُوسَى، وَلَقِي مُوسَى ليلةَ أُسري به[1].

[٥٢٩٢] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا الحسن بن علي الحُلْواني، حدثنا رَوحُ بن عُبادَةَ، حدثنا سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادَةَ، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، قال: «جُعِل موسى هُدَى لبني إسرائيلَ»[2]، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، قال: من لقاء موسى ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، أي: الكتابَ الذي آتيناه ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: لما كانوا صابرينَ على أوامِرِ الله وترك نواهيه وزواجره، وتصديق رسله، واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمةٌ يهدُون إلى الحق بأمر الله، ويدعُون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهونَ عن المنكر. ثم لما بَدَّلُوا وحرَّفوا وأوَّلوا سُلبوا ذلك المقامَ، وصارت قلوبُهم قاسيةً، يُحرِّفون الكَلِم عن مَوَاضِعه، فلا عَمَلَ صالحاً، ولا اعتقادَ صَحيحاً. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. قال قتادة وسفيان: «لما صَبَروا عن الدنيا». وكذلك قال الحسنُ بن صالح. قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكونَ إماماً يُقتدَى به حتى يَتَجافَى عن الدنيا. وقال وكيع: قال سفيان: لا بد للدِّين من العمل، كما لا بُدَّ للجَسَد من الخُبزِ. وقال ابنُ بنت الشافعي: قَرَأ أبي على عمي، أو عَمِّي على أبي: سُئِل سفيان عن قول علي ـ رضي الله عنه ـ: الصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صَارُوا رؤوساً. قال بعضُ العلماء: بالصبر واليقين تُنَالُ الإمامةُ في الدين. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٦ ـ ١٧]، كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾، أي: من الاعتقاداتِ والأعمالِ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨٢٩٩ ورجاله ثقات، لكن فيه عنعنة قتادة، ومع ذلك فلأصله شواهد.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ١٢٧٥٨، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٧٠: رجاله رجال الصحيح! كذا قال رحمه الله. مع أن شيخ الطبراني، وهو محمد بن عثمان بن أبي شيبة ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٩٣٤ فقال: وثقه صالح جزرة، وقال ابن عدي، لم أر له حديثاً منكراً، وأما عبد الله بن أحمد، فقال: كذاب. وقال ابن خِراش: كان يضع الحديث. وقال مُطَيّن: هو عصا موسى، تلقف ما يأفكون. وقال ابن عقدة: سمعت عبد الله بن أسامة الكلبي، وإبراهيم بن إسحق الصواف، وداود بن يحيى يقولون: محمد بن عثمان، كذاب اهـ باختصار، والأشبه في هذا، الوقف فيه على ابن عباس، ولا يصح، فالراجح أن الهدى هو التوراة.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، أي: أولم يُبيِّن لهؤلاء المكذِّبين بالرسُل ما أهلَك الله قبلَهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قَوِيم السبُلِ، فلم يبقَ منهم باقيةٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾، ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾، أي: وهؤلاء المكذِّبون يمشُون في مساكن أولئك المكذِّبين، فلا يَرَون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمُرها، ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥ ـ ٤٦]. ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: إنَّ في ذهاب أولئك القوم ودَمارهم وما حَل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاةِ من آمن بهم، لآيات وعِبَراً ومواعِظَ، ودلالات ظاهرة. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟.

وقولُه تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، يبين تعالى لُطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إمَّا من السماء أو من السَّيح، وهو: ما تحمِلُه الأنهار وينحدِرُ من الجبال، إلى الأراضي المحتاجَة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، وهي: التي لا نباتَ فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٨]، أي: يَبَساً لا تنبتُ شيئاً، وليس المرادُ من قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، أرضَ مصرَ فقط، بل هي بعضُ المقصود، وَإنْ مثَّل بها كثيرٌ من المفسرين فليست هي المقصودة وحدَها، ولكنها مُرادةٌ قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرضٌ رِخوَةٌ غَليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدَّمت أبنيتها، فَيَسُوق الله إليها النيلَ بما يتحمَّلُه من الزيادةِ الحاصلةِ من أمطار بلاد الحبشَةِ، وفيه طينٌ أحمَرُ، فَيغشَى أرضَ مصرَ، وهي أرضٌ سَبِخَةٌ[1] مُرمِلَة محتَاجةٌ إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً، لينبُتَ الزرعُ فيه، فَيستغلون كلَّ سنةٍ على ماءٍ جديدٍ ممطُورٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديدٍ من غير أرضهم، فسبحانَ الحكيم الكريم المنَّان المحمود أبداً.

قال ابنُ لَهيعة، عن قيس بن حجاج، عمَّن حَدَّثه قال: لما فُتِحَت مصرُ، أتى أهلُها عَمرو بن العاص، وكان أميراً بها، حين دخل بَئُونةُ من أشهُر العَجَم، فقالوا: أيها الأمير، إنَّ لِنيلِنَا سُنَّة لا يجري إلاَّ بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خَلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بِكْرٍ من بين أبَويها، فأرضينا أَبَويها، وجعلنا عليها من الحُلِيِّ والثياب أفضل ما يكُون، ثم ألقيناها في هذا النيلِ. فقال لهم عَمرو: إنَّ هذا ما لا يكونُ في الإِسلام، إنَّ الإِسلام يهدِمُ ما كان قبله. فأقاموا بَئُونةَ والنيلُ لا يجري، حتى هَمُّوا بالجلاء، فكتب عَمرو إلى عُمرَ بن الخطاب بذلك، فكتب إليه، إنك قد أصبتَ بالذي فعلتَ، وقد بعثت إليك بطاقةً داخل كتابي هذا، فَألْقِها في النيل. فلما قَدِم كتابُه أخذ عَمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: «من عبد الله عُمَر أمير المؤمنين إلى نيلِ أهل مصرَ، أما بعد فإن كنتَ إنما تجري من قبلِكَ فلا تَجرِ، وإن كان الله الواحد القهَّار هو الذي يُجريك فنسأل الله أن يُجريَك». قال: فألقى البطاقةَ في النيل، فأصبحُوا يوم السبت وقد أجرى الله النيلَ ستةَ عشَرَ ذراعاً في ليلةٍ واحدةٍ، وقَد قطَع الله تلك السُّنَّة عن أهلِ مصرَ إلى اليوم[2]. رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السنة» له. ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا

---

(١) السبخة: أرض ذات نزّ وملح.

(٢) خبر واهٍ، ابن لهيعة ضعيف، وفي الإسناد من لم يسمّ، والخبر شبه موضوع.

﴿٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]، ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن رَجُلٍ، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، قال: هي التي لا تُمطِرَ إلا مطراً لا يُغني عنها شيئاً، إلا ما يأتيها من السُّيُولِ. وعن ابن عباس، ومجاهدٍ: هي أرض باليَمَن. وقال الحسن رحمه الله: هي قُرىً فيما بين اليمن والشام. وقال عكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدِّي، وابن زيد: الأرض الجُرز: التي لا نبات فيها وهي مُغبَرة. قلتُ: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٣٥﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٢٩ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكُفَّار وقوعَ بأس الله بهم وحُلُولَ غَضبه ونِقْمَتِه عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾، أي: متى تُنصَرُ علينا يا محمَّد كما تزعُم أن لك وقتاً تُدال علينا، ويُنتَقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابَك إلا مُختفينَ خائِفين قليلين ذَليلين! قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾، أي: إذا حلّ بكم بأس الله وسَخطه وغَضبُه في الدنيا وفي الأخرى، ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥]. ومن زَعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكّة فقد أبعدَ النُّجعَةَ، وأخطأ فأفحشَ، فإن يوم الفتحِ قد قبل رسولُ الله ـ ﷺ ـ إسلام الطُّلَقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المرادُ فتحَ مكة لما قَبل إسلامهم، لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٢٩﴾، وإنما المراد الفتحُ الذي هو القضاءُ والفصلُ، كقوله تعالى: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٨﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبأ: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٥﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾، أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبَلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك، كقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وانتظر فإن الله سَيُنجزُ لك ما وَعدَك، وسَينصُرك على من خالَفك، إنه لا يُخلفُ الميعادَ. وقولُه: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، أي: أنت مُنتظِرٌ وهم مُنتظِرون، ويتربَّصون بكم الدوائر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: ٣٠]، وسترى أنت عاقِبَة صَبرِكَ عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نُصرَتك وتأييدك، وَسَيجِدُون غِبَّ ما ينتظرونه فيكَ وفي أصحابِكَ، ومن وَبيل عقابِ الله لهم، وحُلُول عَذابِه بهم. والله أعلم.

## آخر تفسير سورة السجدة، ولله الحمد والمنة

# سورة الأحزاب

ترتيبها ٣٣ — آياتها ٥٤

## وهي مدنيّة

[٥٢٩٣] قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا خَلَف بن هشام، حدثنا حمّاد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زرّ قال: قال لي أُبيُّ بن كعب: كأيِّن تقرأ سورةَ الأحزاب؟ أو كأيِّن تعدُّها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قَط! لقد رأيتُها وإنها لتُعادِل سورةَ البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخُ والشيخةُ إذا زَنَيا فارجُموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم»[١]. ورواه النسائي من وجه آخر، عن عَصام ـ وهو ابن أبي النَّجود، وهو ابن بَهْدَلَة ـ به. وهذا إسناد حسن، وهذا يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نُسِخ لفظُه وحكمُهُ أيضاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

هذا تنبيهٌ بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبدَه ورسوله فَلأن يأتمر من دُونَه بذلك بطريق الأولى والأحرى. وقد قال طَلْقُ بن حَبيب: التقوى أن تعمَلَ بطاعة الله، على نُورٍ من الله، ترجُو ثوابَ الله، وأن تتركَ معصية الله، على نُورٍ من الله، مخافةَ عذابِ الله. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أي: لا تَسمَع منهم ولا تَستشِرهُم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: فهو أحقُّ أن تتّبع أوامرَه وتُطيعه، فإنه عليمٌ بعواقب الأمور، حَكِيم في أقواله وأفعاله. ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: من قرآن وسنة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، أي: فلا تخفى عليه خافيةٌ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، أي: وكفى به وكيلاً لمن توكّل عليه وأناب إليه.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى مُوطِّئاً قبلَ المقصود المعنوي أمراً حِسِّياً معروفاً، وهو أنه كما لا يكونُ للشخص الواحد

(١) حسن. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زيادات المسند» ٥/١٣٢ والنسائي في «الكبرى» ٧١٥٠ وابن حبان ٤٤٢٩ وفي إسناده عاصم بن بهدلة، وهو صدوق له أوهام، وحديثه حسن.

قلبان في جَوفه، ولا تَصِير زوجتُه التي يُظاهِر منها بقوله: أنت عَلَيَّ كظهر أمي، أُمّاً له، كذلك لا يَصير الدَعِيّ ولداً للرجل إذا تبنّاه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾، هذا هو المقصودُ بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيدِ بن حارثةَ مولى النبي ـ ﷺ ـ كان النبي ـ ﷺ ـ قد تَبنّاه قبلَ النُبوّة، وكان يقال له: «زيدُ بن محمد»، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾، كما قال تعالى في أثناء السورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾. وقال هاهنا: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾، يعني تَبنّيكم له قولٌ لا يقتضِي أن يكونَ ابناً حَقِيقياً؛ فإنه مخلوق من صُلْب رَجل آخَرَ، فما يمكن أن يكونَ له أبوان، كما لا يمكن أن يكونَ للرجل الواحِد قلبان. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، قال سعيد بن جُبَير: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، أي: العدلَ. وقال قتادةُ: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، أي: الصراط المستقيم.

وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له «ذو القَلبين»، وأنه كان يزعم أن له قَلْبَين، كل منهما بعقلٍ وافرٍ. فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليه. هكذا رَوَى العَوفي عن ابن عباس. وقاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادةُ، واختاره ابن جرير.

[٥٢٩٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن، حدثنا زُهَير، عن قابوسَ ـ يعني ابن أبي ظَبيان ـ أن أباه حَدَّثه قال: قلت لابن عباس: أرأيت قولَ الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾، ما عَنى بذلك؟ قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً يُصَلّي، فخطَر خَطْرَة، فقال المنافقون الذين يُصَلُّون معه: ألا تَرَون له قَلْبَين، قلباً معكم وقلباً معهُم؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾[١]. وهكذا رواه التِّرمِذيُّ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارِميِّ، عن صاعِدِ الحَرّاني ـ وعن عبد بن حُمَيد، عن أحمد بن يُونُسَ ـ كلاهما عن زُهير، وهو ابن معاوية، به ثم قال: «وهذا حديث حسن». وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث زُهَير، به. وقال عبد الرزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن الزهريّ، في قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾، قال: بلغنا أنَّ ذلك كان في زيدِ بن حارثةَ، ضُرِبَ له مثلٌ، يقول: ليس ابنُ رجل آخرَ ابنَكَ. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابنُ زيد: إنها نزلت في زيدِ بن حارثة. وهذا يوافِقُ ما قدّمناه من التفسير. والله أعلم. وقولُه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾، هذا أمرٌ ناسخٌ لما كان في ابتداءِ الإسلام من جوازِ ادِّعاء الأبناء الأجانِب، وهم الأدعياءُ، فأمر تبارك وتعالى بِرَدِّ نَسَبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأنَّ هذا هو العدلُ والقِسطُ والبر.

[٥٢٩٥] قال البخاري رحمه الله: حدثنا مُعَلّى بنُ أسَدٍ، حدثنا عبد العزيز بنُ المختار، حدثنا موسى ابن عُقبَةَ قال: حَدَّثني سالم، عن عبد الله بن عُمَر: أن زيدَ بن حارثَةَ مولى رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما كُنّا ندعُوه إلا زيدَ بن مُحَمَّد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[٢]. وأخرجه مسلم والترمذيّ

(١) أخرجه الترمذي ٣١٩٩ وأحمد ١/١٦٨، وإسناده ضعيف، لأجل قابوس بن أبي ظبيان. جاء في «الميزان» ٦٧٨٨: كان ابن معين شديد الحط عليه، على أنه قد وثقه، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن حبان: رديء الحفظ، ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، فربما رفع المرسل، وأسند الموقوف اهـ باختصار.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٢ ومسلم ٢٤٢٥ والترمذي ٣٢٠٩ والنسائي في «التفسير» ٤١٦.

والنسائيّ، من طُرُق، عن موسى بن عُقبَةَ، به. وقد كانوا يعامِلُونَهم معاملَةَ الأبناء من كلِّ وجه، في الخُلوَةِ بالمحارِمِ وغير ذلك.

[٥٢٩٦] ولهذا قالت سهلة بنت سُهَيل امرأة أبي حذيفة: يا رسول الله، إنَّا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عَلَيَّ، وَإِنّي أجدُ في نفسِ أبي حُذَيفة من ذلك شيئاً، فقال ـ ﷺ ـ: «أَرْضِعِيه تَحرُمي عليه»... الحديث[١]. ولهذا لما نُسِخ هذا الحكم أباح تعالى زوجةَ الدَّعِيِّ، وتزوَّجَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بزينب بنت جحش مُطلَّقةِ زيد بن حارثة، وقال عز وجل: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال تبارك وتعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، احترازاً عن زوجَةِ الدّعيّ، فإنه ليس من الصلبِ، فأما الابنُ من الرضاعة فَمُنزَّل منزلةَ ابن الصلبِ شَرْعاً، بقوله ـ ﷺ ـ في الصحيحين:

[٥٢٩٧] «حَرِّموا من الرضَاعَةِ ما يحرُم من النسب»[٢].

فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نُهي عنه في هذه الآية.

[٥٢٩٨] بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي، من حديثُ سفيانَ الثوريِّ، عن سَلَمة ابن كُهَيل، عن الحَسَن العرني، عن ابنِ عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قَدِمنا على رسولِ الله ـ ﷺ ـ أُغَيْلِمَةَ بني عبد المطلب على حُمُرَاتٍ لنا من جَمْعٍ، فجعل يَلْطَخُ أفخاذَنا ويقول: «أُبَيْنِيَّ لا ترموا الجَمْرَة حتى تطلُع الشمس»[٣]. قال أبو عُبَيدٍ وغيرُه: «أُبَيْنِيَّ: تصغير بَنِيَّ». وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حَجَّة الوداع سنة عَشْرٍ، وقولُه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ في شأن زيدِ بن حارثة، وقد قُتِل في يوم مؤتة سنة ثَمانٍ.

[٥٢٩٩] وأيضاً ففي ـ الصحيح ـ لمسلم، من حديث أبي عَوَانة الوضَّاح بن عبد الله اليشكري، عن الجَعدِ أبي عثمان البَصري، عن أنسِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا بُنَيَّ»[٤]. ورواه أبو دَاودَ والترمذيُّ. وقولُه ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، أمر تعالى بردِّ أنسابِ الأدعياءِ إلى آبائهم، إن عَرَفوا، فإن لم يَعْرِفوا آباءهم فهم إخوانُهم في الدِّين ومواليهم، أي: عِوَضاً عما فاتَهم من النسب.

[٥٣٠٠] ولهذا قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومَ خرج من مكة عام عُمرة القضاء، وتبعتهم ابنةُ حمزةَ تنادي: يا عَمِّ، يا عَمِّ. فأخذها علي وقال لفاطمة: دُونَكِ ابنةَ عَمِّك فاحتَمِليها. فاختَصم فيها علي، وزيد، وجعفر في أيّهم يكفُلها، فكلٌّ أدلى بِحُجَّتِه، فقال علي: أنا أحقُّ بها وهي ابنةُ عمي. وقال زيد: ابنةُ أخِي. وقال جعفر بن أبي طالب: ابنةُ عَمِّي، وخالتها تحتي ـ يعني أسماءَ بنت عُمَيس ـ فقضى النبي ـ ﷺ ـ لخالتها، وقال: «الخالةُ بمنزلةِ الأم». وقال لعلي: «أنتَ مني، وأنا منكَ». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي». وقال لزيدٍ: «أنت أخُونا ومولانا». ففي هذا الحديثِ أحكامٌ كثيرةٌ مِن أحسَنِها أنه ـ ﷺ ـ حَكَم بالحق،

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٥٣ وأبو داود ٢٠٦١ وابن حبان ٤٢١٤ من حديث عائشة بألفاظ مختلفة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ١٩٤٠ والنسائي في «الكبرى» ٤٠٧٠ وابن ماجه ٣٠٢٥ وأحمد ١/ ٢٣٤ و٣٢٦ و٣٤٣ وإسناده حسن، رجاله ثقات.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٥١ وأبو داود ٤٩٦٤ والترمذي ٢٨٣١.

وأرضى كُلاً من المتنازعين، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»(١)، كما قال تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

[٥٣٠١] وقال ابنُ جرير: حدثني يعقوبُ بنُ إبراهيمَ، حدثنا ابن عُلَيّة، عن عُيَينة بنُ عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال أبو بكرة: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، فأنا ممن لا يُعرَفُ أبوه، وأنا من إخوانكم في الدين. قال: قال أبي: والله إني لأظنُّه لو عَلِم أن أباه كان حماراً لانتمى إليه»(٢).

[٥٣٠٢] وقد جاء في الحديث: «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلَمه إلاّ كفر»(٣). وهذا تشديدٌ وتهديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، في التبرّي من النسب المعلوم، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، أي: إذا نَسبتُم بعضَهم إلى غير أبيه في الحقيقةِ خطأً، بعد الاجتهاد واستفراغ الوُسع، فإنَّ الله قد وَضع الحرَجَ في الخطأ ورفع إثمَه، كما أرشدَ إليه في قوله آمراً عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

[٥٣٠٣] وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله ـ عز وجلّ ـ: قد فَعلتُ»(٤).

[٥٣٠٤] وفي صَحِيح البخاري، عن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا اجتهد الحاكمُ فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»(٥).

[٥٣٠٥] وفي الحديث الآخر: «إنَّ الله رَفَع عن أُمّتي الخَطأ والنسيان، وما يُكرَهُون عليه»(٦).

وقال هاهنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: وإنما الإثم على من تَعمَّد الباطل كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

[٥٣٠٦] وفي الحديث المتقدم: «ليس مِن رجلٍ ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يَعلمُه إلا كَفر»(٧). وفي القرآن المنسوخ: «فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

[٥٣٠٧] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن الزهريّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ابن عُتبَة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عُمَر أنه قال: بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان ممَّا أُنزلَ عليه آيةُ الرجم، فَرَجم رسول الله ـ ﷺ ـ ورَجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا تَرغَبُوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم» أو: «إنَّ كفراً بكم أن تَرغَبُوا عن آبائكم»، وإنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تُطروني كما

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥١ وأحمد ٤/ ٢٩٨ وابن حبان ٤٨٧٣ من حديث البراء مطوّلاً.

(٢) حسن. أخرجه الطبري ٢٨٣٣٢ بإسناد حسن. رجاله ثقات.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٠٨ ومسلم ٦١ من حديث أبي ذر.

(٤) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٨٦.

(٥) تقدم في تفسير سورة الأنبياء عند آية: ٧٩.

(٦) تقدم تخريجه، وهو غير قوي.

(٧) تقدم قبل ثلاثة أحاديث.

أُطرِيَ عيسى ابنُ مريمَ، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُهُ ورسوله». وربما قال معمرٌ: «كما أطرتِ النصارى ابنَ مريم»(١).

[٥٣٠٨] ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كُفر: الطعنُ في النَّسَبِ، والنِّياحةُ على الميت، والاستسقاءُ بالنجوم»(٢).

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

قد عَلِم الله تعالى شَفَقة رسولِه ـ ﷺ ـ على أُمّته، ونُصحَه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وَحُكمه فيهم مُقدماً على اختيارِهم لأنفسِهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

[٥٣٠٩] وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمِن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسِه ومالِه وَوَلدِه والناس أجمعين»(٣).

[٥٣١٠] وفي الصحيح أيضاً أن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله، والله لأنت أحبُّ إليّ من كلّ شيءٍ إلاّ مِن نفسي. فقال: «لا يا عُمَر، حتى أكون أحبَّ إليكَ من نفسِكَ». فقال: والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليّ مِن كلّ شيءٍ حتى من نفسي. فقال: «الآن يا عُمَر»(٤). ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

[٥٣١١] وقال البخاريُّ عند هذه الآية الكريمة: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فُلَيح: حدثنا أبي، عن هِلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَةَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «ما من مُؤمنٍ إلا وأنا أولَى الناسِ به في الدُّنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيّما مؤمن تَرَك مالاً فَليرِثه عَصَبتُه مَن كانوا، فَإِن تَرَكَ دَيناً أو ضِياعاً فَلْيأتِني فأنا مولاه»(٥). تفرد به البخاري. وَرَواه أيضاً في «الاستقراض»، وابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتم، من طُرُق، عن فُلَيح، به. ورواه الإمام أحمد، من حَديث أبي حُصَين، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ.

[٥٣١٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرزّاق، عن مَعمَرٍ، عن الزُّهريّ في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عن أبي سَلَمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبيّ ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «أنا أولَى بكلّ مؤمنٍ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٤٧ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٢) صحيح. أخرجه الحاكم ١/ ٣٨٣ وابن حبان ١٤٦٥ من حديث أبي هريرة، وفيه «شق الجيب» بدل «الاستسقاء بالنجوم» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد. وأخرجه مسلم ٦٧ وأحمد ٢/ ٣٧٧ من حديث أبي هريرة بلفظ «اثنتان في الناس هما بهم كفر» «الطعن في النسب، والنياحة على الميت». وأخرجه مسلم ٩٣٤ وابن ماجه ١٥٨١ وأحمد ٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣ وأبو يعلى ١٥٧٧ من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ «أربع في أمتي. . .» وذكر منهن «الاستسقاء بالنجوم».

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٢٤.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٣٢ من حديث عبد الله بن هشام.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٩٩ و٤٧٨١ وأحمد ٢/ ٣٥٦ والطبري ٢٨٣٣٧.

من نفسِه، فأيُّما رجلٍ ماتَ وتَرَك ديناً فإليَّ، ومَن تَرَك مالاً فلِوَرَثَتِه»(١). ورواه أبو دَاودَ، عن أحمدَ ابنِ حنبلٍ، به نحوَه.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، أي: في الحُرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوزُ الخُلوة بهنّ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتِهنّ وأخواتهن بالإجماع، وَإِن سَمّى بعضُ العلماء بناتِهنّ أخواتِ المؤمنين، كما هو منصوصُ الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارةِ لا إثباتِ الحكم. وهل يُقال لمعاوية وأمثالِه: خالُ المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء، ونصَّ الشافعي على أنه يُقَال ذلك. وهل يُقال لهنّ: أمهاتُ المؤمناتِ، فَيَدخلَ النساءُ في جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان، صَحّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصحُّ الوجهين في مذهبِ الشافعي رحمه الله. وقد رُوي عن أُبيّ بن كعب، وابن عَبّاس أنهما قرآ: «النبيُّ أولَى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتُهم وهو أبٌ لهم». ورُوِي نحوُ هذا عن معاوية، ومجاهدٍ، وعكرمَة، والحسنِ، وهو أحدُ الوجهَين في مذهبِ الشافعي. حكاه البَغَوي وغيره.

[٥٣١٣] واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا عبدُ الله بن محمد النُّفَيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يَستقبِل القبلةَ ولا يَستدبِرْها، ولا يَستطِبْ بيمينه». وكان يأمر بثلاثة أحجارٍ، وينهَى عن الرَّوثِ والرِّمة(٢). وأخرجه النسائي وابنُ ماجه، من حديثِ ابنِ عَجلان. والوجهُ الثاني: أنه لا يُقال ذلك، واحتجُّوا بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخةٌ لما كان قبلها من التوارث بالحِلْف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابنُ عباس وغيره: كان المهاجريُّ يَرِثُ الأنصاريَّ دون قَرَاباته وذَوِي رَحِمِه، للأُخُوَّة التي آخى بينهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ. وكذا قال سعيد بنُ جبَير، وغير واحد من السلف والخلف.

[٥٣١٤] وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حَدِيثاً عن الزبَير بن العوَّامَ ـ رضي الله عنه ـ فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المُصعَبِيُّ ـ من ساكني بغداد ـ عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن هشام بن عُروة، عن أبيه، عن الزُّبير بن العوَّام ـ رضي الله عنه ـ قال: أنزل الله ـ عَزّ وجلّ ـ فينا خاصَّةً معشَر قُرَيش والأنصار: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أنا ـ معشرَ قريشٍ ـ لما قَدِمنا المدينة قَدِمنا ولا أموالَ لنا، فَوَجَدْنا الأنصارَ نِعْمَ الإِخوانُ، فَوَاخيناهم ووارثناهم، فآخى أبو بكر خارجةَ بنَ زيدٍ، وآخى عُمر فلاناً، وآخى عثمانُ بن عفان رَجُلاً من بني زُرَيق، سَعد الزرَقي، ويقولُ بعضُ الناس غيره. قال الزبيرُ: وواخيتُ أنا كعبَ بن مالك، فجئتُه فابتعَلتُ فوجدتُ السلاحَ قد أثقله فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا ما وَرِثَه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينَا معشَر قريش والأنصارِ خاصة، فَرَجعنا إلى مواريثنا(٣).

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٢٩٦ وأبو داود ٣٣٤٣ وابن حبان ٣٠٦٤ من حديث جابر.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٨ والنسائي ١/ ٣٨ وابن ماجه ٣١٢ وأحمد ٢/ ٢٥٠ وابن حبان ١٤٤٠ وإسناده حسن من أجل محمد بن عجلان.

(٣) أخرجه الحاكم ٤/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥ بنحوه.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾، أي: ذَهَب الميراث، وبَقِي النصر والبرُّ والصِّلة والإِحسانُ والوصية. وقولُه تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾، أي: هذا الحكمُ، وهو أن أُولِي الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ، حكمٌ من الله مُقدَّر مكتوبٌ في الكتابِ الأوَّل، الذي لا يُبدَّل، ولا يُغيَّر. قاله مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ. وإن كان قد يُقالُ: قد شَرَع خلافَه في وقتٍ لما له في ذلك من الحكمةِ البالغةِ، وهو يعلَم أنه سينسَخُه إلى ما هو جارٍ في قَدَرِه الأزلي، وقضائه القَدَريِّ الشرعي والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أَخَذ عليهم العهدَ والميثاقَ في إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. فهذا العهد والميثاق أُخِذ عليهم بعد إرسالهم، وكذا هذا. ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولُو العَزم، وهُو من بابِ عطفِ الخاصِّ على العام، وقد صَرَّح بذكرهم نَصاً في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الطرفين والوسطَ، الفاتِحَ والخاتِمَ، ومَن بينهما على الترتيب. فهذه هي الوصية التي أَخَذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتَمِ؛ لشرفه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم رتَّبهم بحسَبِ وُجودِهم صلواتُ الله عليهم.

[٥٣١٥] قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ الدِّمشقي، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سَعيد بن بَشِير، حدثني قتادةَ، عن الحسن، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾. . . الآية، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «كنتُ أوَّلَ النبيين في الخَلْقِ وآخِرَهم في البَعثِ، فَبدأ بي قبلهم»(١). سَعيدُ بن بَشِير فيه ضَعفٌ. وقد رواه سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ مرسلاً، وهو أشبه. ورواه بعضُهم عن قتادةَ موقوفاً. والله أعلم. وقال أبو بكر البزَّار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حَمزَة الزيَّاتُ، حدثنا عَدِيّ بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوحٌ، وإبراهِيمُ، ومُوسَى، وعيسى، ومحمَّدُ، وخيرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. موقوفٌ، وحمزةُ فيه ضَعفٌ. وقد قيل: إن المرادَ بهذا الميثاقِ الذي أُخِذ منهم حين أخرجوا في صورة الذَّرِّ من صُلبِ

---

(١) إسناد ضعيف جداً، والمتن باطل، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ٣ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً، فيه سعيد بن بشير، وهو ضعيف منكر الحديث، وساق الذهبي هذا الحديث في ترجمته في الميزان ٣١٤٣ على أنه من منكراته. وله علة ثانية: وهي أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، فالإسناد ضعيف جداً، لا شيء. وورد عن قتادة مرسلاً، أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ١١٩ والمرسل من قسم الضعيف، وله علة ثانية: سعيد بن أبي عروبة، تغير بأَخَرَة. وعلة ثالثة: فيه عطاء بن عبد الوهاب الخفاف وثقه قوم، وضعفه أحمد بقوله: ضعيف مضطرب الحديث. وأما المتن فباطل. بل أول من خلق الله من البشر، آدم عليه السلام. هذا وقد خلط بعضهم هذا الحديث بحديث «كنت نبياً، وآدم بين الروح والجسد» فإن هذا الأخير له شواهد كثير، لكنه لا يثبت أولية الخَلْق وإنما فيه إثبات أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، أو في علم الله تبارك وتعالى. فتنبه، فإن هذا الحديث الأخير، يخالف الأول ويفارقهُ، والله تعالى أعلم.

آدم، كما قال أبو جعفر الرازيّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيّ بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم يعني ذُرِّيته ـ وإن فيهم الغنيّ والفقيرَ، وحسنَ الصُورةِ، ودُونَ ذلك، فقال: ربِّ، لو سَوَّيتَ بين عبادك؟ فقال: إني أحببتُ أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثلَ السرُج، عليهم النور، وخُصُّوا بميثاق آخرَ من الرسالة والنبوّة فهو الذي يقولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ . . . الآية. وهذا قولُ مجاهدٍ أيضاً. وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد.

وقولُه تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، قال مجاهدٌ: المبلِّغين المؤدِّين مِنَ الرسل. وقولُه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾، أي: من أُممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مُوجعاً، فنحن نشهدُ أن الرسُلَ قد بلَّغُوا رسالاتِ ربِّهم، ونصحُوا الأمم وأفصَحُوا لهم عن الحقِّ المبين، الواضح الجليِّ، الذي لا لبسَ فيه ولا شكَّ ولا امتراءَ، وإن كذَّبهم من كذَّبهم من الجَهلة والمعاندين والمارقين والقاسِطين، فما جاءت به الرسلُ هو الحقُّ، ومن خالفهم فهو على الضلال، كما يقول أهل الجنة: لقد جاءت رُسُل ربِّنا بالحق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن نِعمته وفَضله وإحسانه إلى عبادِه المؤمنين، في صَرفه أعداءَهم وهَزْمِه إيَّاهم عام تَألَّبوا عليهم وتَحزَّبوا وذلك عامَ الخندق، وذلك في شوالٍ سنة خَمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عقبة وغيره: كانت في سَنةِ أربع. وكان سببُ قُدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهودَ بَني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ من المدينة إلى خَيبر، منهم: سَلاَّم ابن أبي الحُقَيق، وسَلاَّم بن مِشْكَم، وكِنَانة بن الرَّبيع، خَرَجُوا إلى مكَّةَ واجتمعوا بأشراف قريش، وألَّبُوهم على حزب رسول الله ـ ﷺ ـ ووَعدوهم من أنفسهم النصرَ والإِعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خَرجوا إلى غَطَفان فَدَعوهم فاستجابُوا لهم أيضاً. وخَرجت قُرَيشٌ في أحابيشها ومَن تابعها، وقائِدُهم أبو سفيان صَخر بنُ حَرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حِصْن بن بَدرٍ، والجميعُ قَريبٌ من عشرةِ آلاف، فلمَّا سَمِع رسولُ الله ـ ﷺ ـ بِمَسيرهم أمرَ المسلمين بحفر الخندق حَولَ المدينةِ مما يلي المشرِق، وذلك بإشارةِ سَلمانَ الفارسيِّ فعمل المسلمون فيه واجتهدُوا، ونَقل معهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ الترابَ وحَفر، وكان في حَفرِه ذلك آياتٌ بيِّناتٌ ودلائلُ واضحاتٌ. وجاء المشركون فَنزلوا شَرقِيَّ المدينة قريباً من أُحُد، ونَزلت طائفةٌ منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ ومن مَعه من المسلمين، وهم نحو من ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا ظُهورَهم إلى سَلْع ووجُوههم إلى نحو العدو، والخندقُ حَفيرٌ ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجَّالة والخيالة أن تصلَ إليهم، وجعل النساء والذَّراري في آطام المدينة، وكانت بنو قُريظة ـ وهم طائفةٌ من اليهود ـ لهم حصنٌ شرقيُّ المدينةِ، ولهم عهدٌ من النبي ـ ﷺ ـ وذمَّةٌ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النَّضري، فلم يَزَل بهم حتى نَقَضُوا العهد، ومالؤوا الأحزابَ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فَعَظُم الخطبُ واشتدَّ الأمر، وضاقَ الحالُ، كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾. ومكثوا مُحاصِرين للنبيِّ ـ ﷺ ـ وأصحابِه قريباً من شَهر، إلا أنهم لاَ يصلون إليهم، ولم يَقَع بينهم قِتالٌ، إلا أن عمرو بن عَبْدِ ودّ العامري، وكان من الفُرسان الشُّجعانِ

المشهُورِينَ في الجاهلية، رَكب ومعه فوارسُ فاقتحمُوا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين. فَندب رسولُ الله ـ ﷺ ـ خيل المسلمينَ إليه فيقال: إنه لم يبرُز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاوَلا ساعة، ثم قَتَله عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ، فكان علامةً على النصر.

ثم أرسلَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ على الأحزاب ريحاً شديدةَ الهُبوبِ قويّةً، حتى لم يبق لهم خَيمةٌ ولا شيءٌ ولا تُوقَد لهم نارٌ، ولم يقرَّ لهم قَرارٌ حتى ارتحلوا خَائِبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. قال مجاهد: وهي الصَّبا.

[٥٣١٦] وَيُؤيِّده الحديثُ الآخرُ: «نُصِرت بالصَّبا، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبُور»[١]. وقال ابنُ جَرير: حدثني محمد بن المثنَّى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا داودُ، عن عكرمةَ قال: قالت الجَنُوب للشَّمال ليلةَ الأحزاب: انطلقي ننصرْ رسولَ الله ـ ﷺ ـ. فقالت الشَّمالُ: إن الحُرَّة لاَ تَسْري بالليلِ. قال: فكانت الريح التي أُرسِلَت عليهم الصَّبا. ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشجِّ، عن حَفص بن غياث، عن داودَ، عن عِكرِمة، عن ابن عباس فذكره.

[٥٣١٧] وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا يونُس، حدثنا ابنُ وهب، حدثني عبد الله بن عمر، عن نَافع، عن عبد الله بن عُمَر قال: أرسلني خَالِي عُثمان بن مَظعُونٍ ليلة الخَندقِ في بَرْدٍ شديد وَريحٍ إلى المدينةِ، فقال: ائتنا بِطعام ولحافٍ، قال: فاستأذنتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَأَذِن لي، وقال: «مَن أتيتَ مِن أصحابي فَمُرهم يَرجِعُوا». قال: فَذَهبتُ والريحُ تسفي كُلَّ شيء، فجعلتُ لا أَلقى أحداً إلا أَمَرتُه بالرجُوعِ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: فما يَلوِي أحدٌ منهم عُنُقَه. قال: وكان معي تُرْسٌ لي، فكانت الريحُ تَضربه عَليّ، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريحُ حتى وَقَع بعضُ ذلك الحديد على كَفِّي، فأنفذها إلى الأرض[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهم الملائكةُ، زلزلتهم وألقت في قُلوبهم الرعبَ والخوف، فكان رئيسُ كلِّ قبيلة يقول: يا بَني فلان، إليَّ. فَيجتَمِعُون إليه فيقول: النَّجاءَ النَّجاء. لِمَا ألقى الله تعالى في قُلُوبهم من الرعبِ.

[٥٣١٨] وقال محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن زيادٍ، عن محمد بن كعبِ القُرَظيِّ قال: قال فَتىً من أهل الكُوفة لحُذيفَةَ بن اليَمان: يا أبا عبدِ الله، رَأيتُم رسول الله ـ ﷺ ـ وصَحِبتُموه؟ قال: نعم، يا ابنَ أخِي. قال: وكيفَ كنتم تَصنَعُون؟ قال: والله لقد كنا نَجهَدُ. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يَمشي على الأرضِ وَلَحملناهُ على أعناقنا. قال: قال حُذَيفةُ: يا ابنَ أخي، والله لو رَأيتنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالخندق وَصلّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ هُويّاً[٣] من الليل، ثم التفتَ فقال: مَنْ رجلٌ يقُوم فينظر لنا ما فعلَ القومُ؟ يشرط له النبي ـ ﷺ ـ أنه يَرجِعُ ـ أدخله الله الجنّةَ». قال: فما قام رجلٌ. ثم صلّى رسول الله ـ ﷺ ـ هُويّاً من الليل، ثم التفت إلينا، فقال مثلَه، فما قام منا رجلٌ. ثم صلّى رسول الله ـ ﷺ ـ هُوِياً من الليل ثم التفت إلينا فقال: «مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشترط له رسول الله ـ ﷺ ـ الرجعةَ ـ أسأل الله أن يكون رَفِيقي في الجنة». فما قام رجلٌ من القوم؛ من شِدَّةِ الخوف، وشِدَّة الجوع، وشِدَّة البرد، فلما لم يقم أحد، دَعَاني رسول الله ـ ﷺ ـ. فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دَعَاني فقال: «يا حُذَيفة، اذهَب فادخل في القوم

---

(١) متفق عليه، وتقدم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٣٦١ وإسناده ضعيف لضعف عبد الله بن عمر العمري.

(٣) الهويّ: الساعة من الليل.

فانظر ما يفعلون، ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا». قال: فذَهبتُ فدخلتُ في القوم، والريح وجنودُ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ تفعلُ بهم ما تفعلُ، لا تُقِرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بِنَاءَ. فقام أبو سفيان فقالَ: يا معشر قُريش. لينظر امرؤ مَن جليسُه. قال حُذَيفة: فأخذتُ بيد الرجل الذي إلى جنبي. فَقلت: مَن أنت؟ فقال: أنا فلانُ بنُ فلان. ثم قال أبو سفيان: يا مَعشر قُريش، إنكم والله ما أصبحتُم بدار مُقَام، لقد هَلَك الكُرَاع والخُفّ، وأخلَفتنا بنو قُرَيظة. وبَلَغنا عنهم الذي نكرَهُ، ولقينا من هذه الريح ما تَرَون. واَلله ما تطمئِنُّ لنا قِدرٌ، ولا تَقُوم لنا نارٌ، ولا يستمسكُ لنا بناءٌ، فارتحِلُوا فإنِّي مُرْتَحِل. ثم قام إلى جمَله وهو معقول، فَجَلس عليه، ثم ضَرَبه، فوثَب به على ثلاث: فما أطلق عِقَالَه إلا وَهُو قائم. ولولا عهدُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليّ: «لا تُحدِثْ شيئاً حتى تأتيني» لو شِئتُ لقتلته بِسَهم. قال حذيفةُ: فرجَعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو قائمٌ يصلِّي في مِرْط لبعض نسائه مُرَحَّلٍ، فلما رآني أدخلني بينَ رِجلَيهِ، وطَرَح عليّ طرف المِرْط[١]، ثم رَكَع، وسَجَد وإني لفيه، فلما سَلَّم أخبرتُه الخَبَر. وسَمِعَتْ غَطَفان بما فعلت قُرَيشٌ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم[٢].

[٥٣١٩] وقد رواه مسلمٌ في صَحِيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيمَ التَّيمِيِّ، عن أبيه قال: كُنّا عند حُذَيفة بن اليَمَان ـ رَضِي الله عنه ـ فقال له رجلٌ: لو أدركتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قاتلت مَعَه وأبليتُ. فقال له حُذيفة: أنت كنتَ تفعلُ ذلك؟ لقد رَأيتُنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الأحزاب في ليلةٍ ذاتِ ريح شَدِيدةٍ وقُرٍّ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا رَجلٌ يأتي بخبر القوم، يكون مَعي يوم القيامة». فَلَم يُجبه منا أحَدٌ، ثم الثانية، ثم الثالثة مثلَه. ثم قال: «يا حُذَيفة، قُم فأتنا بخبر من القوم». فلم أجد بُدّاً إذ دعانِي باسمي أن أقُومَ، فقال: «ائتني بخبر القوم، ولا تَذْعَرهم عَلَيّ». قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمَّام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنار، فَوضعت سهماً في كَبِدِ قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تَذْعَرهم عَلَيَّ»، ولو رَمَيْته لأصبتُه. قال: فرجعتُ كأنما أمشي في حَمَّام، فأتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ ثم أصابني البردُ حين فَرَغتُ وقُرِرْتُ، فأخبرتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وألبسني من فَضل عَبَاءَة كانت عليه يُصَلِّي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قم يا نومانُ»[٣].

[٥٣٢٠] ورواه يونُس بن بكير، عن هشام بن سعد، عن زَيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحُذَيفة ـ رَضِي الله عنه ـ: نشكو إلى الله صُحبَتكم لرسول الله ـ ﷺ ـ إنكم أدركتُموه ولم نُدرِكه، ورأيتُموه ولم نَرَه. فَقال حُذَيفة: ونحن نشكُو إلى الله إيمانكم به ولم تَروه، والله لا تَدْري يا ابن أخي لو أدركتَه كيف كنتَ تكونُ. لقد رَأيتُنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة الخندق في ليلة باردةٍ مَطِيرةٍ[٤]... ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً. ورَوَى بلال بن يحيى العَبْسي، عن حُذَيفة نحو ذلك أيضاً.

[٥٣٢١] وقد أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، من حديث عِكرمة بن عَمّار، عن محمد بن عبد الله الدُّؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حُذَيفة قال: ذَكَر حُذَيفة مشاهِدَهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ فقال جلساؤُهُ: أما

---

(١) المرط: كساء من صوف أو خزّ.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٣٦٢ بهذا الإسناد، وفيه راو لم يسمّ لكن أصله عند مسلم كما هو الآتي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨٨ وابن حبان ٧١٢٥ والبيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٤) صحيح. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٥٤ وأبو نعيم في «الدلائل» ٤٣٣، ولم يذكر زيد سماعاً من حذيفة. وأخرجه الحاكم ٣/ ٣١ والبيهقي ٣/ ٤٥٠ من طريق بلال بن يحيى العبسي عن حذيفة بنحوه. وإسناده حسن لأجل بلال، وأصله عند مسلم كما هو المتقدم، وصححه الحاكم والذهبي.

والله لو كُنّا شَهدنا ذلك لَفَعلنا ولَفَعلنا. فقال حُذيفة: لا تَمنَّوا ذلك. لقد رأيتُنا ليلةَ الأحزابِ ونحن صَافُّون قُعُودٌ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنَا، وقُرَيظة اليهود أسفَلَ منا نَخافُهم على ذَرَارِينا، وما أَتَتْ علينا ليلةٌ قطُّ أشدُّ ظلمة ولا أشدُّ ريحاً، في أصواتِ ريحها أمثالُ الصواعق، وهي ظلمةٌ ما يَرَى أحدُنا إصبَعَه. فجعل المنافقون يستأذنون النبيَّ ـ ﷺ ـ ويقولون: إنَّ بيوتَنا عورةٌ وما هي بِعَورَةٍ. فما يستأذنه أحد منهم إلا أذِن له، ويأذَنُ لهم فَيَتَسَلَّلون، ونحن ثلاثمئة ونحوُ ذلك، إذ استقبلنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ رَجُلاً رَجُلاً حتى أتى عَلَيَّ وما عَلَيَّ جُنَّةٌ من العدو ولا من البرد إلا مِرْطٌ لامرأتي، ما يُجاوِزُ ركبتي. قال: فأتاني وأنا جَاثٍ على رُكبَتَيَّ فقال: «من هذا؟» فقلت: حُذيفة. قال: حُذَيفة! فتقاصرتُ بالأرض فقلت: بلى، يا رسول الله، كراهية أن أَقُوم، قال: قُم، فقمتُ فقال: «إنه كائنٌ في القوم خبرٌ، فأتني بخَبر القوم»، قال: وأنا من أَشَدّ الناسِ فَزَعاً، وأشدّهم قُرّاً. قال: فخرجتُ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللهم، احفظه من بين يَدَيه ومن خَلفه، وعن يَمينه وعن شماله، ومن فَوقِه ومن تحته». قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قُرّاً في جَوفي إلا خَرج من جَوفي، فما أجدُ فيه شيئاً. قال: فلما ولّيت قال: «يا حُذَيفة، لا تُحْدِثَنّ في القوم شيئاً حتى تَأتِيني». قال: فخرجت حتى إذا دنوتُ من عسكر القوم نظرت في ضَوءِ نارٍ تَوَقَّدُ وإذا رجلٌ أدهم ضَخْمٌ يقول بيده على النار، ويمسحُ خاصِرَته، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ. ولم أكن أعرف أبا سُفيان قبل ذلك، فانتزعتُ سَهماً من كِنَانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني». فأمسكتُ وَرَدَدْتُ سهمي إلى كِنانتي، ثم إني شَجَّعت نَفسي حتى دخلتُ العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنُو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيلَ الرحيلَ، لا مُقام لكم. وإذا الريحُ في عسكرهم ما تُجاوِزُ عَسْكرهم شبراً، فوالله إني لأسمَعُ صوتَ الحِجَارة في رحالهم وفُرُشِهم الريحُ تضربهُم بها، ثم خرَجْتُ نحوَ النبيِّ ـ ﷺ ـ فلما انتصفتُ بي الطريقُ أو نحوٌ من ذلك إذا أنا بنحوٍ من عشرينَ فارِساً أو نحو ذلك مُعْتَمّين، فقالوا: أَخبِرْ صاحِبَك أن الله تعالى كَفاه القومَ. فرجعتُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مُشتَمِلٌ في شَمْلَةٍ يُصَلِّي، فوالله ما عدا أن رجعتُ رَاجَعَني القُرُّ وجعلت أُقَرْقِفُ فأوماً إليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيده وهو يصلي، فدنوت منه، فأسبل علي شَمْلَته، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا حَزَبه أمرٌ صَلَّى، فأخبرته خَبَر القوم، وأخبرتُه أني تركتهم يَرتحِلُون، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾[1].

[٥٣٢٢] وأخرج أبو داود في سُنَنه منه، «كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا حزبه أمر صلى»[2] من حديث عِكرِمة بن عَمّار، به.

وقولُه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾، أي: الأحزاب، ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾، تقدّم عن حُذَيفة أنهم بنو قُريظة، ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾، أي: مِن شِدّةِ الخوفِ والفَزَع، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾. قال ابن جرير: ظَنَّ بعضُ مَن كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعلُ ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظَنَّ المؤمنون كلَّ ظن، ونَجَم النفاق حتى قال مُعَتِّب بنُ قُشَير ـ أخو بني عَمرو بن عَوفٍ ـ: كان محمدٌ يعِدنا أن نأكُلَ كُنُوزَ كسرى وقيصر، وأحدُنا لا يقدِر أن يذهَب إلى الغَائِط. وقال الحسنُ في قوله ـ عزّ وجلّ ـ:

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٥٠ ـ ٤٥٣ وإسناده حسن في الشواهد والمتابعات، محمد بن عبد الله مقبول.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٤٥، وهو حديث حسن.

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظنونٌ مختلفةٌ، ظنَّ المنافقون أن محمداً وأصحابه سَيُسْتَأْصَلُون. وأيقن المؤمنون أن ما وَعَدنا الله ورسولُه حق، وأنه سيظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه المشركون.

[٥٣٢٣] وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عامر (ح) وحَدَّثنا أبي، حَدَّثنا أبو عامر العَقَدِيُّ، حَدَّثنا الزُّبير ـ يعني ابنَ عبد الله، مولى عثمان بن عَفَّان ـ عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قلنا يومَ الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغتِ القلوبُ الحناجرَ؟ قال ـ ﷺ ـ: نعَم، قولوا: اللهمَّ استر عوراتِنا، وآمِن رَوْعاتنا. قال: فَضرب وُجوه أعدائِهِ بالرِّيح، فَهزَمَهُم بالريح[١]. وكذا رواهُ الإمامُ أحمدَ بن حَنبل، عن أبي عامرٍ العَقَدِي.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن ذلك الحالِ، حين نزلت الأحزابُ حولَ المدينةِ، والمسلمون مَحصُورون في غايةِ الجَهْدِ والضِّيق، ورسول الله ـ ﷺ ـ بين أظهرهم: أنهم ابتُلُوا واختُبِرُوا وزُلزِلوا زِلزَالاً شَديداً. فحينئذٍ ظَهر النفاق، وتكلَّم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، أما المنافق فَنجم نفاقه، والذي في قلبه شُبهة أو حَسِيكةٌ، ضَعُفَ حالُه فَتنفّس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه وشدّة ما هو فيه من ضيق الحال، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾، يعني المدينة

[٥٣٢٤] كما جَاء في الصحيح: «أُريتُ في المنام دارَ هجرتكُم أرض بين حَرّتين فذهب وَهلي أنها هَجَرُ، فإذا هي يثربُ»[٢]، وفي لفظٍ: «المدينة».

[٥٣٢٥] فأمّا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ: حدثنا إبراهيمُ بن مهديّ، حدثنا صالح بن عُمَر، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البَرَاء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن سَمَّى المدينة يَثرب فَلْيَستغفِرِ الله، هي طابةٌ، هي طابةٌ»[٣]. تفرَّد به الإمامُ أحمدُ، وفي إسناده ضَعفٌ، والله أعلم. ويُقال: إنما كان أصل تَسمِيتِها «يثرب» برجُلٍ نَزلها من العَماليق، يقال له: يَثرب بن عَبيلٍ بن مهلائيل بن عوض بن عِمْلاَق بن لاوذَ بن إِرَم بن سَام بن نُوح. قاله السهيلي، قال: ورُوِي عن بعضهم أنه قال: إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينةَ، وطابَة، وطَيْبَةُ، والمسكينة، والجَابِرة، والمُحبَّة، والمحبُوبة، والقاصِمة، والمجبُورة، والعَذْراء، والمرحُومَة. وعن كَعب الأحبارِ قال: إنا نَجدُ في التَّوراةِ يقولُ الله للمَدِينة: يا طَيِّبَة، ويا طَابة، ويا مِسكِينة، لا تَقْبَلي الكنوز أَرفَعُ أجاجيرَكِ على أَجَاجِير القرى.

وقولُه: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾، أي: هاهنا، يعنون عند النبي ـ ﷺ ـ في مقام المُرابطة، ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، أي: إلى

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٣ وإسناده لين، رُبيح مقبول، والمرفوع منه له شواهد دون القصة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٢٢ و٤٠٨١ ومسلم ٢٢٧٢ وابن حبان ٦٢٧٦ من حديث أبي موسى.

(٣) أخرجه أبو يعلى ١٦٨٨ وأحمد ٤/ ٢٨٥، وإسناده ضعيف لأجل يزيد بن أبي زياد. قال الحافظ عنه في التقريب: ضعيف، كبر فتغير وصار يتلقن، ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ٥٧٨٤: رجاله ثقات! نعم ورد تسميته لها عليه الصلاة والسلام في أحاديث أخر بـ «طابة»

بيوتِكم ومنازِلكم. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: هم بنُو حارثة قالوا: بيوتُنا نخاف عليها السَّرَق. وكذا قال غيرُ واحد. وذكَر ابنُ إسحاقَ أن القائل لذلك هو أوسُ بن قَيظِيّ. يعني: اعتذرُوا في الرجُوع إلى مَنَازِلهم بأنها عَورَةٌ، أي: ليس دونها ما يَحجبُها عن العدو، فهم يخشَون عليها منهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾، أي: ليست كما يزعمون، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، أي: هَرَباً من الزَّحفِ.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: أنهم لو دَخل عليهم الأعداءُ من كلِّ جانب من جوانبِ المدينة، وقُطرٍ من أقطارها، ثم سُئِلُوا الفتنةَ، وهي الدخولُ في الكفر، لَكفرُوا سريعاً. وهم لا يُحافِظون على الإيمان، ولا يستمسِكُون به مع أدنى خَوفٍ وفَزَع. هكذا فسرها قتادة، وعبدُ الرحمن بنُ زيدٍ، وابن جرير. وهذا ذَم لهم في غاية الذَّم. ثم قال تعالى يُذَكِّرهم بما كانوا عاهَدُوا الله من قبل هذا الخوف: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، ولا يفِرُّون من الزَّحفِ، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، أي: وإن الله سَيَسْألُهم عن ذلك العهدِ، لا بُدَّ من ذلك. ثم أخبَرهم أن فرارَهم ذلك لا يُؤخِّر آجالَهم، ولا يُطوِّل أعمارهم، بل رُبَّما كان ذلك سَبَباً في تعجيلِ أخذِهم غِرَّةً، ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بعد هَرَبكم وفِرَارِكم. ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: يمنعُكم، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مُجيرٌ ولا مُغيثٌ.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يُخبر تعالى عن إحاطةِ علمِه بالمعوِّقين لغيرهم عن شُهود الحرب، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، أي: أصحابهم وعُشَرائهم وخُلطَائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أي: إلى ما نحنُ فيه من الإقامةِ في الظِّلال والثِّمارِ، وهم مع ذلك لا ﴿يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، أي: بخلاء بالمودَّة، والشفقةِ عليكم. وقال السدِّي: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، أي: في الغنائم. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، أي: من شدَّة خوفِه وجَزَعه. وهكذا خوفُ هؤلاء الجُبَناء من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أي: فإذا كانَ الأمنُ تكَلَّموا كلاماً بَليغاً فصيحاً عالياً، وادَّعوا لأنفسهم المقاماتِ العاليةِ في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك. وقال ابن عباس: ﴿سَلَقُوكُم﴾، أي: استقبَلُوكم. وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأه مقاسمة: أعطُونا، أعطُونا، قد شَهِدنا معكم. وأما عند البأس فأجبنُ قوم: وأخذلُه للحق. وهم مع ذلك أشِحَّةً على الخير، أي: ليس فيهم خَيرٌ، قد جَمعُوا الجُبن والكَذِب وقِلَّة الخير، فَهُم كما قال الشاعر:

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظةً وفي الحرب أمثالَ النساء العوارك

أي: في حال المُسالَمة كأنهم الحُمُر. والأعيار: جمع عَير، وهو الحمار. وفي الحرب كأنهم النساء الحُيَّض. ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سَهلاً هيِّناً عنده.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحةِ في الجُبن والخَور والخوف، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ﴾، بل هُم قريبٌ منهم، وإنَّ لهم عودةً إليهم ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ﴾، أي: ويَوَدّون إذا جاءت الأحزابُ أنهم لا يكُونوا حاضِرين معكم في المدينة بل في البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عَدوِّكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ولو كانوا بين أظهُركم لما قاتلوا مَعكم إلا قليلاً، لكثرة جُبنهم وذِلّتهم وضَعفِ يَقينهم. والله سبحانه وتعالى العالم بهم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾

هذه الآية الكريمةُ أصلٌ كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ـ ﷺ ـ يوم الأحزاب، في صبره ومُصَابرته ومُرَابطته ومُجاهَدَتِه وانتظاره الفرجَ من ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ، صلواتُ الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ ولهذا قال تعالى: للذين تقلقوا وتَضجَّروا وتَزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أي: هلاّ اقتديتُم به وتأسّيتم بشمائله؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بوعُود الله لهم، وجَعْلِه العاقبةَ حاصِلَةً لهُم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يعنُون قولَه تعالى في «سورة البقرة». ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ أي: هذا ما وَعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبُه النصرُ القريبُ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، دليلٌ على زيادةِ الإيمانِ وقُوّته بالنِّسبة إلى الناسِ وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يَزيدُ وينقصُ. وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنة. ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾، أي: ذلك الحال والضِّيق والشدّة ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقياداً لأوامره، وطاعةً لرسُولِه ﷺ.

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾

لما ذكر ـ عزّ وجلّ ـ عن المنافقين أنهم نقضُوا العهد الذي كانوا عاهدُوا الله عليه لا يولُّون الأدبار، وَصَف المؤمنين بأنهم استمرُّوا على العهد والميثاق و﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عَهْدَه. وهو يرجع إلى الأول. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾، أي: وما غَيَّروا عهد الله، ولا نقضُوه ولا بَدّلوه.

[٥٣٢٦] قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهريّ قال: أخبرني خارجة بن زيد ابن ثابت، عن أبيه قال: لما نَسَخنا الصُّحُفَ فَقَدْتُ آيةً من «سُورة الأحزاب» كنت أسمَع رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤُها، لم أجدها مع أحدٍ إلا مع خُزَيمة بن ثابت الأنصاري ـ الذي جعَل رسول الله ـ ﷺ ـ شهادَتَه بشهادَةِ رَجُلين ـ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[١]. انفردَ به البخاري دُونَ مسلم. وأخرجه أحمدُ في مُسنده. والترمذي والنسائي ـ في التفسير من سُنَنهما ـ من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

[٥٣٢٧] وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن بَشّار، حدثنا مُحمد بن عبد الله الأنصاريّ: حدثني أبي، عن ثُمامَةَ، عن أَنَسِ بن مالك قال: نرى هذه الآيَة نزلت في أنس بن النَّضر: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٢]. انفردَ به البخاري من هذا الوجه، ولكن له شواهدُ من طُرُق أُخر.

[٥٣٢٨] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا سُلَيمان بن المغيرة، عن ثابت قال: قال أنس: عَمِّي أنسُ بن النَّضر سُمِّيت به، لم يشهد مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بَدْرٍ، فَشَقَّ عليه وقال: أولَ مشهَدٍ شَهِده رسول الله ـ ﷺ ـ غُيِّبْتُ عنه! لَئِن أراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ لَيَرَيَنّ الله ما أصنعُ. قال: فهاب أن يقولَ غيرها، فَشَهِد مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد، فاستقبَلَ سعد بن مُعاذ فقال له أنس: يا أبا عَمرو أين؟ واهاً لريح الجنة أَجِدُه دون أحد! قال: فقاتلهم حتى قُتِل قال: فَوُجِد في جَسَدِه بِضعٌ وثمانون من ضربةٍ وطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، فقالت أخته ـ عَمَّتي الرُّبَيِّعُ ابنة النَّضر ـ: فما عرفتُ أخي إلا بِبَنَانِه. قال: فنزلت هذه الآيــــةُ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾. قال: فكانُوا يَرَون أنها نَزَلت فيه، وفي أصحابه[٣]. ورواه مُسلم والترمذيّ والنسائيّ، من حديث سُلَيمان بن المغيرة، به. ورواه النسائيّ وابنُ جَرير، من حديث حَمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، به نحوه.

[٥٣٢٩] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سِنَان، حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا حُمَيد، عن أنسٍ أن عَمَّه ـ يعني أنسَ بن النضر ـ غاب عن قتال بدر فقال: غُيِّبتُ عن أوّلِ قتال قاتَلَه رسولُ الله ـ ﷺ ـ المشركين، لئن أشهدَني الله قتالاً للمشركين لَيَرَيَنّ الله ما أصنَعُ. قال: فلما كان يوم أُحُد انكشفَ المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذِرُ إليك مما صَنَع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعني ابنَ معاذ ـ دُون أُحُدٍ، فقال: أنا معك. قال سعدٌ: فلم أستطع أن أصنع ما صَنع. قال: فَوُجِد فيه بضعٌ وثمانُون ضربةَ سيفٍ، وطعنةَ رُمحٍ، ورمية سهم. وكانوا يقولون: فيه وفي أصحابه نزلت: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[٤]. وأخرجَه الترمذي في التفسير عن عَبْدِ بن حُمَيد، والنسائي فيه

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٠٧ و٤٧٨٤ والترمذي ٣١٠٤ والنسائي في «التفسير» ٤٢١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٣.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٠٣ والترمذي ٣٢٠٠ والنسائي في «التفسير» ٤٢٢ وأحمد ٣/ ١٩٤ والطبري ٢٨٤٢٧.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٠٥ والترمذي ٣٢٠١ والنسائي في «التفسير» ٤٢٣ والطبري ٢٨٤٢٨.

أيضاً عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيدَ بن هارونَ به. وقال الترمذي: حسن. وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس به. ولم يذكر نزول الآية. ورواه ابنُ جرير، من حديث المعتمر بن سُليمان، عن حُمَيدٍ، عن أنسٍ، به.

[٥٣٣٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمد بن الفضل العَسْقلاني، حدثنا سُلَيمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عُبَيد الله، حدثني أبي، عن جَدِّي، عن موسى بن طَلْحَةَ، عن أبيه طلحةَ قال: لما أن رجع النبي ـ ﷺ ـ من أحد صَعِد المنبر، فَحمِد الله وأثنى عليه، وعَزّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهُم بما لهم فيه من الأجر والذخرِ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ . . . الآية كلَّها. فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله، مَن هؤلاء؟ فأقبلتُ وعَلَيّ ثوبان أخضران حَضرَميّان فقال: «أيها السائلُ، هذا منهم»[١]. وكذا رواهُ ابنُ جَرِير من حديث سُلَيمان بن أيوب الطلْحي، به. وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً وابنُ جرير، من حديث يونس بن بكير، عن طَلحة بن يحيى، عن مُوسى وعيسى ابنَي طلحَةَ، عن أبيهما، به. وقال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس.

[٥٣٣١] وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو عامر ـ يعني العَقَدي ـ حدثنا إسحاقُ ـ يعني ابن طلحة بن عبيد الله ـ عن مُوسى بن طَلحة قال: دخلتُ على معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ فلما خرجتُ دعاني فقال: ألا أضع عندك يا ابن أخي حَدِيثاً سَمِعته من رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ؟ أشهَدُ لَسَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»[٢].

[٥٣٣٢] ورواه ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحمّاني، عن إسحاق بن يحيى بن طلحَةَ الطلحي، عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن أبي سُفيان فقال: إني سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»[٣]. ولهذا قال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، قال: عهدَه، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، قال: يوماً فيه قتال فَيَصْدُقُ في اللقاء. وقال الحسن: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، يعني مَوتَه على الصِّدق والوفاء، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الموتَ على مثل ذلك، ومنهم من لم يُبدِّل تبديلاً. وكذا قال قتادةُ، وابنُ زَيدٍ. وقال بعضهم: ﴿نَحْبَهُۥ﴾: نذره.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غَيَّروا عهدهم، وبَدّلوا الوفاء بالغدر، بل استمرُّوا على ما

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨٤٣٢ من طريق سليمان بن أيوب به، وإسناده ساقط، سليمان ضعيف، وفيه مجاهيل. وورد من طرق عن طلحة بن يحيى عن موسىٰ وعيسىٰ ابني طلحة عن طلحة، أخرجه الترمذي ٣٢٠٣ و٣٧٤٢ وأبو يعلىٰ ٦٦٣ والطبري ٢٨٤٣٠ و٢٨٤٣٢ وهذا إسناد حسن، طلحة بن يحيىٰ روى له مسلم ووثقه غير واحد، ولينه آخرون، وتفرد البخاري بقوله: منكر الحديث. وله طرق واهية، وهذا أحسنها إسناداً، وله شواهد. لذا ذكره الألباني في «الصحيحة» ١٢٥، وهو من جهة الإسناد يبلغ درجة الصحيح بطرقه وشواهده، لكن المتن يُستغرب، إذ ظاهر الآية المراد أن من قضىٰ نحبه هو من مات قبل نزول الآية. وأما من مات بعدها فهو ممن ينتظر، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٤٠ وابن ماجه ١٢٦ وابن سعد ١/٣/١٥٥ والطبري ٢٨٤٣١، وإسناده ضعيف لضعف إسحق بن يحيىٰ.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٤٣١، وإسناده وفيه إسحق واهٍ، والحماني ضعيف، فهذه روايات واهية، وانظر «الصحيحة» ١٢٥ و١٢٦ فله شواهد أخرىٰ لكن في المتن غرابة، والله أعلم.

عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ . . . ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: إنما يختبر عِبَاده بالخوف والزلزال لِيُميِّز الخبيث من الطَّيِّب، فَيُظهِرَ أمر هذا بالفِعل، وأمر هذا بالفِعل، مع أنه تعالى يعلَمُ الشيءَ قبل كَونِهِ، ولكن لا يُعذِّب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعمَلُوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[(1)]، فهذا عِلْمٌ بالشيء بعد كَونه، وإن كان العلمُ السابقُ حاصلاً به قبلَ وُجُودِهِ. وكذا قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، أي: بِصَبرهم على ما عاهَدُوا الله عليه، وقيامهم به، ومُحافظتهم عليه. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾، وهم الناقِضُون لعهد الله، المخالِفُون لأوامره، فاستحقُّوا بذلك عقابَه وعذابَه، ولكن هم تحت مَشيئَته في الدنيا، إن شاءَ استمرَّ بهم على ما فعلُوه حتى يلقَوه فَيُعذِّبهم عليه، وَإِن شاء تاب عليهم بأن أرشَدَهُم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفُسُوق والعِصيان، ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لِغَضَبِهِ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الأحزاب لمَّا أجلاهم عن المدينة، بما أرسلَ عليهم من الرِّيح والجنود الإلهية، ولولا أن الله جَعَل رَسُوله رحمةً للعالمين لكانت هذه الريحُ عليهم أشدّ من الريح العقيم على عادٍ، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فَسلَّط عليهم هواءً فرَّقَ شَملهم، كما كان سَبَبُ اجتماعهم من الهَوَى، وهم أخلاطٌ من قبائل شَتَّى، أحزابٌ وآراء، فناسَب أن يرسل عليهم الهواء الذي فَرَّق جماعتهم، وَرَدَّهم خائبين خاسِرين بغَيظهم وحَنَقهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظَّفَر والمغْنَم، ولا في الآخرة مما تَحَمَّلُوه من الآثام في مُبارَزَةِ الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بالعَداوة، وهَمِّهم بقَتله، واستئصالِ جَيْشِهِ. ومن هَمَّ بشيء وصَدَّق هَمَّه بفعله فهو في الحقيقة كفاعِلِهِ.

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾، أي: لم يحتاجُوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يُجلُوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحدَه، ونَصَر عبده، وأعزَّ جُندَه.

[٥٣٣٣] ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: لا إله إلا الله وحدَه، صَدَق وعده، ونَصَر عبده، وأعزَّ جُنده، وهَزَم الأحزاب وحدَه، فلا شَيء بعدَه»[(2)]. أخرجاه من حديث أبي هُرَيرة.

[٥٣٣٤] وفي الصَّحِيحَين من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوفَى قال: دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ على الأحزاب فقال: «اللهم مُنزِلَ الكتابِ، سريعَ الحِسابِ، اهزِم الأحزابَ. اللهم اهزمهم وزَلْزِلهم»[(3)]. وفي قولِه تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾، إشارةٌ إلى وَضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقعَ بعدها، لم يغزُهم المشركون بل غَزَاهم المسلمون في بلادهم.

[٥٣٣٥] قال محمد بن إسحاق: فلما انصرف أهلُ الخندق قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغنا: «لن

(١) محمد: ٣١.
(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١١٤ ومسلم ٢٧٢٤ والبيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٥٦ من حديث أبي هريرة.
(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤١١٥ ومسلم ١٧٤٢ ح ٢١ والبيهقي ٣/ ٤٥٦.

تَغزُوَكم قُرَيشٌ بعد عامِكم هذا، ولكنكم تَغزُونهم»[١]. فلم تغزُ قريشٌ بعد ذلك، وكان هو يغزُوهم بعد ذلك، حتى فَتَح الله عليه مكة. وهذا الحديث الذي ذَكَره محمد بن إسحاق حديثٌ صحيحٌ.

[٥٣٣٦] كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سُفيان، حدثني أبو إسحاقَ قال: سَمِعتُ سُلَيمان ابن صُرَدَ يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يومَ الأحزابِ: «الآن نغزُوهم ولا يَغزُونا»[٢]. وهكذا رواه البخاري في صحيحه، من حديث الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أي: بحَولِه وقُوّته رَدَّهم خائبين، لم ينالُوا خيراً، وأعزَّ الله الإسلام وأهلَه، وصَدَق وعدَه، ونَصَر رسوله وعبدَه، فَلَه الحمد والمِنَّة.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

[٥٣٣٧] قد تَقدَّم أن بني قُرَيظة لما قَدِمت جنُود الأحزاب ونَزَلُوا على المدينة، نَقَضُوا ما كان بينهم وبين رسول الله ـ ﷺ ـ من العهد، وكان ذلك بِسِفَارة حُيَيّ بن أخطَبَ النَّضريّ ـ لعنه الله ـ دَخَل حِصنهم، ولم يَزَل بِسَيِّدهم كعب بن أَسَدٍ حتى نَقَضَ العهدَ، وقال له فيما قال: ويحكَ! قد جئتُكَ بعزِّ الدهرِ، أتيتُكَ بقُرَيش وأحابِيشِهَا، وغطَفَانَ وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب: بل، والله أتيتني بذُلِّ الدهر. ويحَكَ يا حُيَيُّ. إنك مشؤومٌ، فدعنا منك. فلم يَزَل يَفتِلُه في الذُّروَةِ والغَارِبِ حتى أجابه، واشترط لهُ حُيَيّ إن ذَهَب الأحزاب، ولم يكن من أمرِهم شيءٌ، أن يدخُل معهم في الحِصن، فيكون له أُسوتُهم. فلما نَقَضت قُرَيظةُ، وبَلَغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ ساءه، وشَقَّ عليه وعلى المسلمين جداً، فلَمَّا أيَّده الله ونَصَرَه، وكَبَت الأعداءَ ورَدَّهم خائبين بأخسَر صفقةٍ، ورجع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة مُؤيَّداً منصُوراً، وَضَع الناسُ السلاحَ. فبينما رسول الله ـ ﷺ ـ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أُمِّ سَلَمة إذ تَبدَّى له جبريلُ مُعتجِراً[٣] بعمامةٍ من إستَبرَقٍ، على بغلة عليها قطيفة بن ديباج، فقال: أَوَضعت السلاحَ يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تَضَع أسلِحَتها، وهذا الآن رُجُوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله يأمُرك أن تنهَض إلى بني قُرَيظة. وفي رواية فقال له: عَذيرَك من مُقاتِلٍ. أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال: لكنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهَضْ إلى هؤلاءِ. قال: «أين؟». قال: بَني قُرَيظَةَ، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزِلَ عليهم. فنهضَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من فَوره، وأمر الناسَ بالمسير إلى بَنِي قُرَيظَةَ، وكانت على أميالٍ من المدينةِ، وذلك بعد صلاةِ الظُهرِ، وقال: «لا يُصَلِّينَّ أحدٌ منكم العصرَ إلا في بَنِي قُرَيظَة». فسار الناسُ، فأدركتهم الصلاةُ في الطريق، فَصَلَّى بعضُهم في الطريق وقالوا: لم يُرِد منا رسول الله ـ ﷺ ـ إلا تَعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يُعَنِّف واحداً من الفريقين. وتَبِعهم رسول الله ـ ﷺ ـ وقد استخلف على المدينة ابن أُمِّ مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. ثم نازلهم رسول الله ـ ﷺ ـ وحاصَرَهم خمساً وعِشرين ليلةً، فلما طال عليهم الحالُ نَزَلُوا على حكم سعد بن معاذ سَيِّد

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٥٨ عن ابن إسحاق مرسلاً. ويشهد له ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١١٠ وأحمد ٤/ ٢٦٢ و٦/ ٣٩٤ والبيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٥٧.

(٣) الاعتجار: لف العمامة دون التلحي.

الأوس، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية واعتقدُوا أنه يُحسن إليهم في ذلك، كما فَعَل عبدُ الله بن أُبَيّ بن سَلُولَ في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ـ ﷺ ـ فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم، كما فعل ابن أُبَيّ في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً ـ رضي الله عنه ـ كان قد أصابه سهمٌ في أَكْحَلِه أيام الخندق، فكواه رسول الله ـ ﷺ ـ في أكحَلِه، وأنزله في قُبَّةٍ في المسجد ليعودَه من قريب. وقال سعدٌ فيما دعا به: اللهُمّ، إن كنتَ أبقيتَ من حرب قُرَيش شيئاً فأبقني لها. وإن كنت وضعتَ الحرب بيننا وبينهم، فافجُرها ولا تُمتني حتى تُقِرّ عيني من بني قُرَيظَةَ. فاستجاب الله دعاءه، وقَدَّر عليهم أن نَزَلُوا على حُكمِه باختيارهم طَلَباً من تلقاءِ أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمارٍ قد وَطَّؤوا له عليه، جعل الأوس يلوذُون به ويقولون: يا سعدُ، إنهم مواليك، فأحسِن فيهم. ويُرقِّقُونه عليهم ويُعطِّفُونه، وهو ساكت لا يَرُدُّ عليهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألاّ تأخذَه في الله لومة لائم. فَعَرفُوا أنه غيرُ مُستبقِيهم، فلما دنا من الخيمةِ التي فيها رسول الله ـ ﷺ ـ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قُومُوا إلى سَيِّدكم». فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أنفذَ لحكمه فيهم. فلما جَلَس قال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلُوا على حُكمِك، فاحكُم فيهم بما شئت». قال: وَحُكمِي نافذٌ عليهم؟ قال: «نعم». قال: وعلى مَن في هذه الخيمةِ؟ قال: «نعم». قال: وعلى مَن هاهنا. وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مُعرِض بوجهه عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «نعم». فقال: إني أحكُم أن تقتل مُقَاتِلَتُهم، وتُسبى ذُرّيتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد حكمتَ بِحُكم الله مِن فَوقِ سبعةِ أرقِعة»، وفي رواية: «لقد حَكَمْتَ فيهم بحكم المَلِكِ». ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالأخاديد فَخُدّت في الأرض، وجيء بهم مُكتَّفين، فَضَرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة، وسَبَى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم[(١)]. وهذا كُلُّه مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبَسْطه في كتاب السيرة؛ الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً، ولله الحمدُ والمنَّةُ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾، أي: عاونُوا الأحزابَ وساعَدُوهم على حَربِ رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني بَني قُرَيظَةَ من اليهود، من بعضِ أسباطِ بَني إسرائيلَ، كان قد نزلَ آباؤهم الحِجازَ قديماً، طَمَعاً في اتباع النبيِّ الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾، فَعَليهم لعنةُ الله.

وقولُه تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾، يعني: حُصُونهم. كذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وعطاءٌ، وقتادةُ، والسديّ، وغيرُهم من السلف. ومنهُ سمِّيت صَياصي البَقَر، وهي قُرُونها، لأنه أعلى شَيءٍ فيها. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾، وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالَؤوا المشركين على حَربِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وليس من يَعلم كمن لا يَعلم، فأخافوا المسلمين وراموُا قَتْلَهم لِيعِزُّوهم في الدنيا، فانعكس عليهم الحالُ، وانقلب إليهم الفال، انشمَرَ المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فَكَما راموا العزَّ ذلُّوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستُؤصِلُوا، وأضيف إلى ذلك شقاوةُ الآخرة، فصارت الجُملة أن هذه هي الصفقةُ الخاسرةُ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا﴾، فالذين قتلوا المُقاتِلة، والأَسرَاء هم الأصاغِرُ والنِّساء.

[٥٣٣٨] قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم بن بَشِير، حدثنا عبد الملك بن عُمَير: عن عَطِيَّة القُرظي قال: عُرِضت على النبي ـ ﷺ ـ يوم قُرَيظة فَشكُّوا فيّ. فأمر بي النبي ـ ﷺ ـ أن ينظروا: هل أنبتُّ بعدُ؟ فنظروا فلم

(١) انظر تفسير الطبري ٢٨٤٤٣ ـ ٢٨٤٤٦ و«دلائل النبوة» للبيهقي ٤/ ٥ ـ ١٦.

يَجدوني أَنبتُ، فَخَلَّى عني وألحقني بالسبي[١]. وكذا رواه أهلُ السنَنِ كُلُّهم من طُرُقٍ، عن عبد الملك بن عُمَير، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح»، ورواه النسائي أيضاً، من حديث ابن جريج، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، أي: جعَلها لكم من قتلكم لهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، قيل: خيبر. وقيل: مكةُ. رواه مالك، عن زيد بن أسلم، وقيل: فارسُ والرومُ. وقال ابنُ جَرير: يجوزُ أن يكونَ الجَمِيعُ مراداً. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

[٥٣٣٩] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ: أخبرنا مُحمَّد بن عَمرو، عن أبيه، عن جَدِّه علقمةَ بن وقّاصٍ قال: أخبرتني عائشةُ قالت: خرجتُ يوم الخندق أقفو الناس، فسمعت وَئِيد[٢] الأرض وَرَائي، فإذا أنا بسعدِ بنِ معاذٍ ومعه ابنُ أخيه الحارث بن أوس يحمِل مِجنَّة؛ قالت: فجلستُ إلى الأرض فمر سعدٌ وعليه دِرْع من حَدِيد قد خَرَجت منه أطرافُه، فأنا أتخوَّفُ على أطراف سعد؛ قالت: وكان سعدٌ من أعظمِ الناسِ وأطوَلِهم، فمرَّ وهو يرتجِزُ ويقول:

لَبِّثْ قَلِيلاً يَشْهَدِ الهَيْجَا حَمَلْ ... مَا أَحْسَنَ المَوتَ إذَا حَانَ الأَجَلْ

قالت: فقمتُ فاقتحمتُ حَدِيقةً فإذا فيها نفرٌ من المسلمين، وإذا فيها عُمَر بنُ الخطاب، وفيهم رجل عليه تَسْبغَةٌ له ـ تعني المِغْفَر ـ فقال عمر: ما جاء بك؟ لَعَمري والله إنكِ لَجَريئة، وما يُؤمِنُك أن يكون بلاءٌ أو يكونَ تَحوُّز[٣]. قالت: فما زال يَلُومني حتى تَمنَّيت أن الأرض انشقَّت لي ساعَتَئِذٍ، فدخلت فيها. فرفع الرجلُ التَّسبغَةَ عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عُبَيد الله فقال: يا عُمَر، ويحك! إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟! قالت: ويرمي سَعداً رجلٌ من قريش، يقال له: ابنُ العَرقة بسهم، وقال له: خذها وأنا ابنُ العَرِقَةِ فأصابَ أَكْحلَهَ فَقَطعه، فدعا الله سعدٌ فقال: اللهُمَّ، لا تُمِتْني حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة قالت: وكانوا حُلَفاءَه ومواليه في الجاهلية، قالت: فَرَقاً كَلْمُهُ، وبعث الله الريح على المشركين، وكَفَى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فَلَحِق أبو سفيانَ ومَن معه بِتهامَة، ولحق عُيَينة بن بَدر ومَن معه بِنَجْدٍ، ورَجَعت بنو قُرَيظة فَتَحصَّنوا في صياصيهم، وَرَجع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينةِ، وأمر بِقُبَّة من أَدَم فَضُربت على سَعدٍ في المسجد، قالت: فجاءه جبريلُ عَليه السلام وإن عَلى ثناياه لَنَقعَ الغُبَار، فقال: أوقَد وضعتَ السلاحَ؟ لا، والله ما وَضَعَتِ الملائكةُ بعدُ السلاح، اخرُج إلى بني قُرَيظة فقاتلهم. قالت: فَلَبس رسول الله ـ ﷺ ـ لأمَتَه، وأذَّن في الناس بالرَّحيل أن يخرجُوا، فخَرج رسول الله ـ ﷺ ـ فمر على بني غَنْم وهم جيران المسجد حوله، فقال: من مَرَّ بكم؟ قالوا: مَرَّ بنا دِحيَةُ الكَلْبِيّ ـ وكان دِحيَةُ الكَلْبِيّ ـ تُشبه لِحيَتُه وسِنُّه ووجهُه جبريلَ ـ عليه السلام ـ فأتاهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فحاصَرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتدَّ حصارُهم واشتد البلاءُ قيل لهم: انزلوا على حُكم رسول الله ـ ﷺ ـ. فاستشاروا أبا لُبَابة ابنَ عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبحُ. قالوا: نَنْزِل على حُكم سعد بن مُعاذ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «انزلُوا على حكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى سعد بنُ مُعاذ فَأُتي به على حمار عليه إكافٌ من لِيفٍ قد حُمل عليه، وحَفَّ به قومُه، فقالوا: يا أبا عَمرو، حُلَفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومَن قد عَلِمت. قالت: ولا

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٠٤ والترمذي ١٥٨٤ والنسائي ٦/ ١٥٥ وابن ماجه ٢٥٤١ وأحمد ٤/ ٣١٠ و٣٨٣ وابن حبان ٤٧٨٠ وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قال: إسناده على شرط الشيخين.

(٢) الوئيد: صوت الوطء على الأرض يسمع من بعيد كالدوي. والمجن: الترس.

(٣) انحاز القوم: تركوا مركزهم إلى آخر، وتحاوز الفريقان: انحاز كل واحد عن الآخر.

يَرْجع إليهم شيئاً، ولا يَلتفِتُ إليهم، حتى إذا دَنا من دُورِهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي ألاَّ أبالي في الله لومَةَ لائم. قال: قال أبو سَعيد: فلما طلع قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قُومُوا إلى سَيِّدكم فَأَنزِلُوه». فقال عمر: سَيِّدُنا الله. قال: «أنزِلُوه». فأنزلُوه، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «احكُم فيهم». قال سعدُ: فإني أحكم فيهم أن تُقتَل مُقاتِلَتُهم، وتُسبَى ذراريهم، وتقَسَّم أموالهم. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد حَكَمْتَ فيهم بِحُكم الله تعالىٰ وحُكم رسوله». ثم دَعا سعد فقال: اللهم، إن كنت أبقيتَ على نَبِيِّك من حرب قُرَيش شيئاً فَأَبقِني لها، وإن كنت قطعتَ الحربَ بينه وبينهم فاقبِضْنِي إليك. قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد بَرِىء منه إلا مثل الخُرْص، وَرَجع إلى قُبَّته التي ضَرَب عليه رسول الله ـ ﷺ ـ. قالت عائشة: فَحضره رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر، وعُمَر، قالت: فوالذي نفسُ محمدٍ بيده إني لأعرِف بكاء أبي بكر من بُكَاء عُمَر، وأنا في حُجرَتي. وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. قال علقمة: فقلت: أيْ أُمّه، فكيف كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصنَعُ؟ قالت: كانت عينه لا تدمَعُ على أحد، ولكنه كان إذا وَجدَ فإنما هو آخِذٌ بِلِحيته[١]. وقد أخرجه البخاري ومسلمٌ من حَدِيث عبد الله بن نُمَير، عن هِشَام بن عُروَةَ، عن أبيه عن عائشة نحواً من هذا، ولكنه أخصَرُ منه، وفيه دُعاء سعدٍ ـ رضي الله عنه ـ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

هذا أمرٌ من الله تبارك وتعالىٰ لرسولِه ـ صلوات الله وسلامه عليهِ ـ بأن يُخَيِّر نساءَه بين أن يُفارِقهنَّ، فَيَذهبْنَ إلى غيره ممن يَحصُلُ لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتُها، وبين الصبر على ما عنده من ضِيق الحال، ولَهنَّ عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن ـ رضي الله عنهُنَّ وأرضاهن ـ الله وَرسولَه والدار الآخرة، فجَمَع الله لهُنَّ بعد ذلك بينَ خَير الدنيا وسعادةِ الآخرة.

[٥٣٤٠] قال البخاري: حدثنا أبو اليَمَان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهري، قال: أخبرني أبو سَلَمَة بنُ عبد الرحمن، أن عائشةَ رَضِي الله عنهَا زوجَ النبي ـ ﷺ ـ أخبرَته: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ جاءها حين أمرَه الله أن يُخَيِّر أزواجه، فبدأ بي رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «إني ذاكرٌ لك أمراً، فلا عليكِ أن لا تستعجلي حتى تَستأمري أبوَيك»، وقد عَلِمَ أن أبويَّ لم يكُونا يأمراني بِفراقه، قالت: ثم قال: إنَّ الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى تَمَام الآيتَين، فقلت له: فَفِي أيِّ هذا أَستأمِرُ أبَويَّ، فإني أريد الله ورسولَه والدارَ الآخرة؟[٢].

[٥٣٤١] وكذا رواه مُعَلَّقاً عن الليثِ: حدثَني يُونس، عن الزُهرِي، عن أبي سَلَمة، عن عائِشَة. فَذَكره وزاد: «قالت: ثم فعل أزواجُ النبيّ ـ ﷺ ـ مِثْلَ ما فعلتُ»[٣]. وقد حَكَى البخاريُّ أن معمراً اضطرب فيه، فتارةً رَوَاه عن الزهرِيِّ، عن أبي سَلَمة، وتارةً رواه عن الزهري، عن عُروَةَ، عن عائشة.

[٥٣٤٢] وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عَبدَةَ الضبِّيُّ، حدثنا أبو عَوَانةَ، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ١٤١ ـ ١٤٢ وابن حبان ٧٠٢٨ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو. وأخرجه البخاري ٤١٢٢ ومسلم ١٧٦٩ من وجه آخر بنحوه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٥.

(٣) ذكره البخاري ٤٧٨٦ معلقاً.

أبيه قال: قالت عائِشَة: لما نَزَل الخيار قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني أريدُ أن أذكُر لك أمراً، فلا تَقضِي فيه شيئاً حتى تستأمِري أبوَيْكِ». قالت: قلتُ: وما هُو يا رسول الله؟ قال: فردَّه عليها فقالت: ما هُوَ يا رسول الله؟ قال: فقرأ عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ . . . إلى آخر الآية، قالت: فقلت: بل نختار الله ورَسُولَه والدار الآخرة. قالت: فَفَرِح بذلك النبيُّ ـ ﷺ ـ[(١)].

[٥٣٤٣] وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نزلت آيةُ التخيير، بَدَأ بي رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا عائشةُ، إني عارضٌ عليكِ أمراً، فلا تفتاتي فيه بشيء حتى تَعرضيه على أبويك أبي بكر وأم رُومان. فقلت: يا رسول الله؟ وما هُو؟ قال: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قالت: فإني أريدُ الله ورسوله والدارَ الآخرةَ، ولا أؤامِرُ في ذلك أبويَّ أبا بكر وأمَّ رُومَانَ. فَضَحِكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم استقرأ الحُجَر، فقال: «إن عائشةَ قالت كذا وكذا». فقلن: ونحنُ نقول مثل ما قالت عائشةُ، رضي الله عنهن كُلّهن»[(٢)]. ورواه ابنُ أبي حاتم: عن أبي سَعيد الأشجّ، عن أبي أُسامة، عن محمد بن عمرو، به.

[٥٣٤٤] قال ابنُ جرير: وحدثنا سعيدُ بن يحيى الأُمويُّ، حدثنا أبي، عن مُحمَّدِ بن إسحاقَ، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرَةَ، عن عائِشَة أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما نَزَل إلى نسائه أُمِرَ أن يُخيِّرهن، فَدَخل عَليَّ فقال: «سأذكر لك أمراً فلا تعجَلي حتى تَسْتَشِيري أباكِ». فقلتُ: وما هُو يا نبيَّ الله؟ قال: «إني أُمِرْتُ أن أخيِّرَكُنَّ»، وتلا عليها آيةَ التخيير، إلى آخِر الآيتين. قالت فقلت: وما الذي تقولُ: لا تَعجَلي حتى تَسْتَشِيري أباكِ؟: فإني أختارُ الله ورسُولَه. فَسُرَّ بذلك، وعَرَض على نِسَائه فَتَتابعْنَ كُلُّهن، فاخترنَ الله ورسوله[(٣)].

[٥٣٤٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيدُ بن سِنان البَصري، حدثنا أبو صالح عبدُ الله بن صالح، حدثني الليثُ، حدثني عُقَيل، عن الزهري، أخبرني عُبَيد الله بن عبد الله بن أبي ثَوْر، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أُنزلت آيةُ التخيير، فبدأ بي أوَّلَ امرأةٍ من نِسَائِه، فقال: «إني ذَاكِرٌ لكِ أمراً، فلا عليكِ أن لا تعجلي حتى تَستأمِري أبويك». قالت: وقد عَلِمَ أنَّ أبَويَّ لم يكونا يأمُراني بِفِراقِهِ، قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ . . . الآيتين، قالت عائشة: فقلتُ: أَفِي هذا استأمِرُ أبويَّ؟! فإني أريدُ الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خَيَّر نِساءَه كُلَّهن، فَقُلن مثل ما قالت عائشةُ، ـ رضي الله عنهن[(٤)] ـ. وأخرجه البخاريُّ ومسلمُ جَميعاً، عن قُتَيبة، عن الليث عن الزهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائشة، مثله.

[٥٣٤٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعَاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صَبِيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خَيَّرنا رسول الله ـ ﷺ ـ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً[(٥)]. أخرجاه من حديث الأعمش.

(١) حسن. أخرجه الطبري ٢٨٤٦٤ وإسناده غير قوي لأجل عمر، لكن له شواهد.

(٢) صحيح. أخرجه الطبري ٢٨٤٦٥ وإسناده حسن من أجل محمد بن عمرو، لكن له شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه الطبري ٢٨٤٦٦، وفيه عنعنة ابن إسحق، لكن توبع.

(٤) صحيح. إسناده غير قوي لأجل عبد الله بن صالح، لكن توبع، وللحديث شواهد وطرق، انظر صحيح البخاري ٢٤٦٥ ومسلم ١٤٧٩.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٦٣ ومسلم ١٤٧٧ والترمذي ١١٧٩ والنسائي ٦/ ٥٦ وأحمد ٦/ ١٧٣ وابن حبان ٤٢٦٧.

[٥٣٤٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عَمرو، حدثنا زكريا بن إسحاقَ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يَستأذنُ على رسول الله ـ ﷺ ـ والناسُ ببابه جُلُوسٌ، والنبي ـ ﷺ ـ جالِسٌ، فلم يُؤذَن له. ثم أقبل عُمَر فاستأذن فلم يُؤذَن له. ثم أَذِنَ لأبي بكر وعُمَر فدخلا، والنبي ـ ﷺ ـ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكتٌ، فقال عُمَر: لأُكَلِّمنَّ النبي ـ ﷺ ـ لَعلَّه يضحَكُ، فقال عُمَر: يا رسول الله، لو رأيت ابنةَ زيدٍ ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً، فَوجأتُ عُنقَهَا. فضحك النبي ـ ﷺ ـ حتى بدا نواجذُه، وقال: «هُنَّ حَوْلي كما ترى يَسألْنَني النفقة». فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى عائشة لِيَضربها، وقام عُمَر ـ رضي الله عنه ـ إلى حَفصَة، كلاهُما يقولان: تسألان النبيَّ ـ ﷺ ـ ما ليسَ عنده! فنهاهما رسول الله ـ ﷺ ـ. فَقُلن نساؤهُ: والله لا نسألُ رسول الله بعدَ هذا المجلسِ ما ليس عندَه. قال: وأنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ الخيارَ، فبدأ بعائشةَ فقال: «إني أذكرُ لكِ أمراً ما أحبُّ أن تعجَلي فيه حتى تستأمري أبويكِ». قالت: ما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ . . . الآية، قالت عائشةُ: أَفِيكَ استأمِرُ أبويَّ؟ بل أختارُ الله ورسوله، وأسألُكَ ألاَّ تذكُر لامرأةٍ من نسائِكَ ما اخترتُ. فقال: «إن الله تعالى لم يبعَثني مُعَنِّفاً، ولكن بَعَثني مُعَلِّماً ميسراً، لا تسألني امرأةٌ منهنَّ عما اختَرْتِ إلا أخبرتُها»[١]. انفرد بإخراجه مسلم دُونَ البخاري، فرواه هو والنسائيُّ، من حديثِ زَكريا بن إسحاقَ المكي، به.

[٥٣٤٨] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن يونس حدثنا علي بن هاشم بن البَرِيد، عن محمد بن عُبَيد الله بن علي بن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحُسَين، عن أبيه، عن عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ خَيَّر نساءَه الدنيا والآخرة، ولم يُخَيِّرهنَّ الطَّلاقَ[٢]. وهذا منقطع، وقد رُوِي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحوُ ذلك. وهو خلافُ الظاهرِ من الآيةِ، فإنه قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، أي: أُعطِيكُنَّ حقوقَكُنَّ وأُطلِقُ سَرَاحكُنَّ. وقد اختلف العلماء في جوازِ تَزويج غيره لهُنَّ لو طلقهُنَّ، على قولين، وأصحُّهما نَعَم لو وَقَع، ليحصُلَ المقصودُ من السراح، والله أعلم. قال عكرمةُ: وكان تحته يومئذ تسعُ نسوةٍ، خمسٌ من قريش: عائشةُ، وحَفصةُ، وأم حَبيبة، وسَودَةُ، وأم سَلَمة. وكانت تحته ﷺ صَفِيَّة بنت حُيَيّ النَّضرِيَّة، وميمونةُ بنتُ الحارثِ الهِلَالِيَّة، وزينبُ بنتُ جَحشٍ الأسدية، وجُوَيرِيَةُ بنتُ الحارثِ المُصطَلِقيَّة، رضي الله عنهنَّ وأرضاهن.

﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى واعظاً نساءَ النبي ـ ﷺ ـ اللاتي اخترنَ الله ورسولَه والدارَ الآخرة، واستقر أمرهُنَّ تحتَ رسول الله ـ ﷺ ـ فناسَبَ أن يُخبَرن بحكمهن وتخصِيصهنَّ دون سائر النساء، بأنَّ من يأت منهُنَّ بفاحشة مبينة ـ قال ابن عباس: وهو النشوزُ وسوءُ الخُلق ـ وعلى كلِّ تقديرٍ فهو شَرطٌ، والشرطُ لا يَقتضِي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٧٨ وأحمد ٣/٣٢٨ والنسائي في «الكبرى» ٩٢٠٨.

(٢) أخرجه أحمد ١/٧٨ وإسناده ضعيف، فهو منقطع بين علي بن الحسين ـ زين العابدين ـ وعلي رضي الله عنهما. وله علة ثانية: فيه محمد بن عبيد الله المدني. ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٩٠٤ وقال: ضعفوه. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال يحيى: ليس بشيء. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً ذاهب اهـ فالإسناد ضعيف لهاتين العلتين. والله أعلم.

أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١] ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]. فلما كانت مَحلّتهنّ رفيعةً، ناسب أن يُجعَل الذنبُ لو وَقَع منهن مُغلَّظاً، صيانةً لجنابهنّ وحِجابهنّ الرفيع، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، قال: في الدنيا وفي الآخرة. وعن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد مثله. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سَهلاً هيناً. ثم ذكر عدلَه وفضلَه في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: تُطيع الله ورسوله وتستجيبُ ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، أي: في الجنة، فإنهن في منازِلِ رسول الله ـ ﷺ ـ، في أعلى عِلّيين، فوق منازلِ جميعِ الخلائق، في الوسيلة التي هي أقربُ منازِلِ الجنّة إلى العرشِ.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

هذه آدابٌ أمَر الله تعالىٰ بها نساءَ النبي ـ ﷺ ـ، ونساءُ الأمةِ تَبَعٌ لهنّ في ذلك، فقال تعالىٰ مخاطباً لنساء النبيّ بأنهنّ إذا اتّقين الله كما أمرهُنّ فإنه لا يُشبِهُهنّ أحدٌ من النساء، ولا يلحَقهُنّ في الفضيلة والمنزلة، ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾. قال السدّيُّ وغيره: يعني بذلك ترقيقَ الكلام إذا خاطبْنَ الرجال. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، أي: دَغَل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، قال ابن زيد: قولاً حَسَناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا أنها تخاطِبُ الأجانِبَ بكلام ليس فيه ترْخِيمٌ، أي: لا تخاطِبُ المرأةُ الأجانبَ كما تخاطِبُ زوجَها. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، أي: الْزَمْنَ بيوتكنّ فلا تَخرُجْنَ لغير حاجةٍ. ومن الحوائجِ الشرعيّة الصلاةُ في المسجدِ بشرطِهِ، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

[٥٣٤٩] «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله، ولْيخرُجْنَ وهن تَفِلاتٌ»، وفي روايةٍ: «وبيوتُهن خيرٌ لهن»[١].

[٥٣٥٠] وقال الحافظ أبو بكر البَزّار: حدثنا حُمَيد بن مَسْعَدَة، حدثنا أبو رجاء الكلبي، روحُ بن المسيِّب ثقة، حدثنا ثابت البُنانِيّ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جِئْنَ النساءُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقلن: يا رسول الله، ذَهَب الرجالُ بالفضل والجهادِ في سبيل الله تعالى، فما لنا عملٌ نَدرِكُ به عملَ المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قَعدت ـ أو كلمةً نحوها ـ مِنكُنّ في بَيتِها فإنها تُدرِكُ عَملَ المجاهِدين في سبيل الله»[٢]. ثم قال: لا نعلم رَواه عن ثابتٍ إلا روحُ بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهورٌ.

---

(١) تقدم في تفسير سورة النور عند آية: ٣٧.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه البزار ١٤٧٥ وأبو يعلى ٣٤١٦ وابن الجوزي في «العلل» ١٠٤١ وابن حبان ١/١٩٩ وابن عدي ٣/١٤٤، ومداره على روح بن المسيب، وثقه البزار كما ترى، وقال ابن معين: صويلح. وضعفه ابن عدي بقوله: أحاديثه غير محفوظة، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات، لا تحل الرواية عنه اهـ الميزان ٢٨١٢، وذكر له الذهبي هذا الحديث على أنه من مناكيره. وقال ابن الجوزي: لا يصح.

[٥٣٥١] وقال البزَّارُ أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عَمرو بن عاصم، حدثنا هَمَّام، عن قتادة، عن مُوَرِّق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن المرأة عورةٌ، فإذا خَرَجت استشرفَها الشيطانُ، وأقرب ما تكون بروْحَة ربِّها وهي في قَعرِ بيتها»(١). ورواه الترمذيُّ، عن بَندار، عن عَمرو بن عاصم، به نحوَه.

[٥٣٥٢] ورَوَى البزّار بإسنادِه المتقدم، وأبو دَاود أيضاً، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «صلاةُ المرأةِ في مخدَعِها أفضلُ من صلاتها في بيتها، وصلاتُها في بيتِها أفضلُ من صلاتِها في حُجرَتها»(٢). وهذا إسناد جيد.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، قال مجاهد: كانت المرأةُ تخرج تمشِي بين يَدَي الرجالِ، فذلك تَبرُّج الجاهليةِ. وقال قتادةُ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، يقول: إذا خَرَجتُنَّ من بُيوتِكُنَّ ـ وكانت لهن مِشيَةٌ وتكسُّر وتغنُّج ـ فَنهى الله عن ذلك. وقال مُقاتِل بن حَيَّان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، والتبرُّج: أنها تُلقِي الخِمَار على رأسِها، ولا تَشُدُّه فيوارى قلائِدَها وقِرطَها وعُنُقها، ويبدو ذلك كلُّه منها، وذلك التبرجُ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرُّج.

وقال ابن جرير: حدثني ابنُ زُهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داودُ ـ يعني ابنَ أبي الفُرات ـ حدثنا علباءُ بن أحمرَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريسَ، وكانت ألفَ سنةٍ، وإنَّ بطنَين من ولد آدم كان أحدُهما يسكُن السهلَ، والآخر يسكُن الجبلَ، وكان رجالُ الجبلِ صِباحاً وفي النساءِ دَمَامةٌ. وكان نساءُ السهلِ صِباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهلِ في صورة غُلام، فآجَر نفسَه منه، فكان يخدُمه واتخذَ إبليسُ شيئاً مثلَ الذي يُزَمّر فيه الرِّعاء، فجاء فيه بصوت لم يَسمَع الناس مثلَه، فبلغ ذلك مَن حوله، فانتابُوهم يسمَعُون إليه، واتخذوا عِيداً يَجتمِعُون إليه في السنة، فتبرَّج النساء للرجال، قال: ويتزين الرجالُ لهنَّ، وإن رجلاً من أهل الجبل هَجَم عليهم في عِيدِهم ذلك، فَرأى النِّساءَ وصَبَاحَتهُنَّ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فَتحوَّلوا إليهن. فنزلوا مَعهُنَّ وظهرت الفاحِشةُ فيهنَّ، فهو قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، نَهاهُنَّ أوّلاً عن الشر ثم أمرَهُنَّ بالخير، من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وهذا من باب عطف العامِّ على الخاص. وقولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهذا نصٌّ في دخولِ أزواج النبي ـ ﷺ ـ في أهل البيت هاهنا، لأنهُنَّ سببُ نزولِ هذه الآية، وسبَبُ النزولِ داخلٌ فيه قولاً واحداً، إما وحدَه على قولٍ، أو مع غيرِه على الصَّحيح. ورَوَى ابنُ جرير، عن عِكْرِمَةَ أنه كان يُنادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نَزلت في نساءِ النبي ـ ﷺ ـ خاصّةً. وهكذا روى ابن أبي حاتم، قال: حدثنا علي بن حَرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا حُسَين بن واقد، عن يَزيدَ النحويّ، عن عكرمة، عن ابن عَبَاسٍ في قولـه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، قال: نزلت في نساء النبي ـ ﷺ ـ خاصَّة. وقال عكرمةُ: مَن شاءَ باهلتُه أنها نزلَت في أزواجِ النبي ـ ﷺ ـ. فإن كان المرادُ أنهنّ

---

(١) إسناده على شرط البخاري ومسلم، وله شواهد كثيرة. وأخرج الترمذي ١١٧٣ صدره فقط من حديث ابن مسعود، وقال: حسن غريب. وأصله في «صحيح مسلم» ١٤٠٣ من حديث جابر.

(٢) تقدم في تفسير سورة النور عند آية: ٣٧، وهو جيد كما ذكر المصنف رحمه الله.

كُنَّ سَبَبَ النزولِ دُونَ غيرهِنَّ فصحيحٌ، وإن أُريد أنهُنَّ المرادُ فقط دون غَيرِهن ففي هذا نظرٌ، فإنه قد وردت أحاديثُ تدلُّ على أن المراد أعمُّ من ذلك:

[٥٣٥٣] الحديث الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا عفّان، حدثنا حَمَّاد، أخبرنا عليُّ بن زيد، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يمرُّ بباب فاطمة ستةَ أشهُر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول: الصلاةَ يا أهلَ البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١).
ورواه الترمذيُّ عن عَبدِ بن حُميد، عن عفَّان، بِهِ، وقال: حَسَنٌ غَرِيب.

[٥٣٥٤] حديثٌ آخَرُ، قال ابنُ جَرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا يونُسُ بنُ أبي إسحاقَ، أخبرني أبو داودَ، عن أبي الحمراء قال: رابطتُ المدينة سبعة أشهر على عهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ، قال: رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ إذا طلع الفجرُ جاء إلى باب عليٍّ وفاطمة فقال: «الصلاةَ الصلاةَ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٢)». أبو داود الأعمى هو: نُفَيع بن الحارث، كذَّاب.

[٥٣٥٥] حديثٌ آخر، وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا محمد بن مُصعَب، حدثنا الأوزاعيُّ، عن شداد أبو عَمَّارٍ قال: دخلتُ على واثِلَةَ بن الأسقَع وعندَه قومٌ، فذكروا عَلِياً ـ رضي الله عنه ـ، فلما قامُوا قال لي: ألا أُخبِرُكَ بما رأيتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ؟ قلت: بلى. قال: أتيتُ فاطمةَ أسألها عن عَلِيٍّ فقالت: تَوَجَّهَ إلى رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ. فجلستُ أنتظره حتى جاءَ رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه علي وحَسَنٌ وحُسَينٌ، آخذٌ كلُّ واحدٍ منهما بيدِه حتى دَخَل، فأدنى علياً وفاطمةَ وأجلسَهُما بين يديه، وأجلسَ حَسَناً وحُسَيناً كلُّ واحدٍ منهما على فَخذِه، ثم لفَّ عليهم ثوبَه ـ أو قال: كِسَاءه ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وقال: «اللهمَّ هؤلاء أهلُ بيتي، وأهلُ بيتي أحقُّ»(٣).

[٥٣٥٦] وقد رواه أبو جعفرِ بنُ جرير، عن عبد الكريم بن أبي عُمَير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عَمرو الأوزاعي بسنده نحوه، زاد في آخره: «قال واثلةُ، فقلت: وأنا يا رسول الله من أهلِك؟ قال: «وأنت من أهلي» قال واثلة: إنها من أرْجَى ما أرتجي(٤).

[٥٣٥٧] ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصلٍ، عن الفضل بن دُكَين، عن عبد السلام بن حَرب، عن كُلثوم المحاربي، عن شَدَّادٍ أبي عَمَّار قال: إني لجالس عند واثلةَ بن الأسقَع إذ ذكروا علياً فَشتَمُوه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أُخبِرَكَ عن هذا الذي شتموه، إني عند رسول الله ـ ﷺ ـ إذ جاء علي وفاطمة وحَسَن

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٣٠٦ والحاكم ٣/١٥٨ وأحمد ٣/٢٥٩ ـ ٢٨٥ والطبري ٢٨٤٨٩ كلهم من حديث أنس. قال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والصواب أن إسناده ضعيف لأجل علي بن زيد، فقد ضعفه الحافظ في التقريب، لكن وقع في المستدرك «عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد، وحميد، عن أنس. والظاهر أن هذه متابعة، وليس كذلك والحمل في هذه المتابعة على الحسين بن الفضل البجلي، فإني لم أجد له ترجمة، أو ممن دونه، وقد رواه جمع عن حماد بن سلمة فقالوا: عن علي بن زيد فحسب، والله أعلم. وانظر ضعيف الترمذي ٦٢٧.

(٢) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢٨٤٩١ و٢٨٤٩٢ بهذا الإسناد، وفيه أبو داود النخعي وهو متروك متهم بالكذب، كما قال الحافظ ابن كثير.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤/١٠٧ وأبو يعلى ٧٤٨٦ والطبراني ٢٦٧٠ والبيهقي ٢/١٥٢ وصححه الحاكم ٣/١٤٧ ووافقه الذهبي، وإسناده على شرط الصحيح.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٤/١٠٧ وابن حبان ٦٩٧٦ والحاكم ٣/١٤٧ والطبري ٢٨٤٩٤ من طرق عن الوليد به وإسناده على شرط الصحيح، وقد صرح الوليد فمن فوقه بالتحديث، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وحسين، فألقى ﷺ عليهم كساءً له، ثم قال: «اللهُمَّ هؤلاء أهل بيتي، اللهُمَّ أذهِب عنهم الرجسَ وطَهِّرهم تطهيراً». قلتُ: يا رسول الله، وأنا؟ قال: «وأنتَ»، قال: فَوالله إنها لأوثَقُ عَمَلِي عندي[١].

[٥٣٥٨] حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الله بن نُمير، حدثنا عبدُ الملك بن أبي سُلَيمان، عن عطاءِ بن أبي رباح، حَدَّثني من سَمِع أم سَلَمة تذكر أن النبي ـ ﷺ ـ كان في بيتها، فأتته فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ بِبُرمَةٍ فيها خَزيرة[٢]، فدخلت بها عليه فقال لها: ادعِي زوجَكِ وابنَيك. قالت: فجاء عليٌّ وحَسَن وحُسَين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخَزيرة، وهو على مَنَامَةٍ له، وكانَ تحته كساءٌ خَيبَرِيٌّ، قالت: وأنا في الحجرة أُصَلِّي، فأنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: قالت: فأخذ فَضلَ الكِسَاء فَغَطَّاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فَأَذهِب عنهم الرجس وطَهِّرهم تطهيراً، قالت: فأدخلتُ رأسي البيتَ، فقلتُ: وأنا معكُم يا رسول الله؟ فقال: إنَّكِ إلى خَيرٍ، إنَّكِ إلى خيرٍ»[٣]. في إسنادِه مَن لم يُسَمَّ، وهو شيخُ عَطَاء، وبقيةُ رجالِه ثقاتٌ.

[٥٣٥٩] طريقٌ أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن أبي المُعَذَّلِ عَطِيَّةَ الطُّفَاوي، عن أبيه أنَّ أُمَّ سَلَمة حَدَّثته قالت: بينما رسول الله ـ ﷺ ـ في بيتي يوماً إذ قالت الخادمُ: إن فاطمةَ وعليًّا بالسُّدَّةِ قالت: فقال لي: قومي فَتَنَحَّيْ لي عن أهل بيتي. قالت: فقمتُ فتنحَّيت في البيت قَرِيباً، فدخَلَ عليٌّ وفاطمة، ومعهما الحَسَن والحُسَين، وهما صَبِيَّان صغيران، فأخذ الصِبيَّين فوضعهما في حِجْرِه فَقَبَّلهما، واعتنق علياً بإحدى يَدَيه وفاطمةَ باليد الأُخرى، وقَبَّل فاطمة وقَبَّل علياً، وأغدَق عليهم خَميصةً سوداء وقال: اللهُمَّ، إليكَ لا إلى النارِ أنا وأهلُ بيتي. قالت: فقلتُ: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليكَ. قال: وأنت[٤].

[٥٣٦٠] طريقٌ أخرَى، قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيبٍ حدثنا الحسن بن عَطِيَّةَ، حدثنا فُضَيل بن مَرزوق، عن عطية، عن أبي سَعيد، عن أُمِّ سلمة أن هذه الآيَة نزلَت في بيتها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قالت: وأنا جالسةٌ على بابِ البيتِ فقلتُ: يا رسول الله، ألستُ من أهلِ البيتِ؟ فقال: «إنكِ إلى خير، أنتِ من أزواجِ النبي ـ ﷺ ـ. قالت: وفي البيتِ رسول الله ـ ﷺ ـ وعليٌّ، وفاطمةُ، والحَسنُ، والحُسَين، ـ رضي الله عنهم ـ[٥].

[٥٣٦١] طريقٌ أخرَى، رواه ابنُ جرير أيضاً، عن أبي كُرَيب، عن وَكيع، عن عبد الحميد بن بَهرام، عن شهرِ بن حَوْشَبٍ عن أُمِّ سلمَةَ بنحوه[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٣ والطبراني في «الكبير» ٢٦٦٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/ ١٦٨: رواه الطبراني بإسنادين ورجال السياق رجال الصحيح، غير كلثوم بن زياد، وثقه ابن حبان، وفيه ضعف اهـ. ولأصله طرق، وتقدم.

(٢) البرمة: القِدْر. والخزيرة: شبه عصيدة بلحم أو حساء من الدسم والدقيق.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٢ وفيه راوٍ لم يسمّ، لكن له طرق وشواهد أخرى.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٦ و٣٠٤ و٣٠٥ والطبراني ٢٣/ ٣٩٣ وفيه عطية الطفاوي، قال الذهبي في الميزان ٥٦٧٤: وهاه الأزدي اهـ. وتفرد فيه بألفاظ منكرة.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ٣٠٤ والترمذي ٣٨٧٠ والطبري ٢٨٤٩٧ وأبو يعلى ٦٨٨٨ وفيه عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف، لكن توبع كما ترى. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو أحسن شيء روي في هذا الباب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٥، وشهر لم يصرح بالتحديث، لكن توبع، وللحديث طرق وشواهد.

[٥٣٦٢] طريقٌ أخرَى، قال ابنُ جَرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا خالد بن مَخلد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زَمَعة قال: أخبرتني أم سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ جمع عَلِياً وفاطمة والحسن والحُسَين، ثم أدخلهم تحت ثَوبه، ثم جأر إلى الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ، ثم قال: «هؤلاء أهلُ بيتي». قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم فقال: أنتِ من أهلي»[١].

[٥٣٦٣] طريق أخرى، رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطُوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سُليمان الأصبهانيّ، عن يحيى بن عُبَيد المكي، عن عطاء، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أمّه بنحو ذلك[٢].

[٥٣٦٤] طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا مُصعب بن المقدام، حدثنا سعيد ابن زَربيٍّ، عن محمد بن سِيرين، عن أبي هُرَيرة، عن أم سَلَمة قالت: جاءت فاطِمَةُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ببُرْمة لها قد صَنَعت فيها عَصِيدَة تحمِلها على طَبَق، فوضَعَتها بين يديه فقال: أين ابنُ عَمِّك وابناكِ؟ فقالت: في البيتِ. فقال: «ادعِيهم»: فجاءت إلى عَليٍّ فقالت: أجبْ رسولَ الله أنتَ وابناك. قالت أم سَلَمة: فلما رآهُم مقبِلين مَدَّ يده إلى كساءٍ كان على المنامة، فمَدَّه وبَسَطه، وأجلسَهُم عليه، ثم أخذ بأطرافِ الكِسَاءِ الأربعة بِشِماله، فَضَمَّه فوق رُؤوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى رَبِّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ فقال: «اللهُمَّ، هؤلاءِ أهلُ بيتِي، فَأَذهِب عنهم الرِجْسَ وطَهِّرهم تطهيراً»[٣].

[٥٣٦٥] طريقٌ أخرى، قال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا عبد الله بن عبد القُدُوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذَكَرنا عليَّ بن أبي طالب عند أم سَلَمَةَ، فقالت: في بيتي نَزَلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت أُمُ سَلَمة: جاء رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بيتي فقال: «لا تأذني لأحدٍ». فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجُبها عن أبيها. ثم جاء الحسنُ فلم أستطع أن أحجُبَه عن أمه وجدِّه، ثم جاء الحُسَين فلم أستطع أن أحجُبه، ثم جاء عليٌّ فلم أستطع أن أحجُبَه فاجتمعوا فَجللهم رسول الله ـ ﷺ ـ بكساءٍ كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهلُ بيتي، فَأَذهِبْ عنهم الرجسَ وطَهِّرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآيةُ حين اجتمَعُوا على البِسَاطِ، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعَمَ، وقال: «إنك إلى خير»[٤].

[٥٣٦٦] حديثٌ آخرُ، قال ابنُ جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بِشْرٍ، عن زكريا، عن مُصعَبِ بن شَيْبَةَ، عن صفية بنتِ شيبة قالت: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: خرج رسول الله ـ ﷺ ـ ذات غَدَاةٍ، وعليه مِرطٌ مُرَحّل[٥] من شَعَرٍ أسودَ، فجاء الحسن فأدخلَه معه، ثم جاء الحُسَين فأدخله معه، ثم

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٨ وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤٩٩٩ بإسناد حسن، وله شواهد وطرق.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٦ وفي إسناده سعيد بن زربي، وهو ضعيف لكن توبع كما ترى.

(٤) ضعيف بهذا اللفظ. أخرجه الطبري ٢٨٥٠٢، فيه عبد الله بن عبد القدوس، وهو ضعيف، متروك الحديث. ولأصله شواهد كما ترى.

(٥) مرط: مرحّل: إزار خزّ فيه عَلَم.

جاءت فاطمة فأدخلَها معه، ثم جاء علي فأدخلَه معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١). ورواه مُسلِم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن محمد بن بشر، به.

[٥٣٦٧] طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سرَيج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يَزِيدَ، عن العوام بن حَوْشَبٍ، عن عَمٍّ له قال: دخلتُ مع أبي عَلى عائشةَ، فسألتها عن عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، فقالت ـ رضي الله عنها ـ: تسألني عن رَجُلٍ كان مِن أحبِّ الناسِ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، وكانت تحته ابنتُه وأحبُّ الناس إليه؟ لقد رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ دعا علياً وفاطمةَ وحَسَناً وَحُسَيناً، فألقى عليهم ثَوباً فقال: «اللهُمَّ، هؤلاء أهل بيتي، فَأَذهِبْ عنهم الرجس وَطهِّرهم تطهيراً». قالت: فدنوتُ منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهلِ بيتِك؟ فقال: «تَنَحّي، فإنك على خير»(٢).

[٥٣٦٨] حديث آخر، قال ابنُ جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا بكرُ بن يحيى بن زَبّانَ العنزي، حدثنا مَندَلٌ، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: نزلت هذه الآيةُ في خمسةٍ: فيَّ، وفي عَلِيٍ، وحَسَنٍ وحُسَينٍ، وفاطمةَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٣). قدْ تقدم أن فُضَيل بنَ مَرزُوقٍ رواه عن عطيةَ، عن أبي سعيدٍ، عن أمِّ سلمة كما تقدم. وروى ابنُ أبي حاتم من حديث هارونَ بن سعدِ العِجْلِي، عن عطيَّةَ، عن أبي سَعيدٍ موقوفاً، فالله أعلم.

[٥٣٦٩] حديثٌ آخرُ، قال ابن جَرير: حدثنا ابن المُثنّى، حدثنا أبو بكر الحَنفي، حدثنا بُكَير بن مِسمَارٍ قال: سَمِعت عامر بنَ سعدٍ قال: قال سعدٌ: قالَ رسول الله ـ ﷺ ـ حين نَزَل عليه الوحيُ، فأخذ علياً وابنيه وفاطمةَ فأدْخَلَهُم تحت ثوبه، ثم قال: «ربِّ. هؤلاء أهلي وأهلُ بيتي»(٤).

[٥٣٧٠] حديث آخر، وقال مُسلم في صَحيحه: حدثني زُهَير بن حَرب، وشُجاع بن مَخْلَد جَميعاً، عن ابن عُلَيَّة، قال زُهَير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حَيَّان، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعُمَر بن مسلم إلى زَيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حُصَين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ـ ﷺ ـ وسَمِعتَ حديثه، وغزَوت معه، وصلَّيتَ خلفه، لقد لقيت يا زيدُ خيراً كثيراً، حَدِّثنا يا زيد ما سَمِعتَ من رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: يا ابنَ أخي، والله لقد كَبِرَتْ سنّي، وقَدُم عَهدي، ونسيتُ بعضَ الذي كنتُ أعِي من رسول الله ـ ﷺ ـ، فما حَدَّثتكُم فاقبَلُوا، وما لا فلا تُكَلِّفُونيه. ثم قال: قام رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يدعى خُمّاً ـ بين مكة والمدينة ـ فَحمِدَ الله وأثنى عليه، وَوَعظ وذَكَّر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بَشرٌ يُوشِكُ أن يأتيَ رسولُ ربّي فأجيبَ، وأنا تارك فيكم ثَقَلَين،

---

(١) هذا السياق، أقرب وأصح من غيره، لكونه عند الإمام مسلم ٢٤٢٤. ومع ذلك فيه مصعب بن شيبة، ضعفه الجمهور: أبو حاتم وأحمد وأبو داود والدارقطني، مع أنه من رجال مسلم!!.

(٢) ضعيف جداً، فيه راوٍ لم يسمّ، ثم إن المتن منكر، فهذا الخبر يعرف من حديث أم سلمة. والله أعلم.

(٣) باطل بهذا اللفظ، أخرجه الطبري ٢٨٤٨٧، وفيه عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف روىٰ عن أبي سعيد مناكير كثيرة. وفيه بكر بن يحيى بن زبّان مجهول، وهو باطل مرفوعاً، فالآية نزلت في أزواج النبي ﷺ خصوصاً، ودخل فاطمة وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم في عموم ذلك. والحمل فيه على عطية العوفي فإنه كان يدلس أبا سعيد الكلبي المتهم، بأبي سعيد الخدري، لذا جاءت في رواياته المناكير الكثيرة. وهو من كلام أبي سعيد أشبه، ومع ذلك، هو غير صحيح، والله أعلم.

(٤) أخرجه الطبري ٢٨٥٠١ وإسناده غير قوي لأجل بشير بن مسمار.

أوَّلهما كتاب الله فيه الهُدَى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فَحَثَّ على كِتاب الله وَرَغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بَيتي، أذكّركُم الله في أهل بيتي، أُذَكِّركم الله في أهل بيتي، ثلاثاً. فقال له حُصَين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه مِن أهلِ بيته قال: نساؤهُ من أهلِ بيتِه، ولكن أهلُ بيته من حُرِمَ الصَّدقَة بعدَه. قال: ومن هُم؟ قال: هم آلُ عَلِيٍّ، وآلُ عَقِيل، وآلُ جعفر، وآلُ عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصَّدَقة؟ قال: نعم[1].

[٥٣٧١] ثم رواه عن محمد بن بَكّار بن الرَّيَّانِ، عن حَسّان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حَيَّانَ، عن زيد بن أرقَمَ، فذكَر الحديثَ بنحو ما تقدَّم، وفيه: فقلنا له: من أهلُ بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العَصْرَ مِنَ الدهرِ، ثم يُطَلِّقها فترجع إلى أبيها وقَوْمِها، أهلُ بيته أصلُه وعَصَبَتُه الذين حُرِموا الصدقَة بعده[2]. هكذا وَقَع في هذه الرواية والأَولى أولى، والأخذُ بها حَرِي. وهذه الثانيةُ تحتملُ أنه أرادَ تفسيرَ الأهلِ المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم آله الذين حُرِموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواجَ فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعاً بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديثِ المتقدِّمة إن صَحَّت، فإن في بعض أسانيدِها نظراً[3]، والله أعلم. ثم الذي لا يَشُكُّ فيه من تَدَبر القرآن أن نساءَ النبي ـ ﷺ ـ داخلاتٌ في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن سياق الكلام معهُنَّ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، أي واعمَلن بما ينزل الله على رسوله في بُيوتِكنَّ من الكتاب والسنة، قاله قتادةُ وغيرُ واحد. واذكرن هذه النعمة التي خُصِصْتُنَّ بها من بين الناس، إنَّ الوحي ينزِل في بُيوتِكُنَّ دون سائر الناسِ، وعائشة الصِّدِّيقَةُ بنت الصديق، أولاهُنَّ بهذه النعمة، وأحظاهُنَّ بهذه الغَنيمة، وأخصُّهن من هذه الرحمة العَمِيمة، فإنه لم يَنزِل على رسول الله ـ ﷺ ـ الوحيُ في فِراشِ امرأةٍ سواها، كما نَصَّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعضُ العلماء: لأنه لم يتزوَّج بكراً سواها، ولم يَنم معها رَجُلٌ في فراشها سِوَاه، فناسبَ أن تُخَصَّص بهذه المزيَّة، وأن تفرد بهذه الرُّتبة العَلِيَّةِ، ولكن إذا كان أزواجُه من أهلِ بيته، فقرابَتُه أحقُّ بهذه التسمية، كما تَقَدَّم في الحديثِ: «وأهل بيتي أحقُّ»[4].

[٥٣٧٢] وهذا يشبِه ما ثبت في صَحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ لِما سُئِل عن المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم، فقال: «هو مَسْجِدي هذا»[5]. فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نَزَلت في مَسْجِد قُباء، كما ورد في الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أسِّسَ على التقوى من أول يوم فَمَسجدُ رسول الله ـ ﷺ ـ أولَى بِتَسمِيته بذلك، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوَانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن أبي جَميلة أنَّ الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ استُخلفَ حين قُتِل علي ـ رضي الله عنهما ـ، فبينما هو يُصَلِّي إذ وَثَب عليه رجلٌ فطعنه بخنجر، وزعم حُصَين أنه بلغه أن الذي طَعَنه رجلٌ من بني أسد، وحَسَنٌ

---

(١) أخرجه مسلم ٢٤٠٨ والنسائي في «الكبرى» ٨١٧٥ وأحمد ٤/٣٦٦ والطحاوي في «المشكل» ٣٤٦٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٠٨ والطبراني ٥٠٢٦.

(٣) تقدم الحكم على كثير من تلك الأحاديث بالوهن، وبعضها الآخر، حسن، والله أعلم.

(٤) هو بعض الحديث ٥٣٥٨.

(٥) تقدم في التوبة: ١٠٨.

ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وَرِكه، فمرض منها أشهراً، ثم بَرَأ فقعَد على المنبر، فقال: يا أهلَ العراقِ، اتقُوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانُكم، ونحن أهلُ البيت الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قال: فما زالَ يقولُها حتى ما بقي أحد من أهلِ المسجدِ إلا وهو يَحنُّ بكاء. وقال السدِّي، عن أبي الدَّيلَم قال: قال علي بن الحُسَين لِرجُلٍ من أهل الشام: أما قرأتَ في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قال: نعم، ولأنتم هُم؟ قال: نَعَم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أي: بِلُطفه بِكُنَّ بلغتُنَّ هذه المنزلة، وبخبرته بِكُنَّ وأنكُنَّ أهلٌ لذلك أعطاكُنَّ ذلك وخصَّكن بذلك. قال ابنُ جرير: واذكُرن نعمةَ الله عليكُنَّ بأن جعلكُنَّ في بيوتٍ تُتلَى فيها آياتُ الله والحكمةُ، فاشكُرنَ الله على ذلك واحمدنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أي: ذا لُطفٍ بِكُنَّ، إذ جعلكُنَّ في البيوت التي تُتلى فيها آياته والحكمة ـ وهي السنةُ ـ خَبيراً بِكُنَّ إذِ اختاركُنَّ لرسوله أزواجاً. وقال قتادة: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، قال: يمتَنُّ عليهن بذلك. رواه ابن جرير. وقال عطيةُ العَوفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، يعني: لَطيفٌ باستخراجِها، خَبيرٌ بموضعها. رواه ابن أبي حاتمٍ، ثم قال: وَكَذا رَوَى الربيعُ بنُ أنَسٍ، وَقَتادةُ، رَحِمَهما الله.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

[٥٣٧٣] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا عبدُ الواحد بن زيادٍ، حدثنا عُثمان بن حَكِيم، حدثنا عبد الرحمن بن شَيبَةَ، قال سَمِعتُ أُمَّ سلمة زوجَ النبي ـ ﷺ ـ تقولُ: قلتُ للنبي ـ ﷺ ـ: ما لنا لا نُذكَرُ في القرآنِ كما يُذكر الرِّجال؟ قالت: فلم يَرُعني منه ذاتَ يوم إلاَّ ونداؤه على المِنبرِ، قالت: وأنا أُسرِّح شعري، فَلَفَفتُ شَعري، ثم خرجت إلى حُجَرتي حُجرَة بيتي، فجعلتُ سَمْعِي عندَ الجَريدِ، فإذا هو يقولُ عند المنبر: «يا أيها الناسُ، إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾... إلى آخر الآية[١]. وهكذا رواه النسائي وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله.

[٥٣٧٤] طريق أخرى عنها، قال النسائي أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سُوَيد، أخبرنا عبد الله، عن شَرِيك، عن محمد بن عَمرو، عن أبي سَلَمة، عن أم سلمة أنها قالت للنبي ـ ﷺ ـ: يا نَبِيَّ الله، ما لي أسمع الرجال يُذكَرُون في القرآن، والنساءُ لا يُذكَرنَ؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾[٢].

[٥٣٧٥] وقد رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي معاوية، عن محمد بنِ عمرو، عن أبي سَلَمة:

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ٣٠٥ والنسائي في «التفسير» ٤٢٥ والطبراني ٢٣/ (٦٥٠) وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم غير عبد الرحمن، وهو ثقة.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» ٤٢٤، ورجاله ثقات، سويد هو ابن نصر، وثقه غير واحد، لكن فيه إرسال، لأن أبا سلمة رواه بواسطة كما هو الآتي، لكن له طرق.

أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: حَدَّثه عن أمِّ سلمة ـ رضي الله عنه ـ قالت: قلت: يا رسول الله، أيذكَرُ الرجالُ في كلِّ شيء ولا نُذكَرُ؟! فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾... الآية(١).

[٥٣٧٦] طريق أخرى، قال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ قال: قالت أمُّ سَلَمة: يا رسول الله، يُذكَرُ الرجال ولا نُذكَرُ؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾... الآية(٢).

[٥٣٧٧] حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب قال: حدثنا سَيَّارُ بنُ مُظاهِرٍ العَنَزِيّ، حدثنا أبو كُدَينة يحيى بن المهلَّب، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساءُ للنبي ـ ﷺ ـ: ما له يَذكُر المؤمنين ولا يَذكُر المؤمنات؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾... الآية(٣).

[٥٣٧٨] وحدثنا بشر، حدثنا يزيدُ، حدثنا سَعِيدٌ، عن قتادة قال: دخل نساءٌ على نساءِ النبي ـ ﷺ ـ، فقلن: قد ذَكَرَكُنَّ الله في القرآن، ولم نُذكَر بشيء، أما فينا ما يُذكَر؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾(٤) الآية. فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دليلٌ على أن الإيمانَ غيرُ الإسلام، وهو أخصُّ منه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

[٥٣٧٩] وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حِينَ يزني وَهُو مؤمن»(٥). فيسلبه الإيمانَ، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماعِ المسلمين، فَدَلَّ على أنه أخصُّ منه، كما قَرَّرناه في أوَّل شَرْح البُخاري.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾، القُنوتُ: هو الطاعة في سكون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو الإيمان، ثم القنوتُ ناشيء عنهما. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ هذا في الأقوال، فإن الصِّدق خَصلةٌ محمودةٌ، ولهذا كان بعضُ الصحابة لم تُجرَب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامةٌ على الإيمان، كما أن الكَذِب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، [كما في الحديث](٦):

[٥٣٨٠] «عليكم بالصدق، فإن الصِّدق يهدي إلى البر، وإن البرَّ يهدِي إلى الجنة، وإياكُم والكَذِبَ، فإنَّ الكَذِب يهدِي إلى الفُجور، وإن الفُجور يهدِي إلى النار، ولا يزالُ الرجلُ يصدُق ويتحرَّى الصِّدق حتى يكتَب عند الله صِدِّيقاً، ولا يزالُ الرجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكَذِب حتى يكتَب عند الله كَذَاباً»(٧). والأحاديثُ فيه كثيرةٌ جداً. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، هذه سَجِيَّةُ الأثباتِ، وهي الصبرُ على المصائب، والعلمُ بأن المقدورَ

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٨٥٠٩ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، لكن لحديثه شواهد وطرق وباقي الإسناد رجال مسلم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٥١١، وفيه إرسال بين مجاهد وأم سلمة، لكن يصلح متابعاً.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٥١٠ بإسناد ضعيف لضعف قابوس، لكن له طرق كما ترى، فالمتن صحيح.

(٤) أخرجه الطبري ٢٨٥٠٥ مرسلاً، وهو شاهد لما قبله.

(٥) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٩١.

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٩٤ ومسلم ٢٦٠٧ وابن حبان ٢٧٣ من حديث ابن مسعود.

كائنٌ لا محالَةَ، وتَلَقّي ذلك بالصَّبر والثباتِ، وإنما الصبرُ عند الصدمةِ الأولى، أي: أصعَبُه في أوَّلِ وَهْلَةٍ، ثم ما بعده أسهَلُ منه، وهو صِدقُ السجيَّة وثباتها. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، الخشوعُ: السكون والطمأنينةُ، والتؤدةُ والوقارُ والتواضُع. والحامِلُ عليه الخوفُ من الله ومراقبتِه.

[٥٣٨١] كما في الحديث: «اعبدِ الله كأنك تَراه، فإن لم تكن تَراه فإنه يراكَ»(١).

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، الصدقةُ: هي الإحسانُ إلى الناسِ المحاويج الضُّعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسِبَ، يُعطُون من فُضولِ الأموالِ طاعةً لله، وإحساناً إلى خَلْقِه.

[٥٣٨٢] وقد ثبت في الصحيحين: «سَبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه» فذكر منهم: «ورَجُلٌ تصدَّق بصَدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يَمينُه»(٢).

[٥٣٨٣] وفي الحديث الآخر: «والصدقة تُطفِيءُ الخَطيئَة كما يُطفِيءُ الماء النار»(١٠) والأحاديثُ في الحثِّ عليها كثيرةٌ جداً، له مَوضِعٌ بِذاتِهِ. ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾. وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه:

[٥٣٨٤] «الصوم زكاةُ البَدَنِ»(٣)، أي: يُزكّيه ويُطَهِّره وينقيه من الأخلاط الرديئَة طبعاً وشرعاً. كما قال سَعِيدَ بنُ جُبَيرٍ: من صام رمضان وثلاثةَ أيام من كلِّ شهرٍ دَخَلَ في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

[٥٣٨٥] ولما كان الصومُ من أكبر العَون على كسر الشهوة ـ كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءَةَ فَلْيتزوَّجْ، فإنه أغضُّ للبَصرِ، وأحصَنُ للفرْجِ، ومَن لم يستطع فعليه بالصومِ فإنه له وِجاءٌ»(٤) ـ ناسَب أن يذكُر بعده: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، أي: عن المحارم والمآثم لا عن المُباح، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

[٥٣٨٦] وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله، حدثنا محمد بن جابر، عن علي بن الأقمر، عن الأغرِّ أبي مسلم، عن أبي سَعِيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا أيقظ الرجلُ امرأته من الليل فَصلّيا ركعتين، كُتِبَا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ»(٥). وقد رَوَاه أبو دَاود، والنسائي، وابنُ ماجه، من حديث الأعمش عن علي بن الأقمر عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد وأبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ، بمثله.

[٥٣٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابنُ لهيعَةَ، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قلتُ: يا رسول الله أيُّ العِبادِ أفضَلُ درجة عند الله تعالى يوم

---

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: «١».

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٧١.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه ابن أبي شيبة ٣/٧. وابن ماجه ١٧٤٥ وابن عدي ٦/٣٣٦ من حديث أبي هريرة، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناد الطريقين معاً ضعيف، فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو متفق على تضعيفه. وورد عن أبي هريرة موقوفاً، أخرجه وكيع في «الزهد» ٢/٣/٨٢.

(٤) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٣.

(٥) حديث صحيح، إسناده حسن في الشواهد لأجل محمد بن جابر، وقد توبع. وأخرجه أبو داود ١٣٠٩ والنسائي في «الكبرى» ١٣١٠ وابن ماجه ١٣٣٥ وابن حبان ٢٥٦٩ من طرق عن سعيد وأبي هريرة، صححه الحاكم ١/٣١٦ على شرطهما، ووافقه الذهبي.

القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». قال: قلت: يا رسول الله، ومَن الغَازِي في سبيل الله؟ قال: «لو ضَرَب سيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضِب دماً لكان الذاكرون الله أفضلَ منه»[(١)].

[٥٣٨٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفّان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يَسِيرُ في طريق مكّةَ، فأتى على جُمْدان فقال: هذا جُمْدان، سيروا فقد سبق المُفرِّدون؟ قالوا: وما المُفرِّدون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً ثم قال: «اللهم اغفِر للمحلِّقين». قالوا: والمُقصِّرين؟ قال: «اللهم، اغفِر للمُحلِّقين». قالوا: والمُقصِّرين قال: «والمُقصِّرين»[(٢)]. تَفرَّدَ به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره.

[٥٣٨٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا حُجين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد بن أبي زياد ـ مولى عبد الله بن عَيَّاشِ بن أبي ربيعة ـ أنّه بَلَغه عن مُعَاذ بن جَبَل ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما عَمِل آدمي عَمَلاً قطُّ أَنجَى له من عذاب الله من ذِكْرِ الله». وقال معاذ: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَلِيكِكُم، وأرفعِها في دَرَجاتِكم، وخير لكم من تعاطي الذَهَبِ والفِضَّةِ، ومن أن تَلْقَوا عَدُوَّكم غَداً فتضربوا أعناقهم ويَضرِبُوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ذكر الله ـ عَزَّ وجلّ ـ»[(٣)].

[٥٣٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا ابنُ لَهيعة، حدثنا زَبَّان بنُ فائِدٍ، عن سهل بن مُعَاذِ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أن رجلاً سأله فقال: «أيُّ المجاهدين أعظمُ أجراً يا رسول الله؟ فقال: «أكثرُهم لله ذكراً. قال: فأيُّ الصائمين أكثَرُ أجراً؟ قال: «أكثرُهم لله ذِكْراً». ثم ذكر الصلاة والزكاةَ والحجّ والصدقةَ، كُل ذلك يقولُ رسول الله ـ ﷺ ـ: «أكثرُهم لله ذكراً». فقال أبو بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ: ذهب الذّاكِرُون بكلِّ خير. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أجل[(٤)]. وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ الآية، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، خبَرٌ عن هؤلاء المذكورين كُلِّهم، إن الله ـ سبحانه ـ قد أعد لهم، أي: هَيَّأ لهم مَغْفِرةً منه لذنوبهم، و﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنّةُ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٤١١ وإسناده حسن، وأصله في الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، وفي إسناده علتان، ابن لهيعة، واهٍ، وكذا درّاج وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم. ثم إن المتن منكر، فإن المجاهد أفضل من الذاكر، حيث إن المجاهد يستطيع أن يذكر الله وهو في جهاده، بخلاف الذاكر.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣٩، وإسناده ضعيف، زياد بن أبي زياد، لم يدرك معاذاً كما قال الهيثمي ـ رحمه الله ـ في «المجمع» ١٦٧٤٤.

(٤) إسناده ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٨ وابن المبارك ١٤٢٩ والطبراني ٢٠/ ١٨٦، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٤٨: فيه زبّان بن فائد، وهو ضعيف، وقد وُثق. وكذلك ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد ثقات. اهـ وله علة ثالثة: سهل بن معاذ، ذكره الذهبي في «الميزان» ٣٥٩٢ وقال: ضعفه ابن معين، وقال ابن حبان في «الثقات» لست أدري أَوَقَع التخليط منه، أو من صاحبه زبّان بن فائد، والله أعلم.

[٥٣٩١] قال العوفيُ، عن ابن عباس، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ . . . الآية، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ انطلق ليخطُبَ على فتاه زيدِ بن حارثة، فدخَل على زينبَ بنتِ جَحشٍ الأسديَّة فخطَبها، فقالت: لستُ بناكِحَتِه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: بل فَانْكِحِيهِ، قالت: يا رسول الله، أُؤامر في نفسي. فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسولِه ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ . . . الآية، قالت: قد رَضِيتَه لي مُنْكَحاً يا رسول الله؟ قال: نعم: قالت: إذاً لا أَعصِي رسول الله ـ ﷺ ـ، قد أنكحتُه نفسي[١].

[٥٣٩٢] وقال ابنُ لَهِيعَة، عن ابن أبي عَمْرَة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خَطَب رسول الله ـ ﷺ ـ: زينبَ بنت جحش لزيدِ بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خيرٌ منه حَسَباً ـ وكانت امرأة فيها حِدَّةٌ ـ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ . . . الآية كلَّها[٢]. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتلُ بن حَيَّان: أنها نزلَت في زينبِ بنتِ جَحشٍ الأسديَّةِ حين خطبَها رسول الله ـ ﷺ ـ على مولاه زيدِ بنِ حارِثَةَ، فامتنعَتْ ثمَّ أجابتْ.

[٥٣٩٣] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نَزَلت في أُمِّ كلثومِ بنتِ عُقبَةَ بن أبي مُعيْط، وكانت أوَّلَ مَن هاجَرَ مِنَ النساءِ ـ يعني بعدَ صُلحِ الحُدَيبية ـ فوَهبت نفسها للنبيِّ ـ ﷺ ـ، فقال: قد قَبِلتُ. فَزوَّجها زيد بن حارثة ـ يعني والله أعلم بعد فِراقِه زينبَ ـ فَسَخِطَت هي وأخوها وقالا: إنَّما أردنا رسول الله ـ ﷺ ـ فزوَّجنا عبدَه. قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ . . . إلى آخر الآية. قال: وجاء أمرٌ أجمعُ من هذا: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قال: فذاك خاصٌّ وهذا إجماعٌ[٣].

[٥٣٩٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن ثابت البُناني، عن أنس قال: خَطَب النبيُّ ـ ﷺ ـ على جُلَيْبيبٍ امرأةً من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى استأمِرَ أُمَّها، فقال النبي ـ ﷺ ـ: فَنَعم إذاً. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله إذاً، ما وَجَدَ رسول الله ـ ﷺ ـ إلا جُلَيبيباً، وقد منعناها من فُلَانٍ وفُلَانٍ. قال: والجاريةُ في سِترها تسمَعُ، قال: فانطلق الرجلُ يُريدُ أن يخبر النبي ـ ﷺ ـ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تَرُدُّوا على رسول الله ـ ﷺ ـ أمره، إن كان قد رَضِيه لكم فَأَنكِحُوه. قال: فكأنها جلَت عن أبويها، وقالا: صَدَقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن كنتَ رضِيته فقد رَضيناه. قال: «فإني قد رَضِيتُه». قال: فَزَوَّجها. ثم فَزِع أهلُ المدينة، فَرَكِب جُلَيبيبٌ فوجدُوه قد قُتِل، وحوله ناسٌ من المشركين قد قَتَلهم، قال أنسٌ: فلقد رأيتها وَإنَّها لَمن أنفقِ بَيتٍ بالمدينة[٤].

[٥٣٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد ـ يعني ابن سَلَمة ـ عن ثابت، عن كِنَانة بن نُعَيم العَدَوي، عن أبي بَرْزَةَ الأسلَمِيِّ أن جُلَيبِيباً كان امرأً يدخلُ على النساء يَمُرُّ بهن ويُلاعِبُهُنَّ، فقلتُ لامرأتي: لا يدخلن اليوم عليكُنَّ جُليبيبٌ، فإنه إن دَخَل عليكنَّ لأفعلَنَّ ولأفعلَنَّ. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيِّم لم يُزَوِّجها حتى يعلم: هَل لنبيِّ الله ﷺ فيها حاجةٌ أم لا؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لرجلٍ من الأنصار:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨٥١٣ بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي لكن لأصله شواهد.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٥١٦ بإسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة لكن توبع كما ترىٰ.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٨٥١٧ عن ابن زيد، وهذا معضل وابن زيد واهٍ.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ١٣٦ وابن حبان ٤٠٥٩، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٣٦٨ وقال: ورجال أحمد، رجال الصحيح، وهو كما قال، إسناده على شرطهما.

«زَوِّجني ابنتَك». قال: نعم، وكرامةً يا رسول الله، ونُعمةَ عَينٍ. فقال: إني لستُ أريدها لنفسي. قال: فلِمَن يا رسول الله؟ قال: لِجُلَيبيبٍ. فقال: يا رسول الله، أشاوِرُ أُمَّها. فأتى أمها فقال: رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب ابنتَكِ؟ فقالت: نَعَم ونُعمَةَ عَينٍ. فقال: إنه ليس يخطُبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أَجُلَيبيبٌ إنيه؟! أجُلَيبيبٌ إنيهِ؟! لا، لَعَمْرُ الله لا تَزَوَّجه. فلما أراد أن يقومَ ليأتي رسول الله ـ ﷺ ـ فَيُخبِرَه بما قالت أمها، قالت الجارية: مَن خطبني إليكم؟ فأخبرتها أُمُّها. وقالت: أتردُّون على رسول الله ـ ﷺ ـ أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يُضَيِّعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: شأنَك بها. فزَوّجها جُلَيبيباً. قال: فَخرج رسول الله ـ ﷺ ـ في غَزاةٍ له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: هل تَفقِدُون من أحد؟ قالوا: نَفقِد فُلاناً وَنفقِد فُلاناً. قال: انظرُوا هل تَفقِدُون من أحدٍ؟ قالوا: لا. قال: لكني أفقِدُ جُلَيبِيباً». قال: فاطلبُوه في القتلى. فطلبوه فوجَدُوه إلى جَنبِ سَبعةٍ قد قتَلهُم ثم قَتَلُوه. فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جَنْبِ سبعةٍ قد قَتَلهم ثم قتلوه، فأتاه رسول الله ـ ﷺ ـ فقام عليه، فقال: قَتَل سبعة وَقتَلُوه! هذا مني وأنا منه. مَرَّتين أو ثلاثاً، ثم وَضَعه رسول الله ـ ﷺ ـ على ساعِدَيه وحفر له، ما له سرير إلا ساعدُ النبي ـ ﷺ ـ، ثم وَضَعه في قبره، ولم يُذكَر أنه غَسَله ـ رضي الله عنه ـ. قال ثابت: فما كان في الأنصار أَيِّمٌ أنفقَ منها. وحَدَّث إسحاقُ بن عبد الله بن أبي طَلْحَة ثابتاً: هل تعلَمُ ما دَعا لها رسول الله ـ ﷺ ـ؟ فقال: «اللهُمَّ، صُبَّ عليها الخيرَ صباً، ولا تجعَلْ عيشها كَدًّا». كذا قال، فما كان في الأنصار أَيِّمٌ أنفقُ منها. هكذا أورده الإمامُ أحمدُ بطوله[(١)]، وأخرج منه مسلمٌ والنسائيُّ في الفضائل قِصَّةَ قتله. وذكر الحافظ أبو عُمَر بن عبد البر في «الاستيعاب» أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردُّون على رسول الله ـ ﷺ ـ أمره؟ نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وقال ابن جُرَيج: أخبرني عامرُ بن مُصعَبٍ، عن طاوسٍ قال: إنه سألَ ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابنُ عباس ـ رضي الله عنه ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حَكَم الله ورسولُه بشيءٍ فليس لأحدٍ مُخالفته ولا اختيار لأحدٍ هاهنا ولا رأيَ ولا قولَ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

[٥٣٩٦] وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمِنُ أحدكُم حتى يكونَ هواه تَبَعاً لما جِئتُ به»[(٢)]، ولهذا شَدَّد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أنه قال لمولاه زيدِ بن حارِثَةَ وهو الذي أنعم الله

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤/ ٤٢٢ و٤٢٥ وابن حبان ٤٠٣٥ وإسناده على شرط مسلم، وأخرجه مسلم ٢٤٧٢ وأحمد ٤/ ٤٢١ والنسائي في «فضائل الصحابة» ١٤٢ من حديث أبي برزة مختصراً.

(٢) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٢٤، وهو حديث إلى الضعف أقرب.

عليه، أي: بالإسلام ومتابعة الرسول ـ ﷺ ـ: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، أي: بالعِتْقِ من الرِّق، وكان سَيِّداً كبير الشأن جَلِيلَ القَدْر، حَبيباً إلى النبي ـ ﷺ ـ، يقال له الحِبُّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبُّ ابنُ الحبِّ.

[٥٣٩٧] قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ في سَرِيَّة إلا أَمَّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه[١]، رواه الإمام أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البَهِيِّ عنها.

[٥٣٩٨] وقال البَزَّارُ: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عَوَانة (ح) ـ وحدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو عوانة ـ أخبرني عُمَر بن أبي سَلَمة، عن أبيه: حدثني أسامة بن زيد قال: كنت في المسجد، فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: فأتيتُ رسولَ الله فأخبرته، فقلت: علي والعباس يستأذنان؟ فقال: «أتدري ما حاجتهما؟» فقلت: لا يا رسول الله. فقال: لكني أدري، قال: فأْذن لهما. قالا: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أيُّ أهلِكَ أحبُّ إليك؟ فقال: «أحبُّ أهلي إليَّ فاطمةُ بنتُ محمدٍ». قالا: يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: «فأسامةُ بن زيد الذي أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه»[٢].

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قد زَوّجه بابنةِ عَمَّتِه زينبَ بنتِ جحش الأسدية ـ وأمها أُمَيمةُ بنت عبدِ المطلب ـ وأصدقها عشرةَ دنانير، وستِّين درهماً، وخِمَاراً، ومِلْحَفَة، ودِرْعاً، وخَمسين مُدّاً من طعام، وعشرةَ أَمْدَادٍ من تمر، قاله مقاتل بن حيان. فمكثت عندَه قريباً من سَنَةٍ أو فوقها، ثم وَقَع بينهما، فجاء زيدٌ يشكُوها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فجعلَ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾. ذكر ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف ـ رضي الله عنهم ـ، أحببنا أن نَضرب عنها صَفحاً لعدم صحتها فلا نُوردُها. وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ هاهنا أيضاً حديثاً، من رواية حَمَّاد بن زيد، عن ثابت، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً.

[٥٣٩٩] وقد رَوَى البخاري أيضاً بعضَه مختصراً فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا مُعَلَّى ابن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك: إنَّ هذه الآيةَ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأنِ زينبَ بنتِ جَحْشٍ، وزيدِ بن حارِثَةَ رضي الله عنهما[٣].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عُيينَة، عن علي بن زيد بن جُدْعان قال: سألني علي بن الحُسَين: ما يقول الحَسَنُ في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾، فذكرت له فقال: لا، ولكن الله أعلَم نبيَّه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يَتزوَّجها، فلما أتاه زيد ليشكُوهَا إليه قال: اتقِ الله، وأمسِكْ عليكَ زوجَكَ. فقال: قد أخبرتك أني مُزَوِّجُكَها، وتخفي في نَفسِك ما الله مُبدِيه. وهكذا رَوَى عن السدِّي أنه قال نحوَ ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٢٢٧ و٢٥٤ و٢٨١ وفيه إرسال بين البهيّ وعائشة، فالإسناد ضعيف، ولم يثبت أنه أمره مطلقاً.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٨١٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح. بل ضعيف لضعف عمر بن أبي سلمة. وأخرج الحاكم ٣/ ٥٩٦ عجزه فقط وسكت عنه وقال الذهبي: عمر بن أبي سلمة ضعيف. وكون النبي ﷺ يحبه، أخرجه البخاري ٣٧٣٠ ومسلم ٢٤٢٦.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٧ و٧٤٢٠ والترمذي ٣٢١٢ والنسائي في «التفسير» ٤٢٧ وابن حبان ٧٠٤٥ وأحمد ٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

[٥٤٠٠] وقال ابنُ جرير: حدثني إسحاق بن شاهين، حدثني خالد، عن داودُ، عن عامر، عن عائشةَ - رضي الله عنها - أنها قالت: لو كَتم مُحمَّد - ﷺ - شيئاً مما أوحى الله إليهِ من كتابِ الله لَكتم: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾(١).

وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، الوطرُ: هو الحاجةُ والأربُ، أي لما فَرَغ منها وفارَقَها زَوَّجناكها، وكان الذي وَلِي تَزْويجَها منه هو الله - عَزَّ وجلّ -، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا وَلِيّ ولا مَهرٍ ولا عَقدٍ ولا شُهُودٍ من البشر.

[٥٤٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم - يعني ابن القاسم أبو النضر - حدثنا سُلَيمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس - رضي الله عنه - قال: لما انقضت عدّةُ زينبَ قال رسول الله - ﷺ - لِزيدِ بن حارِثَةَ: اذهب فاذكرها عَلَيّ، فانطلَقَ حتى أتاها وهي تُخمِّر عَجينَها، قال: فلما رأيتُها عَظُمت في صَدْري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أنّ رسول الله - ﷺ - ذكرها، فَوَلَّيتُها ظهري ونكصتُ على عَقبِي، وقلت: يا زينبُ، أبشِري، أرسلني رسول الله - ﷺ - يذكرك. قالت: ما أنا بصانِعة شيئاً حتى أؤامر ربي - عَزَّ وجلّ -. فقامت إلى مَسْجِدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله - ﷺ - فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلت على رسول الله - ﷺ - أطعمنا عليها الخُبزَ واللّحم، فخرج الناسُ وبقي رجالٌ يتحدَّثون في البيتِ بعدَ الطعام، فخرجَ رسول الله - ﷺ - واتبعتُه فجعل يَتَتبّع حُجَر نسائه يسلم عليهن. ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدتَ أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجُوا أو أُخبِر - قال: فانطلق حَتّى دخلَ البيتَ، فذهبتُ أدخلُ معه، فألقى السِّترَ بيني وبينه، ونزل الحجابُ، ووُعِظَ القومُ بما وُعِظُوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ . . . الآية(٢). ورواه مسلم والنسائي من طرق، عن سُليمان بن المغيرة به.

[٥٤٠٢] وقد رَوَى البخاري - رحمه الله - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن زينبَ بنتَ جَحْشٍ كانت تفخَرُ على أزواج النبي - ﷺ - فتقول: زَوَّجَكُنَّ أهاليكُنّ وزوَّجَني الله من فوقِ سَبع سَمواتٍ(٣). وقد قَدّمنا في «سُورَةِ النور» عن محمد بن عبد الله بن جَحْشٍ قال: تفاخَرَت زينبُ وعائشةُ، فقالت زينبُ - رضي الله عنها -: أنا التي نَزل تَزْوِيجي من السماء. وقالت عائشة: أنا التي نزل عُذْري من السماء. فاعترفت لها زينب - رضي الله عنها -.

[٥٤٠٣] وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُمَيدٍ، حدثنا جَرير، عن المُغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينبُ تقولُ للنبي - ﷺ -: إني لأدِلُ عليك بثلاث، مَا مِن نِسائِكَ امرأةٌ تُدِلُ بِهنّ: إن جدّي وجدُّك واحدٌ، وإني أنْكَحنيكَ الله من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام(٤).

وقولُه تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، أي: إنما أبحنا لك تَزويجَهَا وَفَعلنا ذلك، لئلا يَبقى حرجٌ على المؤمنين في تَزْوِيج مُطَلَّقات الأدعياءِ، وذلك أن رسول الله - ﷺ - كان قبل النبوّة قد تَبنّى زيدَ بن حارثة، فكان يقال له: «زيدُ بنُ محمدٍ»، فلما قَطَع الله هذه النسبة بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٨٥٢٢ وإسناده منقطع بين الشعبي، وبين عائشة.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٢٨ ح ٨٩ والنسائي ٦/ ٧٩ وأحمد ٣/ ١٩٥ - ١٩٦ وأبو يعلى ٣٣٣٢. وأخرجه البخاري ٤٧٩١ ومسلم ١٤٢٨ وأحمد ٣/ ٢٦٢ وابن حبان ٥٥٧٨ من طرق من حديث أنس.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤٢٠ من حديث أنس.

(٤) مرسل. أخرجه الطبري ٢٨٥٢٦ عن الشعبي مرسلاً. فهو ضعيف، والصحيح ما رواه البخاري قبله.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تَزويج رسول الله ـ ﷺ ـ بزينبَ بنتِ جَحْشٍ لمَّا طلقها زيدُ بن حارثةَ، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، لِيُحترز من الابن الدَّعِيِّ، فإنَّ ذلك كان كثيراً فيهم. وقولُه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، أي: وكان هذا الأمرُ الذي وقع قد قدَّره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائنٌ لا محالةَ، كانت زينب في علم الله سَتصير من أزواج النبي ـ ﷺ ـ.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾

يقول تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، أي: فيما أحلَّ له وأمره به من تَزويج زينبَ التي طَلَّقها دَعِيُّه زيدُ بنُ حارثةَ. وقولُه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، أي: هذا حكمُ الله في الأنبياء قبله، لم يَكُن ليأمُرَهم بشيءٍ وعليهم في ذلك حَرَجٌ، وهذا رَدٌّ على من توَهَّم من المنافقين نقصاً في تَزويجه أمرأةَ زيدٍ مولاه ودَعِيِّه الذي كان قد تبنَّاه. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، أي: وكان أَمرُه الذي يُقدِّره كائناً لا محالَةَ، وواقعاً لا مَحيدَ عنه ولا مَعدلَ، فما شاء كانَ، وما لم يشأ لم يكُن.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾

يمدحُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: إلى خَلْقِه ويُؤدُّونها بأمانتها، ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي: يخافُونه ولا يخافُون أحداً سواه، فلا تمنعُهم سَطوةُ أحدٍ عن إبلاغ رسالاتِ الله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً. وسيِّدُ الناس في هذا المقام ـ بل وفي كل مقام ـ محمدٌ رسول الله ـ ﷺ ـ، فإنه قام بأداء الرسالةِ وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارِبِ، إلى جَميع أنواع بني آدمَ، وأظهرَ الله كَلِمتَه ودِينَه وشَرْعَه على جميع الأديانَ والشرائع، فإنه قد كان النبيُّ قبله يُبعَثُ إلى قومه خاصَّة، وأما هو ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ فإنه بُعِثَ إلى جميع الخلق عربِهم وعَجمِهم، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم وَرِث مقامَ البلاغ عنه أمَّتُه من بعده، فكان أعلى مَن قام بها بعده أصحابُه ـ رضي الله عنهم ـ، بَلَّغُوا عنه كما أمرَهُم به في جميع أقوالِه وأفعالِه وأحوالِه، في ليلِه ونهارِه، وحَضَرِه وسَفَرِه، وسِرِّه وعَلانِيَتِه، فَرَضِيَ الله عنهم وأرضاهم. ثم وَرِثه كُلُّ خَلَفٍ عن سَلَفِهم إلى زماننا هذا، فَبِنُورِهم يَقتدِي المهتدُون، وعلى مَنهجِهم يسلُك المُوفَّقُون. فنسألُ الله الكريمَ المنَّان أن يجعلَنا من خَلَفِهم.

[٥٤٠٤] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا ابن نُمير، أخبرنا الأعمشُ، عن عَمرو بن مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن أبي سَعِيد الخُدرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يَحْقِرَنَّ أحدكم نفسَه أن يَرَى أمر الله فيه مقال ثم لا يقولُه، فيقول الله: ما يمنعُكَ أن تقولَ فيه؟ فيقول: رَبِّ، خَشِيتُ الناسَ. فيقول: فأنا أحق من أن يُخشَى»(١). ورواه أيضاً عن عبد الرزَّاق، عن الثوريِّ، عن زُبَير، عن عَمرو بن مُرَّة. ورواه ابن ماجه، عن أبي كُرَيب، عن عبد الله بن نُمَير وأبي معاوية، كلاهما عن الأعمشِ، به.

---

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٠٠٨ وأحمد ٣/ ٣٠ و٤٧ و٧٣ و٩١ وإسناده صحيح رجاله ثقات. قاله البوصيري في «الزوائد».

وقولُه تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، نَهَى أن يُقال بعد هذا «زيدُ بن محمد»، أي: لم يكُن أباه وإن كان قد تَبنّاه، فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يعِش له ولدٌ ذَكَرٌ حتى بلغ الحُلُم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيِّب، والطاهر، من خديجة فماتوا صغاراً ووُلِد له إبراهيمُ من مارِيَةَ القبطيَّةِ، فمات أيضاً رَضِيعاً. وكان له من خديجةَ أربعُ بناتٍ: زينبُ، ورُقَيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمةُ ـ رضي الله عنهم أجمعينَ ـ فمات في حياته ثلاثٌ وتأخرت فاطمةُ حتى أُصِيبت به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم ماتت بعده بستة أشهر. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهذه الآية نصٌّ على أنه لا نبيَّ بعدَه، وإذا كان لا نبيَّ بعده فلا رسول بعده بطريق الأولَى والأحرى، لأنَّ مقام الرِّسالة أخصُّ من مقام النبوّة، فإن كلَّ رسول نَبِيٌّ، ولا ينعكس. وبذلك وَرَدت الأحاديث المتواتِرَةُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ من حديثِ جماعة من الصحابة:

[٥٤٠٥] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدِيُّ، حَدَّثنا زهير بن محمدٍ، عن عبد الله بن محمد ابن عَقِيل، عن الطُفَيل بن أُبَيِّ بن كَعبٍ، عن أبيهِ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَثَلي في النَّبيينَ كَمَثل رَجُل بَنَى داراً فأحسنَها وأكملها، وترك فيها موضع لَبِنةً لم يَضعها، فجعل الناس يَطُوفون بالبنيان ويعجَبون منه، ويقولون: لو تم موضعُ هذهِ اللَّبِنَةِ! فأنا في النبيين موضعُ تلك اللَّبِنَةِ»(١). وَرَواه التِّرمِذيُّ، عن بُندَار، عن أبي عَامِرٍ العَقَدِيِّ، به، وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٥٤٠٦] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا المختار ابن فُلفُل، حَدَّثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت، فلا رسولَ بعدي ولا نَبِيَّ. قال: فشقَّ ذلك على الناس قال: قال: ولكن المُبَشِّرات. قالوا: يا رسول الله، وما المُبشِّرات؟ قال: رُؤيا الرجلِ المُسلِم، وهي جُزءٌ من أجزاء النبوة»(٢). وهكذا رَوَاه الترمذيُّ عن الحسن ابن محمد الزَّعفراني، عن عَفَّان بن مسلم به، وقال: صَحِيحٌ غَرِيب من حديث المختار بن فُلفُلٍ.

[٥٤٠٧] حديث آخر، قال أبو داودَ الطَّيَالِسيُّ: حدثنا سَلِيمِ بن حَيَّان، عن سعيد بن مِينَاءَ، عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «مَثَلِي ومثلُ الأنبياء كَمَثَلِ رَجُلٍ بني داراً فأكملها وأحسَنَها إلا موضعَ لَبِنَةٍ، فكان مَن دخلها فَنَظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضعَ هذه اللبنة! فأنا موضعُ اللَّبِنَةِ، خُتِم بي الأنبياءُ عليهم السلام»(٣). وَرَواه البخاري، ومُسلِمٌ، والتِّرمِذِيُّ، من طُرُقٍ، عن سَلِيمِ بن حَيَّان، به. وقال الترمذي: صَحِيحٌ غريبٌ من هذا الوجه.

[٥٤٠٨] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مثلي ومثلُ النبيِّين كمثل رَجُل بنى داراً فأتمها إلا لَبِنة واحدةً، فَجِئتُ أنا فَأتمَمتُ تلك اللَّبِنَةَ»(٤). انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به.

[٥٤٠٩] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يُونسُ بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٦١٣ وأحمد ٥/ ١٣٧ وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وإسناده قوي وله طرق وشواهد.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٢٧٢ وأحمد ٣/ ٢٦٧ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه اهـ. وإسناده على شرط مسلم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٣٤ ومسلم ٢٢٨٧ والطيالسي ١٧٨٥.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم بإثر ٢٢٨٦ ح ٢٢ وأحمد ٣/ ٩.

عُبيدِ الراسي قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال: رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا نُبوّة بعدِي إلا المُبشِّراتِ. قال: قيل: وما المُبشّراتُ يا رسول الله؟ قال: الرُّؤيا الحَسَنَةُ ـ أو قال ـ: الرُّؤيا الصَّالِحةُ»(١).

[٥٤١٠] حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا مَعمرٌ، عن هَمّام بن مُنَبّه قال: هذا ما حدّثنا أبو هُرَيرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن مثلي ومثلُ الأنبياءِ من قبلي كَمَثل رَجُل ابتنَى بُيُوتاً فأحسَنَها وأكمَلها وأجملَها، إلا موضِع لَبِنَةٍ من زاوية من زَوَاياها، فجعل الناسُ يطوفُونَ ويُعجِبهُم البُنيان ويقولون: ألا وَضَعْتَ هاهُنا لَبِنَةً فَيتِمّ بنيانُك؟! قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فكنتُ أنا اللَّبِنَةَ»(٢). . . أخرجَاه مِن حَدِيثِ عبد الرزّاق.

[٥٤١١] حَدِيثٌ آخَرُ، عن أبي هُرَيرَةَ أيضاً، قال الإمامُ مسلمٌ: حدثنا يحيى بن أيُّوب وقُتَيبة وعلي ابن حُجْر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «فُضّلت على الأنبياء بست: أُعطِيت جوامع الكلم، ونُصِرت بالرعب، وأُحِلّت لي الغنائم، وجُعِلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسِلْتُ إلى الخلق كافة، وخُتِم بي النبيون»(٣). وَرَواه الترمذِيُّ وابن ماجَه، من حديث إسماعيل بن جَعفرٍ، وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٥٤١٢] حديثٌ آخرُ، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعَاوِيَةَ، حدثنا الأعمشُ، عن أبي صالح، عن أبي سعِيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضِع لَبِنَةٍ واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة»(٤). وَرَواه مُسلِمٌ عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، وأبي كُرَيب، كِلاَهُما عن أبي مُعَاوِيَةَ، به.

[٥٤١٣] حديث آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيدِ بن سُوَيد الكَلْبِيّ، عن عبد الأعلى بن هِلاَلٍ السلَمِيّ، عن العرباض بن سَارِيَةَ قال: قال لي النبي ـ ﷺ ـ: «إني عندَ الله لخاتمُ النبيِّين، وَإن آدم لَمُنجَدِل في طِينَتِهِ»(٥).

[٥٤١٤] حديث آخر، قال الزُهرِيُّ: أخبرني محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن لي أسماءَ: أنا محمد، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بي الكفرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قَدَمِي، وأنا العاقِبُ الذي ليس بعدَه نَبيٌّ»(٦). أخرجاه في الصحيحين.

[٥٤١٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاقَ، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن عبد الله بن هُبَيرَةَ، عن عبد

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ١٧٣: رواه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات اهـ. وفيه عثمان الراسبي، وثقه ابن حبان، لكن لحديثه شواهد تقدمت.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٣٥ ومسلم ٢٢٨٦ وأحمد ٢/ ٣١٢ وابن حبان ٦٤٠٥.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٥٢٣ والترمذي بإثر ١٥٥٣ وابن ماجه ٥٦٧ مختصراً وأحمد ٢/ ٤١١ ـ ٤١٢.

(٤) هو المتقدم قبل ثلاثة أحاديث.

(٥) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٩، وهو حديث حسن.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٣٢ و٤٨٩٦ ومسلم ٢٣٥٤ والطيالسي ٩٢٤ وأحمد ٤/ ٨٠ وعبد الرزاق ١٩٦٥٧ والترمذي ٢٨٤٠ وابن حبان ٦٣١٣ والحميدي ٥٥٥.

الرحمن بن جُبَير قال: سَمِعت عبد الله بن عَمرو يقول: خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً كالمودِّع، فقال: «أنا محمد النبيُّ الأمي ـ ثلاثاً ـ ولا نبيَّ بعدي، أُوتيتُ فواتحَ الكَلِم وجوامِعَه وخَوَاتِمه، وعَلِمتُ كم خَزَنةُ النارِ وحَمَلة العَرش، وتُجُوِّزَ بي، وعُوفِيَتْ أُمَّتي، فاسمَعُوا وأطِيعوا ما دُمتُ فِيكُم، فإذا ذُهِب بي فَعَليكم بكتاب الله، أحِلُّوا حَلالَه وحَرِّمُوا حَرَامه»[1]. تفرَّد به الإمامُ أحمد.

[٥٤١٦] ورواه أحمدُ أيضاً عن يحيى بن إسحاقَ، عن ابن لَهيعة، عن عَبدِ الله بن هُبَيرَةَ، عن عبد الله ابن شريح الخَوْلاَنِي، عن أبي قَيسٍ ـ مولى عَمرِو بن العاصِ ـ عن عبدِ الله بن عَمْرٍو، فَذَكر مثلَه سواءً[2].

والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمةِ الله بالعبادِ إرسالُ محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ إليهم، ثُمَّ من تشريفه له خَتمُ الأنبياءِ والمرسلين به، وإكمالُ الدين الحَنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسولُه في السنَّة المتواترة عنه: أنه لا نبيَّ بعده، لِيَعلموا أن كلَّ مَنِ ادَّعى هذا المقامَ بعدَه فهو كذَّاب أفَّاك، دَجَّال ضَالٌّ مُضِلٌّ، ولو تَخرَّق وشَعْبَذَ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنِّيرَنْجيَّات[3]، فكلُّها محالٌ وضلالٌ عند أولي الألباب، كما أجرَى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على يدِ الأسود العَنسي باليمن، ومُسَيلِمة الكذاب باليمامَة، من الأحوال الفاسِدَة والأقوالِ الباردة، ما علم كلُّ ذي لُبٍّ وفهم وحِجىً أنهما كاذبان ضَالاَّن، لعنهما الله. وكذلك كلُّ مُدَّعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فَكُلُّ واحدٍ من هؤلاء الكذَّابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكَذِب من جاء بها. وهذا من تَمامِ لُطفِ الله تعالى بخَلقِه، فإنهُم بضرورةِ الواقع لا يأمُرونَ بمعروفٍ ولا ينهَون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصِدِ إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفُجُور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢] الآية: وهذا بخلاف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فإنهم في غاية البرِّ والصدقِ والرشد والاستقامة والعَدْلِ فيما يقولُونه ويأمُرون به وينهَون عنه، مع ما يُؤيَّدُون به من الخوارقِ للعاداتِ، والأدلَّةِ الواضِحَاتِ، والبراهين الباهرات. فصلواتُ الله وسلامُه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرضُ والسمواتُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بكثرةِ ذكرهم لربِّهم تعالى المنعم عليهم بأنواعِ النِّعم وأصنافِ المِنَن، لما لهم في ذلك من جَزِيل الثواب، وجَميل المآب.

[٥٤١٧] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدثني مولى ابن عَيَّاشٍ، عن أبي بَحريَّة، عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعِها في دَرَجاتكم، وخَيرٌ لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخَيرٌ لكم من أن تلقَوا عَدُوَّكم

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٢/ ١٧٢ ـ ٢١٢ من حديث ابن عمرو، وإسناده ضعيف لأجل ابن لهيعة، والوهن فيه لفظ «وعلمت خزنة النار. . . وعوفيت أمتي» وأما صدره، فله شواهد، وكذا لعجزه شواهد.

(٢) هو المتقدم.

(٣) النَّيرنج: أَخذٌ كالسحر، وليس به.

فَتَضرِبوا أعناقَهم ويَضرِبوا أعناقكم؟ قالوا: وما هُو يا رسول الله؟ قالَ: ذِكرُ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ»[(١)]. وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد ـ مولى ابن عياش ـ عن أبي بَحرِيّة ـ واسمه عبد الله بن قيس التَّراغِمِي ـ عن أبي الدرداء، به. قال الترمذي: «ورواه بعضهم عنه فأرسله». قلت: وقد تقدّم هذا الحديثُ عند قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] في مسند أحمد، من حديث زياد بن أبي زيادٍ، مولى عبد الله بن عَيّاش: أنه بلغه عن معاذ ابن جبل، عن رسول الله ـ ﷺ ـ، بنحوه، فالله أعلم.

[٥٤١٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حدثنا فَرَجُ بن فَضَالَةَ، عن أبي سَعْدٍ الحِمْصي قال: سَمِعتُ أبا هُرَيرة يقول: دُعَاءٌ سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ لا أَدَعُه: «اللهم اجعلني أُعظِم شُكْرك، وأَتْبعُ نَصِيحَتَكَ، وأُكثِرُ ذِكْرَكَ، وأحفَظُ وَصِيَّتَكَ»[(٢)]. ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفَرَج بن فَضَالة، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هُرَيرة، فذكر مثله وقال: غريب. وهكذا رواه الإمامُ أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فَرَجِ بن فَضَالَةَ، عن أبي سعيد المدني، عن أبي هريرة فذكره.

[٥٤١٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عَمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: جاء أعرابيّان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال أحدهما: يا رسول الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: «من طال عُمُره وحَسُن عَمَلُه». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شَرَائِع الإسلامِ قد كَثُرت علينا، فَمُرني بأمرٍ أتشبَّثُ به. قال: «لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً بِذكرِ الله»[(٣)]. وَرَوى التِّرمذِيُّ وابن ماجه منه الفصل الثاني، من حديث مُعَاوية بن صالِحٍ، به، وقال الترمذيُّ: «حَسَن غَريبٌ».

[٥٤٢٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُرَيج، حدثنا ابنُ وَهب، عن عَمرو بن الحارث أنَّ دَرّاجاً أبا السَّمحِ حَدَّثه، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيد الخُدرِيِّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: أكثروا ذكر الله حتى يَقُولوا: مَجنونٌ[(٤)].

[٥٤٢١] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمدَ، حدثنا عُقبَةُ بنُ مُكْرَم العَمِّي، حدثنا سَعِيد بنُ سُفيانَ الجَحدَرِيُّ، حدثنا الحسنُ بن أبي جَعفرٍ، عن عُقْبَةَ بن أبي ثُبَيتٍ الرَّاسِبِيِّ، عن أبي الجَوزاء، عن ابن عباس

---

(١) الراجح وقفه. أخرجه الترمذي ٣٣٧٧ وابن ماجه ٣٧٩٠ وأحمد ٦/ ٤٤٦ والحاكم ١/ ٤٩٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٧٣: رواه أحمد وإسناده حسن. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: وقد روى بعضهم هذا الحديث عن عبد الله بن سعيد مثل هذا بهذا الإسناد، وروى بعضهم عنه فأرسله اهـ. والراجح وقفه، وعبد الله بن سعيد، وإن وثقه أحمد ويحيى، فقد قال القطان: يعرف وينكر، وضعفه أبو حاتم، وقد أخرجه مالك ١/ ٢١١ عن زياد عن أبي الدرداء موقوفاً.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣١١ و٤٧٧ وإسناده ضعيف، أبو سعد ويقال: أبو سعيد، مجهول.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ١٩٠ والترمذي ٣٣٧٥ وابن ماجه ٣٧٩٣ وصححه الحاكم ١/ ٤٩٥ ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه اهـ وفي إسناده معاوية بن صالح وهو صدوق له أوهام لكنه توبع عند أحمد ٤/ ١٨٨.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٦٨ والحاكم ١/ ٤٩٩ وابن حبان ٨١٧ وأبو يعلى ١٣٧٦ وابن عدي ٣/ ١١٣ والبيهقي في «الشعب» ٥٢٦، وإسناده ضعيف لأنه من رواية أبي السمح، واسمه درّاج عن أبي الهيثم. ومع ذلك صححه الحاكم! وسكت الذهبي! وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٦١: فيه درّاج، وقد ضعفه جماعة. ووثقه غير واحد، وبقية رجاله ثقات اهـ، وجاء في «الميزان» ٢٦٦٧: قال أحمد عن درّاج: عنده مناكير، ولينه، وقال يحيى، ثقة، وقال فضلك الرازي: ما هو ثقة ولا كرامة، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف، وقال الدارقطني: متروك، ثم ذكر الذهبي له أحاديث ومنها هذا الحديث، وعده من مناكيره.

قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: اذكروا الله ذِكراً يقولُ المنافِقون: تُراؤون[(١)].

[٥٤٢٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سَعيد مَولى بَني هَاشم، حَدَّثنا شَدَّاد أبو طلحةَ الراسبيُّ، سَمِعتُ أبا الوَازع جَابرَ بن عَمرو يُحَدِّث عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من قوم جَلَسُوا مَجلِساً لم يذكُروا الله فيه إلا رَأوه حسرَةً يومَ القيامةِ»[(٢)]. وقال عليُّ بن أبي طَلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: إنَّ الله تعالىٰ لم يفرِض فَريضَةً إلاَّ عذر أهلَها في حَالِ عُذْرٍ، غيرَ الذِّكر، فإن الله لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولَم يَعذِرْ أحداً في تركه إلا مَغلُوباً على تَركِهِ، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البرِّ والبحرِ، وفي السفَر والحضَر، والغنى، والفقر، والصِّحَّةِ والسَّقَم، والسِّرِّ والعَلانية، وعلى كلِّ حالٍ، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، فإذا فَعَلتُم ذلك صَلَّى عليكُم هو وملائكتُه. والأحاديثُ والآياتُ والآثار في الحثِّ على ذكر الله كثيرةٌ جدّاً، وفي هذه الآية الكريمةِ الحثُّ على الإكثارِ من ذلك. وقد صَنَّف الناسُ في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النَّواويِّ رحمه الله تعالى. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، أي: عند الصباح والمساءِ، كقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨].

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، هذا تَهييجٌ إلى الذكر، أي: إنه سبحانَه يذكرُكُم فاذكُروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢].

[٥٤٢٣] وقال النبي ـ ﷺ ـ: «يقول الله تعالىٰ: مَن ذَكرني في نَفسِه ذَكرتُه في نَفسِي، ومن ذَكرني في مَلأ ذكرتُه في ملأ خير منهم»[(٣)]. والصلاةُ من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاريُّ عن أبي العاليةِ، ورواه أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيعِ بن أنسٍ، عنه. وقال غيرُه: الصلاةُ من الله الرحمةُ. وقد يقال: لا مُنافاةَ بين القولَين، والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاءِ للناسِ والاستغفار، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩]. . . الآية. وقولُه تعالىٰ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: بسببِ رحمتِهِ بكم وثنائه عليكُم ودُعاءِ ملائكتِهِ لَكُم يُخرِجُكم من ظُلُمات الجَهلِ

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الطبراني ١٢٧٨٦ وأبو نعيم ٣/ ٨٠ ـ ٨١، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٦٦٢: فيه الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف اهـ وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» ١٢٧٨٦ عن أبي الجوزاء مرسلاً وفيه سعيد بن زيد، أخو حماد بن زيد، وهو ضعيف أيضاً ووثقه بعضهم.

تنبيه: هذا المرسل، لا يقوي الموصول المتقدم لأن طريقهما واحد، نعم يتقوى الموصول بالمرسل إذا اختلف المخرج، كما هو مقرر في كتب المصطلح، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٤ ورجاله رجال الصحيح كما في «المجمع» ١٠/ ٨٠ وهو حديث حسن. وللحديث شواهد انظر حديث أبي هريرة عند آية ٥٦ من هذه السورة و«الترغيب والترهيب» ٢٢٤٠ ـ ٢٢٤٣.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٥٢.

والضلالِ إلى نُورِ الهُدَى واليَقين، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، أي: في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فإنه هَدَاهم إلى الحقِّ الذي جَهِله غيرُهم، وبَصَّرهم الطريق الذي ضلَّ وحَادَ عنه مَن سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطَّغام[1]، وأما رحمتُه بهم في الآخرة فآمَنَهُم من الفَزَع الأكبر، وأمر ملائكته يَتلقَّونَهم بالبشارة بالفَوزِ بالجنَّةِ والنَّجاةِ من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بِهِم.

[٥٤٢٤] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن أبي عَدِيٍّ، عن حُمَيْد، عن أنس قال: مَرَّ النبي ـ ﷺ ـ في نَفَرٍ من أصحابِه وصَبِيٌّ في الطريق، فلما رأت أُمُّه القومَ خَشِيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعَى وتقول: بني! بني! وَسَعَت فأخذَته، فقال القومُ: يا رسول الله، ما كانت هذهِ لِتُلقي ابنَها في النارِ. قال: فَخَفَّضَهُم رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: «وَلاَ الله لا يُلقى حَبِيبه في النَّارِ»[2]. إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

[٥٤٢٥] ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: «أترون هذه تُلقِي وَلَدها في النَّار وهي تَقدِر على ذلك؟ قالوا: لا. قال: فوالله لله أرحَمُ بعباده من هذه بولدها»[3].

وقولُه تعالىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، الظاهر أنَّ المراد ـ والله أعلم ـ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: مِن الله تعالى يوم يَلْقونه ﴿سَلَٰمٌ﴾، أي: يوم يُسَلِّم عليهم كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يُحَيِّي بعضُهم بعضاً بالسلام، يومَ يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابنُ جرير.

قلت: وقد يُستَدَلُّ بقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠]. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشاربِ، والملابس والمساكِنِ، والمَنَاكِحِ، والملاذُ والمناظرِ، وما لا عَينٌ رَأت، ولا أُذُن سَمِعت، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

[٥٤٢٦] قال الإمام أحمد: حدثنا مُوسَى بن داود، حدثنا فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن عَلي، عن عطاءِ بن يَسَارٍ قال: لَقِيتُ عبد الله بن عَمْرو بن العَاصِ فقلتُ: أخبرني عن صِفَةِ رسول الله ـ ﷺ ـ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التَّورَاةِ بصفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وحِرزاً للأُمِّيِّين، أنت عبدِي ورسُولي، سَمَّيتُكَ المتوكل لست بفَظٍّ ولا غَلِيظٍ ولا صَخَّابٍ في الأسواق: ولا يدفَعُ السيِّئة بالسيِّئةِ، ولكن يعفُو ويغفِرُ، ولن يَقبضه الله حتى يُقِيم به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأن

---

(١) الطَّغام: أوغاد الناس.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ١٨.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٤٣.

يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غلفاً[١]. وقد رواه البخاري في «البيوع» عن محمد بن سِنَان، عن فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن علي، به. ورواه في «التفسير» عن عبد الله ـ قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة، عن هلال، عن عطاء بن يَسَارٍ، عن عبد الله بن عَمرو، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُون، به. وقال البخاريُّ في البيوع: وقال سَعِيدٌ، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سَلَامَ.

وقال وهب بن مُنَبِّه: إن الله أوحى إلى نَبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل ـ يقال له: شَعياء ـ: أن قُم في قومك بني إسرائيل، فإني مُنطِقٌ لسانك بِوَحيٍ، وأبعَثُ أمياً من الأُميين، أبعثُه ليس بفظٍّ ولا غَلِيظٍ ولا سَخَّابٍ في الأسواق، لو يَمُرُّ إلى جَنْبِ سِراجٍ لم يُطفِئه، من سَكِينته، ولو يمشي على القَصَبِ لم يُسمَع من تَحتِ قَدَميه، أبعثه مُبَشِّراً ونَذِيراً، لا يقولُ الخَنَا، أفتَحُ به أعيناً كُمهاً، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غُلفاً، أُسَدِّده لكل أمرٍ جَميل، وأَهَبُ له كُلَّ خُلُقٍ كَرِيم، وأجعل السكينةَ لبَاسه، والبِرَّ شِعَارَه، والتقوَى ضَمِيره، والحكمة مَنطِقه، والصدقَ والوفاءَ طَبِيعته، والعفوَ والمعروفَ خُلُقهُ، والحقَّ شَرِيعته، والعدلَ سِيرَتَه، والهُدَى إمامَه، والإسلامَ مِلَّته. وأحمدُ اسمُه، أهدِي به بعدَ الضلالةِ، وأُعلِّم به بعدَ الجَهالةِ، وأرفعُ به بعد الخَمالةِ، وأُعَرِّف به بعدَ النَّكِرَةِ، وأُكثِرُ به بعد القِلَّة، وأُغني به بعد العَيْلة، وأجمَع به بعد الفُرقة، وأؤلف به بين أُمَمٍ مُتفرِّقةٍ، وقلوبٍ مختلفةٍ، وأهواءٍ مُتَشتِّتةٍ، وأستنقِذُ به فِئاماً من الناس عظيمةً من الهلكة، وأجعَلُ أُمَّته خيرَ أُمَّةٍ أخرجَت للناسِ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرِ، مُوَحِّدين مُؤمنين مخلصين، مُصَدِّقين لما جاءت به رُسُلي. أُلهِمُهم التسبيحَ والتحميد، والثناءَ والتكبيرَ والتوحيدَ، في مساجدِهم ومَجالِسهم، ومَضاجعهم ومُنقَلَبِهم ومثواهم، يُصَلُّون لي قياماً وقُعُوداً، ويقاتلون في سبيلي صُفوفاً وزُحُوفاً، ويَخرجُون من ديارهم ابتغاءَ مرضَاتي أُلوفاً، يُطَهِّرون الوجوهَ والأطرافَ، ويَشُدُّون الثيابَ في الأنصافِ، قُربانُهم دِمَاؤهم، وأناجِيلُهم في صُدُورِهم رُهبانٌ بالليلِ لُيُوثٌ بالنهار، وأجعَلُ في أهل بيته وذُرِّيته: السابقين، والصدِّيقين والشهَداءَ والصالحين، أمته من بعده يَهدُون بالحقِّ وبه يَعدِلُون. أُعِزُّ مَن نَصَرهم، وأُؤيِّد مَن دَعا لهم، وأجعل دائرةَ السوءِ على من خَالَفهُم أو بَغَى عليهم، أو أرادَ أن يَنتزعَ شيئاً مما في أيديهم. اجعَلُهم ورثَةً لنبيِّهم، والداعيةَ إلى ربِّهم، يأمُرون بالمعروفِ، وينهَون عن المنكر، ويُقيمونَ الصلاة، ويؤتون الزكاةَ ويُوفون بِعَهدِهم، أختِم بهم الخيرَ الذي بَدَأته بأوَّلِهم، ذلك فَضلي أُوتِيه مَن أشاء، وأنا ذُو الفَضلِ العظيمِ. هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وَهب بن مُنَبِّه اليماني، رحمه الله.

[٥٤٢٧] ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عُبَيدِ الله العَرْزَميّ، عن شَيبان النحويّ، أخبرني قتادةُ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ـ وقد كان أمر عَلِياً ومُعاذاً أن يَسيرا إلى اليَمَن ـ، فقال: «انطلقا فَبشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرا، إنه قد أنزل عليّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾»[٢].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢١٢٥ و٤٨٣٨، وأحمد ٢/ ١٧٤ والبغوي في «الأنوار» ٤٥٥.

(٢) ضعيف منكر. أخرجه الطبراني ١١٨٤١، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١١٢٧٧ بعبد الرحمن بن محمد العرزمي، وأنه ضعيف اهـ وفي الجزم بتضعيفه نظر، فقد قال أبو حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٢٨٢ فيما ذكر ابنه: ليس بقوي. وقال ابن حبان في «الثقات»: يعتبر بحديثه، إن لم يكن من روايته عن أبيه. وللحديث علة ثانية: وهي عبد الرحمن بن صالح =

[٥٤٢٨] وَرَواه الطبرانيُّ عن محمد بن نصر بن حُمَيد البَزّار البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزديّ، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العَرْزَميّ، بإسناده مثله. وقال في آخره: «فإنه قد أُنزلت عليّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أمتك، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار، ﴿وَدَاعِيًا﴾ إلى شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله بإذنه، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ بالقرآن»(١).

وقولُه تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾: أي: لله بالوحدانيّة، وأنه لا إله غيرُه، وعلى الناس بأعمالهم يومَ القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقولُه: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب وقوله جلت عظمته: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: داعياً للخَلْقِ إلى عِبادةِ ربِّهم عن أمره لَكَ بذلِكَ. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، أي: وأمرُكَ ظاهرٌ فيما جئتَ به من الحقِّ، كالشمسِ في إشراقها وإضاءتِها، لا يجحَدُها إلا معانِدٌ. وقولُه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، أي: لا تُطِعهم وتَسْمَع منهم في الذي يَقولُونه، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، أي: اصفَحْ وتجاوزْ عنهم، وَكِلْ أمرَهم إلى الله، فإنَّ فيه كفايةً لَهم، ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ فيها أحكام كثيرةٌ، منها: إطلاق النكاح على العَقْدِ وحدَه، وليس في القرآن آيةٌ أصرحُ في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقةٌ في العقد وحدَه، أو في الوطءِ، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العَقدِ والوطءِ بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقدِ وحدَه، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾. وفيها دلالة لإباحةِ طَلاق المرأةِ قبل الدُخولِ بها. وقولُه تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خَرج مَخْرجَ الغالب؛ إذ لا فرقَ في الحكم بين المؤمنةِ والكتابيّةِ في ذلك بالاتفاق، وقد استدلَّ ابنُ عباسٍ، وسَعِيد بن المسيب، والحسن البصريُّ، وعلي بن الحسين زينُ العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآيةِ على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تَقَدَمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فَعقَّبَ النكاحَ بالطلاق، فدلَّ على أنه لا يصحُّ ولا يقعُ قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمدَ بنِ حنبلٍ، وطائفةٍ كثيرةٍ من السلف والخَلَف، رحمهم الله تعالى. وذهب مالك وأبو حَنيفة رَحمهما الله إلى صحة الطَلاقِ قبل النكاح، فيما إذا قال: إن تزوجتُ فلانَةَ فهي طالقٌ». فعندهما متى تَزَوَّجها طَلَقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كُلُّ امرأة أتزوَّجها فهي طالق». فقال مالك: لا تُطَلَّق حتى يُعَيِّن المرأة. وقال أبو حنيفة رَحِمه الله: كل امرأة يتزوَّجها بعدَ هذا الكلامِ تُطَلَّقُ منه. فأما الجمهورُ فاحتجُوا على عدم وُقُوع الطلاقِ بهذه الآية.

---

= الأزدي ثقة، لكن قال أبو داود: ألف كتاباً في مثالب الصحابة، رجل سوء. وقال الحاكم: خولف في بعض حديثه اهـ الميزان ٤٨٨٩.

وللحديث علة ثالثة: وهي أنه قد اشتهر في الصحاح إرسال أبي موسى الأشعري ومعاذ، وذكر الحديث دون الآية، فالخبر منكر مقلوب، وله علة رابعة: وهي عنعنة قتادة.

(١) هو حديث منكر، وإسناده كسابقه. وانظر «المجمع» ٧/ ٩٢.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزيُّ، حدثنا النضر بن شُمَيل، حدثنا يونسُ ـ يعني ابنَ أبي إسحاقَ ـ قال: سَمِعت آدمَ مولى خالد، عن سَعِيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إذا قال: «كُلُّ امرأة أتزوَّجُها فهي طالِقٌ»، قال: ليس بشيءٍ من أجلِ أن الله تعالى يقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ . . . الآية. وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمَسِيُّ، حدثنا وكيع، عن مَطَر، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاقَ بعد النكاح. وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فلا طلاق قبل النكاح.

[٥٤٢٩] وقد وَرَد الحديث بذلكَ عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا طلاق لابن آدمَ فيما لا يَملِكُ»[١]. رواه الإمام أحمد والترمذيُّ، وأبو داودَ، وابن ماجه. وقال الترمذي: «هذا حديثٌ حَسَنٌ، وهو أحسنُ شَيءٍ رُوِي في هذا الباب».

[٥٤٣٠] وهكذا رَوَى ابن ماجه، عن عَلِيٍّ، والمِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا طلاقَ قبل نِكاح»[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، هذا أمر مُجمعٌ عليه بين العُلَماء أنَّ المرأة إذا طُلِّقت قبل الدخُول بها لا عِدَّة عليها، فتذهَب فَتتزوَّج في فَورها من شاءت، ولا يُستثنى من هذا إلا المتوفَّى عنها زوجُها، فإنها تعتدُّ منه أربعةَ أشهُر وعشراً، وإن لم يكن دَخَل بها بالإجماع أيضاً. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، المتعةُ هاهنا أعمُّ من أن تكون نصفَ الصَّداقِ المسمَّى، أو المتعةُ الخاصَّةُ إن لم يَكن قد سُمِّيَ لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦].

[٥٤٣١] وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أُسَيدٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ تزوج أُمَيمة بنتَ شراحيل، فلما أُدخِلَت عليه بَسَط يدَهُ إليها، فكأنها كَرِهت ذَلِك، فأمر أبا أُسَيد أن يُجَهِّزها ويَكسُوها ثوبين رازِقيَّين[٣]. قال علي بن أبي طَلْحَة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن كان سَمَّى لها صَدَاقاً فليس لها إلا النصفُ، وإن لم يكن سمى لها صداقاً فأمتعها على قدر عُسْرِه ويُسرِه، وهو السَّراحُ الجَمِيل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٢١٩٠ ـ ٢١٩٢ والترمذي ١١٨١ وابن ماجه ٢٠٤٧ وأحمد ٢/١٨٩ و١٩٠ والحاكم ٢/٣٠٥ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو أحسن شيء في هذا الباب، وهو قول أكثر أهل العلم اهـ. وهو حديث حسن، وله شواهد وتقدمت في البقرة.

(٢) حديث حسن صحيح، أخرجه ابن ماجه ٢٠٤٨ من حديث المسور بن مخرمة، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن، وأخرجه أيضاً ٢٠٤٩ من حديث علي، وقال البوصيري: إسناده ضعيف، لاتفاقهم على ضعف جويبر بن سعيد. وللحديث شواهد أخرى انظر كتاب «العدة» بتحقيقي ص ٤٨٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٥٦.

نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيَّه ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليه ـ بأنه قد أحلَّ له من النساء أزواجَه اللاتي أعطاهُنَّ مُهورَهُنَّ، وهي الأجورُ هاهنا. كما قاله مجاهدٌ وغير واحد، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتي عشرةَ أوقيةً ونَشًا، وهو نصفُ أُوقِيَةٍ، فالجميع خمسمئةُ درهم، إلا أم حَبيبة بنتَ أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي ـ رحمه الله ـ أربعمئة دينار، وإلا صَفِية بنت حُيَيّ فإنه اصطفاها من سَبْي خيبر، ثم أعتقها وجَعَل عتقها صَداقَها. وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطَلِقيَّة، أدّى عنها كتابتها إلى ثابتِ بن قَيسٍ بن شَمّاس وتَزَوَّجها، رضي الله عن جَميعهِنَّ. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾، أي: وأباح لك التسرّيَ مما أخذت من الغنائم، وقد مَلَك صَفيَّة وجُويرية وتزوَّجهما. ومَلَك ريحانَةَ بنت شمعُون النَّضرية، ومَاريَة القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراري، ـ رضي الله عنهما ـ. وقولُه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، هذا عدل وَسَط بين الإفراطِ والتفريط؛ فإنَّ النَّصارى لا يَتزوَّجون المرأةَ إلاّ إذا كان الرجُل بينه وبينها سبعةُ أجداد فصاعداً، واليهود يَتزوّج أحدهُم بنت أخيه وبنتَ أخته، فجاءت هذه الشريعةُ الكاملة الطاهرةُ بهدم إفراطِ النَّصارى، فأباح بنت العمِّ والعمَّةِ، وبنتَ الخالِ والخالةِ، وتحريمَ ما فَرّطت فيه اليهودُ من إباحةِ بنت الأخ والأخت، وهذا شَنيعٌ فظيعٌ. وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ فوَحّدَ لفظ الذكر لشرَفه، وجَمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وله نظائر كثيرة.

[٥٤٣٢] وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. قال ابنُ أبي حاتم رحمه الله: حدثنا محمد بن عمار ابن الحارث الرازي: حدثنا عُبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيلُ، عن السدِّي، عن أبي صالح، عن أم هانىء قالت: خطَبني رسول الله ـ ﷺ ـ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، قالت: فلم أكن أَحِلُّ له، ولم أكن ممن هاجَرَ معه، كُنتُ من الطلَقاء[1]. ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن عُبَيد الله بن موسى، به. ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح، عنها بنحوه. ورواه الترمذي في جامعه. وهكذا قال أبو رَزين وقتادةُ: إن المراد: مَن هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن قتادة: ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، أي: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: «واللاتي هاجرن معك».

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٢١٤ وابن سعد ٨/ ١٢١ والحاكم ٢/ ٤٢٠ والطبري ٢٨٥٤٦ والبيهقي ٧/ ٥٤، وإسناده ضعيف مداره على أبي صالح، واسمه باذام، ضعفه البخاري، والنسائي، ومغيرة، وغيرهم، ومع ذلك صححه الحاكم! ووافقه الذهبي! وحسنه الترمذي! وأما الألباني فذكره في ضعيف الترمذي ٦٣٠ وقال: ضعيف جداً، وفي هذا نظر، فقد ورد من وجه آخر أخرجه ابن سعد في «الطبقات» «ترجمة» ٤١٤٥ من طريق الكلبي، وهو متروك، وكرره بنحوه مرسلاً باختصار عن عامر الشعبي، وهو مرسل حسن، وكرره من مرسل أبي نوفل بن أبي عقرب، وهو مرسل قوي. فالحديث بلفظ المصنف ضعيف، وأما كونه عليه السلام خطب أم هانىء فاعتذرت فهو حسن. فكيف يقول الألباني: ضعيف جداً؟!. والظاهر أنه لم يطلع على روايات ابن سعد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ﴾، أي: ويحلُّ لك - يأيها النبيُّ - المرأة المؤمنةُ إذا وَهَبت نَفسَها لك أن تَتزوَّجها بغير مهر إن شئتَ ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤]، وكقول موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال هاهنا: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

[٥٤٣٣] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاقُ، أخبرنا مالكٌ، عن أبي حازم، عن سَهل بن سعدٍ الساعِدِيِّ: أن رسول الله - ﷺ - جاءته امرأةٌ فقالت: يا رسول الله، إني قد وَهَبتُ نفسي لك. فقامت قياماً طَويلاً، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله، زَوِّجنيها إن لم يكن لك بها حاجةٌ! فقال رسول الله - ﷺ -: هل عندَكَ من شيء تُصدِقُها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا! فقال رسول الله - ﷺ -: إن أعطيتَها إزارَكَ جلستَ لا إزارَ لك، فالتمِسْ شيئاً. فقال: لا أجِدُ شيئاً. فقال: التمِسَ ولو خاتَماً من حَدِيدٍ. فالتمَسَ فلم يجِد شيئاً، فقال له النبي - ﷺ -: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم، سورةُ كذا، وسورةُ كذا - لِسُوَرٍ يُسَمِّيها - فقال له رسول الله - ﷺ -: زوجتُكَهَا بما مَعَك من القرآن»[(١)]. أخرجاه من حديث مالك.

[٥٤٣٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا مرحوم، سَمِعتُ ثابتاً يقولُ: كنتُ مع أنس جالِساً وعنده ابنةٌ له، فقال أنسٌ: «جاءت امرأةٌ إلى النبي - ﷺ - فقالت: يا نبي الله، هل لك فِيَّ حاجةٌ؟ فقالت ابنتُه: ما كان أقل حَياءَهَا! فقال: هي خيرٌ منك، رَغِبت في النبي، فَعَرضت عليه نفسها»[(٢)]. انفرد بإخراجه البخاريُّ، من حديث مَرحومِ بن عبدِ العزيز، عن ثابِت البُنَانيِّ، عن أنسٍ، بِهِ.

[٥٤٣٥] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن بَكرٍ، حدثنا سِنَانُ بن رَبيعة الحضرميُّ، عن أنس بن مالك: أن امرأة أتت النبي - ﷺ - فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كَذَا وكَذَا - فذكرت من حُسنها وجَمَالها - فآثرتُك بهَا. فقال: «قد قَبِلتُها». فلم تَزَل تَمدحها حتى ذكرت أنها لم تُصْدَع ولم تَشْتَكِ شيئاً قطُّ، فقال: «لا حاجةَ لي في ابنتِكِ»[(٣)]. لم يُخرِجُوه.

[٥٤٣٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصورُ بن أبي مُزَاحِم، حدثنا ابن أبي الوضّاح - يعني محمد بن مسلم - عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشةَ قالت: التي وَهَبت نفسَها للنبي - ﷺ - خَولَةُ بنتُ حكيم[(٤)].

[٥٤٣٧] وقال ابن وهب، عن سَعِيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزِّنادِ، عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه: أن خَوْلَةَ بنتَ حكيم بن الأوقص، من بني سُليم، كانت من اللاتي وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله - ﷺ -[(٥)].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣١٠ و٥١٣٥ ومسلم ١٤٢٥ وأبو داود ٢١١١ والترمذي ١١١٤ والنسائي ٦/ ١١٣ وابن ماجه ١٨٨٩ وأحمد ٥/ ٣٣٦ وابن حبان ٤٠٩٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥١٢٠ و٦١٢٣ وأحمد ٣/ ٢٦٨.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ١٥٥ وأبو يعلى ٤٢٣٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٢٩٤: ورجاله ثقات اهـ. قلت: بل فيه سنان بن ربيعة، وهو وإن وثقه ابن حبان والعجلي، فقد قال أبو حاتم: شيخ مضطرب، وقال ابن معين والنسائي: ليس بالقوي، والمتن غريب، فهو ضعيف.

(٤) صحيح. وإسناده حسن، رجاله رجال مسلم، لكن محمد بن مسلم صدوق يهم.

(٥) صحيح. هو مرسل صحيح، ومراسيل عروة جياد، وتقدم موصولاً.

[٥٤٣٨] وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنا نَتحدَّث أن خَوْلَةَ بنت حكيم كانت وَهَبت نفسها لرسول الله ـ ﷺ ـ وكانت امرأةً صالحةً[١]. فَيَحْتَمِلُ أن أم سُلَيم هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأةٌ أخرى.

[٥٤٣٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيلَ الأَحْمَسيّ، حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن كعب، وعُمر بن الحكم، وعبد الله بن عُبَيدة قالوا: تَزوَّج رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث عشرة امرأة، ستٌّ من قُرَيش: خديجةُ، وعائشةُ، وحفصةُ، وأم حَبِيبة، وسَوْدَةُ، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وَهَبت نفسها للنبي ـ ﷺ ـ، وزينبُ أم المساكين وامرأة من بني بكرِ بن كِلابِ من القُرطاء، وهي التي اختارت الدنيا. وامرأة من بني الجَون، وهي التي استعاذت منه، وزينبِ بنت جحش الأسدية، والسَبيَّتين صفية بنت حُيَي ابن أخطب، وجُويرية بنت الحارث بن عمرو بن المُصطلِق الخزاعية[٢]. وقال سَعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ، عن ابن عباس: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، قال: هي ميمونة بنت الحارثَ. فيه انقطاع[٣]. هذا مرسل[٤]، والمشهور أن زينبَ التي كانت تُدعَى أم المساكين هي زينبُ بنت خُزَيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ـ ﷺ ـ في حياته، فالله أعلم. والغَرَضُ من هذا أن اللاتي وَهَبن أنفُسَهن للنبي ـ ﷺ ـ كثيرٌ، كما قال البخاري:

[٥٤٤٠] حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامَةَ، قال هشام بن عُروَةَ، حدَّثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وَهبن أنفسهن من لرسول ـ ﷺ ـ وأقول: أتهبُ المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾، قلت: ما أرَى رَبَّك إلا يُسارِعُ في هَوَاك»[٥].

[٥٤٤١] وقد قال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن مَنصُورِ الجُعفي، حدثنا يُونُس بن بُكَير، عن عَنبَسَة بن الأزهر، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عَبَّاسٍ قال: لم يكن عند رسول الله ـ ﷺ ـ امرأةٌ وَهَبَت نفسها له[٦]. ورواه ابنُ جَرير عن أبي كُرَيب، عن يونس بن بكير. أي: إنه لم يقبل واحدةً ممن وَهَبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به، لأنه مَردُود إلى مَشِيئَته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، أي: إن اختار ذلك.

وقولُه: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال عكرمة: أي لا تَحلُّ الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وَهَبت نفسها لرجل لم تَحلَّ له حتى يُعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبيُّ وغيرهما. أي: إنها إذا فَوَّضت المرأةُ نفسَها إلى رجل فإنه متى دَخَل بها وَجَب لها عليه مهرُ مثلها،

(١) صحيح. أخرجه ابن سعد ٨/ ١٢٥ وهو مرسل صحيح.

(٢) هذا مرسل، ومع إرساله فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف. وأكثر حديثه هذا محفوظ، لكن الصواب أن زينب بنت خزيمة بقيت عنده ﷺ. وهو الذي أثبته ابن سعد. راجع ترجمتها في «الطبقات» ٨/ ١١٥.

(٣) أي بين قتادة، وابن عباس.

(٤) يعود على ما رواه موسى بن عبيدة، وهو المتقدم قبل أثر ابن عباس.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٨ ومسلم ١٤٦٤ والنسائي ٦/ ٥٤.

(٦) ضعيف، سماك اختلط بأخرة، وعنبسة لا يحتج به. وتقدم أن ميمونة بنت الحارث، من اللائي وهبت نفسها، والله أعلم.

[٥٤٤٢] كما حكم به رسول الله ـ ﷺ ـ في بَرْوَعَ بنتِ واشقٍ لما فَوَّضت، فحكم لها رسول الله ـ ﷺ ـ بصداقِ مثلها لما توفي عنها زوجُها[١]، والموتُ والدخول سواءٌ في تقرير المهر وثُبوتِ مهر المثل في المفوضة لغير النبيِّ ـ ﷺ ـ، فأما هو عليه السلام فإنه لا يجبُ عليه للمفوَّضة شيءٌ ولو دَخَل بها، لأن له أن يتزوَّج بغير صداقٍ ولا وَلِيٍّ ولا شُهود، كما في قصة زينب بنت جَحش ـ رضي الله عنها ـ. ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأة تَهبَ نفسَها لرجل بغير وَلِيٍّ ولا مَهرٍ إلا للنبي ـ ﷺ ـ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، قال أبيُّ بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾، أي: من حَصْرِهم في أربع نسوةٍ حرائر وما شاؤوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمةُ، وقد رَخَّصنا لكَ في ذَلِكَ، فلم نُوجِب عليك شيئاً منه، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

[٥٤٤٣] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ: أنها كانت تُعَيِّر النساء اللاتي وَهَبْنَ أنفسَهُنَّ لرسول الله ـ ﷺ ـ قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرضَ نفسَها بغير صَداقٍ؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إني أرى رَبَّك يُسارعُ لَك في هواك[٢]. وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث أبي أُسامَةَ، عن هشام بن عُروَةَ، فدلَّ هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجِى﴾ أي: تُؤخِر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات، ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من شِئتَ قبلتها، ومن شئت رَدَدتها ومن رددتها أنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتَها. ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

قال عامرٌ الشعبيُّ في قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ كُن نساء وهبن أنفسهنَّ للنبي ـ ﷺ ـ، فدخل ببعضِهِنَّ وأرجأ بعضَهن لم يُنكحن بعده، منهن أم شَرِيك. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، أي: من أزواجك، لا حَرَج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتُقدِّمَ مَن شئت، وتُؤَخِّرَ من شئت، وتَترُكَ من شئتَ. هكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادةَ، وأبي رَزِين، وعبد الرحمن بن زَيدِ بن أسلَمَ، وغيرهم. ومع هذا كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقسِمُ لهنَّ. ولهذا ذهب طائفةٌ من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القَسْمُ واجباً عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

[٥٤٤٤] وقال البخاري: حدثنا حِبَّان بن موسى: حدثنا عبد الله ـ هو ابنُ المبارك ـ أخبرنا عاصم الأحولُ، عن مَعَاذَةَ عن عائشة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يستأذن في يوم المرأةِ منَّا بعدَ أن نَزَلت هذه الآيةُ:

---

(١) تقدم هذا الحديث مطولاً في البقرة، وهو حسن.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥١١٣ ومسلم ١٤٦٤ ح ٥٠ وابن ماجه ٢٠٠٠ وأحمد ٦/١٥٨.

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾، فقلت لها: ما كنتِ تقولينَ؟ فقالت: كنتُ أقول: إن كان ذاك إليَّ فإني لا أُريدُ يا رسول الله أن أُوثِرَ عليك أحداً(١). فهذا الحديثُ عنها يدلُّ على أن المراد من ذلك عَدَم وُجُوبِ القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات. ومن هاهُنا اختار ابنُ جرير أن الآية عامة في الواهباتِ وفي النساء اللاتي عندَه، أنه مُخَيَّر فيهنَّ إن شاء قَسَم وإن شاء لم يَقسِم. وهذا الذي اختاره حسنٌ جيدٌ قويٌّ، وفيه جمعٌ بين الأحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ﴾، أي: إذا علمن أن الله قد وَضع عنك الحَرَج في القَسْم، فإن شئت قَسمت، وإن شئتَ لم تقسم، لا جُناح عليك في أيِّ ذلك فَعَلت، ثم مع هذا أنت تَقسِم لهن اختياراً مِنك لا أنَّه على سبيل الوُجوب، فَرِحْنَ بذلك واستبشرن به وحَمَلن جَميلك في ذلك، واعترفن بِمِنَّتِكَ عليهنَّ في قَسْمِك لهنَّ وتَسويتِك بينهُنَّ وإنصافِكَ لهُنَّ وعَدلِكَ فيهِنَّ.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ﴾، أي: من الميل إلى بعضِهن دُون بعضٍ، مما لا يمكن دفعُه.

[٥٤٤٥] كما قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن أَيُّوبَ، عن أبي قِلابَةَ، عن عبد الله بن يَزيدَ، عن عائشة قالت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقسمُ بين نِسائه فيعدِلُ، ثم يقول: «اللهمَّ هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تَملكُ ولا أملِكُ»(٢). ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حَمَّاد بن سَلَمة، وزاد أبو داود بعد قوله: «فلا تَلُمني فيما تملِكُ ولا أملِكُ» يعني القلب. وإسنادهُ صحيحٌ، ورجالُه كُلُّهم ثِقاتٌ.

ولهذا عَقَّب ذلك بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾، أي: بِضَمائِر السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾، أي: يحلم ويَغفِرُ.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

ذكر غيرُ واحدٍ من العلماء ـ كابن عباس، ومجاهد، والضحَّاك، وقتادةَ، وابنِ زَيدٍ، وابن جَرير، وغيرهم ـ: أن هذه الآيةَ نَزَلت مجازاةً لأزواج النبي ـ ﷺ ـ ورضاً عنهن، على حُسن صنيعهن في اختيارهنَّ الله ورسوله والدار الآخرة، لمَّا خيَّرهن رسول الله ـ ﷺ ـ كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله ـ ﷺ ـ كان جزاؤهن أنَّ الله قصرَه عليهنَّ، وحَرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدِلَ بِهِنَّ أزواجاً غيرهُنَّ، ولو أعجبه حُسنهُنَّ إلا الإماء والسَّراري فلا حَجْرَ عليه فيهنَّ. ثم إنه تعالى رَفَع عنه الحجر في ذلك ونَسَخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّجٌ لتكون المنَّةُ للرسول، عليهِنَّ.

[٥٤٤٦] قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عَمرو، عن عطاء، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما مات رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أَحَلَّ الله له النساءَ(٣). ورواه أيضاً من حديث ابن جُرَيج، عن عطاء، عن عُبَيد بن عُمَير، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في سُنَنيهما.

[٥٤٤٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شَيْبَةَ، حدثني عُمر بن أبي بكر، حدثني المغيرةُ بن عبد الرحمن الحِزامِيُّ، عن أبي النضر مَولى عمر بن عُبَيد الله، عن عبد

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٩ ومسلم ١٤٧٦ وأبو داود ٢١٣٦ وأحمد ٦/ ٧٦ وابن حبان ٤٢٠٦.

(٢) تقدم الكلام عليه في تفسير سورة النساء عند آية: ١٢٩، وهو غير قوي.

(٣) موقوف، أخرجه الترمذي ٣٢١٦ والنسائي ٦/ ٥٦ وأحمد ٦/ ٤١ و١٨٠ وابن حبان ٦٣٦٦ وإسناده صحيح على شرطهما، لكن هو اجتهاد من عائشة، وقد خالفها غير واحد من الصحابة وأئمة التفسير.

الله بن وَهْب بن زَمْعَةَ، عن أُمّ سلمةَ أنها قالت: لم يَمُت رسول الله ـ ﷺ ـ حتّى أحلَّ الله له أن يتزوّج من النساء ما شاء، إلا ذاتَ محرم؛ وذلك قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾(١). فجعلت هذه الآيةُ ناسخَة للتي بعدَها في التلاوة، كآيتي عدّةِ الوفاةِ في البَقَرةِ، الأولى ناسِخَةٌ للتي بعدها، والله أعلم. قال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، أي: من بعد ما ذكَرنا لك من صفة النساءِ اللاتي أحللنا لك من نِسائك اللاتي آتيت أجُورَهُنّ وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالاتِ والواهبةِ، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحلُّ لك، وهذا مَرويّ عن أُبيّ بن كعب، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، والضحاك ـ في رواية ـ وأبي رَزين ـ في رواية عنه ـ وأبي صالح، والحسن، وقتادة ـ في رواية ـ والسدّي، وغيرهم.

قال ابنُ جرير: حدثنا يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيّة، عن داودَ بن أبي هندٍ، حدثني محمد بن أبي موسى، عن زيادٍ ـ رَجل من الأنصار ـ قال: قلتُ لأبي بن كَعبٍ: أرأيت لو أنّ أزواجَ النبيّ ـ ﷺ ـ تُوُفّين، أما كان له أن يَتزوّج؟ فقال: وما يمنعُه من ذلك؟ قال: قلت: قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾. فقال: إنما أحل الله له ضَرباً من النساء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾. ثم قيل له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾. ورواه عبد الله بن أحمدَ من طُرق، عن داود، به.

[٥٤٤٨] وروى الترمذي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نُهِيَ رسول الله ـ ﷺ ـ عن أصناف النّساء، إلا ما كان من المؤمناتِ المهاجراتِ بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحلَّ الله فَتياتِكم المؤمناتِ ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وحَرّم كُلّ ذاتِ دينٍ غير الإسلام. ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء(٢). وقال مجاهد: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، أي: من بَعدِ ما سُمّي لك، من مسلمة ولا يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ ولا كافرةٍ. وقال أبو صالح: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، أُمِر الأ يتزوّجَ أعرابيةً ولا غَريبَةً، ويتزوج بعدُ من نساءِ تهامَةَ، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمئةٍ. وقال عِكرمةُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، أي: التي سَمّى الله. واختار ابنُ جَرير ـ رحمه الله ـ أن الآية عامّةٌ فيمن ذَكر من أصناف النّساءِ، وفي النّساء اللواتي في عِصمَتِهِ وكُنّ تسعاً. وهذا الذي قاله جيدٌ، ولعلّه مرادُ كثير مِمّن حَكَينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم رُوِي عنه هذا وهذا، ولا منافاةَ، والله أعلم. ثم أورد ابن جرير على نفسه ما رُوي أن رسول الله ـ ﷺ ـ طَلّق حفصة ثم رَاجعها، وعَزم على فِرَاق سودة حتى وهبت يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نُزُولِ الآية صحيح، ولكن لا يُحتاجُ إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلّت على أنه لا يَتزوّج بمن عدا اللّواتي في عِصمَتِهِ، وأنه لا يستبدِلُ بهنّ غيرهُنّ، ولا يَدُلُّ ذلك على أنه لا يُطلّق واحدةً منهنّ من غير استبدالٍ، والله أعلم.

[٥٤٤٩] فأما قَضِية سودَة ففي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وهي سَبَبُ نزولِ قوله تعالى:

---

(١) موقوف. إسناده ضعيف، عمر بن أبي بكر مجهول.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٢١٥ وقال: حسن. قال ابن حنبل: لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(١) [النساء: ١٢٨] الآية.

[٥٤٥٠] وأما قَضِيَّة حفصة فَرَوى أبو داودَ والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، من طُرُق، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حَيٍّ، عن سَلَمَةَ بن كُهَيل، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن عُمَر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ طَلَّق حفصة ثم رَاجَعَهَا»(٢). وهذا إسنادٌ قوي.

[٥٤٥١] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا يونس بن بُكَير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عمر قال: دَخَل عُمَر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ـ ﷺ ـ طَلَّقك! إنه قد كان طَلَّقَكِ مَرَّةً ثم راجعَكِ من أجلي، والله لئن كان طَلَّقك مَرَّة أخرى لا أُكلِّمُكِ أبداً(٣). ورجاله على شرط الصحيحين.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، فنهاهُ عن الزِّيادةِ عليهن، أو طلاقِ واحدةٍ منهنَّ واستبدال غيرها بها إلا ما مَلَكتِ يمينُه.

[٥٤٥٢] وقد روى الحافظ أبو بكر البزّار حديثاً مناسباً ذكره هاهنا فقال: حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بنُ حَربٍ، عن إسحاق بن عبد الله القُرَشي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي هُرَيرة قال: كان البَدَلُ في الجاهلية أن يقول الرجلُ للرجل: بادِلْني امرأتك وأُبادِلْك بامرأتي. أي: تَنزلُ لي عن امرأتك، وأنزلُ لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾. قال: فدخل عُيَينَةُ بن حِصْنٍ الفَزاريُّ على النبي ـ ﷺ ـ وعنده عائشةُ، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «فأين الاستئذان؟» فقال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَرَ منذ أدركتُ. ثم قال: من هذه الحُمَيراء إلى جَنبِكَ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هذه عائشةُ أمُّ المؤمنين»، قال: أفلا أنزل لك عن أحسنِ الخَلْقِ؟ قال: يا عُيَينة، إن الله قد حَرَّم ذلك. فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: «هذا أحمقُ مطاع، وإنه على ما ترينَ لَسَيِّدُ قومِهِ»(٤). ثم قال البزّار: إسحاق ابن عبد الله لَيِّنُ الحديثِ جداً، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوَجْهِ، وبَيَّنَّا العلة فيه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ

(١) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٢٨٣ والنسائي ٦/ ٢١٣ وابن ماجه ٢٠١٦ وابن حبان ٤٢٧٥ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٧ على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ١٧٢ وابن حبان ٤٢٧٦ والطبراني ٢٣/ ٣٠٥، وفي إسناده يونس بن بكير، وهو صدوق روى له مسلم متابعة، وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٢٤٤: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. ويتأيد بما قبله.

(٤) باطل. أخرجه البزار ٢٢٥١ والدارقطني ٣/ ٢١٨، وضعفه البزار كما ذكر المؤلف. ونقل الآبادي في «التعليق المغني» عن ابن حجر في «الفتح» قوله: ضعيف جداً، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٩٢: إسحق متروك اهـ. والمتن باطل، فإن الحادثة بعد نزول الحجاب، وأمارة الوضع لائحة على هذا الحديث.

﴿لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكامٌ وآدابٌ شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قولَ عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال:

[٥٤٥٣] وافقتُ ربي في ثلاثٍ قلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقامَ إبراهيمَ مُصَلًى، فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلتُ: يا رسول الله، إنَّ نساءَك يدخل عليهنَّ البرّ والفاجرُ، فلو حَجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ـ ﷺ ـ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[(١)] [التحريم: ٥]، فنزلت كذلك. وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضيةٌ رابعةٌ[(٢)].

[٥٤٥٤] وقد قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حُمَيد، عن أنس بن مالك قال: قال عُمَر بن الخطاب، يا رسول الله، يدخل عليكَ البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمرتَ أُمَّهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحِجَاب[(٣)]. وكان وقتُ نزولها في صَبيحَةِ عُرْسِ رسول الله ـ ﷺ ـ بزينب بنت جَحْشٍ، التي تولى الله تعالى تَزْويجَها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنةِ الخامسةِ، في قول قتادةَ والواقديِّ وغيرهما. وزعم أبو عُبَيدة معمَر بن المثنى وخليفة بن خَيَّاط أن ذلك كان في سنةِ ثلاثٍ، فالله أعلم.

[٥٤٥٥] قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرَّقاشي، حدثنا معتمر بن سُلَيمان، سَمِعتُ أبي، حدثنا أبو مِجْلَز، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما تَزوَّج رسول الله ـ ﷺ ـ زينبَ بنتَ جَحشٍ دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يَتهيَّأُ للقيام فلم يَقُوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قامَ، وقعد ثلاثة نَفَرٍ. فجاء النبي ـ ﷺ ـ ليدخُلَ، فإذا القومُ جلوسٌ، ثم إنهم قاموا، فانطلقتُ فَجِئتُ فأخبرتُ النبي ـ ﷺ ـ إنهم قَدِ انطلقُوا. فجاء حتى دَخَل، فذهبت أدخلُ، فألقَى الحِجابَ بيني وبينه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾... الآية[(٤)]. وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم، والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان، به. ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قِلَابَة، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

[٥٤٥٦] ثم قال: حدثنا أبو مَعْمَرٍ، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صُهَيب، عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي ـ ﷺ ـ بزينب بنت جَحش بخبز ولحم، فَأُرسِلْتُ على الطعام داعياً، فَيَجِيء قومٌ فيأكُلون ويخرجُون، ثم يَجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون. فدعوتُ حتى ما أَجِدُ أحداً أدعُوه، فقلت: يا نبي الله، ما أَجِد أحداً أدعوه. قال: «ارفعُوا طعامكم». وبقي ثلاثة رهط يَتحدَّثون في البيت، فخرج النبيُّ ـ ﷺ ـ فانطلق إلى حُجرَة عائشةَ، فقال: «السلام عليكم ـ أهل البيت ـ ورحمةُ الله وبركاته». قالت: وعليكَ السلامُ ورحمة الله، كيف وجدتَ أهلك، بارك الله لك؟ فتَقَرَّى حُجَر نسائه كُلِّهن، يقول لَهُن كما يقول لعائشةَ،

---

(١) وتقدم تخريج الحديث في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ١٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٠.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩١ ومسلم ١٤٢٨ والنسائي في «التفسير» ٤٤٠.

ويَقُلن له كما قالت عائشةُ. ثم رجع النبي ـ ﷺ ـ فإذا رَهطٌ في البيت ثلاثة يتحدثون. وكان النبي ـ ﷺ ـ شديدَ الحياءِ، فَخَرج مُنطلِقاً نحو حُجْرةِ عائِشَةَ، فما أدري أخبرتُه أم أُخْبِرَ أن القوم خرَجُوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفَةِ الباب دَاخلةً، وأخرى خارجَةً، أَرْخَى الستر بيني وبينه، وأُنزِلت آيةُ الحِجَابِ(١). انفرد به البخاريُّ من بين أصحاب الكتب الستَّةِ، سوى النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث عبد الوارث. ثم رواه عن إسحاق ـ هو ابن منصور ـ عن عبد الله بن بَكْرٍ السَّهمي، عن حُمَيد، عن أنس، بنحو ذلك، وقال: «رجلان» انفرد به من هذا الوجه. وقد تقدّم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس.

[٥٤٥٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو المظفر، حدثنا جَعفَرُ بن سُلَيمان، عن الجَعْدِ أبي عثمانَ اليَشكُرِيِّ، عن أنس بن مالك قال: أعرسَ رسول الله ـ ﷺ ـ ببعض نسائه، فَصَنعت أمُّ سُلَيم حَيساً ثم وضَعته في تَوْر(٢)، فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، وأقرِئه منِّي السلام، وأخبره أن هذا منّا له قليلٌ. قال أنس: والناس يومئذٍ في جَهد، فجئت به فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أُمُّ سُلَيم إليك، وهي تُقرِئُك السلامَ، وتقول: «أخبره أن هذا منا له قليل». فنظر إليه ثم قال: «ضَعه» فوضَعتُه في ناحية البيت، ثم قال: «اذهب فادعُ لي فلاناً وفلاناً». وسمّى رجالاً كثيراً، وقال: «ومَن لَقِيتَ من المسلمين». فدعوتُ مَن قال لي، ومَن لَقِيتُ مِنَ المسلِمِينَ، فجئت والبيت والصفَّة والحجرة مَلأى من الناس ـ فقلت: يا أبا عثمان كم كانوا؟ قال: كانوا زهاء ثلاثمئة ـ قال أنس: فقال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «جِيءْ به». فَجِئتُ به إليه، فوضَع يدَه عليه، ودَعا وقال: «ما شاءَ الله!» ثم قال: «لِيتَحلَّق عَشرةٌ عَشرةٌ، وَلْيُسمُّوا، وَلْيأكُلْ كلُّ إنسان مما يليه». فَجَعلوا يُسَمُّون ويأكلون، حتى أَكَلُوا كلُّهم. فقال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «ارفعه». قال: فجئتُ فأخذت التَّوْرَ فنظرتُ فيه فما أَدرِي أهوَ حين وضعتُ أكثَرُ أم حين أخذتُ؟ قال: وتخلَّف رجالٌ يتحدَّثون في بيتِ رسُولِ الله، وزَوجُ رسول الله ـ ﷺ ـ التي دخل بها معهم مُوَلِّية وجهَها إلى الحائط، فأطالوا الحديثَ، فَشَقُّوا على رسول الله ـ ﷺ ـ، وكان أشد الناس حياء ـ ولو عَلِمُوا كان ذلك عليهم عزيزاً ـ فقام رسول الله ـ ﷺ ـ، فخرج وسَلَّم على حُجَره وعلى نِسَائه، فلما رأوه قد جَاءَ ظنُّوا أنهم قد ثَقَّلوا عليه، ابتدروا البابَ فَخرجوا، وجاء رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أرخى السِّتر، ودخَل البيتَ وأنا في الحُجرةِ، فمكث رسول الله ـ ﷺ ـ في بيته يَسيراً، وأُنزِلَ عليه القرآنُ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ إلى قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. قال أنس: فَقرأهُنَّ عَليَّ قبل الناس، فأنا أحدثُ الناس بِهِنَّ عهداً(٣). وقد رواه مُسلِم والتِّرمذيُّ والنَّسائي جميعاً، عن قُتَيبةَ، عن جَعفرِ بن سليمانَ، به. وقال التِّرمِذيُّ: حسنٌ صحيحٌ. وعَلَّقه البخاري في كتاب النكاح فقال: وقال إبراهيم بن طَهمَانَ، عن الجَعدِ أبي عُثمانَ، عن أنسٍ، فَذَكر نحوه. ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعمَرٍ، عن الجَعدِ، به. وقد رَوَى هذا الحديثَ عبد الله بن المبارك، عن شَرِيكٍ، عن بَيَانِ ابن بشرٍ؛ عن أنَسٍ، بنحوه. ورواه البخاري والترمذي، من طريقين آخرين، عن بَيَان بن بشر الأحمسي الكوفي، عن أنس، بِنَحْوِهِ. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، من حديث أبي نضرة العبدِيِّ، عن أنس بن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٣ والنسائي في «اليوم والليلة» ٢٧٢.
(٢) الحيس: تمر ينزع نواه ويدق مع أقط (لبن مجفف) ويعجنان بالسمن. والتور: إناء يشرب فيه.
(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٢٨ ح ٩٤ و٩٥ والترمذي ٣٢١٨ وعلقه البخاري ٥١٦٣.

مالك، بنحوه، ولم يخرجوه. ورواه ابنُ جرير من حديث عَمرو بن سعيدٍ، ومن حديث الزهري، عن أنسٍ، بنحو ذلك.

[٥٤٥٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا بهزٌ وهاشِمٌ بن القاسم قالا: حدثنا سُلَيمان بن المغِيرة، عن ثابت، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما انقضت عدةُ زينبَ قال رسول الله ـ ﷺ ـ لزيد: «اذهب فاذكُرها عليّ». قال: فانطلق زيدٌ حتى أتاها، قال: وهي تُخمِّر عجينها، فلما رأيتُها عَظُمت في صَدْري... وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾[١] [الأحزاب: ٣٧]، وزاد في آخره بعد قوله: وَوعظَ القوم بما وُعِظُوا به. قال هاشم في حديثه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾. وقد أخرجه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به.

[٥٤٥٩] وقال ابنُ جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخي ابن وهب ـ حدثني عَمِّي عبد الله ابن وهب، حدثني يونس، عن الزهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائِشَةَ قالت: إن أزواجَ رسول الله ـ ﷺ ـ كُنّ يخرُجنَ بالليل إذا تبرّزن إلى المناصع ـ وهو صعيدٌ أفيَحُ ـ وكان عُمَر يقول لرسول الله ـ ﷺ ـ: احجُب نساءَكَ. فلم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ ليفعل، فخرجت سودَةُ بنتُ زَمْعَة زوجُ النبي ـ ﷺ ـ وكانت امرأةً طويلةً، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودَةُ. حِرْصاً أن ينزِل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحِجَابَ[٢]. هكذا وَقَع في هذه الرواية، والمشهورُ أن هذا كان بعدَ نُزولِ الحِجَاب.

[٥٤٦٠] كما رواه الإمامُ أحمدُ والبخاري ومُسلِم، من حديث هِشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائِشَة ـ رضي الله عنها ـ قالت: خَرَجت سودةُ بعد ما ضُرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأةً جَسِيمَةً لا تَخفَى على مَن يَعرِفها، فرآها عُمر بن الخطاب فقال: يا سودةُ، أما وَالله ما تَخفَين علينا، فانظُري كيف تَخرُجِينَ؟ قالت: فانكفأَتْ رَاجعةً، ورسول الله ـ ﷺ ـ في بَيتي، وإنه ليتعشّى، وفي يده عَرْقٌ[٣]، فَدَخَلت فقالت: يا رسول الله، إني خَرجتُ لبعضِ حاجتي، فقال لي عُمر كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه، ثم رُفِعَ عنه وإن العَرْق في يَدِه، ما وَضَعه. فقال: «إنه قد أُذِنَ لَكُنّ أن تَخرُجْنَ لحاجَتِكُنّ»[٤]. لفظ البخاري.

فقولُه تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ حَظَر على المؤمنين أن يدخلُوا منازلَ رسول الله ـ ﷺ ـ بغير إذنٍ، كما كانوا قبل ذلك يصنَعُون في بيوتهم في الجاهلية وابتداءِ الإسلام، حتى غَار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة.

[٥٤٦١] ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إياكم والدخولَ على النساء»[٥]. ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾. قال مجاهد وقتادةُ وغيرُهما: أي غير مُتحيِّنين نُضجَه

---

(١) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٦١٩، ورجاله ثقات معروفون، سوى أحمد بن عبد الرحمن فيه كلام، لكن توبع على هذا السياق، فقد أخرجه الطبري ٢٨٦٢٢ من طريق آخر.

(٣) العَرْق: العظم بلحمه، ويطلق على ما أُكل منه اللحم.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٥ ومسلم ٢١٧٠ وأحمد ٦/٥٦ وأبو يعلى ٤٤٣٣.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٢ ومسلم ٢١٧٢ والترمذي ١١٧١ وأحمد ٤/١٤٩ وابن حبان ٥٥٨٨ من حديث عقبة بن عامر.

واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام إذا طُبخ حتى إذا قارب الاستواء تَعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهُه الله ويَذُمّه. وهذا دليلٌ على تحريم التَّطفُّل، وهو الذي تُسَمّيه العربُ الضيفَنَ، وقد صَنَّف الخطيبُ البغداديُّ في ذلك كتاباً في ذَمِّ الطُّفَيليين. وذَكر من أخبارِهم أشياءَ يطولُ إيرادُها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾.

[٥٤٦٢] وفي صحيح مسلم عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا دَعَا أحدُكم أخاه فَلْيُجِبْ، عُرْساً كانَ أو غيرَه»(١). وأصلُه في الصحيحين.

[٥٤٦٣] وفي الصحيح أيضاً، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو دُعِيتُ إلى ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ، ولو أُهدِيَ إليَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ. فإذا فَرَغتم من الذي دُعيتم إليه فَخَفِّفُوا عن أهل المنزل، وانتشِرُوا في الأرض»(٢). ولهذا قال: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديثُ، ونَسُوا أنفُسَهم، حتى شَقّ ذلك على رسول الله ـ ﷺ ـ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾. وقيل: المراد أنّ دخولكم مَنزِله بغير إذْنِه كانَ يشُقُّ عليه ويَتَأذّى به، لكن كان يكرَهُ أن ينهاهم عن ذلك من شِدّةِ حيائه عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهيَ عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾، أي: ولهذا نَهاكُم عن ذلك وزَجرَكم عنه. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، أي: وكما نهيتُكم عن الدخول عليهنّ، كذلك لا تنظُروا إليهنّ بالكُلّية، ولو كان لأحدكم حاجةٌ يريد تناوُلها منهن فلا ينظر إليهنّ، ولا يسألهنّ حاجةً إلا مِن وَرَاءِ حِجَابٍ.

[٥٤٦٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر، حدثنا سفيان، عن مِسْعَرٍ، عن موسى بن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشةَ قالت: كنتُ آكلُ مع النبي ـ ﷺ ـ حَيْساً في قَعْبٍ(٣) فَمرّ عُمَر فدعاه فأكلَ، فأصابت إصبَعُهُ إصبَعِي، فقال: حَسّ ـ أو: أَوّه ـ لو أُطاع فيكن ما رأتكُنّ عينٌ. فنزل الحِجَابُ(٤). ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، أي: هذا الذي أمرتكم به وشَرَعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، قال: نزلت في رَجُل هَمّ أن يتزوَّجَ بعضَ نساءِ النبي ـ ﷺ ـ بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشةُ؟ قال: ذكروا ذاك. وكذا قال مقاتل بن حَيّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السُّدي أن

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٢٩ ح ١٠٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٦٨ و٥١٧٨ وأحمد ٢/ ٤٢٤ وابن حبان ٥٢٩١ من حديث أبي هريرة.

(٣) القعب: القدح الضخم.

(٤) إسناد ضعيف، والمتن منكر، أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤١٩ بهذا الإسناد، وهو ضعيف له علتان: موسى بن أبي كثير، وثقه غير واحد، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال ابن حبان: يروي المناكير عن المشاهير، فلما كثر ذلك بطل الاحتجاج به، إلا فيما وافق الثقات. وللحديث علة أخرى، مجاهد عن عائشة منقطع. وقد أخرجه الواحدي ٧٠٩ عن مجاهد مرسلاً، وهو ضعيف بكل حال، ثم إن المتن غريب، بل منكر، وانظر تخريج الكشاف للحافظ ٣/ ٥٥٥.

الذي عَزَم على ذلك طلحة بن عُبَيد الله ـ رضي الله عنه ـ[١]، حتى نَزَل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا أجمَع العلماء قاطبَةً على أن من تُوفّي عنها رسول الله ـ ﷺ ـ من أزواجه أنه يحرمُ على غيره تزوجُها من بعده، لأنهنَّ أزواجهُ في الدنيا والآخرة وأمَّهات المؤمنين كما تقدم. واختلفوا فيمن دَخَل بها ثم طَلّقها في حياته هل يحلُّ لغيره أن يتزوَّجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طَلّقها قبل أن يدخُلَ بها فما نعلم في حِلّها لغيره ـ والحالة هذه ـ نزاعاً. والله أعلم.

[٥٤٦٥] وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنّى، حدثنا عبد الوهّاب، حدثنا داود، عن عامر: أن نبي الله ـ ﷺ ـ مات وقد ملك قَيْلَة بنتَ الأشعث ـ يعني ابن قَيس ـ فتزوَّجها عكرمةُ بن أبي جَهل بعد ذلك، فَشَقَّ ذلك على أبي بكر مَشَقَّةً شَدِيدَةً، فقال له عمر: يا خليفةَ رسولِ الله، إنها ليست من نِسائه، إنه لم يُخَيّرها رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يحجُبها، وقد بَرَّأها الله منه بالردة التي ارتدَّت مع قومها. فاطمأنَّ أبو بَكر ـ أي: وَسَكن[٢]. وقد عظم تبارك وتعالى ذلك، وشدَّد فيه، وتوعَّد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، ثم قال: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٥٤﴾، أي: مهما تُكِنُّه ضمائرُكم وتَنطَوي عليه سرائِرُكم فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافيةٌ، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ۝٥٥﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساءَ بالحِجَاب من الأجانب بَيّن أن هؤلاءِ الأقاربَ لا يَجبُ الاحتجابُ منهم، كما استثناهم في سُورة النور، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]... إلى آخرها، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرُها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته.

وقد سأل بعضُ السلفِ فقال: لِمَ لم يذكر العمَّ والخالَ في هاتين الآيتين؟ فأجاب عِكْرِمة والشعبيُّ بأنهما لم يذكرا، لأنهما قد يَصِفان ذلك لبنيهما. قال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنّى، حدثنا حَجّاج بن مِنْهال، حدثنا حَمّاد، حدثنا داود، عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾، قلت: ما شأنُ العمِّ والخالِ لم يُذكَرا؟ قال: لأنهما ينعتانها لأبنائهما. وكَرِها أن تضع خمارها عند خالِها وعمِّها. وقولُه: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾، يعني بذلك عَدَمَ الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقولُه تعالىٰ: ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ يعني به أرقاءَهُنَّ من الذكور والإناث كما تقدم التنبيهُ عليه، وإيراد الحديث فيه. قال سَعيد بن المسيب: إنما يعني به الإماءَ فقط.

---

(١) هذا مرسل، وورد مرسلاً من وجوه عدة، وأكثرها لا تذكر اسم القائل، وبكل حال، لا يحتج بالضعاف في هذا المقام على أن الحافظ ابن حجر ذكر هذا في «الإصابة» ٢/ ٢٣٠ وقال: طلحة بن عبيد الله بن مسافع، يقال هو الذي نزل فيه ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ...﴾ وذكره أبو موسى في الذيل عن ابن شاهين بغير إسناد، وقال: إن جماعة من المفسرين غلطوا، فظنوا أنه طلحة بن عبيد الله أحد العشرة اهـ.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٦٢٤ عن الشعبي مرسلاً، فهو ضعيف لإرساله.

رواه ابن أبي حاتم. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، أي: واخشَيْنَه في الخَلْوَة والعَلانِيَةِ، فإنه شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، لا تخفى عليه خَافِيَةٌ، فَرَاقِبْنَ الرَّقِيبَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

قال البُخاريُّ: قال أبو العاليةِ: صلاةُ الله تعالىٰ ثناؤه عليه عند الملائكةِ، وصلاةُ الملائكة الدعاءُ. وقال ابن عباس: ﴿يُصَلُّونَ﴾: يُبَرِّكُونَ. هكذا عَلَّقَه البخاريُّ عنهما. وقد رَوَاه أبو جعفَر الرازيُّ، عن الربيع بن أَنَسٍ، عن أبي العاليةِ كَذلك. ورُوِي مثله عن الربيع أيضاً. وروى علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس كما قاله سواءً، رواهما ابن أبي حاتم. وقال أبو عيسى التِّرمِذيُّ: «ورُوِيَ عن سُفيانَ الثَّوريِّ وغيرِ واحدٍ من أهلِ العلم قالوا: صَلاةُ الربِّ الرحمةُ، وصلاةُ الملائكةِ الاستغفارُ».

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عَمرو الأَوْدِيُّ، حدثنا وَكِيعٌ، عن الأعمش، عن عَمْرو بن مُرَّةَ قال الأعمش: أُرَاه عن عطاء بن أبي رَبَاح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾، قال: صلاته تَبَارك وتعالى: سُبُوحٌ قُدُوسٌ، سَبَقت رَحْمتِي غَضَبي. والمقصودُ من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عبادَه بمنزلَةِ عبده ونَبيِّه عندَه في الملأ الأعلى، بأنه يُثْني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تُصَلِّي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمعَ الثناءُ عليه من أهل العَالَمين العُلوي والسفلي جميعاً. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعثَ بن إسحاق، عن جَعفر ـ يعني ابن المغيرة ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يُصَلِّي ربُّك؟ فناداه ربُّه: يا موسى، سألوكَ: هل يُصَلِّي ربك؟ فقل: نعم، أنا أُصَلِّي وملائكتي على أنبيائي وَرُسُلي. فأنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ على نبيه ـ ﷺ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾. وقد أخبر أنه سُبحانه وتعالى يُصلِّي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

[٥٤٦٦] وفي الحديث: «إن الله وملائكته يُصَلُّون على ميَامِنِ الصفوفِ»(١).

[٥٤٦٧] وفي الحديث الآخر: «اللهُمَّ، صَلِّ على آل أبي أوفى»(٢).

[٥٤٦٨] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لامرأة جابر ـ وقد سألته أن يُصَلِّي عليها وعلى زَوجِها ـ: «صلى الله عليكِ وعلى زَوْجِكِ»(٤). وقد جاءت الأحاديثُ المتواترة عن رسول الله ـ ﷺ ـ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفيَّة الصلاةِ عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان:

---

(١) أخرجه أبو داود ٦٧٦ وابن ماجه ١٠٠٥ وابن حبان ٢١٦٠ من حديث عائشة وقال الحافظ في «الفتح» ٢/ ٢١٣: أسامة بن زيد هو الليثي مولاهم أبو زيد استشهد به البخاري ومسلم، وهو مختلف فيه، وأعدل الأقوال فيه أنه حسن الحديث اهـ. بل ضعفه أحمد والقطان، وفي الإسناد معاوية بن هشام، وهو صدوق يخطىء. فالحديث غير قوي. ورواه غيره عن أسامة به بلفظ «... يصلون الصفوف» أخرجه ابن حبان ٢١٦٣ وهو أصح.

(٢) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٣.

[٥٤٦٩] قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآيةِ: حدثنا سعيدُ بن يحيى بن سعيدٍ، حدثنا أبي، عن مِسْعَرٍ، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: قِيل: يا رسول الله، أما السلامُ عليكَ فقد عَرَفناه، فكيف الصلاةُ؟ فقال: «قولوا: اللهمّ، صَلِّ على محمد وعلى آلِ محمدٍ كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهم، بارِك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على آلِ إبراهيم، إنك حميد مجيد»[١].

[٥٤٧٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم قال: سَمِعتُ ابنَ أبي ليلى قال: لقيني كعبُ بن عُجْرَة فقال: ألا أُهدِي لك هَدِيّة؟ خَرَج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقلنا: يا رسول الله، قد عَلِمنا ـ أو: عرفنا ـ كيف السلامُ عليك، فكيفَ الصلاةُ؟ قال: «قولوا: اللهُمّ، صلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيت على آل إبراهيم إنك حَميدٌ مجيدٌ، اللهم، بارِك على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما باركت على آل إبراهيمَ، إنك حميد مجيد»[٢]. وهذا الحديث قد أخرجه الجماعةُ في كُتبهم، من طرق مُتَعدِّدة، عن الحكم ـ وهو ابن عُتَيبة ـ زاد البخاريُّ: وعبد الله بن عيسى، كلاهُما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، فذكره.

[٥٤٧١] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحَسَن بن عَرَفة، حدثنا هُشَيم بن بَشِير، عن يَزيدَ بن أبي زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾. قال: قلنا: يا رسول الله، قد عَلِمنا السلامَ، فكيف الصلاةُ عليكَ؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميدٌ مجيدٌ». وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: «وعَلَينا معهُم»[٣]. ورواه التِّرمذي بهذه الزيادة. ومعنى قَولهم: «أما السلام عليك فقد عَرَفناه»، هو الذي في التشهد الذي كان يُعَلِّمهم إياه، كما كان يُعلِّمهم السورةَ من القرآن، وفيه: «السلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه».

[٥٤٧٢] حديثٌ آخرُ، قال البخاريُّ: حدثنا عبد الله بن يوسفَ، حدثنا الليثُ، عن ابن الهادِ، عن عبد الله بن خَبَّابٍ، عن أبي سَعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلامُ، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد عبدِك ورَسُولِك، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ. وبارِك على محمَّدٍ وعلى آلِ مُحمَّدٍ، كما باركت على آل إبراهيم». قال أبو صالح، عن الليث: «على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على آل إبراهيم»[٤].

[٥٤٧٣] حدثنا إبراهيمُ بن حمزةَ، حدثنا ابن أبي حازم والدَّرَاوَرْديُّ، عن يزيد ـ يعني ابنَ الهادِ ـ قال: «كما صَلَّيت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآلِ إبراهيمَ»[٥]. وأخرجه النسائي وابن ماجَه، من حديثِ ابن الهادِ به.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧٠ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٥٩ وأحمد ٤/ ٢٤٤ وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٣٥٧ ومسلم ٤٠٦ وأبو داود ٩٧٦ و٩٧٧ والنسائي ٣/ ٤٨ وابن ماجه ٩٠٤ وأحمد ٤/ ٢٤١ وابن حبان ٩١٢.

(٣) فيه يزيد بن أبي زياد، ضعفه الجمهور، لكن توبع عند الترمذي ٤٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٨.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري بإثر ٤٧٩٨ و٦٣٥٨ والنسائي ٣/ ٤٩ وابن ماجه ٩٠٣ من حديث أبي سعيد.

[٥٤٧٤] حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: قرأتُ على عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عَمرو بن سُلَيم أنه قال: أخبرني أبو حُمَيد الساعديُّ أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نُصَلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمَّ، صلِّ على محمد وأزواجه وذُرِّيتِهِ، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»[١]. وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذي، من حديث مالك، به.

[٥٤٧٥] حديثٌ آخرُ، قال مُسلِمٌ: حدثنا يحيى بن يحيى التَّميمي قال: قرأت على مالكٍ، عن نُعَيم ابن عبد الله المُجْمِرِ، أخبرني محمد بن عبد الله بن زَيدٍ الأنصاري ـ قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أُرِيَ النِّداء بالصلاة ـ أخبَرَه عن أبي مسعود الأنصاري ـ قال: أتانا رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن في مجلس سعدِ بن عُبَادة، فقال له بَشير بن سعد: أمرنا الله أن نُصَلِّي عليك يا رسول الله، فكيفَ نُصَلِّي عليك؟ قال: فَسَكت رسول الله ـ ﷺ ـ حتى تَمَنَّينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قولوا: اللهم صَلِّ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما باركتَ على آلِ إبراهيمَ في العالمين، إنك حميدٌ مَجيدٌ، والسلامُ كما قد عُلِّمتُم»[٢]. وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير من حديث مالك، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٥٤٧٦] وروى الإمام أحمد، وأبو داودَ، والنَّسائي، وابن خُزَيمة، وابن حِبَّان، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التَّيمِي، عن محمد بن عبد الله بن زيدِ بن عَبدِ ربِّه، عن أبي مسعود البَدْرِيَ أنهم قالوا: يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نُصَلِّي عليك إذا نَحنُ صَلَّينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللهم، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد...»[٣] وذكره. ورواه الشافعي ـ رحمه الله ـ في مسنده عن أبي هُرَيرَة، بمثله. ومن هاهنا ذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى أنه يجبُ على المصلِّي أن يُصَلِّي على رسول الله ـ ﷺ ـ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تَصِحَّ صلاته. وقد شَرَع بعضُ المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشَنِّع على الإمام الشافعي في اشتراطِه ذلك في الصلاة، ويزعمُ أنه قد تَفَرَّد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخَطَّابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تَعَسَّف هذا القائل في ردِّه على الشافعي، وتَكَلَّف في دعواه الإجماع على خلافه، وقال ما لم يُحِطْ به خُبراً، فإنه قد رَوَينا وُجُوب ذلك والأمرَ بالصلاةِ على رسول الله ـ ﷺ ـ في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومُفَسَّرٌ بهذا الحديثِ عن جماعةٍ من الصحابة، منهم ابنُ مسعود، وأبو مسعود البَدْرِيُّ، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبيُّ وأبو جعفر الباقرُ، ومُقاتِل بن حَيَّان. وإليه ذَهَب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب أحمدُ أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعَةَ الدِّمشقي، به. وبه قال إسحاقُ بن راهَوَيه، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المَوَّازِ المالِكِيِّ ـ رحمهم الله ـ حتى إنَّ بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ـ ﷺ ـ كما عَلَّمَهُم أن يقولوا لما سألوه، وحتى إنَّ بعضَ أصحابنا أوجب الصلاة على

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٦٩ ومسلم ٤٠٧ وأبو داود ٩٧٩ والنسائي ٣/ ٤٩ وابن ماجه ٩٠٥.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٤٠٥ وأبو داود ٩٨٠ والترمذي ٣٢٢٠ والنسائي ٣/ ٤٥.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٩٨١ وابن خزيمة ٧١١ وابن حبان ١٩٥٩ وأحمد ٤/ ١١٩ وصححه الحاكم ١/ ٢٦٨ على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الدارقطني ١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥: هذا إسناد حسن متصل. وهو كما قال، وصرح ابن إسحق بالتحديث.

الآل فيما حكاه البَنْدَنِيجي، وسُلَيم الرازيُّ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدِسي، ونقلَه إمامُ الحرَمَين وصاحبُه الغزالي قولاً عن الشافِعِي. والصحيحُ أنه وَجْهٌ، على أن الجمهورَ على خلافه، وحَكَوا الإجماعَ على خلافه. وللقولِ بوجوبه ظواهِرُ الحديثِ، والله أعلم. والغَرَض أن الشافعيَّ ـ رَحِمه الله ـ لقوله بوجوبِ الصلاةِ على النبي ـ ﷺ ـ في الصلاةِ ـ سَلَفٌ وَخَلَفٌ كما تقدم، ولله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافِه في هذه المسألةِ لا قَدِيماً ولا حَدِيثاً، والله أعلم.

[٥٤٧٧] ومما يؤيد ذلك الحديثُ الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داودَ والترمذي ـ وصَحَّحه ـ والنسائيُّ وابن خُزَيمة، وابن حِبّان في صَحِيحَيهما، من رِوَاية حَيوة بن شُرَيح المِصْرِي، عن أبي هَانِئ حُمَيد بن هانىء، عن عمرو بن مالك أبي علي الجَنْبِيِّ، عن فَضَالة بن عُبَيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ رَجُلاً يدعُو في صلاته، لم يمجد الله ولم يُصَلِّ على النبي ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عَجِلَ هذا». ثم دَعَاه فقال له أو لغيره: «إذا صَلَّى أحدكم فَلْيَبدأ بتحميد الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ والثناء عليه، ثم لِيُصَلِّ على النبيِّ، ثم لِيَدْعُ بَعدُ بما شاءَ»(١).

[٥٤٧٨] وكذا الحديثُ الذي رَوَاه ابنُ ماجه، من رواية عبد المُهَيمن بن عباس بن سَهل بن سعدِ الساعديِّ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا صلاةَ لمن لا وُضُوءَ له، ولا وُضوءَ لمن لم يَذْكُرِ اسمَ الله عليه، ولا صَلاَةَ لمن لم يُصَلِّ على النبيِّ، ولا صلاةَ لمن لا يُحبُّ الأنصارَ»(٢). ولكنَّ عبد المُهَيمِن هذا متروكٌ. وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أُبَيِّ بن عباس»، ولكن في ذلك نظر، وإنما يعرف من رواية «عبد المهيمن»، والله أعلم.

[٥٤٧٩] **حديث آخر**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمى، عن بُرَيدة قال: قلنا: يا رسول الله، قد عَلِمنا كيف نُسَلِّم عليك، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم اجعلْ صَلَوَاتك وَرَحْمَتَك وبركاتِكَ على مُحمَّدٍ وعلى آلِ مُحمَّدٍ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيمَ، إنك حميدٌ مجيدٌ»(٣). أبو داود الأعمى اسمُه: نُفَيعُ بنُ الحارث، متروكٌ.

**حديث آخر موقوفٌ**، رويناه من طَرِيق سعيد بن منصور وزيدِ بن الحَباب ويزيدَ بن هارون، ثلاثتُهم عن نوح بن قيس: حدثنا سلامة الكندي: أن عَلِياً ـ رضي الله عنه ـ كان يُعَلِّم الناسَ هذا الدُعاء: اللهم داحِي المَدْحُوّاتِ، وبارِئَ المسمُوكات، وَجَبّار القُلُوبِ على فِطْرَتها شَقِيِّها وسَعِيدها، اجعَلْ شَرائِفَ صَلَوَاتِكَ، ونَوَامِي بركاتك، ورأفةَ تحنُّنِكَ، وفضائل آلائك، على محمدٍ عبدك ورسولك، الخاتم لما سَبَق، والفاتح لما أُغلِق، والمُعلِن الحقِّ بالحقِّ، والدامغ جَيْشَاتِ الأباطيل، كما حُمِّلَ فاضطَلَعَ بأمرك لطاعتك، مُستَوفِزاً في

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٨١ والترمذي ٣٤٧٧ والنسائي ٣/ ٤٤ وأحمد ٦/ ١٨ وابن خزيمة ٧٠٩ و٧١٠ وابن حبان ١٩٦٠ وصححه الحاكم ١/ ٢٣٠ ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٤٠٠ والدارقطني ١/ ٣٥٥ والحاكم ١/ ٢٦٩ والبيهقي ٢/ ٣٧٩. قال الدارقطني: عبد المهيمن، ليس بالقوي، وقال الذهبي عنه: واهٍ. وقال البيهقي: ضعيف لا يحتج برواياته. وقال البوصيري: ضعيف، لاتفاقهم على ضعف عبد المهيمن. وقال السندي: ولكن تابعه ابن أخيه في هذا الحديث، وحكم الحافظ في «تلخيص الحبير» ١/ ٢٦٢ بضعف إسناده، قال وأقوى من هذا حديث فضالة بن عبيد اهـ أي المتقدم.

(٣) إسناده ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٨٦٩ و١٧٣٠٣: فيه أبو داود الأعمى، وهو ضعيف اهـ وقال عنه ابن كثير: متروك وهو كما قال.

مرضاتك، غير نَكِلٍ في قَدَم، ولا واهِن في عَزْم، واعياً لوحيك، حافِظاً لعهدك، ماضِياً على نفاذِ أمرك، حتى أورَى قبساً لقابِس، آلاء الله تَصِلُ بأهله أسبَابه، به هُدِيت القلوب بعد خَوْضَاتِ الفِتَنِ والإثم، وأنهَج مُوضِحَاتِ الأعلام، ومُنِيرات الإسلام ونائرات الأحكام، فهو أمينكَ المأمونُ، وخازِنُ عِلْمِكَ المخزون، وشَهِيدك يومَ الدين، وبَعِيثُك نِعمَةً، ورسولُك بالحق رَحمةً. اللهم افسح له مُفسِحَات في عَدْنِك، واجزه مُضَاعَفاتِ الخير من فضلك. مُهنَّات له غيرَ مكدراتٍ، من فَوزِ ثوابك المعلولِ وجزيل عطائك المجمول. اللهم، أعل على بناء البانين بُنيانه، وأكرم مَثْوَاه لديكَ ونُزُلَه. وأتمم له نُورَه، واجزه من ابتعاثك له مقبولَ الشهادة، مرضي المقالة، ذا منطقٍ عدلٍ، وخُطَّة فَصْلٍ، وحُجَّةٍ وبُرهانٍ عَظيم[1]. هذا مَشْهُورٌ من كلام علي - رضي الله عنه - وقد تَكَلَّم عليه ابن قُتَيبة في مُشْكِلِ الحَديث، وكذا أبو الحَسين أحمد بن فَارِس اللغوي في جزء جَمَعه في فضل الصلاةِ على النبي - ﷺ - إلا أن في إسناده نظراً. قال شيخُنا الحافظُ أبو الحجاج المِزّي: سَلامَةُ الكِنْدي هذا ليس بمعروف، ولم يُدرِك علياً. كذا قال، وقد رَوَى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوحُ بنُ قيس، عن سَلاَمَة الكندي قال: كان علي - رضي الله عنه - يُعلِّمنا الصلاةَ على النبي - ﷺ - فيقول: اللهم، داحي المَدْحُوّات، وذكره.

**حديث آخر موقوف**، قال ابن ماجه حدثنا الحُسَين بن بَيَان، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المَسعُودِيّ، عن عَون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يَزِيدَ، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: إذا صَلَّيتُم على رسول الله - ﷺ - فَأَحسِنُوا الصلاةَ عليه؛ فإنكم لا تدرُون لعلَّ ذلك يُعْرَض عليه. قال: فقالوا له: فَعَلِّمنا. قال: قولوا: اللهم اجعَل صَلَواتك ورَحمتك وبَرَكاتك على سَيِّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمدٍ عبدِك ورسولِك، إمام الخير وقائدِ الخير، ورسولِ الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأولون والآخرون، اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صَلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. اللهمَّ، بارك على محمد وعلى آلِ مُحمَّدٍ، كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنك حميدٌ مجيدٌ. وهذا موقوف، وقد رَوَى إسماعيلُ القاضي عن عبد الله بن عَمرو - أو: عُمَر - على الشك من الراوي قريباً من هذا.

[٥٤٨٠] **حديثٌ آخَرُ**، قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو إسرائيلَ، عن يونس بن خبّاب قال: خطَبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾، فقال: أنبأني مَن سَمِع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا - أو: قالوا يا رسول الله، عَلِمنا السلامَ عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «اللهمَّ، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صَلَّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. وارحَم محمداً وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حَميدٌ مجيدٌ. وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ»[2]. فيُستدلُّ بهذا الحديثِ مَن ذَهب إلى جواز الترحُّم على النبي - ﷺ -، كما هو قول الجمهور.

[٥٤٨١] ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: «اللهمَّ، ارحمني ومحمداً، ولا ترحَم معنا أحداً. فقال

---

(١) موقوف ضعيف جداً. وله علتان: سلامة الكندي مجهول، وهو لم يدرك علياً، قاله المزي، كما ذكر ابن كثير، وأبو حاتم في «الجرح والتعديل» ٤/ ٣٠٠، والخبر شبه مصنوع.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٦٣٥ فيه راوٍ لم يسمّ، لكن المتن محفوظ، له طرق وشواهد كثيرة، كما ترى.

رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد حَجَّرت واسعاً»(١). وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعَه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد.

[٥٤٨٢] حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عُبَيد الله قال: سَمِعت عبد الله بن عامر بن رَبِيعة يُحدِّث عن أبيه قال: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من صَلَّى عليَّ صلاةً لم تَزَل الملائكةُ تُصلِّي عليه ما صلى عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ عبدٌ من ذلك أو لِيُكثِرْ»(٢). ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة، به.

[٥٤٨٣] حديثُ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سَلَمة منصور بن سَلَمة الخُزاعي، ويونس هو ابن محمد قالا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي الحُوَيرث، عن محمد بن جُبَير بن مُطعِم، عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: خَرَج رسول الله ـ ﷺ ـ فاتَّبعتُه حتى دَخَل نخلاً، فَسَجد فأطال السجودَ، حتى خفت ـ أو: خَشِيت ـ أن يكون الله قد تَوفَّاه أو قَبَضه. قال: فَجِئت أنظر، فرفع رأسَه فقال: «مالَكَ يا عبدَ الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريلَ ـ عليه السلام ـ قال لي: ألا أُبَشِّرك؟ إن الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ يقول: من صَلَّى عليك صَلَّيتُ عليه، ومن سَلَّم عليكَ سلمتُ عليه»(٣).

[٥٤٨٤] طريقٌ أُخرَى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خَرَج رسول الله ـ ﷺ ـ فتوجَّه نحو صَدَقته، فدخل فاستقبلَ القبلة، فَخَرَّ ساجداً، فأطال السجودَ، حتى ظننتُ أن الله قد قَبَضَ نفسَه فيها، فدنوتُ منه ثم جلستُ، فرفع رأسَه فقال: «مَن هذا؟» قُلتُ: عبدُ الرحمن. قال: «ما شأنُك؟» قلت: يا رسول الله، سجدتَ سجدةً خشيت أن يكون الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ قبض نَفْسَك فيها. فقال: «إنَّ جبريلَ أتاني فَبشَّرني أن الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ يقول: مَن صَلَّى عليكَ صَلَّيتُ عليه، ومن سَلَّم عليكَ سلَّمتُ عليه. فسجدتُ لله ـ عَزَّ وجلَّ ـ شكراً»(٤). ورواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه عن يحيى بن عبد الحميد، عن الدَّرَاوَرْدِي، عن عمرو، عن عبد الواحد بن محمد، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه من وجهٍ آخر عن عبد الرحمن بن عوف.

[٥٤٨٥] حَدِيث آخَرُ، قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بَحير بن عبد الله بن معاوية بن بحير بن رَيسَان حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن الحَكَم بن عُتَيبة، عن إبراهيم النخعِيّ، عن الأسود بن يزيدَ، عن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ـ ﷺ ـ لحاجةٍ فلم يجد أحداً يتبعُه، فَفَزِع عُمَر، فأتاه بِمطْهَرة من خَلْفِه، فوجد النبي ـ ﷺ ـ ساجداً في مَشْرُبة(٥)، فتنحَّى عنه

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠١٠ وأبو داود ٣٨٠ والترمذي ١٤٧ والنسائي ٣/ ١٤ وأحمد ٢/ ٢٣٩ وابن حبان ٩٨٧ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٩٠٧ وأحمد ٣/ ٤٤٥ وإسماعيل القاضي في «الصلاة على النبي ﷺ» ٦ وقال البوصيري في «الزوائد» إسناده ضعيف لأن عاصم بن عبيد الله قال فيه البخاري وغيره: منكر الحديث اهـ.
وللحديث شواهد انظر «جلاء الأفهام» ٥٣ بتخريجي وانظر صحيح ابن ماجه ٧٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ١٩١ والحاكم ٢/ ٣٣٣ وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٢٨٧ وقال: رواه أحمد ٣/ ٨٤٥ ورجاله ثقات اهـ.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ١٩١ وإسماعيل القاضي ١٠ وإسناده ضعيف: عمرو غير قوي، وعبد الواحد لم أجد له ترجمة. وفي الرواية الآتية يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني، وهو متروك، لكن للحديث طرق وشواهد.

(٥) جماعة النخل.

من خَلْفِه حتى رَفَع النبي ـ ﷺ ـ رأسه، فقال: «أحسنتَ يا عُمَر حين وجدتَني ساجداً فَتَنَحَّيت عَنّي، إن جبريل أتاني فقال: من صَلّى عليكَ من أُمَّتِك واحدةً صَلى الله عليه عشر صلوات، ورفَعَه عشرَ دَرَجاتٍ»[١]. وقد اختار هذا الحديثَ الحافظُ الضياءُ المقدِسيُّ في كتابه «المستخرج على الصحيحين». وقد رواه إسماعيلُ القاضي، عن القَعْنَبِي، عن سَلَمة بن وَرْدان، عن أنس، عن عُمَر، بنحوه. ورواه أيضاً عن يعقُوبَ بن حُميد، عن أنسِ بن عياضٍ، عن سَلَمة بن وَرْدانَ، عن مالكِ بن أوسِ بن الحَدَثَانِ، عن عُمَر بن الخَطّابِ ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

[٥٤٨٦] حديثٌ آخرُ، قال أبو عيسى التِّرمذي: حدثنا بُندارٌ، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمَة، حدثني موسى بن يعقوب الزمْعي، حدثني عبد الله بن كَيسانَ، أن عبد الله بن شَدَّاد أخبره، عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: أولَى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً»[٢]. تَفرَّد بروايته الترمذيُّ ـ رحمه الله ـ ثم قال: «هذا حَدِيثٌ حسنٌ غريبٌ».

[٥٤٨٧] حديثٌ آخرُ، قال إسماعيلُ القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أتاني آتٍ من ربيِّ فقال لي: ما من عبد يُصَلِّي عليك صلاةً إلا صلَّى الله عليه بها عشراً». فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، ألا أجعلُ نصف دُعائِي لك؟ قال: «إن شئتَ». قال: ألا أجعلُ ثلثي دعائي لك؟ قال: «إن شئتَ». قال: ألا أجعلُ دُعائي لكَ كُلَّه؟ قال: «إذن يكفيكَ الله هَمَّ الدنيا وهَمَّ الآخرة». فقال شيخٌ ـ كان بمكة، يقال له: مَنِيع ـ لسفيان: عمن أسندَهُ؟ قال: لا أدرِي[٣].

[٥٤٨٨] حديث آخر، قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا سفيان ـ يعني الثوري ـ عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطُفَيل بن أُبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يخرج في جوْف الليل فيقول: «جاءت الراجفةُ، تَتبعها الرادفةُ، جاء الموتُ بما فيه». قال أبي: يا رسول الله، إني أُصَلِّي من الليل، أفأجعل لك ثُلُثَ صلاتي؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الشطرُ». قال: أفأجعل لك شَطر صَلاَتِي؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الثلثان». قال: أفأجعل لك صلاتِي كلَّها؟ قال: «إذن يغفِر الله لك ذنبَكَ كُلَّه»[٤].

[٥٤٨٩] وقد رواه التِّرمذي بنحوه فقال: حدثنا هَنَّاد، حدثنا قَبيصةُ، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفَيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناسُ، اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفةُ تتبعها الرادفةُ، جاء الموت بما فيه، جاء الموتُ بما فيه». قال أُبَيٌّ: قلتُ: يا رسول الله، إني أُكثِرُ الصَّلاة عليك، فكم أجعلُ لك من صَلاَتي؟ قال: «ما

---

(١) أخرجه إسماعيل القاضي ٥ والطبراني في «الصغير» ١٠١٦ من طريقين من حديث عمر، وذكره السخاوي في «القول البديع» ص ١٠٣ وقال: إسناده جيد بل صححه بعضهم اهـ.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٤٨٤ والبخاري في «التاريخ الكبير» ٥/١٧٧ وابن حبان ٩١١ وفي إسناده موسى بن يعقوب الزمعي سيّىء الحفظ، وعبد الله بن كيسان لم يوثقه غير ابن حبان. وله شاهد من حديث أبي أمامة عند البيهقي ٣/٢٤٩ وذكره الحافظ في «الفتح» ١١/١٦٧ وقال: لا بأس بإسناده.

(٣) حسن. أخرجه إسماعيل القاضي ١٣ عن يعقوب مرسلاً، بإسناد صحيح، ويشهد له ما بعده.

(٤) حسن. أخرجه إسماعيل القاضي ١٤ من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف جدا فيه سعيد بن سلام العطار، متروك متهم، وانظر ما بعده، فالإسناد الآتي وما بعده من قسم الحسن.

شئت». قلت: الربعُ؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنصفُ؟ قال: «ما شئتَ، فإن زِدْتَ فهو خَير لك». قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زِدْتَ فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تُكفَى هَمَّك، ويُغفَر لك ذنبُكَ»[١]. ثم قال: «هذا حديثٌ حَسَن».

[٥٤٩٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيتَ إن جعلت صلاتِي كُلَّها عليكَ؟ قال: «إذن يكفيكَ الله ما أهَمَّكَ من دُنياك وآخِرَتِك»[٢].

[٥٤٩١] حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو كامل، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طَلْحة، عن أبيه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ جاء ذات يوم، والسرور يُرَى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرورَ في وجهك. فقال: «إنه أتاني المَلَك فقال: يا محمدُ، أما يُرضِيكَ أن ربَّكَ ـ عَزَّ وجلَّ ـ يقول: إنه لا يُصَلِّي عليك أحدٌ من أمتك إلا صَلَّيتُ عليه عشراً، ولا يُسَلِّم عليك أحدٌ من أُمَّتِك إلا سَلَّمتُ عليه عَشراً؟ قلت: بلى»[٣]. ورواه النسائي من حديث حَمَّاد بن سلمة، به. وقد رواه إسماعيلُ القاضي، عن إسماعيلَ بن أبي أُوَيس، عن أخيه، عن سُلَيمانَ بن بلال، عن عُبَيد الله بن عمر، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحةَ، بِنَحوه.

[٥٤٩٢] طريقٌ أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج، حدثنا أبو معشر، عن إسحاق بن كعب ابن عُجْرَة، عن أبي طَلْحَةَ الأنصاري قال: أصبحَ رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً طَيِّبَ النفس، يُرَى في وجهه البشرُ، قالوا: يا رسول الله، أصبحتَ اليوم طَيِّب النفس، يُرَى في وجهك البشر؟ قال: أجلَ، أتاني آتٍ من ربي ـ عَزَّ وجلَّ ـ فقال: من صلَّى عليك من أُمَّتك صلاةً كَتَب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عَشرَ سَيِّئات، ورفَعَ له عشر درجاتٍ، وَرَدَّ عليه مثلها»[٤]. هذا أيضاً إسنادٌ جيدٌ، ولم يُخرِجُوه.

[٥٤٩٣] حديث آخر، رَوَى مسلم وأبو داودَ والترمذيُّ والنسائي، من حديث إسماعيلَ بن جعفرٍ، عن العلاءِ بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من صلَّى عَلَيّ واحدةً صَلَّى الله عليه بها عشراً»[٥]. قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعَمَّار، وأبي طلحة، وأنس، وأُبي بن كَعْبٍ».

[٥٤٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن لَيثٍ، عن كَعْبٍ، عن أبي هُرَيرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «صَلُّوا عَلَيَّ فإنها زكاةٌ لكم، وسَلُوا الله لي الوَسِيلَة، فإنها دَرَجَةٌ في أعلى

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٤٥٧ وأحمد ٥/ ١٣٦ وصححه الحاكم ٢/ ٥١٣ ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ وإسناده لا بأس به من أجل ابن عقيل، لكن للحديث طرق.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٦ وانظر الحديث المتقدم، فهو حسن.

(٣) حسن. أخرجه النسائي ٣/ ٥٠ وأحمد ٤/ ٣٠ و١٥٢ وابن حبان ٩١٥ وإسماعيل القاضي (٢) وصححه الحاكم ٢/ ٤٢٠ ووافقه الذهبي. وأخرجه إسماعيل القاضي (١) من وجه آخر من حديث أنس عن أبي طلحة بنحوه. وانظر ما بعده.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ٤/ ٢٩ وانظر ما قبله.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٤٠٨ وأبو داود ١٥٣٠ والترمذي ٤٨٥ والنسائي ٣/ ٥٠. وابن حبان ٩٠٦ وإسماعيل القاضي ٩ وأحمد ٣/ ٣٧٢ من حديث أبي هريرة.

الجنة، لا يَنالها إلا رجلٌ، وأرجو أن أكون أنا هو»[١]. تفَرَّد به أحمدُ.

[٥٤٩٥] وقد رواه البَزّارُ من طريق مجاهد، عن أبي هُرَيرة، بنحوه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق البَكّالي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا ذؤاد بن علبةَ[٢]، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صَلُّوا عليَّ فإنها زكاة لكم، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة. فسألناه ـ أو: أخبرنا ـ فقال: هي درجة في أعلى الجنة، وهي لرجل، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل»[٣] في إسناده بعض من تكلَّمَ فيه.

[٥٤٩٦] حديثٌ آخرُ، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن مُريح الخَولاني، سَمِعتُ أبا قيس ـ مولى عَمرو بن العاص ـ سَمِعت عبد الله بن عَمرو يقول: من صَلَّى على رسول الله ـ ﷺ ـ صلاةً، صلى الله عليه وملائكته بها سَبعينَ صلاةً، فَلْيُقِلَّ عبدٌ من ذلك أو لِيُكثِرْ. وسَمِعتُ عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً كالمودِّع فقال: «أنا محمد النبي الأميّ ـ قاله ثلاثَ مراتٍ ـ ولا نَبيَّ بعدِي، أُوتِيتُ فَواتِحَ الكَلامَ، وخَواتِمَه وجَوامِعَه، وعَلِمْتُ كم خزنةُ النارِ وَحَمَلةُ العرش، وتُجوِّزَ بي، عُوفِيَتْ أُمّتِي، فاسمَعُوا وأطيعوا ما دُمتُ فيكم، فإذا ذُهِبَ بِي فعليكم بكتابِ الله، أحِلُّوا حَلالَه، وحَرِّموا حَرامه»[٤].

[٥٤٩٧] حديث آخر، قال أبو داود الطَّيالسي: حدثنا أبو سَلَمة الخُرَاساني، حدثنا أبو إسحاق، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن ذُكرت عنده فَليصلِّ عليَّ، ومَن صَلَّ عليَّ مرةً واحدةً صلَّى الله عليه عشراً»[٥]. ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي داودَ الطَّيَالِسي، عن أبي سَلَمة ـ وهو المغيرة بن مُسلِم الخُرَاساني ـ عن أبي إسحاق عَمرو بن عبد الله السَّبِيعي، عن أنس، به.

[٥٤٩٨] حديث آخر عن أنس، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فُضَيل، حدثنا يونس بن عَمرو ـ يعني يونُسَ ابن أبي إسحاقَ ـ عن بُرَيدِ بن أبي مريمَ، عن أنَس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن صلَّ عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه عشرَ صَلَواتٍ، وحَطَّ عنه عشرَ خَطيئات»[٦].

[٥٤٩٩] حديثٌ آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عَمرو وأبو سعيدٍ: حدثنا سليمان بن بلال، عن عُمارة بن غَزِيَّة، عن عبد الله بن علي بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٦٢ وأبو يعلى ٦٤١٤ وإسماعيل القاضي ٤٦ وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، ولعجزه شاهد من حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم ٣٨٤ وأبي داود ٥٢٣ وابن حبان ١٦٩١ وانظر ما بعده.

(٢) وقع في الأصل «داود بن عُليّة» والتصويب من «المجمع» ١/ ٣٣٢.

(٣) أخرجه البزار ٣٦٣ «كشف» وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٣٣٢ وقال: وفيه: ذؤاد بن علبة ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، ووثقه ابن نمير، وقال موسى بن داود الضبي: حدثنا ذؤاد بن علبة، وأثنى عليه خيراً اهـ وفيه ليث بن أبي لسليم ضعيف. ومع ذلك فإن المتن له شواهد كثيرة.

(٤) في إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف، وتقدم تخريجه عند آية: ٤٠ من هذه السورة.

(٥) جيد. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٩٨٨٩ وأبو يعلى ٤٠٠٢ والطيالسي ٢١٢٢.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٣ والنسائي في «الكبرى» ٩٨٩٠ وأحمد ٣/ ١٠٢ و٢٦١ وابن حبان ٩٠٤ من حديث أنس، وإسناده جيد، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم ٣٨٤ والترمذي ٣٦١٤ والنسائي ٢/ ٢٥.

قال: «البخيلُ من ذُكِرت عنده ثم لم يُصَلِّ عليّ». وقال أبو سعيد: «فلم يُصَلِّ عليّ»[(١)]. ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب صحيح». ومِن الرواة مَن جعله من مُسند «الحسين بن علي»، ومنهم من جعله من مُسندِ «علي» نفسه.

[٥٥٠٠] حديث آخرُ، قال إسماعيلُ القاضي: حدثنا حَجّاج بن مِنهالٍ، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن معبد بن بلال العَنَزيّ، حدثني رجلٌ من أهلِ دمَشقَ، عن عوف بن مالك، عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أبخل الناس من ذُكِرْتُ عِندَه فلم يُصَلِّ عليَّ»[(٢)].

[٥٥٠١] حديث آخر مرسل، قال إسماعيل: وحدثنا سليمان بن حَرب، حدثنا جَرير بن حازم، سَمِعتُ الحسن يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بحسب امرىءٍ من البخل أن أُذكَر عنده فلا يُصلِّي عليّ». صَلَّى الله عليه وسلَّم[(٣)].

[٥٥٠٢] حديث آخر، قال الترمذي: حدثنا أحمدُ بن إبراهيمَ الدَّورَقي، حدثنا رِبْعي بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سَعِيد بن أبي سَعِيد المَقبري، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رغم أنفُ رجلٍ ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ علي. ورَغِمَ أنفُ رَجُلٍ دَخَلَ عليه شهرُ رمضانَ ثم انسلخ قبل أن يُغفَرَ له، ورَغِمَ أنفُ رجل أدرك عنده أبواه الكِبَرَ فلم يُدخِلاَه الجنة»[(٤)]. ثم قال: «حسن غريب».

قلتُ: وقد رَواه البخاري في الأدب، عن محمد بن عُبَيد الله، حَدَّثنا ابنُ أبي حازم، عن كَثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ مرفُوعاً، بنحوه. ورَوياه[(٥)] من حديث محمد ابن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرَةَ، به. قال الترمذي: «وفي الباب عن جابر وأنس». قلت: وابن عباس، وكعب بن عَجرَةَ، وقد ذكرتُ طُرُق هذا الحديثِ في أول كتاب الصيام، وعند قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وهذا الحديث والذي قبله دليلٌ على وجُوبِ الصلاة عليه ـ ﷺ ـ كُلَّما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء، منهم الطَّحاويُّ والحليمي.

[٥٥٠٣] ويتقوّى بالحديثِ الآخر الذي رواه ابنُ ماجه: حدثنا جُبارة بن المُغَلِّس، حدثنا حَمّاد بن زيد، حدثنا عَمرو بن دينار، عن جابرِ بن زيدٍ، عن ابن عَبّاسٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن نَسِيَ الصلاةَ عَلَيَّ خَطِىءَ طريق الجنة»[(٦)]. جُبَارة ضعيفٌ.

[٥٥٠٤] ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من نَسِيَ الصلاةَ عليّ خَطِىءَ طريق الجنة»[(٧)]، وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله. والله أعلم.

---

(١) جيد. أخرجه الترمذي ٣٥٤٦ والنسائي ٩٨٨٤ «كبرى» وأحمد ١/ ٣٠١ وإسماعيل القاضي ٣٥ وابن حبان ٩٠٩. صححه الحاكم ١/ ٥٤٩ ووافقه الذهبي. وذكره ابن حجر في «الفتح» ١١/ ١٦٨ وقال: لا ينحط عن درجة الحسن.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي ٣٧، وفيه راوٍ لم يُسمَّ، لكن الحديث حسن في الشواهد. وانظر «القول البديع» للسخاوي ص ١٤٣.

(٣) أخرجه إسماعيل القاضي ٣٨، وهو مرسل، لكنه شاهد لما بعده.

(٤) تقدم في تفسير سورة الإسراء عند الآية: ٢٤.

(٥) يعود الضمير على البخاري في «الأدب المفرد» والترمذي.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٩٠٨ وأعله البوصيري بضعف جبارة بن مغلس.

(٧) هذا مرسل. أخرجه إسماعيل القاضي ٤١، وهو يشهد لما قبله، والله أعلم.

وذهب آخرون إلى أنه تَجبُ الصلاة في المجلس مَرّةً واحِدَةً، ثم لا تَجبُ في بقيةِ ذلك المجلس، بل تُستَحَبُ. نقله الترمذي عن بَعضِهِم.

[٥٥٠٥] ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي: حدثنا محمد بن بَشّار، حدثنا عبدُ الرحمن، حدثنا سُفيانُ، عن صالح ـ مولى التَّوأمةِ ـ عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما جلسَ قومٌ مَجلِساً لم يذكُروا الله فيه، ولم يُصَلّوا على نَبِيِّهم، إلا كان عليهم تِرَةً، فإن شاء عَذَّبهم، وإن شاء غَفَر لهم»[١]. تَفَرَّد به الترمذيُّ من هذا الوجه ورواه الإمام أحمد عن حجّاج ويزيدَ بن هارونَ، كلاهُما عن ابن أبي ذِئب، عن صالح ـ مولى التَّوأَمَةِ ـ عن أبي هُرَيرَةَ، مرفوعاً مثله ثم قال الترمذي: «هذا حديث حسن». وقد رُوِيَ عن أبي هريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ من غير وجه.

[٥٥٠٦] وقد رواه إسماعيلُ القاضي من حديث شُعبَةَ، عن سليمان، عن ذَكوَانَ، عن أبي سَعِيد قال: «ما من قوم يقعدُون ثم يقومُون ولا يُصَلُّون على النبي ـ ﷺ ـ إلا كان عليهم يوم القيامة حَسرةً، وإن دخلوا الجنةَ لما يرون الثواب»[٢]. وحُكِيَ عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ـ ﷺ ـ في العُمُر مرّةً واحدةً، امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كلِّ حال. وهذا هو الذي نصره القاضي عياضٌ بعدما حكى الإجماعَ على وُجوبِ الصلاة عليه ـ ﷺ ـ في الجملة. قال: وقد حكى الطَّبَرِيّ أن مَحمَلَ الآيةِ على الندب، وادَّعى فيه الإجماع. قال: «ولعله فيما زادَ على المرّةِ، والواجبُ منه مرّةٌ كالشهادة له بالنبوّةِ، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّبٌ فيه من سُنَنِ الإسلام، وشِعَار أهله». قلت: وهذا قولٌ غريبٌ، فإنه قد ورد الأمرُ بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجبٌ ومنها مستحبٌّ على ما نُبَيِّنه.

[٥٥٠٧] فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذي رَوَاه الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَةُ، حدثنا كعبُ بن علقَمةَ، أنه سَمِع عبد الرحمن بن جُبَير يقول: إنه سَمِع عبد الله بن عَمرو بن العاص يقولُ: إنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا سَمِعتُم مؤذناً فقولوا مثلَ ما يقولُ، ثُمّ صلُّوا عليَّ، فإنه من صَلّى عَلَيَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سَلُوا لي الوَسِيلَةَ، فإنها منزلةٌ في الجَنّةِ لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجُو أن أكونَ أنا هو، فمن سَأَل لي الوَسِيلَةَ حَلَّت عليه الشفاعةُ»[٣]. وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث كعب بن عَلقَمَةَ.

[٥٥٠٨] طريق أخرى، قال إسماعيلُ القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عُمَر بن علي، عن أبي بكر الجُشَمي، عن صفوان بن سُلَيم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن سَأَل الله لي الوسيلة حقَّت عليه شفاعتي يوم القيامة»[٤].

---

(١) عجزه باطل. أخرجه الترمذي ٣٣٨٠ وأحمد ٢/٤٤٦ و٤٨١ و٤٨٤ وإسماعيل القاضي ٥٤ وابن حبان ٥٩٠. وسفيان سمع من صالح بعد الاختلاط. وقد رواه زياد بن سعد عند أحمد ٢/٤٩٥ وابن أبي ذئب عند أحمد أيضاً ٢/٤٥٣ وكلاهما ممن سمع من صالح قبل الاختلاط، وليس فيه «فإن شاء...»، فهذا باطل.

(٢) موقوف صحيح. أخرجه إسماعيل القاضي ٥٥، وتقدم من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) تقدم في تفسير سورة المائدة. عند الآية: ٣٥.

(٤) أخرجه إسماعيل القاضي ٥٠، وفي إسناده عمر بن علي وأبو بكر الجشمي عيسى بن طهمان، وفيهما مقال. لكن الحديث صحيح بشواهده.

[٥٥٠٩] حديث آخر، قال إسماعيلُ القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب ـ هو كعب الأحبار ـ عن أبي هُريرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صَلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكُم عليَّ زكاة لكم، وسَلُوا الله لي الوسيلةَ». قال: فإما حدَّثنا وإما سَألناه، فقال: «الوسيلةُ أعلى دَرَجةٍ في الجنة، لا ينالُها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل»[١]. ثم رواه عن محمد بن أبي بكر، عن مُعتمر، عن لَيثٍ ـ وهو ابن أبي سُلَيم ـ به.

[٥٥١٠] وكذا الحديثَ الآخرَ؛ قال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا بكر بن سَوَادة، عن زياد بن نُعَيم، عن وِقَاءٍ الحضرمي، عن رُوَيفع بن ثابتٍ الأنصاري: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من صَلَّى على مُحمَّدٍ وقال: اللهمَّ، أنْزِله المقعَدَ المقرَّب عندك يوم القيامة، وَجَبت له شفاعتي»[٢]. وهذا إسنادٌ لا بأسَ به، ولم يُخرِجُوه.

أثَرٌ حَسَنٌ: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا، سفيان، حدثني معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سَمِعت ابنَ عباس يقول: اللهمَّ تقبَّل شفاعَةَ محمَّدٍ الكُبرى، وارفَع درجَتَه العليا، وأعطِه سُؤلَه في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام. إسنادٌ جَيِّدٌ قويٌّ صحيحٌ.

[٥٥١١] ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه، للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحُسَين، عن جدته فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ قالت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا دخل المسجد صَلَّى على محمد وسلَّم وقال: «اللهمَّ، اغفر لي ذنوبي، وافتَح لي أبوابَ رحمتك». وإذا خَرَج صلَّى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهمَّ، اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فَضْلِك»[٣].

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان بن عُمَر التميمي، عن سليمان الضبي، عن علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: إذا مررتُم بالمساجد فَصَلُّوا على النبي ـ ﷺ ـ. وأما الصلاةُ عليه ـ ﷺ ـ في الصلاة، فقد قدَّمنا الكلام عليها في التشهُّد الأخير، ومَن ذهب إلى ذلك مِن العلماء منهم الشافعي وأحمد. وأما التشهُّد الأولُ فلا تجب فيه قولاً واحداً، وهل تُستَحَبُّ؟ على قولين للشافعي. ومن ذلك الصلاة عليه، في صلاةِ الجنازةِ، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحةَ الكتاب، وفي الثانية يُصَلِّي على النبي، ، وفي الثالثة يدعُو للميِّت، وفي الرابعة يقول: اللهمَّ، لا تحرِمنا أجره، ولا تَفتِنَّا بعدَه.

[٥٥١٢] قال الشافعي رحمه الله: حدثنا مُطرف بن مازن، عن معمَرٍ، عن الزهرِيِّ: أخبرني أبو أمامة بنُ سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجلٌ من أصحابِ النبيِّ ـ ﷺ ـ: أن السنةَ في الصلاة على الجنازة أن يكبِّر الإمام،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٠٨ وإسماعيل القاضي ٥٣ والطبراني في «الأوسط» ٣٣٠٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/١٦٣: وأسانيدهم حسنة. قلت: بل مداره على ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٤ وابن ماجه ٧٧١ وأحمد ٥/٤٢٥ وابن السني ٨٦. قال الترمذي: حسن، وليس إسناده بمتصل: فاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى. وله شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه النسائي في «الكبرى» ٩٩١٨ وابن ماجه ٧٧٣، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح رجاله ثقات.

ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سِرّاً في نفسه، ثم يصلي على النبي -ﷺ- ويخلص الدعاء للجنازة، في التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سِرّاً في نفسه[١]. ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسِه أنه قال: من السنة، فذكره. وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيلُ القاضي، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمَر، عن الزهري، عن أبي أمامة ابن سهلٍ، عن سَعِيد بن المسيّب أنه قال: السنةُ في الصلاة على الجنازة. . . فذكره[٢]. وهكذا رُوِيَ عن أبي هُرَيرة، وابن عُمَر، والشعبي.

[٥٥١٣] ومن ذلك في صلاة العيد، قال إسماعيل القاضي: حدثنا مسلم بنُ إبراهيم، حدثنا هشام الدستَوائي، حدثنا حَمّاد بن أبي سُلَيمان، عن إبراهيم، عن عَلْقَمة: أن ابن مسعود وأبا مُوسَى وحُذَيفة خَرَجَ عليهم الوليد بن عُقْبَةَ قبل العيد يوماً، فقال لهم: إنَّ هذا العيد قد دنا، فكيفَ التكبيرُ فيه؟ قال عبد الله: تَبدَأُ فتكبِّر تكبيرةً تَفْتَتِحُ بها الصلاة، وتَحمدُ ربَّك، وتُصَلِّي على النبي -ﷺ-، ثم تدعو، وتكبر وتفعَلُ مثل ذلك، ثم تُكَبِّر وتفعل مثل ذلك، ثم تُكَبِّر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تُكَبِّر وتركع، ثم تقومُ فتقرأ وتحمَدُ ربكَ وتصلِّي على النبي -ﷺ- ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثلَ ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صَدَق أبو عبد الرحمن[٣]. إسنادهُ صحيح.

ومن ذلك أنه يُستَحَبّ ختمُ الدعاءِ بالصلاةِ عليه ﷺ، قال الترمذي: حدثنا أبو داود، أخبرنا النضر ابن شُمَيل، عن أبي قُرَّةَ الأسَدِي، عن سَعِيد بن المسيب، عن عُمَر بن الخطاب قال: الدعاءُ موقوفٌ بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك[٤]. وكذا رواه أيوب بن موسى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب، قوله، ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عُمَر مرفوعاً.

[٥٥١٤] وكذا رواه رَزِين بن معاوية في كتابه مرفوعاً، عن النبي -ﷺ- قال: «الدعاءُ موقوفٌ بين السماء والأرض، لا يصعَدُ حتى يُصَلَّى عليَّ، فلا تجعلُوني كَغُمَرِ الراكبِ، صَلُّوا عليَّ أول الدعاءِ وأوسَطه وآخره»[٥]. وهذه الزيادةُ إنما تُروَى من رواية جابر بن عبد الله في مُسندِ الإمام عبد بن حُمَيد الكَشّي حيث قال:

[٥٥١٥] حدثنا جعفرُ بن عَونٍ، أخبرنا موسى بن عُبَيدة، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال: جابر: قال لنا رسول الله -ﷺ-: «لا تجعلوني كَقِدْح الراكب، إذا عَلَّق تعالِيقَه أخذ قِدْحَه فملأه من الماء، فإن كان له حاجةٌ في الوضوء تَوَضَّأ، وإن كان له حاجةٌ في الشرب شَرِبَ، وإلا أَهْرَاقَ ما فيه.

---

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» ١/ ٢٣٩ - ٢٤٠ والبيهقي ٤/ ٣٩، وإسناده ساقط لأجل مطرف بن مازن، لكن توبع عند الحاكم ١/ ٣٦٠ وإسماعيل القاضي ٩٤، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي ٩٤ عن أبي أمامة عن سعيد بن المسيب. وأخرجه الحاكم ١/ ٣٦٠ والبيهقي ٤/ ٣٩ - ٤٠ عن أبي أمامة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. . . . فذكره، ثم قال الزهري: حدثني بذلك أبو أمامة وابن المسيب يسمع اهـ. وانظر «جلاء الأفهام» ص ٢١٠ بتخريجي.

(٣) حسن. أخرجه إسماعيل القاضي ٨٨، وهو حسن لأجل حماد بن أبي سليمان.

(٤) موقوف. أخرجه الترمذي ٤٨٦ عن عمر قوله، وفي إسناده أبو قرة الأسدي، وهو مجهول.

(٥) أخرجه رزين كما في «جامع الأصول» ٤/ ٢١٢١ من حديث عمر، وليس بشيء، بل هو الموقوف المتقدم، وانظر ما بعده.

اجعلوني في أول الدعاءِ، وَفِي وَسَط الدُعاءِ، وفي آخرِ الدعاءِ»(١). فهذا حديثٌ غريبٌ، ومُوسَى ابن عُبَيدة ضعيفُ الحديثِ.

[٥٥١٦] ومن آكَدِ ذلك دعاءُ القنوتِ؛ لما رواه الإمامُ أحمد وأهل السنن، وابنُ خُزيمة، وابن حِبَّان، والحاكِمُ، من حديث أبي الجَوزَاء، عن الحسن بن علي ـ رَضِيَ الله عنهما ـ قال: علّمَني رسول الله ـ ﷺ ـ كلمات أقولُهنّ في الوتْر: «اللهم اهدِني فيمن هَدَيت، وعافِني فيمن عافَيتَ، وَتَولّني فيمن تَوَلّيت، وبارِك لي فيما أعطيتَ، وقِني شرَّ ما قضيت، فإنك تقضِي ولا يُقضَى عليك، إنه لا يذِلُّ من واليت، ولا يعزُّ من عاديت، تباركت رَبَّنا وتَعَاليتَ»(٢). وزاد النسائي في سُننه بعد هذا: وصَلّى الله على النبيِّ محمدٍ(٣).

وَمِن ذلك أنه يُستَحبُ الإكثارُ من الصلاة عليه يومَ الجمعة وليلةَ الجُمُعةِ.

[٥٥١٧] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حُسَين بن علي الجُعفي: عن عبد الرحمن بن يزيدَ بن جابر، عن أبي الأشعثِ الصنعاني، عن أَوس بن أوسٍ الثقفي. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مِن أفضلِ أيامكم يومُ الجُمُعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِض، وفيه النفخةُ، وفيه الصعقَةُ، فأكثروا عليَّ مِنَ الصَّلاة فيه، فإن صَلاتَكم معروضةٌ عليّ». قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرَضُ عليك صلاتُنا وقد أرَمْتَ؟ ـ يعني وقد بَلِيتَ ـ قال: «إن الله حَرّم على الأرض أن تأكُلَ أجساد الأنبياء»(٤). ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث حسين بن علي الجعفي. وقد صَحّح هذا الحديث ابنُ خُزَيمَةَ، وابن حِبّان، والدارقطني، والنوويُّ في «الأذكار».

[٥٥١٨] حديث آخر، قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوّاد المِصري، حدثنا عبد الله بن وَهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عُبَادة بن نُسَيٍّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أكثروا الصلاة عليَّ يومَ الجُمعة، فإنه مشهودٌ تشهَدُه الملائكةُ. وإن أحداً لن يُصَلِّي عليّ إلا عُرِضَت عَلَيّ صلاتُه حتى يَفرُغَ منها». قال قلتُ: وبعدَ الموتِ؟ قال: وبعد الموت، إن الله حَرّم على الأرض أن تأكُلَ أجساد الأنبياء، فَنبيُّ الله حَيٌّ يُرزَقُ»(٥). هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين عُبَادة بن نُسَيٍّ وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

وقد رَوَى البيْهَقي من حديثِ أبي أمامة وأبي مَسعُودٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ(٦) في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجُمُعة ويومَ الجُمُعة، ولكن في إسنادهما ضَعفٌ، والله أعلم. ورُوِي مرسلاً عن الحسن البصري.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٥٧٨ والبزار كما في «المجمع» ١٠/ ١٥٥ من حديث جابر، وقال الهيثمي: وفيه موسى بن عبيدة، هو ضعيف متروك.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٢٥ والترمذي ٤٦٤ وابن ماجه ١١٧٨ وأحمد ١/ ٢٠٠ وابن حبان ٩٤٥.

(٣) هذه الزيادة عند النسائي ٣/ ٢٤٨، وهي ضعيفة، في الإسناد عبد الله بن علي، وهو مقبول، ولم يدرك الحسن بن علي.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ١٠٤٧ والنسائي ٣/ ٩١ ـ ٩٢ وابن ماجه ١٠٨٥ وابن حبان ٩١٠ وإسماعيل القاضي ٢٢ وأحمد ٤/ ٨ من حديث أوس، وصححه الحاكم ١/ ٢٧٨ ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه ابن ماجه ١٦٣٧ وفيه إرسال كما ذكر ابن كثير رحمه الله، لكن يشهد لما قبله، وقد اختلف مخرجهما، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا الحديث صحيح. إلا أنه منقطع في موضعين اهـ.

(٦) حديث أبي أمامة أخرجه البيهقي ٣/ ٢٤٩ وذكره السخاوي في «القول البديع» ص ١٥٣ وقال: رواه البيهقي بسند حسن لا بأس به، إلا أن مكحولاً قيل: لم يسمع من أبي أمامة في قول الجمهور. ولكن في «مسند الشاميين» للطبراني التصريح بسماعه منه.

[٥٥١٩] فقال إسماعيل القاضي: حدثنا سُليمان بن حرب، حدثنا جَرِير بن حازم، سَمِعتُ الحَسَن ـ وهو البصريُّ ـ يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تأكل الأرض جَسَدَ من كَلَّمه روحُ القدس»(١). مرسل حسن.

[٥٥٢٠] وقال القاضي: وقال الشافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سُلَيم أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ الجُمُعة وليلة الجمعة فأكثِرُوا الصلاة عليّ»(٢). هذا مرسل. وهكذا يجبُ على الخطيب أن يُصَلِّي على النبي ـ ﷺ ـ يوم الجُمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك، لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرطٌ، فوجَب ذكرُ الرسول ـ ﷺ ـ فيها كالأذان والصلاة، هذا مذهب الشافعيّ وأحمدَ رحمهما الله.

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قَبْرِهِ ـ صلواتَ الله وسلامُه عليه ـ.

[٥٥٢١] قال أبو داود: حدثنا ابن عوف هو محمد، حدثنا المُقرِي، حدثنا حيوة، عن أبي صخر حُمَيد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما منكم من أحد يُسَلِّم عليّ إلا رَدّ الله عليّ رُوحِي، حتى أردَّ عليه السلام»(٣). تَفَرّد به أبو داود، وصَحّحه النووي في الأذكار.

[٥٥٢٢] ثم قال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأتُ على عبد الله بن نافع، أخبرني ابنُ أبي ذئب، عن سَعِيد المقبُري، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تجعلوا بُيُوتكم قُبُوراً، ولا تجعلوا قَبرِي عِيداً، وصلوا عَلَيّ، فإن صلاتكم تَبلُغني حيثما كنتم»(٤). تَفَرّد به أبو داود أيضاً. وقد رواه الإمام أحمدُ، عن سُرَيج، عن عبد الله بن نافع ـ وهو الصائغ ـ به. وصححه النَوِوي أيضاً. وقد رُوِيَ من وجهٍ آخَرَ عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ.

[٥٥٢٣] قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه: «فضل الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ»: حدثنا إسماعيلُ بن أبي أويس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، عَمَّن أخبره من أهل بيته، عن علي بن الحسين بن علي: أن رجلاً كان يأتي كُلَّ غَدَاةٍ فيزورُ قبر النبي ـ ﷺ ـ ويُصلِّي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه عليُّ بن الحسين، فقال له عليُّ بن الحسين: ما يَحمِلُك على هذا؟ قال: أحبُّ السلامَ على النبيِّ ـ ﷺ ـ. فقال له عليُّ بن الحُسَين: هل لك أن أُحَدِّثَكَ حَدِيثاً عن أبي؟ قال: نعم، فقال له عليُّ بن الحسين: أخبرني أبي عن جَدِّي أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلّوا عليّ وسلّموا حيثما كُنتم، فستبلغني صَلاتكم وسلامكم»(٥). في إسناده رجل مبهم لم يُسَم. وقد رُوي من وجه آخر مرسلاً.

---

(١) مرسل. أخرجه إسماعيل القاضي ٢٣، لكن له شواهد كثيرة.

(٢) مرسل أيضاً. أخرجه الشافعي في «المسند» ١/ ١٧٢، لكن يصلح شاهداً للأحاديث المتقدمة، والله أعلم.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٠٤١ وأحمد ٢/ ٥٢٧، وإسناده غير قوي لأجل حميد بن زياد؛ ومع ذلك صححه النووي فيما ذكر المصنف.

(٤) تقدم في مقدمة تفسير سورة البقرة، وهو قوي.

(٥) أخرجه إسماعيل القاضي ٢٠ وأبو يعلى ٤٦٩، وفيه راوٍ لم يُسَمّ، لكن المرفوع منه يشهد له ما قبله.

[٥٥٢٤] قال عبد الرزاق في مصنفه، عن الثوري، عن ابن عجلان، عن رجل ـ يقال له: سهيل ـ عن الحسن بن الحسن بن علي قال: رأى قوماً عند القبر فنهاهم، وقال: إن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تَتَّخِذُوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بُيُوتكم قُبوراً، وصَلُّوا عليّ حيثما كُنتم، فإنَّ صلاتكم تبلغني». فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهاهم[1]. وقد رُوِيَ أنه رأى رجلاً ينتاب القبرَ فقال: «يا هذا، ما أنتَ ورجلٌ بالأندلس منه إلا سواءٌ»، أي: الجميعُ يبلغه، صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين.

[٥٥٢٥] وقال الطبراني في مُعجمه الكبير: حدثنا أحمدُ بن رِشْدين المِصْريُّ، حدثنا سعيد بن أبي مَرْيَم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حُمَيد بن أبي زينب، عن حَسَن بن حَسَن بن علي بن أبي طَالب ـ رضي الله عنهم ـ عن أبيه أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «صَلُّوا عليّ حيثما كُنتم، فإنَّ صلاتكم تَبلُغني»[2].

[٥٥٢٦] ثم قال الطبراني: حدثنا العباسُ بن حَمدان الأصبهاني، حدثنا شُعَيب بن عبد الحميد الطَّحان، أخبرنا يزيدُ بن هارون، حدثنا شَيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خُطّافٍ، عن أم أُنيس بنت الحَسَن بن علي، عن أبيها قال: قالوا: يا رسول الله ـ ﷺ ـ: «أرأيتَ قولَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؟ فقال: «إن هذا من المكتوم، ولولا أنّكم سألتموني عنه لما أخبرتُكم، إن الله ـ عزّ وجلّ ـ وَكَّل بي مَلَكين لا أُذكَرُ عند عبدٍ مُسلم فَيُصلّي عليَّ إلا قال ذانِكَ المَلَكانِ: «غَفَر الله لك». وقال الله وملائكته جَواباً لذينِكَ المَلَكين: «آمينَ». ولا يُصَلّي عليّ أحدٌ[3] إلا قال ذَانِكَ المَلَكان: «لا غَفَر الله لك». ويقول الله وملائكته جواباً لذينك المَلَكين: «آمين»[4]. غريبٌ جداً، وإسناده فيه ضعف شديد.

[٥٥٢٧] وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، عن سُفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زَاذانَ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ لله ملائكةً سَيَّاحين في الأرض، يُبَلِّغوني عن أُمّتي السلام»[5]. وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السَّائب، به.

[٥٥٢٨] فأما الحديث الآخر: «مَن صلَّى عَلَيَّ عند قبري سَمِعتُه، وَمَن صَلَّى عليَّ مِن بَعيدٍ بُلِّغتُه»[6] ـ ففي إسناده نظر، تَفرَّد به محمد بن مروان السدِّي الصغير ـ وهو متروك ـ عن الأعمش، عن أبي صالح، عن

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٦٧٢٦، وفي إسناده سهيل، وهو مجهول. وأخرجه أبو يعلى ٦٧٦١ من وجه آخر من حديث الحسن بن علي، وإسناده ضعيف لضعف عبد الله بن رافع، لكن للحديث شواهد.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٦٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ١٦٢: وفيه حميد بن أبي زينب لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ. لكن له شواهد.

(٣) أي يترك الصلاة على النبي ﷺ.

(٤) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ٢٧٥٣، وفيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٨٣: هو كذاب.

(٥) أخرجه النسائي ٣/ ٤٣ وأحمد ١/ ٣٨٧ و٤٤١ وعبد الرزاق ٣١١٦ وصححه الحاكم ٢/ ٤٢١ ووافقه الذهبي. وإسناده حسن.

(٦) ضعيف جداً، أخرجه العقيلي ٤/ ١٣٦ ـ ١٣٧ بهذا الإسناد، من حديث أبي هريرة، وقال: لا أصل له من حديث الأعمش. وليس بمحفوظ، ولا يتابعه إلا من هو دونه اهـ ذكره في ترجمة محمد بن مروان السدي، وأعله به، وأنه متهم بالكذب..

أبي هُريرَةَ مرفوعاً. قال أصحابنا: وَيُستَحبُ للمُحرِمِ إذا لبّى وفَرَغ من تلبيته أن يُصَلِّي على النبي - ﷺ - لما رواه الشافعيُ والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدةَ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يُؤمَرُ الرجلُ إذا فرغ من تلبيته أن يُصَلِّي على النبي - ﷺ - على كل حال.

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سَمِعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إذا قَدِمتُم فطوفوا بالبيت سَبعاً، وصَلُّوا عندَ المقام ركعتين، ثم ائتُوا الصفا فقوموا عليه من حيثُ تَرَون البيتَ، فَكَبِّروا سبعَ تكبيرات، تكبيراً بين حمد الله وثناءِ عليه وصلاةِ على النبي - ﷺ -، ومَسْألَةً لنفسك، وعلى المروةِ مثل ذلك». إسناد جيدٌ حَسَنٌ قويّ. وقالوا: ويُستَحبُّ الصلاة على النبي - ﷺ - مع ذكر الله عند الذَّبح، واستأنَسُوا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]، قال بعضُ المفسرين: يقول الله تعالى: لا أُذكَر إلا ذُكِرتَ مَعِي[(١)]. وخالفهم في ذلك الجمهور، وقالوا: هذا موطن يُفرَدُ فيه ذكر الربِّ تعالى، كما عند الأكل، والدخُولِ، والوِقَاع وغير ذلك، مما لم تَرِد فيه السنة بالصلاة على النبي - ﷺ -.

[٥٥٢٩] حديثٌ آخَرُ، قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمي، حدثنا عُمَر بن هارون، عن موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هُريرَةَ: أن رسول الله - ﷺ - قال: «صلُّوا على أنبياء الله ورُسُلِه، فإن الله بَعثهم كما بَعثني»[(٢)]. في إسناده ضعيفان، وهما عُمَر بن هارون وشيخُه، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزَّاق، عن الثوري، عن موسى بن عُبيدةَ الرَّبَذِيِّ، به.

ومن ذلك أنه يُستَحبُ الصلاةُ عليه عند طَنِين الأذُن، إن صحَّ الخبرُ في ذلك.

[٥٥٣٠] على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خُزَيمَةَ قد رواه في صحيحه فقال: حدثنا زياد بن يحيى، حدثنا معمر بن محمد بن عُبَيد الله بن علي عن أبي رافع، عن أبيه، عن أبي رافع قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا طَنَّت أُذُنُ أحدِكم فَلْيذكُرني وليُصَلِّ عليَّ، وَلْيَقُل: ذَكَرَ الله مَن ذَكَرني بخيرٍ»[(٣)]. إسنادُه غريب، وفي ثُبُوتِهِ نظرٌ، والله أعلم.

---

(١) هو بعض حديث واهٍ، يأتي في سورة الانشراح.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي ٤٣٥، وإسناده ضعيف، له ثلاث علل. عمر بن هارون، وشيخه موسى بن عبيدة، هو الربذي، وكلاهما ضعيف، وبهما أعله ابن كثير رحمه الله، وله علة ثالثة. محمد بن ثابت قال ابن معين: لا أعرفه اهـ وقد توبع عمر بن هارون فيما ذكر المصنف، فبقي للحديث علتان فقط، والله أعلم.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه ابن السني في «اليوم والليلة» ١٦٥ والطبراني ٩٥٨ وفي «الصغير» ١١٠٤ والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ٥٤٥ «منتخب السلفي» والبزار ٣١٢٥ وابن عدي ٦/ ١١٣ ـ ٤٥١ والعقيلي ٤/ ١٠٤ ـ ٢٦١ وابن حبان ٢/ ٢٥٠ من حديث أبي رافع، ومداره على محمد بن عبيد الله بن أبي رافع. قال الذهبي في «الميزان» ٧٩٠٤: ضعفوه. قال البخاري، منكر الحديث. وقال يحيى: ليس حديثه بشيء. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، ذاهب، ثم ذكر الذهبي له هذا الحديث على أنه من مناكيره اهـ وقال ابن حبان في «المجروحين» في ترجمة محمد بن عبيد الله: منكر الحديث جداً، يروي عن أبيه ما ليس يشبه حديث أبيه، فلما غلب المناكير على روايته، استحق الترك. كان ابن معين شديد الحمل عليه اهـ. وحكم ابن الجوزي بوضعه وكذا قال العقيلي: ليس له أصل، وذكره السخاوي في «المقاصد» ٧٠ وقال: وسنده ضعيف، بل قال العقيلي: ليس له أصل، وبهذا تعلم أن قول الهيثمي في «المجمع» ١٧١٤٢: إسناد الطبراني في «الكبير» حسن. ليس بصواب. بل له علة ثانية في «الكبير»، وهي ضعف حبان بن علي. وكذا لم يصب المناوي حيث قال في «الفيض» ١/ ٣٩٩: المتن صحيح، فقد رواه ابن خزيمة في صحيحه، وهو قد التزم تخريج الصحيح. كذا قال المناوي رحمه الله، =

مسألة: وقد استحبَّ أهلُ الكتابةِ أن يُكَرِّر الكاتبُ الصلاةَ على النبي - ﷺ - كلما كَتَبه.

[٥٥٣١] وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رَحْمَةَ، عن نَهْشَلٍ، عن الضَّحاك، عن ابن عَبَّاس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من صَلَّى عَلَيَّ في كتابٍ لم تَزَل الصلاةُ جاريةً له ما دام اسمِي في ذلك الكتاب»[(١)]. وليس هذا الحديثُ بصحيح من وُجوهٍ كثيرةٍ، وقد رُوِيَ من حديث أبي هُريرَةَ، ولا يَصِحُّ أيضاً، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخُنا: أحسبه موضوعاً. وقد رُوِيَ نَحوُه عن أبي بكر، وابن عباس. ولا يصح من ذلك شيء. والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغداديُّ في كتابه: «الجامع لآداب الراوي والسامع»، قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «أنه كثيراً ما يَكتُب اسمَ النبي - ﷺ - من غيرِ ذكرِ الصلاةِ عليه كتابة». قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

فصل: وأما الصلاةُ على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعيّة كما تقدّم في الحديث:

[٥٥٣٢] «اللهم صل على محمّد وآله وأزواجه وذُرّيته»[(٢)] فهذا جائز بالإجماع، وإنما وَقَع النزاع فيما إذا أُفرِدَ غيرُ الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك. واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، وبقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وبقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

[٥٥٣٣] وبحديثِ عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «اللهمَّ صَلِّ عليهم». وأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[(٣)]. أخرجاه في الصحيحين.

[٥٥٣٤] وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله، صَلِّ عليَّ وعلى زوجي. فقال: «صَلَّى الله عليكِ وعَلَى زوجِكِ»[(٤)]. وقال الجمهورُ من العلماء: لا يجوزُ إفراد غير الأنبياءِ بالصلاةِ، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياءِ إذا ذُكِروا، فلا يُلحَقُ بهم غيرُهم، فلا يقال: «قال أبو بكر صَلَّى الله عليه». أو «قال عليٌّ صلَّى الله عليه». وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: «قال مُحمَّد - عزَّ وجلَّ -»، وإن كان عَزيزاً جَليلاً، لأن

---

= ولم أجده في المطبوع من صحيح ابن خزيمة، ولعله في القسم الذي لم يطبع بعد، وأياً كان، فقد ساق الحافظ ابن كثير إسناد ابن خزيمة، وفيه محمد بن عبيد الله أيضاً، فلم يروه من طريق آخر، فالخبر واه، ولما كان المتن منكراً زاده ذلك ضعفاً ووهناً، والأشبه أنه موضوع، كما ذهب إليه ابن الجوزي، والعقيلي، وغيرهما، والله أعلم.

(١) باطل. أخرجه الأصبهاني في «ترغيبه» كما في «اللآلىء» ١/ ٢٠٥ من حديث ابن عباس، وهو معلول بثلاث علل: الأولى كادح بن رحمة، كذاب، وشيخه نهشل بن سعيد متروك، وكذبه إسحق بن راهويه. وله علة ثالثة: الضحاك لم يلق ابن عباس، فهو منقطع. وله شاهد من حديث أبي هريرة. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ١٨٥٦ وابن الجوزي ١/ ٢٢٨، وقال: هذا موضوع يزيد بن عياض كذبه مالك، وقال الدراقطني: كذاب متروك. وقال ابن حبان: يضع الحديث اهـ وأعله الهيثمي في «المجمع» ٥٧٧ ببشر بن عبيد الدراسي، وقال: كذبه الأزدي وغيره اهـ وكذا ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة بشر وقال: وهذا موضوع ١/ ٣٢٠. وورد من حديث أبي بكر الصديق. أخرجه ابن عدي ٣/ ٢٤٩ ومن طريقه ابن الجوزي ١/ ٢٢٨ وقال ابن عدي: وضعه أبو داود النخعي، وكان وضاعاً بإجماع العلماء. ووافقه ابن الجوزي، وورد عن جعفر بن محمد من قوله أخرجه عنه ابن عساكر كما في «اللآلىء» ١/ ٢٠٥، وهو الصواب. وقد وصله بعض الكذابين.

(٢) تقدم في أول البحث.

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة، عند الآية: ١٠٣.

(٤) تقدم في تفسير سورة التوبة، عند الآية: ١٠٣.

هذا من شعار ذِكْرِ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ. وحَمَلوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنَّةِ على الدُّعاء لهم، ولهذا لم يَثْبُت شعاراً لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامرأتِه. وهذا مَسلكٌ حسنٌ.

وقال آخرون: لا يجوزُ ذلك، لأن الصلاةَ على غير الأنبياء قد صارت من شعارِ أهل الأهواءِ، يُصَلُّون على من يَعتقِدُون فيهم، فلا يُقتَدَى بهم في ذلك، والله أعلم. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهةِ التنزيهيَّة، أو خلافِ الأولى؟ على ثلاثة أقوالٍ، حكاها الشيخ أبو زكريَّا النوويُّ في كتاب «الأذكارِ». ثم قال: «والصحيحُ الذي عليه الأكثرون أنه مكروهٌ كراهةَ تنزيهٍ، لأنه شعارُ أهلِ البِدَع، وقد نُهينا عن شِعارهم، والمكروه هو ما وَرَد فيه نهيٌ مقصودٌ. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلفِ بالأنبياء ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم؛ كما أن قولنا ـ عَزَّ وجلَّ ـ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: «مُحَمَّد ـ عَزَّ وجلَّ ـ» وإن كان عَزيزاً جليلاً ـ لا يقال أبو بكر أو عَلِيٌّ: صلَّى الله عليه»، هذا لفظه بحروفه. قال: «وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجُوَيني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يُفرِدُ به غير الأنبياء، فلا يقال: «علي عليه السلام»، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فَيُخاطَب به، فيقال: سلامٌ عليكم، أو سلامٌ عليك، أو السلامُ عليكَ أو عليكم. وهذا مجمع عليه». انتهى ما ذكره. قلت: وقد غَلَب هذا في عبارة كثير من النسَّاخ للكتب، أن يفرد علي ـ رضي الله عنه ـ بأن يقال: «عليه السلامُ»، من دون سائرِ الصحابة، أو: «كَرَّم الله وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يُسَاوَى بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيمِ والتكريمِ، فالشيخانِ وأميرُ المؤمنين عثمانُ أولَى بذلِكَ منه، ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين.

قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثني عثمان ابن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: لا تصلحُ الصلاة على أحد إلا على النبي ـ ﷺ ـ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار. وقال أيضاً: حَدَّثنا أبو بكر بن أبي شَيبة، حدثنا حُسَين بن علي، عن جَعْفَرِ بن بَرْقان قال: كَتَب عُمَر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: «أما بعد، فإنَّ أُناساً من الناس قد التمسُوا الدنيا بعمَلِ الآخرةِ، وإنَّ ناساً من القُصَّاصِ قد أحدثُوا في الصلاة على خُلَفائهم وأمرائهم عِدْلَ الصَّلاةِ على النبيِّ ـ ﷺ ـ، فإذا جاءك كتابي هذا فَمُرْهَم أن تكونَ صلاتُهم على النَّبيين ودعاؤهم للمسلمين عامَّة، وَيَدعُوا ما سِوَى ذلك». أثر حسن.

قال إسماعيل القاضي: حدثنا مُعَاذُ بن أَسَد، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا ابن لهيعة، حدثني خالد بن يَزيد، عن سَعِيد بن أبي هلال، عن نُبَيه بن وَهب: أَنَّ كعباً دَخل على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فَذَكَرُوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال كعبٌ: ما من فَجر يطلعُ إلا نَزَل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يَحُفُّوا بالقبر يضربُون بأجنحَتهم ويُصَلُّون على النبي ـ ﷺ ـ، سبعُون ألفاً بالليل، وسبعُون ألفاً بالنهارِ، حتى إذا انشقت عنه الأرضُ خَرَج في سبعين ألفاً من الملائكة يَزِفُّونه[١].

فرع: قال النووي: إذا صُلِّيَ على النبي ـ ﷺ ـ فَلْيَجمع بين الصَّلاة والتسليم، فلا يقتصِر على أحدِهما فلا يقولُ: «صلى الله عليه» فقط، ولا: «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله مُنتزَعٌ من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسَلَّم تسليماً.

---

(١) هو من قول كعب الأحبار، قاله من عند نفسه، فلا حجة فيه، عامة ما يرويه من الإسرائيليات فإن صح هذا عنه يكون منه تقوّلاً، لكن فيه ابن لهيعة واهٍ.. وهو وإن رواه عنه ابن المبارك، فقد ضعفه بعضهم مطلقاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

يقولُ تعالى مُتهدِّداً ومتوعِّداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وأذى رسولِه بعيب أو بنقص، عياذاً بالله من ذلك. قال عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، قال: نزلت في المصوّرين.

[٥٥٣٥] وفي الصحيحين، من حديث سفيان بن عُيَينة، عن الزهري، عن سَعيد بن المسيب، عن أبي هُريرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: يُؤذِيني ابنُ آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهرُ، أُقَلِّب ليله ونهاره»(١). ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولُون: يا خَيبةَ الدهرِ فَعَل بنا كذا وكذا. فَيُسنِدُون أفعال الله تعالى إلى الدهرِ، ويَسبُّونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ، فنهى عن ذلك. هكذا قَرَّره الشافعي وأبو عُبَيد وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، نزلت في الذين طَعَنُوا في تزويجه صَفِية بنت حُيَيِّ بن أخطب. والظاهرُ أَنَّ الآية عامَّة في كلِّ من آذاه بشيء، من آذاه فقد آذى الله، كما أنَّ من أطاعه فقد أطاع الله؛ كما قال الإمام أحمد:

[٥٥٣٦] حدثنا يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عَبِيدَةَ بن أبي رائِطَة الحَذَّاء التَّمِيمي، عن عبد الرحمن، عن عبد الله بن المُغَفَّل المُزَني قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «الله الله في أصحابي! لا تَتَّخِذُوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبَّهم فَبِحُبي أحبَّهم، ومن أبغضَهم فَبِبُغضي أبغضَهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يُوشِك أن يأخُذَه»(٢). وقد رواه الترمذي من حديث عَبِيدة بن أبي رائِطَةَ، عن عبد الرحمن بن زيادٍ، عن عبد الله بن المغفل، به. ثم قال: «وهذا حديثٌ غَريبٌ، لا نَعرِفُه إلا مِن هذا الوجهِ».

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، أي: ينسبون إليهم ما هم بُرَآءُ منه لم يعمَلُوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وهذا هو البَهت البيِّن أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه. على سبيل العيب والتنقص لهم، ومِن أكثر مَن يدخل في هذا الوعيدِ الكفرةُ بالله ورسوله، ثم الرافضةُ الذينَ يتنقَّصون الصحابة ويَعيبونهم بما قد بَرّأهم الله منه، ويَصِفُونهم بِنَقيضِ ما أخبر الله عنهم، فإن الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومَدَحهم، وهؤلاء الجهلةُ الأغبياءُ يسبُّونهم ويَتنقَّصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فَعَلُوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسُو القلوبِ، يَذُمُّون الممدوحين، ويمدَحُون المذمومين.

[٥٥٣٧] وقال أبو داود: حدثنا القَعنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز ـ يعني ابن محمد ـ عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبةُ؟ قال: «ذِكرُكَ أخاكَ بما يكرَه». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخِي ما أقولُ؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقولُ فقد بَهَتَّه»(٣). وهكذا رواه الترمذي، عن قُتَيبة، عن الدَّرَاوَرْدِيِّ، به، ثم قال: «حسن صحيح».

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٢٦ ومسلم ٢٢٤٦ وأبو داود ٥٢٧٤ وأحمد ٢/ ٢٣٨ وابن حبان ٥٧١٦.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٨٧ والترمذي ٣٨٦٢ وابن حبان ٧٢٥٦ وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد ويقال: عبد الله بن عبد الرحمن ويقال عبد الرحمن بن عبد الله، وهو مجهول وقال الترمذي: هذا حديث غريب اهـ. وصدره متفق عليه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٩ وأبو داود ٤٨٧٤ والترمذي ١٩٣٤ وأحمد ٢/ ٣٨٤ و٣٨٦ وابن حبان ٥٧٥٨.

[٥٥٣٨] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا معاوية بن هشام، عن عمار بن أنس، عن ابن أبي مُلَيكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه: «أيُّ الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «أربى الرِّبا عند الله استحلالُ عِرْض امرىءٍ مسلم». ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله - ﷺ تسليماً - أن يأمر النِّساءَ المؤمناتِ - خاصّةً أزواجَه وبناتِه لشرفهنَّ - بأن يُدنين عليهنَّ من جلابيبهن، لِيتميَّزنَ عَن سِماتِ نساءِ الجاهليّة وسِماتِ الإماء. والجلبابُ هو: الرداءُ فوق الخِمَار، قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيم النخَعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد. وهو بمنزلةِ الإزار اليومَ. قال الجَوهري: الجلباب؛ المِلْحَفَة، قالت امرأةٌ من هُذَيل ترثي قَتِيلاً لها:

تَمْشِي النُّسورُ إليه وَهْيَ لاهِيَةٌ ... مَشْيَ العَذارَى عَلَيْهِنَّ الجَلابِيبُ

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساءَ المؤمنين إذا خَرَجْنَ من بيوتهن في حاجة أن يُغطِّين وجوهَهُنَّ من فوق رُؤوسِهِنَّ بالجلابيب، ويُبدِين عيناً واحدةً. وقال محمد بن سيرين: سألت عَبِيدَةَ السَّلماني عن قول الله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، فَغطَّى وجهَه ورأسه وأبرزَ عينه اليُسرَى. وقال عكرمة: تغطي ثُغْرَة نَحرِها بجلبابها تُدنيه عليها.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو عبد الله الظّهرانِيُ فيما كَتَب إليّ، حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن ابن خُثَيم، عن صَفِيّة بنت شيبة، عن أمّ سَلَمة قالت: لما نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، خَرَج نساءُ الأنصارِ كأن على رُؤوسِهِنَّ الغِرْبَانَ من السَّكِينة، وعليهِنَّ أكسِيَة سُودٌ يلبسنَهَا. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثنا يونس بن يزيدَ قال: وسألناه - يعني الزهري -: هل على الوَلِيدة خمارٌ متزوِّجةً أو غيرَ متزوِّجةٍ؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوِّجة، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبَّهن بالحرائر إلا محصناتٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾. ورُوِيَ عن سفيان الثَّوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذِّمة، إنما يُنهَى عن ذلك لخوفِ الفتنة، لا لحرمتهنَّ. واستدل بقوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقولُه: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، أي: إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنّهنَّ حَرَائِرُ، لسنَ بإماءٍ ولا عواهِرَ.

قال السدّي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، قال: كان ناس من فُسّاق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين

(١) هو عجز حديث، تقدم تخريجه، وصدره «الربا بضع وثلاثون...».

حاجَتهنّ، فكان أولئك الفُسّاقُ يَتبعُون ذلك منهنّ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حُرّةٌ، كُفُّوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا: هذه أَمَةٌ. فوثَبُوا إليها. وقال مجاهد: يَتجلْبَبنَ فيعلم أنهم حَرائِرُ فلا يَعرِضُ لهنّ فاسِقٌ بأذى ولا رِيبَة. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيثُ لم يكُن عندهنّ علم بذلك. ثم قال تعالى مُتوعِّداً للمنافقين، وهم الذين يُظهرون الإيمانَ ويُبطِنون الكفر: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ـ قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، يعني: الذين يقولون: جاء الأعداء، وجاءت الحروبُ. وهو كَذِبٌ وافتراء ـ لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعُوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لنسلطنّك عليهم. وقال قتادة رحمه الله: لنُحرّشنّكَ بهم. وقال السدي: لنُعلِمَنّك بهم. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾، أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ﴾ حال منهم في مُدّة إقامتهم في المدينة مدةً قريبةً مطرودين مبعدين، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا﴾، أي: وُجدُوا، ﴿أُخِذُوا﴾ لِذِلّتهم وقِلّتهم، ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾. ثم قال تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾، أي: هذه سنتهُ في المنافقين إذا تمرّدوا على نفاقهم وكُفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويَقهرُونهم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أي: وسنة الله في ذلك لا تُبدّل ولا تُغيّر.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾

يقولُ تعالى مخبراً لرسول ـ ﷺ ـ: أنه لا علمَ له بالساعةِ، وإن سأله الناسُ عن ذلك. وأرشده أن يَرُدَّ علمها إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ، كما قال له في سورة الأعراف، وهي مكية وهذه مدنية، فاستمرّ الحال في رَدّ علمها إلى الذي يُقيمها، لكن أخبره أنها قريبةٌ بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، كما قال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: ماكثين مُستمرّين، فلا خروجَ لهم منها ولا زوالَ لهم عنها، ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أي: وليس لهم مُغيثٌ ولا مُعِينٌ ينقذهم مما هم فيه.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، أي: يُسحَبُون في النار على وجوهِهم، وتُلوَى وجوهُهم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يَتمنّون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم في حال العَرَصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]. وقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢]. وهكذا أخبر عنهم في حالهم هذه أنهم يَودون أن لو كانوا أطاعُوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾، وقال طاوس: سادتنا يعني الأشراف، وكبراءنا يعني العلماء. رواه ابن أبي حاتم. أي: اتبعنا السادةَ وهم الأمراءُ والكبراءُ من المشيَخة وخالفنا الرسُلَ، واعتقدنا أنّ عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هُم ليسوا على شيءٍ، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: بكُفرهم

وإغوائهم إيانا، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾. قرأ بعض القُرّاء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثلثة، وهما قريبا المعنى.

[٥٥٣٩] كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، عَلِّمني دُعاءً أدعُو به في صَلاتي. قال: قل: «اللهم، إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحَمني إنك أنت الغفورُ الرحيمُ»(١). أخرجاه في الصحيحين، يروى «كبيراً» و«كثيراً»، وكلاهما بمعنى صَحِيح. واستحبَّ بعضُهم أن يجمَع الداعي بين اللفظَين في دُعائه. وفي ذلك نظرٌ، بل الأولى أن يقول هذا تارةً، وهذا تارةً، كما أن القارىء مُخَيَّر بين القراءتين، أيَّتهما قرأ فَحَسَن، وليس له الجمعُ بينهما، والله أعلم. وقال أبو القاسم الطَّبراني: حدثنا محمد بن عُثمان بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا ضِرارُ ابن صُرَدٍ، حدثنا علي بن هاشم، عن عُبَيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، في تسمية من شهد مع علي ـ رضي الله عنه ـ: الحجاج بن عمرو بن غزيَّة، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

[٥٥٤٠] قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حَدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا رَوح بن عُبادة، حدثنا عوف، عن الحسن ومحمدٍ وخِلاس، عن أبي هُريرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن موسى كان رجلاً حَيياً»(٢)، وذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾. هَكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً.

[٥٥٤١] وقد رواه في أحاديث الأنبياء بهذا السند بعينِهِ، عن أبي هُريرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حَيياً سِتِّيراً، لا يُرَى من جلده شَيء استحياءً منه، فآذاهُ من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يَتَستَّر هذا التستُّرَ إلا من عَيبٍ بجلده، إما بَرَصٍ وإما أُدرَةٍ(٣) وإما آفةٍ. وإن الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحدَه، فخلع ثيابَه على حَجَرٍ، ثم اغتسلَ، فلمَّا فرغ أقبلَ إلى ثِيابه ليأخذها، وإن الحجرَ عَدَا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطَلَبَ الحَجَر، فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ، ثوبي حَجَرُ. حتى انتهى إلى مَلأ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسَنَ ما خلق الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ وأبرأه مما يقولون، وقام الحجرُ، فأخذ ثوبَه فَلَبِسَه، وطَفِقَ بالحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاه، فوالله إنَّ بالحجر لَنَدباً من أثر ضَرْبِهِ ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ـ، قال: فذلك قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾(٤). وهذا سياقٌ حَسَنٌ مطوّلٌ، وهذا الحديثُ من أفراد البخاري دون مسلم.

[٥٥٤٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوح، حدثنا عوف، عن الحَسَن، عن النبي ـ ﷺ ـ وخِلاسٍ

---

(١) صحيح وقد تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٩٩.

(٣) انتفاخ في الخصية.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٠٤ والترمذي ٣٢٢١ والنسائي في «التفسير» ٤٤٤ والطبري ٢٨٦٧٣، وفي الإسناد روح ابن عبادة، وهو وإن روى له الشيخان، فقد تكلم فيه وفي شيخه عوف، والحسن لم يسمع أبا هريرة ومثله خلاس، وهذا الحديث من غرائب الصحيح.

ومحمدٍ، عن أبي هُرَيرة عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾، قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «إن مُوسى كان رجلاً حَيِياً سِتِّيراً، لا يكادُ يُرى من جِلْدِهِ شيءٌ استحياءً منه...»[1]. ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مُطَوَّلاً، ورَوَاه في تفسيره عن رَوح، عن عوف، به. ورواه ابن جرير من حديث الثَّوري، عن جابر الجُعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هُرَيرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحو هذا. وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ قال: قال قومه له: إنك آدَرُ. فخرج ذات يوم يغتسِلُ، فوضع ثيابه على صَخرة، فخرجت الصخرة تشتدُّ بثيابه، وخَرَج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالسَ بني إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدَر، فذلك قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾. وهكذا رواه العوفي، عن ابن عباس سواء.

[٥٥٤٣] وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا رَوح بن حاتم وأحمد بن المعلّى الأدمي قالا: حدثنا يحيى بن حَمَّاد، حدثنا حماد بن سَلَمة، عن علي بن زَيد، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كان موسى عليه السلام رجلاً حَيِيّاً، وإنه أتى أحسبه قال: الماءَ ـ ليغتَسِلَ، فوضع ثيابه على صَخرةٍ، وكان لا يكاد تَبدُو عورته، فقالت بنو إسرائيل: إن موسى آدرُ وبه آفةٌ، يعنون أنه لا يضَع ثيابه. فاحتملت الصخرةُ ثيابَه حتى صارت بحذاءِ مجالسِ بني إسرائيل، فنظروا إلى مُوسَى ـ عليه السلام ـ كأحسن الرجالِ، أو كما قال. فذلك قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سَعيد بن سليمان، حدثنا عَبَّاد بن العوام، عن سفيان بن حسين، حدثنا الحكم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ في قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾، قال: صَعِدَ موسى وهارونُ الجبلَ، فمات هارون عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلته، كان ألينَ لنا منكَ وأشدَّ حياءً. فآذَوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فَحَمَلته، فَمَرُّوا به على مجالسِ بني إسرائيلَ، فتكلمت بموته، فما عَرَف موضِعَ قَبْره إلا الرَّخَم، وإن الله جعله أصمَّ أبكَمَ. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن موسى الطوسيِّ، عن عَبَّاد بن العَوَّام، به. ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المرادُ بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المرادُ، فلا قولَ أولى من قولِ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ. قلت: يحتمل أن يكون الكُلُّ مراداً، وأن يكون معه غيره، والله أعلم.

[٥٥٤٤] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن شَقِيق، عن عبد الله قال: قَسَم رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يومَ قَسْماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريدَ بها وجهُ الله. قال: فقلتُ: يا عدوَّ الله، أما لأخبرنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بما قلت. قال: فذكرتُ ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فاحمَّر وجهه، ثم قال: «رحمةُ الله على موسى، لقد أُوذِيَ بأكثَرَ من هذا فصبر»[3]. أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٥ وانظر ما قبله، وله طريق آخر عن جابر الجعفي وهو متروك عند الطبري ٢٨٦٦٩، والراجح كونه من مرسل الحسن.

(٢) أخرجه البزار ٢٢٥٢ «كشف» وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٩٣ ـ ٩٤: وفيه علي بن زيد، وهو ثقة سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات اهـ. بل هو ضعيف كما جزم الحافظ في «التقريب».

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٣٥ ومسلم ١٠٦٢ وأحمد ١/ ٢٣٥ وابن حبان ٢٩١٧.

[٥٥٤٥] طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجّاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هشام مولى الهَمْدَانِيِّ، عن زيد بن زائدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «لا يُبَلِّغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً، فإني أحبُّ أن أخرُجَ إليكم وإني سَلِيمُ الصَّدرِ». فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ مال فقسَّمه، قال: فمررتُ برجُلين وأحدُهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمدٌ بِقِسمَتِهِ وجهَ الله ولا الدارَ الآخرةِ. قال: فَتَثَبَّتُ حتى سَمِعتُ ما قالا، ثم أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسول الله، إنك قلتَ لنا: «لا يُبَلِّغني أحدٌ عن أصحابي شيئاً»، وإني مَرَرتُ بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا. فاحمرَّ وجهَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وشقَّ عليه. ثم قال: «دعنا منكَ، لقد أُوذِيَ موسى بأكثَرَ من هذا، فَصَبر»(١).

[٥٥٤٦] وقد رواه أبو داود في الأدب، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسفَ الفِرْيابِيِّ، عن إسرائيلَ، عن الوليد بن أبي هشام به مختصراً: «لا يُبَلِّغْنِي أحدٌ عن أحدٍ شيئاً، إني أحبُّ أن أخرُجَ إليكم وأنا سليمُ الصَّدرِ»(٢). وكذا رواه الترمذيُّ في «المناقب»، عن الذهلي سواء، إلا أنه قال: «زيد بن زائدة». ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمد، عن عُبَيد الله بن موسى وحُسَين بن محمد، كلاهما عن إسرائيل، عن السدِّي، عن الوليد بن أبي هشام، به مختصراً أيضاً، فزاد في إسناده السدِّي، ثم قال: «غريبٌ من هذا الوجه». وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، أي: له وجاهةٌ وجاهٌ عند رَبِّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ. قال الحسن البصري: كان مستجابَ الدعوةِ عند الله. وقال غيرهُ من السلف: لم يسألِ الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن مُنِعَ الرؤيةَ لما يشاء الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ. وقال بعضُهم: من وجاهته العظيمة أنه شَفَع في أخيه هارونَ أن يُرسِلَه الله معه، فأجاب الله سُؤْلَه، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بتقواه، وأن يَعبدُوه عبادةَ من كأنه يراه، وأن يقولوا: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾، أي: مُستقيماً لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف. ووعَدهم أنهم إذا فَعَلُوا ذلك أثابهم عليه بأن يُصلِح لهم أعمالهم، أي: يُوفِّقُهم للأعمال الصالحة، وأن يغفِرَ لهم الذنوبَ الماضية. وما قد يَقَع منهم في المستقبل يُلهِمُهم التوبةَ منها. ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، وذلك أنه يُجار من النار، ويَصير إلى النَّعيم المقيم.

[٥٥٤٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن عَون، حدثنا خالد، عن ليث، عن أبي بُردَة، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: صَلَّى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ صلاةَ الظهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فَجَلسنا، فقال: «إن الله أمرني أن آمركم أن تتقُوا الله وتقولُوا قولاً سديداً». ثم أتى النساء فقال: «إن الله أمرني أن آمركُنَّ أن تَتَّقِينَ الله وتَقُلْنَ قولاً سديداً»(٣).

[٥٥٤٨] وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى»: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، حدثنا عبد العزيز بن

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦ وإسناده ضعيف لجهالة الوليد، والصحيح ما قبله.

(٢) ضعيف. أخرجه أبو داود ٤٨٦٠ والترمذي ٣٨٩٦، أبو يعلى ٥٣٨٨ وفي إسناده الوليد، وهو مجهول وانظر ضعيف أبي داود ١٠٣٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٣٩١ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٨٥: فيه ليث بن أبي سليم، وهو مضطرب الحديث، وبقية رجاله ثقات. اهـ بل ليث ضعيف الحديث.

عمران الزهري، حدثنا عيسى بن سَمُرة، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ على المنبر إلا سمعتُه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠﴾ . . . الآية[١]. غريب جداً. وَرَوى من حديث عبد الرحيم بن زيد العَمِّي، عن أبيه، عن محمد بن كعب، عن ابن عباسٍ موقوفاً: من سَرَّه أن يكون أكرمَ الناس فَلْيتَّقِ الله. قال عكرمة: القولُ السديدُ: لا إله إلا الله. وقال غيره: السدِيدُ: الصِّدقُ. وقال مجاهد: هو السَّداد. وقال غيره: هو الصوابُ. والكلُّ حقٌّ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٣﴾

قال العوفيُّ، عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعةَ، عَرَضها عليهم قبل أن يَعرِضَها على آدم فلم يُطِقنها. فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانةَ على السمواتِ والأرض والجبال فلم يُطقنها، فهل أنت آخذٌ بما فيها؟ قال: يا ربِّ، وما فيها؟ قال: إن أحسنتَ جُزِيت، وإن أسأت عُوقِبتَ. فأخذها آدمُ فَتحمَّلها، فذلك قولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، الأمانة: الفرائضُ، عَرَضها الله على السموات والأرض والجبالِ، إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذَّبهم الله. فكرهوا ذلك وأشفقُوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألاّ يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فَقَبِلها بما فيها، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، يعني: غِرّاً بأمر الله.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنه قال في هذا الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾، قال: عُرِضت على آدم فقال: خُذهَا بما فيها، فإن أطعتَ غَفرتُ لك، وإن عَصَيتَ عذبتُكَ. قال: قَبِلتُ فما كان إلا قدرَ ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم، حتى أصاب الخطيئة. وقد رَوَى الضحاك، عن ابن عباس، قريباً من هذا. وفيه نظر وانقطاع بين الضحّاكِ وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحّاك، والحسنُ البصريُّ، وغير واحد: إنَّ الأمانةَ هي الفرائضُ. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال الأعمش، عن أبي الضحَى، عن مسروقٍ: قال أُبيُّ بن كعبٍ: من الأمانةِ أن المرأة اؤْتِمنَت على فَرْجِها. وقال قتادةُ: الأمانة الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثةٌ: الصلاةُ، والصومُ، والاغتسالُ من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بَينها، بل هي متفقةٌ وراجعةٌ إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أُثِيبَ، وإن تركها عُوقِبَ، فَقَبِلها الإنسانُ على ضَعفِه وجَهْلِه وظُلمِه، إلاّ من وَفّق الله، وبالله المستعانُ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصري، حدثنا حماد بن واقد ـ يعني أبا عمر الصفَّار ـ سمعت أبا معمر ـ يعني عَوْنَ بن معمر ـ يُحَدِّث عن الحسن ـ يعني البصري ـ أنه تلا هذه

---

(١) ضعيف، فيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف، متروك الحديث. قال الذهبي في «الميزان» ٥١١٩: قال البخاري: لا يكتب حديثه. وقال النسائي وغيره: متروك اهـ وهو منكر بهذا اللفظ، وورد عن عروة مرسلاً بلفظ «أكثر ما كان رسول الله ﷺ، إذا قعد على المنبر، يقول: «اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً» وهذا أصح.

الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾، قال: عَرَضها على السبع الطِّباق الطرائق التي زُيِّنت بالنجوم وحَمَلةِ العرش العظيم، فقيل لها: تحملين الأمانةَ وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جُزيتِ، وإن أسأتِ عُوقبْتِ. قالت: لا. عَرَضها على الأرضين السبع الشدادِ، التي شُدَّت بالأوتادِ، وذُلِّلت بالمهاد، قال: فقيل لها: هل تحمِلين الأمانةَ وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنتِ جُزيتِ، وإن أسأت عُوقبتِ. قالت: لا. ثم عَرَضها على الجبالِ الشُّمِّ الشوامخ الصعابِ الصِّلابِ، قال قيل لها: هل تحمِلين الأمانةَ وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنتِ جُزيت، وإن أسأت عُوقبت. قالت: لا. وقال مقاتل بن حَيَّان: إن الله حين خَلَق خلقه جَمَع بين الإنس والجنِّ، والسمواتِ والأرضِ والجبالِ، فبدأ بالسموات فَعَرض عليهنَّ الأمانة وهي الطاعةُ، فقال لهن: أتحمِلْنَ هذه الأمانةَ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنةِ؟ فَقُلن: يا ربِّ، إنا لا نستطيع هذا الأمرَ، وليست بنا قوّةٌ، ولَكِنَّا لك مُطِيعين. ثم عَرَض الأمانةَ على الأرضين، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتَقْبَلنها مني، وأعطيكنَّ الفضلَ والكرامَةَ؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا ربِّ ولا نُطِيق، ولَكِنَّا لك سامعين مُطِيعين، لا نَعصِيك في شيء تأمرنا به. ثم قَرَّب آدم فقال له: أتحمِلُ هذه الأمانةَ وترعاها حَقَّ رِعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: ما لي عندك؟ قال: يا آدم، إن أحسنتَ وأطعتَ ورَعَيت الأمانةَ فلك عندي الكرامةُ والفضلُ وحسنُ الثوابِ في الجنةِ. وإن عَصَيت ولَم ترَعَها حَقَّ رعايتها وأسأتَ فإني مُعَذِّبك ومُعَاقِبك وأُنزِلُك النار. قال: رَضِيتُ رَبِّ. وتَحَمَّلها، فقال الله عند ذلك: قد حَمَّلْتُكَها. فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾. رواه ابن أبي حاتم. وعن مجاهد أنه قال: عَرَضها على السموات فقالت: يا ربِّ، حَمَّلتني الكواكبَ وسُكَّان السماء وما ذُكِر، وما أريد ثواباً ولا أحمِلَ فريضةً. قال: وعَرَضها على الأرض فقالت: يا رب، غَرَستَ فيّ الأشجار، وأجريت فيّ الأنهار وسُكَّان الأرض وما ذُكِر، وما أريد ثواباً ولا أحمِل فريضةً. وقالت الجبال مثل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ في عاقبةِ أمرِه. وهكذا قال ابن جُريج. وعن ابن أشوَعَ أنه قال: لما عَرَض الله عليهنَّ حمل الأمانةِ، ضَججْنَ إلى الله ثلاثةَ أيام ولياليهنَّ، وقلنَ: ربَّنا، لا طاقة لنا بالعمل، ولا نُريد الثوابَ.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾، فقال الإنسان: بين أذني وعاتقي. فقال الله تعالى: إني معينك عليها، أي: مُعِينك على عينيك بطبقتين، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق. ومُعِينك على لسانك بِطَبقتين، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبقِ. ومعينك على فرجك بلباسٍ، فلا تكشِفه إلى ما أكرهُ. ثم روى عن أبي حازم نحو هذا. وقال ابن جرير: حدثنا يونُس، حدثنا ابنُ وَهب قال: قال ابنُ زيدٍ في قول الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾، قال: إنَّ الله عرضَ عليهنَّ الأمانةَ أن يَفترِضَ عليهن الدين، ويجعلَ لَهن ثواباً وعقاباً، ويستأمِنَهنَّ على الدين. فقلن: لا، نحن مسخرات لأمرك لا نُريدَ ثواباً ولا عقاباً. قال: وعرضها الله على آدم فقال: بين أُذُني وعاتقي. قال ابن زيد: فقال الله تعالى له: أَمَا إِذْ تَحَمَّلتَ هذا فسأُعِينُك، أجعلُ لِبَصرِكَ حجاباً، فإذا خشِيت أن تنظر إلى ما لا يحلُّ لك فَأَرْخِ عليه حِجَابه، وأجعل لِلِسَانِكَ باباً وغَلَقاً، فإذا خَشِيت فأغلِق. وأجعل لفَرْجِكَ لباساً فلا تكشِفه إلا على ما أحللتُ لَكَ.

[٥٥٤٩] وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكونيُّ، حدثنا بقيةُ، حدثنا عيسى بن إبراهيم، عن مُوسى بن أبي حَبِيب، عن الحَكَم بن عُمَير ـ وكان من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «إن الأمانة والوفاءَ نَزَلا على آدمَ مع الأنبياء، فَأُرسِلُوا به. فمنهم رسولُ الله، ومنهم نَبِيٌّ، ومنهم نَبِيٌّ رسولٌ،

ونزل القرآن وهو كلامُ الله، ونزلت العربية والعجميّة، فَعَلِمُوا أمرَ القرآن وعَلِمُوا أمر السُّنَن بألسنتهم، ولم يَدَع الله شيئاً من أمره مما يأتون وما يَجتنِبُون وهي الحُجَج عليهم، إلا بَيَّنه لهم. فليس أهلُ لسانٍ إلا وهُم يعرفونَ الحسَنَ والقَبِيحَ، ثم الأمانةُ أوّلُ شيءٍ يُرفَعُ ويبقى أثرها في جُذُورِ قلوبِ الناسِ، ثم يُرفَعُ الوفاءُ والعهدُ والذِّمَم وتبقى الكتُب، فَعالم يعمَلُ، وجاهِل يعرفُها ويُنكِرها ولا يَحمِلُها، حتى وصل إليّ وإلى أُمّتي، ولا يَهلِك على الله إلا هالِكٌ، ولا يُغفِلُه إلا تارك. فالحذرَ أيُّها الناسُ، وإياكم والوَسْوَاسَ الخَنَّاسَ، فإنما يَبلُوكم أيُّكم أحسنُ عملاً»[1]. هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وله شواهدُ من وجوهٍ أُخرَى.

[٥٥٥٠] وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، أخبرنا أبو العَوّام القَطّان، حدثنا قتادةُ، وأبان بن أبي عياش، عن خُلَيدٍ العَصَرِيّ، عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «خمسٌ مَن جاء بهنَّ يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: مَن حافظَ على الصلوات الخمسِ على وُضُوئِهنّ ورُكُوعِهنّ وسُجُودِهنّ ومواقيتهنّ، وأعطى الزكاةَ من ماله طَيِّبَ النفس بها، وكان يقولُ: وايمُ الله لا يفعلُ ذلك إلا مؤمن، وصام رمضان، وحَجَّ البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأدّى الأمانة». قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداءُ الأمانةِ؟ قال: الغسلُ من الجَنَابة، فإن الله لم يأمنِ ابنَ آدم على شيءٍ من دينه غيرَه[2]. وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العَنْبَرِيِّ، عن أبي علي عُبَيد الله بن عبد المجيدِ الحَنَفِيِّ، عن أبي العوام عمران بن دَاوُدَ القطّانِ، به.

[٥٥٥١] وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا تَميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاقُ، عن شَرِيك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعودٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «القتلُ في سبيل الله يُكَفِّر الذنوبَ كُلَّها» ـ أو قال: «يُكفِّر كلَّ شيء ـ إلا الأمانةَ، يُؤتَى بصاحبِ الأمانةِ فَيُقالُ له: أدِّ أمانَتَك. فيقول: أنّى يا ربِّ وقد ذهبتِ الدنيا؟ فيقال له: أدِّ أمانتك. فيقول: أنّى يا رب وقَد ذَهَبت الدنيا؟ فَيُقال له: أدِّ أمانتك. فيقول: أنّى يا رَبِّ وقد ذهبت الدنيا؟ فَيَقُول: اذهبُوا به إلى أمه الهاويةِ. فَيُذهَبُ به إلى الهاوية، فَيَهوِي فيها حتى ينتهي إلى قَعرِها، فيجدُها هنالك كهيئتها، فَيَحمِلُها فيضعُها على عاتقه، فَيَصعَدُ بها إلى شَفِير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خَرَج زَلَّت فَهوى في أثرها أبد الآبدين». قال: والأمانةُ في الصلاةِ، والأمانةُ في الصوم، والأمانة في الوضوءِ، والأمانة في الحديثِ، وأشدُّ ذلك الودائعُ. فَلَقِيتُ البَرَاء فقلت: ألا تسمَعُ إلى ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صَدَق. قال شريك: وحدثنا عَيَّاش العامري، عن زاذانَ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه. ولم يذكر: الأمانة في الصلاة وفي كلِّ شيء[3]. إسناده جيد، ولم يخرجوه.

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الطبري ٢٨٦٨٩، فيه عيسى بن إبراهيم بن طهمان الهاشمي. قال البخاري والنسائي: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: متروك الحديث. وقال يحيى: ليس بشيء، وذكر له الذهبي هذا الحديث على أنه من مناكيره. راجع الميزان ٦٥٤٦. ولبعض هذا الحديث شواهد ستأتي. وبعضه الآخر منكر.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٢٩ والطبري ٢٨٦٩٠ والطبراني كما في «المجمع» ١/ ٤٧ وقال الهيثمي: وإسناده جيد. كذا قال: بل إسناده إلى الضعف أقرب، فيه عمران القطان غير قوي، وفيه خليد صدوق إلا أنه يرسل، ولم يثبت سماعه من أبي الدرداء.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٦٩٤ ـ ٢٨٦٩٥ وجوّد إسناده المصنف! مع أن شريك ساء حفظه لما تولى القضاء، فالإسناد غير قوي، وعجزه موقوف.

[٥٥٥٢] ومما يتعلّق بالأمانة الحديثُ الذي رَوَاه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن زيد بن وَهب، عن حُذَيفَة رضي الله عنه قال: حَدَّثنا رسول الله ـ ﷺ ـ حَدِيثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظرُ الآخرَ، حَدَّثنا أن الأمانة نَزَلت في جِذْرِ قُلوب الرجال، ثم نَزَل القرآن فَعَلِمُوا من القرآن وعَلِمُوا من السنة. ثم حدثنا عن رَفع الأمانة، فقال: «ينام الرجلُ النومةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ من قلبه، فيظل أثرُها مثل أثر الوَكْتِ، فَتُقبض الأمانةُ من قلبه، فيظل أثرُها مثل أثر المَجْلِ كَجَمْر دحرجته على رجلِكَ فتراه مُنتبراً[١] وليس فيه شيءٌ» ـ قال: ثم أخذ حَصَى فدحرجَهُ على رِجْلِهِ ـ قال: فَيُصبحُ الناسُ يتابيعون لا يكاد أحدٌ يُؤَدِّي الأمانةَ، حتى يُقالَ: إن في بني فلان رجُلاً أَميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلَده وأظرَفه وأعقَله! وما في قلبه حَبَّةٌ من خَردلٍ من إيمانٍ. ولقد أتى عَلَيَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايعتُ، إن كان مُسلِماً ليردَنَّه عليَّ دينُه، وإن كان نَصرانياً أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فُلاناً وفُلاناً[٢]. وأخرجاه في الصحيحَين من حديث الأعمش، به.

[٥٥٥٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسنٌ، حدثنا ابن لَهيعَة، عن الحارث بن يَزيدَ الحَضرَميِّ، عن عبد الله بن عَمرو أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أربعٌ إذا كنَّ فيكَ فلا عَلَيك ما فاتك من الدُنيا، حفظُ أمانَةٍ، وصِدقُ حَديثٍ، وحُسن خَليقةٍ، وعفَّةُ طُعْمَةٍ»[٣]. هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عَمرِو بن العاص.

[٥٥٥٤] وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عُمَر بن الخطاب: حدثنا يحيى بن أيّوب العَلاَّف المصريّ، حدثنا سعيد بن أبي مريمَ، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيدَ، عن ابن حُجَيرة، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أربعٌ إذا كنَّ فيكَ فلا عليكَ ما فاتكَ من الدنيا: حفظُ أمانةٍ، وصدقُ حديثٍ، وحُسن خَليقةٍ، وعفّة طُعمَةٍ»[٤]. فزاد في الإسناد: «ابن حُجَيرة»، وجعله في مسند ابن عُمَر. وقد وَرَد النهيُ عن الحَلِف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب «الزُهدِ»: حدثنا شَرِيك، عن أبي إسحاقَ الشَّيباني، عن خُنَاس بن سُحَيم ـ أو قال: جَبَلَة بن سُحَيم ـ قال: أقبلتُ مع زياد بن حُدَير من الجابية فقلتُ في كلامي: لا والأمانة. فجعل زياد يبكي ويبكي، فظننت أني أتيتُ أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يُكرَه هذا؟ فقال: نعم. كان عُمَرُ بنُ الخطاب ينهَى عن الحلف بالأمانة أشدَّ النهي. وقد وَرَد في ذلك مرفوعٌ.

[٥٥٥٥] قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زُهَير، حدثنا الوليد بن ثعلَبة الطائي،

---

(١) الوكت: الأثر السير في الشيء. المجل: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل. ومنتبراً: متورّماً.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٩٧ و٧٠٧٦ ومسلم ١٤٣ والترمذي ٢١٧٩ وابن ماجه ٢٠٥٣ وأحمد ٥/ ٣٨٣ وابن حبان ٦٧٦٢ والبيهقي ١٠/ ١٢٢.

(٣) ضعيف، أخرجه أحمد ٢/ ١٧٧ ح ٦٦١٤. له علتان: ضعف ابن لهيعة، والانقطاع بين الحارث بن يزيد وعبد الله بن عمرو بن العاص. ووصله الطبراني كما سيذكر المصنف فجعل بينهما واسطة، فزالت علة منهما، لكن خلط فيه ابن لهيعة فجعله من حديث ابن عمر، مع أن إسناده مصري، ثم إن المتن منكر. ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ١٨١٢٣: رواه أحمد والطبراني، وإسنادهما حسن!.

(٤) تقدم أن صوابه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه أقام في مصر، وأكثر عنه المصريون، وأما ابن عمر، فروى عنه أهل المدينة. وبكل حال مداره على ابن لهيعة، وهو ضعيف.

عن ابن بُرَيدَةَ، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن حَلَف بالأمانةِ فَلَيس منّا»[1]، تَفرّد به أبو داودَ، رحمه الله.

وقولُه تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، أي: إنما حَمَل ابنُ آدم الأمانةَ وهي التكليف ليعذِّب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يُظهرُون الإِيمانَ خوفاً من أهلِه ويُبطِنُون الكفرَ متابعةً لأهله، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، وهم الذين ظاهرُهم وباطنُهم على الشرك بالله ـ عَزَّ وجلَّ ـ ومخالفةِ رُسُلِه، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: وَليرحَم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورُسُله العاملين بطاعته، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

## آخر تفسير سورة الأحزاب، ولله الحمد والمنة

(١) أخرجه أبو داود ٣٢٥٣ وأحمد ٥/ ٣٥٢ وإسناده حسن، وله شواهد. انظر «الصحيحة» ٩٤.

# سُورَةُ سَبَإٍ

ترتيبها ٣٤ — آياتها ٤٥

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنَّ له الحمدَ المطلقَ في الدنيا والآخرة، لأنه المُنعِم المتفضّلُ على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠]. ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: الجميعُ ملكه وعبيده، وتحت قهره وتصرُّفه، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣].

ثم قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ﴾، فهو المعبود أبداً، المحمودُ على طُول المَدَى. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيبُ عنه شيء. وقال مالك عن الزهري: خَبيرٌ بخلقه، حَكِيمٌ بأمره. ولهذا قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي: يعلم عددَ القَطر النازِل في أجزاء الأرض، والحبَّ المبذورَ والكامنَ فيها، ويعلمُ ما يخرجُ من ذلك، عددَه وكيفيّتَه وصفاتِه، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من قَطر ورزْقٍ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، أي: من الأعمالِ الصالحةِ وغير ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، أي: الرحيمُ بعبادِه فلا يُعاجِل عُصاتَهم بالعقُوبةِ، الغفورُ عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث اللاتي لا رابع لهنَّ، مما أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يُقسِم بربِّه العظيم على وقوع المَعَاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعِناد، فإحداهنَّ في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾، والثانية هذه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾. والثالثة في التغابن: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ⑦﴾. فقوله تعالى: ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾، ثم وَصفه بما يؤكد ذلك ويُقرّره فقال: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾. وقال مجاهدٌ وقتادة: ﴿لا يعزب عنه﴾، لا يغيبُ عنه. أي: الجميعُ مندرج تحت عِلْمِهِ فلا يخفى عليه منه شيءٌ، فالعظام وإن تلاشت وتفرّقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرّقت، ثم يعيدها كما بدأها أوّل مرّةٍ، فإنه بكلِ شيءٍ عليم. ثم بيّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ④ والذين سعو في آياتنا معاجزين﴾، أي: سَعَوا في الصدِّ عن سبيل الله وتكذيب رُسله، ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾، أي: لِيُنَعّم السعداء من المؤمنين، ويُعذّب الأشقياء من الكافرين، كما قال ـ عز وجلّ ـ: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ㉘﴾ [ص: ٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾، هذه حكمةٌ أخرى معطوفة على التي قبلها. وهي أن المؤمنين بما أُنزل على الرسل إذا شاهدوا قيامَ الساعة ومجازاةَ الأبرار والفجّار بالذي كانوا قد عَلِموه من كُتُب الله في الدنيا رأوه حينئذٍ عين اليقين، ويقولون يومئذٍ أيضاً: ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف: ٤٣]، ويقال أيضاً: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ [يس: ٥٢]، ﴿لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾ [الروم: ٥٦]. ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ⑥﴾، العزيزُ هو: المنيع الجَناب، الذي لا يُغالَب ولا يُمانَع، بل قد قَهر كلَّ شيء، الحميدُ في جميع أقواله وأفعاله وشَرْعِهِ وقَدَره، وهو المحمود في ذلك كُلّه جل وعلا.

﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ⑦ أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ⑧ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ⑨﴾

هذا إخبارٌ من الله عن استبعاد الكَفَرة المُلْحِدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ـ ﷺ ـ في إخبارِه بذلك: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق﴾، أي: تفرقت أجسادكم في الأرض، وَذَهبت فيها كل مَذهب، وتمزّقت كل ممزق: ﴿إنكم﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿لفي خلق جديد﴾، أي: تعودُون أحياءً ترزقون بعد ذلك! وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين، إما أن يكون قد تَعمَّد الافتراءَ على الله أنه قد أُوحي إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون. ولهذا قالوا: ﴿أفترى على الله كذبا أم به جنة﴾؟ قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾، أي: ليس الأمر كما زَعموا ولا كما ذَهبوا إليه، بل محمد ـ ﷺ ـ هو الصادقُ البارّ الراشد الذي جاء بالحقّ، وهم الكَذَبةُ الجَهلَةُ الأغبياء، ﴿في العذاب﴾، أي: الكفر المُفضي بهم إلى عذاب الله تعالى، ﴿والضلال البعيد﴾ من الحق في الدنيا.

ثم قال منبهاً لهم على قُدرته في خَلْق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما

خلفهم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: حيثما توجّهوا وذهبوا فالسماء مُظِلّة لهم مُظلّلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٤٨].

قال عَبْدُ بن حُمَيد: أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادةَ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: إنك إن نظرتَ عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيتَ السماء والأرض. وقولُه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، أي: لو شِئْنا لفعَلْنا بهم ذلك لِظُلْمِهِم وقُدرتِنا عليهم، ولكن نُؤخِّر ذلك لِحلْمِنا وعفْوِنا. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، قال معمرٌ، عن قتادةَ: ﴿مُّنِيبٍ﴾ تائب. وقال سفيانُ عن قتادةَ: المنيب: المقبل إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. أي: إن في النظر إلى خَلْقِ السماء والأرض لدلالةً لكلِّ عبد فَطِنٍ لبيبٍ رَجّاعٍ إلى الله، على قُدرةِ الله على بعثِ الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتّساعها، وهذه الأرضِينَ في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادرٌ على إعادةِ الأجسام ونَشْرِ الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يُخبِر تعالى عما أنعَمَ به على عبده ورسوله داود ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ مما آتاه من الفَضْلِ المُبين، وجَمَع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنودِ ذَوِي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومَنَحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سَبَّح به تُسَبِّح معه الجبالُ الراسياتُ، الصمُّ الشامخاتُ، وتَقِف له الطيورُ السارحات، والغاديات والرائحات، وتُجاوِبه بأنواع اللغات.

[٥٥٥٦] وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ سَمِع صوتَ أبي موسى الأشعريِّ يقرأ من الليل، فوقَفَ فاستمَعَ لقراءَتِه، ثم قال: «لقد أُوتي هذا مِزْمَاراً من مزامير آل داود»(١). وقال أبو عثمان النَّهدي: ما سمعت صوت صَنْجٍ(٢) ولا بَرْبَطٍ ولا وَتَرٍ أحسنَ من صوتِ أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ. ومعنى قوله: ﴿أَوِّبِي﴾، أيّ: سبِّحي. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد. وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبِّحي بلسان الحبشة. وفي هذا نظرٌ، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأُمِرت الجبال والطير أن تُرَجِّعَ معه بأصواتها.

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاقَ الزجاجيُّ في كتابه «الجُمَل» في باب النداء منه: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾، أي: سِيْري معه بالنهار كلِّه، والتأويب: سيرُ النهار كلِّه، والإسآد: سيرُ الليل كُلِّه. وهذا لفظُه، وهو غريبٌ جداً لم أجِدْه لغَيره، وإن كان له مساعَدةٌ من اللفظِ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا.
والصوابُ أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾، أي: رَجِّعي مُسَبِّحة معه، كما تقدم، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، قال الحسنُ البصري، وقتادةُ، والأعمشُ وغيرهم: كان لا يحتاج أن يُدخِله ناراً ولا يضربَه بمطرقة، بل كان يَفتِلُه بيده مثلَ الخيوط، ولهذا قال: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾، وهي

(١) تقدم في تفسير سورة الأنبياء عند آية: ٧٩.
(٢) الصنج: صفيحة مدورة من صُفْر يُضرب بها على أخرى مثلها؛ والبربط: العود (وهما من آلات الموسيقى).

الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الحَلَق، وإنما كانت قبلَ ذلك صَفائِحَ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا ابن سماعة، حدثنا ابن ضَمرة، عن ابن شَوْذَب قال: كان داود ـ عليه السلام ـ يَرْفَع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم: ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف دِرْهم يُطعِم بها بني إسرائيل خبز الحُوّاري. ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، هذا إرشاد من الله لنبيه داود ـ عليه السلام ـ في تَعْلِيمه صنعةَ الدروع. قال مجاهدٌ في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: لا تُدِقّ المسمار فيقلَقَ في الحَلْقَةِ، ولا تُغَلِّظْهُ فيفصِمَها، واجعله بقَدَر. وقالَ الحكم بن عُتَيبة: لا تُغلِظه فَيَفْصِم، ولا تُدِقّه فيقلَق. وهكذا رُوِيَ عن قتادَةَ، وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: السَّرد: حَلَقُ الحديد. وقال بعضهم: يقال: دِرْع مسرودةٌ: إذا كانت مَسْمُورَةَ الحَلَقِ، واستشهد بقول الشاعر:

وَعَلَيهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ، أو صَنَعُ السَّوابغِ تُبَّعُ

وقد ذكر الحافظُ ابنُ عساكِرَ في ترجمةِ داود ـ عليه السلام ـ من طريق إسحاق بن بشر ـ وفيه كلام ـ عن أبي إلياس، عن وهب بن مُنَبِّه ما مضمونُه: أن داود ـ عليه السلام ـ كان يخرجُ متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال وهب: حتى بَعَث اللّهُ ملكاً في صُورَةِ رجل، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خيرُ الناسِ لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خَصلةً لو لم تكن فيه كان كاملاً. قال: ما هي؟ قال: يأكل ويُطعِم عياله من مال المسلمين. يعني بيت المال، فعند ذلك نَصِبَ داود ـ عليه السلام ـ إلى ربّه في الدعاء أن يُعَلِّمه عملاً بيده يستغني به ويُغني به عياله، فألان له الحديدَ، وعلّمه صنعة الدروع، فَعَمِل الدرع، وهو أولُ من عملها، فقال الله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، يعني مساميرَ الحَلَقِ، قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله دِرْعٌ باعها، فتصدّق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلثَ يتصدَّقُ به يوماً بيوم إلى أن يعمَلَ غيرها. وقال: إن الله أعطى داود شيئاً لم يُعطِه غيرَه من حُسْنِ الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبُور تسمَّع الوحشُ إليه حتى يُؤخَذَ بأعناقها وما تنفِرُ، وما صنعت الشياطينُ المزاميرَ والبرابطَ والصُّنوجَ إلا على أصنافِ صوته. وكان شديدَ الاجتهادِ، وكان إذا افتتَحَ الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكَأَن قد أُعطِي سبعين مِزْمَاراً في حَلْقِهِ. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، أي: في الذي أعطاكم الله من النِّعَمِ، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: مراقِبٌ لكم، بصيرٌ بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عَلَيَّ من ذلك شيء.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

لما ذكر تعالى ما أنعَمَ به على داود عَطَف بذكر ما أعطى ابنه سليمان بن داود من تسخير الريح له تحمل بساطه، غُدوُّها شهر ورواحها شهر. قال الحسنُ البصريُّ: كان يغدُو على بساطه من دمشق فينزل بإصطَخْرَ يتغدّى بها، ويذهبُ رائحاً من إصْطَخْرَ فيبيت بكابُل، وبين دمشقَ وإصْطَخْرِ شهر كامل للمُسرِع، وبين إصْطَخْرَ وكابلُ شهر كامل للمُسْرِع.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾، قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وعطاءُ الخراساني، وقتادةُ، والسديُّ، ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرُ واحد: القِطْر النّحاسُ.

قال قتادةُ: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمانَ عليه السلام. قال السديُّ: وإنما أُسيلَتْ له ثلاثة أيام. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، أي: وسخَّرنا له الجنَّ يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقَدره، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاءُ من البنايات وغير ذلك. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾، أي: ومن يَعدِل ويخرجْ منهم عن الطاعة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وهو الحريقُ.

[٥٥٥٧] وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاويةُ بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جُبَير بن نُفَير، عن أبي ثعلبة الخُشَنِيّ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الجن على ثلاثة أصنافٍ: صنف له أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حياتٌ وكلابٌ، وصنف يَحلُّون ويظعنون»[١]. رفعُه غريبٌ جداً. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا حَرْمَلَةُ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرني بكر بن مُضَر، عن محمد بن يحيى، عن ابن أنعم أنه قال: الجنُّ ثلاثةٌ: صنف لهم الثوابُ وعليهم العقابُ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنفٌ حياتٌ وكلابٌ. قال بكر بن مُضَر: ولا أعلم إلا أنه قال: حدثني أن الإنس ثلاثة: صنف يُظِلُّهم الله بِظِلِّ عرشه يوم القيامة، وصنف كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً، وصنف في صُوَر الناس على قلوب الشياطين. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي ابن هاشم بن مرزوق، حدثنا سلمة ـ يعني ابن الفضل ـ عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجن ولدُ إبليس، والإنسُ ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهوَ وَلِيُّ الله تعالىٰ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

وقولُه تعالىٰ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾، أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيءٍ في المسكن وصدرُه. وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجدُ. وقال قتادة: هي القصور والمساجد. وقال ابنُ زيد: هي المساكن. وأما التماثيل فقال عطيةُ العوفي، والضحاك والسديُّ: التماثيل، الصُّوَرُ. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادةُ: من طين ومن زجاج. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾، الجَوَاب: جمع جَابِيَة، وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء، كما قال الأعشى ميمونُ بن قيس:

تَروحُ علَى آلِ المحلَّقِ جَفْنَةٌ ... كَجَابيةِ الشَّيخِ العِراقيِّ تَفْهَقُ[٢]

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (كالجواب)، أي: كالجَوْبَةِ من الأرضِ. وقال العوفي، عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادةُ، والضحاكُ وغيرهم. والقدورُ الراسيات: أي الثابتاتُ في أماكنها، لا تتحولُ ولا تتحرَّكُ عن أماكنها لِعظَمِها. كذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهما. وقال عكرمة: أثافيُّها منها. وقولُه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، أي: وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أُنعِمَ به عليكم في الدنيا

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه الحاكم ٢/٤٥٦ والطبراني كما في «المجمع» ١٣٣٨٦ وأبو نعيم ٥/١٣٧ والخرائطي في «هواتف الجان» (٢)، ورجاله ثقات رجال مسلم سوى عبد الله بن صالح، جاء في «الميزان» ما ملخصه: قال أحمد: كان أول أمره متماسكاً، ثم فسد. وقال أبو حاتم: أخرج أحاديث في آخر عمره أنكروها عليه نُرى أنها مما افتعل خالد بن نجيح، وكان أبو صالح يصحبه، وقال صالح جزرة: كان ابن معين يوثقه، وهو عندي يكذب في الحديث. وقال ابن خزيمة: كان له جار يضع الحديث على شيخ أبي صالح، ويكتبه بخط يشبه خط أبي صالح، ويرميه في داره، فيظن أنه خطه فيحدث به اهـ ٤٣٨٣. ومع ذلك، صححه الحاكم! ووافقه الذهبي! وقال الهيثمي: رجاله وُثقوا، وفي بعضهم خلاف.

(٢) الجفنة: القصعة. وتفهق: تتصبب من الامتلاء.

والدين. وشُكراً: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعولٌ له، وعلى التقديرين فيه دلالةٌ على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية، كما قال:

أفادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً: يَدِي، وَلِسَانِي، وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبا

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: الصلاةُ شكرٌ، والصيامُ شكرٌ، وكلُّ خير تعمله لله شكر. وأفضلُ الشُّكرِ الحمد. رواه ابن جرير. وروى هو وابنُ أبي حاتم، عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: الشكر تقوى الله والعملُ الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود ـ عليه السلام ـ كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، حدثنا جعفر ـ يعني ابن سليمان ـ عن ثابت البُناني قال: كان داود ـ عليه السلام ـ قد جزّأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعةٌ من الليل والنهار إلا وإنسانٌ من آل داودَ قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

[٥٥٥٨] وفي الصَّحيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن أحبَّ الصلاة إلى الله تعالىٰ صلاةُ داودَ، كان ينامُ نصف الليل، ويقومُ ثلثه، وينام سُدُسه، وأحبُّ الصيامِ إلى الله تعالىٰ صيامُ داودَ، كان يصومُ يوماً ويُفطِر يوماً. ولا يَفِرُّ إذا لاقى»(١).

[٥٥٥٩] وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنيد بن داود، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قالت أمُّ سليمانَ بن داود لسليمان: يا بُنَيّ، لا تُكثِرِ النومَ بالليل، فإنَّ كثرة النَّوم بالليل تترك الرجل فَقِيراً يوم القيامة»(٢). وروى ابن أبي حاتم عن داود ـ عليه السلام ـ هاهنا أثراً غريباً مطولاً جداً، وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرانُ بن موسى، حدثنا أبو يزيدَ فيضُ بن إسحاقَ الرقّي قال: قال فُضَيل في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾. فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمةٌ منك؟ قال: «الآن شكرتَنِي حين قُلْتَ: إنَّ النعمةَ مني». وقولُه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، إخبارٌ عن الواقع.

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

يذكر تعالى كيفيةَ موتِ سليمان ـ عليه السلام ـ وكيف عَمّى الله موته على الجانّ المسخَّرين له في

(١) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ٥١.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه ابن ماجه ١٣٣٢ والبيهقي ٤٧٤٦ «شعب»، وابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/ ٦٨ وابن حبان في «المجروحين» ٣/ ١٣٦، وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: لا يصح، ويوسف ـ بن محمد ـ لا يتابع على حديثه، قال الدارقطني: يوسف ضعيف، وقال ابن حماد: متروك اهـ وله علة ثانية: وهي ضعف سنيد بن داود. وقد أعله البوصيري في الزوائد بسنيد ويوسف جميعاً، وقال: هما ضعيفان اهـ وخالف السيوطيُّ ابن الجوزي في «اللآلىء» ٢/ ٣١ فذهب إلى أن الحديث ضعيف فحسب، وليس بموضوع. والذي قاله السيوطي فيه نظر، فقد أخرجه العقيلي من وجه آخر ٤/ ٤٥٦ عن محمد بن المنكدر، قال: «قالت أم سليمان...» وكرره من طريق آخر عن ربيعة بن زيد من قوله أيضاً، فالوهم في رفعه إما من يوسف، أو من سنيد، والله أعلم، والذي اختاره ابن حبان هو أن الحمل فيه على يوسف حيث قال: يروي عن أبيه ما ليس من حديثه، من المناكير التي لا يشك عوام أصحاب الحديث أنها مقلوبة.

الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهي مِنْسَأته، كما قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ وغير واحد - مُدةً طويلةً نحواً من سنة، فلما أكلتها دابةُ الأرض - وهي الأَرَضَةُ - ضَعُفَت وسقط إلى الأرض، وعُلِم أنه قد كان مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينَتِ الجنُّ والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يَتوهَّمون ويُوهِمُون الناس ذلك. وقد وَرَد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ غريبٌ، وفي صِحَّته نظر.

[٥٥٦٠] قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن النبي -ﷺ- قال: «كان سليمان نبي الله - عليه السلام - إذا صَلَّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمُك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيءٍ أنتِ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ». فبينما هو يُصَلِّي ذاتَ يوم إذ رأى شجرةً بين يديه، فقال لها: ما اسمُكِ؟ قالت: الخَرُوبُ. قال: لأيِّ شيءٍ أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سُليمان: اللهمَّ، عَمِّ على الجنِّ موتتي حتى يعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيبَ. فَنَحَتها عصاً، فَتَوكَّأ عليها حولاً ميتاً، والجن تعملُ، فأكلتها الأرضةُ، فَتَبيَّنتِ الإنسُ أن الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لَبِثُوا حَوْلاً في العذابِ المُهِين. قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك. قال: فشكَرَتِ الجنُّ للأرضَةِ فكانت تأتيها بالماء[1]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طَهْمَان، به. وفي رَفْعِه غرابةٌ ونَكَارةٌ، والأقربُ أن يكون موقوفاً، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غراباتٌ، وفي بَعْضِ حديثه نَكَارَةٌ.

وقال السديُّ في حديث ذَكَره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس. وعن مُرَّةَ الهَمْدانيِّ، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله -ﷺ- قال: كان سليمان يَتَحرَّدُ[2] في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقلَّ من ذلك وأكثَرَ، يُدخِلُ طعامَه وشَرَابه، فدخلهُ في المرَّة التي تُوفِّيَ فيها. وكان بدءُ ذلك أنه لم يكن يومٌ يصبح فيه إلا نَبَتت في بيت المقدس شجرة، فيأتيها فيسألها: ما اسمُكِ؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس غَرَسها، وإن كانت نَبْتَ دواءٍ قالت: نَبت دواءً لكذا وكذا، فيجعلها كذلك، حتى نَبَتت شجرة يقال لها: الخرُوبة، فسألها: ما اسمُك؟ فقالت: أنا الخرُوبة. قال: ولأيِّ شيءٍ نَبتِّ؟ قالت: نَبتُّ لخرابِ هذا المسجدِ؟ قال سُليمان: ما كان الله ليُخَرِّبه وأنا حَيٌّ؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخَرَابُ بيتِ المقدسِ. فَنَزَعها وغرسَها في حائطَ له، ثم دخل المِحرَابَ فقام يُصَلِّي مُتَّكِئاً على عصاه، فماتَ ولاَ تعلَمُ به الشياطين، وهم في ذلك يعمَلُون له، يخافون أن يَخرُج فيعاقبهم. وكانت الشياطينُ تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كُوىً بين يديه وخَلْفَه، فكان الشيطانُ الذي يريد أن يخلَع يقول: ألستُ جَلْداً إن دخلتُ فخرجتُ من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخَلَ شيطان من أولئك فمر، ولم يكن شيطانٌ ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق. فَمَرَّ ولم يسمع صوتَ سُلَيمان، ثم رَجَع فلم يسمع، ثم رَجَع فوقع في البيت ولم يحترق. ونَظَر إلى سُلَيمان - عليه السلام -

---

(١) الصواب موقوف. أخرجه الطبري ٢٨٧٧٧، وهوضعيف، فيه عطاء بن السائب، صدوق إلا أنه اختلط بأخَرَة. وقد وهم في هذا الحديث فرفعه، والصواب موقوف على ابن عباس كما رواه الطبري ٢٨٧٧٨ وعن ابن مسعود موقوفاً عليهما. وهو الصواب، وللحديث المرفوع علة أخرى، موسى بن مسعود، وإن روى له البخاري فقد تكلم فيه أحمد، وضعفه الترمذي، وقال الفلاس: لا يحدث عنه من يبصر الحديث. وقال بندار: ضعيف. وقال أبو حاتم: صدوق. وقال أحمد: هو من أهل الصدق اهـ الميزان ٨٩٢٣، وانظر ما بعده.

(٢) متحرّد: معتزل ومتنحٍّ.

قد سقط ميتاً. فخَرَج فأخبر الناس أن سُلَيمان قد مات. ففتحوا عنه فأخرجوه. ووَجدوا مِنْسأته ـ وهي العَصَا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضَةُ، ولم يعلَمُوا منذ كم مات؟ فوضعوا الأرضَة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم حَسَبُوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سَنَةٍ. وهي في قراءة ابن مسعود: «فَمَكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً» فأيقن الناس عند ذلك أن الجنّ كانوا يَكْذِبُونَهم ولو أنَّهم عَلِموا الغيب لَعَلِمُوا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعمَلُون له سنة، وذلك قولُ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، يقول: تَبيَّنَ أمرهم للناس أنهم كانوا يكذِبُونهم. ثم إن الشياطين قالوا للأرَضَةِ: لو كُنْتِ تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكنا سننقُل إليك الماء والطين. قال: فهم ينقُلون إليها ذلك حيث كانت، قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جَوْفِ الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطينُ تَشَكُّراً لها. وهذا الأثر، والله أعلم، إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب، وهي وَقْفٌ لا يُصَدَّق منها إلا ما وافق الحقَّ، ولا يُكَذَّب منها إلا ما خالَفَ الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

وقال ابنُ وهب وأصبَغُ بن الفرَج، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالىٰ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾، قال: قال سُلَيمان ـ عليه السلام ـ لملك الموت: إذا أُمِرْتَ بي فَأَعلمني. فأتاه فقال: يا سليمان، قد أُمِرْتُ بك، قد بَقِيتْ لك سُوَيعة. فدعا الشياطين فَبَنوا عليه صرحاً من قوارِيرَ، وليس له باب، فقام يُصَلِّي فاتكأ على عصاه، قال: فدخَلَ عليه مَلَك الموت، فَقَبض رُوحَه وهو متوكىء على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت. قال: والجن تَعمَلُ بين يديه وينظرون إليه، يحسَبُون أنه حَيٌّ. قال: فبعث الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ دابةَ الأرضِ، قال: والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها: القادِحُ ـ فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوفَ العصا ضَعُفت، وَثقُل عليها فَخرَّ ميتاً، فلما رأت ذلك الجنُّ انفضُّوا وذهبوا، قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾. قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها أقامَتْ سنةً تأكلُ منها قبل أن يَخرّ. وقد ذَكر غيرُ واحدٍ من السلَفِ نحواً من هذا، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

كانت سَبأُ ملوكَ اليَمَنِ وأهلها، وكانت التبابعةُ منهم، وبلقيس ـ صاحبةُ سليمان ـ منهم، وكانوا في نَعْمَةٍ وغِبْطَةٍ من بلادهم وعَيْشِهم واتساع أرزاقِهم وزُرُوعهم وثِمَارِهم. وبَعَث الله تعالىٰ إليهم الرسلَ تأمرهم أن يأكلُوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالىٰ ثم أعرَضُوا عما أُمِرُوا به، فَعُوقِبُوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شَذَرَ مَذَر كما يأتي تفصيلُه وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقةُ.

[٥٥٦١] قال الإمامِ أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لَهيعة، عن عبد الله بن هُبَيرة، عن عبد الرحمن بن وَعْلَةَ قال: سمعتُ ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن سَبَإٍ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل، وَلَد عَشَرَةً، فَسَكَنَ اليمنَ ستةٌ، وبالشام منهم أربعةٌ، فأما اليمانيون فَمَذْحِجُ وكِندةُ، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحِمْيَر. وأما الشامية فَلَخْمٌ، وجُذَام، وعَامِلَةُ،

وغسّان»[١]. ورواه عَبد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعةَ، به. وهذا إسناد حسن، ولم يخرجوه. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «القَصْدُ والأمَمُ، بمعرفة أُصول أنساب العرب والعَجَم»، من حديث ابن لَهيعَةَ، عن علقَمَة بن وعلَةَ، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقد روى نحوه من وجه آخر.

[٥٥٦٢] وقال الإمام أحمد أيضاً وعبدُ بن حُمَيد: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى بن أبي حَيَّةَ الكلبي، عن يحيى بن هانيء بن عُروَةَ، عن فَرْوَةَ بن مسيك قال: أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمُقبل قومي مُدبِرَهم؟ قال: «نَعَم، فَقَاتِلْ بمقبل قَوْمِكَ مُدْبِرَهُم». فلما وَلَّيت دعاني فقال: «لا تقاتِلْهُم حتى تدعُوَهم إلى الإسلام». قلت: يا رسول الله، أرأيت سَبأً أوادٍ هو أو رجل، أَمْ ما هو؟ قال: «بل رجل من العرب، وُلِدَ له عَشَرةٌ فَتَيَامَنَ ستةٌ وتشاءم أربعةٌ، تَيَامن الأزدُ، والأشعريون، وحِمْيرٌ، وكندةُ، ومَذْحِج، وأنمار الذين يقال لهم بَجِيلةُ، وخثعم. وتشاءم لَخم، وجُذَام، وعامِلَةُ، وغسّان»[٢]. وهذا أيضاً إسنادٌ جَيِّدٌ وإن كان فيه أبو جَنَاب الكَلْبي، وقد تَكَلَّموا فيه.

[٥٥٦٣] ولكن رواه ابن جَرير عن أبي كُرَيب، عن العنقزيّ، عن أسباط بن نصر، عن يحيى بن هانيء المُرَادِيّ، عن عَمِّه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال: قدم فَروَةُ بن مُسَيك على رسول الله ﷺ فذكره[٣].

[٥٥٦٤] **طريقٌ أخرى** لهذا الحديث، قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وَهب، حدثني ابن لَهيعة، عن ثَوْبَةَ بن نَمر، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عُبَيدة بن عبد الرحمن بإفريقية فقال يوماً: ما أظنُّ قوماً بأرض إلا وهم من أهلها. فقال علي بن رَبَاح: كَلاً، قد حَدَّثني فلان أنَّ فَرْوَةَ بن مُسَيك الغُطَيفي قَدِم على رَسُول الله ـ ﷺ ـ فقال: «إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية وإني أخشىٰ أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم فقال: «ما أُمِرْتَ فيهم بشيءٍ بعد». فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾... الآيات، فقال له رجلٌ: يا رسول الله، ما سبأ، فذكرَ مثلَ حديث الذي قبله: أن رسول الله ـ ﷺ ـ سُئل عن سبأ: ما هو؟ أبلد، أم رجل، أم امرأة؟ قال: «بل رجل، وَلَد عَشَرَة فَسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة، أما اليمانيون فَمَذْحجٌ، وكِنْدَة، والأزدُ، والأشعريّون، وأنمارٌ، وحِمْيَرٌ غير ما حلها. وأما الشام فلخم، وجُذَام، وغسّانُ، وعاملةُ»[٤]. فيه غرابة من حيث ذكر الآية بالمدينة، والسورة مكيّة كلها، فالله أعلم.

[٥٥٦٥] **طريق أخرى**، قال ابن جَرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو أسامةُ، حدثني الحسن بن الحكم، حدثنا أبو سَبْرَة النخَعِي، عن فَرْوة بن مُسَيك الغطيفي قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أخبرني: عن سَبَإ، ما هو؟ أرض، أم امرأة؟ قال: «ليس بأرضٍ ولا امرأةٍ، ولكنه رجلٌ وَلَدَ عشرةً من الولد، فتيامنَ ستة وتشاءم

---

(١) أخرجه أحمد ١/٣١٦ وإسناده لا بأس به لأنه من رواية أبي عبد الرحمن أحد العبادلة عن ابن لهيعة. وله طرق، وشواهد سيذكرها المصنف رحمه الله. وأخرجه الحاكم ٤/٤٢٣ من وجه آخر عن عبد الله بن هبيرة به وصححه ووافقه الذهبي، وفيه عبد الله بن عياش ضعفه أبو حاتم.

(٢) إسناده ضعيف لضعف أبي جناب. وأخرجه الطبراني ١٨/(٨٣٤) من طريق أبي جناب.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٧٨٤ وإسناده ضعيف، يحيى بن هانيء وثقه ابن حبان وحده. وأخرجه الحاكم ٢/٤٢٤ من وجه آخر، وسكت عليه هو والذهبي.

(٤) إسناده ضعيف جداً. فيه ابن لهيعة ضعيف، وفيه راوٍ لم يسمّ. وأخرجه الطبراني ١٨/(٨٣٥) من وجه آخر عن البراء بن عبد الرحمن عن فروة به.

أربعة، فأما الذين تشاءَموا فلخمٌ وجُذَام وعامِلَةُ وغسَّانُ وأما الذين تيامنوا فكندةُ، والأشعريُون، والأزدُ، ومَذْحِجٌ، وحِمْيَرٌ، وأنمار». فقال رجل: ما أنمارٌ؟ قال: «الذين منهم خَثْعَمٌ وبَجِيلَةُ»[1]. ورواه الترمذي في جامعه، عن أبي كُرَيب وعبدِ بن حميد قالا: حدثنا أبو أسامة. . . فذكره أبسط من هذا، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب».

[٥٥٦٦] وقال أبو عمر بنُ عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمدُ بن زُهَير، حدثنا عبدَ الوهَّاب بن نجدَة الحَوْطِيُّ، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث ابن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حُصَين، عن تميم الداريّ أن رجلاً أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فسأله عن سبأ. . . فذكر مثله[2]، فَقَوِي هذا الحديث وحَسُنَ. قال علماءُ النسب، منهم محمدُ بن إسحاق: اسمُ سبأٍ عبدُ بن شمس بن يشجُبَ بن يَعْرُبَ بن قحطان. وإنما سُمِّي سَبَأ لأنه أوَّلُ من سَبَى في العَرَبِ. وكان يُقَال له الرائش، لأنه أول من غَنَم في الغزو فأعطى قومه، فَسُمِّيَ الرائشَ، والعرب تسمى المال: رِيشاً ورِياشاً. وذكروا أنه بَشَّر برسول الله ـ ﷺ ـ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً:

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكاً عَظِيماً ... نَبِيٌّ لا يُرَخِّصُ في الحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَه مِنْهُم مُلُوكٌ ... يَدِينُون العِبَادَ بِغَيرِ ذَامِ
ويَمْلِكُ بَعدهم مِنَّا مُلُوكٌ ... يَصيرُ المُلكُ فِينَا باقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانٍ نَبِيٌّ ... تَقِيٌّ جَبِينُهُ خَيرُ الأنَامِ
وسُمِّيَ أحْمَداً يَا لَيْتَ أنِّي ... أعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامِ
فَأعْضُده وأحْبُوه بِنَصْري ... بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتى يَظْهَرْ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغُه سَلَامِي

ذكر ذلك الهَمْدانِيُّ في كتاب «الإكليل». واختلفوا في قحطانَ على ثلاثة أقوال، أحدها: أنَّه من سلالة إرَم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق. والثاني: أنَّه من سُلالة عَابَر، وهو هُودٌ عليه السلام، واختلفوا في كيفيَّةِ اتِّصال نَسَبِه به على ثلاث طرائق أيضاً. والثالث: أنه من سُلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ واختلفُوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظُ أبو عُمَر بن عبد البر النَّمرِيّ رحمه الله، في كتابه: «الإنباهُ على ذِكْرِ أصولِ القبائلِ الرواة».

ومعنى قوله عليه السلام: «كان رَجُلاً من العرب»، يعني: العربَ العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه السلام، من سُلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم.

[٥٥٦٧] وفي صحيح البخاري أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ مرَّ بنفر من «أسلَمَ» ينتضلون، فقال: «ارموا بني

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٩٨٨ والترمذي ٣٢٢٢ وابن سعد في «الطبقات» ١/ ٣٨ ـ ٣٩ والطبري ٢٨٧٨٣ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب اهـ وإسناده حسن في الشواهد، أبو سبرة مقبول لكن للحديث طرق. وانظر صحيح أبي داود ٣٣٧٣.

(٢) حديث حسن بطرقه وشواهده. وحسنه ابن عبد البر في «الاستيعاب» ٣/ ١٢٦١ وابن كثير وغيرهما لكن من حديث فروة بن مسيك.

إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً»[1]. فأسلم قبيلةُ من الأنصار، والأنصارُ أوسُها وخزرجُها من غسان من عرب اليمن من سبأ ـ نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم سيل العرم، ونزلت طائفةٌ منهم بالشام، وإنما قيلَ لهم: غَسان، بماء نَزَلُوا عليه قِيلَ: باليمن، وقيل: إنه قريب من المُشَلَّل، كما قال حسان بن ثابت:

إمَّا سَألتَ فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ ... الأزْدُ نِسْبَتُنا، والماءُ غَسَّانُ

ومعنى قوله: «وَلَدَ عشرةً من العَرَب»، أي: كان من نسله هؤلاء العشرةُ الذين يرجِعُ إليهم أصولُ القبائل من عَرَبِ اليمن، لا أنهم وُلِدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوانِ والثلاثةُ والأقلُّ والأكثر، كما هو مُقرَّر مبين في مواضعه من كُتُب النسب. ومعنى قوله: «فتيامن منهم ستّةٌ، وتشاءمَ منهم أربعَةٌ»، أي: بعد ما أرسل عليهم سيل العَرِم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نَزَح عنها إلى غيرها. وكان من أمر السدِّ أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيولُ أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكُهم الأقادم، فبنوا بينهما سدّاً عظيماً مُحكماً حتى ارتفع الماءُ، وحُكِمَ على حافات ذَينِكَ الجبلين، فغَرسوا الأشجار واستغلُّوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن. كما ذَكَره غير واحد من السلف، منهم قتادةُ: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مِكْتَلٌ أو زَنْبِيل، وهو الذي تَخْتَرِفُ فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يُحتَاج إلى كُلْفَةٍ ولا قِطَافٍ، لكثرته ونضجه واستوائه. وكان هذا السدُّ بمأرِبَ: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاثُ مراحِلَ، ويعرف بسدِّ مأرب. وذكر آخرون أنه لم يَكُن ببلدهم شيءٌ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيءٌ من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحّةِ المزاج وعناية الله بهم، ليوحّدوه ويَعبدُوه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾، ثم فَسَّرها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، أي: من ناحيتي الجَبَلين والبلدةُ بين ذلك، ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، أي: غفور لكم إن استمرَرْتُم على التوحيد.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾، أي: عن توحيدِ الله وعبادته وشُكرِه على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كَمَا قال هُدهُد سليمانَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤]. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن مُنَبِّه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً. وقال السُّدي: أرسل الله ـ عزّ وجلّ ـ إليهم اثني عشر ألفَ نبيٍّ. فالله أعلم.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾، قيل: المراد بالعرم المياهُ. وقيل: الوادي. وقيل: الجُرَذ. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: «مسجد الجامع» و«سعيد كُرْز»، حكى ذلك السهيلي. وذكر غيرُ واحدٍ منهم ابن عباس، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادةُ، والضحّاك، أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لما أراد عُقُوبَتهم بإرسال العَرِم عليهم، بعث على السد دابَّةً من الأرض، يقال لها «الجُرَذ» نَقَبتْهُ، قال وهب بن مُنَبِّه: وقد كانوا يَجدون في كتبهم أن سببَ خَرَاب هذا السدِّ هو الجُرَذ فكانوا يرصُدُون عنده السنانير برهة من الزمان، فلما جاء القدَر غلبت الفأر السنانير، وَوَلَجت إلى السدِّ فنقبته، فانهار عليهم. وقال قتادةُ وغيره: الجُرَذ: هو الخُلْد، نَقَبت أسافله حتى إذا ضَعُف ووَهَى، وجاءت أيامُ السيول، صدَمَ الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخَرَّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٩٩ و٣٣٧٣ وأحمد ٤/ ٥٠ وابن حبان ٤٦٩٣ من حديث سلمة بن الأكوع.

الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فَيَبِسَت وتحطَّمت، وتبدَّلت تلك الأشجارُ المثمِرَةُ الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وعطاءٌ الخراساني، والحسن، وقتادة، والسدّيُّ: هو الأَرَاك، وأُكُلُه البَرِيرُ. ﴿وَأَثْلٍ﴾، قال العَوْفي، عن ابن عباس: هو الطَّرْفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السَمُرُ. فالله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، لما كان أجودُ هذه الأشجار المُبْدَلُ بها هو السِّدْرُ قال: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تَيْنِك الجنتين إليه، بعد الثمار النَّضِيجة والمناظر الحسنة، والظِّلال العميقة والأنهار الجارية، تَبدَّلت إلى شَجَر الأراك والطَّرْفاء والسِّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسببِ كُفرهم وَشِرْكهم بالله، وتكذيبهم الحقَّ وعدولهم عنه إلى الباطل. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾؟ أي: عاقبناهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يُعاقَب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم: لا يُعاقَبُ بمثل فِعْلِه إلا الكفور. وقال طاوس: لا يُناقَشُ إلا الكَفُور.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبو عُمير بن النحاس الرَّمْلي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التَّغلبيّ، عن ابن خَيْرَة ـ وكان من أصحاب علي، ـ رضي الله عنه ـ قال: جزاءُ المَعْصِيةِ الوهن في العبادة، والضِّيق في المعيشة، والتعسُّر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادِقُ لذَّةً حَلالاً إلا جاءه من يُنَغِّصه إيَّاها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

يذكُر تعالى ما كانوا فيه من الغِبطة والنِّعمة، والعيش الهنيّ الرغيدِ، والبلادِ الرخيةِ، والأماكن الآمنة والقُرى المتواصلة المتقاربة بعضُها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إنَّ مسافرهم لا يحتاجُ إلى حَمْلِ زاد ولا ماءٍ، بل حيثُ نَزَل وجَدَ ماءً وثمراً، ويَقيل في قريةٍ ويبيتُ في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، قال وهب بن مُنَبِّه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك. وقال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومالك عن زيد ابن أسلَم، وقتادةُ، والضحاك، والسدّي، وابن زيد، وغيرهم: يعني قُرَى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. وقال العوفي، عن ابن عباس، القُرَى التي باركنا فيها بيت المقدس. وقال العَوْفيُّ، عنه أيضاً: هي قُرَى عربيَّةٌ بين المدينة والشام. ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، أي: بَيِّنةً واضحةً، يعرفها المسافرون، يَقِيلُون في واحدةٍ ويبيتون في أخرى. ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، أي: جَعَلناها بحسَبِ ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، أي: الأمن حاصلٌ لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً. ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ـ وقرأ آخرون: «بَعِّدْ بين أسفارنا»، وذلك أنهم بَطِروا هذه النعمةَ ـ كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد ـ وأحبُّوا مفاوزَ ومَهَامِهَ يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحِل والسَّير في الحَرُورِ والمخاوفِ، كما طلب بنو إسرائيل من مُوسَى أن يُخرج الله لهم مما تُنبتُ الأرضُ، من بَقلها وقِثّائها وفُومِها وعَدَسها وبَصلها، مع أنهم كانوا في عيش رَغيد في مَنٍّ وسَلوى وما يشتهون من مآكل ومشاربَ وملابسَ مرتفعةٍ، ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]. وقال في حقِّ هؤلاء: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسَمَراً يتحدَّثون به من خَبَرِهم، وكيف مَكَر الله بهم، وفَرَّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهَنيء، تَفرَّقُوا في البلاد ها هنا وهاهنا. ولهذا تقول العربُ في القومِ إذا تفرَّقوا: «تفرَّقُوا أيدي سَبَا» و «أيادي سَبَا»، و «تفرق شَذَرَ مَذَر».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطَّانُ، حدثنا إبراهيم بن حَبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول: سَمِعت عكرمَة بحدِّث بحديث أهل سبأ، قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: وكانت فيهم كَهَنة، وكانت الشياطين يَسترقون السمعَ، فأخبروا الكهنة بشيءٍ من أخبار السماء، فكان فيهم رجلٌ كاهنٌ شريفٌ كثيرُ المال، وإنه خُبِّرَ أنَ زَوَال أمرهم قد دَنَا، وأن العذاب قد أظلَّهم. فلم يدر كيف يصنَعُ، لأنه كان له مالٌ كثيرٌ من عقار، فقال لرجل من بَنِيه؛ وهو أعزُّهم أخوالاً: إذا كان غداً وأمرتك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرتُك فانتهرْني، فإذا تناولتك فالطُمني. فقال: يا أبتِ، لا تفعَلْ، إن هذا أمرٌ عظيمٌ، وأمرٌ شديدٌ. قال: يا بني، حَدَث أمرٌ لا بدَّ منه. فلم يزل به حتى واتاه على ذلك. فلما أصبحوا واجتمعَ الناسُ، قال: يا بني، افعل كذا وكذا. فأبى، فانتهَرَه أبوه، فأجابه، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فَلَطَمَهُ، فَوَثب على أبيه فَلَطمه، فقال: ابني يَلْطُمني؟! عَلَيَّ بالشَّفرةِ. قالوا: وما تصنَعُ بالشفرة؟ قال: أذبَحُه. قالوا: تريد أن تَذبَحَ ابنك؟! الطُمه أو اصنعَ ما بدا لك، قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعَلَمُوهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خُذ منا ما بدا لك. فأبى إلا أن يذبَحَه. قالوا: فَلَتموتَنّ قبل أن تذبحه. قال: فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أُقيم ببلد يُحَال بيني وبين ولَدِي فيه، اشتروا مني دُورِي، اشتَرُوا مِنِّي أرضي. فلم يزل حتى باع دُورَه وأراضيَه وعَقَاره، فلما صار الثمنُ في يده وأحرزه، قال: أي قوم، إن العذابَ قد أظَلَّكم، وزوالَ أمركم قد دَنَا، فمن أراد منكم داراً جَدِيداً، وحِمىً شَدِيداً، وسَفَراً بَعيداً، فَلْيلحق بِعُمان. ومن أراد منكم الخَمْر والخَمِير والعَصير وكلمة ـ قال إبراهيم: لم أحفظَها ـ فلْيَلْحق بِبُصْرَى، ومن أراد الراسخات في الوَحْلِ، المطعمات في المَحْلِ، المقيمات في الضَّحْلِ، فليلحق بيثرب ذاتِ نخل. فأطاعه قومه، فخرج أهلُ عُمَان إلى عُمَان. وخرجت غَسَّان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثربَ ذاتِ النخل، قال: فأتوا على بطن مُرٍّ فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح، لا نبغي به بدلاً. فأقاموا به، فَسُمُّوا لذلك خزاعة، لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نَزَلُوا المدينةَ، وتَوَجَّه أهل عُمَان إلى عُمَان، وتوجهت غَسَّان إلى بُصرَى. هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عَمرو بن عامر أحدُ رؤساء اليمن وكُبَراء سَبَأٍ وكُهَّانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يَسَار في أول السيرة ما كان من أمر عَمرو بن عامر الذي كان أوَّلَ مَن خَرجَ من بلاد اليمن، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم عليهم فقال: وكان سببُ خروج عَمرو بن عامر من اليمن ـ فيما حَدَّثني أبو زيد الأنصاري ـ أنه رأى جُرَذاً يحفِرُ في سد مأرب، الذي كان يَحبِسُ عنهم الماء فيصرِفُونه حيث شاؤوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاءَ للسدِّ على ذلك، فاعتزم على النُّقلة عن اليمن، وكَادَ قومه، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولَطَمه أن يقومَ إليه فَيَلْطِمَه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لَطَم

وجهي فيها أصغرُ وَلَدي. وعَرَضَ أمواله، فقال أشرافٌ من أشراف اليمن: اغتنموا غَضْبَةَ عَمرو. فاشتروا منه أموالَه، وانتقل هو في وَلَده وَوَلَدِ ولدِه. وقال الأزد: لا نتخلف عن عَمرو بن عامر. فباعوا أموالَهم وخرجُوا معه، فساروا حتى نَزَلُوا بلاد «عَكٍّ» مجتازين يرتادون البلدانَ، فحاربتهُم عَكٌّ، وكانت حَربُهم سِجَالاً. ففي ذلك يقول عَبَّاس بن مرداسٍ السُلَمي رضي الله عنه:

وَعَـكُّ بـنُ عـدنَـانَ الـذيـن تـلـعَّـبُـوا بِـغَـسَّـانَ، حَـتَّـى طُـرِّدُوا كُـلَّ مَـطْـرَدِ

وهذا البيت من قصيدة له. قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثربَ، ونزلت خزاعة مَرّاً. ونزلت أزدُ السراةِ السراةَ، ونزلت أزد عُمَان عُمَانَ: ثم أرسل الله على السد السيل فهدمَه، وفي ذلك أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ هذه الآيات. وقد ذكر السدّي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمدُ بن إسحاق، إلا أنه قال: «فأمر ابن أخيه»، مكان «ابنه»، إلى قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، فتفرقوا». رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُمَيد، أخبرنا سَلَمةُ، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عَمْرو بن عامر وهو عمُّ القوم، كان كاهناً، فرأى في كهانته أن قومَه سَيُمزَّقُون ويُباعد بين أسفارهم. فقال لهم: إني قد علمتُ أنكم ستُمزَّقون، فمن كان منكم ذا هَمٍّ بعيدٍ وجَمَلٍ شديدٍ، ومَزادٍ جَديدٍ فليلحق بكاس أو كرود. قال: فكانت وادِعَةُ بن عمرو. ومن كان منكم ذا هَمٍّ مُدْنٍ، وأمرٍ دَعْنٍ، فليلحق بأرض شَنّ. فكانت عوفُ بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق. ومن كان منكم يُريدُ عيشاً آنياً، وحَرَماً آمناً، فَلْيلحَقْ بالأرزين. فكانت خُزاعة. ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحلِ، المطعمات في المَحْلِ، فَلْيلحَقْ بيثربَ ذات النخلِ. فكانت الأوسُ والخزرجُ، وهما هذان الحيان من الأنصار. ومن كان منكم يريد خَمْراً وخَميراً، وذهباً وحَريراً، ومُلكاً وتَأميراً، فَلْيلحَقْ بِكُوثَى وبُصرى، فكانت غَسَّان بنو جَفنة ملوكُ الشام، ومن كان مِنهم بالعراق. قال ابن إسحاق: وقد سمعتُ بعضَ أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهانتها ذلك، فالله أعلم أيُّ ذلك كان. وقال سعيد، عن قتادةَ، عن الشعبيِّ: أما غَسَّان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فَلَحِقُوا بِتِهامَةَ، وأما الأزد فلحقوا بعمان فمزَّقهم الله كل مُمزَّقٍ. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عُبيدة قال: قال الأعشى ـ أعشى بني قيسِ بن ثعلبةَ ـ واسمه: ميمون بن قيس:

وفـي ذَاكَ لِـلـمُـؤتَـسـي أُسْـوَةٌ ومَـأرِبَ عَـفَّـى عَـلَـيـهـا الـعَـرِمْ
رُخَـام بَـنَـتْـهُ لَـهُـمْ حِـمْـيَـرٌ إذا جَـاءَ مَـوَّارُهُ لَـم يَـرِمْ
فَـأرْوَى الـزُّرُوعَ وَأعـنـابَـهـا عَـلَـى سَـعَـةٍ مَـاؤُهُـمْ إذْ قُـسِـمْ
فَـصَـاروا أيَـادي مَـا يَـقْـدِرُو نَ مِـنْـه عَـلَـى شُـرْبِ طِـفْـلٍ فُـطِـمْ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي: إن في هذا الذي حَلَّ بهؤلاء من النِّقمة والعذاب، وتبديل النِّعمة وتحويل العافية، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً ودَلالةً لكلِّ عبدٍ صَبَّارٍ على المصائب، شكور على النعم.

[٥٥٦٨] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعني، قالا: أخبرنا سفيانُ، عن أبي إسحاق، عن العَيْزَار بن حُرَيث، عن عُمَر بن سعد، عن أبيه ـ هو سَعْد بن أبي وقاص رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجِبتُ من قضاءِ اللّهِ للمؤمِن، إن أصابه خيرٌ حَمدَ رَبَّه وشَكر، وإن أصابته مُصِيبةٌ حَمدَ

رَبَّه وصَبَر، يُؤجَر المؤمن في كلّ شيء، حتى في اللقمة يرفعُها إلى فيّ امرأتِه»[(١)] . وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي إسحاق السَّبيعي، به ـ وهو حديثٌ عَزيزٌ ـ من رواية عمر بن سعد، عن أبيه.

[٥٥٦٩] ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «عَجباً للمؤمن! لا يَقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سَرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاء صَبرَ فكان خيراً له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[(٢)] . قال عبد: حدثنا يونس، عن شيبانَ، عن قتادة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، قال: كان مُطَرِّف يقول: نعم العبدُ الصبّار الشكور، الذي إذا أُعطِيَ شكَرَ، وإذا ابتُلِيَ صَبَر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

لما ذكر تعالى قصّة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممّن اتبع إبليسَ والهَوى، وخالف الرشاد والهُدَى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ . قال ابن عباس وغيره: هذه الآيةُ كقوله تعالى إخباراً عن إبليسَ حين امتنع من السجُودِ لآدم، ثم قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧]، والآيات في هذا كثيرة. وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حوّاء، هَبَط إبليسُ فَرِحاً بما أصاب منهما، وقال: «إذا أصبت من الأبوين ما أصبتُ، فالذريّة أضعفُ وأضعفُ». وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾، فقال عند ذلك إبليس: «لا أُفارِق ابنَ آدم ما دام فيه الروح، أَغُرّه وأُمنّيه وأخدعُه». فقال الله تعالى: «وعِزّتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغرغر بالموت، ولا يدعُوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفِرُني إلا غَفرتُ له». رواه ابن أبي حاتم.

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، قال ابن عباس: أي من حُجّةٍ. وقال الحسنُ البصريُّ: والله ما ضَرَبهم بعصاً، ولا أكرهَهُم على شيءٍ، وما كان إلا غُروراً وأمانيَّ دعاهم إليها فأجابوه. وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾، أي: إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمرُ مَن هو مؤمنٌ بالآخرة وقيامِها والحسابِ فيها والجزاءِ، فيُحْسِن عبادة ربّه ـ عزّ وجلّ ـ في الدنيا، مِمّن هو منها في شكٍّ. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، أي: ومع حِفظِه ضَلَّ من ضلَّ من أتباعِ إبليسَ، وبحفظه وكَلاءتِه سَلِمَ من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

يُبيّنُ تباركَ وتعالى أنه الإله الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصمَدُ، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو

---

(١) صحيح. أخرجه النسائي في «اليوم والليلة» ١٠٧٥ وأحمد ١/ ١٧٧ و١٧٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٠٩ وقال: رواه أحمد بأسانيد، ورجالها كلها رجال الصحيح. وهو كما قال.

(٢) تقدم تخريجه، رواه الشيخان.

المستقل بالأمر وحْدَهُ، من غير مشارك ولا منازِع ولا معارِض، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: من الآلهة التي عُبِدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يَستظهِرُ به في الأمور، بل الخَلقُ كلُّهم فُقَراءُ إليه، عبيدٌ لديه. قال قتادة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، من عونٍ يُعينهُ بشيءٍ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، أي: لعظمتِه وجلالِه وكبريائِه لا يجترىء أحدٌ أن يشفَع عنده تعالى في شيءٍ، إلا بعد إذنِه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

[٥٥٧٠] ولهذا ثبت في الصحيحين، من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى: أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلِّهم أن يأتي ربّهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله فيدعُني ما شاء الله أن يَدَعني، ويفتح عليَّ بمحامد لا أُحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تُسمع، وسل تُعطَه، واشفع تشفع»[1]... الحديث بتمامه.

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾. وهذا أيضاً مقامٌ رفيعٌ في العَظَمة، وهو أنه تعالى إذا تَكلَّم بالوحي، فَسَمِعَ أهل السموات كلامه أُرْعِدوا مِنَ الهَيْبَةِ حتى يلحَقُهم مثلُ الغَشْي، قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما. فإذا فُزِّع عن قلوبهم، أي: زالَ الفزعُ عنها، قال ابنُ عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السُّلَميُّ، والشعبيُّ، وإبراهيم النخعيُّ، والضَّحاك، والحسن، وقتادةُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: جُلِّي عن قلوبهم.

[٥٥٧١] وقرأ بعض السلف، وجاء مرفوعاً: «حتّى إذا فُرِّغ» بالغين المعجمة[2]، ويرجع إلى الأول.

فإذا كان كذلك يسأل بعضُهم بعضاً: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيُخبر بذلك حَمَلةُ العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدُّنيا، ولهذا قال: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾، أي: أخبَرُوا بما قالَ من غير زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾. وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، يعني المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يومَ القيامةِ، ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فقيل لهم: ﴿ٱلْحَقَّ﴾، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: كُشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: «حتى إذا فُرِّغ عن قُلُوبهم»، يعني: ما فيها من الشكِّ والتكذيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، قال: فُرِّغ الشيطانُ عن قُلوبهم ففارقهم وأمانيَّهم وما كان يُضلّهم، ﴿قَالُواْ

(١) تقدم تخريجه في سورة الإسراء.

(٢) هو في المستدرك ٢/٢٤٨ من حديث أبي هريرة، وقد نسبه السيوطي في الدر ٥/٤٤٢ لابن مردويه أيضاً.

مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقرُّوا حين لا ينفعُهم الإقرارُ. وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة، وهذا هو الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره:

[٥٥٧٢] قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه: حدَّثنا الحُمَيدي، حدثنا سُفيان، حدثنا عَمرو قال، سَمِعت عكرمة يقولُ، سَمِعت أبا هُريرة يقول: إن نبيَّ الله ﷺ قال: «إذا قَضَى الله الأمرَ في السماءِ ضَرَبت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله، كأنه سِلسِلة على صَفْوانٍ[١]، فـ ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ للذي قال: ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فيسمَعُها مُسْتَرِقُ السَّمع، ومُسْتَرِقُ السمع ـ هكذا بعضُه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده ـ فَحَرَفها، وبَدَّدَ بين أصابعه ـ فيَسمَعُ الكلِمةَ، فَيُلقيها إلى مَن تحته، ثم يُلقيها الآخرُ إلى مَن تحته، حَتَّى يُلقِيها على لسانِ الساحرِ أو الكاهنِ. فربما أدركَه الشِّهابُ قبل أن يُلقيها، ورُبَّما ألقاها قبل أن يُدرِكَه، فيكذِبُ معها مئةَ كِذْبَةٍ، فَيُقال: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا، كَذَا وكذا؟ فَيُصدَّق بتلك الكلمةِ التي سُمِعت مِن السماء»[٢]. انفرد بإخراجه البخاريّ دون مسلم من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود، والترمذيُّ، وابنُ ماجة، من حديث سفيانَ بن عُيَينة، به؛ والله أعلم.

[٥٥٧٣] حديثٌ آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق، قالا: أخبرنا معمر، أخبرنا الزُّهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال عبد الرزاق: من الأنصار ـ فَرُمِي بنجم فاستنار، فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول يُولَد عظيم، أو يموت عظيم ـ قلت للزهري: أكان يُرمَى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غَلُظَت حين بعث النبي ﷺ ـ قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرمَى بها لموتِ أحدٍ ولا لحياته، ولكن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إذا قضى أمراً سَبَّحَ حَمَلةُ العرش، ثم سَبَّح أهل السماء الذين يَلُونهم، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش، فيقول الذين يَلُون حملَةَ العرش لحملةِ العرش: ماذا قال ربكم؟ فيُخبرونهم، ويُخبِرُ أهلُ كلِّ سماءٍ سماءً، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماءِ، وتخطِفُ الجن السمعَ فَيُرمون، فَما جاؤوا به على وجهِهِ فهو حق، ولكنهم يُفَرِّقون فيه ويزِيدُون»[٣]. هكذا رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث صالح بن كيسان، والأوزاعي، ويونس، ومعقل بن عُبيد الله، أربعتهم عن الزُّهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار به. وقال يونس: عن رجال من الأنصار. وكذا رواه النسائي في «التفسير» من حديث الزُّبيدي، عن الزهري، به. ورواه الترمذي فيه عن الحُسَين بن حريث، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، فالله أعلم.

[٥٥٧٤] حديثٌ آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، وأحمد بن منصور بن سَيّار الرَّمَادِيُّ ـ والسياق لمحمد بن عوف ـ قالا: حدثنا نُعيم بن حماد، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمن بن يزيدَ بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن حَيْوة، عن النواس بن سِمْعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يُوحي بأمره تكلَّم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفةٌ ـ أو قال: رِعدةٌ ـ

(١) الصفوان: هو الحجر الأملس.
(٢) تقدم في تفسير سورة الحجر عند آية: ١٦.
(٣) أخرجه مسلم ٢٢٢٩ والترمذي ٣٢٢٤ وأحمد ٢١٨/١ وابن حبان ٦١٢٩ والنسائي في «التفسير» ٢٩٢.

شديدة؛ من خوف الله، فإذ سَمِع بذلك أهل السموات صَعِقوا وخرُّوا لله سُجداً، فيكون أول من يرفَع رأسه جبريلُ، فيكلِّمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريلُ على الملائكة، كلما مَرَّ بسماءٍ سماءٍ يسأله ملائكتها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحقَّ، وهو العليُّ الكبير. فيقولون كلُّهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريلُ بالوحي حيث أمرَه الله من السماء والأرض»[(١)]. وكذا رواه ابن جريرٍ وابن خُزيمة، عن زكريا بن أبانَ المِصْريِّ، عن نُعَيم بن حَمَّاد، به. وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديثُ بالشام عن الوليد بن مسلم، رحمه الله. وقد رَوَى ابن أبي حاتم من حديث العَوفي، عن ابن عباس، وعن قتادة: أنهما فسَّرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ـ ﷺ ـ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى. ولا شكَّ أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مُقرِّراً تَفرُّدَه بالخَلْقِ والرِّزق، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يَعترِفُون بأنه لا يَرزُقهم من السماء والأرض ـ أي: بما يُنزِّل من المطر ويُنبت من الزَّرع ـ إلا الله، فكذلك فَلْيَعلمُوا أنه لا إله غيره. وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، هذا من باب اللَّفِّ والنَّشر، أي: واحدٌ من الفريقين مُبطِلٌ والآخر مُحقٌّ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهُدى أو على الضَّلال، بل واحدٌ منا مُصيبٌ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيدِ، فَدَلَّ على بطلان ما أنتم عليه من الشِّرك بالله. ولهذا قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. قال قتادةُ: قد قال ذلك أصحابُ محمدٍ ـ ﷺ ـ للمشركين: والله ما نحنُ وإيَّاكم على أمرٍ واحدٍ، إنَّ أحد الفريقَين لَمُهتَدٍ. وقال عكرمةُ وزيادُ بن أبي مريمَ: معناه: إنا نحنُ لعلى هدى، وإنَّكم لفي ضلالٍ مُبينٍ. وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾، معناه التبرِّي منهم، أي: لستم مِنَّا ولا نحنُ منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيدِه وإفراد العبادَة له، فإن أجبتُم فأنتم منا ونحنُ منكم، وإن كذَّبتم فنحن بُرَآء منكم وأنتم بُرآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، أي: يوم القيامة، يجمَع الخلائقَ في صعيدٍ واحدٍ، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يحكم بيننا بالعدل، فَيَجزي كُلَّ عاملٍ بعَمَلِه، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ. وستعلمون يومئذٍ لمن العزَّةُ والنُّصرة والسعادةُ الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٦]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ٥١٥ ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» ١/٢٣٦ والطبري ٢٨٨٤٩ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٤٣٥ وإسناده ضعيف، نعيم بن حماد روى مناكير، والوليد مدلس، وقد عنعن، ولأصله شاهد عن ابن مسعود. انظر «الصحيحة» ١٢٩٣.

أي: الحاكِمُ العادل العالمُ بحقائقِ الأمورِ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾، أي: أروني هذ الآلهة التي جَعَلْتُموها لله أنداداً وصَيَّرتموها له عِدْلاً؟! ﴿كَلَّا﴾، أي ليس له نَظِير ولا نَدِيدٌ، ولا شَرِيكٌ ولا عَدِيلٌ. ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾، أي: الواحدُ الأحدُ الذي لا شَرِيك له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذُو العزة التي قد قَهَر بها كلَّ شيء، وغَلَبَت كلَّ شيء، الحكيم في أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَره، تبارك وتعالى وتَقدَّس عما يقولون علواً كبيراً. والله أعلم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى لعبده ورسُوله محمد صلواتُ الله وسلامُه عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، أي: إلا إلى جَميعِ الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: تُبشِّرُ مَن أطاعك بالجنّة، وتُنذِرُ من عَصَاك بالنار. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال محمدُ بنُ كعبٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، يعني إلى الناس عامّةً. وقال قتادةُ في هذه الآية: أرسلَ الله محمداً ـ ﷺ ـ إلى العَرَبِ والعَجَمِ، فأكرمهُم على الله أطوعُهم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حَفص بن عُمَر العَدَنِيُّ، حدثنا الحكم ـ يعني ابنَ أبان ـ عن عكرمة قال: سَمِعت ابن عباس يقول: إن الله فَضَّلَ محمداً ـ ﷺ ـ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس، فيم فَضَّله الله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال للنبي ـ ﷺ ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فأرسله الله إلى الجنِّ والإِنسِ.

[٥٥٧٥] وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثَبَتَ في الصحيحين رَفْعُهُ عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أُعطيت خَمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مَسجِداً وطَهُوراً، فأيما رَجُلٍ من أمتي أدركته الصلاةُ فَليصلِّ. وأحلت لي الغنائم، ولم تَحلَّ لأحد قبلي. وأُعْطِيتُ الشفاعةَ. وكان النبيُّ يبعَثُ إلى قومه وبُعِثتُ إلى الناسِ عامّةً»(١).

[٥٥٧٦] وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بُعِثْتُ إلى الأسودِ والأحمرِ»(٢). قال مجاهد: يعني الجنَّ والإِنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم. والكلُّ صَحِيحٌ.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكُفّار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذه الآية كقولِهِ عزَّ وَجلَّ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]. . . الآية. ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، أي: لكم ميعادٌ مؤجَّلٌ معدودٌ محرَّرٌ، لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يُؤخَّر ساعةً ولا يُقدَّم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٤ ـ ١٠٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يخبر تعالى عن تَمادِي الكفار في طُغيانهم وعِنادِهم وإصرارهم على عَدم الإيمان بالقرآنِ وبما أخبر به من أمر المَعادِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، قال الله تعالى مُتهدِّداً لهم ومُتوعِّداً، ومُخبراً عن مواقِفِهم الذليلةِ بين يَدَيه في حال تخاصُمِهم وتحاجِّهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ منهم، وهم الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم قادتهم وسَادتُهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، أي: لولا أنتم تصدونا لَكُنّا اتبعنا الرسل وآمنّا بما جاؤونا به. فقال لهم القادةُ والسادةُ، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾، أي: نحن ما فعلنا بكم أكثَرَ من أنّا دعوناكم فاتَّبعتُمونا من غير دَليلٍ ولا بُرهانٍ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحُجَج التي جاءت بها الأنبياءُ، لشهوتكم واختيارِكم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتَغُرُّونا وتُمنُّونا، وتخبرونا أنّا على هُدَى وأنّا على شيء، فإذا جميعُ ذلك باطلٌ وكَذِبٌ ومَينٌ. قال قتادةُ، وابنُ زيدٍ: ﴿بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، يقول: بل مكرُكم بالليل والنهار. وكذا قال مالك، عن زيدِ بن أسلم: مكركم بالليل والنهار. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، أي: نُظراء وآلهةً معه، وتُقيموا لنا شُبهاً وأشياء من المُحال، تُضِلونا بها. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾، أي: الجميع من السادة والأتباع، كلٌّ نَدِم على ما سَلَف منه. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهي السلاسلُ التي تجمَع أيديَهم مع أعناقهم، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: إنما نُجازيكم بأعمالكم، كُلٌ بِحَسبِه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباعِ بِحَسَبِهم؛ ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

[٥٥٧٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَروةُ بن أبي المَغْراءِ، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سِنانٍ ضِرَار بنِ صُرَد، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقّاهم لهبها، ثم لَفَحتْهم لَفحةً فلم يبق لحم إلا سقط على العُرقُوبِ»(١). وحدثنا أبي، حدثنا أحمدُ بن أبي الحَوَارِيّ، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن

(١) ضعيف جداً، فيه ضرار بن صرَد، وهو متروك، متهم.

يحيى الخُشَني قال: ما في جَهنَّم دارٌ ولا مَغارٌ ولا غُلٌ، ولا قيدٌ، ولا سلسلةٌ، إلا اسمُ صاحبه عليها مكتوبٌ. قال: فحدثتُه أبا سليمان ـ يعني الداراني، رحمة الله عليه ـ فبكى ثم قال: ويحكَ! فكيف به لو جُمع هذا كلُّه عليه، فَجُعِل القيدُ في رجليه، والغُلّ في يَدَيه والسلسلةُ في عُنُقه، ثم أُدخِلَ النارَ، وأدخِلَ المَغارَ؟! اللهم سَلِّم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مُسَلِّياً لنبيه ﷺ، وآمراً له بالتأسّي بمن قبله من الرسل، ومُخبِرَه بأنه ما بَعَث نبياً في قرية إلا كذَّبه مُترفوها، واتبعه ضُعَفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وقال هاهنا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾، أي: نبيٍّ أو رسولٍ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، وهم أولو النعمة والحشمة والثَّروة والرِّياسة. قال قتادةُ: هم جَبابرتُهم وقادتُهم ورُؤوسهم في الشر. ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾، أي: لا نؤمن به ولا نَتَّبعه.

[٥٥٧٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رَزين قال: كان رجلان شَريكان خَرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بُعِث النبي ـ ﷺ ـ كَتَب إلى صاحبه يسأله: ما فَعَل؟ فكتَب إليه: إنَّه لم يَتَّبعه أحدٌ من قريش، إنما اتَّبعه أراذِلُ الناسِ ومَساكِينُهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحِبَه فقال: دُلَّني عليه ـ قال: وكان يقرأ الكُتُب، أو بعضَ الكتب ـ قال: فأتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: إلامَ تدعُو؟ قال: «إلى كذا وكذا». قال: أشهد أنَّك رسولُ الله. قال ﷺ: «وما علمُك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبيٌّ إلا اتبعه رُذَالَةُ الناس ومساكينُهم. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، قال: فأرسل إليه النبي ـ ﷺ ـ: «إن الله قد أنزلَ تصديقَ ما قلت»(١).

[٥٥٧٩] وهكذا قال هِرَقْلُ لأبي سُفيان حين سَأله عن تلك المسائل، قال فيها: «وسألتُكَ: أضعفاءُ

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف عند علماء الحديث.

الناسِ اتَّبعه أم أشرافُهم؟ فزعمتَ: بل ضُعَفاؤهم، وهم أتباعُ الرُّسُلِ»[١].

وقوله تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾، أي: افتخروا بكثرة الأموالِ والأولادِ، واعتقدوا أن ذلك دليلٌ على محبَّةِ الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يُعذِّبهم في الآخرة، وهيهاتَ لهم ذلك! قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٧]. وقد أخبر الله عزَّ وجلَّ عن صاحب تَينِك الجنتين: أنه كان ذا مالٍ وولَدٍ وثَمَرٍ، ثم لم تُغنِ عنه شيئاً، بل سُلِبَ ذلك كلُّه في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يعطي المال لمن يُحبُّ ومَن لا يحب، فيُفقِرُ من يشاء ويُغني مَن يشاء، وله الحكمةُ التَّامَّةُ البالغةُ، والحجَّةُ الدامغةُ القاطعةُ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: ليست هذه دليلاً على مَحبَّتنا لكم، ولا اعتنائِنا بكُم.

[٥٥٨٠] قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا كَثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيدُ بن الأصمِّ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا ينظُر إلى صُوَرِكم وأموالكم، ولكن إنما ينظُر إلى قُلُوبكم وأعمالكم»[٢]. رواه مسلمٌ وابن ماجه، من حديث كَثير بن هِشَام، عن جعفر بن بُرْقَان، به. ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: إنما يُقرِّبكم عندنا زُلفى الإيمانُ والعملُ الصالحُ، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾، أي: تُضاعَفُ لهم الحسنةُ بعشرة أمثالها، إلى سبعمئة ضعفٍ. ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾، أي: في منازلِ الجنة العالية آمنون من كلِّ بأسٍ وخوفٍ وأذى، ومن كلِّ شرٍّ يُحْذَر منه.

[٥٥٨١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَروَةُ بن أبي المغراء الكِنْدي، حدثنا القاسِمُ وعلي ابن مُسهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النُعمان بن سعد، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجنَّةِ لغُرفاً تُرى ظُهورُها من بُطونها، وبُطُونها من ظُهُورِها». فقال أعرابي: لِمَن هي؟ قال: لمن طَيَّبَ الكلامَ، وأطعم الطعام، وأدامَ الصِّيام، وصلَّى بالليل والناسُ نيام»[٣].

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾، أي: يَسْعَون في الصدِّ عن سبيلِ الله، واتباعِ رُسُلِهِ، والتصديق بآياتِهِ: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، أي: جَميعُهم مَجزيُّون بأعمالهم فيها بحَسَبِها. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾، أي: بحسب مَا له في ذلك من الحِكمَةِ، يبسطُ على هذا من المالِ كثيراً، ويُضيِّق على هذا ويُقتِّر عليه رِزقَه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يُدركُها غيرُه، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾ [الإسراء: ٢١]، أي: كما هم مُتَفاوِتُون في الدنيا، هذا فقيرٌ مُدقِع، وهذا غني مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغُرُفاتِ في

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧ من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان، وتقدم.

(٢) تقدم في تفسير سورة الحج عند آية: ٣٧.

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة: ٧٢ وإسناده ضعيف لكن لأصله شواهد، وتقدمت.

أعلى الدرجات، وهذا في الغَمَرَات في أسفل الدركات. وأطيبُ الناس في الدنيا كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

[٥٥٨٢] «قد أفلحَ من أسلَم ورُزِقَ كَفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه»[١]. رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أَمَرَكم به وأباحه لكم فهو يُخلِفه عليكم في الدُّنيا بالبدَل، وفي الآخرة بالجزاءِ والثَّوابِ، كما ثبت في الحديث:

[٥٥٨٣] «يقول الله تعالى: أَنفِقْ أُنفِقْ عليك»[٢].

[٥٥٨٤] وفي الحديث أن مَلَكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعطِ مُمسِكاً تَلَفاً»، ويقول الآخر: «اللهمَّ أعطِ مُنفِقاً خلفاً»[٣].

[٥٥٨٥] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنفِق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً»[٥].

[٥٥٨٦] وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، عن يزيد بن عبد العزيز الفلاس، حدثنا هُشَيم، عن الكوثر بن حكيم، عن مَكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا إنَّ بعدَكُم زمانٌ عَضوضٌ، يعض الموسرُ على ما في يده حِذَارَ الإنفاق». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٤].

[٥٥٨٧] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا رَوح بن حاتم، حدثنا هُشَيم، عن الكَوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حُذَيفة أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألاَ إنَّ بعد زمانكم هذا زمانٌ عَضوضٌ، يَعَضُّ المُوسِر على ما في يَدَيه حِذَارَ الإنفاق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وتَنْهَدُ شِرَارُ الخَلْقِ يبايعون كُلَّ مُضطَرٍّ، ألاَ إن بيع المُضطرِّين حَرامٌ، ألا إن بيع المُضطرِّين حرام، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلِمُه ولا يَخذُله، إن كان عندك معروفٌ فعُد به على أخيكَ، وإلاَّ فلا تَزِده هَلاكاً إلى هلاكه»[٥]. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف. وقال سُفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهدٌ: لا يتأوّلنَ أحدُكم هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾: إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فَلْيقصِد فيه، فإنَّ الرزقَ مقسومٌ.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يُخبر تعالى أنه يُقرِّع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكةَ الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صُوَر الملائكة ليقرِّبوهم إلى الله زُلفى، فيقولُ للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾، أي: أأنتم أمرتُم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾، وكما يقول لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ

---

(١) تقدم في تفسير سورة النحل عند آية: ٩٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة هود عند آية: ٧.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة: ٢١٢.

(٤) إسناده ضعيف، له علتان. فيه كوثر بن حكيم وهو متروك. راجع الميزان ٦٩٨٣. وله علة ثانية، وهي الانقطاع بين مكحول ومعاذ. وضعفه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/٤٤٨.

(٥) إسناده كسابقه. لم أجده في مسند أبي يعلى المطبوع، والظاهر أنه في الكبير، ولم أجده في «المجمع» أيضاً.

سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تعاليتَ وتقدَّستَ عن أن يكون مَعَكَ إله. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، أي: نحن عبيدُك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، يعنون الشياطينَ لأنهم هم الذين زيّنوا لهم عبادة الأوثان وأضلُّوهم، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧]، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا يقع لكم نفعٌ ممن كنتم ترجُون نفعَه اليومَ من الأندادِ والأوثانِ، التي ادخرْتُم عبادتها لشدائدكم وكُربكم، اليومَ لا يملِكُونَ لكم نفعاً ولا ضرًّا، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ـ وهم المشركون ـ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: يُقال لهم ذلك، تَقريعاً وتوبيخاً.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبةَ والأليمَ من العذاب، لأنهم كانوا إذا تُتلى عليهم آياته بيناتٍ يَسمعُونها غضَّةً طريَّةً من لسان رسوله ـ ﷺ ـ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، يَعنُون أنَّ دين آبائهم هو الحقُّ، وأنَّ ما جاءهم به الرسولُ عندهم باطلٌ ـ عليهم وعلى آبائهم لعائنُ الله ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾، يعنُون القرآن، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾، أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبلَ القرآن، وما أرسل إليهم نَبياً قبلَ محمد ﷺ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذيرٌ أو أُنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كَذَّبوه وجَحدُوه وعاندُوه، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأُمَم، ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي من القُوَّة في الدنيا. وكذا قال قتادة، والسدّي، وابن زيد. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢]، أي: وما دفع ذلك عنهم عذابَ الله ولا ردَّه، بل دمَّر الله عليهم لما كذَّبوا رُسُله، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان نَكالي وعِقابي وانتصاري لرُسُلِي؟!

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنونٌ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾، أي: إنما آمركم بواحدةٍ، وهي: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، أي: تقوموا قياماً خالصاً لله، من غير هَوًى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنونٍ؟ فينصَحُ بعضكم بعضاً، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾، أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ـ ﷺ ـ ويسأل غيرَه من الناس عن شأنه إن أشكَلَ عليه، ويتفكَّر في ذلك، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. هذا

معنى ما ذكره مجاهدٌ، ومحمدُ بن كعب، والسُدِّي، وقتادةُ، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية. فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم:

[٥٥٨٨] حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا صَدَقة بن خالد، حدثنا عُثمان بن أبي العاتِكةِ، عن علي بن يَزِيد، عن القاسِم، عن أبي أُمامَة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «أُعطِيتُ ثلاثاً لم يُعطَهُنَّ أحَدٌ قبلي ولا فَخْرَ: أُحِلَّت لي الغنائم، ولم تَحلُّ لمن قبلي، كانوا قبلي يجمعون غنائمهم فَيحرِقُونها. وبُعثت إلى كلِّ أحمَرَ وأسودَ، وكان كلُّ نبي يُبعث إلى قومِهِ. وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أتيمم بالصعيد، وأصلي فيها حيث أدركتني الصلاة، قال الله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، وأُعِنتُ بالرُعبِ مسيرةَ شهرٍ بين يَدَيَّ»[١]. فهو حديثٌ ضعيفُ الإسنادِ، وتفسيرُ الآية بالقيام في الصلاة في جَمَاعَةٍ وفُرَادى بعيدٌ، ولعله مُقْحَمٌ في الحديث من بعضِ الرواة، فإن أصله ثابتٌ في الصحاح وغيرها، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

[٥٥٨٩] قال البخاري عندها: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن خازِم، حَدَّثنا الأعمش، عن عَمرو بن مُرَّةَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: صَعِدَ النبي ـ ﷺ ـ الصفا ذات يوم، فقال: يا صَبَاحاه. فاجتمعت إليه قُرَيش، فقالوا: ما لك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتُكم أن العدُوَّ يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكم، أما كنتُم تُصَدِّقوني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذاب شديدٍ. فقال أبو لَهَبٍ: تَبّاً لك! ألهذا جَمَعْتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[٢]. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

[٥٥٩٠] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا بَشِير بن المهاجر، حَدَّثني عبد الله بن بُرَيدَة، عن أبيه قال: خَرَجَ إلينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً فنادَى ثلاثَ مراتٍ فقال: «أيها الناس، تدرُون ما مَثَلي ومَثَلكم؟» قالوا: الله ورسولُه أعلمُ. قال ﷺ: «إنما مَثَلي ومَثَلُكم مثلُ قوم خافُوا عَدُوّاً يأتيهم، فبعثُوا رَجُلاً يَتَراءى لهم، فبينا هو كذلك أبصَرَ العدُوَّ، فأقبل لِيُنذِرَهُم وخَشِيَ أن يُدرِكه العدوُّ قبل أن يُنذِرَ قومَه، فأهوى بثوبه: أيُّها الناس، أُوتِيتم. أيُّها الناسُ، أُوتِيتُم. ثلاثَ مَرَّاتٍ»[٣].

[٥٥٩١] وبهذا الإسناد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لَتَسبِقُني»[٤]. تَفَرَّد به الإمامُ أحمدُ في مسنده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) إسناده ضعيف جداً، فهو مسلسل بالضعفاء، عثمان عن علي عن القاسم. وعلي بن يزيد، أشدهم ضعفاً. وأصل الحديث في الصحيحين، دون ذكر الآية وتفسيرها.

(٢) تقدم في تفسير سورة الشعراء: ٢١٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣٤٨/٥ وإسناده غير قوي، بشير بن مهاجر، وإن روىٰ له مسلم فقد قال أبو حاتم، لا يحتج به، وقال أحمد: منكر الحديث، وقال ابن عدي: فيه ضعف، ولأصل حديثه ما يعضده.

(٤) أخرجه أحمد ٣٤٨/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣١١/١٠: ورجاله رجال الصحيح. قلت: فيه ابن مهاجر كما تقدم، وعجزه منكر لا يتابع عليه.

يقولُ تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقولَ للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، أي: لا أُريد منكم جُعْلاً ولا عَطاءً على أداء رسالةِ الله عزّ وجلّ إليكم، ونُصحِي إيّاكم، وأمرِكُم بعبادةِ الله. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، أي: إنما أطلبُ ثوابَ ذلك عند الله، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارِي عنه بإرساله إيّاي إليكم، وما أنتم عليه. وقولُه عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾، كقولِهِ تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]، أي: يُرسِلُ المَلَكَ إلى مَن يشاءُ من عبادِهِ من أهلِ الأرض، وهو عَلّامُ الغيوبِ، فلا تخفَى عليه خافيةٌ في السمواتِ ولا في الأرض.

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾، أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذَهَبَ الباطلُ وزَهق واضمحَلّ، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

[٥٥٩٢] ولهذا لما دَخَل رسول الله ـ ﷺ ـ المسجد الحرام يوم الفتح، وَوَجد تلك الأصنام منصوبةً حول الكعبة، جعل يَطعن الصنم بِسِيَةِ قَوْسِهِ، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾(١). رواه البخاري ومسلم والترمذيُّ، والنسائي وحده عند هذه الآية، كُلُّهم من حديث الثَّوري، عن ابن أبي نَجِيح، عن مُجاهِدٍ، عن أبي مَعْمَرٍ عبد الله ابن سَخْبَرَةَ، عن ابن مَسْعُودٍ به. أي: لم يبق للباطِلِ مقالة ولا رِياسة ولا كَلِمةٌ. وزَعم قتادةُ والسُّدِّي: أن المرادَ بالباطل هاهنا إبليسُ، أي: إنه لا يخلُق أحداً ولا يُعيده، ولا يَقدر على ذلك. وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المرادُ هاهنا، والله أعلم.

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾، أي: الخير كلّه من عند الله، وفيما أنزله الله ـ عزّ وجلّ ـ من الوحي والحقّ المُبَيِّنِ فيه الهُدَى والبيان والرشاد، ومن ضَلّ فإنما يَضِل من تلقاء نفسه.

[٥٥٩٣] كما قال عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ لما سُئِل عن تلك المسألةِ في المُفوَّضَة: أقولُ فيها برَأيي، فإن يَكُن صواباً فَمِنَ الله، وإن يَكُن خطأً فَمِنّي ومِنَ الشيطانِ، والله ورسولُه بريئَانِ منه(٢).

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾، أي: سَمِيع لأقوالِ عبادِه، قَريبٌ يجيبُ دعوةَ الدّاعي إذا دعاه.

[٥٥٩٤] وقد رَوَى النسائي هاهنا حَديث أبي موسى الذي في الصَّحِيحَين: «إنكم لا تَدعُون أصمّ ولا غائباً، إنما تدعُون سَميعاً قَريباً»(٣).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ـ يا مُحمدُ ـ إذ فَزِع هؤلاء المكذِّبون يومَ القيامة، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾، أي: فلا مفرَّ لهم، ولا وَزَر ولا ملجأ. ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أي: لم يُمكَنوا أن يُمعنُوا في الهَرَب، بل أُخِذُوا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٧٨ ومسلم ١٧٨١ والترمذي ٣١٣٨ والنسائي في «التفسير» ٣١٧ و٤٤٨.

(٢) هو حديث يعرف بحديث «بروع بنت واشق». وتقدم مراراً. وله قصة.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ٥٥.

من أوَّلِ وهْلَةٍ. قال الحسن البصريُّ: «حين خَرَجُوا من قبورهم». وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقتادة: «من تحتِ أقدامِهم». وعن ابن عباس والضحاك: «يعني عَذَابَهم في الدنيا». وقال عبدُ الرحمن بنُ زَيدٍ: «يعني قتلهم يومَ بدرٍ». والصحيحُ أن المراد بذلك يومُ القيامة، وهو الطامّة العُظمى، وإن كان ما ذُكِرَ مُتَّصِلاً بذلك. وحَكَى ابنُ جَرِير عن بعضهم قال: إنَّ المراد بذلك جَيشٌ يُخْسَفُ بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس. ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكُلّية[1]. ثُم لم يُنبِّه على ذلك، وهذا أمر عجيبٌ غريبٌ منه.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: يومَ القيامة يقولون: آمنا بالله وبملائكتهِ وكُتُبِهِ ورسله. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بَعِدُوا عن مَحَلّ قبوله منهم وصاروُا إلى الدار الآخرة، وهي دارُ الجزاءِ لا دارُ الابتلاءِ، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافِعَهُم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرةِ لا سبيلَ لهم إلى قَبُولِ الإيمان، كما لا سبيلَ إلى حُصُول الشيءِ لمن يتناوُله من بَعِيد. قال مجاهد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾، قال: التناولُ لذلك. وقال الزُهريّ: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهُم الدنيا. وقال الحسن البصريُّ: أمَا إنَّهم طَلَبُوا الأمرَ من حَيثُ لا يُنَالُ، تعاطَوا الإيمانَ من مكانٍ بعيدٍ. وقال ابن عباس: طَلَبُوا الرجعةَ إلى الدُّنيا والتوبةَ مما هم فيه، وليس بحين رَجْعَةٍ ولا تَوْبَةٍ. وكذا قال محمدُ بن كعبِ القُرَظِي رَحِمه الله.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾، أي: كيف يحصلُ لهم الإيمانُ في الآخرةِ، وقد كَفَرُوا بالحقِّ في الدنيا، وكَذَّبوا الرسل؟! ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، قال: بالظن. قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارةً يقولُون: شاعرٌ. وتارة يقولُون: كاهنٌ. وتارةً يقولُون: ساحرٌ. وتارة يقولون: مجنونٌ. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويُكَذِّبون بالغيب والنشُور والمَعَادِ، ويقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. قال قتادة ومجاهد: يرجُمون بالظن، لا بعث ولا جَنّة ولا نار. وقولُه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، قال الحسنُ البَصري، والضحّاك، وغيرهما: يعني الإيمانَ. وقال السُّدي: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، وهي: التوبةُ. وهذا اختيارُ ابنِ جَريرٍ رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزَهْرَةٍ وأهلٍ. ورُوِيَ نحوه عن ابن عباس وابن عُمر، والربيع بن أنس. وهو قول البخاري وجماعةٍ. والصحيحُ أنه لا مُنافاةَ بين القولين، فإنه قد حِيلَ بينهم وبين شَهَواتهم في الدنيا وبين ما طَلَبُوه في الآخرةِ، فَمُنِعُوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا أثراً غريباً عجيباً جداً، فَلْنذكره بطولِه، فإنه قال: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حَجَرٍ السّامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشرقيِّ بن قُطَامي، عن سعد ابن طريف، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ . . . إلى آخر الآية، قال: كان رجلٌ من بني إسرائيل فاتِحاً ـ أي: فتح الله تعالى له مالاً ـ فمات فَوَرِثَه ابنٌ له تافِهٌ ـ أي: فاسد ـ فكان يعملُ في مالِ الله بمعاصِي الله. فلما رأى ذلِك إخوانُ أبيه أَتَوُا الفتى فَعَذَلوه ولاموه، فَضَجِر الفتى فباع عَقاره بصامت، ثم رَحَل فأتى عيناً ثَجّاجَةً فَسَرّح فيها ماله، وابتنى قصراً. فبينما هو ذات يوم جالس إذ شَمَلت عليه ريحٌ بامرأةٍ من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً ـ أي: ريحاً ـ فقالت: من أنت يا عبدَ الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل. قالت: فلك هذا القصرُ، وهذا المالُ؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجةٍ؟ قال: لا.

(١) هو عند الطبري ٢٨٨٩١ و٢٨٨٩٢ وإسناده ساقط لا شيء.

قالت: فكيف يَهْنِيك العيش ولا زوجةَ لك؟ قال: قد كان ذلك، فهل لكِ من بَعلِ؟ قالت: لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوَّجَكِ؟ قالت: إني امرأةٌ منك على مسيرة ميلٍ، فإذا كان غدٌ فتَزَوَّد زادَ يوم وائتني، وإن رأيتَ في طريقكَ هولاً فلا يَهُولنَّكَ. فلما كان من الغد تَزَوَّد زادَ يوم وانطلق، فانتهى إلى قصر، فَقرع رِتَاجه[1]، فخرج إليه شابٌ من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً ـ أيْ: ريحاً ـ فقال: من أنت يا عبدَ الله؟ فقال: أنا الإسرائيليُّ. قال: فما حاجَتُك؟ قال: دعتني صاحبةُ هذا القصرِ إلى نَفْسِها. قال: صدقتَ، فهل رأيتَ في طريقكَ هَوْلاً؟ قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأسَ عليَّ لهالني الذي رأيت. قال: ما رأيت؟ قال: أقبلت حتى إذا انفرجَ بي السَّبيلُ إذا أنا بكَلْبَةٍ فاتحةٍ فاها، فَفَزِعتُ، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها، وإذا جِرَاؤُها يَنْبَحنَ في بطنها. فقال له الشاب: لستَ تُدرِكُ هذا، هذا يكونُ في آخرِ الزَّمانِ، يقاعِدُ الغلامُ المشيخةَ في مَجلِسهم ويَبْتَزُّهم حَدِيثهم. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بِيَ السَّبِيلُ إذا أنا بمئةِ عَنْزٍ حُفَّل[2]، وإذا فيها جَدْيٌ يَمُصُّها، فإذا أتى عليها وَظنَّ أنه لم يترك شيئاً فَتَحَ فاه يلتمس الزيادة. فقال: لست تُدرِك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، مَلِك يجمَعُ صَامِتَ الناس كلِّهم، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السبيلُ إذا أنا بشجر، فأعجبني غُصنٌ من شَجَرةٍ منها ناضرٌ، فأردتُ قطعَه، فنادتني شَجَرةٌ أخرى: «يا عبد الله، مِنِّي فَخُذ». حتى ناداني الشجَرُ أجمَعُ: «يا عبد الله، مِنَّا فَخُذ». قال: لستَ تدرك هَذا، هذا يكون في آخر الزمان، يَقِلُّ الرِّجَالُ ويكثرُ النِّسَاءُ، حتى إن الرجل يخطُب امرأةً فتدعُوه العشرُ والعشرُونَ إلى أنفسهِنَّ. قال: ثم أقبلتُ حتَّى إذا انفرجَ بيَ السبيلُ إذا أنا برجُلٍ قائم على عَينٍ، يَغرِفُ لكلِّ إنسان مِنَ الماءِ، فإذا تَصَدَّعُوا عنه صَبَّ في جَرَّته فلم تَعْلَق جَرَّتُه من الماء بشيءٍ. قال: لستَ تُدرِك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاصُّ يُعلِّم الناسَ العلمَ ثم يُخالِفُهم إلى معاصي الله تعالى. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرَجَ بي السبيلُ إذا أنا بِعَنْزٍ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجلٌ قد أخذ بقرنيها، وإذا رَجُلٌ قد أخذ بِذَنَبها، وإذا رجلٌ قد رَكِبها، وإذا رجل يَحلِبها. فقال: أما العنزُ فهي الدنيا، والذين أخذُوا بقوائمها يتساقطون من عَيشِها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يُعالِج من عيشها ضِيقاً، وأما الذي أخذ بِذَنبها فقد أدبرَت عنه، وأما الذي قد ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فَبَخٍ بَخٍ، ذهب ذاك بها. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ، إذا أنا برجل يَمْتَح على قَلِيبٍ، كلما أخرج دَلْوَه صبَّه في الحوض، فانساب الماء راجعاً إلى القَلِيب. قال: هذا رجل رَدَّ الله صالِحَ عَمَلِه، فلم يقبله. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرج بي السَّبِيل، إذا أنا برجل يَبْذُر بَذْراً فَيَسْتَحصِدُ، فإذا حِنطَةٌ طَيِّبَةٌ. قال: هذا رجلٌ قَبِل الله صالح عمَلِه، وأزكاه له. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السَّبِيل، إذا أنا برجل مُستَلقٍ على قفاه، قال: يا عبدَ الله، ادنُ مني فَخُذ بِيَدِي وأَقعِدْني، فوالله ما قعدتُ منذ خلقني الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. فأخذت بيدِه، فقام يسعَى حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عُمْر الأبعد نَفِدَ، وأنا ملك الموت، وأنا المرأة التي أتتك. أمرني الله تعالى بِقبض رُوح الأبعد في هذا المَكانِ، ثم أُصَيِّره إلى نارِ جَهنَّم. قال: ففيه نزلت هذه الآية: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[3] . . . الآية. وهذا أثرٌ غَرِيبٌ، وفي

---

(١) الرتاج: الباب العظيم.

(٢) التحفيل: تصرية الشاة.

(٣) هذا الأثر لا يصح، عن ابن عباس، بل هو مكذوب مزور عليه. وفي إسناده سعد بن طريف، وهو الإسكاف. قال ابن معين: لا يحل لأحد أن يروي عنه، وقال ابن حبان: يضع الحديث على الفور. قاله في الميزان ٣١١٨. وفيه أيضاً شرقي بن قطامي، ذكره في الميزان ٣٦٨٦ وقال: له نحو عشرة أحاديث، فيها مناكير، ضعفه الساجي.

صِحَّتِه نَظَرٌ، وتنزيلُ الآية عليه وفي حَقِّه بمعنى أن الكفار كُلّهم يُتوفّون وأرواحهم مُتَعلِّقة بالحياة الدنيا، كما جرى لهذا المغرور المفتون، ذَهَب يطلُب مُرَاده فجاءه الموت فَجْأةً بغتةً، وحِيلَ بينه وبين ما يشتهي.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرُّسل، لما جاءهم بأسُ الله تَمنّوا أن لو آمنوا فلم يُقبَل منهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥]. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ أي: كانوا في الدُّنيا في شَكٍّ وريبَةٍ، فلهذا لم يُتقبَّل منهم الإيمانُ عند معايَنَةِ العَذَابِ. قال قتادة: إيَّاكُم والشَّك والريبةَ؛ فإنَّ مَن مات على شَكٍّ بُعِثَ عليه، ومَن مَات على يَقِين بُعِثَ عليه.

## آخر تفسير سورة سبأ، ولله الحمد والمنة، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

# سورة فاطر

ترتيبها ٣٥ — آياتها ٨٣

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

قال سفيانُ الثَّوري، عن إبراهيم بن مُهَاجِر، عن مجاهد، عن ابن عَبَّاس قال: كنتُ لا أدري ما فاطرُ السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتُها، أنا بدأتُها. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: بديع السموات والأرض. وقال الضحاك: كلُّ شيءٍ في القرآن ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو خَالِقُ السمواتِ والأرضِ. وقولهُ تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: بينَه وبينَ أنبيائِه، ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾، أي: يطيرُون بها لِيُبَلِّغوا ما أُمِرُوا به سَريعاً ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، أي: منهم من له جَناحان، ومنهم من له ثلاثةٌ، ومنهم من له أربعةٌ، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث:

[٥٥٩٥] «أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى جبريل ليلةَ الإسراءِ وله سِتُّمئة جَناح، بين كل جَناحين كما بين المشرق والمغرب»[1]. ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال السُّدِّي: يزيد في الأجنحة وخَلْقِهم ما يشاءُ. وقال الزهري وابن جُرَيج في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، يعني: حسن الصوت. رواه عن الزُّهريِّ البُخاريُّ في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقُرِئ في الشاذ: «يزيد في الحَلْقِ»، بالحاء المهملة، والله أعلم.

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ②﴾

يُخبر تعالى أنه ما شاء كانَ، وما لم يَشأْ لم يكن، وأنه لا مانِعَ لما أعطى، ولا مُعطِي لما مَنَع.

[٥٥٩٦] قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مُغِيرةُ، أخبرنا عامر، عن وَرَّاد ـ كاتب المُغِيرة بن شعبة ـ قال: كَتَب معاوية إلى المُغيرة بن شُعبةَ: اكتب إليَّ بما سَمِعتَ من رسول الله ﷺ؛ فدعاني المغيرة فكتبتُ إليه: إني سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ إذا انصرفَ من الصلاة قال: «لا إله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانِعَ لما أَعْطَيتَ ولا مُعطِيَ لما مَنَعتَ، ولا ينفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدّ». وسمعتُه ينهى عن قِيلَ وقالَ، وكثرةِ السُّؤال وإضاعَةِ المالِ، وعن وَأْدِ البنات،

---

(١) تقدم في تفسير سورة الإسراء.

وعُقُوقِ الأُمَّهاتِ، ومَنْعَ وهَاتِ[١]. وأخرجاه من طرقٍ عن وَرَّاد به.

[٥٥٩٧] وثبَت في صحيح مُسلم عن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا رَفَع رأسه من الركوع يقول: «سَمِع الله لمن حمده، اللهمَّ ربَّنا لك الحمدُ، مِلءُ السماوات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ـ اللهمَّ لا مانِع لما أعطيتَ، ولا مُعطِي لما منعتَ، ولا ينفعُ ذَا الجَدِّ منك الجَدُّ»[٢]. وهذه الآيةُ كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، ولها نَظَائرُ كثيرةٌ. وقال الإمامُ مالكٌ: كان أبو هُرَيرَة إذا مُطِرُوا يقول: مُطِرْنا بنوءِ الفتح، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب، عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾

يُنَبِّه تعالى عبادَه ويُرشِدُهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادةِ له، كما أنه المستَقِلُّ بالخلق والرِّزقِ فكذلك فَلْيُفرَد بالعبادَةِ، ولا يُشرَكْ به غيرُه من الأصنام والأنداد والأوثان. ولهذا قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أي: فكيف تُؤفكون بعد هذا البيان، ووُضوحِ هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدُون الأندادَ والأوثان؟! والله أعلم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمدُ، هؤلاء المشركون بالله ويُخالِفُوك فيما جئتَهم به من التوحيد، فلك فيمن سَلَف قبلك من الرسل أسوةٌ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومَهم بالبينات وأَمَرُوهم بالتوحيد فكذَّبوهم وخالفوهم، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي: وَسَنَجزيهم على ذلك أوفرَ الجزاءِ. ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: المعادُ كائنٌ لا محالَةَ، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: العِيشة الدَّنيئَةُ بالنسبة إلى ما أعدَّ الله لأوليائه وأتباع رُسُله من الخير العظيم، فلا تَتَلَهَّوا عن ذلك الباقي بهذه الزَّهرَةِ الفانية، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، وهو الشيطان، قاله ابنُ عباس. أي: لا يَفتِنَنَّكُم الشيطانُ ويَصرِفَنَّكم عن اتباع رسلِ الله وتصديقِ كَلِماته، فإنه غرَّار كَذَّابٌ أفاكٌ. وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣﴾. وقال مالك عن زيد بن أسلم: هو الشيطان، كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يُضرَبُ ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤].

ثم بَيَّن تعالى عداوة إبليسَ لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي: هو مُبارِزٌ لكم

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٧٣ ومسلم ٥٩٣ وأحمد ٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥ من طرق عن ورَّاد به.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٤٧٧ والنسائي ٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩ وأبو داود ٨٤٧ أحمد ٣/ ٨٧ وابن حبان ١٩٠٥.

بالعداوة، فعادوه أنتم أشدَّ العداوة، وخالِفوه وكذِّبوه فيما يغرِّكم به، ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: إنما يقصد أن يُضِلَّكم حتى تدخُلوا معه إلى عذابِ السعير، فهذا هو العدوُّ المبين. فنسأل الله القويَّ العزيزَ أن يجعلَنا أعداءَ الشيطان، وأن يرزُقَنا اتباعَ كتابه، والاقتفاءَ بطريقِ رَسُولِهِ، إنه على ما يشاءُ قديرٌ، وبالإجابةِ جديرٌ. وهذه كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أن أتباعَ إبليسَ مَصِيرُهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، لأنهم أطاعوا الشيطانَ وعَصَوُا الرحمن، ﴿وَ﴾ أن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللّهِ ورُسُلِهِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذَنْبٍ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عمِلُوه من خَيرٍ. ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، يعني كالكفار والفُجّار، يعمَلُون أعمالاً سيِّئَةً، وهم في ذلك يَعتقِدُون ويَحسَبُون أنهم يُحسِنُون صنعاً، أي: أفَمَن كان هكذا قد أضلَّه الله، ألَكَ فيه حيلةٌ؟ لا حيلَةَ لك فيه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: بقَدَرِه كان ذلك، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، أي: لا تأسَفْ على ذلك، فإن الله حكيمٌ في قَدَره، إنما يُضِلُّ من يُضِلُّ، ويهدِي من يهدِي، لما له في ذلك من الحُجَّةِ البالغة، والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

[٥٥٩٨] وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي عَمرو السَّيباني ـ أو: ربيعة ـ عن عبد الله بن الدَّيلمي قال: أتيتُ عبد الله بن عَمرو، وهو في حائط بالطائف يقال له: الوَهْطُ، قال: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله خلق خَلقَه في ظُلمَةٍ، ثم ألقى عليهم من نُورِه، فمن أصابه من نوره يومئذٍ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضلَّ، فلذلك أقولُ: جَفَّ القلم على ما علم الله ـ عزَّ وجلَّ»[(١)].

[٥٥٩٩] ثم قال: حدثنا يحيى بن عَبْدَكَ القَزوِيني، حدثنا حَسَّان بن حَسَّان البصري، حَدَّثنا إبراهيم ابن بشير، حدثنا يحيى بن مَعِين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعد بنُ شرحبيل، عن زَيدِ بن أبي أوفى قال: خرجَ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «الحمدُ لله الذي يَهدِي من الضلالة، ويُلبِسُ الضَّلالَة على من أحب»[(٢)]. وهذا أيضاً حديثٌ غريبٌ جداً.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ

(١) حديث حسن، وتقدم تخريجه، له شواهد كثيرة.

(٢) إسناده ضعيف جداً، شبه لا شيء. ابراهيم بن بشير، عن يحيى بن معن، عن إبراهيم العرشي، عن سعد بن شرحبيل، أربعتهم مجاهيل لا يعرفون، نص على ذلك الذهبي تبعاً لأبي حاتم، راجع تراجمهم في الجرح والتعديل، والميزان.

أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيراً ما يستدلُّ تعالى على المعادِ بإحيائه الأرضَ بعد موتها ـ كما في أول سورة الحج ـ يُنَبِّه عبادَه أن يعتَبِروا بهذا على ذلك، فإن الأرضَ تكونُ مَيْتةً هامِدةً لا نباتَ فيها، فإذا أرسِلَ إليها السَّحابَ تحمِلُ الماءَ وأنزله عليها، ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثَها ونُشُورَها أنزل من تحت العرش مَطَراً يعُمُّ الأرضَ جميعاً، فَتَنبُت الأجسادُ في قُبورها كما ينبُتُ الحبُّ في الأرض ولهذا جاء في الصحيح:

[٥٦٠٠] «كلُّ ابن آدم يبلَى إلا عَجبُ الذَّنبِ، منه خُلِقَ ومنه يُرَكَّب»(١). ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

[٥٦٠١] وتَقدَّم في «الحج» حديث أبي رَزين «قلتُ: يا رسول الله، كيف يُحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: يا أبا رَزين، أما مَرَرتَ بوادي قَومِك مُمحِلاً ثم مَرَرتَ به يَهتَزُّ خَضِراً؟ قلت: بلى. قال: «فكذلك يُحيي الله الموتى»(٢).

وقولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، أي: من كان يُحبُّ أن يكونَ عَزيزاً في الدنيا والآخرة فَلْيلزَم طاعةَ الله فإنه يحصلُ له مقصودُه، لأن الله مالكُ الدنيا والآخرةِ، وله العزةُ جميعُها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس: ٦٥]، وقال جلَّ جلاله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. قال مجاهد: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. وقال قتادة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، أي: فليتعزَّز بِطَاعةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقيل: مِن كان يُريد عِلْم العزَّةِ، لمن هي؟ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، حكاه ابن جرير.

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، يعني: الذكرَ والتلاوةَ والدعاءَ. قاله غير واحد من السلف. وقال ابنُ جَريرٍ: حدثني محمد بن إسماعيل الأَحمَسِيُّ، أخبرني جعفرُ بنُ عَونٍ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعوديّ، عن عبد الله بن المُخارِق، عن أبيه المُخارِق بن سُلَيم قال: قال لنا عبد الله ـ هو ابن مَسعُودٍ ـ إذا حَدَّثناكم حديثاً أتيناكُم بتصديقِ ذلك من كتاب الله تعالى: إن العبد المسلم إذا قال: «سبحانَ الله وبحمده، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله»، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صَعِد بهنَّ إلى السماءِ فلا يمُرُّ بهن على جَمْع من الملائكةِ إلا استغفَرُوا لقائلهنَّ، حتى يجيءَ بهنَّ وجهَ الرحمنِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا سعيد الجُرَيْري، عن عبد الله بن شَقِيق قال: قال كعبُ الأحبار: إنَّ لـ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ» لَدَوِياً حولَ العرشِ كَدَويِّ النحل، يُذَكِّرنَ بصاحِبِهِنَّ والعمل الصالح في الخزائن. وهذا إسنادٌ صَحِيحٌ إلى كَعْبِ الأحبار ـ رَحِمَه الله ـ وقد رُوِيَ مرفوعاً:

[٥٦٠٢] قال الأمام أحمدُ: حدثنا ابن نُمَير، حدثنا موسى ـ يعني ابن أبي مُسلم الطَّحان ـ عن عونِ ابن

---

(١) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ١٤.

(٢) تقدم في تفسير سورة الحج.

عبد الله، عن أبيه ـ أو: عن أخيه ـ عن النُّعمانِ بن بَشِير قال: قال رسُولُ الله ـ ﷺ ـ: «الذين يذكرون من جلال الله، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يَتَعاطَفْنَ حولَ العرشِ، لهن دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل، يُذَكِّرْنَ بصاحبهنَّ، ألاَ يُحبُّ أحدُكم أن لا يزالُ له عند الله شَيءٌ يُذكَرُ به؟»(١). وهكذا رواه ابنُ ماجة عن أبي بشر بكر بن خَلَف، عن يحيى بن سعيد القَطَّان، عن موسى بن أبي مسلم الطحان، عن عَونِ بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعودٍ، عن أبيه ـ أو: عن أخيه ـ عن النُّعمَانِ بن بَشِير، به.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكَلِمُ الطيِّبُ ذِكرُ الله، والعملُ الصالح أداءُ فرائضه، فمن ذكر الله في أداء فرائضه حَمَلَ عَمَلُه ذكر الله يصعَدُ به إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. ومن ذكر الله ولم يُؤدِّ فرائضه رُدَّ كلامه على عمله، وكان أولى به. وكذا قال مجاهد: العملُ الصالحُ يرفَعُ الكلامَ الطيِّب. وكذا قال أبو العاليةِ، وعكرمَةُ، وإبراهيم النخَعيّ، والضحاك، والسدّي، والربيعُ بن أنسٍ، وشَهرُ بن حَوْشَبٍ، وغيرُ واحدٍ. وقال إياس بن مُعاوِيَةَ القاضي: لولا العملُ الصالحُ لم يُرفَع الكلامُ. وقال الحسَن، وقتادة: لا يُقبَلُ قولٌ إلا بعَمَلٍ. وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، قال مجاهد، وسَعيد بن جُبَير، وشهر بن حَوْشَب: هُم المراؤون بأعمالهم، يعني يَمكُرون بالناس، يُوهِمُون أنهم في طاعةِ الله، وهم بُغَضَاءُ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، يُراؤون بأعمالهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المُشركُونَ. والصحيحُ أنها عامَّةٌ، والمشركون داخِلُون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: يَفسُد ويَبطُل ويظهَرُ زيفُهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهَى، فإنه ما أسرَّ عبدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صفحاتِ وَجْهه وفَلَتاتِ لِسَانِه، وما أسرَّ أحدٌ سَرِيرَةً إلا كساه الله رِداءَها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. فالمرائي لا يَرُوجُ أمرُه ويستمر إلا على غَبِيٍّ، أما المؤمنون المتفرِّسُون فلا يَرُوجُ ذلك عليهم، بل ينكشِفُ لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تَخفَى عليه خافية. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: ابتدأ خَلْقَ أبيكم آدمَ من تُرابٍ، ثم جَعَل نَسْلَه من سلالة من ماءٍ مَهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: ذكراً وأُنثى، لُطفاً منه ورحمةً أن جَعَلَ لكم أزواجاً من جِنسِكم لِتَسكُنوا إليها. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، أي: هو عالمٌ بذلك، لا يخفَى عليه من ذلك شيءٌ، بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٨ ـ ٩].

وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، أي: ما يُعطَى بعضُ النُّطَفِ من العمر الطويل يَعْلَمه، وهو عنده في الكتاب الأولِ، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العَين، لأن العينَ الطويلَ العُمُرِ في الكتاب وفي علم الله لا يُنْقَصُ من عُمرِه، وإنما عاد الضمير على الجنس؛ قال ابن جَرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه»، أي: ونصف ثوبٍ آخر، ورَوَى من طريق العَوْفيّ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: ليس أحدٌ قَضَيتُ له طُولَ العُمُرِ والحياة إلا وهو بالغ ما قَدَّرت له من العُمُر، وقد قَضَيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قَدَّرتُ لا يُزَاد عليه، وليس أحدٌ قَضَيتُ له أنه قَصِير العُمُر والحياة ببالغِ العُمُر، ولكن ينتهي

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٩ وأحمد ١٧٨٩٨، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وأخو عون اسمه عبيد الله بن عتبة اهـ.

إلى الكتاب الذي كُتِبَ له، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقولُ: كلُّ ذلك في كتابٍ عنده. وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحِم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، قال: ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تَمَام. وقال عبدُ الرحمنِ في تفسيرها: ألا تَرَى الناسَ، يَعِيشُ الإنسانُ مئةَ سنةٍ، وآخرُ يموت حين يُولَد، فهذا هَذا. وقال قتادةُ: والذي ينقص من عمره: فالذي يموتُ قبل سِتِّين سنةً. وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، أي: في بطن أمه يُكتَب له ذلك، لم يخلق الخلق على عُمُرٍ واحدٍ، لهذا عُمرٌ، ولهذا عمرٌ هو أنقصُ من عُمُره، وكل ذلك مكتوبٌ لصاحبه، بالغ ما بَلَغ. وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾، أي: ما يُكتَب من الأجلِ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾، وهو ذَهَابه قليلاً قليلاً، الجميعُ معلومٌ عند الله سنةً بعد سنةٍ، وشهراً بعد شهر، وجمعةً بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعةً بعد ساعةٍ، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك. وإليه ذهب السُّدِّي، وعطاءُ الخراساني، واختار ابنُ جرير الأوَّل، وهو كما قال.

[٥٦٠٣] وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمدُ بن يحيى بن الوزير بن سُلَيمان، سَمِعت ابنَ وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شِهاب، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سَرَّه أن يُبسطَ له في رِزقه، ويُنسأ له في أثرِه فَلْيَصِلْ رَحِمه»(١). وقد رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داود، مِن حديث يُونُس بن يزيدَ الأَيْلِيِّ، به.

[٥٦٠٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حَدَّثنا الوليدُ بن عبد الملك بن عُبَيد الله بن مُسَرِّح، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مَسْلَمة بن عبد الله، عن عَمِّه أبي مَشْجَعَةَ بن رِبْعِيِّ، عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكرنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلُها، وإنَّما زيادةُ العُمر بالذرِّية الصالحة يُرزَقُها العبدُ، فيدعُون له من بعده، فيلحقُه دعاؤهُم في قَبره، فذلك زيادةُ العُمرِ»(٢). وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سَهلٌ عليه، يَسِيرٌ لديه علمُه بذلك وبتفصيلِه في جميع مخلوقاته، فإنَّ عِلْمَه شاملٌ لجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيءٌ.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفَة، وخلْقِ البحرين العذبِ الزُّلالِ، وهو هذه الأنهار السارحةُ بين الناس، من كبارٍ وصغارٍ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصارِ، والعُمران والبراريِّ والقِفار، وهي عذبةٌ سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهو البحر الساكن الذي تَسِير فيه السفُن الكِبار، وإنما تكون مالحةً زُعافاً مُرَّةً، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: مُرٌّ. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، يعني السمكَ، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٢ ـ ٢٣]. وقولُه جلَّ وعلا: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٦٧ ومسلم ٢٥٥٧ وأبو داود ١٦٩٣ والنسائي في «التفسير» ٤٤٩.

(٢) باطل. أخرجه ابن عدي ٣/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦ بهذا الإسناد، وأعله بسليمان بن عطاء ونقل عن البخاري: عنده مناكير. واتهمه ابن حبان بالوضع؛ وهو كما قال، راجع «الميزان» ٢/ ٢١٥.

مَوَاخِرَ﴾، أي: تمخرُه وتشقُّه بحيزومها، وهو مُقدَّمها المُسنَّم الذي يشبه جُؤجُؤَ الطير، وهو صدرُه. وقال مجاهد: تمخرُ الريحَ السفنُ، ولا يمخرُ الريحَ من السفن إلا العظامُ. وقولُه جلَّ وعلا: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قُطر إلى قُطر، وإقليم إلى إقليم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربَّكم على تسخيره لكم هذا الخلقَ العظيمَ، وهو البحرُ، تتصرَّفون فيه كيف شِئتُم، وتذهبون أين أردتُم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه، بل بقدرته قد سَخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميعُ من فَضله ومن رَحمته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

وهذا أيضاً من قُدرته التَّامة وسُلطانِه العظيم، في تسخيره اللَّيل بظلامِه والنهارَ بضيائه، ويأخذُ من طول هذا فيزيدُه على قِصَر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا فيطُول هذا ويقصُرُ هذا، ثم يَتقارضان صَيفاً وشتاءً، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: والنجومُ السيَّارات، والثوابتُ الثاقباتُ بأضوائهنَّ أجرامَ السمواتِ، الجميعُ يَسيرُون بمقدار مُعيَّن، وعلى منهاج مُقنَّن مُحرَّر، تقديراً من عزيزٍ عليم. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى يوم القيامة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أي: الذي فعل هذا هو الربُّ العظيمُ، الذي لا إله غيرُه، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: من الأندادِ والأصنام التي هي على صُورة مَن تزعمُون من الملائكة المُقرَّبين، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وعطية العَوفي، والحَسن، وقتادة، وغيرهم: القِطْمير: هو اللُّفافة التي تكون على نَواةِ التمرة. أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القِطْمير. ثم قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾، يعني الآلهة التي تَدعُونها من دون الله لا يَسْمَعُون دعاءكم، لأنها جماد لا أرواح فيها. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾، أي: لا يَقدِرُون على شيء مما تطلبون منها، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي: يَتبرَّؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أي: ولا يخبرك بعواقب الأمورِ ومآلِها وما تَصير إليه مثل خَبيرٍ بها. قال قتادةُ: يعني نفسَه تبارك وتعالى، فإنه أخبرُ بالواقع لا محالة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى بغِناه عما سِواه، وبافتقار المخلوقات كلِّها إليه، وتَذلُّلها بين يَدَيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركاتِ والسكناتِ، وهو الغنيُّ عنهم بالذاتِ، ولهذا

قال عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، أي: هو المُتفَرِّد بالغِنى وحدَه لا شريكَ له، وهو الحميدُ في جميع ما يفعله ويقولُه، ويُقدِّره ويَشرَعُه. وقولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾، أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركُم، وما هذا عليه بِصَعبٍ ولا مُمتنع. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: يوم القيامة. ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾، أي: وإن تَدع نفسٌ مُثقلة بأوزارِها إلى أن تُساعَدَ على حَمْلِ ما عليها من الأوزارِ أو بعضه، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: ولو كان قَريباً إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنَها، كلٌّ مشغولٌ بنفسِه وحالِه. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾. . . الآية، قال: هو الجارُ يتعلّق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا ربِّ، سَل هذا: لِمَ كان يُغلِقُ بابه دُوني؟ وإنَّ الكافر لَيتعلّق بالمؤمن يومَ القيامة، فيقول له: يا مؤمنُ، إنَّ لي عندك يداً، قد عرفت كيف كُنتُ لك في الدنيا؟ وقد احتجتُ إليكَ اليومَ. فلا يزالُ المؤمنُ يشفَعُ له إلى ربه ـ عزّ وجلّ ـ حتى يرُدَّه إلى مَنزلة دُونَ مَنْزلَتِهِ، وهو في النار. وإنَّ الوالد ليتعلّق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بنيَّ، أيَّ والدٍ كنتُ لك؟ فَيُثني خيراً، فيقول له: يا بنيَّ، إني قد احتجتُ إلى مثقالِ ذَرَّةٍ من حَسَناتك أنجو بها مما ترى. فيقول له ولده: يا أبَتِ، ما أيسَرَ ما طلبت، ولكنني أتخوَّف مثلَ ما تتخوَّف، فلا أستطيع أن أُعطِيكَ شيئاً. ثم يتعلّقُ بزوجته فيقول: يا فلانةُ ـ أو: يا هذه ـ أيَّ زوج كنتُ لكِ؟ فتُثني خيراً، فيقول لها: إني أطلبُ إليك حسنةً واحدةً تَهَبينَها لي، لعلّي أنجو بها مما تَرَيْنَ. قال: فتقول: ما أيسرَ ما طلبت، ولكني لا أُطيق أن أعطيك شيئاً، إني أتخوَّف مثل الذي تتخوَّف. يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾. . . الآية، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. رواه ابن أبي حاتم ـ رحمه الله ـ، عن أبي عبد الله الظِّهْراني، عن حَفص بن عُمَر، عن الحكم بن أبانَ، عن عِكرِمَةَ، به. ثُم قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: إنما يَتَّعِظُ بما جئتَ به أولو البصائر والنُّهى، الخائِفُون من ربِّهم، الفاعلون ما أَمَرَهُم به، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾، أي: ومن عَمِل صالحاً فإنما يعودُ نفعُه على نفسه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: وإليه المرجعُ والمآبُ، وهو سَريعُ الحسابِ، وسَيَجزي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِهِ، إن خيراً فَخيرٌ، وإن شراً فَشرٌّ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

يقولُ تعالى: كما لا تَستَوي هذه الأشياءُ المتباينةُ المختلفةُ، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرقٌ وبونٌ كبيرٌ، وكما لا تستوي الظُّلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحَرُور، كذلك لا تستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأمواتُ، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]. فالمؤمن سميعٌ بصيرٌ في

نورٍ يَمشِي على صراطٍ مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقرَّ به الحالُ في الجنَّاتِ ذاتِ الظِّلال والعُيُون، والكافر أعمى أصَمُّ في ظلماتٍ يمشِي، لا خُروجَ له منها، بل هو يَتِيهُ في غَيِّه وضَلاله في الدنيا والآخرة، حتى يُفضي به ذلك إلى الحَرُور والسَّمُوم والحَمِيم، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: ٤٣ ـ ٤٤].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يَهديهم إلى سَماع الحُجَّة وقَبُولها والانقياد لها، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، أي: كما لا ينتفع الأمواتُ بعد مَوْتِهم وصَيرُورَتِهم إلى قُبورِهم وهم كفار بالهدايةِ والدَّعوةِ إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِب عليهم الشقاوة ولا حِيلَةَ لكَ فِيهم، ولا تَستَطِيع هدايتهم. ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾، أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يُضِلُّ من يشاء ويهدِي من يشاء. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، أي: وما من أمة خَلَت من بني آدم إلا وقد بَعَث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. . . الآية، والآيات في هذا كثيرةٌ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وهي: المعجزاتُ الباهراتُ، والأدلَّةُ القاطِعَاتُ، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾، وهي الكُتُب، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، أي: الواضِح البيِّن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: ومع هذا كلِّه كَذَّب أولئك رُسُلهم فيما جاؤوهم به فأخذتهم، أي: بالعقاب والنَّكال، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي: فكيف رأيتَ كان إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟! والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾

يقول تعالى مُنبِّهاً على كَمال قدرته في خَلقه الأشياء المتنوِّعة المختلفة من الشيءِ الواحِد، وهو الماءُ الذي يُنزِّله من السماء يُخرِج به ثَمراتٍ مختلفاً ألوانها، من أصفرَ وأحمرَ وأخضرَ وأبيضَ، إلى غير ذلك من ألوانِ الثِّمار، كما هو مُشاهَدٌ من تنوُّع ألوانها وطُعُومِها ورَوَائِحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٤]. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾، أي: وخَلَق الجبال كذلك مختلفَةَ الألوانِ، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحُمر، وفي بعضها طرائق ـ وهي: الجُدَد، جَمعُ جُدَّةٍ ـ مختلفةُ الألوانِ أيضاً ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجُدَد الطرائق. وكذا قال أبو مالك، والحسن، وقتادةُ والسُّدي. ومنها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾، قال عكرمة: الغرابيبُ: الجبال الطِّوال السُّود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء، الخراساني وقتادةُ. وقال ابنُ جرير: والعربُ إذا وَصفُوا الأسودَ بكثرةِ السوادِ، قالوا: أسودُ غربيبٌ. ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المُقدَّم والمؤخَّر في قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، أي: سُودٌ غرابيبُ. وفيما قاله نَظَرٌ. وقولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾، أي: كذلك الحيواناتُ من الأناسيِّ والدوابِّ ـ وهو: كل ما دبَّ على قوائِمَ ـ والأنعام، من باب عَطفِ الخاصِّ على العامِّ. كذلك هي مختلفةٌ أيضاً، فالناسُ منهم

بَرْبَرٌ وحُبُوش وطَمَاطِمُ في غاية السواد، وصَقَالبة ورُومٌ في غاية البَيَاض، والعَرَب بين ذلك، والهنُودُ دونَ ذلك. ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وكذلك الدوابُ والأنعامُ مختلفةُ الألوانِ، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوانُ الواحدُ يكون أبلَقَ، فيه مِن هذا اللونِ وهذا اللون، فتبارَكَ الله أحسنُ الخالقين.

[٥٦٠٥] وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مُسنَده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا عبدُ الله بن عُمَر ابن أبان بن صالح، حدثنا زياد بن عبد الله، عن عطاءِ بن السّائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أيَصْبَغُ ربُّك؟ فقال: «نعم صبغاً لا يَنْفَضُ[(١)]، أحمر وأصفر وأبيض»[(٢)]. ورُوِيَ مُرسَلاً ومَوقوفاً. والله أعلم. ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، أي: إنما يخشاه حَقَّ خشيته العلماءُ العارفونَ به، لأنه كُلّما كانت المعرفةُ للعظيم القديرِ العليم الموصوفِ بصفاتِ الكمالِ المنعوتِ بالأسماءِ الحُسنى، كُلّما كانت المعرفةُ به أتَمّ، والعلمُ به أكملَ، كانت الخشيةُ له أعظَمَ وأكثَرَ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عَبّاسٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال ابن لَهيعة، عن ابن أبي عَمْرَة، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: العالم بالرحمن مَن لم يُشرِك به شيئاً، وأحلَّ حلالَه، وحَرَّم حَرامه، وحَفِظَ وَصِيَّته، وأيقن أنه مُلاقِيه ومحاسَبٌ بِعَمَلِه. وقال سعيد بن جبير: الخشيةُ هي التي تحولُ بينك وبين مَعصِية الله عزَّ وجلَّ. وقال الحسن البصري: العالِمُ مَنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب، ورَغِب فيما رغِب الله فيه، وزَهِد فيما سَخِطَ الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ليس العلمُ عن كثرةِ الحديثِ، ولكنَّ العِلْمَ عن كثرةِ الخشيةِ. وقال أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهبٍ، عن مالكٍ قال: إن العلم ليس بكثرةِ الرواية، وإنما العلمُ نورٌ يجعَلُه الله في القلب. قال أحمد بن صالح المصري: معناهُ أن الخشية لا تُدرَك بكثرة الرواية، وأما العِلْمُ الذي فَرض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُتَّبَعَ فإنما هو الكتابُ والسنةُ، وما جاء عن الصحابة ـ رَضي الله عنهم ـ ومَن بَعدِهم من أئِمّةِ المسلمين، فهذا لا يُدرَكُ إلا بالرّواية، ويكون تأويلُ قوله: «نور» يُريد به فهمَ العِلْم، ومعرفَةَ معانيه. وقال سفيان الثوري، عن أبي حيان التَّيميّ، عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالِمٌ بالله عالِمٌ بأمر الله. وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله. وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشَى الله ويعلَم الحدودَ والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشَى الله ولا يعلَمُ الحدودَ ولا الفرائض. والعالمُ بأمرِ الله ليس بعالمٍ بالله الذي يعلَمُ الحدود والفرائض، ولا يخشى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عبادِه المؤمنين الذين يتلُون كتابه ويُؤمِنُون به ويعمَلُون بما فيه، من إقامِ الصلاةِ،

---

(١) نفض الثوب أو الصبغ: ذهب بعض لونه.

(٢) أخرجه البزار ٢٩٤٤ وقال: لا نعلم أحداً أسنده عن ابن عباس إلا زياد بن عبد الله، وقال غيره: عن عطاء عن سعيد مرسلاً اهـ. وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٥٥٦: فيه عطاء بن السائب، وقد اختلط اهـ. وعلة ثانية: وهي زياد بن عبد الله النميري ضعيف.

والإنفاقِ مما رَزَقهم الله في الأوقات المشروعةِ ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانيةً، ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بدَّ من حصوله. كما قَدَّمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: «إنَّ كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة». ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: ليوفيهم ثوابَ ما فعلوه ويضاعِفَه لهم بزياداتٍ لم تخطُر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾، أي: لذُنوبِهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليلِ من أعمالِهم. قال قتادة: كان مُطرِّف ـ رحمه الله ـ إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آيةُ القُرَّاء.

[٥٦٠٦] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَةُ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سَمِعَ دَرَّاجاً أبا السَّمحِ يُحدِّث عن أبي الهَيْثم، عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله تعالى إذا رَضِيَ عن العبد أثنى عليه بِسَبْعَةِ أصنافٍ[١] من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه بِسَبْعَةِ أصنافٍ من الشر لم يعمله»[٢]، غريب جداً.

﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْكِتَٰبِ﴾، وهو القرآنُ ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: من الكتب المتقدمة يصدِّقها، كما شَهِدت هي له بالتنويه، وأنه مُنَزَّل من ربِّ العالمين. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، أي: هو خَبيرٌ بهم، بَصِيرٌ بمن يَستحقُّ ما يُفضِّله به على مَن سِواه. ولهذا فَضَّل الأنبياء والرسُلَ على جَميعِ البشر، وفَضَّل النبيين بعضَهم على بعض، ورفع بعضَهم درجاتٍ، وجعل منزلَةَ محمدٍ ـ ﷺ ـ فوقَ جَميعهم، صلواتُ الله عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

يقولُ تعالى: ثم جَعَلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدِّق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفَينا من عبادنا، وهم هذه الأمَّةُ، ثم قَسَّمهم إلى ثلاثة أنواعٍ، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، وهو: المفرِّط في فعلِ بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرَّمات. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، وهو: المؤدي للواجبات، التاركُ للمُحرَّمات. وقد يترُكُ بعضَ المستحبات، ويفعل بعضَ المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهو: الفاعلُ للواجباتِ والمستحَبَّاتِ، التاركُ للمحرَّماتِ والمكروهات وبعضِ المُباحاتِ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، قال: هم أمّة محمد ـ ﷺ ـ وَرَّثهم الله كُلَّ كتاب أنزله، فَظَالِمهم يُغفرَ له، ومُقتَصِدهم يحاسَب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

[٥٦٠٧] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبيُّ

---

(١) كذا وقع في المسند في الروايتين، الأولى والثانية، ووقع في الثالثة، ومسند أبي يعلى، وصحيح ابن حبان: «أضعاف».

(٢) أخرجه أحمد ٣٨١٣ ـ ٤٠ ـ ٧٦ وابن حبان ٣٦٨ وأبو يعلى ١٣٣١ من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف، لكونه من رواية درّاج عن أبي السمح. وقد ضعف شعيب الأرناؤوط إسناده أيضاً، وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ح ١٧٩٦٩: رجاله وثقوا على ضعف فيهم اهـ.

قالا: حدثنا أبو الطاهر بنُ السَّرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصَّنعاني، حدثني ابن جُرَيج، عن عطاءٍ، عن ابن عباس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال ذاتَ يوم: «شَفَاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، قال ابن عباس: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخلُ الجنة بِرَحمةِ الله، والظالم لنفسه وأصحابُ الأعراف يدخُلون الجنَّة بشفاعةِ محمد ﷺ»[1]. وهكذا رُوِي عن غير واحد من السلف: أنَّ الظالم لنفسه من هذه الأمة من المُصطَفين، على ما فيه من عِوَجٍ وتَقصِيرٍ. وقال آخرون: بل الظالمُ لنفسه ليسَ من هذه الأمة، ولا من المُصطَفين الوارثين للكتابِ.

قال ابنُ أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بنُ هاشم بن مَرزُوقٍ، حدثنا ابن عُيَينة، عن عَمرو، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، قال: «هو الكافرُ». وكذا رَوى عنه عِكْرمة، وبه قال عِكْرِمَةُ أيضاً فيما رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس، والحسن، وقتادةُ: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول «سورة الواقعةِ»، وآخرها. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهو اختيار ابنِ جَرير كما هو ظاهر الآيةِ، وكما جاءت به الأحاديثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ من طرق يَشُدُّ بعضُها بعضاً، ونَحن نُوردُ منها ما تَيَسَّر:

[٥٦٠٨] **الحديث الأول**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة، عن الوليد بن العيزار: أنه سَمِع رجلاً من ثَقيف يُحَدِّث عن رجلٍ من كنانَة، عن أبي سعيد الخُدْرِي ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال في هذا الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، قال: «هؤلاء كلُّهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة»[2]. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يُسَمَّ. وقد رواه ابنُ جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه. ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمَّةِ وأنهم من أهل الجنةِ، وإن كان بينهم فرقٌ في المنازل في الجَنَّةِ.

[٥٦٠٩] **الحديثُ الثاني**، قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضَمْرَةَ، عن موسى بن عُقبَةَ، عن علي بن عبد الله الأزدِيِّ، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخُلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يُحاسَبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يُحبَسون في طول المحشَر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١١٤٥٤ وفي إسناده موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو وضاع كما في «المجمع» ١٠/ ٣٧٨. والمرفوع منه له شواهد، انظر ما تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١. وكذا الموقوف، وهو بهذا الإسناد واهٍ.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٧٨ والطبري ٢٩٠١٢، وفيه رجل من ثقيف، وآخر من كنانة، وكلاهما لم يسمّ، فالإسناد ضعيف، لكن له شواهد، وطرق أخرى، فانظر ما بعده.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٩٥: رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح. وهي هذه إن كان علي بن عبد الله الأزدي سمع من أبي الدرداء اهـ. وللحديث شواهد.

[٥٦١٠] طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيدُ بنُ عاصم، حدثنا الحُسَين بن حَفص، حدثنا سُفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدَّرداء قال: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: «فأما الظالمُ لنفسِه فيُحبَسُ حتى يُصِيبه الهمُّ والحزنُ، ثم يدخلُ الجنة»(١).

[٥٦١١] ورواهُ ابنَ جرير من حديث سُفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجدَ، فجلسَ إلى جَنْبِ أبي الدرداء، فقال: اللهُمَّ، آنِسْ وَحْشَتي، وارحَمْ غُرْبَتي، ويَسِّر لي جليساً صَالِحاً. قال أبو الدرداء: لئن كنتَ صادِقاً لأنا أسعدُ به منك، سأحدثك حديثاً سَمِعتُه من رسول الله ـ ﷺ ـ لم أُحدِّث به منذ سَمِعتُه منه، ذكر هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصِدُ فيُحاسَب حساباً يسيراً. وأما الظالم لنفسه فيُصِيبه في ذلك المكان من الغَمّ والحَزَن، وذلك قولُه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾(٢).

[٥٦١٢] الحديثُ الثالثُ، قال الحافظ أبو القاسم الطَّبَرانِيُّ: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا أبو مسعود، أخبرنا سهل بن عبد رَبِّه الرازيُّ، حدثنا عَمرو بن أبي قَيس، عن ابن أبي لَيلى، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كلُّهم من هذه الأمَّةِ»(٣).

[٥٦١٣] الحديث الرابع، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَزِيز، حدثنا سَلاَمَةُ، عن عُقَيل، عن ابن شهاب، عن عَوف بن مالك، عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أُمّتي ثلاثة أثلاثٍ، فَثُلثٌ يدخُلون الجَنّة بغير حسابٍ ولا عَذَابٍ، وثُلثٌ يُحاسَبُون حِساباً يسيراً ثم يدخُلون الجَنّة، وثُلُث يُمَحَّصون ويُكشَفُونَ، ثم تأتي الملائكةُ فيقولون: وجدناهم يقولُون: لا إله إلا الله وحدَه». يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: صَدَقُوا، لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنةَ بقولهم: «لا إله إلا الله وحدَه»، واحمِلُوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وتصديقُها في التي فيها ذِكْرُ الملائكةِ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فجعلهم ثلاثة أفواجٍ، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ، فهذا الذي يكشف ويُمَحَّص(٤). غريب جداً.

أثر عن ابن مسعود، قال ابنُ جرير: حدثني ابن حُمَيد، حدثنا الحكم بن بشير، عن عَمرو بن قيس، عن

---

(١) فيه راوٍ لم يسم، لكن هذه الأحاديث تتقوى بمجموعها كما ذكر ابن كثير قبل الحديث الأول منها.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٠١١ وأحمد ٥/ ٢٩٤ و٦/ ٤٤٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٩٥ وقال: رواه الطبراني، وأحمد باختصار إلا أنه قال: عن الأعمش عن ثابت أو أبي ثابت... وثابت بن عبيد ومن قبله من رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني رجل غير مسمى.

(٣) أخرجه الطبراني ٤١٠ وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ. لكن يصلح شاهداً للأحاديث المتقدمة، والله تعالى أعلم. وانظر هذه الأحاديث في «المجمع» ٧/ ٩٥ ـ ٩٧ والمستدرك ٢/ ٤٢٦ والدر ٥/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣ ـ ٤٧٤ ومما قاله الحاكم: وإذا كثرت الروايات في الحديث، ظهر أن للحديث أصلاً اهـ.

(٤) أخرجه الطبراني ١٨/ ٧٩ ـ ٨٠ بهذا الإسناد وقال الهيثمي ١١٢٩٢: فيه سلامة بن روح، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات اهـ فالإسناد غير قوي، والله أعلم.

عبد الله بن عِيسَى، عن يزيدَ بن الحارث، عن شقيقِ أبي وائلٍ، عن عبدِ الله بن مَسْعُودٍ أنه قال: هذه الأمةُ ثلاثةُ أثلاثٍ يوم القيامة: ثُلثٌ يدخلُون الجنَّة بغير حساب، وثُلثٌ يحاسَبُون حِساباً يَسِيراً، وثُلثٌ يَجيئُون بذنوبٍ عِظَامٍ حتى يقول الله عزّ وجلّ: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تباركَ وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوبٍ عظامٍ، إلا أنهم لم يشركوا بك. فيقول الربُّ ـ عزّ وجلّ ـ: ادخلوا هؤلاء في سَعَة رحمتي. وتلا عبدُ الله هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. . . الآية.

أثر آخر، قال أبو داود الطيالسي، عن الصلت بن دينار أبو شُعيب، عن عُقبَة بن صُهبَانَ الهَنائِيِّ قال: سألتُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قولِ الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾. . . الآية، فقالت لي: يا بُنَيّ، هؤلاء في الجنةِ، أما السابقُ بالخيرات فمن مَضَى على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ، شَهِد له رسول الله ـ ﷺ ـ بالحياة والرزق. وأما المقتصد فمن اتَّبع أثره مِن أصحابه حتى لَحق به. وأما الظالمُ لنفسه فَمِثْلي ومِثْلُكم. قال: فجعلت نفسها معنا. وهذا منها ـ رضي الله عنها ـ من باب الهَضْم والتواضع، وإلاَّ فهي من أكبرِ السابقين بالخيرات، لأن فَضْلَها على النساء كفضل الثَّرِيد على سائرِ الطعامَ[1]. وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: قال أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفان رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، قال: هي لأهل بَدْونا، ومُقتَصِدُنا أهل حَضَرِنا، وسابقُنا أهلُ الجهادِ. رواه ابن أبي حاتم. وقال عوفٌ الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نَوفل قال: حدثنا كعبُ الأحبار قال: «إنَّ الظالم لنفسِه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلُّهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾. . إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، قال: فهؤلاء أهل النار». رواه ابن جرير من طُرُقٍ، عن عَوفٍ به. ثم قال: حدثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ عُلَيَّة، أخبرنا حُمَيد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه أن ابن عَبَّاس سأل كعباً عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، قال: تماسَّت مناكبُهم وربِّ كَعْبٍ، ثم أعطوا الفضلَ بأعمالهم. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا الحَكَم بن بَشِير، حدثنا عَمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السَّبِيعي في هذه لآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. . . الآية، قال أبو إسحاق: أمَّا ما سَمِعتُ منذ ستِّين سنة فكلُّهم ناج. ثم قال: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا الحَكَم، حدثنا عَمرو، عن مُحَمَّد بن الحَنَفية قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مَغفورٌ له، والمقتصد في الجِنانِ عند الله، والسابق بالخيراتِ في الدرجاتِ عند الله. ورواه الثَّورِيُّ، عن إسماعيل بن سُمَيع، عن رَجُلٍ، عن مُحمَّد بن الحنفية، بنحوه. وقال أبو الجارُودِ: سألتُ مُحمَّد بن علي ـ يعني الباقر ـ عن قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، فقال: هو الذي خَلَط عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً. فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلِّقة بهذا المقام. وإذا تقرَّر هذا فإن الآيةَ عامَّة في جميع الأقسام الثلاثةِ من هذه الأمة، فالعلماء أغبطُ الناس بهذه النِّعمة، وأولى الناس بهذه الرَّحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد، رَحِمه الله:

[٥٦١٤] حدثنا مُحمَّد بن يزيد، حدثنا عاصِمُ بنُ رجاءِ بن حَيْوَة، عن قيس بن كَثِير قال: قدم رجلٌ من أهل المدينة إلى أبي الدرداءِ وهو بدمشقَ، فقال: ما أقدمك أيْ أخِي؟ قال: حديثٌ بَلَغني أنك تحدِّث به عن رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: أما قدمت لتجارةٍ؟ قال: لا. قال: أما قَدِمت لحاجةٍ؟ قال: لا؟ قال: أما قَدِمتَ إلاَّ

(١) ورد ذلك مرفوعاً في الصحيحين.

في طلب هذا الحديثِ؟ قال: نعم. قال: فإني سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَنْ سَلَك طريقاً يطلبُ فيها علماً سَلَكَ الله به طريقاً إلى الجَنّة، وإنّ الملائِكَةَ لتضعُ أجنِحَتَها رِضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفِرُ للعالم مَن في السمواتِ والأرضِ حَتى الحِيتَان في الماء، وفضلُ العالم على العابدِ كَفَضْلِ القَمَر على سائر الكواكب. إن العلماءَ هم وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا ديناراً ولا دِرْهَماً، وإنما وَرَّثُوا العلم، فمن أخَذ به أخَذَ بحَظٍّ وافرٍ»(١). وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث كَثِير بن قيس ـ ومنهم من يقولُ: قَيسُ بنُ كثير ـ عن أبي الدرداء. وقد ذكرنا طُرُقَه واختلافَ الرُّوَاةِ فيه في شرح «كتاب العِلْمِ» في «صحيح البخاري»، ولله الحمدُ والمنّةُ.

[٥٦١٥] وقد تَقَدَّم في أوّلِ «سُورة طَه» حديثُ ثعلبةَ بن الحَكَم، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله تعالى يومَ القيامة للعلماء: إني لم أَضَع عِلْمِي وحِكْمَتي فيكم إلا وأنا أُريدُ أن أغفِرَ لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي»(٢).

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾

يُخبر تعالى أنّ مأوَى هؤلاء المُصطَفين من عباده، الذين أُورِثُوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، أي: جناتُ الإقامة ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ يومَ مَعَادهم وقُدُومِهم على ربِّهم ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾، كما ثَبَت في الصَّحِيح عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال:

[٥٦١٦] «تبلُغ الحِلْيَةُ مِنَ المؤمنِ حيثُ يبلُغُ الوضوءُ»(٣).

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحَه الله لهم في الدار الآخرةِ.

[٥٦١٧] وثبت في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من لَبِسَ الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»(٤).

[٥٦١٨] وقال: «هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»(٥).

[٥٦١٩] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عَمرو بن سَوَاد السَّرْحي، أخبرنا ابنُ وَهْبٍ، عن ابن لَهيعة، عن عُقَيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ: أن أبا أُمَامَةَ حَدَّث: أن رسول الله ـ ﷺ ـ حَدَّثهم، وذكر حُلِيَّ أهلِ الجنةِ فقال: «مُسَوَّرون بالذهب والفِضّةِ، مُكَلّلةً بالدُّرّ، وعليهم أكاليل من دُرٍّ وياقوتٍ متواصلة، وعليهم تاجٌ كتاجِ الملوكِ، شبابٌ جُرْدٌ مُرْدٌ مكحَلُون»(٦).

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٣٦٤١ وابن ماجه ٢٢٣ وأحمد ٥/١٩٦ وابن حبان ٨٨ وإسناده ضعيف لضعف قيس بن كثير، وأخرجه أبو داود ٣٦٤٢ من وجه آخر من حديث أبي الدرداء. وإسناده ضعيف وله طرق وشواهد، وتقدم.

(٢) تقدم تخريجه، وهو واهٍ جداً.

(٣) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٦.

(٤) تقدم في تفسير سورة الحج عند آية: ٢٣.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) إسناده ضعيف، له علتان: ابن لهيعة، ضعيف الحديث، والحسن لم يسمع من أبي هريرة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة.

[٥٦٢٠] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليس على أهل «لا إله إلا الله» وحشة في قبورهم ولا في نُشُورِهم، وكأني بأهل «لا إله إلا الله» ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمدُ لله الذي أذهبَ عنا الحَزَن»[١]. رواه ابن أبي حاتم من حَديثه.

[٥٦٢١] وقال الطبراني: حدثنا جعفر بن محمد الفِرْيَابِيُّ، حدثنا موسى بن يحيى المروزي، حدثنا سُلَيمان بن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل «لا إله إلا الله» وحشةٌ في الموت ولا في القبور ولا في النُّشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحةِ ينفضُون رُؤوسهم من التراب، يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»[٢]. قال ابن عباس وغيره: غَفَر لهم الكثير من السيِّئات، وشَكَر لهم اليسيرَ من الحسنات. ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾، يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلةَ وهذا المقام من فضلِهِ ومَنِّه ورَحمَتِهِ، لم تَكُن أعمالنا تُساوي ذلك.

[٥٦٢٢] كما ثَبَتَ في الصَّحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لن يُدخِلَ أحداً منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ»[٣].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، أي: لا يمسنا فيها عَنَاء ولا إعياءٌ. والنصَبُ واللُّغوبُ كلٌّ منهما يُستَعمَلُ في التَّعَب. وكأن المراد بنَفْي هذا وهذا عنهم أنهم لا تَعَب على أبدانهم ولا أرواحِهم، والله أعلمُ. فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فَسَقط عنهم التكليفُ بدُخُولها، وصاروا في رَاحةٍ دائمةٍ مُستمِرةٍ. قال تبارك وتعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

لما ذَكَر تعالى حال السُّعَداء، شَرَع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣].

[٥٦٢٣] وثبت في صحيح مسلم، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أما أهلُ النارِ الذينَ هُم أهلُها فلاَ يَمُوتُون

---

(١) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢٠٢ وقال: عبد الرحمن بن زيد، ليس بشيء في الحديث، وبهذا الإسناد أخرجه ابن عدي ٤/ ٢٧١ وأعله بابن زيد، وأجمعوا على ضعفه. وورد من وجه آخر أخرجه ابن حبان ١/ ٢٠٢ وابن عدى ٢/ ٦٥ وابن الجوزي في «العلل» ١٥٢٦ وأعلوه ببهلول بن عبيد، وقال ابن حبان: يسرق الحديث، لا يجوز الاحتجاج به بحال اهـ وأخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٦٨٠٧ من طريقين عن ابن عمر. وقال الهيثمي: في الرواية الأولى يحيى الحماني، وفي الأخرى، مجاشع بن عمرو، وكلاهما ضعيف. وله طريق آخر وهو الآتي.

(٢) أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ١٨٣٢٤ وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم اهـ فهذا الحديث جاء من عدة طرق كما تقدم، وكلها ضعيفة، ولعلها تعتضد بمجموعها، فترقى إلى الحسن أو شبه الحسن، والله تعالى أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ٤٣.

فيها ولا يَحيَوْنَ»(١). قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ فهم في حالهم ذلك يَرون موتَهم راحةً لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: ٣٠]. ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾، أي: هذا جزاءُ كلِّ مَن كفَر بربِّه، وكذَّب بالحقِّ.

وقوله جلَّت عظَمته: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾، أي: يُنادُون فيها، يَجأرون إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأصواتهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي: يسألون الرجعَةَ إلى الدنيا، ليعمَلُوا غير عمَلِهم الأول، وقد علِمَ الربُّ ـ جلَّ جلالُه ـ أنه لو رَدَّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهُوا عنه، وإنهم لكاذبون، فلهذا لا يُجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١١ ـ ١٢]، أي: لا يُجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولو رُددتُم لَعُدتم إلى ما نُهيتم عنه. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، أي: ما عِشْتُم في الدنيا أعماراً لو كنتُم مِمن ينتفع بالحقِّ لانتفعتم به في مُدَّة عُمُركم؟!

وقد اختلف المفسِّرون في مقدار العمر المُراد هاهنا، فرُوي عن علي بن الحسين زينِ العابدين أنه قال: مقدارُ سَبعَ عشرةَ سنةً. وقال قتادة: اعلَمُوا أن طُولَ العُمُر حُجَّةٌ، فنعوذ بالله أن نُعيَّر بطول العُمُر، قد نزلت هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنةً. وكذا قال أبو غالب الشَّيباني. وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن رَجُل، عن وهب بن مُنَبِّه في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، قال: عشرون سنةً. وقال هُشَيم، عن منصور، عن زاذانَ، عن الحسن في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، قال: أربعين سنة. وقال هُشَيم أيضاً عن مُجالِدٍ، عن الشَّعبي، عن مَسْرُوقٍ أنه كان يقول: إذا بلغ أحدُكم أربعين سَنَةً فَلْيأخُذْ حِذْرَهُ مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ. وهذه روايةٌ عن ابن عباس فيما قال ابن جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا بِشرُ بن المفضل، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن مجاهِدٍ قال: سَمِعت ابن عباس يقول: العمرُ الذي أعذَرَ الله إلى ابن آدمَ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أربعونَ سنةً. هكذا رواه من هذا الوجه، عن ابن عباس. وهذا القول هو اختيارُ ابنِ جرير. ثم رواه من طريق الثَّوريِّ وعبد الله بن إدريسَ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن مجاهد، عن ابن عباس قالَ: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، ستون سنةً. فهذه الرواية أصحُّ عن ابن عباس، وهي الصحيحةُ في نفس الأمر أيضاً، لما ثَبَتَ في ذلك من الحديث ـ كما سنورِده ـ لا كما زَعَمه ابن جرير من أن الحديث لم يَصِحَّ، لأن «في إسناده مَن يجب التَّثبتُ في أمرِه». وقد رَوَى أصبغُ بن نُباتة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: العمرُ الذي عَيَّرهم الله به في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ سِتُّونَ سنةً.

[٥٦٢٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا دُحَيم، حدثنا ابن أبي فُدَيك، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزُومي، عن ابن أبي حُسَين المكي: أنه حَدَّثه عن عَطاء ـ هو ابن أبي رَبَاح ـ عن ابن عباس ـ

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة طه عند آية: ٧٤. وفي تفسير سورة البقرة عند آية: ٣٩.

رضي الله عنهما ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامة قِيلَ: أين أبناءُ الستين؟ وهو العُمُر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾»(١). وكذا رواه ابنُ جرير، عن علي ابن شُعَيب، عن محمد بن إسماعيل بن أبي فُدَيك، به. وكذا رواه الطَّبَراني من طريق ابن أبي فُدَيك، به. وهذا الحديث فيه نَظَرٌ، لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم.

[٥٦٢٥] حديثٌ آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن رَجُل من بني غفار، عن سَعيد المَقبُرِيّ، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «لقد أعذَرَ الله إلى عبدٍ أحياه حتى بَلَغَ سِتِّينَ أو سبعينَ سنةً، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه»(٢).

[٥٦٢٦] وهكذا رواه الإمام البخاري في «كتاب الرقاق» في صحيحه: حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، عن عُمَر بن عليّ، عن مَعْن بن محمد الغِفَارِيّ، عن سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعْذَرَ الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى امرىءٍ أخَّرَ عُمُرَه حتّى بَلَّغَه سِتِّين سنة»(٣). ثم قال البخاريّ: «تابَعَه أبو حازم وابنُ عَجْلانَ، عن سَعيدٍ المَقْبُرِيّ.

[٥٦٢٧] فأمّا أبو حازم فقال ابنُ جرير: حدثنا أبو صالح الفَزاريّ، حدثنا محمد بن سَوّار، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عَبْدٍ القاريُّ الإسكندريُّ، حدثنا أبو حازم، عن سَعِيد المقبُرِيّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من عَمَّرهُ الله سِتِّين سنةً فَقَد أعذَرَ إليه في العُمُرِ»(٤). وقد رواه الإمام أحمدُ والنَّسائي في الرِّقاق جميعاً عن قُتَيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، به.

[٥٦٢٨] ورواه البَزّار قال: حدثنا هشام بن يونس، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سعيد المَقبُري، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «العُمُر الذي أعذَر الله فيه إلى ابن آدمَ سِتُّونَ سنةً»(٥). يعني: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

[٥٦٢٩] وأما متابعةُ «ابن عَجلان»؛ فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو الصَّقْرِ يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قَزَعَةَ بِسامِرّاء، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرِىءُ، حدثنا سَعِيد بن أبي أيوب، حدثني محمد بن عَجْلان، عن سَعِيد المقبُري، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من أَتَت عليه سِتُّون سنة فقد أعْذَرَ الله ـ عزّ وجلّ ـ إليه في العُمُر»(٦). وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هُوَ المقرِىءُ به. ورواه أحمد أيضاً عن خَلَف، عن أبي مَعْشَر، عن سَعِيد المقبُري.

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الطبري ٢٩٠٣١ والطبراني ١١٤١٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٩٥: رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وفيه ابراهيم بن الفضل المخزومي، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٧٥، وفيه راو لم يسم. وقد سمي إما في رواية البخاري الآتية برقم ٥٦٢٦ أو الرواية الآتية برقم ٥٦٣٠. وقد تابعه غير واحد بكل حال.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤١٩ والبيهقي ٣/ ٣٧٠.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٤١٧ والطبري ٢٩٠٣٣ وابن حبان ٧٩٧٩ وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه البيهقي ٣/ ٣٧٠ والقضاعي في «مسند الشهاب» ٤٢٤ من طريق عبد العزيز به. وإسناده غير قوي لأجل عبد العزيز، لكن له طرق كما ترى.

(٦) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٠ والبيهقي ٣/ ٣٧٠ والخطيب في «تاريخ بغداد» ١/ ٢٩٠ وإسناده حسن لأجل ابن عجلان، وقد توبع.

[٥٦٣٠] **طريقٌ أُخرى**، عن أبي هُرَيرَةَ، قال ابنُ جَريرٍ: حدثني أحمدُ بن الفَرَج أبو عُتْبة الحِمْصِيُّ، حدثنا بقيَّةُ بن الوليد، حدثنا المُطَرِّف بن مازن الكِنَاني، حدثني مَعْمَرُ بنُ راشدٍ قال: سَمِعت محمد بن عبد الرحمن الغِفَارِيّ يقول: سَمِعتُ أبا هُرَيرة يقولُ: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد أعذر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في العُمُر إلى صاحب الستِّين سنةً والسبعينَ»[١]. فقد صَحَّ هذا الحديثُ من هذه الطُرُقِ، فلو لم يكن إلا الطريقُ التي ارتضاها أبو عبد الله البُخاريّ شيخُ هذه الصناعةِ لَكَفَتْ. وقولُ ابن جرير: «إن في رجاله بعضَ مَن يجب التثَبت في أمره»، لا يُلْتَفَتُ إليه مع تَصْحِيح البُخَارِيّ[٢]، والله أعلم. وذكر بعضُهم أن العُمُرَ الطبيعي عند الأطباء مئةٌ وعشرون سنةً. فالإنسان لا يزالُ في ازديادٍ إلى كَمَالِ الستِّين، ثم يشرَعُ بعد هذا في النَّقصِ والهَرَم، كما قال الشاعر:

إذَا بَـلَـغَ الـفـتـى سِـتِّـيـن عَـامـاً ... فَـقَـد ذَهَـبَ الـمَـسَـرَّةُ والـفَـتَـاءُ

ولما كان هذا هو العمرُ الذي يُعذِر الله إلى عباده به، ويُزيح به عَنهُم العِلَل، كان هو الغالبَ على أعمارِ هذه الأمَّةِ. كما ورد بذلك الحديث:

[٥٦٣١] قال الحسن بن عَرَفَة رَحِمَه الله: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المُحَاربي، حدثنا محمد بن عَمرو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعمارُ أُمَّتِي ما بين الستِّين إلى السَّبعين، وأقلُّهم مَن يَجُوزُ ذلك»[٣]. وهكذا رَوَاه التِّرمذي وابنُ ماجة جَميعاً في كتاب الزُّهدِ، عن الحَسَن بن عَرَفَة، به، ثم قال الترمذيُّ: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لا نعرفه إلا مِن هذا الوجه». وهذا عَجَب من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى، عن أبي هُرَيرَةَ، حيث قال:

[٥٦٣٢] حدثنا سُلَيمان بن عمر، عن مُحَمَّد بن رَبِيعةَ، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صَالح، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعمار أمتي ما بين الستِّين إلى السَّبعين، وأقلُّهم من يجوز ذلك»[٤]. وقد رَوَاه الترمذي في «كتاب الزُّهدِ» أيضاً، عن إبراهيمَ بن سَعِيدٍ الجَوْهَرِيّ، عن مُحَمَّد بن ربيعة، به. ثم قال: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، من حَدِيث أبي صالح، عن أبي هُرَيرَة. وقد رُوِيَ من غير وَجهٍ عنه». هذا نَصُّه بحُرُوفِهِ في الموضِعَينِ، والله أعلمُ.

[٥٦٣٣] وقال الحافظُ أبو يَعْلَى: حدثنا أبو مُوسَى الأنصارِيُّ، حدثنا ابن أبي فُدَيكٍ، حدثني إبراهيمُ بن الفَضل مولى بني مخزوم، عن المقبري، عن أبي هُرَيرةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُعْتَرَكُ المنايا ما بين السِّتِّين إلى السَّبعِين»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٩٣٢ والحاكم ٢/ ٤٢٧، وإسناده ساقط لأجل المطرف بن مازن، وقد توبع على أصل الحديث لكن ذكر السبعين ضعيف.

(٢) رحم الله ابن كثير، فإن الطبري ما أراه قصد بذلك ضعف الحديث، وإنما أراد ـ والله أعلم ـ أن بعض رجال الإسناد لم يتبين له حالهم، فذكر ذلك،هذا ظاهر كلامه، والله تعالى أعلم.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ٣٥٥٠ وابن ماجه ٤٢٣٦ وابن حبان ٢٩٨٠ والبيهقي ٣/ ٣٧٠ من طريق الحسن بن عرفة به وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن غريب. قلت: في إسناده محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث لكنه توبع كما في الرواية الآتية. وهو دون عجزه صحيح.

(٤) حسن. أخرجه الترمذي ٢٣٣١ وقال: حسن غريب.

(٥) إسناده ضعيف، أخرجه أبو يعلى ٦٥٤٣ والخطيب ٥/ ٤٧٦ والقضاعي ٢٥١، ومداره علي ابراهيم بن الفضل المخزومي، وهو متروك.

[٥٦٣٤] وبه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أَقَلُّ أُمّتي أبناءُ سَبْعين»[1]. إسنادُه ضعيفٌ.

[٥٦٣٥] حديثٌ آخرُ في معنى ذلك، قال الحافظ أبو بكر البَزّار في مُسنَدِه: حدثنا إبراهيم بن هانىء، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مَطَر، عن أبي مالك، عن رِبْعِيٍّ، عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله، أَنبِئْنا بأعمارِ أُمّتِكَ. قال: «ما بين الخَمْسِين إلى السِّتِّينَ». قالوا: يا رسول الله، فأبناءُ السَّبعينَ؟ قال: «قَلَّ من يبلُغها من أُمّتي، رَحِمَ الله أبناءَ السَّبعين، ورَحِمَ الله أبناءَ الثَّمانين»[2]. ثم قال البَزّارُ: لا يُروَى بهذا اللَّفظِ إلاّ بهذا الإسنادِ، وعُثمانُ بنُ مَطَرٍ من أهل البَصْرَةِ ليس بقويٍّ.

[٥٦٣٦] وقد ثَبَتَ في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ عاش ثَلاثاً وستِّينَ سنةً، وقيل: سِتِّين. وقيل: خمساً وستين سنةً[3]، والمشهور الأوَّلُ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس، وعكرمةَ، وأبي جَعفرٍ الباقرِ، وقتادةَ، وسُفيان بن عُيَينةَ أنهم قالوا: يعني الشَّيبَ. وقال السدِّي، وعبدُ الرحمن بن زَيدِ بن أسلَمَ: يعني به الرسولَ ﷺ. وقرأ ابنُ زيدٍ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٥٦]. وهذا هو الصحيحُ عن قتادة، فيما رواه شَيْبان عنه أنه قال: احتجَّ عليهم بالعُمُر والرسل. وهذا اختيارُ ابن جرير، وهو الأظهرُ، لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨]، أي: لقد بيَّنا لكم الحقَّ على ألسنةِ الرُّسُلِ، فأبيتم وخالفتم. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ٩]. وقولُه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أي: فذُوقوا عذابَ النارِ جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مُدّةِ أعمالكم، فما لكم اليومَ ناصرٌ يُنقِذُكُم مما أنتم فيه من العذاب والنَّكال والأغلالِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

يُخبر تعالى بعلمه غَيْبَ السمواتِ والأرض، وأنه يعلَمُ ما تُكِنُّه السرائرُ وتَنطَوي عليه الضمائرُ، وسَيُجازي كُلَّ عامل بِعَمَلِه. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يخلفُ قوم لآخرين قَبْلَهم، وجيلٌ لجيلٍ قبلَهم، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، أي: فإنما يعودُ وبالُ كُفرِهِ ذلِكَ على نفسه دُونَ غيرِهِ، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، أي: كلما استمرُّوا على كفرهم أبغضَهم الله، وكُلَّما استمرُّوا فيه خسروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم

---

(١) إسناده ضعيف كما سبق. أخرجه أبو يعلى ٦٥٤٤.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه البزار ٣٥٨٦ «كشف»، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٧: فيه عثمان بن مطر، وهو ضعيف.

(٣) الرواية الأولى هي عند البخاري ٣٥٣٦ ومسلم ٢٣٤٩ من حديث عائشة. وأما الرواية الثانية فهي عند البخاري ٥٩٠٠ ومسلم ٢٣٤٧ من حديث أنس. والرواية الثالثة عند مسلم ٢٣٥٢ ح ١٢٢ والترمذي ٣٦٥٢ وأحمد ١/٢٢٣ وأبو يعلى ٢٤١٢ من حديث ابن عباس.

كُلّما طال عُمر أحدِهم وحسُنَ عملُه ارتفعت درجتُه ومنزلتُه في الجنةِ، وزاد أجرُه، وأحبّه خالِقهُ وبارئهُ ربُّ العالمينَ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ أن يَقُولَ للمشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: مِن الأصنام والأندادِ، ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: ليسَ لهم شيءٌ مِن ذلِكَ، مَا يَملِكُونَ من قِطمير. وقولُه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾، أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقُولونه من الشِّركِ والكفر؟ ليس الأمرُ كذلك، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾، أي: بل إنما اتّبعوا في ذلك أهواءَهُم وآراءَهُم وأمانِيَهم التي تَمنّوها لأنفسهم، وهي غرورٌ وباطلٌ وزورٌ. ثم أخبر تعالى عن قُدرته العَظيمة التي بها تَقُوم السماءُ والأرضُ عن أمره، وما جَعَلَ فيهما من القُوّة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، أي: لا يقدِرُ على دَوامهما وإبقائِهما إلا هو، وهو مع ذلك حَليمٌ غفورٌ، أي: يَرَى عبادَه وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فَيُؤخر ويُنظِر ويُؤجّل ولا يَعْجَل، ويسترُ آخرينَ ويَغفِر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

[٥٦٣٧] وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً، بل منكراً، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني هشام بن يُوسُفَ، عن أُمَيّة بن شِبْلٍ، عن الحكم بن أَبانَ، عن عِكْرِمَة، عن أبي هُرَيرَةَ قال: سَمِعتُ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ يحكي عن موسى ـ عليه السلام ـ على المنبر قال: «وَقَعَ في نفسِ مُوسَى ـ عليه السلام ـ: هل يَنامُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ فأرسل الله إليه مَلَكاً، فأرّقه ثلاثاً، وأعطاه قارُورتَين، في كلِّ يدٍ قارُورَةٌ، وأَمَرَه أن يحتفِظَ بهما، قال: فَجَعَلَ ينامُ وتكاد يداه تلتقيانِ، ثم يَسْتَيقظ فيحبِسُ إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومة فاصطفَقَتْ يداه، فتكسّرَت القارورتان، قال: ضَرَبَ الله له مثلاً: أن الله عزَّ وجلَّ لو كان ينامُ لم تَستَمسِك السماءُ والأرض»(١). والظاهرُ أنّ هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليات المُنكَرَة، فإن موسى ـ عليه السلام ـ أجَلُّ من أن يُجوّز على الله ـ سبحانه وتعالى ـ النومَ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيزِ بأنه: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

[٥٦٣٨] وثَبَتَ في الصحيحينِ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخْفِض القِسطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ الليل قبلَ النهار، وعملُ النهارِ قبلَ الليلِ، حِجَابُهُ النورُ أو النار، لو كَشَفه لأحرقَت سُبُحات وَجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خَلْقِهِ»(١).

وقد قال أبو جعفر بنُ جَريرٍ: حدثنا ابن بَشّار، حدثنا عبدُ الرحمن، حدثنا سفيانُ، عن الأعمشِ، عن

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

أبي وائلٍ قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال: من أين جئتَ؟ قال: من الشام. قال: مَن لقيتَ؟ قال: لقيتُ كعباً. قال: ما حَدَّثك كعب؟ قال: حَدَّثني أن السموات تدورُ على مِنكب مَلَك. قال: أفصدَّقته أو كَذَّبته؟ قال: ما صَدَّقته ولا كَذَّبتُه. قال: لَوَدِدْتُ أنك افتديتَ من رِحْلَتِكَ إليه بِرَاحِلَتِكَ وَرَحْلِها، كَذَب كعبٌ. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ . وهذا إسنادٌ صَحيحٌ إلى كعب وإلى ابن مَسعُودٍ. ثم رواه ابن جرير عن ابن حُمَيد، عن جَرير، عن مُغيرَةَ، عن إبراهيم قال: ذَهَبَ جُندب البَجَلي إلى كعب بالشام، فَذَكر نحوه. وقد رأيتُ في مصنف الفَقِيه يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطُلَيْطِليّ، سَمَّاه «سِيرُ الفقهاء»، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع، عن وكيع، عن الأعمش، به. ثم قال: وأخبرنا زُونان ـ يعني عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وَهْبٍ، عن مالك أنه قال: السماءُ لا تَدُور. واحتج بهذه الآية، وبحديثِ:

[٥٦٣٩] «إنَّ بالمغرب باباً للتَّوبةِ لا يَزَالُ مفتوحاً حتى تَطلُعَ الشمسُ منه»(١) . قلت: وهذا الحديث في الصحيح، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

يُخبِر تعالى عن قُريش والعرب أنهم أقسمُوا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ ، قبل إرسالِ الرسولِ إليهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ ، أي: من جميع الأُمَم الذين أُرسِلَ إليهم الرُّسُل. قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٧ ـ ١٧٠]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ، وهو محمد ﷺ، بما أُنزلَ معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المُبين، ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ، أي: ما ازدادوا إلا كُفراً إلى كُفرِهم. ثم بَيَّن ذلك بقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، أي: استكبَرُوا عن اتِّباع آياتِ الله، ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ ، أي: ومَكرُوا بالناس في صَدِّهم إياهم عن سبيل الله، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ، أي: وما يعودُ وَبَالُ ذلك إلا عليهم أنفسِهم دونَ غيرهم.

[٥٦٤٠] قال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحُسَين، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيان، عن أبي زكريا الكوفي، عن رَجُلٍ حَدَّثه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إيَّاكَ ومكر السيِّىء، فإنه لا يَحيقُ المكرُ السيِّىء إلا بأهله، ولهم من الله طالب»(٢) . وقد قال محمد بن كعب القُرَظي: ثَلاثٌ مَن فَعَلهُنَّ لَم ينجُ حتى يَنْزِل به، مَن مَكَر أو بَغَى أو نَكَثَ، وتصديقُها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام، عند آية: ١٥٨.

(٢) إسناده ضعيف. شيخ أبي زكريا الكوفي لم يسم. ولم يقل إنه من الصحابة، وعلة ثانية وهي أن ابن أبي حاتم أخرجه بقوله: ذكر علي بن الحسين، وهذه صيغة تعليق، والله أعلم، وقد ذكره السيوطي في الدر ٥/ ٤٨٠ وعزاه لابن أبي حاتم وحده، بهذا الإسناد.

أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]، وقولُه عزّ وجلّ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعني: عُقوبَة الله لهم على تكذيبهم رُسُلَه ومخالفتهم أمْرَه، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أي: لا تُغيَّر ولا تُبدَّل، بل هي جاريةٌ كذلك في كل مُكذِّب، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، أي: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يَكشِفُ ذلك عنهم ويحوّله عنه أحدٌ.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمّدُ لهؤلاء المكذِّبين بما جئتَهم به من الرسالة: سِيرُوا في الأرض فانظرُوا كيفَ كان عاقبةُ الذين كَذَّبوا الرسل، كيف دَمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالُها، فَخُلِّيَتْ منهم مَنازلُهم، وسُلِبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كَمَال القُوَّة، وكثرةِ العَدَد والعُدَد، وكَثْرَةِ الأموالِ والأولادِ، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دَفَعَ عنهم من عذاب الله من شيءٍ لما جاءَ أمرُ ربك، لأنه تعالى لا يُعجِزُه شَيءٌ إذا أراد كونَه في السمواتِ والأرض، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، أي: عليم بجميع الكائنات، قَدِيرٌ على مَجمُوعها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: لو آخذهم بجميع ذُنوبهم لأهلك جميعَ أهلِ الأرض، وما يَملِكُونه من دَوابَّ وأرزاقٍ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيان الثوري، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كاد الجُعَل أن يُعذَّبَ في جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابنِ آدمَ، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. وقال سعيد بن جُبير، والسُّدِّي في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: لما سَقَاهم المَطَر، فماتت جميعُ الدوابّ. ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: ولكن يُنظرهُم إلى يوم القيامة فَيُحاسِبُهم يومئذٍ، ويُوَفِّي كلَّ عاملٍ بعمله، فيجازي بالثوابِ أهلَ الطاعةِ، وبالعِقَابِ أهلَ المعصية. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

## آخر تفسير سُورَةِ فاطر، ولله الحمدُ والمنة

# سورة يس

ترتيبها ٣٦ — آياتها ١٨٢

## وهي مكية

[٥٦٤١] قال أبو عِيسَى التِّرمذي: حَدَّثنا قتيبة وسُفيان بن وَكيع، حدثنا حُمَيد بن عبد الرحمن الرُّؤاسِيُّ، عن الحسن بن صالح، عن هارونَ أبي محمد، عن مُقَاتِل بن حَيَّان، عن قتادَةَ، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً، وقلبُ القرآنِ «يس». ومن قرأ «يس» كَتَب الله له بقراءتها قراءة القرآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ»[١]. ثم قال: «هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرِفه إلا من حديث حُمَيد بن عبد الرحمن. وهارونُ أبو محمدٍ شيخٌ مجهولٌ. وفي الباب عن أبي بكر الصِّديق، ولا يَصِحُّ لِضَعفِ إسناده». وعن أبي هُرَيرَة منظورٌ فيه. أما حديثُ الصديق فرواه الحكيم التِّرمِذيُّ في كتابه نوادر الأصول[٢].

[٥٦٤٢] وأما حديثُ أبي هُرَيرَة فقال أبو بكر البَزَّار: حدثنا عبدُ الرحمن بن الفَضل، حدثنا زيدٌ ـ هو ابن الحُبَاب ـ حدثنا حُمَيد ـ هو المَكِّي، مولى آل عَلْقَمَة ـ عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قَلباً، وقلبُ القرآنِ يس»[٣]. ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيدٌ، عن حُمَيد.

[٥٦٤٣] وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا إسحاقُ بن أبي إسرائيلَ، حدثنا حَجَّاج بن محمد، عن هِشَام بن زِيَادٍ، عن الحسن قال: سَمِعتُ أبا هريرة يقولُ: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن قَرَأَ يس في ليلةٍ أصبحَ مغفوراً له. ومَن قَرَأَ «حم» التي يُذكَرُ فيها الدُّخَانُ أصبحَ مغفوراً له»[٤]. إسناد جيد.

---

(١) باطل: أخرجه الترمذي ٢٨٨٧ والدارمي ٢/ ٤٥٦ والقضاعي ١٠٣٥ والخطيب ٤/ ١٦٧ والحكيم الترمذي في «النوادر» ص ٣٣٥ من حديث أبي هريرة. وضعفه الترمذي بقوله: غريب. وهارون أبو محمد مجهول. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» ٢/ ٥٥ ـ ٥٦: سألت أبي عن هذا الحديث، فقال: مقاتل هذا ابن سليمان، رأيت هذا الحديث في أول كتاب وضعه، وهو حديث باطل لا أصل له. وقال الذهبي في ترجمة هارون: أنا أتهمه بهذا الحديث.

(٢) حديث أبي بكر. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٤٦٥ والترمذي الحكيم في «النوادر» ٢/ ٢٤٤ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ وقال ابن الجوزي: باطل لا أصل له، وفيه محمد بن عبد الرحمن الجدعاني، قال النسائي: متروك الحديث. وهو كما قال باطل فإن فيه «ومن قرأها عدلت له عشرين حجة..». وهذه المبالغة تدل على وضعه، ما عدا ألفاظ أخرى فيه منكرة.

(٣) ضعيف. أخرجه البزار في «السنن» ٣/ ٨٧ وفيه حميد المكي، ذكره ابن عدي في الكامل ٢/ ٢٧٤ وأسند له حديثاً غير هذا، وقال: وله حديثان، وقال البخاري: لا يتابع على حديثه. ونقله عنه الذهبي في «الميزان ٢٣٥٧» ووافقه.

(٤) غير قوي، أخرجه أبو يعلى ٦٢٢٤ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٣٤٧ من حديث أبي هريرة، وحكم ابن الجوزي ببطلانه، وأعله بمحمد بن زكريا، وليس هو علته فقد توبع عند أبي يعلى، وعلته هشام بن زياد، فهو متروك. والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد توبع هشام عند الطيالسي ٢٤٦٧ تابعه فرقد، لكن الظاهر أن فيه إرسالاً، وتابعهما محمد بن حمادة عند الدارمي ٢/ ٤٥٧ وتابعهم الحسن بن دينار عند ابن عدي ٢/ ٢٩٩ وتابعهم أغلب بن تميم عند الطبراني في «الصغير» ٤١٧، وأغلب هذا واهٍ. ورواه ابن السني ٦٧٤ عن أغلب هذا عن أيوب، ويونس، وهشام عن الحسن عن =

[٥٦٤٤] وقال ابنُ حِبّان في صَحِيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيمَ مولى ثَقِيفٍ، حدثنا الوليد بن شُجَاع بن الوليد السَّكُوني، حدثنا أبي، حدثنا زياد بن خَيْثَمة، حدثنا محمد بن جُحَادَة، عن الحَسَن، عن جُنْدَبِ بن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ يس في ليلةٍ ابتغاء وجهِ الله غُفِرَ له»(١).

[٥٦٤٥] وقد قالَ الإمام أحمد: حدثنا عارمٌ، حدثنا مُعْتَمِر، عن أبيه، عن رَجُلٍ، عن أبيه، عن مَعقِل بن يَسَار ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «البقرةُ سَنَام القرآن وذِرْوَته، نَزَل مع كل آيةٍ منها ثمانون مَلَكاً، واستُخرِجَت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ من تحتِ العرشِ فَوُصِلَت بها ـ أو: فَوُصِلَت بِسُورَةِ البقرة ـ ويس قلبُ القرآن، لا يقرؤها رَجُلٌ يريدُ الله والدارَ الآخرة، إلا غُفِرَ له، واقرؤوها على مَوْتَاكُم»(٢).

وكذا رواه النَّسائي في «اليومِ واللَّيلةِ»، عن محمد بن عبد الأعلى، عن معتمر بن سليمان، به.

[٥٦٤٦] ثم قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عارمٌ، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا سُلَيمان التَّيمي، عن أبي عثمان ـ وليس بالنَّهدي ـ عن أبيه، عن مَعقِل بن يسار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اقرؤوها على موتاكم»، يعني يس»(٣). ورواه أبو داود، والنَّسائي في «اليوم والليلة»، وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك، به؛ إلا أن في رواية النَّسائي: عن أبي عُثمَان، عن مَعقِل بن يَسَارٍ. ولهذا قال بعضُ العلماء: من خصائِص هذه السورةِ أنها لا تُقرأ عند أمرٍ عَسيرٍ إلا يَسَّره الله تعالى. وكأن قِراءَتها عند الميتِ لِتَنْزِلَ الرحمةُ والبركةُ، وليسهُلَ عليه خروجُ الرُّوح، والله تعالى أعلم. قال الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: «إذا قُرِئت ـ يعني يس ـ عند الميت خَفَّف الله عنه بها».

[٥٦٤٧] وقال البزّارُ: حدثنا سَلَمةُ بن شَبِيب، حدثنا إبراهيمُ بن الحَكَم بن أبانَ، عن أبيه، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباسٍ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «لَوَدِدْتُ أنَّها في قلبِ كلِّ إنسانٍ من أُمَّتي»، يعني يس(٤).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧﴾

قد تقدَّم الكلام على الحروف المُقَطَّعة في أول «سُورةِ البَقَرة». ورُوي عن ابن عباس، وعِكْرِمة، والضحاك، والحسن، وسفيان بن عُيَينة: أن «يس» بمعنى: يا إنسان. وقال سعيد بن جُبَير: هو كذلك في لغة

---

= أبي هريرة. وبهذا يتبين أن علة الحديث هي الانقطاع بين الحسن وأبي هريرة، فالإسناد ضعيف. وورد من حديث أنس أخرجه الطبراني ١٢٣١٠ وفي «الصغير» ١٠١٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٢٢٩٨: فيه سعيد بن موسى الأزدي وهو كذاب اهـ فلا يصلح حديثه شاهداً لما قبله. وانظر ما بعده.

(١) إسناده ضعيف. أخرجه ابن حبان ٢٥٧٤، وقال الشيخ شعيب: رجاله ثقات، لكن فيه عنعنة الحسن اهـ قلت: ذكر ابن أبي حاتم في «المراسيل» ٤٢ أن الحسن لم يسمع من جندب. فالإسناد ضعيف لانقطاعه.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٥/ ٢٦ وفيه من لم يسمّ، وقد سميا في الإسناد الآتي. فانظره.

(٣) إسناده ضعيف، وتقدم الكلام عليه باستيفاء في فضائل سورة البقرة.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه البزار ٣/ ٨٧، وفيه ابراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف. وقد خلط في هذا الحديث فقد أخرجه الطبراني ١١٦١٦ من طريقه بهذا السياق لكن جعله في فضائل سورة الملك حيث قال فيه «يعني: تبارك الذي بيده الملك» اهـ. وانظر «المجمع» ١١٤٢٩.

الحبشة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى. ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾، أي: المحكَم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلْفِه، ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمدُ ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: على مَنْهجٍ ودِينٍ قويم، وشَرْعٍ مستقيم، ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾، أي: هذا الصِّراطُ والمنهجُ والدِّينُ الذي جئتَ به مُنَزَّلٌ من ربِّ العزةِ الرحيم بعبادِهِ المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]. وقولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾، يعني بهم العربَ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهُم وحدَهم لا ينفِي مَن عداهم، كما أن ذِكْرَ بعضِ الأفراد لا ينفِي العُمُومَ. وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ الآيات والأحاديث المتواترة في عُموم بعثته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقولُه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾، قال ابنُ جريرٍ: لقد وَجَبَ العذابُ على أكثرهم بِأَنَّ الله حَتَم عليهم في أُمِّ الكتاب أنَّهم لا يُؤْمِنُونَ، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، ولا يُصَدِّقون رُسُلَه.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾

يقولُ تعالى: إنَّا جعلنا هؤلاءِ المحتومِ عليهم بالشقاء نسبتُهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة مَن جُعِل في عنقه غُلٌّ، فجمَعَ يديه مع عُنُقه تحت ذَقْنِه، فارتفع رأسُه، فَصار مقمَحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، والمُقمَحُ هو الرافع رأسه، كما قالت أم زَرْع في كلامها: «وأشرب فأتقمَّح»[1]، أي: أشرب فأروَى، وأرفع رأسِي تَهْنيئاً وتَرَوِّياً. واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فَـمَـا أدْرِي إذا يَـمَّـمْـتُ أرضـاً ... أُريـدُ الـخَـيْـرَ أيُّـهـمـا يَـلِـيـنِـي
أأَلْـخَـيْـرُ الَّـذي أنـا أبْـتَـغِـيـهِ ... أَمِ الـشَّـرُّ الـذي لا يَـأْتَـلِـيـنِـي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السِّياقُ والكلامُ عليه، وكَذَا هذا، لما كان الغُلُّ إنما يُعرَفُ فيما جَمَع اليدين مع العُنُقِ اكتفى بذكر العُنقِ عن اليدين. قال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾، قال: هو كقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، يعني بذلك أن أيديهم مُوثَقَةٌ إلى أعناقِهم، لا يستطيعون أن يَبْسُطُوها بخير. وقال مجاهد: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، قال: رافِعُو رُؤوسِهم، وأيديهم موضوعةٌ على أفواههم، فهم مغلولُون عن كلِّ خيرٍ. وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾، قال مجاهد: عن الحق، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، قال مجاهد: عن الحقّ، فهم يتردَّدُون. وقال قتادة: في الضلالات. وقولُه تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾، أي: أغشينا أبصارَهم عَنِ الحقّ، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أي: لا يَنْتَفِعُونَ بخيرٍ ولا يَهْتَدُونَ إليه. قال ابنُ جرير: ورُوِيَ عن ابن عباس أنه كان يَقرأُ «فأعشيناهم»، بالعَين المهملة، من العَشَا، وهو داءٌ في العين. وقال عبد الرحمن بن زَيد بن أسلم:

(١) هو بعض حديث مطوّل أخرجه مسلم.

جَعَل الله هذا السَّد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يَخلُصون إليه، وقرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع. وقال عكرمة: قال أبو جَهلٍ: لئن رأيتَ مُحَمَّداً لأفعلنَّ ولأفعلنَ. فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، قال: وكانوا يقولون: هذا محمدٌ. فيقول: أين هُوَ؟ أين هو؟ لا يُبْصِرُه. رواه ابن جرير.

[٥٦٤٨] وقال محمد بن إسحاق: حدثني يَزيدُ بن زِيادٍ، عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوسٌ: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتُموه كنتم ملوكاً، فإذا مِتُّم بُعِثْتُم بعد موتكم، وكانت لكم جِنانٌ خير من جنان الأُرْدُن. وأنكم إن خالفتُموه كان لكم منه ذَبحٌ، ثم بُعِثتم بعد مَوتِكُم وكانت لكم نارٌ تُعَذَّبون بها. وخرج عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك، وفي يَدِه حَفْنَةٌ من تُرابٍ، وقد أخذ الله على أعينُهم دُونَه، فجعل يَذُرُّها على رؤوسهم، ويقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾، حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾، وانطلق رسول الله ـ ﷺ ـ لحاجته، وباتوا رُصَداء على بابه، حتى خَرَجَ عليهم بعد ذلك خارجٌ من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: نَنتظِرُ مُحَمَّداً. قال: قد خَرَجَ عليكم، فما بقي منكم من رَجُلٍ إلا وَضَعَ على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته. فَجَعل كلُّ رجُلٍ منهم يَنْفُضُ ما على رأسه من التُراب. قال: وقد بلغ النبيَّ ـ ﷺ ـ قولُ أبي جهل فقال: «وأنا أقولُ ذلكَ: إن لهم مني لَذَبحاً، وإنه لأحدهم»[1].

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾، أي: قد خَتَم الله عليهم بالضلالة، فما يُفِيد فيهم الإنذارُ ولا يَتأثَّرونَ به. وقد تَقَدَّم نظيرها في أول «سورة البقرة» وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾، أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذي يَتَّبعون الذِّكر، وهو القرآنُ العظيمُ، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: حيثُ لا يراه أحدٌ إلا الله، يعلَم أن الله مُطَّلِعٌ عليه، وعالم بما يفعلُه، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾، أي: لذُنوبِه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾، أي: كبيرٍ واسع حَسَنٍ جميلٍ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: يومَ القيامةِ، وفيه إشارةٌ إلى أن الله تعالى يُحيي قَلْبَ مَن يشاءُ من الكفار الذين قد ماتت قلوبُهم بالضَّلالة، فَيَهدِيهم بعد ذلك إلى الحقّ، كما قال بعدَ ذِكرِ قَسْوَةِ القلوب، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد: ١٧]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾، أي: من الأعمال. وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشَرُوها بأنفسهم، وآثارَهم التي آثَرُوها منْ بَعدِهُم، فنجزيهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌ.

[٥٦٤٩] كقوله ـ ﷺ ـ: «من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً كان له أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها مِن بَعْدِه، من غير أن يَنقُصَ من أُجورِهم شيئاً، ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزرُها وَوِزْرُ مَن عَمِل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»[2]. رواهُ مُسلمٌ، من رواية شعبة، عن عَون بن أبي جُحَيفَة، عن

(١) هذا مرسل. وأصله محفوظ بل مشهور.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١.

المنذر بن جَرير، عن أبيه جَرير بن عبد الله البَجَلِيّ ـ رضي الله عنه ـ وفيه قِصَّةُ مُجْتَابي النِّمار[١] المُضَرِيِّين. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن سليمان الجعفي، عن أبي المحياة يحيى بن يَعْلَى، عن عبد الملك بن عُمَير، عن جَرِير بن عبد الله. فذكر الحديث بِطُوله، ثم تَلاَ هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾. وقد رواه مسلم من رواية أبي عَوَانَةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن المُنذِر بن جَرِير، عن أبيه فذكره.

[٥٦٥٠] وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مُسلم عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا مات ابن آدم انقطع عَمَلُه إلا من ثلاثٍ: منَ علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعُو له، أو صَدَقةٍ جاريةٍ من بعده»[٢].

وقال سُفيان الثوريُّ، عن أبي سَعِيد قال: سَمِعت مجاهداً يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، قال: ما أَوْرَثُوا من الضَّلاَلَةِ. وقال ابن لَهيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَير في قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، يعني: ما أَثَّرُوا، يقول: ما سَنُّوا من سُنَّةٍ، فَعمِل بها قومٌ من بعد موتهم، فإن كان خيراً فله مثلُ أجُورهم، لا ينقُص من أجر مَن عَمِله شيئاً، وإن كانت شَرّاً فعليه مثلُ أوزارهم، ولا يَنقُصُ مِن أوزارِ مَن عَمِلَ بها شيئاً. ذكرهما ابن أبي حاتم. وهذا القول هو اختيار البَغَوِيّ.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خُطاهم إلى الطاعة أو المعصية. قال ابنُ أبي نَجِيح وغيرُه، عن مجاهد: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾، أعمالهم، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾، قال: خُطاهم بأرجلهم. وكذا قال الحسنُ وقتادةُ: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾، يعني: خُطَاهم. قال قتادةُ: لو كان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُغْفِلاً شيئاً من شأنِكَ يا ابنَ آدمَ أغفل ما تُعَفِّي الرياحُ من هذه الآثارِ، ولكن أَحْصَى على ابن آدم أَثَره وعَمَله كُلَّه، حتى أحصى هذا الأَثَرَ فيما هُو من طاعةِ الله أو من مَعْصِيَتِهِ، فَمَنِ استطاعَ منكم أن يُكتَبَ أَثَرُه في طاعةِ الله فَلْيَفعَلْ. وقد وَرَدَت في هذا المعنى أحاديث:

[٥٦٥١] الحديث الأولُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيري، عن أبي نَضْرَةَ، عن جابر بن عبد الله قال: خَلَت البِقاع حولَ المسجد، فأراد بنو سلِمة أن يَنتقِلُوا قُربَ المسجدِ؟ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بَلَغني أنكم تُريدون أن تنتقلوا قُربَ المسجدِ؟» قالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال ﷺ: «يا بني سَلِمة، ديارَكُم، تُكتَبْ آثارُكم، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم»[٣]. وهكذا رواه مسلم، من حديث سَعِيد الجُرَيري وكَهْمَس بن الحسن، كلاهما عن أبي نَضْرَة ـ واسمه المنذرُ بن مالك بن قِطْعَة العَبْدِيّ ـ عن جابر، به.

[٥٦٥٢] الحديث الثاني، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي، حدثنا إسحاق الأزرقُ، عن سُفيان الثَّوريّ، عن أبي سُفيانَ، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيدِ الخُدْرِيّ قال: كانت بنو سَلِمَة في ناحيةِ من المدينة، فأرادُوا أن يَنتقِلُوا إلى قريبٍ من المسجد، فنزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا

---

(١) أي لابسيها، والنمرة: ثياب من صوف فيها تنمير. وقيل: هي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٦٦٥ وأحمد ٣/ ٣٣٢ وابن حبان ٢٠٤٢ من حديث جابر.

وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾، فقال لهم النبي ـ ﷺ ـ: «إن آثاركم تُكتَبُ». فلم ينتقلوا(١). تَفَرَّدَ بإخراجه الترمذي عند تفسير هذه الآية الكريمة، عن محمد بن الوزير، به. ثم قال: «حَسَنٌ غَرِيبٌ من حَدِيث الثوري». ورواه ابن جَرير، عن سليمان بن عُمَر بن خالد الرقي، عن ابن المبارك، عن سُفيانَ الثَّوري، عن طَرِيفٍ ـ وهو ابن شهاب أبو سفيان السَّعدي ـ عن أبي نَضرَة، به. وقد رُوِي من غير طريق الثَّوري، فقال الحافظ أبو بكر البزَّار:

[٥٦٥٣] حدثنا عَبَّاد بن زِياد السَّاجِي، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا شُعبَةُ، عن سعيد الجُرَيري، عن أبي نَضرَةَ، عن أبي سعيد قال: إن بني سَلِمة شَكَوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بُعدَ مَنازِلهم من المسجدِ، فنزلت: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمۡۚ﴾، فأقاموا في مكانهم(٢).

[٥٦٥٤] وحَدَّثنا محمد بن المثنَّى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا الجُرَيريُّ، عن أبي نَضرَةَ، عن أبي سَعِيدٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه(٣). وفيه غَرابة مِن حيثُ ذِكرُ نُزولِ هذه الآية، والسورةُ بكمالها مكِّية، فالله أعلم.

[٥٦٥٥] **الحديث الثالث**، قال ابنُ جَرِير: حدثنا نصرُ بن علي الجَهضَمِيُّ، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيريُّ، حدثنا إسرائيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكرِمَة، عن ابن عباس قال: كانت منازلُ الأنصارِ متباعدةً من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمۡۚ﴾، فقالوا: نَثبُتُ مكانَنا(٤). هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع.

[٥٦٥٦] ورواه الطَّبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مَريَم، عن محمد بن يوسف الفِريابيِّ، عن إسرائيلَ، عن سِمَاكٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ قال: كانت الأنصارُ بعيدةً منازِلُهم من المسجد، فأرادوا أن يَتحوَّلوا إلى المسجدِ، فنزلت: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمۡۚ﴾، فَثَبتُوا في منازِلهم(٥).

[٥٦٥٧] **الحديثُ الرابع**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثني حُيَيّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: تُوُفِّيَ رجلٌ بالمدينة، فَصَلَّى عليه النبي ﷺ وقال: «يا ليته ماتَ في غير مَوْلِدِه». فقال رجلٌ من الناس: ولِمَ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا تُوُفِّيَ في غير مولده قِيسَ له من مَوْلِده إلى مُنقَطَع أَثَرِه في الجنة»(٦). ورواه النسائي عن يونس بن عبد

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٢٢٦ والطبري ٢٩٠٧٣ والواحدي ٧٢٠ والحاكم ٢/ ٤٢٨ من حديث أبي سعيد، ومداره عندهم على طريف بن شهاب أبي سفيان، وهو متروك الحديث ليس بشيء. وقلب اسمه في المستدرك، ففيه «أبي سفيان سعد بن طريف» وقد اختلف في اسمه راجع الميزان ٢٩٨٥، وأياً كان، فهو متروك. ومع ذلك حسنه الترمذي، لكن استغربه. وقال الحاكم: صحيح عجيب، وسكت الذهبي، وليس بجيد منه رحمه الله، والمنكر فيه ذكر نزول الآية، مع أن السورة مكية بكاملها كما ذكر ابن كثير ـ رحمه الله، وقد رواه مسلم على الصواب فليس فيه ذكر نزول الآية، وانظر ما بعده.

(٢) رجاله ثقات، لكن ذكر نزول الآية فيه غريب، ولعل الصواب ـ والله أعلم ـ أنه لما شكى بنو سلمة، قرأ عليهم النبي ـ ﷺ ـ هذه الآية، فعبر بعض الرواة عن ذلك بقوله «نزلت» والله أعلم.

(٣) فيه عبد الأعلى بن عبد الأعلى ثقة، وفيه كلام، وتقدم الكلام على ذلك فيما قبله، والله أعلم.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ٢٩٠٦٩ و ٢٩٠٧٠ وفيه سماك بن حرب، اختلط فضعف لأجل ذلك.

(٥) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني ١٢٣١٠ وأفاد الهيثمي في «المجمع» ١١٢٩٩بأن شيخ الطبراني ضعيف، ولكن توبع عند الطبري، وعلته سماك بن حرب كما تقدم، والله أعلم.

(٦) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٩٥٨ وابن ماجة ١٦١٤ وأحمد ٢/ ١٧٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وعند أحمد ابن لهيعة، وهو ضعيف، لكن تابعه ابن وهب، ومداره على حيي بن عبد الله المعافري. قال البخاري: فيه نظر. =

الأعلى، وابن ماجة عن حَرْمَلة، كلاهما عن ابن وهب، عن حُيَيِّ بن عبد الله، به. وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا أبو تُمَيلة، حدثنا الحسين، عن ثابت قال: مشيتُ مع أنس فأسرعت المشي، فأخذ بيدي فمشينا رُويداً، فلما قَضَينا الصلاة قال أنسٌ: مشيتُ مع زيدِ بن ثابت فأسرعتُ المشيَ، فقال: يا أنسُ، أما شَعَرْتَ أن الآثار تُكتبُ؟! أما شَعَرْتَ أن الآثار تُكتَبُ؟! وهذا القولُ لا تنافِيَ بينه وبين الأوَّلِ، بل في هذا تنبيهٌ ودلالةٌ على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب، فَلأنْ تُكْتَبَ تلك التي فيها قُدوة بِهِم من خير أو شرٍّ بطريق الأولى، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي: جميع الكائنات مكتوبٌ في كتابٍ مسطورٍ مضبوطٍ في لوح محفوظ، والإِمام المبينُ ها هنا هو: أمُّ الكتاب. قاله مجاهد، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي: بكتاب أعمالهم الشاهِد عليهم بما عَمِلُوه من خير وشرٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ ـ يا محمدُ ـ لقومكَ الذين كَذَّبوك ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن مُنَبِّه ـ: إنها مدينة أَنطاكِية، وكان بها مَلِكٌ يقال له: أنطيخس بن أنطيخس بن أنطيخس، وكان يعبد الأصنامَ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثةً من الرسل، وهم: صادق وصَدُوق وشَلُوم، فكذَّبهم. وهكذا رُوي عن بُرَيدة بن الحُصَيب، وعكرمة، وقتادة، والزهري: أنها أنطاكية. وقد استشكلَ بعضُ الأئمة كونَها أنطاكية بما سنذكرُه بعد تَمَام القِصَّة، إن شاء الله تعالى. وقولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾، أي: بَادَرُوهما بالتكذيب، ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، أي: قوّيناهم وشدَّدنا أَزْرَهُما برسولٍ ثالث. قال ابنُ جُرَيج، عن وهب بن سُلَيمان، عن شُعيب الجَبَئِيِّ قال: كان اسمُ الرسُولين الأولين شَمعون ويُوحنَّا، واسم الثالث بُولَص، والقرية أنطاكية. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾، أي: لأهل تلك القرية: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، أي: من ربِّكم الذي خَلَقكم، نأمركم بعبادته وحدَه لا شريك له، قاله أبو العالية. وزعم قتادةُ بن دِعامَةَ: أنهم كانوا رُسُل المسيح ـ عليه السلام ـ إلى أهل أنطاكية، ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: فكيف أُوحِيَ إليكم وأنتم بَشَرٌ ونحن بَشَرٌ، فَلِمَ لا أُوحيَ إلينا مِثْلَكم؟ ولو كنتُم رُسُلاً لكنتم ملائكةً. وهذه شُبْهَةُ كثيرٍ من الأمم المكذِّبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، أي استعجبُوا من ذلك وأنكروه. وقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقوله حكايةً عنهم في قوله

---

= وقال ابن معين: ليس به بأس. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال أحمد: أحاديثه مناكير اهـ الميزان. وقال النسائي عقب الحديث: حيي بن عبد الله، ليس ممن يعتمد عليه، وهذا الحديث عندنا غير محفوظ ـ والله أعلم ـ لأن الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ «من استطاع أن يموت في المدينة فإني أشفع لمن مات بها» اهـ كلامه، فالحديث غير قوي، والله أعلم.

تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤]. ولهذا قال هؤلاء: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: أجابتهم رسُلُهم الثلاثةُ قائلين: الله يعلمُ أنا رُسُله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه لانتقمَ منَّا أشدَّ الانتقام، ولكنه سيُعِزُّنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبةُ الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢]. ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾، يقولون: إنما علينا أن نُبلِّغكم ما أُرسِلنا به إليكم، فإن أطعتم كانت لكم السعادةُ في الدنيا والآخرة، وإن لم تُجيبوا فَستعلمون غِبَّ ذلك. والله أعلم.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

فعند ذلك قال لهم أهلُ القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: لم نر على وجُوهكم خيراً في عَيشنا. وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شرٌّ فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون: لم يدخُل مثلكم إلى قرية إلا عُذِّب أهلها. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشَّتم. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: عقوبة شديدة. فقالت لهم رسلهم: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: مَرْدُودٌ عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وقال قوم صالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال قتادة، ووَهبُ بن مُنبِّه: أي أعمالُكم مَعَكُم. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. وقولُه: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: من أجل أنَّا ذكَّرناكم وأمرناكُم بتوحيدِ الله وإخلاصِ العبادةِ له، قابلتُمونا بهذا الكلام، وتوَعَّدتُمونا وتهدَّدتُمونا؟! بل أنتم قومٌ مُسرِفُون. وقال قتادةُ، أي: إن ذَكَّرناكم بالله تَطَيَّرتم بنا، بل أنتم قومٌ مُسرفُون.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قال ابن إسحاق ـ فيما بلَغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووَهبِ بن مُنبِّه ـ: إنَّ أهلَ القريةِ هَمُّوا بقتل رُسُلِهم، فجاءَهُم رَجُلٌ من أقصى المدينةِ يسعى، أي: لينصُرَهم من قومه ـ قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجَريرَ ـ وهو الحِبالُ ـ وكان رَجُلاً سقيماً، قد أسرع فيه الجُذام، وكان كَثِيرَ الصَدَقَةِ، يَتصدَّق بنصف كَسْبِهِ، مُستقيمَ النَّظْرَةِ. وقال ابن إسحاق عن رجل سماه، عن الحَكَم، عن مِقْسَم ـ أو: عن مجاهد ـ عن ابن عباس قال: اسمُ صاحِبِ يس حَبِيبٍ، وكان الجُذَام قد أسرَعَ فيه. وقال الثوريُّ، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجلَزٍ: كان اسمُه حبيبَ بنَ مري. وقال شَبِيب بن بِشرٍ، عن عِكرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: اسمُ صاحبِ يس

حبيبُ النَّجار، فقتله قومه. وقال السدي: كان قَصَّاراً. وقال عُمَر بنُ الحَكَم: كان إسكافاً. وقال قتادة: كان يتعبَّد في غارٍ هناك. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، يَحُضُّ قومَه على اتِّباع الرُّسُلِ الذين أتوهم، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾، أي: على إبلاغ الرسالةِ، ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فيما يدعُونكم إليه، من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، أي: وما يمنعُني من إخلاص العبادةِ للذي خَلَقني وحدَه لا شريكَ له، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: يومَ المَعَاد، فيُجازيكم على أعمالِكم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ. ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ، ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، أي: هذه الآلهة التي تعبُدونها مَن دُونه لا يَملِكُون من الأمرِ شيئاً، فإن الله لو أرادَني بسُوءٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وهذه الأصنامُ لا تملِكُ دَفْعَ ذلك ولا مَنْعَه، ولا ينقذونني مما أنا فيه، ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾، أي: إن اتخذتُها آلهةً من دونِ الله. وقولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾، قال ابنُ إسحاقَ فيما بَلَغه عن ابن عباس، وكعب، وَوَهْبٍ، يقولُ: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾، الذي كَفرتُم به، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾، أي: فاسمَعُوا قولي. ويَحتَمِلُ أن يكونَ خطابُه للرُّسُلِ بقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾، أي: الذي أرسَلَكم، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾، أي: فاشهَدُوا لي بذلك عندَه. وقد حكاه ابنُ جريرٍ فقال: وقال آخرون: «بل خاطَبَ بذلك الرُّسُلَ، وقال لهم: اسمَعُوا قَولي، لِتَشهَدُوا لي بما أقول لكم عند ربِّي، إنِّي قد آمنتُ بربِّكم واتَّبَعتُكم». وهذا الذي حَكاه عن هؤلاء أظهرُ في المعنى، والله أعلم. قال ابن إسحاق ـ فيما بَلَغه عن ابن عباسٍ، وكَعْبٍ، وَوَهْبٍ ـ: فلما قال ذلك وَثَبُوا عليهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ فَقَتلُوه، ولم يكن له أحدٌ يمنعُ عنه. وقال قَتادةُ: جَعَلُوا يرجُمُونَه بالحجارةِ، وهو يقولُ: «اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلَمُون». فلم يزالوا به حَتَّى أقعصُوه وَهُوَ يقول كذلك. فَقتَلُوه، رَحِمَهُ الله.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾

قال محمدُ بن إسحاقَ، عن بعضِ أصحابِه، عن ابن مسعودٍ: أنهم وَطِئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ من دُبُره. وقال الله تعالى له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، فدخلَها، فهو يُرزَقُ منها، قد أذهب الله عنه سُقْمَ الدنيا وحُزنَها ونَصبَها. وقال مجاهد: قيل لحبيب النجّار: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، وذلك أنه قُتِلَ فوجبت له الجنّة، فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾. قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشاً، لِمَا عاين ما عايَنَ مِن كَرَامَةِ الله تعالى، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾، تمنى والله أن يعلم قومُه بما عاينَ من كرامةِ الله، وما هَجم عليه. وقال ابنُ عبَّاس: نَصَحَ قومَه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وبعد مَماتِهِ في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقال سفيان الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجْلَزٍ: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾، بإيماني بربِّي، وتَصْدِيقي المُرْسَلِينَ. ومقصُوده أنهم لو اطَّلَعُوا على ما حَصَل من الثوابِ والجزاءِ والنعيمِ المقيمِ لقادَهُم ذلك إلى اتِّباع الرُّسُل، فَرَحِمَه الله ورَضِي عنه، فلقد كان حريصاً على هِدَايَة قومِهِ.

[٥٦٥٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله، حدثنا ابن جابر ـ وهو محمد ـ عن

عبد الملك ـ يعني ابن عُمَير ـ قال: قال عُروةُ بن مَسعُودٍ الثَّقفي للنبي ـ ﷺ ـ: ابعثني إلى قومي أدعُوهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني أخاف أن يقتُلوكَ. فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظُوني. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «انطلق». فانطلق فمرَّ على اللاتِ والعُزَّى، فقال: لأُصبِحَنَّكِ غداً بما يَسُوءُكِ. فَغَضِبت ثقيفُ، فقال: يا معشَرَ ثقيف، إن اللات لا لاتَ، وإن العُزَّى لا عُزَّى، أسلِمُوا تَسلَموا. يا معشَرَ الأحلاف، إن العزَّى لا عُزَّى، وإن اللاَّت لا لاتَ، أسلِمُوا تَسْلَمُوا. قال ذلك ثلاثَ مَرَّاتٍ، فرماه رجلٌ فأصاب أكحَله فقتله، فبلغ رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: «هذا مَثَلُه كمثل صاحب يس، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

وقال محمدُ بن إسحاقَ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَرَ بن حَزم: أنه حَدَّث عن كعب الأحبار: أنه ذُكِرَ له حبيبُ بنُ زيدِ بن عاصم ـ أخُو بني مازنِ بن النَّجار ـ الذي كان مُسَيْلِمةُ الكذَّابُ قَطَّعه باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله ـ ﷺ ـ، فجعل يقول: أتشهدُ أن مُحمَّداً رسولُ الله؟ فيقولُ: نعم. ثم يقولُ: أتشهدُ أنّي رسولُ الله؟ فيقول: لا أسمَعُ. فيقولُ له مُسَيْلِمَةُ: أتسمعُ هذا ولا تسمَعُ ذاك؟ فيقول: نعم. فجعل يُقَطِّعه عُضواً عُضواً، كلما سأله لم يزده على ذلك، حتى مات في يديه، فقال كعبٌ حين قيل له اسمُه حَبيبٌ: وكان ـ والله ـ صاحِبُ يس اسمه حبيبٌ[2].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾، يُخبر تعالى أنه انتقَمَ من قومِه بعدَ قتلهم إياه، غَضَباً منه تعالى عليهم، لأنهم كَذَّبُوا رُسُلَه، وَقتلُوا وَلِيَّه. ويذكر تعالى: أنه ما أنزلَ عليهم، وما احتاجَ في إهلاكه إيَّاهم إلى إنزالِ جُندٍ من الملائكة عليهم، بل الأمرُ كان أيسَرَ من ذلك. قاله ابنُ مسعودٍ، فيما رواه ابنُ إسحاقَ، عن بعض أصحابه، عَنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: ما كاثَرناهُم بالجُمُوع، الأمرُ كان أيسَرَ علينا من ذلك، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾، قال: فأهلكَ الله تعالى في ذلك الملكَ وأهل أنطاكية، فبادُوا عن وجه الأرض، فلم تَبْقَ منهم باقيةٌ. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، أي: وما كُنَّا نُنزِّل الملائكةَ على الأمم إذا أهلكناهُم، بل نبعَثُ عليهم عذاباً يُدَمِّرهم. وقيل: المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: مِن رِسالةٍ أُخرَى، قاله مجاهد وقتادةُ. قال قتادةُ: فلا ـ والله ـ ما عاتَبَ الله قومَه بعد قتله، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾. قال ابن جرير: والأول أصح، لأن الرسالةَ لا تُسمَّى جُنداً. قال المُفَسِّرُون: بعثَ الله إليهم جبريلَ ـ عليه السَّلام ـ فأخذ بِعِضَادَتَيْ باب بَلَدِهم، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم تَبْقَ فيهم روحٌ تَتَرَدَّدُ في جَسَدٍ. وقد تَقَدَّم عن كثير من السَّلَفِ أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رُسُلاً من عند المسيحِ ـ عيسى ابن مريم عليه السَّلامُ ـ كما نَصَّ عليه قتادةُ وغيره، وهو الذي لم يُذكَر عن واحدٍ من مُتَأَخِّري المفسرين غَيْرِه. وفي ذلك نَظَرٌ من وجوه:

أحدها: أنَّ ظاهِرَ القصةِ يدلُّ على أن هؤلاء كانوا رُسُلَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، لا من جِهَةِ المسيح، كما قال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما ذكر المصنف، وهو مرسل، ورجاله ثقات. وأخرجه الطبراني ١٧/١٤٧ ـ ١٤٨ عن عروة بن الزبير مرسلاً وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩/٣٨٦ وقال: وروى عن الزهري نحوه، وكلاهما مرسل، وإسنادهما حسن. وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ٥/٢٩٩ ـ ٣٠٠ فالحديث باختلاف طرقه يصير حسناً.

(٢) هو خبر مشهور في كتب السيرة دون ذكر كعب الأحبار.

تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.. إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾، ولو كان هؤلاء من الحواريِّين لقالوا عبارة تُناسِبُ أنهم من عند المسيح عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رُسُلَ المسيحِ لما قالوا لهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

الثاني: أنَّ أهل أنطاكية آمنُوا برُسُلِ المسيح إليهم، وكانوا أوَّل مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعةِ اللاتّي فيهنّ بَتَارِكةٌ، وهُنَّ: القدسُ لأنها بلدُ المسيحِ، وأنطاكيةٌ لأنها أول بلدة آمَنَتْ بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البَتَارِكة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامِسَةِ والرُّهابين. ثم رُومِيَّة لأنها مَدِينة الملك قُسْطَنطين الذي نَصَرَ دينهم وأَطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرَّر أن أنطاكية أولُ مدينةٍ آمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذَّبوا رُسُلَه، وأنه أهلكهم بصيحةٍ واحدةٍ أَخْمَدَتْهُم، فالله أعلم.

الثالث: أن قِصَّة أنطاكية مع الحواريِّين أصحاب المسيح بعد نُزُولِ التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخُدري وغيرُ واحدٍ من السلف: أن الله تعالى بعد إنزالِهِ التوراةَ لم يُهلِك أُمَّةً من الأمم عن آخِرهم بعذابٍ يبعثه عليهم، بل أَمَرَ المؤمنين بعد ذلك بقتالِ المشركين، ذَكَروه عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يَتَعيَّن أن هذه القرية المذكورة في القرآن قريةٌ أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غيرُ واحد من السَّلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مَدِينةً أخرى غير هذه المشهورة المعروفةِ، فإن هذه لم يُعرَف أنها أُهلِكَتْ لا في الملة النَّصرانية ولا قبل ذلك، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

[٥٦٥٩] فأما الحديثُ الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّستري، حدثنا الحُسَين بن أبي السَّري العَسْقَلاني، حدثنا حُسَين الأشقَر، حدثنا ابن عُيَينة، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهِدٍ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «السُّبَّق ثلاثة: فالسابقُ إلى موسى يُوشَع بنُ نُونٍ، والسابقُ إلى عيسى صاحب يس، والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب»[1]. فإنه حديثٌ منكَرٌ، لا يُعرَف إلا من طريق حُسَين الأشقَرِ، وهو شيعيٌّ متروكٌ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

(١) إسناده ضعيف جداً، والمتن منكر. أخرجه الطبراني ١١١٥٢، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤٥٩٨: فيه حسين الأشقر، وثقه ابن حبان، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله حديثهم حسن أو صحيح اهـ كذا قال الهيثمي ـ رحمه الله ـ. والصواب أن الأشقر هذا ضعيف جزماً، ولا حجة بتوثيق ابن حبان له، فقد ضعفه البخاري ولينه أبو حاتم. وقال أبو زرعة: منكر الحديث وذكر ابن عدي له مناكير. وقال عقب إحداها: والبلاء عندي من حسين، وقال الجوزجاني: غالٍ شتّام للخيرة. وكذبه أبو معمر الهذلي. ثم إن للحديث علة أخرى، وهي الراوي عنه، وهو حسين بن أبي السري كذبه غير واحد. والأشبه أنه موضوع مزور.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، أي: يا ويلَ العبادِ. وقال قتادةُ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، أي: يا حسرةَ العبادِ على أنفسها، على ما ضَيَّعَتْ من أمرِ الله، وفَرَّطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءات: «يا حَسْرَةَ العبادِ على أنفسها». ومعنى هذا: يا حَسْرَتهم وندامَتهم يوم القيامة إذا عاينُوا العذاب، كيف كَذَّبوا رُسُلَ الله، وخالَفُوا أَمْرَ الله! فإنهم كانُوا في الدار الدنيا المكذِّبون منهم. ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: يُكَذِّبونه وَيَستهزئُون به، ويجحَدُون ما أُرْسِلَ به من الحقِّ. ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١﴾، أي: ألم يَتَّعِظُوا بمن أهلَكَ الله قبلهم من المكذِّبين للرسل، كيف لَم تكُن لهم إلى هذه الدنيا كَرَّةٌ ولا رَجْعَةٌ، ولم يكن الأمر كما زَعَمَ كثيرٌ من جَهَلَتِهم وفَجَرَتِهم من قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وهم القائلون بالدَّور من الدَّهرية، وهم الذين يَعْتَقِدُون جهلاً منهم أنهم يَعودُون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم باطِلَهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١﴾. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾، أي: وإن جميع الأُمَمِ الماضِيةِ والآتية ستُحضَرُ للحساب يومَ القيامةِ بين يَدَي الله ـ عز وجلّ ـ فيُجازيهم بأعمالهم كلِّها خيرها وشَرِّها، ومعنى هَذِهِ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١]. وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف، فمنهم من قرأ: «وإنْ كُلٌّ لَمَا» بالتخفيف، فعنده أن «إن» للإثبات، ومنهم من شدد ﴿لَّمَّا﴾، وجعل «إن» نافية، و «لمَّا» بمعنى «إلا»، تقديره: وما كلٌّ إلا جميعٌ لدينا مُحضَرُون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾

يقولُ تبارك وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾، أي: دَلالَةٌ لهم على وُجودِ الصانع وقُدرتِهِ التامّة وإحيائِهِ الموتى ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، أي: إذا كانت مَيْتَةً هامدةً لا شيءَ فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزَّت ورَبَتْ، وأنبتت من كلِّ زَوْج بَهيج، ولهذا قال: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، أي: جعلناه رِزقاً لهم ولأنعامِهم، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾، أي: جعلنا فيها أنهاراً سَارِحَةً في أمكنة يحتاجُون إليها ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾. لما امتنَّ على خَلْقِهِ بإيجاد الزُّروعِ لهم عَطَفَ بذكرِ الثمارِ وتَنَوُّعها وأصنافها. وقولُه جلّ وعلا: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: وما ذاك كلُّه إلا مِن رَحمةِ الله بهم، لا بِسَعيهم ولا كَدِّهم، ولا بِحَوْلهم وقُوَّتهم، قاله ابن عباس وقتادةُ. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: فهلا يشكُرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى. واختار ابن جرير، بل جَزَم به، ولم يحكِ غيره إلا احتمالاً، أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، بمعنى «الذي»، تقديره: ليأكلوا من ثَمَره ومما عَمِلته أيديهم، أي: غَرَسُوه ونَصَبُوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود «ليأكلوا من ثَمَره ومِمَّا عملته أيديهم أفلا يشكرون». ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، أي: من زُرُوع وثِمَارٍ ونَباتٍ، ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فجعَلهُم ذكراً وأُنثى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: من مخلوقاتٍ شتّى لا يَعرِفُونها، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ومِنَ الدَّلالة لهم على قُدرته ـ تبارك وتعالى ـ العَظيمة خَلْقُ الليلِ والنهارِ، هذا بظلامِهِ وهذا بضيائِه، وجعلهما يَتعاقَبانِ، يَجيءُ هذا فيذهب هذا، ويذهَبُ هذا فَيَجيءُ هذا، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولهذا قال ـ عزَّ وجلَّ ـ هاهنا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، أي: نَصْرِمه منه فيذهَبُ، فيُقبل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

[٥٦٦٠] كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليلُ من هاهنا، وأدبر النهارُ من هاهنا، وغرَبت الشمسُ، فقد أفطر الصائم»(١). هذا هو الظاهرُ من الآية، وزَعَم قتادةُ أنها كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]. وقد ضَعَّف ابنُ جرير قولَ قتادةَ هاهنا، وقال: إنما معنى الإِيلاج الأَخذُ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية. وهذا الذي قاله ابنُ جَريرٍ حَقٌّ.

وقوله جَلَّ جلالُه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾، في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قولان:

**أحدهما**: أن المراد مُستَقَرُّها المكاني، وهو تحتَ العرش مما يلي الأرضَ من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحتَ العرشِ هي وجميعُ المخلوقاتِ، لأنَّه سقفُها، وليس بكُرَةٍ كما يزعمُه كثيرٌ من أربابِ الهيئةِ، وإنما هو قُبَّةٌ ذاتُ قوائمَ تحمِلُه الملائكةُ، وهو فوق العالم مما يلي رُؤوس الناسِ، فالشمسُ إذا كانتَ في قُبَّة الفلك وقت الظهيرة تكونُ أقرب ما تكون إلى العرشِ، فإذا استدارت في فَلَكها الرابع إلى مقابلة هذا المقامِ، وهو وقتُ نصفِ الليل، صارت أبعدَ ما تكون من العرش، فحينئذٍ تسجدُ وتستأذنُ في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث:

[٥٦٦١] قال البخاري: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا الأَعمش، عن إبراهيم التَّيْمِيّ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ مع النبي ـ ﷺ ـ في المسجدِ عند غُروب الشمس، فقال: يا أبا ذَرٍّ، أتدري أين تَغرُبُ الشمسُ؟ قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: فإنها تذهبُ حتى تسجُدَ تحتَ العرشِ(٢)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

[٥٦٦٢] حَدَّثنا عبدُ الله بن الزُّبير الحُمَيديُّ، حدثنا وكيع، عن الأعمشِ، عن إبراهيمَ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ قال: «سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ عن قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قال: مُستقَرُّها تحتَ العرش»(٣). هكذا أوردَه هاهنا. وقد أخرجَه في أماكِنَ مُتعَدِّدَةٍ، ورواه بقيةُ الجماعة إلا ابنَ ماجه، من طُرُقٍ، عن الأعمش، به.

[٥٦٦٣] وقال الإِمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التَّيمي، عن أبيه، عن

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٧.
(٢) تقدم في تفسير سورة لقمان عند آية: ٢٩.
(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٠٣ ومسلم ١٥٩ وأحمد ٥/١٥٨ وابن حبان ٦١٥٢.

أبي ذرٍّ قال: كنتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ في المسجد حين وَجَبت الشمسُ، فقال: يا أبا ذَرٍّ، تَدري أين تَذهبُ الشمسُ؟ قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: فإنها تذهبُ حتى تسجدَ بين يَدَي ربِّها ـ عزَّ وجلَّ ـ، فتستأذِن في الرُّجوع فَيُؤذَنُ لها، وكأنها قد قيل لها: ارجِعي من حيثُ جئتِ. فترجعُ إلى مَطْلَعِها، وذلك مستقرُّها، ثم قرأ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾[1].

[٥٦٦٤] وقال سفيان الثَّوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيمي، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأبي ذَرٍّ حين غَربتِ الشمسُ: «أتدري أين تذهبُ؟» قلت: الله ورسولُه أعلمُ. قال: «فإنها تذهبُ حتى تسجدَ. تحتَ العرشِ، فتستأذِنُ فيُؤذَنُ لها، ويُوشك أن تسجدَ فلا يُقبَل منها؟ وتَستأذنُ فلا يُؤذَنُ لها، ويقال لها: ارجِعي من حيثُ جئتِ، فتطلعُ من مَغرِبها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾»[2].

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا معمرٌ، عن أبي إسحاقَ، عن وَهب بن جابرٍ، عن عبد الله بن عَمْرو قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قال: إنَّ الشمس تطلعُ فتردُّها ذنوبُ بني آدم، حتى إذا غَرَبَت سَلَّمت وسَجدت واستأذنت فَيُؤذَنُ لها، حتى إذا كان يومٌ غَرَبت فَسَلَّمت وسَجَدت، واستأذنت فلا يُؤذَن لها، فتقول: إن المسير بعيد وإني إنْ لا يُؤذَنُ لي لا أبلُغ، فَتُحبَسُ ما شاء الله أن تُحبَسَ، ثم يقال لها: اطلُعي من حيثُ غَرَبْتِ. قال: فمن يومئذٍ إلى يوم القيامة ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وقيل: المرادُ بقولِهِ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، هو انتهاءُ سَيْرِها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحَضِيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو: مُنتَهى سيرها، وهو يومُ القيامة، يَبطُل سيرها وتَسكُنُ حركتها وتُكوَّرُ، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مُستقَرُّها الزماني. قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، أي: لوقتها ولأجل لا تعدُوه. وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقلُ في مطالعها الصَّيفِيَّة إلى مدَّةٍ لا تَزيد عليها، ثم تَنتَقِل في مطالعِ الشتاءِ إلى مُدَّةٍ لا تَزيد عليها. يروى هذا عن عبد الله بن عَمْرو. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: «الشمس تجري لا مُستقَرَّ لها»، أي: لا قَرارَ لها ولا سكونَ، بل هي سائرةٌ ليلاً ونهاراً، لا تفترُ ولاتقِفُ، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، أي: لا يفتُران ولا يَقِفان إلى يوم القيامةِ. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾، أي: الذي لا يُخالَف ولا يُمانَع، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركاتِ والسَّكَناتِ، وقد قدَّر ذلك وقنَّنه على مِنوالٍ لا اختلافَ فيه ولا تعاكُسَ، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]. وهكذا ختم آية «حم السجدة» بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

ثم قال جلَّ وعَلا: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾، أي: جعلناه يَسِيرُ سَيراً آخرَ يُستدَلُّ به على مُضيِّ الشهور، كما أن الشمس يُعرف بها الليلُ والنهارُ، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. . . الآية، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٩٩ ومسلم ١٥٩ والترمذي ٢١٨٦ وأحمد ٥/ ١٧٧ وابن حبان ٦١٥٤.

(٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين، وانظر ما قبله.

فجعل الشمس لها ضوء يَخُصُّها، والقمرَ له نورٌ يَخُصُّه، وفاوتَ بينَ سَيْرِ هذِه وهذا، فالشمسُ تطلع كل يوم وتغربُ في آخره على ضوءٍ واحدٍ، ولكن تنتقل في مطالعها ومَغاربها صيفاً وشتاءً، يَطول بِسَبب ذلك النهارُ ويقصُرُ الليلُ، ثم يَطُول الليلُ ويقصُرُ النهارُ، وجَعَل سُلطانَها بالنهار، فهي كوكبٌ نَهارِيٌّ. وأما القمرُ فَقَدَّره منازلَ، يطلعُ في أوَّلِ ليلةٍ من الشهر ضئيلاً قَليلَ النور، ثم يزدادُ نوراً في الليلة الثانيةِ، ويرتفع منزلةً، ثم كُلَّما ارتفَعَ ازدادَ ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامَلَ نورُه في الليلةِ الرابعةَ عشرَةَ، ثم يشرَع في النقص إلى آخر الشهرِ، حتى يَصِير ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، قال ابن عباس: وهو أصل العِذْق. وقال مجاهد: العُرجون القديمُ، أي: العِذْقُ اليابسُ. يعني ابنُ عباس أصلَ العُنقودِ من الرُّطَب إذا عَتُق ويَبِسَ وانحنى. وكذا قال غيرُهما. ثم بعد هذا يُبدِئُه الله جديداً في أول الشهر الآخر، والعربُ تَسَمِّي كُلَّ ثَلاثِ ليالٍ من الشهر باسم باعتبار القمرِ، فَيُسَمُّون الثلاثَ الأُوَل «غُرَر»، واللواتي بعدها «نُفَل»، واللواتي بعدها «تُسَع» لأن أُخراهُنَّ التاسعة، واللواتي بعدها «عُشَر»، لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها «البِيض» لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهُنَّ «دُرَع» جمع دَرْعاء، لأن أولهن سُودٌ، لتأخر القمر في أولهن، ومنه الشاة الدَّرْعاءُ وهي التي رَأْسُها أَسْوَدُ. وبعدهن ثلاث «ظُلَم» ثم ثلاث «حَنادِس»، وثلاث «دآدِىء»، وثلاث «مَحاقٌ»، لانمحاقِ القَمَرِ أواخِرَ الشهرِ فيهنَّ. وكان أبو عُبَيدٍ ينكر التُسَع والعُشَر. كذا قاله في كتابِ «غَريب المُصَنَّف».

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾، قال مجاهدٌ: لكلٍّ منهما حَدٌّ لا يعدُوه ولا يُقَصِّرُ دونَه، إذا جاء سُلطان هذا ذَهَب هذا، وإذا ذَهَبَ سلطان هذا جاء سلطان هذا. وقال عبد الرزّاق: أخبرنا مَعمر، عن الحَسَن في قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾، قال: ذلك ليلة الهلال. وروى ابنُ أبي حاتم هاهنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال: إن للرّيح جَناحاً، وإنَّ القمر يأوي إلى غلافٍ من الماءِ. وقال الثوريُّ، عن إسماعيلَ بن أبي خالدٍ، عن أبي صَالح: لا يُدرِكُ هذا ضوءَ هذا، ولا هذا ضوءَ هذا. وقال عكرمة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾، يعني أن لكل منهما سلطاناً، فلا يَنبغي لِلشَّمسِ أن تَطلُعَ بالليلِ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، يقول: لا يَنْبَغي إذا كان الليلُ أن يكونَ ليلٌ آخَرُ حتى يكون النهارُ، فسلطان الشمس بالنهارِ، وسُلطان القَمرِ بالليلِ. وقا الضحاك: لا يَذْهَب الليلُ من هاهنا حتى يجيءَ النهارُ من هاهنا. وأومأ بيدِهِ إلى المشرقِ. وقال مجاهد: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يَطْلِبانِ حَثِيثَين، ينسلخ أحدُهما من الآخر. والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليلِ والنهارِ، بل كل منهما يَعقُب الآخر بلا مُهلةٍ ولا تَراخٍ، لأنهما مُسَخَّران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، يعني الليل والنهارَ، والشمسَ والقمَرَ، كُلُّهم يَسْبحُون، أي: يَدُورُونَ في فَلَكِ السماءِ. قاله ابنُ عباس، وعِكْرِمَةُ، والضحّاكُ، والحسَنُ، وقتادةُ، وعطاءُ الخُراسانيُّ. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: في فَلَكٍ بين السماء والأرض. رواهُ ابنُ أبي حاتم، وهو غريبٌ جداً، بل منكر(١). قال ابن عباسٍ وغيرُ واحدٍ من السَّلَف: في فَلْكةٍ كفَلْكةِ المِغزَل. وقال مجاهدٌ: الفَلَك كَحَديدةِ الرَّحى، أو كَفَلْكةِ المِغزَل، لا يَدُور المِغزَل إلا بها، ولا تَدُور إلا به.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) بل هو الصواب، فقد ثبت ذلك علمياً.

يقول تبارك وتعالى: ودلالةٌ لهم أيضاً على قُدرته تعالى تَسخِيرُه البَحْرَ ليحمِلَ السُّفُنَ، فمن ذلك ـ بل أوله ـ سفينةُ نوح ـ عليه السلام ـ التي أنجاه الله فيها بمن مَعَه من المؤمنين، الذين لم يبقَ على وجهِ الأرض من ذُرِّية آدَمَ غيرُهم. ولهذا قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: آباءَهم، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، أي: في السفينةِ المملوءةِ من الأمتعةِ والحَيَواناتِ، التي أمره الله أن يحمِلَ فيها من كُلٍّ زوجَين اثنين. قال ابن عباس: المشحون: المُوقَر. وكذا قال سعيد بن جُبَير، والشَّعبيُّ، وقتادةُ، والسُّدِّي. وقال الضحاك، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: وهي سفينة نوح عليه السلام. وقولُه جلَّ وعلا: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾، قال العَوْفيُّ، عن ابن عباس: يعني بذلك الإبلَ، فإنها سُفُن البرِّ يحملون عليها ويركبونها. وكذا قال عكرمةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ ـ في روايةٍ ـ وعبد الله بن شَدَّادٍ، وغيرُهم. وقال السُّدِّي ـ في رواية ـ: هي الأنعام. وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا الفضل بن الصَّبَّاح، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن عطاءٍ، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: تَدرُون ما قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾؟ قلنا: لا. قال: هي السفنُ، جعلت من بعد سفينةِ نوح على مثلها. وكذا قال أبو مالك، والضحَّاك، وقتادةُ، وأبو صالح، والسُّدِّي أيضاً: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾، أي: السُّفن. ويُقوِّي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢]. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾، يعني الذين في السفن، ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، أي: فلا مُغيثُ لهم مما هم فيه، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾، أي: مما أصابهم، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾. وهذا استثناءٌ منقطع، تقديره: لكن برحمتنا نُسيِّركم في البر والبحر، ونُسلِّمكم إلى أجلٍ مُسمًّى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقتٍ معلومٍ عند الله تعالى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن تمادِي المشركين في غَيِّهم وضَلالهم، وعَدَم اكتراثهم بذُنُوبهم التي أَسلَفُوها، وما هم مُستَقبِلُون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، قال مجاهد: من الذنوب. وقال غيره بالعكس، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لعلَّ الله باتقائكم ذلك يرحَمُكم ويُؤمِنكم من عذابه. وتقدير الكلام: أنهم لا يُجيبون إلى ذلك ويُعرِضون عنه. واكتفى عن ذلك بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: على التوحيد وصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، أي: لا يتأمَّلونها ولا ينتفعون بها. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: وإذا أُمِروا بالإنفاق مما رَزَقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجِّين لهم فيما أمروهم به: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾، أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمَهُم من رزقه، فنحنُ نُوافِق مشيئةَ الله فيهم، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في أمركم لنا بذلك. قال ابنُ جرير: ويَحتَمِلُ أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذا نظرٌ. والله أعلم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن استبعادِ الكَفَرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾، أي: ما يَنتظِرُون إلا صيحةً واحدةً، وهذه ـ والله أعلم ـ نَفْخَةُ الفَزع، يَنفُخ في الصور نفخةَ الفزعِ، والناسِ في أسواقهم ومَعَايشهم يَختصِمُون ويَتَشاجَرُون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذْ أمَرَ الله تعالى إسرافيل فَنَفَخَ في الصُّورِ نفخة يُطوّلها ويَمُدُّها، فلا يبقَى أحدٌ على وجهِ الأرضِ إلا أصغَى لِيتاً ـ وهي صفحة العُنُق ـ يَتَسمَّع الصوتَ من قِبَلِ السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى مَحْشَر القيامةِ بالنار، تُحيطُ بهم من جَوانبهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾، أي: على ما يَملِكُونه، الأمرُ أهمُّ من ذلك، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقد وَرَدت ها هنا آثارٌ وأحاديثُ ذكرناها في موضعٍ آخَرَ، ثم تكون بعد هذا نفخةُ الصَّعقِ، التي يموتُ بها الأحياء كلُّهم ما عدا الحيَّ القيومَ، ثم بعد ذلك نفخةُ البعثِ.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

هذه هي النفخةُ الثالثةُ، وهي نفخةُ البَعثِ والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، والنَّسلانُ هو: المَشْيُ السريعُ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]. ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؟ يعنون قبورَهم التي كانوا يعتقِدُون في الدار الدنيا أنهم لا يُبعَثُون منها، فلما عَايَنُوا ما كَذَّبوه في محشرهم ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾. وهذا لا يَنفِي عذابهُم في قُبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بَعْدَه في الشِّدَّةِ كالرُّقادِ. وقال أُبيُّ بن كعب، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ: ينامون نَوْمَةً قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النَّفختَين. فلذلك يَقُولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ـ قاله غير واحد من السلف ـ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. وقال الحسن: إنما يُجيبهم بذلك الملائكةُ. ولا منافاةَ، إذ الجمعُ ممكنٌ، والله أعلم. وقال عبدُ الرحمن بن زيدٍ: الجميعُ من قولِ الكفَّارِ: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. نقله ابنُ جرير، واختار الأول، وهو أصحُّ. وذلك كقوله تعالى في الصَّافات: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٥ ـ ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾، كقوله عز وجلّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]. وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢]. أي: إنما نأمرهم أمراً واحداً فإذا الجميعُ محضرون، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، أي: مِن عَملها، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن أهل الجنة أنّهم يومَ القيامَةِ إذا ارتحَلُوا من العَرَصاتِ فَنَزَلُوا في رَوضاتِ الجنّاتِ أنّهم في

شُغُلٍ عن غَيْرِهم بما هُم فيه من النَّعيم المقيم، والفوزِ العظيم. قال الحسن البصري، وإسماعيلُ بن أبي خالد: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ عما فيه أهلُ النارِ من العذاب. وقال مجاهد: ﴿فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾، أي: في نعيم مُعجَبُون، أي: به. وكذا قال قتادةُ. وقال ابن عباس: ﴿فَٰكِهُونَ﴾، أي: فَرِحُون. وقال عبدُ الله بن مسعود، وابنُ عباس، وسعيدُ بن المسيِّب، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، والأعمشُ، وسليمان التَّيمي، والأوزاعي في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾، قالوا: شغلهم افتضاضُ الأبكارِ. وقال ابنُ عبّاسٍ ـ في روايةٍ عنه ـ: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾، أي: بِسَماعِ الأوْتَارِ. وقال أبو حاتم: لَعَلَّه غَلَطٌ من المستَمِع، وإنما هو افتضاضُ الأبكارِ. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ ـ قال مجاهدٌ: وحَلائِلُهم ـ ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾، أي: في ظِلالِ الأشجارِ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، ومحمدُ بن كعبٍ، والحسنُ، وقتادةُ، والسُّدي، وخُصَيفٌ: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾، هي السُّرُر تحتَ الحِجَالِ. قلتُ: نظيرُه في الدنيا هذه التخوتُ تحت البشاخين، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، أي: من جميع أنواعها، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، أي: مهما طَلَبوا وَجَدُوا من جَمِيع أصنافِ الملاذِّ.

[٥٦٦٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بنُ عوفٍ الحِمْصِي، حدثنا عثمان بنُ سعيدِ بن كَثِير بن دينار، حدثنا محمد بن مُهَاجر، عن الضَّحَّاك المَعَافري، عن سليمان بن مُوسَى، حدثني كُرَيب: أنه سمع أُسامَةَ بنَ زيد يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا هل مُشَمِّرٌ إلى الجنة؟ فإن الجَنَّةَ لا خَطَرَ لها، هي ـ وربِّ الكعبة ـ نورٌ كلُّها يَتَلألأُ، وريحانةٌ تهتزُّ، وقصرٌ مَشِيدٌ، ونهر مُطَّرِد، وثمرةٌ نَضِيجةٌ، وزوجةٌ حسناءُ جميلة، وحُلَلٌ كثيرةٌ، ومقام أَبَدٍ، في دار سلامةٍ، وفاكهةٍ خَضِرةٍ وحَبْرَةٍ ونَعْمَةٍ، في محلةٍ عاليةٍ بَهِيَّةٍ». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمِّرون لها. قال: «قولوا: إن شاء الله». فقال القومُ: إن شاء الله[١]. وكذا رواه ابنُ ماجة في «كتاب الزُّهد» من سُنَنِه، من حديث الوليد بن مسلم، عن محمد بن مُهَاجِر، به.

وقولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، قال ابنُ جُريج: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾: فإن الله نفسَه سلامٌ على أهل الجنّة. وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. وقد روى ابنُ أبي حاتم هاهنا حَديثاً في إسنادِهِ نَظَرٌ، فإنه قال:

[٥٦٦٦] حدثنا موسى بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا أبو عاصم العَبَّاداني، حدثنا الفضل الرَّقاشيّ، عن مُحمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينا أهلُ الجنةِ في نَعِيمهم، إذ سَطَع لهم نورٌ، فرَفَعُوا رُؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلامُ عليكم يا أهل الجنةِ. فذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، قال: فينظرُ إليهم وينظرون إليه، فلا يَلْتَفِتُون إلى شيءٍ من النعيم ما داموا يَنظُرون إليه، حتى يَحتَجِبَ عنهم، ويبقى نورُه وبركتُه عليهم وفي دِيَارِهم»[٢]. ورواه ابنُ ماجة في «كتاب السُّنَّةِ» من سُنَنه، عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشَّوَارِبِ، به.

---

(١) مضى في سورة التوبة عند آية: ٧٢.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه ابن ماجه ١٨٤ والبزار ٢٢٥٣ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٩١ والبيهقي في «البعث» ٤٩٣ من حديث جابر، وإسناده ضعيف له علتان. أبو عاصم العباداني، واسمه عبد الله بن عبيد الله، وهو منكر الحديث. وشيخه الفضل بن موسى. قال عنه الذهبي: ساقط. وأعله الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٩٨ بالفضل بن عيسى فقط. وكذا أعله البوصيري في «الزوائد» ٤٦ بالفضل، وقال: إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف الفضل الرقاشي.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وَهبٍ، حدثنا حَرمَلَة، عن سليمان بن حُمَيد قال: سَمِعت محمد بن كعب القُرظي يحدّث عن عُمَر بن عبد العزيز قال: إذا فَرَغَ الله من أهل الجنَّةِ والنارِ أقبل في ظُلَل من الغمام والملائكة، قال: فَيُسلّم على أهل الجنة، فَيَردُّون عليه السلام ـ قال القرظي: وهذا في كتاب الله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ ـ فيقول الله عزّ وجلّ: سَلُوني. فيقولون: ماذا نسألك أي ربِّ؟ قال: بَلى سَلُوني. قالوا: نَسألُك ـ أيْ ربُّ ـ رِضاك. قال: رِضائِي أحَلّكم دارَ كرامتي. قالوا: يا ربُّ، فما الذي نسألُكَ، فَوعزّتِك وَجَلالِكَ وارتفاعِ مكانِكَ، لو قسمت علينا رِزق الثَّقَلين لأطعمناهُم ولأسقيناهُم ولألبسناهُم ولأخدمناهُم، لا يَنقُصنا ذلك شيئاً. قال تعالى: إنَّ لديَّ مزيداً. قال: فيفعل ذلك بهم في دَرَجهم، حتى يستوي في مجلسه. قال: ثم تأتيهم التُّحَف من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تحملها إليهم الملائكةُ. ثم ذكر نحوه[1]. وهذا أثرٌ غريبٌ. أورده ابنُ جَرير من طرق. والله أعلم.

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى مخبراً عمّا يؤول إليه حالُ الكُفّار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازُوا، بمعنى يَتَميَّزون عن المؤمنين من موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [يونس: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ [الروم: ١٤]، ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، أي: يَصِيرون صَدْعَين فرقتين، ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣].

وقولُه تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠﴾، هذا تقريعٌ من الله تعالى للكفَرَة من بني آدمَ، الذين أطاعُوا الشيطانَ وهو عدوٌ لهم مبينٌ، وَعَصَوا الرحمنَ وهو الذي خَلَقَهم ورزَقَهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١﴾، أي: قد أمرتُكم في دارِ الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتُكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فَسلكتم غير ذلك واتَّبعتم الشيطانَ فيما أمركم به، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾، يقال: «جِبِلاً» بكسر الجيم، وتشديد اللام. ويقال: «جُبُلاً» بضم الجيم والباء، وتخفيف اللام. ومنهم من يُسكِّن الباء. والمراد بذلك الخلقُ الكثيرُ، قاله مجاهدٌ، والسُّدّي، وقتادةُ، وسفيانُ بن عُيَيْنَةَ. وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾، أي: أفما كان لكم عقلٌ في مُخَالفة رَبّكم فيما أمركم به من عبادتِهِ وحدَه لا شريكَ له، وعُدولكم إلى اتّباع الشيطان.

[٥٦٦٧] قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المُحَاربيّ، عن إسماعيل ابن رافع، عمَّن حَدَّثه، عن محمد بن كَعبِ القُرَظي، عن أبي هُريرة ـ رَضيَ الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامة أمر الله جهنّم فيخرج منها عُنُق سَاطِعُ مُظلِمٌ، يقولُ: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾ امتازوا اليوم أيُّها المجرمون. فَيتميَّزُ الناسُ ويَجثُون،

(١) أخرجه الطبري ٢٩٢٠٦ و٢٩٢٠٧ و٢٩٢٠٨ ومداره على سليمان، وقد وثقه ابن حبان وحده.

وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾(١) [الجاثية: ٢٨].

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يُقال للكفرَة من بني آدم يومَ القيامةِ، وقد بَرزَ الجَحيمُ لهم، تقريعاً وتوبيخاً: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: هذه التي حذَّرتكم الرسل فكَذَّبتُموهم، ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]. وقولُه تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾، هذا حالُ الكفَّار والمنافقين يوم القيامة، حين يُنكِرُون ما اجترمُوه في الدنيا، ويَحلِفُون ما فَعَلُوه، فيَختِمُ الله على أفواهِهِم ويستنطِقُ جَوارِحَهم بما عَمِلَت.

[٥٦٦٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شَيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شَيْبَة، حدثنا مِنْجاب بن الحارث التَّميميُّ، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سُفيان، عن عبيد المُكتِبِ، عن الفُضَيل بن عَمرو، عن الشَّعبيِّ، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عند النبي ـ ﷺ ـ فضَحِك حتى بدت نواجذُه، ثم قال: «أتدرُون مِمَّ أضحكُ؟» قلنا: الله ورسولُه أعلمُ. قال: «من مُجادَلَةِ العبدِ رَبَّه يومَ القيامةِ، يقول: يا ربِّ، ألم تُجرني من الظلم؟ فيقولُ: بلى. فيقولُ: لا أُجيزُ عَلَيَّ إلا شاهداً من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً، وبالكرام الكاتبين شُهُوداً. فيُختَم على فيه، ويُقال لأركانه: «انطقي». فتنطق بعمله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكَلَامِ، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعَنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»(٢). وقد رَواه مسلم والنَّسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النَّضر، عن أبي النَّضر، عن عُبَيد الله بن عبد الرحمن الأشجعِيِّ، عن سفيان ـ هو الثوري ـ به. ثم قال النسائي: «لا أعلم أحداً رَوَى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعِيِّ، وهو حديث غريب، والله تعالى أعلم». كذا قال، وقد تَقَدَّمَ من رواية أبي عامرِ عبد الملك بن عَمرو الأسَدِيِّ ـ وهو العَقَدِيُّ ـ عن سُفيانَ.

[٥٦٦٩] وقال عبد الرزّاق: أخبرنا مَعمَرٌ، عن بَهْزِ بن حكيم، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبي ـ ﷺ ـ قل: «إنكم تُدْعَون مفدَّماً(٣) على أفواهكم بالفِدَام، فأول مَنْ يُسأل عن أحَدِكم فَخِذُهُ وكَفّاه»(٤). رواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزّاق، به.

---

(١) والحديث أخرجه الطبري ٢٩٢١٠ وإسناده ضعيف، له علتان: فيه راوٍ لم يسم، وفيه إسماعيل بن رافع المدني. ذكره الذهبي في الميزان ٨٧٢ وقال: ضعفه أحمد ويحيى وجماعة، وقال الدارقطني وغيره: متروك.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٩ والنسائي في «الكبرى» ١١٦٥٣ وأبو يعلى ٣٩٧٥ وابن حبان ٧٣٥٨.

(٣) في غريب الحديث لأبي عبيد: الفدام ما يغطى به الشيء، كان يغطى به الإبريق، والمقصود أنهم منعوا من الكلام.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤٦٩ وأحمد ٤/٤٤٦ و٤٤٧ و٥/٤ ـ ٥ والطبراني ١٩ (٩٦٩) وإسناده حسن. وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٥١ وقال: رواه أحمد في حديث طويل، ورجاله ثقات اهـ.

[٥٦٧٠] وقال سُفيان بن عُيَيْنَةَ، عن سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة - رَضِيَ الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - في حديث القيامةِ الطَّويل، قال فيه: «ثم يَلْقى الثالث فيقولُ: ما أنتَ؟ فيقول: أنا عبدُك، آمنتُ بك وبنبيِّك وبكتابك، وصُمْتُ وصَلَّيت وتَصَدَّقت - ويُثني بخير ما استطاع - قال: فَيُقال له: ألا نبعثُ عليك شاهدنا؟ قال: فيفكر في نفسِهِ، مَن الذي يشهَد عليه، فَيُختَمُ على فيه، ويقال لفخذه: انطقِي» قال: فتنطق فَخِذه ولَحمُه وعِظَامه بما كان يعمَلُ، وذلك المنافق، وذلك لِيُعذِرَ من نَفْسِه. وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه»[(١)]. ورواه مسلم وأبو داود، من حديث سفيان بن عُيَينة، به بطوله.

[٥٦٧١] ثم قال ابنُ أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن عُقْبَة بن عامرٍ: أنه سَمِعَ رسول الله - ﷺ - يقول: «إنَّ أَوَّلَ عَظْم من الإنسان يَتَكلَّم يومَ يُختَم على الأفواهِ فَخِذُهُ من الرجل اليُسرى»[(٢)]. ورواه ابنُ جرير عن محمد بن عَوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ، به مِثْلَه.

[٥٦٧٢] وقد جَوَّد إسنادَه الإمامُ أحمد - رحمه الله - فقال: حدثنا الحَكَم بن نافع، حدثنا إسماعيل ابن عَيَّاش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيح بن عُبَيد الحَضْرَمي، عَمَّن حَدَّثه، عن عقبة بن عامر: أنه سَمِعَ رسول الله - ﷺ - يقولُ: «إن أوَّلَ عَظْم من الإنسان يَتَكلَّم يومَ يُختَم على الأفواه فَخِذُه من الرَّجل الشمال»[(٣)]. وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا يُونُس بن عُبَيد، عن حُمَيدِ بن هِلاَلٍ قال: قال أبو بُرْدَةَ: قال أبو مُوسى هو الأشعريُّ - رضي الله عنه -: يُدعَى المؤمنُ للحساب يومَ القيامة، فَيَعرِضُ عليه رَبُّهُ عَمَلَه فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نَعَم أيْ ربِّ، عملتُ عملتُ عملتُ. قال: فيغفر الله له ذُنُوبَه، ويَسْتُره منها. قال: فما على الأرض خَلِيقَة تَرَى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدُو حسناته، فَوَدَّ أن الناس كُلَّهم يَرَونها. ويُدعَى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربُّه عليه عَمَلَه، فَيَجحَده فيقول: أيْ ربِّ، وعِزَّتِكَ لقد كَتَب عليَّ هذا المَلَكُ ما لم أعمل. فيقول له المَلَك: أما عَمِلت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعِزَّتِكَ أيْ ربِّ ما عملتُه. فإذا فَعَل ذلك خُتِمَ على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسِبُ أوَّل ما ينطق منه لَفَخِذُه اليُمنى، ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾، قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهُدَى، فكيفَ يهتدون؟ وقال مَرَّة: أعميناهم. وقال الحسنُ البصري: لو شاءَ الله لَطَمَس على أعيُنِهم، فَجعلهم عُمياً يتردَّدُون. وقال السُّدِّي: لو شِئْنا أعمينا أبصارهم. وقال مجاهدٌ، وأبو صالح، وقتادةُ، والسُّدي: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾، يعني الطريق. وقال ابنُ زيد: يَعني بالصراط هاهنا الحقُّ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾، وقد طَمَسنا على أعينهم. وقال

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٨ وقد تقدم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٢١٥ والطبراني ١٧/ ٣٣٣، وظاهره الحسن، فإن رجاله ثقات، وجرى الهيثمي على ظاهره، فقال في «المجمع» ١٨٣٩٩: رواه أحمد والطبراني، وإسنادهما جيدا! كذا قال الهيثمي - رحمه الله - مع أن في إسناد أحمد راو لم يسم كما هو الآتي. وقد أشار ابن كثير إلى انقطاعه بقوله «وجوده الإمام أحمد» أي رواه على وجهه الصحيح، وذلك بأن شريح بن عبيد لم يسمعه من عقبة، والله أعلم. وشريح، وإن كان ثقة، فإنه كثير الإرسال.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٥١ ح ١٦٩٢٣، وفيه راو لم يسم، فالإسناد ضعيف، وانظر ما قبله.

العَوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾: لا يُبصِرُون الحقَّ. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، قال العَوفي، عن ابن عباس: أهلكناهم. وقال السُّدِّي: يعني لغيّرنا خَلقهم. وقال أبو صالح: لجعلناهم حِجَارةً. وقال الحسنُ البصريُّ، وقتادةُ: لأقعدهم على أرجُلِهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾، أي: إلى أمامٍ، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: إلى وراءٍ. بل يَلْزَمُون حالاً واحداً، لا يَتقدَّمُونَ ولاَ يتأخَّرُونَ.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

يُخبِر تعالى عن ابنِ آدمَ أنه كُلّما طال عُمُره رُدَّ إلى الضَّعفِ بعدَ القُوّةِ والعَجْزِ بعدَ النشاطِ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]. والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دارُ زَوالٍ وانتقالٍ، لا دارُ دوامٍ واستقرارٍ، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: يَتفكّرون بعقولهم في ابتداء خَلقهم ثم صيرورتهم إلى الشَّيبَة، ثم إلى الشَّيخُوخَةِ، لِيَعلَمُوا أنهم خُلِقُوا لدارٍ أُخرى، لا زوالَ لها ولا انتقالَ منها، ولا محيدَ عنها، وهي الدارُ الآخرةُ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾، يقول تعالى مُخبِراً عن نبيِّه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنه ما عَلَّمه الشعر، ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾، أي: وما هو في طبعه، فلا يُحسِنه ولا يُحبُّه، ولا تقتضيه جِبِلَّتُهُ، ولهذا وَرَدَ أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زَحَفَه أو لم يُتِمَّه. وقال أبو زُرْعة الرازي: حُدِّثت عن إسماعيلَ بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبيِّ أنه قال: ما وَلَدَ عبد المطلب ذكراً ولا أُنثى إلا يقولُ الشعر، إلا رسول الله ـ ﷺ ـ. ذَكَره ابن عساكر في ترجمة «عُتبَةَ بن أبي لهب» الذي أكَلَه الأسدُ بالزرقاء[1].

[٥٦٧٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمَة، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يتمثل بهذا البيت: «كَفى بالإِسْلاَمِ والشَّيْب للمرء نَاهِياً». قال أبو بكر: يا رسول الله:

كَفَى الشيبُ والإِسلامُ للمرءِ ناهيا

قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنّك رسول الله، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[2].

[٥٦٧٤] وهكذا رَوَى البيهقي في الدلائل: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال للعباسِ بن مُرْدَاسٍ السُّلَمِيِّ: أنت القائل: «أتجعل نهبي ونَهْبَ العُبَيد بين الأقرع وعُيَينة». فقال: إنما هو: «بين عُيَيْنَة والأقرع». فقال: «الكلُّ سواءٌ»[3]. يعني في المعنى، صلواتُ الله وسلامهُ عليه. وقد ذكر السُّهيليُّ في «الرَّوض الأنف» لهذا التقديم والتأخير الذي وَقَعَ في كلامه ـ عليه السلام ـ في هذا البيت مناسبةً أغربَ فيها، حاصلُها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْرٍ الفَزارِيِّ، لأنه ارتدَّ أيامَ الصديق، بخلاف ذاك. والله أعلم.

---

(١) مدينة في الأردن.

(٢) هذا مرسل، ومع إرساله، فيه علي بن زيد، وهو ابن جدعان واه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥/١٧٩ ـ ١٨١ عن موسى بن عقبة مرسلاً.

[٥٦٧٥] وهكذا رَوَى الأُمَوِيُّ في مغازيه: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ جعل يَمْشي بين القتلى يومَ بَدرٍ، وهو يقول:

نُـفَـلِّـق هَـامـا.........

فيقولُ الصديق ـ رضي الله عنه ـ مُتَمِّماً للبيت:

...... مِـنْ رِجَـالٍ أعِـزَّةٍ عَـلَـيْـنَـا، وَهُـمْ كَـانُـوا أعَـقَّ وَأظْـلَـمَـا[١]

وهذا لبعض شُعراء العرب في قصيدةٍ له، وهي في الحماسة.

[٥٦٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، حدثنا مغيرة، عن الشَّعبِيِّ، عن عائشة ـ رَضِيَ الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا استَرَاثَ[٢] الخبَرَ تَمَثَّل فيه ببيتِ طَرَفَةَ:

وَيَـأتِـيـكَ بـالأخْـبـارِ مَـنْ لَـمْ تُـزَوِّدِ[٣]

وهكذا رَوَاه النسائي في «اليوم والليلةِ» من طريق إبراهيم بن مُهَاجِرٍ، عن الشعبيِّ، عنها. ورواه التِّرمذيُّ والنسائيُّ أيضاً من حديث المِقدام بن شُرَيح بن هانىءٍ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كذلك. ثم قال الترمذيُّ: «هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٥٦٧٧] وقال الحافظُ أبو بكر البَزّارُ: حدثنا يُوسُفُ بن مُوسَى، حدثنا أُسامَةَ، عن زَائِدَة، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمة، عن ابن عَبّاس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يَتَمَثَّل من الأشعارِ:

وَيَـأتِـيـكَ بـالاخْـبَـار مَـنْ لَـمْ تُـزَوِّد[٤]

ثم قال: ورواه غيرُ زائدةَ، عن سِماكٍ، عن عكرمة، عن عائشة. وهذا في شعر طرفة بنْ العبد في معلقته المشهورة، وهذا المذكور عجز بيت منها، أوّله:

سَـتُـبْـدِي لـكَ الأيَـامُ مَـا كُـنْـتَ جَـاهِـلاً وَيَـأتِـيـكَ بـالأخْـبَـار مَـنْ لَـمْ تُـزَوِّدِ

وَيَـأتِـيـكَ بـالأخْـبـار مَـنْ لَـمْ تَـبـعْ لـهُ بَـتَـاتـاً، وَلَـم تَـضـربْ لـه وَقْـتَ مَـوْعِـدِ

[٥٦٧٨] وقال سَعِيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتمثل بشيءٍ من الشعر؟ قالت: كان أبغضَ الحديثِ إليه، غير أنه كان يتمثل ببيتِ أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله. فقال أبو بكر: ليس هكذا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني والله ما أنا بشاعرٍ ولا يَنْبَغِي لي»[٥]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وهذا لفظه.

[٥٦٧٩] وقال مَعْمَر، عن قتادة: بلغني أن عائشة سُئلت: هل كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتمثل بشيءٍ من الشعر؟ فقالت: لا، إلا ببيت طَرَفَةَ:

سَـتُـبْـدي لـكَ الأيَـامُ مَـا كُـنْـتَ جـاهِـلاً وَيَـأتِـيـكَ بـالأخْـبَـار مَـنْ لَـمْ تُـزَوِّدِ

---

(١) عزاه المصنف لمغازي الأموي ولم يذكر إسناده، وكتابه لم يطبع بعدُ. فالله أعلم.

(٢) استراث: استبطأ.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣١ و١٤٦ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨٣٣ وفيه إرسال، لكن وصله الترمذي ٢٨٤٨ والنسائي ١٠٨٣٤ وقال الترمذي: حسن صحيح. وفيه شريك وهو حسن الحديث في المتابعات.

(٤) أخرجه البزار ٢١٠٦ والطبراني في «الكبير» ١١٧٦٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ١٢٨: ورجالهما رجال الصحيح اهـ. لكن سماك اختلط بأخرة، ومع ذلك يشهد لما قبله.

(٥) مرسل. أخرجه الطبري ٢٩٢٢٩ وفيه انقطاع بين قتادة، وعائشة رضي الله عنها. لكن تقدم من وجه آخر.

فجَعَلَ يقول: «من لم تُزَوِّد بالأخبار». فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ليس هذا هكذا. فقال: «إني لستُ بشاعرٍ، ولا ينبغي لي»(١).

[٥٦٨٠] وقال الحافظ أبو بكر البَيْهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو حفص عُمَر بن أحمَد ابن نُعَيم، وكيل المتَّقي ببغداد، حدثنا أبو محمد عبدُ الله بن هلال النحويُّ الضريرُ، حدثنا علي بن عَمرو الأنصاري، حدثنا سُفيان بن عُيَينة، عن الزُّهريِّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما جمع رسول الله ـ ﷺ ـ بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَفاءلْ بما تَهْوَى يكُنْ، فلَقَلَّما يُقَالُ لشيءٍ كَانَ إلاّ تَحَقَّقا(٢)

سألت شيخَنا الحافظ أبا الحجاج المزّي عن هذا الحديث، فقال: هو مُنكَر. ولم يَعرِف شيخَ الحاكِم، ولا الضَّريرَ.

[٥٦٨١] وثبت في الصحيحين أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تمثل يوم حَفرِ الخندق بأبيات عبدِ الله بن رَوَاحة، ولكن تَبَعاً لقولِ أصحابه، فإنهم كانوا يَرتجزون وهم يَحفِرون، فيقولون:

لاَ هُمَّ لولاَ أنتَ مَا اهتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدامَ إنْ لاَقَيْنَا
إنّ الألُى قَدْ بَغَوا عَلَينا إذا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ويرفَعُ صوتَه بقوله: «أبينا» ويَمُدُّها(٣). وقد رُوِي هذا بِزِحَافٍ في الصَّحيحِ أيضاً.

[٥٦٨٢] وكذلك ثبت أنه قال يوم حُنَين وهو راكب البغلة، يَقدُم بها في نحور العَدُو:

أنا النبيّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ(٤)

لكن قالوا: هذا وَقَع اتفاقاً من غير قصدٍ لوزنِ شعرٍ، بل جَرَى على اللسانِ من غير قَصدٍ إليه.

[٥٦٨٣] وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جُنْدُب بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غار فَنُكِبَتْ إصْبَعُه، فقال:

هَلْ أنتِ إلاّ إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سَبيلِ اللّه مَا لَقِيتِ(٥)

وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢] إنشادُ:

إن تَغْفِرِ اللّهُمّ تَغْفِرْ جَمّا وَأيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمّا

وكل هذا لا ينافي كونه ـ ﷺ ـ ما عُلِّم شعراً ولا يَنْبغي له، فإن الله تعالى إنما عَلَّمه القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وليس هو بشعر كما زَعَمه

---

(١) هو مرسل، ويشهد لأصله ما تقدم.

(٢) منكر. أخرجه البيهقي ٧/ ٤٣ وقال: ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد، وفيهم من يجهل حاله. ونقل ابن كثير رحمه الله عن شيخه المزي قوله: هو منكر، وفيه عمر بن أحمد شيخ الحاكم، وعبد الله بن هلال، وكلاهما لا يعرف كما ذكر ابن كثير ولم أجد لهما ترجمة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٣٦ ومسلم ١٨٠٣ وأحمد ٤/ ٢٨٥ وابن حبان ٤٥٣٥ من حديث البراء. والزحاف في الشعر: سقوط حرف بين حرفين، فزحف أحدهما إلى الآخر، والمراد هنا كسر البيت.

(٤) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٢٥.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٠٢ ومسلم ١٧٩٦ والترمذي ٣٣٤٥ وأحمد ٤/ ٣١٢ وابن حبان ٦٥٧٧.

طائفةٌ من جَهَلة كُفّار قريش، ولا كَهَانة، ولا مُفتَعلٌ، ولا سِحْرٌ يُؤثَر، كما تنوعت فيه أقوال الضُّلَّال وآراء الجُهّال. وقد كانت سَجِيَّته ـ ﷺ ـ تأبى صناعةَ الشعر طبعاً وشرعاً؛ كما رواه أبو داود قال:

[٥٦٨٤] حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر، حدثنا عبدُ الله بن يزيد، حدثنا سَعِيد بن أبي أيوب، حدثنا شُرَحبيلُ بن يزيد المَعَافِري، عن عبد الرحمن بن رافع التَّنُوخي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما أبالي ما أَتَيْتُ إن أنا شَربت تِرْياقاً، أو تَعَلَّقتُ تميمَةً، أو قُلت الشِّعر من قِبَلِ نفسي»(١). تفرد به أبو داود.

[٥٦٨٥] وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الأَسْوَد بن شَيبان، عن أبي نَوْفل قال: سألتُ عائشةَ: أكان رسول الله ـ ﷺ ـ يُتَسامَع عنده الشعرُ؟ فقالت: كان أبغض الحديثِ إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُعجِبه الجَوَامع من الدعاء، ويَدَع ما بين ذلك(٢).

[٥٦٨٦] وقال أبو داود: حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: «لأن يمتلىء جَوفُ أحدِكم قَيحاً خير له من أن يَمْتَلىءَ شِعراً»(٣). تَفَرّد به من هذا الوجه، وإسنادُه على شرط الشيخين، ولم يُخرِجاه.

[٥٦٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيد الباهلي، عن عاصم بن مَخْلد، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وحَدَّثنا الأشيبُ فقال: عن ابن عاصم، عن أبي الأشعثِ، عن شَدّاد بن أوس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قَرَض بيت شعر بعد العشاءِ الآخرةِ لم تُقبَل له صلاةُ تلك الليلةَ»(٤). وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكُتُب السِّتةِ. والمراد بذلك نَظْمُه لا إنشادُه، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروعٌ، وهو هجاءُ المشركين الذي كان يَتعاطاه شعراء الإسلام،

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أبو داود ٣٨٦٩ والبيهقي ٩/ ٣٥٥، وضعفه المنذري في مختصر أبي داود ٣٧٢٠ وقال: فيه عبد الرحمن بن رافع، قال البخاري في حديثه بعض المناكير، وحكى ابن أبي حاتم عن أبيه نحو هذا ا هـ وجزم الحافظ في التقريب بضعفه. قال الشيخ ابن القيم في تهذيب السنن: ليس شرب الترياق مكروهاً من أجل التداوي، ولكن من أجل ما يقع فيه من لحوم الأفاعي، وهي محرمة ا هـ.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٨٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ١١٩: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) تقدم في تفسير سورة الشعراء.

(٤) ضعيف. أخرجه أحمد ٤/ ١٢٥ والعقيلي ٣/ ٣٣٩ والبزار ٢٠٩٤ والطبراني ٧١١٣٤ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٢٦١ وقال: هذا حديث موضوع. وقال العقيلي: لا يعرف إلا بعاصم، ولا يتابع عليه. قال ابن الجوزي: عاصم في عداد المجهولين. وفيه قزعة بن سويد، قال أحمد: مضطرب الحديث. وقال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٥ و١٣٣١٦: فيه قزعة بن سويد، وثقة ابن معين، وضعفه غيره، وبقية رجاله وثقوا اهـ. ونقله عنه السيوطي في «اللآلىء» ١/ ٢١٨ وزاد: وقال ابن حجر في «القول المسدد»: ليس في شيء مما ذكره أبو الفرج ما يقضي الوضع، وعاصم ليس مجهولاً، بل ذكره ابن حبان في الثقات، وتابعه عليه عبد القدوس بن حبيب عن أبي الأشعث، أخرجه البغوي في «الجعديات»، وقزعة وثقه الجمهور، وفيه ضعف، والحاصل أن حديثه في مرتبة الحسن. ورواه موسى بن أيوب عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، أورده ابن أبي حاتم (في العلل: ٢٢٨٥) ونقل عن أبيه أن الصواب وقفه. وأخرجه محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة» عن أبي الأشعث عن ابن عمر موقوفاً اهـ. فتبين بذلك أن الحديث ضعيف، وأن الراجح وقفه، فلم يتضح وضعه خلافاً لابن الجوزي، ولا حسنه خلافاً لابن حجر، والله تعالى أعلم.

كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحة، وأمثالِهم وأضرابهم ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين. ومنه ما فيه حكم ومواعظُ وآدابٌ، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أميّة بن أبي الصَّلْتِ. الذي قال فيه النبي ـ ﷺ ـ:

[٥٦٨٨] «آمَنَ شعرُه وكَفَر قلبُه»(١).

[٥٦٨٩] وقد أنشد بعض الصحابة للنبي ـ ﷺ ـ منه مئة بيت، يقول عقب كل بيت: «هِيه»، يعني يَسْتطعِمُه، فيزيده من ذلك(٢).

[٥٦٩٠] وقد رَوَى أبو داود من حديث أُبَيّ بن كعب، وبُريدة بن الحُصَيب، وعبدِ الله بن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ من البيانِ سِحراً، وإن من الشعر حُكْماً»(٣). ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، يعني: محمداً ـ ﷺ ـ ما علمه الله شعراً، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾، أي: وما يصلح له، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ما هذا الذي علمناه إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ، أي: بَيِّنٌ واضحٌ جَلِيٌّ لمن تأمَّلَهُ وتَدبَّره. ولهذا قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، أي: لينذر هذا القرآن البيِّن كلَّ حَيٍّ على وجه الأرض، كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال جَلّ وعلا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وإنما ينتفع بِنِذارَتِهِ من هو حَيّ القلب، مُستَنِير البَصِيرَةِ، كما قال قَتادةُ: حَيّ القلب، حيّ البَصَرِ. وقال الضحاك: يعني عاقلاً. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: هو رحمةٌ للمؤمنين، وحُجَّةٌ على الكافرين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يذكرُ تعالى ما أَنعَم به على خَلْقِهِ من هذه الأنعام التي سَخَّرها لهم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ ـ قال قتادة: مُطِيقُون: أي: جَعَلهم يقهرونها وهي ذَلِيلَةٌ لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صَغيرٌ إلى بَعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وسَاقه، وذاك ذليلٌ منقاد مَعه. وكذا لو كان القطارُ مئةَ بعيرٍ أو أكثر، لسار الجميع بسير صغيرٍ. وقولُه تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، أي: منها ما يَرْكَبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، إذا شاؤوا نَحروا واجتَزَرُوا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾، أي من: ﴿أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، ﴿وَمَشَارِبُ﴾، أي: من ألبانها وأبوالها لمن يَتَداوى ونحو ذلك، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: أفلا يُوحِّدون خالق ذلك ومُسَخِّره، ولا يُشرِكون به غَيْرَه؟!

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى مُنكِراً على المشركين في اتِّخاذِهم الأنداد آلِهة مع الله، يبتغون بذلك أن تَنصُرَهم تلك الآلهة وتَرزُقَهم وتُقرِّبَهم إلى الله زُلْفَى. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أي: لا تقدِر الآلهة على نَصْر عابديها، بل هي أضعفُ من ذلك وأقلُّ وأذلُّ وأحقَرُ وأدحَرُ، بل لا تقدِرُ على الانتصارِ لأنفسها، ولا الانتقامِ

---

(١) تقدم تفسيره في سورة الشعراء.

(٢) أيضاً مضى في تفسير سورة الشعراء، وقد أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٠٨٣٦.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٠٢.

مِمَّن أرادها بسوءٍ، لأنها جمادٌ لا تسمَعُ ولا تعقِلُ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، قال مجاهد: يعني عند الحسابِ. يُريد أنَّ هذه الأصنام محشورةٌ مجموعةٌ يوم القيامة، مُحْضَرَةٌ عند حساب عابديها، ليكونَ ذلك أبلغَ في خِزْيِهم، وأدلَّ عليهم في إقامةِ الحُجَّة عليهم. وقال قتادةُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، يعني الآلهة، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، والمشركون يغضَبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوقُ إليهم خَيراً، ولا تدفع عنه سُوءاً، إنما هي أصنام. وهكذا قال الحسنُ البصري؛ وهذا القولُ حَسَنٌ، وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ رحمه الله. وقولُه تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، أي: تكذيبهم لك وكفرهُم بالله، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: نحن نعلَمُ جميعَ ما هم عليه، وسَنَجزيهم وصْفَهم ونعامِلُهم على ذلك يوم لا يَفْقِدون من أعمالهم جَلِيلاً ولا حَقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يُعرَض عليهم جميعُ ما كانوا يعمَلُون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

[٥٦٩١] قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، وعروةُ بن الزبير، والسُّدِّي، وقتادةُ: جاء أُبَيُّ بن خَلَفٍ ـ لعنه الله ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفي يده عظم رميم وهو يَفتُّه ويذرُوه في الهواء، وهو يقول: يا محمدُ، أتزعُمُ أن الله يبعثُ هذا؟ فقال: «نعم، يُميتك الله تعالى، ثم يَبعثُك، ثم يحشُرك إلى النار». ونَزَلت هذه الآيات من آخر «يس»: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾... إلى آخرهن[1].

[٥٦٩٢] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا عثمان بن سَعِيد الزيات، عن هُشَيم، عن أبي بشر، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: إنَّ العاصي ابن وائلٍ أَخذَ عَظماً من البَطْحاءِ فَفتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: أيحيي الله تعالى هذا بعدَ ما أرى؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نعم يُميتُك الله ثم يُحييك، ثم يُدخِلُك جهَنَّم». قال: ونَزَلت الآياتُ من آخِر «يس»[2]. ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، عن هُشَيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، فذكره، ولم يذكر «ابن عباس». ورَوَى من طريق العَوفي، عن ابن عباس أنه قال: جاء عبدُ الله بن أُبَي بِعَظْمٍ فَفَتَّه. وذَكَرَ نحوَ ما تقدم[3]. وهذا منكر، لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي بن سَلُول إنما كان بالمدينة. وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامَّة في كلِّ من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجنس، يَعُمُّ لكلِّ منكرٍ للبعثِ. ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، أي: أو لم يستدلَّ من أنكر البعثَ بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سُلالَةٍ من ماءٍ مَهين، فخلقه من شيءٍ حَقير ضعيفٍ مَهينٍ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

---

(١) هذه مراسيل تقوي الحديث الآتي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٢٤٣ عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٣) فيه عطية بن سعد العوفي، واهٍ. وقد تقدم أنه ورد في أبي بن خلف في مراسيل عدة، وفي حديث ابن عباس في العاص بن وائل. وأياً كان فالخبر مكي، والسورة مكية، كما قال الحافظ ابن كثير. وانظر «الدر المنثور» ٥/٥٠٧ ـ ٥٠٨.

نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: من نطفة من أخلاطٍ مُتفرّقةٍ، فالذي خلقه من هذه النطفة الضّعيفة أليس بقادرٍ على إعادَتِهِ بعد موته؟! كما قال الإمام أحمد في مُسنَدِهِ:

[٥٦٩٣] حدثنا أبو المغيرة، حدثنا حَريز، حدثني عبد الرحمن بن مَيْسَرَة، عن جُبَير بن نُفَير، عن بُسْر بن جَحّاش أن رسول الله ـ ﷺ ـ بَصَقَ يوماً في كفه، فَوَضَعَ عليها إصبعه، ثم قال: قال الله تعالى: يا بُنَيّ آدم، أنّى تُعْجِزُني وقد خلقتُك من مثل هذه، حتى إذا سَوّيتك وعَدَلْتُكَ، مَشَيت بين بُرْدَيكَ وللأرضِ منك وَئِيدٌ[1]، فَجمعت ومنعت، حتى إذا بَلَغَتِ التَّراقي قلت: «أَتَصَدَّقُ» وأنّى أوانُ الصَّدَقَةِ[2]؟! ورواه ابنُ ماجة عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن يزيدَ بن هارونَ، عن حَريز بن عُثمان، به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾، أي: استبعدَ إعادةَ الله تعالى ـ ذي القدرةِ العظيمةِ التي خَلَقَت السموات والأرض ـ للأجساد والعظام الرَّمِيمة، ونَسِيَ نفسه، وأن الله خَلَقَهُ من العَدَم، فعلم من نفسه ما هو أعظَمُ مما استبعده وأنكرَهُ وجَحَدَهُ، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾، أي: يعلم العظامَ في سائرِ أقطارِ الأرضِ وأرجائِها، أين ذَهَبَت، وأين تَفَرّقت وتَمزّقت؟

[٥٦٩٤] قال الإمام أحمدُ: حدثنا عفّان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن رِبْعِيّ قال: قال عقبة بن عمرو لحُذَيْفَة: ألا تحدثُنا ما سَمِعت عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ؟ فقال: سَمِعتُه يقول: «إنّ رجلاً حضره الموتُ، فلما أيسَ من الحياةِ أوصى أهله: إذا أنا متّ فاجمَعُوا لي حَطَباً كَثِيراً جَزْلاً، ثم أوقِدُوا فيه ناراً، حتى إذا أكلَتْ لحمي وخَلَصَتْ إلى عَظْمِي فامتُحِشتُ[3]، فَخُذوها فدقّوها فَذَرُوها في اليم. فَفَعلوا، فَجَمعه الله إليه فقال له: لم فعلتَ ذلك؟ قال: من خَشْيَتك. فغفر الله له. فقال عقبةُ بن عَمرو: وأنا سَمِعته يقول ذلك. وكان نَبّاشاً[4]. وقد أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الملك بن عمير، بألفاظ كثيرة، منها: أنه أمر بَنِيه أن يحرقوه ثم يَسْحَقوه، ثم يذرُوا نِصفَه في البر ونِصفَه في البحر، في يوم رائح، أي: كثير الهواء. ففعلوا ذلك، فأمر الله البحرَ فَجَمَعَ ما فيه، وأمر البرَّ فَجَمَعَ ما فيه، ثم قال له: كُن. فإذا هو رجلٌ قائمٌ. فقال له: ما حَمَلك على ما صنعتَ؟ فقال: مخافتُك وأنتَ أعلم. فما تلافاه أن غفر له[5].

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، أي: الذي بدأ خَلْق هذا الشجر من ماءٍ حتى صار خَضِراً نَضِراً ذا ثَمر ويَنْع، ثم أعاده إلى أن صارَ حطباً يابِساً، تُوقَدُ بها النارُ، كذلك هو فَعّالٌ لما يَشاء، قادرٌ على ما يُريد، لا يمنعه شيءٌ. قال قتادةُ في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، يقول: الذي أخرج هذه النارَ من هذا الشجرِ قادرٌ أن يَبْعثه. وقيل:

---

(١) الوئيد: الصوت.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٧٠٧ وأحمد ٤/ ٢١٠ وصحح البوصيري إسناده. وفي إسناده عبد الرحمن بن ميسرة. وثقه العجلي وابن حبان، وقال علي المديني: مجهول، وقال عنه الحافظ في «التقريب»: مقبول، فالإسناد لين، وذكر لفظ «بصق» غريب، ولعل الراجح أن الرجل مجهول، ومع ذلك ذكره الألباني في «الصحيحة» ١٠٩٩ و١١٤٣ وحسنه من غير ذكر شواهد ومتابعات وإنما اعتمد توثيق ابن ميسرة.

(٣) الجزل: الحطب اليابس، أو الغليظ العظيم منه. وامتحش: احترق.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٣ وابن حبان ٦٥١ من حديث حذيفة.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٧٩ والنسائي ٤/ ١١٣ وهو في الصحيحين لكن من حديث أبي سعيد الخدري انظر «صحيح البخاري» ٣٤٧٨ و«صحيح مسلم» ٢٧٥٧.

المراد بذلك شجر المَرْخ والعَفَار[1]، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي مَن أراد قَدْح نارٍ وليس معه زِنادٌ، فيأخذ منه عُودَين أخضَرين، ويقدَحُ أحدهما بالآخر، فتتولَّدُ النار من بينهما، كالزِّنادِ سَواءً. رُوِي هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وفي المثل: «لكلِّ شَجَرٍ نارٌ، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفار». وقال الحكماء: في كلِّ شجرٍ نارٌ إلا العنّاب.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى مُنبِّهاً على قُدرَتِهِ العظيمة في خَلْقِ السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثَّوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبالٍ ورمالٍ، وبِحارٍ وقِفارٍ، وما بين ذلك، ومُرشداً إلى الاستدلال على إعادةِ الأجسادِ بخلقِ هذه الأشياء العظيمةِ، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال هاهنا: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾، أي: مثل البَشر، فيُعِيدَهم كما بَدَأهم. قاله ابنُ جرير. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال تبارك وتعالى هاهنا: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، أي: إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد:

إذَا مَا أرَادَ الله أمْـراً فَـإنَّـمَا ... يَـقُـولُ لـهُ «كُـنْ» قَـوْلَـةً فَـيَـكُـونُ

[٥٦٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن نُمَير، حدثنا مُوسَى بن المُسَيَّب، عن شَهْرٍ، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي، كُلُّكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلُّكم فقيرٌ إلا مَن أغنيت، إني جَوَادٌ ماجِدٌ واجِدٌ أفعلُ ما أشاء، عطائي كلامٌ وعَذَابي كلامٌ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون»[2].

وقولُه تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾. أي: تنزيهٌ وتقديسٌ وتبرئةٌ من السوءِ للحيِّ القيُّوم، الذي بيده مقاليدُ السموات والأرض، وإليه يَرْجِعُ الأمرُ كلُّه، وله الخلقُ والأمرُ، وإليه مَرْجِعُ العبادِ يوم المَعادِ، فيجازي كلَّ عاملٍ بعَمَلِهِ، وهو العادلُ المنعمُ المتفضِّلُ. ومعنى قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فالملك والمَلَكوتُ واحد في المعنى، كرحمة ورَحَمُوت، ورَهْبَة ورَهَبُوت، وجَبْر وجَبَرُوت. ومن الناس من زَعَمَ أن المُلْك هو عالَم الأجسادِ، والمَلَكُوت هو عالم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسِّرين وغيرهم.

[٥٦٩٦] قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج بن النُّعمان، حدثنا حَمَّاد، عن عبد الملك بن عُمَير، حدثني ابن عَمٍّ لحُذَيْفَة، عن حُذَيفة ـ وهو ابنُ اليَمانِ ـ رضي الله عنه ـ قال: «قُمتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ذات ليلةٍ،

---

(١) ضرب من الشجر شديد الاشتعال.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنفال عند آية: ٥١.

فقرأ السبعَ الطُّوَلَ في سبع ركعاتٍ، وكان إذا رَفَعَ رأسه من الرُّكُوع قال: سَمِع الله لمن حمده. ثم قال: «الحمد لله ذي المَلَكُوت والجَبَرُوت والكبرياء والعظمة»[(١)]. وكان ركُوعه مثلَ قيامه، وسجُوده مثلَ ركُوعه، فانصرف وقد كادت تَنْكَسِرُ رِجْلايَ.

[٥٦٩٧] وقد رَوَى أبو داود، والترمذي في «الشمائل»، والنسائي، من حديث شُعبَة، عن عَمرو بن مُرَّة، عن أبي حَمْزة ـ مولى الأنصار ـ عن رجل من بني عَبْس، عن حذيفة: أنه رأى رسول الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي من الليل، وكان يقول: «الله أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو المَلَكُوت والجَبَرُوت والكبرياء والعظمة». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركُوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سُبحانَ ربي العظيم، سبحان ربي العظيم». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامهُ نحواً من ركوعه، وكان يقول في قيامه: «لربي الحمد». ثم سجد. فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سُبحان ربِّي الأعلى». ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سُجُوده، وكان يقول: «ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي». فَصَلَّى أربعَ رَكَعَاتٍ، فقرأ فيهنَّ البقرة، وآلَ عمرانَ، والنساء، والمائدة ـ أو الأنعام ـ شَكَّ شُعبة[(٢)]. هذا لفظ أبي داود. وقال النسائي: «أبو حمزةَ عندنا طلحةُ بن يزيدَ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صِلَة». كذا قال، والأشبه أن يكون ابن عَمِّ حُذَيفَةَ، كما تقدَّم في رواية الإمام أحمد والله أعلم، فأما رواية صِلَةَ بن زُفَر، عن حُذَيفَةَ، فإنها في صحيح مسلم، ولكن ليس فيها ذكر المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ والكبرياء والعَظَمة.

[٥٦٩٨] وقال أبو داود: حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عَمرو بن قيس، عن عاصم بن حُمَيد، عن عَوف بن مالك الأشجعي قال: قمتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةً فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلا وَقَفَ فسأل، ولا يَمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلا وَقَفَ فتَعَوَّذَ، قال: ثم رَكَعَ بقدر قيامِهِ، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجَبَرُوت والمَلَكُوت والكبرياء والعظمة». ثم سَجَدَ بقدرِ قيامِهِ، ثم قال في سُجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورةً سورةً[(٣)]. ورواه الترمذي في «الشمائل»، والنسائي، من حديث معاوية بن صالح، به.

## آخر تفسير سورة يس، ولله الحمد والمنة

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٨٨ و٣٩٦ وفيه راوٍ لم يسم، لكن توبع عند مسلم، ويشهد له ما بعده.

(٢) أخرجه أبو داود ٨٧٤ والترمذي في «الشمائل» ٢٧٠، وفيه راوٍ لم يسمّ.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٨٧٣ وإسناده حسن، رجاله ثقات، وهو متصل الإسناد، ويشهد له ما قبله وأصله عند مسلم.
قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٧٦٦: فيه عاصم بن عمر بن حفص، وثقه ابن حبان، وقال: يخطىء، ويخالف، وضعفه الجمهور. كذا وقع للهيثمي، وقد نسبه الذهبي فقال: عاصم بن بهدلة اهـ وهو صدوق سيء الحفظ. ثم إن فيه أبو جعفر، وهو الرازي اسمه عيسى بن عبد الله ضعفه الجمهور، وكذا فيه أبو هشام، محمد بن يزيد قال البخاري: رأيتهم مجمعين على ضعفه. وقال ابن نمير: كان يسرق الحديث، والحديث ضعفه الذهبي بقوله: غريب جداً.

# سُورَةُ الصَّافَّاتِ

ترتيبها ٣٧ — آياتها ١٨٢

## وهي مكية

[٥٦٩٩] قال النَّسائي: أخبرنا إسماعيلُ بن مسعود، حدثنا خالد ـ يعني ابنَ الحارث ـ عن ابن أبي ذِئْبٍ قال: أخبرني الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يأمرنا بالتَّخْفِيفِ، ويَؤُمُّنا بالصَّافاتِ[١]. تفَرَّد به النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾

قَال سفيان الثَّوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مَسْروقٍ، عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ وهِي الملائكةُ، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾، هي الملائكة، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾، هي الملائكة. وكذا قال ابن عباس، ومسروقٌ، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، ومجاهد، والسدِّي، وقتادةُ، والربيعُ بن أنس. قال قتادةُ: الملائكة صفوفٌ في السَّماءِ.

[٥٧٠٠] وقال مسلمٌ: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن أبي مالك الأشجَعِيّ، عن رِبْعِيٍّ، عن حُذَيفة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلت صفوفُنا كصُفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرضُ كلُّها مَسْجِداً، وجُعِلَت تُرْبَتها لنا طَهُوراً إذا لم نجد الماء»[٢].

[٥٧٠١] وقد رَوَى مسلمٌ أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجَه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن تميم بن طَرَفَة، عن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا تَصُفُّون كما تَصفُّ الملائكة عند ربِّهم؟». قلنا: وكيف تَصفُّ الملائكة عند ربِّهم؟ قال: «يُتِمُّون الصُّفوفَ المتقدِّمة ويَتَراصُّونَ في الصَّفِّ»[٣].

وقال السدِّي وغيرُه: مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾: أنَّها تزجُر السَّحاب. وقال الربيعُ بن أَنس: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾، ما زَجَرَ الله عنه في القرآن. وكذا رَوَى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾، قال السدِّي: الملائكةُ يَجيئُونَ بالكتابِ والقرآنِ من عِند الله إلى الناس. وهذه الآية

(١) أخرجه النسائي ٤٥٢ في «التفسير» وأحمد ٢/٢٦، ٤٠ وابن خزيمة ١٦٠٦؛ وهو صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٥٢٢.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٤٣٠ وأبو داود ٦٦١ وابن ماجه ٩٩٢ والنسائي في تفسيره ٤٥٤.

كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات: ٥ ـ ٦]. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، هذا هو المُقسم عليه، أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾، أي: هو المالك المتصرف في الخلقِ بتَسْخِيره بما فيه من كَوَاكِبَ ثوابِتَ، وسيَّارات تبدُو من المشرق، وتَغرُب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرَّح بذلك في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال تعالىٰ في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ١٧]، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

يُخبر تعالى أنه زيَّن السماءَ الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قرىء بالإضافةِ وبالبَدَلِ، وكلاهما بمعنىً واحدٍ، فالكواكبُ السيَّارةُ والثوابتُ يَثقُب ضوءُها جُرْمَ السماء الشفَّافِ، فتَضِيءُ لأهلِ الأرضِ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥]. وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨]. فقوله جل وعلا هاهنا: ﴿وَحِفْظًا﴾، تقديره، وحَفظناها حفظاً، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾، يعني: المتمرِّد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهابٌ ثاقِبٌ فأحرقه، ولهذا قال جل جلاله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾، أي: لئلاَّ يَصِلُوا إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومَن فيها من الملائكة، إذا تَكَلَّمُوا بما يوحيه الله تعالى مما يقولُه من شَرْعه وقَدَره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾، أي: يُرمونَ ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، أي: من كلِّ جهةٍ يَقْصِدُون السماءَ منها، ﴿دُحُورًا﴾، أي: رَجْماً يُدحرُون به ويُزجَرُون ويُمنَعُون من الوصُولِ إلى ذلك ويُرجمون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، أي: في الدار الآخرةِ لهم عذاب دائم مُوجِعٌ مُستَمِرٌّ، كما قال جلَّت عظمته: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾، أي: إلا من اختطف من الشياطين الخَطْفَةَ، وهي الكلمة يَسمَعُها من السَّماء فَيُلقيها إلى الذي تحته، ويُلقيها الآخر إلى الذي تحته، فرُبَّما أدركه الشهاب قبل أن يُلقيها، ورُبَّما ألقاها بِقَدَرِ الله قبل أن يأتيه الشهابُ فيُحرِقَهُ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تَقَدَّم في الحديث. ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾، أي: مستنير.

[٥٧٠٢] قال ابن جرير: حَدّثنا أبو كُرَيب، حدثنا وَكيع، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعدُ في السَّماء، قال: فكانوا يَستَمِعون الوحيَ، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطينُ لا تُرمى. قال: فإذا سَمِعوا الوحيَ نَزَلُوا إلى الأرض، فزادُوا الكَلِمَة تِسعاً. قال: فلما بُعِثَ رسول الله ـ ﷺ ـ جعل الشيطان إذا قَعَدَ مَقْعَدَه جاء شهابٌ فلم يُخطئه حتى يُحرقَه قال: فَشكوا ذلك إلى إبليسَ [لعنه الله]، فقال: ما هو إلا من أمرٍ حدَثَ. قال: فَبَثَّ جنودَه فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ قائمٌ يصلي بين جبَلَيْ نخلةَ ـ قال: وَكِيعٌ: يعني بَطْنَ نخلة ـ قال: فرجَعُوا إلى إبليس فأخبرُوه، فقال: هذا الذي حدث. وستأتي [إن شاء الله تعالىٰ] الأحاديثُ الواردةُ مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالَى إخباراً عن الجنِّ أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا

مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾[1] [الجن: ٨ ـ ١٠].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقولُ تعالى: فَسَلْ هؤلاءِ المُنْكِرين للبعث: أيُّما أشدُ خَلْقاً هم أم السمواتُ والأرضُ، وما بينهما من الملائكةِ والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ ـ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «أم من عَدَدْنَا» ـ فإنهم يُقِرُّون أن هذه المخلوقات أشدُ خلقاً منهم، وإذا كان الأمرُ كذلكَ فَلِمَ يُنْكِرُونَ البعثَ، وهم يُشاهِدُون ما هو أعظمُ مما أنكروا؟ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بَيَّن أنهم خُلِقوا من شيءٍ ضعيفٍ، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾، قال مجاهد، وسَعِيد بن جُبَير، والضحاك: هو الجَيِّدُ الذي يلتزِق بعضُه ببعضٍ. وقال ابن عباس، وعِكْرِمَة: هو اللَّزِجُ. وقال قتادةُ: هو الذي يَلْزَقُ باليدِ. وقوله عز وجل: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾، أي: بل عَجِبْتَ ـ يا محمدُ ـ من تكذيبِ [هؤلاء] المنكرين للبعثِ، وأنت مُوقِنٌ مُصَدِّق بما أخبر الله به من الأمر العجيبِ، وهو إعادةُ الأجسام بعد فنائها. وهم بخلافِ أمرِك، من شِدَّةِ تكذيبهم يسخَرُونَ مما تقولُ لهم من ذلك. قال قتادةُ: عَجِبَ محمد ـ ﷺ ـ وسَخِرَ ضُلَّالُ بني آدم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾، أي: دلالةً واضحةً على ذلك، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾، قال مجاهد وقتادةُ: يستهزئون. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، أي: إنْ هذا الذي جِئْتَ به إلا سِحرٌ مُبينٌ، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾، يَسْتَبْعِدُون ذلك ويُكَذِّبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، أي: قل لهم يا محمد: نَعَم تُبعَثُون يومَ القيامة بعدما تَصِيرون تُراباً وعِظاماً، ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾، أي: حَقِيرون تحتَ القُدرة العَظِيمة. كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾، أي: إنما هو أمرٌ واحدٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يدعُوهم دعوةً واحدة أن يخرجُوا من الأرضِ، فإذا هُم بينَ يَدَيه، ينظرونَ إلى أهوالِ يومَ القيامةِ، والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبرُ تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنّهم يرجعون على أنفسهم بالمَلامَةِ، ويعترفون بأنهم كانوا ظَالِمين لأنفسِهم في الدار الدنيا، فإذا عاينُوا أهوالَ القيامة نَدِمُوا كلَّ الندم حيثُ لا ينفعُهم الندمُ، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾. وهذا يقال لهم

---

(١) والحديث أخرجه الطبري ٢٩٢٦١ ورجاله رجال البخاري ومسلم.

على وجهِ التقريع والتوبيخ، ويأمرُ اللَّهُ تعالىٰ الملائكةَ أن تُميز الكفار من المؤمنين في الموقف في مَحْشَرِهم ومَنْشَرِهم. ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، قال النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ: يعني بأزواجِهم أشباهَهم وأمثالهم. وكذا قال ابنُ عباسٍ، وسَعِيد بن جُبَير، وعِكْرِمَةُ ومجاهدٌ، والسدِّي، وأبو صالحٍ، وأبو العاليةِ، وزيدُ بن أسلم. وقال سُفيان الثَّوري، عن سِمَاكٍ، عن النعمان بن بَشِير، عن عمر بن الخطابِ ـ رضي الله عنه ـ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، قال: إخوانهم. وقال شَرِيكٌ، عن سِمَاكٍ، عن النعمان قال: سَمِعتُ عُمَر يقول: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، قال: أشباهَهم. قال: يجيء صاحبُ الرِّبا مع أصحاب الربا، وصاحبُ الزنا مع أصحاب الزنا. وصاحبُ الخمر مع أصحابِ الخَمر. وقال خُصَيف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: أزواجُهم: نساؤُهم. وهذا غريبٌ، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جُبَير، عنه: أزواجهم: قُرناؤهم. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: من الأصنام والأندادِ، تُحشَر معهم في أماكنهم. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، أي: أَرْشِدُوهم إلى طريقَ جَهَنَّم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: قِفوهُم حتى يُسألوا عن أعمالِهم وأقوالِهم التي صَدَرت عنهم في الدارِ الدنيا، كما قال الضحَّاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهُم إنهم مُحاسَبون.

[٥٧٠٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا النُّفيلي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سَمِعت ليثاً يُحدِّث عن بشرٍ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيما داعٍ دعا إلى شيءٍ كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادِرُه ولا يُفارقه، وإن دعا رجلٌ رجلاً». ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾(١). ورواه الترمذي، من حديث ليث بن أبي سليم. ورواه ابنُ جَرِيرٍ، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجلٍ، عن أنس مرفوعاً. وقال عبد الله بن المبارك: سَمِعت عُثمان بن زَائِدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجلُ جُلَسَاؤه. ثم يُقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾. أي: كما زعمتُم أنكم جميعٌ مُنْتَصِرٌ، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾، أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٢٨ من حديث ليث عن بشر عن أنس مرفوعاً به، وضعفه بقوله: غريب. وكذا ضعف إسناده شيخنا في «جامع الأصول» ٧٩٨٣، وللحديث علتان: ليث هو ابن أبي سُليم ضعفه يحيى والنسائي، وقال ابن حبان: اختلط بأَخَرَة. وشيخه بشر، ذكره الذهبي في «الميزان» وقال: لا يعرف. وقال الحافظ في التقريب: بشر عن أنس. قيل: هو ابن دينار، مجهول اهـ وأخرجه الطبري ٢٩٣٢٥ عن ليث عن رجل عن أنس. لم يسمه الطبري، وهو هو. وأخرجه الحاكم ٢/ ٤٣٠ ح ٣٦١٠ من طريق المعتمر عن أبيه سليمان عن أنس، وقال: هكذا حدث به الحسن بن أحمد التُّستري. ولو جاز لنا قبوله منه لكنا نصححه على شرطهما. ولكن نقول صوابه، ثم ساقه الحاكم من طريق المعتمر عن ليث عن بشر به. وهذا الإسناد ضعيف كما تقدم. وقد اضطرب فيه ليث فأسنده ابن ماجه ٢٠٨ عن ليث عن بشير بن نهيك عن أنس. وبشير هذا من رجال البخاري ومسلم ومَنْ دون ليث رجال مسلم، فالعلة من ليث وقد اضطرب فيه. وقد وصفه أحمد بأنه مضطرب الحديث. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف اهـ فالإسناد ضعيف وإن كان صحيحاً من جهة المعنى، والله تعالى أعلم..

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يذكرُ تعالى أن الكفار يتلاومُون في عَرَصاتِ القيامةِ، كما يتخاصَمُون في دَرَكات النار، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]. وهكذا قالوا لهم هاهنا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾، قال الضحَّاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتُم تَقهَرُوننا بالقُدرة منكم علينا، لأنا كنَّا أذلاَّءَ وكنتم أعزَّاء. وقال مجاهد: يعني عن الحقِّ، والكفارُ تقوله للشياطين. وقال قتادةُ: قالت الإنسُ للجنِّ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾. قال: من قِبَل الخير. فتنهَونا عنه وتُبَطِّئونا عنه. وقال السُّديّ: تأتوننا من قِبَلِ الحق، تُزَيِّنون لنا الباطِلَ، وتَصُدُّونا عن الحق. وقال الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾، إي ـ والله ـ يأتيه عند كلِّ خير يُريده فَيَصُدُّه عنه. وقال ابنُ زيدٍ: معناه تَحُولون بيننا وبين الخيرِ، وَرَددتُمونا عن الإسلام والإيمان والعَمَل بالخيرِ الذي أُمِرنا به. وقال يزيد الرِّشْك: من قِبَلِ «لا إله إلا الله». وقال خُصَيف: يعنُون من قبل مَيَامِنِهم. وقال عِكرِمة: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾، قال: من حيث نَأْمَنُكم.

وقولُه تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾، تقولُ القادةُ من الجنِّ والإنسِ للأتباع: ما الأمرُ كما تزعمون! بل كانت قلوبُكم منكرةً للإيمان، قابلةً للكُفرِ والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾، أي: من حُجَّةٍ على صحَّةِ ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، أي: بل كان فيكم طغيانٌ ومجاوَزَةٌ للحقِّ، فلهذا استجبتُم لنا وتركتُم الحقَّ الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحُجَجَ على صِحَّةِ ما جاؤوكم به، فخالفتُموهم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقَّت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين العذابَ يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، أي: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾، أي: دَعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتُم لنا. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: الجميعُ في النار، كُلٌّ بحَسبِه، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: يَستكبِرُون أن يقولُوها، كما يقولُها المؤمنون.

[٥٧٠٤] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله ابن أخي ابن وَهْبٍ، حدثنا عَمِّي، حدثنا الليث، عن ابن مُسافر ـ يعني عبد الرحمن بن خالد ـ عن ابن شِهَاب، عن سعيد بن المُسَيِّب، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولُوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عَصَم مِنِّي ماله ونَفسَه إلا بحقِّه، وحسابُه على الله». وأنزلَ الله في كتابه ـ وذَكَر قوماً استكبروا ـ

فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾(١). وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حمَّاد، عن سعيد الجُرَيري، عن أبي العلاء قال: يُؤتى باليهود يوم القيامة فَيُقال لهم: ما كنتم تعبدُون؟ فيقولون: الله وعُزيراً. فيقال لهم: خُذوا ذات الشمال. ثم يُؤتى بالنصارى فَيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبدُ الله والمسيحَ. فَيُقال لهم: خُذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فَيُقال لهم: «لا إله إلا الله» فيستكبرونَ، ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله» فيستكبرونَ، ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون، فَيُقال لهم: خُذوا ذات الشمال. قال أبو نَضْرَة: فينطلقون أسرع من الطير. قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبُد الله تعالىٰ. فَيُقال لهم: هل تَعْرِفُونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فَيَتَعرَّف لهم تبارك وتعالى، ويُنَجِّي الله المؤمنين. ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾، أي: أنحن نتركُ عبادَة آلِهتنا وآلِهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟! يعنون رسول الله ـ ﷺ ـ قال الله تعالى تكذيباً لهم، ورَدّاً عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعني رسول الله ـ ﷺ ـ جاء بالحق في جميع شِرْعة الله تعالىٰ له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: صدّقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهجِ السديدةِ. وأخبر عن الله تعالىٰ في شَرْعه وأمره كما أخبروا، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]... الآية.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٤ ـ ٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢]. وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩]، ولهذا قال جل وعلا هاهنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يُناقَشُون في الحساب، بل يُتَجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئاتٌ، ويُجزون الحسنةَ بعشرِ أمثالها إلى سبعمئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، إلى ما يشاء الله تعالىٰ من التضعيف. وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾. قال قتادةُ، والسدِّي: يعني الجنة. ثم فَسَّره بقوله تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ﴾، أي: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾، أي: يُخدَمون ويُرَفَّهون ويُنَعَّمون، ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. قال مجاهد: لا ينظُر بعضهم في قَفَا بعض.

---

(١) رجاله ثقات سوىٰ ابن أخي ابن وهب، فقد ضعفه غير واحد. وأصل الحديث متفق عليه عن جماعة من الصحابة، وتقدم عجزه، وهو قوله «وأنزل..» مدرج من كلام أحد الرواة. إما الزهري، أو ابن المسيب، والله تعالى أعلم.

[٥٧٠٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عَبْدَكَ القَزْوِيني، حدثنا حَسَّان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بَشِير، حدثنا يحيى بن معن[١] حدثنا إبراهيم القُرَشي، عن سعيد بن شُرَحبيلٍ، عن زيد بن أبي أوفى قال: خَرَج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فتلا هذه الآية: «على سرر متقابلين ينظرُ بعضُهم إلى بعض»[٢]. حديث غريب. وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩] فَنَزَّه الله سبحانه خمرَ الآخرة عن الآفات التي في خَمرِ الدُّنيا، من صُداع الرأس وَوَجع البطن ـ وهو الغَوْلُ ـ وذهابها بالعقل جُملَةً، فقال تعالىٰ هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾، أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعَها ولا فَراغَها. قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمرِ جاريةٍ بيضاءَ. أي: لونُها مشرق حَسَنٌ بَهِيٌّ لا كَخَمرِ الدنيا في منظرها البشع الرديءِ، من حُمْرَةٍ أو سَوَادٍ أو اصفرارٍ أو كُدُورَةٍ، إلى غير ذلك مما يُنَفِّر الطِبعَ السليم. وقولُه عز وجل: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، أي: طعمُها طَيِّب كلونها، وطِيبُ الطعم دليلٌ على طِيبِ الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقولُه تعالىٰ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، يعني: لا تؤثر فيهم غَوْلاً ـ وهو وَجَعُ البطن. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها. وقيل: المراد بالغَول هاهنا: صُدَاعُ الرأس. ورُوي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادةُ: هو صُدَاع الرأس، ووجَعُ البطن. وعنه، وعن السدِّي: لا تغتال عُقُولَم. كما قال الشاعر:

فَـمَـا زَالَـتِ الـكَـأْسُ تَـغْـتَـالُـنَـا ... وتَـذْهَـبُ بِـالأَوَّلِ الأَوَّلِ

وقال سَعيد بن جُبَير: لا مكروهَ فيها ولا أذًى. والصحيحُ قولُ مجاهدٍ: أنه وَجعُ البطن. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، قال مجاهد: لا تُذهِبُ عقولَهم. وكذا قال ابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، والحسنُ، وعطاء بنُ أبي مسلم الخراساني، والسدِّي، وغيرهُم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الخمر أربعُ خصالٍ: السكر، والصداع، والقَيءُ، والبولُ. فذكر الله تعالىٰ خمر الجنةِ فَنَزَّهها عن هذه الخِصَالِ، كما ذكر في سُورةِ الصافاتِ. وقولُه: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أي: عَفِيفاتٌ لا ينظرن إلى غير أزواجهنَّ. كذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وزيدُ بن أسلم، وقتادةُ، والسدِّي، وغيرهم. وقوله تعالىٰ: ﴿عِينٌ﴾، أي: حِسَانُ الأعين. وقيل: ضخامُ الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النَّجلاء العيناء، فَوَصف عُيونَهُنَّ بالحُسْنِ والعِفَّةِ، كقول زَلِيخا في يوسفَ حين جَمَّلته وأخرجَته على تلك النسوة، فأعظَمْنَه وأكبَرْنَه، وظَنَنَّ أنه مَلَكٌ من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: هو مع هذا الجمال عفيفٌ تَقِيٌّ نَقِيٌّ. وهكذا الحورُ العينُ ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾. وقولُه: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾، يَصِفُهنَّ بترافَةِ الأبدانِ بأحسَنِ الألوانِ. قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾، يقولُ: اللؤلؤ المكنون. وينشد هاهنا بيت أبي دَهْبَلٍ الشاعر وهو قوله في قَصِيدةٍ له:

---

(١) وقع في سائر النسخ «معين» والتصويب عن كتب التراجم.

(٢) إسناده ضعيف. فيه إبراهيم القرشي. قال الذهبي في «الميزان» ٢٦٣. مجهول. وفيه يحيى بن معن. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٦٣٤ وقال: يروي عن سعيد بن شرحبيل مجهول، وكذلك شيخه مجهول اهـ ففي الإسناد ثلاثة مجاهيل كما ترى، والله الموفق.

وَهْـيَ زَهْـرَاء مِـثْـلُ لُـؤْلُـؤةِ الـغَـوَّا صِ مِـيـزَتْ مِـن جَـوْهَـرٍ مَـكْـنُـونِ

وقال الحَسَنُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾، يعني: مَحصُون لم تَمَسّه الأيدي. وقال السدِّي: البيض في عُشّه مكنون. وقال سعيد بن جُبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾، يعني: بطن البيض. وقال عطاءُ الخُرَاساني: هو السَّحاءُ الذي يكون بين قشرته العُليا ولُبَاب البَيضة. وقال السدِّي: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾، يقول: بياضُ البَيضِ يُنْزَعُ قِشره. واختاره ابنُ جريرٍ لقوله: ﴿مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرةُ العُليا يَمَسُّها جناحُ الطيرِ والعُشُّ وتنالُها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم.

[٥٧٠٦] وقال ابنُ جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وَهب، حدثنا محمد بن الفرج الصَّدَفي الدمياطي، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبي كَرِيمة، عن هشام، عن الحسن، عن أُمّه، عن أم سَلَمة ـ رَضِيَ الله عنها ـ قالت: قلتُ: يا رسول الله، أخبرني عن قولِ الله عز وجل «حُورٍ عِينٍ» قال: «العِيْن الضخام العيون، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله الله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾. قال: «رِقّتهن كَرِقَّةِ الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة، التي تلي القشر، وهي الغِرْقِيءُ»[١].

[٥٧٠٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسّان النَّهدِيُّ، حدثنا عبد السلام بن حَرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا أَوّلُ الناسِ خُرُوجاً إذا بُعِثُوا، وأنا خَطِيبهُم إذا وَفَدوا، وأنا مُبشّرهم إذا حَزِنُوا، وأنا شَفِيعهُم إذا حُبِسُوا. لواءُ الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرمُ ولدِ آدمَ على ربي ـ عزّ وجلّ ـ ولا فَخرَ، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهن البيض المكنون أو: اللؤلؤ المكنون»[٢]، والله تعالىٰ أعلم بالصواب.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

يُخبِرُ تعالى عن أهل الجنّة أنه أقبل بعضُهم على بعض يَتَساءلُونَ، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يُعانونَ فيها؟ وذلك من حَديثهم على شَرابهم، واجتماعهم في تَنادُمهم ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعَون ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكلَ ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١﴾، قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال العَوفِيّ، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا. ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطانَ يكونُ من الجِنّ فيُوسوِسُ في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمَعُه الأذنان، وكلاهما يتعاونان؛ قال الله تعالى:

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ٢٩٣٧٦، وفيه محمد بن الفرج المصري، ذكره الذهبي في «الميزان»، وقال: أتىٰ بخبر منكر. ثم ذكر له حديثاً غير هذا. وفيه عمرو بن هاشم، وهو البيروتي. قال ابن وارة: ليس بذاك. وذكره العقيلي في الضعفاء. وشيخه سليمان ابن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: أحاديثه مناكير.

(٢) إسناده ضعيف، لأجل ليث بن أبي سُليم، فإنه ضعيف، وقد تفرد بعجزه. وأما أصل الحديث فصحيح.

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾. ولهذا ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، أي: أأنت تُصدِّق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني يقولُ ذلك على وجه التعجُّب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾، قال مجاهد، والسدِّي: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا؟ وكلاهما صحيح. قال تعالىٰ: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾، أي: مُشرِفون. يقول المؤمن لأصحابه وجُلسائه من أهل الجنَّة. ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾، قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وخُلَيد العَصَري، وقتادةُ، والسدِّي، وعطاء الخُراسَاني: يعني في وسط الجَحيم. وقال الحسنُ البصريُّ: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتّقد. وقال قتادةُ: ذُكرَ لنا أنه اطَّلع فرأى جَماجِمَ القوم تغلي. وذُكِرَ لنا أنَّ كعب الأحبار قال: في الجنة كُوَىً إذا أراد أحد من أهلها أن ينظُرَ إلى عَدُوِّه في النار اطَّلع فيها، فازداد شكراً. ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾، يقولُ المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كِدْتَ لتُهلكني لو أطعتك. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: ولولا فضل الله عليّ لكنتُ مثلكَ في سواء الجحيم حيثُ أنتَ، مُحْضَرٌ معك في العذاب، ولكنه تَفضَّل عَلَيَّ ورَحِمَني فهَداني للإيمان، وأرشَدني إلى توحيدِه، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقولهُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، هذا من كلام المؤمن مُغبطاً نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موتَ فيها ولا عذابَ، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظِّهراني، حدثنا حفص بن عُمَر العَدَني، حدثنا الحكم بن أبانَ، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٩]، قال ابن عباس: قولهُ عز وجل ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: لا يموتُون فيها. فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. وقال الحسن البَصرِيّ: عَلِموا أن كل نَعيم فإن الموت يَقطعُه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، قيل: لا. قالوا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾. وقولهُ جل جلاله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾، قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنَّةِ. وقال ابنُ جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوزِ فَلْيَعمَلِ العاملون في الدنيا، ليصيرُوا إليه في الآخرة. وقد ذكروا قصَّة رجُلين كانا شريكَين في بني إسرائيلَ، تدخل في ضمن عُموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفرِ بن جَرير: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عَتّاب بن بَشِير، عن خُصَيفٍ، عن فُرَات بن ثعلبَة البَهْرانيّ في قوله: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾، قال: إنَّ رجلين كانا شريكين، فاجتمع لهما ثمانيةُ آلاف دينار، وكان أحدهُما له حِرْفَةٍ، والآخرُ ليس له حِرْفَةٌ، فقال الذي له حِرْفَةٌ للآخر: ليس عندك حِرْفَةٌ، ما أراني إلا مُفارِقُك ومُقاسِمُكَ. فقاسَمَهُ وفارَقَهُ. ثم إن الرَّجُلَ اشتَرَى داراً بألف دينار كانت لِمَلِكٍ، ماتَ، فدعا صاحِبَه فأراه فقال: كيف تَرَى هذه الدار؟ ابتعتُها بألف دينار؟ قال: ما أَحْسَنَهَا! فلما خَرَج قال: اللهمَّ، إنَّ صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألُكَ داراً من دُورِ الجَنَّةِ. فَتصدَّق بألفِ دينارٍ، ثم مَكَثَ ما شاء الله أن يمكُث. ثم إنه تَزَوَّج بامرأة بألف دينار، فدعاه وصَنَع له طعاماً، فلما أتاه قال: إني تزوجتُ هذه المرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرَفَ قال: يا ربِّ، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من الحُور العين. فَتَصَدَّق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن

يمكُثَ. ثم اشترى بُستانَين بألفَي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني ابتعتُ هذَين البُستانَينِ بألفي دينار. فقال: ما أحسنَ هذا! فلما خرج قال: يا ربِّ، إنَّ صاحبي قد اشترى بستانَينِ بألفي دينار، وأنا أسألُكَ بستانَينِ في الجنة. فَتَصدَّق بألفَي دينار، ثم إن المَلَك أتاهما فَتوفَّاهما، ثم انطلق بهذا المتصدِّق، فأدخله داراً تُعجبه، وإذا امرأة تَطَّلِعُ يضيء ما تَحتها من حُسنها، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليمٌ، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجُلٍ كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ قيل له: فإنه في الجحيم. ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾. فقال عند ذلك: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾... الآيات. قال ابنُ جرير: وهذا يقوي قراءة من قرأ: «أئنك لمن المصدِّقين»، بالتشديد. وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن الأبَّار أبو حفص قال: سألتُ إسماعيلَ السدِّي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، قال: فقال لي: ما ذَكَّرك هذا؟ قلت: قرأتُه آنفاً فأحببتُ أن أسألَكَ عنه؟ فقال: أمَا فاحفظْ؛ كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمنٌ والآخر كافرٌ، فافترقا على ستة آلاف دينار، لكلِّ واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، ثم افترقا فَمَكَثا ما شاء الله أن يمكُثا، ثم التقيا فقال الكافرُ للمؤمن: ما صنعتَ في مالك؟ أَضرَبْتَ به شيئاً؟ أتَّجرتَ به في شيء؟ فقال له المؤمنُ: لا، قال: فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريتُ به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار. قال: فقال له المؤمنُ: أو فَعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليلُ صلَّى ما شاء الله أن يُصَلِّي، فلما انصرف أخذَ ألفَ دينارٍ فوضَعَها بين يَدَيه، ثم قال: اللهُمَّ، إنَّ فُلاناً ـ يعني شريكَه الكافِرَ ـ اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألفِ دينار، ثم يموت غداً ويتركُها، اللهُمَّ، وإنِّي أشتري منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة. قال: ثم أصبح فَقَسَّمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكُثا، ثم التقيا فقال الكافرُ للمؤمن: ما صنعتَ في مالك، أضَرَبت به في شيء؟ أتَّجرتَ به في شيءٍ؟ قال: لا، فما صنعتَ أنتَ؟ قال: كانت ضيعتي قد اشتدَّ عَلَيَّ مُؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينارٍ، يقومُون لي فيها، ويعمَلُون لي فيها، فقال له المؤمنُ: أوَ فَعلتَ؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمنُ حتى إذا كان الليلُ صَلَّى ما شاء الله أن يُصَلِّي، فلما انصرف أخذ ألفَ دينار فوضَعَها بين يَدَيه، ثم قال: اللهُمَّ، إنَّ فلاناً ـ يعني شريكَه الكافرَ ـ اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غداً فيتركهم، أو يموتُون فيتركُونه، اللهُمَّ، وإنِّي أشتري منك بهذه الألفِ الدينارِ رقيقاً من الجنة. قال: ثم أصبح فقسَّمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكُثا، ثم التقيا فقال الكافرُ للمؤمن: ما صنعتَ في مالك؟ أضربتَ به في شيء؟ أتَجرتَ به في شيء؟ قال: لا، فما صَنَعت أنت؟ قال: أمري كله قد تَمَّ إلا شيئاً واحداً، فلانةُ ماتَ عنها زوجها، فأصدقتُها ألفَ دينار، فجاءتني بها ومثلُها مَعَها. فقال له المؤمن: أوَ فَعلتَ؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتَّى إذا كان الليل صَلَّى ما شاء الله أن يُصَلِّيّ، فلما انصرف أخذَ الألفَ الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهُمَّ، إن فلاناً ـ يعني شريكه الكافر ـ تَزَوَّج زوجةً من أزواج الدنيا بألف دينار فيموتُ غداً فيتركها، أو تَموتُ فَتَترُكه، اللهم وإنِّي أخطب إليكَ بهذه الألف الدينارِ حَوراء عيناء في الجنة. قال: ثم أصبح فَقَسَّمها بين المساكين. قال: فبقي المؤمنُ ليس عنده شيء. قال: فَلَبس قَمِيصاً من قُطن، وكساءً من صُوفٍ، ثم أخذ مَرّاً فَجَعله على رقبته، يعمَلُ الشيءَ ويحفِرُ الشيءَ بقُوّته. قال: فجاءه رجلٌ فقال: يا عبد الله، أتُؤاجرني نفسَك مشاهرةً، شَهراً بشهرٍ، تقوم على دواب لي تَعلِفها وتكنس سِرْقِينَها؟ قال: نعم. قال: فآجَره نفسه مشاهَرَةً، شهراً بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدوابِّ يغدُو كُلَّ يوم ينظُر إلى دوابّه، فإذا رأى منها دابةً ضَامِرةً أخذ برأسِهِ فَوَجأ

عُنقَه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحةَ؟ قال: فلما رأى المؤمن هذه الشدَّة قال: لآتينَّ شريكي الكافر، فَلأعملَنَّ في أرضِهِ فَيُطعِمُني هذه الكسرة يوماً بيومٍ، ويكسُوني هَذَين الثوبَين إذا بَلِيا.

قال: فانطلق يُريدهُ فلما انتهى إلى بابِهِ وهو مُمْسٍ، فإذا قصر مَشِيدٌ في السماء، وإذا حوله البوَّابُون، فقال لهم: استأذنوا لي على صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سَرَّه ذلك. فقالوا له: انطلق إن كنتَ صادقاً فَنَم في ناحيةٍ، فإذا أصبحتَ فَتَعَرَّضْ له. قال: فانطلق المؤمنُ، فألقى نِصف كِسَائِهِ تحته، ونصفه فوقَه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكهُ فتعرَّض له، فخرج شريكهُ الكافرُ وهو راكب، فلما رآه عَرَفه فوقَفَ عليه وسَلَّم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخُذ من المال مثلَ ما أخذتُ؟ قال: بلى وهذه حالي وهذه حالُك؟ قال: أخبرني ما صنعتَ في مالِكَ؟ قال: لا تسألني عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئتُ أعملُ في أرضِكَ هذه، فَتُطْعِمُني هذه الكسرةَ يوماً بيوم، وتكسُوني هذَين الثوبين إذا بَلِيا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أقرضتُه. قال: مَن؟ قال: المَلِيءُ الوفيُّ. قال: من؟ قال: الله ربي. قال وهو مصافِحُه، فانتزعَ يدَه من يده، ثم قال: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ ـ قال السدِّي: مُحاسَبون ـ قال: فانطلق الكافر وتَركه. قال: فلما رآه المؤمنُ ليس يَلْوِي عليه رَجَعَ وتَركه. يعيشُ المؤمن في شدَّةٍ من الزمانِ، ويَعِيشُ الكافِرُ في رَخَاءٍ من الزمان. قال: فإذا كان يومُ القيامة وأدخلَ الله المؤمنُ الجنَّة، يَمُرُّ فإذا هو بأرضٍ ونخلٍ وثمارٍ وأنهارٍ، فيقولُ: لِمن هَذَا؟ فيقال: هذا لَكَ. فيقول: يا سبحانَ الله! أوَبلغ من فَضلِ عَمَلي أن أُثابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يمرُّ فإذا هُو بِرَقيقٍ لا تُحصَى عِدَّتُهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سُبحان الله! أوَبَلغَ من فَضل عَمَلي أن أُثابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يمرُّ فإذا هو بقُبَّة من ياقوتةٍ حمراءَ مُجَوَّفة، فيها حَوْراءُ عَيْناءُ، فيقول: لمن هذه؟ فيُقال: هذه لك. فَيَقولُ: يا سبحانَ الله! أوَبَلغ من فضل عملي أن أُثابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يذكُر المؤمنُ شريكَه الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾. قال: فالجنة عالية، والنارُ هَاوية. قال: فَيُريه الله شريكَه في وَسَطِ الجَحِيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمنُ عرَفه، فيقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. بمثل ما قد مَنَّ عليه. قال: فَيَتَذَكَّرُ المؤمنُ ما مَرَّ عليه في الدنيا من الشدَّة، فلا يذكر مما مَرَّ عليه في الدنيا من الشدَّة أشدَّ عليه من الموت.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾

يَقُول الله تعالى: أهذا الذي ذَكَره من نَعِيم الجَنَّةِ وما فيها من مآكِلَ ومَشَارِبَ ومناكحَ وغير ذلك من الملاذِّ خيرٌ ضيافةً وعَطاءً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي: التي في جَهنَّم. وقد يحتملُ أن يكونَ المرادُ بذلك شجرةً واحدةً مُعَيَّنَة، كما قال بعضُهم من أنها شجرة تمتدُّ فروعها إلى جميع مَحَالِّ جهنَّمَ، كما أن شجرة طُوبَى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصنٌ. وقد يَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ بذلك جنسَ شَجَرٍ يقال له: الزقُّومُ، كقوله

تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٢]. وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾، قال قتادة: ذُكِرت شجرةُ الزقُّوم، فافتتَنَ بها أهلُ الضلالة، وقالوا: صاحبكم يُنبئُكم أن في النار شجرةً، والنارُ تأكلُ الشجرَ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾، غُذِيَتْ من النار، ومنها خُلِقَتْ. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾، قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: إنما الزقُّومُ التمرُ والزبدُ أتزقمه. (قلت): ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمدَ بشجرةِ الزقُّوم اختباراً تَخْتَبِرُ به الناسَ، مَن يُصدِّق منهم ممن يُكذِّب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾، أي: أصل مَنْبتِها في قَرَارِ النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ تبشيعٌ لها وتكريهٌ لِذِكرِهَا. قال وهبُ بن مُنبِّه: شُعور الشياطين قائمة إلى السماء. وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفةً عند المخاطبين، لأنه قد استقرَّ في النفوسِ أن الشياطين قَبيحةُ المنظرِ. وقيل: المرادُ بذلك ضربٌ من الحَيَّات، رُؤوسها بَشِعَةُ المنظرِ. وقيل: جنسٌ من النبات، طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير. والأول أقوى وأولى، والله أعلم. وقولهُ تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾، يذكُر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرةِ التي لا أبشَعَ منها، ولا أقبَحَ من منظرها، مع ما هي عليه من سُوء الطعمِ والريح والطبع، فإنهم لَيُضطَرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، أو ما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦ ـ ٧].

[٥٧٠٨] وقال ابنُ أبي حاتم ـ رَحِمَهُ الله ـ: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن مرزوق، حدثنا شُعبةُ، عن الأعمش، عن مُجاهِدٍ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حَقَّ تُقاتِهِ، فلو أن قطرةً من الزقُّوم قُطِرَتْ في بحار الدُنيا لأفسدت على أهل الأرضِ مَعَايِشَهم، فكيف بمن تكُون طَعَامَه؟!.»[(١)] ورواه الترمذيُّ، والنَّسائي، وابن ماجه، من حديث شُعبَةَ، وقال التِرمِذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ». وقولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾، قال ابنُ عباس: يعني شربَ الحَمِيم على الزقُّوم. وقال في رواية عنه: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، مَزجاً من حَمِيمٍ. وقال غيرهُ: يعني يُمزَجُ لهم الحميم بِصَدِيدٍ وَغَسَّاقٍ، مما يَسِيلُ من فُرُوجِهِم وعُيونِهم.

[٥٧٠٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَيْوَةُ بن شُرَيح الحضرمي، حدثنا بقية بن الوليد، عن صفوانِ بن عمرو، أخبرني عُبَيد الله بن بِشر عن أبي أمامة الباهلي ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان يقول: «يُقَرَّبُ ـ يعني إلى أهل النار ـ ماءٌ فَيَتَكَرَّهُه، فإذا أُدني منه شَوَى وَجْهَهُ، ووقعت فروةُ رأسه فيه. فإذا شَرِبه قَطَع أمعاءَه حتى تخرج من دُبره»[(٢)]

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عَمرو بن رافع، حدثنا يعقوبُ بن عبد الله، عن جعفر وهارونَ بن عَنْتَرَة، عن سعيد بن جُبَير قال: إذا جاع أهل النار استغاثُوا بشجرة الزقُّوم، فأكلوا منها فاختلسَت جلودَ وُجُوهِهم، فلو أنَّ ماراً يمرُّ بهم يَعرِفهم لعرف وجوهَهُم فيها، ثم يُصَبُّ عليهم العطش، فيستغيثون

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٨٥ وابن ماجه ٤٣٢٥ وابن حبان ٧٤٧٠ والحاكم ٤٥١، وإسناده ضعيف، فيه عنعنة الأعمش عند الجميع.

(٢) إسناده ضعيف لجهالة عبيد الله بن بسر، لكن لمعناه شواهد، وتقدم الكلام على ذلك. والله الموفق.

فيغاثون بماء كالمُهْلِ ـ وهو الذي قد انتهى حَرُّه ـ فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حَرّه لحومُ وُجوههم التي قد سقطت عنها الجلودُ، ويُصهَر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقَطُ جلودُهم، ثم يُضرَبُون بِمَقامِعَ من حديدٍ، فيسقطُ كُلُّ عضوٍ على حِيَالِهِ، يَدعُونَ بالثبورِ. وقولهُ عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾، أي: ثم إنَّ مَرَدَّهُم بعد هذا الفصل لإلى نارٍ تتأجَّجُ، وجَحِيم تَتَوقَّد، وسَعِيرٍ تَتَوَهَّجُ، فتارةً في هذا وتارةً في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادةُ هذه الآية عند هذه الآية، وهو تَفْسير حَسَنٌ قويٌّ. وقال السدِّي في قراءة عبدِ الله: «ثم إن مَقِيلَهُم لإلى الجَحِيم»: وكان عبدُ الله يقول: والَّذِي نفسي بِيَدِهِ لا يَنْتَصِفُ النهارُ يومَ القيامة حتى يَقِيل أهلُ الجَنَّةِ في الجَنَّةِ، وأهلُ النارُ في النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. وَروى الثوري، عن مَيْسَرَة، عن المنهال بن عمرو، عنٍ أبي عُبَيْدَة، عن عَبدِ الله قال: لا ينتصِفُ النهارُ يوم القيامة حتى يَقِيل هؤلاء ويَقِيل هؤلاء. قال سفيان: أُراه ثُمَّ قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾، «ثم إنَّ مَقِيلَهُم لإلى الجَحِيم». (قلت): على هذا التفسير تكون ﴿ثُمَّ﴾ عاطفةً لخبر على خبر. وقولهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: إنما جازيناهُم بذلك لأنهم وَجدوا آباءهم على الضَّلالة فاتبعُوهم فيها بمجرَّد ذلك، من غير دَليلٍ ولا بُرهانٍ، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾، قال مجاهد: شبيهة بالهَرْوَلَةِ. وقال سَعِيد بن جُبَير: يَسْفَهُون.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضين أن أكثرهم كانوا ضالِّين يجعلُون مع الله آلهةً أُخرَى، وذَكر تعالى أنه أرسل فيهم مُنذِرين، يُنذِرون بأسَ الله، ويُحَذِّرونهم سَطوته ونقمته، مِمَّن كفَرَ به وعَبد غيرَه، وأنهم تمادوا على مُخالفَةِ رُسُلِهم وتكذيبهم، فأهلك المكذِّبين ودَمَّرهم، ونَجَّى المؤمنين ونَصرهم وظَفَّرَهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

لما ذَكَر تعالى عن أكثر الأولين أنّهم ضَلُّوا عن سبيل النجاة شرع يُبَيِّن ذلك مُفَصَّلاً، فَذَكَرَ نُوحاً ـ عليه السّلام ـ وما لَقِيَ من قَومِهِ من التكذيبِ، وأنه لم يُؤمن منهم إلا القليلُ مع طُولِ المُدَّة، لَبِث فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتدَّ عليه تكذِيبُهم، وكُلَّما دعاهم ازدادُوا نَفْرَةً، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، فَغَضِبَ الله تعالىٰ لِغَضَبِهِ عليهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: فَلَنِعم المُجِيبون ـ كُنّا ـ له، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ يَقُول: لم تبقَ إلا ذُرِّيةُ نوح عليه السلامُ. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾، قال: الناسُ كلُّهم من ذُرِّية نوحٍ.

[٥٧١٠] وقد رَوَى التِّرمذيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث سعيد بن بَشِير، عن قَتادَة، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾، قال: «سامٌ، وحامٌ، ويافثُ».

[٥٧١١] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيدٍ، عن قتادةَ، عن الحسن، عن سَمُرَةَ: أنَّ نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال: «سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو الحبش، ويافثُ أبو الروم»(١). ورواه التِّرمذيُّ عن بِشرِ بن مُعَاذٍ العَقَدِيِّ، عن يزيدَ بن زُرَيع، عن سَعِيد ـ وهو ابن أبي عَرُوبَة ـ عن قتادَةَ، به. قال الحافظ أبو عُمَر بن عبد البرّ: وقد رُوِيَ عن عِمران بن حُصَين، عن النبي ـ ﷺ ـ مثله. والمرادُ بالروم هاهنا: هم الرُّوم الأُوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رُومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المُسَيَّب قال: ولدُ نوح عليه السلام ثلاثة: سامٌ ويافثٌ وحامٌ، وَوَلد كلُّ واحد من هؤلاء الثلاثةِ ثلاثةً، فَوَلَدَ سامٌ العربَ وفارس والرومَ، وَوَلَدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوجَ ومأجوجَ، وَوَلَدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربَر. ورَوَى عن وهب بن مُنَبِّهٍ نحوَ هذا، والله أعلم. وقولهُ تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾، قال ابنُ عباسٍ: يُذْكَرُ بخير. وقال مجاهد: يعني لسانَ صِدْقٍ للأنبياء كُلِّهم. وقال قتادةُ، والسدِّي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. وقال الضحاك: السلامُ والثناءُ الحسن. وقولهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾، مُفسِّر لما أبقَى عليه من الذكر الجَميل والثناءِ الحَسَن، أنَّه يُسَلَّم عليه في جَميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾، أي: هكذا نجزي مَن أحسن مِن العباد في طاعةِ الله تعالىٰ، نَجعل له لسانَ صِدْقٍ يُذكر به بعدَه بِحَسَبِ مرتبته في ذلك. ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾، أي: المُصَدِّقين المُوحِّدين المُوقنين. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾، أي: أهلكناهم، فلم تبْقَ منهم عينٌ تَطرِفُ، ولا ذِكرٌ لهم، ولا عينٌ ولا أثرٌ، ولا يُعرفون إلا بهذِهِ الصِّفَةِ القَبيحَةِ.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾، يقولُ: من أهل دينه. وقال مجاهدٌ: على مِنهاجه وسُنَّتِه. ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾، قال ابن عباس: يعني شهادةَ أن لا إله إلا الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُ، حدثنا أبو أسامة، عن عوفٍ قلتُ لمحمد بن سِيرينَ: ما القلبُ السليمُ؟ قال: يعلَم أن الله حقٌّ، وأن الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأن الله يبعَثُ مَن في القبور. وقال الحسن: سَليم من الشرك. وقال عُروة: لا يكون لعاناً. وقولهُ تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾، أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال قتادة: يعني ما ظَنُّكم به أنه فاعلٌ بكم إذا لَقِيتُموه وقد عَبَدتُم معه غيره؟!

(١) تقدم الكلام عليه في سورة الكهف، آية ٩٣. وانظر الدر المنثور ٥/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥ فله شواهد أخرىٰ.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

إنما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه ذلك، لِيُقيم في البلد إذا ذَهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أَزِفَ خروجُهم إلى عيدٍ لهم، فأحب أن يَختَلي بآلهتهم فَيَكسِرَها، فقال لهم كلاماً هو حَقٌّ في نفسِ الأمر، فَهِمُوا منه أنه سقيمٌ على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾، قال قتادة: والعرب تقول لمن تَفكَّر: نَظر في النُّجوم. يعني قتادة أنه نَظَرَ في السَّماء متفكراً فيما يُلهيهم به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: ضعيف.

[٥٧١٢] فأما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو أُسامة، حدثني هِشَامٌ، عن محمد، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لم يَكْذِب إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ غير ثلاث كِذْبَاتٍ: ثِنْتَين في ذاتِ الله، قولهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[1] [الأنبياء: ٦٣]، وقوله في سارَةَ: هي أختي». فهو حديث مُخَرَّجٍ في الصِّحاح والسنَنِ من طُرُقٍ، ولكن ليس هذا من باب الكَذِب الحقيقي الذي يُذَمُّ فاعلهُ، حَاشا وكلاً. وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث:

[٥٧١٣] «إنَّ في المَعَارِيضِ لمندوحَةً عن الكَذِبِ»[2].

[٥٧١٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَرَ، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جُدْعَانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في كلماتِ إبراهيمَ الثلاثِ التي قال ـ: «ما منها كلمةٌ إلا ماحل بها عن دين الله تعالى، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾. وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وقال للمَلِكَ حين أراد امرأته: هي أُختي»[3]. قال سفيانُ في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، يعني: طَعِين. وكانوا يَفِرُّون من المطعون، فأراد أن يخلُوَ بآلهتهم. وكذا قال العَوفِيُّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالىٰ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، قال: قالوا له وهو في بيت آلهتهم: اخرج، فقال: إني مطعون. فتركوه مخافَةَ الطاعُونِ. وقال قتادةُ، عن سَعيد بن المسَيَّبِ: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كايَدَ نبيُّ الله عن دينِهِ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾. وقال آخرون: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ بالنسبة إلى ما يَسْتَقْبِلُ، يعني مَرَض الموتِ. وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: مريضُ القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقال الحسنُ البصريُّ: خَرَجَ قومُ إبراهيم إلى عيدِهم، فأرادُوه على الخروج، فاضطجَعَ على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظرُ في السماء، فلما خَرَجُوا أقبل إلى آلهتهم فكسَرَها. رواه ابن أبي حاتم.

---

(١) والحديث صحيح. أخرجه الطبري ٢٩٤٤٣ بإسناد علىٰ شرط البخاري ومسلم، وتقدم.
(٢) تقدم الكلام عليه.
(٣) في إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾، أي: إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ﴾، أي: ذَهَبَ إليها بعد أن خرجوا في سُرعةٍ واختفاءٍ، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وَضَعُوا بين أيديها طعاماً قُرباناً لتُبارك لهم فيه. قال السدِّي: دخل إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ إلى بيت الآلهة، فإذا هُنَّ في بَهو عظيم، وإذا مُستقبلُ بابِ البهو صَنَمٌ عظيمٌ، إلى جنبه أصغرُ منه، بعضُها إلى جنب بعضٍ، كلُّ صَنَمٍ يليه أصغرُ مِنه، حتى بلغُوا باب البَهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجعُ وقد باركت الآلهةُ في طعامنا أكلنا. فلما نَظَرَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾. وقولهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣﴾، قال الفراء: معناه مال عليهم ضَرْباً باليمين. وقال قتادةُ والجوهريُّ: فأقبلَ عليهم ضرباً باليمين. وإنما ضَرَبهم باليمين لأنها أشدُّ وأنكى، ولهذا تركَهُم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعَلَّهم إليه يرجعُون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك. وقولهُ هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾، قال مجاهد وغير واحد: أي يُسرعُونَ. وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسُوطة، فإنهم لما رَجَعُوا ما عرفوا من أول وهلَةٍ مَن فعل ذلك حتى كَشَفُوا واستعلَمُوا، فعرفوا أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذي فعل ذلك. فلما جاؤوا لِيعاتِبُوه أخَذَ في تأنيبهم وعَيْبِهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحِتُونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾، يَحتَمِل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعَمَلكم. وَيَحتَمِلُ أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خَلَقكم والذي تعمَلُونه. وكلا القولَينِ مُتلازِم، والأول أظهر.

[٥٧١٥] لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المديني؛ عن مَرْوَان بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربْعِي بن حِرَاش، عن حُذَيفَةَ مرفوعاً: «إن الله يصنَعُ كلَّ صانعٍ وصَنْعته»[(١)]، وقرأ بعضُهم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجةُ عَدَلوا إلىٰ أخذِهِ باليد والقهر، فقالوا: ﴿ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾. وكان مِن أَمْرِهم ما تقدَّم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونَجّاه الله مِنَ النارِ وأظهرَهَ عليهم، وأعلى حُجَّتَه ونَصرَها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ۝١١٣﴾

يقول تعالى مُخبراً عن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ: أنه بعد ما نَصَره الله على قومه وأيِس من

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» ١١٧ وابن أبي عاصم في السنة ٣٥٨ والحاكم في المستدرك ١/ ٣١ والبيهقي في «الصفات» ٣٧ وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

إيمانهم بعد ما شاهَدُوا من الآياتِ العظيمة هاجَرَ من بين أظهُرِهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، يعني: أولاداً مُطيعين عِوَضاً من قومه وعَشِيرتِهِ الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. وهذا الغلامُ هو إسماعيلُ عليه السلام، فإنه أوَّلُ وَلَدٍ بُشِّر به إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو أكبر من إسحاقَ باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصِّ كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم ـ عليه السلام ـ ستٌّ وثمانونَ سنة، وَوُلِدَ إسحاق وعُمرُ إبراهيم تسعٌ وتسعون سنة. وعندهم أن الله ـ تعالى ـ أمر إبراهيمَ أن يذبح ابنَه وحيده، وفي نسخة أخرىٰ: بِكْره، فأقحمُوا هاهنا كذباً وبُهتاناً «إسحاقَ»، ولا يجوز هذا لأنه مخالفٌ لنصِّ كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيلُ أبو العرب، فَحَسدُوهم، فزادوا ذلك وحرَّفُوا «وحيدَك» بمعنى الذي ليس عندك غيرهُ، فإن إسماعيل كان ذُهِبَ به وبأمِّه إلى مكة. وهذا تأويلٌ وتحريفٌ باطل، فإنه لا يقال: «وحيدك» إلا لِمَن ليس له غيرُه، وأيضاً فإن أوَّل وَلَدٍ له مَعَزَّةٌ مَّا لَيس لِمَن بعدَه من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغُ في الابتلاء والاختبار. وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاقُ، وحُكِيَ ذلك عن طائفة من السلف، حتى نُقِلَ عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سُنَّةٍ، وما أظن ذلك تُلُقِّيَ إلا عن أحبارِ أهل الكتابِ، وأُخِذ ذلك مُسلَّماً من غير حُجَّةٍ. وهذا كتابُ الله شاهد ومُرشِد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذَّبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾. ولما بَشَّرت الملائكةُ إبراهيمَ بإسحاقَ قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياتهما ولدٌ يُسمَّى يعقوب، فيكون من ذُرِّيته عَقِبٌ ونَسْلٌ. وقد قدَّمنا هناك أنه لا يجوزُ بعد هذا أن يُؤمَرَ بذبحه وهو صغير، لأن الله تعالىٰ قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيلُ وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسبٌ لهذا المقام. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾، أي: كَبِر وترعرعَ وصار يذهَبُ مع أبيه ويمشِي معه. وقد كان إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ يذهبُ في كلِّ وقتٍ يَتَفَقَّدُ ولدَه وأم ولدِه ببلاد «فاران» ويَنظرُ في أمْرِهما، وقد ذُكِر أنه كان يركَبُ على البراق سَريعاً إلى هناك، فالله أعلم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمَةَ، وسعيد بن جُبَير، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلَم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾، بمعنى: شَبَّ وارتجل وأطاق ما يفعلُه أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، قال عُبَيد بن عُمَير: رُؤيا الأنبياء وَحيٌ، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

[٥٧١٦] وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندي، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رؤيا الأنبياء في المنام وَحيٌ»[(١)]. ليس هو في شيءٍ من الكتب الستة من هذا الوجه. وإنما أعلم ابنَه بذلك ليكون أهونَ عليه، وَليختَبر صبره وجَلَده وعَزْمَه من صِغَرِه على طاعةِ الله وطاعةِ أبيه. ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، أي: امضِ لما أمرك الله من ذَبحي، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، أي:

---

(١) إسناده ضعيف لأجل سماك بن حرب، فإنه صدوق لكن اختلط بأخَرة. ولذا ضعفه الثوري وشعبة وغيرهما. وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة أيضاً. والراجح فيه الوقف على ابن عباس. وورد موقوفاً على قتادة أسنده الطبري ٢٩٤٧٧ وعن عبيد بن عمير ٢٩٤٧٨ موقوفاً عليه أيضاً. وهو الصحيح. وقد أسنده الحاكم ٢/ ٤٣١ عن ابن عباس موقوفاً وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

سأصبر وأحتسبُ ذلك عند الله ـ عزّ وجلّ ـ وَصَدق ـ صلواتُ الله وسلامهُ ـ فيما وَعَد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾، أي: فلما تشهّدا وذكرا الله تعالى: إبراهيمُ على الذّبح، والولدُ على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، يعني: استسلما وانقادا، إبراهيم امتثَل أمْرَ الله، وإسماعيلُ طاعةَ الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة، والسدّي، وقتادةُ، وابنُ إسحاقَ، وغيرهم. ومعنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، أي: صَرَعه على وجهه ليذبَحه من قفاه، ولا يشاهِدَ وجهَه عند ذبحه، ليكون أهونَ عليه. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، والضحّاك، وقتادةُ: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أكبَّه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيجٌ ويونُسُ قالا: حدثنا حَمّاد بن سَلَمَة، عن أبي عاصم الغَنَويّ، عن أبي الطُّفَيل، عن ابن عباس أنه قال: لما أُمِرَ إبراهيم عليه السلام بالمناسك عَرَضَ له الشيطانُ عند السَّعي، فَسَابقه فسبقَه إبراهيمُ، ثم ذَهَبَ به جبريلُ عليه السلام إلى جَمْرَةِ العَقَبة، فعرض له الشيطانُ، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذَهَب، ثم عَرَض له عند الجَمْرةِ الوُسطى فرماه بسبع حَصَيات، وثمّ تَلَّهُ للجبين، وعلى إسماعيلَ عليه السلام قميصٌ أبيضُ، فقال له: يا أبتِ، إنه ليس لي ثوبٌ تُكَفِّنني فيه غيرُه، فَاخلَعه حتى تكفّني فيه. فعالجه لِيَخلَعه، فَنُودِيَ من خَلْفِهِ: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بِكَبشٍ أبيضَ أقرنَ أعينَ، قال ابنُ عبّاسٍ: لقد رأيتنا نَتَتَبّع ذلك الضربَ من الكِباشِ. وذكر تمام الحديث في «المناسك» بطوله. ثم رواه أحمدُ بطوله عن يونس، عن حمّاد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فَذَكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق». فعن ابن عباس في تسميةِ الذبيحِ روايتان، والأظهرُ عنه إسماعيلُ لما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ. وقال محمد بن إسحاقَ، عن الحسن بن دينار، عن قتادةَ، عن جَعفر بن إياسٍ، عن ابن عَبّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، قال: خَرَجَ عليه كبشٌ من الجَنّة قد رَعَى قبلَ ذلك أربعينَ خريفاً، فأرسل إبراهيمُ ابنه واتّبع الكبشَ، فأخرجَه إلى الجَمرة الأولى، فَرَماه بسبع حَصَياتٍ ثم أفلته عِندَها، فجاء الجمرةَ الوُسطى فأخرجه عندَها، فرماه بسبع حَصَياتٍ ثم أفلته، فأدركَه عند الجَمْرةِ الكُبرى، فرماه بسبع حَصَياتٍ فأخرجَه عندَها. ثم أخذَهُ فأتى به المَنْحَر من منى فَذَبَحه، فوالذي نفسُ ابن عباسٍ بيده لقد كان أولَ الإسلام، وَإنَّ رأسَ الكبشِ لمُعَلّقٌ بقرنَيه في مِيزابِ الكعبة قد حُشّ. يعني: يَبِسَ.

[٥٧١٧] وقال عبد الرزّاق: أخبرنا معمر، عن الزهريّ، أخبرنا القاسمُ قال: اجتمَعَ أبو هُرَيرَةَ وكعبٌ، فجعل أبو هُرَيرة يُحدّث عن النبي ـ ﷺ ـ وجعل كعبٌ يحدّث عن الكُتُب، فقال أبو هُرَيرة: قال النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ دعوةً مُستَجابةً، وإني قد خَبَأتُ دَعْوَتي شفاعةً لأُمّتي يوم القيامة»، فقال له كعب: أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ـ ﷺ ـ؟ قال: نعم. قال: فِداكَ أبي وأُمّي ـ أو: فِداهُ أبي وأمي ـ أفلا أُخبِرُكَ عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِيَ ذَبْح ابنِه إسحاقَ قال الشيطانُ: إن لم أفتِنْ هؤلاءِ عند هذه لم أفتِنْهم أبداً. فخرج إبراهيمُ بابنه لِيذبَحه، فذهب الشيطان فدخَلَ على سارَةَ، فقال: أين ذَهَبَ إبراهيمُ بابنِك؟ قالت: غدا به لبعضِ حاجَتِهِ. فقال: إنه لم يغدُ به لحاجةٍ، إنما ذَهَبَ به ليذبَحه. قالت: وَلِمَ يذْبحهُ؟ قال: زَعَمَ أن ربَّه أمره بذلك. قالت: فقد أحسَنَ أنْ يُطيعَ رَبَّه. فذهب الشيطان في أَثَرِهما فقال للغلام: أينَ يذهبُ بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال: إنه لا يذهَبُ بك لِحاجةٍ، ولكنه يَذهَبُ بك لِيَذبَحكَ. قال: وَلِم

يَذْبَحني؟ قال: يزعم أنَّ ربَّه أمرَهُ بذلكَ. قال: فوالله لئن كان الله أمرَه بذلك ليفعلَنَّ. قال: فَيَئِسَ منه [فتركه] ولحق بإبراهيم، فقال: أين غَدَوتَ بابنك؟ قال: لحاجةٍ. قال: فإنك لم تَغدُ به لحاجةٍ، وإنما غَدَوت به لتذبَحَهُ. قال: وَلِمَ أذْبَحه؟ قال: تَزْعَمُ أن رَبَّكَ أمرَكَ بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرني بذلِكَ لأفعلَنَّ. قال: فتركه وَيَئِسَ أن يُطَاع[1]. وقد رواه ابنُ جرير عن يُونُسَ، عن ابن وَهْبٍ، عن يُونُسَ بن يَزِيدَ، عن ابنِ شهابٍ، أن عَمْرو بن أبي سُفيانَ بن أَسِيد بن جَارِيَةَ الثقفي أخبَرَه، أن كعباً قال لأبي هُرَيرة... فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحى الله تعالى إلى إسحاق أني أعطيتك دعوةً أَسْتَجِيبُ لك فيها. قال إسحاق: اللهُمَّ، إني أدعو أن تَسْتَجِيب لي: أيما عَبْدٍ لَقِيَكَ من الأولين والآخرين لا يُشْرِكُ بكَ شيئاً، فأدخِلْه الجَنَّةَ.

[٥٧١٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوَزير الدِّمشقي، حدثنا الوليد بن مُسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عَطَاء بن يَسَارٍ، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله تبارك وتعالىٰ خَيَّرني بين أن يَغْفِرَ لنصفِ أُمتي، وَبين أن أختبِىءَ شفاعتي، فاخترت شفاعتي، وَرَجَوْتُ أن تكون أعَمَّ لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبدُ الصالح لتعجَّلتُ فيها دعوتي، إنَّ الله تعالىٰ لَمَّا فَرَّجَ عن إسحاقَ كَرْبَ الذَّبح قيل له: يا إسحاقُ، سَلْ تُعْطَهْ. فقال: أما والذي نفسي بيده لأتعجلنها قبل نَزَغَاتِ الشيطانِ، اللهُمَّ مَن ماتَ لا يُشرِكُ بِكَ شيئاً فاغفِر له وأدخِلْه الجَنَّة»[2]. هذا حديثٌ غريبٌ مُنكَرٌ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ ضعيفُ الحديثِ، وأخشَى أن يكونَ في الحديثِ زيادةٌ مدرجةٌ، وهي قوله: «إن الله تعالى لما فَرَّج عن إسحاق»... إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبهُ أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنَّما حَرَّفوه بإسحاقَ، حَسَداً منهم كما تقَدَّم، وَإلاَّ فالمناسكُ والذبائحُ إنما محلُّها بمنىً من أرض مكَّةَ، حيث كان إسماعيلُ لا إسحاقُ، فإنه إنما كان ببلاد كَنْعانَ من أرضِ الشام. وقولهُ تعالى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، أي: قد حَصَل المقصودُ من رُؤياك بإضجاعِكَ ولدَك للذَّبح. وَذَكَرَ السدِّي وغيرُه أنه أَمَرَّ السِّكين على رقبته فلم تقطَع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحةٌ من نُحاسٍ، ونُودِيَ إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾. وقولهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: هكذا نَصرفُ عمَّن أطاعنا المكارهَ والشدائدَ، ونجعلُ لهم من أمرهم فَرَجاً ومَخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. وقد استدلَّ بهذه الآيةِ والقصَّة جماعةٌ من علماء الأصول على صحَّة النسخ قبل التمكُّن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلةِ، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شَرع لإبراهيم ذَبْحَ وَلَدِهِ، ثم نَسَخه عنه وصَرَفه إلى الفداءِ، وإنما كان المقصودُ من شَرْعِهِ أوَّلاً إثابةَ الخليل على الصَّبر على ذبحِ ولدِهِ وعَزْمِهِ على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾، أي: الاختبارُ الواضحُ الجَليُّ؛ حيث أُمِرَ بذبح ولدِهِ، فسارَعَ إلى ذلك مُستسلِماً لأمرِ الله، منقاداً لطاعتِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]. وقولهُ تعالىٰ: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، قال سفيان الثوري، عن جابر الجُعْفي، عن أبي الطفَيل، عن علي ـ رضي الله عنه ـ: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، قال: بكبشٍ أبيضَ أعيَنَ أقرَنَ، قد

---

(١) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٢٠٨٦٤ و«التفسير» ٢٥٣٠ ورجاله رجال البخاري ومسلم.

(٢) ضعيف جداً. فيه عبد الرحمن بن زيد ضعفه المصنف. وهو شديد الضعف، قال عنه يحيى: ليس بشيء. وقال البخاري: عبد الرحمن بن زيد ضعفه علي المديني جداً اهـ الميزان ٤٨٦٨ ثم إن المتن منكر كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى. واكتفى السيوطي في «الدر» ٥/ ٥٣١ بقوله: ضعيف.

رُبِطَ بِسَمُرَةٍ. قال أبو الطفيل: وَجَدوه مربوطاً بسَمُرَةٍ في ثَبِير. وقال الثَّورِيُّ أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كبشٌ قَد رَعَى في الجنة أربعين خريفاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يَعقُوب الصفَّار، حدثنا داود العَطَّار، عن ابن خُثَيم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس قال: الصخرة التي بمنى بأصلِ ثَبِير هي الصَّخْرَة التي ذَبَح عليها إبراهيمُ فداءَ ابنِهِ، هَبَطَ عليه من ثَبِير كبشٌ أعينُ أقرنُ له ثُغاءٌ، فَذَبحه، وهو الكبشُ الذي قَرَّبه ابن آدم فَتُقُبِّل منه، فكان مخزوناً حتى فَدَى به إسحاقَ. وَرَوَى أيضاً عن سعيد بن جُبَير أنه قال: كان الكبشُ يرتَعُ في الجَنَّةِ حتى تَشَقَّق عنه ثبيرٌ، وكان عليه عِهْن أحمَرُ. وعن الحسن البصري أنه قال: كان اسمَ كَبْشِ إبراهيم جريرٌ. وقال ابن جُرَيج: قال عُبَيد بن عُمَير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنىً عند المنحَرِ. وقال هُشَيم، عن سيار، عن عكرمة: إن ابن عباس كان أفتى الذي جَعَل عليه نذراً أن ينحَرَ نفسه، فأمره بمئةٍ من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنتُ أفتيتُه بكبشٍ لأجزأه أن يَذْبَح كبشاً، فإنَّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾. والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدِيَ بكَبشٍ. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، قال: كان وَعِلاً. وقال محمد بن إسحاقَ، عن عَمرو بن عُبَيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فُدِيَ إسماعيلُ إلاّ بتيسٍ من الأروَى، أُهبِطَ عليه من ثَبِير[1].

[٥٧١٩] وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيانُ، حَدَّثني منصُورٌ، عن خاله مُسافع، عن صَفِيَّة بنت شَيْبَة قالت: أخبرتني امرأة من بني سُلَيم ـ وَلَدت عَامَّةَ أهل دارنا ـ: أرسلَ رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عثمانَ بن طلحَةَ ـ وقالت مَرَّةً: إنها سألت عثمان: لم دَعَاك النبيُّ ـ ﷺ ـ؟ قال: قال: «إني كنتُ رأيتُ قرنَي الكَبْشِ حين دخلتُ البيتَ، فَنَسِيتُ أن آمرَكَ أن تُخَمِّرهما، فَخَمِّرْهُما، فإنه لا ينبغي أن يكونَ في البيتِ شيءٌ يشغَلُ المُصَلِّي». قال سفيانُ: لم يَزَل قرنا الكَبْشِ مُعَلَّقين في البيتِ حتى احترق البيت، فاحترقا[2]. وهذا دليلٌ مستقلٌ على أنه إسماعيل ـ عليه السلامُ ـ فإن قُرَيشاً توارَثُوا قرنَي الكَبْشِ الذي فدَى به إبراهيمُ خَلَفاً عن سَلَفٍ وجِيلاً بعد جِيلٍ، إلى أن بَعَثَ الله رسولَه ﷺ.

## فصلٌ في ذِكر الآثار الواردة عن السَّلَفِ في أَنَّ الذبيحَ مَن هُو؟

**ذكر مَن قال: هو إسحاقُ عليه السلامُ:** قال حمزةُ الزيَّاتُ، عن أبي ميسَرَةَ ـ رَحِمه الله ـ قال: قال يوسفُ ـ عليه السلام ـ للمَلِك في وَجْهِه: ترغب أن تأكلَ معي، وأنا ـ والله ـ يوسفُ بنُ يعقُوبَ نبي الله، ابن إسحاقَ ذَبيحِ الله، بن إبراهيمَ خَلِيلِ الله. وقال الثَّوريُّ، عن أبي سِنَان، عن ابن أبي الهُذَيلِ: أن يوسف عليه السلام ـ قال للملك كَذَلِكَ أيضاً. وقال سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير، عن أبيه قال: قال مُوسَى عليه السلام: يا ربِّ، يقولُون: يا إله إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فيم قالوا ذلك؟ قال: «إن إبراهيم لم يُعْدَلْ بي شيءٌ قطُّ إلا اختارني عليه، وَإنَّ إسحاقَ جاد لي بالذَّبح، وهو بغير ذلك أجوَدُ، وإن يعقوب كُلَّما زِدتُه بلاءً زادني حُسن ظن». وقال شُعبَةُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص قال:

---

(١) الأروى: هي الأيايل، وقيل: غنم الجبل. وثبير: جبل بظاهر مكة.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٦٨ و٥/ ٣٨٠، ورجاله ثقات، وليس في هذه الرواية التصريح بصحبة راوية الحديث، وكرره أحمد ٤/ ٦٨ و٥/ ٣٨٠ من وجه آخر وفيه تسمية المرأة: أم عثمان ابنة سفيان، وأنها صحابية، لكن الإسناد ضعيف لضعف محمد بن عبد الرحمن، وليس فيه ذكر الكبش، بل فيه قرناه.

افتخَرَ رجلٌ عندَ ابن مسعودٍ فقال: أنا فلانُ ابنُ فلانٍ، ابنِ الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ذبيح الله ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله. وهذا صحيحٌ إلى ابن مسعود، وكذا رَوَى عكرمةُ، عن ابن عباس أنه إسحاقُ. وعن أبيه العباس، وعلي بن أبي طالب مثلَ ذلك. وكذا قال عكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والشعبيُّ، وعُبَيد بن عُمَير، وأبو ميسَرَةَ، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شَقِيق، والزهرِيُّ، والقاسمُ بن أبي بَزَّة، ومكحولٌ، وعثمان بن حاضر، والسدِّي، والحَسَن، وقتادَة، وأبو الهُذَيل، وابنُ سابطٍ. وهو اختيارُ ابن جرير. وتقدَّم روايتهُ عن كَعبِ الأحبارِ أنه إسحاقُ. وهكذا رَوَى ابنُ إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهريِّ، عن أبي سُفيانَ بن العَلاء بن جَارِية، عن أبي هُرَيرة، عن كعب الأحبارِ، أنه قال: هو إسحَاق. وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذةٌ عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلَم في الدولة العُمَريَّة جعل يُحدّث عُمَر ـ رضي الله عنه ـ عن كتبه، فربما استمع له عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فترخَّصَ الناسُ في استماع ما عندَه، ونَقَلُوا عنه غَثَّها وسَمينَها، وليس بهذه الأُمَّةِ ـ ولله الحمدُ ـ حاجةٌ إلى حَرْفٍ واحدٍ مما عنده. وقد حكى البَغَويُّ هذا القول بأنه إسحاق، عن عُمَر، وعليٍّ، وابنِ مسعودٍ، والعباس رضي الله عنهم، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جُبَير، وقتادَةَ، ومسروقٍ، وعكرمة، ومقاتِلٍ، وعطاءٍ، والزهريّ، والسدِّي، قال: وهو إحدى الروايتَين عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه. وقد وَرَدَ في ذلك حديثٌ ـ لو ثَبَتَ لقلنا به على الرأسِ والعَينِ، ولكن لم يَصِحَّ سندُه.

[٥٧٢٠] قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيد بن حُبَاب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن الحَسَن، عن الأحنفِ بن قيسٍ، عن العبَّاس بن عبدِ المُطَّلب، عن النبي ـ ﷺ ـ في حديث ذكره قال: «هو إسحاق»(١). ففي إسنادِهِ ضعيفان، وهما الحسنُ بن دينار البصري، متروك. وعلي بن زيد بن جُدْعان منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدْعان، به مرفوعاً. ثم قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحَسَنِ، عن الأحنفِ، عن العباسِ قوله، وهذا أشبهُ وأصَحُّ. والله أعلم.

## ذكر الآثارِ الواردَةِ بِأنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الصحيحُ المقطوع به(٢):

قد تقدَّمَتِ الروايةُ عن ابن عباس أنه إسحاق، وقال سعيد بن جُبَير، وعامر الشعبي، ويوسف بن مِهْرانَ، ومجاهدُ، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس: هو إسماعيلُ عليه السلام. وقال ابنُ جَرِير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيسٍ، عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاقُ. وكَذَبَتِ اليهودُ. وقال إسرائيل، عن ثَور، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر قال: الذبيحُ إسماعيلُ. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهدٍ: هو إسماعيلُ عليه السلام. وكذا قال يوسف بن مِهْرَانَ. وقال الشَّعبِيُّ: هو إسماعيلُ. وقد رأيت قرني الكَبْشِ في الكَعبة. وقال مُحمَّد بن إسحاق، عنِ الحسن بن دينار وعَمرو بن عُبَيد، عن الحسن البَصْرِيّ: أنه كان لا يَشُكُّ في ذلك: أن الذي أُمِرَ بِذَبْحِهِ من ابني إبراهيمَ إسماعيلُ عليه السلام.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٩٤٩٥، وإسناده ضعيف جداً. فيه ضعيفان: الحسن بن دينار، وعلي بن زيد كما قال ابن كثير. وقد توبع ابن دينار في الإسناد الآتي، فانحصرت العلة بعلي بن زيد، وقد خالفه مبارك بن فضالة، فرواه عن العباس موقوفاً. وهو أصح كما قال ابن كثير رحمه الله، والله أعلم.

(٢) وانظر أيضاً: زاد المعاد ١/٧١.

قال ابنُ إسحاقُ: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أَمَرَ الله إبراهيمَ بِذَبْحِهِ من ابنَيه إسماعيلُ وَإنَّا لنجد ذلك في كتاب الله تعالىٰ، وذلك أن الله حينَ فَرَغ من قِصَّة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، ويقول الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، يقول: بابنٍ وابنِ ابنٍ، فلم يكن ليأمُرَه بِذَبْحِ إسحاقَ وله فيه من الموعود بما وَعَدَه، وما الذي أُمِرَ بذبحه إلا إسماعيلُ. قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً. وقال ابن إسحاق، عن بُرَيدة بن سفيان بن فَرْوَةَ الأسلَمِيِّ، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ أنه حَدَّثهم: أنه ذكر ذلك لعُمَر بن عبد العزيز وهو خَلِيفةٌ إذْ كان معه بالشام، فقال له عُمَر: إن هذا لشيء ما كنتُ أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رَجُلٍ كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلَمَ وحَسُن إسلامه، وكان يَرَى أنه من علمائهم، فسأله عُمَر بن عبد العزيز عن ذلك ـ قال محمد بن كَعبٍ: وأنا عند عُمَر بن عبد العزيز ـ فقال له عُمَر: أيُّ ابني إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟ فقال: إسماعيلُ والله يا أمير المؤمنين، وإن يهودَ لتعلم بذلك، ولكنهم يَحسُدونكم معشَرَ العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أَمْرِ الله فيه، والفضلُ الذي ذَكَرَه الله منه لِصَبْرِهِ لِمَا أُمِرَ به، فهم يَجحَدُون ذلك ويزعمُون أنه إسحاقُ، لأنَّ إسحاقَ أبوهم، والله أعلَم أيُّهما كان، وكلٌّ قد كان طاهراً طَيِّباً مُطِيعاً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقال عبدُ الله بنُ الإمام أحمدَ بنِ حَنبَلٍ ـ رَحِمَه الله ـ: سألتُ أبي عن الذَّبيح، مَنْ هو؟ إسماعيلُ أو إسحاقُ؟ فقال: إسماعيلُ. ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيحُ أن الذبيحَ إسماعيلُ عليه السلام. قال: ورُوِيَ عن علي، وابنِ عُمر، وأبي هُرَيرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المُسَيَّب، وسَعِيد بن جُبَير، والحسن، ومجاهد، والشَّعبي، ومحمد بن كعب القُرَظِيِّ، وأبي جعفرٍ محمد بنِ علي، وأبي صالحٍ أنهم قالوا: الذبيحُ إسماعيلُ. وقال البَغَوِيُّ في تفسيره: وإليه ذَهَبَ عبد الله بنُ عمر، وسَعِيد بن المُسَيَّب، والسدِّي، والحسن البَصرِيُّ، ومجاهد، والربيع بن أَنَسٍ، ومحمد بن كعب القُرَظِيِّ، والكَلْبِيُّ. وهو رِوَاية عن ابن عباس، وحَكَاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

[٥٧٢١] وقد رَوَى ابنُ جرير في ذلك حَدِيثاً غريباً فقال: حدثني محمد بن عَمَّار الرازي، حدثنا إسماعيل بن عُبَيد بن أبي كَرِيمَة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخَطَّابي، عن عُبَيد الله بن محمد العُتْبِيِّ ـ من ولد عُتبة بن أبي سُفيان ـ عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصُّنَابحي قال: كنَّا عند معاويةَ بن أبي سفيان، فذكروا الذَّبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخَبِيرِ سَقَطْتُم، كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فجاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، عُدْ عَلَيَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذَّبِيحَين. فَضَحِكَ رسول الله ـ ﷺ ـ فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، وما الذَّبِيحَانِ؟ فقال: إن عبدَ المطلب لما أُمِرَ بحفر زَمْزَمَ نَذَرَ لله إن سَهَّل الله له أَمْرَها لَيَذْبَحَن أحدَ وَلَدِهِ، قال: فخرج السهمُ على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افدِ ابنك بمئةٍ من الإبل. فَفَدَاه بمئةٍ من الإبل، وإسماعيل الثاني(١). وهذا حديثٌ غريبٌ جداً.

[٥٧٢٢] وقد رواه الأُمَوِي في مغازيه: حَدَّثنا بعض أصحابِنا، أخبرنا إسماعيل بن عُبَيد بن أبي كريمة، حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله بن محمد العُتْبِيُّ ـ من ولد عتبة بن أبي سفيان ـ حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حَضَرنا مجلس معاوية، فتذاكر القومُ إسماعيلَ وإسحاقَ. . .

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٩٥٣٠ والحاكم ٢/ ٥٥٤ من حديث معاوية. سكت عليه الحاكم. وقال الذهبي: إسناده واهٍ. وكذا ضعفه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٥٢٩ واستغربه ابن كثير جداً. وفيه عبد الله بن سعيد، وهو مجهول كما في الميزان ٤٣٤٨.

وذكره[١]. كذا كتبتهُ من نُسخةٍ مغلوطة. وإنما عوّل ابنُ جرير في اختياره أنَّ الذَّبيحَ إسحاقُ على قولِهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، فجعَلَ هذه البشارةَ هي البشارة بإسحاقَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾. وأجاب عن البِشارةِ بيعقوبَ بأنه قد كان بلغ معه السعْيَ، أي العملَ، ومن الممكن أنه قد كان وُلِدَ له أولادٌ مع يَعقوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا مُعلَّقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تَقدَّم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذَبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهَبٍ ولا لازم، بل هو بَعِيدٌ جداً، والذي استدلَّ به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيلُ أثبتُ وأصحُّ وأقوى، والله علم.

وقولهُ تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، لما تَقدَّمت البِشارة بالذَّبيح ـ وهو إسماعيلُ ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سُورتي «هود» و «الحجر». وقولهُ: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدَّرة، أي: سيصيرُ منه نَبيٌّ من الصالحين. وقال ابنُ جَرير: حَدَّثني يَعقُوبُ، حدثنا ابن عُلَيّة، عن داودَ، عن عكرمةَ قال: قال ابنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: الذبيح إسحاق. قال: وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، قال: بُشّر بنبوَّتِهِ. قال: وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، قال: كان هارونُ أكبرَ من موسى، ولكن أراد: وَهَبَ له نُبوَّته. وحَدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سُليمان قال: سمعتُ داودَ يُحدِّث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، قال: إنما بُشّر به نبياً حين فَدَاه الله عز وجل من الذَّبح، ولم تكن البشارةُ بالنبوَّةِ عند مولده. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داودَ، عن ابن عباس: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، قال: بُشّر به حين وُلِدَ، وحين نُبِّيءَ. وقال سَعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، قال: بعد ما كان من أمرِهِ، لما جاد لله تعالى بنفسه. وقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾. كقولهُ تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

يذكرُ تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوّة والنجاة بِمَن آمن معهما من قَهرِ فرعونَ وقومِهِ، وما كان يعتمده في حَقّهم من الإساءة العظيمة، من قَتل الأبناء واستحياءِ النساء، واستعمالهم في أخسِّ الأشياءِ. ثم بعد هذا كلِّه نَصرهم عليهم، وأقرَّ أعينهم منهم، فَغلبُوهم وأخذُوا أرضَهم وأموالَهم وما كانوا جَمعُوه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتابَ العظيمَ الواضح الجليَّ المستبين، وهو التوراةُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: في الأقوالِ والأفعالِ، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾،

(١) إسناده واه كسابقه.

أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناء حسناً، ثم فسّره بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قال قتادةُ، ومُحمَّد بن إسحاق، يقال: إلياسُ هو إدريسُ. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن عُبَيدَةَ بن رَبيعة، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إلياسُ هو إدريسُ. وكذا قال الضحاك. وقال وهب بن مُنَبِّه: هو إلياس بن ياسين[1] بن فِنحاصَ بن العيزارِ بن هارون بن عِمْران، بعثَه الله في بني إسرائيل بعد حِزْقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدُوا صَنَماً يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله تعالىٰ، ونهاهم عن عبادةِ ما سِوَاه. وكان قد آمنَ به مَلِكُهُم ثم ارتدَّ، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحدٌ. فدعا الله عليهم، فحبَسَ عنهم القَطْر ثلاث سنين، ثمّ سألوه أن يكشِفَ ذلك عنهم، وَوَعدُوه الإيمانَ به إن هم أصابهم المطرُ. فدعا الله تعالىٰ لهم، فجاءهم الغيثُ فاستمرُّوا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يَقْبِضَه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسَعُ بن أُخطوب ـ عليه السلامُ ـ فأُمِرَ إلياس أن يذهبَ إلى مكان كَذا وكَذا، فمهما جاءه فَلْيَرْكَبه ولا يَهَبْه، فجاءته فرسٌ من نارٍ فركِبَ، وألبسه الله النورَ وكَسَاه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرْضِياً، هكذا حكاه وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحَّته. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾، أي: ألاَ تخافُون الله في عبادتكم غيرَه؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾، قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمَةُ، وقتادةُ والسدِّي: بَعْلاً، يعني: ربّاً. قال قتادة وعكرمة: وهي لغةُ أهلِ اليمن. وفي روايةٍ عن قتادة قال: هي لغة أزْدِ شَنُوءة. وقال ابنُ إسحاق: أخبرني بعضُ أهلِ العلم أنهم كانوا يعبدُون امرأة اسمها بَعْلٌ. وقال عبدُ الرحمنِ بن زيد بن أسلَمَ، عن أبيه: هو اسمُ صَنَم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بَعْلَبَكّ»، غربيّ دِمَشْقَ. وقال الضحَّاكُ: هو صنمٌ كانوا يَعْبدونه. وقولهُ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾، أي: أتعبدُون صنماً؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾، أي: هو المستحقُّ للعبادةِ وحدَه لا شريكَ له. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾، أي: للعذابِ يومَ الحساب، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، أي: الموحِّدين منهم. وهذا استثناءٌ منقطع من مُثبتٍ. وقولهُ تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾، أي: ثناءً جميلاً، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، كما يقال في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة بني أسد، وأنشد بعضُ بني نُمَير في ضَبٍّ صادَه:

يَـقُـولُ رَبُّ الـسُّـوقِ لَـمَّـا جِـيـنَـا ... هٰـذَا وَرَبِّ الـبَـيْـتِ إِسْـرَائِـيـنَـا

ويقال: ميكال، وميكائيل وميكائين، وإبراهيم، وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطورُ سيناء، وطور سينين، وهو موضعٌ واحدٌ، وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: «سلامٌ على إدراسينَ»، وهي قراءةُ عبدِ الله بن

---

(١) وقع في بعض النسخ «تسبي» وفي نسخة «نسي» والمثبت عن الطبري ٢٩٥٧٩.

مسعود. وآخرون: «سلامٌ على آلِ ياسينَ»، يعني: آل محمَّدٍ ـ ﷺ ـ. وقولهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ قد تقدم تفسيره، والله تعالىٰ أعلم.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن عَبدِه ورَسُولِه لوطٍ ـ عليه السلامُ ـ أنَّه بَعَثَهُ إلى قَومِهِ فَكَذَّبوه، فَنجَّاه الله تعالىٰ من بين أظهرهم هو وأهلُه إلا امرأتَه فإنها هَلَكَتْ مع مَن هَلَكَ من قومها، فإن الله ـ تعالى ـ أهلكهُم بأنواعِ من العقوباتِ، وجَعَلَ مَحِلَّتَهم من الأرض بُحَيرَةً مُنْتِنَةً قبيحةَ المنظر والطَّعم والرِّيح، وجعلها بسبيلٍ مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، أي: أفلا تَعْتَبِرون بهم، كيفَ دَمَّر الله عليهم، وتَعلَمُون أن للكافرين أمثالها؟!.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

قد تَقدَّمت قصةُ يونُسَ ـ عليه السلامُ ـ في سُورَةِ الأنبياء.

[٥٧٢٣] وفي الصَّحِيحَين عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما يَنبغي لعبدٍ أن يَقُولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بن متَّى»[١]، ونَسَبَه إلى أُمِّه»، وفي رواية: «إلى أبيه». وقولهُ: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾، قال ابن عباس: هو المُوقَرُ. أي: المملوء بالأمتعةِ. ﴿فَسَاهَمَ﴾، أي: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾، أي: المغلُوبين. وذلك أن السفينةَ تَلَعَّبَتْ بها الأمواجُ من كلِّ جانبٍ، وأشرفُوا على الغَرَق، فساهَمُوا على من تَقع عليه القُرعة يُلقى في البحر، لِتَخِفَّ بهم السفينة، فَوَقعتِ القرعةُ على نَبيِّ الله يُونُسَ ـ عليه السلام ـ ثلاثَ مراتٍ، وهم يَضِنُّون به أن يُلقَى من بينهم، فَتَجرَّد من ثيابه لِيُلقِي نفسَه وهم يَأْبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حُوتاً من البحر الأخضر أن يشقَّ البحار، وأن يَلْتَقِم يونُس ـ عليه السلام ـ فلا يَهْشِمَ له لَحماً، ولا يكسِرَ له عظماً. فجاء ذلكَ الحوتُ وألقى يونسَ ـ عليه السلام ـ نفسَه، فالتقمَه الحوت، وذَهَبَ به فطاف به البحارَ كُلَّها. ولما استقر يونُس في بطنِ الحُوتِ، حَسِبَ أنه قد مات، ثم حَرَّك رأسَه وَرِجلَيه وأطرافه فإذا هو حيٌّ، فَقَامَ يُصَلِّي في بَطنِ الحُوت، وكان من جُملةِ دعائه: «يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحدٌ من الناس». واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام. قاله قتادةُ. وقيل: سبعة. قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوماً، قاله أبو مالك. وقال مُجالد، عن الشَّعبيِّ: التقمه ضُحىً، ولَفَظَهُ عَشِيَّةً. والله تعالىٰ أعلَمُ بمقدار ذلك. وفي شعرِ أُمَيَّة بن أبي الصَّلتِ:

وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيتَ يُونُساً ... وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِيَا

وقولهُ تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا ما تَقدَّم له من

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤١٣ ومسلم ٢٣٧٧ وأحمد ١/ ٢٥٤ و٢٩٢ وابن حبان ٦٢٤١.

العمل في الرَّخاء. قاله الضحَّاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادةُ، وغيرُ واحد. واختاره ابنُ جرير. وقد وَرَدَ في الحديث الذي سَنُورِدُهُ إن شاء الله تعالىٰ ما يدل على ذلك إن صح الخبر.

[٥٧٢٤] وفي حديثٍ عن ابن عباس: «تَعَرَّفْ إلى الله في الرخاءِ يعرِفْكَ في الشدَّة»[١]. وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدِّي، والحسن، وقتادةُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، يعني: المصلين. وصَرَّح بعضهم بأنه كان من المصلِّين قبل ذلك. وقال بعضُهم: كان من المسبِّحين في جوف أبوَيْهِ. وقيل: المرادُ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، وهو قولُهُ: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]، قاله سعيد بن جُبَير وغيره.

[٥٧٢٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عَمِّي، حدثنا أبو صخر: أن يزيد الرَّقاشي حَدَّثه: أنه سَمِع أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أنَّ أنساً يرفَعُ الحديثَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ «أنَّ يونس النبي ـ عليه السلام ـ حين بدا له أن يدعُوَ بهذه الكلمات وهُوَ في بطن الحوت، فقال: اللهمَّ، لا إله إلا أنتَ سُبحانَكَ، إني كنتُ من الظالمين. فأقبلت الدعوةُ تَحفُّ بالعرش، قالت الملائكة: يا ربِّ، هذا صوتٌ ضَعِيفٌ معروفٌ من بلاد بعيدة غريبة! فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا ربِّ، ومَن هو؟ قال: عَبدِي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يَزَل يُرفَعُ له عمل مُتَقَبَّل، ودعوةٌ مستجابة؟ قالوا: يا ربِّ، أولا ترحَمُ ما كان يصنَع في الرخاء فَتُنَجِّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحُوت فطَرَحَه بالعراء». ورواه ابن جرير، عن يونُسَ، عن ابن وهب، به، زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حُمَيد بن زياد: فأخبرني ابن قُسَيط وأنا أُحَدِّثُه هذا الحديثَ: أنه سَمِعَ أبا هُرَيرة رضي الله عنه يقول: طُرِحَ بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينَةَ. قلنا: يا أبا هُرَيرة، وما اليقطِينة؟ قال: شَجَرَة الدبَّاءِ. قال أبو هُرَيرة: وَهَيَّأَ الله له أُرْوِيَّة وَحْشِيَّة تأكل من خَشَاش الأرض ـ أو قال: هَشَاشِ الأرضِ ـ قال: فَتَتَفَشَّح[٢] عليه فَتَرْوِيه من لَبَنِها كلَّ عَشِيَّة وبُكرةٍ حتى نَبَت[٣]. وقال أمية بن أبي الصَّلت في ذلك بيتاً من شِعرِهِ:

فَـأَنْـبَـتَ يَـقْـطِـيـنـاً عَـلَـيْـه بِـرَحْـمَـةٍ مِـنَ الله، لَـولاَ الله أُلْـفِـيَ ضَـاحِـيـا

وقد تَقَدَّم حديثُ أبي هُرَيرة مُسنداً مرفوعاً في تفسير سورة الأنبياء. ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾، أي: ألقيناه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ ـ قال ابنُ عباس، وغيرُه: وهي الأرضُ التي ليس بها نبتٌ ولا بناءٌ. قيل: على جانبِ دِجْلَةَ. وقيل: بأرضِ اليَمَنِ. فالله أعلم. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، أي: ضَعِيفُ البدنِ. قال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كهيئة الفَرْخ ليس عليه ريشٌ. وقال السدِّي: كهيئة الصبيِّ حين يُولَدُ، وهو المنفوسُ. وقاله ابن عباس، وابنُ زيدٍ أيضاً. ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾، قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ووهبُ بن مُنَبِّهٍ، وهِلال بن يِسَاف، وعبد الله بن طاوس، والسدِّي، وقتادةُ، والضحَّاك، وعطاءٌ الخراساني، وغيرُ واحدٍ قالوا كلُّهم: اليَقطِينُ هو القَرْعُ. وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير: كلُّ شجرةٍ لا ساقَ لها فهي من اليَقطِين. وفي روايةٍ عنه: كلُّ شجرة تَهلِك من

---

(١) هو بعض حديث تقدم تخريجه.

(٢) فَشَحَ: فرج ما بين رجليه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٩٦٠١ وإسناده ضعيف جداً. فيه ابن أخي عبد الله بن وهب، ضعفه غير واحد. ويزيد الرقاشي متفق على وهنه. وأبو صخر، حميد بن زياد وثقه قوم، وضعفه آخرون. والدعاء منه له شواهد، وتقدم.

عَامِها فَهِي مِنَ اليَقْطِين. وذكر بعضهم في القرع فوائدَ، منها: سرعةُ نباته، وتظليلُ وَرَقه لِكِبَرِهِ، ونُعُومته، وأنه لا يقربُها الذباب، وجَودَةُ أغذية ثَمرِهِ، وأنه يُؤكَلَ نَيْئاً ومطبوخاً بِلُبِّه وقِشرِهِ أيضاً.

[٥٧٢٦] وقد ثَبَتَ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يُحبُّ الدبَّاء، وَيَتَتبَّعه من حَواشي الصَّحفة[١].

وقولهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾، روى شَهرُ بن حَوْشَبٍ، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالةُ يونُسَ عليه السلام بعد ما نَبَذَهُ الحوتُ. رواه ابنُ جرير: حدثني الحارثُ قال: حَدَّثنا الحسنُ قال: حَدَّثنا أبو هلال، عن شَهرٍ، به. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: أُرسِلَ إليهم قبل أن يَلْتقِمَه الحوتُ. قلتُ: ولا مَانِعَ أن يكونَ الذين أُرسِلَ إليهم أوَّلاً أُمِرَ بالعود إليهم بعد خُرُوجه من الحُوتِ، فَصَدَّقُوه كلُّهم وآمنوا به. وحكى البغوي أنه أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ أخرىٰ بعد خُرُوجه من الحوت، كانوا مئة ألف أو يزيدون.

وقولهُ تعالىٰ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال ابن عباس ـ في رواية عنه ـ: بل يَزِيدُون، وكانوا مئة وثلاثين ألفاً. وعنه: مئة ألف وبضعةٌ وثلاثين ألفاً. وعنه: مئة ألف وبضعةٌ وأربعين ألفاً. وقال سعيد بن جُبَير: يَزِيدون سبعين ألفاً. وقال مكحول: كانوا مئة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم.

[٥٧٢٧] وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي، حدثنا عَمْرُو بن أبي سَلَمة قال: سَمِعتُ زُهَيراً [يُحدِّث] عمَّن سَمِعَ أبا العالية قال: حدثني أُبَيُّ بنُ كَعب أنه سَأَلَ رسول الله ـ ﷺ ـ عن قوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾، قال: «يَزِيدُون عِشرينَ ألفاً»[٢]. ورواه الترمذي عن علي بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهَير، عن رَجُلٍ، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كعبٍ، به، وقال: «غَرِيبٌ». ورواه ابن أبي حاتم من حديث زُهَير، به. قال ابن جرير: وكان بعضُ أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المئة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وهكذا سَلَكَ ابنُ جرير هاهنا ما سَلَكه عند قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. وقولِهِ تعالىٰ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقولِهِ تعالىٰ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد. وقولهُ تعالىٰ: ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾، أي: فآمن هؤلاء القومُ الذين أُرسِلَ إليهم يونُسُ ـ عليه السلام ـ جميعهم، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت آجالهم، كقوله جلَّت عظمته: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٣٥ و٥٤٣٦ و٥٤٣٧ و٥٤٣٩ من حديث أنس.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الترمذي ٣٢٢٩ والطبري ٢٩٦٣٥ من حديث أبي بن كعب، وضعفه الترمذي بقوله: غريب اهـ وله علتان. فيه راوٍ لم يسمّ، وزهير بن محمد منكر الحديث في رواية أهل الشام عنه. كما قال أحمد والبخاري وغيرهما؛ والأشبه في هذا الوقف، والله أعلم.

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جَعْلِهم لله البناتِ ـ سُبحانَه ـ ولهم ما يَشتَهُون، أي: من الذكور. أي: يودّون لأنفسهم الجَيِّد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [النحل: ٥٨]، أي: يَسُوءُه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيفَ نسبُوا إلى الله القِسْمَ الذي لا يختارُونه لأنفسهم؟! ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، أي: سَلْهُم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؛ كقوله عز وجل: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢]. وقولهُ تعالىٰ: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾، أي: كيف حَكَمُوا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟! كقوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [الزخرف: ١٩]، أي: يُسألون عن ذلك يوم القيامة. وقولهُ جَلَّت عظمته: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، أي: من كَذِبهم ﴿لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، أي: صَدرَ منه الولد، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. فذكَرَ الله تعالىٰ عنهم في الملائكة ثلاثة أقوالٍ في غاية الكُفر والكذب، فأولاً جَعَلُوهم بنات الله، فَجَعَلُوا لله ولداً تعالىٰ وتقدّس، وجعلوا ذلك الولد أُنثى، ثم عَبَدُوهم من دون الله تعالىٰ. وكلٌّ منها كافٍ في التخليدِ في نار جهَنَّم.

ثم قال تعالىٰ مُنكِراً عليهم: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾، أي: أيُّ شيءٍ يحمِلُه عَلَى أن يختار البنات دونَ البنين؟! كقوله عز وجل: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [الإسراء: ٤٠]. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤﴾، أي: مالكم عقول تَتَدبَّرُون بها ما تقولون؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾، أي: حُجَّةٌ على ما تقولونه، ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾، أي: هاتُوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنزَّلٍ من السماء عن الله تعالىٰ أنه اتَّخَذَ ما تقولونه، فإنَّ ما تقولُونه لا يمكن استنادُه إلى عقلٍ، بل لا يُجوِّزُه العقلُ بالكُلّيةِ. وقولهُ تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾، قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: فمن أُمَّهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجِنّ. وكذا قال قتادةُ، وابنُ زيد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾، أي: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، أي: إن الذين قالوا ذلك لَمُحضَرُون في العذاب يوم الحساب لِكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولِهم الباطلَ بلا عِلْم. وقال العَوفي، عن ابن عَبَّاسٍ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾، قال: زَعَمَ أعداءُ الله أنه ـ تباركَ وتعالى ـ هو وإبليسُ أَخَوانِ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً. حكاه ابن جرير. وقولهُ جلَّت عظمته: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩﴾، أي: تعالى وتَقدَّس وتَنَزَّهَ عن أن يكون له ولدٌ، وعما يصِفُهُ به الظالمون الملحدون عُلُواً كَبيراً. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾ استثناءٌ منقطعٌ، وهو من مُثْبَتٍ، إلا أن يكون الضميرُ في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائداً إلى جميع الناسِ ثم استثنى منهم المُخلَصِينَ، وهم المتَّبِعُون للحقّ المنزَلِ على كلّ نبيٍّ ومُرسَلٍ. وجعل ابنُ جرير هذا الاستثناء من قَوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ .... ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾. وفي هذا الذي قاله نظر، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: ما ينقادُ لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا مَن هو أضلُّ منكم ممن ذُرِىءَ للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ

﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضربُ من الناس هو الذي ينقاد لدين الشركِ والكُفر والضَّلالةِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات ٨ ـ ٩]، أي: إنما يَضِلُّ به مَأفُوكٌ ومُبْطِلٌ. ثم قال تعالى مُنزِّهاً للملائكة مما نَسَبُوا إليهم من الكُفر بهم والكَذِب عليهم أنهم بناتُ الله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾، أي: له موضعٌ مخصوصٌ في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يَتعدَّاه.

[٥٧٢٨] وقال ابنُ عساكر في تَرجَمَتِهِ لمحمد بن خالدٍ، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سَعد، عن أبيه ـ وكان ممن بايع يوم الفتح ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوماً لجُلَسائِهِ: «أطَّتِ السماءُ وحُق لها أن تَئِطَّ، ليس فيها موضعُ قَدَم إلا عليه مَلَكٌ راكِعٌ أو ساجِدٌ». ثم قرأ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾(١).

[٥٧٢٩] وقال الضحَّاك في تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾، قال: كان مسروقٌ يَرْوِي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن السماء الدنيا موضعٌ إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائمٌ». فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾(٢).

وقال الأعمشُ، عن أبي إسحاقَ، عن مسروقٍ، عن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: إن من السمواتِ لَسماءً ما فيها موضعُ شبرٍ إلا عليه جَبهةُ مَلَكٍ أو قَدَماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾. وكذا قال سعيد بن جُبَير. وقال قتادةُ: كانوا يُصَلُّون الرجالُ والنساءُ جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾، فتقدم الرجالُ وتأخَرَ النساء. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾، أي: نَقِف صُفوفاً في الطاعةِ، كما تقدَّم عند قوله تبارك تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾، قال ابن جُرَيج، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مُغِيثٍ قال: كانوا لا يَصُفُّون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾، فَصَفُّوا. وقال أبو نَضْرَة: كان عُمَر رضي الله عنه إذا أُقِيمت الصلاة استقبَلَ الناسَ بوجْهِهِ، ثم قال: أَقِيمُوا صُفُوفَكم، استوُوا قياماً، يُرِيد الله تعالى بكم هدي الملائكةِ، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾، تأخَّر يا فلانُ، تَقدَّم يا فلان، ثم يَتَقَدَّم فَيُكبِّر، ـ رضي الله عنه ـ. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جرير.

[٥٧٣٠] وفي صحيح مسلم عن حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فُضِّلنا على الناس بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائكةِ، وجُعِلَت لنا الأرضُ مَسجِداً، وتُربتُها طَهُوراً...»(٣) الحديث.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾، أي: نَصطَفُّ فَنُسبِّح الربَّ ونُمَجِّده ونُقدِّسه ونُنَزِّهه عن النقائصِ، فنحنُ عَبِيدٌ

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» ٢٥٥، وفي الإسناد مجاهيل، ومحمد بن خالد الدمشقي كان يكذب كما في الميزان ٧٤٧٢ عن أبي حاتم. والمتن محفوظ دون ذكر الآيات. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٦٧٨، ومحمد بن نصر ٢٥٣، والضحاك، ضعفه يحيى بن سعيد، ووثقه الجمهور، لكنه لم يذكر سماعه من مسروق، وصيغته تحتمل الإرسال والتعليق. وكذلك ليس في رواية مسروق ما يدل على سماعه لهذا الحديث من عائشة رضي الله عنها. والحديث غريب بذكر تفسير الآية، وأما بدون ذلك، فله شواهد، راجع «الدر المنثور» ٥/ ٥٤٩ ـ ٥٥٠. و«الصحيحة» ١٠٥٩ و١٠٦٠ وتقدم عن أبي ذر، وصح ذلك من قول ابن مسعود أخرجه الطبري ٢٩٦٧٩ و ٢٩٦٨٠ و ٢٩٦٨٨.

(٣) تقدم في سورة النساء آية ٤٣.

له، فُقراء إليه، خاضِعُون لديه. وقال ابنُ عباس، ومجاهدٌ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾: الملائكة تُسَبِّح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾، يعني: المصلُّون، يَثبُتُون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقولهُ جل وعلا: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، أي: قد كانوا يَتمنَّون قبل أن تَأتيَهُم ـ يا محمدُ ـ لو كان عندَهم مَن يذَكِّرهم بأمر الله، وما كان من أَمرِ القُرون الأولى، ويأتيهم بكتابِ الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ [فاطر: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦ ـ ١٥٧]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾، وعيدٌ أكيدٌ وتهديدٌ شَدِيدٌ، على كُفرهم بِرَبِّهم ـ سبحانه وتعالى ـ وتكذيبهم رسولَه ﷺ.

﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩﴾

يقولُ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾، أي: تَقدَّم في الكتاب الأوَّلِ أن العاقبةَ للرسل وأتباعِهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: ٢١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١]. ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدَّم بيانُ نُصرتهم على قومهم ممَّن كَذَّبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونَجَّى عباده المؤمنين، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾، أي: تكونُ لهم العاقبةُ.

وقولُه جل وعلا: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤﴾، أي: اصبر عَلَى أذاهم لك، وانتظر إلى وقتٍ مُؤَجَّلٍ، فإنا سنجعل لك العاقبةَ والنصرةَ والظَّفر. ولهذا قال بعضُهم: غَيَّا ذلك إلى يوم بَدرٍ. وما بعدها أيضاً في معناها. وقولُه جلَّت عظمته: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥﴾، أي: أَنظِرْهُم وارتَقِبْ ماذا يَحلُّ بهم من العذاب والنَّكال على مخالفتك وتكذيبك. ولهذا قال تعالى على وجه التهديدِ والوعيدِ: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦﴾، أي: هم إنما يَستعجِلُون العذاب لتكذيبك وكفرهم بك، فإن الله يَغضَبُ عليهم بذلك، ويُعَجِّل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كُفرهم وعِنادهم يَستعجِلُون العذابَ والعُقوبةَ. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧﴾. أي: فإذا نزل العذاب بِمَحَلَّتهم فبئس ذلك اليومُ يومهُم، بإهلاكِهم ودَمارِهم. وقال السدِّيُّ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾، يعني: بِدَارِهم، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أي: فبئسَ ما يُصْبِحون! أي: بئس الصباحُ صباحُهم!

[٥٧٣١] ولهذا ثَبَتَ في الصحيحَين من حديث إسماعيلَ ابن عُلَية، عن عبدُ العزيز بن صُهَيب، عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: صَبَّح رسول الله ـ ﷺ ـ خيبرَ، فلما خَرَجُوا بفؤوسهم ومساحِيهم ورأوُا الجيشَ رجعوا يقولون: محمدٌ والله، محمدٌ والخميسُ! فقال النبي ـ ﷺ ـ: «الله أكبرُ خَرِبت خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحةِ قَومٍ فساءَ صباحُ المنذَرين!»(١). ورواه البخاري من حديث مالك، عن حُمَيدٍ، عن أنسٍ.

[٥٧٣٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا رَوحٌ، حدثنا سَعِيدِ بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ، عن أنسِ بن مالكٍ، عن أبي طلحَةَ قال: لما صَبَّح رسول الله ـ ﷺ ـ خيبَرَ، وقد أخذوا مساحِيَهم وغَدَوا إلى حُرُوثهم وأرَضِيهم، فلما رأوا النبي ـ ﷺ ـ نَكَصُوا مُدبِرين، فقال نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذَرِين!»(٢). لم يُخرِجُوه من هذا الوجهِ، وَهُوَ صحيحٌ على شَرْطِ الشيخَين.

وقولهُ تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩﴾، تأكيدٌ لما تقدَّم من الأمرِ بِذَلِكَ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾

يُنَزِّه تعالى نفسَه الكريمةَ وَيُقَدِّسها ويُبَرِّئها عما يقولهُ الظالمون المكذِّبون المعتدُون، تعالى [وتنزَّه] وتقدَّس عن قولِهم عُلوّاً كبيراً. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾، أي: ذي العزّةِ التي لا تُرَام، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن قولِ هؤلاء المعتدين المُفتَرين، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾، أي: سلامُ الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامةِ ما قالُوه في ربِّهم وصِحَّتِهِ وَحَقِّيَّته، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾، أي: له الحمدُ في الأُولى والآخرةِ في كلِّ حالٍ. ولما كان التسبيحُ يَتَضمَّن التنزيهَ والتبرئةَ من النقصِ بِدَلالةِ المُطابقة، ويستلزم إثباتَ الكمال، كما أن الحمدَ يدلُّ على إثباتِ صفاتِ الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيهِ من النقص ـ قَرَن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرةٍ منَ القرآن. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٥٧٣٣] وقال سعيدُ بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا سَلَّمتُم عليَّ فَسَلِّمُوا على المُرسَلين، فإنما أنا رسولٌ مِنَ المرسَلِينَ»(٣). هكذا رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث سعيدٍ، عنه، كذلك.

[٥٧٣٤] وقد أسنَدَهُ ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا أبو بكر الأعينُ ومحمدُ بن عبد الرحيم صاعقةُ قالا: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا شَيبانُ، عن قتادةَ قال: حَدَّثَ أنسُ بنُ مالكٍ، عن أبي طلحةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا سَلَّمْتُم عليَّ فَسَلِّموا على المُرْسَلِينَ»(٤).

[٥٧٣٥] وقال الحافظ أبو يعلى: حَدَّثنا محمدُ بن أبي بكر، حدثنا نوحٌ، حدثنا أبو هارون، عن أبي

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٧١ ومسلم ٣/ ١٢٠ والنسائي ٦/ ١٣١ ـ ١٣٢ وأحمد ٣/ ١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩ وابن سعد ٢/ ١٠٩ وإسناد أحمد علىٰ شرط الشيخين كما قال ابن كثير.
(٣) مرسل. أخرجه الطبري ٢٩٧٠٤ عن قتادة، وهو مرسل. وورد موصولاً، وهو الآتي.
(٤) إسناده قوي رجاله ثقات إلا أن قتادة مدلس، وصيغته تدل على أنه لم يسمعه من أنس حيث قال: «حدث أنس» ولم يقل حدثني، ولا أخبرني. وتقدم في سورة الأحزاب آية ٥٦ من حديث أبي هريرة.

سَعيدٍ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان إذا أراد أن يسلم قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ثم يُسَلِّم[١]. إسنادُه ضعيفٌ.

[٥٧٣٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عَمَّار بن خالد الواسطي، حدثنا شَبابةُ، عن يونس بن أبي إسحاقَ، عن الشعبيِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن سَرَّه أن يكتالَ بالمكيالِ الأوفى من الأجر يومَ القيامةِ فَلْيقُل آخرَ مجلسِه حين يُريدُ أن يقوم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[٢]. ورُوِيَ من وجهٍ آخر مُتَّصِلٍ موقوفٍ على عليٍّ، ـ رضي الله عنه ـ. قال أبو محمد البَغَوِيُّ في تفسيره: أخبرنا أبو سَعِيدٍ أحمد [بن إبراهيم] الشُّرَيحي، أخبرنا أبو إسحاق الثَّعلبي، أخبرني ابن فَنجُويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سَهلُويه، حدثنا علي بن محمد الطَّنافِسِيُّ، حدثنا وكيعٌ، عن ثابتِ بن أبي صَفِيَّةَ، عن الأصبغ بن نُباتَةَ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: من أحبَّ أن يكتالَ بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه مِنْ مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٥٧٣٧] وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر الأَنَسِيّ، عن عبد الله بن زَيد بن أرقَمَ، عن أبيه، عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «من قال دُبُرَ كلِّ صلاة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثلاثَ مراتٍ، فقد اكتالَ بالجَريبِ الأوفى من الأَجرِ»[٣].

[٥٧٣٨] وقد وَرَدَت أحاديثُ في كَفَّارة المجلِس: «سُبحانَكَ اللهُمَّ وبحمدِك، لا إله إلا أنتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ»[٤]. وقد أَفرَدْتُ لها جُزءاً على حِدَةٍ فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

## آخر تفسير سورة الصافات

(١) أخرجه أبو يعلى ١١١٨، وإسناده ضعيف جداً، أبو هارون هو عمارة بن جوين. جاء في «الميزان» ٦٠١٨: كذبه حماد، وقال أحمد: ليس بشيء. وضعفه يحيى، وقال النسائي والدارقطني: متروك، وكذبه الجوزجاني، وقال ابن حبان: كان يروي عن أبي سعيد ما ليس من حديثه.

(٢) ضعيف. ذكره السيوطي في «الدر» ٥/ ٥٥٤ وعزاه لابن أبي حاتم، وهو ضعيف لكونه مرسلاً. وورد موقوفاً على علي، وهو الآتي. ومع كونه موقوفاً فيه الأصبغ بن نباتة، وهو متروك، والموقوف أخرجه البغوي ٤/ ٤٠.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ٥١٢٤ من حديث زيد بن أرقم. وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٦٩٢٦ بعبد المنعم ابن بشير، وأنه ضعيف جداً اهـ وشيخ الطبراني، وهو أحمد بن رشدين متهم أيضاً، فالخبر واه جداً، لكن قلت إنه ضعيف فحسب لكونه جاء عن الشعبي مرسلاً. والله أعلم.

(٤) تقدم تخريجه وهو صحيح بشواهده.

# سورة ص

ترتيبها ٣٨ — آياتها ٨٨

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ① بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ② كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ③﴾

أمّا الكلامُ على الحُروفِ المقطَّعة فقد تقدَّم في أوَّلِ سُورَةِ البقرَةِ، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقولهُ تعالىٰ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، أي: والقرآنِ المشتمِل على ما فيه ذكرٌ للعبادِ، ونفعٌ لهم في المعاشِ والمَعَاد. قال الضحَّاكُ في قوله تعالىٰ: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كقولِهِ تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: تذكيرُكُم. وكذا قال قتادةُ، واختارهُ ابنُ جَرير. وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وإسماعيل بنُ أبي خالد، وابن عُيَينة، وأبو حُصَين، وأبو صالح، والسدِّي: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: ذي الشَّرفِ، أي: ذي الشأن والمكانة. ولا منافاةَ بين القولين، فإنه كتابٌ شريفٌ مُشتمِلٌ على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفُوا في جواب هذا القسم، فقال بعضُهم: هو قولهُ تعالىٰ: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ⑭﴾. وقيل: قولهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ⑭﴾، حكاهُما ابنُ جرير، وهذا الثاني فيه بعدٌ كبيرٌ، وضَعَّفَه ابنُ جَرير. وقال قتادةُ: جوابهُ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ②﴾، واختاره ابنُ جَرير. وقيل: جَوابُهُ ما تَضمَّنه سياقُ السورةِ بكمالها. والله أعلَمُ. ثم حكى ابن جرير عن بعض أهلِ العربيَّةِ أنه قال: جوابهُ: ﴿صٓ﴾ بمعنى: صِدْقٌ حَقٌّ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾. وقولهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ②﴾، أي: إن في هذا القرآنِ لذكراً لمن يَتَذَكَّر، وعبرةً لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾، أي: استكبار عنه وحَمِيَّةٍ، ﴿وَشِقَاقٍ﴾، أي: مُخَالفةٍ له ومُعانَدةٍ ومُفَارَقَةٍ. ثم خَوَّفهم ما أهلك به الأممَ المُكذِّبة قبلهم بسبب مُخالفتِهم للرسل وتكذيبهم الكُتُبَ المنزَّلة من السماء، فقال تعالىٰ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، أي: من أُمَّةٍ مُكذِّبةٍ، ﴿فَنَادَوا۟﴾، أي: حين جاءهم العذابُ استغاثوا وجَأَرُوا إلى الله تعالىٰ. وليس ذلك بمُجدٍ عنهم شيئاً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ⑫﴾، أي: يهربون، ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ⑬﴾ [الأنبياء: ١٢ - ١٣]. قال أبو داود الطيالِسيُّ: حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن التميمي قال: سألتُ ابنَ عباس عن قول الله تعالىٰ: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بِحِين نَزْوٍ ولا فِرارٍ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مَغاثٍ. وقال شَبِيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: نادوا النداءَ حين لا ينفعُهم، وأنشد:

تَذَكَّرَ لَيلى لاتَ حينَ تَذَكُّرِ

وقال محمد بن كعب في قوله تعالىٰ: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادَوا بالتوحيدِ حينَ تولّت الدنيا عنهم، واستناصُوا للتوبة حين تولّت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأوُا العذابَ أرادوا التوبةَ في غير حين النداء. وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بِحين فرارٌ ولا إجابةٌ. وقد رُوِيَ نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جُبَير، وأبي مالك، والضحاك، وزيدِ بن أسلَم، والحَسَنِ، وقتادةِ. وعن مالك، عن زيدِ بن أسلَمَ: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾: ولا نداءَ في غير حين النداءِ. وهذه الكلمة وهي «لات»، هي «لا» التي للنفي، زِيدَت معها التاءُ، كما تزاد في «ثُمَّ»، فيقولون: «ثُمّت»، و «رُبَّ» فيقولون: «رُبَّت». وهي مفصُولةٌ، والوقفُ عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابنُ جرير أنها متصلةٌ بحين: «ولا تَحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهورُ بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حينَ مناص. ومنهم من جَوَّز النصب بها، وأنشد:

تَــذَكَّــرَ حُــبَّ لَــيْــلَــى لاتَ حِــيــنَــا ... وَأَضحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ القَرِينَا

ومنهم من جوّزَ الجرَّ بها، وأنشد:

طَــلَــبُــوا صُــلْــحَــنَــا وَلاتَ أَوَانٍ ... فَــأَجَــبْــنَــا أنْ لَــيْــسَ حِــيــنُ بَــقَــاءِ

وأنشد بعضُهم أيضاً:

وَلاتَ سَــــاعَــــةِ مَــــنْــــدَمِ

بخفض الساعة: وأهلُ اللغةِ يقولون: النَّوصُ: التأخرُ. والبَوْصُ: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالىٰ الموفق للصواب.

﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تَعَجُّبهم من بِعثَةِ الرسولِ بشراً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالىٰ هاهنا: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: بَشرٌ مثلهم، ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، أي: أزعَم أن المعبودَ واحدٌ لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك ـ قَبَّحهم الله تعالى ـ وتَعجَّبُوا من تَرْكِ الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلَقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشرِبَتْه قلوبُهم، فلما دعاهم الرسولُ ـ ﷺ ـ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفرادِ الله بالوحدانية، أعظمُوا ذلك وتعجَّبُوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ٱمْشُوا۟﴾، أي: استمرُّوا على دينكم، ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبُوا لما يدعوكم إليه محمدٌ من التوحيد. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾. قال ابنُ جَرِير: إنَّ هذا الذي يدعونا إليه محمدٌ من التوحيد لَشيءٌ يريد به الشرفَ عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباعٌ، ولسنا نجيبه إليه.

## ذكرُ سَبَب نُزول هذِه الآياتِ:

[٥٧٣٩] قال السدِّي: إن أُناساً من قُرَيش اجتمعوا، فيهم أبو جَهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسودُ بن المطلب، والأسود بن عبد يَغُوث، في نفر من مشيَخَةِ قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقُوا بنا إلى أبي طالب فلْنُكَلِّمْه فيه، فَلْينصِفْنا منه، فَلْيكف عن شَتْم آلهتنا، ونَدَعه وإلهه الذي يعبده؛ فإنا نخاف أن يموتَ هذا الشيخ، فيكونَ منا إليه شيءٌ فَتُعَيِّرُنا به العربُ، يقولون: تركُوه حتى إذا مات عنه تناولُوه. فبعثوا رَجُلاً منهم يقال له المُطَّلبُ، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسَرَاتهم يستأذنون عليك. قال: أدخِلْهُم. فلما دَخَلُوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرُنا وسيِّدنا، فَأَنصِفنا من ابن أخيك، فمره فَلْيكفَّ عن شَتْم آلِهَتِنا ونَدَعَه وإلهه. قال: فَبَعث إليه أبو طالب، فلما دَخَلَ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يا ابنَ أخي، هؤلاء مَشْيَخَةُ قومِك وسَرَاتهم، وقد سألوك أن تَكُفَّ عن شَتْم آلهتهم ويَدَعُوك وإلهَكَ. قال: «يا عَمِّ، أفلا أدعُوهم إلى ما هو خيرٌ لهم؟» قال: وإلام تدعُوهم؟ قال: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمةٍ تَدِينُ لهم بها العرب، ويَملِكُون بها العَجَم». فقال أبو جهلٍ من بينِ القوم: ما هي وأبيكَ؟ لَنُعطِيَنَّكَهَا وعشر أمثالِها. قال: «تقولون: لا إله إلا الله». فنفروا وقالوا: سَلْنا غير هذا. قال: «لو جئتموني بالشمسِ حتى تَضَعُوها في يَدَيَّ، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غِضَاباً، وقالوا: والله لَنَشتُمَنَّكَ وإلهك الذي أمرك بهذا. ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⦗٦⦘﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابنُ جَرير، وزاد: فلما خَرجوا دَعَا رسول الله ـ ﷺ ـ عَمَّه إلى قولِ: لا إله إلا الله. فأبى وقال: بل على دينِ الأشياخ. ونَزَلَت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾»[1] [القصص: ٥٦].

[٥٧٤٠] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كُرَيب وابنُ وَكيع قالا: حدثنا أبو أُسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عَبَّاد، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما مَرِضَ أبو طالب، دَخَلَ عليه رهطٌ من قُرَيش، فيهم أبو جَهل، فقالوا: إنَّ ابن أخيكَ يشتُم آلهتنا. ويفعَلُ [ويفعل]، ويقولُ ويقولُ، فلو بعثتَ إليه فَنَهيتَه؟ فبعث إليه، فجاء النبيُّ ـ ﷺ ـ فدخَلَ البيتَ وبينهم وبين أبي طالب قدرُ مجلس رجلٍ، قال: فَخَشِيَ أبو جهل إن جلس إلى جَنْبِ أبي طالب أن يكون أَرَقَّ له عليه. فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ـ ﷺ ـ مجلِساً قُرب عَمِّه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابنَ أخي، ما بالُ قومك يَشكُونك، يَزعمُون أنك تشتم آلهتهم، وتقولُ وتقولُ؟ قال: وأكثَرُوا عليه من القول. وتكلَّم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا عَمِّ، إني أريدُهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونها تَدِين لهم بها العربُ، وتُؤَدِّي إليهم بها العَجَمُ الجزيةَ». فَفَزِعُوا لكلمته ولقولِهِ، وقال القوم: كلمةً واحدةً! نعم وأبيك عشراً؛ فقالوا: وما هي؟ قال أبو طالب: وأيُّ كلمةٍ هي يا ابنَ أخي؟ فقال: «لا إلهَ إلا الله». فقاموا فَزِعين يَنفضُون ثيابَهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⦗٥⦘﴾[2]. قال: ونَزَلت من هذا الموضع إلى قولِهِ: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾. لفظ أبي كُرَيب. وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ، من حديث محمد بن عبد الله بن نُمَير، كلاهما عن أبي أُسامة، عن الأعمشِ،

---

(١) والحديث مرسل. أخرجه الطبري ٢٩٧٥٠، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٤٥٧ وأحمد ٢/ ٣٦٢ والطبري ٢٩٧٣٧، وفيه عباد بن جعفر، وهو مجهول. وأخرجه الترمذي ٣٢٣٢ والنسائي ٤٥٦ والطبري ٢٩٧٣٨ والحاكم ٢/ ٤٣٢، وفيه يحيى بن عمارة، وهو لين الحديث، وله طرق ضعيفة لعله يتأيد بها، انظر الكشاف ٩٥٤ بتخريجي.

عن عَبَّاد ـ غير منسوب ـ به نحوه. ورواه الترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير أيضاً، كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمَارة الكُوفي، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ، فذكر نحوه. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ». وقولُهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ما سَمِعنا بهذا الذي يدعُونا إليه محمدٌ من التوحيدِ في الملَّةِ الآخرةِ.

قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيد: يعنُونَ دينَ قريشَ. وقال غيرُهم: يَعنُونَ النَّصرانيَّة. قاله مُحمَّد بنُ كَعبٍ، والسدِّي. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، يعني النصرانيَّة، قالوا: لو كان هذا القرآنُ حَقّاً أخبرَتْنا به النصارى. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾، قال مجاهدٌ، وقتادةُ: كَذِبٌ. وقال ابن عباس: تَخرُّصٌ.

وقولُهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، يعني: أنَّهم يستبعدون تخصيصَه بإنزالِ القرآن عليه من بينهم كلِّهم، كما قالوا في الآية االأخرىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢]. ولهذا لما قالوا هذا الذي دَلَّ على جهلِهم وقلَّةِ عقلهم، في استبعادهم إنزالَ القرآن على الرسولِ من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾، أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقُوا إلى حين قولِهم ذلك عذابَ الله تعالىٰ ونقمتَه، سَيَعلمون غِبَّ ما قالُوا، وما كذَّبُوا به، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا. ثم قال تعالىٰ مُبَيِّناً أنه المتصرِّفُ في ملكه، الفعَّالُ لما يشاء، الذي يُعطِي مَن يشاء ما يشاء، ويُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، ويَهدِي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، ويُنزِّل الروح مِن أمرِه على مَن يشاء مِن عباده، ويختم على قلب مَن يشاء، فلا يهديه أحدٌ من بعدِ الله، وإنَّ العبادَ لا يملِكُون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرُّف في الملك ولا مثقالُ ذرَّةٍ، وما يملكون من قطمير.

ولهذا قال تعالى مُنكِراً عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾، أي: العزيز الذي لا يُرام جَنابه، الوهَّابُ الذي يُعطِي ما يُريد لمن يريدُ. وهذه الآيةُ الكريمة شبيهةٌ بقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء: ٥٣ ـ ٥٥]. وقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾ [الإسراء: ١٠٠]. وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بَعثَةَ الرسولِ البَشَريِّ ﷺ، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥ ـ ٢٦].

وقولهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾، أي: إن كان لهم ذلك فَلْيَصْعَدُوا في الأسباب. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ، وغيرُهم: يعني طُرُقَ السماء. وقال الضَّحَّاكُ: فليصعدوا إلى السماءِ السابعةِ. ثم قال عز وجل: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾، أي: هؤلاء الجندُ المكذِّبون الذين هم في عزَّةٍ وشقاقٍ سَيُهزَمُونَ ويُغلَبُونَ ويُكبَتُونَ، كما كُبِتَ الذين من قبلِهم من الأحزاب المُكذِّبين. وهذه كقوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ وكان ذلك يوم بدر ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٤ ـ ٤٦].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرُّسُلِ وتكذيب الأنبياء، وقد تقدَّمت قِصَصُهم مبسوطةً في أماكن مُتَعَدِّدة. وقوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾، أي: كانوا أكثَرَ منكم وأشدَّ قُوَّة، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، فما دَفَعَ ذلك عنهم من عذاب الله من شيءٍ لما جاء أمرُ الله. ولهذا قال عز وجل: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾. فَجَعَلَ عِلَّة هلاكِهم هو تكذيبهم بالرسلِ، فَلْيَحْذَرِ المخاطَبُون من ذلك أشدَّ الحَذَرِ. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾، قال مالكٌ، عن زيد بن أسلَمَ: أي ليسَ لها مَثْنَوِيَّةٌ، أي: ما ينظرون إلى الساعةَ أن تأتِيَهم بغتةً فقد جاء أشراطُها، أي: قد اقتربت ودَنَت وأَزِفَت. وهذه الصيحةُ هي نفخةُ الفَزَع التي يأمُر الله إسرافيل أن يُطَوِّلها، فلا يبقى أحدٌ من أهلِ السمواتِ والأرضِ إلا فَزِعَ، إلا من استثنى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. وقولهُ جل جلاله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾. هذا إنكارٌ من الله تعالىٰ على المشركين في دُعَائهم على أنفسهم بتعجيل العَذَابِ، فإنَّ القِطَّ هو الكِتَابُ. وقيلَ: هو الحظ والنصيبَ. قال ابن عباس، ومجاهدٌ، والضحَّاك، والحَسنُ، وغيرُ واحد: سألوا تعجيلَ العذابِ، زاد قتادةُ: كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: سألوا تعجيل نَصِيبِهم من الجنَّةِ إن كانت موجودةً ليلقوا ذاك في الدنيا. وإنما خَرَجَ هذا منهم مَخْرَجَ الاستبعادِ والتكذيب. وقال ابنُ جرير: سألوا تَعجيل ما يَستحِقُّونه من الخير أو الشرِّ في الدنيا. وهذا الذي قاله جَيِّدٌ، وعليه يدور كلامُ الضحَّاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم. ولما كان هذا الكلامُ منهم على وجه الاستهزاء والاستبعادِ قال الله تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ آمراً له بالصبرِ على أذاهم، ومُبَشِّراً له على صَبْرِهِ بالعاقبةِ والنصرِ والظفرِ.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داودَ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ: أنه كان ذَا أَيْدٍ، والأَيْدُ: القُوَّةُ في العِلم والعَمَلِ، قال ابن عباس وابن زيد والسدِّي: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾، وقال مجاهد: الأَيْدُ: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أُعطِيَ داود ـ عليه السلام ـ قُوَّةً في العبادةِ، وفقهاً في الإسلام، وقد ذُكِرَ لنا أنَّه ـ عليه السلامُ ـ كان يقوم ثُلثَ الليل، ويصومُ نصفَ الدهر.

[٥٧٤١] وهذا ثابتٌ في الصحيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أحبُّ الصلاةِ إلى الله تعالىٰ صلاةُ داودَ، وأحبُّ الصيام إلى الله عز وجل صيامُ داودَ، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثُلثه، وينام سُدُسَه، وكان يصومُ يوماً ويفطِر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى»(١). وأنه كان أَوَّاباً، وهو الرجَّاع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في جميع أُموره وشؤونه.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١١٣١ ومسلم (١١٥٩) (١٨٩).

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾، أي: إنه تعالى سَخَّر الجبالَ تُسبِّح معه عندَ إشراق الشمس وآخرَ النهار، كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾. وكذلك كانت الطيرُ تُسبِّح بتسبيحِه، وتُرجِّع بترجيعه، إذا مَرَّ به الطير وهو سابحٌ في الهواء فَسَمِعَه وهو يَترَنَّم بقراءة الزَّبُورِ لا تستطيعُ الذهاب، بل تَقِف في الهواءِ تُسبِّح معه، وتُجيبه الجبالُ الشامخات، تُرَجِّع معه، وتُسبِّح تَبَعاً له. .

[٥٧٤٢] قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا محمدُ بن بِشر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن مُوسَى بن أبي كَثِير، عن ابن عباس أنه بَلَغه: أن أُمَّ هانىء ذَكَرت أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم فَتح مَكَّةَ صلى الضحَى ثمان رَكَعاتٍ. قال ابنُ عباسٍ: قد ظَننتُ أن لهذه الساعة صلاةً، يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾(١).

[٥٧٤٣] ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عَرُوبة، عن أبي المتوكِّل، عن أَيُّوبَ بن صَفْوَانَ، عن مولاه عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن ابن عباس كان لا يُصَلِّي الضحَى. قال: فأدخلتُه على أمِّ هانىء فقلتُ: أخبري هذا ما أخبرتِني. فقالت أمُّ هانىء: دَخَلَ عليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صُبَّ في قَصْعَةٍ، ثم أَمَرَ بثوب، فأخذَ بيني وبينه، فاغتسَلَ ثم رَشَّ ناحيةَ البيتِ، فَصَلَّى ثمان رَكَعاتٍ، وذلك من الضحَى، قِيامُهنَّ ورُكوعُهنَّ وسُجودُهنَّ وجلوسهن سَوَاءٌ، قريبٌ بَعضُهنَّ من بعض. فَخَرَجَ ابنُ عباس وهو يقول: لقد قرأتُ ما بين اللَّوحَين ما عرفتُ صلاةَ الضحَى إلاَّ الآنَ: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وكنتُ أقولُ: أينَ صلاةُ الإشراقِ؟ وكان بَعدُ يقولُ هذه: صلاةُ الإشراقِ(٢). ولهذا قال عز وجل: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾، أي: محبوسةً في الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: مُطِيع يُسبِّح تَبعاً له. قال سعيد بن جُبَير، وقتادةُ، ومالكٌ عن زيدِ بن أسلَم، وابنُ زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: مُطِيع.

وقولُه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾، أي: جعلنا له مُلكاً كاملاً من جَميع ما يحتاجُ إليه الملوك. قال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: كان أشدَّ أهل الدنيا سلطاناً. وقال السُّدِّي: كان يحرسُه كُلَّ يوم أربعةُ آلافٍ. وقال بعضُ السلفِ: بلغني أنه كان حَرَسُهُ في كل ليلة ثلاثةً وثلاثين ألفاً، لا تدورُ عليهم النَّوبة إلى مثلها من العام القابل. وقال غيرُه: أربعون ألفاً مُشتَكُون بالسلاح(٣). وقد ذكر ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من رواية عِلْباء بن أحمر، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاس: أن نَفَرين من بني إسرائيل استعدَى أحدُهما على الآخر إلى داودَ ـ عليه السلامُ ـ أنه اغتصَبَه بقراً، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدَّعي بَيِّنةٌ، فأرجأ أمرَهما. فلما كان الليلُ أُمِرَ داودُ ـ عليه السلامُ ـ في المنام بقتل المدَّعي. فلما كان النهارُ طَلَبهما وأمر بقتل المُدَّعي، فقال: يا نبي الله، عَلَامَ تَقتُلني وقد اغتصبني هذا بَقَري؟ فقال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أمرني بقتلك، فأنا قاتلك لا محالَةَ. فقال: والله يا نبيَّ الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادَّعيتُ عليه، وإني لصادق فيما ادَّعيتُ، ولكني كنت قد اغتلتُ أباه وقتلتُه، ولم يشعر بذلك أحدٌ، فَأَمَرَ به داودُ ـ عليه السلام ـ فَقُتِلَ. قال ابنُ عباسٍ: فاشتدَّت هَيبتُه في بَنِي

---

(١) أخرجه الطبري ٢٩٨٠٣ وفيه إرسال بين موسىٰ وابن عباس، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه الطبري ٢٩٨٠٤ والحاكم ٤/ ٥٣ وإسناده حسن في الشواهد. وكرره الطبري ٢٩٨٠٥ وإسناده ضعيف، وأخرجه الطبراني ٢٤/ ٤٠٦ والواحدي في «الوسيط» ٣/ ٥٤٤ بسند ضعيف لضعف أبي بكر الهذلي، لكن الحديث حسن بطرقه، وانظر «الكشاف» ٩٥٦ بتخريجي.

(٣) هذا وما قبله من الإسرائيليات، وهي أرقام خيالية.

إسرائيلَ، وهو الَّذي يقولُ الله عزَّ وجلَّ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾. وقولُهُ جَلَّ وعلا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾، قال مجاهدٌ: يعني الفهمَ والعقلَ والفِطنة. وقال مَرَّةً: الحكمةَ والعدلَ. وقال مَرَّةً: الصوابَ. وقال قتادة: كتابَ الله واتباعَ ما فيه. وقال السدِّي: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: النبوَّة. وقولهُ جل جلاله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾، قال شُرَيحٌ القاضي، والشَّعبيُّ: فصلُ الخطاب الشهودُ والأيمانُ. وقال قتادةُ: شاهِدان على المُدَّعِي، أو يمين المُدَّعَى عليه، هو فصلُ الخطابِ الذي فَصَل به الأنبياء والرسل ـ أو قال: المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاءُ هذه الأمَّةِ إلى يوم القيامة. وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي. وقال مجاهدٌ. والسدِّيُّ: هو إصابةُ القضاءِ وفهمُه. وقال مجاهدٌ أيضاً: هو الفصلُ في الكلام وفي الحُكم. وهذا يشمَلُ هذا كلَّه، وهو المراد، واختاره ابنُ جرير. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عُمَر بن شبَّة النميريّ، حدثنا إبراهيمُ بن المنذر، حَدَّثني عبد العزيز بن أبي ثابتٍ، عن عبد الرحمن بن أبي الزنادِ، عن أبيهِ، عن بلالِ بن أبي بُردَةَ، عن أبيهِ، عن أبي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ قال: أوّلُ مَن قال: «أما بعدُ» داودُ ـ عليه السلام ـ وهو فصلُ الخطاب. وكذا قال الشعبيُّ: فَصْلُ الخِطَابِ: «أمَّا بعدُ».

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﷺ ﴾ ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

قد ذكَرَ المفسرون هاهنا قصةً أكثرُها مأخوذٌ من الإسرائيليات[1]، ولم يَثبت فيها عن المعصوم حديثٌ يجبُ اتباعه، ولكن رَوَى ابنُ أبي حاتم هنا حديثاً لا يَصِحُّ سندُه، لأنه من رواية يَزِيدَ الرَّقاشي، عن أنسٍ ـ ويزيدُ وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيفُ الحديث عند الأئمة، فالأَوْلَى أن يُقتصَر على مُجرَّد تلاوةِ هذه القصةِ وأن يُرَدّ علمُها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فإن القرآنَ حقٌّ، وما تضَمَّن فهو حقٌّ أيضاً. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إنَّما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرفُ مكانٍ في دارِه، وكان قد أمَرَ ألاَّ يدخل عليه أحدٌ ذلك اليوم، فلم يشعُر إلا بشخصَين قد تَسوَّرا عليه المحرابَ، أي: احتاطا به يَسألانِهِ عن شأنهما. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾، أي: غَلَبني. يقال: عَزَّ يَعِزُّ: إذا قَهَرَ وغَلَبَ. وقولُه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عبَّاس: أي اختبرناه. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾. وَيحتَمِلُ أنه رَكَعَ أوّلاً، ثم سَجَدَ بعد ذلك. وقد ذُكر أنه استمر ساجداً أربعينَ صَباحاً، ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾. أي: ما كان منه مما يُقَال فيه: إنَّ حَسناتِ الأبرارِ سَيِّئاتُ المقربين.

وقد اختلف الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ في سَجْدَةِ «ص»، هل هي من عَزَائم السجود؟ على قولين، الجديدُ من مذهب الشافعي ـ رَحِمَه الله ـ أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدةُ شُكرٍ. والدليلُ على ذلك ما رواه الإمام أحمدُ حيث قال:

[٥٧٤٤] حدثنا إسماعيلُ ـ وهو ابن عُلَيَّة ـ عن أيُّوبَ، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ أنه قال في السجود

---

(١) راجع تفسير القرطبي عند هذه الآية بتعليقي.

في «ص»: ليست من عزائم السجودِ، وقد رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يسجدُ فيها[١]. ورواه البخاري، وأبو داودَ، والترمذيُّ، والنسائي في تَفْسيرِه، من حديث أيُّوب، به. وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح».

[٥٧٤٥] وقال النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيمُ بن الحَسَن ـ هو المِقْسَمِيُّ ـ حدثنا حَجَّاج بن محمد، عن عُمَرَ بن ذرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ سَجَدَ في «ص»، وقال: «سَجَدَها داودُ ـ عليه السلام ـ توبةً، ونَسجُدُها شُكراً»[٢]. تَفَرَّدَ بروايته النسائي، ورجالُ إسنادِهِ كلُّهم ثِقاتٌ.

[٥٧٤٦] [مسند] وقد أخبرني شيخُنا الحافظ أبو الحجَّاج المِزِّي قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا أبو إسحاقَ المُدرجي، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثَّقَفِي، أخبرنا زاهرُ بن طاهر الشَّحَّامي، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُوذِيُّ، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السَّراج، حدثنا هارونُ بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيدَ بن خُنَيس، عن الحسن بن محمد بن عُبَيد الله بن أبي يزيدَ قال: قال لي ابن جُرَيج: يا حَسَنُ، حدثني جَدُّك عبيد الله بن أبي يَزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إني رأيتُ فيما يَرَى النائم كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَقَرأتُ السجدةَ، فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشجرةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُها تقولُ وهي ساجدةٌ: اللهُمَّ، اكتُب لي بها عندَكَ أجراً، واجعَلْها لِي عِنْدَكَ ذُخراً، وضَعْ عَنِّي وزراً، واقبَلْهَا مني كما قبلتها من عبدِكَ داودَ. قال ابنُ عباس: فرأيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ قام فقرأ السجدةَ، ثم سَجَدَ، فَسَمِعْتُه يقولُ وهو ساجدٌ كما حَكَى الرجل عن كلام الشجرة[٣]. رواه الترمذيُّ عن قُتَيبة وابنُ ماجه عن أبي بكر بن خَلاَّد، كلاهُما عن محمد بن يزيدَ بن خُنَيسٍ، نحوه. وقال الترمذي: «غريبٌ، لا نعرِفه إلا من هذا الوجه».

[٥٧٤٧] وقال البُخاريُّ عند تفسيرها أيضاً: حَدَّثنا محمد بن عبد الله، حَدَّثنا محمد بن عُبَيد الطَّنافِسِيُّ، عن العَوَّام قال: سألتُ مجاهداً عن سَجدَةِ «ص» فقال: سألتُ ابنَ عَبَّاس: من أين سَجَدْتَ؟ فقال: أَوَ ما تقرأُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٤ و ٩٠]، فكان داود ـ عليه السلامُ ـ ممن أُمِرَ نَبيُّكم ـ ﷺ ـ أن يقتدي به، فَسَجدها داودُ ـ عليه السلام ـ فسجدها رسول الله ـ ﷺ[٤].

[٥٧٤٨] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا يزيدُ بن زُرَيع، حدثنا حُمَيد، حدثنا بكر ـ هو ابن عبد الله المُزَنيُّ ـ أنه أخبره: أن أبا سعيدٍ الخُدْرِيَّ رضي الله عنه رأى رُؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بَلَغَ إلى الآية التي يُسجَدُ بها رَأى الدواةَ والقلمَ وكل شيء بحضرتِهِ انقلَبَ ساجِداً، قال: فَقَصَّها على النبيِّ ـ ﷺ ـ فلم يزل يسجُد بها بعدُ[٥]. تفرَّدَ به أحمدُ.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٦٩ والنسائي ٢/ ١٥٩ وابن حبان ٢٧٦٦ وأحمد ١/ ٣٦٠.

(٢) جيد. أخرجه النسائي في تفسيره ٤٥٨ والبيهقي ٢/ ٣١٩ والدارقطني ١/ ٤٠٧ وإسناده قوي، وجوده السيوطي في «الدر» ١/ ٤٠٧، وقال ابن حجر «تلخيص الحبير» ٢/ ٨: أعله ابن الجوزي بعبد الله بن بزيع، وقد توبع وصححه ابن السكن اهـ. ويشهد له حديث أبي سعيد، وسيأتي.

(٣) إسناده ضعيف لضعف الحسن بن محمد، ومن طريقه أخرجه الترمذي ٥٧٩ وابن ماجه ١٠٥٣ و«تهذيب الكمال» ٦/ ٣١٤.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٠٨٧ عن ابن عباس.

(٥) أخرجه أحمد ٣/ ٧٨ بإسناد صحيح، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٦٩٠: رجاله رجال الصحيح.

[٥٧٤٩] وقال أبو داود: حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وهبٍ، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن سَعيد بن أبي هلال، عن عياضِ بن عبد الله بن سعدِ بن أبي سَرْح، عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِي ـ رضي الله عنه ـ قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ وهو على المنبر ﴿صٓ﴾، فلما بلغ السجدة نَزَلَ فسجَدَ، وسَجَدَ الناس مَعَه، فلما كان يوم آخَرَ قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ الناسُ للسجودِ، فقال ﷺ: «إنما هي توبةُ نبيٍّ، ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم»[١]. فَنَزَلَ وسَجَدَ. تَفرَّدَ به أبو داود، وإسنادُه على شرطِ الصحيح.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: وإن له يوم القيامة لقربة يُقَرِّبُهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها، وحسنَ مرجعٍ، وهو الدرجاتُ العالياتُ في الجَنَّةِ، لتوبته وعَدْلِهِ التام في مُلْكِهِ، كما جاء في الصحيح:

[٥٧٥٠] «والمُقسطُون على منابِرَ من نُورٍ عن يمين الرحمن، وكلتا يَدَيْه يمينٌ، الذين يُقسِطُون في أهلِيهم وما وَلُوا»[٢].

[٥٧٥١] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن آدَمَ، حدثنا فُضَيل، عن عَطِيَّة، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن أحبَّ الناسِ إلى الله يومَ القيامة وأقرَبهم منه مجلساً إمامٌ عادلٌ، وإن أبغضَ الناس إلى الله يومَ القيامة وأشدَّهم عذاباً إمامٌ جائرٌ»[٣]. ورواه الترمذيُّ من حَدِيث فُضَيلٍ ـ وهو ابنُ مرزوقٍ ـ الأغرّ، عن عطيَّةَ، به. وقال: «لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه».

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عبدُ الله بن أبي زياد، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر بن سليمان: سَمِعتُ مالكَ بنَ دينار في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، قال: يُقامُ داودُ يومَ القيامةِ عند ساقِ العَرشِ، ثم يقولُ: يا داودُ، مَجِّدني اليومَ بذلك الصوتِ الحسنِ الرَّخِيم الذي كُنتَ تُمجِّدني به في الدنيا. فيقول: وكيفَ وقد سُلِبْتُه؟ فيقول الله عز وجل: إني أُرده عليكَ اليومَ. قالَ: فيرفع داودُ بصوتٍ يَسْتَفرِغ نَعيمَ أهلِ الجِنَان.

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

هذه وَصِيَّةٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لولاة الأمور أن يحكُموا بين الناس بالحقِّ المنزَّلِ من عندِهِ ـ تبارَكَ وتعالى ـ ولا يَعدِلُوا عنه فَيَضِلُّوا عن سبيله. وقد توعَّد تعالى مَن ضَلَّ عن سبيله، وتناسى يومَ الحساب، بالوعيدِ الأكيد والعذابِ الشديد. قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشامُ بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مَرْوان بن جناح، حَدَّثني إبراهيم أبو زُرعَةَ ـ وكان قد قرأ الكتابَ ـ أن الوليدَ بن عبدِ الملك قال له: أيُحاسَبُ الخليفةُ؟ فإنَّك قد قرأتَ الكتابَ الأوَّلَ، وقرأتَ القرآن وفَقِهتَ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أقولُ؟ قال: قُل في أمان الله. قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنت أكرمُ على الله أو داود؟ إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جَمَعَ له النبوَّة

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤١٠ والحاكم ٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢. وابن حبان ٢٧٦٥ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وإسناده صحيح على شرط مسلم. وتشزن: تهيأ.

(٢) هو بعض حديث صحيح، وتقدم.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي ١٣٢٩ وأحمد ٣/ ٥٥ من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف لأجل عطية ابن سعد العوفي. ولا شك بأن الأمير الجائر الماجن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، فهناك آيات كثيرة تدل على ذلك وفي الباب أحاديث صحيحة.

والخلافة، ثم توعَّدَه في كتابه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ . . . الآية. وقال عكرمةُ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾، هذا من المقدَّم والمؤخَّر، لهم عذابٌ شديدٌ يوم الحساب بما نَسُوا. وقال السُّدي: لهم عذابٌ شَدِيدٌ بما تَرَكُوا أن يَعمَلُوا ليومِ الحِسَابِ. وهذا القولُ أمشى على ظاهرِ الآية، فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

يُخبر تعالى أنه ما خَلَقَ الخلق عَبثاً، وإنما خَلَقهم لِيعبدُوه ويُوحِّدُوه، ثم يَجمعُهم ليوم الجَمْع، فيُثيبُ المطيعَ ويُعذِّب الكافر. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الذين لا يرون بعثاً ولا مَعاداً، وإنما يَعتقِدُون هذه الدار فقط، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: ويلٌ لهم يومَ معادِهم ونُشُورهم من النار المُعدَّةِ لهم. ثم بَيَّنَ تعالى أنه مِن عَدلِهِ وحِكمته لا يُساوي بين المؤمنين والكافرين، فقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، أي: لا نفعلُ ذلك، ولا يَستوُون عند الله، وإذا كان الأمرُ كذلك فلا بُدّ من دارٍ أخرى، يُثاب فيها هذا المُطيع، ويُعاقَب فيها هذا الفاجرُ. وهذا الإرشادُ يَدُلُّ العقولَ السليمة والفِطَرَ المستقيمةَ على أنه لا بُدَّ من مَعادٍ وجَزاءٍ، فإنا نرى الظالم الباغي يزدادُ مالُه وولدُه ونعيمُه ويموتُ كذلك، ونرى المطيع المظلومَ يموت بكَمَدِهِ، فلا بُدَّ في حِكْمَةِ الحكيم العليم العادلِ الذي لا يَظلِم مثقالَ ذَرَّةٍ، من إنصافِ هذا مِن هذا، وإذا لم يَقَع هذا في هذه الدار فتَعيَّن أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآنُ يُرشدُ إلى المقاصد الصحيحة والمآخِذِ العقلية الصريحةِ، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾، أي ذَوُو العقولِ، وهي الألبابُ، جمعُ لُبٍّ، وهو العقلُ. قال الحسن البَصريُّ: والله ما تَدَبُّرُهُ بحفظِ حُرُوفِهِ وإضاعةِ حُدُودِهِ، حتى إنّ أحدَهُم ليقولُ: قرأتُ القرآن، ما يُرَى له القرآنُ في خُلُقٍ ولا عَمَلٍ. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً أنه وَهَب لداودَ سُليمانَ، أي: نَبيّاً، كما قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، أي: في النبوّةِ، وإلا فقد كان له بَنُون غيره، فإنه قد كان عنده مئةُ امرأةٍ حَرائِرُ. وقولُه تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ثناءٌ على سُليمان ـ عليه السلام ـ بأنه كثيرُ الطاعةِ والعبادةِ والإنابةِ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمودُ بن خالد، حدثنا الوليدُ، حدثنا ابنُ جابرٍ، حدثنا مكحولٌ قال: لما وَهَبَ الله لداود سُليمان ـ عليه السلام ـ قال له: يا بُنَيَّ، ما أحْسَنُ؟ قال: سكينةُ الله وإيمانٌ. قال: فما أقبحُ؟ قال: كفرٌ بعد إيمانٍ. قال: فما أحلَى؟ قال: روح الله بينَ عباده. قال: فما أبرَدُ؟ قال: عفوُ الله عن الناس، وعفوُ الناس بعضهم عن بعض. قال داود عليه السلام: فأنت نَبِيٌّ.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾، أي: إذْ عُرِضَ على سُليمانَ في حال مملكتِه

وسلطانِهِ الخيلُ الصافناتُ. قال مجاهد: وهي التي تَقِف على ثلاثٍ وطَرَفِ حافرِ الرابعةِ، والجيادُ: السِّراع. وكذا قال غيرُ واحد من السلَفِ. وقال ابنُ جَرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤمَّل، حدثنا سفيانُ، عن أبيه سَعِيد بن مَسْرُوقٍ، عن إبراهيم التَّيمِيِّ في قوله عز وجل: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾، قال: كانت عشرينَ فرساً ذاتَ أجنحةٍ. كذا رواه ابنُ جرير.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابنُ أبي زائدة، أخبرني إسرائيلُ، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التَّيْمِيِّ قال: كانت الخيلُ التي شَغَلت سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ عشرينَ ألفَ فرسٍ، فعَقَرَها. وهذا أشبه، والله أعلم.

[٥٧٥٢] وقال أبو داود: حدثنا محمدُ بن عَوفٍ، حدثنا سعيدُ بن أبي مريمَ، أخبرنا يحيى بن أيُّوبَ، حدثني عُمَارة بن غزِيَّة: أن مُحمَّد بن إبراهيم حَدَّثه، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَدِمَ رسول الله ـ ﷺ ـ من غزوةِ تَبُوكَ ـ أو: خيبرَ ـ وفي سَهْوَتِها سِترٌ، فَهَبَّتِ الريحُ، فكشفت ناحيةَ السِّترِ عَن بناتٍ لعائشةَ ـ لُعَبٍ ـ فقال: «ما هذا يا عائشةُ؟» قالت: بناتي. ورأى بَينهُنَّ فرساً له جناحان من رِقاعٍ، فقالَ: «ما هذا الذي أرى وَسْطَهُنَّ»؟ قالت: فرسٌ. قال: «وما هذا الذي عَلَيه؟» قالت: جناحان. قال: «فَرس له جناحان؟!» قالت: أما سَمِعت أنَّ لسليمان خيلاً لها أجنحةٌ؟ قالت: فَضحِكَ حتى رأيت نواجِذَه ﷺ(١).

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾، ذكر غيرُ واحدٍ من السلَفِ والمفسِّرين أنه اشتغَلَ بعرضها حتى فات وقتُ صلاةِ العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عَمْداً بل نِسياناً، كما شُغِلَ النبي ـ ﷺ ـ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صَلَّاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحَين من غير وجه.

[٥٧٥٣] من ذلك عن جابر قال: جاء عُمر ـ رضي الله عنه ـ يومَ الخندق بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ. فجعل يَسُبُّ كُفَّار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كِدْتُ أُصَلِّي العصرَ حتى كادت الشمسُ تَغرُبُ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والله ما صَلَّيتُها». فقال: فقمنا إلى بُطْحَانَ فتوضَّأ نبي الله ﷺ للصلاةِ وتوضَّأنا لها، فصلَّى العصر بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ، ثم صَلَّى بعدها المغرب(٢). ويَحتَمِلُ أنه كان سائغاً في ملتهم تأخيرُ الصلاةِ لعُذرِ الغزو والقتالِ والخيلُ تُراد للقتال، وقد ادَّعى طائفةٌ من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنُسِخ ذلك بصلاة الخوفِ، ومنهم مَن ذَهَبَ إلى ذلك في حال المُسايفة والمُضايقة، حيثُ لا يُمكِنُ صلاةٌ ولا ركوعٌ ولا سجودٌ. كما فَعَلَ الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ في فتح تُستَرَ، وهو منقولٌ عن مكحُولٍ، والأوزاعيِّ، وغيرهما. والأول أقرب، لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قال الحسنُ البَصريُّ: قال: لا، والله لا تشغلني عن عبادةِ ربِّي آخر ما عَلَيكِ. ثم أَمَرَ بها فَعُقِرت. وكذا قال قتادةُ. وقال السدِّي: ضَرَبَ أعناقَها وعراقِيبَها بالسيوفِ. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ: جعل يمسَحُ أعرافَ الخيلِ وعَراقِيبَها حُبّاً لها. وهذا القولُ اختارَه ابنُ جرير، قال: لأنه لم يكن لِيُعذِّبَ حيواناً بالعَرْقَبَةِ(٣)، ويُهلِكَ مالاً من مالِهِ بلا سَبَبٍ سِوَى أنه اشتغل عن صلاته بالنَّظرِ إليها ولا ذَنْبَ لها. وهذا الذي

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٩٣٢ وابن حبان ٥٨٦٤ والبيهقي ١٠/ ٢١٩ وإسناده صحيح؛ رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤١ و٥٩٦ و٥٩٨ و٤١١٢ ومسلم ٦٣١ والترمذي ١٨٠ والنسائي ٣/ ٨٤.

(٣) العرقوب: عصب غليظ فوق عقب الرجل، وعرقبه: قطع عرقوبه.

رَجحَ ابنُ جرير فيه نظرٌ؛ لأنه قد يكون في شَرْعِهم جوازُ مثل هذا، ولا سيما إذا كان غَضَباً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسبب أنه اشتغل بها حتى خَرَجَ وقتُ الصلاة، ولهذا لما خَرَج عنها لله ـ عزَّ وجلَّ ـ عَوَّضه الله تعالى ما هو خيرٌ منها، وهي الريحُ التي تجرِي بأمره رُخَاءً حيثُ أصابَ، غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهرٌ، فهذا أسرعُ وخيرٌ من الخيل.

[٥٧٥٤] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ، حدثنا سُلَيمان بن المغيرة، عن حُمَيد بن هلال، عن أبي قتادَةَ وأبي الدَّهماء ـ وكانا يُكثران السفر نحوَ البيتِ ـ قالا: أتينا على رَجُلٍ من أهل البادية، فقال البدوي: أَخَذَ بيدي رسولُ الله ـ ﷺ ـ فجعل يُعلِّمني مما علَّمه الله تعالى، وقال: «إنك لا تَدَعُ شيئاً اتقاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا أعطاكَ الله خيراً منه»(١).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾، أي: اختبرناه بأن سَلَبناهُ المُلْكَ مرَّةً، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، والحَسَنُ، وقتادةُ، وغيرَهم: يعني شيطاناً. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، أي: رَجَعَ إلى مُلكِهِ وسُلطانِهِ وأُبَّهَتِهِ. قال ابنُ جَرير: وكان اسمُ ذلك الشيطانِ صَخْراً. قاله ابنُ عباس، وقتادةُ. وقيل: آصف. قاله مجاهدٌ. وقيل: أصر. قاله مجاهدٌ أيضاً. وقيل: حبقيق قاله السدِّي. وقد ذَكَرُوا هذه القصةَ مبسوطةً ومختصرةً. وقد قال سَعِيدُ بن أبي عَرُوبةَ، عن قتادةَ قال: أَمَرَ سُلَيمان ـ عليه السلامُ ـ ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنِهِ ولا يُسمَعُ فيه صوتُ حَدِيدٍ. قال: فَطَلَبَ ذلك فلم يَقْدِر عليه. فقيل له: إن شيطاناً في البحر يقال له: «صَخْرٌ» شِبْهُ المارد. قال: فطلبه وكانت عين في البحرِ يَرِدُها في كلِّ سبعةِ أيام مرَّةً، فنُزِح ماؤُها وجُعِلَ فيها خَمْرٌ، فجاء يومُ وِرْدِهِ فإذا هُو بالخَمر، فقال: إنك لَشَرابٌ طَيِّبٌ إلاَّ أنك تُصْبِينَ(٢) الحليم، وتَزِيدين الجاهلَ جهلاً. ثم رَجَعَ حتى عَطِشَ عَطَشاً شديداً، ثم أتاها فقال: إنَّكِ لَشَرابٌ طَيِّبٌ إلا أنك تُصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جَهلاً. قال: ثم شَرِبها حتى غَلَبت على عَقلِهِ، قال: فأرى الخاتَم، أو خُتِمَ به بين كَتِفَيه، فَذَلَّ. قال: وكان ملكه في خاتمه، فأُتِيَ به سليمانَ فقال: إنه قد أُمِرنا ببناءِ هذا البيتِ، وقيل لنا: لا يُسمَعَنَّ فيه صوتُ حديدٍ. قال: فَأَتى ببيض الهدهدِ فَجَعل عليه زُجاجةً، فجاء الهدهدُ فدار حولها، فجعل يَرَى بيضَه ولا يقدر عليه، فذهَبَ فجاء بالماس فوضَعه عليه، فَقَطعها به، حتى أفضى إلى بيضِه. فأخذ الماسَ، فجعلوا يقطعُون به الحجارة. وكان سُليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخُلَ الخلاء أو الحَمّام لم يدخُل بخاتمه، فانطلق يوماً إلى الحَمّام، وذلك الشيطانُ صخرٌ معه، وذلك عند مقارفة [ذنب] قارفَ فيه بعضَ نسائه. قال: فدخل الحمّامَ وأعطى الشيطان خاتَمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكةٌ، ونُزِعَ ملكُ سليمان

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٧٨ و ٧٩ بإسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر.

(٢) صَبَا: أي مال إلى الجهل والفتوة.

منه، وألقِيَ على الشيطان شَبَه سُليمانَ. قال: فجاء فقعدَ على كُرسيِّه وسريرِهِ، وسُلِّط على مُلكِ سُليمانَ كلِّه غيرَ نسائه. قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا يُنكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فُتِن نبيُّ الله. وكان فيهم رجلٌ يُشبِّهونه بعمر بن الخطاب في القُوَّة فقال: والله لأُجرِّبنَّه. قال: فقال: يا نبيَّ الله ـ وهو لا يَرَى إلا أنه نبيُّ الله ـ أحدُنا تُصِيبه الجنابة في الليلةِ الباردةِ فيدَعُ الغُسل عَمْداً حتى تَطلُعَ الشمسُ، أترى عليه بأساً؟ فقال: لا. قال: فبينا هو كذلك أربعينَ ليلة حتى وَجَدَ نبيُّ الله خاتمه في بطن سَمَكةٍ، فأقبل فَجَعَلَ لا يستقبله جِنِّيٌ ولا طيرٌ إلا سَجَدَ له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال: هو الشيطانُ صَخْرٌ.

وقال السدِّي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾، أي: ابتلينا سُليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال: جلَس الشيطان على كُرسيِّه أربعينَ يوماً. قال: كان لسليمانَ ـ عليه السلامُ ـ مئةُ امرأةٍ، وكانت امرأةٌ منهنَّ يقال لها «جرادة»، وهي آثَرُ نسائه وآمَنُهُنَّ عندَه، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتَمه، ولم يَأْتَمِنْ عليه أحداً من الناس غيرها، فأعطاها يوماً خاتَمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صُورته، فقال: هاتي الخاتِم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخَرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تُعطِيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانَه تائهاً. قال: ومكث الشيطان يحكُم بين الناس أربعين يوماً، قال: فأنكر الناسُ أحكامَه، فاجتمع قُرَّاء بني إسرائيل وعلماؤُهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا لَهُنَّ: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمانَ فقد ذَهَبَ عقلُه وأنكرنا أحكامَه. قال: فبكى النساءُ عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشُون حتى أتوه، فأحدقُوا به ثم نَشَرُوا فقرأوا التوراة، قال: فطار من بين أيديهم حتى وَقَعَ على شُرفة، والخاتَمُ معه. ثم طار حتى ذَهَبَ إلى البحر، فوقع الخاتَمُ منه في البحر، فابتلعه حوتٌ من حيتانِ البحر. قال: وأقبل سُليمانُ في حاله التي كان فيها، حتى انتهى إلى صيادٍ من صَيَّادي البحر، وهو جائعٌ، وقد اشتدَّ جوعُه، فاستطعمهُم من صيدهم، وقال: إني أنا سليمان. فقام إليه بعضُهم فَضربه بعصاً فَشَجَّه، فجعل يغسِل دَمَهُ وهو على شاطىء البحر، فلام الصيادون صاحبَهم الذي ضَرَبه، فقالوا: بئس ما صنعتَ حيثُ ضربته. قال: إنه زَعَمَ أنهُ سُلَيمان. قال: فأعطَوه سَمَكتَينِ مما قد مَذِرَ عندهم، فلم يَشغَلْه ما كان به من الضرب حتى قام إلى شَطِّ البحرِ، فشقَّ بطونهما، فَجَعَلَ يغسِلُ، فوجد خاتَمَه في بَطنِ إحداهما، فأخذه فَلَبِسَه، فَرَدَّ الله عليه بهاءَه ومُلكه، وجاءت الطيرُ حتى حامت عليه، فَعَرَفَ القومُ أنه سليمانُ ـ عليه السلام ـ فقام القومُ يَعتذِرُون مما صَنَعُوا، فقال: ما أحمدُكم على عُذرِكم، ولا ألومُكم على ما كان منكم، كان هذا الأمرُ لا بُدَّ منه. قال: فجاء حتى أَتَى مُلكَه. وأرسل إلى الشيطانِ، فَجِيءَ به فَأَمَرَ به فَجُعِلَ في صُندوق من حديد، ثم أطبقَ عليه، وقُفِلَ عليه بِقُفلٍ، وخَتَمَ عليه بخاتمه، ثم أمر به فَأُلقِيَ في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حبقيق. قال: وسُخِّر له الريحُ، ولم تكن سُخِّرت له قبلَ ذلك، وهو قولُه: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾. وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهدٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال: شيطاناً يقال له: آصِفُ فقال له سُليمان: كَيف تفتِنُون الناسَ؟ قال: أرِني خاتمك أُخبِرْكَ. فلما أعطاه إياه نَبَذَه آصفُ في البحر، فَساح سُليمان وذَهَبَ ملكُه، وقَعَدَ آصفُ على كرسيِّه، ومنَعَه الله تبارك تعالىٰ من نساء سُليمانَ فلم يقربهنَّ ولم يَقْرَبْنَه وأنكَرْنَه. قال: فكان سُليمانُ يستطعِمُ، فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني، أنا سُلَيمان! فَيُكذِّبونه، حتى أعطته امرأةٌ يوماً حُوتاً فجعل يُطَيِّبُ بطنه، فَوَجَدَ خاتَمه في بطنِهِ، فرجع إليه ملكه، وفرَّ آصِفُ، فَدَخَلَ البحرَ فاراً. وهذه كلُّها من الإسرائيليات.

ومِن أنكرِها ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحسين، حدثنا محمَّد بن العلاء وعثمان بن أبي شَيْبَة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عَمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: أراد سُلَيمان أن يدخُلَ الخلاء، فأعطى الجرادةَ خاتمه ـ وكانت الجرادةُ امرأتَه، وكانت أحبَّ نسائِهِ إليه ـ فجاء الشيطان في صورة سُليمان، فقال لها: هاتي خاتَمِي. فأعطته إيَّاه. فلما لَبِسه دانت له الإنسُ والجنُّ والشياطينُ، فَلَمَّا خرجَ سُليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتَمِي. قالت: قد أعطيتُه سُليمان. قال: أنا سُليمان. قالت: كَذَبْتَ، ما أنت بسليمان. فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: أنا سُليمان إلا كَذَّبه، حتى جعل الصِّبيانُ يرمُونه بالحجارة. فلما رأى ذلك سليمان عَرَفَ أنه من أَمْرِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. قال: وقام الشيطانُ يحكُم بين الناس، فلما أراد الله تبارك وتعالىٰ أن يَرُدَّ على سُلَيمان سلطانه ألْقَى في قُلوب الناسِ إنكارَ ذلك الشيطان. قال: فأرسلُوا إلى نساءِ سُلَيمان فقالوا لَهُنَّ: أَتُنْكِرْنَ من سُلَيمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رَأى الشيطان أنْ قد فُطِنَ له ظَنَّ أنَّ أمرَه قد انقطَع، فكتبوا كُتُباً فيها سحرٌ وكُفر، فدفنُوها تحت كرسيِّ سُليمانَ، ثم أثاروها وقَرؤوها على الناس. وقالوا: بهذا كان يظهَرُ سُلَيمان على الناسِ ويَغْلِبُهم، فأكفَرَ الناس سُليمانَ ـ عليه السلام ـ فلم يزالُوا يُكفِرونه، وبعَثَ ذلك الشيطانُ بالخاتم فَطَرحه في البحر، فَتَلَقَّته سمكةٌ فأخذته. وكان سُلَيمانُ يحمِلِ على شَطِّ البحر بالأجر، فجاء رجلٌ فاشترى سَمَكاً فيه تلك السَّمَكَةُ التي في بطنها الخاتَم، فدعا سُلَيمان فقال: تَحمِل لي هذا السمَكَ؟ فقال: نعم. قال: بِكَم؟ قال: بسمكةٍ من هذا السَّمَكِ. قال: فحمل سُلَيمان ـ عليه السلامُ ـ السَّمكَ، ثم انطلق به إلى منزِلِهِ، فلما انتهى الرجلُ إلى بابِهِ أعطاه تلك السمكةَ التي في بطنها الخاتَمُ، فأخذها سُلَيمان فَشَقَّ بطنَها، فإذا الخاتَمُ في جَوفِها، فأخذه فَلَبِسَهُ. قال: فلما لَبِسه دانت له الجنُّ والإنسُ والشياطينُ، وعاد إلى حاله، وهَرَبَ الشيطانُ حتى لَحِقَ بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سُلَيمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فَجَعَلُوا يطلبُونه ولا يَقدِرُون عليه، حتى وَجَدُوه يوماً نائماً، فجاؤوا فَبَنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثَبَ فجعل لا يَثِبُ في مكانٍ من البيتِ إلا انماطَ معه الرَّصاصُ، قال: فَأَخَذُوه فَأَوثقُوه، وجاؤوا به إلى سُلَيمان، فأمر به فَنُقِرَ له تختٌ من رُخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سُدَّ بالنحاس. ثم أمر به فَطُرِحَ في البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، قال: يعني الشيطانَ الذي كان سُلِّطَ عليه. إسنادُه إلى ابن عباسٍ قويٌّ، ولكنَّ الظاهر أنه إنما تَلَقَّاه ابنُ عباس ـ إن صحَّ عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفةٌ لا يَعتقِدُون نُبُوَّةَ سُليمان ـ عليه السلام ـ فالظاهر أنهم يكذِبون عليه. ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإنَّ المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجنيَّ لم يُسَلَّط على نساءِ سليمانِ، بل عَصَمَهُنَّ الله عز وجل منه، تَشريفاً وتكريماً لنبيِّه ﷺ. وقد رُويت هذه القصةُ مُطَوَّلة عن جماعةٍ من السلفِ، كسعيدِ بن المُسَيَّب، وزيدِ بن أَسْلَم، وجماعةٍ آخرين، وكلُّها مُتلقَّاة من قِصَصَ أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب. وقال يحيى بن أبي عَمرو الشَّيباني: وَجَدَ سُليمانُ خاتَمَه في عَسْقَلان[1]، فمشى في خِرْقَةٍ إلى بيتِ المقدِس، تواضعاً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في صفة كُرسيِّ سُليمانَ خَبَراً عَجيباً، فقال: حدثنا أبي ـ رحمه الله ـ حدثنا أبو صالح كاتبُ الليث، أخبرني أبو إسحاقَ المِصرِي، عن كعبِ الأحبارِ: أنه لما فَرَغَ من

(١) عسقلان: بلدة في فلسطين.

حديثِ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ قال له مُعَاوِيَة: يا أبا إسحاقَ، أخبرني عن كُرسيِّ سُلَيمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، وما كان عليه؛ وَمِن أيِّ شيءٍ هُو؟ فقال: كان كرسيُّ سليمان من أنيابِ الفيلة مُفَصّصاً بالدر والياقوتِ والزَبرجَدِ واللُؤلُؤ. وقد جُعِل له درجة منها مُفَصّصاً بالدر والياقوت والزبرجَدِ، ثم أَمَرَ بالكرسي فَحُفَّ من جانبيهِ بالنَّخلِ، نخلٍ من ذَهَبٍ، شماريخُها من ياقُوتٍ وزَبَرْجَدٍ ولُؤلُؤ. وجَعَلَ على رُؤُوس النخل التي عن يَمين الكُرسِيِّ طَواويس من ذَهَبٍ، ثم جَعَلَ على رُؤُوس النخل التي على يسار الكرسي نُسوراً من ذَهَبٍ مُقابلةَ الطواويس. وجَعَلَ على يمين الدرجة الأولى شَجرتَيْ صَنَوْبَر من ذَهَبٍ، وعن يسارها أَسَدَان من ذهبٍ، وعلى رُؤوس الأسدَين عَمُودان من زبرجَدٍ، وجَعَلَ من جانبي الكرسي شَجَرَتَيْ كَرْم من ذَهَب، قد أظلَّتا الكرسيَّ، وجَعَلَ عناقيدهما دُرّاً وياقوتاً أحمَرَ. ثم جُعِلَ فوقَ دَرَج الكرسي أَسَدان عظيمانِ من ذَهَبٍ مُجوَّفان مَحشوَّانِ مسكاً وعَنبَراً، فإذا أرادَ سُليمان أن يصعَدَ على كُرسيِّه استدار الأسدانِ ساعةً، ثم يقعان فَينضحَان ما في أجوافهما من المِسْكِ والعَنْبَرِ حولَ كُرسِيِّ سليمان ـ عليه السلامُ ـ ثم يُوضَع مِنبران من ذَهَب، واحد لخليفته والآخر لرئيس أحبار بني إسرائيل ذلك الزمان، ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبراً من ذهب، يقعد عليها سَبعُون قاضياً من بَنِي إسرائيل وعلمائهم وأهلِ الشرف منهم والطُوْلِ، وَمِن خَلْفِ تلك المنابر كُلِّها خمسةٌ وثلاثون مِنبراً من ذَهَبٍ، ليس عليها أحدٌ، فإذا أراد أن يصعَدَ على كُرسيِّه وَضَعَ قدَمَيه على الدرجة السُّفلى، فاستدار الكرسيُّ كلُّه بما فيه وما عَلَيه، ويبسُط الأسدُ يدَه اليُمنى وينشُر النَّسر جناحَه الأيسرَ، ثم يصعَدُ على الدرجة الثانية، فيبسُط الأسدُ يده اليُسرى، وينشُر النسرُ جناحَه الأيمنَ، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقَعَدَ على الكرسي أخذ نَسرٌ من تلك النسور عَظِيمَ تاج فوضعَه على رأسه، فإذا وضعه على رأسِهِ استدارَ الكرسيُّ بما فيه كما تَدُور الرَّحى المُسرِعة. فقال معاوية: وما الذي يُدِيره يا أبا إسحاق؟ قال: تِنِّين من ذَهَب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عَمِله صخرُ الجِنيِّ، فإذا أحسَّت بدورانه دارت تلك النسورُ والأُسُدُ والطواويسُ التي في أسفَلِ الكرسي دُوْنَ التي أعلاه، فإذا وقف وَقَفن كُلُّهُنَّ مُنكِّسات رؤوسَهنَّ على رأسِ سُلَيمانَ ـ عليه السلام ـ وهو جالِس، ثم يَنضَحْن جَميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سُلَيمان عليه السلام. ثم تتناول حمامةٌ من ذَهَب واقفةٌ على عمودٍ من جَوهرِ التوراةَ فتجعلها في يَدِهِ، فيقرؤها سليمان على الناس[١]. وذَكَر تمام الخبرِ، وهُو غريبٌ جداً. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾، قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحدٍ من بعدِي، أي: لا يصلُح لأحدٍ أن يَسلُبَنيه، كما كان من قضية الجَسَد الذي ألقي على كُرسِيِّه، لا أنه يحجُر على مَن بعده من الناس. والصحيحُ أنه سأل من الله مُلكاً لا يكونُ لأحد من بعده من البشر مثلُه، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديثُ الصحيحةُ من طُرُقٍ عن رسول الله ـ ﷺ ـ . .

[٥٧٥٥] قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حَدَّثَنا إسحاقُ بن إبراهيم، أخبرنا رَوحُ ومحمد بن جَعفر، عن شُعبةَ، عن محمد بن زيادٍ، عن أبي هُريرةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إن عفريتاً من الجنِّ تَفلَّت عَليَّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع عَلَيَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردتُ أن أَربطَه إلى ساريةٍ من سَوَاري المسجِد حتى تُصبِحُوا وتنظُروا إليه كلُّكم، فذكرتُ قولَ أخِي سُلَيمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[٢]. قال رَوحٌ: فَرَدَّه خاسِئاً. وكذا رواه مُسلِمٌ والنَّسائِيُّ، من حديث شُعبَةَ، به.

---

(١) كعب الأحبار هو مصدر من مصادر الإسرائيليات وهذا منها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦١ و١٢١٠ و٣٢٨٤ و٣٤٢٣ ومسلم ٥٤١ وابن حبان ٢٣٤٩ و٦٤٢٠.

[٥٧٥٦] وقال مُسلم في صَحيحِهِ: حدثنا محمد بن سَلَمة المُرَادي، حدثنا عبد الله بن وَهب، عن مُعاوية بن صالح، حدثني رَبيعةُ بن يَزيد، عن أبي إدريسَ الخَوْلاني، عن أبي الدرداءِ قال: قام رسول الله ـ ﷺ ـ يصلّي، فَسمِعناه يقولُ: «أعوذُ بالله منك». ثم قال: «ألعنُك بلعنةِ الله» ـ ثلاثاً ـ وبَسَطَ يَدَه كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سَمِعناك تقولُ في الصلاةِ شيئاً لم نَسْمَعكَ تقولهُ قبل ذلك، ورأيناكَ بسطتَ يَدَك؟ قال: «إنَّ عدوَّ الله إبليسَ جاء بِشِهابٍ من نارٍ لِيجعَلَه في وَجهي، فقلت: أعوذُ بالله منك ـ ثلاثَ مرّاتٍ ـ ثم قلت: ألعنُك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاثَ مراتٍ، ثم أردت أخذَه، والله لولا دعوةُ أخِينا سليمان، لأصبحَ مُوثقاً يلعبُ به وِلْدَانُ أهل المدينة»[١].

[٥٧٥٧] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو أحمدَ، حدثنا مسرّة بن معبد، حدثنا أبو عُبَيدٍ حاجبُ سُلَيمان قال: رأيتُ عطاءَ بنَ يزيدَ اللَّيثي قائماً يُصلِّي، فذهبتُ أَمُرُّ بين يَدَيه فَرَدَّني، ثم قال: حَدَّثني أبو سعيد الخُدريُّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام يُصَلِّي صلاةَ الصبح وهو خَلْفَه، فقرأ فالتبسَتْ عليه القراءةُ، فلما فَرَغَ من صلاتِهِ قال: «لو رأيتُموني وإبليسُ فَأَهويتُ بيدي، فما زلتُ أخنقه حتى وجدتُ بَرْدَ لُعَابه بين إصْبَعَيَّ هاتَين ـ الإبهام والتي تلِيها ـ ولولا دعوةُ أخي سُلَيمان لأصبحَ مَربُوطاً بساريةٍ من سَواري المسجدِ، يتلاعبُ به صِبيانَ المدينةِ، فمن استطاع منكم ألاّ يحولَ بينه وبين القبلةِ أحدٌ فَلْيفعَلْ»[٢]. وقد رَوَى أبو داودَ منه: «من استطاعَ منكم ألاّ يحولَ بينه وبين القبلةِ أحدٌ فَلْيفعَلْ»[٣]، عن أحمدَ بن أبي سُرَيجٍ، عن أبي أحمدَ الزبيريِّ، به.

[٥٧٥٨] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا معاويةُ بن عَمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفَزَارِيُّ، حدثنا الأوزاعيُّ، حَدَّثني ربيعة بن يزيدَ، عن عبد الله الديلَميُّ قال: دخلتُ على عبد الله بن عَمرو، وهو في حائطٍ له بالطائفِ يُقال له الوَهْطُ، وهو مخاصر فتىً من قُرَيش يُزَنّ بِشُربِ الخمر، فقلت: بَلَغني عنك حديثٌ أنه «من شَرِبَ شربة خَمْر لم يَقبلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له توبةً أربعين صَباحاً، وأن الشقيَّ من شَقِيَ في بَطنِ أمِّه، وأنه من أتى بيت المقدسِ لا يَنْهَزه إلاّ الصلاةُ فيه خَرَج من خَطِيئته مثلَ يومَ وَلَدته أُمُّه».

فلما سَمِعَ الفتى ذِكرَ الخَمْرِ اجتذَبَ يَدَه من يَدِهِ، ثم انطلق، فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أُحِلُّ لأحدٍ أن يقولَ عَلَيَّ ما لم أَقُل، سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَن شَرِبَ مِنَ الخَمْرِ شَربةً لم تقبَل له صَلاةٌ أربعينَ صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تُقبَل له صلاةٌ أربعين صباحاً، فإن تاب الله عليه. قال ـ فلا أدري في الثالثة أو الرابعة ـ: فإن عادَ كان حقّاً على الله أن يَسقِيه من رَدغَةِ[٤] الخَبَالِ يومَ القِيامةِ». قال: وسَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إنَّ الله خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلمَةٍ، ثم ألقى عليهم من نُورِهِ، فمن أصابَه مِن نُوره يومئذٍ اهتدَى، ومن أخطأه ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أقولُ: جَفَّ القلم على عِلم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ». وسَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنَّ سُلَيمان ـ عليه السلام ـ سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه ثِنْتَين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سَأله حُكماً يُصادِف حُكمَه، فأعطاه إياه، وسأله مُلكاً لا يَنبغي لأحدٍ من بعده، فأعطاه إياه، وسأله: أيّما رَجُلٍ خَرَجَ مِن بيتِه لا يُريد إلاّ الصلاةَ في هذا المسجدِ

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٥٤٢ والنسائي ٣/١٣ وابن حبان ١٩٧٩ والبيهقي ٢/٢٦٣ و٢٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٨٢ وإسناده حسن، مسرة بن معبد صدوق، وباقي الإسناد رجال الصحيح.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٦٩٩ بإسناد حسن صحيح.

(٤) ردغة الخبال: عصارة أهل النار.

خَرَجَ من خطيئته كيومَ وَلدته أُمُه، فنحنُ نرجُو أن يكُون الله تعالى قد أعطانا إياها»[١].

[٥٧٥٩] وقد رَوَى هذا الفصلَ الأخيرَ من هذا الحديث النسائيُّ وابنُ ماجه من طُرُق، عن عبد الله بن فَيرُوز الدَّيلمي، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ سُلَيمان لما بَنَى بيتَ المقدس سَأَلَ ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ خِلالاً ثلاثاً» . . .[٢] وذكره.

[٥٧٦٠] وقد رُوِيَ من حديث رافع بن عُمَير ـ رضي الله عنه ـ بإسنادٍ وسياقٍ غَريبَين؛ فقال الطَّبَراني: حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيبة العَسقَلانيُّ، حدثنا محمد بن أيُّوب بن سُوَيد، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيمُ بن أبي عَبلَةَ، عن أبي الزاهريَّةِ، عن رافع بن عُمَير قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لداود ـ عليه السلام ـ: ابنِ لي بيتاً في الأرض. فبنى داودُ بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أُمِرَ به، فأوحى الله إليه: يا داودُ، نَصَبت بيتَكَ قبلَ بَيتِي؟! قال: يا ربِّ، هكذا قلت فيما قضيتَ، من مَلَك استأثر. ثم أخذَ في بناءِ المسجد، فلما تَمَّ السورُ سَقَطَ ثلثاه، فَشكَا ذلك إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فقال: يا داودُ، إنَّك لا تصلَح أن تَبني لي بيتاً. قال: وَلم يا ربِّ؟ قال: لِما جَرَى على يَدَيك من الدماءِ. قال: يا ربِّ، أَوَ ما كان ذلك في هَوَاك ومَحَبَّتِكَ؟ قال: بلى، ولكنهم عبادي، وأنا أرحمُهم. فَشَقَّ ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لاتحزَن، فإني سأقضِي بناءَه على يَدَي ابنِك سُلَيمان. فلما مات داوُد أخذَ سُلَيمان في بنائه. فلما تَمَّ قرَّب القرابين، وذَبَحَ الذبائح، وجَمَعَ بَني إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرَى سُرُورَك بِبُنيان بيتي، فَسَلْني أُعطِكَ. قال: أسألك ثَلاثَ خِصَالٍ: حُكماً يُصادِف حُكمَك. ومُلكاً لا ينبغِي لأحدٍ من بعدِي، ومَن أتى هذا البيتَ لا يُريد إلاَّ الصلاةَ فيه خَرَج من ذُنُوبه كيومَ ولدته أمُه. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: أما الثنتان فقد أُعطِيهُما، وأنا أرجُو أن يكونَ قد أُعطِيَ الثالثة»[٣].

[٥٧٦١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الصَّمد، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامي، حدثنا إياسُ بن سَلَمة بن الأكوع، عن أبيه قال: ما سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ دعا إلا استفتَحه «بسبحان ربِّي الأعلى العَلِيِّ الوهَّابِ»[٤]. وقد قال أبو عُبَيد: حدثنا عَليُّ بنُ ثابتٍ، عن جَعفر بن بَرْقانَ، عن صالح بن مِسْمَارٍ قال: لما مات نبيُّ الله داودَ أوحى الله تعالىٰ إلى ابنِهِ سليمان ـ عليهما السلام ـ: أن سَلني حاجَتَك. قال: أسألك أن تجعلَ لي قَلباً يخشاكَ، كما كان قَلْبُ أبي، وأن تجعلَ قلبي يُحبُّك كما كان قلبُ أبي. فقال الله: أرسلت إلى عبدي أسألهُ حاجَتَه، فكانت حاجتُه أن أجعلَ قَلْبَه يخشاني، وأن أجعل قَلبهُ يُحبني. لأهَبَنَّ له مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾، والتي بعدها، قال: فأعطاه ما أعطاه، وفي الآخرة لا حسابَ عليه. هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر في ترجَمَةِ سليمان ـ عليه السلام ـ

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٦، والترمذي ١٨٦٢ والنسائي ٨/ ٣١٦ والحاكم ٤/ ١٤٦، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وللحديث شواهد.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي ٢/ ٣٤ وابن ماجه ١٤٠٨ وابن خزيمة ١٣٣٤٠ والحاكم ٢/ ٤٢٤ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٣) باطل. أخرجه الطبراني ٤٤٧٧ من حديث رافع بن عمير بسند واهٍ بمرة. وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٨٧٦: فيه محمد بن أيوب الرملي، وهو متهم بالوضع اهـ. والمتن باطل.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ٥٤ وإسناده ضعيف، فيه عمر بن راشد اليمامي، قال الذهبي في «الميزان» ٦١٠١: ضعفوه. وقال أحمد: أحاديثه مناكير.

في تاريخه. ورُوِيَ عن بعض السلف أنه قال: بَلَغني عن داود ـ عليه السلام ـ أنه قال: إلهي، كُن لِسُلَيمانَ كما كنتَ لي. فأوحى الله إليه: أن قل لِسُلَيمان أن يكونَ لي كما كنتَ لي أكن له كما كنتُ لك.

قولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾، قال الحسنُ البَصري ـ رَحِمه الله ـ: لما عَقَر سُلَيمان الخيلَ غَضَباً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ عَوَّضه الله ما هو خيرٌ منها وأسرعُ، الريحُ التي غُدُوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ. وقولُه جل وعلا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أي: حيثُ أرادَ من البلادِ.

وقولُه جل جلاله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾، أي: منهُم من هو مُستعمَلٌ في الأبنية الهائلة من مَحاريبَ وتماثيلَ وجِفَانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ راسياتٍ، إلى غير ذلك من الأعمالِ الشاقَّة التي لا يقدِر عليها البشرُ، وطائفةٌ غَوَّاصُون في البحارِ يَستخرِجُون مما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسةِ التي لا تُوجَدُ إلا فيها، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾، أي: مَوثُوقون في الأغلالِ والأكبالِ، ممن قد تَمرَّد وعَصَى وامتنع من العملِ وَأَبى، أو قد أساء في صَنِيعه واعتَدَى. وقولُه عز وجل: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾، أي: هذا الذي أعطيناك من المُلك التامِّ والسلطانِ الكامل كَمَا سألتنا، فأعطِ مَن شِئتَ واحرِمْ مَن شئت، لا حسابَ عليكَ، أي: مَهما فعلتَ فهو جائزٌ لك، احكُم بما شئتَ فهو صَوابٌ.

[٥٧٦٢] وقد ثبت في الصحيح أن رَسُول الله ـ ﷺ ـ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رَسُولاً ـ وهو الذي يفعل ما يُؤمَر به، وإنما هو قاسم يَقسِم بين الناس ما أمرَه الله تعالىٰ به ـ وبين أن يكون مَلكاً نبياً، يُعطِي مَن يشاء ويمنَعُ من يشاء بلا حساب ولا جُناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشَار جبريل عليه السلام، فقال له: تواضع[١]. فاختارَ المنزلةَ الأولى، لأنها أرفعُ قَدْراً عند الله عز وجل وأعلَى منزلةً في المعاد. وإن كانتِ المنزلةُ الثانيةُ وهي النبوَّة مع المُلكِ عظيمةً أيضاً في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا لما ذَكَر تعالى ما أعطىٰ سُليمان في الدنيا نَبَّه على أنه ذُو حَظٍّ عظيمٍ عند الله يومَ القيامة أيضاً، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: في الدار الآخرة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

يذكُر تبارك وتعالى عبدَه ورسولَه أَيُّوبَ ـ عليه السلامُ ـ وما كان ابتلاه تعالى به من الضرِّ في جَسدِهِ ومالِه وَوَلَدِهِ، حتى لم يبقَ من جَسدِهِ مَغْرز إبرَةٍ سَلِيماً سِوَى قلبِهِ، ولم يبقَ له مِن حالِ الدنيا شيءٌ يستعين به على مرضه وما هو فيه، غَيرَ أن زوجته حَفِظت وُدَّه لإيمانها بالله تعالىٰ ورسوله، فكانت تخدُم الناسَ بالأُجرة وتُطعِمه، وتَخدمُه نحواً من ثماني عشرةَ سنة. وقد كان قبل ذلك في مالٍ جزيلٍ وأولادٍ وَسَعَةٍ طائلةٍ من الدنيا، فَسُلِبَ جميعَ ذلك، حتى آل به الحالُ إلى أن ألقي على مَزبَلَةٍ[٢] من مَزابِلِ البَلْدةِ هذه المُدَّة بكَمالِها،

(١) تقدم تخريجه، وهو صحيح بشواهده، لكنه ليس في أحد الصحيحين.

(٢) مثل هذا لا يليق بنبي الله أيوب ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وهو من الإسرائيليات بلا شك، وتقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء.

ورفَضَه القريبُ والبعيدُ سوى زوجته، رَضِي الله عنها، فإنها كانت لا تُفارِقه صَباحاً ومساءً إلا بِسَببِ خِدْمَةِ الناس، ثم تعودُ إليه قريباً. فلما طال المطالُ، واشتدَّ الحالُ، وانتهى القَدَرُ المقدَّر، وتَمَّ الأجلُ المقرَّر، تَضرَّع إلى ربِّ العالمين وإله المُرسَلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية الكريمةِ قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، قيل: بِنُصبٍ في بدني، وعَذابٍ في مالي وولدي. فعند ذلك استجابَ له أرحَمُ الراحمين، وأمره أن يقُوم من مقامه، وأن يركُض الأرض برجلِهِ، ففعل فأَنْبَعَ الله عيناً وأمرَه أن يَغتسِل منها، فأذهبت جميعَ ما كان في بَدَنِهِ من الأذى، ثم أمرَهَ فَضرب الأرض في مكان آخَرَ، فأنبَعَ له عيناً أُخرى وأمرَه أن يشرَبَ منها، فأذهبَت ما كان بِبَاطِنِهِ من السوءِ، وتكامَلَت العافيةُ ظاهراً وَباطناً، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾.

[٥٧٦٣] قال ابنُ جَرير، وابنُ أبي حاتِم جَميعاً: حدثنا يونسُ بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وَهبٍ، أخبرني نافعُ بن يزيد، عن عُقَيلٍ، عن ابنِ شهابٍ، عن أنس بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن نبيَّ الله أيُّوبَ ـ عليه السلامُ ـ لَبِثَ به بلاؤه ثماني عشرةَ سنةً، فرفضَه القريبُ والبعيدُ، إلا رَجُلين كانا من أخَصِّ إخوانه به، كانا يَغدُوان إليه ويَرُوحان، فقال أحدُهما لصاحبه: تَعلَّمْ ـ والله ـ لقد أذنَبَ أيوبُ ذنباً ما أذنبَه أحدٌ من العالمين. قال له صاحبُه: وما ذاك؟ قال مِن ثماني عَشرة سنةً لم يرحَمْه الله فَيَكشِفَ ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجلُ حتى ذكر ذلك له، فقال أيُّوبُ: لا أدري ما تقولُ، غير أنَّ الله يعلم أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتنازَعان، فيذكران الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فأرجعُ إلى بيتي فَأُكَفِّر عنهما، كراهيةَ أن يذكرا الله إلا في حَقٍّ. قال: وكان يخرجُ إلى حاجته فإذا قَضاها أمسكَتِ امرأته بِيَدِهِ حتى يبلُغ، فلما كان ذاتَ يوم أبطأ عليها، وأوحَى الله تعالى إلى أيُّوبَ ـ عليه السلام ـ أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ فاستبطَأَتْهُ، فَتَلَقَّته تنظُر، فأقبل عليها قد أذهَبَ الله ما به من البلاء، وهُوَ على أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أيْ ـ بارَكَ الله فيك ـ هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المبتلَى؟ فوالله على ذلك ما رأيتُ رجلاً أشبَهَ به منكَ إذ كان صحيحاً. قال: فإنِّي أنا هو. قال: وكان له أَندَرانِ، أندرٌ للقمح وأندرٌ للشَّعير، فَبَعَثَ الله سَحَابتين، فلما كانت إحداهُما على أَندَرِ القَمْح أفرغَت فيه الذهَبَ حتى فاضَ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاضَ(١). هذا لفظُ ابنِ جَرِيرٍ، رحمه الله.

[٥٧٦٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاقِ، حدثنا معمَرٌ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينما أَيُّوبُ يغتسِلُ عُرياناً، خَرّ عليه جَرادٌ من ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أيوب يحثُو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيُّوبُ، ألم أكُن أغنيتك عما تَرى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكن لا غِنَى بي عَن بَرَكَتِكَ»(٢). انفرَدَ بإخراجِهِ البخاريُّ، من حديث عبد الرزَّاق، به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾، قال الحسنُ، وقتادةُ: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادَهُ مثلهم معهم.

وقولهُ عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾، أي: به على صَبْرِهِ وثباتِهِ وإنابتِهِ وتواضُعه واستكانَتِهِ، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: لِذوي العقول، ليعلَمُوا أن عاقبةَ الصبرِ الفرجُ والمخرجُ والراحةُ. وقولُه جلَّت عظمته: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيُّوب ـ عليه السلامُ ـ كان قد غَضِب على زوجته، وَوَجَدَ عليها في

(١) تقدم الكلام عليه في سورة الأنبياء.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٩١ وأحمد ٢/ ٣١٤.

أمرٍ فَعلَته. قيلَ(١): باعت ضَفيرتها بخبز فأطعمَتْهُ إياه، فلامَها على ذلك، وحَلَفَ إن شفاه الله ليضربَنَّها مئةَ جلدةٍ. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤُها مع هذه الخِدْمَةِ التامَّة والرحمةِ والشفقةِ والإحسان أن تُقابَلَ بالضربِ، فأفتاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يأخُذَ ضِغثاً ـ وهو: الشِّمراخُ ـ فيه مئةُ قضيبٍ فَيَضربها به ضربةً واحدةً، وقد برَّت يمينُه، وخرج من حِنْثِهِ وَوَفَّى بِنَذْرِهِ، وهذا من الفَرَجِ والمخرج لمن اتَّقى الله تعالىٰ وأنابَ إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدَحه بأنه ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: رَجّاعٌ مُنيبٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣]. وقد استدلَّ كثيرٌ من الفقهاء بهذه الآيةِ الكريمةِ على مسائلَ في الأيمان وغيرِها، وقد أخذوها بمقتضاها. والله أعلم بالصواب.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾

يقولُ تبارك وتعالى مخبراً عن فضائلِ عبادِهِ المرسَلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾، يعني بذلك: العمَلَ الصالحَ والعلمَ النافعَ والقوَّةَ في العبادةِ والبصيرةَ النافذة. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾، يقولُ: أولي القُوَّةِ والعبادةِ، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾، يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهدٌ: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾، يعني: القُوَّة في طاعة الله، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾، يعني: البَصَرَ في الحقِّ. وقال قتادةُ والسُّدي: أُعطوا قُوَّةً في العبادة وبَصَراً في الدين. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾، قال مجاهدٌ: أي جعلناهم يعمَلُون للآخرةِ ليس لهم هَمٌّ غيرُها. وكذا قال السدِّي: ذِكْرُهم للآخرةِ وعَمَلُهم لها. وقال مالكُ بن دينار: نَزَعَ الله تعالىٰ من قلوبِهم حُبَّ الدنيا وذِكْرَها، وأخلَصَهم بحبِّ الآخرةِ وذِكْرِها. وكذا قال عطاء الخراساني. وقال سعيد بن جُبَير: يعني بالدار الجَنَّةَ، يقول: أخلصناها لَهم بِذِكْرِهم لها. وقال في روايةٍ أُخرى: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: عُقبَى الدار. وقال قتادة: كانوا يُذَكِّرون الناس الدارَ الآخرةَ والعملَ لها. وقال ابنُ زيد: جُعِلَ لهم خاصَّةً أفضلَ شيءٍ في الدار الآخرةِ. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾، أي: لمن المُختارين المجتَبين الأخيار، فهم أخيارٌ مختارون. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾، قد تَقدَّم الكلامُ على قَصَصِهم وأخبارِهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقولُه عز وجل: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾، أي: هذا فصلٌ فيه ذِكْرٌ لمن يَتَذكَّر. وقال السدِّي: يعني القرآن العظيم.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

(١) هذا أحد الأقاويل الواردة في ذلك، وكله متلقى عن أهل الكتاب، نسأل الله السلامة.

يُخبِر تعالى عن عبادِهِ المؤمنين السعَداء، أن لهم في الدار الآخرةِ ﴿لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾، وهو: المرجعُ والمُنقلَبُ. ثم فسّره بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جناتِ إقامةٍ مُفَتّحة لهم الأبواب. والألف واللام هاهنا بمعنى الإضافةِ، كأنه يقول: مُفتَّحةً لهم أبوابُها. أي: إذا جاؤوها فُتِحت لهم أبوابُها.

[٥٧٦٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثَوَاب الهَبّاري، حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا عبد الله بن مسلم ـ يعني ابن هُرمز، عن ابن سابط، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ في الجنةِ قَصراً يُقال له: عَدْنٌ، حوله البُروجُ والمُروجُ، لَهُ خمسةُ آلافِ باب، عند كل باب خمسةُ آلاف حِبَرَةٍ، لا يدخله ـ أو: لا يسكُنه ـ إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شَهيدٌ أو إمامٌ عَدْلٌ»[١]. وقد وَرَدَ في ذِكرِ أبواب الجنة الثمانيةِ أحاديثُ كثيرةٌ من وُجوهٍ عَديدةٍ.

وقولُه عز وجل: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، قيل: مُتربِّعين فيها على سُرُرٍ تحتَ الحِجَال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾، أي: مهما طَلَبُوا وَجَدُوا وحضر كما أرادُوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾، أي: من أيِّ أنواعِهِ شاؤوا أتتهُم به الخُدّام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾. ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أي: عن غير أزواجهنّ، فلا يَلْتَفِتْنَ إلى غير بُعُولتهنّ، ﴿أَتْرَابٌ﴾، أي: مُتساوياتٌ في السنّ والعُمُر. هذا معنى قولِ ابن عباس، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كَعْب، والسُّدّي. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾، أي: هذا الذي ذكرنا من صِفَةِ الجنة التي وَعَدها لعباده المتقين، التي يَصِيرُون إليها بعد نُشُورهم وقيامِهم من قُبُورهم وسلامَتِهم من النار. ثم أخبر تبارك وتعالىٰ عن الجنّةِ أنه لا فَرَاغ لها ولا انقضاءَ ولا زوالَ ولا انتهاءَ، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وكقولِهِ جل وعلا: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وكقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]، أي: غير مقطوع. وكقوله عز وجل: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

لَمّا ذَكَرَ تبارك وتعالى مآل السعَداء ثَنّى بذكر حَالِ الأشقياءِ ومَرْجعهم ومآبهم في دار مَعَادِهم وحِسَابِهم، فقال عز وجل: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾، وهم: الخارجون عن طاعةِ الله عز وجل، المخالِفُون لرسُلِ الله، ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾، أي: لَسُوءَ مُنقلَبٍ ومَرْجِعٍ. ثم فَسّره بقوله جل وعلا: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يدخلونها فَتَغمُرهم من جميع جَوانبهم، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾، أما الحميمُ فهو الحارُّ الذي

---

(١) إسناده ضعيف. فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٦٠٢ وقال: ضعفه ابن معين، وقال: كان يرفع أشياء. وقال أحمد: صالح الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن المديني: كان ضعيفاً ضعيفاً عندنا. وكذا ضعفه النسائي اهـ والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو.

قد انتهى حَرُّه، وأما الغَسّاق فهو ضِدُّه، وهو الباردُ الذي لا يُستطاعُ مِن شِدَّة بَرْدِهِ المُؤلم. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾، أي: وأشياءُ من هذا القبيل، الشيءُ وضِدُّه يُعاقَبون بها.

[٥٧٦٦] قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا حسن بن موسى، حدثنا ابنُ لَهيعةَ، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثَم، عن أبي سَعيدٍ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غَسّاق يُهْرَاقُ في الدنيا لأنْتَنَ أهْلَ الدُّنيا»[١]. ورواه الترمذيُّ، عن سُوَيد بنُ نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عَمرو بن الحارث، عن دَرّاجٍ، به. ثم قال: «لا نَعرِفه إلاّ من حَدِيث رِشْدِين». كذا قال: وقد تَقدَّم مِن غَيرِ حَدِيثه[٢]. ورواه ابنُ جَرير، عن يونُس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عَمرو بن الحارث، به.

وقال كعبُ الأحبارِ: غَسّاق: عَيْنٌ في جَهنَّم، يَسِيل إليها حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَة من حَيَّةٍ وعقربٍ وغير ذلك، فيستنقع، فيُؤتَى بالآدمي فيُغمَس فيها غَمْسَةً واحِدةً، فيخرُج وقد سَقَطَ جِلْدُهُ ولَحمُه عن العِظامِ، ويَتَعَلَّق جلدُه ولحمه في كعبيه وعَقِبيه، ويَجرُّ لحمه كما يَجُر الرجُل ثوبَه. رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسنُ البصريُّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾، ألوانٌ من العذاب. وقال غيرُه: كالزَّمهرير، والسَّمُوم، وشُربِ الحميم، وأكْلِ الزقوم، والصعود والهوِي، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة والمتخالفة، والجَميعُ مما يُعذَّبون به، ويُهانُون بسببه.

وقولُه عز وجل: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾، هذا إخبارٌ عن قِيلِ أهلِ النارِ بعضِهم لبعضٍ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، يعني بدلَ السلام يَتلاعَنُون ويَتكاذبُون، ويكفرُ بعضُهم ببعض، فتقول الطائفةُ التي تدخُل قَبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخَزَنةِ من الزَّبانِيَةِ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، أي: داخلٌ، ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾، أي: لأنهم من أهل جهنَّم. ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾، أي: فيقولُ لهم الداخلُون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، أي: أنتم دَعَوتُمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، أي: فبئس المنزلُ والمستقرُّ والمصيرُ. ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: لِكلٍّ منكم عَذابٌ بِحَسَبِهِ. ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يَعتقِدُون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زَعْمِهم، قالوا: ما لنا لا نراهم مَعَنا في النار؟!. قال مجاهدٌ: هذا قولُ أبي جَهلٍ، يقول: ما لي لا أرى بلالاً، وعمّاراً، وصُهَيباً، وفلاناً وفلاناً. وهذا مَثَلٌ ضُرِبَ، وإلاَّ فَكُلُّ الكفارُ هذا حالُهم، يَعتقِدون أن المؤمنين يدخلُون النار، فلما دخل الكفارُ النارَ افتقدُوهم فلم يَجدُوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾، أي: في الدنيا، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، يُسلُّون أنفسَهم بالمحال، يقولون: أو لَعلَّهم مَعنا في جَهنَّم، ولكن لم يَقع بصرُنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدَّرجات العالياتِ، وهو قولُه عز وجل: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ إلى قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٨٣ والترمذي ٢٥٨٤، وإسناده ضعيف، ابن لهيعة واهٍ، وكذا درّاج، وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم. وتقدم نحو هذا.

(٢) أي من حديث حسن بن موسى عن ابن لهيعة.

وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٩]. وقولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾، أي: إنَّ هذا الذي أخبرناكَ به يا مُحمَّدُ، مِن تخاصُمِ أهلِ النارِ بعضِهم في بعضٍ، ولَعْنِ بعضِهم لبعضٍ، لَحَقٌّ لا مِرْيَة فيه ولا شَكَّ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يقولَ للكفارِ بالله المشركين به المُكَذّبين لرسوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾، لستُ كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: هو وحدَه قد قَهَرَ كلَّ شيءٍ وغَلَبَهُ. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: هو مالكُ جميعِ ذلك ومُتَصَرِّفٌ فيه، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: غفَّارٌ مع عِزَّتِهِ وعَظَمَتِهِ. ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾، أي: خبرٌ عَظيمٌ وشأنٌ بليغٌ، وهو إرسالُ الله تعالىٰ إيايَ إليكم، ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾، أي: غافِلُون. قال مجاهدٌ، وشُرَيح القاضي، والسدّي في قولِهِ عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾، يعني: القرآن. وقولُه تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: لولا الوحيُ من أين كنتُ أدرِي باختلافِ الملأ الأعلى؟ يعني في شأنِ آدَمَ وامتناعِ إبليسَ من السجودِ له، ومحاجَّتِهِ رَبَّه في تفضِيله عليه.

[٥٧٦٧] فأمَّا الحديثُ الذي رواه الإمام أحمدُ حيث قال: حَدَّثنا أبو سعيدٍ مولى بني هاشم، حدثنا جَهْضَم اليماميّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن أبي سَلَّام، عن أبي سَلَّام، عن عبد الرحمن بن عائشٍ، عن مالك بن يَخَامر، عن مُعاذٍ ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: احتبسَ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ ذاتَ غداةٍ عن صَلاةِ الصبح، حتى كدنا نتراءىٰ قَرن الشمسِ. فَخرَجَ رسول الله ـ ﷺ ـ سريعاً، فَثَوّب بالصلاةِ فَصَلَّى، وتَجَوَّزَ في صلاته، فلما سلم قال: «كَمَا أنتم، على مَصَافّكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إني سَأحدّثكم ما حَبَسني عنكم الغداةَ، إني قمتُ من اللّيل فصليتُ ما قُدِّر لي، فَنَعَستُ في صلاتي حتى استيقظتُ، فإذا أنا بربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ في أحسن صُورةٍ، فقال: يا محمدُ، أتدري فيم يختصِمُ الملأ الأعلى؟ قلتُ: لا أدرِي يا رَبِّ ـ أعادها ثلاثاً ـ فرأيتُه وضَعَ كَفَّه بين كَتِفي حتى وَجَدتُ بَرْدَ أناملِهِ بين صَدْرِي، فَتَجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعَرَفتُ، فقال: يا محمدُ، فيم يختصِمُ الملأ الأعلى؟ قلت: في الكَفَّارات. قال: وما الكَفَّارات؟ قلت: نقلُ الأقدامِ إلى الجُمُعات، والجلوس في المساجد بعد الصَّلواتِ، وإسباغ الوضوء عند الكَرِيهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعامُ الطعام، ولينُ الكلامِ، والصلاةُ والناسِ نيامٌ. قال: سَلْ. قلتُ: اللهُمَّ، إني أسألك فعلَ الخيرات، وتركَ المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي وترحَمني، وإذا أردتَ فتنةً بقوم فَتَوفَّني غير مفتونٍ، وأسألك حُبَّك وحُبَّ مَن يُحبُّك، وحُبَّ عَمَلٍ يُقرِّبُني إلى حُبِّك». وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنها حقٌّ فادرسُوها وتَعلَّموها»[(١)]. فهو حديثُ المنام المشهور، ومَن جعله يَقَظة فقد غلط، وهو في السنَن من طُرُق. وهذا الحديثُ بعينِه قد رَواه الترمذيُّ من حَديث جَهْضَم بن عبد الله اليَمَاميِّ به. وقال: «حسنٌ صحيحٌ».

وليس هذا الاختصام هو الاختصامُ المذكور في القرآن؛ فإن هذا قد فُسِّر، وأما الاختصامُ الذي في القرآن فقد فُسِّر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٢٤٣، وهو حديث حسن بشواهده. انظر تفصيل ذلك في تفسير القرطبي.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾
فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن
تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

هذه القصةُ ذَكرها الله ـ تعالى ـ في سُورَةِ البقرة، وفي أول سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، و سبحان، و الكهف، وهاهنا. وهي أن الله ـ سُبحانه ـ أعلَمَ الملائكةَ قبل خَلْق آدَمَ ـ عليه السلامُ ـ بأنه سيخلقُ بشراً من صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مسنُونٍ، وتقدَّم إليهم بالأمر متى فَرَغ من خَلْقِهِ وتَسْوِيَتِهِ فَلْيَسْجدُوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً، وامتثالاً لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. فامتثل الملائكةُ كلهم ذَلكَ سوى إبليس، ولم يكُن منهم جنساً؛ كان من الجنِّ فخانه طبعُه وجِبِلَّتُه أحوجَ ما كان إليه، فاستنكف عن السجودِ لآدَمَ، وخاصَمَ ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه، وادَّعى أنه خيرٌ من آدم؛ فإنه مخلوقٌ من نارٍ وآدمُ خُلِقَ من طينٍ، والنارُ خيرٌ من الطين في زَعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالَفَ أمرَ الله تعالىٰ، وكفَرَ بذلك، فأبعدَه الله عز وجل وأرغَمَ أنفه، وطَرَده عن باب رَحمَتِهِ ومحلِّ أُنسِهِ، وحَضْرَةِ قُدسِهِ، وسَمَّاه إبليس، إعلاماً له بأنه قد أبْلَسَ من الرحمة، وأنزله من السماء مَذموماً مَدْحوراً إلى الأرض، فَسَألَ الله النَّظِرَةَ إلى يوم البعثِ، فأنظره الحليمُ الذي لا يَعْجَل على مَن عَصاه. فلما أمِنَ الهلاك إلى يوم القيامة تَمَرَّدَ وطَغَى، وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ كما قال عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المُستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥]. وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قرأ ذلك جماعةٌ منهم مجاهد برفع (الحقّ) الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحقُّ، والحقَّ أقول. وفي رواية عنه: الحقُّ مني، وأقول الحقَّ. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدِّي: هو قسم أقسم الله به. قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وكقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ
بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركين: ما أسألُكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تُعطُونيهِ من عَرَضِ الحياة الدنيا، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، أي: وما أريد على ما أرسلني الله تعالىٰ به ولا أبتغي زيادةً عليه، بل ما أُمِرتُ به أدَّيتُه لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجهَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والدارَ الآخرة.

قال سُفيان الثوريُّ، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسرُوقٍ قال: أتينا عبدَ الله بنَ مسعودٍ قال: يا أيُّها الناسُ، مَن عَلِم شيئاً فَلْيقُل به، ومَن لا يعلم فَلْيقُل: الله أعلَمُ، فإنَّ من العلم أن يقولَ الرجلُ لما

لا يعلم: الله أعلَمُ، فإن الله لنبيّكم ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾. أخرجاه من حديث الأعمش، به. وقولُه تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، يعني: القرآن ذكر لجميعِ المُكلّفين من الإنس والجنّ. قاله ابن عباس. ورواه ابنُ أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قَيس، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: الجِنُّ والإنسُ. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾، أي: خَبَره وصِدْقَه ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾، أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموتِ. وقال عكرمة: يعني يومَ القيامةِ. ولا منافاةَ بين القولَين؛ فإنَّ مَن مَات فقد دَخَلَ في حكم القيامة. وقال قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾، قال الحسن: يابنَ آدم، عندَ الموتِ يأتيكَ الخبرُ اليقين.

## آخر تفسير سورة «ص» ولله الحمدُ والمنّةُ

# سورة الزمر

ترتيبها ٣٩ — آياتها ٧٥

## وهي مكية

[٥٧٦٨] قال النسائيُّ: حدثنا محمد بن النَّضر بنُ مُساور، حدثنا حمّاد، عن مَرْوان أبي لُبابَة، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يصومُ حتى نقولَ: ما يُرِيد أن يُفطِرَ. ويُفطِرُ حتى نقولَ: ما يُرِيد أن يَصُومَ. وكان يقرأ في كلِّ ليلةٍ بني إسرائيل والزمر(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

يُخبر تعالى أنَّ تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآنُ العظيمُ ـ من عِنده ـ تبارَكَ وتعالى ـ فهو الحقُّ الذي لا مِريةَ فيه ولا شكَّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾، أي: المنيع الجناب، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾، أي: في أقواله وأفعالِه، وشرْعه وقدَرِه. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾، أي: فاعبُدِ الله وحدَه لا شريكَ له، وادعُ الخلْقَ إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلُح العبادةُ إلا له وَحْدَه، وأنه ليس له شريكٌ ولا عَدِيلٌ ولا نَدِيدٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾، أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العاملُ لله وحده، لا شريك له. وقال قتادةُ في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾: شهادةُ أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عُبّادِ الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، أي: إنما يحمِلُهم على عبادتهم لهم أنهم عَمَدوا إلى أصنام اتخذُوها على صُوَرِ الملائكةِ المُقرَّبين في زعمهم، فَعَبدُوا تلك الصُّوَر تنزيلاً لذلك مَنزلةَ عبادتهم الملائكةَ، ليشفَعُوا لهم عند الله في نَصْرِهم ورزْقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعادُ فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادةُ، والسُّدِّيُّ، ومالكٌ عن زيد بن

(١) جيد. أخرجه النسائي ٤٦٤ في «التفسير» والترمذي ٢٩٢٠ وأحمد ٦/٦٨ و١٢٢، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، والصواب أنه حسن صحيح.

أسلم، وابنُ زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، أي: ليشفعُوا لنا، ويُقرِّبونا عندَه منزلةً. ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حَجّوا في جاهليتهم: (لبيكَ لا شريكَ لك، إلا شريكاً هو لَكَ، تملِكه وما مَلَك). وهذه الشبهةُ هي التي اعتمدَها المشركون في قَدِيم الدهر وَحدِيثه، وجاءتهم الرسلُ ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليهم أجمعين ـ بِرَدِّها والنهي عنها، والدعوةِ إلى إفرادِ العبادةِ لله وحدَه لا شريكَ له، وأن هذا شيءٌ اخترعَه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رَضِيَ به، بل أبغضه ونَهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأخبَرَ أن الملائكة التي في السمواتِ من المُقرَّبين وغيرهم، كُلُّهم عبيدٌ خاضعون لله، لا يشفعُون عنده إلا بإذنِه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يَشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبَّه الملوك وأبَوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقولُه عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سَيَفصِلُ بين الخلائق يوم مَعادِهم، ويجزي كُلَّ عاملٍ بعَملِه، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١]. وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، أي: لا يُرشِدُ إلى الهداية مَن قَصْدُه الكذبُ والافتراءُ على الله تعالىٰ، وقلبه كَفّار بآياته وحُجَجه وبراهينه. ثم بَيَّن تعالى أنه لا وَلَدَ له كما يزعُمه جَهَلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العُزَير وعيسى، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: لكان الأمرُ على خلافِ ما يزعُمون. وهذا شرطٌ لا يلزمُ وقوعُه ولا جوازُه، بل هو محالٌ، وإنما قَصَد تجهيلهم فيما ادَّعوه وزعَموه، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرطِ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم. وقولُه تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: تعالى وَتنزَّه وتقدَّس عن أن يكون له ولدٌ، فإنه الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الذي كلُّ شيءٍ عبدٌ لَديه، فَقِير إليه، وهو الغنيُّ عما سِواه، الذي قد قَهَر الأشياء فدانت له وذَلَّت وخَضَعَت. تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

يُخبر تعالى أنه الخالقُ لما في السموات والأرضِ، وما بين ذلك من الأشياءِ، وأنه مالكُ الملكِ المُتصرِّف فيه، يُقلِّب ليلَه ونهارَه، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾، أي: سَخرهما يجريان متعاقِبين لا يَقِرّان، كل منهما يَطلُب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]. هذا معنى ما رُوي عن ابن عباس، ومجاهدٍ وقتادَة، والسدي، وغيرهم. وقولُه عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عند الله تعالىٰ، ثم تنقضي يومَ القيامة. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: مع عزَّتِهِ وعَظمته وكبريائِه هو غفّارٌ لمن عَصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله جلت عظمته: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: خلقكم مع اختلافِ أجناسِكم وأصنافِكم والسنتِكم وألوانكم من نفسٍ واحدةٍ، وهو آدمُ ـ عليه السلام ـ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهي حواءُ ـ عليهما السلام ـ، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، أي: وخلَق لكم من ظهور الأنعام ثمانيةَ أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣ و١٤٤]. وقولُه عز وجل: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أي: قدَّركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، أي: يَكونُ أحدُكم أولاً نطفةً، ثم يَكون عَلَقةً، ثم يَكون مُضغةً، ثم يُخلقُ فيكونُ لحماً وعظماً وعَصَباً وعروقاً، ويُنفخ فيه الروحُ فيصيرُ خَلْقاً آخر، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقولُه تعالىٰ: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾، يعني: ظلمةَ الرَّحِم، وظلمةَ المَشِيمةَ ـ التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمةَ البطنِ. كذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو مالكٍ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وابنُ زيد. وقولُه جل جلاله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أي: هذا الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما وخَلَقَ آباءكم وإيَّاكم، هو الرب له الملكُ والتصرُّفُ في جميع ذلك، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له وحدَه لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، أي: فكيف تعبدُون مَعه غيره؟ أين يُذهَبُ بعقُولِكم؟!

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

يقولُ تبارك وتعالىٰ مخبراً عن نفسه تبارك وتعالىٰ: أنه الغنيُّ عمَّا سِواه من المخلوقاتِ، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

[٥٧٦٩] وفي صحيح مسلم: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكم ما نَقص ذلك من ملكي شيئاً»(١).

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، أي: لا يحبُه ولا يَأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، أي يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفسٍ، بل كُلُّ مطالِبٌ بأمرِ نفسِه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: فلا تخفى عليه خافيةٌ. وقولُه عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، أي: عند الحاجةِ يتضرع ويَستغيثُ بالله وحدَه لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾، أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاءَ والتضرُّع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ

(١) تقدم تخريجه.

عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي: في حال العافية يُشرِك بالله، ويجعَل له أنداداً. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أي: قُل لمن هذه حالُه وطريقتُه ومسلكُه: تَمتَّع بِكُفرك قَليلاً. وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

يقولُ تعالى: أمَّن هذه صفتُه كَمَن أشرَكَ بالله وجَعَلَ له أنداداً؟ لا يَستَوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال تبارك وتعالىٰ هاهنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾، أي: في حال سجُوده وفي حالِ قِيامه. ولهذا استدلَّ بهذه الآية مَن ذهب إلى أن القُنوت هو الخشُوع في الصلاة، ليس هو القيامَ وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال الثوريُّ، عن فِراسٍ، عن الشعبيِّ، عن مسروق، عن ابن مَسعُودٍ أنه قال: القانتُ: المطيعُ لله عز وجل ولرسوله ﷺ. وقال ابن عباس، والحسن، والسديُّ، وابنُ زيد: آناءَ الليل: جَوْفَ الليل. وقال الثوريُّ، عن منصورٍ: بلغنا أن ذلك بين المغربِ والعشاءِ. وقال الحسنُ، وقتادةُ: آناءَ الليل: أوَّله وأوسطَه وآخرَه. وقولُه تعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، أي: في حالِ عبادته خائفٌ راجٍ، ولا بُدَّ في العبادةِ من هذا وهذا، وأن يكون الخوفُ في مُدَّةِ الحياةِ هو الغالبَ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فَلْيَكُن الرجاءُ هو الغالب عليه، كما قال الإمامُ عَبْدُ بن حُمَيد في مُسنَده:

[٥٧٧٠] حَدَّثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفرُ بن سُليمان، حَدَّثنا ثابتٌ، عن أنس قال: دخلَ رسول الله ـ ﷺ ـ على رجُلٍ وهو في الموت، فقال له: «كيفَ تَجدُك؟» فقال: أرجُو وأخافُ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي يرجُو، وأمَّنه الذي يخافُه»[(١)]. ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ في اليوم والليلة، وابن ماجه من حديث سَيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سُليمان، به. وقال الترمذيُّ: «غريبٌ. وقد رواه بعضهم عن ثابت[(٢)]، عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً».

وقال ابنُ أبي حاتم، حدثنا عُمرَ بن شَبَّة، عن عَبِيدةَ النميريِّ، حدثنا أبو خَلَف عبد الله بن عيسى الخزّاز، حدثنا يحيى البَكّاء، أنه سمِع ابنَ عُمر رضي الله عنهما قرَأ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾. قال ابن عمر: ذاك عثمانُ بن عَفّانَ[(٣)] ـ رضي الله عنه ـ. وإنما قال ابنُ عُمر

---

(١) جيد. وإسناده ضعيف لضعف يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني، لكن توبع عند الترمذي ٩٨٣ والنسائي في «اليوم والليلة» ١٠٧٠ وابن ماجه ٤٢٦١ من حديث أنس ورجاله رجال مسلم، إلا أن جعفر بن سليمان تكلم فيه غير واحد، مع رواية مسلم له في الأصول. ومع ذلك جوده النووي كما في «إتحاف السادة» ٩/ ١٦٩، وورد مرسَلاً كما ذكر الترمذي عن ثابت، وليس فيه ذكر أنس. وورد مرسلاً من وجه آخر أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٠٢ عن ثابت عن عبيد بن عمير. وورد ١٠٠٣ عن ابن المسيب، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قاله لعمر. ومراسيل ابن المسيب جياد. فالحديث قوي إن شاء الله، والله الموفق.

(٢) زيد في كافة النسخ «عن أنس» وهو إما سبق قلم من المصنف ـ رحمه الله ـ، أو إقحام من بعض النساخ. ولو ذكر أنس في هذه الرواية لما كان مرسلاً. فتنبه، والله الموفق.

(٣) ضعيف جداً. فيه عبد الله بن عيسىٰ، وهو متروك.

ذلك لكثرة صلاةِ أمير المؤمنين عُثمانَ بالليل وقراءتِه، حتى إنه رُبَّما قرأ القرآن في ركعة[١]، كما رَوَى ذلك أبو عُبَيدٍ عنه ـ رضي الله عنه ـ. وقال الشاعر:

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ     يُقَطِّعُ اللَّيلَ تَسْبِيحاً وقُرآنا[٢]

[٥٧٧١] وقال الإمامُ أحمد: كَتَبَ إليَّ الربيع بنُ نافع: حدثنا الهيثَمُ بن حُمَيد، عن زيد بن واقد، عن سُلَيمانَ بن مُوسى، عن كثير بن مُرَّةَ، عن تميم الداريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن قرأ بمئةِ آيةٍ في ليلةٍ كُتِبَ له قنوتُ ليلة»[٣] وكذا رواه النَّسائيُّ في «اليوم والليلة» عن إبراهيمَ بنِ يعقوبَ. عن عبد الله بن يوسُفَ والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حُمَيدٍ، به. وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: هل يَستوي هذا والذي قبله ممن جعَل لله أنداداً لِيُضِلَّ عن سَبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: إنما يعلَمُ الفَرق بين هذا وهذا مَن له لُبٌّ وهو العقلُ؛ والله أعلم.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بالاستمرارِ على طاعتِه وتقواه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العملَ في هذه الدنيا حَسَنةٌ في دُنياهم وأُخراهم. وقولُهُ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، قال مجاهد: فهاجِرُوا فيها، وجاهِدُوا، واعتزِلُوا الأوثان. وقال شَرِيك، عن منصور، عن عطاءٍ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، قال: إذا دُعِيتُم إلى المعصية فاهرُبوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الأوزاعيُّ: ليس يُوزَنُ لهم ولا يُكالُ لهم، إنما يُغرَفُ لهم غَرْفاً. وقال ابن جُرَيج: بلغني أنه لا يُحسَب عليهم ثوابُ عَمَلِهم قطُّ، ولكن يُزادُون على ذلك. وقال السدِّيُّ: ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعني في الجنة. وقولُهُ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾، أي: إنما أُمِرتُ بإخلاص العبادة لله وحدَه لا شريكَ له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾، قال السدِّيُّ: يعني من أُمَّتِه ـ ﷺ ـ.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ، وأنت رسولُ الله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾، وهو يومُ القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريضُ بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا

---

(١) لا يصح مثل هذا، وهو مخالف للسنة.

(٢) الشمط: بياض الرأس يخالط سواده.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٣ والنسائي في «اليوم والليلة» ٧٢٢ بإسناد غير قوي لأجل سليمان بن موسى، فقد وثقه قوم وضعفه آخرون.

﴿شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، وهذا أيضاً تهديدٌ وتبرٍ منهم، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كلُّ الخُسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: تفارقُوا فلا التقاءَ لهم أبداً، سواءٌ ذهَب أهلُوهم إلى الجنة وقد ذهَبُوا هم إلى النار، أو أن الجميع أُسكِنُوا النارَ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سُرورَ، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: هذا هو الخسران البَيِّنُ الظاهرُ الواضحُ. ثم وَصَف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، كما قال عز وجل: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥]. وقولُهُ جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾، أي: إنما يَقصُّ خَبَر هذا الكائنِ لا محالةَ لِيُخوِّفَ به عبادَه، لينزجِرُوا عن المحارم والمآثم. وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾، أي: اخشَوا بَأسي وسَطوتي، وعذابي ونِقمتي.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

قال عبدُ الرحمن بنُ زيد بن أسلَمَ، عن أبيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾، نزلت في زيدِ بن عمرو بن نُفَيل، وأبي ذَرٍّ، وسلمانَ الفارسي رضي الله تعالىٰ عنه. والصحيحُ أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممَّن اجتنَب عبادةَ الأوثانِ، وأنابَ إلى عبادةِ الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ثم قال عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، أي: يَفهمُونه ويعملُون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: المتَّصِفون بهذه الصفةِ هُم الذين هَداهُم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: ذَوُو العُقُولِ الصَحيحةِ، والفِطَرِ المستقيمة.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

يقولُ تعالى: أفمن كَتَب الله أنه شَقِيّ تَقدِرُ تُنقِذُهُ مما هُو فيه من الضلالِ والهَلاك؟ أي: لا يهديه أحدٌ من بعدِ الله، لأنه مَن يُضلِل الله فلا هادِيَ له، ومن يَهدِه فلا مُضِلَّ له. ثم أخبر عز وجل عن عبادِه السعداء أنهم لهم غُرَفٌ في الجنة، وهي القصورُ الشاهقةُ، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، أي: طِباقٌ فوقَ طباقٍ، مَبنِيَّاتٌ مُحكَماتٌ مُزخرفاتٌ عالياتٌ.

[٥٧٧٢] قال عبدُ الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عَبّادُ بن يعقوبَ الأسدِيُّ، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بنِ سَعدٍ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ في الجنةِ لغرفاً يُرى بطونُها من ظُهورها، وظُهورها من بُطونِها». فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطابَ الكلامَ، وأطعَم الطعامَ، وصلى بالليلِ والناسُ نيامٌ»(١). وَرواه الترمذيُّ من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقال: «حسنٌ غَريب، وقد تكلَّم بعضُ أهل العلمِ فيه من قِبَل حِفظِه».

[٥٧٧٣] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاقِ، حدثنا معمرٌ، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن مُعانِق ـ

---

(١) تقدم في سورة التوبة، آية: ٧٢. وللحديث شواهد كما ترى فهو صحيح.

أو: أبي مُعَانِق ـ عن أبي مالك الأشعريّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجنةِ لغرفةً يُرى ظاهرُها مِن باطِنها، وباطنُها من ظاهِرها، أعدَّها الله تعالىٰ لمن أطعَمَ الطعامَ، وألانَ الكلامَ، وتابع الصيامَ، وصَلَّى والناس نيام»(١). تفرَّد به أحمدُ من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعري، عن أبي مالك، به.

[٥٧٧٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبة بن سَعيد، حدثنا يعقوبُ بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، عن سهلِ بن سعدٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أهلَ الجنةِ ليتراءَون الغرفَةَ في الجنَّةِ كما تَراءَون الكوكَبَ في أفق السماء». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بنَ أبي عياشٍ، فقال: سَمِعت أبا سعيدٍ الخدريّ يقول: «كما تراءون الكوكب الدرّيّ في الأفق الشرقي أو الغربي»(٢). أخرجاه في الصَّحِيحين، من حديثِ أبي حازمٍ.

[٥٧٧٥] وأخرجاه أيضاً في الصحيحَينِ من حديث مالك، عن صفوانَ بن سُليمَ، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سَعِيد، عن النبي ـ ﷺ ـ.(٣)

[٥٧٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرني فُلَيح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يَسار، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أهلَ الجنة ليتراءَون في الجَنَّةِ أهلَ الغُرَف كَما تَراءَون الكوكبَ الدرّي الغاربَ في الأفق الطالع في تفاضُل أهلِ الدَّرَجاتِ». فقالوا: يا رسولَ الله! أولئك النبيُّون؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوامٌ آمنوا بالله وصَدَّقُوا الرسُلَ»(٤). ورواه التِّرمذيُّ عن سُويد، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به، وقال: «حسن صحيح».

[٥٧٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا: حدثنا زُهَير، حدثنا سَعدٌ الطائي، حدثنا أبو المُدَلَّه ـ مولى أم المؤمنين ـ أنه سَمِعَ أبا هُرَيرة يقولُ: قلنا: يا رسولَ الله، إنا إذا رأيناك رَقَّت قلُوبنا، وكنَّا من أهل الآخرةِ، فإذا فارقناكَ أعجبتنا الدُّنيا وشَمِمْنَا النساءَ والأولادَ. قال: «لو أنكم تكونُون على كلِّ حالٍ على الحالِ التي أنتُم عليها عندي لصافَحَتْكُم الملائكةُ بأكُفِّهم، ولَزارتكم في بُيوتكم. ولو لم تُذنِبُوا لجاءَ الله بقوم يُذنبون كي يغفِر لهم». قلنا: يا رسولَ الله، حَدِّثنا عن الجَنَّة، ما بناؤُها؟ قال: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَةٍ، ومِلَاطها المسكُ الأذفَرُ(٥)، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوتُ، وتُرابها الزعفرانُ، مَن يدخلها ينعَم ولا يَبْأس، ويخلُدُ ولا يموتُ، لا تبلَى ثيابُه ولا يفنَى شبابُه. ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتُهم: الإمامُ العادلُ، والصائمُ حتى يُفطِرَ، ودعوةُ المظلومِ تُحملُ على الغَمَام، وتُفتَح لها أبوابُ السمواتِ، ويقولُ الربُّ: وعِزَّتي لأنصرنَّكَ ولو بَعد حين»(٦). وروى الترمذيُّ، وابنُ ماجه بعضَه، من حديث سَعد بن أبي مجاهد الطائي ـ وكان ثقةً ـ عن أبي المُدَلَّه ـ وكان ثقةً ـ به. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، أي: تُسلَكُ الأنهارُ بين خِلالِ ذلك، كما شاؤوا وأين أرادوا، ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾، أي: هذا الذي ذكرناه وَعْدٌ وعدَه الله عبادَه المؤمنين ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٣ بإسناد لين لأجل ابن معانق، لكن للحديث شواهد وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٥٥ ومسلم ٢٨٣٠ وأحمد ٥/ ٣٤٠ وابن حبان ٢٠٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١.

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٥٥٦ وأحمد ٢/ ٣٣٩ وإسناد الترمذي صحيح.

(٥) الملاط: ما يوضع بين اللبنتين أثناء البناء. والمسك الأذفر: الجيد إلى الغاية.

(٦) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٥٥٦ والطيالسي ٢٥٨٣ وابن المبارك ١٠٧٥ وأحمد ٢/ ٣٠٥ وإسناده ضعيف، أبو المدلّه لا يعرف قاله الذهبي، لكن المتن صحيح، لصدره شاهد عند مسلم ٢٧٥٠ ولباقيه شواهد تقدمت.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُولَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

يُخبر تعالى أنّ أصل الماء في الأرض من السماءِ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، فإذا أُنزِلَ الماءُ من السماء كَمَنَ في الأرض، ثم يَصرِفه تعالى في أجزاءِ الأرضِ كما يشاءُ، ويُنبِعهُ عُيوناً ما بين صغارٍ وكبارٍ، بِحَسبِ الحاجةِ إليها. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا أبو قُتَيبة عُتبةُ بن يَقْظَان، عن عكرِمَة، عن ابنِ عَبّاسٍ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال: ليس في الأرض ماءٌ إلا نَزَل من السماء، ولكن عُروقٌ في الأرض تُغيِّره، فذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فمن سَرَّه أن يعودَ الملحُ عذباً فليُصعِدْه. وكذا قال سَعيد بن جُبَير، وعامر الشّعبي أنّ كلَّ ماءٍ في الأرض فأصلُه من السماءِ. وقال سَعيد بن جُبَير: أصلُه من الثّلج. يعني أن الثلج يَتراكم على الجبالِ، فيسكُن في قرارِها، فتنبُع العيونُ من أسافلها. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أي: ثم يُخرج بالماء النازلِ من السماء والنابع من الأرض زرعاً ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أي: أشكاله وطُعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، أي: بعد نَضارته وشَبابه يكتهِلُ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ قد خَالطه اليُبْس، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾، أي: ثم يعودُ يابساً يَتحطّم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، أي: الذين يَتذكّرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضِرةً نضرةً حسناءَ، ثم تعودُ عَجُوزاً شوهاءَ، والشاب يعودُ شيخاً هَرِماً كبيراً ضَعِيفاً، وبعد ذلك كلِّه الموتُ. فالسعيدُ مَن كان حالُه بعدَه إلى خيرٍ، وكثيراً ما يضربُ الله تعالى مثلَ الحياةِ الدنيا بما يُنزِّل الله من السماء من ماء، ويُنبِت به زُروعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حُطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: هل يَستوي هذا ومَن هُو قاسي القالبِ بعيدٌ من الحقّ؟! كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: فلا تَلينُ عند ذكره، ولا تخشع ولا تَعِي ولا تفهَمُ، ﴿أُولَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

هذا مَدحٌ من الله ـ عزّ وجلّ ـ لكتابه القرآن العظيم المنزَّلِ على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾، قال مجاهدٌ: يعني القرآن كُلُّهُ متشابهٌ مثاني. وقال قتادةُ: الآية تُشبِهُ الآيةَ، والحرفُ يشبه الحرفَ. وقال الضّحاكُ: ﴿مَّثَانِىَ﴾: ترديدُ القولِ ليفهَمُوا عن رَبِّهم ـ عزّ وجلّ ـ. وقال عِكْرِمةُ، والحَسَنُ: ثَنّى الله فيه القضاءَ. زاد الحسن: تكونُ السورةُ فيها آيةٌ، وفي السورة الأخرى آية تُشبهها. وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: ﴿مَّثَانِىَ﴾ مُرَدَّد، رُدِّدَ موسى في القرآن، وصالحٌ وهودٌ والأنبياء ـ عليهم السلام ـ في أمكنة كثيرة. وقال سعيد بنُ جُبير، عن ابن عباس: ﴿مَّثَانِىَ﴾ قال: القرآنُ يُشبِهُ بعضُهُ بعضاً، ويُرَدُّ بعضُه على بعضٍ. وقال بعضُ العلماء: ويُرْوى عن سُفيان بن عُيَينة معنى قولِه تعالىٰ: ﴿مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾:

أنّ سياقاتِ القرآنِ تارةً تكونُ في معنىً واحدٍ، فهذا من المُتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيءِ وضِدِّه، كذِكرِ المؤمِنِينَ ثُمّ الكافرين، وكصِفةِ الجنّةِ ثم صفةِ النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤]، وكقوله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾، إلى أن قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ٧، ١٨]، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾، إلى أن قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٤٩٥، ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياقُ كلُّه في معنىً واحدٍ يُشبِهُ بعضه بعضاً، فهو المتشابهُ. وليس هذا من المتشابه المذكُور في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ﴾ [آل عمران: ٧]، ذاك معنى آخر. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: هذه صفةُ الأبرارِ عند سَماعِ كلامِ الجبّارِ، المُهيمن العَزيز الغَفّار، لما يفهمون منه من الوعدِ والوعيدِ، والتخويف والتهديدِ، تَقشعِرُ منه جلودُهم من الخشية والخَوف. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، لما يَرجُون ويُؤمِّلُون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفُجّار من وُجوهٍ:

**أحدها**: أنّ سماعَ هؤلاء هو تلاوةُ الآيات، وسماعَ أُولئِكَ نَغَماتُ الأبياتِ، من أصوات القَيْناتِ.

**الثاني**: أنهم إذا تُليت عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سُجّداً وبُكيًا، بأدبٍ وخَشيَةٍ، ورَجاءٍ ومحبّةٍ، وفَهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣]، أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهينَ عنها، بل مُصغِينَ إليها، فاهِمين بَصِيرينَ بمعانيها، فلهذا إنما يَعمَلُونَ بها، ويَسجُدون عندها عن بصيرةٍ لا عن جَهْلٍ ومتابعةٍ لغيرهم.

**الثالث**: أنهم يَلزمُون الأدَبَ عند سَماعِها كما كان الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ عند سماعِهم كَلامَ الله تعالىٰ من تلاوةِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ تَقشعِرُ جلودُهم، ثم تَلِينُ مع قُلوبِهم إلى ذكرِ الله. لم يكونُوا يَتَصارخُون ولا يَتكلّفُون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثباتِ والسكونِ والأدبِ والخشيةِ ما لا يلحقُهم أحدٌ في ذلك، ولهذا فازُوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. قال عبد الرزّاق: حدثنا معمرٌ قال: تلا قتادةُ ـ رحمه الله ـ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، قال: هذا نعتُ أولياءِ الله، نَعتَهم الله عز وجل بأن تَقشعِرَ جلودُهم، وتبكي أعينُهم، وتطمئنَّ قلوبُهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بِذَهاب عُقُولهم والغِشيانِ عليهم، إنما هذا في أهل البِدَع، وهذا من الشيطانِ.

وقال السدّيُّ: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: إلى وَعْدِ الله. وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾، أي: هذه صفةُ مَن هداه الله، ومَن كان على خلاف ذلك فهو مِمّن أضلّه الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾، ويُقرَّعُ فَيُقال له ولأمثاله من الظالمين:

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كَمَن يأتي آمناً يوم القيامة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]: وقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨] وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفي في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخرِ، كقول الشاعر:

فَـمَـا أدري إذا يَـمَّـمْـتُ أرضـاً أريـدُ الـخـيـرَ أيُّـهـمـا يَـلِـيـنـي؟

يعني الخير أو الشر: وقولُهُ جلَّتْ عظمته: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، يعني: القرونَ الماضيةَ المكذِّبة للرسلِ، أهْلَكهم الله بذُنوبهم، وما كان لهم من الله من واقٍ. وقولُهُ جل وعلا: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بما أنزلَ بهم من العذابِ والنَّكال وتَشفِّي المؤمنين منهم، فَلْيحذَرِ المخاطَبون من ذلك، فإنهم قد كَذَّبوا أشرفَ الرسُل وخاتَم الأنبياءِ ﷺ، والذي أعدَّه الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم في الدنيا، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: بَيَّنا للناسِ فيه بِضَرْب الأمثال، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فَإنَّ المثل يُقرِّبُ المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، أي: تَعلمُونه من أنفسكم، وقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقولُهُ جل وعلا: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾، أي: هو قرآنٌ بلسان عَربيٍّ مُبين، لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ ولا لَبْسَ، بل هو بَيانٌ ووُضوحٌ وبُرهان، وإنما جعله الله تعالىٰ كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يحذَرُون ما فيه من الوعيد، ويعملُون بما فيه من الوَعْدِ. ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، أي: يتنازَعونَ في ذلك العبدِ المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي خَالصاً لرجُلٍ، لا يملِكُه أحدٌ غيرُه، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، أي: لا يَستوي هذا وهذا. كذلك لا يَستَوي المُشركُ الذي يعبدُ آلهةً مع الله، والمؤمنُ المخلِصُ الذي لا يعبدُ إلا الله وحدَه لا شريكَ له. فأين هذا مِن هذا؟!. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمُشرك والمُخلِص، ولما كان هذا المثلُ ظاهراً بَيِّناً جلياً، قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: على إقامةِ الحُجَّة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا يُشركون بالله. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، هذه الآيةُ من الآيات التي استشهد بها الصدِّيقُ عند موت الرسول ـ ﷺ ـ حتى تحقَّق الناسُ موتَه، مع قوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ومعنى هذه الآية: إنَّكم سَتُنقَلُونَ من هذه الدارِ لا محالَةَ، وَستجتمعُونَ عند الله تعالىٰ في الدارِ الآخرةِ، وتَختَصِمُون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشِّرك بين يَدَي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فَيَفصِلُ بينكم، ويفتَحُ بالحقِّ وهو الفتاحُ العليمُ. فَيُنجِّي المؤمنين المُخلِصِين المُوحِّدين، وَيُعذِّب

الكافِرين الجاحِدينَ المُشرِكين المُكذِّبين. ثم إنَّ هذه الآيةَ ـ وإن كان سياقُها في المؤمنين والكافِرين، وذِكر الخُصُومةِ بينهم في الدارِ الآخرةِ ـ فإنها شاملة لكلِّ متنازِعَين في الدنيا، فإنه تُعادُ عليهمُ الخصومةُ في الدار الآخرة.

[٥٧٧٨] قال ابن أبي حاتم ـ رَحِمه الله ـ: حَدَّثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المُقرىء، حدثنا سفيان، عن محمد بن عَمرو، عن ابن حاطِب ـ يعني يحيى بن عبد الرحمن ـ عن ابن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، قال الزبيرُ: يا رسولَ الله: أتُكرَّر علينا الخصومةُ؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديدٌ[١].

[٥٧٧٩] وكذا رَواه الإمامُ أحمدُ عن سُفيانَ، وعنده زيادةٌ: ولما نَزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨]. قال الزبير: أي رسولَ الله! أيُّ نعيم نُسألُ عنه وإنما نعيمنا الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إن ذلك سيكونُ»[٢]. وقد رَوى هذه الزيادةَ الترمذيُّ وابنُ ماجه، من حديثِ سُفيانَ، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ».

[٥٧٨٠] وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا ابنُ نُمَير، حدثنا محمد ـ يعني ابنَ عَمرو ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبَير بن العوام قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، قال الزبيرُ: أي رسول الله، أيُكرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خَواصِّ الذنوبِ؟ قال: «نعم، لَيُكرَّرَنَّ عليكم، حتى يُؤدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حقَّه». قال الزبَير: والله إنَّ الأمرَ لَشدِيدٌ[٣]. ورواه الترمذيُّ من حديث محمد بن عَمرٍو، به وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٥٧٨١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبة بن سَعِيد، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن أبي عُشَّانَة، عن عُقبَةَ بنِ عامرٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أَوَّلُ الخَصِمين يومَ القيامة جاران»[٤]. تَفرَّد به أحمدُ.

[٥٧٨٢] وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسِي بِيَدِه إنه لَيَختصِمُ، حتى الشاتان فيما انتطحَتا»[٥] تفرَّدَ به أحمدُ.

[٥٧٨٣] وفي المسند عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: رَأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ شاتَين يَنتطحانِ، فقال: «أتدري فيم يَنْتَطِحانِ يا أبا ذَرّ»؟ قلت: لا. قال ﷺ: «لكنَّ الله يدري وسيحكُم بينهما»[٦].

---

(١) إسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٦٧ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، وسيأتي في سورة التكاثر.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٢٣٦ وعبد الرزاق في «التفسير» ٢٦٣١ والحاكم ٤/٥٧٢ وأحمد ١/١٦٤ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، لكن له شواهد، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أحمد ٤/١٥١ ح ١٦٩٢١ والطبراني ١٧/٣٠٩ من حديث عقبه بن عامر. وإسناده ضعيف لأجل ابن لهيعة، وتابعه عمرو بن الحارث عند الطبراني ١٧/٣٠٣ وقال الهيثمي في المجمع ١٣٥٧٢: رجال الطبراني رجال الصحيح. غير أبي عُشّانة، وهو ثقة.

(٥) أخرجه أحمد ٣/٢٩، وإسناده ضعيف لأجل ابن لهيعة، ودرّاج عن أبي الهيثم، ضعيف أيضاً. لكن له شاهد، وهو الآتي، وشواهد أخرى يبلغ بها درجة الصحيح. والله أعلم.

(٦) أخرجه أحمد ٥/١٦٢.

[٥٧٨٤] وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا سَهْلُ بن بَحرٍ، حدثنا حَيّان بن أغلب، حدثنا أبي، حدثنا ثابتٌ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُجاء بالإمام الجائر الخائنِ يومَ القيامة، فَتُخاصِمُه الرعيَّةُ، فَيُفلجُون[1] عليه، فيقال له: سُدَّ ركناً من أركان جهنم»[2]. ثم قال: الأغلبُ بن تميم ليس بالحافِظ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، يقول: يخاصِمُ الصادقُ الكاذبَ، والمظلومُ الظالمَ، والمَهْدِيُّ الضالَّ، والضَّعِيفُ المستكبرَ.

وقد رَوَى ابنُ مَنْدَه في كتاب (الروح)، عن ابن عَبّاس أنه قال: يختصِمُ الناسُ يومَ القيامة، حتى تختصِمُ الروحُ مع الجَسَدِ، فتقول الروحُ للجسدِ: أنتَ فعلتَ. ويقول الجسدُ للروح: أنتَ أمرتَ، وأنتَ سَوَّلت. فَيَبعثُ الله مَلَكاً يفصل بينهما، فيقول لهما: إنَّ مَثلكما كمَثَلِ رَجُلٍ مُقْعَد بَصِيرٍ وآخَرَ ضريرٍ، دَخَلا بستاناً، فقال المقعَدُ للضرير: إني أرى هاهنا ثِماراً، ولكن لا أَصِلُ إليها. فقال له الضريرُ: اركبني فتناولها. فَرَكِبه فتناولها، فأيُّهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتُما على أنفسكما. يعني أن الجَسَدَ للروح كالمَطِيَّةِ، وهو راكبُه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسَجَة، حدثنا ضِرَار، حدثنا أبو سَلَمَة الخُزَاعِيُّ، حدثنا منصورُ بنُ سَلَمة، حدثنا القُمّي ـ يعني يعقوبَ بنَ عبد الله ـ عن جعفرِ بن المُغِيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عُمَر قال: نزلت هذه الآيةُ، وما نعلمُ في أيِّ شيءٍ نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، قال: قلنا مَن نُخاصِم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومةٌ، فمن نخاصِمُ؟ حتى وقعت الفتنةُ، فقال ابنُ عمر: هذا الذي وَعَدنا ربّنا ـ عزَّ وجلَّ ـ نختصم فيه. ورواه النسائيُّ عن محمد بن عامر، عن منصور بن سَلَمة، به وقال أبو العالية في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، قال: يعني أهلَ القبلة. وقال ابنُ زيدٍ: يعني أهلَ الإسلام وأهلَ الكُفرِ. وقد قدَّمنا أن الصحيح العموم، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخاطباً للمشركين الذين افترَوا على الله، وجَعَلُوا معه آلهة أُخرى، وادَّعوا أن الملائكةَ بناتُ الله، وجعلُوا لله ولداً ـ تعالى الله عن قَولِهم عُلُوًّا كَبِيراً ـ ومع هذا كَذَّبوا بالحقِّ إذ جاءهم على ألسنة رُسُلِ الله ـ صلواتُ الله عليهم أجمعينَ ـ ولهذا قال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾، أي: لا أحد أظلَمُ من هذا؛ لأنه جَمَعَ بين طَرَفي الباطِل، كَذَب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا

(١) الفلج: الظفر والفوز، وأفلجه: أظهره.

(٢) أخرجه البزار ١٦٤٤ وابن عدي ١/٤١٧ من حديث أنس. وإسناده ضعيف، فيه أغلب بن تميم، أعله ابن عدي به. وقال ابن حبان: منكر الحديث. وضعفه الهيثمي في «المجمع» ٩٠٣٩، لكن ورد أحاديث كثيرة في عقوبة الإمام الظالم والسلطان الجائر، نسأل الله السلامة، وحسن الختام.

الباطلَ وردُّوا الحقَّ، ولهذا قال جلَّت عظمته مُتوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ وهم الجاحِدُون المُكذِّبون. ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، قال مجاهد، وقتادةُ والربيعُ بن أنس، وابنُ زيد: الذي جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ. وقال السدِّيُّ: هو جبريلُ عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾، يعني: محمداً ـ ﷺ ـ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾، قال: مَن جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾، يعني: رسولَ الله ـ ﷺ ـ. وقرأ الربيعُ بنُ أنس «والذين جاءُوا بالصِّدق»، يعني الأنبياءَ، «وصدَّقوا به»، يعني: الأتباع. وقال ليثُ بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، قال: أصحابُ القرآن المؤمنون يَجيئُون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتُمونا، فعَمِلنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القولُ عن مجاهد يشمَلُ كُلَّ المؤمنين؛ فإنَّ المؤمنَ يقولُ الحقَّ ويعمَلُ به، والرسولُ ـ ﷺ ـ أولى الناس بالدخولِ في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق، وَصدَّقَ المُرسَلِينَ، وآمن بما أُنزِلَ إليه من ربِّه والمؤمنون، كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبه ورُسُلِه. وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو رسولُ الله ـ ﷺ ـ. ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: المسلمون. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، قال ابن عباس: اتقوا الشرك. ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يعني: في الجنة، مهما طَلَبوا وَجَدُوا، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾. كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن
يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ـ وقرأ بعضُهم: «عِبَادَهُ» ـ يعني أنه تعالى يَكْفِي مَن عَبَدَه وتوكَّلَ عَلَيه.

[٥٧٨٥] وقال ابنُ أبي حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله ابنُ أخي ابنِ وَهبٍ، حدثنا عَمِّي، حدثنا أبو هانىء، عن أبي علي عمرو بن مالك الجَنْبِيّ، عن فضالة بن عُبَيد الأنصاري، سَمِعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «أفلح من هُدِيَ إلى الإسلام، وكان عيشُه كفافاً، وقَنَعَ به»(١). ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ، من حديث حيوةَ بن شُرَيح، عن أبي هانىء الخولاني، به. وقال الترمذيُّ: «صحيح». ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾، يعني المشركين يُخَوِّفون الرسولَ ويتوعَّدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يَدْعونها من دُون الله؛ جهلاً منهم وضلالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾

---

(١) صحيح. إسناده ضعيف لضعف ابن أخي ابن وهب، لكن توبع عند الحاكم ٤/ ١٢٢، وباقي الإسناد ثقات، وأخرجه الترمذي ٢٣٤٩ وأحمد ٦/ ١٩ وإسناده قوي، وله شواهد.

﴿٣٧﴾؟ أي: مَنِيع الجَناب لا يُضَام، من استند إلى جَنابه ولَجأ إلى بابه فإنه العزيزُ الذي لا أعزَّ منه، ولا أشدَّ انتقاماً منه، ممن كَفَر به وأشرَك وعاندَ رسولَه ﷺ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، يعني: المشركين كانوا يَعترِفُون بأنَّ الله هو الخالقُ للأشياءِ كُلِّها، ومَع هذا يَعبدُون معه غيره، مِمَّا لا يملك لَهم ضراً ولا نَفعاً، ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر.

[٥٧٨٦] وذكر ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثَ قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعَاني، عن ابن عَبَّاس مرفوعاً: «احفظِ الله يَحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، تَعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرِفك في الشِّدة، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله، واعلَم أن الأمَّة لو اجتمعُوا على أن يَضُرُّوك بشيءٍ لم يَكتبه الله عليكَ لم يَضُرّوك، ولو اجتمعُوا على أن يَنفعُوك بشيءٍ لم يكتبه الله لَكَ لم يَنفعُوك. جَفَّت الصحفُ، ورُفِعَتِ الأقلامُ، واعمل لله بالشكر في اليقين. واعلَم أنَّ في الصبرِ على ما تكره خَيراً كثيراً. وأن النصرَ مع الصَّبر، وأن الفَرَج مع الكَرْبِ، وأن مع العُسرِ يُسراً»[١]. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ، عليه توكَّلتُ وعليه يَتوكَّلُ المتوكِّلون. كما قال هُود ـ عليه السلام ـ حين قال له قومُه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

[٥٧٨٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عصام الأنصاريُّ، حدثنا عبد الله بن بكر السَّهميُّ، حدثنا محمدُ بن حاتم، عن أبي المقدام ـ مولى آل عثمانَ ـ عَن محمد بن كعب القُرَظي، حدثنا ابن عباس ـ رَفَع الحديثَ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن أحبَّ أن يكونَ أقوى الناسِ فَليتوكل على الله. وَمَن أحبَّ أن يكونَ أغنَى الناسِ فَليكُن بما في يدِ الله عز وجل أوثَقَ منه بما في يَدَيهِ. وَمَن أحبَّ أن يكونَ أكرمَ الناسِ فَليتقِ الله»[٢]. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على طريقَتِكم. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾، أي: على طريقتي ومَنْهجي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: سَتعلمون غِبَّ ذلك وَوَبالَه، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌ، لا مَحيدَ له عنه. وذل يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخاطباً رسولَه محمداً ـ ﷺ ـ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، أي لجميع الخَلْقِ من الإنس والجن لِتُنذرهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾، أي: فإنما يعودُ نفعُ ذلك إلى نفسِه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: إنما يرجعُ وبالُ ذلك على نفسِه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١/٣٠٧ من ثلاثة وجوه عن ابن عباس أحدها حسن، وله شواهد، فهو صحيح، انظر «مسند أبي يعلى» ١٠٩٩.

(٢) إسناده ضعيف. فيه أبو المقدام، وهو هشام بن زياد. جاء في «الميزان» ٩٢٢٣: ضعفه أحمد وغيره. وقال النسائي: متروك. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات. وقال البخاري: يتكلمون فيه.

أي: بِموكَّلٍ أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. ثم قال تعالى مخبراً عن نفسِه الكريمة بأنه المتصرّفُ في الوجُودِ بما يشاء، وأنه يَتوفَّى الأنفس الوفاةَ الكُبرى، بما يُرسِل من الحَفَظَة الذين يَقبِضُونها من الأبدانِ. والوفاةُ الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠ ـ ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآيةِ ذكرُ الكُبرى ثم الصغرى. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، فيه دلالةٌ على أنها تجتمعُ في الملأ الأعلى، كما وَرَد بذلك الحديثُ المرفوع الذي رَوَاه ابنُ منده[١] وغيره.

[٥٧٨٨] وفي صَحيحَي البخاري ومسلم من حديث عُبَيد الله بن عمر، عن سَعِيد بن أبي سَعِيد، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا أوَى أحَدكم إلى فراشِهِ فَليَنفُضه بِدَاخِلَةِ إزاره، فإنه لا يدري ما خَلَفَهُ عليه، ثم ليقُل: باسمِكَ ربِّي وضعتُ جَنبي، وبِكَ أرفَعُه، إن أمسكت نَفسِي فَارحَمها، وإن أرسلتها فاحفَظها بما تحفَظُ به عبادَكَ الصَّالِحين». وقال بعضُ السلف: تُقبَض أرواحُ الأمواتِ إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارفَ، ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، التي: قد ماتت، ويُرسِل الأخرى إلى أجل مُسَمًّى. قال السدِّيُ: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يُمسِك أنفسَ الأمواتِ، ويُرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾

يقولُ تعالى ذامًّا للمشركين في اتِّخاذهم شُفَعاء من دون الله، وهم الأصنامُ والأندادُ، التي اتخذُوها من تلقاءِ أنفُسِهم بلا دليلٍ ولا بُرهانٍ حداهم على ذلك، وهي لا تَملِكُ شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقلٌ تعقِلُ به، ولا سمعٌ تسمَعُ به، ولا بصرٌ تُبصِر به، بل هي جَماداتٌ أسوأ حالاً من الحَيوان بكثير. ثم قال: ﴿قُل﴾ أي يا محمدُ ـ لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذُوه شُفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأَذِن له، فَمَرجِعُها كلها إليه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: هو المتصرِّفُ في جميع ذلك. ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: يومَ القيامةِ، فيَحكُم بينَكم بعَدْلِه، ويَجزِي كُلاً بعَمَلِه. ثم قال تعالى ذامّاً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾، أي: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، قال مجاهد: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ انقبضَت. وقال السديُ: نفَرت. وقال قتادةُ: كَفَرت واستكبَرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥] أي: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبُهم. لا تقبل الخير، ومَن لم يقبلِ الخير يقبلِ الشرَّ. ولذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، أي: يَفرحُون ويُسرُّون.

---

(١) راجع «الدر المنثور» ٥/٦١٧.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقولُ تبارك وتعالى بعد ما ذَكر عن المشركينَ ما ذَكر، من المذمّة لهم في حُبِّهم الشرك، ونفرتِهم عن التوحيدِ، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ادعُ أنتَ الله وحدَه لا شريكَ له، الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وفطرها، أي: جَعلها على غير مثالٍ سَبَق، ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: السرِ والعلانيةِ، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: في دُنياهم، سَتفصِلُ بينهم يوم مَعادهم ونُشُورهم، وقيامِهم من قُبورهم.

[٥٧٨٩] وقال مسلمٌ في صَحيحه: حدثنا عبدُ بن حُميد، حدثنا عُمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عَمّار حدثنا يحيى بن أبي كثير، حَدَّثني أبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن قال: سألتُ عائشةَ: بأيِّ شيءٍ كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يفتَتِحُ صلاتَه إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتَح صلاتَه: «اللهُمَّ، ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السموات والأرض، عالَم الغيب والشهادة، أنت تحكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلِفُون، إهدني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

[٥٧٩٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفّان، حدثنا حمّادُ بن سلمة، أخبرنا سُهَيل بن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن عَون بن عبد الله بن عُتبة بن مَسعُودٍ، عن عبد الله بنِ مسعودٍ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن قال: اللهُمَّ فاطرَ السموات والأرض، عالَم الغيبِ والشهادةِ، إني أعهدُ إليك في هذه الدنيا أنّي أشهدُ أنْ لا إله إلا أنتَ وحدَك لا شريكَ لكَ، وأنَّ محمداً عبدُك ورسولُك، فإنَّك إنْ تَكِلْني إلى نفسِي تُقرِّبني من الشرِّ وتُباعِدْني من الخير، وإني لا أثِقُ إلاّ برحمَتِكَ، فاجعَلْ لي عندَك عهداً توفّينيه يومَ القيامة، إنك لا تُخلِفُ الميعادَ ـ إلاّ قال ـ عزَّ وجلَّ ـ لملائكتِه يومَ القيامةِ إنَّ عَبدِي قد عَهِدَ إليَّ عهداً فأوفُوه إيّاه فَيُدخِلُه الله الجنَّة». قال سُهَيل: فأخبرتُ القاسم بنَ عبدِ الرحمن أن عوناً أخبر بكذَا وكذَا؟ فقال: ما في أهلنا جاريةٌ إلا وهي تقول هذا في خِدْرِها[٢]. انفرد به الإمام أحمد.

[٥٧٩١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن، حدثنا ابنُ لَهيعة، حدثني حُيَيُّ بن عبد الله: أن أبا عبد الرحمن حَدَّثه قال: أخرجَ لنا عبدُ الله بن عمرو قِرطاساً وقال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعلِّمنا يقول: «اللهُمَّ فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالَم الغيبِ والشهادةِ، أنتَ ربُّ كلِّ شيءٍ، وإلهُ كلِّ شيءٍ، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، وحدكَ لا شريكَ لك، وأن مُحمَّداً عبدُك ورسولُك، والملائكةُ يشهَدُون. أعوذُ بكَ من الشيطانِ وشِرْكِه، وأعوذُ بك أن أقترِفَ على نفسي إثماً، أو أجرَّه إلى مسلم». قال أبو عبد الرحمن رضي الله عنه ـ:

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٧٧٠ وأبو داود ٧٦٨ والنسائي ٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣ وابن ماجه ١٣٥٧ وأحمد ٦/ ١٥٦ وابن حبان ٢٦٠٠.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٤١٢ وإسناده ضعيف عون لم يدرك ابن مسعود، لكن للحديث شواهد كثيرة.

كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن يقول ذلك حين يريد أن ينام(١)، تَفَرَّدَ به أحمدُ أيضاً.

[٥٧٩٢] وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا خَلَفُ بن الوليدِ، حدثنا ابنُ عَيَّاش، عن محمد بن زيادِ الألْهانيِّ، عن أبي راشد الحُبْرَاني قال: أتيتُ عبدَ الله بن عمرو فقلتُ له: حَدِّثنا ما سَمِعتَ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ فألقى بين يَدَي صحيفةً فقال: هذا ما كَتَبَ لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ. فنظرتُ فيها فإذا فيها أَنَّ أبا بكر الصديق قال: يا رسولَ الله، عَلِّمني، ما أقولُ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ. فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا أبا بكرٍ، قُل: اللهُمَّ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيبِ والشهادةِ، لا إله إلا أنتَ، ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، أعوذُ بكَ من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطان وشِرْكه، أو أقترفَ على نفسي سُوءاً، أو أجُرَّه إلى مُسلِم»(٢). ورواه الترمذيُّ، عن الحسن بن عَرَفَة، عن إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ، به، وقال: «حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه».

[٥٧٩٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهدٍ قال: قال أبو بكر الصِّديق: أَمَرني رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن أقولَ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، وإذا أخذتُ مضجعي من الليل: «اللهمَّ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ» إلى آخره(٣). وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾، أي: ولو أن جَميعَ ما في الأرض وضِعْفَه مَعَه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾، أي: الذي أوجبه الله تعالىٰ لَهمْ يومَ القيامةِ، وَمَع هذا لا يُتَقبَّل منهم الفِداءُ ولو كان مَلءَ الأرضِ ذهباً، كما قال في الآية الأخرى، ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، أي: وظَهَرَ لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يَكُن في بالهم ولا في حِسَابهم، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: وظَهَرَ لهم جزاءُ ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: وأحاط بهم من العذاب والنَّكال ما كانوا يَستهزئُون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقولُ تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضرَّاء يتضرع إلى الله ـ ﷺ ـ عزَّ وجلَّ ـ وينيب إليه ويدعُوه، وإذا خَوَّله منه نعمة بَغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: لما يعلم الله تعالىٰ من استحقاقِي له، ولولا أني عند الله تعالى خَصِيصٌ لما خَوَّلني هذا! قال قتادةُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]: على خُبْرٍ عندِي. قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل إنَّما أنعمنا عليه بهذه النعمةِ لِنختبِرَه فيما أنعمنا عَلَيه، أيُطيع أم يعصِي؟ مع عِلْمِنا المتقدِّم بذلك، فهي فتنة أي: اختبارٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فَلِهذا يقولُون ما يقولون، ويَدَّعُون ما يدَّعون. ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: قد قال

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧١ وفيه ابن لهيعة. لكن للحديث شواهد.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ١٩٦ والترمذي ٣٥٢٩، ورجاله ثقات، وللحديث شواهد.

(٣) تقدم في سورة يوسف، آية ١٠٦.

هذه المقالَة وزَعَم هذا الزعمَ وادَّعى هذه الدعوى، كثيرٌ ممَّن سَلَف من الأمم، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: فما صَحَّ قولُهم ولا مَنَعهم جَمْعُهم وما كانوا يكسبون ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من المخاطَبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارونَ أنه قال له قومُه: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥]. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾، أي: يوسِّعه على قوم ويُضيِّقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لَعِبراً وحُجَجاً.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ دعوةٌ لجميع العصاة من الكَفَرة وغيرهم إلى التوبة والإنابةِ، وإخبارٌ بأن الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً لمن تاب منها ورَجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كَثُرت وكانت مثلَ زَبَدِ البحرِ. ولا يَصِحُّ حملُ هذِه على غير توبةٍ، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يَتُب منه.

[٥٧٩٤] قال البخاريُّ: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشامُ بن يوسف: أنّ ابن جُرَيج أخبرهم: قال يَعْلَى: إن سعيدَ بن جُبَير أخبره عن ابن عباس: أنّ ناساً من أهل الشِّركِ كانوا قد قَتَلُوا فأكثروا، وزَنَوا فأكثَرُوا. فأتوا مُحمّداً ـ ﷺ ـ فقالوا: إن الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخبِرُنا أنّ لِمَا عَمِلنا كَفّارةً. فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾[1] [الفرقان: ٦٨]، ونَزَل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾. وهكذا رواهُ مسلم وأبو داودَ والنسائيُّ، من حديث ابن جُرَيج، عن يعلى بن مُسلم المكي، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، به. والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. . . الآية.

[٥٧٩٥] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا حَسَن، حدثنا ابنُ لَهِيعة، حدثنا أبو قَبِيل قال: سَمِعتُ أبا عبد الرحمن المرّيَّ يقول: سَمِعت ثوبانَ مولى رسولِ الله ـ ﷺ ـ يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما أُحِبُّ أنَّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآيةِ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾. . .» إلى آخر الآية، فقال

(١) والحديث صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٠ ومسلم ١٢٢/١٩٣ وأبو داوود ٤٢٧٤ والنسائي في «التفسير» ٤٦٩.

رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، فمن أشرك؟ فَسكت النبي ـ ﷺ ـ ثم قال: «ألا ومن أشركَ»، ثلاث مراتٍ[1]. تَفرَّد به الإمام أحمد.

[٥٧٩٦] وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حدثنا سُرَيجُ بن النعمان، حدثنا نُوح بن قيس، عن أشعثَ بن جابر الحُدّاني، عن مكحولٍ، عن عَمرو بن عَبَسَة قال: «جاء رجلٌ إلى النبيّ ـ ﷺ ـ، شيخٌ كبير يَدَّعِمُ على عَصاً له، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي غَدَراتٍ وفَجَراتٍ، فهل يُغفَرُ لي؟ فقال: «ألستَ تشهَدُ أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنكَ رسولُ الله. فقال: «قد غَفر لك غَدَراتِك وفَجَراتِك»[2]. تَفرَّد به أحمد.

[٥٧٩٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا حَمّاد بن سلمةَ، عن ثابتٍ، عن شهرِ بن حَوْشَبٍ، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقرأ: «إنه عَمَلٌ غيرَ صالح»، وسمعتهُ يقول: «يا عبادي الذين أسرَفوا على أنفسِهم لا تقنَطُوا من رحمة الله إن الله يغفِرُ الذنوب جميعاً ولا يبالي، إنه هو الغفورُ الرحيمُ»[3]. وَرَواه أبو داودَ والترمذيُّ، من حديث ثابتٍ، به.

فهذه الأحاديثُ كلُّها دالة على أنَّ المراد: أنه يغفِرُ جميع ذلك مع التوبة، ولا يَقنطَنَّ عَبدٌ من رحمةِ الله وإن عَظُمت ذُنُوبُه وكَثُرت؛ فإنَّ باب التوبة والرحمة واسعٌ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠] وقال جلَّ وعلا في حق المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ ثم قال جلَّت عظمته: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكَرَمِ والجُودِ، قَتَلُوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآياتُ في هذا كثيرةٌ جداً.

[٥٧٩٨] وفي الصحيحَين عن أبي سعيدٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ حديثُ الذي قتل تِسْعاً وتسعين نفساً، ثم نَدِم وسأل عابداً من عُبَّادِ بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمَلَ به مئة. ثم سَأل عالماً من عُلَمائهم: هل له من توبة؟ فقال: وَمَن يحولُ بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذَّهاب إلى قرية يُعْبَدُ الله فيها، فقصدها فأتاه الموت في أثناءِ الطريق، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ، فأمر الله أن يَقِيسُوا ما بين الأَرْضَينِ، فإلى أيِّهما كان أقربَ فهو منها. فوجدُوه أقرب إلى الأرض التي هاجَرَ إليها بِشِبْرٍ، فقبضته ملائكةُ الرحمةِ. وذُكر أنه نأى بِصَدْرِه عند الموت، وأن الله أمر البلدةَ الخَيِّرة أن تقترِبَ، وأمر تلك البلدة أن تَتَباعَدَ[4]. هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٥ ح ٢١٨٥٧ والطبراني في «الأوسط» ١٧٦ من حديث ثوبان برواية: «إلا من أشرك»، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣١٣. فيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن اهـ والصواب أن ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي عنه أحد العبادلة حتى يحسن حديثه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨٥ بهذا الإسناد، وفيه ضعف نوح بن قيس الحُدّاني، فيه كلام، ومكحول مدلس، وهو كثير الإرسال، وقد عنعن.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٦/ ٤٥٤ ـ ٤٥٩ والترمذي ٣٢٣٧ والحاكم ٢/ ٢٤٩، وإسناده ضعيف شهر صدوق لكنه كثير الأوهام والإرسال، ولم يصرح بسماعه، وهذه قراءة شاذة لا يحتج بمثل هذا الخبر لثبوتها.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٧٠ ومسلم (٢٧٦٦) (٤٨) وابن حبان ٦١٥.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ . . . إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته مَن زعم أن المسيح هو الله، ومن زَعم أن المسيح هو ابنُ الله، ومن زعم أن عُزَيراً ابنُ الله، ومن زعم أن الله فقيرٌ، ومن زعم أن يد الله مغلولةٌ، ومن زعم أن الله ثالثُ ثلاثةٍ، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤]؟ ثم دعا إلى التوبة مَنْ هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، قال ابن عباس: مَن آيَسَ عبادَ الله من التوبةِ بعد هذا فقد جَحَد كتابَ الله عزَّ وجلَّ، ولكن لا يقدِرُ العبد أن يتوبَ حتى يَتُوبَ الله عليه.

وَرَوى الطبراني من طريق الشَّعبي، عن شُتَير بن شَكَلٍ أنه قال: سَمِعتُ ابن مَسعودٍ يقول: إنَّ أعظمَ آيةٍ في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمَعَ آية في القرآنِ بخير وشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإنَّ أكثَرَ آيةٍ في القرآن فَرَجاً في سورة الغُرَف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وإنَّ أشدَّ آيةٍ في كتابِ الله تَصرِيفاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. فقال له مسروق: صَدَقتَ. وقال الأعمش، عن أبي سَعيد، عن أبي الكَنُودِ قال: مَرَّ عبد الله ـ يعني ابنَ مسعودٍ ـ على قاصٍّ، وهو يُذَكِّر الناس، فقال: يا مُذَكِّر، لم تُقَنِّط الناس من رحمة الله؟! ثم قرأ: : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ رواه ابنُ أبي حاتم رحمه الله.

## ذكرُ أحاديث فيها نَفيُ القُنوطِ:

[٥٧٩٩] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُرَيج بنُ النعمانِ، حدثنا أبو عُبيدة عبد المؤمن بن عُبَيْد الله، حدثني أخشَنُ السدُوسِيُّ قال: دخلتُ على أنس بن مالكٍ فقال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتُم حَتَّى تملأَ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتُم الله تعالى لغَفَر لكم، والذي نفسُ محمدٍ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عزَّ وجلَّ بقوم يُخطِئُون ثم يستغفرون الله فَيغفِرُ لهم»(١). تَفرَّد به أحمد.

[٥٨٠٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسحاقُ بن عيسى، حدثني اللَيْث، حدثني محمد بن قيس ـ قاصُّ عُمرَ بن عبد العزيز ـ عن أبي صِرمة، عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال حين حَضَرَته الوفاةُ: قد كنتُ كتمتُ منكم شيئاً سَمِعته من رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لولا أنَّكم تُذنِبُونَ لَخلَقَ الله قوماً يُذنِبُون، فَيغفِرُ لهم»(٢). هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجهُ مسلم في صحيحه، والترمذيُّ جميعاً، عن قُتَيبة، عن الليث بن سعد به. ورواه مُسلِم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القُرظي، عن أبي صِرْمَةَ ـ وهو الأنصاريُّ صحابيٌّ ـ عن أبي أيُّوبَ، به.

[٥٨٠١] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أحمد بن عبد الملك الحَرَّاني، حدثنا يحيى بن عَمرو بن مالك النُكريُّ قال: سَمِعت أبي يحدث عن أبي الجَوزاء، عن ابن عَبّاس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كَفَّارةُ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٢٣٨ وإسناده ضعيف لجهالة أخشن السدوسي لكن المتن صحيح له شواهد، منها الآتي.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٤٨ والترمذي ٣٥٣٩ وأحمد ٥/ ٤١٤.

الذنبِ الندامةُ». وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو لم تُذنِبُوا لجاء الله بقوم يُذنِبُونَ، فيغفرُ لهم»(١). تفرَّد به أحمد.

[٥٨٠٢] وقال عبد الله ابنُ الإمام أحمد: حَدَّثني عبد الأعلى بن حماد النَّرسِي، حدثنا داودُ بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مَسْلَمة بن عبد الله الرازيُّ، عن أبي عَمرو البَجَليِّ، عن عبد الملك بن سُفيان الثَّقفِي، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه علي بن أبي طالب رَضِي الله عنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يحبُ العبدَ المُفتَّنَ التَّواب»(٢). لم يُخرجُوه من هذا الوجه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا مُوسَى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، أخبرنا ثابتٌ وحُمَيدٌ، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير قال: إنَّ إبليس ـ عليه لعائنُ الله ـ قال: يا ربِّ، إنَّك أخرجتني من الجَنَّة من أجل آدمَ، وإني لا أستطِيعُه إلا بسُلطانك. قال: فأنت مُسلَّطٌ، قال: يا ربِّ، زِدْني. قال: لا يُولَد له وَلَدٌ إلا وُلِد لكَ مِثلُه. قال: يا ربِّ، زِدْني. قال: أجعل صدورَهُم مساكِنَ لكم، وتَجرُون منهم مَجْرَى الدَّم. قال: يا ربِّ، زِدنـي. قـال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. فقال آدم: يا رَبِّ، قد سلطته عليّ، وإني لا أمتنع إلا بِكَ. قال تبارك وتعالى: لا يُولَد لك ولد إلا وَكَّلت به من يحفظه من قُرناء السوء. قال: يا رَبِّ، زِدني. قال: الحسنةُ عشرٌ أو أزيدُ، والسيئةُ واحدةٌ أو أمحُوها. قال: يا ربِّ، زِدْني. قال: بابُ التوبةِ مفتوحٌ ما كان الروحُ في الجَسَدِ. قال: يا ربِّ، زِدنـي. قـال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافعٌ: عن عبد الله بن عُمَر، عن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ في حَدِيثه قال: وكُنَّا نقولُ: ما الله بقابلٍ ممَّن افتتِنَ صَرْفاً ولا عدلاً ولا توبةً، عَرَفُوا الله ثم رَجَعُوا إلى الكُفر لبلاءٍ أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قَدِم رسولُ الله ـ ﷺ ـ المدينة أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولِهم لأنـفـسـهـم: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. قال عُمر ـ رضي الله عنه ـ: فكتبتُها بيدي في صحيفةٍ، بعثتُ بها إلى هشام بن العاص. قال: فقال هشامٌ: لما أتتني جعلت أقرؤها بذي طُوًى أُصَعِّد بها فيه وأُصَوِّت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهُمَّ أفهِمْنِيها. قال: فألقى الله في قلبي أنها إنما أُنزلت فينا، وفيما كنا نَقولُ في أنفسنا، ويُقالُ فينا. قال: فرجعتُ إلى بعيري فجلستُ عليه، فلَحِقتُ برسولِ الله ـ ﷺ ـ بالمدينة. ثم استحثَّ تبارك وتعالى عبادَه إلى المُسارَعةِ إلى التَّوبةِ، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾، أي: ارجعُوا إلى الله واستسلِمُوا له، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: بادِرُوا بالتوبةِ والعَملِ الصَّالِح قبلَ حُلولِ النِّقمَةِ، ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وهو القرآنُ العظيمُ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: من حيثُ لا تعلَمُون ولا تَشعُرون. ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٢٨٩ وإسناده لين، لكن المتن صحيح بشواهده.

(٢) إسناده ضعيف جداً. أخرجه عبد الله بن أحمد ١/ ٨٠ ـ ١٠٣ وأبو يعلى ٤٨٣. وفيه عبيدة بن عبد الرحمن أبو عمرو البجلي اتهمه ابن حبان بالوضع. انظر المجروحين ٢/ ١٩٩، وفيه عبد الملك ومسلمة الرازي، وكلاهما مجهول، قوله «المفتن» أي المتحن، يمتحنه الله بالذنب، ثم يتوب، ثم يعود، ثم يتوب.

عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾، أي: يومَ القيامةِ يتحسّر المجرمُ المفرِّط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المُحسِنين المخلصِينَ المُطيعين لله ـ عزَّ وجَلَّ ـ. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾، أي: إنما كان عَمَلِي في الدُّنيا عَمَلُ ساخرٍ مستهزِئٍ غيرَ موقنٍ مُصدقٍ. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: تَوَدُّ أن لو أُعِيدَت إلى الدارِ الدُّنيا فتُحسِنُ العمَلَ. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أخبَرَ الله ـ سبحانه ـ ما العبادُ قائلونَ قبل أن يقولُوه، وعَمَلَهم قبل أن يعمَلُوه. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدّوا لما قَدَرُوا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

[٥٨٠٣] وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ أهل النار يَرَى مقعَدَه من الجنةِ فيقولُ: لو أن الله هَدَاني؟! فتكون عليه حَسْرَةً. قال: وكلُّ أهلِ الجَنَّةِ يرى مقعدَه من النار فيقول: لولا أن الله هداني! قال: فيكون له الشكر»[1]. وَرَوَاه النسائيُّ من حديث أبي بكر بن عياش، به. ولما تَمنّى أهلُ الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسَّروا على تصديق آياتِ الله واتباع رُسُله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾، أي قد جاءتك أيها العبدُ النادمُ على ما كان منه آياتِي في الدار الدُّنيا، وقامت حُجَجِي عليكَ، فَكَذَّبت بها واستكبرتَ عن اتّباعِها، وكنتَ من الكافِرين بها، الجاحِدِين لها.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

يُخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تَسودُّ فيه وجوه، وتبيضُّ فيه وجوهٌ، تسودُّ وجوهُ أهل الفُرقةِ والاختلافِ، وتَبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: في دعواهم له شريكاً وَولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، أي: بِكَذبهم وافترائهم. وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جَهَنَّم كافيةً لهم سِجناً ومَوئِلاً، لهم فيها الخِزْيُ والهوان، بِسَبب تكبُّرهم وتَجبُّرهم وإبائهم عن الانقيادِ للحق.

[٥٨٠٤] قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عُبيد الله ابنُ أخي ابن وَهْبٍ، حدثنا عَمِّي، حدثنا عيسى بن أبي عيسى الخَنَّاط، عن عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ المتكبرين يُحشَرُون يوم القيامةِ أشباه الذَّرِّ[2] في صُوَر الناس، يَعلوهم كلُّ شيء من الصَّغَار، حتى يدخُلوا سِجناً من النارِ في وادٍ يقال له بولس، من نارِ الأنيار، وَيُسقَون عُصَارةَ أهلِ النار، من طينةِ الخَبَالِ»[3]. وقولُهُ تبارك وتعالى:

---

(١) أخرجه النسائي ١١٤٥٤ وأحمد ٢/ ٥١٢ وإسناده حسن.

(٢) الذرّ: صغار النمل.

(٣) إسناده ضعيف جداً، ابن أخي ابن وهب ضعيف، وعيسى الحناط ضعيف متروك، وأخرجه الترمذي ٢٤٩٢ من وجه آخر عن محمد بن عجلان عن عمرو به، وإسناده حسن لكن المتن غريب حيث فيه «بولس» ولعل الأشبه وقفه، ومع ذلك حسنه الألباني في «صحيح الترمذي» ٢٠٢٥، فالله أعلم.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾، أي: بما سَبَقَ لهم من السعادةِ والفوزِ عند الله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: ولا يحزنهم الفزعُ الأكبرُ، بل هم آمنونَ من كلِّ فَزَعٍ، مُزَحْزَحُون عن كل شر، نائلون كُلَّ خير.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يخبر تعالى أنه خالِقُ الأشياءِ كلِّها، وَرَبُّها ومَليكها، والمتصرِّفُ فيها، وكلٌّ تحت تَدبيره وَقهرِه وكَلاءَتِه.
وقولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال مجاهد: المقاليدُ هي: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادةُ وابنُ زيد وسفيانُ بن عُيَينة. وقال السُّديُّ: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خزائنُ السمواتِ والأرضِ. والمعنى على كلا القولين أنَّ أَزِمَّةَ الأمور بيده تبارك وتعالى، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قدير. ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: حُجَجِه وبَراهينه، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

[٥٨٠٥] وقد رَوى ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً ـ وفي صِحَّته نظرٌ ـ ولكن نحن نذكره كما ذكره، فإنه قال: حدثنا يزيدُ بن سِنان البَصري بمصرَ، حدثنا يحيى بن حَمَّاد، حدثنا الأغلبُ بن تميم، عن مخلد بن هُذَيل العَبْدِيّ، عن عبد الرحمن المَدَني، عن عبد الله بن عُمَر، عن عثمان بن عَفَّان ـ رَضِي الله عنه ـ: أنه سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألني عنها أحدٌ قبلَكَ يا عثمانُ»، قال: «تفسيرُها: لا إله إلا الله، والله أكبرُ، وسبحانَ الله وبحمده، أستغفِرُ الله، ولا قُوَّة إلا بالله، الأوّلِ والآخرِ، والظاهرِ والباطِن، بيده الخيرُ، يُحيي ويُميت، وهو على كل شيء قدير؛ من قالها يا عثمان إذا أصبحَ عشرَ مِرَار أُعطِي خصالاً ستاً: أمّا أولاهن: فَيُحرس من إبليسَ وجنودِهِ، وأما الثانية فَيُعطى قنطاراً من الأجر، وأما الثالثةُ فَتُرفَع له درجةٌ في الجنة، وأما الرابعة: فَيُزَوَّج من الحُورِ العين، وأما الخامسةُ: فيحضره اثنا عشر مَلَكاً، وأما السادسة: فَيُعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراةَ والإنجيلَ والزبورَ. وله مع هذا يا عثمان من الأجرِ كمن حَجَّ وتُقبِّلت حَجَّتُه، واعتمر فَتُقُبِّلت عُمرتُه، فإن مات مِن يومه طُبع بطابع الشُّهَداءِ»[١]. وَرَواه أبو يعلَى الموصلي من حديثِ يحيى بن حَمَّاد، به مثلَه. وهو غريبٌ، وفيه نكارةٌ شديدةٌ، والله أعلم.

وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾، ذَكَروا في سَبب نُزولِها ما رواه ابنُ

---

(١) باطل. أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المجمع» ١٠/ ١١٥ ح ١٧٠٠٠ والعقيلي ٤/ ٢٣١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٤٤ و ١٤٥. قال الهيثمي: فيه أغلب بن تميم، وهو ضعيف اهـ. وأما العقيلي، فأعله بمخلد أبي الهذيل، وقال: في إسناده نظر، لا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه. وقال ابن الجوزي: لا يصح: أما الأغلب، فقال يحيى: ليس بشيء. وأما مخلد، فقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. وعبد الرحمن المدني ضعيف، وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه منزه عن الكلام الركيك، والمعنى البعيد اهـ.

أبي حاتم وغيرُه، عن ابن عبَّاس أنَّ المشركين من جَهلهم دَعَوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ إلى عبادةِ آلهتهم، ويعبدُوا مَعَه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وقولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾، أي: أخلِصِ العبادةَ لله وحدَه، لا شريكَ له، أنتَ ومن مَعَكَ، أنتَ ومن اتَّبعكَ وصَدَّقكَ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقولُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: وما قَدَر المشركون الله حَقَّ قَدْرِه، حين عبدُوا معه غيرَه، وهو العظيمُ الذي لا أعظَمَ منه، القادرُ على كلِّ شيءٍ، المالكُ لكلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ تحتَ قهرِهِ وقُدرتِه. قال مجاهدٌ: نزلت في قُرَيش. وقال السُّدِّيُّ: ما عَظَّموه حَقَّ عَظَمتِه. وقال محمدُ بن كَعبٍ: لو قَدَرُوه حق قَدْرِه ما كَذَّبُوه. وقال عليُّ بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، هم الكفار الذين لم يُؤمِنُوا بِقُدرةِ الله عليهم، فَمَن آمن أن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فقد قَدَر الله حَقَّ قَدْرِه، ومَن لم يُؤمِن بذلك فلم يَقدِرِ الله حقَّ قدرِه. وقد وَرَدت أحاديثُ كثيرةٌ مُتعلِّقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهبُ السَّلَفِ، وهو إمرارُها كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تحريفٍ.

[٥٨٠٦] قال البخاريُّ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: حَدَّثنا آدمُ، حدثنا شيبانُ، عن منصُور، عن إبراهيمَ، عن عَبيدَةَ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: جاء حَبرٌ من الأحبار إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا محمدُ، إنا نجد أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يَجعلُ السمواتِ على إصبع، والأرضينَ على إصبع، والشجَر على إصبع، والماءَ والثَّرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا المَلكُ. فَضَحِكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى بَدَت نواجذُه، تَصديقاً لقول الحَبْر، ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(١) . . . الآية. ورواه البخاريُّ أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد، ومسلمٌ، والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ في التفسير من سُنَنَيهما، كلُّهم من حديث سُليمانَ بن مِهرانَ الأعمشِ، عن إبراهيم، عن عَبيدَةَ، عن ابن مسعود بنحوه.

[٥٨٠٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أبو مُعاوية، حَدَّثنا الأعمشُ، عن إبراهيم عن عَلْقَمَة، عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أَبَلَغكَ أَنَّ الله تعالى يَحمِلُ الخلائقَ على إصبع، والسمواتِ على إصبع، والأرضينَ على إصبعٍ، والشجَرَ على إصبع، والماء والثَّرى على إصبع؟ قال: فَضحك رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى بَدَت نواجذُه. قال: وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(٢) . . . إلى آخر الآية. وهكذا رَواه البُخاريُّ، ومسلمٌ، والنَّسائيُّ ـ من طُرُق ـ عن الأعمش، به.

[٥٨٠٨] وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا حُسَين بن حَسن الأشقر، حدَّثنا أبو كُدَينة، عن عطاءٍ، عن أبي

---

(١) أخرجه البخاري ٤٨١١ ومسلم ٢٧٨٦/ ١٩ ـ ٢٠ والنسائي في «التفسير» ٤٧٠ والترمذي ٣٢٣٨، ٣٢٣٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٥ ومسلم ٢٧٨٦/ ٢١ و٢٢ والنسائي في التفسير ٤٧٢.

الضُحى، عن ابن عباس قال: مرّ يهوديٌ برسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو جالسٌ فقال: كيفَ تقولُ يا أبا القاسم: يوم يَجْعَلُ الله السماءَ على ذِهْ ـ وأشار بالسَّبَّابة ـ والأرض على ذِهْ، والجبال على ذِهْ، وسائر الخلق على ذِهْ ـ كلُّ ذلك يشيرُ بإصبعِهِ ـ قال: فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1] . . . الآية. وكذا رواه الترمذيُّ في التفسير، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصَّلْت أبي جعفر، عن أبي كُدَينة يحيى بن المُهَلَّب، عن عطاءِ بن السائبِ، عن أبي الضُحى مُسلمِ بن صُبَيح، به، وقال: «حَسَنٌ صَحِيح غريبٌ لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه».

[٥٨٠٩] ثم قال البخاريُّ: حدّثنا سعيد بن عُفيرٍ، حدثنا الليثُ، حدثني عبدُ الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهابٍ، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن: أن أبا هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «يَقبِضُ الله الأرضَ، ويطوِي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض[2]؟. تفرَّدَ به من هذا الوجه، ورواهُ مسلم من وجه آخر.

[٥٨١٠] وقال البخاريُّ في موضع آخرَ: حدثنا مُقَدَّم بن محمد، حدثنا عمّي القاسم بن يحيى، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عُمَر، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله يَقبِضُ يَوم القيامة الأرضينَ، وتكون السمواتُ بيمينه، ثم يقول: أنا الملك»[3]. تفرَّدَ به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلمٌ من وجهٍ آخَرَ.

[٥٨١١] وقد رواهُ الإمام أحمدُ من طريق أخرى بلفظ آخر أبسَطَ من هذا السياق وأطولَ، فقال: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، أخبرنا إسحاقَ بن عبد الله بن أبي طلحَةَ، عن عُبَيد الله بن مِقسَم، عن ابن عُمَر أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ هذه الآية ذاتَ يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ هكذا بيده، يحركها يُقبِلُ بها ويُدبِر: «يُمجِّد الربُّ نفسَه: أنا الجبارُ، أنا المتكبِّر، أنا الملكُ، أنا العزيزُ، أنا الكريمُ»[4]. فرَجِفَ برسولِ الله ـ ﷺ ـ المنبرُ حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به.

[٥٨١٢] وقد رواه مسلمٌ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، زاد مسلم: ويعقوبُ بنُ عبد الرحمن، كلاهُما عن أبي حازم، عن عُبَيد الله بن مِقْسَم، عن ابن عُمَر، به، نحوه. ولفظُ مسلِم ـ عن عُبَيد الله بن مِقسَم في هذا الحديث ـ: «أنه نظر إلى عَبد الله بن عُمَر كيف يحكي النبيُّ ـ ﷺ ـ، قال: يأخذُ الله سمواتِه وأرَضِيه بيده ويقول: أنا المَلِك، ويقبِض أصابعه ويبسُطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرَّك من أسفلِ شيءٍ منه، حتى إني لأقول: أساقِطٌ هو برسول الله ـ ﷺ ـ[5]؟.

[٥٨١٣] وقال البزارُ: حدثنا سُليمَان بن سيف، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عَبّاد المِنقَري، حدثني محمد بن المُنكَدِر قال: حدثنا عبد الله بن عُمَر، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥١ والترمذي ٣٢٤٠ وإسناده ضعيف، عطاء بن السائب اختلط.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٢ ومسلم ٢٧٨٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٢ ومسلم ٢٧٨٧.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٨٨ وابن حبان ٧٣٢٧. وله طرق.

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) (٢٦) وابن ماجه (١٩٨)، (٤٢٧٥) وابن حبان ٧٣٢٤.

﴿ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، حتى بَلَغ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات[1].
رواه الإمامُ الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عُبَيد بن عُمَير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صَحيح.

[٥٨١٤] وقال الطبرانيُّ في المعجَم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبي، حدثنا حَيَّان بن نافع بن صَخر بن جُوَيرِيَةَ، حدثنا سعيد بن سالم القَدَّاح، عن معمَرُ بن الحَسَن، عن بكر بن خُنَيس، عن أبي شَيْبَةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن جرير قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لنفرٍ من أصحابِهِ: «إني قارِىءٌ عليكم آياتٍ من آخر سورة الزُمَرِ، فمن بَكَى منكم وَجَبت له الجنة». فقرأها من عندِ قولِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، إلى آخر السورة، فَمِنَّا مَن بَكَى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكُوا: يا رسولَ الله، لقد جُهِدنا أن نبكِيَ فلم نَبْكِ؟ فقال: «إني سأقرؤها عليكم، فمن لم يَبْكِ فَلْيَتَبَاكَ»[2]، هذا حديث غريب جداً.

[٥٨١٥] وأغرب منه ما رواه في المعجَم الكبير أيضاً: حدثنا هاشم بن مَرْثِدٍ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عَيَّاش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زُرعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله تعالى يقولُ: ثلاثُ خِلالٍ غَيَّبتُهُنَّ عن عبادي، لو رآهُنَّ رجلٌ ما عَمِل سُوءاً أبداً: لو كشفتُ غطائي فرآني حتى استيقن ويعلَم كيف أفعلُ بخَلْقي إذا أتيتُهم، وقبضتُ السموات بيَدي، ثم قَبَضتُ الأرَضينَ، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذي له الملكُ دُوني؟ ثم أُريهم الجنّة وما أعددتُ لهم فيها من كلِّ خير فَيستيقِنُوها، وأُرِيهم النار وما أعددتُ لهم فيها من كُلِّ شرٍّ فَيستيقِنُوها، ولكن عَمْداً غَيَّبتُ ذلك عنهُم لأعلَمَ كيف يعمَلُون، وقد بَيَّنتُه لهم»[3]. وهذا إسناد مُتَقارِبٌ، وهي نسخة تُروَى بها أحاديثُ جَمَّة، فالله أعلم.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقولُ تبارك وتعالى مُخبِراً عن هَولِ يوم القيامة، وما يكونُ فيه من الآيات العَظِيمة والزلازِلِ الهائلة، فقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، هذه هي النفخةُ الثانيةُ، وهي نفخةُ الصَّعْقِ، وهي التي يموتُ بها الأحياء من أهل السمواتِ والأرض، إلا مَن شاء الله كما جاء

---

(١) أخرجه الطبراني ١٣٣٢١ وابن عدي ٤/١٦٤٧ وإسناده غير قوي لأجل عباد بن ميسرة.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ٢٤٥٩. وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣١٧: فيه بكر بن خُنيس، وهو متروك اهـ واتهمه ابن حبان بالوضع، وفيه عبد الملك بن عمير، طال عمره، وساء حفظه، لذا ضعفه أحمد، وقال أبو حاتم: ليس بحافظ، وقال يحيى: مخلط.

(٣) إسناده ضعيف، فيه هاشم بن مرثد الطبراني، ذكره الذهبي في «الميزان» ٩١٩٢ وقال: قال ابن حبان: ليس بشيء. وله علة ثانية محمد بن إسماعيل بن عياش، ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٢٢٥ وقال: قال أبو داود: لم يكن بذاك. وقال أبو حاتم الرازي: لم يسمع من أبيه شيئاً اهـ. وذكر ذلك الحافظ في التهذيب، وزاد: وقال أبو داود: دخلت حمص غير مرة، وهو حي، وسألت عمرو بن عثمان عنه، فذمّهُ. قال ابن حجر: وقد أخرج أبو داود عن محمد بن عوف عنه عن أبيه عدة أحاديث لكن يروونها بأن محمد بن عوف رآها في أصل إسماعيل اهـ. وبهذا يتبين أن الخبر واهٍ لأنه ليس من رواية محمد بن عوف. ثم إن الراوي عنه ضعيف أيضاً. وقد ذكر ابن كثير أنه غريب. لكن عاد في آخره فقال: إسناد متقارب. وهي نسخة تروى بها أحاديث جمة اهـ والجواب: أن تلك الأحاديث هي من رواية ابن عوف عنه، كما تقدم آنفاً، والله أعلم.

مُصَرَّحاً به مفسراً في حديث الصور[(١)] المشهور. ثم يقبِضُ أرواحَ الباقين حتى يكونَ آخرُ مَن يموتُ مَلَكَ الموت، وينفرد الحيُّ القيومُ الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمُومة والبقاءِ، ويقولُ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، ثلاث مرات، ثم يُجيبُ نَفْسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، أي: الذي هو واحدٌ وقد قَهَر كلَّ شيءٍ، وحَكَم بالفناء على كلِّ شيءٍ. ثم يُحيي أوّلَ مَن يحيي إسرافيلَ، ويأمُره أن ينفُخ في الصُّورِ أخرى، وهي النفخةُ الثالثة، نفخةُ البعثِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، أي: أحياءٌ بعد ما كانوا عظاماً ورُفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوالِ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥﴾ [الروم: ٢٥].

[٥٨١٦] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن النعمانِ بن سالم قال: سَمِعتُ يعقوبَ بن عاصم بن عُرْوة بنِ مسعود قال: سَمِعتُ رجلاً قال لعبد الله بن عَمرو: إنك تقولُ: الساعةُ تقومُ إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممتُ ألاَّ أحدِّثكم شيئاً، إنما قلتُ: سَترون بعد قليل أمراً عَظِيماً. ثم قال عبد الله بن عَمرو: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يخرُج الدجال في أُمّتي، فيمكثُ فيهم أربعينَ ـ لا أدري أربعينَ يوماً أو أربعينَ عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلةً ـ فيبعث الله عيسى ابن مَرْيَم كأنه عُروة بن مَسعُودٍ الثقفي، فيظهر فيُهلكه الله تعالى. ثم يلبثُ الناسُ بعدَه سِنين سبعاً ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يُرسِل الله ريحاً باردةً من قِبَلِ الشام، فلا يبقى أحدٌ في قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من إيمانٍ إلا قبضتْه، حتى أنه لو كان أحدُهم كان في كَبِدِ جَبَلٍ لدخلت عليه» ـ قال: سَمِعتُها من رسولِ الله ـ ﷺ ـ: «ويبقى شرارُ الناس في خفة الطير، وأحلام السِّباع، لا يَعرِفُون معروفاً، ولا يُنكِرُون مُنكراً. قال: فيتمثل لهم الشيطانُ فيقول: ألا تَستجيبُون؟ فيأمرهم بالأوثان فَيَعبُدونها، وهم في ذلك دارَّة أرزاقُهم، حَسَنٌ عَيشُهم. ثُمَّ يُنفَخ في الصُور فلا يَسمَعُه أحدٌ إلا أَصغى لَيْتاً ورفع لِيتاً، وأول مَن يَسمعه رجلٌ يَلُوطُ حَوْضه، فيُصْعَقُ. ثم لا يبقى أحد إلا صُعِق. ثم يُرسل الله ـ أو: ينزل الله ـ مطراً كأنه الطَّلُّ ـ أو: الظِّل، شَكُّ نُعمان ـ فتَنبُت منه أجسادُ الناسِ. ثم يُنفَخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ يَنظُرُونَ، ثم يقال: يا أيها الناسُ، هَلُمّوا إلى ربِّكم: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٤] ـ قال ـ: ثم يقال: أَخرِجُوا بَعْثَ النارِ. قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمئةً وتسعةً وتِسعُون. فَيومئذ تُبعَث الولدانُ شيباً، ويومَئذٍ يُكشَفُ عن ساق[(٢)]. انفرد بإخراجه مسلمٌ في صحيحه.

[٥٨١٧] وقال البخاريُّ: حدثنا عُمرُ بنُ حَفص بن غيّاث، حَدَّثنا أبي، حدثنا الأعمشُ قال: سَمعت أبا صالح قال: سمِعتُ أبا هُرَيرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «بين النفخَتين أربعون». قالوا: يا أبا هُرَيرة، أربعُون يوماً؟ قال: أبَيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيَتُ. وَيَبْلَى كلُّ شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنْبه، فيه يركب الخلق[(٣)].

[٥٨١٨] وقال أبو يَعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن عُمَر بن محمد، عن زيدِ بن أسلَمَ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «سألتُ جبريلَ ـ عليه

(١) تقدم تخريجه باستيفاء.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم (٢٩٤٠) (١١٦) وأحمد ٢/١٦٦ وابن حبان ٧٣٥٣.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٣٥ ومسلم ٢٩٥٥/١٤١.

السلامُ ـ عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: مَن الذين لم يَشَأِ الله تعالى أن يصعقَهم؟ قال: هم الشُّهداءُ، مُقلَّدون أسيافَهم حولَ عرشِه، تَتلقَّاهم ملائكةٌ يومَ القيامة إلى المحشر بنَجائبَ من ياقوت نِمارُها ألينُ من الحرير، مَدُّ خُطاها مَدُّ أبصارِ الرجالِ، يَسيرُون في الجَنَّة يقولون عند طُول النزهة: انطلِقُوا بِنا إلى ربِّنا ـ عزَّ وجلَّ ـ لننظر كيفَ يقضِي بين خَلْقِه، يَضحَكُ إليهم إلهي، وإذا ضَحِك إلى عبدٍ في موطِنٍ فلا حسابَ عليه»[(١)]. رجاله كلهم ثقاتٌ إلا شيخَ إسماعيلَ بنِ عَيَّاش، فإنَّه غيرُ معروفٍ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، أي: أضاءت يومَ القيامة إذا تجلَّى الحقُّ ـ تبارك وتعالَى ـ للخلائِق لفصل القضاءِ، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، قال قتادة: كتابُ الأعمالِ، ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ: يَشهَدُون على الأمم بأنهم بلَّغُوهم رسالات الله إليهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، أي: الشهداءُ من الملائكة الحَفَظَةِ على أعمال العبادِ من خيرٍ وشرٍّ، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعدلِ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، أي: من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن حالِ الأشقياءِ الكُفَّارِ كيف يُساقُون إلى النار، وإنما يُساقُون سَوقاً عَنيفاً بزَجْرٍ وتَهديدٍ ووَعيدٍ. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، أي: يُدفَعُون إليها دَفعاً، هذا وهُم عِطاشٌ ظِماءٌ، كما قال جلَّ وعلا في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٦]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبُكْمٌ وعُمْيٌ، منهم مَن يمشي على وَجهِهِ، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، أي: بِمُجرَّدِ وُصولهم إليها فُتِحت لهم أبوابُها سَريعاً، لِتُعجِّل لهم العقوبةُ، ثم يقول لهم خَزَنَتُها من الزبانية ـ الذين هم غِلاظُ الأخلاقِ، شِدادُ القُوَى، على وجهِ التقريع والتوبيخ والتنكيلِ ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟، أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، أي: يُقيمون عليكم الحُجج والبَراهين على صِحَّةِ ما دَعوكُم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: ويُحذِّرونَكم من شرِّ هذا اليوم؟ فيقولُ الكُفَّار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: قد جاءُونا وأنذرُونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: ولكن كَذَّبناهم وخالفناهم، لما سبق لنا من الشِّقوة التي كنا نستحقُّها حيثُ عَدَلْنا عن الحقِّ إلى الباطلِ، كما قال تعالى مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا

---

(١) إسناده ضعيف لجهالة عمر بن محمد، فقد قال ابن كثير: غير معروف. ولم أجد من ترجمه، وإسماعيل بن عياش كان يروي عن قوم مجاهيل لا يعرفون، راجع ترجمته في «الميزان».

نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾، أي: رجعُوا على أنفسهم بالملامة والندامة. ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ١١]، أي: بُعداً لهم وخساراً. وقولُهُ تبارك وتعالى هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: كُلُّ مَن رآهم وعَلِم حالَهم يشهَد عليهم بأنهم مستحقُّون للعذاب، ولهذا لم يُسنِد هذا القولُ إلى قائل مُعيَّن، بل أطلقه ليدلَّ على أن الكون شاهدٌ عليهم بأنهم مستحقُّون ما هم فيه بما حَكَم العَدْلُ الخبيرُ عليهم به. ولهذا قال جلَّ جلاله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها لا خُروجَ لكُم منها، ولا زوالَ لكُم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فبئس المصيرُ وبئس المقيلُ لكم، بسبب تكبُّركم في الدنيا، وإبائِكم عن اتّباع الحقّ، فهو الذي صَيَّركم إلى ما أنتم فيه، فبئسَ الحالُ وبئسَ المآل.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

وهذا إخبارٌ عن حال السُّعَداء المؤمنين حين يُساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعدَ جماعةٍ: المُقرَّبون، ثم الأبرارُ، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم، كلُّ طائفة مع من يُناسِبُهم: الأنبياءُ مع الأنبياءِ، والصدِّيقُون مع أشكالهم، والشُّهَداء مع أضرابهم، والعُلَماء مع أقرانهم، وكلُّ صنفٍ مع صنفٍ، كلُّ زُمرة تُناسِب بعضُها بعضاً. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾، أي: وَصَلُوا إلى أبوبِ الجَنَّة بعد مجاوزة الصراطِ حُبِسُوا على قنطرةٍ بين الجَنَّة والنار، فاقتُصَّ لهم مظالم كانت بينَهُم في الدُّنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دُخُولِ الجنة. وقد وَرَد في حديث الصُّور(١) أن المؤمنين إذا انتهَوا إلى أبواب الجنة تَشاوَرُوا فيمن يَستأذن لهم بالدُّخول، فَيقصِدُون آدَم، ثمَّ نوحاً، ثمَّ إبراهيمَ، ثمَّ موسَى، ثم عيسى، ثم مُحمَّداً ـ صلوات الله وسلامُهُ عليهم أجمعين ـ كما فَعَلوا في العَرَصَاتِ عند استشفاعهم إلى الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ أن يأتي لِفَصلِ القضاءِ، ليظهر شرفُ محمد ـ ﷺ ـ على سائر البشر في المواطن كلِّها.

[٥٨١٩] وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنا أولُ شفيعٍ في الجنة» وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول مَن يقرَعُ بابَ الجنة»(٢).

[٥٨٢٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «آتي بابَ الجنة يوم القيامة فأستفتِحُ، فيقول الخازنُ: مَن أنت؟ فأقول: محمدٌ. قال: فيقولُ: بِكَ أُمِرتُ ألاَّ أفتح لأحدٍ قبلَكَ»(٣). ورواه مسلم عن عَمرو بن محمد الناقد وزُهَير بن حرب، كلاهُما عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن سُليمان ـ وهو ابنُ المغيرةِ القَيسي ـ عن ثابتٍ، عن أنس، به.

[٥٨٢١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا معمرٌ، عن هَمّام بن مُنَبِّه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أول زُمرَة تَلِجُ الجنةَ صُوَرهم على صُورَةِ القمرِ ليلَةَ البدرِ، لا يَبصُقون فيها، ولا

---

(١) تقدم تخريجه مستوفياً.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٣٣١ و٣٣٢ (١٩٦).

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٣٣٣ (١٩٧) وأحمد ٣/١٣٦.

يَمتَخِطُون فيها، ولا يَتَغوَّطون فيها. آنيتُهم وأمشاطُهم الذهبُ والفضةُ، ومجامرهم الألُوّة، ورشحهُم المسكُ، ولكلٍّ واحد منهم زوجتان، يُرَى مُخُّ ساقِهما من وَرَاءِ اللحم، من الحُسنِ. لا اختلافَ بينهم ولا تباغُضَ، قلوبُهم على قلبٍ واحدٍ، يُسبِّحون الله بكرةً وَعَشِيّاً»[١]. رواه البخاري عن محمد بنُ مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، كلاهما عن مَعْمَرٍ بإسناده نحوه. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُريرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ.

[٥٨٢٢] وقال الحافظ أبو يعلَى: حدثنا أبو خيثمةَ، حدثنا جَرير، عن عُمَارة بن القعقاع، عن أبي زُرعَةَ، عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «أول زُمْرَة يدخُلون الجنة على صُورَةِ القمر ليلة البدر، والذين يَلُونهم على ضَوءِ أشدِّ كوكبٍ دُرّيّ في السماءِ إضاءةً، لا يَبُولون ولا يَتَغوَّطون ولا يتْفلُون ولا يَمتخطون، أمشاطُهم الذهبُ، ورَشْحُهم المسكُ، وَمَجامِرُهم الألُوَّة، وأزواجُهم الحورُ العين، أخلاقُهم على خُلُقِ رجلٍ واحدٍ، على صورةِ أبيهم آدَم، سِتُّون ذراعاً في السماء»[٢]. وأخرجاه أيضاً من حديث جَرير.

[٥٨٢٢ م] وقال الزُهري، عن سَعِيد، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «يدخلُ الجنةَ من أمتي زُمْرَة، هم سبعونَ ألفاً، تُضِيءُ وجوهُهم إضاءَةَ القمرِ ليلَةَ البدرِ». فقام عُكَّاشة بن مِحصَن فقال: يا رسولَ الله، ادع الله أن يجعَلني منهم. فقال: «اللهم اجعَلْه منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسولَ الله، ادعُ الله أن يجعَلني منهم. فقال ـ ﷺ ـ: «سَبَقك بها عُكَّاشة»[٣]. أخرجاه. وقد رَوَى هذا الحديث ـ في السبعين ألفاً بغير حِسَابٍ ـ البخاريُّ ومسلمٌ، عن ابن عباس، وجابِر بن عبد الله، وعمران بن حُصَين، وابن مسعود، ورِفَاعة بن عَرَابة الجُهَنيُّ، وأم قيس بنتِ مِحْصَنٍ

[٥٨٢٣] وَلَهُما عن أبي حازم، عن سهل بن سعد: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لَيدخلَنَّ الجَنة مِن أُمَّتي سبعون ألفاً ـ أو: سبعمئة ألفٍ ـ آخِذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخُلَ أولُهم وآخرُهم الجنةَ، وجوهُهم على صُورة القَمَرِ ليلةَ البدرِ»[٤].

[٥٨٢٤] وقال أبو بكر بن أبي شَيبَة: حدثنا إسماعيل بن عَيَّاشٍ، عن محمد بن زياد قال: سَمِعت أبا أمامة الباهِلِيّ يقولُ: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: وَعَدني رَبِّي ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن يُدخِلَ الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألفٍ سبعونَ ألفاً، لا حِسَاب عليهم ولا عَذاب، وثلاث حثَيَات من حثَيَات ربي ـ عَزَّ وجَلَّ ـ»[٥]. وكذا رواهُ الوليد بن مسلم، عن صفوَان بن عمرو، عن سُليم بن عامر، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله بن لُحَي عن أبي أمامة.

[٥٨٢٥] ورواه الطبراني، عن عُتبَة بن عَبَدِ السُلَمي: «يشفَعُ كلُّ ألفٍ في سبعينَ ألفاً»[٦]. وروي مثله عن ثوبان، وأبي سعيد الأنماري. وله شواهد من وجوه كثيرة.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٤٥ ومسلم ٢٨٣٤ (١٧) والترمذي ٢٥٣٧ وأحمد ٢/٣١٦ وابن حبان ٧٤٣٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٢٧ ومسلم ٢٨٣٤ (١٥) وابن ماجه ٤٣٣٣ وابن حبان ٧٤٣٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٨١١ ومسلم (٢١٦) (٣٦٩).

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٤٣ ومسلم ٣٧٣ (٢١٩).

(٥) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ٣١٧٠٥ وإسناده صحيح، رواته ثقات مشاهير.

(٦) جيد. أخرجه أحمد ٤/١٨٣ والطبراني ١٧/١٢٦ وإسناده ضعيف لجهالة عامر بن زيد. وله شاهد عن أبي سعيد الأنماري، أخرجه الطبراني ٢٢/ ٣٠٤ ورجاله ثقات، قاله الهيثمي في «المجمع» ١٠/٤٠٨ ـ ٤٠٩، وله شواهد أخرىٰ، وهي وإن كانت ضعيفة، لكن تتأيد بمجموعها، انظر «المجمع» ١٠/٤٠٦ ـ ٤١٠.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾: لم يذكر الجوابَ هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمورُ من فتح الأبوابِ لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقتهم الملائكةُ الخَزَنة بالبشارة والسلام والثَّناءِ، لا كما تَلَقَّى الزبانيةُ الكَفَرَة بالتَّثريبِ والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرّوا وفَرِحوا، بقَدْر كل ما يكون لهم فيه نَعِيم. وإذا حُذِفَ الجواب هاهنا ذَهَب الذهنُ كلَّ مذهبٍ في الرجاءِ والأمل. ومَن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ واوُ الثمانية، واستدلَّ به على أن أبواب الجنة ثمانيةً، فقد أبعد النُّجْعَة، وأغرق في النزْع، وإنما يستفاد كونُ أبواب الجنةِ ثمانيةً من الأحاديث الصحيحة.

[٥٨٢٦] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن الزُّهري، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن أنفق زَوجين من مالِهِ في سبيل الله دُعِي من أبواب الجنة، وللجنة أبوابٌ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقَةِ دُعِي من باب الصدَقةِ، ومن كان من أهل الجهادِ دُعِي من باب الجهاد، ومن كان من أهلِ الصيام دُعِي من باب الرّيّان». فقال أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ: يا رسول الله، ما عَلَى أحد من ضَرُورةٍ دُعِي، من أيها دُعِي، فهل يُدعَى منها كلِّها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكونَ منهم»(١). رَواه البخاريُّ ومسلمٌ، من حديث الزهريِّ، بنحوه.

[٥٨٢٧] وفيهما من حديث أبي حازم سلمةَ بن دينارٍ، عن سَهل بن سعدٍ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن في الجنةِ ثمانيةَ أبوابٍ، بابٌ منها يُسَمَّىٰ الريَّانَ، لا يدخلُه إلا الصائمون»(٢).

[٥٨٢٨] وفي صحيح مسلم، عن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما منكم من أحد يتوضأ فَيُبلِغُ ـ أو: فَيُسبغُ الوضوءَ ـ ثم يقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، إلا فُتِحت له أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ، يدخلُ من أيِّها شاء»(٣).

[٥٨٢٩] وقال الحسنُ بن عَرَفَة: حدثنا إسماعيل بنُ عَيَّاش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَين، عن شَهر بن حَوْشَبٍ، عن مُعاذٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مفتاحُ الجنةِ لا إله إلا الله»(٤).

## ذِكْرُ سَعَةِ أبوابِ الجَنَّةِ، نسألُ الله من فَضْلِهِ أن يجعَلَنا مِنْ أهلِها:

[٥٨٣٠] في الصَّحِيحَين من حديث أبي زُرْعَةَ، عن أبي هُرَيرةَ في حديث الشفاعة الطويل: «فيقولُ الله تعالىٰ: يا محمدُ، أَدْخِلْ مَن لا حساب عليه من أُمّتِك من البابِ الأيمنِ، وهم شركاءُ الناس في الأبواب

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٨٩٧ والنسائي ٤/١٦٨، ١٦٩ والترمذي ٣٦٧٤ وابن حبان ٣٠٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٨٩٦ ومسلم ١١٥٢ والنسائي ٤/١٦٨ وابن ماجه ١٦٤٠ والترمذي ٧٦٥ وابن حبان ٣٤٢٠.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم (٢٣٤) (١٧) وأبو داوود ١٧٠ والترمذي ٥٥ والنسائي ١/٩٢ وابن ماجه ٤٧٠ وأحمد ٤/١٥٣ وابن حبان ١٠٥٠.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/٢٤٢ والبزار في «سننه» ١/٩ كلاهما من حديث معاذ. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠) فيه انقطاع بين شهر بن حوشب ومعاذ. وإسماعيل بن عياش روايته عن أهل الحجاز ضعيفة، وهذا منها.

الأُخَر. والذي نفسُ محمدٍ بيده إن ما بين المِصراعين من مَصَاريع الجنةِ ـ ما بين عِضَادَتي الباب ـ، لكما بين مَكّة وهَجَر ـ أو: هَجَرَ وَمكّة»[١]. وفي رواية: «مكة وبُصْرى».

[٥٨٣١] وفي صحيح مسلم، عن عُتْبَة بن غَزْوَانَ أنه خَطَبهم خطبة فقال فيها: ولقد ذُكِر لنا أن ما بين مِصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وَهُو كَظِيظٌ من الزِّحام[٢].

[٥٨٣٢] وفي المسند عن حَكِيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ، مثله[٣].

[٥٨٣٣] وقال عبد بن حُمَيد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ ما بين مصراعَينِ في الجَنَّةِ مسيرةَ أربعينَ سنةً»[٤] وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾، أي: طابت أعمالُكم وأقوالُكم، وطاب سعيكُم فطابَ جزاؤُكم.

[٥٨٣٤] كما أمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يُنادَى بين المسلمين في بعضِ الغزوات: «إن الجَنّة لا يدخلُها إلا نفسٌ مُسلِمة»، وفي رواية: «مُؤمِنةٌ»[٥]. وقولُهُ: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، أي: ماكِثينَ فيها أبداً، لا يبغُون عنها حِوَلاً. ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، أي: يقولُ المؤمنون إذا عايَنُوا في الجَنَّةِ ذلك الثوابَ الوافرَ والعطاءَ العظيمَ، والنعيمَ المُقيمَ، والمُلك الكبيرَ، يقولون عند ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، أي: الذي كان وَعدنا على ألسِنة رُسُله الكرام، كما دَعَوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤ ـ ٣٥]. وقولُهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادةُ، والسدِّي، وابنُ زيد: أي أرض الجنةِ. وهذه الآيةُ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، أي: أين شئنا حَلَلنا، فنعمَ الأجرُ أجرُنا على عملنا.

[٥٨٣٥] وفي الصحيحَين من حديثِ الزهريِّ، عن أنسٍ في قِصَّةِ المعراجِ قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أُدخِلْتُ الجنةَ فإذا فيها جَنابذُ[٦] اللؤلؤ، وإذا تُرابها المِسكُ»[٧].

---

(١) متفق عليه وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم (٢٩٦٧) (١٤) والترمذي ١٣٦ وابن ماجه ٤١٥٦ وأحمد ٤/ ١٧٤ وابن حبان ٧١٢١.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣ وإسناده حسن، رجاله ثقات وله شواهد.

(٤) إسناده ضعيف. لأجل ابن لهيعة، ودرّاج في روايته عن أبي الهيثم، لكن يتقوى بما قبله، وانظر المجمع ١٠/ ٣٩٧.

(٥) صحيح. ورد من حديث ابن عباس، أخرجه مسلم ١١٤ والترمذي ١٥٧٤، ومن حديث علي، أخرجه مسلم ١٣٤٧ وتقدم في أول سورة براءة.

(٦) جنابذ: جمع جُنْبُذَة وهي القبة، وروي عند بعضهم «حبائل».

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩ ومسلم ١٦٣ وابن حبان (٧٤٠٦).

[٥٨٣٦] وقال عبدُ بن حُمَيد: حدثنا رَوح بن عُبادة، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، حدثنا الجُرَيري، عن أبي نَضرَةَ، عن أبي سَعِيد أن رسول الله ـ ﷺ ـ سأل ابن صائدٍ عن تُربةِ الجَنَّةِ؟ فقال: دَرْمَكَةٌ[١] بيضاءُ مِسْكٌ خالِص. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «صَدَق»[٢]. وكذا رواه مسلم، من حديث أبي مسلَمةَ، عن أبي نَضرَةَ، عن أبي سعيد، به.

[٥٨٣٧] ورواه مسلمٌ أيضاً عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن أبي أسامةَ، عن الجُرَيري، عن أبي نَضرَة، عن أبي سعيد: أن ابنَ صائد سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن تُربةِ الجَنَّةِ، فقال: «دَرْمَكة بيضاءُ مسكٌ خالصٌ»[٣].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا أبو غَسّان مالكُ بن إسماعيل، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن عاصمِ بن ضَمرَةَ، عن عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سِيقُوا حتى انتهَوا إلى باب من أبواب الجنةِ، فوجدُوا عندها شجرةً يخرُج من تحتِ ساقها عينان، فَعَمدُوا إلى إحداهما فَتطهَّروا منها، فَجَرت عليهم نَضرَةُ النعيم، فلم تُغير أبشارُهم بعدها أبداً، ولم تُشعَث أشعارُهم أبداً بعدَها، كأنما دُهِنُوا بالدّهان. ثم عَمَدوا إلى الأخرى كأنما أمِرُوا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى. وتلقتهم الملائكةُ على أبوابِ الجنةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾. وَيلقى كلُّ غلمانٍ صاحبَهم يُطيفون به، فِعْلَ الولدانِ بالحميم جاء من الغيبة: أبْشِرْ، قد أَعدَّ الله لك من الكرامةِ كذا وكذا، قد أعدَّ الله لك من الكرامةِ كذا وكذا. قال: وينطلِقُ غلامٌ من غِلْمانِه إلى أزواجِهِ من الحُورِ العين، فيقول: هذا فلانٌ ـ باسمه في الدنيا ـ فيقلن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم. فَيَستخِفُّهن الفَرَحُ حتى تخرج إلى أُسْكُفَّة الباب. قال: فَيَجِيء فإذا هو بنمارقٍ مصفُوفَةٍ، وأكوابٍ موضُوعةٍ، وزرابيُّ مبثوثةٍ. قال: ثم ينظر إلى تأسيسِ بُنيانه، فإذا هو قد أَسّس على جندلِ اللؤلؤ، بين أحمَرَ وأخضَرَ وأصفَرَ وأبيض، ومن كلِّ لونٍ. ثم يرفع طَرْفَه إلى سَقْفِه، فلولا أن الله تعالىٰ قَدَره له، لألمَّ أن يذهَب بَبَصرِه، إنه لمثل البَرْقِ. ثم ينظُر إلى أزواجِه من الحُورِ العين، ثم يَتّكِيءُ على أريكةٍ من أرائِكه، ثم يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ . . . الآية.

[٥٨٣٨] ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسّانَ مالك بن إسماعيل النَّهدِيُّ، حدثنا مسلمة بن جعفر البَجَليُّ قال: سَمِعتُ أبا مُعاذٍ البصري يقول: إن عَلِياً ـ رضي الله عنه ـ كان ذاتَ يوم عندَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقالَ النبيُّ ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيدِه، إنهم إذا خَرَجُوا من قُبورهم يُسْتَقْبَلُون ـ أو: يُؤْتونَ ـ بنُوق لها أجنحةٌ، وعليها رِحالُ الذهب، شِرَاكُ نِعالهم نورٌ يتلألأ، كلُّ خطوة منها مدُّ البصرِ، فَينتهُون إلى شجرةٍ ينبعُ من أصلِها عينان، فيشرَبُون من إحداهما فَيُغسَل ما في بطونهم من دَنَسٍ، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعَث أبشارُهم ولا أشعارُهم بعدَها أبداً، وتجرِي عليهم نَضرَةُ النَّعيم، فينتهونَ ـ أو: فيأتون ـ بابَ الجَنّة، فإذا حَلقةٌ من ياقوتةٍ حمراءَ على صفائحِ الذهبِ، فَيَضربُونَ بالحلقةِ على الصَّفيحة، فلو تُسْمَع لها طَنِينٌ يا علي؟! فَيَبلغُ كلَّ حوراء أن زَوجها قد أقبلَ، فتبعَث قَيِّمها فيفتح له، فإذا رآه خَرَّ له» ـ قال مسلمةُ: أراه قال: «ساجداً ـ فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قَيِّمك، وُكِّلْتُ بأمرِكَ. فيتبعه ويقفو أثره، فَتَستخِفُّ الحوراءَ العَجَلةُ، فَتَخرج من خيامِ الدرِّ والياقوتِ حتى تَعتنِقَه، ثم تقولُ: أنتَ حِبِّي، وأنا حِبُّك، وأنا الخالدةُ التي لا أموتُ، وأنا

---

(١) الدرمك: التراب الناعم.

(٢) إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، وهو عند مسلم ٢٩٢٨ من وجه آخر.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩٢ ـ ٢٩٢٨.

الناعمةُ التي لا أباس، وأنا الراضيةُ التي لا أسخطُ، وأنا المُقيمةُ التي لا أظعَنُ». فيدخل بيتاً من أسّه إلى سَقْفهِ مئةُ ألفِ ذراعٍ، بناؤه على جَنْدَل اللُّؤلؤ، طرائقُ أصْفرُ وأخْضَرُ وأحمرُ، ليس فيها طريقةٌ تُشاكِلُ صاحِبَتَها، في البيت سبعونَ سريراً، على كلِّ سَريرٍ سبعون حَشيَّةٍ، على كل حشيةَ سبعون زوجةً، على كلِّ زوجة سبعون حُلَّة، يُرى مُخ ساقِها من باطِنِ الحُلَلِ، يقضِيَ جماعَها في مقدار ليلةٍ من لياليكم هذه. الأنهارُ من تحتهم تَطَّرِدُ، أنهارٌ من ماء غير آسن ـ قال: صافٍ، لا كَدَر فيه ـ وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يَتَغيَّر طعمُه ـ قال: لم يخرُج من ضُروع الماشية ـ وأنهارٌ من خَمر لَذَّةٍ للشاربين ـ قال: لم تَعصِرها الرجالُ بأقدامهم ـ وأنهار من عَسَل مُصَفًّى ـ قال: لم يخرج من بُطون النَّحل. يستجني الثمارَ، فإن شاءَ قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاءَ متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤]. فَيَشتهي الطعامَ فيأتيه طيرٌ أبيضُ ـ قال: ورُبَّما قال: أخضرُ. قال: ـ فَتَرفع أجنِحتَها، فيأكلُ من جنُوبها، أيَّ الألوان شاء، ثم يَطير فيذهَبُ، فيدخل الملك فيقول: سلامٌ عليكُم، تلكم الجنة التي أُورِثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شَعَرَةً من شَعَرِ الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمسُ معها سواداً في نور»[1]. هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذَكَر تعالى حُكمه في أهلِ الجنة والنار، وأنه نَزَّلَ كُلاً في المحلِّ الذي يَليق به ويصلُح له، وهو العادلُ في ذلك الذي لا يَجُور ـ أخبر عن ملائكته أنهم مُحدِقون من حَولِ عَرْشِهِ المجيدِ، يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهم، ويُمَجِّدُونه ويُعَظِّمونه ويُقَدِّسونه ويُنَزِّهونه عن النقائص والجَور، وقد فَصل القضية، وقَضى الأمرَ، وحَكَمَ بالعَدْلِ. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾، أي: بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾. ثم قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، أي: ونَطَق الكونُ أجمعه ـ ناطِقه وبَهيمه ـ لله ربِّ العالمين، بالحمدِ في حُكمه وعَدله، ولهذا لم يُسنِدِ القول إلى قائلٍ، بل أطلقه فَدَلَّ على أن جميعَ المخلوقاتِ شَهِدَت له بالحمد. قال قتادةُ: افتتح الخَلْق بالحمد في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختَتَم بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

## آخر تفسير سورة الزُّمر، ولله الحمد

(١) ضعيف جداً. له علتان: أبو معاذ، وهو سليمان بن أرقم، متروك الحديث. ولم يدرك علياً.

# سُورَةُ غَافِر

ترتيبها ٤٠ — آياتها ٨٥

## وَهِيَ مَكِّية

قد كَرِه بعضُ السلف، منهم محمدُ بن سِيرينَ أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آلُ حم». قال عبد الله بن مسعود: «آلُ حمَ» ديبَاجُ القرآن، وقال ابنُ عباس: إنَّ لكل شيء لباباً، ولُبَاب القرآنِ «آل حم»، أو قال: الحواميم. وقال مِسْعَر بن كِدَامٍ: كان يقال لهنَّ: العَرَائِسُ. رَوىٰ ذلك كلَّه الإمام العَلَمُ أبو عُبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالىٰ، في كتابِ فضائل القرآن. وقال حُمَيد بن زَنْجويه: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: إنَّ مثل القرآنِ كَمَثل رجُلٍ انطلق يرتادُ لأهله منزلاً، فَمرَّ بأثرِ غيثٍ، فبينا هو يسيرُ فيه ويتعجب منه إذ هَبَطَ على رَوضاتٍ دَمِثاتٍ فقال: عَجِبتُ من الغيثِ الأولِ فهذا أعجبُ وأعجبُ. فقيل له: إنَّ مثَل الغيثِ الأوَّل مثلُ عِظم القرآن، وأن مثلَ هؤلاء الروضات الدَّمِثات، مثل آلِ حم في القرآن. أورده البغويُّ. وقال ابنُ لَهيعة، عن يزيدَ بن أبي حَبِيب: أن الجرّاح بن أبي الجرّاح حَدَّثَه عن ابنِ عباسٍ، قال: لكلِّ شيءٍ لبابٌ ولُباب القرآن الحواميمُ. وقال ابن مسعود: إذا وَقَعتُ في آلِ حم فقد وقعتُ في روضات أتأنق فيهنَّ. وقال أبو عُبيد: حدثنا الأشجعي، حدثنا مِسْعر ـ هو ابنُ كِدَام ـ عمن حَدَّثه: أن رَجُلاً رأى أبا الدَّرداء رضي الله عنه يبني مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل (آل حم). وقد يكونُ هذا المسجدُ الذي بناه أبو الدرداءِ، هو المسجدَ المنسوبَ إليه داخلَ قلعةِ دمشق. وقد يكون صيانتُها وحفظُها ببركته وبركةِ ما وُضِع له، فإن هذا الكلام يدلُّ على النصر على الأعداء.

[٥٨٣٩] كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن بُيِّتُم الليلةَ فقولُوا: حم لا يُنصَرُونَ». وفي رِوايةٍ: «لا تُنصَرُونَ»(١).

[٥٨٤٠] وقال الحافظُ أبو بكر البَزَّار: حدثنا أحمدُ بن الحكم بن ظبيان بن خَلَف المازني، ومحمد بن الليث الهَمْداني قالا: حدثنا مُوسَى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن ـ بن أبي بكر المليكي، عن زُرَارَة بن مُصعَبٍ، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ آية الكرسي وأول سورة حم المؤمن عُصِم ذلك اليومَ من كلِّ سُوءٍ»(٢). ثم قال: لا نعلَمُه يُروَى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذيُّ من حَدِيث المُلَيكي، وقال: «تَكلَّم فيه بعضُ أهلِ العلم من قبل حفظه»

---

(١) يأتي بعد حديث.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٨٧٩ وفيه عبد الرحمن المليكي، غير قوي، وتقدم تخريجه في سورة البقرة: ٢٥٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

أمّا الكلامُ على الحروف المُقطَّعة فقد تَقدَّم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد قيل: إن ﴿حمٓ﴾ اسم من أسماء الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، وأنشدُوا في ذلك بيتاً:

يُذَكِّرُني حَامِيمَ والرمحُ شَاجِرٌ فَهَلاَّ تَلاَ حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ.

[٥٨٤١] وقد وَرَد في الحديث الذي رواه أبو داودَ والترمذيُّ، من حديث الثَّوري، عن أبي إسحاقَ، عن المُهَلَّب بن أبي صُفرَة قال: حَدَّثني مَن سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إن بُيِّتُّم الليلةَ فقولُوا: حم لا يُنصَرُون»(١). وهذا إسنادٌ صحيحٌ. واختار أبو عُبَيد أن يُروَى: «فقولوا: حم، لا يُنصَرُوا»، أي: إن قلتم ذلك لا يُنصَرُوا. جعله جزاءً لقوله: فقولوا. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾، أي: تنزيلُ هذا الكتابِ ـ وهو القرآنُ ـ من الله ذي العزَّةِ والعلم، فلا يُرَامُ جنابُه، ولا يخفَى عليه الذرُّ وإن تكاثَفَ حِجَابُه. وقولُهُ عز وجل: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، أي: يَغفِرُ ما سَلَف من الذنب، ويقبَلُ التوبةَ في المستقبَلِ لمن تاب إليه وخَضَع لديه. وقولُهُ جل وعلا: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، أي: لمن تَمرَّد وطَغَى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالىٰ، وبَغَى، وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]. يقرنُ هذين الوصفَين كثيراً في مواضعَ مُتعدِّدةٍ من القرآن؛ ليبقَى العبدُ بين الرجاءِ والخوفِ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ ـ قال ابن عباس: يعني السَّعةَ والغِنَى. وهكذا قال مجاهدٌ. وقال يزيد بنُ الأصمِّ: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾: يعني الخيرَ الكثيرَ. وقال عكرمة: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾: ذي المَنِّ. وقال قتادةُ: ذي النِّعم والفواضِلِ. والمعنى أنه المتفضِّلُ على عباده، المتطوِّل عليهم بما هُم فيه من المنَن والإنعام، التي لا يُطيقون القيامَ بِشُكرِ واحدةٍ منها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]... الآية. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، أي: لا نَظير له في جميع صفاته، فلا إله غيرُه، ولا ربَّ سواهُ ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: إليه المرجعُ والمآبُ، فيجازي كلَّ عاملٍ بِعَمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عَيَّاش: سَمِعت أبا إسحاق السبيعي يقول: جاء رجلٌ إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أميرَ المؤمنين، إني قَتَلْتُ، فهل لي من توبةٍ؟ فقرأ عليه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، وقال: اعمَلْ ولا تيأَسْ. رواه ابن أبي حاتم ـ واللفظ له ـ وابنُ جَرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن مَرْوان الرَّقِّي، حدثنا عُمَر ـ يعني ابنَ أَيُّوبَ ـ أخبرنا: جعفر بن بُرقانَ، عن يزيدَ بن الأصمِّ قال: كان رجلٌ من أهل الشام ذو بأس، وكانَ يَفِدُ إلى عُمَر بن الخطاب، فَفَقَده عمرُ فقال: ما فعل فلانُ بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشرابِ. قال:

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٥٩٧ والترمذي ١٦٨٢ والنسائي في «اليوم والليلة» ٦٢٢ والحاكم ٢/١٠٧ وإسناده صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، لكن هو محمول علىٰ أن ذلك اللفظ يعرف المسلمون بعضهم بعضاً، ففي لفظ آخر «فليكن شعاركم:....» انظر «المستدرك» وتفسير الشوكاني عند هذه الآية بتخريجي.

فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلامٌ عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾. ثم قال لأصحابه: ادعُوا الله لأخيكم أن يُقبِلَ بقلبه، وأن يتوبَ عليه. فلما بَلَغَ الرجل كتابُ عمر جَعَل يقرؤه ويُردِّده، ويقول: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، قد حَذَّرني عُقوبته، وَوَعدني أن يغفِرَ لي. وَرَواه الحافظُ أبو نُعَيم من حديث جَعفر بن بُرْقانَ، وزاد: فلم يزل يُرَدِّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع. فلما بلغ عمرَ خبرهُ قال: هكذا فاصنعُوا، إذا رأيتم أخاً لكم زَلّ زلَّة فَسَدِّدوه وَوَفِّقُوه، وادعُوا الله له أن يتوب عليه، ولا تَكُونوا أعواناً للشيطان عليه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عُمَر بن شَبَّة، حدثنا حَمَّاد بن واقد أبو عُمر الصفَّار ـ، حدثنا ثابتُ البُنانيُّ، قال: كنتُ مع مُصعب بن الزبير في سَوَاد الكوفة، فدخلتُ حائطاً أُصلِّي ركعتين، فافتتحتُ: حم، المؤمن، حتى بلغت: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فإذا رجلٌ خلفي على بغلةٍ شهباء عليه مُقَطَّعات يَمَنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ فقل: يا غافرَ الذنب، اغفر لي ذنبي. وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، فقلْ: يا قابلَ التَّوبِ، اقبل توبتي. وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، فقل: يا شديدَ العقاب، لا تُعاقِبني. قال: فالتفتُّ فلم أرَ أحداً، فخرجتُ إلى الباب فقلت: مَرّ بكم رجلٌ عليه مقطعات يَمَنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً. فكانوا يَرَون أنه إلياس. ثم رَوَاه من طريق أخرى، عن ثابتٍ، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

يقولُ تعالى: ما يدفع الحق ويُجادِل فيه بعدَ البيانِ وظهور البرهان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الجاحِدُون لآياتِ الله وحُجَجِه وبراهينه، ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: في أموالها ونَعيمها وزَهرتها، كما قال جل وعلا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧]. وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٢٤﴾ [لقمان: ٢٤]. ثم قال تعالى مُسَلِّياً لنبيِّه محمدٍ ـ ﷺ ـ في تكذيب من كذَّبه من قومه، بأن له أسوة مَن سَلَف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإنه قد كَذَّبتهم أُمَمُهم وخالفُوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليلٌ، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، وهو أول رَسُولٍ بَعَثه الله ينهَى عن عبادةِ الأوثان، ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾، أي: من كلِّ أُمَّةٍ، ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾، أي: حَرَصُوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رَسولَهم ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، أي: مَاحَلُوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

[٥٨٤٢] وقد قال أبو القاسم الطبرانيُّ: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارمٌ أبو النعمان، حدثنا مُعتمِرُ بن سليمان قال: سَمِعت أبي يُحدِّث عن حَنَش، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحضَ بباطله حَقًّا فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ الله، وذمَّةُ رسولِه ﷺ»(١). وقولُهُ جلَّت عظمته:

---

(١) حسن. أخرجه الطبراني ١١/ ١٧٢ والحاكم ٤/ ١٠٠ وإسناده واهٍ، قال الهيثمي في «المجمع» ٤/ ٢٠٥: فيه حنش، وهو متروك. وصححه الحاكم، وقال الذهبي: حنش ضعيف، وأخرجه الطبراني ١١/ ١٩٤ من وجه آخر، وفيه حمزة النصيبي؛ وهو متروك. وورد من وجه آخر، أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» ٦٣ وفيه سعيد بن رحمة ضعيف؛ وله شاهد =

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾، أي: أهلكتهم على ما صَنَعُوا من هذه الآثام والذنوبِ العِظام، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: فكيف بلغكَ عَذابي لهم، ونَكالي بهم؟! قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادةُ: كان شديداً والله. وقولُهُ جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾، أي: كما حقَّت كلمةُ العذابِ على الذين كَفروا من الأمم السالفة كذلك حَقَّت على المُكَذِّبين من هؤلاء الذين كَذَّبوك وخالَفوك ـ يا محمد ـ بطريقِ الأولى والأحرى، لأن مَن كذَّبك فلا وُثوق له بتَصديقِ غيرك؛ والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾

يُخبر تعالى عن الملائكة المقرَّبين مَن حَمَلة العرش الأربعةِ، وَمَن حوله من الملائكة الكَرُوبيِّين، بأنهم يُسَبِّحون بحمدِ ربهم، أي: يَقرنُون بين التسبيح الدالِّ على نفي النقائص، والتحميدِ المقتضي لإثبات صفاتِ المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: خاشِعون له أذلاء بين يديه، ﴿وَ﴾ أنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: مِن أهل الأرض ممَّن آمن بالغيب، فَقَيَّض الله سبحانه ملائكته المُقرَّبين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب ولما كان هذا من سَجايا الملائكة ـ عليهم الصلاةُ والسلامُ ـ كانوا يُؤَمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صَحيح مسلم:

[٥٨٤٣] «إذا دعا المسلم لأخيه بِظَهرِ الغيبِ قال الملك: آمين، ولك بمثله»(١).

[٥٨٤٤] وقد قال الإمام أحمدُ: حَدَّثنا عبدُ الله بن محمد ـ هو ابنُ أبي شَيبةَ ـ، حدثنا عبدةُ بن سُلَيمان، عن محمد بن إسحاقَ، عن يعقوبَ بن عُتبَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ صَدَّقَ أُمَيَّة في شيءٍ من شعرِه، فقال:

رَجُلٌ وَثَـور تَـحْـتَ رِجْـلِ يَـمـيـنِـه ... وَالـنَّـسْـرُ لِـلأُخْـرَى، وَلَـيْـثٌ مُـرْصَـدُ

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صَدَقَ»، فقال:

وَالـشَّـمـسُ تَـطْـلـعُ كـلَّ آخر لَـيْـلَـةٍ ... حَـمْـراءُ يُـصْـبِـحُ لَـونُـهـا يَـتَـوَرَّدُ

تَـأبَـى فَـمـا تَـطْـلُـعُ لَـنـا فـي رِسْـلِـهـا ... إلاَّ مُـعَـذَّبَـةً وَإلاَّ تُـجْـلَـدُ

فقال النبي ـ ﷺ ـ: «صَدَقَ». وهذا إسنادٌ جيِّدٌ(٢) وهو يقتضي أن حملةَ العرشِ اليومَ أربعة، فإذا كان يومُ القيامة كانوا ثمانيةً، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾. وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمعُ بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث، وبين الحديث الذي رواه أبو داود:

---

= بمعناه من حديث ابن عمر، أخرجه الحاكم ٤/ ١٠٠ وصححه ووافقه الذهبي، وهو غير قوي لأجل عطاء الخراساني، لكن الحديث حسن بشواهده.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٨٦ (٢٧٣٢) عن أبي الدرداء مرفوعاً.

(٢) إسناد ضعيف، والمتن منكر. أخرجه أحمد ١/ ٢٥٦ وأبو يعلىٰ ٢٤٨٢ والطبراني ١١٥٩١، فيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس، ومع ذلك جوده المصنف!! مع أن المتن منكر، فإن ظاهر القرآن علىٰ أن حملة العرش ثمانية.

[٥٨٤٥] حدثنا محمدُ بن الصباح البزَّارُ؛ حدثنا الوليد بن أبي ثَور، عن سِماكٍ، عن عبد الله بن عَمِيرة، عن الأحنف بن قَيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنتُ بالبطحاء في عصابةٍ فيهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فمرَّت بهم سحابةٌ، فنظر إليها فقال: «ما تُسمُّون هذه؟» قالوا: السحابَ. قال: «والمُزنَ»؟ قالوا: والمُزنَ، قال: «والعَنَان»؟ قالوا: والعَنَان ـ قال أبو داود: ولم أُتقِن العَنَان جيداً ـ قال: «هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض؟». قالوا: لا ندري. قال: «بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاثٌ وسبعون سنةً، ثم السماء فوقَها كذلك ـ حتى عَدّ سبعَ سمواتٍ ـ ثم فوقَ السماء السابعة بحرُ ماءٍ، أسفلُه وأعلاهُ مثلُ ما بين سماء إلى سماء، ثم فَوق ذلك ثمانية أوْعَال، بين أظلافِهِنَّ ورُكَبِهِنَّ مثلُ ما بين سَماءٍ إلى سماءٍ، ثم على ظُهورِهنَّ العرشُ بين أسفله وأعلاه مثلُ ما بين سَماءٍ إلى سماءٍ، ثم الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ فَوقَ ذلك»(١). ثم رواه أبو داود والترمذيُّ وابنُ ماجه، من حديث سِماك بن حرب، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ غريبٌ». هذا يقتضي أن حَمَلة العرشِ ثمانيةٌ، كما قال شَهر بن حَوشبٍ: حَمَلةُ العرشِ ثمانيةٌ، أربعةٌ يقولون: سُبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمدُ على حِلْمِكَ بعد عِلْمِك. وأربعة يقولون: سُبحانك اللهُمَّ وبحمدِك، لكَ الحمدُ على عفوِك بعد قُدرَتِك. ولهذا يقولون إذا استغفرُوا للذين آمنُوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، أي: إن رحمتَكَ تَسعُ ذُنوبَهم وخطاياهم، وعِلْمَك مُحيطٌ بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، أي: فاصفح عن المُسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عمَّا كانُوا فيه، واتَّبعوا ما أمرتَهم به، من فعل الخيراتِ وتَرْكِ المُنكراتِ، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: وزَحْزِحهُم عن عذابِ الجَحِيم، وهو العذابُ الموجعُ الأليم. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾، أي: اجمع بينَهم وبينَهم، لِتَقرَّ بذلك أعينُهم بالاجتماع في منازلَ مُتجاوِرةٍ، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، أي: ساوينا بين الكلِّ في المنزلة، لِتقرَّ أعينهم، وما نقَصنا العالي حتى يُساوي الداني، بل رفعنا ناقصَ العمل، فساويناه بكثير العَمَلِ، تَفضُّلاً مِنّا ومِنّةً. وقال سعيدُ بن جُبير: إنَّ المؤمن إذا دَخَل سَأَل عن أبيه وابنه وأخِيه، أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغُوا طبقتك في العَمل. فيقول: إني إنما عَمِلت لي ولهم. فَيُلحَقُونَ به في الدَّرَجةِ، ثم تلا سعيدُ بن جُبير هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾. قال مُطرِّفُ بنُ عبدِ الله بن الشِّخّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تلاَ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية. وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ. وقولُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: الذي لا تُمانَع ولا تُغالَب، وما تشأ كانَ وما لم تَشأ لم يكن، الحكيمُ في أقوالِك وأفعالك، من شَرْعِك وقَدَرِك. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: فِعْلَها أو وَبالها مِمَّن وَقَعت منه، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامةِ، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾، أي: لَطُفت به ونَجَّيته من العُقوبةِ، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ

(١) أخرجه أبو داوود ٤٧٢٣ وابن ماجه ١٩٣ والترمذي ٣٣١٧ وإسناده ضعيف لضعف الوليد، وتقدم.

﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم يُنَادَون يومَ القيامة وهُم في غمرات النيرانِ يَتَلظَّون، وذلك عندما باشروا من عذابِ الله تعالىٰ ما لا قِبَل لأحدٍ به، فَمَقتُوا عند ذلك أنفُسَهم وأبغضُوها غايةَ البُغضِ، بسبب ما أسلفُوا من الأعمالِ السيئةِ، التي كانت سَبَبَ دُخُولِهم إلى النار: فأخبرتهُم الملائكةُ عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم نداءً بأنَّ مَقْتَ الله تعالىٰ لهم في الدنيا حين كان يُعرَضُ عليهم الإيمان، فيكفرونَ ـ أَشَدُّ من مَقْتِكم ـ أيها المعذبون ـ أنفسَكم اليومَ في هذه الحالة. قال قتادةُ في قوله تعالىٰ: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، يقول: لَمَقتُ الله أهلَ الضَّلالة حين عُرِض عليهم الإيمانُ في الدنيا، فتركوه وَأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مَقتوا أنفُسَهم حين عايَنُوا عذابَ الله يوم القيامة. وهكذا قال الحسنُ البصري، ومجاهدٌ، والسُدِّيُّ، وذَرُّ بن عَبْدِ الله الهَمْدانيُّ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، وابنُ جَرير الطَّبريُّ، رَحمهم الله. وقولُهُ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، قال الثوريُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص، عن ابن مَسعُودٍ: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]. وكذا قال ابنُ عباس، والضحَّاك، وقتادةُ، وأبو مالك. وهذا هو الصوابُ الذي لا شكَّ فيه ولا مِرْيَةَ. وقال السُدِّيُّ: أُميتُوا في الدنيا ثم أُحيُوا في قُبورهم فَخُوطِبُوا، ثم أُمِيتُوا ثم أُحيُوا يوم القيامة. وقال ابنُ زيد: أُحيُوا حين أخذ عليهم الميثاق من صُلبِ آدم عليه السلام، ثم خَلَقهم في الأرحام، ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة. وهذان القولان ـ من السُدِّيِّ، وابن زيدٍ ـ ضعيفانِ؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قولُ ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما.

والمقصودُ من هذا كلِّه أن الكُفَّارَ يسألون الرجعَةَ وهم وقوفٌ بين يدَي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في عرَصاتِ القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يُجَابون. ثم إذا رأَوُا النار وعايَنُوها ووقفُوا عليها، ونظرُوا إلى ما فيها من العذاب والنكالِ، سألُوا الرجعَةَ أشدَّ مما سألوا أول مَرَّةٍ، فلا يجابُونَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨]. فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسَّها وحَسِيسَها ومقامِعَها وأغلالها، كان سُؤالُهم للرجعةِ أشدَّ وأعظمَ، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ ـ ١٠٨]، وفي هذه الآية الكريمة تلَطَّفوا في السؤال، وقدّموا بين يدَي كلامهم مُقدِّمةً، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، أي: قدرتُك عظيمةٌ، فإنك أحيينا بعد ما كنا أمواتاً، ثم أمتّنا ثم أحييتنا، فأنت قادرٌ على ما تَشاء، وقد اعترفنا بذُنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، أي: فهل أنت مُجيبنا إلى أن تُعيدَنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادرٌ على ذلك، لِنعمَلَ غيرَ الذي كنا نعمَلُ، فإن عُدنا إلى ما كُنَّا فيه فإنا ظالمون. فأُجيبُوا أن لا سبيلَ إلى عَوْدِكم ومرجِعُكم إلى الدار الدنيا. ثم عَلَّل المنع من ذلك بأن سَجاياكُم لا تقبلُ الحقَّ ولا تقتضِيه بل تَجْحَده وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾، أي: أنتم هكذا تكونُونَ، وإن رُدِدتُم إلى الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وقولُهُ جل وعلا: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾، أي: هو الحاكمُ في خَلْقِه، العادِلُ الذي لا يجورُ، فيَهدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، ويَرْحَمُ من يشاء، ويُعَذِّب من يشاء، لا إله إلا هو. وقولُهُ جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: يُظهر قدرتَه لِخَلْقِه بما يشاهِدُونه في خَلْقِهِ العُلوي والسفلي من الآياتِ العظيمةِ الدالَّة على كمالِ خالقها ومُبدِعها ومُنْشِئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يَخرُج به من الزروع والثمار ما هو مُشاهَدٌ بالحِسِّ، من اختلافِ ألوانه وطُعومِه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماءٌ واحدٌ، فبالقدرة العظيمة فاوَتَ بين هذهِ الأشياءِ، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: يعتبر ويتفكَّر في هذه الأشياءِ ويستدِلُّ بها على عَظَمةِ خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: مَنْ هو بَصيرٌ مُنيبٌ إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾، أي: فأخلِصُوا لله وحدَه العبادَة والدعاء، وخالِفُوا المشركين في مَسْلَكِهم ومَذْهَبِهم.

[٥٨٤٦] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا هشام ـ يعني ابن عُروَة بن الزبير ـ عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تَدْرُسَ المكيّ قال: كان عبدُ الله بن الزبير يقولُ في دُبُرِ كلِّ صلاة حين يُسَلِّم: «لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، لا إلهَ إلا اللهُ، ولا نعبدُ إلا إيَّاه، له النعمةُ وله الفَضْلُ، وله الثناءُ الحَسَنُ، لا إله إلا الله، مُخلِصِينَ له الدِّينَ ولو كَرِه الكافرون». قال: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُهَلِّلُ بِهنَ دُبر كُلِّ صَلاةٍ[١].

[٥٨٤٧] ورواه مُسلم وأبو داودَ والنسائيُّ، من طُرُق، عن هشام بن عُروَةَ، وحجَّاج بن أبي عثمانَ، ومُوسَى بن عقبَةَ، ثلاثتهم عن أبي الزُّبير، عن عبدِ الله بن الزُّبير قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ في دُبُر الصلاة: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له... وذكر تمامه»[٢].

[٥٨٤٨] وقد ثَبَت في الصَحِيح عن ابن الزبير: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقول عَقِب الصَّلَوَاتِ المكتُوباتِ: «لا إله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، له الملك وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قدير، لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبدُ إلا إياه، له النعمةُ وله الفضلُ، وله الثناءُ الحسنُ، لا إله إلا الله مخلصين له الدينَ ولو كَرِه الكافرن»[٣].

[٥٨٤٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الرَّبيعُ، حدثنا الخَصِيب بنُ ناصِح، حدثنا صالح ـ يعني المُرِّيَّ ـ عن هِشام بن حَسَّانَ، عن ابن سيرينَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «ادعُوا الله وأنتم مُوقِنُون بالإجابةِ، واعلَمُوا أن الله لا يَستجيبُ دعاءً مِن قلبِ غافِلٍ لاهٍ»[٤].

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤/٤ وإسناده على شرط مسلم، وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم (٥٩٤) (١٤٠) وأبو داوود (١٥٠٧) والنسائي ٣/ ٧٠ وابن حبان ٢٠٠٨.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم (٥٩٤) (١٤٠) وأبو داوود ١٥٠٦ والنسائي ٣/ ٦٩ وابن حبان ٢٠١٠.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٤٧٩ وإسناده ضعيف لأجل صالح بن بشير المري. وتقدم تخريجه.

يقولُ تعالى مخبراً عن عَظَمته وكبريائه، وارتفاع عَرشِه العظيم العالي على جَميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ بيانُ أنَّ هذه مسافةُ ما بين العَرْشِ إلى الأرض السابعةِ، في قول جماعةٍ من السلف والخلف، وهو الأرجحُ إن شاء الله. وقد ذَكر غيرُ واحد أن العرشَ من ياقوتةٍ حمراءَ، اتساعُ ما بين قُطرَيه مسيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، وارتفاعُه عن الأرض السابعةِ مسيرةُ خمسين ألف سنة. وقد تقدَّم في حديث الأوعال ما يدلُّ على ارتفاعه عن السَّمواتِ السبع بشيءٍ عظيم. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾. وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]. ولهذا قال عز وجل: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: يومُ التلاق اسمٌ من أسماءِ يوم القيامة، حَذَّر الله منه عباده. وقال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: يلتقي فيه آدمُ وآخرُ وَلده. وقال ابن زيد: يلتقِي فيه العبادُ. وقال قتادة، والسدِّيُّ، وبلالُ بن سعد، وسُفيان بن عُيَينة: يلتقي فيه أهلُ السماء وأهلُ الأرض. وقال قتادةُ أيضاً: يلتقي فيه أهلُ السماء وأهلُ الأرض، والخالق والخَلْقُ. وقال مَيمُون بن مِهرانَ: يلتقي الظالمُ والمظلومُ. وقد يُقال: إنَّ يوم القيامةِ هو يشمَل هذا كلَّه، ويشمل أن كلَّ عاملٍ سَيلقى ما عَمِل من خيرٍ وشرٍّ، كما قاله آخرون. وقولُهُ جل جلاله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾، أي: ظاهرونَ بادُون كلُّهم، لا شيءَ يُكِنُّهم ولا يُظِلُّهم ولا يَستُرهم، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾، أي: الجميعُ في عِلمِه على السواء. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

[٥٨٥٠] قد تَقدَّم في حديثِ ابن عُمَر: أنه تعالى يَطوِي السمواتِ والأرضَ بيده، ثم يقول: أنا الملكُ، أنا الجَبَّار، أنا المتكبِّر، أين مُلوكُ الأرض؟ أين الجَبَّارون؟ أين المُتكبِّرون[١]؟.

[٥٨٥١] وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواحَ جميع خَلْقِهِ، فلم يبقَ سواه، وحدَه لا شريكَ له، حينئذٍ يقولُ: لمَنِ الملكُ اليومَ؟ ثلاثَ مَرَّاتٍ، ثم يُجيبُ نفسَه قائلاً: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٢]، أي: الذي هو وحدَه قد قَهَرَ كُلَّ شيءٍ وغلَبَه. وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقَّاق، حدثنا عُبَيد بن عَبِيدَةَ، حدثنا مُعتَمِر، عن أبيه، حدثنا أبو نَضْرَةَ، عن ابن عباس قال: يُنادِي منادٍ بين يدَي الساعةِ: يا أيها الناس، أتتكُم الساعةُ. فَيسمَعُها الأحياءُ والأمواتُ، قال: وَينزل الله عز وجل إلى سماءِ الدنيا ويقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾، يُخبرُ تعالى عن عَدلِه في حُكمِه بين خَلْقِه، أنه لا يَظلِمُ مثقالَ ذَرَّةٍ مِن خَيرٍ ولا مِن شرٍّ، بل يَجزِي بالحسنةِ عشرَ أمثالها، وبالسيِّئةِ واحدةً، ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾.

[٥٨٥٢] كما ثَبَت في صحيح مسلم، عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ فيما يحكِي عن رَبِّه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أنه قال: «يا عبادِي، إني حَرَّمتُ الظُّلم على نفسي وجَعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تَظالموا. إلى أن قال: يا عبادِي، إنما هي أعمالكم أُحصِيها لكم ثم أُوَفِّيكم إياها، فمن وَجَد خيراً فَليحمَدِ الله، ومَن وجَد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسَه»[٣]. وقولُهُ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: يُحاسِبُ الخلائقَ كُلَّهم، كما

(١) صحيح، وتقدم تخريجه في الزمر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وأحمد ٥/ ١٦٠. وابن حبان ٦١٩.

يُحاسِب نفساً واحدةً، كما قال جل وعلا: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

يومُ الآزِفَةِ هو اسمٌ من أسماء يوم القيامة، سُمِّيت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٧ ـ ٥٨] وقال عز وجل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]. وقال جل وعلا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. وقال جل جلاله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الملك: ٢٧]. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾، قال قتادةُ: وقَفَت القلوبُ في الحناجرِ من الخوفِ، فلا تخرجُ ولا تعودُ إلى أماكنها. وكذا قال عكرمةُ، والسدّي، وغيرُ واحد. ومعنى ﴿كَاظِمِينَ﴾، أي: ساكِتِين، لا يتكلّم أحدٌ إلا بإذنِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]. وقال ابن جريج: ﴿كَاظِمِينَ﴾، أي: باكين. وقولُه سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، أي: ليس للذين ظَلَمُوا أنفسَهم بالشركِ بالله من قريبٍ منهم ينفعُهم، ولا شَفيع يشفَعُ فيهم، بل قد تَقَطَّعت بهم الأسبابُ من كلِّ خير. وقولُه تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾، يخبر تعالى عن علمه التامِّ المحيطِ بجميع الأشياء، جليلِها وحقيرِها، صَغيرِها وكَبيرِها، دَقيقِها ولَطِيفِها، ليحذَرَ الناسُ عِلْمَه فيهم، فَيَستحيُوا من الله تعالىٰ حَقَّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حقَّ تقواه، ويراقبوه مُراقبة مَن يعلَمُ أنه يَراه، فإنه تعالى يعلَمُ العينَ الخائنةَ وإن أبدت أمانةً، ويعلَمُ ما تَنطوي عليه خبايا الصدُورِ من الضمائرِ والسَّرائرِ. قال ابن عباس في قولِهِ تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾: هو الرجلُ يدخلُ على أهل البيتِ بيتهم، وفيهم المرأةُ الحسناءُ، أو تمرّ به وبهم المرأةُ الحسناءُ، فإذا غَفلوا لحظَ إليها، فإذا فَطِنوا غضَّ بَصَره عنها، فإذا غَفلوا لَحظ، فإذا فَطِنوا غَضَّ. وقد اطَّلَع الله تعالىٰ من قلبه أنه وَدَّ لو اطَّلع على فَرْجِها، رواه ابن أبي حاتم. وقال الضحّاكُ: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾: هو الغمزُ. وقولُ الرجل: رأيتُ، ولم يَرَ. أو: لَم أرَ، وقَد رأى. وقال ابن عباس: يعلم اللّه تعالى من العين في نَظَرِها، هل تُريد الخيانةَ أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، يعلم إذا أنتَ قَدَرتَ عليها هل تَزني بها أم لا؟ وقال السدّيُّ: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، أي: من الوسوسة.

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، أي: يحكم بالعدل. وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادرٌ على أن يجزيَ بالحسنةِ الحسنةَ، وبالسيئةِ السيئةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وهذا الذي فسَّر به ابنُ عباس في هذه الآيَة كقولِهِ تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقولُهُ جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾، أي: من الأصنام والأوثانِ والأندادِ، ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾، أي: لا يَملِكون شيئاً ولا يَحكُمون بشيءٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: سَمِيعٌ لأقوال خَلْقِهِ، بَصِيرٌ بهم، فَيَهدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء، وهو الحاكمُ العادِلُ في جَميع ذلك.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

يقولُ تعالى: أولم يَسِر هؤلاء المكذِّبون برسالتك يا محمدُ، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأُمم المُكذِّبة بالأنبياءِ، ما حَلَّ بهم مِنَ العذابِ والنَّكال، مع أنهم كانُوا أشدَّ مِن هؤلاءِ قُوَّةً، ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أثَّروا في الأرضِ من البناياتِ والمعالم والدِّياراتِ، ما لا يقدر هؤلاء عليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، أي: ومع هذه القُوَّةِ العظيمةِ والبأسِ الشديدِ أخذَهم الله بذُنُوبهم، وهي كفرُهم برُسلهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، أي: وما دَفَع عنهم عذاب الله أحدٌ، ولا ردَّه عنهم رادٌّ، ولا وقاهُم واقٍ. ثم ذكر عِلَّة أخذِه إيَّاهم وذُنُوبهم التي ارتكبوها واجترمُوها، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائلِ الواضحاتِ والبراهين القاطعاتِ، ﴿فَكَفَرُوا﴾، أي: مع هذا البيانِ والبرهانِ كَفَرُوا وجَحَدُوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: أهلكَهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالُها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: ذُو قُوَّةٍ عظيمةٍ وبطشٍ شَدِيدٍ، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: عقابُه أليمٌ شديدٌ وَجِيعٌ. أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

يقولُ تعالى مُسلِّياً لنبيِّه ـ ﷺ ـ في تكذيبِ مَن كَذَّبه من قومه، ومُبَشِّراً له بأن العاقبةَ والنصرةَ له في الدنيا والآخرة، كما جَرَى لموسى بن عِمرانَ، فإنَّ الله تعالى أرسَله بالآياتِ البيِّنات، والدلائل الواضحاتِ. ولهذا قال تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ـ والسلطان هو: الحُجَّة والبرهان ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو: مَلِك القِبط بالديار المصرية، ﴿وَهَامَانَ﴾، وهو: وزيرُه في مملكته، ﴿وَقَارُونَ﴾، وكان أكثرَ الناس في زمانه مالاً وتجارةً ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، أي: كَذَّبوه وجَعَلوه ساحِراً مُمَخرِقاً مُموِّهاً كذاباً في أن الله أرسله. وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣]. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾، أي: بالبُرهان القاطِع الدالِّ على أن الله تعالى أرسلَه إليهم، ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾. وهذا أمرٌ ثانٍ من فِرْعَون بقتلِ ذُكُورِ بني إسرائيل. أما الأول فكان لأجلِ الاحترازِ من وُجودِ موسى، أو لإذلالِ هذا الشعبِ وتقليلِ عَدَدِهم، أو لمجمُوعِ الأمرَينِ. وأما الأمر الثاني فَلِلعلَّةِ الثانيةِ، لإهانة هذا الشعبِ، ولكي يَتَشاءَمُوا بموسى ـ عليه السلام ـ. ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]. قال قتادة: هذا أمرٌ بعد أمرٍ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: وما مكرُهم وقصدهم الذي هو تقليلُ عددِ بني إسرائيلَ لئلا يُنصَروا

عليهم، إلا ذاهبٌ وهالِكٌ في ضَلاَلٍ. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾: وهذا عَزْمٌ من فِرْعَون ـ لَعنَه الله ـ على قَتلِ مُوسى ـ عليه السلام ـ أي: قال لقومه: دَعُوني حتى أَقْتُلَ لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، أي: لا أُبالي منه. وهذا في غايةِ الجَحْدِ والتَّجهرُم والعناد. وقوله ـ قَبَّحه الله ـ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، يعني موسى، يخشَى فِرعَونُ أن يُضِلَّ موسى الناسَ ويُغَيِّر رُسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فِرْعَونُ مُذَكِّرًا»، يعني: واعظاً، يُشفِق على الناس من مُوسَى ـ عليه السلام ـ. وقرأ الأكثرون: «أن يُبَدِّل دِينَكم وأن يُظهِرَ في الأرضِ الفساد». وقرأ آخرون: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾. وقرأ بعضهم: «وأن يَظْهرَ في الأرض الفسادُ»، بالضم. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾، أي: لما بلغه قولُ فِرعَونَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شَرِّه وشرِّ أمثاله. ولهذا قال: ﴿ﷺ﴾ ﴿وَرَبِّكُم﴾، أيها المخاطبون، ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾، أي: عن الحقِّ، مُجرمٍ، ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

[٥٨٥٣] ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا خافَ قوماً قال: «اللهم، إنا نعوذُ بك من شُرُورِهم، وندرأ بك في نُحُورِهِمْ»[1].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

المشهورُ أن هذا الرجلَ المؤمنَ كان قِبْطِيّاً من آل فِرْعَونَ. قال السدِّيُّ: كان ابنَ عَمِّ فِرْعَون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه السلام. واختاره ابنُ جرير، وَرَدَّ قولَ من ذَهَب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فِرْعَون انفَعَلَ لكلامِه واستمعه، وكفَّ عن قَتْلِ مُوسى ـ عليه السلام ـ ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يُعاجَلَ بالعقوبة، لأنَّه منهُم. وقال ابنُ جُرَيجٍ، عن ابن عباس: لم يُؤمِن من آل فِرعَونَ سوى هذا الرجلِ وامرأةِ فِرْعَونَ، والذي قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] رواه ابنُ أبي حاتم. وقد كان هذا الرجلُ يكتُم إيمانه عن قومه القِبْطِ، فلم يَظْهَر إلا هذا اليومَ حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فأخذتِ الرجلَ غَضْبَةٌ لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

[٥٨٥٤] و«أفضلُ الجهاد كلمة عَدْلٍ عند سلطان جائر»[2]. كما ثَبَت بذلك الحديثُ، ولا أعظمَ من هذه الكلمة عند فِرْعَونَ، وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾. اللهم إلا ما رواه البخاري في صَحِيحه حيث قال:

[٥٨٥٥] حدثنا عليُّ بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعيّ، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التَّيمي، حدثني عُروَةُ بنُ الزبَير قال: قلتُ لعبدِ الله بن عَمْرِو بن العاص: أخبِرْني

(١) صحيح. أخرجه أبو داوود ١٥٣٧ والنسائي في «اليوم والليلة» ٦٠١ وأحمد ٤/ ٤١٤ ـ ٤١٥ وابن حبان ٤٧٦٥ والحاكم ٢/ ١٤٢ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وله شواهد.

(٢) تقدم تخريجه، وهو صحيح.

بأشدِّ شيءٍ صَنَعه المشركون برسولِ الله ـ ﷺ ـ. قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصلِّي بفِناء الكعبةِ إذ أقبلَ عُقبَةُ بنُ أبي مُعَيط، فأخذ بِمَنْكِبِ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ولَوَى ثوبَه في عنقه، فَخَنَقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأخذ بِمَنْكِبِهِ ودَفَعَ عن النبي ـ ﷺ ـ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1]. انفردَ به البخاريُّ من حديث الأوزاعي، قال: وتابعهُ مُحَمَّد بن إسحاق، عن يحيى بن عُروَةَ، عن أبيه، به.

[٥٨٥٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا هارونُ بن إسحاقَ الهمداني، حَدَّثنا عَبْدة، عن هشام ـ يعني ابن عُرْوَة ـ عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِل: ما أشدُّ ما رأيتَ قريشاً بلغُوا من رسولِ الله ـ ﷺ ـ؟ قال: مَرَّ بهم ذاتَ يوم فقالوا له: أنتَ تنهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك». فقامُوا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكر مُحتضِنَه من وَرَائِه، وهو يَصيح بأعلى صوته، وإنَّ عينيه لَيَسِيلان، وهو يقولُ: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها[2]. وهكذا رواه النسائيُّ من حديث عَبْدَة، فجعله من مسند عَمرو بن العاص، ـ رضي الله عنه ـ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي: كيفَ تقتلُون رَجُلاً لكونِه يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وقد أقام لكم البرهان على صِدق ما جاءكُم به من الحق؟ ثم تَنَزَّل معهُم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، يعني: إذا لم يظهرَ لكم صحّةُ ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التامِّ والحزم أن تتركُوه ونفسَه، فلا تُؤذوه، فإن يكُ كاذباً فإن الله سبحانه وتعالىٰ سَيُجازيه على كَذِبه بالعقُوبة في الدنيا والآخرة، وإن يَكُ صادقاً وقد آذيتموه يُصِبْكُم بعضُ الذي يَعِدُكم، فإنه يَتَوَعَّدكم إن خالفتموه بِعَذابٍ في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكُم أن يكون صادقاً، فينبغي على هذا ألاَّ تتعرضوا له، بل اتركُوه وقومَه يدعُوهم وَيتَّبعونه. وَهكَذَا أخبرَ الله عز وجل عن موسى ـ عليه السلامُ ـ أنه طَلَب من فِرْعَون وقومِهِ الموادعَةَ في قولِهِ: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢١]، وهكذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ لقُريشٍ أن يتركُوه يدعُو إلى الله تعالىٰ عبادَ الله، ولا يَمَسُّوه بُسوءٍ، وأن يَصِلُوا ما بينه وبينهم من القَرابة في تَرْكِ أذِيَّته، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، أي: إلا أن تَوَدُّوني فيما بيني وبينَكُم من القَرابةِ، فلا تُؤذُوني وتتركُوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعتِ الهُدنة يوم الحُدَيبية، وكان فتحاً مُبيناً. وقولُهُ جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، أي: لو كان هذا الذي يزعمُ أن الله أرسَلَه إليكم كاذباً كما تزعمُون لكان أمرُه بَيِّناً يظهَرُ لكلِّ أحدٍ في أقوالِه وأفعاله، فكانت تكونَ في غايةِ الاختلافِ والاضطرابِ، وهذا نرى أمره سَدِيداً ومنهجَه مُستقيماً، ولو كان من المسرفين لما هَداه الله، وأرشَده إلى ما تَرون من انتظام أَمْرِهِ وفِعْلِهِ. ثم قال المُؤمن مُحذِّراً قومَه زَوال نِعْمَةِ الله عنهم، وحُلولِ نِقمةِ الله بهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قد أنعمَ الله عليكم بهذا المُلك والظهورِ في الأرضِ بالكلمة النافذةِ والجاهِ العريض، فراعُوا هذه النِّعمَة بِشكرِ الله، وتصدِيق رَسُوله ـ ﷺ ـ، واحذَرُوا نقمة الله إن كَذَّبتُم رَسُوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، أي: لا تُغني عنكم هذه الجنودُ وهذه العساكرُ، ولا تَرُدُّ عنا شيئاً من بَأسِ الله إن أرادنا بسُوءٍ. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومِهِ، رَادّاً على ما

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٧٨ و٣٨٥٦ و٤٨١٥ وأحمد ٢/ ٢٠٤ وابن حبان ٦٥٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» ١١٤٦٢ و«التفسير» ٤٨٢ وإسناده علىٰ شرط البخاري ومسلم.

أشار به هذا الرجلُ الصالحُ البارُّ الراشدُ الذي كانَ أحقَّ بالمُلك من فِرْعَونَ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، أي: ما أقولُ لكم وأُشِيرُ عليكم إلا ما أراه لنفسي. وقد كَذَبَ فِرعَونُ، فإنَّه كان يتحقَّق صِدقَ مُوسَى فيما جاء به من الرِّسالة، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. فقولُه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾: كذَب فيه وافترى، وخانَ الله تعالىٰ ورسوله ورعيتَه، فغشَّهم وما نَصَحَهم، وكذا قولُه: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، أي: وما أدعوكُم إلا إلى طريق الحقِّ والصدقِ والرشدِ. وقد كَذَبَ أيضاً في ذلك، وإن كان قومُه قد أطاعُوه واتَّبعُوه، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩].

[٥٨٥٧] وفي الحديث: «ما من إمامٍ يمُوتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لِرعيَّتِه إلاَّ لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها لَيُوجَدُ من مَسِيرةِ خمسمئةِ عام»(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عن هذا الرجلِ الصَّالح، مُؤمِن آلِ فِرْعَونَ: أنه حَذَّر قَوْمَهُ بأسَ الله في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حَلَّ بهم بأس الله، وما رَدَّه عنهم رادٌّ، ولا صَدَّه عنهم صادٌّ. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، أي: إنما أهلكَهم الله بذُنوبهم، وتكذيبهم رُسُلَه، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قَدَرَه، ثم قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾، يعني: يومَ القيامةِ. وسُمِّي بذلك، قال بعضهم: لما جاء في حديث الصور:

[٥٨٥٨] «إن الأرض إذا زلزلَت وانشقَّت من قُطرٍ إلى قُطرٍ، وماجت وارتجَّت، فَنَظَرَ النَّاسُ إلى ذلك، ذَهَبُوا هَارِبينَ يُنَادي بعضُهم بعضاً»(٢). وقال آخرون، مِنهُم الضَّحَّاك: بل ذلك إذا جِيءَ بجهنَّمَ ذَهَبَ النَّاسُ هِرَاباً منها، فتتلقاهُم الملائكة فَتَردُّهم إلى مقام المحشر، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾، وقولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣]. وقد رُوِيَ عن ابن عباس، والحَسنِ، والضَّحَّاكِ أنَّهم قرأوا: «يومَ التَّنادِّ»، بتشديد الدال، من نَدَّ البعيرُ:

(١) صحيح. أخرجه القضاعي ٨٠٦ والطبراني كما في المجمع ٩٠٧٣ وقال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه ثابت بن نعيم الهوجي ولم أعرفه ورجال الطريق الأولى ثقات وفي الثانية محمد بن عبد الله بن مغفل ولم أعرفه. ويشهد له حديث معقل بن يسار عند البخاري رقم ٧١٥٠ ومسلم ١٤٢١.

(٢) حديث الصور، تقدم تخريجه، وهو مطول.

إذا شَرَد وذَهَب. وقيل: لأن الميزانَ عنده مَلَكٌ، وإذا وُزِنَ عَمَلُ العبدِ فَرَجحَ نادَى بأعلَى صَوتِهِ: ألا قد سَعِدَ فلانُ بن فلان سعادةً لا يشقى بعدَها أبداً. وإن خَفَّ عَمَلُهُ نادَى: ألا قد شَقِيَ فلانُ بن فلان. وقال قتادةُ: يُنادَى كلُّ قوم بأعمالهم: يُنادِي أهلُ الجنة أهلَ الجنة، وأهلُ النارِ أهلَ النارِ. وقيل: سُمِّي بذلك لمناداة أهل الجنَّةِ أهلَ النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهلِ النار أهلَ الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]. ولمناداة أصحابِ الأعرافِ أهلَ الجنة وأهلَ النار، كما هو مذكورٌ في سُورَةِ الأعراف. واختارَ البغَويُّ وغيرُه: أنه سُمِّي بذلك لمجموع ذلك. وهو قولٌ حَسَنٌ جيِّدٌ، والله أعلم. وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، أي: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١١ ـ ١٢]. ولهذا قال عز وجل: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، أي ما لكم من مانع يَمنعكم من بأسِ الله وعذابِه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، أي: من أضلَه الله فلا هادِيَ له غيرُه. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، يعني: أهلِ مصرِ، قد بعثَ الله فيهم رَسُولاً من قَبْلِ موسى، وهو يوسفُ ـ عليه السلام ـ كان عزيزَ أهلِ مصر، وكان رسولاً يدعُو إلى الله تعالىٰ أمته القِبطَ، فما أطاعُوه تلك الطاعةَ إلا لمجرَّد الوزارةِ والجاه الدنيوي. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، أي: يئِستُم فقلتُم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، وذلك لِكُفرهم وتكذيبهم، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، أي: كَحالِكم هذا يكونُ حالُ مَن يُضِله الله لإسرافِهِ في أفعالِهِ وارتيابِ قلبِهِ. ثم قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، أي: الذين يدفَعُون الحقَّ بالباطل، ويجادِلُون الحُجَج بغير دليلٍ وحُجَّةٍ معهم من الله تعالىٰ، فإن الله عز وجل يمقُت على ذلك أشدَّ المقتِ. ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: والمؤمنون أيضاً يُبغِضُون من تكونُ هذه صِفته، فإنَّ مَن كانت هذه صِفَتَه يَطبع الله على قَلبِهِ، فلا يعرف بعد ذلك مَعرُوفاً، ولا يُنكِر مُنكَراً. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾، أي: على اتباع الحقِّ ﴿جَبَّارٍ﴾. وروى ابنُ أبي حاتم، عن عكرمة، وحُكِي عن الشعبي، أنهما قالا: لا يكونُ الإنسانُ جَبَّاراً حتى يقتل نفسَينِ. وقال أبو عمران الجَوني، وقتادةُ: آية الجبابرة القتلُ بغير حقٍّ؛ والله تعالىٰ أعلم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرْعَونَ وعتُوِّه، وتَمرُّده وافترائه، في تكذيبه موسى ـ عليه السلام ـ: أنه أَمرَ وزيرَه هامانَ أن يبنيَ له صَرْحاً، وهو: القصر العالي المُنيفُ الشاهِقُ. وكان اتخاذُه من الآجرِّ المضرُوبِ من الطّين المشويِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]. ولهذا قال إبراهيم النَّخعِيّ: كانوا يكرهُون البناءَ بالآجرِّ، وأن يجعلوه في قُبُورِهم. رواه ابن أبي حاتم. وقولُهُ: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، قال سعيد بن جُبَير وأبو صالح: أبوابَ السمواتِ. وقيل: طُرُقَ السموات، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾، وهذا من كُفره وتمرُّدِه، أنه كَذَّب موسى في أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: بِصَنيعه هذا الذي أراد

أن يُوهِم به الرعيَّةَ أنه يعمَلَ شيئاً يتوصَّل به إلى تكذيبِ مُوسى ـ عليه السلام ـ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٍ: يعني إلا في خَسارٍ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقولُ المؤمن لقومه ممن تَمرَّد وطَغى وآثر الحياةَ الدنيا، ونَسِي الجبَّار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، لا كما كَذَب فِرْعونُ في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾. ثم زهَّدهم في الدنيا التي آثروها على الأخرى، وصدَّتهم عن التصديق برسولِ الله موسى، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، أي: قليلةٌ زائلةٌ فانيةٌ عن قريبٍ تَذهَبُ وتضمَحِلُّ، ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾، أي: الدارُ التي لا زوالَ لها، ولا انتقالَ منها، ولا ظَعْنَ عنها إلى غيرها، بل إما نَعيمٌ وإما جحيمٌ، ولهذا قال جلَّت عظمته: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، أي: واحدةً مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي لا يَتقدَّر بجزاءٍ بل يُثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاءَ له ولا نَفادَ. والله تعالىٰ الموفق للصواب.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

يقولُ لهم المؤمنُ: ما بالي أدعوكُم إلى النجاة، وهي عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له وتصديق رسولِه الذي بَعثه، ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾؟ أي: على جهل بلا دليلٍ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، أي: هو في عِزَّته وكبريائه يغفِرُ ذَنبَ من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، يقول: حقاً. قال السدِّيُّ، وابنُ جريرٍ: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً. وقال الضحَّاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كَذِبَ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾. قال مجاهد: الوَثَن ليس بشيء. وقال قتادةُ: يعني: الوثن لا ينفع ولا يضرُّ. وقال السدِّيُّ: لا يُجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. وقولُهُ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي في الدار الآخرةِ. فَيُجازي كُلاً بِعَمَلِهِ. ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، أي: خالدين فيها بإسرافِهم، وهو شِركُهم بالله عز وجل. ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ

لَكُمْ﴾، أي: سوفَ تعلَمُون صِدْقَ ما أمرتُكم به ونهيتُكم عنه، ونصحتكم ووضَّحت لكم، وتتذكَّرونه، وتندَمُون حيثُ لا ينفعكم الندمُ، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي: وأتوكَّل على الله وأستَعِينه، وأُقاطِعُكم وأُباعِدكُم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، أي: هو بصيرٌ بهم، فَيهدِي مَن يستحقُّ الهداية، ويُضِلُّ مَن يستحِقّ الإضلالَ، وله الحجَّةُ البالغةُ، والحكمة التامّة، والقَدرُ النافذُ. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فَنجَّاه الله مع مُوسَى ـ عليه السلام ـ، وأما في الآخرة فبالجنَّةِ. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾، وهو: الغرَق في اليم، ثم النُّقلة منهُ إلى الجَحِيم. فإنَّ أرواحَهم تُعرَضُ على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يومُ القيامة اجتمعت أرواحُهم وأجسامُهم في النار. ولهذا قال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: أشدَّه ألماً وأعظمَه نَكالاً. وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخِ في القُبورِ، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لا شكَّ أن هذه الآية مكيَّة، وقد استدلّوا بها على عذاب القبر في البرزخِ. وقد قال الإمامُ أحمدُ:

[٥٨٥٩] حدثنا هاشمُ ـ هو ابنُ القاسم أبو النضر ـ حدثنا إسحاقُ بن سَعيد ـ هو ابن عَمرو بن سعيد بن العاص ـ حدثنا سعيد ـ يعني أباه ـ عن عائشة: أن يهوديَّةً كانت تَخدُمها، فلا تصنعُ عائشةُ إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهوديةُ: وقاكِ الله عذابَ القبر. قالت عائشة رضي الله عنها: فدخَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عليّ فقلتُ: يا رسولَ الله، هل للقبرِ عذابٌ قبلَ يوم القيامة؟ قال: «لا، وعَمَّ ذلك؟». قالت: هذه اليهوديةُ، لا نصنَعُ إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاكِ الله عذابَ القبر. قال: «كذبت يهودُ. وهم على الله أكذبُ، لا عذابَ دونَ يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكُث، فخرَج ذات يوم نِصْفَ النهار مُشتملاً بثوبه، مُحَمرَّةً عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «القبرُ كَقِطَعِ الليلِ المظلم! أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم بكيتُم كثيراً وضَحِكتم قليلاً، أيها الناس، استَعِيذُوا بالله من عذاب القبر، فإنَّ عذابَ القبر حقٌّ»[١]. وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ، ولم يُخرجاه.

[٥٨٦٠] وروى أحمدُ: حدثنا يزيدُ، حدثنا سفيانُ، عن الزهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سألتها امرأة يهوديَّةٌ فأعطتها، فقالت لها: أعاذكِ الله من عذابِ القبرِ. فأنكرت عائشةُ ذلك، فلما رأت رسولَ الله ـ ﷺ ـ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بعد ذلك: «وإنه أُوحِي إليّ أنكم تُفتَنُونَ في قُبُوركم»[٢]. وهذا أيضاً على شَرْطهما. فَيُقال: فما الجمعُ بين هذا وبين كَونِ الآية مكيَّةً، وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلَّت على عرضِ الأرواح على النار غُدواً وعَشيًا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتِّصالِ تألمها بأجسادِها في القُبور، إذ قد يكونُ ذلك مُختَصاً بالروح، فأما حصولُ ذلك للجسدِ وتألمه بِسَببِه فلم يَدُلّ عليه إلا السنة في الأحاديث المرضيَّة الآتي ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآيَةَ إنما دَلَّت على عذابِ الكُفَّارِ في البرزخِ، ولا يلزم من ذلك أن يُعَذَّبَ المؤمن في قبره بذنبٍ.

[٥٨٦١] ومما يدلُّ على هذا ما رواه الإمامُ أحمدُ: حدثنا عثمانُ بن عُمَر، حدثنا يونُس، عن الزهري،

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٨١١٦ و١٦٤ بإسناد علىٰ شرط البخاري ومسلم كما ذكر ابن كثير.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٣٨/٦ وإسناده علىٰ شرط البخاري ومسلم أيضاً.

عن عُروَة، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ دخلَ عليها وعندها امرأةٌ من اليهود، وهي تقولُ: أشعَرتِ أنَّكم تُفتَنُون في قبوركم؟ فارتاعَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال: «إنما يُفتَنُ يهود». قالت عائشةُ: فَلَبثنا ليالِيَ، ثم قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أشعَرت أنه أُوحِي إليّ أنكم تُفتَنُون في القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعدُ يستعيذُ من عذاب القبر[1]. وهكذا رواه مسلمٌ، عن هارونَ بنِ سعيدٍ وحرْمَلَةَ، كلاهُما عن ابنِ وَهبٍ، عن يُونُسَ بنِ يزيدَ الأَيْلِيِّ، عن الزهريِّ، به.

وقد يُقال: إن هذه الآيةَ دَلَّت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يَتَّصِلَ بالأجسادِ في قبورها، فلما أُوحِي إليه في ذلك بخصُوصيَّتِه استعاذ منه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلمُ.

[٥٨٦٢] وقد رَوَى البخاري من حديث شُعبَةَ، عن أشعثَ بن أبي الشعثاءِ، عن أبيه، عن مَسرُوقٍ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن يهوديَّةً دخلَت عليها فقالت: أعاذكِ الله من عذابِ القبر. فسألت عائشةُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن عذابِ القبر؟ فقال: «نعم، عذابُ القبرِ حقٌّ». قالت عائشة: فما رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعدُ صلى صلاةً إلا تَعوَّذَ من عذابِ القبرِ[2]. فهذا يدلّ على أنه بادر إلى تصديق اليهوديَّةِ في هذا الخبر، وقَرَّر عليه. وفي الأخبارِ المتقدِّمةِ أنه أنكَرَ ذلك حتى جاءه الوحيُ، فلعلهما قَضِيَّتان، والله أعلم، وأحاديثُ عذابِ القبرِ كثيرةٌ جداً.

وقال قتادةُ في قولِه تعالىٰ: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحاً ومساءً، ما بَقِيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فِرعَونَ، هذه منازلكم توبيخاً ونقمَةً وصَغاراً لهم. وقال ابنُ زيدٍ: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقومَ الساعةُ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيدٍ، حدثنا المحاربي، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثَرْوان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن أرواحَ الشهداءِ في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ تَسرَح بهم في الجنة حيث شاؤوا. وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت فتأوي إلىٰ قناديل معلقة في العرش وإن أرواح آل فِرْعَونَ في أجواف طير سُودٍ تغدُو على جَهَنَّم ويُراحُ عليها، فذلك عرضُها. وقد رواه الثوريُّ، عن أبي قيس، عن الهُزيل بنُ شُرحبيل، من كلامه في أرواح آل فِرْعَونَ. وكذلك قال السدِّيُّ.

[٥٨٦٣] وفي حديث الإسراءِ من رواية أبي هارون العَبْدِيِّ عن أبي سَعيدٍ الخُدرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال فيه: «ثم انطُلِق بي إلى خَلْقٍ من خَلْقِ الله كثير، رجالٌ، كلُّ رجل منهم بطنُه مثلُ البيت الضخم، مُصَفَّدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعونِ يُعرَضُون على النار غُدُوّاً وعشيّاً. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾. وآل فرعون كالإبل المسومة يخبِطُون الحجارة والشجر ولا يعقلون»[3].

[٥٨٦٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا زيدُ بن أخزَمَ، حدثنا عامر بنُ مُدرِكٍ الحارثي، حدثنا عتبةُ ـ يعني ابن يقظَان ـ عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب[4]، عن ابن مسعُودٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «ما أحسنَ محسنٌ من مسلم أو كافرٍ إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابةُ الله

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٥٨٤ وأحمد ٦/٨٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٧٢.

(٣) إسناده ضعيف جداً. لأجل أبي هارون العبدي، واسمه عمارة بن جوين. وتقدم في سورة الإسراء.

(٤) وقع في كافة النسخ «عن طارق، عن شهاب» والتصويب عن كتب الرجال.

الكافرَ؟ فقال: «إن كان قد وصل رَحِماً أو تَصدَّق بصدقةٍ أو عَمِل حَسَنةً أثابه الله المالَ والولدَ والصحّةَ وأشباهَ ذلك». قلنا: فما إثابتُه في الآخرةِ؟ قال: «عذاباً دونَ العذابِ»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(١). ورَواه البزّارُ في مُسنَدِه، عن زيدِ بن أخرَمَ، ثم قال: لا نعلمُ له إسناداً غير هذا.

وقال ابنُ جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، حدثنا حَمّاد بن محمد الفَزاريّ البَلْخيُّ قال: سمعتُ الأوزاعيّ وسأله رجلٌ فقال: رَحِمك الله. رأينا طيوراً تخرج من البحر، تأخذُ ناحيةَ الغربِ بيضاً، فَوجاً فَوجاً، لا يَعلَمُ عددَها إلا الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ فإذا كان العشي رَجَع مثلُها سُوداً. قال: وفَطِنتُم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن الطيرَ في حَواصِلها أرواحُ آلِ فِرعَونَ، يُعرَضون، على النار غُدوّاً وعَشِيّاً، فترجعُ إلى وُكورِها وقد احترقت رِيَاشُها وصارت سُوداً، فينبتُ عليها من الليلِ ريشٌ أبيضُ، وتَتَناثرُ السودُ، ثم تَغدُو على النار غُدواً وعشياً، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبُهم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا يَقُولون: إنهم ستمئةُ ألفِ مقاتلٍ.

[٥٨٦٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاقُ، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مَقعدُه بالغداةِ والعشيِّ، إن كان من أهلِ الجَنَّةِ فمن أهل الجنةِ، وإن كان من أهلِ النارِ فمن أهل النار. فيقال: هذا مَقعَدُكَ حتى يبعَثَك الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ إليه يومِ القيامة»(٢). أخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، به.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

يخبرُ تعالى عن تحاجِّ أهلِ النار في النار وتخاصُمِهم، وفرعونُ وقومُه من جملتهم، فيقول الضعفاءُ ـ وهم الأتباعُ ـ للذين استكبروا ـ وهم القادةُ والسادةُ والكبراءُ ـ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أي: أطعناكُم فيما دعوتُمونا إليه في الدنيا من الكُفر والضّلالِ، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قسطاً تَتحمَّلونه عنا. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: لا نَتحمَّل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حَملنا من العذابِ والنكالِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾، أي: يَقسم بيننا العذابَ بقدرِ ما يستحقُّه كلٌّ منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾: لما علموا أن الله ـ سبحانه ـ لا يَستجيبُ منهم ولا يَستَمِع لدعائِهم، بل قد قال: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، سألوا الخزنةَ ـ وهم كالبَوّابين لأهل النار ـ أن يَدْعُوا لهم الله

---

(١) ضعيف الإسناد والمتن منكر. أخرجه البزار ٩٤٥ والحاكم ٢/٢٥٣ والبيهقي في «الشعب» ٢٨١. قال البزار: لا نعلم رواه إلا ابن مسعود، ولا له إلا هذا الطريق عنه. وقال الحاكم: صحيح. وتعقبه الذهبي بقوله: عتبة ـ بن يقظان ـ واهٍ. وقال البيهقي: في إسناده من لا يحتج به. وقال الهيثمي في «المجمع» ٤٦٢١: عتبة فيه كلام، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وذكره الذهبي في الميزان ٥٤٨٠ في ترجمة عتبة، وقال: قواه بعضهم، وقال النسائي: غير ثقة. وقال علي بن الحسين بن الجنيد: لا يساوي شيئاً. وقال الذهبي بعد أن ساق الحديث: والخبر منكر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٧٩ ومسلم (٢٨٦٦) (٦٥) والنسائي ٤/١٠٧ ـ ١٠٨ وأحمد ٢/١١٣ وابن حبان ٣١٣٠.

تعالىٰ في أن يُخفّفَ عن الكافرين. ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنةُ رادّين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: أَوَما قامت عليكم الحُجَجُ في الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾، أي: أنتم لأنفسكم، فنحنُ لا ندعو لكم ولا نسمعُ منكم ولا نَوَدُّ خلاصَكم، ونحنُ منكم بُرآءُ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتُم أو لم تدعو، لا يُستجابُ لكم ولا يُخفَّفُ عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: في ذَهابٍ، لا يُتقبَّل ولا يُستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

قد أورد أبو جَعفر بنُ جرير ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد عُلِم أن بعض الأنبياءِ قَتَله قومُه بالكُلِّية كيحيى وزكريا وَشعياء، ومنهم مَن خَرَج مِن بين أظهُرهم إمَّا مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماءِ كعيسى، فأين النصرةُ في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابَين:

أحدهما: أن يكون الخبرُ خَرَج عامّاً، والمرادُ به البعضُ، قال: وهذا سائغٌ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصارُ لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غَيبتهم أو بعد مَوتهم، كما فَعَل بقتلة يحيى وزكريا وشَعياء، سَلّط عليهم من أعدائهم من أهانَهم وسَفَك دماءهم، وقد ذُكِر أن النمروذ أخذه الله تعالىٰ أخذَ عزيز مقتدر، وأما الذين رامُوا صَلْب المسيح ـ عليه السلام ـ من اليهود، فَسلّط الله عليهم الرومَ فأهانُوهم وأذلُوهم، وأظهرهُم الله تعالىٰ عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزلُ عيسى ابنُ مريَم إماماً عادلاً، وحَكَماً مُقسِطاً، فيقتل المسيحَ الدجّال وجنودَه من اليَهُودِ، ويقتل الخنزيرَ، ويكسِرُ الصَّليب، ويضع الجزية فلا يُقبل إلا الإسلامُ. وهذه نُصرةٌ عظيمة، وهذه سُنَّة الله تعالىٰ في خَلقِهِ في قديم الدهر وحَديثه، أنّه ينصرُ عبادَه المؤمنين في الدنيا، ويُقِرُّ أعينَهم ممن آذاهم.

[٥٨٦٦] ففي صَحيح البخاري عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «يقولُ الله تعالى: مَن عادَى لي ولياً فقد بارَزَني بالحَرْب»[١].

[٥٨٦٧] وفي الحديث الآخر: «إني لأَثأرُ لأوليائي كما يَثأرُ الليثُ الحَرِبُ»[٢]. ولهذا أهلك الله تعالى قومَ نوح وعادٍ وثمودَ، وأصحاب الرسِّ، وقوم لوط، وأهل مديَنَ، وأشباهِهم وأضرابهم، ممن كَذَّب الرسل

(١) أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه البغوي في «شرح السنة» ١٢٤٢ وفي «التفسير» ١٨٧٧ ـ بترقيمي ـ من حديث أنس، وإسناده ضعيف جداً، فيه الحسن بن يحيىٰ الخشني عن صدقة الدقيقي، وهما ضعيفان، وفيه هشام الكافي ضعيف، والمتن منكر بهذا اللفظ، والصواب ما قبله.

وخالَفَ الحقَّ. وأنجى الله تعالىٰ مِن بينهم المؤمنين، فلم يُهلِك منهم أحداً، وعَذَّب الكافرين، فلم يُفلِت منهم أحداً. قال السدِّيُّ: لم يبعَثِ الله رسولاً قطُّ إلى قوم فيَقتُلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعُون إلى الحق فَيُقتَلُون، فيذهب ذلك القرنُ حتى يبعثَ الله تعالىٰ لهم مَن ينصرهم، فَيَطلُبُ بدمائهم ممن فَعَل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياءُ والمؤمنون يُقتَلُون في الدنيا، وهم منصورون فيها. وهكذا نَصَر الله نبيَّه محمداً ـ ﷺ ـ وأصحابَه على مَن خالفه وناوأه، وكذَّبه وعاداه، فجعل كَلِمتَه هي العليا، ودِينَه هو الظاهرَ على سائر الأديان. وأمرَهُ بالهجرةِ من بين ظَهرانَيْ قَوْمِهِ إلى المدينة النبويَّة، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم مَنَحه أكتافَ المشركين يومَ بدرٍ، فنصره عليهم وخَذَلهم له، وقتل صناديدَهم، وأسر سَرَاتَهم، فاستاقهم مُقَرَّنين في الأصفاد. ثم منّ عليهم بأخذه الفِداءَ منهم، ثم بعد مُدَّةٍ قريبة فَتَح عليه مكَّة، فَقرَّت عينُه ببلده، وهو البلدُ المحرَّم الحَرام المشرَّف المعظَّم، فأنقذه الله تعالىٰ به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليَمَن، ودانت له جزيرةُ العرب بكمالها، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً. ثم قَبَضه الله ـ تعالى ـ إليه، لِما له عنده من الكرامةِ العظيمةِ، فأقام الله أصحابَه خُلفاءَ بعدَه، فبلَّغوا عنه دينَ الله، ودَعوا عبادَ الله تعالىٰ إلى الله عز وجل. وفتحُوا البلادَ والرَّساتيق والأقاليم والمدائن والقُرى والقلوبَ، حتى انتشرت الدعوةُ المحمَّدية في مشارقِ الأرضِ ومغاربها. ثم لا يزالُ هذا الدينُ قائماً منصُوراً ظاهراً إلى قيام الساعةِ، ولهذا قال تعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾، أي: يوم القيامة تكون النصرةُ أعظمَ وأكبرَ وأجلَّ. قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ وقرأ آخرون: «وَيَوْمُ» بالرفع. كأنه فسره به ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يُقبل منهم عذرٌ ولا فديةٌ، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾، أي: الإبعادُ والطردُ من الرحمةِ، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾، وهي النارُ، قاله السدِّيُّ، بئس المنزلُ والمَقِيلُ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾، أي: سوء العاقبةِ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾، وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهُدَى والنورِ، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ﴾، أي جَعَلنا لهم العاقبَة، وأورثناهم بلادَ فرعونَ وأموالَه وحواصِلَه وأرضَه، بما صَبَرُوا على طاعةِ الله تعالىٰ واتِّباع رَسُولِه موسى ـ عليه السلام ـ وفي الكتاب الذي أورِثُوه ـ وهو التوراةُ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾، وهي: العقولُ الصحيحةُ السليمةُ. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ﴾، أي: يا مُحمَّد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: وَعَدناك أنا سَنُعلي كَلِمَتَك، ونجعلُ العاقبةَ لكَ ولِمَن اتَّبعك، والله لا يُخلِف الميعادَ. وهذا الذي أخبرناك به حَقٌّ لا مِرْيَةَ فيه ولا شَكَّ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، هذا تهييجٌ للأمَّةِ على الاستغفارِ، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾، أي: في أواخِر النهار وأوائلِ الليل، ﴿وَالْإِبْكَٰرِ﴾، وهي أوائلُ النهار وأواخرُ الليل. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، أي: يَدفعُون الحقَّ بالباطل، ويَردُّون الحُجَجَ الصحيحةَ بالشبهِ الفاسِدَة بلا بُرهانٍ ولا حُجَّةٍ من الله، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، أي: ما في صُدورهم إلا كبرٌ على اتِّباع الحقِّ، واحتقارٌ لِمَن جاءَهم به، وليس ما يَرومُونه من إخماد الحقِّ وإعلاءِ الباطل بحاصلٍ لهم، بل الحقُّ هو المرفوعُ، وقولُهم وقصدُهم هو الموضوعُ، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، أي: من حالِ مثلِ هؤلاء، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أو: مِن شَرِّ مثل هؤلاء المجادلين في آياتِ الله بغير سُلطانٍ. هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعبٌ وأبو العاليةِ: نَزَلت هذه الآيةُ في اليَهُود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، قال أبو العالية: وذلك أنهم ادَّعوا أن الدجَّال منهم، وأنهم

يَملِكُون به الأرضَ. فقال الله تعالى لنبيِّه ـ ﷺ ـ آمراً له أن يَستعيذَ من فتنةِ الدجَّالِ، ولهذا قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وهذا قولٌ غريبٌ، وفيه تَعسُّفٌ بعيدٌ، وإن كان قد رواه ابنُ أبي حاتم في كتابِه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على أنه يُعيد الخلائِقَ يومَ القيامةِ، وأن ذلك سَهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، بأنه خَلَق السمواتِ والأرضَ، وخلقُهما أكبرُ من خلق الناس بدأةً وإعادةً، فمن قَدَر على ذلك فهو قادرٌ على ما دُونه بطريقِ الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ فلهذا لا يتدبَّرون هذه الحجّةَ ولا يتأمّلونها، كما كان كثيرٌ من العربِ يعترِفُون بأن الله تعالىٰ خَلَق السمواتِ والأرضَ، ويُنكِرُون المَعَاد، استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترَفُوا بما هو أولى مما أنكَرُوا. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يُبصر شيئاً والبصيرُ الذي يَرَى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرقٌ عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنونَ الأبرارُ والكَفَرةُ الفُجّار، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: ما أقلَّ ما يتذكَّر كثيرٌ من الناس. ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾، أي: لكائنةٌ وواقعةٌ، ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يُصدِّقون بها، بل يُكذِّبون بوُجُودها. قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بنُ عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهبُ، حدثنا مالك، عن شيخ قَديم من أهلِ اليمَن ـ قَدِم من ثَمَّ ـ قال: سَمِعتُ أن الساعةَ إذا دنَت اشتدَّ البلاءُ على الناس، واشتدَّ حرُّ الشمسِ؛ والله أعلم.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

هذا من فَضلِه ـ تبارك وتعالى ـ وكَرَمِه: أنه نَدَب عباده إلى دُعائِه، وتَكفَّل لهم بالإجابة، كما كان سُفيان الثَّوري يقولُ: يا مَنْ أحبُّ عبادِه إليه مَنْ سأله فأكثر سُؤاله، ويا مَنْ أبغضُ عباده إليه مَن لم يسأله، وليس أحدٌ كذلك غيرُك يا ربُّ. رواه ابن أبي حاتم. وفي هذا المعنى يقولُ الشاعر:

الله يَغضَبُ إنْ تركتَ سُؤالَهُ ... وبُنيُّ آدمَ حينَ يُسألُ يَغضَبُ!

وقال قتادةُ: قال كعبُ الأحبار: أُعطِيت هذه الأمة ثلاثاً لم تُعطهُنَّ أُمَّةٌ قبلهم إلا نَبِيٌّ: كان إذا أُرسِلَ قيل له: أنت شاهد على أُمَّتك، وجعلكم شُهداء على الناس. وكان يُقَالُ له: ليس عَليكَ في الدِّين من حَرَجٍ. وقال لهذه الأمةِ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وكان يقال له: ادعُني أستجِبْ لك، وقال لهذه الأمَّة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

[٥٨٦٨] وقال الإمام الحافظ أبو يَعْلَى أحمد بن علي بن المُثَنَّى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترجماني، حدثنا صالح المُرّي قال: سَمِعتُ الحَسَن يحدِّث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن

النبي ـ ﷺ ـ، فيما يَروي عن رَبّه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ قال: «أربع خِصالٍ، واحدةٌ منهنَّ لي، وواحدةٌ لك، وواحدةٌ فيما بيني وبينك، وواحِدةٌ فيما بينك وبين عبادي: فأما التي لي فَتعبدني لا تُشرِكْ بي شيئاً، وأما التي لك عليَّ فما عملتَ من خير جَزَيْتُك به، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعَلَيَّ الإجابةُ، وأما التي بينك وبين عبادِي فارضَ لهم ما ترضَى لنفسك»(١).

[٥٨٦٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعاويةَ، حدثنا الأعمش، عن ذَرّ، عن يُسيع الكِنْدي، عن النعمان بنِ بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الدعاءَ هو العبادةُ»، ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٢). وهكذا رواهُ أصحابُ السنَن: الترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه، وابنُ أبي حاتم، وابنُ جريرٍ، كلُّهم من حديث الأعمش، به. وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح». ورواه أبو داود، والترمذيُّ والنسائيُّ، وابنُ جرير أيضاً، من حديث شعبة، عن منصورٍ والأعمش كلاهما عن ذرٍّ به، وكذا رواه ابن يونس عن أسيد بن عاصم بن مهران حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا سفيان الثوري عن منصور، عن ذَرّ. به. ورواه ابن حبّان والحاكِمُ في صَحِيحيهما، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد».

[٥٨٧٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثني أبو مُلَيح المدني ـ شيخ من أهل المدينة ـ سمعه عن أبي صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من لم يَدْعُ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ غَضِب الله عليه»(٣). تفرَّد به أحمد، وهذا إسنادٌ لا بأسَ به.

[٥٨٧١] وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا مَرْوانُ الفَزارِيُّ، حدثنا صُبيح أبو المُلَيح: سَمِعتُ أبا صالح يُحدِّث عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن لا يسأله يغضَبْ عليه»(٤). قال ابنُ مَعين: أبو المُلَيح هذا اسمُه: صُبَيح. كذا قَيَّده بالضمّ عبد الغنيّ بن سعيدٍ. وأما أبو صالح هذا فهو الخُوزِيّ، سَكَن شِعبَ الخُوزِ، قاله البزار في مُسنَدِه. وكذا وَقَع في روايته أبو المُليح الفارسي، عن أبي صالح الخُوزيّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من لا يسألِ الله يغضَبْ عليه».

[٥٨٧٢] وقال الحافظُ أبو محمد الحسنُ بنُ عبد الرحمن الرّامَهُرْمزيّ: حدثنا هَمّام، حدثنا إبراهيم بن الحسن، حدثنا نائلُ بن نَجِيح، حدثني عائذُ بن حَبِيبٍ، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمدُ بن مَسلَمَةَ الأنصاريّ وجدنا في ذؤابة سَيفه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم، سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن لربِّكم في بقية أيامِ دهرِكم نفحاتٍ، فَتَعرَّضُوا له، لعلَّ دعوةً أن تُوافِقَ رحمةً فيسعَدَ بها صاحِبُها سعادةً لا يخسَرُ

(١) أخرجه أبو يعلى ٢٧٥٧ والبزار ١٩ من حديث أنس، وقال: تفرد به صالح المرّي. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥١: في إسناده صالح المري، وهو ضعيف. وله شاهد أخرجه الطبراني ٦١٣٧ من حديث سلمان، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥٢: فيه حميد بن الربيع، وثقة غير واحد، لكنه مدلس، وفيه ضعف. وقال في «المجمع» ١٧٢١١: رواه البزار عن حميد بن الربيع عن علي بن عاصم، وكلاهما ضعيف، وقد وُثقا.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داوود ١٤٧٩ والترمذي ٣٢٤٧ وأحمد ٤/ ٢٦٧ وابن حبان ٨٩٠، وتقدم.

(٣) تقدم الكلام عليه. وهو حديث لا بأس به كما ذكر ابن كثير رحمه الله.

(٤) مضىٰ الكلام عليه. وكذا ما بعده.

بعدَها أبداً»[1]. وقولُهُ عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دُعائي وتوحيدِي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي: صاغرين حَقِيرين، كما قال الإمام أحمد:

[٥٨٧٣] حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عَجْلان، حدثني عَمْرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يُحشَر المتكبرون يومَ القيامة أمثالَ الذَّرِّ في صُوَر الناسِ، يعلُوهم كلُّ شيءٍ من الصِّغَار حتى يدخلُوا سِجناً في جَهنَّم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نارُ الأنيارِ، يُسقَون من طينةِ الخَبالِ عُصَارةِ أهل النارِ»[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يَزيد بن خُنَيس قال: سمعت أبي يحدِّث عن وُهيب بن الوَردِ: حدثني رَجلٌ قال: كنتُ أسيرُ ذاتَ يوم في أرضِ الرومِ، فَسمِعتُ هاتفاً من فوق رأس جَبَل وهو يقولُ: يا ربِّ، عَجبتُ لمن عَرَفك كيف يرجُو أحداً غيرك! يا ربِّ، عَجبتُ لمن عَرَفك كيف يَطلُبُ حوائجه إلى أحدٍ غيرك ـ قال: ثم ذَهبت، ثم جاءت الطامَّةُ الكبرى ـ قال: ثم عاد الثانية فقال: يا ربِّ، عَجِبتُ لمن عَرَفك كيف يَتعرَّض لشيء من سَخَطِكَ بِرضا غيرِكَ. قال وُهَيب: وهذه الطامَّةُ الكُبرى. قال: فناديتُه: أجنيٌّ أنتَ أم إنسي؟ قال: بل إنسيٌّ، اشغلْ نفسك بما يَعْنِيك عما لا يَعْنِيك.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُمتنًا على خَلقِهِ بما جَعَل لهم من اللَّيلِ الذي يَسكنُون فيه ويَستريحُون من حركات تَرَدُّدهم في المعايش بالنهار، وجَعَلَ النهارَ مُبصِراً، أي: مُضيئاً، لتيصرَّفُوا فيه بالأسفارِ، وقَطْع الأقطارِ، والتمكُّن من الصناعاتِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: لا يَقومُون بشكرِ نِعَم الله عليهم. ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: الذي فَعَل هذه الأشياءَ هو الله الواحدُ الأحدُ، خالقُ الأشياء، الذي لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾، أي: فكيف تَعبدُون غيرَه من الأصنام، التي لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقةٌ منحوتةٌ.

وقولُهُ عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: كما ضَلَّ هؤلاء بعبادةِ غير الله، كذلك أُفِكَ الذين من قبلهم فَعَبدُوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل بمُجرَّدِ الجهل والهوى، وجَحدوا حُجَجَ

(١) أخرجه الرامهرمزي ٦١٥ وفي إسناده نائل بن نجيح، وهو ضعيف. وورد من طريق آخر أخرجه الطبراني ١٩/ ٢٣٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٧١٣: فيه من لم أعرفه، ومن عرفتهم وُثقوا، وله شاهد من حديث أنس أخرجه الطبراني ٧٢٠ وقال في «المجمع» ١٧٧١٤: رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى، وهو ثقة اهـ وفيه انقطاع بين صفوان بن سليم وأنس، فإنه لم يسمع منه كما قال أبو حاتم. وله شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» ٢٧ وفيه راوٍ لم يسم، لكن الحديث يحسن بهذا الطريق والشاهدين، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٩ وإسناده حسن، لكن في المتن غرابة منها لفظ «بولس» فليست بعربية، ولعل الأشبه وقفه، وقد تقدم.

الله وآياته. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أي: جعَلها لكم مُستقراً، بِساطاً مِهاداً تَعِيشُون عليها، وتتصرَّفُون فيها، وتمشُون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تَميدَ بكم، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، أي: سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومَنحكم أكمَل الصوَر في أحسنِ تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: من المآكل والمشارب في الدُّنيا. فَذَكر أنه خَلَقَ الدارَ، والسكّانَ، والأرزاق، فهو الخالقُ الرازقُ، كما قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقال هاهنا بعد خلقِ هذه الأشياء: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: فَتعالى وتقدَّسَ وتنزَّه ربُّ العالمين كُلِّهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هو الحيُّ أَزَلاً وأبداً، لم يَزَل ولا يَزالُ، وهو الأولُ والآخرُ، والظاهر والباطِنُ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا نَظِيرَ له ولا عَدِيلَ له، ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: مُوحِّدين له مُقِرِّين بأنه لا إله إلا هو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال ابنُ جَرير: كان جماعةٌ من أهلِ العلم يَأمرون مَن قال: لا إله إلا الله، أن يُتبِعُها بالحمدِ لله ربِّ العالمين، عَمَلاً بهذه الآية. ثم روىٰ عن مُحمَّد بنَ علي بن الحسن بن شَقِيق، عن أبيه، عن الحُسَين بن واقدٍ، عن الأعمش، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: مَن قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثَرِها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقال أبو أسامةَ وغيرُه؛ عن إسماعيلَ بن أبي خالدٍ، عن سعيد بن جُبَير قال: إذا قرأت: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، فقُل: لا إله إلا الله، وقُل على أثرِها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٥٨٧٤] قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير حدثنا هشام ـ يعني ابن عروة بن الزبير ـ عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله؟ لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال: وكان رسول الله ﷺ يُهلُّ بهنَّ دبر كل صلاة(١).

[٥٨٧٥] ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثتهم عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»(١)، وذكر تمامه.

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

يقولُ تبارك وتعالى: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركين: إنَّ الله عز وجل ينهَى أن يُعْبَد أحدٌ سواه من

(١) تقدم في هذه السورة، آية: ١٤.

الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بيَّن تعالى أنه لا يستحقُّ العبادَة أحدٌ سواه، في قوله جلت عظمته: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾، أي: هو الذي يُقلِّبكم في هذه الأطوارِ كُلِّها، وحدَه لا شريكَ له، وعن أمرِه وتدبيرِه وتقديرِه يكونُ ذلك كلُّه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل أن يُوجَد ويخرُجَ إلى هذا العالمِ، بل تُسقطُه أمّه سقطاً، ومنهم من يُتوفَّى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبلَ الشيخوخَةِ، كقوله تعالىٰ: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قال ابن جُريج: تَتذكَّرُون البعثَ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: هو المنفردُ بذلك، لا يقدِرُ على ذلك أحدٌ سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، أي: لا يُخالَف ولا يُمانَع، بل ما شاء كان لا محالة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ألا تعجَبُ يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحقِّ بالباطل، كيف تُصْرَفُ عقولُهم عن الهُدَى إلى الضَّلالِ، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾، أي: من الهُدى والبيانِ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيد، من الربِّ ـ جل جلاله ـ لهؤلاءِ، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقولُهُ عز وجل: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾، أي: مُتَّصلةٌ بالأغلالِ، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣ ـ ٤٤].

وقال تعالىٰ بعد ذكر أكلهم الزقُّومَ وشربِهم الحَميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٨] وقال عز وجل: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٥٦]. وقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]، أي: يقال لهم ذلك على وجهِ التقريعِ والتوبيخِ، والتحقير والتصغير، والتهكُّم والاستهزاءِ بهم.

[٥٨٧٦] قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسين، حدثنا أحمد بن مَنيع، حدثنا منصور بن عمّار، حدثنا بَشير بن طلحَةَ الجُذامي، عن خالد بن دُرَيك، عن يعلى بن مُنْيَة ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ قال: «ينشىء الله عز وجل سحابة لأهل النارِ سوداءَ مُظلِمَةٍ، ويقال: يا أهلَ النار، أي شيء تَطلُبون؟ فيذكرون

بها سحابَ الدنيا فيقولون: نسأل بارد الشراب. فَتُمطِرهم أغلالاً تَزيد في أغلالهم، وسَلاسِلَ تَزيدُ في سلاسِلهم، وجَمْراً يُلْهِبُ النارَ عليهم»(١). هذا حديث غريب.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي قيل لهم: أين الأصنامُ التي كنتم تعبدُونها من دُونِ الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾، أي: ذَهبُوا فلم يَنفعُونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، أي: جَحدُوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]. ولهذا قال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾، أي: تقولُ لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاءٌ على فَرَحِكم في الدنيا بغير الحقِّ، ومَرَحِكم وأَشَرِكم وبَطَرِكم، ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾، أي: فبئسَ المنزلُ والمَقِيلُ الذي فيه الهوانُ والعذابُ الشديدُ، لِمَن استكبَرَ عن آياتِ الله، واتِّباعِ دَلائِله وحُجَجه. والله أعلم.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بالصبر على تكذيب مَن كَذَّبه من قَومِه، فإن الله تعالىٰ سَيُنجِزُ لك ما وَعَدك من النصر والظَفر على قومك، وجَعل العاقبةَ لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، أي: في الدنيا. وكذلك وَقَع، فإن الله تعالىٰ أقرَّ أعيُنَهم من كُبَرائهم وعُظمائهم، أُبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكةَ وسائرَ جزيرةِ العرب في حَياتِهِ، ـ ﷺ ـ.

وقولُهُ عز وجل: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، أي: فَنُذِيقهم العذابَ الشديدَ في الآخرة. ثم قال تعالىٰ مُسلِّياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء، أي: منهُم مَن أوحينا إليكَ خَبَرهُم وقَصَصهم مع قَومِهم كيف كذَّبوهم ثم كانت للرسلِ العاقبةُ والنصرةُ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذُكِر بأضعافِ أضعافٍ، كما تَقدَّم التنبيه على ذلك في سورة النساء، ولله الحمدُ والمِنّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولم يكُن لواحدٍ من الرسلِ أن يأتيَ قومَه بخارقٍ للعاداتِ إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدُلّ ذلك على صِدْقِه فيما جاءهُم به، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وهو عذابُه ونَكالُه المحيطُ بالمكذِّبين، ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾، فَينجُو المؤمنون، ويَهلِكُ الكافِرُونَ، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ١٨٥٩٨ وقال الهيثمي: وفيه من فيه ضعف قليل، ومن لم أعرفه اهـ. قلت: وخالد بن دريك ذكره الذهبي في «الميزان» ٢٤١٩، وقال: روايته عن الصحابة مرسلة. وقال المنذري في «الترغيب» ٥٣٩٢: وقد روي موقوفاً عليه ـ أي على يعلى ـ وهو أصح اهـ.

يقولُ تعالى مُمتناً على عبادِه بما خَلَق لهم من الأنعام، وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبلُ تُركَب وتؤكل وتحلَب، ويحمل عليها الأثقالُ في الأسفار والرحال إلى البلادِ النائيةِ، والأقطارِ الشاسعة. والبقرُ تُؤكَل، ويُشرَب لبنها، وتُحرَث عليها الأرض. والغَنم تُؤكلُ، ويُشرَب لبَنُها. والجميع تُجزُ أصوافها وأشعارُها وأوبارُها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعةُ، كما فُصِّل وبُيِّنَ في أماكن تقدَّم ذكرُها في سورة الأنعام، وسورة النحل، وغير ذلك. ولهذا قال عز وجل هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقولُه جل وعلا: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، أي: حُجَجه وبراهينَه في الآفاقِ وفي أنفسِكم، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾؟ أي: لا تَقدِرونَ على إنكارِ شيءٍ من آياته، إلا أن تعانِدوا وتكابرُوا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨٢ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۝٨٥﴾

يُخبر تعالى عن الأمم المكذِّبة بالرسل في قَدِيم الدهر، وماذا حَلَّ بهم من العذاب الشديد، مع شِدَّةِ قُواهم، وما أثَّروه في الأرض، وجَمَعُوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا رَدَّ عنهم ذرَّةً مِن بأسِ الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسلُ بالبينات، والحُجَج القاطعاتِ، والبراهينِ الدامغاتِ، لَم يلتفِتُوا إليهم، ولا أقبلُوا عليهم، واستغنَوا بما عندَهم من العلم في زَعمِهم عما جاءتْهم به الرسلُ. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلمُ منهم، لن نُبعَثَ ولن نُعذَّبَ. وقال السدِّيُّ: فَرِحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأسِ الله تعالىٰ ما لا قِبَلَ لهم به. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾، أي: أحاطَ بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: يُكذِّبون ويستبعِدُون وقوعَه. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، أي: عايَنُوا وقوعَ العذابِ بهم، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾، أي: وَحَّدوا الله عز وجل وكَفَرُوا بالطاغوتِ، ولكن حيث لا تُقَال العَثَراتُ، ولا تنفعُ المعذِرَةُ. وهذا كما قال فِرعَونُ حين أدركه الغَرَقُ: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩١]. أي: فلم يَقبلِ الله منه، لأنه قد استجابَ لنبيِّه موسَى دُعاءَه عليه حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. وهكذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾، أي: هذا حكمُ الله في جميعِ مَنْ تاب عند مُعَاينةِ العذاب، أنه لا يُقبَلُ.

[٥٨٧٧] ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبلُ توبة العبد ما لم يُغرغِر»[1]، أي: فإذا غَرغَر وبلغت الروحُ الحنجرَةَ، وعاينَ المَلكَ، فلا توبةَ حينئذٍ. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

## آخر تفسير «سورة غافر». ولله الحمد والمنة

---

(١) تقدم تخريجه.

ترتيبها ٤١ — سورة فصلت — آياتها ٥٤

# سورة فصلت

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ﴿١﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿٢﴾ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴿٣﴾ بشيرا
ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴿٤﴾ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر
ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿حم ﴿١﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿٢﴾﴾، يعني: القرآن مُنزَّل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل: ١٠٢]. وقولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ﴿١٩٢﴾ نزل به الروح الأمين ﴿١٩٣﴾ على قلبك لتكون من المنذرين ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿كتاب فصلت آياته﴾، أي: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه، ﴿قرآنا عربيا﴾، أي: في حال كَوْنِه لفظاً عربياً، بيِّناً واضحاً، فَمعانيه مُفصَّلة، وألفاظُه واضحةٌ غير مُشكِلَةٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود: ١]، أي: هو مُعجزٌ من حيثُ لفظه ومعناه، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿٤٢﴾﴾. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿لقوم يعلمون﴾، أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوحَ العلماءُ الراسخُون، ﴿بشيرا ونذيرا﴾، أي: تارةً يُبشِّر المؤمنين، وتارةً يُنذِر الكافرين، ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾، أي: أكثرُ قُريش، فهم لا يَفهمُون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾، أي: في غُلُفٍ مُغطَّاة ﴿مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾، أي: صَمَمٌ عما جئتنا به، ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾، فلا يصل إلينا شيءٌ مما تقولُ، ﴿فاعمل إننا عاملون﴾، أي: اعمَل أنت على طَرِيقَتِك، ونحنُ على طَرِيقتِنا لا نُتابِعُكَ.

[٥٨٧٨] قال الإمام العَلَم عبدُ بن حُمَيد في مسنده: حدثني ابنُ أبي شَيبةَ، حدثنا علي بن مُسهر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرمَلَة الأسدي، عن جَابِر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: اجتمعت قريشٌ يوماً فقالوا: انظُروا أَعْلَمَكُم بالسِّحر والكهانة والشِّعر، فلْيأتِ هذا الرجلَ الذي قد فَرَّق جَماعتنا، وشتَّت أمرَنا، وعابَ دِيننا، فَلْيُكلِّمه وَلْنَنظُرْ ماذا يَرُدّ عليه؟ فقالوا: ما نعلَمُ أحداً غير عُتْبَة بنِ ربيعةَ. فقالوا: أنتَ يا أبا الوليدِ. فأتاه عتبةُ فقال: يا محمدُ، أنت خيرٌ أم عبدُ الله؟ فسكتَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: أنت خيرٌ أم عبد المطلب؟ فسكت رسولُ الله ـ ﷺ ـ. فقال: فإن كنت تزعُم أن هؤلاء خيرٌ منك، فقد عَبَدُوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعُم أنك خير منهم فتكلَّم حتى نسمعَ قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلةً قطُّ أشأم على قَومِهِ منك، فرَّقتَ جماعَتنا، وشتَّتَ أمرنا، وعِبتَ دينَنا، وفَضَحتنا في العَرَبِ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً! والله ما نَنْتَظِرُ إلا مثل صيحةِ الحُبلى أن يقومَ بعضُنا إلى بعضٍ بالسيوفِ، حتى

نتفاني! أيُها الرجلُ، إن كان إنما بك الحاجةُ جَمَعنا لك حتى تكونَ أغنى قريش رجلاً واحداً، وإن كان إنما بك البَاءةُ فاختر أيَّ نساءِ قريش شئت فَلْنُزوِّجك عشراً. فقال رسوُل الله ـ ﷺ ـ: «فَرَغتَ؟» قال: نعم. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾. فقال عتبةُ: حسبُكَ! حسبُكَ! ما عندكَ غيرَ هذا؟ قال: «لا». فرجَعَ إلى قُريشٍ، فقالوا: ما وراءَكَ؟ قال: ما تركتُ شيئاً أرى أنكم تُكلِّمونه به إلاَّ كَلَّمتُه. قالوا: فهل أجابك؟ قال: لا، والذي نَصَبها بَنِيَّةً ما فهمتُ شيئاً مما قال، غير أنه أنذركُم صاعقةً مثل صاعقةِ عادٍ وثمودَ. قالوا: ويلَكَ! يُكلِّمكَ الرجلُ بالعربية لا تدري ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمتُ شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقةِ[1]. وهكذا رواهُ الحافظُ أبو يعلَى الموصلي في مسنده، عن أبي بكر بن أبي شيبةَ بإسناده، مثله سواء.

[٥٨٧٩] وقد ساقه البَغويُّ في تفسيره بسندِه عن محمد بن فُضَيل، عن الأجلح ـ وهو ابنُ عبد الله الكِنديُّ الكُوفيُّ ـ وقد ضُعِّفَ بعض الشيء، عن الذَّيّال بن حَرْمَلَة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾. فأمسك عتبةُ على فيه، وناشده بالرَّحِم، ورجَعَ إلى أهله، ولم يخرج إلى قُريشٍ واحتبس عنهم. فقال أبو جهلٍ: يا معشرَ قريشٍ، والله ما نرى عتبةَ إلا قد صبأ إلى محمدٍ، وأعجَبه طعامُه، وما ذاك إلا مِن حاجةٍ أصابته، فانطلِقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جَهلٍ: يا عتبةُ، ما حَبَسكَ عَنَّا إلا أنك صبأت إلى محمدٍ وأعجبَكَ طعامُه، فإن كانت بك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يُغنِيك عن طعام مُحمَّدٍ. فَغَضِبَ عتبةُ، وأقسم ألاَّ يكلِّمَ محمداً أبداً، وقال: والله لقد عَلِمتُم أني من أكثر قريش مالاً. ولكني أتيته وقَصَصتُ عليه القصَّة فأجابني بشيء والله ما هو بشعرٍ ولا كَهانةٍ ولا سحرٍ، وقرأ السورة إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرَّحِمِ أن يَكُفَّ، وقد عَلِمتُم أن محمداً إذا قال شيئاً لَم يكذِبْ، فَخَشِيتُ أن ينزلِ بكم العذاب[2]. وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى، والله تعالىٰ أعلم.

[٥٨٨٠] وقد أورد هذه القصة الإمامُ محمد بن إسحاق بن يَسَار في كتاب «السيرة» على خلافِ هذا النَّمطِ، فقال: حدثني يزيدُ بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: حُدِّثتُ أن عُتبة بنَ رَبِيعةَ ـ وكان سيِّداً ـ قال يوماً وهو جالس في نادي قُريش، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ جالسٌ في المسجد وحدَه: يا معشرَ قُريشٍ، ألا أقومُ إلى محمدٍ فَأُكلِّمه وأعرِضَ عليه أموراً لعلَّه أن يقبلَ بعضَها، فنُعطِيه أيُّها شاءَ ويكُفَّ عنا؟ وذلك حين أسلَمَ حمزةُ، ورأَوا أصحاب رسولِ الله ـ ﷺ ـ يَزيدون وَيكثُرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليدِ، فقُم إليه فَكَلِّمه. فقامَ إليه عتبةُ حتى جلس إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا ابنَ أخِي، إنَّك منَّا حيثُ قد عَلِمتَ من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنَّك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيم، فرّقت به جماعَتَهم، وسَفَّهت به أحلامَهم، وعِبتَ به آلهتهم ودينَهم، وكفَّرت به من مَضَى من آبائهم، فاسْمَع مني أعرض عليكَ أُموراً تنظُر فيها لعلَّكَ تقبلُ منها بعضُها. قال: فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «قل يا أبا الوليد أسمَع». قال: يا ابن أخي، إن كنتَ إنما

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٢٩٥ وأبو يعلىٰ ١٨١٨ والحاكم ٢/ ٢٥٣ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤ وإسناده لين. قال الهيثمي في «المجمع» ٦/ ٢٠: فيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره اهـ. ويشهد لأكثره ما بعده وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البغوي في «التفسير» ١٨٦٣ ـ بترقيمي ـ وإسناده لين كسابقه، وانظر ما بعده.

تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جَمَعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً. وإن كنت تُريد به شرفاً سَوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونكَ. وإن كنت تُريدُ به مُلكاً ملَّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه لا تستطيعُ ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئَكَ منه، فإنه ربما غَلَب التابع على الرجل حتى يُداوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فَرَغ عُتبَةُ ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يَستمِعُ منه قال: «أفرغتَ يا أبا الوليدِ؟». قال: نعم. قال: «فاستمِع مني». قال: أفعل. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ④﴾. ثم مضى رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيها يقرؤها عليه. فلما سَمِع عتبةُ أنصتَ لها، وألقى يَدَيه خَلفَ ظهره معتمداً عليهما يسمَعُ منه، ثم انتهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى السجدةِ منها، فَسجد، ثم قال: «قد سَمِعتَ يا أبا الوليدِ ما سَمِعتَ، فأنتَ وذاكَ». فقام عُتبةُ إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نَحلِفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجهِ الذي ذَهَب به. فلما جَلَس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: وَرائِي أني قد سَمِعتُ قولاً واللهِ ما سَمِعتُ مثله قطُّ، والله ما هو بالسحرِ ولا بالشِّعرِ ولا بالكهانةِ. يا مَعشرَ قُريشٍ، أطِيعُوني واجعلوها لي، خَلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزِلُوه، فوالله ليكونَنَّ لقولِه الذي سَمِعتُ نَبأً، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتُموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب فمُلكُه مُلككُم، وعِزُّهُ عزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به، قالوا: سَحرَك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1]. وهذا السياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ⑥ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ⑦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ⑧﴾

يقول تعالى: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذِّبين المشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، لا كما تَعبدُونه من الأصنام والأندادِ والأربابِ المتفرِّقين، إنما الله إلهٌ واحدٌ، ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، أي: أخلِصُوا له العبادةَ على مِنوالِ ما أمركُم به على ألسنةِ الرسل ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، أي: لسالفِ الذنوب، ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾، أي: دَمارٌ لهم وهلاكٌ عليهم، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الذين لا يَشهدُون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة. وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ⑨ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ⑩﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]. وكقوله جلت عظمته: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ⑮﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥]. وقوله عز وجل: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ⑱﴾ [النازعات: ١٨]. والمرادُ بالزكاة هاهنا طهارةُ النفس من الأخلاق الرذيلة، ومِن أهَمِّ ذلك طهارةُ النفسِ من الشركِ. وزكاةُ المالِ إنما سُمِّيت زكاةً لأنها تُطَهِّره من الحَرام، وتكون سَبَباً لزيادتِه وبَركتِه وكثرةِ نفعِه، وتوفيقاً إلى استعمالِه في الطاعاتِ. وقال السدِّيُّ: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ⑥ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: الذين لا يَدِينُون بالزكاة. وقال

(١) أخرجه البيهقي ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥ عن طريق ابن إسحاق، عن محمد بن كعب مرسلاً. وله شاهد من حديث ابن عمر، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ١٨٥ وكذا البيهقي ٢/ ٢٠٥ وفيه داود بن زرعة الضبي، وهو لين الحديث، لكن يصلح شاهداً لما قبله.

الخلاصة: هذه الروايات تتأيد بمجموعها، ويثبت بها أصل الحديث لا لفظه بحرفيته. والله أعلم.

معاوية بن قُرّة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادةُ: يمنعون زكاةَ أموالِهم. وهذا هو الظاهرُ عند كثيرٍ من المفسِّرين، واختارَه ابنُ جَرير. وفيه نظرٌ؛ لأنَّ إيجابَ الزكاةِ إنما كان في السَّنةِ الثانية من الهجرةِ إلى المدينةِ، على ما ذَكره غيرُ واحدٍ، وهذه الآية مكيَّةٌ، اللهمَّ إلا أن يُقال: لا يبعدُ أن يكون أصل الصدَقةِ والزكاةِ كان مأموراً به في ابتداءِ البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النُّصُب والمقادير فإنما بُيِّن أمرُها بالمدينةِ، ويكونُ هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غُروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلةُ الإسراء قبل الهجرةِ بسنةٍ ونصفٍ فَرَض الله تعالىٰ على رسولِه الصلوات الخمس، وفَصَّل شُروطها وأركانها وما يَتعلَّق بها بعد ذلك، شيئاً فشيئاً، والله أعلم. ثم قال جل جلاله بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾، قال مجاهدٌ وغيرُه: لا مقطوعٌ ولا مجبوبٌ. كقوله تعالىٰ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ [الكهف: ٣]، وكقولِه تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقال السدِّيُّ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وقد رَدَّ عليه هذا التفسيرَ بعضُ الأئمة، فإن المنَّة لله تعالىٰ على أهل الجنةِ، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]. وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٧].

[٥٨٨١] وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إلاَّ أن يَتغمَّدَني الله برحمةٍ منهُ وفضلٍ»(١).

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾

هذا إنكارٌ منَ الله تعالىٰ على المشركين الذين عَبَدُوا معه غيرَه، وهو الخالقُ لكلِّ شيء، القاهرُ لكلِّ شيء، المقدِّرُ لكلِّ شيءٍ، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، أي: نُظراءَ وأمثالاً تَعبدُونها معه، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: الخالقُ للأشياءِ هو ربُّ العالمين كُلِّهم. وهذا المكانُ فيه تفصيلٌ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصَّل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختصَّ بالسماء، فذكر أنه خَلَق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأ بالأساس، ثم بعدَه بالسقفِ، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]... الآية. فأمّا قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣]، ففي هذه الآية أن دَحْيَ الأرض كان بعد خَلقِ السماء، فالدَّحْيُ هو مُفسَّرٌ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾، وكان هذا بعد خَلْقِ السماء، فأما خَلقُ الأرض فقبل خلق السماء بالنصِّ، وبهذا أجابَ ابن عباس فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال: وقال المنهالُ، عن سعيد بن جُبَير قال: قال رجلٌ لابن عباس: إني أجدُ في القرآن أشياءَ تختلِفُ عليَّ، قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ

(١) متفق عليه وتقدم.

حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كتموا في هذه الآية. وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾، فذكر خلقَ السماء قبل خَلْقِ الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾، فذكر في هذه خَلْقَ الأرضِ قبلَ خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، فكأنه كان ثُمَّ مَضَى. قال ـ يعني ابن عباس ـ: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ في النفخةِ الأُولى، ثم يُنفخ في الصور، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخةِ الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وأمّا قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فإن الله تعالى يغفِر لأهل الإخلاص ذُنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فَيَختِمُ على أفواههم، فتَنطِق أيديهم، فعند ذلك عُرِف أن الله لا يُكتَمُ حديثاً، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحجر: ٢]. . الآية. وخَلَقَ الأرض في يومين، ثم خَلَق السماء، ثم استوى إلى السماء فَسوّاهُنَّ في يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمَرْعَى، وخَلَق الجبالَ والرمال والجَماد والآكامَ وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَخُلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلِقت السمواتُ في يومَين. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: سَمَّى نفسه بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يُرِد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلفَنّ عليك القرآن، فإنّ كلاًّ من عند الله ـ عزّ وجلّ ـ قال البخاريُّ: حَدَّثنيه يوسفُ بن عديّ، حدثنا عُبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أُنيسَة، عن المِنهال ـ وهو ابن عَمرو ـ بالحديث. فقولُه: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، يعني: يومَ الأحد ويومَ الإثنين، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي: جَعَلها مباركةً قابلةً للخير والبَذْرِ والغِراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاجُ أهلُها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرَعُ وتُغرَسُ ـ يعني يومَ الثُّلاثاءِ والأربعاءِ، فهما مع اليومين السابقين أربعةٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾، أي: لمن أراد السؤّال عن ذلك ليعلَمَه. وقال مجاهد وعكرمة في قوله عز وجل: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جَعَل في كلّ أرضٍ ما لا يصلُح في غيرها، ومنه: العَصْبُ باليَمَن، والسابريُّ بسابور، والطيالِسَةُ بالرّي. وقال ابن عباس، وقتادةُ والسدّيُّ في قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾، أي: لمن أراد السؤّال عن ذلك، وقال ابنُ زيدٍ: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾، أي: علَى وَفْقِ مُراده مَن له حاجة إلى رِزقٍ أو حاجةٍ، فإن الله تعالى قد قَدَّر له ما هو محتاج إليه. وهذا القول يُشبِه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلمُ. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، هو: بُخار الماء المتصاعِدُ منه حين خُلِقَتِ الأرضُ، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أي: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين. قال الثوريُّ: عن ابن جُرَيج، عن سُلَيمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، قال: قال الله تعالى للسموات: أَطْلِعِي شمسِي وقَمَري ونُجومِي. وقال للأرض: شَقِّقي أنهارَكِ، وأخرجِي ثِمارَكِ. فقالتا: أتينا طائعين. واختاره ابنُ جرير ـ رَحِمَه الله ـ. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، أي: بل نَستجيبُ لك مُطيعين بما فينا، مما تُريد خَلْقه من الملائكة والإنسِ والجنّ جَميعاً مُطيعين لك. حكاه ابنُ جرير عن بعضِ أهل العربيةِ، قال: وقيل: تنزيلاً لهنَّ معاملةَ مَن يعقِل بكلامِهما. ويُقال: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم. وقال الحسنُ البصري: لو أَبَيا عليه أمرَه لَعَذَّبهما عذاباً يَجِدان ألمه. رواه ابن أبي حاتم. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، أي: فَفرغ من تسويتهن سبعَ سموات في يومَينِ، أي: آخرَين، وهُما يومُ الخميسِ ويومُ الجُمُعةِ.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾، أي: وَرَتَّبَ مُقَرَّراً في كل سماءٍ ما تحتاجُ إليه من الملائكةِ، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وهنّ الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرضِ، ﴿وَحِفْظًا﴾، أي: حَرَساً من الشياطين أن تستمعَ إلى الملأ الأعلى. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، أي: العزيزُ الذي قد عَزَّ كلَّ شيء فغَلَبه وقَهره، العليمُ بجميعِ حركاتِ المخلوقاتِ وسَكَناتِهم.

[٥٨٨٢] قال ابنُ جرير: حدثنا هَنّاد بن السَّرِي، حدثنا أبو بكر بن عَيَّاش، عن أبي سعيد البقَّال، عن عكرمةَ، عن ابن عباس ـ قال هَنَّاد: قرأت سائِرَ الحديث أن اليهود أتتِ النبيَّ ـ ﷺ ـ فسألته عن خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، فقال: «خَلَقَ الله الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثنين، وخَلَقَ الجِبالَ يومَ الثُّلاثاء وما فيهنَّ من منافِع، وخَلَق يومَ الأربعاءِ الشجَرَ والماءَ والمدائِنَ والعُمران والخَرَاب ـ فهذه أربعة. ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾: لمن سأل ـ قال: «وخَلَق يومَ الخميسِ السَّماء، وخَلَق يومَ الجُمُعةِ النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ إلى ثلاثِ ساعات بقيت منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيءٍ مما ينتفِعُ به الناسُ، وفي الثالثةِ آدَمَ، وأسكنه الجنَّةَ، وأمر إبليسَ بالسجود له، وأخرجَه منها في آخر ساعة». ثم قالت اليهودُ: ثم ماذا يا محمدُ؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا: ثم استراح، فَغَضِبَ النبيُّ ـ ﷺ ـ غضباً شديداً، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾(١) [ق: ٣٨ ـ ٣٩]. هذا الحديثُ فيه غرابةٌ.

[٥٨٨٣] فأما حديثُ ابن جُرَيج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هُرَيرة قال: أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بيَدِي فقال: «خَلَقَ الله التربةَ يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثُّلاثاء، وخَلَقَ النورَ يوم الأربعاءِ، وبَثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخَلَق آدمَ بعد العصرِ يومَ الجُمُعة آخر الخَلْقِ في آخر ساعةٍ من ساعاتِ الجُمُعةِ، فيما بين العصرِ إلى الليل»(٢). فقد رواه مسلم والنَّسائيُّ في كتابيهما، من حديث ابن جُرَيج، به. وهو من غرائب الصَّحيح، وقد عَلَّله البخاريُّ في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هُرَيرة، عن كعبِ الأحبارِ، وهو الأصحُّ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

(١) وإسناد الحديث ضعيف والمتن منكر. أخرجه الطبري ٣٠٤٢٩، ورجاله ثقات سوى أبي سعيد البقال، واسمه سعيد بن المرزبان، قال الذهبي في «الميزان» ٣٢٧١: تركه الفلاس، وقال ابن معين: لا يكتب حديثه. وقال أبو زرعة: صدوق، مدلس، وقال البخاري: منكر الحديث اهـ.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٨٩ وغيره، وتقدم الكلام عليه، وأنه لا يصح مرفوعاً، وهو أحد غرائب مسلم.

يقولُ تعالى: قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذِّبين بما جئتهم به من الحقِّ: إن أعرضتُم عما جئتكم به من عند الله، فإني أنذِركُم حُلولَ نِقمَةِ الله بكم، كما حَلَّت بالأمم الماضين من المكذِّبين بالمرسلين ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، أي: ومَن شاكلهما مِمَّن فَعَل كفعلهما، ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: ٢١]، أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بَعَث الله إليهم الرسُلَ يأمرون بعبادة الله وحده لا شريكَ له، ومُبشِّرين ومُنذِرين، ورأوا ما أحلَّ الله بأعدائه من النِّقَم، وما ألبَسَ الله أولياءَه من النِّعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صَدَّقوا، بل كَذَّبوا وجَحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، أي: لو أرسَلَ الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، أي: أيها البشرُ ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: لا نَتَّبِعكُم وأنتم بشرٌ مثلُنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: بَغوا وعَتوا وعَصَوا، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، أي: مَنُّوا بشدَّةِ تركيبهم وقُواهم، واعتقدوا أنهم يَمتنِعُون بها من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: أفما يتفكرون فِيمَن يُبارِزُون بالعَداوة؟ فإنه العظيمُ الذي خَلَق الأشياءَ وركَّب فيها قُواها الحامِلَة لها، وإنَّ بطشه شَدِيدٌ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزُوا الجبار بالعداوة، وجَحدوا بآياته وعَصوا رسله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، قال بعضهم: وهي الشديدةُ الهُبوبِ. وقيل: الباردةُ. وقيل: هي التي لها صَوتٌ. والحق: أنها مُتَّصِفة بجميع ذلك، فإنَّها كانت ريحاً شديدةً قويةً، لِتكُونَ عقوبتُهم من جنس ما اغترُّوا به من قُواهم، وكانت باردةً شديدةَ البردِ جداً كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، أي: باردةً شديدةً، وكانت ذاتَ صوت مُزعِجٍ، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صَرْصَراً، لقوة صوت جريه. وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، أي: مُتَتَابِعاتٍ، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، أي: ابتُدِئُوا بهذا العذابِ في يوم نحسٍ عليهم، واستمرَّ بهم هذا النحسُ سبعَ ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخِرهم، واتَّصل بهم خزي الدنيا بعذابِ الآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أي: أشدُّ خزياً لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: في الأخرى كما لم يُنصَرُوا في الدنيا، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبَير، وقتادة، والسديُّ، وابن زيد: بَيَّنا لهم. وقال الثوري: دَعوناهم. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: بَصَّرناهم، وبَيَّنا لهم، ووضَّحنا لهم الحقَّ على لسان نَبيِّهم صالح ـ عليه السلام ـ فخالَفُوه وكَذَّبوه، وعَقَرُوا ناقة الله التي جَعَلها آية وعلامةً على صدقِ نبيِّهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، أي: بعث الله عليهم صيحةً ورَجْفَةً وذُلاً وهَوَاناً وعذاباً ونكالاً، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: من التكذيب والجُحود. ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: من بين أظهرِهم، لم يَمَسّهم سوءٌ، ولا نالهم من ذلك ضَررٌ، بل نَجّاهم الله مع نبيهم صالح بإيمانهم وتقواهُم لله، ـ عزَّ وجلَّ ـ.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾، أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يُحشرون إلى النار، ﴿يُوزَعُونَ﴾، أي: تجمعُ الزبانيةُ أوّلَهم على آخِرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦]، أي: عطاشاً. وقولُهُ عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: وَقَفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: بأعمالهم مما قدّموه وأخّروه، لا يُكتَم منه حرفٌ.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟ أي: لاموا أعضاءَهم وجُلودَهم حين شَهِدُوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاءُ: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: فهو لا يُخالَف ولا يُمانَع، وإليه تُرجَعُون.

[٥٨٨٤] قال الحافظ أبو بكر البَزّار: حدثنا محمدُ بن عبد الرحيم، حَدَّثنا عليّ بن قادم، حدثنا شَريكٌ، عن عُبَيد المُكتِبِ، عن الشَّعبي، عن أنس بن مالك قال: ضَحِك رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم وتَبسَّم، فقال: «ألا تسألوني عن أيّ شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسولَ الله، من أيِّ شيء ضحِكت؟ قال: «عَجِبتُ من مُجادلَةِ العبدِ ربَّه يومَ القيامة، يقول: أيْ ربِّي، أليس وعدتَني ألاّ تظلِمني؟ قال: بلى. فيقول: فإني لا أقبلُ عليَّ شاهداً إلا مِن نفسِي. فيقولُ الله تباركَ وتعالى: أو ليس كَفَى بي شهيداً، وبالملائكةِ الكرام الكاتبين؟! قال: فَيُردِّد هذا الكلام مِراراً. قال: فَيُختَم على فِيه، وتَتكلَّم أركانُه بما كان يعمَلُ، فيقول: بُعداً لَكُنّ وسحقاً، عنكُنّ كنتُ أجادل»(١). ثم رواه هو وابنُ أبي حاتم، من حديث أبي عامر الأَسَدِيّ، عن الثَّورِيّ، عن عُبَيد المُكتِبِ، عن فُضَيل بن عَمرو، عن الشعبي. ثم قال: لا نعلَمُ رواه عن أنس غيرُ الشعبي. وقد أخرجه مُسلِم والنسائيُّ جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النَّضرِ، عن عُبَيدالله بن عبد الرحمن الأشجعيّ، عن الثوريّ، به. ثم قال النَّسائيُّ: لا أعلم أحداً رواه عن الثوريّ غير الأشجعي. وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمدُ بن إبراهيم، حدثنا إسماعيلُ بن عُلَيّةَ، عن يونُسَ بنِ عُبَيد، عن حُمَيدِ بن هلالٍ قال: قال أبو بُرْدَةَ: قال أبو موسى: ويُدعى الكافر والمنافقُ للحساب، فَيَعرِض عليه ربُّه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عملَه، فيجحَد ويقول: أيْ ربِّ، وعِزَّتِك لقد كَتَب عليَّ هذا المَلَك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزَّتِك، أيْ ربِّ ما عَمِلتُه! فإذا فَعَل ذلك خُتِم على فيه. قال الأشعري: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فَخِذُهُ اليمنى.

[٥٨٨٥] وقال الحافظ أبو يعلِى: حدثنا زُهير، حدثنا حَسَن، عن ابن لَهيعةَ: قال دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعِيدَ الخُدريّ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ عُرِّفَ الكافرُ بعمله، فَجحَد وخاصَمَ، فَيُقال: هؤلاءِ جيرانك يشهَدُون عليك؟ فيقول: كَذَبوا. فيقول: أهلُك وعَشِيرتُك؟ فيقول: كَذَبوا. فيقول: احلِفُوا. فَيحلِفُون، ثم يُصمِتُهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويُدخِلُهم النار»(٢).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا أحمدُ بن إبراهيم، حدثنا عبدُ الصمدِ بنُ عبدِ الوارثِ: سَمِعت أبي يقول: حدثنا عليُّ بن زيدٍ، عن مسلم بن صُبَيح أبي الضُّحى، عن ابن عباس أنه قال لابن الأزرق: إنَّ يومَ القيامةِ يأتي على الناس منه حِين لا يَنطِقُون ولاَ يَعتذِرُون ولا يَتكلَّمون حتى يُؤذَنَ لهم، ثم يُؤذَنُ لهم فيختصمون، فيجحَد الجاحِدُ بِشركه بالله تعالىٰ، فيحلفون له كما يحلِفُون لكم، فيبعث الله تعالىٰ عليهم حين يجحَدُون شهداءَ من أنفسهم، جُلودَهم وأبصارَهم وأيديَهم وأرجلَهم، ويُختَم على أفواههم، ثم يُفتَح لهم

(١) تقدم الكلام عليه، إسناده حسن رجاله ثقات.

(٢) تقدم الكلام عليه، وفي الباب أحاديث.

الأفواه فَتُخاصِمُ الجَوارِحَ، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتُقِرُّ الألسِنَةُ بعد الجُحُود.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سليمان، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا صَفوانُ بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير الحضرميّ، عن رافع أبي الحسن ـ وَصف رجلاً جَحَد ـ قال: فَيُشير الله تعالىٰ إلى لسانه، فيربُو في فمه حتى يملأه، فلا يستطيعُ أن ينطِق بكلمةٍ، ثم يقول لآرابه كلِّها: تَكَلّمي واشهدي عليه. فَيَشهَدُ عليه سمعُه، وبصرُه، وجلدُه، وفرجُه، ويداه، ورجلاه: صَنَعنا، عَملنا، فَعَلنا. وقد تقدَّم أحاديثُ كثيرةٌ، وآثارٌ عند قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾، بما أغنى عن إعادتِه هاهُنا.

[٥٨٨٦] وقال ابنُ أبي حاتم ـ رَحِمَهُ الله ـ حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بنُ سَعِيدٍ، حدثنا يحيى بن سُلَيم الطائفِيُّ، عن ابن خُثَيم، عن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما رَجَعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ مُهاجِرَةُ البحرِ قال: «ألا تُحَدِّثُونَ بأعاجيبِ ما رأيتُم بأرضِ الحبشة؟» فقال فتيةٌ منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحنُ جلوسٌ إذ مرَّت علينا عجوزٌ من عجائز رهابينهم، تحملُ على رأسها قُلَّةً من ماءٍ، فَمَرَّت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كَتِفيها، ثم دَفَعها فَخرَّت على رُكبتَيها، فانكسرت قُلَّتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوفَ تعلَم يا غُدَرُ إذا وَضَع الله الكرسيَّ، وَجمع الأولين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجلُ بما كانوا يكسبون، فَسوف تعلم كيفَ أمري وأمرُك عنده غداً؟ قال: يقولُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «صَدَقَتْ، كيف يُقَدِّس الله قوماً لا يُؤخَذُ لِضَعيفهم من شَدِيدهم؟!»(١). هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. ورواه ابنُ أبي الدنيا في «كتاب الأهوالِ»: أخبرنا إسحاقُ بنُ إبراهيمَ قال: أخبرَنا يحيى بن سُلَيم، به. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، أي تقولُ لهم الأعضاءُ والجلودُ حين يَلُومونها على الشهادةِ عليهم: ما كنتم تتكتّمون منا الذي كُنتم تفعلُونه، بل كنتم تجاهرُون الله بالكُفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كنتُم لا تَعتقِدون أنه يعلم جميع أفعالكم! ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾، أي: هذا الظنُّ الفاسدُ ـ وهو اعتقادكم أن الله تعالىٰ لا يعلَمُ كثيراً مما تعمَلُون ـ هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: في مواقِف القيامةِ خَسِرتم أنفسَكُم وأهلِيكم.

[٥٨٨٧] قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن عُمارة، عن عبد الرحمن بن يزيدَ، عن عبد الله قال: كنت مُستَتِراً بأستارِ الكعبة فجاء ثلاثةُ نَفَرٍ: قُرَشِيٌّ، وخَتناهُ ثَقَفِيّان ـ أو: ثَقَفِيٌّ وختَناهُ قُرَشيّان ـ كَثِيرٌ شحمُ بطونهم، قليلٌ فقهُ قلوبهم. فتكلّموا بكلام لم أسمَعه، فقال أحدهم: أترَون أن الله يسمَعُ كلامَنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتَنا سَمِعه، وإذا لم نُرفعه لم يسمَعْه. فقال الآخر: إن سَمِع منه شيئاً سمعه كلَّه. قال: فذكرت ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢). وكذا رواه الترمذي عن هَنَّاد، عن أبي

---

(١) حسن. في إسناد ابن أبي حاتم، سويد بن سعيد، وهو واهٍ. لكن توبع عند ابن أبي الدنيا كما ترى. ومن فوقه ثقات. وورد من وجه آخر أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٩٠٥٥ وقال الهيثمي: فيه مكي بن عبد الله الرعيني، وهو ضعيف. وله شاهد من حديث بريدة أخرجه البزار ١٥٩٦ وقال الهيثمي ٩٥٠٤: فيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، لكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات. اهـ فالحديث حسن بهذه الطرق والشواهد، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨١٧ ومسلم ٢٧٧٥ والترمذي ٣٢٤٨ وأحمد ١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤ وابن حبان ٣٩٠.

معاوية، بإسناده نحوه، وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً، من حديث سفيانَ الثَّوري، عن الأعمش، عن عُمَارة بن عُمَير، عن وَهْبِ بن رَبيعَةَ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه. ورواه البخاري ومسلم أيضاً، من حديث السفيانَيْنِ، كلاهما عن منصورٍ، عن مجاهدٍ، عن أبي معمَرٍ عبد الله بن سَخْبرة، عن ابن مسعودٍ، به.

[٥٨٨٨] وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعمر، عن بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿ﷺ﴾ ﴿سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، قال: «إنكم تُدعَون يوم القيامة مُفدَّماً على أفواهكم بالفِدَام، فأوَّلُ شيءٍ يُبين عن أحدِكم فَخِذُهُ وكَفُّه». قال معمرٌ: وتلا الحسن ـ رحمه الله ـ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾، ثم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قال الله تعالى: أنا مع عَبدِي عندَ ظنِّه بي، وأنا مَعَه إذا دعاني». ثم أفْتَرَ الحسنُ ينظرُ في هذا، فقال: ألا إنما عَمَلُ الناس على قَدَرِ ظُنونهم بربِّهم، فأما المؤمنُ فأحسنَ الظنَّ بربه فأحسنَ العَمَلَ، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظَّنَّ بالله فأساءا العملَ، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[١].

[٥٨٨٩] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا النضر بن إسماعيل القاصُّ ـ وهو أبو المغيرةِ ـ حدثنا ابنُ أبي لَيلى، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يموتَنَّ أحدٌ منكم إلا وهو يُحسِنُ بالله الظنَّ، فإن قوماً قد أرداهمُ سوءُ ظَنِّهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾»[٢]. وقولُه تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: سواءٌ عليهم أصَبرُوا أم لم يَصبِرُوا هم في النار، لا مَحيدَ لهم عنها، ولا خُروجَ لهم منها. وإن طَلبوا أن يستعتبوا ويُبْدُوا أعذاراً فما لهم أعذارٌ، ولا تُقالُ لهم عَثراتٌ. قال ابنُ جرير: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾، أي: يسألوا الرجعةَ إلى الدنيا، فلا جوابَ لهم ـ قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يذكرُ تعالى أنه هو الذي أضلَّ المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكَونِه وقُدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَيَّض لهم من القُرنَاء من شياطينِ الإنسِ والجنِّ: ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي حَسَّنوا لهم أعمالَهم في الماضي، وبالنسبةِ إلى المستقبل فلم يَروا أنفسَهم إلا مُحسِنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٢٦٩٩ و٢٧٠٠ وإسناد صدره حسن، وقد تقدم.

(٢) فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، صدوق، سيء الحفظ، وتقدم في سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧]. وقولُه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: كَلِمةُ العذابِ كما حَقَ على أُمَم قد خَلَت من قبلهم، ممن فَعَل كفِعلهم، من الجنِّ والإنس، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾، أي: استَوَوا هم وإيَّاهم في الخَسَار والدّمار. وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: تَواصَوا فيما بينهم ألاَّ يُطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامرِه، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أي: إذا تُلي لا تَستمِعُوا له. كما قال مجاهد: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾، يعني بالمُكاء والصَّفيرِ والتخليط في المنطِق على رسولِ الله ـ ﷺ ـ إذا قرأ القرآنَ قريشٌ تفعَلُه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾: عَيِّبوه. وقال قتادةُ: اجحدُوا به، وأنكِرُوهُ، وعادُوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: هذا حالُ هؤلاء الجهلةِ من الكفار، ومن سَلَكَ مَسْلَكهم عند سماع القرآنِ. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عبادَهُ المؤمنين بخلافِ ذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. ثم قال تعالى مُنتصِراً للقرآن، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكُفران: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أي: في مقابلة ما اعتمَدُوه في القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: بِشَرِّ أعمالهم، وسَيِّىء أفعالِهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾. قال سُفيان الثَّوريُّ، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن مالك بن الحُصَين الفَزاريّ، عن أبيه، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾، قال إبليسَ وابنَ آدم الذي قَتَل أخاه، وهكذا رَوى حَبَّة العُرَنيُّ عن علي، مثل ذلك. وقال السدِّيُّ، عن علي: فإبليسُ يدعُو به كلُّ صاحِب شِرْكٍ، وابنُ آدم يدعُو به كُل صاحب كبيرة، فإبليس ـ لعنه الله ـ هو الداعي إلى كل شرٍّ من شركٍ فما دونه، وابنُ آدم الأولُ كما ثبت في الحديث:

[٥٨٩٠] «ما قُتِلَتْ نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابنِ آدم الأوّلِ كِفلٌ من دَمِها، لأنه أوّلُ من سَنَّ القتلَ»(١).

وقولُه: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾، أي: أسفلَ منا في العذاب ليكونا أشدُّ عذاباً منا، ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدَّرَكِ الأسفلِ من النارِ، كما تقدَّم في الأعراف من سُؤال الأتباع من الله أن يُعَذِّب قادتهم أضعافَ عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: إنه تعالى قد أعطى كُلاً منهم ما يستحِقُّه من العذاب والنَّكالِ، بحسب عَمَلِه وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: أخلَصُوا العَمَلَ لله، وعَمِلُوا بطاعةِ الله تعالى على ما شرعَ الله لهم.

[٥٨٩١] قال الحافظ أبو يعلَى الموصليُّ: حدثنا الجراحُ، حدثنا سَلْم بن قُتَيبة أبو قُتَيبةَ الشَّعيريُّ، حدَّثنا سُهَيل بن أبي حَزم، حدثنا ثابتٌ، عن أنس بن مالكٍ قال: قرأ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿إِنَّ

(١) متفق عليه، وتقدم.

﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، وقال: «قد قالها ناسٌ ثم كَفر أكثرُهم، فَمَن قالها حتى يموتَ فقد استقام عليها»[١]. وكذا رواه النسائيُّ في تفسيره، والبزّارُ وابنُ جرير، عن عمرو بن علي الفَلاَّس، عن سَلْم بن قُتيبة، به. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الفَلاَّس، به. ثم قال ابنُ جَرِير: حدثنا ابنُ بشَّار، حَدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيانُ، عن أبي إسحاقَ، عن عامرِ بن سعد عن سعيدِ بن عمران قال: قرأت عند أبي بكرِ الصِّديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً. ثم روى من حديث الأسودِ بن هِلال قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ما تقولُون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ من ذنبٍ. فقال: لقد حَمَّلتموها على غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، والسدِّيُّ، وغيرُ واحد.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظّهراني، أخبرنا حفصُ بن عمر العَدَنِيُّ، عن الحَكَمِ بنِ أبانَ، عن عكرمة قال: سُئِل ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيُّ آية في كتابِ الله أرخصُ؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهريُّ: تلا عُمرُ هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يَرُوغوا رَوغَانَ الثعالب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداءِ فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسنُ يقول: اللهمَّ، أنتَ ربُّنا، فارزُقنا الاستقامةَ. وقال أبو العاليةِ: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: أخلَصُوا له العَمَل والدِّين.

[٥٨٩٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هُشيم، حدثنا يعلَى بن عطاء، عن عبد الله بنِ سفيانَ الثقفي، عن أبيه، أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، مُرني بأمرٍ في الإسلام لا أسألُ عنه أحداً بعدَك. قال: «قل: آمنتُ بالله، ثم استقم»، قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه[٢]. ورواه النَّسائيُّ من حديث شعبة، عن يَعلَى بن عطاء، به.

[٥٨٩٣] ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا إبراهيم بن سعدٍ، حدثني ابن شهابٍ، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامِدِيِّ، عن سفيانَ بن عبد الله الثَّقفي قال: قلتُ يا رسولَ الله، حدِّثني بأمر أعتصِمُ به. قال: «قُل: ربِّي الله، ثم استقِم». قلتُ: يا رسولَ الله، ما أكثَر ما تخافُ عليَّ؟ فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بطرفِ لسانِ نفسه، ثم قال: «هذا»[٣]. وهكذا رواه التِّرمذيُّ وابنُ ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح»:

[٥٨٩٤] وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنَّسائيُّ، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنتُ بالله، ثم استقم»[٤]. وذكر تمام الحديث. وقولُه تعالىٰ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، قال مجاهد، والسدِّي،

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٥٠ والنسائي في «التفسير» ٤٩٠ وأبو يعلىٰ ٣٤٩٥ والطبري ٣٠٥١٦ ومداره علىٰ سهيل بن أبي حزم، وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٤١٣ ـ ٣٨٤ والدارمي ٢/ ٢٩٦ وابن حبان ٥٦٩٨ وإسناده صحيح، وله طرق.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٤١٠ والطيالسي ١٢٣١ وأحمد ٤/ ٤١٣ وابن ماجه ٣٩٧٢ وإسناده لين لأجل محمد بن عبد الرحمن فإنه مقبول لكن توبع، وللحديث طرق كما ترىٰ.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٣٨ وأحمد ٣/ ٤١٣ والنسائي في «الكبرىٰ» ١١٤٨٩.

وزيدُ بن أسلَم، وابنُه: يعني عندَ الموتِ قائلين ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾، قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، وزيدُ بن أسلَم: أي مما تُقدِمون عليه من أمرِ الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾، على ما خَلَّفتُموه من أمر الدنيا، من ولدٍ وأهلٍ، ومالٍ أو دينٍ، فإنا نَخلُفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشِّرونهم بذهاب الشرِّ وحُصُولِ الخير.

[٥٨٩٥] وهذا كما في حديث البَراء ـ رَضِي الله عنه ـ: «إن الملائكةَ تقولُ لرُوح المؤمن: اخرُجي أيتُها الروحُ الطيِّبة في الجسدِ الطَّيِّب كنتِ تعمُرينه، اخرُجي إلى رَوْحٍ وريحانٍ، وربٍّ غير غضبان»(١). وقيلَ: إنَّ الملائكة تتنزَّلُ عليهم يوم خُروجِهم من قُبورهم، حكاه ابن جريرٍ عن ابن عباس، والسدِّيُّ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، حدثنا جعفرُ بن سليمان: سَمِعتُ ثابتاً قرأ سورة حم. السجدة، حتى بَلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. فوقف فقال: بَلَغَنا أن العبد المؤمن حين يَبعثُه الله من قبره يَتلقَّاه المَلَكانِ اللَّذانِ كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تَخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. قال: فَيُؤمِّنُ الله خوفَه، ويُقِرُّ عينَه، فما عَظِيمةٌ يَخْشى الناس يومَ القيامةِ إلا هي للمؤمنِ قُرَّةُ عَيْن، لِمَا هَدَاه الله تعالىٰ، ولما كَانَ يَعمَلُ له في الدنيا. وقال زيدُ بن أَسْلَمَ: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم. وهذا القولُ يجمع الأقوال كلَّها، وهو حسن جداً، وهو الواقع. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: تقولُ الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كُنَّا أولياءكم، أي: قُرناءكم في الحياة الدنيا، نُسدِّدكم ونُوَفِّقكم، ونَحفظُكم بأمر الله، وكذلك نكون مَعَكُم في الآخرةِ نُؤْنِسُ منكم الوحشةَ في القُبورِ، وعند النفخةِ في الصورِ، ونُؤَمِّنكم يوم البَعث، والنشورِ، ونُجاوِزُ بكم الصِراطَ المستقيمَ، ونُوصِلُكم إلى جناتِ النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾، أي: في الجنةِ من جميعِ ما تختارون مما تشتهيه النفوسُ، وتَقرُّ به العيونُ، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، أي: مهما طلبتُم وجدتُم، وحَضَرَ بين أيديكم كما اخترتُم، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، أي: ضيافةً وعطاءً وإنعاماً من غفورٍ لِذنُوبِكم، رحيمٍ بكم رؤوفٍ، حيث غَفر، وسَتَر، ورَحِم ولَطَف.

[٥٨٩٦] وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾. فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشامُ بن عَمَّار، حدثنا عبدُ الحميد بن حَبيب بن أبي العشرين أبي سَعِيد، حدثنا الأوزاعيُّ، حدثني حَسَّان بن عطية، عن سَعِيد بن المسيَّب: أنه لَقِي أبا هُرَيرَةَ، فقال أبو هُرَيرة: نسأل الله أن يَجمع بيني وبينك في سُوقِ الجنة. فقال سعيد: أَوَ فيها سوقٌ؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ـ ﷺ ـ أَنَّ أهلَ الجنةِ إذا دخَلُوا فيها نَزلوا بفضلِ أعمالِهم، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجُمُعةِ من أيام الدنيا فَيَزورُون الله ـ عز وجل ـ ويبرزُ لهم عرشَه، ويَتَبدَّى لهم في روضةٍ من رياضِ الجنةِ، وتُوضَعُ لهم منابرُ من نورٍ، ومنابرُ من لؤلؤٍ، ومنابرُ من ياقوتٍ، ومنابرُ من زَبَرجدٍ، ومنابرُ من ذهب، ومنابر من فضةٍ، ويجلسُ أدناهم وما فيهم دَنيء على كُثبان المسكِ والكافورِ، ما يَرونَ أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً. قال أبو هريرة: قلتَ يا رسولَ الله، وهل نَرَى ربنا؟ قال: «نعم، هل تَتَمارَون في رُؤيةِ الشمسِ والقمرِ ليلةَ البدرِ؟» قلنا: لا. قال ـ ﷺ ـ «فكذلك لا تَتَمارون في رُؤية ربِّكم تعالى، ولا يبقى في ذلك المجلس أحدٌ إلا حاضره الله محاضرةً، حتى إنه ليقُول للرجل منهم: يا فلانُ بن

(١) تقدم تخريجه، وهو صحيح.

فلانِ، أتذكُر يومَ عَمِلت كذا وكذا؟ ـ يذَكِّره ببعض غَدَراته في الدنيا ـ فيقول: أيْ ربِّ، أفَلَم تغفِرَ لي؟ فيقول: بلى، فَبِسَعَةِ مغفرتي بلغتَ منزلَتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك غَشيتهم سحابةٌ من فوقهم، فأمطرَت عليهم طِيباً لم يَجدُوا مثلَ ريحهِ شيئاً قطُّ. قال: ثم يقول ربنا ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: قوموا إلى ما أعددتُ لكم من الكرامة، وخُذوا ما اشتهيتم. قال: فنأتي سُوقاً قد حَفَّت به الملائكةُ، فيها ما لم تنظُر العيونُ إلى مثله، ولم تَسمَع الآذانُ، ولم يخطُر على القلوبِ. قال: فيحمل لنا ما اشتَهينا، ليس يُباعُ فيه شيءٌ ولا يُشترى، وفي ذلك السوق يلقى أهلُ الجنةِ بعضُهم بعضاً. قال: فيُقبِلُ الرجلُ ذو المنزلةِ الرفيعةِ، فيلقَى مَن هو دُونه ـ وما فيهم دَنيء ـ فيَرُوعُه ما يرى عليه من اللِّباسِ، فما ينقضِي آخرُ حديثه حتى يَتَمثَّل عليه أحسنُ منه، وذلك لأنه لا ينبغي لأحدٍ أن يحزَن فيها. ثم ننصرفُ إلى منازلنا، فيَتَلقَّانا أزواجُنا فيقلن: مرحباً وأهلاً بِحبِّنا، لقد جئتَ وإن بك من الجمالِ والطِّيب أفضلَ مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليومَ ربَّنا الجبار ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وبِحقِّنا أن نَنقلِبُ بمثلِ ما انقلبنا به»[1]. وقد رواه التِّرمذيُّ في صِفة الجنة من جامِعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار. ورواه ابنُ ماجه عن هشام بن عَمَّار، به نحوه. ثم قال الترمذيُّ: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

[٥٨٩٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا ابن أبي عديٍّ، عن حُميدٍ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِه لقاءَ الله كَرِه الله لقاءه». قلنا: يا رسولَ الله، كُلُّنا نكرَه الموتَ؟ قال: «ليس ذلك كراهيةَ الموتِ، ولكن المؤمنَ إذا حُضِرَ جاءه البشيرُ من الله بما هو صائرٌ إليه، فليس شيءٌ أحبَّ إليه من أن يكونَ قد لَقِي الله فأحبَّ الله لقاءه ـ قال: وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر جاءَه بما هو صائِرٌ إليه من الشرِّ ـ أو: ما يَلقَى من الشرّ ـ فكَرِه لقاءَ الله، فكَرِه الله لقاءَه»[2]. وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: دعا عبادَ الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وهو في نفسه مهتدٍ بما يقوله، فَنَفعُه لنفسِه ولغيره لازمٌ ومتعدٍّ، وليس هو من الذين يأمُرون بالمعروف ولا يأتُونه، وينهَون عن المنكر ويأتُونه، بل يأتمر بالخير ويترُك الشرّ، ويدعُو الخَلْقَ إلى الخالِق تبارَك وتعالى. وهذه عامةٌ في كلِّ مَن دعا إلى خَير، وهو في نَفسِه مهتدٍ، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ أولى الناس

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٤٩ وابن ماجه ٤٣٣٦ وابن أبي عاصم في «السنة» ٧٨٥ وإسناده غير قوي لأجل عبد الحميد، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق ربما أخطأ، وقال الذهبي في «الميزان» ٢/٥٣٩: وثقه أحمد وأبو حاتم، وضعفه دُحيم، وقال النسائي ليس بالقوي. وجزم الألباني في «الضعيفة» ١٧٢٢ بضعف حديثه، وفيه نظر، فالرجل وثقه أحمد وأبو حاتم، فحديثه غير قوي.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣/١٠٧ والبزار ٧٨٠ وإسناده على شرط الشيخين.

بذلك، كما قال محمد بن سيرينَ، والسدِّيُّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المرادُ بها المؤذِّنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم:

[٥٨٩٨] «المؤذنون أطولُ الناس أعناقاً يوم القيامة»(١). وفي السنَن مرفوعاً:

[٥٨٩٩] «الإمامُ ضامنٌ، والمؤذِّن مؤتَمَن، فأرشدَ الله الأئمةَ، وغفَر للمؤذِّنين»(٢).

[٥٩٠٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عَليّ بن الحسين. حدثنا محمد بن عَمْرَوَيه الهَرَوِي، حدثنا غَسَّان قاضي هَرَاةَ ـ وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طَهمان، عن مَطَرٍ، عن الحسن، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: سهامُ المؤذنين عند الله تعالىٰ يوم القيامة كسهام المُجَاهِدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحِّط في سبيلَ الله تعالىٰ في دمه. قال: وقال ابنُ مسعودٍ: لو كنتُ مُؤَذِّناً ما باليتُ ألاَّ أحجَّ، ولا أعتمِر، ولا أجاهدَ. قال: وقال عُمَر بن الخطاب: لو كنتُ مُؤَذِّناً لكَمُلَ أمري، وما باليتُ ألاَّ أنتصِبَ لقيام الليل ولا لصيام النهارِ، سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «اللهُمَّ اغفِر للمُؤَذِّنين» ثلاثاً. قال: فقلتُ يا رسولَ الله، تركتَنا ونحن نَجْتلدُ على الأذانِ بالسيوفِ. قال: «كلاَّ يا عُمَر، إنه يأتي على الناس زَمَانٌ يتركون الأذانَ على ضُعَفائهم، وتلك لحومٌ حَرَّمها الله على النارِ، لحومُ المؤذِّنين». قال: وقالت عائشةُ: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، قالت: فهو المؤذِّن إذا قال: حَيَّ على الصلاةِ، فقد دعا إلى الله(٣). وهكذا قال ابنُ عمر، وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين. وقد ذَكَر البَغَوِيُّ عن أبي أمامةَ الباهِليِّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، قال: يعني صلاةَ ركعتين بين الأذان والإقامة.

[٥٩٠١] ثم أورد البَغَوِيُّ حَديثَ عبد الله بن المُغَفَّل قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بين كلِّ أذانَين صلاةٌ» ثلاث مَرّات. ثم قال في الثالثة: «لِمن شاء»(٤). وقد أخرجه الجَمَاعةُ في كتبهم، من حديث عبد الله بن بُرَيدة، عنه.

[٥٩٠٢] وَحَديثَ الثوريِّ، عن زَيد العَمّي، عن أبي إياس معاوية بن قُرَّةَ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال الثوريُّ: لا أراه إلا قد رفعه إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ: «الدعاء لا يُرَدُّ بين الأذانِ والإقامةِ»(٥). ورواه أبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ في اليوم والليلة، كلهم من حديث الثَّوري، به. وقال التِّرمذيُّ: «هذا حديث حسن». ورواه النسائيُّ أيضاً من حديث سليمان التيمي، عن قتادةَ عن أنس، به. والصحيحُ أن الآيةَ عامةٌ في المؤذِّنين وفي غيرهم، فأما حالُ نزولِ هذه الآيةِ فإنه لم يكن الأذانُ مشروعاً بالكلِّية، لأنها مَكِّية، والأذانُ إنما

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٣٨٧ وابن ماجه ٧٢٥ وأحمد ٤/ ٩٥، ٩٨ من حديث معاوية.

(٢) حسن. أخرجه أبو داوود ٥١٧ والترمذي ٢٠٧ والطيالسي ٢٤٠٤ وأحمد ٢/ ٤١٩ وابن حبان ١٦٧٢ من حديث أبي هريرة.

(٣) إسناده ضعيف. فيه مطر بن طهمان، ضعفه أبو حاتم. وقال يحيى وأحمد: ضعيف في عطاء خاصة، وقال ابن سعد: فيه ضعف. راجع الميزان ٢٧٥٨٧. وإبراهيم بن طهمان، فيه كلام. والحسن لم يسمع من سعد، ولا من ابن مسعود، ولا سمع من عمر، ولا سمع من عائشة. فهذا خبر معلول، والمتن منكر.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٤ و ٦٢٧ ومسلم ٨٣٨ وأبو داود ١٢٨٣ والترمذي ١٨٥ والنسائي ٢/ ٢٨ وابن ماجه ١١٦٢ وابن حبان ١٥٥٩ والبغوي ٤٣٠ وأحمد ٤/ ٨٦.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داوود ٥٢١ والترمذي ٢١٢ والنسائي في «اليوم والليلة» ٦٨ و٦٩ وعبد الرزاق ١٩٠٩ وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٢٥ وأحمد ٣/ ١١٩ وإسناده ضعيف لضعف زيد العمّيّ، وهو زيد بن الحواري، وتابعه بُريد بن أبي مريم، وهو ثقة، أخرجه أحمد ٣/ ٢٢٥ والنسائي ٦٧ وابن خزيمة ٤٢٥ وابن حبان ١٦٩٦ فهو صحيح.

شُرع بالمدينةِ بعد الهجرة، حين أُرِيَهُ عبدُ الله بنُ زيدِ بن عبدِ ربِّه الأنصاريُّ رضي الله عنه في منامه، فقصَّه على رسول الله ـ ﷺ ـ فأمره أن يُلقِيَه على بلالٍ رضي الله عنه فإنه أندَى صوتاً، كما هو مقرر في موضِعِه، فالصحيحُ إذاً أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمرٍ، عن الحسنِ البصريِّ: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، فقال: هذا حبيبُ اللهِ، هذا وَلِيُّ الله، هذا صفوةُ اللهِ، هذا خِيرَةُ الله، هذا أحبُّ أهل الأرضِ إلى الله، أجابَ الله في دعوتِه، ودعا الناسَ إلى ما أجاب الله فيه من دعوتِه، وعمِل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفةُ الله. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾، أي: فرقٌ عظيمٌ بين هذِه وهذِه، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساءَ إليك فادفعه عنكَ بالإحسانِ إليه، كما قال عُمَر رضي الله عنه: ما عاقبتَ من عَصَى الله فيكَ بمثلِ أن تُطيع الله فيه. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، وهو الصديق، أي: إذا أحسنتَ إلى مَن أساءَ إليك قادته تلك الحسنةُ إليه إلى مصافاتِك ومحبَّتِك، والحنوّ عليك، حتى يصير كأنه وَليٌّ لكَ حَميمٌ، أي: قريبٌ إليكَ مِن الشفقةِ عليك والإحسان إليك. ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، أي: وما يقبلُ هذه الوصيّة ويعمَل بها إلا مَن صَبَر على ذلك، فإنه يَشُقُّ على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذُو نصيبٍ وافرٍ من السعادةِ في الدنيا والأخرى. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنينَ بالصبرِ عند الغضبِ، والحلم عند الجهلِ، والعفوِ عند الإساءةِ، فإذا فَعلوا ذلك عَصَمهم الله من الشيطانِ، وخَضَع لهم عدُوهم كأنه وليٌّ حَميمٌ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ شيطان الإنس ربما ينخدعُ بالإحسان إليه، فأما شيطانُ الجن فإنه لا حيلةَ فيه إذا وَسْوَس إلا الاستعاذةُ بخالقه الذي سَلَّطه عليكَ، فإذا استعذتَ بالله ولجأتَ إليه، كَفَّه عنك وَرَدَّ كيدَه.

[٥٩٠٣] وقد كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا قام إلى الصلاةِ يقولُ: «أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطانِ الرجيم، مِن هَمْزِهِ ونَفْخه ونَفْثِه»(١). وقد قدَّمنا أن هذا المقامَ لا نظيرَ له في القرآن إلا في سُورة الأعرافِ عند قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾، وفي سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقولُ تعالى منبهاً خَلْقه عى قُدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظيرَ له، وأنه على ما يشاءُ قادر، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أي: إنه خَلَقَ الليل بظلامه، والنهارَ بضيائه، وهما متعاقبان لا يَقِرّان، والشمسَ ونورَها وإشراقَها، والقمرَ وضياءَه وتقديرَ منازِله في فَلَكِه، واختلافَ سيرِه في سمائِه، لِيُعرفَ باختلافِ سيرِه وسيرِ الشمسِ مقاديرُ الليل والنهار، والجُمَع والشهورُ والأعوام، ويتبيَّنَ بذلك حلول الحقوق،

---

(١) تقدم تخريجه.

وأوقاتُ العباداتِ والمعاملاتِ. ثم لما كان الشمسُ والقمرُ أحسنَ الأجرام المشاهَدَةِ في العالم العُلويِّ والسفليِّ، نَبَّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيدِه، تحت قهرِه وتسخيرِه، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: ولا تُشركوا به، فما تنفعُكم عبادتُكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يُشرَكَ به. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾، أي: عن إفرادِ العبادةِ له وأبوا إلا أن يُشركوا مَعَه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، يعني الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾. كقوله عز وجل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

[٥٩٠٤] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيانُ ـ يعني ابنُ وَكِيع ـ حدثنا أبي، عن ابن أبي لَيلى، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تَسبُّوا الليل ولا النهار، ولا الشمسَ ولا القمرَ، ولا الرياح فإنها تُرسَلُ رحمةً لقوم، وعَذاباً لقوم»(١). وقولُهُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾، أي: على قُدرته على إعادةِ الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾، أي: هامدة لا نباتَ فيها، بل هي مَيِّتةٌ، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، أي: أخرجَت مِن جميلِ ألوانِ الزروعِ والثمارِ، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحادُ وضعُ الكلام على غير مواضعه. وقال قتادةُ، وغيره: هو الكفرُ والعِنادُ. وقولُهُ عز وجل: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، أي: إنه تعالى عالمٌ بمن يُلحِدُ في آياته وأسمائه وصفاتِه، وَسيَجزيه على ذلك بالعقوبةِ والنَّكال. ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يَستَويان. ثم قال ـ عزَّ وجلَّ ـ مُهدِّداً للكفرة: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، قال مجاهدٌ، والضحَّاك، وعطاءٌ الخُراسانيُّ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾. وعيدٌ، أي: من خير أو شرٍّ، إنه عالم بكم وبَصِيرٌ بأعمالكم. ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثم قال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، قال الضحاك، والسدِّيُّ، وقتادةُ: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، أي: منيعُ الجَناب، لا يُرام أن يأتي أحدٌ بمثله، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، أي: ليس للبطلانُ إليه سبيلٌ، لأنه مُنزَّل من ربِّ العالمين. ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمُر به وينهَى عنه، الجميعُ محمودة عواقبُه وغاياتُه. ثم قال عز وجل: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، قال قتادةُ، والسدِّيُّ، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيبِ إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كُذِّبْتَ فقد كُذِّبوا، وكما صَبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنتَ على أذى قَومِكَ لك. وهذا اختيارُ ابنِ جرير، ولم يَحكِ هو، ولا ابنُ أبي حاتم غيرَه. وقولُهُ

(١) حسن بطريقيه. أخرجه أبو يعلى ٢١٩٤ وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى صدوق إلا أنه سيء الحفظ. وورد من طريق آخر أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦٧٩١ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٠١: فيه سعيد بن بشير، وثقه جماعة، وضعفه آخرون، وبقية رجاله ثقات اهـ وفي الباب أحاديث.

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾، أي: لمن تاب إليه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: لمن استمرَّ على كُفرِه وطُغيانِه، وعِناده وشِقاقه ومُخالفتِه.

[٥٩٠٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيِّب قال: لما نَزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لولا عَفوُ الله وتَجاوزُه ما هَنَأ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُه وعقابُه لاتَّكل كلُّ أحدٍ»[(١)].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحتَه وبلاغتَه، وإحكامَه في لفظِه ومعناه، ومَع هذا لم يُؤمن به المشركون نبَّه على أن كفرهم به كُفرُ عنادٍ وتعنُّتٍ، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾. وكذلك لو أنزل القرآن كلُّه بلغةِ العَجَم لقالوا على وجه التعنُّتِ والعنادِ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾، أي: لقالوا: هلا أنزل مُفصَّلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجميٌّ وعربي؟ أي: كيف ينزل كلامٌ أعجميٌّ على مخاطَبٍ عَرَبيٍّ لا يفهمُه. هكذا رُوي هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وسعيد بن جُبير، والسدي، وغيرهم. وقيلَ: المرادُ بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: هَلاَّ أنزل بعضُها بالأعجميِّ، وبعضُها بالعربي هذا قولُ الحسنِ البصريِّ، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جُبَير. وهو في التعنت والعِنادِ أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هُدىً لقلبه، وشفاءٌ لما في الصدور من الشكوك والرِّيبِ، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾، أي: لا يفهمُون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، أي: لا يهتَدُون إلى ما فيه من البيانِ، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، قال مجاهدٌ: يعني بعيدٌ من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه كأنَّ مَن يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمُون ما يقولُ. قلتُ: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضحَّاك: يُنادون يومَ القيامة بأشنعِ أسمائهم.

وقال السدِّيُّ: كان عُمر بن الخطاب جالساً عند رجل من المسلمين يقضِي، إذ قال: يا لَبَّيكاهُ. فقال له عمر: لم تُلبّي؟ هل رأيتَ أحداً، أو دَعاك أحدٌ؟ قال: دعاني داعٍ من وراءِ البحرِ. فقال عُمَر: أولئك ينادَون من مكانٍ بعيد. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾، أي: كُذِّب وأُوذِيَ، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى أجلٍ مُسمًّى بتأخير الحسابِ

---

(١) ضعيف. له علتان. الأولى الإرسال، ومراسيل ابن المسيب جياد. إلا أن في الإسناد علي بن زيد، وهو ابن جدعان ضعيف كما في «التقريب»؛ والله أعلم.

إلى يوم المعادِ، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لعُجِّل لهم العذابُ، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، أي: وما كان تكذيبُهم له عن بَصيرةٍ مِنهم لِما قالُوا، بل كانوا شاكِّين فيما قالوا، غير مُحقِّقين لشيءٍ كانوا فيه. هكذا وَجَّهه ابنُ جَريرٍ، وهو مُحتمَلٌ. والله أعلم.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: إنما يعودُ نفعُ ذلك على نفسِهِ، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، أي: إنما يرجع وبالُ ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحُجَّة عليه، وإرسالِ الرسُول إليه.

ثم قال جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: لا يَعلم ذلك أحدٌ سواه.

[٥٩٠٦] كما قال محمدٌ ـ ﷺ ـ، وهو سَيِّد البشر، لجبريل وهو من ساداتِ الملائكةِ ـ حين سأله عن الساعةِ، فقال: «ما المسؤولُ عنها بأعلَمَ مِنَ السائلِ»[1]. وكما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٤]. وقال جل جلاله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، أي: الجميعُ بعِلْمِه، لا يعزُب عن عِلمِه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرض، ولا في السماءِ. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلَّت عظمتُه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقولُهُ جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، أي: يومَ القيامة يُنادِي اللّهُ المشركينَ على رُؤوس الخلائقِ: أين شُركائي الذين عَبدتُموهم معي؟ ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾، أي: أعلمناكَ، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، أي: ليسَ أحدٌ منَّا اليومَ يشهَدُ أنَّ معكَ شريكاً، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾، أي: ذَهَبُوا فلم ينفعُوهم، ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المُشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، أي: لا محيدَ لهم عن عذابِ الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

---

(١) متفق عليه، وتقدم.

يقولُ تعالى: لا يَملّ الإنسانُ من دعائِه ربَّه بالخير ـ وهو: المالُ، وصحّةُ الجسم، وغيرُ ذلك ـ وإن مَسّه الشرُّ ـ وهو: البلاءُ أو الفقرُ ـ ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، أي: يَقَع في ذهنه أنه لا يتهيأُ له بعد هذا خيرٌ. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾، أي: إذا أصابه خيرٌ ورزقٌ بعد ما كان في شدّةٍ ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقُّه عند ربي، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أي: يكفر بقيام الساعة لأجل أنه خُوّل نعمة يفخر ويبطر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، أي: ولئن كان ثَمّ معادٌ فَليُحسِننّ إليّ ربّي، كما أحسن إليّ في هذه الدار، يتمنى على الله ـ عَزّ وجَلّ ـ مع إساءته العملَ وعدم اليقين. قال الله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، يتهددُ تعالى مَن كان هذا عملَه واعتقادَه بالعقابِ والنّكالِ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، أي: أعرضَ عن الطاعةِ، واستكبرَ عن الانقيادِ لأوامرِ الله ـ عزّ وجلّ ـ، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، أي: الشدّة، ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، أي: يُطيلِ المسألة في الشيء الواحد. فالكلام العريضُ: ما طال لفظُه وقل معناه، والوَجيز: عكسُه، وهو: ما قلّ ودلّ. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]. . . الآية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركين المكذِّبين بالقرآن: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، أي: كيف ترون حالَكم عند الذي أنزله على رَسُولِه؟ ولهذا قال عز وجل: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: في كفر وعنادٍ ومُشاقَّةٍ للحقّ، ومَسْلَكٍ بعيدٍ من الهُدَى.

ثم قال جل جلاله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: سَنُظهِر لهم دَلالَتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقّاً منزلاً من عند الله ـ عزّ وجلّ ـ على رسوله ـ ﷺ ـ بدلائلَ خارجيةٍ ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾، من الفُتوحاتِ وظُهورِ الإسلام على الأقاليم وسائرِ الأديان. قال مجاهدٌ، والحسنُ، والسدّيُّ: ودلائلُ في أنفسهم، قالوا: وقعةُ بدرٍ، وفتحُ مكّة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلّت بهم، نَصَر الله فيها محمداً ﷺ وصحبَه، وخذَل فيها الباطلَ وحِزْبَه. ويحتملُ أن يكون المرادُ من ذلك ما الإنسانُ مركّب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئاتِ العَجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدالّ على حكمة الصانع ـ تبارك وتعالى ـ. وكذلك ما هو مجبولٌ عليه من الأخلاق المتباينةِ، من حَسَن وقبيح وبين ذلك، وما هو مُتصرّفٌ فيه تحت الأقدارِ التي لا يقدِر بحوله، وقوته، وحِيَلِه، وحذره أن يجوزها ولا يتعدّاها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه (التفكر والاعتبار)، عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَراً ... فَانْظُرْ إِلَيكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الذي يُمْسِي وَيُصْبِحُ في الـ ... دنيا وكُلّ أُمُورِه عِبَرُ
أنتَ المصرَّفُ كانَ في صِغَرٍ ... ثُمّ استقلّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ
أنتَ الذي تَنْعَاه خِلْقَتُه ... يَنْعَاه مِنهُ الشَّعْرُ وَالبَشَرُ

أنـتَ الـذي تُـغـطـي وَتُـسْـلَـبُ لاَ ... يُـنْـجِـيـه مِـن أنْ يُـسْـلَـبَ الـحَـذَرُ
أنْـتَ الـذي لا شَـيْءَ مـنـه لَـهُ ... وَأحَـقُّ مِـنْـه بِـمَـالِـهِ الـقَـدَرُ

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: كَفى بالله شهيداً على أفعالِ عبادِه وأقوالِهم، وهو يشهَدُ أن مُحمَّداً ﷺ صادِقٌ فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾، أي: في شكٍّ من قيام الساعة، ولهذا لا يَتفكَّرون فيه، ولا يعمَلُون له، ولا يحذَرُون منه، بل هو عندهم هَدرٌ لا يعبؤون به وهو واقعٌ لا ريبَ فيه وكائنٌ لا محالةَ.

قال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز صَعِد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائِرُون، فَعَلِمتُ أن المصدِّق بهذا الأمر أحمَقُ، والمكذِّبُ به هالك ثم نزل. ومعنى قولِه ـ رضي الله عنه ـ: أن المصدِّق به أحمق، أي: لأنه لا يعمَلُ له عمَل مثله، ولا يحذَر منه ولا يخافُ من هَوْلِهِ، ومع ذلك مُصَدِّقٌ به، مُوقِنٌ بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى في لعبِه وغفلتِهِ وشهواتِهِ وذُنوبِهِ، فهو أحمقُ بهذا الاعتبارِ، والأحمقُ في اللغة: ضَعِيفُ العقل. وقوله: والمكذِّب به هالك. هذا واضحٌ، والله أعلم. ثم قال تعالى مُقَرِّراً على أنه على كل شيء قديرٌ، وبكلِّ شيء محيطٌ، وإقامَة الساعة لديه يسيرٌ سهلٌ عليه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾، أي: المخلوقاتُ كلُّها تحت قهرِهِ وفي قبضَتِهِ، وتحتَ طيِّ عِلْمِهِ، وهو المتصرِّفُ فيها كلِّها بحكمِهِ، فما شاءَ كانَ، وما لم يَشَأ لم يكُن لا إله إلا هو.

## آخر تفسير سورة حم السجدة، ولله الحمد والمنة

# سورة الشورى

ترتيبها ٤٢ — آياتها ٥٣

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قد تَقَدَّمَ الكلامُ على الحُروفِ المُقطَّعة. وقد روى ابنُ جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً منكراً؛ فقال: حدثنا أحمدُ بن زُهَير، حدثنا عبد الوهَّاب بن نَجدَةَ الحَوْطي، حدثنا أبو المغيرة عبدُ القدوسِ بن الحجاج، عن أرطأةَ بن المُنذرِ قال: جاء رجلٌ إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذَيفَةُ بن اليمان ـ: أخبرني عن تَفسِير قول الله تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، قال: فأطرَقَ ثم أعرضَ عنه، ثم كَرَّر مقالته فأعرضَ عنه، فلم يُجبه بشيءٍ وكَرِه مقالته، ثم كَرَّرها الثالثةَ فلم يُحرْ إليه شيئاً. فقال حُذَيفة: أنا أُنبِئُك بها، قد عَرَفتُ لِمَ كَرِهَها؟ نَزَلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله ـ أو: عبد الله ـ يَنزِل على نهر من أنهار المشرِق تُبْنى عليه مدينتان، يَشُقّ النهرُ بينَهما شقاً فإذا أَذِن الله تبارك وتعالىٰ في زَوَال مُلكهم وانقطاع دَولتهم ومُدَنهم بَعَث الله عز وجل على إحداهما ناراً ليلاً، فتُصبح سوداءَ مظلمةً وقد احترقت، كأنها لم تكُن مكانَها، وتُصبح صاحبتها مُتعجِّبة: كيف أَفلَتَتْ؟ فما هو إلا بياضُ يومها ذلك، حتى يَجتَمِع فيها كلُّ جبارٍ عنيدٍ منهم، ثم يخسِفُ الله بها وبهم جميعاً، فذلك قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، يعني: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ: ﴿حمٓ ۝١﴾، عَينٌ، يعني عدلاً منه، سِينٌ: يعني سيكونُ، ق: يعني واقع بهاتين المدينتين[1].

[٥٩٠٧] وأغربُ منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصَلي في الجزء الثاني من مُسندِ ابن عباس، وعن أبي ذَرٍّ، عن النبي ـ ﷺ ـ في ذلك، ولكن إسنادَه ضعيفٌ جدًا ومُنقطِعٌ ـ فإنه قال: حدثنا أبو طالب عبد الجبَّار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَني الدِّمشقِي، عن أبي معاويةَ قال: صَعِد عمرُ بن الخطاب المنبرَ فقال: أيّها الناسُ، هل سَمِع منكم أحدٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يُفسِّر ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾؟ فَوَثب ابن عباس فقال: أنا. قال: ﴿حمٓ ۝١﴾ اسمٌ من أسماءِ الله تعالىٰ، قال: فعينٌ؟ قال:

---

(١) باطل. لا يصح هذا الخبر عن ابن عباس ولا عن حذيفة. وهو منقطع: أرطأة بن المنذر لم يلق ابن عباس.

عاينَ المولون عذاب يوم بَدْرٍ. قال: فسين؟ سيعلم الذين ظلموا أي مُنقَلَبٍ ينقلبون. قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذَرّ يُفَسّر ففسَّرَ كما قال ابنُ عباس، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس[١]. وقولُهُ عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾، أي: كما أنزلَ إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكُتبَ والصحُفَ على الأنبياءِ قبلَكَ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾، أي: في انتقامِه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

[٥٩٠٨] قال الإمامُ مالكٌ ـ رَحِمه الله ـ عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشةَ: أنَّ الحارثَ بن هشام سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوحيُ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلةِ الجَرَسِ، وهو أشدّه عليّ فيفصِمُ عَنّي وقد وَعَيتُ ما قال. وأحياناً يأتيني المَلَك رَجُلاً فَيُكلّمني، فأعي ما يقولُ». قالت عائشة: فلقد رأيتُه ينزِلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد، فيَفصِم عنه، وإن جَبِينه ليتفَصّدُ عَرَقاً[٢]. أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري.

[٥٩٠٩] وقد رواه الطبرانيُّ عن عبد الله ابن الإمام أحمدَ، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام: أنه سألَ رسول الله ـ ﷺ ـ: كيف يَنزِل عليكَ الوحيُ؟ فقال: «مثل صلصلةِ الجَرَسِ، فيفصِمُ عني وقد وَعَيتُ ما قاله ـ قال ـ: وهو أشدُّه عليَّ ـ قال ـ: وأحياناً يأتِيني المَلَكُ فيتمثَّلُ لي فَيُكلّمني، فأعي ما يقول»[٣].

[٥٩١٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبَةُ، حدثنا ابن لَهيعة، عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ، عن عَمرو بن الوليدِ، عن عبد الله بن عَمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسولَ الله، هل تُحسُّ بالوحي؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أسمعُ صلاصِلَ ثم أسكتُ عند ذلك، فما من مَرَّةٍ يُوحَى إليّ إلاّ ظننتُ أن نفسي تُقبَض»[٤]. تفرد به أحمد. وقد ذكرنا كَيفيَّاتِ إتيانِ الوحي إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ في أول شَرحِ البُخاريّ بما أغنى عن إعادَتِه هاهنا، ولله الحمدُ والمنّةُ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: الجميعُ عبيدٌ له وملكٌ له، تحت قهره وتَصريفِهِ، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، والآيات في هذا كثيرةٌ. وقولُهُ عز وجل: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾، قال ابنُ عباس، والضحاكُ، وقتادةُ، والسديُّ، وكعبُ الأحبار: أي فَرَقاً من العَظَمة. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾. كقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]. وقولُهُ جل جلاله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، إعلامٌ بذلك وتنويهٌ به. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، يعني المشركين، ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: شهيدٌ على أعمالهم، يُحصيها ويَعدّها عدّاً، وَسَيجزيهم بها أوفرَ الجزاءِ. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾، أي: إنما أنتَ نذيرٌ، والله على كل شيءٍ وكيلٌ.

---

(١) باطل. فيه الحسن بن يحيى الخشني، وهو ضعيف. وأبو معاوية، لم يدرك عمر ولا ابن عباس. واكتفى السيوطي في الدر ٥/ ٦٩٢ بقوله: ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢ و ٣٢١٥ ومسلم ٢٣٣٣ ومالك ١/ ٢٠٢ وابن حبان ٣٨.

(٣) متن صحيح. أخرجه الطبراني ٣٣٤٣، وفيه عامر بن صالح، وهو متروك متهم، لكن المتن محفوظ.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف الحديث، والمتن منكر.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾

يقولُ تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: واضحاً جليّاً بيّناً، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، وهي مكّة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً. وسُمّيت مكة أُمَّ القُرى لأنها أشرفُ من سائر البلاد، لأدلة كثيرةٍ مذكورة في مواضعها.

[٥٩١١] ومن أوجز ذلك وأدلِّه ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شُعَيب، عن الزهريِّ، أخبرنا أبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِيّ بن الحَمْرَاءِ الزهريَّ أخبره: أنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ وهو واقف بالحَزْوَرَة في سوق مكة: «والله، إنكِ لخيرُ أرضِ الله وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجتُ منكِ ما خَرَجتُ»[١]. وهكذا رواه الترمذيُّ والنسائيُّ، وابن ماجه، من حديث الزهريِّ، به. وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح». وقولُهُ عز وجل: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، وهو يومُ القيامة، يجمَعُ الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد. وقولُهُ تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شَكَّ في وُقُوعه، وأنه كائنٌ لا محالَةَ. وقولُهُ جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، أي: يَغْبِن أهلُ الجنة أهلَ النار. وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٥].

[٥٩١٢] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليثٌ، حدثني أبو قَبِيل المَعَافِريُّ، عن شُفَي الأصبحي، عن عبد الله بن عَمرو ـ رَضِي الله عنهما ـ قال: خَرَج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وفي يده كتابانِ، فقال: «أتدرُونَ ما هذان الكتابان»؟ قال: قلنا لا، إلا أن تُخبِرَنا يا رسولَ الله. قال للذي في يَدهِ اليُمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، بأسماء أهلِ الجنة وأسماءِ آبائهم وقبائِلهم. ثم أجمَلَ على آخرهم ـ لا يُزاد فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً» ثم قال للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمَلَ على آخرهم ـ لا يُزاد فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً». فقال أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ: فلأيِّ شيءٍ إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرغ منه؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سَدِّدوا وقارِبُوا، فإنَّ صاحبَ الجنةِ يُختَم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النارِ لَيُختم له بعمل أهل النار، وإن عَمِل أيَّ عملٍ». ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فَرغَ ربكم ـ عَزَّ وجَلَّ ـ من العبادِ». ثم قال باليمنى فَنَبَذ بها فقال: «فريقٌ في الجنة»، ونَبَذ باليسرى فقال: «فريق في السعير»[٢]. وهكذا رواه الترمذيُّ والنَّسائيُّ جميعاً، عن قُتَيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبي قَبيلٍ، عن شُفَيّ بن ماتعِ الأصبَحِيّ، عن عبد الله بن عمرو، به. وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح غريب».

[٥٩١٣] وساقه البَغَوِيُّ في تفسيره من طريق بِشر بن بكر، عن سعيد بن عُثمانَ، عن أبي الزاهريَّةِ، عن

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٩٢٥ وابن ماجه ٣١٠٨ وأحمد ٤/ ٣٠٥ وابن حبان ٣٧٠٨ وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤١ والنسائي في «الكبرىٰ» ١١٤٧٣ وأحمد ٢/ ١٦٧ وإسناده حسن لأجل أبي قبيل، فإنه صدوق، وللحديث شواهد وطرق.

عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ. فَذَكَره بنحوِه. وعندَه زياداتٌ منها: ثم قال: «فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السعير، عدل من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ»(١). ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به. ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهبٍ، عن عَمْرو بن الحارث، عن أبي قَبيلٍ، عن شُفَيٍّ، عن رجلٍ من الصحابة، فذكره.

ثم رَوَى عن يونُسَ، عن ابن وهبٍ، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَةَ بن شُرَيح، عن يحيى بن أبي أُسَيْدٍ: أنَّ أبا فراس حَدَّثه: أنه سَمِع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله تعالىٰ لما خلق آدَمَ نَفَضه نفضَ المِزْوَدِ(٢)، وأخرج منه كلَّ ذُرِّيته، فَخَرج أمثالُ النَّغَف فَقَبضهم قَبضتَين، ثم قال: شَقِيٌّ وسَعِيدٌ. ثم ألقاهما ثم قَبَضهما فقال: فريقٌ في الجَنَّةِ وفريقٌ في السَّعير. وهذا الموقوف أشبهُ بالصوابِ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

[٥٩١٤] وقال الإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حَمَّادُ ـ يعني ابنَ سَلَمَةَ ـ أخبرنا الجُرَيري، عن أبي نضرة أن رَجُلاً من أصحابِ النبيِّ ـ ﷺ ـ، يقال له: أبو عبد الله ـ دَخَل عليه أصحابُه يَعوُدونَه وهو يبكي، فقالوا له: ما يُبكِيكَ؟، ألم يَقُلْ لكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «خُذ من شاربك ثم أَقِرَّه حتى تلقاني». قال: بلى، ولكن سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إنَّ الله تعالىٰ قبضَ بِيَمِينه قبضةً، وأخرَى باليدِ الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالِي» فلا أدرِي في أيِّ القبضتين أنا(٣). وأحاديثُ القَدَر في الصحاح والسنَن والمسانيدِ كثيرةٌ جداً، منها حديثُ عليّ، وابن مسعود، وعائشةَ، وجماعةٍ جَمَّة رضي الله عنهم أجمعين.

وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: إما على الهدايةِ أو على الضلالةِ، ولكنه تعالى فاوتَ بينهم، فهدى مَن يشاء إلى الحقّ، وأضلَّ من يشاء عنه، وله الحكمة والحجةُ البالغة. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن أبي سَوِيّة حَدَّثه عن ابن حُجَيرة: أنه بَلَغه أن موسى ـ عليه السلام ـ قال: يا ربِّ خَلْقُكَ الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقاً في الجَنَّةِ وفريقاً في النار، لو ما أدخلتَهم كُلَّهم الجنة؟! فقال: يا مُوسَى، ارفع ذَرْعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب، قد رفعتُ. قال: ارفع. قال: قد رفعتُ، إلا ما لا خيرَ فيه. قال: كذلك أدخل خلقي كلَّهم الجنة إلاَّ ما لا خيرَ فيه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

---

(١) أخرجه البغوي ١٢٠/٤/١٨٦٨ بترقيمي وإسناده حسن رجاله ثقات. والظاهر أن لفظ «عدل من الله» مدرج في الحديث، والله أعلم.

(٢) المِزود: ما يجعل فيه الزاد.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١٧٦/٤ عن أبي نضرة بسند على شرط مسلم، لكن لم يذكر أبو نضرة سماعه من الصحابي، لكن المتن صحيح له شواهد كثيرة.

يقولُ تعالى مُنكِراً على المشركين في اتخاذهم آلهةً من دُونِ الله، ومُخبراً أنه الوليُّ الحقُّ الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له وحده، فإنه القادرُ على إحياءِ الموتى، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: مهما اختلفتُم فيه من الأمور، وهذا عامٌّ في جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: هو الحاكم فيه بكتابهِ وسُنَّةِ نبيِّه ـ ﷺ ـ. كقوله جل وعلا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾، أي: الحاكم في كلِّ شيء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: أرجعُ في جميع الأمور. وقولُه جل جلاله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالِقُهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: من جنسكم وَشكلِكم، منَّةً عليكمُ وتفضُّلاً جعل من جنسكم ذكراً وأُنثى، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾، أي: وخَلَقَ لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾، أي: يَخلُقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفةِ لا يزال يَذْرَؤُكم فيه ذُكوراً وإناثاً خلقاً من بعدِ خلقٍ، وجيلاً بعد جيلٍ، ونَسْلاً بعد نسلٍ، من الناسِ والأنعام. وقال البغوي: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾، أي في الرحم. وقيل: في البطنِ. وقيل: في هذا الوجهِ من الخلقة. قال مجاهد: نَسْلاً بعد نسلٍ من الناس والأنعام. وقيل (في) بمعنى (الباء)، أي: يذرؤكم به. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، أي: ليس كخالقِ الأزواجِ كلِّها شيءٌ، لأنه الفردُ الصمدُ الذي لا نظيرَ له، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وقولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، تقدَّم تفسيره في سورة الزُّمر، وحاصلُ ذلك أنه المتصرِّفُ الحاكمُ فيهما، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يُوَسِّع على مَن يشاء، ويُضيِّق على مَن يشاء، وله الحكمةُ والعدلُ التام، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

يقولُ تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فَذكر أوَّلَ الرسل بعد آدم وهو نوحٌ ـ عليه السلامُ ـ وآخرَهم وهو محمدٌ ـ ﷺ ـ ثم ذَكَر مَن بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريمَ ـ عليهم السلام ـ. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. . . الآية. والدينُ الذي جاءت به الرسلُ كلُّهم هو: عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

[٥٩١٥] وفي الحديث: «نحن معشرَ الأنبياء أولادُ عَلاَّتٍ دينُنا واحدٌ»[١]. أي: القدر المشترك بينهم هو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجُهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾، أي: وَصَّى الله تعالى جميعَ الأنبياء ـ عليهم السلامُ ـ بالائتلافِ والجماعةِ، ونهاهُم عن الافتراقِ والاختلافِ. وقولُه عز وجل: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، أي: شَقَّ عليهم وأنكرُوا ما تدعُوهم إليه ـ يا محمدٌ ـ من التوحيد. ثم قال جل جلاله: ﴿ٱللَّهُ

(١) أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: هو الذي يُقدِّرُ الهدايةَ لمن يَستحِقُّها، ويكتب الضلالة على مَن آثرها على طريق الرُّشدِ. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: إنما كان مخالفتُهم للحقِّ بعد بُلوغِه إليهم، وقيامِ الحُجَّةِ عليهم، وما حَملَهم على ذلك إلا البغيُ والعنادُ والمشاقة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: لولا الكلمة السابقة من الله تعالىٰ بإنظارِ العبادِ بإقامةِ حسابهم إلى يوم المَعادِ، لَعَجَّل لهم العُقوبةَ في الدنيا سريعاً. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، يعني: الجيل المتأخر بعد القرنِ الأولِ المكذِّب للحقِّ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، أي: لَيسُوا على يقينٍ من أمرِهم، وإنما هم مُقلِّدون لآبائِهم وأسلافِهم، بلا دليلٍ ولا بُرهانٍ، وهُم في حيرةٍ مِن أمرهم، وشكٍّ مُريبٍ، وشِقاقٍ بعيدٍ.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

اشتملت هذه الآيةُ الكريمةُ على عشر كلمات مُستَقِلّة، كلٌّ منها منفصلة عن التي قبلها، حُكمٌ برأسِهِ، قالوا: ولا نَظيرَ لها سِوى آيةِ الكُرسيِّ، فإنها أيضاً عشرةُ فُصولٍ كهذه. قولُهُ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾، أي: فَلِلّذي أوحينا إليكَ من الدِّينِ الذي وَصَّينا به جميعَ المرسلين قبلَكَ أصحابَ الشرائع الكِبارِ المُتَّبعة كأولي العَزْمِ وغيرهم، فادعُ الناسَ إليه. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، أي: واستقم أنت ومَنِ اتَّبعك على عبادة الله، كما أمركُم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، يعني: المشركينَ فيما اختلقُوه، وكَذَّبوه، وافتَرَوه مِن عبادةِ الأوثانِ.

وقولُهُ جل وعلا: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، أي: صَدَّقتُ بجميعِ الكُتبِ المنزَّلة من السماءِ على الأنبياءِ، لا نُفرِّق بين أحد منهم. وقولُهُ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، أي: في الحُكم كما أمرني الله. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أي: هو المعبودُ، لا إلهَ غيرُه، فنحنُ نُقِرُّ بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تَفعَلُوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، أي: نحنُ براءُ منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، قال مجاهدٌ: أي لا خُصومة. قال السدِّيُّ: وذلك قبل نُزولِ آية السيفِ. وهذا مُتَّجهٌ؛ لأن هذه الآية مكيَّة، وآيةُ السيف بعد الهجرة. وقولُهُ عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦]. وقولُهُ جل وعلا: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: المرجعُ والمآبُ يومَ الحسابِ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

يقولُ تعالى متوعِّداً الذي يَصُدُّون عن سبيلِ الله مَن آمَنَ به: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾، أي: يجادِلُون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله لِيَصُدُّوهم عما سَلَكُوه من طريقِ الهُدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾، أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: يوم القيامة. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ: جادَلُوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولِرسُولِهِ، لِيَصدُّوهم عن الهُدى، وطَمِعُوا أن تَعُودَ الجاهلية. وقال قتادةُ: هم اليهودُ والنصارى، قالوا لهم: دِينُنا خيرٌ من دينكم، ونَبيُّنا قبلَ نَبيِّكم، ونحن خيرٌ منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك. ثم قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، يعني: الكُتُبَ المنزَّلة مِن عندِه على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدلُ والإنصافُ، قاله مجاهدٌ، وقتادةُ. وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقولُهُ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه تَرغِيبٌ فيها، وترهِيبٌ منها، وتَزهِيدٌ في الدنيا. وقولُهُ عز وجل: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]. وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكُفراً وعِناداً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، أي: خائِفون وَجِلُون من وُقُوعِها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾، أي: كائنةٌ لا محالة، فهم مُستعِدُّون لها عامِلُون من أجلها.

[٥٩١٦] وقد رُوِي من طُرُقٍ تبلغُ درجةَ التواتر، في الصِّحاح والحسانِ، والسنَنِ والمسانيدِ، وفي بعضِ ألفاظِه: أن رَجُلاً سأل رسول الله ـ ﷺ ـ بصوت جهْوَرِيٍّ، وهُو في بعضِ أسفارِه، فناداه فقال: يا محمدُ. فقال له النبي ـ ﷺ ـ نحواً من صوته ـ: «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «ويحكَ. إنها كائنةٌ، فما أعددتَ لها»؟. فقال: حُبَّ الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببتَ»[1]. فَقولُهُ في الحديثِ: «المرءُ معَ مَن أَحَبَّ»، هذا متواترٌ لا محالةَ، والغرضُ أنه لم يُجبه عن وقتِ الساعةِ، بل أمره بالاستعداد لها. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾، أي: يُحاجُّونَ في وُجُودِها ويدفَعُون وُقوعَها، ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، أي: في جهلٍ بَيِّن، لأن الذي خلق السمواتِ والأرضَ قادرٌ على إحياءِ الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن لُطفه بِخَلْقِه في رِزْقه إياهم عن آخرهم، لا يَنسى أحداً منهم، سواءٌ في رِزْقه البرُّ والفاجرُ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)﴾

---

(١) تقدم في سورة الأعراف آية ١٨٧.

[هود: ٦]، ولها نظائرُ كثيرةٌ. وقولُهُ جل وعلا: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يُوسِّع على مَن يشاءُ، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، أي: لا يُعجزُه شيءٌ. ثم قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾، أي: عَملَ الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾، أي: نُقوِّيه ونُعينُه على ما هو بِصَدَدِه، ونُكثرُ نماءَه، ونُجزيه بالحسنةِ عشرَ أمثالِها إلى سبعمئةِ ضعفٍ، إلى ما يشاءُ الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، أي: ومن كان إنما سعيُه ليحصُلَ له شيءٌ من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همَّة البتة بالكلية، حرمه الله الآخرَة، والدنيا إن شاءَ أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصُل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النيَّة بالصفقةِ الخاسِرَة في الدنيا والآخرة. والدليلُ على هذا أن هذه الآية هاهنا مُقيَّدة بالآية التي في (سُبحان) وهي قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

[٥٩١٧] وقال الثوريُّ، عن مُغيرَةَ، عن أبي العاليةِ، عن أُبَيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بَشِّر هذه الأمة بالسَّناءِ والرِّفعةِ، والنَّصرِ والتمكينِ في الأرضِ، فمن عَمِل منهم عَمَل الآخرةِ للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»(١). وقولُهُ جل وعلا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾، أي: هم لا يتَّبِعون ما شَرَعَ الله لكَ من الدِّين القَويم، بل يَتَّبِعون ما شَرَع لهم شياطينُهم من الجنِّ والإنس، من تحريم ما حَرَّموا عليهم، من البَحِيرة والسائبة والوصيلةِ والحام، وتَحليلِ المَيْتَةِ والدَّم والقمار. إلى نحو ذلك من الضلالاتِ والجهالةِ الباطلةِ. التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليلِ والتحريم، والعباداتِ الباطلةِ، والأقوالِ الفاسدةِ.

[٥٩١٨] وقد ثبت في الصحيح أن رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال: «رأيت عَمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة يَجرّ قُصْبَه في النار»(٢). لأنه أول من سَيَّب السوائب. وكان هذا الرجل أحد مُلوك خُزاعَة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَل قريشاً على عبادةِ الأصنام ـ لعنه الله وقبحه ـ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لَعُوجِلُوا بالعقوبة، لولا ما تقدَّم من الإنظارِ إلى يوم المعادِ، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: شَدِيدٍ مُوجعٍ في جَهَنَّم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾، أي: في عَرَصاتِ القيامةِ، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، أي: الذي يَخافُون منه واقعٌ لا محالةَ، هذا حالُهم يوم مَعادِهم، وهُم في هذا الخوفِ والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فأين هذا من هذا؟ أين ما هُو في العَرَصات في الذلِّ والهَوانِ والخَوفِ المحقَّق عليه بظلمه، مِمَّن هو في روضاتِ الجَنَّاتِ، فيما يشاءُ من مآكِلَ ومشارِبَ وملابِسَ ومساكِنَ ومناظِرَ ومناكِحَ وَمَلاذٍ، فيما لا عين رَأَت، ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ.

قال الحسن بن عَرَفَة: حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي طَيْبَةَ قال: إن السِّرْبَ من أهلِ الجَنَّة لَتُظِلُّهم السحابةُ فتقول: ما أُمطِرُكم؟ قال: فما يدعُو داعٍ من القومِ بشيءٍ

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٤ وابن حبان ٤٠٥ والحاكم ٤/ ٣١١ ـ ٣١٨ وإسناده حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه، أخرجه البخاري وغيره.

إلا أمطرَتهمْ، حتى إن القائل منهم ليقول: أُمْطِرنا كواعبَ أتراباً. ورواه ابنُ جَريرٍ، عن الحسن بن عَرَفَةَ، به. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، أي: الفوزُ العظيمُ، والنعمةُ التامَّة السابغةُ الشاملةُ العامَّةُ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يقولُ تعالى لما ذَكَر روضاتِ الجَنَّة لعباده الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: هذا حاصلٌ لهم، كائنٌ لا محالَةَ، ببشارةِ الله تعالىٰ لهم به. وقولُهُ عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: قُل ـ يا محمد ـ لهؤلاءِ المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تُعطونيه، وإنما أطلبُ منكم أن تَكُفُّوا شَرَّكم عني، وتَذَرُوني أُبلِّغ رسالة ربي، إن لم تنصُروني فلا تُؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

[٥٩١٩] قال البخاريُّ: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن عبد الملك بن مَيْسَرَة قال: سمعتُ طاوساً عن ابن عباس: أنه سُئِل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جُبَير: قُربى آل محمدٍ. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبي ـ ﷺ ـ لم يكُن بطنٌ من قريشٍ إلا كان له فيهم قرابةٌ، فقال: إلا أن تَصِلُوا ما بيني وبينكُم من القَرَابةِ[١]. انفردَ به البخاريُّ. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا رَوَى عامر الشعبيُّ، والضحَّاك، وعلي بن أبي طلحة، والعوفي، ويوسف بنِ مهران، وغيرُ واحد، عن ابن عباسٍ، مثلَه. وبه قال مجاهدٌ، وعِكرمةُ، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وأبو مالك، وعبد الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ، وغيرُهم.

[٥٩٢٠] وقال الحافظ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ: حدثنا هاشم بن مَرْثدٍ الطبراني وجعفر القَلانسي قالا: حدثنا آدمُ بنُ أبي إياس، حدثنا شَريكٌ، عن خُصَيف، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني في نفسِي لقرابتي منكم، وتحفَظُوا القرابةَ التي بيني وبينكم»[٢].

[٥٩٢١] وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعني ابن سُوَيد ـ وابن أبي حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سُوَيد ـ عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابنِ عباسٍ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا أسألُكُم على ما آتيتكم من البيناتِ والهُدى أجراً، إلا أن تُوَادُّوا الله، وأن تَقرَّبوا إليه بطاعته»[٣]. وهكذا رَوَى قتادةُ عن الحسن البصري، مثله. وهذا كأنه تفسيرٌ بقولٍ ثانٍ، كأنه يقولُ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: إلا أن تعمَلُوا بالطاعةِ التي تُقَرِّبكم عند الله زُلفى. وقولٌ ثالث ـ وهو ما حكاه البخاريُّ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩٧ والترمذي ٣٢٥١ والنسائي في «التفسير» ٤٩٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٣٤٧ وإسناده ضعيف، شريك ساء حفظه لما تولىٰ القضاء. وفيه خصيف الجزري ضعفه أحمد، ووثقه ابن معين.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٦٨ والحاكم ٢/ ٤٤٤ والطبراني ١١١٤٤ وإسناده غير قوي لأجل قزعة، فقد ضعفه غير واحد، ووثقه يحيىٰ، ومع ذلك صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وغيرُه، رواية عن سعيد بن جُبَير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تَوَدُّوني في قرابتي، أي: تُحسِنُوا إليهم وتَبَرُّوهم.

وقال السدِّيُ، عن أبي الدَّيلم قال: لما جيءَ بعلي بن الحُسَين أسيراً، فَأُقيم على دَرَج دمشق، قام رجلٌ من أهل الشام فقال: الحمدُ لله الذي قَتَلكم واستأصلكم، وقَطَع قَرْنَ الفِتنة. فقال له علي بن الحُسَين: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾. قال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نَعَم. وقال أبو إسحاق السَّبِيعي: سألت عَمْرو بن شُعَيب عن قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾، فقال: قُربَى النبي ـ ﷺ ـ. رواهما ابن جرير.

[٥٩٢٢] ثم قال ابنُ جَرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبدُ السلام، حدثني يزيدُ بن أبي زياد، عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصارُ: فَعَلنا وفَعَلنا وكأنهم فَخَرُوا. فقال ابن عباس ـ أو: العباس، شكَّ عبد السلام ـ: لنا الفضلُ عليكم. فبلَغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأتاهُم في مجالسهم فقال: «يا معشَرَ الأنصار، ألم تكونُوا أذلّةً فأعزَّكم الله بي؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «ألم تكُونوا ضُلّالاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألَم يُخرِجْكَ قومُك فآويناك؟ أوَلم يُكَذِّبوك فصدقناك؟ أولم يَخذُلوك فنَصرناك؟» قال: فما زال يقولُ حتى جَثَوا على الرُّكَبِ، وقالوا: أموالُنا وما في أيدينا لله ولرسولِه. قال: فَنَزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾(١). وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بنِ عَلي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد ـ وهو ضعيفٌ ـ بإسنادِه مثلَه، أو قريباً منه. وفي الصحيحين في قَسْم غنائِم حُنَينٍ قريبٌ من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكرُ نُزولِ هذه الآية. وذِكْرُ نُزولها في المدينة فيه نظرٌ؛ لأنَ السورةَ مكيَّةٌ، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياقِ مناسبةٌ، والله أعلم.

[٥٩٢٣] وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا علي بن الحسين، حدثنا رَجُلٌ سَمّاه، حدثنا حُسَين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾، قالوا: يا رسولَ الله، مَن هؤلاء الذين أمر الله بمودَّتهم؟ قال: «فاطمةُ وولدُها عليهم السلام»(٢). وهذا إسنادٌ ضَعِيفٌ، فيه مبهم لا يُعرَفُ، عن شيخ شيعيٍّ مُختَرِق، وهو حُسَين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذِكْرُ نزولِ هذه الآية في المدينة بعيدٌ، فإنها مكيَّةٌ ولم يكن إذا ذاك لفاطمة أولادٌ بالكلِّية، فإنها لم تَتزوّج بعليٍّ إلا بعد بدر من السنة الثانيةِ من الهِجرَةِ. والحقُّ تفسيرُ هذه الآيةِ بما فَسَّرها به الإمام حَبرُ الأمة وتَرجُمان القرآن، عبدُ الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري ـ رحمه الله ـ ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرفِ بيتٍ وُجد على وجه

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٣٠٦٧٨ وفيه يزيد بن أبي زياد، ضعيف الحديث، وقال الحافظ في «الفتح» ٨/ ٥٦٤: ضعيف ويبطله أن الآية مكية.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ١٢٣٨٤ والحاكم في «مناقب الشافعي» كما في تخريج «الكشاف» ٤/ ٢٢٠ وقال ابن حجر: حسين الأشقر ساقط. وعارضه ما هو أولى، ففي صحيح البخاري [٤٨١٨] عن ابن عباس قال: لم يكن بطن من قريش إلا كان للنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة اهـ.

الأرض، فخراً وحَسباً ونسباً، ولا سيَّما إذا كانوا مُتَّبِعين للسنة النبويّة الصحيحة، الواضِحَةِ الجليَّة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبَنِيه، وعليٍّ وأهل بيته وذَويه، رضي الله عنهم أجمعين.

[٥٩٢٤] وقد ثبت في الصحيح: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال في خُطبَتِهِ بِغَديرِ خُمٍّ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتابَ الله وعِترتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عَلَيَّ الحوضَ»(١).

[٥٩٢٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن هارون، أخبرنا إسماعيلُ بنُ أبي خالد، عن يزيدَ بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ﷺ قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لَقُونا لقونا بوجوهٍ لا نَعرفها؟ قال: فَغَضِب النبي ـ ﷺ ـ غضباً شديداً، وقال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ الرجلِ الإيمانُ حتى يحبّكم لله ولِرسُوله»(٢).

[٥٩٢٦] ثم قال أحمد: حدثنا جَرِيرٌ، عن يزيدَ بنِ أبي زيادٍ، عن عبد الله بن الحارِث، عن عبد المطلب بن رَبِيعةَ قال: دخل العباسُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: إنا لنخرج فنرى قُريشاً تُحدِّث، فإذا رأونا سَكَتُوا. فَغَضِبَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ودَرَّ عِرْقٌ بين عينيه، ثم قال: «والله لا يدخلُ قلبَ امرىءٍ إيمانٌ حتى يُحبّكم لله ولقرابتي»(٣).

وقال البخاريُّ: حدثنا عبدُ الله بنُ عبدِ الوهّابِ، حدثنا خالدٌ، حَدَّثنا شعبةُ، عن واقدٍ قال: سَمِعتُ أبي يحدّث عن ابن عمر، عن أبي بكر هو الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: ارقُبوا محمداً ـ ﷺ ـ في أهل بيتِهِ(٤).

وفي الصحيح: أن الصدِّيق قالَ لعلي ـ رضي الله عنهما ـ: والله لَقَرابةُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ أحبُّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي. وقال عُمَر بن الخطاب للعباس ـ رضي الله عنهما ـ: والله لإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلىٰ رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فحالُ الشيخين ـ رضي الله عنهما ـ هو الواجب على كلِّ أحد أن يكونَ كذلك، ولهذا كانا أفضلَ المؤمنين بعد النبيِّين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائرِ الصحابة أجمعين.

[٥٩٢٧] وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حَيَّان التيمي، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقتُ أنا وحصين بن سبرة، وعُمَر بن مُسلِم إلى زيدِ بن أرقَمَ، فلما جلسنا إليه قال له حُصَين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً، رأيتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ، وسَمِعت حديثَه، وغَزَوتَ معه، وصَلَّيتَ معه. لقد رأيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً. حَدِّثنا يا زيدُ ما سَمِعتَ من رسول الله ـ ﷺ ـ. فقال: يا بن أخي، والله لقد كَبُرَت سنّي وَقَدُم عَهدِي، ونَسيت بعض الذي كنت أَعِي من رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فما حدثْتُكم فاقبَلُوه، وما لا فلا تُكَلِّفُونيه. ثم قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً خَطِيباً فينا، بماء يدعى خُمّاً ـ بين مَكّة والمدينةِ ـ

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٤٠٨ وهو الآتي بعد حديثين.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٥٨ وأحمد ١/ ٢٠٧ ح ١٧٧٥ والحاكم ٣/ ٣٣٣ من حديث العباس، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف، وزاد الترمذي والحاكم وأحمد في رواية ثانية عبد المطلب بن ربيعة بين العباس، وعبد الله بن الحارث. ومداره على يزيد، ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: يزيد وإن لم يخرجا له فإنه ركن من أركان الحديث في الكوفيين. وسكت الذهبي، والإسناد ضعيف، وقد تفرد به يزيد ابن أبي زياد. وفي الباب أحاديث بغير هذا السياق تغني عنه.

(٣) انظر ما قبله.

(٤) أخرجه البخاري ٣٧١٣.

فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، وذَكَّر ووَعَظَ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيُّها الناس إنما أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أن يأتيني رسولُ رَبِّي فَأُجِيبَ. وإني تاركٌ فيكم ثَقَلَين، أولهما: كتابُ الله تعالىٰ، فيه الهُدَى والنور، فَخُذُوا بكتابِ الله واستمسِكُوا به» فَحَثَّ على كتابِ الله ورَغَّب فيه ـ وقال: «وأهلُ بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أُذَكِّركم الله في أهل بيتي». فقال له حُصَين: ومَنْ أهل بيتِه يا زيدُ؟ أليس نساؤه من أهل بيتِه؟ قال: إن نساءَه من أهلِ بيته، ولكنَّ أهلَ بيتِه من حُرِمَ الصدقةَ بعده. قال: ومَن هُم؟ قال: آل علي، وآل عَقِيل، وآلُ جعفرٍ، وآلُ العباس. قال: أَكُلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقَةَ؟ قال: نعم[1]. وهكذا رواه مسلم في الفضائل، والنسائيُّ من طُرقٍ عن يزيد بن حَيَّانَ به.

[٥٩٢٨] وقال أبو عيسى الترمذيُّ: حَدَّثنا علي بن المنذر الكُوفي، حدثنا محمد بنُ فضَيل، حَدَّثنا الأعمش، عن عَطِيَّة، عن أبي سعيد ـ والأعمش، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن زيد بن أرقَمَ ـ قال: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني تارك فيكم ما إن تَمَسَّكتم به لن تَضِلُّوا بعدي، أحدُهما أعظمُ من الآخر: كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهلُ بيتي، ولن يتفرّقا حتى يَرِدا على الحوضِ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2]. تفرَّد بروايته الترمذيُّ، ثم قال: «هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ».

[٥٩٢٩] وقال الترمذيُّ أيضاً: حَدثنا نصرُ بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في حجَّتِه يومَ عَرَفَةَ، وهو على ناقته القَصواءِ يخطبُ، فَسمِعتُه يقول: «يا أيها الناسُ، إني تركتُ فيكم ما إن أخذتُم به لن تَضِلُّوا: كتابَ الله وعِترتي أهلَ بيتي»[2]. تفرَّد به الترمذيُّ أيضاً، وقال: «حسنٌ غريبٌ»، وفي الباب عن أبي ذرٍّ، وأبي سعيدٍ، وزيد بن أرقَمَ، وحُذَيفة بن أسيد.

[٥٩٣٠] ثم قال الترمذيُّ: حدثنا أبو داودَ سُليمان بنُ الأشعثِ، حدثنا يحيى بن مَعِين، حدثنا هشامُ بن يوسفَ، عن عبد الله بن سليمان النَّوفلي، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جَدِّه عبدِ الله بن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أَحِبُّوا الله لما يَغذُوكم من نِعَمِه، وَأَحِبُّوني بحبِّ الله، وأَحِبُّوا أهل بَيتي بِحُبِّي»[3]. ثم قال: «حَسَنٌ غريبٌ إنما نعرفه من هذا الوجه». وقد أوردنا أحاديثَ أُخَرَ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمدُ والمنّةُ.

[٥٩٣١] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سُوَيد بن سَعِيدٍ، حدثنا مُفَضَّل بن عبد الله، عن أبي إسحاقَ، عن حَنَش قال: سَمِعتُ أبا ذَرٍّ وهو آخِذٌ بحلقة الباب يقول: يا أيها الناسُ، من عَرفني فقد عَرَفني، ومن

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧ وهو صحيح، وتقدم في سورة الأحزاب عند آية ٣٣.

(٢) إسناده ضعيف، وتقدم الكلام عليه في سورة الأحزاب.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٧٨٩ وابن عدي ٧/ ١١٢ والذهبي في «الميزان» ٤٣٦٧ كلهم من حديث ابن عباس. قال الترمذي: حسن غريب. وذكره ابن عدي في ترجمة هشام بن يوسف ووثقه لكن عده من غرائبه. وأما الذهبي فذكره في ترجمة عبد الله بن سليمان النوفلي، وقال: فيه جهالة، ما حدث عنه سوى هشام وبهذا الحديث. وقال عنه الحافظ في «التقريب»: مقبول. أي حيث يتابع، وقد توبع على معناه، ففي الباب أحاديث كثيرة، وهو بهذا الإسناد ضعيف، وذكره الألباني في ضعيف الترمذي ٧٩٢. والله الموفق.

أنكَرَني فأنا أبو ذَرٍّ، سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنما مَثَلُ أهل بيتي فيكم مَثَل سفينةِ نُوحٍ، من دخلها نَجا، ومن تَخلَّف عنها هلك»(١). هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: ومن يعملَ حسنةً ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: أجراً وثواباً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. وقال بعض السلف: إن من ثوابِ الحَسَنةِ الحسنة بعدَها، ومن جزاءِ السيِّئةِ السيئة بعدها. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، أي: يغفِرُ الكثيرَ من السيئاتِ، ويُكثِرُ القليلَ من الحسناتِ، فَيستُرُ ويغفِرُ، ويُضاعفُ فَيَشكُر. وقولُهُ جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي: لو افتريت عليه كَذِباً كما يزعُم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي: لَطَبَع على قلبِكَ وسَلَبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، أي: لانتقمنا منه أشدَّ الانتقام، وما قَدَر أحدٌ من الناسِ أن يَحجُزَ عنه. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾، ليس معطوفاً على قوله «يختم» فيكونَ مجزوماً، بل هو مرفوعٌ على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته (الواو) في رسم المُصحَفِ الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]. وقولُهُ: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾. معطوف على ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾، أي: يُحققه ويُثبته ويُبيِّنه ويُوضِحه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي بحُجَجِهِ وبراهينه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: بما تُكِنُّه الضمائرُ، وتنطوي عليه السرائرُ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

يقولُ تعالى ممتنّاً على عباده بقبولِ تَوبتهم إليه إذا تابُوا ورجعُوا إليه: إنه من كَرَمه وحِلمه أنه يعفُو ويصفَحُ ويستُرُ ويغفِرُ، كقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

---

(١) متن منكر بأسانيد واهية. فيه سويد بن سعيد ضعيف الحديث، وهو الذي قال فيه ابن معين: لو كان لي فرس ورمح، غزوت سويداً. وورد من طريق آخر أخرجه البزار ٢٦١٤ وفيه الحسن بن أبي جعفر، وهو متروك كما في «المجمع» ١٤٩٧٨، وورد من وجه آخر أخرجه الطبراني ٢٦٣٧ وفي «الصغير» ٣٩١ وقال الهيثمي ١٤٩٧٨ فيه عبد الله بن داهر، وهو متروك. وتوبع عند ابن عدي ٤/ ١٩٧ ـ ١٩٨ لكن فيه عبد الله بن عبد القدوس، وهو متروك. قال يحيى: ليس بشيء. وورد من حديث ابن عباس أخرجه البزار ٢٦١٥ والطبراني ٢٦٣٦ و ٢٦٣٧ و ١٢٣٨٨ وفيه الحسن بن أبي جعفر. قال البزار عقبه: ليس بالقوي. وقال عنه الهيثمي في «المجمع» ١٤٩٧٩: متروك. وورد من حديث عبد الله بن الزبير أخرجه البزار ٢٦١٣ وقال الهيثمي ١٤٩٨٠ فيه ابن لهيعة، وهو لين. كذا قال! بل هو ضعيف. وورد من حديث أبي سعيد أخرجه الطبراني في «الصغير» ٨٢٥ وأعله الهيثمي ١٤٩٨١ بأن فيه جماعة، ولم أعرفهم اهـ وفيه عطية العوفي، وهو واهٍ.

[٥٩٣٢] وقد ثَبَت في صَحِيح مسلم ـ رحمه الله ـ حيث قال: حدثنا محمد بن الصباح وزُهَير بنُ حَربِ قالا: حدثنا عُمَر بن يونس، حدثنا عِكرِمَةُ بن عَمَّار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحةَ، حدثني أنسُ بن مالك ـ وهو عَمُّه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «للهُ أشدُّ فرحاً بتوبةِ عبدِه حين يتوب إليه مِن أحدِكم كانت راحلتُه بأرض فلاةٍ فانفلتت منه، وعليها طعامُه وشرابُه، فَأَيِس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قَد أَيِس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هُو بها قائمةً عندَه، فأخذ بِخِطامها ثم قال مِن شدَّةِ الفَرَح: اللهُمَّ، أنت عبدِي وأنا ربُّك ـ أخطأ من شِدَّة الفَرَح ـ»[1]. وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوُه..

[٥٩٣٣] وقال عبد الرزاق، عن معمرٍ، عن الزُّهريِّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: إنَّ أبا هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «للهُ أشد فَرَحاً بتوبة عبدِه من أحدِكم يجد ضالَّته في المكان الذي يخافُ أن يقتُله فيه العطش»[2]. وقال هَمَّام بن الحارث: سُئِل ابنُ مسعود عن الرجل يفجُر بالمرأة ثم يَتزوَّجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾... الآية. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث شَريك القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيمَ النخَعِيِّ، عن همام، فذكره.

وقولُه عز وجل: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: يقبل التوبةَ في المستقبل، ويعفُو عن السيئات في الماضي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، أي: هو عالمٌ بجميع ما فعلتُم وصنعتُم وقلتُم، ومع هذا يتوبُ على مَن تاب إليه. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال السدِّيُّ: يعني يستجيبُ لهم. وكذا قال ابنُ جرير: معناه يستجيبُ الدعاءَ لهم ولأصحابهم وإخوانِهم. وحكاه عن بعضِ النحاة، وأنه جعلَها كقوله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾. ثم رَوَى هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شَقِيق بن سَلَمة، عن سَلَمةَ بنِ سَبْرَةَ قال: خَطَبنا معاذٌ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهلُ الجنة: والله إني لأرجو أن يُدخل الله تعالىٰ مَن تَسْبُون مِن فارسَ والروم الجنةَ، وذلك بأنَّ أحدكم إذا عمل له ـ يعني أحدُهم ـ عملاً قال: أحسنتَ رحِمك الله، أحسنتَ بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

وحكى ابنُ جرير عن بعضِ أهل العربية أنه جعله مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾ أي: هم الذين يستجيبُون للحقِّ ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، والمعنى الأولُ أظهرُ، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يَستَجِيبُ دُعاءَهم ويَزيدُهم فوق ذلك.

[٥٩٣٤] ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقيةُ، حدثنا إسماعيل بن عبدالله الكِنْدي، حدثنا الأعمش، عن شَقِيقٍ، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، قال: «الشفاعةُ لمن وَجَبت له النارُ من صَنَع إليهم مَعرُوفاً في الدنيا»[3].

وقال قتادةُ عن إبراهيم النَّخَعي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: يَشفَعُون في إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، قال: يَشفَعُون في إخوانِ إخوانِهم. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، لَمَّا ذَكر المؤمنين وما لَهم من الثواب الجزيلِ ذَكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذابِ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٠٩ ومسلم ٢٧٤٧ وأحمد ٣/ ٢١٣ وابن حبان ٦١٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٢٧٣٨ وفيه إرسال بين الزهري وأبي هريرة، وهو ضعيف بهذا اللفظ.

(٣) ضعيف منكر. في إسناده إسماعيل بن عبد الله الكندي لا يعرف. ذكره الذهبي في الميزان ٩٠١ وقال: عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر عجيب منكر. وأورد ابن حجر في «اللسان» غير هذا الحديث في ترجمة الكندي، على أنه منكر. ونقل عن النباتي قوله: أحاديث بقية، ليست نقية.

الشديدِ المُوجِع المؤلم يومَ معادهم وحسابهم. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لو أعطاهُم فوقَ حاجَتِهم من الرِّزقِ لَحَملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضِهم على بعضٍ، أشَراً وبَطَراً. قال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يُلهيكَ ولا يُطغِيك.

[٥٩٣٥] وذكر قتادةُ حديثَ: «إنما أخاف عليكم ما يُخرِجُ الله من زَهرةِ الحياةِ الدنيا»، «وسؤالَ السائل: أيأتي الخيرُ بالشرّ؟» الحديث[١].

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾، أي: ولكن يرزقُهم من الرزقِ ما يختاره مما فيه صلاحُهم، وهو أعلَمُ بذلك، فيُغني مَن يَستحِقُّ الغنى، ويُفقِر مَن يَستحِقُّ الفقر كما جاء في الحديث المرويِّ:

[٥٩٣٦] «إنَّ مِن عبادي لَمنْ لا يُصلحه إلا الغنى، ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دِينه، وإنَّ مِن عبادي لَمنْ لا يُصلِحهُ إلا الفقرُ، ولو أغنيتُه لأفسدتُ عليه دينه»[٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾، أي: من بعد إياسِ الناسِ من نزولِ المطر، يُنزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم: ٤٩]. وقولُهُ جل جلاله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ﴾، أي: يَعُمُّ بها الوجودَ على أهل ذلك القُطرِ وتلك الناحية. قال قتادة: ذُكِر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أميرَ المؤمنين، قَحطَ المَطَرُ وقَنط الناسُ؟ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: مُطِرتُم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: هو المتصرِّف لخلقه بما ينفعُهم في دُنياهم وأُخراهم، وهو المحمودُ العاقبة في جميعِ ما يُقدِّره ويَفعَلُه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّة على عَظَمتِه وقُدرته العظيمة وسُلطانه القاهِرِ ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾، أي: ذَرأ فيهما، أي: في السمواتِ والأرضِ، ﴿مِن دَآبَّةٍۚ﴾، وهذا يشمَلُ الملائكةَ والجنَّ والإنسَ وسائرَ الحيوانات، على اختلافِ أشكالِهم وألوانِهم ولُغاتِهم، وطباعهم وأجناسِهم وأنواعهم، وقد فرَّقهم في أرجاءِ أقطارِ السمواتِ والأرض، ﴿وَهُوَ﴾، مع هذا كلِّه ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، أي يومَ القيامةِ يجمعُ الأوَّلينَ والآخرين وسائرَ الخلائقِ في صعيدٍ واحدٍ يُسمِعُهُم الداعي، ويَنْفُذهم البصر، فيَحكُم فيهم بحكمه العَدْلِ الحق.

---

(١) هو بعض خبر أخرجه الطبري ٣٠٦٩٩ عن قتادة مرسلاً. وقوله «إنما أخاف... إلى... الحياة الدنيا» جاء موصولاً بأسانيد صحيحة. وتقدم. وانظر صحيح البخاري ٦٤٢٧ ومسلم ١٠٥٢.

(٢) هو بعض حديث أخرجه البغوي في «التفسير» ١٨٧٧ ـ بترقيمي من حديث أنس، وإسناده واهٍ، وضعفه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم» ص ٣١٤ فقال: فيه الحسن بن يحيى الخشني، عن صدقة بن عبد الله الدمشقي، وهما ضعيفان. وفيه هشام الكناني، لا يعرف اهـ. وورد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١٢٧١٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٩٥٣: فيه جماعة لم أعرفهم.

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ، أي: مهما أصابكم أيُها الناسُ من المصائبِ فإنما هُو عن سَيِّئاتٍ تَقدَّمت لكم، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ، أي: من السيئاتِ، فلا يُجازِيكم عليها بل يعفُو عنها، ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ .

[٥٩٣٧] وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يُصِيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمّ ولا حُزن إلا كَفَّر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكةِ يُشَاكُها»[١] .

[٥٩٣٨] وقال ابنُ جرير: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيّة، حدثنا أيوبُ قال: قرأت في كتاب أبي قِلابَة قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾، وأبو بكر يأكلُ، فأمسكَ وقال: يا رَسول الله، إني لَرَاءٍ ما عملتُ من خيرٍ وشرٍ؟ فقال: «أرأيتَ ما رأيتَ مما تكرَهُ؟ فهو من مثاقيل ذَرّ الشرِّ، وتُدَّخرُ مثاقيلُ الخير حتى تُعطَاه يومَ القيامةِ». قال: قال أبو إدريسَ: فإني أرَى مصداقها في كتابِ الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾[٢] . ثم رواه من وجه آخر، عن أبي قِلابَة، عن أنسٍ، قال: والأوَّلُ أصح.

[٥٩٣٩] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطبَّاع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَاري، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهِلي، عن الخَضِر بن القَوّاس البَجَليّ، عن أبي سُخَيلَةَ، عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: ألا أُخبِرُكم بأفضل آيةٍ في كتابِ الله ـ عَزَّ وجَلَ ـ، وحَدَّثنا به رسولُ الله ـ ﷺ ـ، قال: «﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ . وسأفسِّرها لَك يا علي: ما أصابكُم من مَرَضٍ أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كَسَبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يُثَنّي عليه العقوبةَ في الآخرة، وما عَفَا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرمُ من أن يعودَ بعد عفوه»[٣] . وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبي سُخَيلة قال: قال علي. . . فذكر نحوه مرفوعاً. ثم رَوَى ابن أبي حاتم نحوه، من وجه آخر موقوفاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مُزَاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضَّاح، عن أبي الحسن، عن أبي جُحَيفة قال: دخلت على عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: ألا أُحَدِّثكم بحديثٍ ينبغي لكلِّ مؤمن أن يَعِيَه؟ قال: فسألناه، فتَلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ . قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلَمُ من أن يُثَنّي عليه العقوبَة يوم القيامة، وما عَفَا الله عنه في الدنيا فالله أكرمُ من أن يعودَ في عَفْوِه يومَ القيامة.

[٥٩٤٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا يعلَى بن عُبَيد، حدثنا طلحةُ ـ يعني ابنَ يحيى ـ عن أبي بُردَةَ، عن معاوية ـ هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما ـ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من شيءٍ يُصِيب المؤمنَ في جَسَدِه يؤذِيه إلا كَفَّر الله عنه به من سيئاته»[٤] .

[٥٩٤١] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسين، عن زائدةَ، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت:

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٣٠٧٠٤ هكذا، وهو مرسل. ويأتي في سورة الزلزلة.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٦٤٩ وأبو يعلى ٤٥٣ من حديث علي، وفيه أزهر بن راشد. ضعفه الهيثمي في «المجمع» ١٣٢٨ به. وورد مختصراً. أخرجه أحمد ٧٧٥ و ١٣٦٥ والحاكم ٢/ ٤٤٥ من طريق أبي جحيفة عن علي، وليس فيه ذكر الآية وتفسيرها، وهذا حسن وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي. وله شواهد. ومنها الآتي.

(٤) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ٩٨ وإسناده غير قوي لأجل طلحة بن يحيىٰ، لكن للحديث شواهد.

قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كثُرت ذنوبُ العبدِ، ولم يكن له ما يُكفِّرها، ابتلاه الله بالحُزن ليُكفِّرها»(١).

[٥٩٤٢] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِيُّ، حدثنا أبو أُسامةَ، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾، قال: لَمَّا نَزلت قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما من خَدْشِ عُودٍ، ولا اختلاجُ عِرْقٍ، ولا عثرةُ قدمٍ، إلا بذنبٍ، وما يعفو الله عنه أكثر»(٢).

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا هُشَيم، عن منصور، عن الحسن، عن عمران بن حُصَين ـ رضي الله عنه ـ قال: دَخَل عليه بعضُ أصحابه وقد كان ابتُلي في جَسَده، فقال له بعضُهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نَرى فيك. قال: فلا تَبتئِس بما تَرى، فإنَّ ما تَرى بذنبٍ، وما يعفُو الله عنه أكثرُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾.

وحدثنا أبي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني، حدثنا جَرير، عن أبي البلادِ قال: قلتُ للعلاءِ بن بدرٍ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وقد ذَهَب بصري وأنا غلامٌ؟ قال: فَبِذُنوبِ والديك.

وحدثنا أبي: حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسي، حدثنا وكيعٌ، عن عبد العزيز بن أبي رَوَادٍ، عن الضحَّاكِ قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نَسِيه إلا بِذَنْب، ثم قرأ الضحَّاك: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾. ثم يقول الضحَّاك: وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ من نسيانِ القرآن.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ۝٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ۝٣٥﴾

يقولُ تعالى: ومن آياتِهِ الدالَّة على قُدرته الباهرة وسُلطانه تسخِيرُه البحرَ لتجري فيه الفلكُ بأمره، وهي الجواري في البحرِ كالأعلام، أي: كالجبال، قال مجاهد، والحسنُ، والسدِّيُّ، والضحَّاك، أي: هي في البحر كالجبالِ في البرِّ، ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾، أي: التي تَسِير في البحر بالسفنِ، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرَّكَ السفنُ، بل تظلُّ راكدةً لا تجيء ولا تذهَبُ، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماءِ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾، أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾، أي: إن في تسخيره البحرَ وإجرائِه الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدَلالاتٍ على نِعَمِهِ تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾، أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء. وقولُهُ عز وجل: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي: ولو شاء لأهلك السفنَ وغرَّقها بذُنوب أهلها الذين هم راكبون عليها، ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ أي: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذُنوبهم لأهلك كلَّ من رَكِب البحر.

وقال بعضُ علماء التفسير: معنى قوله تعالىٰ ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي: لو شاء لأرسلَ الريح قوية

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٦/١٥٧ والبزار ٣٢٦٠ من حديث عائشة. وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٧٣٥: فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات. ثم كرره ١٧٤٧٤ وقال: رواه أحمد والبزار، وإسناده حسن اهـ مع أن فيهما ليث، وهو صدوق لكنه اختلط لذا ضعفه الجمهور. وللحديث علة أخرى ما ذكرها الهيثمي، وهي الانقطاع. فإن مجاهداً لم يسمع من عائشة، قاله ابن معين والقطان وشعبة ووافقهم أبو حاتم الرازي. راجع «المراسيل» ٣٦١.

(٢) ضعيف. هو مرسل، ومراسيل الحسن واهية. وأخرجه الطبري ٣٠٧٠٥ عن قتادة مرسلاً أيضاً. فلعله يتقوى بهذا المرسل، إلا أن يكون قتادة أخذه عن الحسن وهو الراجح. والله أعلم.

عاتيةً، فأخذت السفنَ وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصَرفتها ذاتَ اليمينِ أو ذاتَ الشمالِ، آبقةً لا تَسير على طريقٍ، ولا إلى جَهةٍ مَقصِدٍ. وهذا القولُ هو يَتضمَّن هلاكها، وهو مناسبٌ للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لَسكَّن الريحَ فَوَقفت، أو لقوّاه فشَردت وأبقَت وهَلكت. ولكن من لُطفه ورحمتِه أنه يُرسله بحَسب الحاجةِ، كما يُرسل المطرَ بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لَهَدَمَ البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرعَ والثمار، حتى إنه يُرسل إلى مثل بلادِ مصر سَيحاً من أرضٍ أُخرى غيرها، لأنهم لا يحتاجون إلى مطرٍ، ولو أنزل عليهم لَهَدَمَ بُنيانَهم، وأسقط جُدرانهم. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾، أي: لا مَحيدَ لهم عن بَأسِنا ونِقمَتِنا، فإنهم مَقهُورون بِقُدرَتِنا.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقولُ تعالى مُحقِّراً لشأنِ الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزَّهرة والنعيم الفاني، بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: مهما حَصَّلتم وجَمعتُم فلا تغترُّوا به، فإنما هو متاعُ الحياةِ الدنيا، وهي دار دنيةٌ فانيةٌ زائلَة لا محالَةَ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وثوابُ الله تعالىٰ خيرٌ من الدنيا، وهو باقٍ سَرمَدي، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: للذين صَبرُوا على تَركِ الملاذِّ في الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: لِيُعِينَهم على الصَّبرِ في أداء الواجباتِ وتَركِ المحرَّماتِ. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، وقد قدّمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، أي: سَجِيَّتُهم تقتضي الصفحَ والعفوَ عن الناس، ليس سَجِيَّتُهم الانتقامَ من الناس.

[٥٩٤٣] وقد ثَبتَ في الصحيح: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ما انتقمَ لنفسِه قَطُّ، إلا أن تُنتهَكَ حُرُماتُ الله[(١)].

[٥٩٤٤] وفي حديث آخر: كان يقولُ لأحدنا عند المَعْتَبَةِ: «ماله؟ تربت يمينه»[(٢)]. وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيانُ، عن زائدةَ، عن منصورٍ، عن إبراهيمَ قال: كان المؤمنون يكرَهُون أن يُستَذَلُّوا، وكانوا إذا قَدَرُوا عَفَوا.

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾، أي: اتَّبعُوا رُسُلَه وأطاعُوا أمرَه، واجتنبُوا زَجرَه، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهي أعظمُ العباداتِ لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لا يُبرِمُون أمراً حتى يَتشاوَرُوا فيه، لِيتساعَدُوا بآرائهم في مثل الحروب وما جَرَى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولهذا كان ـ عليه السلام ـ يُشاوِرهم في الحروب ونحوها، لِيُطيِّب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حَضرت عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه الوفاةُ حين طُعِن جَعَل الأمرَ بعده شُورى في ستةِ نفرٍ، وهم: عثمانُ، وعليٌّ، وطلحَةُ، والزبَيرُ، وسَعدُ، وعبدُ الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم، فاجتمع رأيُ الصحابة كلِّهم على تقديم عثمان عليهم، ـ رضي الله عنهم ـ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خَلْقِ الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥٦٠ ومسلم (٢٣٢٧) (٧٧) وأبو داوود ٤٧٨٥ من حديث عائشة.

(٢) ورد في أحاديث كثيرة منها حديث عائشة، أخرجه البخاري ٦١٥٦.

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾، أي: فيهم قوةُ الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بَغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قَدَروا عَفَوا، كما قال يوسف ـ عليه السلام ـ لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف ٩٢]، مع قُدرته على مُؤاخذتِهم ومُقابَلتِهم على صَنيعهم إليه.

[٥٩٤٥] وكما عفا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أولئك النفر الثمانين الذين قَصَدُوه عامَ الحُدَيبية، ونزلُوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام(١).

[٥٩٤٦] وكذلك عَفوُهُ عن غَوْرَثِ بن الحارثِ الذي أراد الفتك به ـ عليه السلام ـ حين اخترطَ سيفَه وهو نائم، فاستيقظ ـ عليه السلامُ ـ وهو في يده صَلْتاً، فانتهره، فَوَضعه من يده، وأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ السيفَ من يَدِهِ، ودعا أصحَابه ثم أعلمَهم بما كان من أمْرِه وأمْرِ هذا الرجلِ، وعفا عنه(٢).

[٥٩٤٧] وكذلك عفا ﷺ عن لَبِيد بن الأعصم الذي سحره ـ عليه السلام ـ ومع هذا لم يعرِض له ولا عاتَبه مع قدرته عليه(٣).

[٥٩٤٨] وكذلك عفوهُ ـ عليه السلام ـ عن المرأة اليهودية ـ وهي زينبُ أخت مَرْحَب اليهوديّ الخَيْبَريّ الذي قتله محمود بنُ مسلمة، التي سَمَّت الذِّراع يوم خيبر ـ فأخبره الذراعُ بذلك، فدعاها فاعترفَت، فقال: «ما حَمَلَك على ذلك؟» قالت: أردتُ إن كنتَ نبيّاً لم يَضُرَّك، وإن لم تكن نبيّاً استرحنَا منك. فأطلقها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكن لما ماتَ منه بِشرُ بن البراءِ رضي الله عنه قَتَلها به(٤)، والأحاديثُ والآثارُ في هذا كثيرةٌ جداً، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾

قولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وكقولِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ النحل: ١٢٦[]، فَشرع العدلَ وهو القِصاصَ، ونَدَب إلى الفضلِ وهو العفوُ، كقوله جل وعلا: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: لا يَضِيع ذلك عند الله، كما صَحَّ في الحديث:

[٥٩٤٩] «وما زاد الله عبداً بِعفوٍ إلا عِزّاً»(٥).

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: المُعتَدِين، وهو المبتدىءُ بالسيئة. ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَمَنِ

(١) يأتي في سورة الفتح.

(٢) متفق عليه، وتقدم في سورة النساء.

(٣) يأتي في سورة الناس.

(٤) أخرجه البخاري وغيره وتقدم.

(٥) هو بعض حديث أخرجه مسلم وغيره، وتقدم.

﴿ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾، أي: ليس عليهم جُناحٌ من الانتصارِ ممن ظَلَمهم.

[٥٩٥٠] قال ابنُ جرير: حَدَّثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا مُعاذ بن مُعاذ، حدثنا ابن عَون قال: كنت أسألُ عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾، فحدثني علي بن زيد بن جُدعانَ، عن أم محمد ـ امرأةِ أبيه، قال ابنُ عَونٍ: زعموا أنها كانت تدخلُ على أم المؤمنين عائشة ـ قالت: قالت أمُّ المؤمنين: دَخَل علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وعندنا زينبُ بنتُ جَحشٍ، فَجعَلَ يصنَعُ بيدِه شيئاً فلم يَفْطِن لها، فَقُلت بيده حتى فَطَّنته لها، فأمسَكَ. وأقبلت زينبُ تَقَحَّم[١] لعائشةَ، فَنهاها، فأبت أن تَنْتَهِي. فقال لعائشةَ: «سُبِّيها». فَسَبَّتها فَغَلبتها، وانطلقت زينبُ فأتت علياً فقالت: إن عائشةَ تَقَع بكم، وتفعَلُ بكم. فجاءت فاطمة فقال لها: «إنها حِبَّةُ أبيكِ وربِّ الكعبة». فانصرفت، وقالت لعليّ: إني قلتُ له كذا وكذا، فقال لي كَذَا وكَذا. قال: وجاء علي إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فكلَّمه في ذَلِكَ[٢]. هكذا وَرَد هذا السياقُ، وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالباً، وهذا فيه نَكارةٌ، والحديثُ الصحيحُ خلافُ هذا السياقِ.

[٥٩٥١] كما رَوَاه النسائيُّ وابنُ ماجه من حديث خالد بن سَلَمة الفأفاء، عن عبد الله بن يسار البَهِيّ، عن عُروَةَ قال: قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ : ما علمتُ حتى دخلَت عَلَيّ زينبُ بغير إذنٍ وهي غَضبى، ثم قالت لرسول الله ـ ﷺ ـ: حَسْبُكَ إذا قَلَبت لك ابنة أبي بكر ذُرَيْعَتَيها، ثم أقبلت عَلَيَّ فأعرضت عنها، حتى قال النبي ـ ﷺ ـ: «دُونَك فانتصِري». فأقبلت عليها حتى رأيتُها وقد يَبِسَ ريقُها في فمها، ما تَرُدّ عليّ شيئاً. فرأيت النبي ـ ﷺ ـ يَتهلَّلُ وجهُه[٣]. وهذا لفظ النسائي.

[٥٩٥٢] وقال البزَّارُ: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حَمزة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن دعا عَلَى من ظَلَمه فقد انتصر»[٤]. ورواه الترمذيُّ من حديث أبي الأحوصِ، عن أبي حَمزَة ـ واسمه مَيمُونٌ ـ ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديثه»، وقد تُكلِّم فيه من قِبَلِ حُفْظِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾، أي: إنما الحرجُ والعنتُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: يبدؤون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح:

[٥٩٥٣] «المستبَّان ما قالا، فعَلى البادِىء ما لم يَعتدِ المظلومُ»[٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: شديد موجع. قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا الحسنُ بن موسى، حدثنا سَعِيدُ بن زيد ـ أخو حَمَّاد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحَّام، حدثنا محمدُ بن واسع قال: قَدِمتُ مكة فإذا

---

(١) أي تتعرض لها بالشتم، وتصفها بما ليس فيها دون روية ولا تثبت.

(٢) أخرجه الطبري ٣٠٧٢٩، وفيه علي بن زيد، ضعيف الحديث روى مناكير كثيرة، وما بعده أصح منه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٨ في «الأدب المفرد» والنسائي في «التفسير» ٤٩٦ وابن ماجه ١٩٨١ وأحمد ٦/ ٩٧ وإسناده حسن على شرط مسلم لكن في عبد الله كلام، وأصله عند مسلم ٢٤٤٢.

(٤) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٥٥٢ وابن عدي ٦/ ٤١٢. وإسناده ضعيف، فيه ميمون القصاب أبو حمزة. قال أحمد: متروك الحديث. وضعفه النسائي. ولينه البخاري، وقال النسائي: ليس ثقة. والحديث ضعفه الترمذي بقوله: غريب. وميمون تكلم فيه.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٢٣ وأبو داود ٤٨٩٤ والترمذي ١٩٨١ وأحمد ٢/ ٢٣٥ وابن حبان ٥٧٢٨.

على الخندق مَنظَرة فأُخِذْتُ فانطُلِق بي إلى مَرْوان بن المُهلّب، وهو أمير على البصرة، فقال: ما حاجتكَ يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عَدِيٍّ. قال: ومَن أخو بني عدي؟ قال: العَلاَء بن زياد، استعمَل صديقاً له مرّةً على عمل، فكتب إليه: أما بعدُ فإنَّ استطعت ألاَّ تبيتَ إلا وظهرُك خَفِيفٌ، وبطنُك خَمِيصٌ، وكَفُّك نَقيةٌ من دماء المسلمين وأموالِهم، فإنك إذا فعلتَ ذلك لم يكن عليكَ سبيلٌ، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ قال مَرْوانُ: صَدَق واللهِ وَنَصح ثم قال: ما حاجتُك يا أبا عبدِ الله؟ قلت: حاجَتِي أن تُلحِقَني بأهلي. قال: نعم. رواه ابن حاتم. ثم إنه تعالى لما ذَمَّ الظلم وأهله وشَرَع القِصاصَ، قال نادباً إلى العفوِ والصَّفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صَبَر على الأذى وسَتَر السيِّئة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال سعيد بن جُبَير: يعني لمن حَقِّ الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأمورِ المشكورة والأفعال الحَميدة التي عليها ثواب جزيل وَثَناءٌ جميلٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عِمْرانُ بن مُوسَى الطَّرسُوسيُّ، حدثنا عبدُ الصَّمد بن يزيدَ ـ خادم الفُضَيل بن عِياضٍ ـ قال: سَمِعت الفُضيل بن عياضٍ يقول: إذا أتاك رجلٌ يشكُو إليكَ رجلاً فقل: يا أخي، اعفُ عنه، فإن العفو أقربُ للتقوى، فإن قال: لا يحتمِلُ قلبي العفوَ، ولكن أنتصرُ كما أمرني الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. فقال له: إن كنتَ تُحسِنُ أن تنتصِر وإلاَّ فارجع إلى باب العفو، فإنه بابٌ واسعٌ، فإنه مَن عفا وأصلَح فأجره على الله، وصاحبُ العفوِ ينام على فِراشِهِ باللَّيلِ، وصاحبُ الانتصارِ يُقلِّبُ الأمور.

[٥٩٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعني ابنَ سعيدٍ القَطَّانَ ـ عن ابن عَجْلانَ، حدثنا سَعِيدُ بن أبي سَعِيدٍ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ: رَجُلاً شَتَم أبا بكر والنبيُّ ـ ﷺ ـ جالسٌ فَجعل النبيُّ ـ ﷺ ـ يَعْجَب ويتبسم، فلما أكثر رَدَّ عليه بعضَ قولِهِ، فَغَضِب النبي ـ ﷺ ـ وقام، فَلَحِقه أبو بكر فقال: يا رسولَ الله، إنه كانَ يشتُمني وأنت جالسٌ، فلما رَدَدتُ عليه بعضَ قوله غَضِبتَ وقُمْتَ! قال: «إنه كان معك مَلَك يَرُدُّ عنك، فلما رَدَدت عليه بعضَ قولِه حَضر الشيطانُ، فلم أكن لأقعُدَ مع الشيطانِ». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاثٌ كُلُّهنَّ حَقٌ، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيُغضي عنها لله إلا أعَزَّ الله بها نَصْرَهُ، وما فَتح رجلٌ باب عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بها صلةً إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألةٍ يريد بها كثرةً إلا زادَه الله بها قِلَّةً»(١). وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حَمّادٍ، عن سُفيانَ بن عُيَينة. قال: وَرواه صفوانُ بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عجلان. ورواه من طريق الليثِ، عَن سعيد المَقبُري، عَن بَشير بن المُحرَّر، عن سعيد بن المسيَّب مرسلاً. وهذا الحديث في غاية الحُسنِ في المعنى، وهو مُناسِبٌ للصدِّيق رضي الله عنه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نفسِه الكريمةِ: إنه ما شاءَ كانَ ولا رَادَّ له، وما لم يشأ لم يكُن فلا مُوجِدَ له، وأنّه من هَدَاه فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلِ فلا هاديَ له، كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ثم

(١) حسن أخرجه أحمد ٢/ ٤٣٦ وإسناده حسن لأجل محمد بن عجلان.

قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾، أي: يومَ القيامةِ يَتمنَّون الرجعةَ إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨]. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، أي: على النارِ ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفُوا من عِصيانِ الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾، قال مجاهد: يعني ذَليلٍ. أي ينظرون إليها مُسارَقَةً خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقعٌ بهم لا مَحالَةَ، وما هو أعظم مما في نُفوسِهم، أجارنا الله من ذلك. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، أي: يقولون يومَ القيامةِ: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: الخَسارَ الأكبرِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: ذَهَب بهم إلى النار، فَعَدِمُوا لَذَّتهم في دارِ الأبدِ، وَخَسِرُوا أنفسهم، وفُرِّق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقَراباتهم، فَخَسِرُوهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: دائم سَرْمَدِيّ أَبَدِيّ، لا خُروجَ لهم منها ولا محيدَ لهم عنها. وقولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: يُنقِذُونهم مما هُم فيه من العذابِ والنَّكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾، أي: ليس له خلاص.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكر تعالى ما يكونُ في يوم القيامة من الأهوالِ والأمورِ العظام الهائلة حَذَّر منه وأمر بالاستعدادِ له، فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: إذا أمر بكونه فإنه كَلَمحِ البَصَرِ يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقولُهُ عز وجل: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾، أي: ليس لكم حِصْنٌ تَتحصَّنون فيه، ولا مكانٌ يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بَصَرِه ـ تباركَ وتعالى ـ بل هو مُحيطٌ بكم بعِلْمِهِ وبَصَرِه وقُدرَتِه، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢]. وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾، يعني المشركين. ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: لستَ عليهم بِمُصيطِرٍ، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، أي: إنما كلفناك أن تُبلِّغهم رسالةَ الله إليهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾، أي: إذا أصابَه رَخاءٌ ونعمَةٌ فَرِح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني الناسَ ﴿سَيِّئَةٌ﴾، أي: جَدْبٌ ونقمةٌ وبلاءٌ وشدةٌ، ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، أي: يجحد ما تقدَّم من النعم ولا يعرف إلا الساعةَ الراهَنة، فإن أصابته نعمةٌ أَشِر وبَطِر، وإن أصابته محنةٌ يَئِس وقَنِطَ، كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ للنِّساء:

[٥٩٥٥] «يا معشرَ النِّساءِ، تَصَدَّقن فإني رأيتكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ». فقالت امرأة: ولم يا رسُولِ الله؟ قال: «لأنكن تُكثِرْنَ الشّكاية، وتَكفُرن العَشِير، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهر ثم تركتَ يوماً قالت: ما رأيتُ منك خيراً قطُّ»(١). وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمَه رُشدَه، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، فالمؤمنُ كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ:

---

(١) تقدم في سورة البقرة آية ٢٨٢، وهو متفق عليه.

[٥٩٥٦] «إن أصابته سَرَّاء شَكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ»(١).

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يُخبرُ تعالى أنه خالقُ السمواتِ والأرضِ ومالِكُهما والمتصرِّف فيهما، وأنه ما شاء كانَ، وما لم يَشأ لم يَكن، وأنه يُعطِي مَن يشاء، ويَمنعُ مَن يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا مُعطِي لما منَع، وأنه يخلُق ما يشاء، و ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، أي: يرزقه البناتِ فقط ـ قال البَغَويُّ: ومنهم لوط ـ عليه السلام ـ ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، أي: يَرزُقُه البنين فقط. قال البَغَويُّ: كإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾، أي: ويُعطِي مَن يشاءُ مِن الناس الزوجَين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا، قال البَغَويُّ كمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، أي: لا يولد له. قال البَغَويُّ: كيحيى وعيسى عليهما السلام. فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يُعطِيه البنات، ومنهم من يُعطِيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنَعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾، أي: بمن يَستحِقُّ كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾، أي: على ما يشاءُ من تفاوت الناس في ذلك. وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: دلالةٌ لهم على قُدرته ـ تعالى وتقدّس ـ حيث خَلَق الخلق على أربعةِ أقسام، فآدمُ ـ عليه السلام ـ مخلوقٌ من تُرابٍ، لا من ذَكرٍ ولا أُنثى، وحواءُ ـ عليها السلام ـ من ذَكرٍ بل أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى من ذَكرٍ وأنثى، وعيسى ـ عليه السلام ـ من أنثى بلا ذكر، فتَمَّت الدلالة بخلق عيسى ابنِ مريَمَ عليهما السلام. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقامُ في الآباءِ، والمقامُ الأوّل في الأبناءِ، وكل منهما أربعةُ أقسامٍ، فسبحانَ العليمِ القديرِ.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

هذه مقاماتُ الوحي بالنسبة إلى جنابِ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، وهو أنه تبارك وتعالى تارةً يقذِفُ في رُوعِ النبيِّ [ﷺ] شيئاً لا يُتَمارى فيه أنه من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

[٥٩٥٧] كما جاء في صحيح ابن حبَّان، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن رُوح القدس نَفَث في رُوعِي أن نفساً لن تَموت حتى تستكمِلَ رِزقَها وأجَلَها، فاتقوا الله وَأجمِلوا في الطَّلَبِ»(٢). وقولُهُ تعالىٰ: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، كما كُلِّم موسى ـ عليه السلام ـ، فإنه سأل الرؤيةَ بعد التكليم، فَحُجِب عنها.

---

(١) أخرجه البخاري وغيره وتقدم.

(٢) صحيح، تقدم في سورة البقرة آية: ٨٧.

[٥٩٥٨]وفي الصحيح أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لجابر بن عبد الله: «ما كَلَّم الله أحداً إلا من وراء حِجَابٍ، وإنه كلم أباك كِفاحاً»[1]. . . كذا جاء الحديث، وكان قد قُتِل يومَ أُحُدٍ، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقولُهُ عز وجل: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾، كما ينزلُ جبريلُ وغيره من الملائكة على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو عليٌّ عليمٌ خبيرٌ حكيمٌ.

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، يعني القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، أي: على التفصيلِ الذي شَرَع لك في القرآن، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾، أي: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخُلُق القويمُ، ثم فَسَّره بقوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، أي: شَرعِهِ الذي أَمَر به الله، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: رَبُّهما ومالكُهما والمتصرِّفُ فيهما، الحاكمُ الذي لا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي ترجعُ الأمورُ، فَيُفصِّلُها وَيحكُم فيها. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً.

## آخر تفسير سورة الشورى، والحمد لله رب العالمين

(١) تقدم في آل عمران. وكفاحاً: أي مواجهة.

ترتيبها ٤٣ — سُورَةُ الزُّخْرُفِ — آياتها ٨٩

## وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾، أي: البيِّن الواضح الجليّ المعاني والألفاظِ، لأنه نزل بلغةِ العَرب التي هي أفصحُ اللغاتِ للتخاطُب بينَ الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلناهُ ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، أي: بلُغة العربِ فَصيحاً واضحاً، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفهمُونه وتَتدبَّرُونه، كما قال عز وجل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾، بَيَّن شرفه في الملأ الأعلى، لِيُشرِّفَه ويُعَظِّمه ويُطِيعَه أهلُ الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: اللوحِ المحفوظِ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾، أي: عندنا، قاله قتادةُ وغيره، ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: ذُو مَكانة عظيمةٍ وشَرَف وفضلٍ، قاله قتادةُ، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: مُحْكَمٌ بَريءٌ من اللبس والزَّيغ. وهذا كلُّه تنبيهٌ على شَرفه وفَضلِهِ، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦]، ولهذا استنبط العلماءُ ـ رَحِمهم الله ـ من هاتين الآيتين: أن المُحدِث لا يَمسُّ المصحفَ، كما وَرَد به الحديثُ[1] إن صحَّ، لأن الملائكةَ يُعظِّمون المصاحِفَ المشتمِلةَ على القرآن في الملأ الأعلى، فأهلُ الأرضِ بذلك أولى وأحرى، لأنه نَزل عليهم، وخطابُه متوجِّهٌ إليهم، فهم أحقُّ أن يُقابِلُوه بالإكرامِ والتعظيم، والانقيادِ له بالقبولِ والتسليم، لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

وقولُهُ عز وجل: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾، اختلف المفسِّرون في معناها، فقيل: معناها أتحسَبُون أن نصفح عنكم فلا نُعذِّبكم ولم تفعَلُوا ما أُمِرتُم به؟ قاله ابنُ عباس، ومجاهد، وأبو صالحٍ، والسدِّيُّ، واختارَه ابنُ جريرٍ. وقال قتادةُ في قولِه تعالىٰ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ

(١) تقدم الكلام على هذا الحديث.

صَفۡحًا﴾، والله لو أن هذا القُرآنَ رُفِعَ حين رَدّته أوائلُ هذه الأمةِ لَهَلكُوا، ولكن الله تعالىٰ عاد بعائِدته ورحمتِه، وكرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيفُ المعنى جداً، وحاصِلُه أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لُطفه ورَحمته بخلقه لا يتركُ دُعاءَهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مُسرِفين مُعرِضين عنه، بل أمرَ به لِيهتَدِي به من قَدَّر هدايته، وتقومَ الحجة على من كَتَب شقاوَته.

ثم قال تعالى مُسلِّياً لنبيِّه ﷺ في تكذيب مَن كَذَّبه من قومِه، وآمراً له بالصبر عليهم، ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦﴾، أي: في شِيَع الأوَّلين، ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧﴾، أي: يُكذِّبونه ويَسخرون به. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾، أي: فأهلكنا المُكذِّبين بالرسل، وقد كانوا أشدَّ بطشاً، من هؤلاء المكذِّبين لك يا محمد؟ كقوله عز وجل: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ﴾ [غافر: ٨٢]، والآيات في ذلك كثيرة جداً. وقولُهُ جل جلاله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، قال مجاهد: سُنَّتُهم. وقال قتادة: عُقوبَتُهم. وقال غيرهما: عبرتُهم. أي: جعلناهم عبرةً لمن بعدهم من المكذِّبين أن يُصِيبَهم ما أصابهم، كقوله تعالىٰ في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ۝٥٦﴾، وكقولِه جلت عظمته: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال عز وجل: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

يقولُ تعالى: ولئن سألتَ ـ يا محمَّدُ ـ هؤلاء المشركين بالله العابدينَ معه غيرَه: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أي: ليعترِفُنَّ بأنَّ الخالقَ لذلكَ هُو الله وحدَه لا شَريك له، وهم مع هذا يعبدُون معه غيرَه من الأصنام والأندادِ. ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾، أي: فِراشاً قراراً ثابتةً، تسِيرُون عليها وتقُومونَ وتنامُون وتتصرَّفون، مع أنها مخلوقةٌ على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبالِ لئلا تَميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾، أي: طُرقاً بين الجبال والأودية، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، أي: في سيركم من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وقُطرٍ إلى قُطرٍ، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾، أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم، وشربكم لأنفسكمَ ولأنعامكم. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾، أي: أرضاً مَيْتة، فلما جاءها الماء اهتزَّت ورَبَت وأنبتَتْ من كلِّ زَوجٍ بهيج. ثم نبَّه تعالىٰ بإحياءِ الأرض على إحياءِ الأجساد يومَ المعادِ بعد مَوْتها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾. ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾، أي: مما تُنبتُ الأرضُ من سائر الأصنافِ، من نباتٍ وزُرُوع وثمارٍ وأزاهيرَ، وغير ذلك، ومن الحيواناتِ على اختلافِ أجناسِها وأصنافِها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾، أي: السفُنِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾، أي: ذَلَّلها لكم وسَخَّرها ويَسَّرَها لأكلكم لحومَها، وشُربكم ألبانها ورُكوبكُم ظُهورَها، ولهذا قال جل وعلا: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، أي: لتستووا متمكنين مُرتَفقِين، ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، أي: على ظهورِ هذا الجنسِ، ﴿ثُمَّ

تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾، أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُقَاوِمين. ولولا تسخيرُ الله لنا هَذا ما قَدَرْنا عَلَيهِ. قال ابن عباس، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وابنُ زيدٍ: ﴿مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطِيقينَ. ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرُنا الأكبرُ. وهذا من باب التنبيه بِسَيرِ الدنيا على سَيرِ الآخرة، كما نبَّه بالزاد الدنيويِّ على الأُخرَويِّ في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

## ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ عند ركُوبِ الدابَّةِ:

[٥٩٥٩] حديثُ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: قال الإمام أحمدُ ـ حدثنا يزيدُ، حدثنا شَرِيكُ بن عبد الله، عن أبي إسحاقَ، عن عليِّ بن ربيعةَ قال: رأيت علياً ـ رضي الله عنه ـ أُتي بدابَّةٍ فلما وَضع رجله في الرِّكاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمدُ لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، ثم حَمد الله ثلاثاً، وكَبَّر ثلاثاً، ثم قال: سُبحانَك، لا إله إلا أنت، قد ظَلَمتُ نفسي فاغفر لي. ثم ضَحِك فقلت له: مِمَّ ضَحِكتَ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَعَل مثل ما فعلت. ثم ضَحِك. فقلت: مِمَّ ضَحِكت يا رسول الله؟ فقال: «يعجَبُ الربُّ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ مِن عَبدِه إذا قال: ربِّ، اغفِرْ لي. ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»[١]. وهكذا رواه أبو داودَ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، من حديث أبي الأحوصِ ـ زاد النسائي: ومنصورٌ ـ عن أبي إسحاقَ السَّبيعي، عن عليِّ بن ربيعةَ الأسدِيِّ الوالبي، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وقد قال عبدُ الرحمن بن مَهدِيٍّ، عن شعبةَ: قلتُ لأبي إسحاق السَّبيعي: ممن سَمِعتَ هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خَبّاب. فَلَقِيتُ يُونُسَ بنَ خَبّابٍ فقلت: ممن سَمِعتَه؟ فقال: من رَجُلٍ سَمِعَه من عليِّ بن ربيعةَ. ورواه بعضُهم عن يونسَ بن خَبّابٍ، عن شقيقِ بن عُقبَةَ الأسدِيِّ، عن عليِّ بن ربيعةَ الوالبيِّ، به.

[٥٩٦٠] حديثُ عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه: قال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الله بن عباس أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أردفه على دابَّتِه، فلما استوى عليها كَبَّر رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً، وحَمد ثلاثاً، وهلَّلَ الله واحدةً. ثم استلقى عليه فضَحِك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرىء مسلم يركَبُ دابَّةً فيصنَع كما صنعتُ، إلا أقبل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عليه، فَضَحِك إليه كما ضَحِكتُ إليكَ»[٢]. تفرد به أحمد.

[٥٩٦١] حديث عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنه: قال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو كامل، حدثنا حَمّاد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن عليِّ بن عبد الله البارقي، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا رَكِب راحلته كَبَّر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داوود ٢٦٠٢ والترمذي ٣٤٤٦ والنسائي في «اليوم والليلة» ٥٠٢ وأحمد ١/ ٩٧ وابن حبان ٢٦٩٨، ورجاله رجال البخاري ومسلم، وقد صرح أبو إسحاق بالإخبار عند البغوي، لكن ساق المصنف ما يدل علىٰ أنه لم يسمعه منه، وقد توبع عند الحاكم ٢/ ٩٨ وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٣٠ بإسناد ضعيف لضعف أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، ثم هو منقطع بين علي وابن عباس، لكن يشهد لأصله ما قبله.

إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم يقولُ: «اللهُمَّ، إني أسألُكَ في سَفَري هذا البرّ والتقوى، ومِنَ العمل ما تَرضَى. اللهُمَّ هَوِّن علينا السفَر واطْوِ لنا البعيدَ. اللهُمَّ أنتَ الصاحبُ في السفر، والخليفةُ في الأهل. اللهُمَّ اصحَبنا في سَفَرِنا، وَاخلُفنا في أهلنا». وكان إذا رَجَع إلى أهلِه قال: «آيبونَ تائِبُونَ إن شاء الله، عابِدُونَ، لربنا حامِدُون»(١). وهكذا رواه مسلمٌ وأبو داود والنسائيُّ، من حديث ابن جُرَيج ـ والترمذيُّ من حَدِيثِ حَمَّادِ بن سَلَمة ـ كلاهُما عن أبي الزبَيرِ، به.

[٥٩٦٢] حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا محمد بن إسحاقَ، عن محمدِ بن إبراهيم، عن عَمرو بن الحكم بن ثَوبان، عن أبي لاسِ الخُزَاعِيِّ قال: حَمَلنا رسول الله ـ ﷺ ـ على إبلٍ من إبلِ الصدقةِ إلى الحجِّ، فقلنا: يا رسولَ الله، ما نَرى أن تحملنا هذه! فقال ﷺ: «ما من بعير إلا في ذرْوَتِه شيطانٌ، فاذكُروا اسم الله عليها إذا ركبتُموها كما آمركم، ثم امتَهِنُوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»(٢). أبو لاس اسمُه: محمد بن الأسود بن خَلَفٍ.

[٥٩٦٣] حديث آخر في معناه، قال أحمد: حدثنا عَتّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ يعني ابن المبارك ـ أخبرنا أسامةُ بنُ زيدٍ، أخبرني محمد بن حَمْزَةَ: أنه سَمِعَ أباه يقولُ: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «على ظهرِ كُلِّ بعيرٍ شيطانٌ، فإذا رَكِبتُموها فَسمُّوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم لا تُقَصِّرُوا عن حاجاتكم»(٣).

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن المشركين فيما افتَروه وكَذَّبوه في جَعلِهم بعضَ الأنعام لطواغيتهم وبعضَها لله تعالىٰ، كما ذكر الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام، في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾. وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢]. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾. ثم قال جل وعلا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾، وهذا إنكارٌ عليهم غايةَ الإنكارِ. ثم ذكر تمامَ

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٣٤٢ وأبو داود ٢٥٩٩ والنسائي في «اليوم والليلة» ٥٤٨ وابن حبان ٢٦٩٦.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٤/ ٢٢١ والطبراني ٢٢/ ٣٣٤، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ١٣١: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث في إحداها اهـ. وللحديث شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٤ والدارمي ٢/ ٢٨٥ وابن حبان ١٧٠٣ و٢٦٩٤ وإسناده حسن. وله شاهد من حديث عقبة بن عامر، أخرجه الطبراني ١٧/ ٨٧٨١ وقال في «المجمع» ١/ ١٣١: إسناده حسن.

الإنكار فقال جلت عظمته: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾، أي: إذا بُشّر أحدُ هؤلاء مما جعَلُوه لله من البناتِ يأنفُ من ذلك غاية الأنفةِ، وتعلوه كآبةٌ من سُوءِ ما بُشّر به ويَتوارى من القوم من خَجَله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتَنسُبونه إلى الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ؟! ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾، أي: المرأةُ ناقصة يُكَمّل نقصُها بِلُبس الحُليّ منذ تكون طفلةً، وإذا خاصَمَت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أَوَمن يكون هكذا يُنسَبُ إلى جنابِ الله العظيم؟! الأنثى ناقصةُ الظاهرِ والباطِن في الصورة والمعنى، فيُكمَّل نقصُ ظاهرِها وصُورتِها بِلُبسِ الحُليِّ وما في معناه، لِيَجبُرَ ما فيها من نقصٍ، كما قال بعضُ شعراءِ العَرَب:

وَمَا الحَلْي إلاّ زينَةٌ مِنْ نَقيصةٍ يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرا
وَأَمَّا إذَا كَانَ الجَمَالُ مُوَفَّراً كَحُسْنِكِ لَمْ يَحْتَجْ إلىَ أنْ يُزَوَّرا

وأما نقصُ معناها فإنها ضعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصارِ عند الانتصارِ، لا عبارة لها ولا هِمَّةَ، كما قال بعض العرب وقد بُشّر ببنت: ما هي بِنِعْمَ الوَلد: نَصرُها بالبكاء، وبرها سَرِقة. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾، أي: شاهَدُوه وقد خلَقَهم الله إناثاً؟! ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾، أي: بذلك، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أكِيدٌ. ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، أي: لو أراد الله لَحَال بيننا وبين عبادةِ هذه الأصنام، التي هي على صُوَرِ الملائكة التي هي بناتُ الله، فإنه عالمٌ بذلك، وهو يُقرّرنا عليه، فَجَمَعُوا بين أنواعٍ كثيرةٍ من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولداً، وقد تعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك عُلُوّاً كَبِيراً.

الثاني: دعواهُم أنه اصطفى البناتِ على البنين، فجَعَلُوا الملائكةَ الذين هُم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتُهم لهم مع ذلك كلّه، بلا دليلٍ ولا برهانٍ، ولا إذنٍ من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، بل بِمُجرَّد الآراءِ والأهواءِ، والتقليدِ للأسلافِ والكُبَراءِ والآباءِ، والخَبْطِ في الجاهلية الجَهْلاءِ.

الرابع: احتجاجُهم بتقريرهم على ذلك قَدَراً، وقد جَهِلوا في هذا الاحتجاج جَهْلاً كَبِيراً، فإنّه تعالى قد أنكَر ذلك عليهم أشدَّ الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتبَ يأمرُ بعبادته وحدَه لا شريكَ له، وينهَى عن عبادةِ ما سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]. وقال عز وجل: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾. وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حُجّتهم هذه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بصحّةِ ما قالوه واحتجُوا به، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي: يكذبون ويتقوّلون. وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، يعني: ما يعلَمُون قُدرَةَ الله تبارك وتعالى على ذلك.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غيرَ الله بلا برهانٍ ولا دليلٍ ولا حُجَّةٍ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، أي: فيما هُم فيه. أي: ليس الأمرُ كذلك، كقوله عز وجل: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٣٥]، أي: لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، أي: ليس لهم مُستَنَدٌ فيما هم فيه من الشِّركِ سوى تقليدِ الآباءِ والأجدادِ، بأنهم كانوا على أُمَّة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قولِهِ تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقولُهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾، أي: وَرَاءَهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دَعوى منهم بلا دليل. ثم بَيَّن تعالى أن مقالة هؤلاءِ قد سَبَقهم إليها أشباهُهم ونُظَراؤهم من الأمم السالفة المُكَذِّبة للرسل، تَشابَهت قلوبُهم، فقالوا مِثلَ مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾، أي: ولو عَلِمُوا وتَيَقَّنوا صِحَّة ما جئتهم به لما انقادُوا لذلك لسوء قصدهم ومُكابرتهم للحقِّ وأهلِه. قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أي: من الأُمَم المكذِّبة بأنواع من العذاب، كما فَصَّله تبارك وتعالى في قِصَصِهم، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؟ أي: كيف بادُوا وهَلَكوا، وكيف نَجَّى الله المؤمنين؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عَبدِه ورسُولِه وخَليلِه إمامِ الحُنَفاء، ووالدِ مَن بُعِث بعدَه من الأنبياء، الذي تَنتسِبُ إليه قُريشٌ في نَسَبِها ومذهبِها: أنه تبرَّأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾، أي: هذه الكلمة، وهي عبادةُ الله وحده لا شريكَ له، وخَلْعُ ما سِواه من الأنداد، وهي: لا إله إلا الله، أي: جعلها دائمةً في ذُرِّيته يقتَدي به فيها مَن هداه الله تعالى من ذُرِّية إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: إليها. وقال عِكرمةُ، ومجاهدٌ، والضحاكُ، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾، يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها، ورُوي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني المشركين، ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾، أي: فتطاول عليهم العمر في ضَلالِهم، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بَيِّن الرِّسالَةِ والنِّذارة. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟

﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾، أي: كابَرُوه وعانَدُوه ودفعُوه بالصدورِ والراح كُفراً وحَسَداً وبُغياً، ﴿وَقَالُواْ﴾ كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدَّس: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، أي: هَلَّا كان إنزالُ هذا القرآنِ على رَجُلٍ عظيم كبيرٍ في أعيُنهم من القريتَين؟ يعنونَ مكَّة والطائف. قاله ابنُ عباس، وعِكرمةُ، ومحمدُ بن كَعبٍ القُرَظي، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وابنُ زيدٍ. وقد ذكر غيرُ واحد منهم: أنهم أرادوا بذلك الوليدَ بن المغيرةِ، وعُروةَ بنَ مسعودٍ الثَّقفي. وقال مالكٌ، عن زيد بن أسلَمَ، والضحَّاك، والسدِّيُّ: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعودَ بن عَمرو الثَّقفي. وعن مجاهد: يعنون عُميرَ بن عَمرو بن مَسعُودٍ الثقفي. وعنه أيضاً: أنهم يعنون عُتبَةَ بن ربيعة. وعن ابن عباس: جَبَّار من جَبَابِرة قريش. وعنه: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحَبِيب بن عَمرو بن عُمَير الثقفي. وعن مجاهد: يَعنُون عتبةَ بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدِّيُّ: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عَبْدِ عمرو بن عُمَير الثقفي. والظاهر أن مُرادهم رَجُلٌ كَبيرٌ من أيّ البلدتين كان. قال الله تعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، أي: ليس الأمر مَردوداً إليهم، بل إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِه، فإنه لا يُنزِلها إلا على أزكَى الخَلْقِ قلباً ونَفساً، وأشرَفِهم بَيتاً، وأطهَرِهم أصلاً.

ثم قال تعالى مُبَيِّناً أنه قد فاوت بين خَلْقِهِ فيما أعطاهُم من الأموال والأرزاقِ والعُقول الفُهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطِنَةِ، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾. وقولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾، قيل: معناه لِيُسَخِّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، لاحتياجِ هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدِّيُّ وغيره. وقال قتادةُ، والضحَّاك: لِيملِكَ بعضُهم بعضاً. وهذا راجعٌ إلى الأول. ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: رحمةُ الله بخلقِه خيرٌ لهم مما بأيديهم من الأموالِ ومتاع الحياةِ الدنيا. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: لولا أن يعتقدَ كثيرٌ من الناس الجَهَلَة أن إعطاءنا المال دليلٌ على مَحَبَّتنا لِمَن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال. هذا معنى قول ابن عَبَّاس، والحسنِ، وقتادة، والسدِّيُّ، وغيرهم، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾، أي: سَلالِم ودَرَجاً من فِضَّةٍ، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدِّيُّ، وابن زيد، وغيرهم، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: يصعَدُون، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾، أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾، أي: جميعُ ذلك يكونُ فِضَّة، ﴿وَزُخْرُفًا ۚ﴾، أي: وَذَهباً، قاله ابن عباس، وقتادةُ، والسدِّي، وابنُ زيدٍ. ثم قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾، أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحَقِيرةِ عند الله تعالىٰ، أي: يُعَجِّل لهم بِحَسَناتهم التي يَعمَلُونها في الدنيا مآكِلَ ومشارِبَ، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنةٌ يجزيهم بها، كما وَرَد به الحديثُ الصحيح.

[٥٩٦٤] وقد ورد في حديثٍ آخَرَ: «لو أن الدنيا تَزِن عند الله جناح بَعُوضَةٍ ما سَقَى منها كافراً شَربةَ ماءٍ»[(١)]، أسنده البغويُّ من رواية زكريا بن مَنْظُور، عن أبي حازمٍ، عن سَهلِ بن سعدٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ، فذكره.

[٥٩٦٥] ورواه الطبراني من طريق زَمعةَ بنِ صالح، عن أبي حازم، عن سَهلِ بن سعدٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ: «لو عَدَلت الدنيا عند الله جناحَ بَعُوضَةٍ ما أعطى كافراً منها شيئاً»[(٢)]. ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: هي لهم خاصةٌ ولا يُشارِكُهم فيها غيرُهم.

---

(١) صحيح. تقدم تخريجه في البقرة ٢٦.

(٢) صحيح. أخرجه الطبراني ٦/ ٥٩٢١ وفيه زمعة بن صالح ضعيف، لكن توبع، وللحديث شواهد.

[٥٩٦٦] ولهذا لما قال عُمَر بن الخطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ حين صَعِدَ إليه في تلك المَشْرَبة لما آلى من نسائه، فرآه على رِمَال حَصِير قد أثر بجنبه، فابتدَرَتْ عيناه بالبكاء، وقال: يا رسولَ الله، هذا كسرى وقيصرُ فيما هُما فيه، وأنت صفوةُ الله من خلقه. وكان رسول الله ـ ﷺ ـ مُتكِئاً فجلس وقال: «أوَفي شك أنت يا ابنَ الخطابِ؟» ثم قال: «أولئك قوم عُجِّلت لهم طَيِّباتهم في حياتهم الدنيا». وفي رواية: «أما ترضَى أن تكونَ لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!»[١].

[٥٩٦٧] وفي الصحيحَين أيضاً وغيرهما أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تشرَبُوا في آنيةِ الذهبِ والفضةِ، ولا تأكلوا في صِحَافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[٢]. وإنما خَوَّلهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها.

[٥٩٦٨] كما روىٰ الترمذيُّ وابن ماجه، من طريق أبي حازم، عن سَهل بن سعدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو كانت الدنيا تَزنُ عند الله جَناحَ بَعُوضةٍ ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»[٣]، قال الترمذيُّ: «حسن صحيح».

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ (٤٤) وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾، أي: يَتَعامى ويَتَغافل ويُعرِضُ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والعَشَا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا عَشَا البصيرةِ، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله جل جلاله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله جل جلاله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾، أي: هذا الذي تَغافَل عن الهُدَى نُقَيِّضُ له من الشياطين من يُضِلُّه، ويَهديه إلى صراطِ الجَحيم. فإذا وافى الله يومَ القيامة يَتبرَّم بالشيطان الذي وُكِّل به، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾. وقرأ بعضُهم: «حتَّى إذا جاءانا»، يعني القرينَ والمقارَنُ.

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعمرٌ، عن سَعيد الجُرَيري قال: بَلَغَنا أن الكافرَ إذا بُعِث من قَبره يومَ القيامة سَفَعَ[٤] بيده شَيطانٌ فلم يُفارِقه، حتى يُصَيِّرهما الله تعالىٰ إلى النار، فذلك حينَ يقولُ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ

---

(١) تقدم في الأحزاب، أخرجه مسلم وغيره.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٢٦ ومسلم ٢٠٦٧ وابن حبان ٥٣٣٩.

(٣) صحيح، وتقدم.

(٤) سفع بيده: أخذها وقبض عليها بشدة.

ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾. والمرادُ بالمشرقين ههنا هو: ما بين المشرق والمغرب. وإنما استُعمِل هاهنا تغليباً، كما يقال: القمَران، والعُمَران، والأبوان، قاله ابن جرير وغيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾، أي: لا يُغني عنكم اجتماعُكم في النار واشتراكُكم في العذاب الأليم. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾، أي: ليس ذلك إليك، إنما عليكَ البلاغ، وليس عليكَ هُداهُم، ولكن الله يَهدِي مَن يشاء، ويُضلُّ مَن يشاء، وهو الحَكَم العَدْلُ في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾، أي: لا بدَّ أن ننتقِمَ منهم ونعاقِبَهم، ولو ذهبتَ أنتَ، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، أي: نحن قادِرُون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله ـ ﷺ ـ حتى أقرّ عينه من أعدائه، وحَكَّمه في نواصِيهم، ومَلَّكه ما تضمَّنته صَياصِيهم[^1]. هذا معنى قول السدِّيِّ، واختاره ابنُ جَرِيرٍ.

[٥٩٦٩] وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابنُ ثَور، عن معمَرٍ قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ فقال: ذَهَب النبيُّ ـ ﷺ ـ وبَقِيت النقمة، ولم يُرِ الله نبيَّه ـ ﷺ ـ في أُمَّتِهِ شيئاً يَكرَهُه حتى مضى، ولم يكُن نبيٌّ قطُّ إلا وقد رَأى العقوبَةَ في أُمَّتِه، إلا نَبيَّكم ـ ﷺ ـ. قال: وذُكِرَ لنا أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أُرِيَ ما يُصيبُ أُمَّته مِن بَعدِه، فما رُئِي ضاحِكاً مُنبسِطاً حتى قَبَضه الله ـ عَزَّ وجَلَّ[^2] ـ. وذَكَر من رواية سَعيدِ بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ نحوه. ثم رَوَى ابنُ جَريرٍ عن الحسن نحوَ ذلك أيضاً.

[٥٩٧٠] وفي الحديث: «النجومُ أَمَنَةٌ للسماءِ، فإذا ذَهَبت النجومُ أَتَى السماءَ ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعَدُون»[^3]. ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾، أي: خُذ بالقرآن المنزَّل على قَلْبِكَ، فإنه هُو الحقُّ، وما يَهدي إليه هو الحقُّ المُفضِي إلى صراطِ الله المستقيمِ، الموصِّلِ إلى جناتِ النَّعِيم، والخير الدائمِ المقيمِ.

ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾، قيل: معناهُ لَشَرفٌ لك ولقومِك، قاله ابنُ عباسٍ، ومُجاهِدٌ، وقتادةُ، والسديُّ، وابن زيد، ومعناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزلَ بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوَم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. واختارَه ابنُ جَرِيرٍ، ولم يحكِ سواهُ.

[٥٩٧١] وأورد البَغَويُّ هاهنا حديثَ الزهرِي، عن محمد بن جُبير بن مُطعم، عن معاوية قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن هذا الأمر في قُريشٍ لا يُنازِعُهم فيه أحد إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين»[^4]. رواه البخاري. وقيل: معناه ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾، أي: لتذكيرٌ لك ولقومك. وتخصيصُهم بالذكر لا ينفي مَن سِوَاهم. كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء:

[^1]: (١) الصياصي: الحصون.
[^2]: (٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٣٠٨٧٢ و ٣٠٨٧٣ عن قتادة، وهذا مرسل. ومع إرساله، ذكره بصيغة التمريض. وورد عن الحسن ٣٠٨٧١ من قوله لم يعزه لأحد.
[^3]: (٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٣١ وأحمد ٤/٣٩٨ ـ ٣٩٩ وأبو يعلى ٧٢٧٦ من حديث أبي بردة.
[^4]: (٤) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٠٠ وأحمد ٤/٩٤ والبغوي في «معالم التنزيل» ١٨٨٨ ـ بترقيمي.

١٠]، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾، أي: عن هذا القرآن وكيف كُنتم في العمل به والاستجابةِ له.

وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾؟ أي: جَميعُ الرسُلِ دَعَوا إلى ما دَعوتَ الناسَ إليهِ مِن عبادةِ الله وحدَه لا شَريكَ له، ونَهَوا عن عبادةِ الأصنامِ والأندادِ. كقولِهِ جلت عظمته: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، قال مجاهد: في قراءة عبدِ الله بن مسعُودٍ: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رُسُلنا». وهكذا حكاه قتادة، والضحَّاك، والسدِّيُّ، عن ابن مسعودٍ. وهذا كأنه تفسيرٌ لا تلاوةٌ، والله أعلم. وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بن أسلَمَ: واسألهم ليلةَ الإسراءِ فإنَّ الأنبياءَ جُمعُوا له. واختارَ ابنُ جريرٍ الأوَّلَ؛ والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن عبدِه ورسُولِه موسى ـ عليه السلام ـ أنَّه ابتعثه إلى فِرعَون ومَلَئِه من الأمراء والوُزَراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبطِ وبني إسرائيل، يدعُوهُم إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وينهاهُم عن عبادةِ ما سواه، وأنه بعثَ معه آياتٍ عِظاماً، كَيدِه وعَصاه، وما أرسلَ معه من الطوفان والجَراد والقُمَّل والضفادع والدَّمِ، ومِنْ نَقْصِ الزرُوع والأنفُسِ والثمراتِ، ومع هذا كُلِّه استكبَرُوا عن اتباعها والانقيادِ لها، وكَذَّبوها وسَخِروا منها، وضَحِكوا ممن جاءهم بها. وما تأتيهم من آيةٍ إلا هي أكبرُ مِن أُختِها، ومع هذا ما رَجَعُوا عن غيهم وَضَلالهم، وجَهلهم وخبالهم. وكُلَّما جاءتهم آيةٌ من هذه الآياتِ يَضرَعُون إلى موسى ـ عليه السلام ـ ويَتَلطَّفون له في العبارة بقولِهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾، أي: العالم، قاله ابنُ جرير. وكان علماءُ زمانهم هم السحرةُ. ولم يكن السحرُ عندهم في زمانهم مذموماً، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم، لأن الحالَ حالُ ضرورةٍ منهم إليه لا تُناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زَعمِهم ففي كلِّ مرة يَعِدُون موسى عليه السلام إنْ كَشَفَ عنهم هذا أن يؤمِنُوا ويُرسِلُوا معه بني إسرائيل. وفي كلِّ مَرَّةٍ ينكثُون ما عاهَدُوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرْعَونَ وتمرُّدِهِ وعتُوِّه وكُفرِهِ وعِنادِهِ: أنه جَمعَ قومَه، فنادى فيهم مُتبجحاً مُفتخراً

بمُلكِ مصرَ وتَصرُّفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾، قال قتادةُ: قد كانت لهم جِنَانٌ وأنهارُ ماءٍ، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العَظَمة والمُلك، يعني: وموسى وأتباعُه فُقَراءُ ضُعَفاءُ. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥]. وقولُهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، قال السدِّيُّ: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مَهين. وهكذا قال بعض نُحاة البصرة: إن (أم) ههنا بمعنى (بل). ويُؤيد هذا ما حكاه الفَرَّاءُ عن بعضِ القُرَّاء أنه قرأها: «أَمَا أنا خير من هذا الذي هو مَهِينٌ»، قال ابن جَرير: ولو صَحَّت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضِحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصارِ، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، على الاستفهام. قلتُ: وعلى كلِّ تقدير فإنما يعني فِرعون ـ عليه اللعنةُ ـ بذلك أنه خير من موسى ـ عليه السلام ـ وقد كَذَب في قوله هذا كَذباً بَيِّناً واضِحاً، فعليه لعائن الله المتتابِعةُ إلى يوم القيامةِ. ويعني بقوله ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حَقِير. وقال قتادةُ، والسدِّيُّ: يعني ضعيف. وقال ابنُ جَريرٍ: يعني لا مُلْك له ولا سُلطانَ ولا مَالَ. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، يعني: لا يكاد يُفصِحُ عن كلامِهِ، فهو عَيِيٌّ حَصِرٌ. قال السدِّيُّ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، أي: لا يَكَادُ يُفهِمُ. وقال قتادة: والسدِّيُّ، وابنُ جَرير: يعني عَيِيَّ اللسانِ. وقال سفيان: يعني في لسانه شيءٌ من الجَمْرَةِ حين وَضَعها في فِيه وهو صَغِيرٌ. وهذا الذي قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كَذِبٌ واختلاقٌ، وإنما حَمله على هذا الكفرُ والعنادُ، وهو ينظرُ إلى مُوسى ـ عليه السلام ـ بعين كافرةٍ شَقِيَّةٍ، وقد كان موسى ـ عليه السلام ـ من الجَلالَة والعَظَمة والبهَاء في صورة يبهَر أبصارَ ذَوي الألباب. وقولُهُ: ﴿مَهِينٌ﴾ كذبٌ، بل هو المهينُ الحَقِير خِلْقَةً وخُلُقاً ودِيناً. ومُوسَى هو الشريفُ الرئيسُ الصادقُ البارُّ الراشدُ. وقولُهُ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراءٌ أيضاً، فإنه وإن كان قد أصَاب لسانَه في حال صِغَرِه شيءٌ من جهة تلك الجَمْرَةِ، فقد سأل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن يُحلَّ عقدةً من لسانه لِيفقَهُوا قولَه، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيءٌ لم يسأل إزالَته، كما قاله الحسنُ البصريُّ، وإنما سَأل زوالَ ما يحصل معه الإبلاغُ والإفهامُ، فالأشياءُ الخِلْقية التي ليست من فعل العبد لا يُعابُ بها ولا يُذَمُّ عليها، وفِرعَونُ وإن كان يفهَمُ وله عقلٌ فهو يَدري هذا، وإنما أراد الترويجَ على رَعيَّته، فإنهم كانوا جهلَةً أغبياءَ، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾، أي: وهي ما يُجعَل في الأيدي من الحُليِّ، قاله ابنُ عباس وقتادةُ وغيرُ واحدٍ، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، أي: يكتنِفُونه خِدمةً له ويشهَدون بتَصْدِيقه، نظرَ إلى الشَّكلِ الظاهرِ، ولم يفهم السرّ المعنويّ الذي هو أظهرُ مما نظر إليه، لو كان يعلَمُ، ولذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾، أي: استخفَّ عقولهم، فدعاهُم إلى الضلالة، فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. قال الله تعالى: ﴿ءَاسَفُونَا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أسخَطُونا. وقال الضحَّاك، عنه: أغضَبُونا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب القُرَظي، وقتادة، والسدِّيُّ، وغيرهم من المفسرين.

[٥٩٧٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبَيد الله ابنُ أخي ابنِ وَهْبٍ، حدثنا عمِّي، حدثنا ابنُ لَهيعَة، عن عقبة بن مسلم التُّجيبي، عن عقبة بن عامر، أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا رأيتَ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يعطي العبدَ ما شاءَ وهو مُقيمٌ على معاصيه، فإنما ذلك استدراجٌ منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾(١).

---

(١) إسناده ضعيف، وله علتان: ضعف ابن أخي ابن وهب وابن لهيعة، وتقدم في أواخر سورة الأعراف.

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني، حدثنا قيسُ بن الربيع، عن قيسِ بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنتُ عند عبد الله فَذُكِر عنده موتُ الفَجْأةِ، فقال: تَخفيفٌ على المؤمن، وحَسْرَةٌ على الكافِرِ. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾. وقال عُمَر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: وجدت النقمةَ مع الغفلةِ. يعني قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾، قال أبو مجلَز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل مَن عَمِل بعملهم. وقال هو، ومجاهدٌ: ﴿وَمَثَلًا﴾، أي: عبرةً لمن بعدَهم. والله سبحانه وتعالىٰ الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن تعنُّتِ قريشٍ في كُفرِهم وتَعمُّدِهم العنادَ والجَدلَ: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾، قال غيرُ واحد، عن ابنِ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحَّاك، والسدِّيُّ: يَضحَكُون، أي: أُعجِبُوا بذلك وقال قتادة: يجزَعُون ويضحكون. وقال إبراهيم النخَعي: يُعرِضُون.

[٥٩٧٣] وكان السبب في ذلك ما ذكره محمَّد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجَلَس رسولُ الله ـ ﷺ ـ، فيما بَلَغني ـ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجدِ، فجاء النضرُ بن الحارث حتى جَلَس معهم، وفي المجلسِ غيرُ واحد من رجال قريش، فتكلم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَعَرض له النضرُ بن الحارث، فكلَّمه رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]. . الآياتِ. ثم قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأقبلَ عبدُ الله بن الزِّبَعْرَىٰ التميميُّ، حتَّى جلَس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضُر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قَعَد، وقد زَعَم محمدٌ أنَّا وما نعبدُ من آلهتنا هذه حَصَبُ جَهنَّم، فقال عبد الله بن الزِّبعْرَىٰ: أما والله لو وَجَدتُه لخَصَمْتُه، فَسَلُوا محمَّداً: أكلّ ما يُعبدُ من دُونِ الله في جهنَّم مع مَن عَبَده، فنحن نعبدُ الملائكةَ، واليهودُ تعبد عُزيراً، والنصارى تعبد المسيحَ ابن مريم؟ فَعَجِب الوليد ومن كان معه في المجلس من قَول عبد الله بن الزِّبَعْرَى، ورأوا أنه قد احتجَّ وخاصَم، فَذُكِرَ ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «كلُّ من أَحَبَّ أن يُعبَدَ من دُونِ الله فَهُو مع مَن عَبَده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]، أي: عيسى وعُزيرٌ ومن عُبِد معهما من الأحبار والرهبان الذين مَضوا عى طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فاتخذهم مَن بعدهم من أهل الضلالةِ أرباباً من دون الله. ونَزَل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بناتُ الله، ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]. . الآيات، ونَزَل فيما يُذكَر من أَمْرِ عيسى وأنه يُعبدَ من دون الله. وعَجِب الوليد ومن

حضر ومن حُجّته وخُصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: يَصِدُّون عن أمرك بذلك من قَوْلِه. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أي: ما وضعت على يديه من الآياتِ من إحياءِ الموتَى وإبراءِ الأسقامِ، فَكَفَى به دليلاً على علم الساعةِ، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١]. وذكر ابنُ جرير من رواية العَوفيِّ، عن ابن عباس قولَه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾، قال: يعني قُرَيشاً، لما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ . . . إلى آخر الآيات، فقالت له قُرَيش: فما ابنُ مريَم؟ قال: «ذاك عبدُ الله ورسُوله». فقالوا: والله ما يُريد هذا إلا أن نتّخِذه ربّاً، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مَرْيَم رباً. فقال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٢].

[٥٩٧٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبانُ، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي رَزِينٍ، عن أبي يحيى مولى ابن عَقِيل الأنصاريِّ قال: قال ابنُ عباس: لقد عَلِمتُ آيةً من القرآن ما سألني عنها رجلٌ قطُّ، فما أدري أعَلِمها الناسُ فلم يسألوا عنها، أم لم يَفطنُوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طَفِقَ يُحدِّثنا، فلما قام تَلاوَمْنا ألاّ نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راحَ غداً. فلم راح الغد قلتُ: يا ابنَ عباس، ذكرتَ أمس أن آيةً من القرآن لم يسألك عنها رجلٌ قطُّ، فلا تَدرِي أعلمها الناسُ أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لقُرَيشٍ: «يا معشرَ قُرَيشٍ، إنه ليس أحدٌ يُعبَدُ من دُونِ الله فيه خيرٌ». وقد علمت قُرَيشٌ أن النصارى تَعبدُ عيسى ابنَ مريَم. وما تقولُ في محمد، فقالوا: يا محمدُ، ألستَ تزعُم أن عيسى كان نبيّاً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنتَ صادقاً فإن آلهتهُم لكما تقولُون؟ قال: فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾. قلت: ما يَصِدُّون؟ قال: يَضحكُون، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، قال: هو خروجُ عيسى ابنِ مَرْيَم قبل القيامة[٣].

[٥٩٧٥] وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا محمد بنُ يعقوبَ الدمشقي، حدثنا آدمُ، حدثنا شَيبانُ، عن عاصِم بن أبي النَّجود، عن أبي أحمدَ مولى الأنصار، عن ابن عباسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا معشرَ قُرَيشٍ، إنه ليسَ أحدٌ يُعبَدُ من دون الله فيه خيرٌ». فقالوا له: ألست تَزعُم أن عيسى كان نَبيّاً وعبداً من عبادِ الله صالحاً، فقد كان يُعبَدُ من دون الله؟ فأنزل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾[٤]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾، قالت قُرَيشٌ: إنما يريدُ محمَّدٌ أن نعبدَه كما عبَدَ قومُ عيسَى عيسَى. ونحوَ هذا قال قتادةُ. وقولُهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، قال قتادةُ: يقولون: آلهتنا خيرٌ منه. وقال قتادةُ: قرأ ابنُ مسعودٍ: (وقالوا أآلهتنا خير أم هذا)، يعنون محمداً ـ ﷺ ـ.

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾، يعني: مِراءً، وهم يعلَمُون أنه ليس بواردٍ على الآية،

---

(١) هذا معضل، لكن له طرق وشواهد، وتقدم في سورة الأنبياء، آية: ٩٨ ـ ١٠١.

(٢) فيه عطية العوفي ضعيف، لكن للخبر طرق، وتقدم.

(٣) أخرجه أحمد ١/٣١٨ وإسناده ضعيف لجهالة أبي يحيىٰ.

(٤) إسناده ضعيف لجهالة أبي أحمد، وتقدم مع ما قبله في سورة «المؤمنون».

لأنها لما لا يعقِلُ، وهي قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم هي خطابٌ لِقُرَيش، وهم إنما كانوا يَعبُدون الأصنامَ والأندادَ، ولم يكونوا يَعبُدون المسيحَ حتى يُورِدُوه، فتعين أن مقالَتَهم إنما كانت جَدَلاً، مِنهُم لَيسُوا يَعتقِدُون صِحَّتَها.

[٥٩٧٦] وقد قال الإمام أحمدُ: حدثنا ابنُ نُمير، حدثنا حَجّاج بنِ دينارٍ، عن أبي غالبٍ، عن أبي أُمامَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما ضَلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلا أُورِثُوا الجَدَل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[١]. وقد رَواه الترمذيُّ، وابنُ ماجه، وابنُ جرير، من حديث حَجّاج بن دينار، به. ثم قال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ لا نَعرِفُه إلا من حَدِيثه». كذا قال، وقد رُوِي من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادةٍ.

[٥٩٧٧] فقال ابنُ أبي حاتم. حدثنا حُمَيد بن عَيّاش الرملي، حدثنا مؤمَّل، حدثنا حَمَّاد، أخبرنا ابنُ مَخزُوم، عن القاسِم أبي عبد الرحمن الشّامي، عن أبي أُمامَةَ قال حَمّاد: لا أدرِي رَفَعه أم لا؟ قال: ما ضَلَّت أُمَّةٌ بعدَ نبيِّها إلا كان أولُ ضلالها التكذيبَ بالقَدَرِ، وما ضَلَّت أمة بعد نبيِّها إلا أُعطُوا الجَدَل، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٢].

[٥٩٧٨] وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أحمدُ بن عبد الرحمن، عن عَبّاد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ خَرَج على الناسِ وهم يتنازَعُون في القُرآن، فَغَضِب غضباً شَدِيداً حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخَلُّ، ثم قال: «لا تَضربُوا كتابَ الله بعضَه ببعضٍ، فإنه ما ضَلَّ قومٌ قطُّ إلا أُوتوا الجَدَل»، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٣].

وقولُه تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، يعني عيسى ـ عليه السلام ـ ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل، أنعم الله عليه بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ، ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: دلالةً وحجةً وبرهاناً على قُدرتنا على ما نشاء. وقولُه عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾، أي: بَدلكُم ﴿مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ ـ قال السديُّ: يَخلُفونكُم فيها. وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وقتادةُ: يَخلُف بعضُهم بعضاً، كما يخلُف بعضُكم بعضاً. وهذا القولُ يستلزِمُ الأول. وقال مجاهد: يَعمُرون الأرضَ بَدَلكُم. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، تَقدَّم تفسيرُ ابنِ إسحاقَ أنَّ المرادَ من ذلك ما بُعِثَ به عيسى ـ عليه السلامُ ـ من إحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرصِ، وغَير ذلك من الأسقام. وفي هذا نَظَرٌ. وأبعدُ منه ما حكاه قتادةُ، عن الحسن البصريّ وسعيد بن جُبَير: أنَّ الضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، عائدٌ على القرآن، بل الصحيحُ أنه عائدٌ على عيسى، فإنَّ السياقَ في ذِكْرِه، ثم المرادُ بذلك نُزولُه قبل يوم القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، أي: قبلَ مَوْتِ عيسى ثُمّ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، ويُؤيِّد هذا المعنى القراءةُ الأخرى: «وإنه لَعَلَمٌ للسّاعةِ»، أي: أمارةٌ ودليلٌ على وقُوعِ الساعةِ، قال مجاهدٌ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٢٥٣ وابن ماجه ٤٨ وأحمد ٥/ ٢٥٢ والحاكم ٢/ ٤٤٨ والطبري ٣٠٩٣٨ والآجري في «الشريعة» ١٠٢ و١٠٣ ومداره على أبي غالب واسمه حزور، وهو غير قوي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وتابعه القاسم كما سيأتي، فهو حديث حسن.

(٢) فيه القاسم بن عبد الرحمن، وهو ضعيف الحديث، وقد شك حماد في رفعه. وصدره غريب، وأما عجزه، فله طريق آخر، وهو المتقدم.

(٣) أخرجه الطبري ٣٠٩٤٠ وفيه جعفر بن الزبير، متروك الحديث. والقاسم، ضعيف أيضاً.

﴿لِلسَّاعَةِ﴾، أي: آيةٌ للساعة خروجُ عيسى ابنِ مَرْيَمَ قبل يوم القيامة. وهكذا رُوي عن أبي هُرَيرة، وابنِ عَبَّاس، وأبي العالية، وأبي مالكٍ، وعكرمةَ، والحسنِ، وقتادةَ، والضحَّاكِ، وغيرهم. وقد تواترتِ الأحاديثُ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه أخبر بنُزول عيسى ـ عليه السلام ـ قبل يوم القيامةِ إماماً عادلاً، وَحَكماً مُقسطاً. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، أي: لا تَشُكُّوا فيها أنَّها واقعةٌ وكائنةٌ لَا محالةَ، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾، أي: فيما أخبركم به ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾، أي: عن اتباع الحق، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾، أي: بالنبوةِ، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، قال ابنُ جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حَسَنٌ جيِّد، ثم رَدَّ قولَ من زَعَم أن ﴿بَعْضَ﴾ هاهنا بمعنى (كُلّ)، واستشهد بقول لَبيد الشاعر حيث قال:

تَـرَّاكُ أَمْـكِـنَـةٍ إِذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا ... أَوْ يَـعْـتَـلِـقْ بَـعْـضَ الـنُّـفُـوسِ حِـمَـامُـهَـا

وأولوه على أنه أراد جميعَ النفوس. قال ابنُ جَرير: وإنما أراد نفسَه فقط، وعَبَّر بالبعض عَنها. وهذا الذي قاله مُحتملٌ. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فيما أَمَرَكُم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما جِئتُكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤﴾، أي: أنا وأنتم عبيدٌ له، فُقَراء إليه، مُشتركُون في عبادتِه وحدَه لا شَريكَ له، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراطُ المستقيمُ، وهو عبادةُ الربِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ وَحْدَه. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾، أي: اختلفتِ الفِرَقُ وصارُوا شِيَعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبدُ الله ورسولُه ـ وهو الحقُّ ـ ومنهم مَن يَدَّعي أنه وَلَدُ الله، ومنهم مَن يقول: إنه الله ـ تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيراً ـ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٦٦ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٣﴾

يقولُ تعالى: هل ينتظرُ هؤلاء المشركون المكذِّبون للرسُلِ ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: فإنها كائنةٌ لا محالةَ وواقعةٌ، وهؤلاءِ غافلون عنها غير مُستعِدِّين. فإذا جاءت إنما تَجيء وهُم لا يَشعُرون بها، فحينئذٍ يندَمُون كلَّ النَدم، حيثُ لا ينفعُهم ولا يدفعُ عنهم. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾، أي: كلُّ صَداقةٍ وصَحابةٍ لغير الله فإنها تنقلبُ يومَ القيامة عداوةً إلا ما كان لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه دائمٌ بدَوامِهِ. وهذا كما قال إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ لِقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وقال عبدُ الرزَّاق: أخبرنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارث، عن عليٍّ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾، قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فَتُوفِّي أحدُ المؤمنينَ وبُشِّر بالجنة فَذَكر خليله، فقال: اللهمَّ، إنَّ فلاناً خليلي كان يأمُرني بطاعَتِك وطاعةِ رسولِكَ، ويأمُرني بالخير وينهاني عن الشرِّ، ويُنبِئُني أنِّي مُلاقِيك، اللهُمَّ فلا تُضِلَّه حتى تُرِيَه مثل ما أريتَني، وترضَى عنه كما رَضِيت عني. فَيُقال له: اذهَب فلو تعلَمُ ما له عندِي لضَحِكت كثيراً وبَكَيت قَليلاً. قال: ثم

يموتُ الآخَرُ، فَتجتمِعُ أرواحُهما، فيُقال: لِيُثنِ أحدُكما على صاحِبه. فيقولُ كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبه: نعمَ الأخُ، ونعمَ الصاحبُ، ونعمَ الخليلُ. وإذا مات أحدُ الكافِرين وبُشِّر بالنار ذكَر خليله فيقول: اللهُمَّ، إن خليلي فلاناً كان يأمُرني بمعصِيَتك ومَعصِية رَسُولِكَ، ويأمُرني بالشرِّ وينهاني عن الخير، ويُخبرني أنّي غيرُ ملاقيك، اللهُمَّ فلا تَهْدِه بعدِي حتى تُرِيَه مثلَ ما أريتني، وتَسخَط عليه كما سَخِطت علي. قال: فيموت الكافرُ الآخر، فيُجمَع بين أرواحهما. فيقال: ليُثنِ كلُّ واحدٍ منكما على صاحِبه. فيقول كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه: بِئسَ الأخُ، وبِئسَ الصاحبُ، وبِئسَ الخليلُ. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ: صارت كلُّ خُلّةٍ عداوةً يومَ القيامةِ إلاّ المتّقين.

[٥٩٧٩] وَرَوى الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة هشام بن أحمد، عن هشام بن عبد الله بن كثير: حَدَّثنا أبو جعفر محمدُ بن الخَضِر بالرَّقّةِ، عن المُعَافَى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو أنَّ رَجُلين تَحابًا في اللهِ، أحدُهما بالمشرقِ والآخرُ بالمغرِب، لَجَمَع الله بينهما يوم القيامة، يقولُ: هذا الذي أحببتَه فيَّ»[١].

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، ثم بَشَّرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: آمنت قلوبُهم وبواطنُهم، وانقادت لشرعِ الله جَوارِحُهم وظَواهِرُهم. قال المُعتمِر بن سُلَيمان، عن أبيه: إذا كان يومُ القيامةِ فإنَّ الناسَ حين يُبعَثُون لا يبقَى أحدٌ منهم إلا فَزِع، فَيُنادِي منادٍ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فيرجُوها الناسُ كلهم، قال: فيُتبِعُها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، قال: فييأسَ الناسُ منها غير المؤمنين. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾، أي: يُقَال لهم: ادخلُوا الجنة، ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾، أي: نُظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾، أي تَنْعَمُون وتَسْعَدُون وقد تقدَّم تفسيرها في سورة الروم. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾، أي: زَبادِيّ آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾، وهي: آنيةُ الشراب، أي: من ذَهَب، لا خَراطيمَ لها ولا عُرا، (وفيها ما تشتهي الأنفسُ) ـ وقرأ بعضهم: ﴿تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ ـ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾، أي: طَيِّب الطعمِ والريحِ، وحَسَنُ المنظر.

[٥٩٨٠] قال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، أخبرني إسماعيلُ بن أبي سَعِيدٍ، عن عكرمةَ ـ مولى ابن عباس ـ أخبره أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً وأسفلَهُم درجةً لَرَجُلٌ لا يدخُلُ الجنةَ بعدَه أحدٌ، يُفسَحُ له في بَصَرِه مسيرةُ مئةِ عام في قُصُورٍ من ذَهَبٍ، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضعُ شبرٍ إلا معمورٌ يغدىٰ عليه ويُراح بسبعين ألف صَحفةٍ من ذهبٍ، ليس فيها صحفةٌ إلا فيها لونٌ ليس في الأخرى مثله، شهوتُه كشهوتِه في أوّلِها، لو نزل به جميعُ أهلِ الأرضِ لَوَسَّع عليهم مما أُعطِي، لا يَنقُصَ ذلك مما أوتي شيئاً»[٢].

[٥٩٨١] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا عمرو بن سَوَادٍ السَّرْحي،

---

(١) إسناده ضعيف. فيه محمد بن الخضر، لم أجد من ترجمهُ. وحكيم بن نافع، هو الرَّقي، قال أبو زرعة: ليس بشيء. وقال ابن معين: ليس به بأس. وجاء عن ابن معين تليينه. وقال الذهبي: ساق له ابن عدي أحاديث، ما هي بالمنكرة جداً اهـ راجع الميزان ٢٢٢٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢٧٨٥ عن عكرمة مرسلاً. فهو ضعيف.

حَدَّثنا عبدُ الله بن وهبٍ، عن ابن لَهيعَة، عن عُقَيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هُرَيرةَ: أَنَّ أبا أُمامَةَ حَدَّثَ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ حَدَّثهم ـ وذَكر الجَنَّة ـ فقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ليأخُذَنَّ أحدُكم اللُّقمَةَ فيجعلُها في فِيهِ، ثم يخطُر على بالِهِ طعامٌ آخرُ، فيتحوَّل الطعامُ الذي في فِيهِ على الذي اشتهى» ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

[٥٩٨٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسنٌ ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير، عن شهر بن حَوشبٍ، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أدنى أهلِ الجنة منزلةً أَنَّ له لسبعَ درجاتٍ، وهو على السادسةِ وفوقه السابعةُ، وإن له لثلاثمئة خادم، ويُغدَى عليه ويُرَاح كلَّ يوم بثلاثمئة صَحْفَةٍ ـ ولا أعلمه إلا قال: من ذَهَب ـ في كل صَحفةٍ لونٌ ليس في الأخرى، وإنه لَيَلَذُّ أوَّله كما يَلَذُّ آخره، ومن الأشربةِ ثلاثمئة إناءٍ، في كلِّ إناءٍ لونٌ ليس في الآخر، وإنه لَيَلذُّ أوله كما يَلَذُّ آخِرُه وإنه ليقول: يا ربِّ، لو أَذِنتَ لي لأطعمت أهلَ الجنةِ وسَقَيتُهم، لم ينقُص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجةً سوى أزواجِهِ من الدنيا، وإنَّ الواحدةَ مِنهُنَّ ليأخذُ مقعدها قدرَ ميل من الأرض»[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾، أي: في الجنةِ ﴿خَٰلِدُونَ﴾، أي: لا تخرجون منها ولا تَبغُون عنها حِوَلاً. ثم قيل لهم على وجه التفضّل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشُمُولِ رَحمَةِ الله إيَّاكم، فإنه لا يُدخِل أحداً عملُه الجنةَ، ولكن بفضل من الله ورحمتِه. وإنما الدرجاتُ تفاوتُها بحسَبِ عملِ الصالحات.

[٥٩٨٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرىء، حدثنا يوسف بن يعقوب ـ يعني الصفار ـ حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلّ أهلِ النار يَرَى مَنزلَه من الجنّة فيكون له حسرةً، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]. وكلُّ أهلِ الجنّة يَرَى مَنزلَه من النارِ فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، لِيكُونَ له شُكراً». قال: وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن أحدٍ إلا وله مَنزِلٌ في الجنة ومَنزِلٌ في النار، فالكافر يَرِثُ المؤمنَ منزله من النار. والمؤمَنُ يَرث الكافِرَ منزله من الجنة». فذلك قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[3]. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾، أي: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: مهما اخترتُم وأردتُم. ولما ذكر الطعامَ والشرابَ، ذكر بعده الفاكهة لِتَتِمَّ النعمةُ والغبطةُ؛ والله تعالى أعلم.

---

(١) إسناده ضعيف لانقطاعه بين الحسن وأبي هريرة. وفي الإسناد ابن لهيعة، لكن لا بأس برواياته إن كان الراوي عنه أحد العبادلة. فالعلة فقط الانقطاع. وفي المتن نكارة والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٢/ ٥٣٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٦٦٦: رجاله ثقات على ضعف في بعضهم اهـ فيه شهر بن حوشب، صدوق يخطىء. وهو كثير الإرسال والرواية عمن لم يلقه، ولم يصرح بسماعه من أبي هريرة، وسكين بن عبد العزيز، ضعفه بعضهم، ووثقه الأكثر. وبقية رجاله ثقات. فالإسناد ضعيف. وفي بعض ألفاظه غرابة.

(٣) في إسناده أبو بكر بن عياش، فيه ضعف، وفيه عنعنة الأعمش وهو مدلس، وتقدم في الأعراف من وجه صحيح دون ذكر الآيتين.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

لما ذَكر تعالىٰ حال السعَداء ثَنَّى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾، أي: ساعةً واحدةً ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كلِّ خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾، أي: بأعمالهم السيئةِ بعد قيام الحُجَج عليهم وإرسالِ الرسُل إليهم، فكَذَّبوا وعَصَوا، فجُوزُوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازن النار.

[٥٩٨٤] قال البخاريّ: حدثنا حجّاجُ بنُ مِنهالٍ، حدثنا سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة، عن عَمرو بنِ عَطاء، عن صَفوانَ بنِ يَعْلَى، عن أبيه قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقرأ على المِنبَر: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾(١)؛ أي لِيَقبِضْ أرواحَنا فيُريحَنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال عزَّ وجلَّ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣] فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها. ثم ذَكَر سببَ شقْوَتهم، وهو مُخالفتُهم للحقّ ومعاندتُهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بيَّناه لكم ووضَّحناه وفسَّرناه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، أي: ولكن كانت سَجاياكم لا تَقبَلُه ولا تُقبِلُ عليه، وإنما تَنقادُ للباطل وتُعظِّمُه، وتَصُدُّ عن الحقّ وتَأباه، وتُبغِضُ أهلَه، فعُودوا على أنفسِكُم بالمَلامَة، واندمُوا حيث لا تَنفَعُ الندامةُ. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، قال مجاهدٌ: أرادوا كَيْدَ شرٍّ فكدناهم. وهذا الذي قاله مجاهدٌ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المُشرِكِين كانوا يَتحيَّلون في رَدِّ الحَقِّ بالباطل بِحِيَلٍ ومَكْرٍ يَسلُكُونَهُ، فكادَهُمُ الله تعالى وَرَدَّ وَبالَ ذلك عليهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾، أي: سِرَّهُم وعَلانيتهم ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: نحن نَعلَمُ ما هُم عليه والملائكةُ أيضاً يكتُبونَ أعمالهم، صغيرَها وكبيرَها.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٩.

يقولُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، أي: لو فُرِض هذا لعبدته على ذلك، لأني عبد من عَبِيده، مُطِيعٌ لجميع ما يأمُرني به، ليس عندي استكبارٌ ولا إباءٌ عن عبادته، فلو فُرِض هذا لكان، ولكن هذا مُمتنِعٌ في حَقِّه تعالى، والشرطُ لا يلزم منه الوقوع ولا الجوازُ أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]. قال بعضُ المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، أي: الآنِفين. ومنهم سفيانُ الثَّوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الجاحدين، من عَبِدَ يَعْبَد. وذكر ابنُ جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يُونُس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدَّثني ابنُ أبي ذئب، عن أبي قُسَيط، عن بَعْجَةَ بن زيدِ الجُهَني: أن امرأةً منهم دَخلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضاً ـ فَولدت له في ستة أشهُر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأمر بها أن تُرجَم، فدخل عليه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: إنَّ الله تعالى يقولُ في كتابِهِ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عَبِدَ عثمان ـ رضي الله عنه ـ أن بَعَث إليها: تردّ ـ قال يونس: قال ابن وهب: عَبِدَ: استنكف. وقال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الوُدِّ يُصْرِمْ خَلِيلَهُ ... وَيَعْبَدْ عَلَيهِ لا مَحَالَةَ ظَالِما

وهذا القولُ فيه نَظَرٌ، لأنه كيفَ يَلتئِمُ مع الشرطِ فيكون تقديرُه: إن كان هذا فأنا مُمتنِعٌ منه؟ هذا فيه نظرٌ، فَلْيتأمل. اللهم إلا أن يقال: إن (إنْ) ليست شرطاً، وإنما هي نافية، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أولُ الشاهِدِينَ. وقال قتادةُ: هي كَلِمةٌ من كلام العَرَبِ: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، أي: إنَّ ذلك لم يَكُن فلا يَنبغِي. وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، أي: فأنا أوَّل من عبده بأن لا وَلَد له، وأول من وَحَّده. وكذا قال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ. وقال مجاهدٌ: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، أي: أول مَن عَبَده ووحَّده وكذَّبكم. وقال البخاريُّ: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنِفين. وهما لغتان رجل عابدٌ وعَبدٌ. والأول أقربُ على أنه شرطٌ وَجزاءٌ، ولكن هو ممتنعٌ؛ وقال السدِّيُّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، يقول: لو كان له ولدٌ كنتُ أولَ مَن عَبده، بأن له ولداً، ولكن لا وَلَد له. وهو اختيار ابن جرير، وَرَدُّ قولَ من زَعم أنَّ «إنْ» نافيةٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه خالقُ الأشياءِ عن أن يكونَ له ولدٌ، فإنه فردٌ أحدٌ صَمَدٌ، لا نَظيرَ له ولا كُفْءَ له، فلا وَلَد له.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾، أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دُنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو يومُ القيامةِ، أي: فسوفَ يعلمون كيف يكونُ مصيرُهم، ومآلُهم، وحالُهم في ذلكَ اليوم.

وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، أي: هو إلهُ مَن في السماءِ، وإلهُ مَن في الأرضِ، يعبدُه أهلُهما، وكُلُّهم خاضِعُون له، أذِلاءُ بينَ يَدَيه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: ٣]، أي: هو المدعوُّ الله في السماواتِ والأرضِ. ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: هو خالِقُهما ومالِكُهما والمتصرِّف فيهما، بلا مدافعةٍ ولا ممانعةٍ، فسبحانَه وتعالى عن الولدِ، و﴿وَتَبَارَكَ﴾: أي استقرَّ له السلامةُ من العيوبِ والنقائصِ، لأنه الربُّ العَليُّ العَظِيمُ، المالك للأشياءِ، الذي بيده أزِمَّةُ الأمورِ نقضاً وإبراماً، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، أي: لا يُجلِّيها لوقتِها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: فَيُجازِي كُلاً بِعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾، أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾،

أي: لاَ يقدِرُون على الشفاعةِ لهم، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناءٌ منقطعٌ، أي: لكن مَن شهد بالحق على بصيرةٍ وعلم، فإنه تنفعُ شفاعتُه عندَه بإذنه له. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾، أي: وَلَئِن سألتَ هؤلاءِ المشركين بالله العابدِين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، أي: هم يَعترِفون أنه الخالقُ للأشياء جميعاً وحدَه لا شَريك له في ذلك، ومَعَ هذا يعبدُون معه غيرَه ممن لا يملِكُ شيئاً ولا يقدِرُ على شيءٍ، فَهُم في ذلك في غايةِ الجَهلِ والسفاهةِ وسخافةِ العقلِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقولُهُ جل جلاله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، أي: وقال محمد قيله، أي: شكا إلى رَبِّه شكواه من قومه الذين كَذَّبوه، فقال: يا ربِّ إن هؤلاء قومٌ لا يُؤمِنُون، كما أخبَرَ تعالى في الآية الأُخرَى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]، وهذا الذي قُلناه هو قولُ ابنِ مسعودٍ، ومجاهدٍ، وقتادَةَ، وعليه فَسَّر ابنُ جَريرٍ. قال البخاريُّ: وقرأ عبدُ الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ (وقال الرسولُ يا ربِّ). وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، قال: فأبرَّ الله عز وجل قولَ محمد ﷺ. وقال قتادةُ: هو قولُ نَبيِّكم ـ ﷺ ـ، يشكُو قَومَه إلى رَبِّه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. ثم حكى ابنُ جرير في قوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ﴾ قراءتَين، إحداهُما النصبُ، ولها تَوجيهان: أحدُهما أنه معطوفٌ على قَولِه تبارك وتعالىٰ: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ والثاني: أن يُقدَّرَ فِعْلٌ «وقال قيله». والثانية: الخفضُ، وقيلِه عطفاً على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ تقديرُه: وعلمُ قِيلِه.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾، أي: لا تُجاوبهم بمثل ما يُخاطبُونك به من الكلام السيِّىء، ولكن تألَّفهم واصفَحْ عنهم فِعلاً وقولاً، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديدٌ منه تعالى لهم، ولهذا أَحلَّ بهم بأسَه الذي لا يُرَدّ، وأعلَى دينَه وكَلِمته، وشَرَع بعد ذلك الجهادِ والجِلادَ، حتى دَخَل الناسُ في دِينِ الله أفواجاً، وانتشر الإسلامُ في المشارقِ والمغاربِ. والله أعلم.

## آخرُ تفسيرِ سُورَةِ الزُّخرفِ

# سُورَةُ الدُّخَانِ

ترتيبها ٤٤ — آياتها ٥٩

## وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[٥٩٨٥] قال الترمذيُّ: حدثنا سُفيان بن وكيع، حدثنا زيدُ بن الحُبَاب، عن عُمَر بن أبي خَثْعَم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ (حم ـ الدخان) في ليلةٍ أصبحَ يَسْتَغفِر له سبعون ألف ملك»[(١)]. ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خَثْعَم يُضَعَّفُ؛ قال البخاريُّ: منكر الحديث.

[٥٩٨٦] ثم قال: حَدَّثنا نَصْرُ بنُ عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيدُ بنُ الحُبَابِ، عن هِشَام أبي المِقْدام، عن الحسن، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ حم الدّخان في ليلة الجُمُعةِ غُفِر له»[(٢)]. ثم قال: غَرِيب لا نعرِفه إلا من هذا الوجهِ، وهشامٌ أبو المقدام يُضَعَّف، والحسنُ لم يسمَع من أبي هُرَيرَة، كذا قال أيوب، ويونُس بن عُبَيد، وعليُّ بن زيد.

[٥٩٨٧] وفي مُسنَدِ البَزّار من رِواية أبي الطفَيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لابن صَيّاد: «إني قد خَبأت خَبأً فما هو؟» ـ وخبأ له رسول الله ـ ﷺ ـ سورة الدخان ـ فقال: هو الدُّخُ، فقال: «اخسأ، ما شاء الله كان». ثم انصرف[(٣)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

---

(١) موضوع. أخرجه الترمذي ٢٨٨٨ وابن عدي ٥/ ٦٥ والبيهقي في «الشعب» ٢٤٧٥ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٢٤٨. ضعفه الترمذي، بقوله: غريب وعمر يضعّف. قال البخاري: منكر الحديث. وكذا ضعفه البيهقي، وابن عدي. وأما ابن الجوزي فحكم بوضعه، ونقل عن أحمد قوله: لا يساوي شيئاً. وقال ابن حبان: يضع الحديث. والصواب موضوع كما قال ابن الجوزي لما فيه من مبالغة.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الترمذي ٢٨٨٩ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٢٤٧ والبيهقي ٢٤٧٦ من حديث أبي هريرة. وضعفه الترمذي وأعله بضعف هشام بن زياد، وبعدم سماع الحسن من أبي هريرة. وكذا ضعفه الحافظ في «تخريج الكشاف» ٤/ ٢٨٣ وحكم ابن الجوزي بوضعه.

(٣) متن صحيح. أخرجه البزار ٣٣٩٩ والطبراني ٤٦٦٦ وإسناده غير قوي، قال الهيثمي في «المجمع» ١٢٥٦٢: فيه زياد بن الحسن، ضعفه أبو حاتم، ووثقه ابن حبان اهـ. قلت: الحديث متفق عليه عن ابن عمر، وله شواهد كثيرة وسيأتي.

يقولُ تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: أنه أنزله في ليلة مباركةٍ، وهي ليلةُ القدرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. ومن قال: إنها ليلةُ النّصفِ من شعبانَ، كما رُوي عن عِكْرِمَةَ فقد أبعد النُّجعة، فإنَّ نصَّ القرآن أنها في رمضان.

[٥٩٨٨] والحديثُ الذي رَوَاه عبدُ الله بن صالح، عن اللَّيثِ، عن عُقَيلٍ، عن الزهريِّ: أخبرني عثمان بن محمد بن المُغيرة بن الأَخْنَسِ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «تُقطع الآجال من شعبانَ إلى شعبانَ، حتى إنَّ الرجل لينكح ويُولَدُ له، وقد أُخرج اسمه في الموتى»(١)، فهُو حديثٌ مرسل، ومثلُه لا تُعارَضُ به النصوصُ.

وقولُهُ عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، أي: مُعلِمين الناسَ ما ينفَعُهم ويضُرُّهم شرعاً، لِتَقُوم حُجّة الله على عبادِه. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾، أي: في ليلة القدرِ يُفصَلُ من اللوح المحفُوظِ إلى الكتَبَة أمر السَّنَةِ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكونُ فيها إلى آخرها. وهكذا رُوِي عن ابن عمر، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقولُهُ جل وعلا: ﴿حَكِيمٍ﴾، أي: مُحكَم، لا يُبدَّل ولا يُغيَّر. ولهذا قال جل جلاله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، أي: جميع ما يكونُ ويُقدِّره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنِهِ وعِلْمِه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: إلى الناسِ رَسُولاً يتلُو عليهم آياتِ الله مُبَيِّنات، فإنَّ الحاجَةَ كانت ماسَّة إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، أي: الذي أنزل هذا القرآن هو ربُّ السمواتِ والأرض وخالقُهما ومالكُهما وما فيهما، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مُتحقِّقين. ثم قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. . . الآية.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾

يقولُ تعالى: بل هؤلاء المشركون في شَكٍّ يلعَبُون، أي: قد جاءهم الحقُّ اليقينُ، وهم يشكُّون فيه ويَمتَرون، ولا يُصَدِّقون به، ثم قال عز وجل مُتوعِّداً لهم ومُتهدِّداً: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾.

[٥٩٨٩] قال سليمان بن مَهْرَان الأعمش، عن أبي الضحى مُسلِم بن صَبيح، عن مَسرُوقٍ قال: دَخلنا المسجدَ ـ يعني مسجدَ الكوفة ـ عند أبواب كِنْدَة، فإذا رجلٌ يقصُّ على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٣١٠٤٠ عن عثمان بن محمد، وهذا ضعيف لكونه مرسلاً. وقد أخرجه البيهقي في «الشعب» ٣٨٣٩ عن محمد بن المغيرة من قوله، وورد من وجوه أخرىٰ واهية، ولا يصح في الباب حديث والصواب أن الليلة المباركة ليلة القدر، وهي في رمضان.

مُبِينٍ﴾، تَدرُون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يومَ القيامةِ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكامِ، قال: فأتينا ابنَ مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مُضطجعاً فَفزِع فقعد، وقال: إن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ قال لنبيِّكم ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]، إنَّ مِنَ العِلم أن يقولَ الرجلُ لما لا يعلَم: الله أعلم. سَأُحدِّثكم عن ذلك، إن قُريشاً لما أبطأَتْ عن الإسلام واستعصَتْ على رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ، دَعَا عليهم بسنين كسِنِي يُوسُفَ، فأصابهم من الجَهد والجُوع حتى أكلوا العظامَ والمَيتةَ، وجعلُوا يرفَعُون أبصارَهُم إلى السماء فلا يَرَون إلا الدخَان[1].

[٥٩٩٠] وفي روايةٍ: فجعل الرجلُ ينظُر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئةِ الدخَان من الجَهْدِ، قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾، فَأُتي رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقيل: يا رسولَ الله، استسقِ الله لِمُضَرَ، فإنها قد هَلَكَت. فاستسقَى لهم فَسُقُوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾. قال ابن مسعود: فيكشِفُ العذابَ عنهم يومَ القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادُوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾، قال: يعني يومَ بدر. قال ابنُ مسعودٍ: فقد مضى خمسةٌ: الدخان، والرومُ، والقمَرُ، والبطشة، واللِّزام[2]. وهذا الحديث مُخرَّجٌ في الصحيحين. ورواه الإمام أحمدُ في مُسنَده، وهو عند الترمذي والنسائيُّ في تفسيريهما، وعند ابنِ جَرير وابن أبي حاتم من طرق مُتعدِّدة، عن الأعمشِ، به. وقد وافَق ابنَ مسعود على تفسير الآية بهذا ـ وأنَّ الدخان مَضَى ـ جماعةٌ من السلف كمجاهد، وأبي العالية، وإبراهيم النخعِي، والضَّحاكِ، وعَطِيةَ العَوفي، وهو اختيارُ ابنِ جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حَسَّان، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، قال: كان يوم فتح مكة. وهذا القولُ غريبٌ جداً، بل مُنكَرٌ. وقال آخرون: لم يمضِ الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة.

[٥٩٩١] كما تقدَّم من حديث أبي سريحة حُذَيفة بن أَسيدٍ الغِفَاري ـ رضي الله عنه ـ قال: أشرفَ علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ من غُرفةٍ ونحن نتذاكرُ الساعة، فقال: «لا تقومُ الساعة حتى تَرَوا عشر آياتٍ: طلوعَ الشمس من مَغرِبها، والدخان، والدابة، وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ، وخروجَ عيسى ابنِ مَرْيَم، والدَّجالَ، وثلاثةَ خسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، ونارٌ تخرجُ من قَعرِ عدن تسوقُ الناسَ ـ أو: تحشر الناس ـ: تبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا»[3]. انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

[٥٩٩٢] وفي الصحيحَين أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لابن صَيَّاد: «إني خَبَأت لك خَبْئاً». قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدُوَ قدرَك»، قال: وخبأ له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾. وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابنُ صَيَّاد كاشف على طريقة الكُهَّان بلسانِ الجانِّ،

---

(١) أخرجه الطبري ٣١٠٤٣ وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨٢١ ومسلم ٢٧٩٨ والترمذي ٣٢٥١ والنسائي في التفسير ٥٠١ و٥٠٣، وهذا ثابت عن ابن مسعود وهو رأي له، والصواب الحديث المرفوع الآتي، وأن ذلك من أشراط الساعة.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ والحميدي ٨٢٧ وأحمد ٤/ ٦ وابن أبي شيبة ١٥/ ١٦٣.

وهم يُقَرطِمُونَ العبارة، ولهذا قال: هو الدخُ، يعني: الدخَانَ. فعندها عَرَف رسول الله ـ ﷺ ـ مادَّته وأنها شيطانيَّةٌ، فقال له: «اخسأ فلن تعدُو قدرك»(١).

[٥٩٩٣] وقال ابنُ جَرير: وحدَّثني عِصَامُ بنُ رَوَّاد بنِ الجَرَّاح، حدثنا أبي، حدثنا سُفيان بن سَعِيدٍ الثوريُّ، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رِبعِيِّ بن حرَاشٍ قال: سَمِعتُ حُذَيفةَ بن اليمان يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أول الآيات الدَّجَّالُ، ونزولُ عيسى ابنِ مَرْيَم، ونارٌ تخرُج من قَعرِ عَدنَ أبينَ، تسوقُ الناسَ إلى المحشرِ، تقيل معهم حيثُ قالوا، والدُّخان» ـ قال حُذَيفة: يا رسولَ الله، وما الدُخانُ؟ فَتَلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ـ «يملأُ ما بين المشرق والمغرب، يمكثُ أربعين يوماً وليلةً، أما المؤمنُ فيصيبه منه كهيئة الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من مَنخرَيه وأُذنَيهِ ودُبرِه»(٢). قال ابنُ جرير: لو صَحَّ هذا الحديثُ لكانَ فاصِلاً، وإنما لم أشهد له بالصحَّةِ لأنَّ محمد بن خَلَفِ العَسقَلاني حَدَّثني أنه سأل رَوَّاداً عن هذا الحديث: هل سَمِعه من سُفيان؟ فقال له: لا. قال فقلت: أقرأتَه عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: أَقُرِىء عليه وأنت حاضر فَأَقرَّ به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أينَ جِئت به؟ فقال: جاءني به قومٌ فعَرضُوه عليَّ، وقالوا لي: اسمَعْهُ منا. فَقرؤوه عليَّ ثم ذَهَبُوا به، فَحَدَّثُوا به عَني، أو كما قال. وقد أجاد ابنُ جرير في هذا الحديث هاهنا، فإنه موضوعٌ بهذا السند، وقد أكثر ابنُ جرير من سياقِه في أماكِنَ من هذا التفسير، وفيه مُنكَرَات كثيرةٌ جدّاً، ولا سيما في أوَّلِ سُورَةِ بني إسرائيل في ذكر المسجدِ الأقصى، والله أعلم.

[٥٩٩٤] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليدُ، حدثنا خَلِيل، عن الحسن، عن أبي سعيد الخُدريِّ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يَهيج الدخَانُ بالناس، فأما المؤمنُ فيأخذُه كالزُكمَةِ، وأما الكافر فينفخهُ حتى يخرُج من كل مسْمَعٍ منه»(٣). ورواه سعيدُ بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ، عن الحَسَنِ، عن أبي سَعيدِ الخُدريِّ موقُوفاً. ورواه عَوْف، عن الحسن قَوْلِهِ.

[٥٩٩٥] وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثني محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بنُ عَيَّاشٍ، حدثني أبي، حدثني ضَمضَمُ بن زُرعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيدٍ، عن أبي مالكِ الأشعَرِيِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن ربَّكم أنذَرَكُم ثلاثاً: الدخَان يأخذُ المؤمنَ كالزكْمَةِ، ويأخذ الكافرَ فينتفخُ حتى يخرجَ من كلِّ مَسْمَعٍ منه، والثانية: الدابَّةُ، والثالثة: الدَّجَّالِ»(٤). ورواه الطبراني عن هاشم بن مَرثِدٍ. عن محمد بن إسماعيل بن عَيَّاش. به. وهذا إسناد جيدٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارث، عن عَلِيٍّ قال: لم تَمْضِ آيةُ الدخَانِ بعد، يأخذُ المؤمنَ كهَيئةِ الزكام، ويَنْفَخُ الكافرَ حتى ينفذ. وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البَيْلَماني، عن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٥٤ ومسلم ٢٩٣١.

(٢) إسناده ساقط. روّاد بن جراح ضعيف، وهو لم يسمعه من الثوري، كما أقرّ بذلك. وتقدم تخريجه.

(٣) إسناده ضعيف. له علتان: خليل هو ابن عبد الله. قال الذهبي في «الميزان»: لا يُعرف. وقال الحافظ في التقريب: مجهول. وعلة ثانية وهي عدم سماع الحسن من أبي سعيد. وقد روي عن أبي سعيد موقوفاً، وعن الحسن موقوفاً عليه أيضاً، وهو أصح من المرفوع.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٠٦٢ وإسناده حسن في الشواهد لأجل محمد بن إسماعيل.

ابن عُمَر قال: يخرُج الدخانُ فيأخذ المؤمنَ كهيئة الزكمة، ويدخُل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ، أي: المَشويّ على الرَّضْفِ(١). ثم قال ابنُ جَريرٍ: حدثني يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن جُرَيج، عن عبد الله بن أبي مُلَيكَةَ قال: غدوتُ على ابن عباس ذات يَوْم فقال: ما نِمتُ الليلةَ حتى أصبحتُ. قلتُ: لِمَ؟ قال: قالُوا طَلَع الكوكب ذو الذَّنبِ، فخشيت أن يكونَ الدخَان قد طَرَقَ، فما نِمتُ حتى أصبحتُ. وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَر، عن سُفيان، عن عبد الله بن أبي يَزيدَ، عن عبد الله بن أبي مُلَيكَةَ، عن ابن عَبَّاسٍ فذكره. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن عباس حَبْر الأمَّةِ وتَرجُمان القرآنِ. وهكذا قولُ مَن وافقَه من الصَّحَابَة والتابعين أجمَعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصِّحاح والحِسَانِ وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مَقْنَعٌ ودَلالةٌ ظاهرةٌ على أن الدخَان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن. قال الله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾، أي: بَيِّن واضح يَراهُ كلُّ أحدٍ، وعلى ما فسرَ به ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ إنما هو خيالٌ رَأوه في أعينهم من شِدَّة الجُوعِ والجَهْدِ. وهكذا قولُه تعالىٰ: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾، أي: يَتغشَّاهم ويَعمُّهم، ولو كان أمراً خَياليّاً يخصُّ أهلَ مكَّة المشركينَ لما قِيلَ فيه. ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٤] أو يقولُ بعضُهم لبعضٍ ذلك.

وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾، أي: يقولُ الكافِرُون إذا عاينُوا عذابَ الله وعقابَه سَائِلينَ رفعه وكَشفَه عنهم، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قولُه جلّ وعلا: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ۝٤٤﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤﴾. يقول: كيف لهم بالتذكُّر، وقد أرسلنا إليهم رَسُولاً بَيِّن الرِّسالةِ والنِّذارةِ ومع هذا تَوَلَّوا عنه وما وافقُوه بل كَذَّبوه وقالوا: مُعلَّم مجنونٌ. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾ [الفجر: ٢٣ ـ ٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٥١ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ۝٥٤﴾ [سبأ: ٥١ ـ ٥٤].

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾، يَحتمِلُ معنيين:

**أحدهما**: أنه يقولُ تعالى: ولو كَشَفنا عنكُم العذابَ ورَجَعناكم إلى الدار الدنيا لَعدتُم إلى ما كُنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٥﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله جلَّت عظمته: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

**والثاني**: أن يكون المرادُ: إنا مُؤَخِّروا العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد سَبَبِهِ ووصُوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضَّلالِ، ولا يلزَمُ من الكَشْفِ عنهم أن يكون باشرَهُم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب

(١) الرضف: الحجارة المحماة.

باشَرَهُم واتَّصل بهم، بل كان قد انعقد سَبَبُه عليهم، ولا يلزمُ أيضاً أن يكونُوا قد أقلعُوا عن كُفرهم ثم عادُوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩]، وشعيب ـ عليه السلام ـ لم يكن قطُّ على مِلَّتِهم وطَرِيقَتِهم. وقال قتادةُ: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى عذابِ الله.

وقولُهُ عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾، فسَّر ذلك ابنُ مسعود بيوم بدر. وهذا قولُ جماعةٍ ممَّن وافق ابنَ مسعودٍ على تفسيره الدخان مما تقدَّم، وَرُوي أيضاً عن ابن عباسٍ من رواية العَوفيِّ، عنه. وعن أُبيِّ بن كعبٍ وجماعة، وهو مُحتملٌ. والظاهر أن ذلك يومُ القيامة، وإن كان يومُ بدرٍ يومَ بطشةٍ أيضاً. قال ابنُ جرير: حدثني يعقوب حَدَّثني ابنُ عُلَيَّة، حدثنا خالد الحذَّاء، عن عِكْرِمةَ قال: قال ابنُ عباس: قال ابنُ مسعودٍ: البطشة الكبرى يومُ بدرٍ، وأنا أقول: هي يومُ القيامة. وهذا إسنادٌ صحيحٌ عنه، وبه يقولُ الحسن البصريُّ، وعِكْرِمةَ في أصحِّ الروايتين عنه؛ والله أعلم.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ
تُؤْمِنُوا لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ
ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا
فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ
ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركينَ قومَ فِرْعَونَ، وهم قِبطُ مِصرَ، ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾. يعني موسى كليمَه ـ عليه السلامُ ـ: ﴿أَنْ أَدُّوٓا إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، كقوله عز وجل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]. وقولُهُ جل وعلا: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: مأمونٌ على ما أبلغكُموه. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: لا تَستكبِرُوا اتِّباع آياته، والانقيادِ لحُجَجه والإيمانِ ببراهينه، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجَّةٍ ظاهرةٍ واضحةٍ. وهي ما أرسلَه الله تعالى بِهِ من الآياتِ البيِّنات والأدلَّة القاطعات. ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾، قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرَّجمُ باللسانِ، وهو الشتمُ. وقال قتادةُ: الرجمُ بالحجارةِ. أي: أعوذُ بالله الذي خَلَقني وخَلَقكُم أن تصِلُوا إليّ بسُوءٍ من قَولٍ أو فِعلٍ. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾، أي: فلا تتعرَّضوا إليَّ وَدَعُوا الأمر بيني وبينكم مُسالمةً إلى أن يقضيَ الله بيننا. فلما طال مُقامهُ بين أظهرِهم، وأقام حُجَجَ الله تعالى عليهم، كُلُّ ذلك وما زادهُم ذلِكَ إلاّ كُفراً وعِناداً، دعا ربَّه عليهم دعوةً نفَذَت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ

مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فعند ذلك أَمَرَه الله تعالى أن يَخرُجَ ببني إسرائيل من بين أظهرُهم من غير أَمْرِ فِرعَون ومُشاورته واستئذانه، ولهذا قال جل جلاله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧]. وقولُه عز وجل هاهنا: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ لما جاوزَ هو وبنُو إسرائيلَ البحر، أراد موسى أن يَضرِبه بعصاه حتى يَعُودَ كما كان، لِيَصير حائلاً بينهم وبين فِرْعَون، فلا يَصِلُ إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً، وبَشَّره بأنهم جُندٌ مُغرَقُون فيه، وأنه لا يخافُ دَرَكاً ولا يخشى. قال ابنُ عباس: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئتِه وامضِه. وقال مجاهد: ﴿رَهْوًا﴾ طريقاً يَبَساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجعُ، اتركه حتى يَرجِع آخرُهم. وكذا قال عِكرِمَة. والربيعُ بن أنسٍ، والضحّاك، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، وكعب الأحبار، وسِمَاكُ بن حَربٍ، وغير واحد. ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ ـ وهي البساتينُ ـ ﴿وَعُيُونٍ﴾، والمراد بها الأنهارُ والآبارُ، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، وهي المساكنُ الأنيقةُ والأماكن الحَسَنَةُ. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر.

وقال ابن لَهيعة، عن وَهْبِ بن عبد الله المَعَافِري، عن عبد الله بن عَمْرٍو قال: نيلُ مصر سَيِّد الأنهارِ، سَخَّر الله له كلَّ نهر بينَ المشرقِ والمغربِ، وذَلَّله له، فإذا أراد الله أن يُجرِي نيلَ مصر أَمَرَ كلَّ نهر أن يَمُدَّه، فأمدّته الأنهارُ بمائها، وفَجّر الله له الأرض عُيوناً، فإذا انتهى جريُه إلى ما أراد الله جل وعلا أوحى الله تعالىٰ إلى كلِّ ماءٍ أن يرجعَ إلى عُنصُره.

وقال في قول الله تعالىٰ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا ﴿٢٧﴾﴾، قال: كانت الجنانُ بِحافتي هذا النيلِ من أوّلِه إلى آخرِه في الشقَّين جميعاً، ما بين أسوان إلى رَشِيدٍ، وكان له سَبْعُ[1] خُلُجٍ: خليجُ الإسكندريةِ، وخليجُ دمياطَ، وخَليج سِرْدوسَ، وخليج مَنْفٍ، وخليج الفَيُّوم، وخليج المُنْتَهىٰ، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها، ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩]. وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال عز وجل هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾، وهم بنو إسرائيل كما تقدم. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، أي: لم تكن لهم أعمالٌ صالحةٌ تصعَد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالىٰ فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

[٥٩٩٦] قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصري، حدثنا مكي بن

---

(١) في الأصول «تسع»، وصححت في إحدى النسخ «سبع» عن معجم البلدان (النيل). وفيه زيادة: خليج عرشي.

إبراهيم، حدثنا موسى بن عُبَيدة، حدثني يزيد الرّقاشي، حدثني أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرُج منه رزقُهُ، وباب يدخلُ منه عملهُ وكلامُه، فإذا مات فقداه وبَكَيا عليه». وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وذُكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم، فتبكي عليهم[١]. ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن عُبَيْدَة وهو الرَّبَذِيُّ.

[٥٩٩٧] وقال ابنُ جريرٍ: حدثني يحيى بن طلحةَ، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شُرَيح بن عُبَيدٍ الحضرَمِيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾. ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»[٢].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عصام، حدثنا أبو أحمد ـ يعني الزبيري ـ حدثنا العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجلٌ علياً ـ رضي الله عنه ـ: هل تبكي السماءُ والأرضُ على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس عبدٌ إلا له مُصَلًّى في الأرض، ومصعَدُ عَمَلِه من السماء. وإن آل فِرْعَونَ لم يكن لهم عمل صالحٌ في الأرض، ولا عَمَلٌ يصعَدُ في السماءِ، ثم قرأ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا طَلق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جُبير قال: أتى ابن عباس رجل فقال: يا أبا عباسٍ، أرأيتَ قولَ الله تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فهل تبكي السماءُ والأرضُ على أحدٍ؟ قال: نعم، إنه ليس أحدٌ من الخلائق إلا وله بابٌ في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يَصعَد عملُه، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعَدُ فيه عملُه وينزِلُ منه رزقه فَفَقده بكى عليه، وإذا فَقَده مُصَلاه من الأرض التي كان يُصَلِّي فيها ويذكُر الله فيها بَكَت عليه، وإنَّ قومَ فرعون لم تكن لهم في الأرض آثارٌ صالحة، ولم يكن يصعَدُ إلى الله منهم خيرٌ، فلم تبك عليهم السماء والأرض. وروى العَوفي، عن ابن عباسٍ، نحو هذا.

وقال سفيان الثوري، عن أبي يحيى القَتّات، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان يُقال: تبكي الأرضُ على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وغيرُ واحد. وقال مجاهدٌ أيضاً: ما مات مؤمنٌ إلا بَكَت عليه السماءُ والأرضُ أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكي الأرضُ؟ فقال: أتعجَبُ؟ وما لِلأرضِ لا تبكي على عبدٍ، كان يَعمُرها بالركوع والسجود؟. وما لِلسماءِ لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل؟! وقال قتادة: كانوا أهونَ على الله من أن تبكِيَ عليهم السماء والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستوردُ بن سابق، عن عُبَيدٍ المُكْتِبِ، عن إبراهيم قال: ما بكت السماءُ منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لِعُبَيدٍ: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامُه حيث يصعَد عملُه. قال:

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٥٥ وأبو يعلىٰ ٤١٣٣ وأبو نعيم ٣/٥٣، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وموسى ويزيد يضعّفان. وكذا ضعفه الحافظ في «المطالب العالية» ٣/٣٦٩ والهيثمي في «المجمع» ٧/١٠٤.

(٢) صدره صحيح له شواهد، وباقيه ضعيف. أخرجه الطبري ٣١١٢٩ عن شريح الحضرمي، وهذا مرسل. والأشبه في هذا وما قبله الوقف. والله أعلم.

وتَدرِي ما بكاء السماء؟ قلت: لا. قال: تحمرُ وتصير وردةً كالدّهان، إن يحيى بن زكريا لما قُتِل احمرّت السماء وقَطَرت دَماً. وإنّ الحسين بن علي لما قتل احمرّت السماء.

وحدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ـ، زُنَيج ـ حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ احمرّت آفاقُ السماءِ أربعةَ أشهر ـ قال يزيد: واحمرارُها بكاؤها. وهكذا قال السُدِّيُ الكبيرُ. وقال عطاءُ الخُراساني: بكاؤها أن تحمرَّ أطرافُها. وَذَكُروا أيضاً في مقتل الحُسَين أنه ما قُلِب حجر يومئذٍ إلا وُجِد تحته دَمٌ عَبيط[1]. وأنه كُسِفت الشمسُ واحمرّ الأفقُ وسقطت حجارةٌ. وفي كلِّ ذلك نظَرٌ، والظاهر أنه من سُخف الشيعة وكَذِبهم ليعظموا الأمرَ ـ ولا شكَّ أنه عظيمٌ ـ ولكن لم يقَع هذا الذي اختلقُوه وكَذَبُوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحُسَين ـ رضي الله عنه ـ ولم يَقَع شيءٌ مما ذكروه، فإنه قد قُتِل أبوه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أفضل منه بالإجماع ولم يكن شيءٌ من ذلك، وعثمانُ بن عفان رضي الله عنه قُتِل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيءٌ من ذلك. وعُمَر بن الخطاب رضي الله عنه قُتِل في المحراب في صلاة الصبح، وكأنّ المسلمين لم تطرُقهم مُصِيبةٌ قبل ذلك، ولم يكن شيءٌ من ذلك. وهذا رسول الله ـ ﷺ ـ وهو سَيِّد البشر في الدنياوالآخرة يومَ مات لم يكن شيءٌ مما ذَكَرُوه.

[٥٩٩٨] ويوم مات إبراهيم ابنُ النبي ـ ﷺ ـ خُسِفت الشمس، فقال الناس: خُسِفت لموت إبراهيم، فَصَلّى بهم رسول الله ـ ﷺ ـ صلاةَ الكُسُوف، وخَطَبَهُم وبَيّن لهم أنّ الشمس والقمر لا يَنْخَسِفان لموت أحد ولا لحياته[2].

وقـولُـهُ تـبـارك وتـعـالـىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾: يمتن عليهم تعالىٰ بذلك؛ حيث أنقذهُم مما كانوا فيه من إِهَانةِ فِرعَونَ وإذلالِه لهم، وتَسْخيره إِيّاهم في الأعمال المُهينة الشاقّة. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾، أي: مُستكبراً جبّاراً عَنيداً ـ كقولِهِ عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وقولِهِ جلت عظمته: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]. ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. أي: مُسرِفاً في أمره، سخيف الرأي على نفسه. وقولُهُ جل جلاله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾، قال مجاهدٌ: ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، على مَنْ هُم بين ظَهرَيه. وقال قتادةُ: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: أهل زمانه ذلك، وكقوله عز وجل لمريم عليها السلام: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، أي: في زمانها؛ فإنّ خديجةَ إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل وكذا آسيةُ بنت مُزاحم امرأةُ فِرعَونَ، وفضلُ عائشةَ رضي الله عنها على النساءِ كفضلِ الثريد على سائرِ الطعام. وقولُهُ جل جلاله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الحُجَجِ والبراهينِ وخَوَارِق العاداتِ ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾، أي: اختبار ظاهر جليٌ لمن اهتدَى به.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾

يقولُ تعالى مُنكِراً على المشركين في إنكارَهم البعثَ والمعادَ، وأنّه ما ثَمّ إلا هذه الحياةُ الدنيا، ولا حياةَ

(١) دم عبيط: طري.

(٢) تقدم في الإسراء: ٥٩.

بعد الممات، ولا بعثَ ولا نُشورَ؛ ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذَهَبُوا فلم يَرجِعُوا، فإن كان البعثُ حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾ . وهذه حُجّةٌ باطلة وشُبهةٌ فاسِدَةٌ، فإنَّ المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضائها وذَهابها وفَراغها يُعيدُ الله العالمين خَلقاً جَدِيداً، ويجعَلُ الظالمين لنار جَهَنَّم وَقُوداً، يوم تكونوا شُهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً. ثم قال تعالى مُتهدِّداً لهم، ومتوعِّداً ومُنذراً لهم بأسه الذي لا يُرَدّ، كما حَلَّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تُبّع ـ وهم سَبَأٌ ـ حيث أهلكهم الله عز وجل وخَرّب بلادهم، وشرّدهم في البلاد، وفرقهم شَذَر مَذَر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شَبّههم بأولئك، وقد كانوا عَرباً من قحطانَ كما أن هؤلاء عَرَبٌ من عَدنانَ، وقد كانت حِميرٌ ـ وهم سَبَأٌ ـ كلما مَلَك فيهم رَجُلٌ سَمّوه تُبّعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصرُ لمن ملك الروم، وفرعونُ لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تَبَابِعتهم خَرَج من اليمن وسار في البلاد حتى وَصَل إلى سَمَرْقَندَ، واشتدَّ ملكُه وعَظُم سلطانُه وجيشُه، واتسعت مملكتُه وبلادُه، وكَثُرت رعاياه وهو الذي مَصَّر الحيرة، فاتّفق أنه مَرّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتَلُوه بالنهار، وجعلوا يَقْرُونه بالليل، فاستحيا منهم وكَفّ عنهم، واستصحَب معه حَبْرين من أحبار يهودَ كانا قد نَصَحاه وأخبراه أنه لا سبيلَ له على هذه البلدة، فإنها مُهَاجِرُ نَبِيٍّ يكون في آخر الزمان، فَرَجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكّةَ أراد هَدْمَ الكعبة فَنهياه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بِعَظَمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ على يَدَيْ ذلك النبيِّ المبعوث في آخر الزمان، فَعَظَّمها وطاف بها، وكساها المُلاء والوصائل والحِبَرَ. ثم كرَّ راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهوُّد معه، وكان إذ ذاك دينُ موسى ـ عليه السلام ـ فيه مَن يكون على الهداية قبل بعثة المسيح ـ عليه السلام ـ فَتهوّد معه عامّةُ أهل اليمن. وقد ذَكَر القصةَ بِطُولها الإمامُ محمدُ بن إسحاقَ في كتابه السيرة. وقد ترجمه الحافظُ ابنُ عساكر في تاريخه ترجمة حافلة، أوردَ فيها أشياءَ كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفّت له من دمشق إلى اليمن.

[٥٩٩٩] ثم ساق من طريق عبد الرزّاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المَقبُري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما أدري الحدُود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تُبّع لَعيناً كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نَبِيّاً كان أم ملكاً؟» وقال غيرُه: «أعُزيرٌ كان نبيّاً أم لا؟»[1] . وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حَمّاد الطِّهْرَاني، عن عَبد الرزّاق. قال الدارقطني: تَفَرّد به عبد الرزاق.

[٦٠٠٠] ثم رَوَى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعاً: «عُزيرُ لا أدري أنبياً كان أم لا؟ ولا أدرِي ألَعِينٌ تُبّعٌ أم لا»[2] . ثم أورد ما جاء في النهي عن سَبّه ولَعْنَتِهِ كما سيأتي إن

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٧٤ والحاكم ١/ ٣٦ و٢/ ٤٥٠ والبيهقي ٨/ ٣٢٩ وابن عساكر ٣/ ٢٥١ و٦/ ٥٧ وإسناده على شرط البخاري ومسلم كما قال الحاكم، وزاد: ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي، ويشهد له ما بعده. وتفرد عبد الرزاق به لا يضره، فإنه ثقة حجة، روى له الشيخان أحاديث كثيرة.

(٢) متن صحيح. محمد بن كريب ضعيف، لكن يصلح حديثه شاهداً لما قبله. فائدة: قال الحافظ ابن عساكر: وهذا الشك من النبي ﷺ كان قبل أن يُبين له أمره، ثم أخبر أنه كان مسلماً. ثم أسند الحديث الذي سيأتي. وقد أخرج البخاري وغيره من حديث عبادة «... والحدود كفارات لأصلها» وتقدم.

شاء الله تعالىٰ، وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلَمَ، وتابع دينَ الكَلِيم على يَدَيْ مَن كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بَعثةِ المسيح ـ عليه السلام ـ، وحجَّ البيت في زمن الجُرهُميّين، وكساه المُلاء والوصائل من الحرير والحبَر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعَظَّمه وأكرمَهُ. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قِصّته بطولها الحافظُ ابنُ عساكرَ من طُرُقٍ متعددة مطولة مَبسُوطة عن أُبَيّ بن كعب، وعبد الله بن سَلاَم، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وكعبِ الأحبار. وإليه المرجعُ في ذلك كُلّه، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبتُ وأكبرُ وأعلمُ. وكذا روى قصته وهبُ بن مُنَبّه، ومحمد بنُ إسحاقَ في السِّيرةِ كما هو مشهور فيها، وقد اختلط على الحافظِ ابن عساكرَ في بعض السياقات ترجمة تُبّع هذا بترجمةِ آخَر متأخر عنه بدهرٍ طويلٍ، فإن تُبّعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومُه على يَدَيه، ثم لما تُوفي عادوا بعده إلى عبادةِ الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سُورة سَبَأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمدُ والمنَّة.

وقال سَعِيد بن جُبَير: كَسَا تُبّعٌ الكعبةَ، وكان سعيدٌ ينهى عن سَبّهِ. وتُبّعٌ هذا هو تُبّعٌ الأوسطُ، واسمه أسعدُ أبو كُرَيب بن مَلْكيكَرب اليماني، ذَكَرُوا أنه مَلَك على قومه ثلاثمئة سنة وستّاً وعشرين سنةً، ولم يكن في حِمْيَر أطولُ مُدّةً منه، وتُوُفّي قبلَ مبعثِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ بنحوٍ من سبعمئة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحَبْران من يَهُودِ المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نَبِيّ في آخرَ الزمان، اسمه أحمدُ قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويَرْوُونه خَلَفاً عن سَلَفٍ. وكان مِمَّن يحفَظُه أبو أَيُّوب خالد بن زيد الذي نَزَل رسول الله ـ ﷺ ـ في دارِه، وهو:

شَـهِـدْتُ عَـلَـى أحْـمَـدَ أنَّـه ... رَسُولٌ مِـنَ الله بَـاري الـنَّـسَـمْ
فَـلَـو مُـدّ عُـمْـري إلَـى عُـمْـره ... لَـكُـنـت وزيـراً لَـه وابـن عَـمْ
وجَـاهَـدتُ بـالـسَّـيْـفِ أعـداءَهُ ... وفَـرَّجْـتُ عَـن صَـدْرِهِ كُـلَّ غَـمْ

وذكر ابنُ أبي الدنيا أنه حُفِرَ قبرٌ بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوحٌ من فِضّةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: (هذا قبرُ حُبّى ولَميس)؛ ورُوي: حُبّى وتماضر، ابنتي تُبّعٍ، ماتتا وهما تَشهدانِ أن لا إله إلا الله ولا تُشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصَّالحون قبلهما. وقد ذكرنا في سورة سبأ شعر سبأ في ذلك أيضاً. قال قتادةُ: ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول في تُبّعٍ: نُعِتَ نَعْتَ الرجل الصالِح، ذَمَّ الله تعالى قومه ولم يَذُمَّه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تَسُبُّوا تُبّعًا فإنّه قد كان رجلاً صالحاً.

[٦٠٠١] وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حَدَّثنا صَفوانُ، حدَّثنا الوليدُ، حدَّثنا عبد الله بن لَهِيعَةَ، عن أبي زُرْعَة ـ يعني عمرو بن جابر الحضرمي ـ قال: سمعتُ سهلَ بنَ سعدِ الساعديّ يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا تُبّعاً فإنّه قد كان أسلم»[1]. ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، به.

[٦٠٠٢] وقال الطبرانيّ: حدَّثنا أحمد بن علي الأَبّار، حدَّثنا أحمد بن محمد بن أبي بَزّة، حدثنا مُؤَمل بن إسماعيل، حدثنا سُفيان، عن سِماك بن حَربٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠ والبغوي في «تفسيره» ٤/ ١٣٨ والطبراني ٦٠١٣ من حديث سهل بن سعد. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٢٨: فيه عمرو بن جابر، وهو كذاب. وأما الحافظ فقال في «تخريج الكشاف» ٤/ ٢٧٩: فيه ابن لهيعة، عن عمرو بن جابر، وهما ضعيفان اهـ وعمرو اتهمه بعضهم بالكذب، فالإسناد ضعيف جداً، وانظر ما بعده.

قال: «لا تَسبُّوا تُبَّعاً فإنه قد أسلم»(١). ورواه ابن عساكر، من طريق زكريا بن يحيى البَدِّي، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ موقوفاً.

[٦٠٠٣] وقال عبد الرزّاق: أخبرنا عمران أبو الهُذَيل، أخبرني تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بنُ أبي رباح: لا تسبُّوا تُبَّعاً، فإنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن سَبِّه(٢).

[٦٠٠٤] وقال عبد الرزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن ابن أبي ذئبٍ، عن المقبري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما أدري تُبَّعٌ نبيّاً كان أم غير نبيّ»(٣). وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدري تُبَّعٌ كان لعيناً أم لا»؛ فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عَدْلِه وتنزيهه نفسَه عن اللَّعب والعَبَث والباطل، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يومُ القيامة يومَ يفصِلُ الله فيه بين الخلائق، فيُعذِّب الكافرينَ ويُثِيبُ المؤمنين. وقولُه عز وجل: ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: يجمَعُهم كُلَّهم أوَّلهم وآخِرَهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينفعُ قَريبٌ قريباً. كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١١] أي: لا يَسألُهُ عن حاله وهو يراه عِياناً. وقولُهُ جل وعلا: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لا ينصرُ القريبُ قريبَه، ولا يأتيه نصرُه من خارج. ثم قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾، أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمةُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لخلقه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: هو عزيزٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ١٤٤١. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٣٠: فيه أحمد بن أبي بزة المكي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. بل ضعفه أبو حاتم؛ وفيه أيضاً مؤمل بن إسماعيل، وثقة يحيى، وأبو حاتم لكن قال: كثير الخطأ. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو زرعة: في حديثه خطأ كثير. وقواه أبو داود، وله علة ثالثة، سماك بن حرب تغير بأخرَة. لذا ضعفه غير واحد، وبخاصة في روايته عن عكرمة، وانظر ما بعده، و«الصحيحة» ٢٢١٧.

(٢) حسن. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٢٨٢٢ مرسلاً، فهو ضعيف. وله شاهد من مرسل وهب بن منبه، أخرجه عبد الرزاق ٢٨٢١. وله شاهد موقوف عن عائشة، أخرجه الحاكم ٢/ ٤٥٠ وسنده صحيح، فالحديث حسن بشواهده، وانظر «الصحيحة» ٢٤٢٣.

(٣) تقدم برقم ٥٩٩٩.

يقولُ تعالى مخبراً عما يُعذَّب به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، والأثيمُ: أي في قوله وفعله، وهو الكافرُ ـ وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شكَّ في دُخُوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصَّة به. قال ابن جرير: حَدثنا محمدُ بن بَشّار، حَدَّثنا عبدُ الرحمن، حَدَّثنا سفيانُ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام بن الحارث: أن أبا الدرداء كان يُقرِىء رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، فقال: طعامُ اليتيم. فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أي: ليس له طعام من غيرها. قال مجاهدٌ: ولو وقعت قَطرةٌ منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض مَعايِشهم. وقد تقدَّم نحوه مرفوعاً[١]. وقولُهُ: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾، قالوا: كعَكَر الزيت ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، أي: من حَرارتها ورَداءتها، وقولُهُ: ﴿خُذُوهُ﴾، أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خُذُوهُ﴾ ابتَدره سبعُون ألفاً منهم، وقوله: ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾، أي: سُوقوه سَحباً ودَفعاً في ظَهره. قال مجاهدٌ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾، أي: خذوه فادفعوه. وقال الفرزدقُ:

لَـيـسَ الـكِـرامُ بِـنَـاحِـلِـيـك أبَـاهُـمُ ... حَـتَّـى تُـرَدُّ إلَـى عَـطِـيَّـة تُـعْـتَـلُ

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: وسطها، ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾، كقوله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٠]. وقد تقدم: أن الملكَ يَضربه بمقمَعَة من حديد، فتفتح دماغَه ثم يُصَبُّ الحَمِيم على رأسه فينزل في بدنه، فَيَسلِتُ ما في بطنه من أمعائه، حتى تَمرُق من كَعْبَيه. أعاذنا الله تعالى من ذلك. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، أي: قولُوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: أي لستَ بعزيز ولا كريم.

[٦٠٠٥] وقد قال الأُمَويُّ في مَغَازيه: حدثنا أسباطُ بن محمد، حدثنا أبو بكر الهُذَلي، عن عكرمة قال: لَقي رسولُ الله ـ ﷺ ـ أبا جهل فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقولَ لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤ ـ ٣٥] قال: فَنزَع ثوبَه مِن يدِه وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبُك من شيء. ولقد عَلِمتَ أني أمنعُ أهل البطحاء، وأنا العزيزُ الكريمُ. قال: فقتله الله يوم بَدْرٍ وأذلَّه وعَيَّره بكلِمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[٢]. وقولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

لما ذَكر تعالى حال الأشقياء عَطَف بذكر السعَداءِ ـ ولهذا سُمِّي القرآن مثاني ـ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾،

---

(١) تقدم في سورة الكهف.

(٢) مرسل، ويأتي في سورة القيامة ٣٤ ـ ٣٥.

أي: لله في الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾. أي: في الآخرة وهو الجنةُ، قد أَمِنُوا فيها من الموتِ والخرُوجِ، ومن كلِّ هَمٍّ وحَزَنٍ وجُوعٍ وتَعَبٍ ونَصَبٍ، ومن الشيطان وكيدِه، وسائر الآفات والمصائبِ ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾﴾. وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شَجَر الزَّقُّوم، وشُربِ الحَميم. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ﴾، وهو: رَفِيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾، وهو: ما فيه بريقٌ ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش، ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، أي: على السرُرِ، لا يَجلِسُ أحدٌ منهم وظهرُه إلى غيره. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾﴾، أي: هذا العطاءُ مع ما قد منحناهم من الزوجات الحُورِ العِينِ الحسانِ اللاتي ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾﴾، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٧٤ و٥٨ و ٦٠].

[٦٠٠٦]قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا نوحُ بنُ حَبِيب، حدثنا نَصر بن مُزاحم العَطَّار، حدثنا عُمَر بن سعد، عن رجل، عن أنس ـ رفعه نوحٌ ـ قال: لو أنَّ حوراء بَزَقت في بحر لُجِّيٍّ، لعَذُبَ ذلك الماءُ لعذُوبة رِيقِها[(١)].

وقولُهُ عز وجل: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾، أي: مهما طَلَبُوا من أنواع الثِّمار أُحضِر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كُلَّما أرادُوا. وقولُهُ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، هذا الاستثناء يؤكد النفي، فإنه استثناءٌ منقطعٌ، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً.

[٦٠٠٧]كما ثبت في الصحيحين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يُؤتى بالموت في صورة كَبشٍ أملَحَ، فَيُوقَفُ بين الجنة والنار ثم يُذبَحُ، ثم يُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النارِ، خلودٌ فلا مَوتَ». وقد تقدم الحديث في سورة مريم.

[٦٠٠٨]وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيانُ الثوريُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي مسلم الأغرِّ، عن أبي سعيدٍ وأبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُقال لأهلِ الجنة: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسقَمُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تعيشُوا فلا تموتُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تنعمُوا فلا تَبأسُوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبّوا فلا تَهرَمُوا أبداً»[(٢)]. رواه مسلم، عن إسحاقَ بن راهَويه وعبد بن حُمَيد، كلاهما عن عبد الرزاق به. هكذا يقول أبو إسحاقَ وأهلُ العراق أبو مسلم الأغَرّ، وأهل المدينة يقولون: أبو عبد الله الأغرّ.

[٦٠٠٩]وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمدُ بن حَفصٍ، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهمَان، عن الحجَّاج ـ هو ابن حَجَّاج ـ عن قتادةَ، عن عُبَيد الله بن عَمرو، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من اتقى الله دخل الجنة، يَنعَمُ فيها ولا يَبأَسُ، ويحيا فيها فلا يموتُ، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنَى شبابُه»[(٣)].

[٦٠١٠]وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان بن عبيد الله الرَّقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي، عن يحيى بن سعيد

---

(١) باطل. ففي إسناده راوٍ لم يسمَّ. وفيه نصر بن مزاحم الكوفي، وهو متروك وكذبه أبو خيثمة. راجع الميزان ٩٠٤٦. ثم إن أمارة الوضع لائحة عليه.

(٢) تقدم في سورة الحجر آية ٤٨.

(٣) جيد. أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» ١٠١، وإسناده ضعيف لجهالة عبيد الله بن عمرو، لكن توبع، فقد أخرجه أبو نعيم ٩٨ و٩٩ من وجه آخر وإسناده حسن ويشهد لأصله ما قبله، وهو عند مسلم.

الأنصاري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: سُئِلَ نَبيُّ الله ـ ﷺ ـ: أَينام أهلُ الجنة؟ فقال: «النومُ أخو الموتِ، وأهلُ الجنةِ لا ينامون»(١).

[٦٠١١]وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدَوَيه في تفسيره: حدثنا أحمدُ بن القاسم بن صدقة المِصْرِيُّ، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر [بن عبد الله رضي الله عنه] قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»(٢).

[٦٠١٢]وقال أبو بكر البَزّار في مُسنَدِه: حدثنا الفضلُ بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفِرْيابيُّ، عن سفيانَ، عن محمد بن المُنكَدِر عن جابر قال: قيل يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت»(٣). ثم قال: لا نعلَم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثوريُّ، ولا عن الثوريِّ، إلا الفِرْيابيُّ. هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قَد وَقاهم، وسَلَّمهم ونَجّاهم وزَحزَحهم من العذاب الأليم في دَرَكات الجحيم، فحصل لهم المطلوبُ، ونَجّاهم من المرهوبِ. ولهذا قال عز وجل: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾، أي: إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم.

[٦٠١٣]كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «اعملوا وسَدِّدوا وقارِبُوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخِلَه عملُه الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغمَّدني الله بِرَحمةٍ منه وفضل»(٤).

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: إنما يسرنا هذا القرآن، أي: أنزلناه سهلاً واضحاً بَيِّناً جَلِيّاً بلسانك الذي هو أفصحُ اللغاتِ وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: يَتفهَّمون ويعلمون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس مَنْ كَفَرَ وخالفَ وعانَدَ قال الله تعالى لرسوله مُسَلِّياً له وواعداً له بالنصر، ومُتوعِّداً لمن كَذَّبه بالعطب والهلاك: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾، أي: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾، أي: فسيعلمون لمن يكون النصرُ والظفرُ وعُلُوُّ الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانِكَ من النبيِّين والمُرسَلين ومَنِ اتَّبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢].

## آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) حسن. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٩٢٣ والصيداوي في «معجم الشيوخ» ١٥ وإسناده ضعيف لجهالة مصعب وشيخه عمران.

(٢) حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٩٠ و«صفة الجنة» ٢١٥ وابن الجوزي في «العلل» ١٥٥٣ وأعله بعبد الله بن مغيرة، وقال قال العقيلي: يحدث بما لا أصل له. قلت: والمقدام ضعيف، فالإسناد ضعيف جداً.

(٣) حسن. أخرجه البزار ٣٥١٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٤١٥: رجاله رجال البخاري ومسلم. والصواب أنه على شرط البخاري حيث تفرد عن الفضل بن يعقوب. وقد أعل بالإرسال، حيث أخرجه ابن المبارك ٢٧٩ عن الثوري عن ابن المنكدر مرسلاً، وابن المبارك أثبت من الفضل، وكذا صوب أبو حاتم في «العلل» ٢/ ٢١٩ الإرسال؛ لكن للحديث شواهد يحسن بها، وانظر «الصحيحة» ١٠٨٧.

(٤) متفق عليه، وتقدم.

# سورة الجاثية

ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

يُرشِدُ تعالى خَلْقَه إلى التفكُّر في آلائِهِ ونِعَمِهِ، وقُدرته العظيمة التي خَلَقَ بها السمواتِ والأرضِ، وما فيهما من المخلوقات المختلفةِ الأجناسِ والأنواعِ، مِن الملائكةِ والجنّ والإنسِ، والدوابّ والطيورِ والوحوشِ والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المُتنوِّعة، واختلافِ الليل والنهار، في تعاقُبهما دائِبينَ لا يَفتُران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السَّحابِ من المطرِ في وَقْتِ الحاجةِ إليه، وَسمَّاه رِزقاً لأنَّ به يحصلُ الرزقُ، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعدما كانت هامدةً لا نباتَ فيها ولا شيءَ. وقولُه عز وجل: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾، أي: جَنُوباً وشمالاً، ودَبُوراً وصَباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو لِلّقاح، ومنها ما هو غذاءُ الأرواح، ومنها ما هو عَقِيمٌ لا ينتج. وقال سبحانه وتعالىٰ أولاً: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهةٌ بآية البقرة وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾. وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا عن وَهبِ بن مُنبّه أثراً طويلاً غريباً في خَلْقِ الإنسان من الأخلاطِ الأربعةِ؛ والله أعلم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

يقولُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ـ يعني القرآن بما فيه من الحُجَج والبيِّناتِ ـ ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي مُتضمِّنةٌ الحقَّ من الحقّ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادُون لها، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟ ثم قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾، أي: أفاكٍ في قوله كذّاب، حلاّف مَهينٍ أثيم في فعله وَقِيلِهِ كافر بآياتِ

الله، ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: تُقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾، أي: على كفره وجُحُوده استكباراً وعِناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، أي: كأنه ما سمِعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فأخبِرْه أنَّ له عندَ الله يومَ القيامةِ عذاباً أليماً مُوجعاً. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، أي: إذا حَفِظ شيئاً من القرآن كَفَر به واتخذه سُخرياً وهُزُواً، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: في مُقابلَةِ ما استهانَ بالقرآن واستهزأ به.

[٦٠١٤] ولهذا روى مسلم في صَحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُسافَرَ بالقرآن إلى أرضِ العَدُوِّ مخافة أن ينالَه العدوُّ(١). ثم فَسَّر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾، أي: كلُّ مَن اتَّصفَ بذلك سَيَصِيرُون إلى جَهنَّم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾، أي: لا تنفعُهم أموالُهم ولا أولادُهم، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: ولا تُغني عنهم الآلهة التي عَبَدُوها من دُونِ الله شيئاً، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ يعني القرآن، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾. وهو المؤلمُ المُوجِعُ. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

يذكرُ تعالى نعَمه على عَبيده فيما سَخَّر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾. وهي السفنُ ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تعالى، فإنه هو الذي أمَرَ البحر أن يَحمِلَها ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: في المتاجرِ والمكاسِبِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي على حُصُولِ المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائيةِ والآفاقِ القاصِيَةِ. ثم قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهارِ، وجميع ما تنتفِعُون به، أي: الجميعُ من فَضْلِهِ وإحسانِهِ وامتنانِهِ. ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، أي: مِنْ عندِهِ وَحدَه لا شريكَ له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]. وَروى ابنُ جرير من طريق العَوفي، عن ابن عباس في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: كلُّ شيءٍ هُوَ من الله، وذلك الاسمُ فيه اسمٌ من أسمائه، فذلك جَميعاً منه، ولا يُنازِعهُ فيه المنازِعُونَ، واستَيْقِنْ أنه كذلك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا محمدُ بنُ خَلَفِ العَسْقَلاني، حدثنا الفِريابي، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سأل رجلٌ عبد الله بن عَمرو قال: مِمّ خُلق الخَلْقُ؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى، قال: وائتِ ابن عباس فاسْأله. فأتاه فقال له مثلَ ذلك، فقال: ارجع إليه فَسَلْهُ: مم خُلِقَ ذلك كلُّه؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾. هذا أثرٌ غريبٌ(٢)، وفيه نكارةٌ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾، أي: يَصفَحُوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداءِ الإسلام، أُمِرُوا أن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٩٠، ومسلم ١٨٦٩ وأبو داود ٢٦١٠ وابن ماجه ٢٨٧٩ وابن حبان ٤٧١٥.

(٢) هو من الإسرائيليات. لا حجة فيه البتة.

يَصبِرُوا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك كالتأليف لهم ثم لما أَصَرُّوا على العناد شَرَعَ الله للمؤمنين الجِلادَ والجِهادَ. هكذا رُوِي عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهدٌ: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ : لا يَنالُون نِعَم الله تعالىٰ. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ، أي: إذا صَفحُوا عنهم في الدنيا فإنَّ الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيِّئة في الآخرة ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ، أي: تعودُون إليه يومَ القيامةِ فتعرَضُون بأعمالكم عليه، فيَجزيكم بأعمالِكم خيرِها وشرِّها؛ والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يذكرُ تعالىٰ ما أنعَمَ به على بني إسرائيلَ من إنزالِ الكُتُب عليهم وإرسالِ الرسُلِ إليهم، وجَعْلِهِ المُلْكَ فيهم. ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ، أي: من المآكِلِ والمشارِبِ، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، أي: في زمانهم، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ ، أي: حُججاً وبَراهين وأدلَّةً قاطعاتٍ، فقامت عليهم الحُجَجُ، ثم اختلفُوا بعد ذلك من بعدِ قيامِ الحُجَّة، وإنما كان ذلك بَغياً منهم على بَعضِهم بعضاً، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ، أي: سَيفصِلُ بينهم بحكمه العَدْلِ. وهذا فيه تحذيرٌ لهذه الأمة أن تسلُك مَسْلَكهم، وأن تَقصِد مَنهجَهُم. ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ ، أي: اتَّبع ما أُوحِي إليك من ربِّك لا إله إلا هو، وأعرِضْ عن المشركين. وقال هاهنا جل جلاله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾ ، أي: وماذا تُغني عنهم وَلايَتُهم لبعضِهم بعضاً، فإنهم لا يَزيدُونهم إلا خَساراً ودَماراً وهَلاكاً، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ . وهو تعالىٰ يُخرجُهم من الظلماتِ إلى النورِ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يُخرجُونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال عز وجل: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ ، يعني القرآن، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقولُ تعالىٰ: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال تعالىٰ هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ، أي: عَمِلوها وكَسَبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ﴾ ، أي: نُساويهم بهم في الدنيا

والآخرة! ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: ساء ما ظنُّوا بنا وبِعَدْلِنا أن نُساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار!.

[٦٠١٥] قال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا مُؤمّل بنُ إهاب، حدثنا مُكَبّر بن عثمان التنُوخِيُّ، حدثنا الوَضِينُ بن عطاء، عن يزيدَ بن مَرْثَدِ الباجي، عن أبي ذَرٍ رضي الله عنه قال: إن الله بَنَى دِينَهُ على أربعةِ أركانٍ، فمن صَبر عليهنَّ ولم يعمل بهن لقي الله من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذَرٍّ؟ قال: يُسلِم حلال اللهِ للهِ، وحَرَام اللهِ للهِ، ونَهيَ اللهِ لله، لا يُؤتَمنُ عليهنَّ إلا الله. قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يُجتَنَى من الشوكِ العنب، كذلك لا ينالُ الفُجّار منازل الأبرار»(١)، هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أنهم وجدوا حجراً بمكة في أسّ الكعبة مكتوب عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل كما يُجتنى من الشوكِ العِنَبُ. وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عَمرو بن مُرّة، عن أبي الضُحَى عن مَسْرُوق: أن تَميماً الداريَّ قام ليلة حتى أصبح يُردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أي: إنما يأتمر بهواه، فَمهما رآه حَسَناً فَعَلَهُ، ومهما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يُستدلُّ به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين. وعن مالك فيما رُوي عنه في التفسير: لا يَهوى شيئاً إلا عَبَده وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يحتمل قولَين، أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستَحِقُّ ذلك. والآخر: وأضلّه الله بعد بُلوغ العلم إليه، وقيام الحجّة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يَعِي شيئاً يهتدِي به، ولا يرى حُجّة يَستَضِيءُ بها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن قول الدَّهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العَرب في إنكارِ المعادِ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أي: ما ثَمّ إلا هذه الدارُ، يموتُ قومٌ ويعيشُ آخرون، وما ثَمّ معادٌ ولا قيامةٌ. وهذا يقوله مشركو العربِ المُنكِرون للمعادِ، ويقولُه الفلاسفةُ الإلهيُّون منهم، وهم يُنكِرون البَدْأةَ والرجعَة، ويقوله الفلاسفة الدَّهريّة الدَّوريّة(٢) المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنةٍ يعود كلُّ شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرّر مراتٍ لا تتناهى، فكابروا المعقول وكَذّبُوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي: يَتوهَّمون ويَتخيّلون.

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٣/ ٤١ بهذا الإسناد، وقال: مكبّر بن عثمان منكر الحديث جداً. ووافقه الذهبي في «الميزان» ٨٧٤٦. وفيه أيضاً، الوضين بن عطاء، وثقه أحمد وأبو داود، وقال ابن سعد: ضعيف، وقال أبو حاتم: يعرف وينكر.

(٢) أي الذين يقولون بالدور، والتسلسل، وكلاهما باطل.

[٦٠١٦] فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عُيَينة، عن الزهري، عن سَعيد بن المُسيِّبِ، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يَسبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ، بيدي الأمرُ، أقلب ليلهُ ونهارهُ». وفي رواية: «لا تَسُبُّوا الدهرَ فإن الله هو الدهر»[١].

[٦٠١٧] وقد أورَده ابنُ جَرير بسياقٍ غريب جدًّا فقال: حدثنا أبو كريب، حدثنا سُفيان بن عُيَيْنَة، عن الزهرِيِّ، عن سَعيد بن المُسيِّب، عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كان أهلُ الجاهلية يقولون: إنما يُهلِكُنا الليلُ والنهارُ، وهو الذي يُهلِكنا، ويُميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾. ويَسُبُّون الدهرَ، فقال الله عز وجل: يُؤذيني ابنُ آدم، يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ، بيدِي الأمر أُقلِّب الليل والنهار»[٢]. وكذا رواه ابنُ أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيح بنَ النعمان، عن ابن عُيَينة، مثله.

[٦٠١٨] ثم رَوى عن يونس، عن ابن وَهبٍ عن يونس، عن الزهرِيِّ، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرَة: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله تعالىٰ: يَسُب ابنُ آدم الدهرَ وأنا الدهرُ، بِيَدِي الليلُ والنهارُ»[٣]. وأخرجه صاحبا الصحيح والنسائي، من حديث يونس بن يزيدَ، به.

[٦٠١٩] وقال محمدُ بن إسحاقَ، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله تعالىٰ: استقرضتُ عبدي فلم يُعطِني، وسَبَّني عبدي، يقول: وادهراه! وأنا الدهر»[٤]. قال الشافعيُّ وأبو عُبَيدٍ وغيرُهما من الأئمة في تفسير قوله ـ عليه السلام ـ: «لاَ تَسُبُّوا الدهرَ فإنَّ الله هو الدهرُ». كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شِدَّة أو بلاء أو نكبةٌ، قالوا: يا خيبةَ الدهرِ، فَيسنُدون تلك الأفعالَ إلى الدهر ويَسُبُّونه، وإنما فاعلُها هو الله تعالىٰ، فكأنهم إنما سَبُّوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي عن سَبِّ الدهر بهذا الاعتبارِ، لأن الله تعالىٰ هو الدهرُ الذي يعنُونه ويَسنُدون إليه تلك الأفعال. هذا أحسنُ ما قيل في تفسيره، وهو المرادُ، والله أعلم. وقد غَلِطَ ابنُ حزم ومن نَحا نحوه من الظاهريَّة في عدِّهم الدهرَ من الأسماء الحسنى، أخذاً من هذا الحديث!

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: إذا استُدِلَّ عليهم وبُيِّن لهم الحقُّ، وأن الله تعالىٰ قادرٌ على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرُّقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: أحيُوهم إن كان ما تقولونه حَقّاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: كما تُشاهِدُون ذلك يُخرجُكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: الذي قدر على البَدْأَةِ قادرٌ على الإعادةِ بطريقِ الأَوْلَى والأحرَى. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: إنما يجمعكُمْ ليوم القيامة لا يُعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ

---

(١) متفق عليه وتقدم.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٢٠٧ وإسناده علىٰ شرط البخاري ومسلم، لكن صدره «كان أهل الجاهلية يقولون» غريب، والأشبه أنه مدرج.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٨١ ومسلم (٢٢٤٦) (١) والطبري ٢٥/ ١٥٢ وابن حبان ٥٧١٤.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٢١٠ وإسناده ضعيف، فيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس، لكن يشهد لأصله ما قبله.

ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ [المرسلات: ١٢ ـ ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [هود: ١٠٤]. وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شكَّ فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا يُنكِرون المعادَ، ويَستبعِدُون قيامَ الأجسادِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧]، أي: يرونَ وُقُوعَه بعيداً، والمؤمنون يَرون ذلك سهلاً قَريباً.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه مَالِكُ السموات والأرض، الحاكمُ فيهما في الدنيا والآخرة. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدُون ما أنزله على رُسُله من الآياتِ البيِّنات والدلائِلِ الواضحاتِ.

وقال ابن أبي حاتم: قَدِم سُفيان الثوريُّ المدينةَ، فَسَمع المعافريَّ يتكلم ببعض ما يَضحكُ به الناسُ، فقال له: يا شيخ، أما علمتَ أن لله تعالىٰ يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تُعرف في المعافريِّ حتى لحق بالله عزَّ وجلّ. ذكره ابن أبي حاتم. ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، أي: على رُكَبها من الشدَّة والعَظَمة، ويقال: إن هذا إذا جِيءَ بجهنم فإنها تَزفِرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جَثَا لركبتَيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقولُ: نفسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، لا أسألك اليوم إلا نفسي. وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألكَ مريم التي ولدتني. قال مجاهدٌ، وكعبُ الأحبارِ، والحسنُ البصريُّ: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، أي: على الركَبِ. وقال عكرمة: جاثية متميزة على ناحيتها، وليس على الركب. والأول أولى.

[٦٠٢٠] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المُقرىء، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه: أن رسول الله قال: «كأني أراكم جاثين بالكوم دُونَ جَهَنَّم»[١].

[٦٠٢١] وقال إسماعيل بن أبي رافع المَدنيُّ، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث الصورِ: فَيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهي التي يقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾[٢]. وهذا فيه جَمعٌ بين القوْلَين، ولا منافاة، والله أعلم.

وقولُهُ عز وجل: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يعني كتابَ أعمالِها. كقوله جل جلاله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، ولهذا قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: تُجازُون بأعمالِكم خيرهاوشرِّها، كقوله عز وجل: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥]. ولهذا قال جلت عظمته: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يستحضرُ جميعَ أعمالِكم من غير زيادةٍ ولا نَقص، كقوله جل جلاله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) ضعيف. رجاله ثقات لكنه مرسل. عبد الله بن باباه تابعي. والكوم: المواضع المشرفة.

(٢) حديث الصور تقدم الكلام عليه باستيفاء.

وقولُه عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: إنا كنا نأمرُ الحفَظة أن تكتُبَ أعمالَكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تَكتبُ الملائكةُ أعمالَ العباد، ثم تصعَدُ بها إلى السماء، فيقابِلُون الملائكةَ الذينَ في ديوان الأعمالِ على ما بأيديهم مما قد أُبرز لهم من اللوح المحفوظِ في كلِّ ليلة قَدْرٍ، مما كتبه الله في القِدَمِ على العبادِ قبل أن يخلُقَهم، فلا يزيدُ حرفاً ولا ينقصُ حرفاً. ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن حُكمِه في خَلْقِهِ يومَ القيامة، فقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنت قلوبُهم وعَمِلت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصةُ الموافقة للشرع، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، وهي الجنةُ، كما ثبت في الصحيح:

[٦٠٢٢]«أن الله تعالىٰ قال للجنة: أنتِ رحمَتي، أرحمُ بلِكِ مَن أشاءُ»(١).

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البيِّن الواضِح. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً: أما قُرئت عليكُم آياتُ الرحمن فاستكبرتُم عن اتباعها، وأعرضتُم عند سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، أي: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبُكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، أي: إذا قال لكم المؤمنُون ذلك، ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، أي: إن نَتوهَّم وقوعَها إلا توهُّماً، أي مَرجُوحاً. ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، أي: بمتحققين.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: وظهر لهم عقوبةُ أعمالِهم السيِّئةِ، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاطَ بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: من العذاب والنَّكال، ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾، أي: نُعامِلُكم معاملةَ الناسي لكم في نار جهنَّم، ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: فلم تعملُوا له لأنكم لم تُصدِّقوا به، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

[٦٠٢٣]وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العَبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسَخِّر لك الخيل والإِبل، وأذرك تَرأس وتَربَع؟(٢) فيقول: بلىٰ، يا رب. فيقول: أفظننتَ أنَّكَ مُلاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»(٣).

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٥٠ ومسلم ٢٨٤٦ والترمذي ٢٥٦١ وأحمد ٢/ ٤٥٠ وابن حبان ٧٢.

(٢) تراس: أي تكون رئيس القوم وكبيرهم. وتربع: أي تأخذ المرباع الذي كان ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة. (ومعناه ألم أجعلك رئيساً مطاعاً).

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٨ من حديث أبي هريرة، وتقدم في البقرة: آية ٤٦.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ ، أي: إنما جازيناكم هذا الجزاءَ لأنكم اتخذتم حُجَج الله عليكم سُخرِيًّا، تَسخرُون وتَستهزِئُون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ، أي: خَدَعَتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتُمْ من الخاسرين. ولهذا قال عز وجل: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ ، أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ، أي: لا يُطلَبُ منهم العُتْبى، بل يُعذَّبون بغير حساب ولا عِتابٍ، كما تدخلُ طائفةٌ من المؤمنين الجنةَ بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر تعالىٰ حُكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ ، أي: المالكُ لهما وما فيهما، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجَّد، الذي كلُّ شيءٍ خاضعٌ لَدَيه فقيرٌ إليه.

[٦٠٢٤] وقد وَرَد في الحديث الصَّحِيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزَارِي، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكنتُه ناري». رواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هُرَيرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن رسول الله ـ ﷺ ـ بنحوه[١] .

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ، أي: الذي لا يُغالبَ ولا يمانَع، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، تعالى وتَقدَّس، لا إله إلا هو.

## آخرُ تفسيرِ سُورَةِ الجاثيةِ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٥٢ ومسلم ٢٦٢٠ وأبو داود ٤٠٩٠ وابن ماجه ٤١٧٤ وأحمد ٢/ ٤١٤ وابن حبان ٣٢٨.

ترتيبها ٤٦ — سورة الأحقاف — آياتها ٣٥

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ (٦)﴾

يُخبِرُ تعالى أنه نزّل الكتاب على عبدِه ورسوله مُحمَّدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ ووصَفَ نفسه بالعزَّة التي لا تُرام، والحكمةِ في الأقوال والأفعالِ، ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: لا على وجه العبثِ والباطِل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: وإلى مُدَّةٍ مُعيَّنة مضروبةٍ لا تَزِيد ولا تَنقُص. وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾، أي: لاهُونَ عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتابٌ وأُرسِلَ إليهم رسولٌ، وهم مُعرِضُون عن ذلك كلِّه، أي: وسيعلَمُون غِبَّ ذلك. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي: لهؤلاء المشركين العابدينَ مع الله غيره: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟ أي: أرشِدُوني إلى المكانِ الذي استقلُّوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: ولا شِرْكَ لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملِكُون من قطمير، إن المُلْكُ والتصرُّفُ كُلَّه إلا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فكيف تَعبدُون معه غيرَه، وتُشركُون به؟ مَن أرشدكُم إلى هذا؟ مَن دعاكُم إليه؟ أهُو أَمَرَكم به؟ أم هو شيءٌ اقترحتُموه من عندِ أنفُسكم؟ ولهذا قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾، أي: هاتوا كتاباً من كُتُبِ الله المُنزَّلة على الأنبياء ـ عليهم الصلاةُ والسلامُ ـ يأمركم بعبادةِ هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، أي: دليلٍ بيِّن على هذا المسلكِ الذي سَلَكتُموه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: لا دَليلَ لكم نَقْلياً ولا عَقلياً على ذلك. ولهذا قرأ آخرون: «أو أثَرَة من علم»، أي: أو عِلْم صحيح يَأثُرونه عن أحدٍ ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحدٍ يأثُر عِلْماً. وقال العَوفي، عن ابن عباس: أو بيِّنةٍ منَ الأمرِ.

[٦٠٢٥] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن سُلَيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلمُ إلاَّ عن النبي ـ ﷺ ـ: «أو أثَرة من علم»، قال:

«الخط»[1]. وقال أبو بكر بن عيَّاش: أو بَقِيَّة من علم. وقال الحسن البصري: أو أثارة شيء يَستخرجُه فَيُثيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضاً: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، يعني: الخط. وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم. وكلُّ هذه الأقوال متقاربةٌ، وهي راجعةٌ إلى ما قلناه. وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه.

وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥﴾، أي: لا أضل ممن يدعو أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقولُ، لا تسمعُ ولا تُبصِرُ ولا تَبطِشُ، لأنها جمادٌ، حِجارةٌ صُمّ. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]، أي: سَيخُونُونَهم أحوجَ ما يكونون إليهم، وقال الخليلُ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين في كُفرهم وعِنادهم: أنهم إذا تُتلَى عليهم آياتُ الله بَيّناتٍ، أي: في حال بيانها ووُضُوحِها وجَلائها، يقولون: ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: سحرٌ واضحٌ، وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكَفَروا. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، يعنُون محمداً ـ ﷺ ـ. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: لو كذبتُ عليه وزعمتُ أنه أرسلني ـ وليس كذلك ـ لعاقبني أشدَّ العُقوبة، ولم يَقدِرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيرُكم، أن يُجيرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]. ولهذا قال سبحانه وتعالىٰ هاهنا: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾. هذا تهديدٌ لهم، ووعيدٌ أكيدٌ، وترهيبٌ شديدٌ. وقولُه جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبةِ والإنابةِ، أي: ومَعَ هذا كلِّه إن رجعتُم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفَر ورَحِم. وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: لستُ بأوّلِ رسولٍ طرَق العالم، بل قد جاءت الرسلُ من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظيرَ له حتى تَستنكِرُوني وتستبعدُوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميعَ الأنبياء إلى الأمم. قال ابنُ عباس،

(١) الصحيح موقوف، أخرجه أحمد ٢٢٦/١ والطبراني ١٠٧٢٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٣٥: رجال أحمد رجال الصحيح اهـ. قلت: لكن شك سفيان في رفعه، وقد أخرجه الطبري ٣١٢٢٣ من طريق أبي عاصم عن الثوري موقوفاً.

ومجاهدٌ، وقتادةُ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحكِ ابنُ جريرٍ ولا ابن أبي حاتم غيرَ ذلك. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآيةِ: نَزَل بعدها ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادةُ: إنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولمّا نزلت هذه الآيةُ قال رجلٌ من المسلمين: هذا قد بيَّن الله تعالىٰ ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعلٌ بنا؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال[١].

[٦٠٢٦]والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هَنيئاً لك يَا رسولَ اللهِ، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية[٢]. وقال الضحّاك: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: ما أدري بماذا أؤمَر، وبماذا أُنهى بعد هذا؟ وقال أبو بكر الهُذَلي، عن الحسن البصري في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، قال: أما في الآخرة فمعاذَ الله قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدرِي ما يُفعَل بي ولا بِكُم في الدنيا، أُخرَجُ كما أُخرِجَتِ الأنبياءُ قبلي؟ أم أُقتَلُ كما قُتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أَيُخسَفُ بكم أو تُرمَون بالحجارة؟ وهذا القولُ هو الذي عَوّل عليه ابنُ جرير، وأنه لا يجوزُ غيره، ولا شكَّ أن هذا هو اللائقُ به ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازمٌ أنه يَصير إلى الجنةِ هو ومن اتَّبعه، وأما في الدنيا فلم يَدْرِ ما كان يَؤول إليه أمرُه وأمرُ مشركي قُرَيشٍ إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفُرون فَيُعذَّبُون فَيُستأصلُون بكفرهم؟

[٦٠٢٧]فأمّا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ وهي امرأة من نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعَت رسول الله ـ ﷺ ـ قالت: طار لهم في السّكنى حين اقترعت الأنصارُ على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون فاشتكى عثمانُ عندنا فَمرَّضناهُ، حتى إذا توفي أدرَجناه في أثوابه، فدخل علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقلت: رحمةُ الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمَك الله عز وجل. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وما يُدريك أن الله أكرمه؟». فقلت: لا أدرِي بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أما هو فقد جاءه اليقينُ من ربه، وإني لأرجُو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي!» قالت: فقلت: والله لا أُزكّي أحداً بعدَه أبداً. وأحزنني ذلك، فَنِمْتُ فرأيت لعثمان عيناً تجري، فَجئتُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأخبرتُه بذلك، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذاك عملُه»[٣]. فقد انفرد بإخراجه البخاريُّ دونَ مُسلِم، وفي لفظٍ له: «ما أدري وأنا رسولُ الله ما يُفعَلُ به». وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: فأحزنني ذلك. وفي هذا وأمثاله دلالةٌ على أنه لا يُقطَع لِمُعيَّن بالجنة إلا الذي نص الشارعُ علىٰ تَعيينهم، كالعَشرة، وابن سَلاَم، والغُميصاء[٤]، وبلال، وسُرَاقة، وعبد الله بن عَمرو بن حَرَام والد جابر، والقراء السبعين الذي قُتِلوا ببئر معونة، وزيدِ بن حارثة، وجعفر، وابن رواحةَ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم. وقولُهُ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، أي: إنما أَتّبعُ ما يُنزلُه الله عليّ من الوحي، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن النّذارة، وأمري ظاهرٌ لكلِّ ذِي لُبٍّ وعقلٍ. والله أعلم.

---

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب «قالوا».

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨٦ والطبري ٣١٢٤٠ وسيأتي في سورة الفتح.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٤٣ وأحمد ٤٣٦/٦.

(٤) ويقال الرميصاء. هي أم سليم والدة أنس بن مالك، انظر الإصابة ٣٠٨/٤ ـ ٣٧٣.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي: ما ظنُّكم أن الله صانعٌ بكم إن كان هذا الكتابُ الذي جئتُكم به قد أنزلَه علي لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذَّبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، أي: وقد شهدت بصدقه وصِحَّته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بَشَّرت به وأخبرت بمثل ما أخبَرَ هذا القرآنُ به. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَـَٔامَنَ﴾، أي: هذا الذي شَهِد بصدقِه من بني إسرائيلَ لمعرفته بحقيقته ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعِهِ. وقال مسروق: فآمن هذا الشاهدُ بنبيه وكتابه، وكفرتُم أنتم بنبيِّكم وكتابكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وهذا الشاهد اسمُ جنسٍ يعم عبدَ الله بن سَلاَم وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام. وهذه كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨]. قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مَكِّيَّة، وإسلام عبد الله بن سلام كانَ بالمدينة. رواه عنهما ابنُ جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير.

[٦٠٢٨] وقال مالك، عن أبي النَّضر، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سَلاَم، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾(١). رواه البخاريُّ ومسلم والنسائيُّ، من حديث مالك، به. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحَّاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سَلاَم، وهلال بن يَساف، والسديُّ، والثوري، ومالك بن أنس، وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سَلاَم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون بلالاً وعمَّاراً وصُهيباً وخباباً وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيدِ والإماءِ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهةً وله بهم عنايةً. وقد غَلِطوا في ذلك غَلَطاً فاحشاً، وأخطؤوا خطأً بيِّناً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، أي: يتعجبُون كيف اهتدَى هؤلاء دوننا. ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وأما أهلُ السنةِ والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بِدْعةٌ، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركُوا خَصلةً من خِصَالِ الخير إلا وقد بادروا إليها. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ﴾، أي: كَذِبٌ ﴿قَدِيمٌ﴾، أي: مأثور عن [الناس] الأقدمين، فينتقصُون القرآنَ وأهله.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨١٢ ومسلم ٢٤٨٣ والنسائي ١٤٨ وأحمد ١/ ١٦٩ وابن حبان ٧١٦٣.

[٦٠٢٩] وهذا هو الكبرُ الذي قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بَطَرُ الحقِّ، وغَمطُ الناس»(١).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، وهو التوراةُ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، يعني القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: لما قبله من الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: فَصِيحاً بيِّناً واضِحاً، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: مشتمل على النِّذارة للكافرين والبِشَارة للمؤمنين. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، على ما خلَّفُوا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، أي: الأعمالُ سببٌ لنيلِ الرحمةِ لهم وسُبُوغِها عَلَيهم؛ والله أعلم.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيدَ له وإخلاَص العبادةِ والاستقامةِ إليه عَطَف بالوصيَّة بِالوالدين، كما هو مقرونٌ في غير ما آيةٍ من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال جل جلاله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآياتِ الكثيرةِ. وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾، أي: أمرناه بالإحسانِ إليهما والحُنوِّ عليهما.

[٦٠٣٠] وقال أبو داودَ الطيالسي: حدثنا شعبةُ، أخبرني سماكُ بن حرب قال: سَمِعت مُصْعَب بن سَعدٍ يُحدِّث عن سعد قال: قالت أُمُّ سعدٍ لسعدٍ: أليس قد أمر الله بطاعةِ الوالدين، فلا آكلُ طعاماً، ولا أشرَبُ شراباً حتى تكفُرَ بالله. فامتنعت من الطعام والشرابِ، حتى جَعَلُوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ . . . الآية(٢). ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شُعبَةَ بإسناده، نحوه وأطولَ منه. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾، أي: قاست بِسَببه في حال حَمْلِه مشقةً وتعباً، من وِحَام وغَثَيانٍ وثِقَل وكَرْب، إلى غير ذلك مما ينال الحواملَ من التَّعب والمشقَّة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي: بمشقَّةٍ أيضاً من الطَّلْقِ وشِدَّته، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدلَّ علي ـ رضي الله عنه ـ بهذه الآية مع التي في لُقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقلَّ مُدَّةِ الحملِ ستةُ أشهر، وهو استنباطٌ قويٌ صَحِيحٌ. ووافقه عليه عثمانُ وجماعةٌ من الصحابةِ، رضي الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن يزيدَ بن عبد الله بن قُسَيط، عن بَعجَة بن عبد الله الجُهَنيِّ قال: تَزَوَّج رجلٌ منَّا امرأةً من جُهَينةٍ، فَوَلدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجُها إلى عثمانَ فذكر ذلك له، فَبعث إليها، فلما قامت لِتلبسَ ثيابَها بكت أختُها، فقالت: ما يُبكِيك؟! فوالله ما التبسَ بي أحدٌ مِن خَلْقِ الله تعالىٰ

---

(١) تقدم تخريجه. في البقرة: ٦١، وآل عمران: ٢٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم وغيره، وتقدم في مطلع سورة التوبة.

غيرُه قَطُّ، فَيَقضِي الله فيّ ما شاء. فلما أتىَ بها عثمانَ أمر برجمها، فَبلَغ ذلك علياً فأتاه، فقال له: ما تصنعُ؟ قال: وَلَدت تماماً لستَّةِ أشهُرٍ، وهل يكون ذلك؟! فقال له عليٌّ: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سَمِعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾. فلم نَجِدْه بَقِي إلا ستّةُ أشهُر، قال: فقال عثمانُ رضي الله عنه: والله ما فَطِنْتُ لهذا، عَلَيَّ بالمرأةِ. فوجدُوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغرابُ بالغرابِ، ولا البيضةُ بالبيضةِ بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني. والله لا أشكُّ فيه. قال: وأبلاه الله بهذه القَرْحَةَ، قَرْحَةَ الآكِلة، فما زالت تأكلهُ حتى ماتَ. رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله عز وجل: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَةُ بن أبي المَغْرَاء، حدثنا علي بن مُسهِر، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعةِ أشهر كفاه من الرَّضاع أحدٌ وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثةٌ وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولَين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، أي: قَوِيَ وشَبَّ وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، أي: تناهى عقلُه وكَمَلَ فهمُه وحِلمُه. ويقال: إنه لا يتغيَّر غالباً عما يكون عليه ابنُ الأربعين. قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يُؤخَذُ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغتَ الأربعين فَخُذْ حِذْرَكَ.

[٦٠٣١] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبَيد الله القواريري، حدثنا عَزْرَة بن قيس الأزدِيُّ ـ وكان قد بلغ مئة سنة ـ حَدَّثنا أبو الحسن الكوفي عَمْرو بن أوس قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «العبدُ المسلمُ إذا بلغَ أربعين سنةً خَفَّفَ الله حسابَه، وإذا بلغ سِتِّين سنةً رَزَقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعينَ سنةً أحبّه أهلُ السماء، وإذا بلغ ثمانينَ سنةً ثَبَّتَ الله حَسَناتِه ومحا سَيِّئاته، وإذا بلغ تسعين سنةً غَفَرَ الله له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّر، وشَفَّعَه الله في أهل بيتِهِ، وكَتَب في السماء: أَسِيرُ الله في أرضِهِ»(١). وقد رُوِي هذا من غَيْر هذا الوجه، وهو في مسند الإمام أحمد. وقد قال الحجاجُ بن عبد الله الحَكَمِيُّ أحد أُمَراء بني أمية بدمشقَ: تركتُ المعاصي والذنوبَ أربعينَ سنةً حياءً من الناس، ثم تركتُها حياءً من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. وما أحسَنَ قولَ الشاعِرِ:

صَبَا ما صَبَا حَتى عَلاَ الشَّيبُ رَأسَهُ ... فَلَمَّا عَلاه قَالَ لِلبَاطِلِ: ابطُلِ

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾، أي: أَلْهِمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، أي: في المستقبل، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾، أي: نَسْلي وعَقِبي، ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وهذا فيه إرشادٌ لمن بَلَغ الأربعينَ أن يُجَدِّد التوبة والإنابةَ إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ويعزم عليها.

[٦٠٣٢] وقد روى أبو داود في سُنَنِه، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يُعَلِّمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهمَّ، ألِّف بين قلوبنا، وأَصْلِحْ ذاتَ بَيْنِنا، واهدِنا سُبُل السلامَ، ونَجِّنا من الظلمات إلى النور، وجَنِّبنا الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَن، وبارك لنا في أسماعِنا وأبصارِنا وقُلوبنا، وأزواجنا وذُرِّياتنا، وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرينَ لنعمتك، مُثنين بها قَابِليها، وأتمِمْها

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المجمع» ١٧٥٦٣ وقال الهيثمي: فيه عزرة بن قيس الأزدي، وهو ضعيف اهـ. وورد بنحوه عن جماعة من الصحابة، تقدم أكثرها، وانظر «المجمع» ١٠/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

علينا»[١]. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي: هؤلاء المُتَّصِفُون بما ذُكِرَ، التائبون إلى الله المُنِيبون إليه، المُستدرِكُون ما فات بالتوبةِ والاستغفارِ، هم الذين نَتَقَبَّل عنهم أحسنَ ما عملوا، ونتَجاوز عن سيئاتهم، فنغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهُم اليَسيرَ من العمل، ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: هم في جملة أصحاب الجَنَّةِ، وهذا حكمُهم عند الله كما وَعَد الله عز وجل مَن تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

[٦٠٣٣] قال ابنُ جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المُعتمِرُ بن سُليمان، عن الحكم بن أبانَ، عن الغِطْرِيف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ عن الروح الأمين ـ عليه السلام ـ قال: «يُؤتَى بحسَنَاتِ العبد وَسيِّئاته، فيُقتَصُّ بعضها ببعض، فإن بقيت حسنةٌ وَسَّع الله تعالىٰ له في الجنة». قال: فدخلتُ على يَزْدادَ فَحدَّث بمثل هذا، قال: قلت: فإن ذهبتِ الحسنةُ؟ قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[٢]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله ـ وزاد: عن الروح الأمين. قال: «قال الربُّ ـ جَلَّ جلالهُ ـ يُؤتَى بحسنات العبدِ وسَيِّئاته...» فذكره، وهو حديث غريبٌ، وإسنادٌ جيّدٌ لا بأسَ به[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُليمان بن مَعْبَدٍ، حدثنا عَمرو بن عاصم الكِلابيّ، حدثنا أبو عَوانة، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشية، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطبٍ قال: ونَزَل في داري حيث ظهر عليّ على أهل البصرة، فقال لي يوماً: لقد شَهِدتُ أمير المؤمنين علياً وعنده عمّارٌ، وصعصعةُ، والأشتر، ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمانَ فنالُوا منه، وكان عليٌّ على السَّرير، ومعه عُودٌ في يَدِهِ، فقال قائلٌ منهم: إنَّ عندكم مَن يَفْصِلُ بينكم. فَسألُوه، فقال علي: كان عثمانُ من الذين قال الله تعالىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال: والله عثمانُ وأصحابُ عثمانَ. قالها ثلاثاً، قال يوسفُ: فقلتُ لمحمَّد بن حاطب: آلله لَسَمِعتَ هذا من عليٍّ؟ قال: آللهِ لَسَمِعتُ هذا من عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) الصحيح موقوف. أخرجه أبو داود ٩٦٩ من طريق شريك عن جامع بن شداد عن أبي وائل، عن ابن مسعود، وشريك ساء حفظه لما تولى القضاء، وسياق أبي داود يشعر بوقفه، راجعه، وهو الصواب.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٢٧١، ورجاله ثقات، سوى الغطريف: وهو أبو هارون اليماني، فلم يوثقه سوى ابن حبان، وذكره البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» من غير جرح ولا تعديل. ولم يرو عنه أحد من أصحاب الكتب الستة، وهذا دليل على جهالته، والحكم بن أبان، وإن وثقهُ الأكثر، فقد ضعفه ابن المبارك، وقال ابن عدي: فيه ضعف. ثم إن المتن غريب. فهو إلى الضعف أقرب، والله أعلم.

(٣) بل إسناده لين إلى الضعف أقرب كما تقدم.

لما ذكر تعالى حالَ الداعين للوالدين البارّين بهما وما لهم عندَه من الفوز والنجاة، عَطَف بحال الأشقياءِ العاقّين للوالدين فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾. وهذا عامٌ في كلِّ مَن قال هذا، ومَن زَعم أنها نَزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقولُه ضَعيفٌ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلَم بعد ذلك وحَسُن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. ورَوَى العَوفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق. وفي صِحَّة هذا نظر، والله أعلم. وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر. قاله ابن جُرَيج: وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر. وهذا أيضاً قولُ السديّ. وإنما هذا عام في كل من عَقّ والديه وكَذَّب بالحق، فقال لوالديه: «أف لكما»، عقّهما.

[٦٠٣٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبدُ الله بن المديني قال: إني لَفِي المسجدِ حين خَطَب مَرْوانُ، فقال: إن الله تعالىٰ قد أرى أمير المؤمنين في يزيدَ رأياً حسناً، وَإن يستخلِفْه فقد استخلَفَ أبو بكر وعُمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهِرَقليَّةٌ؟! إن أبا بكر والله ما جَعَلها في أحد من وَلَدِهِ، ولا أحدٍ من أهل بيته، ولا جَعَلها معاويةُ في ولده إلا رحمةً وكرامةً لِوَلَدِه. فقال مَرْوانُ: ألست الذي قال لوالديه: أُفٍ لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألستَ ابنَ اللَّعِين الذي لَعَن أباك رسولُ الله ـ ﷺ ـ. قال: وسَمِعتَها عائشة فقالت: يا مَرْوان، أنت القائلُ لعبدِ الرحمن كذا وكذا؟ كذبتَ، ما فيه نزلَتْ، ولكن نَزَلت في فلانِ ابنِ فلانٍ، ثم انتحَب مَرْوان، ثم نزل عن المِنْبَر حتى أتى باب حُجرَتها، فَجَعل يُكلِّمها حتى انصرفَ[(١)].

[٦٠٣٥] وَقد رَواه البخاريُّ بإسنادٍ آخرَ ولفظ آخَرَ. فقال: حدثنا موسى بنُ إسماعيل، حَدَّثنا أبو عَوانَةِ، عن أبي بِشَر، عن يُوسُفَ بن مَاهَكَ قال: كان مَرْوانُ على الحِجَازِ، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب فَجَعَل يذكرُ يزيد بنَ معاوية لكي يُبايعَ له بعدَ أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خُذُوه. فَدَخل بيتَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلم يقدروا عليه، فقال مَرْوان: إنَّ هذا الذي أُنزل فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾. فقالت عائشة مِن وراء الحِجَابِ: ما أنزلَ الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذْرِي[(٢)].

[٦٠٣٦] طريقٌ أُخرَى، قال النسائيُّ: حدثنا عليّ بن الحسين، حَدَّثنا أميّة بن خالد، حدثنا شعبةُ، عن محمد بن زيادٍ قال: لما بايَعَ معاويةُ لابنه قال مَرْوان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبدُ الرحمن بن أبي بكر: سُنَّةُ هِرَقْلَ وقَيْصَرَ. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالىٰ فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾... الآية، فَبَلغ ذلك عائشةَ فقالت: كَذَب مَرْوَانُ، والله ما هُوَ به، ولو شِئتُ أن أُسمّي الذي أُنزِلَتْ فيه لَسَمَّيته، ولكن رَسُول الله ـ ﷺ ـ لعن أبا مَرْوان ومروان في صُلبِهِ، فَمَرْوَانُ فَضَضٌ من لَعْنَةِ الله[(٣)].

وقولُهُ: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾، أي: أُبعَثَ ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾، أي: قد مضى الناسُ فلم يرجع منهم مُخبِر، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾، أي: يسألان الله فيه أن يَهدِيَه ويَقُولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. قال الله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ

---

(١) إسناده غير قوي، عبد الله المديني مضطرب الحديث؛ والصحيح ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٢٧.

(٣) أخرجه النسائي في التفسير ٥١١ وإسناده ضعيف، محمد بن زياد لم يسمع من عائشة، وما قبله في صحيح البخاري، ليس فيه ذكر اللعن، والله أعلم. والفضض: كل ما انقطع من شيء أو تفرّق.

ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾، أي: دَخلوا في زُمرةِ أشباهِهم وأضرابِهم من الكافرين الخاسرين أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ. وقولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ﴾ دليلٌ على ما ذكرناه من أنه جنسٌ يَعُمُّ كُلَّ مَن كان كذلك. وقال الحسنُ، وقتادةُ: هو الكافرُ الفاجرُ العاقُّ لوالِدَيه، المكذِّبُ بالبَعثِ.

[٦٠٣٧] وقد روى الحافظُ ابنُ عَساكر في ترجمة سَهل بن داود، من طريق هشام بن عَمّار: حدثنا حمّاد بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبي، عن سُليمان بن حَبيب المحاربي، عن أبي أمامة الباهِليِّ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «أربعةٌ لعنهم الله من فَوْقِ عَرْشِهِ، وأَمَّنت عليهم الملائكة: مُضِلُّ المساكين ـ قال خالد: الذي يَهْوي بيده إلى المسكين فيقول: هَلُمَّ أُعطِيك، فإذا جاءه قال: ليس معي شيء ـ والذي يقول للمكفوف: اتق الدابة وليس بين يَدَيه شيءٌ، والرجُلُ يُسألُ عن دار القوم فَيَدُلُّونه على غيرها، والذي يَضرِب الوالِدَين حتى يَستغيثا»[1]. غريب جداً.

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، أي: لِكُلٍّ عذابٌ بحسَبِ عَمَله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا يَظْلِمُهم مثقالَ ذَرَّةٍ فما دُونها. قال عبدُ الرحمن بنُ زَيدِ بن أسلَم: درجات النار تَذهَبُ سَفالاً، ودرجاتُ الجنة تذهَبُ عُلُوّاً. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، أي: يُقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً. وقد تَورّع أميرُ المؤمنين عُمَر بنُ الخطاب ـ رَضِي الله عنه ـ عن كَثيرٍ من طَيِّباتِ المآكل والمشاربِ، وتَنزّه عنها، ويقول: أخافُ أن أكونَ كالذين قال الله تعالى لهم وقرّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾. وقال أبو مِجْلَز: ليتفقَّدنَ أقوامٌ حَسَناتٍ كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فَجُوزوا من جنس عملهم، فكما نَعّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحقِّ، وتعاطَوا الفِسْق والمعاصي، جازاهُم الله تبارك وتعالىٰ بعذابِ الهُونِ، وهو الإهانة والخِزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازلِ في الدركاتِ المُفْظِعَةِ، أجارنا الله سبحانه وتعالىٰ من ذلك كله.

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مُسلّياً لنبيه في تكذيب من كذّبه من قومه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، وهو هودٌ ـ عليه السلام ـ، بَعثه الله عز وجل إلى عادٍ الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حِقْف وهو: الجَبَل من الرَّمْلِ ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجَبَلُ والغارُ. وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: الأحقاف: وادٍ بحضرمَوتٍ، يُدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادةُ: ذُكر لنا أن عاداً كانوا حيّاً باليمن أهلَ رملٍ مُشرفين على البحرِ بأرضٍ يقال لها: الشِّحْر.

(١) إسناده ضعيف جداً. له علتان: حماد بن عبد الرحمن، هو الكلبي. ضعفه أبو حاتم وغيره كما في «الميزان» ٢٢٥٦. وشيخه خالد بن الزبرقان قال أبو حاتم: منكر الحديث. راجع «الميزان» ٢٣٢٢. والمتن منكر جداً. وقد استغربه ابن كثير رحمه الله.

[٦٠٣٨] قال ابنُ ماجه: (بابٌ إذا دَعَا فَلْيَبدأ بنفسِهِ): حدثنا الحسن[(١)] بن علي الخَلاَّل، حدثنا زيدُ بن الحُبابِ، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يَرْحمُنا الله، وأخا عاد»[(٢)].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾: يعني وقد أرسَلَ الله تعالىٰ إلى مَن حَول بلادِهم في القُرى مُرسَلين ومُنذِرين، كقوله عز وجل: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله جـل وعـلا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ١٣ ـ ١٤]، أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾، أي: لِتَصُدَّنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، استعجَلُوا عذابَ الله وعقُوبته، استبعاداً منهم وُقُوعه، كقوله جلت عظمته: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: الله أعلمُ بكم إن كنتم مُستحِقِّين لتعجيل العذابِ فسيفعلُ ذلك بكم، وأما أنا فمن شاني أني أُبلِغَكُم ما أرسِلْتُ به، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، أي: لا تَعقِلُون ولا تَفهَمُونَ. قال الله تَعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾، أي: لما رَأَوا العذابَ مُستقبِلَهُم اعتقَدُوا أنه عارضٌ ممطرٌ، فَفَرِحُوا واستبشَرُوا، وقد كانوا مُمحِلينَ محتاجِينَ إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: هو العذابُ الذي قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ﴿تُدَمِّرُ﴾، أي: تُخرِّب ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من بلادهم مما مِن شأنِه الخرابُ ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، أي: بإذنِ الله لها في ذلك، كَقَولِه سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]، أي: كالشيءِ البالي. ولهذا قال عز وجل: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾، أي: قد بادوا كلُّهم عن آخِرِهم ولم تبقَ لهم باقيةٌ، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: هذا حكمُنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا. وقد ورد حديثٌ في قِصَّتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديثِ وأفرادِه.

[٦٠٣٩] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثني أبو المنذر سَلاَّم بن سُليمان النحويُّ قال: حدثنا عاصِمُ بن أبي النَّجود، عن أبي وائل، عن الحارث البَكْرِي قال: خرجتُ أشكو العلاء بن الحَضْرَميِّ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فمررت بالرَبذَةِ، فإذا عجوزٌ من بني تميم مُنقَطِعٌ بها، فقالت لي: يا عبدَ الله، إنَّ لي إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ حاجةً، فهل أنتَ مُبلغي إليهِ؟ قال: فحملتها فأتيتُ المدينة، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهلِه، وإذا رايةٌ سوداءُ تُخفِقُ، وإذا بلال مُتقَلِّدٌ السيفَ بين يَدَيْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يُريد أن يبعَثَ عَمرو بن العاص وَجْهاً. قال: فجلستُ، فدخل منزله ـ أو قال: رَحْلَه ـ فاستأذنتُ عليه، فأذن لي، فدخلتُ فَسلَّمتُ، فقال ﷺ: «هل كان بينكم وبين تميم شيءٌ؟» قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبرَةَ عليهم، ومررت بعجُوزٍ من بني تميم مُنقَطِعٍ بها، فسألتني أن أحمِلَها إليكَ، وها هي بالباب. فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيتَ أن تجعَلَ بيننا وبين تميم حاجِزاً فاجعل الدهناء. فَحَمِيَتِ العجوزُ واستوفَزَتْ، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطرُ مُضَرُكَ؟ قال: قلت: إن مَثَلي ما قال الأول: «مِعْزَى حَمَلت حَتْفها»،

(١) وقع في الأصل «الحسين» والتصويب عن سنن ابن ماجه.

(٢) حسن. أخرجه ابن ماجه ٣٨٥٢ وإسناده ضعيف، فيه عنعنة أبي إسحاق، وزيد بن الحباب، قال ابن معين: روىٰ عن الثوري أحاديث مقلوبة.

حَمَلْتُ هذه ولا أشعرُ أنها كانت لي خَصْماً، أعوذ بالله ورسولِه أن أكونَ كوافدِ عادٍ. قال: «هِيَه، وما وافِدُ عادٍ؟» ـ وهو أعلَمُ بالحديث منه، ولكن يَسْتَطعِمُه ـ قلت: إن عاداً قُحِطُوا فَبَعثُوا وافداً لهم يقال له: قَيلٌ، فمر بمعاويةَ بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمرَ وتُغَنِّيه جاريتان ـ يقال لهما: الجرادتان ـ فلما مَضَى الشهر خَرَج إلى جبال مَهْرَةَ فقال: اللهُمّ، إنكَ تعلمُ أني لم أجيء إلى مريضٍ فَأُداويَه، ولا إلى أَسِير فأفاديَه، اللهم اسق عاداً ما كنت تَسْقيه. فَمَرّتْ به سحاباتٌ سُودٌ، فَنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداء، فنُودِيَ منها: خذها رماداً رِمْدِداً، لا تُبقِي من عادٍ أحداً. قال: فما بلغني أنه أُرسِلَ عليهم من الريح إلا كَقَدْرِ ما يجري في خاتَمي هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصَدَق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بَعَثُوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد[1]. رواه الترمذي والنَّسائيُّ وابن ماجه، كما تَقَدّم في سورة الأعراف.

[٦٠٤٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هارونُ بنُ مَعرُوفٍ، أخبرنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرنا عَمْرو: أن أبا النَّضر حَدَّثه عن سُلَيمان بن يَسَار، عن عائشةَ أنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ مُستَجْمِعاً ضاحكاً حتى أَرَى منه لَهَواتِه، إنما كان يتبسم. قالت: وكانَ إذا رأى غَيماً ـ أو رِيحاً ـ عُرِف ذلك في وجهه، قالت: يا رسولَ الله، الناسُ إذا رأوا الغيمَ فَرِحُوا رجاءَ أن يكون فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيته عُرِفَت في وَجهِكَ الكراهيةُ؟ فقال: «يا عائشةُ، ما يُؤمِنُني أن يكونَ فيه عذابٌ، قد عُذِّب قومٌ بالريحِ، وقد رَأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارِضٌ مُمطِرُنا»[2]. وأخرجاه من حديث ابن وهب.

[٦٠٤١] طريقٌ أُخرى، قال [الإمام] أحمدُ: حدثنا عبدُ الرحمن، عن سفيان، عن المقدام بن شُرَيح، عن أبيه، عن عائشةَ أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء، تَرَكَ عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «اللهُمّ، إني أعوذُ بك من شَرِّ ما فيه». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطَرَت قال: «اللهُمّ، صيباً نافعاً»[3].

[٦٠٤٢] طريقٌ أخرى، قال مُسلِمٌ في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابنُ وهب، سَمِعتُ ابن جُرَيج يُحدِّث عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا عَصَفت الريحُ قال: «اللهُمّ، إني أسألُكَ خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأعوذُ بكَ من شَرِّها، وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَتْ بِهِ». قالت: وإذا تَخيَّلتِ السماء تَغيَّر لونُه، وخَرَج ودَخَل، وأقبلَ وأدبَرَ، فإذا مَطَرَتْ سُرِّي عنه، فَعرَفت ذلك عائشةُ فَسَألته فقال: «لعلَّه يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[4]. وقد ذكرنا قصّة هلاك عاد في سُورَتي الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمدُ والمنّة.

[٦٠٤٣] وقال الطَّبرانيُّ: حدثنا عَبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك، عن مُسلِم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما فُتِح على عاد من الريح إلا مثلُ مَوضِعِ الخاتَم، ثم أرسِلَتْ عليهم في البَدْوِ إلى الحَضَر فلما رآها أهلُ الحضَرَ قالوا: هذا عارِضٌ مُمطِرُنا مُستقبلُ أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فَأُلقِي أهلُ الباديةِ على أهل الحاضِرَة حتى

---

(١) تقدم تخريجه في الأعراف.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ٦٦ والبخاري ٤٨٢٨ ومسلم ٨٩٩/ ١٦.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ١٩٠.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٥ (٨٩٩).

هَلَكُوا». قال: «عتت على خزَّانها حتى خَرَجت من خِلالِ الأبوابِ»[1]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقولُ تعالى: ولقد مَكَّنَّا الأُمَمَ السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نُعطِكم مثلَه ولا قريباً منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: وأحاط بهم العذابُ والنَّكالُ الذي كانوا يُكذِّبون به ويَستبعِدُون وقوعَه، أي: فاحذروا أيُّها المخاطَبُون أن تكونوا مثلَهم، فيُصِيبَكم مثلُ ما أصابَهُم من العذابِ في الدنيا والآخِرةِ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾، يعني أهلَ مكَّةَ، قد أهلك الله الأُمَمَ المكذبة بالرسل مما حَولها كعادٍ، وكانوا بالأحقاف بحَضْرَموتَ عند اليمن، وثَمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سَبأ وهُم أهلُ اليمن، ومَدْيَنَ وكانت في طريقهم ومَمَرِّهم إلى غزَّة، وكذلك بحيرة قوم لُوطٍ، كانوا يمرون بها أيضاً. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾، أي: بَيَّناها ووَضَّحناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾، أي: فَهَل نَصَرُوهم عند احتياجهم إليهم؟ ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾، أي: بل ذَهَبُوا عنهم أحوجَ ما كانوا إليهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾، أي: كَذِبُهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: وافتراؤُهم في اتِّخاذهم إيَّاهم آلهةً، وقد خابُوا وخَسِرُوا في عِبادَتِهم لها، واعتمادِهم عَلَيها والله أعلم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

[٦٠٤٤] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيان، حدثنا عَمرو: سَمِعْتُ عِكْرِمَة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، قال: بنخلَة، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي العِشاءَ الآخِرَةَ، ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، قال سُفيان: اللِّبَد: بعضُهم على بعض، كاللبد بعضُه على بَعْضٍ[2]. تفرَّد به أحمد، وسيأتي من رِوَاية ابنِ جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس أنهم سبعةٌ من جِنِّ نَصِيبِينَ.

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٢٤١٦ من حديث ابن عباس. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٦٧: فيه مسلم المُلائي، وهو ضعيف. وورد من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني ١٣٥٥٣ وفيه مسلم الملائي أيضاً، وهو ضعيف، والأشبه فيه الوقف، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٦٧، وإسناده ضعيف، عكرمة لم يدرك الزبير.

[٦٠٤٥] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانة (ح) ـ. وقال الإمامُ الشهير الحافظ أبو بكر البَيهقِيُّ في كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عَوَانَة ـ عن أبي بشر ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ على الجنِّ ولا رآهُم، انطلق رسول الله ـ ﷺ ـ في طائفةٍ من أصحابِهِ عامِدِين إلى سوق عُكاظٍ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خَبَرِ السماء، وأُرسِلَت عليهم الشهُب، فَرَجعت الشياطينُ إلى قومهم فقالوا: ما لَكُم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خَبَرِ السماء، وأرسلت علينا الشهُبُ. قالوا: ما حال بينكم وبين خَبَر السماء إلا شيءٌ حَدَث، فاضربوا مشارِقَ الأرضِ وَمَغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خَبَر السماءِ، فانطلقوا يضربون مشارِقَ الأرض وَمَغارِبها، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خَبَرِ السماء، فانصرف أولئك النفرُ الذين توجَّهوا نحو تِهامَةَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بنخلَةَ عامِداً إلى سوق عُكَاظٍ، وهو يُصَلِّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سَمِعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا ـ والله ـ الذي حال بينكم وبين خَبَر السماء. فهنالك حين رَجَعُوا إلى قومهم قالوا يا قومنا إنا سَمِعنا قرآناً عَجَباً يَهدِي إلى الرشدِ فآمنَّا به ولن نُشرِكَ بِرَبِّنا أحداً. وأنزل الله على نَبِيِّه ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، وإنما أُوحِي إليه قولُ الجنِّ[١]. رواه البخاريُّ عن مسَدّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فَرّوخ، عن أبي عَوَانة، به. ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ في التفسير، من حديث أبي عوانة.

[٦٠٤٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان الجنّ يستمعون الوَحْي، فَيَسمَعُون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكونُ ما سَمِعوا حقّاً وما زَادُوا باطلاً، وكانت النجومُ لا يُرمَى بها قبلَ ذلك، فلما بُعِثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ كان أحدُهم لا يأتي مقعَدَه إلا رُميَ بشهابٍ يُحرِقُ ما أصاب، فَشَكَوا ذلك إلى إبليسَ فقال: ما هذا إلا من أمرٍ قد حَدَثٍ. فبثّ جُنودَه، فإذا بالنبي ـ ﷺ ـ يُصَلِّي بين جَبَلي نَخلَةَ، فأتوه فأخبرُوه، فقال: هذا الحَدَثُ الذي حَدَث في الأرض[٢]. ورَوَاه الترمذيُّ والنسائيُّ في كتابي التفسير من سُنَنَيهِما، من حديث إسرائيلَ، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صحيحٌ» وهكذا رَوَاه أيوب عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس. وكذا رواه العَوفي، عن ابن عباس أيضاً بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصري: إنه ـ عليه السلام ـ ما شعر بأمرهم حتى أنزلَ الله تعالىٰ عليه بخبرهم.

[٦٠٤٧] وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رُومان، عن محمد بن كعب القُرظَيّ قصَّةَ خُرُوج رسولِ الله ـ ﷺ ـ إلى الطائفِ ودُعَائه إيَّاهم إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وإبائهم عليه. فَذَكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحَسَن: «اللهمّ، إليك أشكُو ضَعفَ قُوّتي وقِلَّةَ حِيلَتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى صديق قريب ملَّكته أمري. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلَةَ، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٧٣ ومسلم (٤٤٩/ ١٤٩) والترمذي ٣٣٢٣ وأحمد ١/ ٢٥٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٢٢٦.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٣٢٤ والنسائي في التفسير ٦٤٦ والطبراني (١٢/ ص ٤٦ ـ ٤٧) ١٢٤٣١ وأحمد ١/ ٢٧٤ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

الجنُّ من أهل نَصِيبينَ[١]. وهذا صحيحٌ، ولكنَّ قَوْلَه إن الجنَّ كان استماعهم تلك الليلة، فيه نَظَرٌ، لأن الجنَّ كان استماعهُم في ابتداء الإِيحاء، كما دَلَّ عليه حديثُ ابن عباس المذكور، وخروجُه ـ عليه السلام ـ إلى الطائِف كان بعد موتِ عَمِّه، وذلك قبل الهجرَةِ بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره، والله أعلم.

[٦٠٤٨] وقال أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ: حدثنا أبو أحمد الزُّبيريّ، حدثنا سُفيان، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبدالله بن مَسعُودٍ قال: هَبَطوا على النبي ـ ﷺ ـ وهو يقرأُ القرآن ببطن نَخلَةَ، فلما سَمِعوه قالوا: أَنصِتُوا. قالوا: صَهْ، وكانوا تسعةً أحدُهم زَوْبَعَةُ، فأنزل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إلى: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢]. فهذا مع الأول من روايةِ ابن عَبَّاس يَقتَضِي أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يشعر بحضُورهم في هذه المرَّةِ، وإنما استَمَعُوا قراءته، ثم رَجَعُوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وَفَدُوا إليه أَرْسَالاً قوماً بعد قومٍ، وفَوجاً بعدَ فوجٍ، كما ستأتي بذلك الأخبارُ والآثارُ، مما سنوردها هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

[٦٠٤٩] فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً، عن أبي قُدَامة عبيد الله بن سعيد السَّرْخَسِيّ، عن أبي أسامة حَمَّاد بن أسامة، عن مِسْعَرِ بن كِدَام، عن مَعْنِ بن عبد الرحمن قال: سَمِعت أبي قال: سألت مسروقاً: من آذَنَ النبي ـ ﷺ ـ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك ـ يعني ابن مسعود ـ أنه آذنته بهم شَجرةٌ. فَيُحتَمَلُ أن يكونَ هذا في المَرةِ الأولى، ويكون إثباتاً مُقَدَّماً على نفي ابن عباس ويحتملُ أن يكونَ هذا في بعضِ المرَّاتِ المتأخرات، والله أعلم. ويحتملُ أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرةُ، أي: أعلمته باستماعهم[٣]، والله أعلم.

قال الحافظ البَيهقيُّ: وهذا الذي حكاه ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ إنما هو أول ما سمعت الجنُّ قراءةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وعَلِمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يَرَهُم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، كما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

## ذكر الروايات عنه بذلك:

[٦٠٥٠] قال الإِمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داوُد، عن الشَّعبي ـ وابنُ أبي زائِدَةَ، أخبرنا داود، عن الشَّعبِيِّ ـ عن عَلْقَمَةَ قال: قلتُ لعبدِ الله بن مسعُودٍ: هل صَحِب رسولَ الله ـ ﷺ ـ ليلة الجنِّ منكم أحدٌ؟ فقال: ما صَحِبه منا أحدٌ، ولكنا فَقَدناه ذاتَ ليلة بمكّة، فقلنا: اغتِيلَ؟ استُطِير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلما كان في وَجْهِ الصبح ـ أو قال: في السَّحَرِ ـ إذا نحنُ به يجيءُ من قِبَلِ حِرَاء، فقلنا: يا رسولَ الله ـ فذكروا له الذي كانوا فيه ـ فقال: «إنه أتاني داعي الجنِّ فأتيتهُم فقرأتُ عليهم». قال: فانطَلَق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبي: سألوه الزاد ـ قال عامر سألوه بمكة، وكانوا من جنِّ الجَزِيرة، فقال: «كلُّ عَظم ذُكِر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان لحماً، وكل بَعْرَةٍ أو رَوْثَةٍ عَلَفٌ لدوابكم ـ قال: فلا تستنجوا بهما، فإنهما زادُ إخوانكم من الجن»[٤]. وهكذا رواه مُسلم في صَحِيحه، عن علي بن حُجْرٍ، عن إسماعيل بن عُلَيَّةَ، به نحوَه.

---

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٢/ ٢١ ـ ٢٣ من طريق ابن إسحاق، وهذا مرسل.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٢٢٨ بهذا الإسناد، وهو حسن.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨٥٩ ومسلم ٤٥٠/ ١٥٣.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٤٥٠/ ١٥٠ وأبو داود ٨٥ والترمذي ٣٢٥٨ وأحمد ١/ ٤٧٦.

[٦٠٥١] وقال مُسلم أيضاً: حدثنا مُحمَّد بن المثنى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا داودُ ـ وهو ابنُ أبي هندٍ ـ عن عامرٍ قال: سألتُ علقمةَ: هل كان ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ شَهد مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجنِّ؟ قال: فقال علقمةُ: أنا سألتُ ابنَ مسعود فقلت: هل شَهِد أحدٌ منكم مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجِنِّ؟ قال: لا، ولكنا كُنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ذاتَ ليلةٍ، فَفَقدناه فالتمسناه في الأودِيَةِ والشِّعابِ، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هُو جاءٍ من قِبَلِ حراءٍ قال: فقلنا يا رسولَ الله، فَقَدناك فطلبناكَ فلم نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بشرِّ ليلة باتَ بها قومٌ. فقال: «أتاني دَاعِي الجنِّ، فذهبتُ معهم، فقرأتُ عليهم القرآن». قال: فانطَلَقَ بنا فأرانا آثارَهم وآثار نِيرَانِهم، وسألوه الزادَ فقال: «كُلُّ عظم ذُكِر اسم الله عليه يَقَع في أيديكم أوفَرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لدوابِّكم». قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فلا تَستنجُوا بهما، فإنهما طعامُ إخوانِكم»[(١)].

[٦٠٥٢] طريقٌ أُخرَى عن ابنِ مسعودٍ، قال أبو جَعفر بن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عَمِّي، حدثني يونس، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله أنَّ ابن مسعود قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «بتُّ الليلةَ أقرأ على الجن واقفاً بالحَجُونِ»[(٢)].

[٦٠٥٣] طريقٌ أُخرى فيها أنه كان معه ليلةَ الجنِّ، قال ابنُ جَرِيرٍ ـ رحمه الله ـ: حدثني أحمدُ بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبدُ الله بن وهب، أخبرني يونُس، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان بن سَنَّة الخزاعي ـ وكان من أهل الشام ـ أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه وهو بمكة: «مَن أحبَّ منكم أن يحضُر أَمْرَ الجنِّ الليلةَ فليفعل». فلم يحضُر منهم أحدٌ غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كُنَّا بأعلَى مكّة خَطَّ لي بِرِجله خَطّاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فَغَشِيَته أَسْوِدَةٌ كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صَوْتَه، ثم طَفِقُوا يَتَقطعون مثلَ قِطَع السحاب ذَاهِبين، حتى بَقِي منهم رَهطٌ، فَفَرغَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ مع الفجر، فانطلق فتبرّز، ثم أتاني فقال: «مَا فعل الرهطُ؟» فقلت: هم أولئك يا رسولَ الله، فأعطاهم عَظماً ورَوثاً زاداً، ثم نَهَى أن يَستطِيب أحدٌ بروث أو عظم[(٣)]. ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عَبْدِ الحكم، عن أبي زُرعَةَ وهب بن راشد، عن يونس بن يَزِيدَ الأَيْلِيِّ، به. ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث، عن الليث، عن يُونس، به. وقد رَوَى إسحاق بن رَاهَوَيه، عن جَرِير، عن قابوس بن أبي ظَبيانَ، عن أبيه، عن ابن مَسعُودٍ. فَذَكر نَحْوَ ما تَقدَّم. ورواه الحافظ أبو نُعَيم، من طريق موسى بن عُبَيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضاً.

[٦٠٥٤] طريقٌ أُخرى، قال أبو نُعَيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عَفَّان وعكرمة قالا: حدثنا مُعتَمِر قال: قال أبي: حدثني أبو تَميمة، عن عَمرو ـ ولعله قد يكون قال: البِكاليُّ ـ يحدثه عَمرو، عن عبد الله بن مَسعُود ـ رضي الله عنه ـ قال: استتبعني رسول

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٤٥٠/ ١٥٠.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٣١٣٢٠، وله علتان: ضعف أحمد بن عبد الرحمن، وانقطاعه بين ابن مسعود وعبيد الله.

(٣) أخرجه الطبري ٣١٣١٩ وإسناده ضعيف لضعف أحمد بن عبد الرحمن، وفيه أبو عثمان مقبول. وكرره الطبري ٣١٣١٨ من وجه آخر توبع فيه أحمد بن عبد الرحمن، وله طرق أخرىٰ ذكرها ابن كثير، فهي تعتضد بمجموعها.

الله ـ ﷺ ـ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فَخَطَّ لي خطاً فقال: «كن بين ظَهْري هذه لا تخرج منها؛ فإنكَ إن خَرَجتَ منها هَلَكْتَ»[(١)]. . فذكر الحديث بِطُوله وفيه غَرَابةٌ شَدِيدةٌ.

[٦٠٥٥] طريقٌ أُخرى، قال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا ابن ثَور، عن مَعْمَرٍ، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غَيلان الثقفي: أنه قال لابن مسعود: حُدِّثتُ أنك كنتَ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة وَفْدِ الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديثَ كلَّه، وذكر أن النبي ـ ﷺ ـ خطّ عليه خطاً وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العجاجة السوداء فغشيت رسول الله ﷺ. فذُعِر ثلاث مرّات، حتى إذا كان قريباً من الصبح، أتاني رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «أَنِمتَ؟» فقلت: لا والله، ولقد هَمَمْتُ مِراراً أن أستغيث بالناس حتى سَمِعتُك تُقَرّعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا». فقال: «لو خرجت لم آمن أن يَختَطِفَكَ بعضُهم. ثم قال: «هل رأيتَ شيئاً؟» فقلت: نعم، رأيت رجالاً سُوداً مستثفرين بثيابٍ بيضٍ. قال: «أولئك جِنّ نَصِيبِينَ، سألوني المتاع ـ والمتاع: الزادُ ـ فَمَتَّعهم بكل عظم حائل، أو بعرة، أو رَوثة» فقلت: يا رسول الله، وما يُغني ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدُون عظماً إلا وَجَدُوا عليه لحمه يومَ أُكِل، ولا رَوثاً إلا وَجَدُوا فيها حَبَّها يوم أُكِلت، فلا يستنقِيَنَّ أحد منكم إذا خَرَج من الخلاء بعظم ولا بَعْرَة ولا رَوْثَةٍ»[(٢)].

[٦٠٥٦] طريقٌ أُخرَى، قال الحافظُ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السُّلَمي وأبو نَصر بن قتادَة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن عليِّ بن رَبَاح، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعني رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: «إن نفراً من الجنِّ ـ خمسةَ عشَرَ بني إخوة وبني عم ـ يَأْتونني الليلةَ، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقتُ معه إلى المكان الذي أرادَ، فَخطَّ لي خَطاً وأجلسني فيه، وقال لي: «لا تخرُجْ من هذا». فبتّ فيه حتى أتاني رسول الله ـ ﷺ ـ مع السَّحَرِ في يده عظمٌ حائلٌ وَرَوْثَةَ وحُممَةٌ[(٣)]، فقال لي: «إذا ذهبتَ إلى الخلاء فلا تَسْتَنجِ بشيءٍ من هؤلاء». قال: فلما أصبحتُ قلت: لأَعْلَمَنَّ عِلْمِي حيثُ كان رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فذهبتُ فرأيتُ موضِعَ مَبْرَك سِتِّين بَعيراً[(٤)].

[٦٠٥٧] طريقٌ أُخرى، قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظُ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوْري، حدثنا عثمان بن عُمَر، عن المُستَمِرّ بن الريّان، عن أبي الجَوزاءِ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: انطلقتُ مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجنِّ، حتى أتى الحَجُونَ، فخط لي خَطّاً، ثم تقَدَّم إليهم فازدَحمُوا عليه، فقال سَيِّدٌ لهم يقال له وَرْدان: أنا أَرْحَلُهم عنك. فقال: «إني لن يُجيرني مِنَ الله أَحَدٌ»[(٥)].

[٦٠٥٨] طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا سفيان، عن أبي فَزَارة العَبْسِيِّ،

---

(١) إسناده ضعيف لجهالة عمرو شيخ أبي تميمة، وما ساقه المصنف لا غرابة فيه، له شواهد، والظاهر أنه زاد ألفاظاً منكرة استغربها الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٣١٧ وإسناده ضعيف لجهالة عبد الله الثقفي. وكرره الطبري ٣١٣١٥ و٣١٣١٦ عن قتادة مرسلاً.

(٣) الحممة: الفحمة.

(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة». ٢/ ٢٣١ وإسناده ضعيف، فيه روح بن صلاح غير قوي، وعلي بن رباح لم أجد من ذكر له رواية عن ابن مسعود، ولبعضه شواهد وبعضه منكر.

(٥) أخرجه البيهقي ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ وإسناده ضعيف لانقطاعه، ولصدره شواهد، وعجزه منكر.

حدثنا أبو زيدٍ ـ مولى عَمْرو بن حُرَيث ـ عن ابن مسعودٍ قال: لما كان ليلةُ الجنِّ قال لي النبي ـ ﷺ ـ: «أَمعك ماءٌ؟» قلت: ليس معي ماءٌ ولكن معي إداوةٌ فيها نَبِيذٌ. فقال النبي ـ ﷺ ـ «تَمْرَة طَيِّبَةٌ، وماءٌ طَهُورٌ»(١). ورواه أبو داود، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، من حديثِ أبي زيدٍ، به.

[٦٠٥٩] طريقٌ أُخرى، قال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لَهيعة، عن قيس بن الحجّاج، عن حَنَشٍ الصَّنعاني، عن ابن عَبَّاسٍ، عن عبدِ الله بن مسعودٍ أنه كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجنِّ، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أمعك ماءٌ؟» قال: مَعِي نبيذٌ في إداوةٍ فقال: «أصببْ عليَّ» فَتوضَّأ، فقال النبي ـ ﷺ ـ «يا عبدَ اللهِ، شرابٌ وَطُهورٌ»(٢). تَفرّد به أحمدُ من هذا الوجه، وقد أورده الدرقطنيُّ من طريقٍ آخرَ، عن ابن مسعود رضي الله عنه، به.

[٦٠٦٠] طريقٌ أُخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء، عن عبدِ الله قال: كنتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ وفدِ الجنِ، فلما انصرفَ تَنفّس، فقلت: ما شأنك؟ فقال: «نُعِيتْ إليَّ نفسِي يا ابنَ مسعودٍ»(٣). هكذا رأيتُه في المسند مختصراً.

[٦٠٦١] وقد رواه الحافظُ أبو نُعَيم في كتابِهِ دلائل النبوّةِ فقال: حدثنا سُليمان بن أحمدَ بن أيُّوبَ، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم ـ وحَدَّثنا أبو بكْر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمدَ بن حنبل، حدثنا أبي ـ قالا: حدثنا عبد الرزَّاقِ، عن أبيه، عن مِينَاءٍ، عن ابن مسعود قال: كنتُ مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ ليلةَ وفد الجنِّ، فَتَنفّس، فقلت: ما لَكَ يا رسولَ الله؟ قال: «نُعِيَتْ إليَّ نفسي يا ابنَ مسعود». قلت: استَخْلِفْ. قال: «مَن؟» قلت: أبا بكر. فسكت ثم مَضَى ساعة فَتَنفَّسَ، فقلت: ما شأنك بأبي أنتَ وأُمي يا رسولَ الله؟ قال: «نُعِيَتْ إلَيَّ نفسِي يا ابنَ مسعودٍ». قلت: استَخْلِفْ. قال: «من؟» قلت: عُمَر. فَسَكت ثم مَضَى ساعةٌ ثم تَنَفَّسَ فقلتُ: ما شأنك؟ قال: «نُعيَتْ إليَّ نفسي». قلت: فاستَخلِفْ. قال «مَنْ؟» قلت: علي بن أبي طالب. قال: «أما والذي نفسِي بيده، لَئِن أطاعُوه لَيَدخُلُنَّ الجنةَ أجمَعِين أكتَعين»(٤). وهو حديثٌ غريبٌ جدّاً وأَحْرِ به ألاَّ يكون محفوظاً، وبتقديرِ صحته فالظاهرُ أن هذا بعد وفُودهم إليه بالمدينةِ على ما سَنُورِده إن شاء الله تعالىٰ، فإنَّ في ذلك الوقت كان في آخر الأمر لما فُتِحت مَكّة، ودخل الناسُ والجانُّ أيضاً في دينِ الله أفواجاً، نَزَلت

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود ٨٤ والترمذي ٨٨ وابن ماجه ٣٨٤ وأحمد ١/٤٤٩ ـ ٤٥٠ من حديث ابن مسعود. ضعفه الترمذي بقوله: أبو زيد، رجل مجهول. لا يعرف له غير هذا الحديث. وجاء في نصب الراية للحافظ الزيلعي ١/١٣٨: وقال ابن أبي حاتم في «العلل» ص ٤٤٠: سمعت أبا زرعة يقول: حديث أبي فزارة، ليس بصحيح، وأبو زيد مجهول. ونقل ابن عدي عن البخاري قوله: أبو زيد، مجهول لا يعرف بصحبته ابن مسعود. ولا يصح هذا الحديث، وهو خلاف القرآن. وقال ابن عبد البر: منكر لا أصل له، ولا رواه من يوثق به، ولا يثبت. وقال ابن حبان: أبو زيد، لا يعرف، وقد خالف في هذا الخبر الكتاب والسنة والإجماع والقياس اهـ. فالإسناد ضعيف جداً.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ١/٣٩٨ والدارقطني ١/٧٦ من حديث ابن مسعود، وضعفه الدارقطني بابن لهيعة. وكرره الدارقطني ١/٧٧ ـ ٧٨ من طرق، فأعل الأول بالحسين بن عبيد الله، وأنه يضع الحديث. ومن وجه آخر وأعله بمحمد بن عيسى، والحسن بن قتيبة، وأنهما ضعيفان.

(٣) باطل. أخرجه أحمد ١/٤٤٩ بهذا الإسناد، وهو ضعيف جداً. فيه ميناء بن أبي ميناء، وهو متروك، وكذبه أبو حاتم. والمتن باطل.

(٤) باطل. أخرجه الطبراني ٩٩٧٠ بهذا اللفظ، قال الهيثمي في «المجمع» ٨٩٤٨: فيه ميناء، وهو كذاب اهـ ومما يدل على بطلانه ذكر الاستخلاف صريحاً فيه.

سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾، وهي السورةُ التي نُعِيت نفسُه الكريمةُ فيها إليه كما قد نصَّ على ذلك ابنُ عباس، ووافقه عُمَر بن الخطاب عليه، وقد وَرَد في ذلك حديث سنورده إن شاء الله تعالىٰ عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نُعَيم أيضاً عن الطبراني، عن محمد بن عبد الله الحضرمي، عن علي بن الحسين بن أبي بُردة، عن يحيى بن يعلى الأسلمي، عن حرب بن صُبَيح، عن سعيد بن مَسْلَمة، عن أبي مُرَّة الصنعاني، عن أبي عبد الله الجَدَلي، عن ابن مَسعُودٍ، فذكره وذكر فيه قِصَّة الاستخلاف، وهذا إسناد غريب، وسياق عَجِيبٌ.

[٦٠٦٢] طريق أخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سَعِيدٍ، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيدٍ، عن أبي رافع، عن ابن مسعود: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة الجنِّ خَطَّ حوله، فكان أحدُهم مثلَ سوادَ النَّخل، وقال: «لا تبرَحْ مكانك. فأقرأهم كتاب الله» فلما رأى الزُّطّ[١] قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبي ـ ﷺ ـ: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به[٢].

[٦٠٦٣] طريقٌ أخرى مُرسَلةٌ، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطِّهْرانيُّ، أخبرنا حفص بن عُمَر العَدَني، حدثنا الحكم بنُ أبانَ، عن عكرمةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، قال: هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا من جزيرةِ الموصل، فقال النبي ـ ﷺ ـ لابن مسعود: «انظرني حتى آتيك». وخَطَّ عليه خطًّا، وقال: «لا تبرح حتى آتيكَ». فلما خَشِيهم ابنُ مسعود، كاد أن يذهَبَ، فذكر قولَ رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يَبرَحْ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «لو ذهبتَ ما التقينا إلى يومِ القيامةِ»[٣].

[٦٠٦٤] طريقٌ أخرى مرسلةٌ أيضاً، قال سَعِيد بن أبي عَرُوبةَ، عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، قال: ذُكر لنا أنهم صُرِفُوا إليه من نِينَوَى، وأنَّ نبي الله ـ ﷺ ـ قال: «إني أُمِرْت أن أقرأ على الجنِّ، فأيُّكم يَتْبَعني؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرَقُوا، ثم استتبعهم الثالثةَ فقال رجلٌ: يا رسولُ الله، إنَّ ذاك لَذُو نَدْبَة. فأتبعه ابنُ مسعود أخو هُذَيل، قال: فدخل النبي ـ ﷺ ـ شعباً يقال له: شعب الحَجُون، وخَطَّ عليه، وخَطَّ على ابن مسعود لِيُثبته بذلك، قال: فجعلت أُهالُ وأَرَى أمثال النسور تَمشي في دُفُوفها، وسَمِعتُ لَغطاً شديداً حتى خِفتُ على نَبِي الله ـ ﷺ ـ ثم تَلاَ القرآن، فلما رَجَع رسول الله ـ ﷺ ـ قلت: يا رسولَ الله، ما اللغَطُ الذي سَمِعتُ؟ قال: «اختَصَمُوا في قتيلٍ، فَقُضِي بينهم بالحقِّ»[٤]. رواه ابنُ جَرِيرٍ، وابنُ أبي حاتم.

فَهَذه الطرقُ كلُّها تَدُلُّ على أنه ـ ﷺ ـ ذَهَب إلى الجنِّ قصداً، فَتَلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وَشَرع الله تعالىٰ لهم على لسانِهِ ما هم محتاجُون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتملُ أنَّ أوَّل مرَّةٍ سَمِعُوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ثم بعد ذلك وَفَدُوا إليه كما رواه ابن مسعود، وأما ابنُ مسعودٍ فإنَّه لم يكُن مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ حال مُخَاطبته للجنِّ ودعائه إياهم، وإنما كان

---

(١) الزط: جيل من السودان طوال الأجسام مع نحافة.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ١/ ٤٥٥ والدارقطني ١/ ٧٧ من حديث ابن مسعود. وقال الدارقطني: علي بن زيد، ضعيف. وأبو رافع لم يثبت سماعه من ابن مسعود.

(٣) هو مرسل، لكن تقدم من وجوه موصولاً.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٣١٥ وهو مرسل، وتقدم موصولاً.

بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ـ ﷺ ـ أحدٌ سواه ومع هذا لم يشهدْ حال المخاطبة، هذه طريقةُ البيهقي. وقد يحتملُ أن يكونَ أوّل مَرّةٍ خَرَج إليهم لم يكُن معه ابنُ مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمدَ، وهي عند مسلم؛ ثم بعد ذلك خَرَج معه ليلة أُخرى والله أعلم، كما روى ابنُ أبي حاتم في تفسير ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من حديث ابن جُرَيج قال: قال عبد العزيز بن عُمَر: أما الجن الذين لَقُوه بنخلَةَ فَجِنُّ نِينَوَى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نَصِيبينَ، وتَأَوّله البيهقي على أنه يقول: فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، على غير ابنِ مسعود ممن لم يَعْلَم بخروجه ـ ﷺ ـ إلى الجنّ، وهو مُحتَمَل على بُعدٍ، والله أعلم.

[٦٠٦٥] وقد قال الحافظُ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو مُحمَّد بن عبد الله الأديبُ، أخبرنا أبو بكر الإسماعيليُّ، أخبرنا الحسن بنُ سفيان، حدثني سُوَيد بن سَعيدٍ، حدثنا عَمرو بن يحيى، عن جَدِّه سعيد بن عمرو قال: كان أبو هُرَيرة يَتْبَع رسول الله ـ ﷺ ـ بإداوة لِوُضوئِه وحاجَتِه، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «ائتني بأحجارٍ أَسْتَنْجي بها، ولا تأتني بعظم ولا رَوْثَةٍ». فأتيتُه بأحجارٍ في ثوبي، فوضعتُها إلى جَنْبِه حتى إذا فَرَغ وقام اتَّبعتُه، فقلت: يا رسولَ الله، ما بال العظم والرَّوثة؟ قال: «أتاني وَفدُ جِنّ نَصِيبينَ فسألوني الزاد، فدعوتُ الله لهم ألاَّ يمرُّوا بعظمٍ ولا بروثةٍ إلا وَجَدُوا طَعاماً»[١]. أخرجه البخاريُّ في صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عَمرو بن يحيَى، بإسناده قريباً منه. فهذا يدلُّ مع ما تَقَدَّم على أنهم وَفَدُوا عليه بعد ذلك. وسنذكُر [إن شاء الله تعالىٰ] ما يدلّ على تكرار ذلك.

وقد رُوِي عن ابن عباس غيرُ ما ذُكِر عنه أوّلاً من وجهٍ جيِّدٍ؛ فقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحِمّاني، حدثنا النَّضرُ بن عَرَبيٍّ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباسٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، قال: كانوا سبعةَ نَفَرٍ من أهل نَصِيبينَ، فَجَعَلَهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ رُسُلاً إلى قومهم. فهذا يدلُّ على أنه قد رَوَى القِصّتين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسينَ، حدثنا سُوَيد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سمّاه، عن ابن جُرَيج، عن مجاهدٍ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ . . . الآية، قال: كانوا سبعةَ نَفَرٍ، ثلاثةٌ من أهل حَرّانَ، وأربعةٌ من أهل نَصِيبين وكانت أسماؤهم حسىٰ وحسّي ومنسي، وشاصر وناصر، والأرد وإيبان والأحقم. وذكر أبو حَمْزَة الثمالي أن هذا الحيَّ من الجنّ كان يقُال لهم: بنو الشيْصبان، وكانوا أكثرَ الجنّ عدداً وأشرفَهم نَسَباً، وكانوا هم عامّة جنود إبليسَ.

وقالُ سفيانُ الثوريُّ، عن عاصم، عن زرٍّ عن ابن مسعُودٍ: كانوا تسعةً، أحدُهم زوبعة، أتوه من أصلِ نخلَةَ. وتَقَدَّم عنه أنهم كانوا خمسةَ عشر، وفي رواية: أنهم كانوا على ستّين راحلةٍ. وتقدّم عنه أن اسم سَيِّدهم وَرْدَان. وقيل: كانوا ثلاثمئةٍ، وتقدّم عن عكرمَة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، فلعل هذا الاختلافَ دليلٌ على تكرُّر وِفَادَتهم عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

[٦٠٦٦] ومما يدلُّ على ذلك ما قاله البخاريُّ في صَحِيحه: حدثنا يحيى بن سُليمان، حدثني ابنُ وهب، حَدَّثني عُمَر ـ هو ابن محمد ـ أنّ سَالِماً حدّثه، عن عبد الله بن عُمَر قال: ما سَمِعتُ عُمَر يقول لشيءٍ قطُّ: إني لأظنّه كذا، إلا كان كما يَظُنُّ، بينما عمرُ بنُ الخطاب جالسٌ إذْ مَرّ به رجلٌ جَميل، فقال: لقد أخطأ

---

(١) صحيح. أخرجه البيهقي ٢/ ٢٣٣ وإسناده ضعيف لضعف سويد بن سعيد، لكن أخرجه البخاري ٣٨٦٠ من وجه آخر بهذا السياق.

ظَنّي ـ أو: إنَّ هذا على دينِه في الجاهلية ـ أو: لقد كان كاهِنَهم ـ عَلَيَّ بالرجل، فَدُعِيَ له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيتُ كاليوم استُقبلَ به رجلٌ مُسلِمٌ. قال: فإني أعزِمُ عليكَ إلاّ ما أخبرتني. قال: كنتُ كاهنَهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَّتُكَ. قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرِفُ فيها الفزَعَ فقالت:

أَلَـم تَـرَ الـجِـنَّ وإبْـلاَسَـهـا    وَيَـأْسَـهـا مِـنْ بَـعْـدِ إنْـكَـاسِـهَـا
وَلُـحُـوقَـهـا بـالـقِـلاَصِ وَأَحْـلاسِـهَـا

قال عمر: صَدَق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجلٌ بِعِجْلٍ فذبحه، فَصَرخ به صارخٌ، لم أسمَعْ صارخاً قطُّ أشدَّ صوتاً منه، يقول: يا جَليحْ، أمر نَجيحْ، رجل فصيحْ يقول: لا إله إلا الله، قال: فوثب القوم فقلت: لا أبرحُ حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جَليحْ، أمر نَجيحْ، رجل فصيحُ يقول: لا إله إلا الله. فقمت، فما نَشِبنا أن قيل: هذا نبي[1]. هذا سياقُ البُخاريِّ، وقد رواه البَيهقيُّ من حديث ابن وَهبٍ، بنحوه، ثم قال: وظاهرُ هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سَمِعِ الصارخ يصرُخ من العِجْلِ الذي ذُبِح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر، وسائرُ الروايات تدلُّ على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رُؤيته وسماعه والله أعلم. وهذا الذي قاله البيهقيُّ هو المُتجِه، وهذا الرجُل هو سوادُ بنُ قاربٍ، وقد ذكرتُ هذا مُستقصىً في سيرة عمر ـ رضي الله عنه ـ، فمن أراده فَلْيأخُذه من ثَمّ، ولله الحمد والمنة.

[٦٠٦٧] وقال البيهقي: حديثُ سَواد بن قاربٍ، ويُشبِهُ أن يكونَ هذا هو الكاهنَ الذي لم يَذْكر اسمهُ في الحديثِ الصحيح. أخبرنا أبو القاسم الحسنُ بن محمد بن حَبيب المُفسِّر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفّار الأصبهاني قراءةً عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمّار الكوفِيُّ بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادُويه حدثنا أبو بكر القَصْرِيّ حدثنا محمد بن نواس الكوفي حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء قال: بينما عُمَر بن الخطاب يخطُب الناسَ على مِنْبَر رسولَ الله ـ ﷺ ـ إذ قال: أيُّها الناس، أفيكم سَوَادُ بنُ قارِبٍ؟ قال: فلم يُجبه أحد تلك السَّنة، فلما كانت السنة المُقبلة قال: أيُّها الناسُ، أفيُكم سوادُ بن قاربٍ؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سوادُ بنُ قاربٍ؟ قال: فقال له عمر رضي الله عنه: إنَّ سوادَ بنَ قاربٍ كان بَدءُ إسلامِهِ شيئاً عَجيباً، قال: فبينا نحن كذلك إذ طَلَع سوادُ بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حَدِّثنا بِبَدْءِ إسلامك، كيف كان؟ قال سوادُ: فإني كنتُ نازلاً بالهند، وكان لي رَئِيٌّ من الجنّ، قال: فبينا أنا ذات ليلةٍ نائمٌ إذْ جاءني في منامي ذلك قال: قم فافهَمْ واعقِلْ إن كُنْتَ تَعقِلُ، قد بُعِث رسولٌ من لُؤيّ بن غالب، ثم أنشأ يقُول:

عَـجِـبْـتُ لِـلْـجِـنِّ وَأَنْـجَـاسِـهَـا    وشَـدِّهَـا الـعِـيـس بـأحْـلاَسِـهَـا
تَـهْـوِي إلَـى مَـكَّـةَ تَـبْـغِـي الـهُـدَى    مَـا مُـؤمِـنُـو الـجِـنِّ كَـأَرْجَـاسِـهَـا
فَـانْـهَـضْ إلـى الـصَّـفْـوَةِ مِـنْ هَـاشـم    وَاسْـمُ بِـعَـيْـنَـيْـكَ إلـى رَاسِـهَـا

قال: ثم أنبهَني فأفزعَني، وقال: يا سوادُ بنَ قاربٍ، إن الله عز وجل بَعَث نبياً فانهَضْ إليه تَهْتَدِ وتَرشد، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فَأنبَهني، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَـجِـبْـتُ لِـلْـجِـنِّ وَتَـطْـلاَبِـهـا    وَشَـدِّهَـا الـعِـيـسَ بـأقْـتَـابِـهَـا
تَـهْـوِي إلَـى مَـكَّـةَ تَـبْـغِـي الـهُـدَى    لَـيـس قُـدامـاهـا كَـأَذْنَـابِـهَـا

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨٦٦ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

فَانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إلى نَابِهَا

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني، ثم قال:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَخْبَارِهَا ... وَشَدِّهَا العِيسَ بِأكْوَارِهَا

تَهْوِي إلى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... لَيْسَ ذَوُو الشرّ كأخْيَارِهَا

فَانْهَضْ إلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... مَا مُؤْمِنُو الجِنّ كَكُفَّارِهَا

قال: فلما سَمِعتُه تكررَ ليلةً بعدَ ليلةٍ وَقَع في قلبي حُبُّ الإسلام من أمْرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ما شاء الله، قال: فانطلقتُ إلى رَحْلِي فشددتُه على راحلتي، فما حَلَلْتُ نِسْعَةً ولا عقدتُ أخرى حتى أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ، فإذا هو بالمدينةِ ـ يعني مَكَّةَ ـ والناسُ عليه كعُرفِ الفَرَس، فلما رآني النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَرْحباً بكَ يا سواد بن قاربٍ، قد عَلِمنا ما جاء بك». قال: قلت يا رسولَ الله، قد قلتُ شعراً، فاسمَعْه مني. قال سوادٌ: فقلت:

أتَانِي رَئِيِّي بَعْدَ لَيْلٍ وهَجْعَةٍ ... ولَمْ يَكُ فيما قَدْ بَلَوْتُ بِكَاذِبِ

ثَلاثُ لَيَالٍ قَولُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ: ... أتَاكَ رَسُولٌ مِن لُؤَيّ بنِ غَالِبِ

فَشَمَّرتُ عَنْ سَاقِي الإزَارَ وَوَسَّطَتْ ... بِي الذِّعلبُ الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسِبِ

فَأشْهَدُ أنَّ اللهَ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ ... وَأنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ

وأنكَ أدنى المُرسَلِينَ شَفَاعَةً ... إلى اللهِ يَا ابْنَ الأكْرَمِينَ الأطَايِبِ

فَمُرْنَا بِمَا يَأتِيكَ يَا خَيرَ مُرْسَلٍ ... وَإنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ

وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لا ذُو شَفَاعَةٍ ... سِوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

قال: فَضَحِكَ النبي ـ ﷺ ـ حتى بَدَت نواجذُه وقال لي: «أفلحتَ يا سواد». فقال له عُمَر: هل يأتيك رَئِيُّكَ الآن؟ فقال: منذُ قرأتُ القرآن لم يأتني، ونعم العِوَضُ كتابُ الله عز وجل من الجن[1]. ثم أسنده البيهقي من وَجْهَيْنِ آخرين.

ومما يدلُّ على وفادتهم إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعدما هاجَر إلى المدينة الحديثُ الذي رواه الحافظ أبو نُعيم في كتاب دلائل النبوة:

[٦٠٦٨] حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سَلاَّم، عن زيد بن أسلمَ: أنه سَمِعَ أبا سلاَّم يقول: حَدَّثني من حَدَّثه عمرو بن غَيلان الثقفي قال: أتيتُ عبد الله بن مسعود فقلتُ له: حُدِّثت أنك كنتَ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة وَفْد الجِنِّ؟ قال: أجل. قلت: حدِّثني كيف كان شأنه؟ فقال: إنَّ أهلَ الصفَّة أخَذَ كلَّ رجلٍ منهم رجلٌ يُعَشيه، وتُرِكتُ فلم يأخذْني أحدٌ منهم، فَمرَّ بي رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا ابنُ مسعودٍ. فقال: «ما أخَذَكَ أحدٌ يُعشِّيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلِق لَعَلِّي أجِدُ لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حُجرَةَ أمِّ سَلَمَةَ فتركني قائماً وَدَخَلَ إلى أهله، ثم خرجت الجاريةُ فقالت: يا ابنَ مسعودٍ، إن رسولَ الله لم يَجِدْ لك عشاءً، فارجعْ إلى مَضْجَعِكَ. قال: فرجعتُ إلى المسجدِ، فجمعت حصباءَ المسجد فَتَوسَّدْتُه، والتففْتُ بثوبي، فلم ألبث

---

(١) أخرجه البيهقي ٢/٢٤٩ ـ ٢٥١ وإسناده ضعيف: زياد وشيخه لم أجد لهما ترجمة، وكرره البيهقي ٢/ ٢٥٢ عن محمد بن كعب عن عمر وهذا منقطع، وكرره عن سعيد بن جبير، وفيه عباد بن عبد الصمد، وهو متروك، والصحيح في ذلك ما رواه البخاري.

إلاّ قليلاً حتى جاءت الجاريةُ، فقالت: أَجِبْ رسولَ الله. فاتَّبعتها وأنا أرجو العَشَاء، حتى إذا بلغت مقامي خرجَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ وفي يده عَسِيب من نخل فعرض به على صدري فقال: «أتنطلق أنتَ معي حيث انطلقتُ؟» قلت: ما شاءَ الله! فأعادها عَلَيّ ثَلاثَ مَرّاتٍ، كل ذلك أقول: ما شاء الله! فانطلَقَ وانطلقتُ معه، حتى أتينا بقيعَ الفَرْقد، فَخَطَّ بعصاه خَطّاً، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تَبْرَحْ حتى آتِيَكَ». ثم انطلقَ يمشِي وأنا أنظُر إليه خِلال النَّخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت مثل العَجَاجة السوداء، فَفَرِقْتُ فقلت: ألحقُ برسول الله ـ ﷺ ـ فإني أظن أن هوزانَ مَكَرُوا برسول الله ـ ﷺ ـ ليقتلوه، فأسعَى إلى البُيوتِ، فأستغيثُ الناسَ، فذكرتُ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أوصاني ألاّ أبرح مكاني الذي أنا فيه، فَسمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يَقْرَعُهم بِعَصَاه ويقول: «اجلِسُوا». فَجَلسُوا حتى كاد ينشقُّ عمودُ الصبح، ثم ثَارُوا وذَهَبُوا فأتاني رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «أنمتَ بَعدِي؟» فقلت: لا، ولقد فَزِعت الفزعةَ الأولى، حتى رأيت أن آتي البيوت فأستغيثَ الناسَ حتى سَمِعْتُك تَقرَعُهم بِعَصاك، وكنت أظنُّها هوزان مكرُوا برسول الله ـ ﷺ ـ ليقتلوه. فقال: «لو أنَّكَ خرجتَ من هذه الحلقة ما أمنتُ أن يَختَطِفَكَ بَعضُهم، فهل رأيتَ من شَيءٍ منهم؟» فقلت: رأيت رجالاً سُوداً مُستَنفَرين بثيابٍ بيضٍ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أولئك وَفْدُ جِنّ نَصِيبين، [أتوني] فسألوني الزادَ والمتَاع، فَمتَّعتُهم بكل عظم حائلٍ أَوْ رَوْثة أو بَعْرَةٍ» قلت: وما يُغني عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يَجدُون عظماً إلا وَجَدُوا عليه لحمَه الذي كان عليه يَوْمَ أُكِلَ، ولا رَوْثَةً إلا وَجَدُوا فيها حَبَّها الذي كان فيها يوم أُكِلت، فلا يَستَنقِي أحدٌ منكم بعظمٍ ولا بَعْرَةٍ»[1]. وهذا إسنادٌ غريبٌ جِدّاً، ولكن فيه رجلٌ مُبْهَمٌ لم يُسَمَّ؛ والله تعالىٰ أعلم.

[٦٠٦٩] وقد رَوَى الحافظ أبو نُعَيم من حديث بقية بن الوليد، حدثني نُمَير بن يزيد القيني، حدثنا أبي، حدثنا قُحَافَة بن رَبيعة، حدثني الزبير بن العوام قال: صَلَّى بنا رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ صلاةَ الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف، قال: «أيُّكم يَتْبَعُني إلى وفدِ الجنّ الليلةَ؟» فأسكت القومُ، ثلاثاً، فمرَّ بي فأخذ بيدي، فجعلت أمشِي مَعَه حتى حُبِسَت عنا جبال المدينة كلُّها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا رِجالٌ طوالٌ كأنهم الرماحُ، مستثفرين بِثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتُهم غَشِيَتْني رِعدَةٌ شَدِيدةٌ[2]... ثم ذكر نحوَ حديثِ ابن مسعودٍ المتقدِّم، وهذا حديث غريبٌ، والله أعلم.

[٦٠٧٠] ومما يتعلَّق بوفُودِ الجنّ ما رَواه الحافظُ أبو نُعَيم: حدثنا أبو محمد بن حبان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن رَوح، حدثنا يَعقُوب الدَّورقي، حدثنا الوليد بن بُكَير التميمي، حدثنا حُصين بن عمر، أخبرني عبيد المُكتِب، عن إبراهيم قال: خَرَجَ نفرٌ من أصحاب عبد الله يُريدون الحجَّ، حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هم بحيَّة تَثَنَّى على الطريق أبيضَ، يَنْفَحُ منه ريحُ المسك، فقلت لأصحابي: امضُوا، فلستُ ببارح حتى أنظُرَ إلى ما يصير إليه أمرُ هذه الحية. قال: فما لَبِثت أن ماتت، فَعَمَدت إلى خِرْقَةٍ بيضاءَ فلففتُها فيها ثم نَحيْتُها عن الطريق فَدَفنتُهَا، وأدركت أصحابي في المُتَعشَّى. قال: فوالله إنا لَقُعُودٌ إذ أقبلَ أربعُ نسوة من قِبَل المغرب، فقالت واحدةٌ منهنّ: أيكم دَفَنَ عَمراً؟ قلنا: ومن عَمرو؟ قالت: أيُّكم دَفَنَ الحية؟ قال: قلت أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صوّاماً قَوّاماً، يأمر بما أنزلَ الله، ولقد آمَن بِنَبيِّكم، وسَمِع صفته من السماء قبل أن يُبعَث بأربعمئةِ عام. قال الرجل: فَحَمِدنا الله ثم قضينا حَجَّتنا ثم مررتُ بعُمَر بنِ الخطاب في المدينةِ فأنبأته بأمر

---

(١) إسناده ضعيف فيه راو لم يسمّ.

(٢) إسناده ضعيف، فيه نمير بن يزيد القيني، ضعفه الأزدي كما في «الميزان» ٩١٢٢.

الحَيَّةِ، فقال: صدقتَ، سَمِعتُ رَسولَ الله يقول: «لقد آمن بي قبل أن أُبعَثَ بأربعمئة سنة»[١]. وهذا حديث غريبٌ جداً، والله أعلم.

قال أبو نُعَيم: وقد رَوَى الثوري، عن أبي إسحاقَ، عن الشعبي، عن رَجُلٍ من ثَقِيف بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والطَّهراني، عن صَفْوان بن المعطل ـ هو الذي نَزَلَ وَدَفَنَ تلك الحية من بين الصحابة ـ وأنهم قالوا: أَمَا إنه آخرُ التسعة موتاً الذين أَتَوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يستمعون القرآن.

[٦٠٧١] وروى أبو نُعَيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُونَ، عن عمِّه، عن معاذ بن عبيد الله بن مَعْمَر قال: كنتُ جالساً عند عثمانَ بنِ عفَّانَ فجاء رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين، إني كنت بِفَلاةٍ من الأرض، فَذَكَر أنه رأى ثُعبانين اقتتلا ثم قَتَلَ أحدُهما الآخر، قال: فذهبتُ إلى المعْتَرَكِ، فوجدتُ حياتٍ كثيرةً مقتولةً، وإذا يَنْفَحُ من بعضِها ريحُ المِسك، فجعلتُ أَشمُّها واحدةً واحدةً، حتى وجدتُ ذلك من حَيَّة صفراءَ رقيقةٍ، فَلَفَفتُها في عِمامتي ودفنتها. فبينا أنا أمشِي إذ ناداني مُنَادٍ: يا عبدَ الله، لقد هُدِيتَ! هذانَ حَيَّان من الجنِّ بنو شعيبان وبنو أقيش التقَوا، فكان من القتلى ما رأيتَ، واستُشهِدَ الذي دفنته، وكان من الذينَ سَمِعُوا الوَحي من رسولِ الله ـ ﷺ ـ. قال: فقال عثمانُ لذلك الرجل: إن كنتَ صادقاً فقد رأيتَ عَجَباً، وإن كنتُ كاذباً فعليكَ كَذِبُك[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: طائفةً من الجن ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أي: استمِعُوا. وهذا أدبٌ منهُم.

[٦٠٧٢] وقد قال الحافظ البيهقي: حَدَّثنا الإمامُ أبو الطيِّب سهلُ بن مُحمَّد بن سُلَيمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقَّاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنْجِي، حدثنا هِشَام بن عَمَّار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زُهير بن محمد، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ سورة الرحمن حتى خَتَمها، ثم قال: «ما لي أراكُم سُكُوتاً! لَلجِنُّ كانوا أحسَنَ منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، إلا قالوا: ولا بشيءٍ من آلائك أو نِعَمِكَ رَبَّنا نُكَذِّب، فَلَكَ الحمدُ». ورواه الترمذي في التفسير عن أبي مُسلِم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به. قال: خَرَجَ رَسولُ الله ـ ﷺ ـ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن[٣]... فذكره، ثم قال الترمذِيُّ: «غريبٌ لا نعرفهُ إلاَّ من حَدِيثِ الوليد، عن زُهَير». كذا قال. وقد رَواه البيهقيُّ من حديث مَرْوَانَ بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد، به مثله.

وقولُه عز وجل: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾، أي فَرَغَ. كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، رَجَعُوا إلى قومِهم فأنذروهم ما سَمِعُوه من رسول الله ـ ﷺ ـ، كقوله جل وعلا: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استُدِل بهذه الآية على أنه في الجنِّ نُذُرٌ، وليس فيهم رسلٌ. ولا شكَّ أن الجنَّ لم يَبعَثِ الله تعالىٰ منهم رَسُولاً، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه أبو نعيم ٢٥٧ وهو مرسل، وفيه الوليد بن بكير، ضعيف الحديث. وحصين بن عمر متروك الحديث. والأشبه أن عجزه المرفوع باطل.

(٢) أخرجه أبو نعيم ٢٥٦ من طريق عبد الله بن صالح عن عبد العزيز به لا من طريق الليث، والخبر منكر جداً، والأشبه أنه موضوع.

(٣) غير قوي، ويأتي في أول سورة الرحمن، إن شاء الله.

نُوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]. وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال عن إبراهيمَ الخليلِ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فكلُّ نبي بَعَثه الله بَعد إبراهيم فمن ذُرِّيته وسلالته، فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجمُوع الجنسَين فَيصدُقُ على أحدهما وهو الإنسُ، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢]، أي: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجنِّ لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، ولم يذكروا عيسى لأن عيسى ـ عليه السلام ـ أُنزل عليه الإنجيلُ فيه مواعظُ وترقيقاتٌ وقليلٌ من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمِّم لشريعةِ التوراة، فالعمدة هو التوراةُ، فلهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.

[٦٠٧٣] وهكذا قال وَرَقةُ بن نَوفل، حين أخبره النبي ـ ﷺ ـ بقصَّة نُزولِ جبريلَ عليه أول مرة، فقال: بَخٍ بَخٍ، هذا الناموسُ الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكونُ فيها جَذَعاً[١].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي؛ من الكتب المنزَّلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، أي: في الاعتقادِ والأخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين، خَبَر وطَلَب، فخبرُه صدقٌ، وطلبُه عدلٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الصف: ٩]. فالهُدى هو: العلم النافع، ودينُ الحقِّ: هو العملُ الصالحُ. وهكذا قالت الجنُّ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: في العَمليات. ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾، فيه دَلالةٌ على أنه تعالى أرسل محمداً ـ ﷺ ـ إلى الثقلين الإِنس والجنِّ حيثُ دعاهُم إلى الله تعالىٰ، وقرأ عليهم السورةَ التي فيها خطابُ الفريقين، وتكليفُهم ووعدُهم ووعيدُهم، وهي سورةُ الرحمنِ، ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، قيل: إن (مِنْ) هاهنا زائدة، وفيه نظرٌ، لأن زيادتها في الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي وَيقيكم من عَذابه الأليم. وقد استَدلَّ بهذه الآية مَن ذهب من العلماء إلى أن الجنَّ المؤمنين لا يدخُلون الجنة، وإنما جزاءُ صالحيهم أن يُجاروا من عذاب النار يوم القيامة، ولهذا قالوا هذا في هذا المقامِ، وهو مقامُ تبجُّحٍ ومُبالغةٍ، فلو كان لهم جزاءٌ على الإِيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حُدِّثت عن جَرير، عن لَيثٍ، عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ قال: لا يدخلُ مؤمنو الجنِّ الجنةَ، لأنهم من ذُرِّية إبليس، ولا تدخل ذُرِّية إبليسَ الجنةَ. والحقُّ أن مُؤمنيهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهبُ طائفةٍ من السلفِ، وقد استدلَّ بعضُهم لهذا بقوله عز وجل: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ [الرحمن: ٧٤]. وفي هذا الاستدلال نظرٌ، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٤٧]، فقد امتنَّ تعالى على الثقلَين بأن جَعَل جزاءَ مُحسنِيهم الجنةَ، وقد قابلت الجنُّ هذه الآية بالشكر القَولي أبلَغ من الإنس، فقالوا: ولا بِشَيءٍ من آلائك ربَّنا نُكذِّب، فلك الحمدُ. فلم يَكُن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصُل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يُجازِي كافرهم بالنار ـ وهو مقامُ عَدْلٍ ـ فَلأن يجزيَ مُؤمِنَهم بالجنة ـ وهو مقامُ فَضلٍ ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل

(١) متفق عليه ويأتي في سورة العلق. والجذع: الشاب الحدث.

على ذلك أيضاً عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧] وما أشبهَ ذلك من الآيات. وقد أفردتُ هذه المسألةَ في جُزءٍ على حِدَةٍ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وهذه الجنةُ لا يَزَال فيها فضلٌ حتى ينشِيء الله تعالىٰ لها خَلْقاً، أفلا يسكُنها مَن آمن به وعَمِل له صالحاً؟. وما ذكره هاهنا من الجَزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذابِ الأليم، هو يستلزم دخول الجنة، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنةُ أو النارُ، فمن أجير من النار دخل الجنةَ لا محالةَ. ولم يَرِد معنا نصٌ صريحٌ ولا ظاهرٌ عن الشارع أنَّ مؤمني الجنِّ لا يدخلُون الجنةَ وإن أُجيروا من النار، ولو صَحَّ لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمني قَومِه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حُكِي فيهم أقوال غريبة. فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون في رَبَضِها وحَولَها وفي أرجائها. ومن الناس من زَعَم أنهم في الجنَّة يراهم بنُو آدم ولا يَرَون هم بني آدم عَكْسَ ما كانوا عليه في الدَّارِ الدنيا. ومِنَ الناس مَنْ قال: لا يأكلُون في الجنة ولا يشربُون، وإنما يُلهَمُون التسبيحَ والتحميدَ والتقديسَ، عِوَضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جِنسِهم. وكلُّ هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: بل قدرةُ الله شاملةٌ له ومحيطةٌ به، وليس لهم مِن دُونه أولياءُ أي لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيبٍ، فَدَعَوا قومهم بالترغيبِ والترهيبِ، ولهذا نَجعَ في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفُوداً وُفُوداً، كما تَقَدَّم بيانه. ولله الحمد والمنة، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يومَ القيامةِ، المُستبعِدُون لقيام الأجسادِ يومَ المَعادِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، أي: ولم يَكْرِثه خَلْقُهن، بل قال لها: كوني. فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعةً مجيبةً خائفةً وَجِلةً، أفليس ذلك بقادر على أن يُحيي الموتى؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال جل جلاله مُتهدِّداً ومُتوعِّداً لمن كَفَر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يقال لهم: أما هذا حقٌّ؟ أفسِحرٌ هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يَسعهم إلا الاعترافُ، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. ثم قال تعالى آمراً رَسوله ﷺ بالصبر على تكذيب مَن كَذَّبه مِن قومِهِ، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: على تكذيبِ قومِهم لهم. وقد اختلفوا في تعدادِ أولي العَزْم على أقوال، وأشهرُها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى وخاتمُ الأنبياءِ كلِّهم محمدٌ ـ ﷺ ـ. قد نَصَّ الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سُورَتَي الأحزاب والشورى وقد يحتملُ أن يكونَ المرادُ بأولي العَزمِ جميعَ الرُّسُل، وتكون (مِن) في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم.

[٦٠٧٤] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحجاج الحَضْرمي، حدثنا السَّرِيُّ بن حَيَّان، حدثنا عَبَّاد بن عَبَّاد، حدثنا مجالد بن سَعيدٍ، عن الشعبيِّ، عن مَسرُوقٍ قال: قالت لي عائشةُ: ظَلَّ رسول الله ـ ﷺ ـ صائماً ثم طَواه، ثم ظلَّ صائماً ثم طواه، ثم ظَلَّ صائماً ـ قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآل محمدٍ، يا عائشةُ، إن الله لم يرضَ مِن أُولي العَزْمِ مِن الرسُل إلا بالصَّبر على مَكرُوهِها والصَّبر عن مَحبوبها، ثم لم يَرْضَ مِنِّي إلا أن يُكَلِّفني ما كَلَّفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾. وإني ـ والله ـ لأصبِرَن كما صَبَرُوا جَهدي، ولا قوة إلا بالله»(١).

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، أي: لا تَستعجِلْ لهم حُلُولَ العقوبة بهم. كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس: ٤٥].

وقوله جل وعلا: ﴿بَلَاغٌ﴾، قال ابنُ جرير: يَحتَمِلُ معنَيين، أحدُهما: أن يكونَ تقديرُه: وذلك لُبثٌ بَلاغٌ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآنُ بَلاغ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: لا يَهلِكُ على الله إلا هالكٌ، وهذا من عَدْلِه تعالى أنه لا يُعذِّب إلاَّ من يَستَحِقُّ العذابَ؛ والله أعلم.

## آخر تفسير سورة الأحقاف، ولله الحمد والمِنَّةُ، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) إسناده ضعيف لأجل ضعف مجالد بن سعيد. ومن هذا الوجه أخرجه البغوي في «شرح السنة» ٣٩٤١ و«معالم التنزيل» ١٩٣٢ ـ بترقيمي.

# سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

## أو سورة القتال؛ وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: بآياتِ الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرَهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أبطلَها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاءً، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. ثُمَّ قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبُهم وسرائرُهم، وانقادتْ لشرع الله جوارحُهم وبواطنُهم وظواهرُهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطفُ خاصٍّ على عامٍّ، وهو دليلٌ على أنه شَرْطٌ في صِحَّةِ الإيمانِ بعدَ بعثته صلوات الله وسلامه عليه. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة مُعترِضة حَسَنةٌ، ولهذا قال جل جلاله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، قال ابن عباس: أي أمْرَهم. وقال مجاهدٌ: شأنَهم. وقال قتادةُ وابنُ زيد: حالَهم: والكلُّ متقارب.

[٦٠٧٥] وقد جاء في حديثِ تَشميتِ العاطس: «يهديكم الله، ويُصلحُ بالكم»[١]. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾، أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، أي: يُبيِّن لهم مآل أعمالهم، وما يَصيرون إليه في مَعادِهم. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾

(١) تقدم تخريجه.

يقول تعالى مُرشِداً للمؤمنين إلى ما يعتَمِدُونه في حُروبهم مع المشركين، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أي: إذا واجهتُموهم فاحصُدوهم حَصْداً بالسيوفِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾، أي: أهلكتُموهم قتْلاً ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ الأَسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحربِ وانفصالِ المعركةِ مُخيَّرون في أمرهم، إن شِئتُم مَنَنتُم عليهم فأطلقتُم أُساراهم مَجّاناً، وإن شئتم فاديتُموهم بمال تأخذونه منهم وتُشارِطُونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وَقعة بدر، فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ عاتَب المؤمنين على الاستكثار من الأُسارى يَومئذٍ ليأخذُوا منهم الفِداء، والتقلُّل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨]. ثم قد ادَّعى بعضُ العلماء أن هذه الآية المُخيِّرة بين مفاداة الأسير والمنِّ عليه ـ منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]... الآية، رواه العَوفي عن ابن عباس. وقاله قتادةُ، والضحاكُ، والسديُّ، وابنُ جُريج. وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست مَنسُوخةً. ثم قال بعضُهم: إنما الإمام مُخيَّر بين المنِّ على الأسيرِ ومُفاداتِه فقط، ولا يجوزُ له قتلُه. وقال آخرون منهم: بل له أن يقتُلَه إن شاء، لحديثِ قتلِ النبي ـ ﷺ ـ النضرَ بن الحارث وعُقبةَ بن أبي مُعَيط من أُسارى بدر.

[٦٠٧٦] وقال ثُمامة بن أُثال لرسول الله ـ ﷺ ـ حين قال له: «ما عندك يا ثُمامة»؟ فقال: إن تَقتُلْ تَقتُلْ ذا دَمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكرٍ، وإن كنت تُريد المال فَسَلْ تُعطَ منه ما شئت[١]. وزاد الشافعي ـ رحمه الله ـ فقال: الإمام مُخيَّر بين قَتلِه أو المنِّ عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً. وهذه المسألة مُحرّرة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا «الأحكام»، ولله سبحانه وتعالىٰ الحمدُ والمنةُ.

وقولُه عز وجل: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، قال مجاهدٌ: حتى ينزل عيسى ابن مَريَم عليه الصلاة والسلام. وكأنه أخذه من قوله ـ ﷺ ـ:

[٦٠٧٧] «لا تزال طائفة من أُمّتي ظاهِرين على الحقّ حتى يُقاتِلَ آخرُهم الدجّالَ»[٢].

[٦٠٧٨] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيلُ بن عَيّاش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبَير بن نُفَير أن سَلَمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إنّي سَيَّبْتُ الخيلَ، وألقيتُ السلاح، ووضعتِ الحربُ أوزارَها، وقلت: لا قتال. فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «الآنَ جاء القتالُ، لا تزال طائفة من أمتي ظَاهرين على الناس يُرفَعُ الله قلوبَ أقوام فيقاتلونهم، ويرزُقهم الله منهم، حتى يأتي أمرُ الله وهُم على ذلك. ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[٣]. وهكذا رواه النسائي من طريقين، عن جُبير بن نُفير، عن سلمة بن نُفَيل السكوني، به.

[٦٠٧٩] وقال أبو القاسم البَغَويُّ: حدثنا داود بن رُشَيد، حدثنا الوليد، عن محمد بن مهاجر، عن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٩ ومسلم ١٧٦٤ وأبو داود ٢٦٧٩ والنسائي ١/١٠٩ ـ ١١٠ وأحمد ٢/٤٥٣ وابن حبان ١٢٣٩.

(٢) تقدم تخريجه في سورة النور آية ٥٥.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤/١٠٤ وإسناده حسن لأجل إسماعيل بن عياش، فإنه صدوق في روايته عن أهل بلده ـ الشام ـ وتوبع عند النسائي في «الكبرىٰ» ٤٤٠١ وكرره من وجه آخر ٨٧١٢ وإسناده صحيح.

الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبَير بن نُفَير، عن النوّاسِ بن سِمْعانَ قال: فُتِح على رسول الله ـ ﷺ ـ فَتْحٌ فقالوا: يا رسولَ الله! سُيِّبت الخيلُ، وَوُضِعَت السلاحُ، وَوَضَعتِ الحربُ أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كَذَبُوا، الآن جاء القتال، لا يَزَال الله يُرَفِّع قلوبَ قوم يقاتلونهم، فيرزُقهم منهم، حتى يأتي أمر الله وهُم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين بالشام»[1]. وهكذا رواه الحافظُ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رُشيد، به. والمحفوظ أنه من رواية سَلَمة بن نُفَيل كما تقدَّم. وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحَرْبِ إلى ألاَّ يبقى حربٌ.

وقال قتادةُ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، حتى لا يبقى شِرْكٌ. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، أي: أوزارَ المحاربين، وهم المشركونَ، بأن يَتوبُوا إلى الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ. وقيل: أوزارَ أهلِها بأن يبذلوا الوُسْعَ في طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقولُهُ عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾، أي: هذا ولو شاء الله لأنتقمَ من الكافرين بعقوبةٍ ونَكالٍ من عنده، ﴿وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، أي: ولكن شَرَع لكم الجهادَ وقتالَ الأعداءِ ليختَبِركم، ويبلو أخبارَكم. كما ذكرَ حكمته في شَرعيَّةِ الجهادِ في سورتَي آلِ عِمران وبراءةٍ في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢، والتوبة: ١٦]. وقال في سورة براءةٍ: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾. ثم لما كان من شأنِ القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، أي: لن يُذهِبَها بل يُكثِّرها ويُنمِّيها ويُضاعِفُها. ومنهم مَن يَجْري عليه عمله في طول بَرْزَخِهِ، كما ورد بذلك الحديثُ الذي، رواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَده، حيثُ قال:

[٦٠٨٠] حدثنا زيدُ بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابنُ ثوبان، عن أبيه، عن مكحولٍ، عن كثير بن مُرّة، عن قيس الجُذامي ـ رجل كانت له صحبةٌ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُعطَى الشهيد سِت خصال عند أوّلِ قطرةٍ من دَمِهِ: يُكفَّر عنه كلُّ خطيئةٍ، ويَرَى مقعده من الجَنّةِ، ويُزوَّجُ من الحُورِ العِينِ، ويُؤمَّن من الفَزَعِ الأكبرِ، ومن عذابِ القبر، ويُحلَّى حُلَّةَ الإيمانِ»[2]. تفرد به أحمد رحمه الله.

[٦٠٨١] حديثٌ آخرُ، قال أحمد أيضاً: حدثنا الحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيلُ بن عَيَّاش، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن مَعْدانَ، عن المِقدَام بن مَعدِ يَكرِبِ الكِنديِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن للشهيد عند الله ستَّ خصالٍ: أن يغفر له في أول دَفْعَةٍ من دَمِهِ، ويرى مقعَده من الجنة، ويُحلَّى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويَأمَن من الفَزَعِ الأكبَرِ، ويُوضَع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويُزَوَّجَ اثنتين وسبعين زوجةً من الحُور العِين، ويُشَفَّع في سبعينَ إنساناً من أقاربه»[3]. وقد أخرجه الترمذيّ وصَحّحَه، وابنُ ماجه.

---

(١) المتن صحيح. والإسناد ضعيف، فيه عنعنة الوليد، والصواب كونه من حديث سلمة بن نفيل كما ذكر ابن كثير، وبكل حال المتن محفوظ.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ٢٠٠ وإسناده غير قوي لأجل عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان لكن له شواهد. انظر المجمع ٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤ وانظر الآية.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ١٦٦٣ وابن ماجه ٢٧٩٩ وأحمد ٤/ ١٣١.

[٦٠٨٢] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبي قتادة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يُغفر للشهيد كلُّ شيءٍ إلا الدَّيْن»[(١)] ورُوِي من حديث جماعة من الصحابة.

[٦٠٨٣] وقال أبو الدَّرداء رضي الله عنه: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»[(٢)]. رَوَاه أبو داود. والأحاديث في فضل الشهيد كثيرةٌ جداً.

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾، أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، أي: أمْرَهم وحالَهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾، أي: عرَّفهم بها وهَدَاهم إليها. قال مجاهد: يهتدِي أهلُها إلى بيوتهم ومساكِنِهم، وحيث قَسَم الله لهم منها، لا يُخطِئون كأنهم ساكِنُوها منذ خُلِقوا، لا يستدلون عليها أحداً. ورَوَى مالكٌ عن ابنِ زيدِ بن أسلَمَ نحوَ هذا. وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتَهم إذا دخلُوا الجنةَ، كما تعرِفون بيوتَكُم إذا انصرفتُم من الجُمُعة. وقال مقاتل بنُ حَيَّان: بَلَغنا أنَّ الملكَ الذي كان وُكِل بحفظِ عَمَلِه في الدنيا يمشِي بين يَدَيه في الجنة، ويَتْبَعُه ابنُ آدمَ حتى يأتي أقصى منزلٍ هُو له، فيعرِّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالىٰ في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزلِهِ في الجنّةِ دَخَلَ مَنزله وأزواجه، وانصرفَ المَلكُ عنه، ذكرهُنَّ ابنُ أبي حاتمٍ، ـ رَحِمَه الله ـ.

[٦٠٨٤] وقد ورد الحديثُ الصحيحُ بذلك أيضاً: رَوَاه البخاريُّ من حديث قتادةُ، عن أبي المتوكِّل النَّاجي، عن أبي سَعيدِ الخِدري أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا خَلَص المؤمنون من النار حُبِسُوا بقنطرة بين الجنّةِ والنارِ يتقاصُّون مظالِمَ كانَت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيدِهِ إنَّ أحدَهُم بمنزلِه فِي الجنة أهدَى منه بمنزله الذي كان في الدنيا»[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾، كقوله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، فإن الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ كما جاء في الحديث:

[٦٠٨٥] «من بَلَّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، ثبّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة». ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكسُ تثبيتِ الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالىٰ ولرسوله ـ ﷺ ـ.

[٦٠٨٦] وقد ثَبَتَ في الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تَعِس عبد القطيفة، تَعِس وانتكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انتقَشَ»[(٤)]، أي: فلا شفاه الله. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: أحبطَها وأبطلَها. ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، أي: لا يُرِيدُونه ولا يُحبُّونَه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٨٦.
(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٢٥٢٢ وابن حبان ٤٦٤١، وانظر «صحيح أبي داود» ٢٢٠١.
(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٠ وأحمد ٣/ ١٣ و٦٣ و٧٤ وابن حبان ٧٤٣٤.
(٤) تقدم تخريجه في سورة آل عمران آية ٢٠٠.

﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ - يعني المشركين بالله المكذِّبين لرسوله - ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: عاقبَهم بتكذيبهم وكُفرهم، أي: ونجّى المؤمنين من بين أظهُرِهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١)﴾.

[٦٠٨٧] ولهذا قال أبو سُفيان صَخرُ بنُ حَربٍ رئيس المشركين يوم أُحد حين سأل عن النبيِّ - ﷺ -، وعن أبي بكر وعُمَر رضي الله عنهما فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هَلَكُوا. وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبتَ يا عَدُوَّ الله، بل أبقى الله لك ما يَسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياءٌ. فقال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بَدْرٍ، والحربُ سِجَالٌ، أما إنكم سَتَجِدُون مُثْلَةً لم آمُر بها ولم تسؤني، ثم ذَهَب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسولُ الله - ﷺ -: «ألا تُجيبوه»؟ قالوا: يا رسولَ الله، وما نقولُ؟ قال: «قولُوا: الله أعلى وأجلُّ». ثم قال أبو سفيان: لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم. فقال: «ألا تُجيبوه»؟ قالوا: وما نقولُ يا رسولَ الله؟ قال: «قولُوا: الله مولانا ولا مولَى لكم»(١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾، أي: في دُنياهم، يَتَمتَّعُون بها ويأكلُون منها كَأَكْلِ الأنعام، خَضماً وقَضماً، ليس لهم هِمَّةٌ إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح:

[٦٠٨٨] «المؤمنُ يأكُل في مِعىً واحد، والكافرُ يأكُل في سبعةِ أمعاءٍ»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، أي: يومَ جَزائِهم. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾، يعني مَكَّة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لأهل مَكَّة، في تكذيبهم لرسولِ الله - ﷺ - وهو سيِّدُ المرسلين وخاتَم الأنبياء، فإذا كان الله - عَزَّ وجَلَّ - قد أهلك الأُمَمَ - الذين كذَّبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشدَّ قوةً من هؤلاء، فماذا ظَنُّ هؤلاء أن يفعلَ الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبةَ في الدنيا لبركة وُجُودِ الرسول نَبِيِّ الرحمةِ، فإنَّ العذابَ يُوَفَّر على الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾. وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾، أي: الذين أخرجُوك من بين أظهرهم.

[٦٠٨٩] وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتَمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس: أن النبيَّ - ﷺ - لما خرج من مكة إلى الغار، وواراه، فالتفتَ إلى مكة - وقال: «أنتِ أحبُّ بلاد الله إلى الله، وأنت أحبُّ بلاد الله إليَّ، ولو أنَّ المشركين لم يخرِجُوني لم أخرُج منك». فأعدى الأعداء من عَدَا على الله تعالى في حَرَمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل

(١) تقدم تخريجه في سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٣٩٦ وابن ماجه ٣٢٥٦ عن أبي هريرة، وأخرجه مسلم ٢٠٦٢ عن أبي موسى.

بدُخول الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نَبيّه ـ ﷺ ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾[1].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، أي: على بصيرةٍ ويقين في أمر الله ودِينه، بما أنزلَ الله في كتابه من الهُدَى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفِطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾، أي: ليس هذا كهذا. كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]. ثم قال عز وجل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ـ قال عكرمة: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾، أي: نعتُها، ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾، قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني غير مُتغيِّر. وقال قتادةُ، والضحّاك، وعطاء الخراساني: غير مُنتنٍ. والعرب تقول: أسِنَ الماء: إذا تَغيَّر ريحُه.

[٦٠٩٠] وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾: «يعني الصافي الذي لا كَدَر فيه»[2]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا وكيعٌ، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرّة، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنةِ تُفجَّر من جَبَل من مِسْكٍ. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾، أي: بل في غاية البياضِ والحلاوةِ والدسُومة.

[٦٠٩١] وفي حديثٍ مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوعِ الماشيةِ»[3].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾، أي: ليست كريهةَ الطعم والرائحةِ كخمر الدنيا، بل حسنةَ المنظر والطعم والرائحة والفِعْل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]. ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٦].

[٦٠٩٢] وفي حديث مرفوع: «لم تعصِرْها الرجال بأقدامها»[4].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، أي: وهو في غايةِ الصفاءِ، وحُسنِ اللونِ والطعمِ، والرِّيح.

[٦٠٩٣] وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بُطون النحلِ»[5].

[٦٠٩٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا الجُرَيري، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه

---

(١) المرفوع له شواهد يصح بها، إسناده واهٍ، فيه حنش واسمه الحسين بن قيس، وهو متروك، والوهن فقط في كونه قاله عند الغار، وفي ذكر نزول الآية.

(٢) لم أقف على إسناده، وهو غريب كونه مرفوعاً.

(٣) لم أره مسنداً، ولا يصح، فلو صح لذكره المفسرون وغيرهم.

(٤) ذكره المصنف على أنه مرفوع. وقد أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» ٦/ ٢٥ عن سعيد بن جبير من قوله. وهو أشبه، والله أعلم.

(٥) هو طرف أثر ابن جبير المتقدم.

قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «في الجنَّةِ بحرُ اللبنِ، وبحرُ الماءِ، وبحرُ العَسَلِ، وبحرُ الخمرِ، ثم تشقق الأنهارُ منها بعد»(١). ورواه الترمذيُّ في صِفَةِ الجنَّةِ، عن محمد بن بَشَّارٍ، عن يزيدَ بن هارونَ، عن سعيدِ بن إياسٍ الجُرَيريِّ، به. وقال: «حَسَنٌ صحيحٌ».

[٦٠٩٥] وقال أبو بكر بن مَرْدُويَه: حدثنا أحمدُ بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيد أبو قُدَامة الإيادِيُّ، حدثنا أبو عِمران الجَوْني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قَيس، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هذه الأنهار تَشخُبُ من جَنَّة عدنٍ في جَوْبَة، ثم تَصَدَّع بعد أنهاراً»(٢).

[٦٠٩٦] وفي الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدَوس، فإنه أوسطُ الجنةِ وأعلى الجنةِ، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(٣).

[٦٠٩٧] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مُصعَبُ بن إبراهيمَ بن حمزَةَ الزُّبَيري، وعبد الله بن الصقر السكَّري قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عَيَّاش، عن دَلْهَم بن الأسود، عن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المُنتَفِق العُقَيلي، عن أبيه، عن عَمِّه لَقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أيضاً أبي الأسود، عن عاصم بن لَقِيط أن لَقِيط بنَ عامرٍ خَرَج وافداً إلى رسول اللهِ ـ ﷺ ـ قلت: يا رسولَ الله، فَعَلام نَطَّلِعُ من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مُصَفًّى، وأنهار من خَمر ما بها صُدَاع ولا نَدَامة، وأنهار من لبن لم يَتغيَّر طعمُه، وماءٍ غير آسن، وفاكهة لَعَمْرُ إلهك ما تعلَمُون وخَيرٌ من مثله، وأزواج مُطَهَّرة». قلت: يا رسولَ الله، أو لنا فيها أزواجٌ مُصْلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تَلَذُّونهن مثلَ لذَّاتكم في الدنيا ويَلَذُّونكم، غير أن لا تَوَالُدَ»(٤).

[٦٠٩٨] وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوبُ بن عُبَيدٍ، عن يزيدَ بن هارون، أخبرني الجُرَيري، عن معاوية بن قرة، عن أبيه، عن أَنَس بن مالكٍ قال: لَعلَّكم تَظنُّون أنَّ أنهار الجَنَّةِ تجري في أُخدُودٍ في الأرض، والله إنها لَتَجري سائحةً على وجهِ الأرضِ، حافاتها قِبابُ اللؤلؤ، وطِينُها المِسْكُ الأذْفَرُ. وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدَوَيه، من حديث مهدي بن حكيم، عن يزيد بن هارُونَ، به مرفوعاً(٥).

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، كقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدخان: ٥٥]. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: مع ذلك كلِّه. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجَنَّة كمن هو خالدٌ في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس مَن هو في الدرجات كمن هو الدركَات، ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾، أي: حارّاً شديدَ الحرِّ، لا يُستطاعُ، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، أي: قَطَّع ما في بطُونهم من الأمعاءِ والأحشاءِ، عِياذاً بالله تعالىٰ من ذلك.

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٥٧١ وأحمد ٥/٥ وإسناده حسن لأجل حكيم بن معاوية.

(٢) إسناده غير قوي لأجل الحارث بن عبيد، والجوبة: الحفرة.

(٣) متفق عليه، وتقدم.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤/ ١٣ ـ ١٤) رقم ١٦٢٠٦ والطبراني ١٩/ ٢١١ وقال الهيثمي: رواه عبد الله والطبراني بنحوه وأحد طريقي عبد الله إسنادها متصل ورجالها ثقات.

(٥) فيه مهدي بن حكيم. لم أجد له ترجمة. والصواب أنه موقوف كما قال المنذري في «الترغيب» ٥٤٨٤.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلّةِ فهمِهم، حيث كانوا يَجلِسُون إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ ويَستَمِعُون كلامِه ولا يفهَمُون منه شيئاً، فإذا خَرَجُوا من عندِه ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾، أي: الساعة، لا يَعقِلون ما يقال، ولا يَكترِثُون له! قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: فلا فهمٌ صحيحٌ، ولا قصدٌ صحيحٌ. ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾، أي: والذين قَصَدُوا الهداية وَفَّقَهم الله تعالى لها فَهَداهم إليها، وثَبَّتَهم عليها وزادَهُم منها، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، أي: ألهَمَهم رُشدَهم. وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾، أي: وهم غافِلُون عنها، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾، أي: أماراتُ اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦ ـ ٥٧]، وكقوله جلت عظمته: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، وقولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقولِهِ جل وعلا: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثةُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ من أشراطِ الساعة، لأنه خاتَمُ الرسُلِ الذي أكمَل الله تعالى به الدينَ، وأقام به الحجّةَ على العالمين. وقد أخبَر ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأماراتِ الساعة وأشراطِها، وأبانَ عن ذلك وأوضحَهُ بما لم يُؤتَه نبيٌّ قبلَه، كما هو مبسوطٌ في موضعه. وقال الحسن البصري: بعثة محمد ـ ﷺ ـ من أشراطِ الساعة. وهو كما قال، ولهذا جاء في أسمائه ـ عليه السلام ـ أنه نَبيُّ التوبة، ونبي المَلْحَمَة، والحاشر الذي يُحشَر الناس على قَدَميه، والعاقِب الذي ليس بعدَه نبي.

[٦٠٩٩] وقال البخاريُّ: حدثنا أحمدُ بن المقدام، حدثنا فُضَيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا سهلُ بن سعد قال: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال بِإصبَعَيه هكذا، بالوُسطَى والَّتي تَلِيها: «بُعِثتُ أنا والساعةُ كهاتين»[1]. ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، أي: فكيفَ للكافرين بالتذكُّر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعُهم ذلك؟. كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبا: ٥٢]. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتّى كونه آمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله عز وجل: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

[٦١٠٠] وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «اللهُمّ اغفِر لي خَطِيئتي وجَهلي، وإسرافي في أَمري، وما أنتَ أعلَمُ به منّي، اللهُمّ اغفِرْ لي هَزْلي وجِدّي، وخَطَئي وعَمْدِي، وكلُّ ذلك عِندِي»[2].

[٦١٠١] وفي الصحيح أنه كان يقولُ في آخرِ الصَّلاةِ: «اللهُمّ اغفِرْ لي ما قَدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وما

---

(١) تقدم في سورة الأعراف آية ١٨٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٩٨ ومسلم ٢٧١٩ وابن حبان ٩٥٧ من حديث أبي موسى الأشعري.

أَسرَرْتُ وما أعلَنتُ، وما أَسرَفتُ، وما أنت أعلَمُ به منِّي، أنت إلهي لا إله إلا أنت»(١).

[٦١٠٢] وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناسُ، تُوبُوا إلى ربِّكم فإني أستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليومِ أكثَرَ من سبعينَ مَرَّةً»(٢).

[٦١٠٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن عاصم الأحول قال: سَمِعتُ عبد الله بن سَرْجِسَ قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأكلتُ معه من طَعامِهِ فقلت: غَفَر الله لك يا رسول الله قال: «وَلَك». فقلت: أستغفر لَكَ؟ قال: نَعَم، ولكم، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم نَظرت إلى نُغْضِ كَتِفِه الأيمن ـ أو: كَتِفِه الأيسر، شُعبةُ الذي شَكَّ ـ فإذا هو كهيئة الجُمْع عليه الثآليل(٣).

ورواه مسلمٌ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من طُرُق، عن عاصم الأحول. به.

[٦١٠٤] وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلَى: حدثنا مُحرز بنَ عَونٍ، حدثنا عثمان بن مَطَر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نَصِيرَةَ، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفارِ، فأكثِرُوا منهما، فإن إبليسَ قال: أهلكتُ الناسَ بالذنُوبِ، وأهلكوني بـ «لا إله إلا الله» والاستغفارِ. فلما رأيت ذلك أهلكتُهم بالأهواء، فهم يَحسَبُون أنهم مهتدون»(٤).

[٦١٠٥] وفي الأثر المرويِّ: «قال إبليسُ: وعزتك وجلالك لا أزالُ أُغويهم ما دامت أرواحُهم في أجسادِهم. فقال الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: وعزّتي وجَلالي لا أزال أَغفِرُ لهم ما استغفَرُوني»(٥). والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾، أي: يعلَمُ تصرُّفكم في نهاركم ومُستقَرّكم في ليلكم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦]. وهذا القول إليه ذهب ابن جُرَيج، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ. وعن ابن عباس: مُتقلَّبكم في الدنيا، ومَثْواكم في الآخرة. وقال السديُّ: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قُبُوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝٢٣﴾

(١) صحيح. أخرجه مسلم (٧٧١) (٢٠٢) وأبو داود ٥٠٩ والترمذي ٣٤٢٢ وأحمد ١/ ١٠٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢١ ومسلم (٢٧٠٢) (٤٢) والنسائي ٤٤٦ من حديث ابن عمر.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٤٦/ ١١٢ والترمذي ٢٣ والنسائي في «التفسير» ٥١٦ وأحمد ٥/ ٨٢.

(٤) إسناده ضعيف جداً. أخرجه أبو يعلى ١٣٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٧٤: فيه عثمان بن مطر، وهو ضعيف اهـ وله علة ثانية: فيه عبد الغفور هو ابن عبد العزيز الواسطي، اتهمه ابن حبان بالوضع. وعلة ثالثة: أبو رجاء مولى أبي بكر مجهول.

(٥) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٧٦ والحاكم ٤/ ٢٦١ من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً، وإسناده ضعيف لضعف دراج في أبي الهيثم.

يقولُ تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تَمَنَّوا شرعية الجهادِ، فلما فَرَضه الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وأمر به نَكَل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧]. وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾، أي: مشتملة على حُكْم القتالِ، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، أي: من فزعهم ورُعبهم وجُبنهم من لقاءِ الأعداءِ. ثم قال مُشَجِّعاً لهم: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾، أي: وكان الأولى بهم أن يسمَعُوا ويُطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾، أي: جَدَّ الحال، وحَضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾، أي: أخلصُوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: عن الجهاد ونَكَلتُم عنه، ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، أي: تعودُوا إلى ما كنتم فيه من الجاهليةِ الجهلاءِ، تسفِكُون الدماءَ، وتقطعُون الأرحام. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾، وهذا نهي عن الإفسادِ في الأرض عُموماً، وعن قطع الأرحامِ خُصُوصاً، بل قد أمر تعالى بالإصلاح في الأرضِ وصِلَة الأرحام، وهو الإحسانُ إلى الأقاربِ في المَقَال والفِعال وبَذْلِ الأموالِ. وقد وردت الأحاديثُ الصِّحاح والحسان بذلك، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ من طُرُقٍ عَديدةٍ، ووجُوهٍ كثيرةٍ.

[٦١٠٦] قال البخاريُّ: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سَعيد بن يَسَار، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «خَلَقَ الله الخلقَ، فلما فَرَغ منه قامت الرحم فأخذت بِحقوِ الرحمن ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، فقال: مَهْ! فقالت: هذا مقامُ العائذِ بكَ من القطيعةِ. فقال تعالىٰ: ألا تَرْضَين أن أَصِلَ من وَصَلَكِ، وأقطعَ من قَطَعَكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاكِ». قال أبو هُريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾(١). ثم رواه البخاريُّ من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبي مُزَرِّد، به، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾». ورواه مُسلِمٌ من حديث معاوية بن أبي مُزَرِّد به.

[٦١٠٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيل بنُ بن عُلَيَّة، أخبرنا عُيينةُ بنُ عبد الرحمن بن جَوشَنٍ، عن أبيه، عن أبي بَكْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من ذنبٍ أحْرَى أن يُعَجِّل الله عقوبَتَهُ في الدنيا مع ما يَدَّخِرُ لصاحبه في الآخرة، من البَغي وقَطيعةِ الرَّحم»(٢). ورواه أبو داود والترمذيُّ وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَيَّة ـ به. وقال الترمذيُّ: «هذا حَديث صحيحٌ».

[٦١٠٨] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المَرَئِيُّ، حدثنا محمد بنُ عَبّاد المخزوميّ، عن ثَوْبان رضي الله عنه، عن رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: «من سَرَّه النَّساءُ في الأجل، والزيادةُ في الرزقِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»(٣). تفرَّد به أحمدُ، وله شاهدٌ في الصَّحِيح.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٣٠ و٤٨٣١ و٤٨٣٢ ومسلم ٢٥٥٤ وأحمد ٢/ ٣٣٠ وابن حبان ٤٤١.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٩٠٢ والترمذي ٢٥١١ وابن ماجه ٤٢١١ وأحمد ٥/ ٣٦، ٥/ ٣٨ وإسناده حسن لأجل عيينة بن عبد الرحمن، وله شواهد كثيرة تقدمت.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٩ وإسناده لين لأجل ميمون بن موسىٰ، لكن له شواهد منها حديث أنس عند مسلم ٢٥٥٧.

[٦١٠٩] وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا حَجّاج بن أرطاةَ، عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ لي ذَوِي أرحام، أَصِلُ ويقطَعُون، وأعفو ويظلِمُون، وأُحسِنُ ويُسِيئُون، أَفأُكافِئُهم؟ قال: «لا، إذن تُترَكُون جميعاً، ولكن خُذ بالفَضْلِ وصِلْهم، فإنَّه لن يزالَ معك ظهيرٌ من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ما كنتَ على ذلِكَ»[١]. تَفرَّد به أحمد من هذا الوجهِ. وله شاهدٌ من وجهٍ آخَرَ.

[٦١١٠] وقال الإمام أحمَدُ: حدثنا يعلى، حدثنا فِطْرٌ، عن مُجاهِدٍ، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الرحم مُعلَّقَةٌ بالعرش، وليس الواصلُ بالمكافِيء، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَت رَحِمه وَصَلها»[٢] رواه البخاري.

[٦١١١] وقال أحمد: حدثنا بَهزٌ، حدثنا حَمّاد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبي ثُمامَةَ الثقفي، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تُوضَعُ الرحِمُ يوم القيامة لها حُجْنَة كحُجنَة المِغزَلِ، تتكلم بِلِسانٍ طلقٍ ذلقٍ[٣]، فَتَصِلُ مَن وَصلها وتقطَعُ من قَطَعها»[٤].

[٦١١٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سفيانُ، حدثنا عَمرو، عن أبي قابوسَ، عن عبد الله بن عَمرو ـ يَبلُغُ به النَّبي ـ ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحَمُهم الرحمن، ارحمُوا أهل الأرض يرحَمكم أهل السماء، والرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِن الرحمنِ، مَن وَصَلها وصلتُه، ومن قَطَعها بَتَّتُه»[٥]. وقد رواه أبو داودَ والترمِذيُّ، من حديث سُفيانَ بنِ عُيَينةَ، عن عَمرو بن دينارٍ به. وهذا هو الذي يُرْوى بِتَسلسُلِ الأَوّلِيَّة، وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيح».

[٦١١٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيد بن هارون، حَدَّثنا هشامٌ الدَّستَوائيُّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ: أن أباه حَدَّثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريضٌ، فقال له عبدُ الرحمن: وَصَلتك رَحِمٌ، إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: أنا الرحمنُ، خَلَقتُ الرَّحِم وشَقَقتُ لها اسماً من اسمِي، فَمَن يَصِلُها أَصِلُه، ومن يقطَعُها أقطَعُه فَأَبُتُّه ـ أو قال: من بَتَّها أبُتُّه»[٦]. تَفرَّد به من هذا الوجه. ورواه أحمدُ أيضاً من حديث الزهرِيِّ، عن أبي سَلَمة، عن الرداد ـ أو أبي الرَّدّاد ـ عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه أبو داود والترمذي، من رواية أبي سَلَمة، عن أبيه. والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

[٦١١٤] وقال الطبَراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن يونس، عن الحجاج بن يونُس، عن الحَجّاج بن الفُرَافِصَة، عن أبي عُمَر البصري، عن سَلْمان قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، فما تعارَفَ منها ائتلفَ، وما تناكَرَ منها اختلف»[٧].

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ١٨١ وإسناده غير قوي لأجل حجاج، لكن أصله عند مسلم ٢٥٥٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٩١ وأبو داود ١٦٩٧ والترمذي ١٩٠٨ وأحمد ٢/ ١٩٣ وابن حبان ٤٤٥.

(٣) حجنة المغزل: صنارته المعوجّة في رأسه التي يعلق بها الخيط. ولسان ذلق: فصيح.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٩ وإسناده ضعيف لجهالة أبي ثمامة، وفي الباب أحاديث بغير هذا السياق.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٩٤١ والترمذي ١٩٢٤ وأحمد ٢/ ١٦٠ وإسناده حسن، وله شواهد.

(٦) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٩٤ والترمذي ١٩٠٧ وأحمد ١/ ١٩٤ من طرق متعددة، وله شواهد.

(٧) صحيح. أخرجه الطبراني ٦١٧٢ وقال الهيثمي ١٣١٠١ رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد باختصار وله شواهد كثيرة وهو صحيح..

[٦١١٥] وبه قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا ظَهر القولُ، وخُزِن العمَلُ، وائتلفت الألسنةُ، وتباغضتِ القلوبُ، وقَطَع كلُّ ذي رَحِم رَحِمَه، فعند ذلك لَعَنهم الله فأصمَّهم وأعمَى أبصارَهم»(١).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً بِتَدبُّر القرآن وتفهُّمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، أي: بل على قلوبٍ أقفالُها، فهي مُطْبَقَة لا يخلصُ إليها شيءٌ من معانيه.

[٦١١٦] قال ابنُ جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيدٌ قال: حدثنا حمّاد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل عليها أقفالُها حتى يكونَ الله تعالى يَفتحُها أو يُفرِّجُها. فما زال الشابُّ في نفسِ عُمر ـ رضي الله عنه ـ حتى وُلِّي، فاستعان به(٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾، أي: فارقُوا الإيمانَ ورجعُوا إلى الكفر، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، أي: زيَّن لهم ذلك وحَسَّنه، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، أي: غرَّهم وخدَعهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾، أي: مالؤوهم وناصحُوهم في الباطِن على الباطِل، وهذا شأنُ المنافِقِين يُظهِرُون خِلافَ ما يُبطِنون، ولهذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، أي: ما يُسِرُّون وما يُخفُون، الله مُطَّلِعٌ عليه وعالمٌ به، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾، أي: كيف حالُهم إذا جاءتهم الملائكةُ لِقَبْضِ أرواحهم وتَعَصَّت الأرواحُ في أجسادِهم، واستخرجتها الملائكة بالعُنفِ والقَهرِ والضَّرْبِ، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. . . الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني ٦١٧٠ وفي «الأوسط» كما في «المجمع» ١٢٢٤١ وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم اهـ. وفيه حجاج بن فرافصة، لين الحديث. وشيخه مجهول.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٤٠٨ عن عروة مرسلاً، ورجاله ثقات، لكن المرسل ضعيف عند أهل الحديث.

يقولُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾، أي: أيعتقدُ المنافقون أن الله لا يكشِفُ أمرهم لعباده المؤمنين؟! بل سيُوضِّح أمرهم ويُجلِّيه حتى يَفهمَهُم ذَوو البصائرِ، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سُورةَ براءة، فَبيَّن فيها فضائحهم وما يَعتمِدُونه من الأفعال الدالّة على نِفَاقِهم، ولهذا كانت تُسمَّى الفاضحة. والأضغانُ: جَمْعُ ضِغْنٍ، وهو ما في النفُوسِ من الحَسَد والحِقْدِ للإسلام وأهلِه والقائمين بِنَصْره.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاءُ ـ يا محمدُ ـ لأريناك أشخاصَهم، فعرفتهُم عِياناً، ولكن لم يفعل تعالى في جميع المنافقين سَتراً منه على خَلْقِهِ، وحَمْلاً للأُمور على ظاهرِ السلامَةِ، وردّاً للسرائرِ إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، أي: فيما يبدُو من كلامهم الدالّ على مقاصِدِهم، يفهم المتكلِّمُ من أيِّ الحزبين هو بمعاني كلامِه وفحواه، وهو المرادُ من لَحْنِ القولِ، كما قال أمير المؤمنين عثمانُ بنُ عفان ـ رضي الله عنه ـ: ما أسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صَفَحاتِ وَجْهِهِ، وفَلَتاتِ لِسَانِهِ.

[٦١١٧] وفي الحديث: «ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا كساه الله تعالىٰ جلبابها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌ». وقد ذكرنا ما يُستَدَلُّ به على نفاقِ الرجُلِ. وتَكلَّمنا على نفاقِ العَمَلِ والاعتقادِ في أول «شرح البخاري»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد وَرَد في الحديث تعيينُ جماعةٍ من المنافقين[١].

[٦١١٨] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن سَلَمة، عن عِياض بن عياضٍ، عن أبيه، عن أبي مسعود عُقبَةَ بن عَمْرٍو ـ رضي الله عنه ـ قال: خَطَبَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ خطبةً فَحَمِدَ الله تعالىٰ وأثنى عليه ثم قال: «إنَّ منكم منافِقِينَ، فمن سَمَّيتُ فَلْيقُم». ثم قال: «قُم يا فلان، قُم يا فلان، قُم يا فلان» ـ حتى سَمَّى ستةً وثلاثين رجلاً ـ ثم قال: «إن فيكم ـ أو: منكم ـ منافقين فاتَّقُوا الله». قال: فمرَّ عُمَر برجُلٍ ممن سُمِّي مُقنَّع قد كان يعرفه، فقال: مالك؟ فَحدَّثه بما قال رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[٢].

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، أي: ولنختبرنَّكم بالأوامرِ والنواهِي، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس في تَقدُّم علم الله تعالى بما هو كائنٌ أنه سيكونُ شَكٌّ ولا رَيْبٌ، فالمراد: حتى نعلم وُقوعَه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلاّ لِنعلَمَ: أي: لِنَرَى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٧٠٢ من حديث جندب بن سفيان، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٧٦: فيه حامد بن آدم، وهو كذاب اهـ وفيه محمد بن عبد الله العرزمي، وهو متروك. وله شاهد من حديث عثمان، أخرجه القضاعي ٥١٠، وفيه حفص بن سليمان واهٍ.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٣ والطبراني ١٧/ ٢٤٦، وقال الهيثمي في «المجمع»: فيه عياض بن عياض عن أبيه، ولم أر من ترجمهما اهـ قلت: ذكرهما ابن حبان في «الثقات» ٥/ ٢٦٧، ولكن ابن حبان معروف بتوثيق المجاهيل. والمتن منكر. فالصواب أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشهّر بالمنافقين، وإنما أعلم حذيفة فقط بأسمائهم، وسمي صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يُخبر تعالى عمن كَفَرَ وصَدَّ عن سبيل الله، وخالَفَ الرسولَ وشاقَّه، وارتدَّ عن الإيمان من بعد ما تبيَّن له الهُدى: أنه لن يَضُرَّ الله شيئاً، وإنما يضرُّ نفسَه ويَخسَرُها يوم مَعادِها، وسَيُحبِطُ الله عَمَله فلا يُثيبه على سالِفِ ما تقدَّم من عَمَلِه الذي عَقَّبه بردَّته مِثقالَ بعوضةٍ من خَيرٍ، بل يحبطه ويمحَقُه بالكُلِّيَّة، كما أن الحسناتِ يُذهِبنَ السيئاتِ.

وقد قال الإمامُ محمدُ بن نَصر المَرْوَزِيُّ في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قُدامَةَ، حَدَّثنا وكيعٌ، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحابُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ يَظنُّون أنه لا يَضُرُّ مع (لا إله إلا الله) ذنبٌ، كما لا ينفَعُ مع الشركِ عملٌ، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافُوا أن يُبطِلَ الذنبُ العَملَ.

ثم رَوَى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بُكَير بن معروف، عن مقاتل بن حَيَّان، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: كنا ـ معشرَ أصحابِ رسول الله ـ ﷺ ـ نرى أنه ليس شيءٌ من الحسناتِ إلا مقبولٌ حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذي يُبطِل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائرُ الموجباتُ والفواحش، حتى نَزَلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كَفَفنا عن القولِ في ذلك، فَكُنَّا نخاف على مَنْ أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يُصِبها.

ثم أمر تبارك وتعالى عبادَه المؤمنين بطاعته وطاعَة رسُوله التي هي سعادتُهم في الدنيا والآخرة، ونهاهُم عن الارتدادِ الذي هو مُبطِلٌ للأعمالِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، أي: بالردَّة. ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾، كقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ . . . الآية.

ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾، أي: لا تَضعُفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾، أي: المُهادَنةِ والمُسالَمةِ وَوَضعِ القتال بينكم وبين الكفار في حال قُوَّتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكُم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، أي: في حال عُلوِّكم على عَدوِّكم، فأما إذا كان الكفارُ فيهم قوةٌ وكثرةٌ بالنِّسبة إلى جَميع المسلمين، ورأى الإمامُ في المعاهَدَة والمهادنة مصلحةً، فله أن يفعلَ ذلك، كما فَعَل رسول الله ـ ﷺ ـ حين صَدَّه كفارُ قريش عن مكة ودَعوه إلى الصلح وَوَضعِ الحرب بينهم وبينه عَشرَ سنين فأجابهم إلى ذلك. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بِشارةٌ عظيمة بالنصر والظَفرِ على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، أي: ولن يُحبِطَها ويُبطِلَها ويَسلُبكم إيَّاها، بل يُوَفِّيكم ثوابَها ولا يَنقُصكم منها شيئاً. والله أعلم.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

يقولُ تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، أي: حاصِلُها ذلك إلا ما كان منها لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾، أي: هو

غَنيٌّ عنكم لا يطلُب منكم شيئاً، وإنما فَرَض عليكم الصدقاتِ من الأموالِ مواساةً لإخوَانِكم الفُقرَاء، ليعودَ نَفعُ ذلك عليكم، ويرجعَ ثوابُه إليكم.

ثم قال جل جلاله: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾، أي: يُجهِدْكم تبخلوا: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾، قال قتادة: قد علم الله أن في إخراجِ الأموال إخراجَ الأضغانِ. وصَدَق قتادةُ، فإن المال محبوبٌ، ولا يُصرَفُ إلا فيما هو أحبُّ إلى الشخصِ منه.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، أي: لا يُجيبُ إلى ذلِكَ، ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: إنما نَقصَ نفسَه من الأجرِ، وإنما يعودُ وبالُ ذلك عليه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾، أي: عن كلِّ ما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه دائماً. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، أي: بالذاتِ إليه. فوصفُه بالغِنى وصفٌ لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكُون عنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾، أي: عن طاعته واتِّباع شرْعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾، أي: ولكن يكونون سامعين مُطِيعين له ولأوامره.

[٦١١٩] وقال ابنُ أبي حاتم، وابنُ جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابنُ وَهبٍ، أخبرني مُسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هُريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾، قالوا: يا رسُول الله، من هؤلاء الذين إن تَولَّينا استبدَلَ بنا ثم لا يكونُوا أمثالنا؟ قال: فَضرَبَ بيدهِ على كَتِفِ سَلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومُه، ولو كان الدينُ عند الثريا لتناوله رجالٌ من الفرس»[١]. تَفرَّد به مسلمُ بنُ خالدِ الزَّنْجِيّ، ورواه عنه غيرُ واحدٍ، وقد تكلَّم فيه بعضُ الأئمة، والله أعلم.

## آخر تفسير سورة القتال، ولله الحمد والمنة

---

(١) أخرجه ابن حبان ٧١٢٣ والطبري ٣١٤٤٢ و٣١٤٤٣ و٣١٤٤٤ وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ١/ ٣ من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف، فيه مسلم بن خالد الزنجي، وهو ضعيف وتابعه عبد الله بن جعفر عند الترمذي ٣٢٦١ وأبي نعيم ١/ ٣ وابن جعفر، ضعيف الحديث، وأخرجه الترمذي ٣٢٦٠ من وجه آخر، وفيه راوٍ لم يسمّ. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٦/ ٣٣٤ وأخرجه أبو نعيم ١/ ٥ من طريق آخر وإسناده ضعيف. فلعل الحديث يحسن بهذه الطرق، أو يقرب من الحسن، والله أعلم. وعجز الحديث أخرجه البخاري ٤٨٩٧ و ٤٨٩٨ ومسلم ٢٥٤٦ من حديث أبي هريرة. لكن فيه «من أبناء فارس» بدل «الفرس» وانظر «الصحيحة» ١٠١٧.

# سُورَةُ الفَتْحِ

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

## وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

[٦١٢٠] قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا شعبةُ، عن معاويةَ بن قُرَّةَ قال: سَمِعتُ عبد الله بن مُغَفَّلٍ يقول: قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عام الفتح في مَسِيرهِ سورةَ الفتح على راحِلَتِه فرَجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أني أكرهُ أن يجتمِع الناس علينا لَحَكَيتُ لكم قراءَته[١]، أخرجاهُ من حَدِيث شُعبةَ به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

نَزلت هذه السورةُ الكريمةُ لما رَجَع رسول الله ـ ﷺ ـ من الحُدَيبية في ذي القِعدة من سنة ستٍّ من الهجرة، حين صَدَّه المشركوُن عن الوصولِ إلى المسجدِ الحرام ليقضيَ عُمرَتَه فيه، وحالُوا بينه وبين ذلك، ثم مالُوا إلى المصالَحةِ والمهادَنةِ، وأن يرجعَ عامَه هذا ثم يأتي من قَابلٍ، فأجابهم إلى ذلك على تَكرُّهٍ من جماعةٍ من الصحابة، منهم عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كما سيأتي تفصيلُه في موضعه من تفسير هذه السورة، إن شاء الله تعالى. فلما نَحر هَدْيَه حيثُ أُحصِرَ ورَجَع، أنزلَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه السورةَ فيما كان من أمْرِه وأَمرِهم، وجعل ذلك الصلحَ فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمرُ إليه، كما رُوِي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أو غيره أنه قال: إنكم تعدُّون الفتحَ فتحَ مكَّةَ، ونحن نعدُّ الفتحَ صُلحَ الحُدَيبيَةِ. وقال الأعمشُ، عن أبي سُفيانَ، عن جابرٍ رضي الله عنه قال: ما كنا نعدّ الفتحَ إلا يومَ الحُدَيبيةِ.

[٦١٢١] وقال البخاريُّ: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن البَرَاءِ قال: تَعُدُّونَ أنتم الفتحَ فتحَ مكَّةَ، وقد كان فتحُ مكَّة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحُدَيبية، كُنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ أربعَ عَشرةَ مئة، والحُدَيبية بئرٌ، فَنَزحناها فلم نَتْرُكْ فيها قطرة، فبلغ ذلكَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأتاها فجلسَ على شَفِيرها، ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ فتوضَّأ، ثم تَمَضمَضَ ودَعَا، ثم صَبَّه فيها، فتركناها غيرَ بعيدٍ، ثم إنها أصدَرَتْنَا ما شِئنَا نحنُ ورَكائِبُنا[٢].

[٦١٢٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو نُوح؛ حدثنا مالكُ بن أَنَس، عن زيدِ بن أسلَم، عن أبيه، عن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كُنّا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ، قال: فسألتُه عن شيءٍ ـ ثلاث مرات ـ فلم يَرُدَّ عليَّ، قال فقلتُ لنفسي: ثَكِلتك أُمُّك يابنَ الخطاب، نَزَرْت رسولَ الله ـ ﷺ ـ ثلاث مرَّات

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٨١ ومسلم ٧٩٤ وأبو داود ١٤٦٧ وأحمد ٤/ ٥٤ ـ ٨٥ وابن حبان ٧٤٨.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ٤١٥٠.

فلم يَرُدَّ عليك؟ قال: فَرَكِبتُ راحلتي فَتَقدَّمتُ مخافَةَ أن يكون نزل فِيَّ شيءٌ، قال: فإذا أنا بمناد: يا عُمَر. قال: فرجعتُ وأنا أظنُّ أنه نَزَل فيَّ شيءٌ، قال: فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «نَزَلت عليَّ البارحة سورةٌ هي أحبُّ إليَّ مِن الدنيا وما فيها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»[١]. ورَواه البخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ من طُرُقٍ، عن مالك رحمه الله. وقال علي بن المَدِيني: هذا إسنادٌ مَدِينيٌّ [جيد] لم نجده إلا عندهم.

[٦١٢٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن قتادةَ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت على النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيبية، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «لقد أُنزِلَت عليَّ الليلة آية أحبُّ إليَّ مما على الأرض». ثم قرأها عليهم النبيُّ ـ ﷺ ـ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبيَّ الله بَيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما يُفعَلُ بك، فماذا يُفعَل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٢]. أخرجاه في الصحيحَين من رواية قتادةَ به.

[٦١٢٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسحاقُ بن عيسى، حدثنا مُجمِّع بن يعقوب قال: سمعتُ أبي يحدث عن عَمِّه عبد الرحمن بن يزيدَ الأنصاري، عن عمه مُجمِّع بن جاريةَ الأنصاري ـ وكان أحدَ القُرّاء الذين قَرَؤوا القرآن ـ قال: شَهِدنا الحُدَيبية فلما انصرفنا عنها إذا الناسُ يُنْفِرُونَ الأباعِرَ، فقال الناسُ بعضُهم لبعض: ما للناسِ؟ قالوا: أُوحِيَ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ. فَخرجنا مع الناس نُوجِفُ[٣]، فإذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ على راحلته عند كُرَاع الغَمِيم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، قال: فقال رجلٌ من أصحاب رسولِ الله ـ ﷺ ـ: أيْ رسولَ الله، وَفَتحٌ هو؟ قال: «إِيْ والذي نفسُ محمدٍ بِيَدِهِ، إنه لفتحٌ». فَقُسِمت خيبرُ على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحدٌ إلاّ من شهد الحُدَيبية؛ فَقَسَمها رسولُ الله ـ ﷺ ـ على ثمانيةَ عشرَ سهماً، وكان الجيشُ ألفاً وخَمسمئةٍ [منهم ثلثمائة] فارسٍ، فأعطى الفارسَ سَهْمَين، وأعطى الراجل سهماً[٤]. ورواه أبو داودَ في الجهاد عن محمدِ بن عيسى، عن مُجَمِّعِ بن يعقوبَ، به.

[٦١٢٥] وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزيع، حدثنا أبو بَحرٍ حدثنا شُعبَةُ حدثنا جامعُ بن شَدّادٍ، عن عبد الرحمن بن أبي عَلقَمَةَ قال: سَمِعتُ عبدَ الله بن مسعودٍ يقول: لما أقبلنا من الحُدَيبية أعرسْنَا فَنِمنا، فلم نَستيقِظْ إلاّ بالشمس قد طَلَعت، فاستيقظنا ورسولُ الله ـ ﷺ ـ نائمٌ ـ قال: فقلنا: أيقظوه. فاستيقظ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: «افعلُوا كما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي». قال: وفَقَدنا ناقةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فطلبناها فوجدناها قد تَعَلَّق خِطَامُها بشجرةٍ، فأتيته بها فَرَكِبَ، فبينا نحن نَسِيرُ إذ أتاه الوحيُ، قال: وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه، فلما سُرِّي عنه أخبرنا أنه أُنزِلَ عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[٥]. وقد رَواه أحمدُ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ، من غير وجهٍ، عن جامع بن شَدّاد، به.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٧٧ والترمذي ٣٢٦٢ والنسائي في «التفسير» ٥١٩ وأحمد ١/ ٣١.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ٤١٧٢ ومسلم ١٧٨٦ والترمذي ٣٢٦٣ وأحمد ٣/ ١٢٢ و١٣٤ و٢٥٢.

(٣) الوجيف: ضرب من سير الخيل والإبل.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٠ وأبو داود ٢٧٣٦ والحاكم ٢/ ١٣١ وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم، وذكره الألباني في «ضعيف أبي داود» ٥٨٧.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٧ والنسائي ١/ ٨٨٥٤ وأحمد ١/ ٣٩١ والطبري ٣١٤٥١.

[٦١٢٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيان، عن زياد بن عِلاقَةَ قال: سمعتُ المغيرةَ بن شعبة يقول: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يُصَلِّي حتى تَرِمَ قَدَماه، فقيل له: أليسَ قد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[١]؟ أخرجاه وبقيةُ الجماعَة إلا أبا داود، من حديث زِيادٍ، به.

[٦١٢٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هارونُ بنُ معروفٍ، حدثنا ابنُ وهبٍ، حدثني أبو صَخْرٍ، عن ابن قُسَيطٍ، عن عُروةَ بن الزبير، عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا صلَّى قامَ حتى تَتَفطَّر رجلاه، فقالت عائشةُ: يا رسولَ الله، أتصنَعُ هذا وقد غَفَر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشةُ، أفلا أكون عبداً شكوراً»؟![٢]. أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به.

[٦١٢٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا عبد الله بن عَون الخرّاز ـ وكان ثقةً بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر حدثنا مِسْعَرٌ، عن قتادةَ، عن أنس قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى تَورَّمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فَقِيلَ له: أليسَ قد غَفَر الله لكَ ما تقدَّم من ذَنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شَكُوراً»[٣]. غريبٌ من هذا الوجه.

فقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، أي: بَيِّناً ظاهراً، والمراد به صلحُ الحُدَيبية، فإنه حَصَل بسببه خيرٌ جزيلٌ، وآمن الناسُ واجتمع بعضُهم ببعض، وتكلَّم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلمُ النافعُ والإيمان. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، هذا من خصائصه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ التي لا يُشارِكه فيها غيره. وليس في حديث صحيحٍ في ثوابِ الأعمالِ لغيره غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريفٌ عظيمٌ لرسول الله ـ ﷺ ـ وهو ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ في جميع أُموره على الطاعة والبرِّ والاستقامة التي لم يَنَلها بَشَرٌ سواه، لا من الأوَّلين ولا من الآخِرين، وهو أكملُ البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوعَ خَلْقِ الله لله تعالىٰ، وأشدَّهم تعظيماً لأوامره وَنواهيه، قال حين بَرَكت به الناقةُ:

[٦١٢٩] «حَبَسها حابسُ الفيلِ»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يُعَظِّمون به حرُماتِ الله إلا أجبتُهم إليها»[٤]. فلما أطاعَ الله في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله تعالىٰ له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: بما يَشرَعُه لك من الشرع العظيم والدينِ القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾، أي: بسبب خُضُوعك لأمرِ الله عز وجل يرفعُك الله وينصرُك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح:

[٦١٣٠] «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعه الله»[٥]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبتَ أحداً عصى الله تعالى فيكَ بمثل أن تُطِيعَ الله فيه.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩ والنسائي ٣/ ٢١٩ والترمذي ٤١٢ وابن ماجه ٤١٩ وأحمد ٤/ ٢٥٥.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٣٧ ومسلم ٢٨٢٠ وأحمد ٦/ ١١٥.

(٣) إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

(٤) متفق عليه، وتقدم.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٨ والترمذي ٢٠٢٩ وأحمد ٢/ ٢٣٥ وابن حبان ٣٢٤٨ من حديث أبي هريرة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾، أي: جَعَل الطُّمَأنينة. قاله ابنُ عباس، وعنه: الرحمةَ. وقال قتادةُ: الوقار في قُلوبِ المؤمنين. وهم الصحابةُ يومَ الحُديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادُوا لحُكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبُهم بذلك واستقرّت زادَهم الله إيماناً مع إيمانهم. وقد استدلَّ بها البخاريُّ وغيرُه من الأئمة على تفاضُل الإيمان في القلوب. ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصرَ من الكافرين فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ولو أرسلَ عليهم مَلَكاً واحداً لأباد خَضْراءهم، ولكنه تعالى شَرَع لعباده المؤمنين الجهادَ والقتالَ، لما له في ذلك من الحكمةِ البالغةِ والحجَّةِ القاطعةِ، والبراهينِ الدامغةِ، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقد تقدّم حديث أنس حين قالوا: هنيئاً لك يا رسولَ الله، هذا لَكَ فما لنا؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يُعاقِبهم عليها، بل يعفُو ويصفَحُ ويغفِرُ، ويسترُ ويرحَم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. كقوله جل وعلا: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾، أي: يَتّهِمُون الله تعالىٰ في حُكمِه، ويظنُّون بالرسول وأصحابه أن يُقتَلُوا ويَذهَبُوا بالكُلّية، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾، أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾. ثم قال عز وجل مُؤكّداً لقُدرتِهِ على الانتقامِ من الأعداءِ أعداءِ الإسلام من الكفرةِ والمنافقين: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيّه محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُ عليه ـ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾، أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، أي للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾، أي: للكافرين. وقد تقدّم تفسيرها في سورة الأحزاب. ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تُعظّموه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، أي: تُسبّحون الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: أول النهار وآخره. ثم قال تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، كقوله جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: هو حاضرٌ معهم يسمَعُ أقوالَهم ويرى مكانَهم، ويعلم ضَمائرَهم وظواهرَهم، فهو تعالى هو المبايعُ بواسطةِ رسوله ـ ﷺ ـ، كقوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

[٦١٣١] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من سَلَّ سيفه في سبيل الله فقد بايَعَ الله»(١).

[٦١٣٢] وحدَّثنا أبي، حدثنا يحيى بن المُغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خُثيم، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في الحَجَر: «والله ليبعثنه الله يومَ القيامةِ له عينانِ ينظرُ بهما، ولسانٌ ينطِق به، ويشهَد على من استلمه بالحقِّ، فمن استلمه فقد بايَعَ الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٢). ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾، أي: إنما يعود وَبَالُ ذلك على الناكث، والله غنيٌّ عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعةُ الرِّضوان، وكانت تحت شجرة سَمُرٍ بالحديبية، وكان الصحابةُ الذين بايعُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ قيل: ألفٌ وثلاثمئةٍ. وقيل: وأربعُمئةٍ. وقيل: وخمسمئةٍ. والأوسط أصحُّ.

## ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في ذلكَ:

[٦١٣٣] قال البخاريُّ: حدثنا قُتَيبة، حدثنا سُفيان، عن عَمرو، عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كُنَّا يوم الحديبية ألفاً وأربعمئةٍ(٣). ورواه مسلم من حديث سفيان بن عُيَينة، به.

[٦١٣٤] وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا يومئذٍ ألفاً وأربعمئة، ووضَع يده في ذلك الماء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، حتى رَوُوا كلُّهم(٤). وهذا مختصرٌ من سياقٍ آخَرَ حين ذكر قِصَّة عطشهم يوم الحُدَيبية، وأن رسول الله ـ ﷺ ـ أعطاهم سَهماً من كِنانته فوضعوه في بئر الحُدَيبية، فجاشَتْ بالماءِ، حتى كَفَتْهم، فَقِيلَ لجابرٍ: كم كُنتم يومَئذٍ؟ قال: كنَّا ألفاً وأربعَمئة، ولو كنَّا مئة ألف لكفانا(٥).

[٦١٣٥] وفي روايةٍ في الصحيحين عن جابر أنهم كانوا خمسَ عشرةَ مئةً(٦).

[٦١٣٦] ورَوَى البخاري من حديث قتادةَ قلتُ لسعيد بن المسيِّب: كم كان الذين شَهِدُوا بيعةَ الرِّضوان؟ قال: خمسَ عشرةَ مئةً. قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربعَ عشرَةَ مئة. قال رَحِمه الله: وَهِم، هو حدثني أنهُم كانوا خمسَ عشرةَ مئةً(٧). قال البَيهقيُّ: هذه الروايةُ تدلُّ على أنه كان في القديم

---

(١) إسناده ضعيف لجهالة الفضل بن يحيىٰ، وباقي الإسناد ثقات.

(٢) ضعيف. في إسناده ابن خثيم فيه ضعف حيث رفع أحاديث موقوفة، وهذا الخبر الراجح وقفه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٠ ومسلم (١٨٥٦) (٦٧) والنسائي في «التفسير» ٢/ ٣٤١ وأحمد ٣/ ٣٩٦.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٤ و ٥٦٣٩ ومسلم ١٨٥٦ (٧٢).

(٥) انظر البخاري ٢٧٣١ و٢٧٣٢ و٤١٥٢. وما سيأتي في قصة الحديبية.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٢ ومسلم ١٨٥٦ (٧٣).

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٣.

يقولُ: خمسَ عِشرةَ مئةً، ثم ذكر الوَهْمَ فقال: أربع عشرة مئة. وروى العَوفِيُّ، عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفاً وخمسَمئةٍ وخمسةً وعِشرينَ. والمشهور الذي رواه غيرُ واحدٍ عنه: أربع عشرَةَ مئةً.

[٦١٣٧] وهذا هو الذي رَوَاه البَيهقيُّ، عن الحاكم، عن الأصمِّ، عن العباس الدُّوري، عن يحيى بن مَعين، عن شَبَابة بن سَوَّار، عن شُعبةَ، عن قتادَةَ، عن سعيد بن المسيَّبِ، عن أبيه قال: كنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ تحت الشجرةِ ألفاً وأربعمئة[١]. وكذلك هو في رواية سَلَمة بن الأكوع ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير.

[٦١٣٨] وقد أخرجَ صاحبا الصحيح من حديث شُعْبَة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سَمِعتُ عبد الله بن أبي أوفى [رضي الله عنه] يقول: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وأربعمئةٍ، وكانت أسْلَمُ يومئذ ثُمنَ المهاجرين[٢].

[٦١٣٩] وروى محمد بن إسحاقِ في «السيرة»، عن الزهرِيِّ، عن عُروَةَ بن الزبيرَ، عن المسْور بن مَخْرَمَة ومَرْوانَ بن الحكم أنهما حَدَّثاه قالا: خَرَجَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عامَ الحُدَيبية يُريد زِيارة البيتِ، لا يُريد قتالاً، وساقَ معه الهَدْيَ سبعين بَدنةً، وكان الناسُ سبعمئةِ رجلٍ، كلُّ بَدَنةٍ عن عشرة نَفَرٍ، وكان جابرُ بن عبد الله ـ فيما بَلَغني عنه ـ يقول: كنَّا أصحاب الحُدَيبية أربعَ عشرَةَ مئة[٣]. كذا قال ابن إسحاق وهو معدودٌ من أوهامه، فإنَّ المحفوظ في الصحيحَين أنهم كانوا بضعَ عشرةَ مئةً كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

## ذِكْرُ سَبَب هذه البيعةِ العظيمةِ:

[٦١٤٠] قال محمدُ بنُ إسحاقَ بن يَسَارٍ في السيرة: ثم دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عُمَر بن الخطاب ليبعَثَه إلى مكَّةَ، فَيبلِّغَ عنه أشرافَ قُرَيشٍ ما جاء له، فقال: يا رسولَ الله، إني أخافُ قريشاً على نفسي، وليس بمكَّة من بني عَدِيِّ بن كعب مَن يَمنعُني، وقد عَرَفت قريشٌ عداوتي إياها، وغِلَظي عليها، ولكني أدلك على رجلٍ أعَزّ بها مني، عثمانَ بن عفان. فَبعثه إلى أبي سفيان وأشرافِ قُريشٍ، يُخبرُهم أنه لم يأتِ لحرب، وأنه إنما جاءَ زائراً لهذا البيتِ، ومُعَظِّماً لحرمته. فَخرج عثمانُ إلى مَكَّةَ، فلقيه أبانُ بنُ سَعِيدِ بن العاصِ حين دخلَ مكَّةَ، أو قبل أن يدخُلَها، فحمله بين يَدَيه، ثم أجاره حتى بَلَّغ رسالة رسول الله ـ ﷺ ـ فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعُظَماء قُرَيشٍ، فَبَلَّغهم عن رسول الله ـ ﷺ ـ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فَرَغ من رسالة رسول الله ـ ﷺ ـ إليهم: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فَطُفْ. فقال: ما كنتُ لأفعَلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله ـ ﷺ ـ. واحتبسته قُرَيشٌ عندها، فبلَغ رسولَ الله ـ ﷺ ـ والمسلمين أن عثمان قد قُتِل.

قال ابن إسحاق: فَحَدَّثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال حين بلغه أن عُثمانَ قد قتل: «لا نَبرحُ حتى نُناجِزَ القومَ». ودعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ الناسَ إلى البيعةِ، فكانت بيعةُ الرِّضوان تحت الشَّجَرةِ، فكان الناسُ يقولون: بايَعهُم رسولُ الله ـ ﷺ ـ على الموت. وكان جابرَ بن عبدِ الله يقول: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لم يُبايِعْهم على الموتِ، ولكن بايعَنا على ألاَّ نَفِرَّ، فبايَعَ الناسَ ولم يتخلَّف أحدٌ من المسلمين حَضَرها إلا الجَدّ بن قيس أخو بني سَلِمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظرُ إليه لاصقاً بِإبطِ ناقته، قد ضبأ

---

(١) صحيح. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤/ ٩٨ وإسناده على شرط الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٥ ومسلم ١٨٥٧ (٧٥).

(٣) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٣/ ٢٤١ عن ابن إسحاق به، وابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، وقد صح عن المسور ومروان عند البخاري ٤١٥٧ و٤١٥٨ «خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة..».

إليها يَستتِرُ بها من الناسِ. ثم أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ أن الذي كان من أمر عثمان باطلٌ[(١)].

[٦١٤١] وذكر ابن لَهيعة، عن الأسودِ، عن عُروَةَ بن الزبير قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان سُهَيلَ بنَ عمرو، وحُويطب بن عبد العُزّى، ومكرزِ بن حفصٍ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وترامَوا بالنَّبْل والحجارة، وصاحَ الفريقان كِلاهُما، وارتهن كلٌّ من الفريقين مَنْ عنده من الرسل، ونادى منادِي رسول الله ـ ﷺ ـ: ألاَ إنَّ رُوح القُدُسِ قد نَزَل على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وأمر بالبيعةِ، فاخرجُوا على اسم الله تعالى فَبايِعُوا. فسار المسلمون إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو تحت الشجرة، فبايَعُوه على ألاّ يفِرُّوا أبداً. فأرعب ذلك المشركين، وأرسلُوا مَن كان عندَهُم من المسلمين، ودَعَوا إلى المُوادَعةِ والصلح[(٢)].

[٦١٤٢] وقال الحافظُ أبو بكر البَيهَقِيُّ: أخبرنا علي بن أحمدَ بن عَبدان، أخبرنا أحمد بن عُبَيد الصفَّار. حدثنا تَمتامُ، حدثنا الحسن بن بشر، حَدَّثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادةَ، عن أنسِ بن مالك قال: لما أُمِرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ببيعة الرضوان كان عثمانُ بن عفان رسولَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إلى أهل مكَّةَ، فبايع الناسُ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اللهُمَّ إنَّ عثمان في حاجة الله وحاجةِ رسولِه». فَضَرَب بإحدى يَدَيه على الأخرى، فكانت يدُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ لعثمانَ خيراً من أيديهم لأنفُسِهم[(٣)].

قال ابنُ هشام: وحدَّثني من أثِقُ بِهِ عَمَّن حَدَّثه بإسنادٍ له، عن ابنِ أبي مُلَيكَةَ، عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: بايَعَ رسول الله ﷺ لعثمانَ، فَضَرب بإحدى يَدَيه على الأُخرَى. وقال عبد الملك بنُ هِشام النحويُّ: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشَّعبي قال: إن أول مَن بايَعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بيعةَ الرِّضوان أبو سِنَانٍ الأسَدِي.

[٦١٤٣] وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيدي: حدثنا سفيانُ، حدثنا ابنُ أبي خالد، عن الشَّعبي قال: لما دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ الناس إلى البيعة، كان أولَ مَنِ انتهى إليه أبو سِنَانٍ الأسدي، فقال: ابسُط يَدَكَ أبايِعكَ. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «علامَ تُبايِعُني»؟. فقال أبو سِنَانٍ: على ما في نفسِكَ[(٤)]. هذا أبو سنان ابنُ وَهبِ الأسدي.

[٦١٤٤] وقال البخاريُّ: حدثنا شُجاع بن الوليد سَمِعَ النَّضرَ بن محمد: حدثنا صخر، عن نافع قال: إن الناسَ يتحدثونَ أن ابن عُمَر أسلَمَ قبل عُمَر، وليس كذلك، ولكنَّ عُمَرَ يومَ الحُدَيبية أرسل عبدَ الله إلى فَرَسٍ له عند رجل من الأنصار أن يأتي به لِيُقاتِلَ عليه، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يُبايِعُ عند الشجرةِ، وعُمَر لا يدري بذلك، فبايَعَه عبدُ الله ثم ذهب إلى الفَرَس فجاء به إلى عُمَر، وعُمَر يَستَلْئِمُ للقتال، فأخبره أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ يُبايع تحتَ الشجرةِ، فانطلقَ فذَهَبَ معه حتى بايَعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهي التي يتحدَّث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر[(٥)].

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ٣/ ٢٤٦ عن ابن إسحاق قال: حدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس. وهذا ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق لكن أكثره محفوظ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤ مرسلاً، وابن لهيعة ضعيف، لكن أصل الخبر له شواهد.

(٣) إسناده ضعيف لضعف الحكم بن عبد الملك.

(٤) مرسل. أخرجه البيهقي ٤/ ١٣٧ مرسلاً.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٨٦.

[٦١٤٥] ثم قال البخاريُّ: وقال هشامُ بنُ عَمَّار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عُمَر بن محمد العُمَري، أخبرني نافع، عن ابن عُمَر رضي الله عنه: أن الناس كانُوا معَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلالِ الشجَر، فإذا الناسُ مُحدِقُونَ بالنبي ـ ﷺ ـ فقالَ ـ يعني عمر ـ: يا عبدَ الله، انظُر ما شأنُ الناسِ قد أحدَقُوا برسولِ الله ـ ﷺ ـ. فوجَدَهُم يُبايِعُون، فبايع ثم رَجَع إلى عُمَر فَخَرج فَبايَعَ[١]. وقد أسندَه البيهقيُّ عن أبي عَمرو الأديبِ، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سُفيان، عن دُحَيم: حدثني الوليد بن مسلم، فذكره.

[٦١٤٦] وقال الليثُ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: كُنَّا يومَ الحُدَيبية ألفاً وأربعمئةٍ، فبايعناه، وعُمَرُ آخذٌ بيدِه تحتَ الشجرةِ وهي سَمُرَةٌ، وقال: بايعناه على ألا نفِرّ، ولم نُبايِعه على الموتِ[٢]. رواه مسلمٌ، عن قُتَيبة، عنه.

[٦١٤٧] وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيدَ بن زُرَيع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله الأعرج، عن مَعقِل بن يَسار قال: لقد رأيتُني يومَ الشجَرَةِ والنبيُّ ـ ﷺ ـ يُبايع الناس، وأنا رافعٌ غُصناً من أغصانها عن رأسِهِ، ونحن أربعَ عشرةَ مئةً، قال: ولم نُبايِعه على الموتِ، ولكن بايعناهُ عَلَى ألا نفرّ[٣].

[٦١٤٨] وقال البخاريُّ: حدثنا المَكّيُّ بن إبراهيم، عن يَزيد بن أبي عُبَيدٍ، عن سَلَمة بن الأَكْوَع قال: بايعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ تحت الشجرة ـ قال يزيد: قلت يا أبا مُسلِمٍ، على أيِّ شيءٍ كنتم تُبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[٤].

[٦١٤٩] وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يَزيد بن أبي عُبَيد، عن سَلَمةَ قال: بايعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية ثم تَنَحَّيتُ، فقال: «يا سلمةُ ألا تُبايع»؟ قلتُ: قد بايعتُ. قال: «أقبل فَبايع». فدنوتُ فبايعته، قلت: علام بايعتَه يا سلمةُ؟ قال: على الموتِ[٥]. وأخرجه مسلمٌ من وجهٍ آخرَ عن يزيدَ بن أبي عُبَيد. وكذا رَوَى البخاري عن عَبَّاد بن تَميم عن عبد الله بن زَيدٍ: أنهم بايعُوه على الموتِ.

[٦١٥٠] وقال البَيهقِيُّ: أخبرنا أبو عبدِ الله الحافظُ، أخبرنا أبو الفضل بنُ إبراهيم، حدثنا أحمدُ بن سَلَمة، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العَقَدِيُّ عبدُ الملك بن عَمرو، حدثنا عِكرِمَةُ بن عَمَّار اليَمامِيُّ، عن إياسِ بن سَلَمة، عن أبيه سَلَمة بن الأكوع قال: قَدِمنا الحُدَيبِيَةَ معَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ونحن أربعَ عَشرة مئةً، وعليها خمسُون شاةً لا تُرْوِيها، فَقَعد رسول الله ـ ﷺ ـ على جَبَاها ـ يعني الرَّكِيّ ـ فإما دَعَا وإما بَصَق فيها، فجاشَت فَسَقينا واستقينا. قال: ثم إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ دَعَا إلى البيعةِ في أصلِ الشجرةِ، فبايعته أوَّلَ الناسِ، ثم بايعَ وبايَع، حتى إذا كان في وسط الناس قال: «بايعني يا سلمةُ». قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قد بايعتُك في أول الناس. قال: «وأيضاً». قال: ورآني رسول الله ـ ﷺ ـ عَزِلاً فأعطاني حَجفَة ـ أو دَرَقَة ـ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٨٧ وصيغته التعليق، لكن وصله البيهقي، وما قبله يشهد له.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٥٦ والبيهقي ٤/ ١٣٦.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم (١٨٥٨) (٧٦).

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٦٠.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٧٢٠٨.

ثم بايَعَ حتى إذا كان في آخر الناس قال: «ألا تُبَايعُ يا سَلَمة؟» قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قد بايعتُك في أوّلِ الناس وأوسَطِهم. قال: «وأيضاً». فبايعتُه الثالثةَ، فقال: «يا سلمةُ، أين حَجَفَتُكَ[١] ـ أو دَرَقَتُكَ ـ التي أعطيتُك؟». قال: قلتُ: يا رسولَ الله، لقيني عامر عَزِلاً فأعطيتُها إياه، فَضَحِك رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال: «إنكَ كالذي قال الأولُ: اللهُمّ أبْغِني حَبيباً هو أحبُّ إليّ من نفسي». قال: ثم إنّ المشركين من أهلِ مكّةَ راسلُونا في الصلح حتى مَشَى بعضنا في بعضٍ فاصطلحنا. قال: وكنتُ خادماً لطلحةَ بن عُبَيد الله، أسقي فرسه وأُجَنّبه وآكلُ من طعامه، وتركتُ أهلي ومالي مُهاجراً إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهلُ مكة، واختلط بعضُنا ببعض، أتيتُ شجرة فَكَسَحْتُ شَوْكَها، واضطجَعْتُ في أصلها في ظلّها، فأتاني أربعةٌ من مشركي أهل مكة، فجعلوا يَقَعُون في رسول الله ـ ﷺ ـ فَأبغضتُهم، وتحوّلت إلى شَجَرةٍ أُخرَى فَعلّقوا سِلاحَهُم واضطَجَعُوا، فبينما هُم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفلِ الوادي: يا لَلمهاجرين، قُتِل ابنُ زُنَيم. فاخترطتُ سَيفي، فشددتُ علىٰ أولئك الأربعة وهم رُقُودٌ، فأخذتُ سلاحهم وجعلته ضِغْثاً في يدي، ثم قلت: والذي كَرّم وَجْهَ محمدٍ ـ ﷺ ـ لا يرفَع أحدٌ منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه. قال: ثم جئتُ بهم أسوقُهم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، قال: وجاء عَمّي عامر برجُل من العَبَلات يقال له: مِكْرَز من المشركين يقودُه، حتى وقفنا بهم على رسول الله ـ ﷺ ـ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال: «دعُوهم يَكُن لهم بَدْءُ الفجور وثِناه». فَعَفا عنهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأنزلَ الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾... الآية.[٢] وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهوَيه، بسنده نحوه، أو قريباً منه.

[٦١٥١] وثَبَت في الصحيحَين من حديث أبي عَوَانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيَّب قال: كان أبي ممّن بايع رسولَ الله ـ ﷺ ـ تحت الشجَرةِ، قال: فانطلقنا من قابلٍ حاجّين، فَخَفِي علينا مكانها، فإن كانت تَبيّنَتْ لكم فأنتم أعلم[٣].

[٦١٥٢] وقال أبو بكر الحُمَيديّ: حدثنا سُفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر قال: لما دَعَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ الناسَ إلى البيعةِ وَجَدنا رَجُلاً منا يقال له: الجَدُّ بن قَيس مختبئاً تحت إبط بعيره[٤]. رواه مسلم من حديث ابن جُرَيج، عن ابن الزبير، به.

[٦١٥٣] وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سُفيان، عن عَمرو سَمِع جابراً قال: كُنّا يومَ الحُدَيبية ألفاً وأربعمئة، فقال لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ «أنتم خيرُ أهلِ الأرضِ اليومَ». قال جابر: لو كنتُ أُبصِر لأريتُكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها[٥]. أخرجاه من حديث سفيان.

[٦١٥٤] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يونُس، حدثنا اللّيثِ، عن أبي الزُّبيرِ، عن جابرٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا يدخلُ النارَ أحدٌ ممن بايَعَ تحتَ الشجرةِ»[٦].

---

(١) الحجف: التروس من جلود بلا خشب والدرقة هي الحجفة.
(٢) صحيح. أخرجه مسلم (١٣٢) ١٨٠٧ والبيهقي في «الدلائل» ٤/١٣٩ ـ ١٤٠.
(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٦٤ ومسلم (٧٧) ـ ١٨٥٩.
(٤) صحيح. أخرجه مسلم (٦٩) ـ ١٨٥٦ والبيهقي ٤/١٣٦.
(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٤ ومسلم (٧١) ١٨٥٦، والبيهقي في «الدلائل» ٤/١٩٧.
(٦) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٠ وإسناده علىٰ شرط مسلم، وعنعنة أبي الزبير في رواية الليث عنه محمولة علىٰ السماع.

[٦١٥٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفَلاّس المُخَرّمي، حدثنا سَعيدُ بن عمرو الأشعَثِيُّ، حدثنا محمد بن ثابت العَبْدِي، عن خِدَاشِ بن عَيّاشٍ، عن أبي الزبَير، عن جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يدخل مَن بايع تحت الشجرة كلُّهم الجنةَ إلا صاحبُ الجَمَل الأحمر». قال: فانطلقنا نَبْتَدِرُه فإذا رجلٌ قد أضلَّ بعيرَه، فقلنا: تعالَ فبايع. فقال: أُصِيبُ بَعِيري أَحَبُّ إليَّ مِن أن أُبايعَ[١].

[٦١٥٦] وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عُبَيد الله بن مُعاذ، حدثنا أبي، حدثنا قُرّة، عن أبي الزبير، عن جَابر. عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «مَن يصعَد الثنيَّةَ ثَنِيَّةَ المُرَار فإنه يُحطّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل». فكان أول من صَعِد خيل بني الخزرج، ثم تبادَرَ الناسُ بعدُ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّكم مغفورٌ له إلا صاحبَ الجَمَلِ الأحمرِ». فقلنا: تعال يَستغفِر لك رسولُ الله. فقال: والله لأن أجِد ضَالّتي أحبُّ إليّ من أن يَستغفِرَ لي صاحبُكم. فإذا هُوَ رجلٌ يَنْشدُ ضالّةً[٢]. رواه مسلم عن عُبَيد الله به.

[٦١٥٧] وقال ابنُ جُرَيج: أخبرني أبو الزُّبير، أنه سَمِع جابراً يقول: أخبرتني أم مُبَشِّر أنها سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ عند حَفْصَةَ: «لا يدخلُ النار ـ إن شاء الله ـ من أصحابِ الشجَرَةِ الذين بايعُوا تحتها أحدٌ» قالت: بلى يا رسول الله. فانتَهرها، فقالت حفصةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «قد قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾»[٣]. رواه مسلم.

[٦١٥٨] وفيه أيضاً عن قُتَيبة، عن اللَّيث، عن أبي الزبير، عن جابر: أَنَّ عبداً لحاطبِ بن أبي بلتَعةَ جاء يشكُو حاطباً، فقال: يا رسولَ الله، ليدخلَنَّ حاطبٌ النارَ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كذبتَ! لا يدخلُها، فإنه قد شَهِد بدراً والحديبية»[٤]. ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾، كما قال تعالى في الآيـة الأخـرى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً لرسُوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بما يَعتذِر به المُخلَّفون من الأعرابِ الذينَ اختارُوا المُقَام في أهليهم والشغل بهم، وتركُوا المَسير مع رسول الله ـ ﷺ ـ فاعتذَرُوا بشُغلهم بذلك، وسألُوا أن يستغفِرَ لهم الرسولُ ـ ﷺ ـ وذلك قولٌ منهم لا على سَبِيل الاعتقادِ، بل على وَجْهِ التَّقِيَّةِ والمُصانعةِ،

---

(١) صحيح. إسناده لين لأجل خداش، لكن تابعه غير واحد.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٠.

(٣) الآية من سورة مريم: ٧٢. والحديث صحيح. أخرجه مسلم ١٦٣ ـ ٢٤٩٦.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٦٢ ـ ٢١٩٥.

ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، أي: لا يقدِرُ أحدٌ أن يَرُدَّ ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس، وهو العليمُ بِسرائِرِكم وضمائِرِكم، وإن صانعتُمونا وتابعتُمونا. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: لم يكن تَخلُّفكم تخلُّفَ معذورٍ ولا عاصٍ، بل تَخلُّف نِفاقٍ، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: اعتقدتُم أنهم يُقتَلون وتُستأصل شأفتهم، وتُستَبادُ خَضراؤهم، ولا يرجعُ منهم مُخبِرٌ، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾، أي: هَلْكَى. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ وغير واحد. وقال قتادةُ: فاسِدينَ. وقيل: هي بلغة عُمَان. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: من لم يُخلِصِ العملَ في الظاهر والباطِن لله فإنَّ الله تعالى سَيُعذِّبه في السعير، وإن أظهرَ للناسِ ما يعتقِدُون خِلاف ما هو عليه في نفس الأمر. ثم بَيَّن تعالى أنه الحاكمُ المالك المتصرِّفُ في أهلِ السمواتِ والأرضِ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب، وخَضَع لديه.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تَخلَّفوا عن النبي ـ ﷺ ـ في عمرة الحُدَيبية، إذْ ذَهَب النبي ـ ﷺ ـ وأصحابُه إلى خَيبَر يفتتحونها: أنهم يسألونَ أن يخرُجوا معهم إلى المغنم، وقد تَخلَّفوا عن وقت محاربة الأعداء ومُجالَدتهم ومُصابَرتهم، فأمر الله تعالى رسولَه ـ ﷺ ـ ألاَّ يأذنَ لهم في ذلك، معاقَبةً لهم من جنسِ ذَنْبِهِم، فإنَّ الله تعالى قد وعد أهل الحُديبية بمغانم خَيبر وحدَهم لا يَشرَكُهم غيرُهم من الأعراب المتخلِّفين، فلا يَقعُ غيرُ ذلك شرعاً وقدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، قال مجاهد، وقتادةُ، وجُوَيبِر: وهو الوعد الذي وَعَد به أهل الحُدَيبية. واختاره ابن جرير. وقال ابنُ زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨٣]. وهذا الذي قاله ابنُ زيد فيه نظرٌ؛ لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تَبُوك، وهي متأخرة عن غزوة الحُدَيبية. وقال ابن جُرَيج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، يعني بتثبيطِهم المسلمين عن الجِهاد. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: وَعَد الله أهل الحُدَيبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، أي: أن نَشركَكم في المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ليس الأمرُ كما زَعَموا، ولكن لا فَهْمَ لهم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

اختلف المفسِّرون من هؤلاء القوم الذين يُدْعَون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال:
أحدها: أنهم هَوازِن. رواه شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، أو عكرمة ـ أو جَميعاً ـ ورواه هُشَيم

عن أبي بشر، عنهما. وبه يقول قتادةُ في روايةٍ عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري. ورُوي مثله عن سعيد وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقولُ عطاءٌ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ ـ في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادةَ: هم فارسُ والرومُ. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجالٌ أولو بأس شديد، ولم يُعَيِّن فرقة. وبه يقول ابنُ جُريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشجُّ حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القَوارِيري، عن معمَر، عن الزهري في قوله تعالىٰ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، قال: لم يأتِ أولئك بعدُ.

وحدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سُفيان، عن ابن أبي خالدٍ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَة في قوله تعالىٰ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، قال: هم البارِزُون.

[٦١٥٩] قال: وحدثنا سفيانُ، عن الزهريّ، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتِلُوا قوماً صغار الأعين ذُلْفَ الأنوف، كأن وجوهَهُم المَجَانُّ المُطرَقَة». قال سفيان: هم الترك[١].

[٦١٦٠] قال ابن أبي عمر: وجدتُ في مكانٍ آخَرَ: حدثنا ابن أبي خالد عن أبيه قال: نَزَل علينا أبو هُرَيرة فَفَسَّر قولَ رسول الله ـ ﷺ ـ «تُقاتِلون قوماً نِعالُهُم الشعر»[٢]، قال: هم البارِزُون، يعني: الأكرادَ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، يعني يُشرَعُ لكم جِهادهم وقتالُهم، فلا يزالُ ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصرةُ عليهم، أو يُسلِمُون فيدخُلُون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾، أي: تستَجيبُوا وتَنفِرُوا في الجهاد وتُؤدّوا الذي عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾، يعني زمن الحُدَيبية حيث دُعِيتم فتخلَّفتُم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر تعالى الأعذارَ في تَرْكِ الجهاد، فمنها لازمٌ كالعَمَى والعَرَج المستمِرّ، وعارِضٌ كالمَرَضِ الذي يطرأ أياماً ثم يَزُول، فهو في حال مَرَضِه مُلحَقٌ بذوي الأعذار اللازِمة حتى يَبرأ. ثم قال تبارك وتعالى مُرَغِّباً في الجهاد وطاعةِ الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾، أي: يَنكُلْ عن الجهادِ ويُقبِلُ على المعاشِ ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، في الدنيا بالمذلَّةِ، وفي الآخِرَةِ بالنارِ؛ والله تعالىٰ أعلم.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ تحتَ الشجرةِ، وقد تقدم ذكر عِدّتهم وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائةٍ، وأن الشجرةَ كانت سَمُرةً بأرضِ الحُدَيبية.

[٦١٦١] قال البخاريُّ: حدثنا محمودٌ، حدثنا عُبيد الله، عن إسرائيلَ، عن طارقِ بن عبد الرحمن قال:

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٢٩ ومسلم (٢٩١٢) (٦٢) وأبو داود (٤٣٠٤) والترمذي ٢٢١٥ وابن ماجه ٤٠٩٦ وأحمد ٢/ ٢٣٩ وابن حبان ٦٧٤٤.

(٢) لم يذكر ابن أبي عمر المكان الآخر هذا، بكل حال المرفوع صح في المتقدم، والموقوف ثابت أيضاً قبل حديث.

انطلقتُ حاجّاً فمررتُ بقوم يُصلُّون، فقلت: ما هذا المسجدُ؟ قالوا: هذه الشجرةُ، حيث بايعَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيعةَ الرِّضوان. فأتيتُ سعيدَ بن المسيّب فأخبرتُه، فقال سَعيد: حدثني أبي أنه كان فيمَن بايعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نَسِيناها فلم نَقدِرْ عليها، فقال سعيدٌ: إن أصحاب محمد ﷺ ـ لم يعلَموها وعَلِمتموها أنتم، فأنتم أعلم! .(١)

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: من الصِّدق والوفاء، والسمعِ والطاعةِ، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾، وهي الطمأنينةُ، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهو ما أجرَى الله على أيديهم مِن الصلح بينهم وبين أعدائهم. وما حَصَل بذلك من الخير العامِّ والمستمرِّ المتصل بفتح خيبر وفتح مكةَ، ثم فتح سائر البلادِ والأقاليم عليهم، وما حَصَل لهم من العزِّ والنصرِ والرِّفعة في الدنيا والآخرة. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

[٦١٦٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القَطّان، حدثنا عُبيد الله بن موسى، أخبرنا مُوسى ـ يعني ابن عُبَيدة ـ حدثني إياس بن سَلَمة، عن أبيه قال: بينما نحن قائِلُون إذ نادى منادِي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أيها الناس، البيعةَ البيعةَ، نزلَ روحُ القُدُس. قال: فَثُرنا إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو تحتَ شجرةِ سَمُرةٍ فبايعناه، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، قال: فبايع رسول الله ﷺ لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هَنِيئاً لابن عفّان، يطوفُ بالبيتِ ونحن هاهنا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو مَكَث كذا [و] كذا سنةً ما طافَ حتى أطوفَ»(٢).

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قال مجاهدٌ في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾، هي جميعُ المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، يعني فتحَ خيبر. وروى العَوفي، عن ابن عباس: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، يعني صُلحَ الحُدَيبية. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، أي: لم يَنلكم سوءٌ مما كان أعداؤكم أضمَرُوه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كفَّ أيديَ الناس الذين خَلّفتُموهم وراء أظهُركم عن عيالِكم وحَريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يَعتبِرُونَ بذلك، فإن الله تعالىٰ حافظُهم وناصرُهم على سائر الأعداءِ، مع قِلّةِ عَددِهم، وليعلَمُوا بصنيع الله هذا بهم أنه العليمُ بعواقبِ الأمورِ وأن الخِيرَةَ فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كَرِهوه في الظاهِر، كما قال عز وجل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: بسببِ انقيادِكم لأمره واتِّباعكم طاعتَه، ومُوافقَتِكم رسولَه ﷺ. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾، أي: وغنيمةٌ أخرى وفتحٌ آخر

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٦٣.

(٢) إسناده ضعيف. فيه موسى بن عبيدة، وهو الرَّبَذي. ضعيف الحديث. والمتن غريب بهذا اللفظ.

مُعَيَّنٌ لم تكونوا تَقدِرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاطَ بها لكم، فإنه تعالى يرزُق عبادَه المُتَّقين له من حيثُ لا يَحتسِبُون. وقد اختلف المفسرون في هذه الغَنيمة، ما المرادُ بها؟ فقال العَوفي، عن ابن عباس: هي خيبرُ. وهذا على قوله في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: إنها صلحُ الحديبية. وقاله الضحَّاكُ، وابنُ إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلى، والحسن البصري: هي فارسُ والرومُ. وقال مجاهد: هي كلُّ فتح وغنيمة إلى يوم القيامة. وقال أبو داودَ الطيالسي: حدثنا شعبةُ، عن سِمَاكٍ الحَنَفي، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، قال: هذه الفتوحُ التي تفتح إلى اليوم. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ يقولُ تعالى مُبَشِّراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزَهُم المشركون لنَصَر الله رسولَه وعبادَه المؤمنين عليهم، ولانهزم جيشُ الكفار فاراً مُدبِراً لا يَجدُون ولياً ولا نَصيراً، لأنهم مُحارِبُون لله ولرسولِه ولحِزبِهِ المؤمنين. ثم قال تبارك وتعالىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، أي: هذه سُنَّة الله وعادتُه في خَلقه، ما تَقابَلَ الكفر والإيمان في موطنٍ فَيْصَلٍ إلا نَصرِ الله الإيمان على الكفر، فَرفَعَ الحقَّ ووَضَعَ الباطلَ، كما فعل تعالى يومَ بدرٍ بأوليائه المؤمنين، نَصَرهم على أعدائه من المشركين، مع قِلَّةِ عَدَد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين ومَدَدِهم. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾. هذا امتنانٌ من الله تعالىٰ على عِبادِه المؤمنين حين كَفَّ أيدِيَ المشركين عنهم، فلم يَصِل إليهم منهم سوءٌ، وكَفَّ أيديَ المؤمنين من المشركين فلم يُقاتِلُوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاًّ من الفريقين، وأوجدَ بينهم صُلحاً فيه خِيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبةٌ لهم في الدنيا والآخرة.

[٦١٦٣] وقد تَقدَّم في حديث سَلَمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئكَ السبعين الأُسَارى فأوقَفُوهم بين يَدَي رسول الله ـ ﷺ ـ، فنظر إليهم وقال: «أرسِلُوهم يكن لهم بدءُ الفجُور وثِنَاه». قال: وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ . . . الآية.(١)

[٦١٦٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن هارُونَ، حدثنا حَمَّاد، عن ثابتٍ، عن أنسِ بن مالك قال: لما كان يومُ الحُدَيبية هَبَط على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وأصحابِه ثمانُون رَجُلاً من أهل مكَّة في السلاح من قِبَل جَبَل التنعيم يُريدون غِرَّةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فدعا عليهم فَأُخِذُوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونَزَلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾(٢). ورواه مسلمٌ وأبو داودَ في سُنَنه، والترمذيُّ والنسائيُّ في التفسير من سُنَنَيهما، من طُرقٍ، عن حَمَّادِ بن سَلَمَة، بِهِ.

[٦١٦٥] وقال أحمد أيضاً: حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثنا الحُسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَاني، عن عبد الله بن مُغَفَّل المُزَني قال: كنَّا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في أصلِ الشَّجرةِ التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يَقَع من أغصان تلك الشجرة على ظهرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، وعليُّ بن أبي طالب وسُهَيلُ بن عمرو بين يَدَيه، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لعلي: «اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم». فأخذ سُهَيل بيدِهِ وقال: ما نعرِفُ الرحمنَ الرحيمَ. اكتب في قَضِيَّتنا ما نعرفُ. قال: «اكتب باسمِكَ اللهُمَّ». وكَتَب: هذا ما صالح عليه محمَّدٌ رسولُ الله أهلَ مكة». فأمسك سُهَيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمنَاكَ إن كنت رسولَه، اكتُب في قَضِيَّتنا ما

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٠٨/١٣٣ وأبو داود ٢٦٨٨ والترمذي ٣٢٦٤ والنسائي في «التفسير» ٥٣٠ وأحمد ٣/١٢٢.

نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمدٌ بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خَرَج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاحُ، فثارُوا في وُجُوهنا. فدعا عليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «هل جئتم في عَهْدِ أحَدٍ؟ أو: هل جعل لكم أحدٌ أماناً؟». فقالوا: لا. فَخلّى سبيلهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1]. رَوَاه النسائيُّ من حديث حُسَين بن واقد، به.

[٦١٦٦] وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا ابنُ حُمَيد، حدثنا يَعقُوبُ القُمِّي، حدثنا جعفرٌ، عن ابن أَبْزَى قال: لما خَرَج النبيُّ ـ ﷺ ـ بالهَدي وانتهى إلى ذِي الحُلَيفة قال له عُمَر: يا نَبِيَّ اللّهِ، تدخُلُ على قوم لَكَ حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعاً ولا سِلاحاً إلا حَمَله، فلما دنَا من مكة منعُوه أن يدخُلَ، فسار حتى أتى مِنًى، فنزل بمنى، فأتاه عينُه أن عِكْرِمَةَ بنَ أبي جهل قد خَرَج عليك في خمسمئة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالدُ، هذا ابنُ عَمِّك أتاك في الخيل». فقال خالدٌ: أنا سيفُ الله، وسيفُ رسولِه ـ فيومئذ سُمّي سيفَ اللّهِ ـ يا رسولَ اللّهِ، ارمِ بي أينَ شِئْتَ. فبعثه على خَيلٍ، فَلَقِي عِكْرِمَةَ في الشِّعب فَهَزَمه حتى أدخله حِيطانَ مكّةَ، ثم عاد في الثانيةِ فَهَزَمه حتى أدخله حِيطان مكّةَ، ثم عاد في الثالثة فَهَزَمه حتى أدخلَه حِيطانَ مَكَّةَ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، إلى قوله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فَكَفَّ الله النبيَّ ﷺ عنهم من بعد أن أظفَرَه عليهم، لبقَايَا من المُسلِمين كانوا أبقوا فيها، كراهيةَ أن تَطَأَهُم الخيلُ[2]. ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أَبْزَى بنحوه. وهذا السياقُ فيه نظر؛ فإنه لا يجوزُ أن يكونَ عامَ الحُدَيبية، لأن خالداً لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عُمرَةِ القضاء لأنهم قاضَوه على أن يأتيَ من العام القابل فَيَعتمِرَ ويُقيم بمكّة ثلاثة أيام، ولما قَدِم لم يُمانِعُوه ولا حارَبُوه ولا قاتَلُوه. فإن قيل: فيكونُ يومَ الفتح؟ فالجواب: ولا يجوزُ أن يكونَ يومَ الفتح، لأنه لم يَسُق عام الفتح هَدْياً، وإنما جاء مُحارِباً مقاتلاً في جيشٍ عَرَمْرَم. فهذا السياق فيه خَلَلٌ، وقد وقع فيه شيء، فَلْيُتأمَّل، والله أعلم.

[٦١٦٧] وقال ابنُ إسحاقَ: حَدَّثني مَن لا أَتَّهم، عن عكرمةَ مولى ابن عباس: أن قُرَيشاً بعثوا أربعينَ رَجُلاً منهم أو خمسين، وأمرُوهم أن يُطِيفُوا بعسكرِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ لِيُصيبوا من أصحابه أحداً، فَأُخذوا أخذاً، فَأُتِي بهم رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَعَفا عنهُم وخَلّى سبيلهم، وقد كانوا رَمَوْا إلى عسكر رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالحجارة والنَّبلِ. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزلَ الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾... الآية[3].

[٦١٦٨] وقال قتادة ذُكرَ لنا أن رَجُلاً يقال له: ابن زُنَيم اطّلع على الثنيَّةِ من الحُدَيبية، فَرَماه المشركونَ بسهم فقتلُوه، فبعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ خيلاً فأتوه باثني عشرَ فارساً من الكُفَّار، فقال لهم: «هل لكم عليَّ عهدٌ؟ هل لكم عليَّ ذِمَّةٌ؟» قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله تعالىٰ في ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾... الآية[4].

---

(١) أخرجه النسائي ٥٣١ وأحمد ٤/ ٨٦ ـ ٨٧ وإسناده حسن.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٣١٥٦٠ عن ابن أبزى، وهذا مرسل. والمتن منكر. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ٤/ ٣٤١ ـ ٣٤٢: وفي صحته نظر، لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية.

(٣) أخرجه الطبري ٣١٥٥٦ وإسناده ضعيف، فيه من لم يسمّ، لكن يشهد لأصله المتقدم قبل حديث واحد.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٥٥٩ وهذا مرسل. وتقدم غير حديث في سبب نزول الآية.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفّار من مشركي العرب من قُريش ومن مالأهم على نُصرَتهم على رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: هم الكفّار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: وأنتم أحقُّ به، وأنتم أهلُه في نفسِ الأمر، ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، أي: وصَدُّوا الهدي أن يَصِل إلى مَحلِّه، وهذا من بَغْيِهم وعِنادِهم، وكان الهديُ سبعينَ بدنَةً، كما سيأتي بيانُه إن شاء الله تعالىٰ. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾، أي: بين أظهرهم ممن يكتُم إيمانه ويُخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلطناكُم عليهم فَقَتلْتموهم وأبدتُم خَضْراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوامٌ لا تعرفونهم حالةَ القتل، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾، أي: إثم وغرامَةٌ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يُؤَخِّر عقوبَتَهُم لِيُخَلِّص من بين أظهرهم المؤمنينَ، وَلِيرجَع كثيرٌ منهم إلى الإسلام. ثم قال تبارك وتعالىٰ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾، أي: لو تميز الكفارُ من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: لسلَّطناكم عليهم فلَقتلتُموهم قتلاً ذَريعاً.

[٦١٦٩] قال الحافظ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ: حدثنا أبو الزِّنباع ـ رَوحُ بن الفَرَج، حدثنا عبدُ الرحمن بن أبي عباد المكّي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد ـ مولى بني هاشم ـ حدثنا حَجَر بن خلف قال: سَمِعت عبد الله بن عوف يقول: سَمِعتُ جُنيْدَ بن سَبُع يقول: قاتلتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أول النهار كافراً وقاتلتُ معه آخر النهار مسلماً، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾، قال: كنا تسعةَ نفر: سبعةَ رجالٍ وامرأتين[(١)]. ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكّي به، وقال فيه: عن أبي جمعة جُنَيد بن سَبُع... فذكره، والصواب أبو جمعة: حبيب بن سباع. ورواه ابنُ أبي حاتم من حديث حَجَر بن خَلَفٍ، به. وقال: كنا ثلاثة رجالٍ وتسع نسوةٍ، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جَبَلَة، عن أبي حَمْزَةَ، عن عطاء، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، يقول: لو تزيَّل الكفارُ من المؤمنين لَعذَّبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

وقولُهُ عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبَوا أن يكتبوا

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ ١٥٦٠ والطبراني ٢٢٠٤ و٣٥٤٤ وقال الهيثمي ١١٣٤٦: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات. وجوده السيوطي في «الدر» ٦/ ٧٦.

(بسم الله الرحمن الرحيم)، وأبوا أن يكتبُوا: «هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله»، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، وهي قولُ: لا إله ألا الله.

[٦١٧٠] كما قال ابن جرير، وعبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قَزَعة أبو علي البصري، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثُوَيْر، عن أبيه، عن الطفيل ـ يعني ابن أُبَيّ بن كعب ـ عن أبيه رضي الله عنه أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾»، قال: «لا إله إلا الله»[١]. وهكذا رواه الترمذيُّ عن الحسن بن قَزَعة، وقال: «غَرِيبٌ لا نَعرِفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرعَة عنه فلم يَعرِفه إلا من هذا الوجه».

[٦١٧١] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرَّمادِيُّ، حدثنا عبد الله بن صالِح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شِهاب، عن سعيد بن المُسيِّب: أن أبا هُرَيرة أخبره أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولُوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عَصَم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابُه على الله»، وأنزل الله عز وجل في كتابه، وذكر قوماً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾[٢] [الصافات: ٣٥]. وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، وهي: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحُدَيبية، وكاتَبهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ على قَضِيّة المُدّة. وكذا رواه بهذه الزيادات ابنُ جرير من حديث الزهرِيِّ. والظاهر أنها مُدرجةٌ من كلام الزهرِيِّ، والله أعلم.

وقال مجاهدٌ: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾: الإخلاصُ. وقال عطاءُ بن أبي رَباح: هي لا إله إلا الله وحدَه لا شَريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. وقال يونس بن بُكَير، عن ابن إسحاق، عن الزهرِيِّ، عن عُروَة، عن المِسْوَرِ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقال الثّورِي، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن عَبَاية بن ربعي، عن علي: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابنُ عُمَر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: يقولُ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، وهي رأسُ كلِّ تقوَى. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن الزهري: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادةُ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

[٦١٧٢] وقد قال النسائيُّ: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شَبابة بن سَوّار، عن أبي زَبْرٍ عن عبد الله بن العلاء بن زَبْرٍ، عن بُسْر بن عُبَيد الله، عن أبي إدريس، عن أُبَيّ بن كعب أنه كان يقرأُ: «إذ جَعَل الذين كَفرُوا في قلوبهمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية ولو حَمِيتُم كما حَمُوا لفسد المسجدُ الحرام». فبلغ ذلك عُمَر فأغلظَ له.

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٦٥ والطبري ٣١٥٧٩، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وسألت أبا زرعة عنه، فلم يعرفه إلا من هذا الوجه اهـ قلت: فيه ثوير بن أبي فاختة، وهو ضعيف. بل قال الثوري: هو ركن من أركان الكذب. راجع «الميزان» ١٤٠٨ والصواب في هذا الوقف على ابن عباس وغيره كما سيأتي.

(٢) وتقدم الحديث في شرحها، وقد أخرجه الطبري ٣١٥٧٨.

فقال: إنك لتعلَم أني كِنتُ أدخلُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فيُعلِّمني مما عَلّمه الله. فقال عُمَر: بل أنتَ رجلٌ عندَكَ علم وقرآن. فاقرأ وعَلّم مما عَلّمك الله ورسولُه[١].

## وهذا ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في قِصّةِ الحُدَيبية وقَضِية الصلح:

[٦١٧٣] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَارٍ، عن الزهريّ، عن عُروَة بن الزبير، عن المِسْوَر بن مَخرَمة ومَرْوان بن الحكم قالا: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُريدُ زيارة البيتِ لا يُريد قتالاً، وساق معه الهَدْي سبعينَ بَدَنَة، وكان الناس سبعمئةِ رجلٍ، فكانت كل بَدَنةٍ عن عَشرةٍ، وخرجَ رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا كان بعُسْفان لقيه بِشرُ بن سفيانَ الكَعبي، فقال: يا رسولَ الله، هذه قريشٌ قد سَمِعت بمسيرك فخرجَت معها العُوذ المطافيل، قد لَبِست جُلودَ النمُور، يُعاهِدُون الله ألاّ تدخلها عليهم عَنوةً أبداً، وهذا خالدُ بنُ الوليدِ في خَيلِهم قد قدّموه إلى كُرَاع الغَمِيم. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا ويحَ قريشٍ! قد أكلتهُم الحربُ، ماذا عليهم لو خَلّوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابُوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلُوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قُوّة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أُجاهِدُهم على الذي بَعَثني الله به حتى يُظهِرني الله أو تنفردَ هذه السالفة». ثم أمر الناسَ فَسلَكُوا ذاتَ اليمين بين ظهرَي الحَمْضِ على طريق تُخرجه على ثَنِيّة المُرَارِ والحُدَيبية من أسفلِ مكة. قال: فَسلَكَ بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قُرَيش قُتْرَة الجيش قد خالفُوا عن طريقهم، ركَضُوا راجعين إلى قريش. فخرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى إذا سلك ثَنِيّة المُرار، بَرَكت ناقته، فقال الناس: خَلأت. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما خَلأَت، وما ذلك لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسها حابسُ الفيل عن مكة، والله لا تدعُوني قريشٌ اليومَ إلى خُطّةٍ يسألوني فيها صِلَة الرحم إلاّ أعطيتُهم إيّاها» ثم قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماءٍ يَنزل عليه الناسُ. فأخرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ سهماً من كنانته فأعطاه رَجُلاً من أصحابه، فنزل في قَليب من تلك القُلُب، فَغرزه فيه فجاشَ بالماء حتى ضَرَب الناس عنه بعَطَنٍ. فلما اطمأنّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا بُدَيل بن وَرْقَاء في رجالٍ من خُزَاعَةَ، فقال لهم كقوله لِبِشر بن سُفيان، فَرَجَعُوا إلى قُرَيشٍ فقالوا: يا معشَر قريشٍ، إنكم تَعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأتِ لقتالٍ، إنما جاء زائراً لهذا البيتِ مُعَظّماً لحقّه، فاتهموهم.

وقال محمد بن إسحاق: قال الزهريُّ: كانت خُزاعة في عَيْبة[٢] رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ مُشركها ومُسلِمها، لا يُخفُون على رسولِ الله ـ ﷺ ـ شيئاً كان بمكّةَ، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلُها أبداً علينا عَنوة، ولا يتحدّث بذلك العربُ. ثم بعثُوا إليه مِكْرَز بن حَفص أحدَ بني عامر بن لُؤَيٍّ، فلما رآه رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ كَلّمه رسولُ الله ـ ﷺ ـ بنحوٍ ممّا كَلّم به أصحابه، ثم رَجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسولُ الله ﷺ. فبعثوا إليه الحُلَيسَ بن علقمَةَ الكناني، وهو يومئذ سيدُ الأحابيش، فلما رآه رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: «هذا من قوم يَتَألّهون، فابعثوا الهَدْي. في وجهه»، فبعثوا الهدي فلما رأى الهَدْي يَسِيل عليه من عُرْض الوادي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبسِ عن مَحِلّه، رَجَع ولم يَصِل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ إعظاماً لما رَأى. فقال: يا معشرَ قُرَيش، قد رأيتُ ما لا

---

(١) أخرجه النسائي في «التفسير» ٥٢٥ والحاكم ٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ وإسناده على شرط مسلم، لكن المتن شاذ لا يزاد على القرآن بمثله، وصححه الحاكم على شرطهما! وسكت الذهبي!.

(٢) العيبة من الرجل: موضع سره.

يحل صَدُّه، الهدي في قلائده قد أَكَل أوتاره من طُولِ الحبس عن مَحِلِّه. قالوا: اجلِس، إنما أنتَ أعرابيٌّ لا علمَ لك. فبعثوا إليه عروةَ بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشرَ قُرَيش، إني قد رأيت ما يَلْقَى منكم مَن تبعثون إلى مُحَمَّد إذا جاءكم من التعنيف وسوءِ اللفظ، وقد عَرَفتم أنكم والدٌ وأني وَلَدٌ، وقد سَمِعت بالذي نابكم، فَجَمعت مَن أطاعني مِن قومي، ثم جئتُ حتى آسيتُكم بنفسي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمُتَّهم. فَخَرج حتى أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فجلس بين يَدَيه، فقال: يا محمدُ، جَمَعت أوباشَ الناس ثم جِئتَ بهم لِبَيضَتِك لِتفضَّها، إنها قريشٌ قد خَرَجت معها العُوذ المطافيل، قد لَبِسُوا جلود النمور، يُعاهِدُون الله ألاَّ تدخلها عليهم عَنوةً أبداً، وايمُ الله لَكَأنّي بهؤلاء قد انكشفُوا عنك غداً ـ قال: وأبو بكر قاعِدٌ خلفَ رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: امصُصْ بَظْر اللات! أنحنُ نَنكشِفُ عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابنُ أبي قُحافَة». قال: أما والله لولا يدٌ كانت لك عندِي لكافأتك بها، ولكن هذه بها ـ ثم تناول لحيَة رسولِ الله ـ ﷺ ـ والمغيرةُ بن شُعبَةَ واقفٌ على رأس رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالحديد، قال: فَقَرَع يده. ثم قال: أمسِك يَدَك عن لحيةِ رسول الله ـ ﷺ ـ قَبْلَ والله ـ لا تصِلُ إليك. قال: ويحكَ! ما أفظكَ وأغلظَكَ! فتبسَّم رسول الله ـ ﷺ ـ قال: مَن هذا يا محمد؟ قال ـ ﷺ ـ «هذا ابنُ أخيكِ المغيرةُ بنُ شعبةَ». قال: أغُدَرُ، وهل غَسَلْت سوأتَكَ إلا بالأمس؟! قال: فَكَلَّمه رسول الله ـ ﷺ ـ بمثل ما كلَّم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأتِ يُرِيدُ حرباً. قال: فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنَعُ به أصحابه، لا يتوضَّأ وُضوءاً إلا ابتدَرَوه، ولا يبصُق بصاقاً إلا ابتدرُوه، ولا يسقطُ من شَعْرِه شيءٌ إلا أخذوه. فرجَعَ إلى قريش فقال: يا معشرَ قريش، إني جئتُ كسرى في مُلكه، وجئت قيصرَ والنجاشيَّ في ملكهما، والله ما رأيت مَلِكاً قطُّ مثلَ محمد في أصحابه، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسلِمُونه لشيءٍ أبداً، فَرَوا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ قبل ذلك بَعَث خِرَاشَ بن أُمَيَّة الخُزَاعي إلى مكة، وحَمَله على جَمَلٍ له يقال له: الثعلبُ، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خِرَاشَ، فمنعتهُم الأحابيشُ حَتَّى أَتَى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فدعا عُمَر ليبعثه إلى مكَّة، فقال: يا رسولَ الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بَني عُدِيّ أحد يمنعني. وقد عَرَفت قريشٌ عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلُّك على رجل هو أعَزُّ مني: عثمانُ بنُ عفَّان. قال: فدعاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فبعثه يُخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وأنه جاء زائِراً لهذا البيت، مُعَظِّماً لحرمته. فخرج عثمانُ حتى أتى مكة، فلقيه أبانُ بن سَعِيد بن العاص، فنزل عن دابَّتِه وحَمَله بين يَدَيه ورَدَف خَلْفَه، وأجاره حتى بَلَّغ رسالةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعُظَماء قريش، فَبَلَّغهم عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ ما أرسَلَه به، فقالوا لعثمان: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فَطُفْ به. فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسول الله ﷺ قال: واحتبسته قريشٌ عندها، قال: وبَلَغ رسول الله ﷺ أن عُثمان قد قُتِل.

قال محمد: فَحَدَّثني الزهري: أن قريشاً بعثوا سُهَيل بن عمرو وقالوا: ائت محمداً فصالِحه، ولا يكون في صُلحِه إلا أن يرجع عَنَّا عامَه هذا، فوالله لا تَحدَّثُ العربُ أنه دَخَلها علينا عَنوَةً أبداً. فأتاه سُهَيْلُ بنُ عَمرو، فلما رآه رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: «قد أراد القومُ الصلحَ حين بَعثُوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ تَكَلَّما وأطالا الكلام، وتراجَعَا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمرُ ولم يبقَ إلا الكتابُ، وثَبَ عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أوليس برسُولِ الله؟ أوَلسنا بالمسلمين؟ أوَليسُوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعطَى الذلَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم غَرْزَه حيث كان فإني أشهدُ أنه رسولُ الله. قال عُمر: وأنا أشهدُ. ثم أتى رسولَ الله فقال: يا رسولَ الله، أوَلسنا بالمسلمين؟ أوَليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نُعطَى الذِّلَّة في ديننا؟ فقال: «أنا عبدُ الله ورسولُه، لن أخالفَ أمره ولن

يضيعني». ثم قال عمر: ما زلتُ أصومُ وأصلّي وأتصدّق وأُعتِقُ من الذي صنعتُ مخافةَ كلامي الذي تكلّمت به يومئذ حتى رجوت أن يكونَ خيراً. قال: ثم دَعا رسول الله ـ ﷺ ـ عليَّ بن أبي طالب فقال: «اكتُب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سُهَيل: لا أعرِفُ هذا، ولكن اكتُب: باسمك اللهُمّ. فقال رسولُ الله: «اكتُب باسمِكَ اللهُمّ. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله». فقال سُهَيل بن عمرو: لو شَهِدت أنك رسول الله لم أُقاتِلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، على وضع الحرب عَشْرَ سنين، يأمن فيها الناسُ، ويكُفُّ بعضهم عن بعض على أنه من أتى رسولَ الله من أصحابه بغير إذن وَلِيِّه رَدَّه عليهم، ومن أتى قُرَيشاً ممن معَ رسول الله لم يَرُدُّوه عليه، وأن بيننا عيبةً مكفوفةً، وأنه لا إسلالَ ولا إغلالَ، وكان في شرطهم حين كَتَبوا الكتاب: أنه مَن أحبَّ أن يدخُلَ في عَقدِ محمد وعَهدِهِ، دَخَل فيه، ومن أحبَّ أن يدخُل في عَقد قريش وعَهدهم. دخل فيه. فتواثبت خُزَاعةُ فقالوا: نحن في عَقد رسول الله وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عَقد قُرَيشٍ وعَهدهم. وأنك ترجعُ عنّا عامَنا هذا فلا تدخلُ علينا مكة، وأنه إذا كان عامٌ قابلٌ خَرجنا عنك فتدخُلها بأصحابك، وأقمتَ بها ثلاثاً معكَ سلاحُ الراكبِ، لا تدخُلها بغير السيوف في القِرَب، فبينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يكتبُ الكتابَ، إذ جاءه أبو جندلِ بن سُهَيل بن عمرو في الحديد قد انفلتَ إلى رسولِ الله، قال: وقد كان أصحابُ رسول الله خرجُوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ـ ﷺ ـ فلما رَأَوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمَّل رسول الله على نفسه، دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيم، حتى كادُوا أن يَهلكُوا. فلما رأى سُهيل أبا جندل قام إليه فضرَبَ وجهه وقال: يا محمد، قد تَمّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقتَ». فقام إليه فأخذ بتلابيبه ـ قال: وصرَخ أبو جندلٍ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشركِ فَيَفتِنُوني في ديني؟ قال: فزاد الناس شرّاً إلى ما بهم، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «يا أبا جندل اصبر واحتَسِب فإن الله جاعلٌ لكَ ولمن معكَ من المستضعفين فرجاً ومخرجاً؛ إنا قد عَقَدنا بيننا وبين القوم صُلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نَغدِرَ بهم». قال: فوثب إليه عُمَر بن الخطاب فجعل يَمشي مع أبي جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر أبا جندلٍ، فإنما هم المشركون، وإنما دمُ أحدهم دمُ كلب. قال: ويُدني قائمَ السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذَ السيف فيضرب به أباه قال: فَضَنَّ الرجلُ بأبيه. قال: وَنَفَذتِ القضية، فلما فَرَغا من الكتاب، وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يصلي في الحرم، وهو مُضطَرِب في الحِلِّ، قال: فقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا أيها الناسُ، انحَرُوا واحلِقُوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل ثم عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسولُ الله ـ ﷺ ـ فدخل على أُمِّ سَلَمة فقال: «يا أُمَّ سلمة، ما شأنُ الناسِ؟.» قالت: يا رسولَ الله، قد دخلهم ما رأيتَ، فلا تُكَلِّمَنَّ منهم إنساناً، واعمِد إلى هَديك حيث كان فانحَره واحلِق، فلو قد فعلتَ ذلك فعلَ الناسُ ذلك. فخرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ لا يُكلِّم أحداً حتى أتى هَديه فَنحَره، ثم جلسَ فَحَلق، قال: فقام الناسُ ينحَرُون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مَكّةَ والمدينةِ في وسط الطريق نزلت سورةُ الفتح[1]. هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يُونسُ بن بُكَير وزيادُ البَكّائي عن ابن إسحاق بنحوه وفيه إغراب. وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، به نحوه وخالفه في أشياء.

[٦١٧٤] وقد رواه البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه، فساقه سياقةً حسنةً مطوّلةً بزياداتٍ جَيِّدةٍ، فقال

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٣٢٣ ـ ٣٢٦ وفيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس، ولأكثره شواهد وبعضه غريب كما ذكر الحافظ ابن كثير، وثمة شيء وهو أن ابن إسحاق ساق بعضه عن الزهري مرسلاً.

في كتاب الشروط من صَحِيحه: حدثنا عبدُ الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمرٌ، أخبرني الزهرِيُّ، أخبرني عروةُ بن الزبير، عن المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ ومَرْوان بن الحكم، يُصَدِّق كلُّ واحدٍ منهما حديثَ صاحِبه، قالا: خَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ زَمَن الحديبية في بضعَ عَشرةَ مئة من أصحابه، فلما أتى ذا الحُلَيفة قَلَّد الهدي وأشعَرَه، وأحرم منها بعُمْرة وبَعَث عيناً له من خُزَاعَةَ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينُه فقال: إن قريشاً جَمَعُوا لك جُمُوعاً، وقد جَمَعوا لك الأحابيشَ، وهم مقاتلوكَ وصادُّوكَ ومانعُوكَ. فقال: «أَشِيرُوا أيُّها الناس عَلَيَّ، أَتَرَونَ أن نَميل على عيالهم. وذراريَ هؤلاء الذين يُرِيدُون أن يَصُدُّونا عن البيت؟» ـ وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذَرَارِيِّ هؤلاء الذين أعانوهم ـ فإن يأتونا كان الله قد قَطَع عُنُقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين». وفي لفظ. «فإن قعدوا قعدُوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عُنُقاً قَطَعها الله، أم تَرَون أن نَؤمَّ البيت فمن صَدَّنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجتَ عامِداً لهذا البيتِ لا نُريد قتل أحدٍ ولا حَرباً، فَتَوجَّه له، فمن صدنا عنه قاتلناه ـ وفي لفظٍ: فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: الله ورسوله أعلَم إنَّما جئنا معتمرين، ولم نجيء لقتال أحد، ولكن مَن حَال بيننَا وبينَ البيتِ قاتلناه. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «فروحوا إذن» ـ وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله تعالىٰ». حتى إذا كانُوا ببعضِ الطريقِ، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «إنَّ خالد بن الوليد في خَيلٍ لقريشٍ طليعةً، فَخذُوا ذاتَ اليمين». فوالله ما شَعَر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركضُ نذيراً لقُريشٍ، وسار النبيُّ ـ ﷺ ـ حتى إذا كانَ بالثنيَّةِ التي يُهبَطُ عليهم منها بَرَكت به راحلتُه، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّت، فقالوا: خَلأَت القَصْواء، خَلأَتِ القَصْواء. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «ما خَلأَتِ القصواءِ، وما ذَاكَ لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألُوني خُطَّة يُعَظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عدا مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، فقال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل من ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما

والذي نفسي بيده لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، قال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء» ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذ توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم قال للنبي ﷺ «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له» فبعثت له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته فلما أشرف عليهم قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «هذا مِكْرَزٌ، وهو رجل فاجر». فجعل يُكَلِّم النبي ـ ﷺ ـ فبينما هو يُكَلِّمه إذ جاء سهيل بن عمرو. وقال معمر: أخبرني أيوبُ، عن عِكْرِمَة أنه قال: لما جاء سُهَيلُ بنُ عمرو قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «قد سَهُل لكم من أمرِكم».

قال معمرٌ: قال الزهريُّ في حديثه: فجاء سُهَيلُ بن عمرو فقال: هاتِ اكتُب بيننَا وبينَكَ كتاباً. فدعا النبيُّ ـ ﷺ ـ الكاتِبَ، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سُهَيلٌ: أما الرحمنُ فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتُب: باسمِكَ اللهُمَّ، كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: والله لا نكتبُها إلا: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «اكتب: باسمِكَ اللهُمَّ». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله». فقال سُهَيل: والله لو كُنَّا نعلمُ أنك رسولُ الله ما صَدَدناك عن البيتِ ولا قاتلناكَ، ولكن اكتُب: محمدُ بنُ عبدِ الله. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «والله إني لرسولُ الله وإن كَذَّبتموني. اكتُب: محمدُ بن عبد الله». قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألوني خُطَّةً يُعَظِّمُون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها». فقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ: «على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فَنَطُوفَ به». فقال سُهَيل: والله لا تتحدَّثُ العربُ أنا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المُقبلِ. فكتب، فقال سُهَيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رَجُلٌ وإن كان على دِينك إلا رَدَدْته إلينا. فقال المسلمون: سُبحانَ الله! كيف يُرَدّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندلِ بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قُيوده، قد خرج من أسفل مكَّةَ حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سُهَيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إليّ. فقال النبي ـ ﷺ ـ «إنا لم نَقْضِ الكتابَ بعدُ». قال: فوالله إذاً لا أُصالِحُك على شيءٍ أبداً. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «فَأجِزْه لي». فقال: ما أنا بمجيز ذلكَ لك. قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مِكْرَز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشَرَ المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؟ ألا تَرَونَ ما قد لقيتُ؟! وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً

في الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ. قال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ: فأتيتُ نبيَّ الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: ألستَ نبيَّ اللهِ حقاً؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: «بلى». قلتُ: فَلِمَ نُعطَى الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟ قال: «إني رسولُ الله، ولستُ أعصِيه، وهو نَاصِري». قلت: أولستَ كنت تُحَدِّثنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: «بلى»، أفأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟». قلت: لا. قال: «فإنك آتِيه ومُطَّوِّفٌ به». قال: فأتيت أبا بكر فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنَا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطِل؟ قال: بلى. قلتُ: فلم نُعطَى الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟ قال: أيُّها الرجلُ، إنه رسولُ الله، وليس يعصِي رَبَّه، وهو ناصرُه، فاستمسِكْ بغَرْزِه، فوالله إنه على الحقِّ، قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيتَ ونَطُوف به؟ قال: بلى. قال: أفأخبرَكَ أنكَ تأتيه العامَ؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتَطُوف به.

قال الزهريُّ: قال عُمَر: فَعَملت لِذلِكَ أعمالاً. قال: فلما فَرَغ من قَضِيَّةِ الكتابِ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «قوموُا فانحَرُوا ثم احلِقُوا». قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يَقُم منهم أحدٌ دخل على أم سَلَمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت أمُّ سَلَمة: يا نبي الله، أتُحبُّ ذلك؟ اخرُج ثم لا تُكَلِّم أحداً منهم كلمةً حتى تنحَرَ بُدْنَكَ وتدعوَ حالِقَك فَيَحلِقَكَ. فخرَجَ فلم يُكَلِّم أحداً منهم حتى فَعَل ذلك، نَحَر بيده، ودعا حَالِقه فَحَلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فَنَحروا وجعل بعضُهم يَحلِقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتلُ بعضاً غَمًّا، ثم جاءه نِسوةٌ مؤمنات، فأنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فَطلَّق عُمَر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوَّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة، فجاءه أبو بَصِير ـ رجلٌ من قُرَيش ـ وهو مسلم، فأرسلُوا في طَلَبِه رَجُلَين، فقالوا: العهدَ الذي جعلتَ لنا. فدفعه إلى الرجلين فخرجَا به حتى بلغا ذا الحُلَيفة، فنزلوا يأكلون من تَمرٍ لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنِّي لأرَى سَيفَك هذا يا فلانُ جيداً، فاستلَّه الآخر، فقال: أجَل! والله إنه لجَيِّدٌ، لقد جَرَّبت منه ثم جَرَّبتُ فقال أبو بَصِير: أرِني أنظرُ إليه. فأمكنه منه فَضربه حتى بَرَدَ وفرَّ الآخرُ حتى أتى المدينةَ، فدخَلَ المسجِدَ يعدُو، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً». فلما انتهى إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: قُتِل ـ والله ـ صاحبي، وإني لمقتولٌ. فجاء أبو بَصِير فقال: يا رسولَ الله، قد ـ والله ـ أوفى الله ذِمَّتك، قد رَدَدتني إليهم ثم نجاني الله منهم. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «وَيلُ أمِّه مِسعَرَ حَربٍ! لو كان له أحدٌ». فلما سَمِع ذلك عَرَف أنه سَيَرُدُّهُ إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر، قال: وتفلَّت منهم أبو جندل بن سُهَيلٍ، فَلَحِق بأبي بَصِير، فَجَعل لا يخرُج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لَحق بأبي بَصير، حتى اجتمعت منهم عصابةٌ، فوالله ما يَسمَعُون بعير خَرجَت لقُرَيش إلى الشام إلا اعترضُوا لها فَقَتلُوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قُرَيشٌ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ تُنَاشده الله والرَّحِم لَمَّا أرسل إليهم: «فمن أتاه منهُم فهو آمن». فأرسل النبيُّ ـ ﷺ ـ إليهم، وأنزلَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وكانت حَميَّتُهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه رسولُ الله، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالُوا بينهم وبين البيت[1]. هَكَذا ساقَه البُخاريُّ هاهنا. وقد أخرَجه في التفسير، وفي عُمْرة الحُدَيبية، وفي الحجِّ، وغير ذلك من حديث معمر وسُفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرِيِّ، به، ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مَرْوان

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٣١ و٢٧٣٢ وأبو داود ٢٧٦٥ وأحمد ٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٨ وابن حبان ٤٨٧٢ مطولاً، لكن بعض ألفاظه مرسلة كما هو بين.

والمِسْوَرِ بن مُخْرَمة، عن رجالٍ من أصحابِ النبيِّ ـ ﷺ ـ بذلك. وهذا أشبَهُ والله أعلم. ولم يَسُقه أبسط من هاهنا، وبينَه وبين سياق ابن إسحاق تَبَايُنٌ في مواضع، وهناك فوائد يَنْبَغي إضافتُها إلى ما هاهنا، ولذلك سُقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعانُ وعليه التُّكلان، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العزيزِ الحكيمِ.

[٦١٧٥] وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمدُ بن إسحاق السُّلَمِيُّ، حدثنا يَعْلَى، حدثنا عبد العزيز بن سِيَاهٍ، عن حَبِيب بن أبي ثابت قال: أتيتُ أبا وائلٍ أسألُه فقال: كنا بِصِفِّينَ فقال رجلٌ: أَلَم تَرَ إلى الذين يُدْعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب: نَعَم. فقال سَهل بن حُنَيفٍ: اتهِموا أنفُسَكم، فَلقد رأيتُنا يومَ الحُدَيبية ـ يعني الصُلحَ الذي كان بين النبي ـ ﷺ ـ والمشركين، ولو نَرَى قِتالاً لَقاتلنا، فجاء عُمَر فقال: ألسنا على الحقّ وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نُعطَى الدنيّة في دِيننا ونَرجِعُ ولَمَّا يحكمِ الله بَيننا؟ فقال: «يا ابن الخطّابِ، إني رسولُ الله، ولن يُضَيِّعَني الله أبداً». فرجع مُتَغَيِّظاً فلم يَصبِرْ حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحقِّ وهُم على الباطل، فقال: يا بنَ الخَطَّابِ، إنه رسولُ الله، ولَن يُضَيِّعه الله أبداً. فنزلت سورة الفتح. وقد رَواه البُخاريُّ أيضاً في مواضِعَ أُخر، ومسلم، والنسائيُّ، من طُرُق أُخَر عن أبي وائلٍ سفيان بن سَلَمةَ، عن سَهْلِ بن حُنَيف، به. وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناسُ، اتهموا الرَّأيَ، فلقد رأيتُني يومَ أبي جندلٍ ولو أقدر على أن أرُدَّ على رسول الله ـ ﷺ ـ أمرَه لرددته. وفي رواية: فَنَزلت سُورة الفتح، فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عُمَر بن الخطاب فقرأها عليه[1].

[٦١٧٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد، عن ثابتٍ، عن أنسٍ أن قُريشاً صالَحُوا النبيَّ ـ ﷺ ـ فيهم سُهَيل بن عمرو، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ لعليّ: «اكتُب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سُهَيل: لا نَدري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتُب ما نعرف: باسمك اللّهُمّ. فقال: «اكتُب من محمدٍ رسولِ الله». قال: لو نعلم أنّك رسولُ الله لاتبعناك، ولكن اكتُب اسمَك واسمَ أبيك. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «اكتُب: من محمد بن عبد الله». واشترطُوا على النبي ـ ﷺ ـ أن مَن جاء منكم لا نَرُدُّه عليكم، ومن جاءكم منا رَدَدتُموه علينا. فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نَعَم، إنه من ذَهب منا إليهم فأبعدَه الله»[2]. رواه مسلم من حديث حَمّاد بن سَلَمة، به.

[٦١٧٧] وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بنُ مَهدِيّ، حدثنا عِكْرِمَةُ بن عَمَّار قال: حدثني سِمَاك، عن عبد الله بن عَبَّاس قال: لما خَرَجَتِ الحَروريَّةُ اعتزلُوا، فقلت لهم: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم الحُدَيبية صالَحَ المشركين، فقال لعلي: «اكتُب يا علي: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله». قالوا: لو نعلم أنّك رسولُ الله ما قاتلناك. فقال رسولُ الله ﷺ: «امحُ يا علي، اللهُمّ إنك تَعلم أني رسولُك، امحُ يا عليُّ واكتُب: هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبد الله». والله لَرَسُول الله خيرٌ من علي، وقد محا نَفْسه، ولم يكن محوُه ذلك يَمْحَاهُ من النبوّةِ، أخرَجْتُ من هَذِهِ؟ قالوا: نعم[3]. ورواه أَبو داود من حديثِ عِكرِمَة بن عَمّار اليَمَامِيّ، بنحوه.

[٦١٧٨] وروى الإمامُ أحمدُ، عن يحيى بن آدَمَ: حدثنا زُهَير بن حرب، عن محمد بن عبد الرحمن بن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٤ و٣١٨٢ ومسلم ١٧٨٥ والنسائي في «الكبرى» ١١٥٠٤.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨٤ وأحمد ٣/ ٢٦٨.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٠٣٧ وأحمد ١/ ٣٤٢ وإسناده حسن رجاله رجال مسلم، لكن في عكرمة وسماك مقال، ومع ذلك للحديث شواهد.

أبي لَيلى، عن الحَكَم، عن مِقْسم، عن ابن عَبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نَحر رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوم الحُدَيبية سبعينَ بَدَنةً فيها جَمَلٌ لأبي جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّت كما تَحنُّ إلى أولادِها[١].

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد أُرِيَ في المنام أنه دَخل مَكّة وطافَ بالبيت، فأخبر أصحابَه بذلك وهو بالمدينة، فلما سارُوا عام الحُدَيبية لم يَشُكَّ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تَتَفسَّر هذا العام، فلما وَقَع ما وَقع من قَضِيَّة الصلح ورجعُوا عامَهم ذلك على أن يَعُودُوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيءٌ، حتى سأل عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكُن تُخبرنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامَك هذا؟» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به». وبهذا أجاب الصديقُ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً حَذْو القُذَّة بالقُذَّة. ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقولُهُ عز وجل: ﴿ءَامِنِينَ﴾، أي: في حال دخولكم. وقولُهُ: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا مُحلِّقين ومُقصِّرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان مِنهم مَن حَلَق رأسَه وَمِنهم مَن قَصَّره.

[٦١٧٩] وثبت في الصحيحين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «رَحِم الله المُحلِّقين». قالوا: والمُقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «رَحِم الله المُحلِّقين»... قالوا: والمقصِّرين يا رسولَ الله؟ قال: «رَحِم الله المُحلِّقين». قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة[٢].

وقولُهُ سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مُؤَكِّدة في المعنى، فأثبت لهم الأمنَ حالَ الدخول، وَنفى عنهم الخوفَ حال استقرارهم في البَلَد لا يخافُون من أحدٍ. وكان هذا في عُمرَة القضاء في ذي القِعدة سنة سَبع؛ فإن النبيَّ ـ ﷺ ـ لما رَجَع من الحُدَيبية في ذي القِعدة رَجَع إلى المدينة فأقام بها ذا الحِجَّةِ والمحرَّم، وخَرَج في صَفَر إلى خيبرَ ففتحَها الله عليه، بعضها عَنوةً وبعضَها صلحاً، وهي إقليمٌ عظيمٌ كثيرُ النخل والزروع، فاستخدم مَن فيها مِن اليهود عليها على الشطر، وقَسَمها بين أهل الحُدَيبية وحدهم، ولم يشهدها أحدٌ غيرهم إلا الذين قَدِموا من الحبشة، جعفرُ بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يَغِب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دُجَانة سِماكَ بن خَرَشة. كما هو مُقرَّر في موضعه. ثم رَجع إلى المدينة. فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خَرَج معتمراً هو وأهل الحُدَيبية، فأحرم من ذي الحُلَيفة، وساق معه الهَدْي، وقيل: كان سِتِّين بَدَنة. فَلَبَّى وسار وأصحابه يُلَبّون. فلما كان قَريباً من مَرِّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامَه. فلما رآه المشركون رُعِبُوا رُعباً شَدِيداً، وظَنُّوا أن رسول الله ـ ﷺ ـ يغزُوهم، وأنه قد نكث العهدَ الذي بينه وبينهم مِن وَضعِ القتال عشر سنين، وذَهَبُوا فأخبروا أهلَ مكّة، فلما

---

(١) أخرجه أحمد ١/٣١٤ ـ ٣١٥ وإسناده ضعيف، محمد بن عبد الرحمن سيء الحفظ، وأصل الحديث محفوظ دون عجزه «فلما صدق».

(٢) متفق عليه، وتقدم.

جاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ فنزل بمرِّ الظهران حيث ينظرُ إلى أنصاب الحرم بَعثَ السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يَأْجَجَ، وسار إلى مكَّة بالسيوف مُغمَدَة في قُرُبها، كما شارَطَهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بَعثَت قريشٌ مِكْرَزَ بن حَفصٍ فقال: يا مُحمد، ما عَرَفناك تنقُض العهدَ. قال: «وما ذاك؟» قال: دخلتَ علينا بالسلاح والقِسِيِّ والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بَعثْنا به إلى يَأْجَجَ». فقال: بهذا عَرَفناك، بالبرِّ والوفاء. وخَرَجت رُؤوس الكُفَّار من مكَّة لئلا ينظرُوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وإلى أصحابه غيظاً وحَنَقاً. وأما بَقِيَّة أهلِ مكَّةَ من الرجال والنساء والوِلدان فجلسوا في الطرُق وعلى البُيُوتِ ينظُرون إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وأصحابِه، فَدَخلها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين يَدَيه أصحابُه يُلَبُّون، والهَدْيُ قد بَعثَه إلى ذِي طُوَى، وهو راكبٌ ناقته القَصواء التي كان راكبها يوم الحُدَيبية، وعبد الله بن رَواحة الأنصاري آخذٌ بِزِمام ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ يَقُودها، وهو يقول:

بِـاسْـمِ الـذي لا ديـنَ إلا ديـنُـهُ ... بـاسْـم الـذي مُـحَـمـدٌ رَسُـولُـه

خَـلّـوا بَـنـي الـكُـفّـارِ عَـنْ سَـبـيـلِه ... الـيـومَ نَـضْـرِبْـكـم عَـلَـى تـأويـلـه

كَـمَـا ضـرَبْـنَـاكُـم عَـلَـى تَـنـزيـلـه ... ضـرْبـاً يُـزيـلُ الـهَـامَ عَـنْ مَـقِـيـلِـهِ

وَيُـذْهِـلُ الـخَـلـيـلَ عَـنْ خَـلِـيـلـه ... قَـدْ أنْـزَل الـرَّحْـمَـنُ فـي تَـنْـزيـلـه

فـي صُـحُـفٍ تُـتْـلـى عَـلـى رَسُـولـه ... بِـأنَّ خَـيـر الـقَـتْـل فـي سَـبِـيـلِـهِ

يَـا رَبِّ إنـي مُـؤمِـنٌ بِـقـيـلِـه

فهذا مجموعٌ من رواياتٍ مُتفرِّقةٍ.

[٦١٨٠] قال يونس بن بُكير، عن محمد بن إسحاقَ: حدثني عبدُ الله بن أبي بكر بن حَزْم قال: لما دَخَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ مكة في عُمرَةِ القضاء، دخلها وعبدالله بن رَوَاحَة آخذٌ بخطام ناقته ـ ﷺ ـ، وهو يقول:

خَـلّـوا بَـنـي الـكُـفّـار عَـنْ سـبـيـلـه ... إنّـي شَـهـيـدٌ أنـه رَسُـولُـهُ

خَـلّـوا فَـكُـلّ الـخَـيْـر فـي رَسُـولـه ... يَـا رَبِّ إنّـي مُـؤمـنٌ بـقـيـلِـهِ

نَـحْـنُ قَـتَـلْـنَـاكـم عَـلَـى تَـأويـلِـهِ ... كَـمَـا قَـتَـلْـنَـاكُـمْ عَـلَـى تَـنْـزيـلـه

ضَـرْبـاً يُـزيـلُ الـهَـام عَـنْ مَـقـيـلـه ... وَيُـذْهِـلُ الـخَـلـيـلَ عَـنْ خَـلـيـلـه(١)

[٦١٨١] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ـ ﷺ ـ مَكّة في عُمرَةِ القَضاء مَشَى عبدُ الله بن رواحة بين يَدَيه، وفي رواية: وابنُ رَوَاحَةَ آخِذٌ بغَرْزِهِ، وهو يقول:

خَـلّـوَا بَـنـي الـكُـفّـار عَـنْ سَـبِـيـلِـهِ ... قَـدْ نَـزّلَ الـرَّحْـمَـنُ فـي تَـنْـزيـلـه

بِـأنَّ خَـيْـرَ الـقَـتْـل فـي سَـبِـيـلـه ... يَـا رَبِّ إنّـي مُـؤمـنٌ بِـقِـيـلِـهِ

نَـحـنُ قَـتَـلْـنَـاكـم عَـلـى تَـأويـلـه ... كَـمَـا قَـتَـلْـنَـاكُـمْ عَـلَـى تَـنْـزيـلـه

ضَـرْبـاً يُـزيـلُ الـهَـامَ عَـنْ مَـقِـيـلِـهِ ... وَيُـذهِـلُ الـخَـلـيـلَ عَـنْ خَـلِـيـلِـهِ(٢)

---

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٣/ ٣٢٠ ـ ٣٢١ وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤/ ٣٢٣ وهذا مرسل، لكن يقويه ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٨٤٧ والبزار ٢٠٩٩ وأبو يعلى ٣٥٧١ وابن حبان ٤٥٢١ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

[٦١٨٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمَّد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعني ابنَ زكريا ـ عن عبد الله ـ يعني ابنَ عثمان ـ عن أبي الطفَيل، عن ابن عباس أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما نزل مَرَّ الظهران في عُمرته بَلَغ أصحابَ رسول الله ـ ﷺ ـ أن قريشاً تقول: ما يتباعَثُون من العَجَف. فقال أصحابُه: لو انتحرَنا من ظَهرِنا فأكلنا من لَحْمِه، وحَسَونا من مَرَقِه أصبحنا غداً حين ندخُل على القوم وبنا جَمامَة. قال: «لا تفعَلُوا ولكن اجمَعُوا لي من أزوادكم». فجمعوا له وبَسَطوا الأَنْطاعَ، فأكلوا حتى تَرَكُوا وَحَثَا كلُّ واحدٍ منهم في جِرَابه. ثم أقبل رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى دخل المسجدَ وقعدت قُرَيشٌ نحو الحِجْرِ، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يَرَى القومُ فيكم غَمِيزةً». فاستلم الركن ثم رَمَل حتى إذا تَغَيب بالركن اليَماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قُرَيشٌ: ما ترضَون بالمشي، أما إنكم لَتَنقزُون نَقزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أطوافٍ، فكانتْ سُنَّة. قال أبو الطفَيل: فأخبرني ابنُ عباسٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَعَل ذلك في حَجَّةِ الوداع[١].

[٦١٨٣] وقال أحمد أيضاً: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حَمَّاد بنُ زيدٍ، حدثنا أيُوبُ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قَدِم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأصحابُه مَكَّة وقد وَهَنتهم حُمّى يَثرِبَ، ولَقُوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدَم عليكم قومٌ قد وهَنَتهُم حُمّى يَثرِبَ ولَقُوا منها شرّاً. وجلس المشركون من الناحية التي تَلِي الحِجْرَ، فأطلع الله تعالىٰ نبيَّه ـ ﷺ ـ على ما قالوا، فأمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ أصحابه أن يَرملُوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جَلَدهم، قال: فَرَملُوا ثلاثةَ أشواطٍ، وأمرهم أن يَمشُوا بين الركنَين حيث لا يراهُم المشركون، ولم يَمنَع النبي ـ ﷺ ـ أن يرمُلُوا الأشواط كلَّها إلا إبقاءً عليهم، فقال المشركون: أهؤلاءِ الذين زعمتُم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلَدُ من كذا وكذا[٢]. أخرجاه في الصحيحين من حديث حَمّاد بن زيد، به. وفي لفظٍ: قَدِم النبيُّ ـ ﷺ ـ وأصحابُه صَبِيحةَ رابعةٍ ـ أي من ذي القِعدَةِ ـ فقال المشركون: إنه يقدَمُ عليكم وفدٌ قد وَهَنتُهم حُمّى يثربَ. فأمرهم النبي ـ ﷺ ـ أن يرملُوا الأشواطَ الثلاثةَ، ولم يمنع أن يأمرهم أن يرملُوا الأشواط كُلَّها إلا الإبقاء عليهم. قال البخاريُّ: وزاد ابنُ سَلَمة ـ يعني حَمّاد بن سَلَمة ـ عن أيُّوب، عن سعيدِ بن جُبير، عن ابن عباسٍ قال: لما قَدم النبي ـ ﷺ ـ لِعَامِهِ الذي استأمَنَ قال: «ارمُلُوا». لِيُرِيَ المشركين قوتهم، والمشركونَ من قِبَلِ قُعَيقعَانَ.

[٦١٨٤] وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن عَمرو بن دينار، عن عطاءٍ، عن ابن عباس قال: إنما سَعَى النبيُّ ـ ﷺ ـ بالبيت وبالصَّفا والمروةِ، لِيُرِي المشركين قُوَّتَه[٣]. ورواه في مواضع أخر، ومسلم والنسائيُّ، من طرق، عن سفيان بن عُيَينة، به.

[٦١٨٥] وقال أيضاً: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيانُ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمِعَ ابنَ أبي أَوْفَى يقولُ: لما اعتمَرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ سَتَرناه من غلمانِ المشركين ومنهُم، أن يؤذوا رسولَ الله ﷺ[٤]. انفرد به البخاري دون مسلم.

[٦١٨٦] وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا محمدُ بن رافع، حدثنا سُرَيج بن النعمان، حدثنا فُلَيحٌ ـ (ح) ـ وحدثني محمد بن الحُسَين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فُلَيحُ بن سليمان ـ عن نافع، عن ابن عُمَر أن

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٥ وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٦٠٢ و٤٢٥٦ ومسلم ١٢٦٦ وأبو داود ١٨٨٦ وأحمد ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ـ ٣٧٣.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥٧.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥٥.

رسولَ الله - ﷺ - خرج مُعتَمِراً، فحال كفارُ قُرَيشٍ بينه وبين البيتِ، فَنحر هَدْيَه، وحَلَق رأسَه بالحُدَيبية، وقاضَاهم على أن يَعتَمِرَ العامَ المقبلَ، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سُيُوفاً، ولا يُقِيم بها إلا ما أَحَبُّوا. فاعتمرَ مِنَ العامِ المقبلِ. فدخلها كما كان صالَحهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج، فخرج[1]. وهو في صحيح مسلم أيضاً.

[٦١٨٧] وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء قال: اعتمَرَ النبي - ﷺ - في ذي القِعدَةِ، فأبى أهلُ مكة أن يَدَعُوه يدخلُ مكة حتى قاضَاهُم على أن يُقِيم بها ثلاثةَ أيام، فلما كتبُوا الكتاب كتبوا: هذا ما قَاضىٰ عليه محمدٌ رسولُ الله. قالوا: لا نُقرُّ بهذا، ولو نعلم أنك رسولُ الله ما مَنَعناك شيئاً، ولكن أنت محمدُ بن عبد الله. قال: «أنا رسولُ الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امحُ رسولَ الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبداً. فأخذ رسولُ الله - ﷺ - الكتابَ، وليس يحسن يَكتُبُ فكتب[2]: «هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبد الله: لا يُدْخِلُ مكة السلاحَ إلا السيفَ في القِراب، وألاَّ يَخرُجَ من أهلِها بأحد إنْ أراد أن يَتّبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يُقيم بها». فلما دَخلها ومضى الأجلُ أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك: اخرُج عنا فقد مضى الأجلُ. فخَرَج النبيُّ - ﷺ - فَتَبعته ابنةُ حمزةَ تُنادِي: يا عمّ يا عمّ. فتناولها عليٌّ فأخذَ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنةَ عمك. فَحَمَلتها، فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ، فقال عليّ: أنا أخذتُها وهي ابنة عمي. وقال جعفر: ابنةُ عمي وخالتها تحتي. وقال زيدٌ: ابنةُ أخي. فَقضَى بها النبي - ﷺ - لخالتها، وقال: «الخالةُ بمنزلة الأم». وقال لعلي: «أنتَ مِنّي وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلقي وخُلُقي». وقال لزيد: «أنتَ أخونا ومولانا». قال علي: ألا تتزوجُ ابنةَ حمزة؟ قال: «إنها ابنةُ أخي من الرضاعة»[3]. انفرد به من هذا الوجه.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، أي: فعلم الله تعالى من الخِيرَةِ والمصلحة في صَرْفكم عن مَكّة ودخُولكم إليها عامَكُم ذلك ما لم تَعلَمُوه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: قبلَ دخولكم الذي وُعِدتُم به في رؤيا النبي - ﷺ - فتحاً قريباً، وهو الصلحُ الذي كان بينكُم وبين أعدائكُم من المشركين. ثم قال تعالى مُبَشِّراً للمؤمنين بنصرة الرسول - صلواتُ الله وسلامه عليه - على عَدُوِّه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعلم النافع والعَمَل الصالح، فإن الشريعةَ تَشتَمِلُ على شيئين: عِلْم وعَمَلٍ، فالعلم الشرعيُّ صَحِيحٌ، والعمل الشرعيُّ مقبول، فإخباراتُها حقٌّ وإنشاءاتها عدلٌ، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عَرَبٍ وعَجَم، ومسلمين ومُشرِكين، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: أنّهُ رسولُه، وهو ناصرُه؛ والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥٢.

(٢) كذا وقع في إحدى روايات البخاري، وقد حمل ذلك الجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم «أمر» ولم يكتب بيده. وتقدم الكلام على ذلك، والله الموفق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥١.

شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن مُحمَّدٍ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنه رسُوله حقّاً بلا شكٍّ ولا رَيبٍ، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كُلِّ وصفٍ جَميل. ثم ثَنّى بالثناءِ على أصحابه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وهذه صفةُ المؤمنين أن يكون أحدهُم شديداً عنيفاً على الكفار، رَحيماً بَرّاً بالأخيار، غَضوباً عَبُوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

[٦١٨٨] وقال النبي ـ ﷺ ـ «مثلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتَراحُمهم كمثل الجَسَد الواحِد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائِرُ الجسدِ بالحُمّى والسهر»(١).

[٦١٨٩] وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمنِ كالبُنيان يَشدُّ بعضُه بعضاً». وشبَّك من أصابعه(٢). كلا الحديثين في الصحيح.

وقولُهُ سبحانه وتعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وصفَهم بكثرة العمل وكثرة الصَّلاة، وهي خيرُ الأعمال. ووَصَفهم بالإخلاص فيها لله ـ عزَّ وجلَّ ـ والاحتسابِ عند الله تعالى جزيلَ الثوابِ، وهو الجنةُ المشتملةُ على فضل الله عز وجل، وهو سَعَةُ الرزق عليهم، ورِضاه تعالى عنهم، وهو أكبرُ من الأول، كما قال جل جلاله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وقولُهُ: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: سيماهُم في وجوههم، يعني: السَّمْتَ الحَسَن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخُشوع والتواضع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا حُسَين الجُعفيُّ، عن زائدةَ، عن منصورٍ، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، قال: الخشوعُ. قُلْتُ: ما كنتُ أراه إلا هذا الأثَر في الوجه. فقال: رُبَّما كان بين عَيْنَي من هو أقسى قلباً من فِرعَوْنَ. وقال السديُّ: الصلاة تُحسِّن وجوهَهم. وقال بعضُ السلف: من كَثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار.

[٦١٩٠] وقد أسنده ابن ماجه في سُنَنه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحي، عن ثابت بن موسى، عن شَريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من كَثُرت صلاتُه بالليلِ حَسُن وجهُه بالنهار»(٣). والصحيح أنه موقوف. وقال بعضُهم: إنَّ للحسنةِ نوراً في القلب، وضياءً من الوجهِ، وَسعَةً في الرزقِ، ومحبَّةً في قُلوبِ الناس.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠١١ ومسلم ٢٥٨٦ وأحمد ٤/ ٢٧٠ وابن حبان ٢٣٣ عن النعمان بن بشير.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٦ ومسلم ٢٥٨٥ والترمذي ١٩٢٨ وأحمد ٤/ ٤٠٥ وابن حبان ٢٣١ من حديث أبي موسى.

(٣) لا أصل له في المرفوع. أخرجه ابن ماجه ١٣٣٣ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢٠٧ والقضاعي ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤١٢ والعقيلي ١/ ١٧٦ والخطيب ٧/ ٣٩٠ و ١٢/ ١٢٦ و ١٣/ ٣٨ وابن عدي ٢/ ٩٩ ـ ٣٤١ و ٦/ ٣٠٣ ـ ٣٤٨ من حديث جابر. وكرره القضاعي ٤١٤ وابن الجوزي ٢/ ١١٠ من حديث أنس. قال ابن الجوزي: قال العقيلي: هذا حديث باطل لا أصل له. وقال ابن عدي: لا يعرف إلا بثابت بن موسى الزاهد. وقد سرقه من جماعة ضعفاء منهم =

وقال أميرُ المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسرَّ أحدٌ سَرِيرةً إلا أبداها الله تعالىٰ على صَفَحات وجهه، وَفَلَتَاتِ لِسانه. والغرض أن الشيءَ الكامِنَ في النفس يظهَرُ على صفحاتِ الوجه، فالمؤمنُ إذا كانت سريرتُه صحيحةً مع الله تعالىٰ أصلحَ الله عز وجل ظاهِرَه للناس، كما رُوِي عن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: مَن أصلحَ سَرِيرتَه أصلَح الله تعالىٰ علانِيَتِه.

[٦١٩١] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمودُ بن محمد المروَزِيُّ، حدثنا حامد بن آدم المَروزِيُّ، حدثنا الفضلُ بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَميُّ، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن جندب بن سفيان البجلي: قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «ما أسر أحد سَرِيرةً إلا ألبسه الله رداءَها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ»[(١)]. العرزَمِيُّ متروك.

[٦١٩٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا ابنُ لَهِيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيد، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لو أنَّ أحدكم يعمَلُ في صخرة صمَّاءَ ليس لها بابٌ ولا كُوَّةٌ لخرَج عملهُ للناس كائناً ما كان»[(٢)].

[٦١٩٣] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا حَسَن حدثنا زُهَير، حدثنا قَابوسُ بن أبي ظَبيان: أن أباه حَدَّثه عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الهَدْيَ الصالحَ والسمت الصالحَ والاقتصَاد جزءٌ من خَمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[(٣)] ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي، عن زُهَير، به.

فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ خَلَصَت نياتُهم وحَسُنت أعمالُهم، فكلُّ من نَظَر إليهم أعجَبُوه في سَمْتِهِم وهَدْيهم. وقال مالك رحمه الله: بَلَغني أن النصارى كانُوا إذا رأَوُا الصحابةَ الذين فَتَحُوا الشامَ يقولون: والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بَلَغنا. وصَدَقُوا في ذلك، فإن هذه الأمة مُعظَّمة في الكُتُب المتقدِّمة، وأعظمها وأفضلُها أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ وقد نوَّه الله تبارك وتعالىٰ بذكرهم في الكُتُب المنزَّلة والأخبارِ المُتَداوَلةِ، ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، أي: فِراخه، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾، أي: شَدَّه ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾، أي: شَبَّ وطال ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾، أي: فكذلك أصحابَ محمد ـ ﷺ ـ آزروه وأيَّدوه ونَصرُوه فهم معه كالشَّطْءِ مع الزَّرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾. ومن هذه الآية انتزع الإمامُ مالك ـ رحمه الله، في رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يُبغِضُون الصحابة، قال: لأنهم يَغِيظُونهم، ومن غاظ الصحابةَ فهو كافرٌ لهذه الآية. ووافقه طائفةٌ من العُلماء على ذلك. والأحاديثُ في

---

= عبد الحميد بن عبد الله، وإسحق بن بشر الكاهلي، وموسى بن محمد. وذكره السخاوي في «المقاصد» ١١٦٩ وقال: لا أصل له. وإن روي من طرق. لكن قرأت بخط شيخنا ـ ابن حجر ـ في بعض أجوبته: إنه ضعيف بل قواه بعضهم، والمعتمد الأول، وقد أطنب ابن عدي في رده، ومثلوا به في الموضوع سهواً. قال ابن طاهر: ظن القضاعي أن الحديث صحيح لكثرة طرقه، وهو معذور لأنه لم يكن حافظاً اهـ. قال السخاوي: واتفق أئمة الحديث: ابن عدي، والدارقطني، والعقيلي، وابن حبان، والحاكم، على أنه من قول شريك، قاله لثابت بن موسى الزاهد، لما دخل عليه اهـ باختصار. وقد صوب فيه ابن كثير الوقف. مع أنه ذكره أولاً بأنه من قول بعض السلف. يعني هو من كلام التابعين، أو من دونهم.

(١) تقدم تخريجه. وهو ضعيف جداً.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٨ وتقدم تخريجه في سورة لقمان: ١٢.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ١/ ٢٩٦ وأبو داود ٤٧٧٦ من حديث ابن عباس. وفيه قابوس بن أبي ظبيان. قال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال ابن حبان: رديء الحفظ، ينفرد بما لا أصل له اهـ فالخبر غير قوي، وهو إلى الضعف أقرب، والله أعلم. وله شاهد من حديث ابن سرجس، أخرجه الترمذي ٢٠١٠ بسند لين.

فَضَائل الصحابة والنهي عن التعرُّض لهم بمساءةٍ كثيرةٌ، ويكفيهم ثناءُ الله عليهم، ورضاهُ عنهم. ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾، «من» هذه لبيان الجنس ﴿مَّغْفِرَةً﴾، أي: لذنوبهم، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً. ووعدُ الله حقٌ وصدقٌ، لا يُخْلَفُ ولا يُبَدلُ، وكلُّ من اقتفى أَثَر الصحابة فهو في حُكمهم، ولهم الفضلُ والسبقُ والكمالُ الذي لا يَلحَقهم فيه أحدٌ من هذه الأمة، رَضِيَ الله عنهُم وأرضاهُم، وجعل جناتِ الفِرْدَوْسِ مثواهم، وقد فَعَلَ.

[٦١٩٤] قال مسلمٌ في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسِي بِيَدِه لو أنَّ أحدَكُم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما أدرَكَ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصِيفَه»[1].

## آخرُ تفسيرِ سُورَةِ الفتحِ، ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) متفق عليه، وتقدم.

# سُورَةُ الحُجُرَاتِ

ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾

هذه آيات أدَّبَ الله بها عبادَه المؤمنين فيما يُعَامِلُون به الرسولَ ـ ﷺ ـ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: لا تُسرِعُوا في الأشياءِ بين يدَيه، أي قبله، بل كونُوا تَبَعاً له في جميع الأمور حتى يدخُلَ في عموم هذا الأدبِ الشرعيِّ.

[٦١٩٥] حديثُ معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ـ ﷺ ـ حِين بَعَثه إلى اليمن: «بم تحكُم؟» قال: بكتابِ الله، قال: «فإن لم تَجدْ؟». قال: بِسُنَّةِ رسول الله. قال: «فإن لم تَجدْ؟». قال: أجتهدُ رأيي. فَضَرب في صدرَه وقال: «الحمدُ لله الذي وفَّق رسول رسولِ الله لما يُرضِي رسولَ الله»[(١)]. وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه. فالغرضُ منه أنه أخَّر رأيه ونَظَره واجتهادَه إلى ما بعد الكتاب والسُّنَّة، ولو قَدَّمه قبلَ البحثِ عنهما لكان من باب التقديم بين يَدَي الله ورسوله.

قال عليُّ بن أبي طَلحةَ، عن ابن عباس: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، لا تَقُولُوا خلافَ الكتابِ والسنَّة. وقال العَوفيّ عنه: نهوا أن يَتَكلَّموا بين يَدَي كَلامَه. وقال مجاهدٌ: لا تَفْتَاتُوا[(٢)] على رسولِ الله ـ ﷺ ـ بشيءٍ حتى يقضِي الله تعالىٰ على لسانه. وقال الضحَّاكُ: لا تقضُوا أمراً من دون الله ورسوله من شرائع دينِكُم. وقال سفيانُ الثَّوري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقولٍ ولا فِعْلٍ. وقال الحسن البصري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، قال: لا تدعُوا قبلَ الإمام. وقال قتادةُ: ذُكِرَ لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزلَ في كذا كذا. وكذا لو صُنع كذا، فَكرِه الله ذلك وتقدم فيه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فيما أمركُم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي: لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم. وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾:

---

(١) تقدم تخريجه، وإسناده ضعيف.

(٢) افتات الكلام: ابتدعه.

هذا أدبٌ ثانٍ أَدَّب الله تعالىٰ به المؤمنين ألاّ يرفعُوا أصواتهم بين يَدَيِ النبي ـ ﷺ ـ فوق صوته. وقد رُوي أنها نزلت في الشيخَين أبي بكر وعُمَر رضي الله عنهما.

[٦١٩٦] قال البخاريُّ: حدثنا بُسْرَةُ بنُ صفوان اللَّخميُّ، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مُلَيكَةَ قال: كاد الخَيِّران أن يَهْلِكَا، أبو بكر وعُمَر ـ رضي الله عنهما ـ رَفَعا أصواتَهما عند النبيِّ ـ ﷺ ـ حين قَدِم عليه ركبُ بني تميم، فأشار أحدُهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخرُ برجُلٍ آخَرَ ـ قال نافع: لا أحفَظُ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خِلافي. قال: ما أردت خِلافَكَ. فارتفعت أصواتُهما في ذلك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية. قال ابنُ الزبير: فما كان عمرُ يُسمِعُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعدَ هذه الآية حتى يَسْتَفهِمه، ولم يذكُر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر، ـ رضي الله عنه[١] ـ. انفرد به دون مسلم.

[٦١٩٧] ثم قال البخاريُّ: حدثنا الحسنُ بن محمد، حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيج، حدثني ابن أبي مُلَيكة: أن عبدَ الله بن الزُّبير أخبره: أنه قَدِمَ رَكْب من بني تَميم على النبي ـ ﷺ ـ فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بن مَعْبَدٍ. وقال عمر: بل أَمِّر الأقرَعَ بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردتَ إلي ـ أو: إلا خلافي ـ فقال عمر: ما أردتُ خِلافَك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتُهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، حتى انقضت الآيةُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية[٢]. وهكذا رواه هاهنا منفرداً به أيضاً.

[٦١٩٨] وقال الحافظ أبو بكر البزّار في مُسنَدِه: حدثنا الفضل بن سهل، حَدَّثنا إسحاقُ بن منصور، حدثنا حُصَين بن عُمَر، عن مُخارِقٍ، عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصدِّيق قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أُكلِّمك إلا كأخي السِّرار[٣]. حُصَين بن عُمَر هذا ـ وإن كانَ ضَعِيفاً ـ لكن قد رَوَيناه من حديثِ عبد الرحمن بن عَوف، وأبي هُرَيرة بنحو ذلك، والله أعلم.

[٦١٩٩] وقال البخارِيُّ: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهَرُ بن سَعد، أخبرنا ابنُ عَون، أنبأني مُوسَى بن أنس، عن أنس بن مالك أن النبي ـ ﷺ ـ افتقد ثابتَ بن قيس فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أنا أعلَمُ لك عِلْمَه. فأتاه فوجَده في بيته مُنَكِّساً رأسَه، فقال له: ما شأنُك؟ فقال: شَرٌّ، كان يَرْفَعُ صَوته فوقَ صوتِ النبي ﷺ، فقد حَبِط عَمَلُه، فهو من أهل النار، فأتى الرجلُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبره أنه قال كذا وكذا ـ قال موسى: فرجع إليه المَرَّة الآخِرَة ببشارة عظيمةٍ فقال: «اذهب إليه فَقُل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنَّكَ من أهل الجنة»[٤]. تفرد به البخاري من هذا الوجه.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٥.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٧ والترمذي ٣٢٦٦ والنسائي في «التفسير» ٥٣٤.

(٣) أخرجه البزار ٢٢٥٧ والحاكم ٣/ ٧٤ من حديث أبي بكر. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: حصين واهٍ. وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٤٩: حصين بن عمرو الأحمسي متروك. ووثقه العجلي، وبقية رجاله ثقات اهـ. وورد عن أبي هريرة عن أبي بكر، أخرجه الحاكم ٢/ ٤٦٢، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وورد عن ابن عباس ذكره الواحدي ٧٥٥ بدون إسناد. فالحديث يتقوى بشواهده، كما ذهب إليه ابن كثير، والله أعلم.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٦.

[٦٢٠٠] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا هاشم، حدثنا سُلَيمان بن المُغيرة، عن ثَابتٍ، عن أنس قال: لما نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ـ وكان ثابت بن قَيس بن الشمَّاسِ رفيعَ الصوتِ فقال: أنا الذي كنتُ أرفعُ صوتِي على رسولِ الله ـ ﷺ ـ حَبِط عملي، أنا من أهلِ النارِ. وجَلَس في أهله حزيناً، ففقدَه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فانطلق بعضُ القوم إليه فقالوا له: تَفَقَّدك رسولُ الله ـ ﷺ ـ مالك؟ قال: أنا الذي أرفعُ صَوتي فوقَ صوتِ النبي ـ ﷺ ـ وأجهَرُ له بالقول، حَبط عملي، أنا من أهل النار. فأتَوا النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبرُوه بما قال. قال: «لا، بل هُو من أهل الجنّةِ». قال أنس: فَكُنَّا نراه يَمشِي بين أظهرِنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يومُ اليمامَةِ كان فينا بعضُ الانكشاف، فجاء ثابتُ بنُ قَيسِ بن شَمَّاسِ وقد تَحنَّطَ ولبسَ كَفَنه، فقال: بِئسَما تُعَوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتِلَ[١].

[٦٢٠١] وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيبَةَ، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك قال: لما نَزَلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾... إلى آخر الآية جَلَس ثابت في بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبسَ عن النبي ـ ﷺ ـ، فقال النبي ـ ﷺ ـ لسعد بن مُعَاذٍ: «يا أبا عَمرو، ما شأن ثَابتٍ؟ اشتكى؟» فقال سعدٌ: إنه لَجَارِي، وما عَلِمتُ له بشكوَى. قال: فأتاه سعد فذكَر له قولَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فقال ثابت: أُنزِلَت هذه الآية، ولقد عَلِمتُم أني من أرفَعِكم صَوتاً على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأنا من أهل النار. فَذَكر ذلك سعدٌ للنبي ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بل هو من أهل الجَنَّةِ». ثم رواه مسلم عن أحمدَ بن سعيدِ الدارميِّ، عن حَبَّان بن هلال، عن سُلَيمان بن المغيرة، به قال: ولم يذكر سعدَ بن مُعاذٍ. وعن قَطَن بن نُسَير، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، بنحوه. وقال: ليس فيه ذِكرُ سعدِ بنِ مُعاذٍ. حَدَّثنا هُرَيم بن عبد الأعلى الأَسَدي، حدثنا المعتمرُ بن سُلَيمان، سَمِعت أبي يذكُر عن ثابتٍ، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية... واقتصَّ الحديثَ، ولم يذكر سعدَ بن معاذ وزاد: فكنا نَراهُ يمشي بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة[٢]. فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حَمَّاد بن سَلَمة فيما تَفرّد به من ذِكرِ سَعد بن معاذٍ. والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعدُ بنُ معاذٍ موجوداً، لأنه كان قد مات بعد بني قُرَيظة بأيام قلائل سنةَ خَمْسٍ، وهذه الآية نَزَلت في وفد بني تَميم، والوفود إنما تَوَاترُوا في سنة تسع من الهجرةِ، والله أعلم.

[٦٢٠٢] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثنا أبو ثابت بنُ ثابت بن قيس بن شَمَّاس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شَمَّاس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، قال: قَعَد ثابت بنُ قيس في الطريق يبكي، قال: فَمرَّ به عاصمُ بن عديٍّ من بني العَجلان فقال: ما يُبكيك يا ثابتُ؟ قال: هذه الآية أتخوَّف أن تكونَ نَزَلَتْ فيّ وأنا صَيِّتٌ رَفِيعُ الصوتِ. قال: فَمضَى عاصم بن عَدِيٍّ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: وغلَبه البكاءُ، فأتى امرأتَه جَميلة ابنة عبدِ الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ فقال لها: إذا دخلتُ بيت فَرَسِي فَشُدِّي عَلَيَّ الضبَّة بمسمار، فَضَربَته بمسمارٍ حتى إذا خَرَج عَطَفه، وقال: لا أخرُج حتى يَتَوفَّاني الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ أو يرضَى عَنِّي

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/١٣٧ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم ١١٩ ح ١٨٧ و ١٨٨، وذكر سعد بن معاذ في هذا الحديث غريب. تفرد به حماد بن سلمة، وخالفه جماعة عند البخاري ومسلم فلم يذكروا فيه «سعد بن معاذ»؛ وحماد، وإن كان ثقة، فقد تغير حفظه بأَخَرَة، وقد وهم في أشياء. فحديثه هذا شاذ، والمحفوظ ما تقدم من عدم ذكر سعد، والله أعلم.

رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: وأتى عاصمٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأخبَرَه خَبَره، فقال: «اذهَب فادعُه لي». فجاء عاصم إلى المكان فلم يَجده، فجاء إلى أهله فوجَدَه في بيت الفَرَس، فقال له: إن رسول الله ـ ﷺ ـ يدعُوك. فقال: اكسِر الضبّة. قال: فخرجا، فأتيا النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما يبكيك يا ثابت؟» فقال: أنا صَيِّتٌ وأتخوَّف أن تكون هذه الآية نزلت فيَّ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾. فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «أما ترضى أن تَعيش حَميداً، وتُقتَلَ شهيداً وتدخُلَ الجنة؟». فقال: رَضِيتُ بِبُشرَى الله ورسولِه ـ ﷺ ـ، ولا أرفعُ صوتي أبداً على صوتِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ. قال: وأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾... الآية[1]. وقد ذكر هذه القصةَ غيرُ واحد من التابعين كذلك، فقد نَهى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عن رَفع الأصواتِ بِحَضرَةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ.

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سَمِع صَوتَ رجلين في مسجد النبي ـ ﷺ ـ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتَدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أينَ أنتما؟ قالا: من أهل الطائفِ. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضَرباً. وقال العلماء: يُكرَه رفعُ الصوتِ عند قَبره، كما كان يُكرَه في حياته، لأنه محترمٌ حيّاً وفي قبره صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً. ثم نهى عن الجَهر له بالقول كما يجهر الرجلُ لمخاطَبه ممن عَدَاه، بل يُخاطَب بسكينةٍ ووقارٍ وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وقولُه عز وجل: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: إنما نهيناكُم عن رَفع الصوتِ عنده خشيةَ أن يغضَب من ذلك، فيغضَب الله تعالىٰ لِغَضَبه، فَيُحبِط الله عملَ مَن أغضبه وهو لا يَدري.

[٦٢٠٣] كما جاء في الصحيح: «إن الرجلَ ليتكلَّم بالكَلِمةِ من رِضوَانِ الله لا يُلقي لها بالاً يَكتُب له بها الجنةَ. وَإنَّ الرجُل ليتكلَّم بالكلمةِ مِن سخطِ الله لا يُلقِي لها بالاً يهوِي بها في النار أبعدَ ما بين السموات والأرض»[2]. ثم نَدَب الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى خَفض الصوت عنده، وحَثَّ على ذلك وأرشد إليه وَرَغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: أخلَصَها لها وجَعَلها أهلاً وَمَحلاً، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمدُ في كتابِ الزهدِ: حدثنا عبد الرحمن، حَدَّثنا سفيانُ، عن منصورٍ، عن مجاهِدٍ قال: كُتِب إلى عمر: يا أميرَ المؤمِنينَ، رجلٌ لا يشتهي المعصيةَ ولا يعمل بها أفضلُ، أم رجلٌ يشتهي المعصية ولا يعمَلُ بها؟ فكتب عمر ـ رضي الله عنه ـ: إن الذين يشتَهُون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

ثُمَّ إنه تبارك وتعالى ذَمّ الذين يُنَادُونه من وَرَاءِ الحُجُرات، وهي بيوتُ نسائِهِ، كما يَصنَعُ أجلافُ الأعرابِ، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ثم أرشدَ تعالىٰ إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: لكان لهم في ذلك الخِيَرَةُ والمصلحةُ في الدُّنيا والآخرةِ. ثم قال

---

(١) أخرجه الطبري ٣١٦٦٩ وفيه أبو ثابت لم أجد له ترجمة لكن لأكثر هذا المتن شواهد.

(٢) تقدم في سورة النور آية ١٥.

جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقد ذُكِر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميميّ فيما أورَدَه غيرُ واحدٍ.

[٦٢٠٤] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفّان، حدثنا وُهَيب، حدثنا موسى بن عُقبَة، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، عن الأقرعِ بن حابسٍ: أنه نادى رسولَ الله ـ ﷺ ـ من وَرَاءِ الحُجُراتِ فقال: يا محمدُ ـ وفي رواية: يا رسولَ الله ـ فلم يُجبه. فقال: يا رسولَ الله، إنَّ حَمْدِي لَزَينٌ، وإن ذَمِّي لَشينٌ. فقال: «ذاكَ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ»(١).

[٦٢٠٥] وقال ابن جرير: حدثنا أبو عَمَّار الحسين بن حُرَيث المروزي، حدثنا الفضلُ بن موسى، عن الحُسَين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله فقال: يا محمد، إن حَمْدِي زينٌ وذَمِّي شينٌ. فقال: «ذاكَ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ»(٢). وهكذا ذكره الحسن البصري، وقتادة مرسلاً.

وقال سُفيان الثَّوري، عَن حَبِيبِ بن أبي عَمْرَة قال: كان بشر بن غالب ولَبِيد بن عُطَاردٍ ـ أو بِشرُ بنُ عُطَاردٍ ولبيدُ بن غالب ـ وهما عند الحجّاج جالسان ـ فقال بشرُ بن غالب لِلَبيد بن عُطَارد: نَزَلَت في قومِكَ بني تميم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾، قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جُبَير فقال: أما إنه لو عَلِم بآخر الآية أجابه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد.

[٦٢٠٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن عَلي الباهلي، حدثنا المعتمر بن سُلَيمان قال: سمعت داود الطُّفاوي يحدث عن أبي مُسلم البَجَليّ، عن زيد بن أرقَمَ قال: اجتمع أناسٌ من العَرَب فقالوا: انطَلِقُوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فَنحن أسعد الناس به، وإن يَكُ مَلِكاً نَعِشْ بجَنَاحه. قال: فأتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأخبرتُه بما قالوا، فجاؤوا إلى حُجرَته فجعلُوا يُنادُونه وهو في حُجرته: يا محمدُ، يا محمدُ. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾. قال: فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأذني فَمدّها فجعل يقول: «لقد صَدَقَ الله قولَكَ يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد»(٣). ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عَرَفَة، عن المُعتمر بن سليمان، به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يأمر تعالى بالتَّثبُّتِ في خبر الفاسق ليُحتَاطَ له، لئلا يحكم بقوله فيكون ـ في نفس الأمر ـ كاذباً أو

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/٤٨٨ و٦/٣٩٣ والطبري ٣١٦٧٩ والطبراني ٨٧٨ وإسناده على شرط البخاري ومسلم، وصرح أبو سلمة بالتحديث عن الأقرع. وكذا صححه السيوطي في «الدر» ٩/٨٨ وله شواهد.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٢٦٧ والنسائي في «التفسير» ٥٣٥ والطبري ٣١٦٧٦ و٣١٦٧٧ وإسناده حسن صحيح.

(٣) أخرجه الطبري ٣١٦٧٨ والطبراني ٥١٢٣ والواحدي في «أسباب النزول» ٧٥٧، ومداره على داود الطفاوي، وهو غير قوي، وحسنه السيوطي في «الدر» ٦/٨٨ ـ ٨٩.

مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه. وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قرَّرْتُ هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري، ولله تعالى الحمدُ والمنَّةُ. وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين أن هذه الآية نَزلت في الوليد بن عُقبةَ بن أبي مُعَيط، حينَ بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ على صَدَقاتِ بني المُصطَلِق. وقد رُوِي ذلك من طُرُق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها.

[٦٢٠٧] قال الإمام أحمد: حدثنا محمدُ بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سَمِع الحارث بنَ ضِرَارِ الخُزَاعِيّ يقول: قَدِمتُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فَدَعاني إلى الإسلام، فَدَخلتُ فيه وأقررتُ به. ودَعاني إلى الزكاة فأقررتُ بها، وقلت: يا رسولَ الله، أرجعُ إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداءِ الزكاةِ، فَمَن استجابَ لي جمعتُ زَكَاته. ويُرسِل إليّ رسولُ الله رسولاً لإِبّان كذا وكذا لِيأتِيَكَ ما جمَعتُ من الزكاة. فلما جمعَ الحارث الزكاةَ ممَّن استجابَ له، وبلغ الإِبّانُ الذي أراد رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يبعثَ إليه، احتبسَ عليه الرسولُ فلم يأتِهِ، فَظَنَّ الحارثُ أنه قد حَدَث فيه سَخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بِسَرَواتِ قومه فقال لهم: إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان وَقَّت لي وقتاً يُرسِلُ إليّ رسولَه لِيقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسولِ الله ـ ﷺ ـ الخُلْفُ، ولا أرى حَبْسَ رسولِه إلا من سَخْطَةٍ. فانطَلقُوا فَنَأتيَ رسول الله ـ ﷺ ـ وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ الوليد بنِ عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليدُ حتى بلغ بعضَ الطريق فَرِق ـ أي: خاف ـ فرجَع فأتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الحارث مَنَعني الزكاةَ وأراد قتلي. فَضرب رسول الله ـ ﷺ ـ البعثَ إلى الحارث، وأقبل الحارثُ بأصحابه حتى إذا استقبل البعثَ وفصل عن المدينةِ لَقِيَهم الحارث، فقالوا: هذا الحارثُ. فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بُعِثتم؟ قالوا: إليكَ. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث إليكَ الوليدَ بن عُقبَةَ، فزعم أنك منعتَه الزكاةَ وأردتَ قتلَه. قال: لا، والذي بعثَ محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مَنَعتَ الزكاةَ وأردتَ قَتْلَ رَسُولي؟» قال: لا، والذي بَعَثك بالحقِّ ما رأيتُه ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبَسَ عليّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ، خَشِيت أن يكونَ كانت سَخْطَةٌ من الله ورسولِه. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾[1]. ورواه ابن أبي حاتم عن المُنذر بن شاذانَ التمار، عن مُحمَّد بن سابق به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق به، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصوابُ: الحارثُ بن ضِرَارٍ، كما تقدم.

[٦٢٠٨] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جَعفرُ بن عَون، عن موسى بن عُبَيدَةَ، عن ثابت مولى أُمّ سلمة، عن أم سَلَمة قالت: بعثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ رَجُلاً في صَدَقات بني المُصطَلِق بعد الوَقْعَةِ فَسَمِع بذلك القومُ، فَتَلَقّوه يُعَظِّمون أَمْرَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، قالت: فَحَدَّثه الشيطانُ أنهم يُرِيدون قتله، قالت: فرجَعَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن بني المصطلق قد مَنَعُوا صَدَقاتِهم. فَغَضِبَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ والمسلمون، قالت: فبلغ القومَ رجوعُهُ فأتوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَصَفُّوا له حين صَلّى الظهر، فقالوا: نعوذُ بالله

(١) حسن. أخرجه أحمد ٤/٢٧٩ و٣/٤٨٨ والطبراني ٨٧٨ وقال الهيثمي ١١٣٥٢ رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال «الحارث بن سرار» بدل «ضرار» ورجال أحمد ثقات.

من سَخَط الله وسَخَط رسُوله، بعثتَ إلينا رَجُلاً مُصَدِّقاً فَسُرِرنا بذلك، وقَرّت به أعيُننا. ثم إنه رَجَع من بعضِ الطريق، فَخَشِينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالُوا يُكَلِّمونه حتى جاء بلالٌ فأَذَّن بصلاة العصر، قالت: ونزلَت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[١].

[٦٢٠٩] ورَوَى ابنُ جرير أيضاً من طريق العَوفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسُول الله ـ ﷺ ـ بعثَ الوليد بن عُقبَةَ بن أبي مُعَيطٍ إلى بني المُصطَلِق ليأخذَ منهم الصدقاتِ، وإنهم لما أتاهم الخَبرُ فَرِحُوا وخَرَجُوا يَتَلَقّون رسول رسول الله ـ ﷺ ـ وإنه لما حُدِّث الوليد أنهم خَرَجُوا يتلقَّونه رَجَع الوليدُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إن بني المُصطَلِق قد مَنعُوا الصدقَةَ. فَغَضِب رسولُ الله ـ ﷺ ـ من ذلك غضباً شديداً، فبينا هو يُحدِّث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفدُ فقالوا: يا رسولَ الله، إنا حُدِّثنا أنَّ رسولَكَ رَجَع من نِصْفِ الطريق، وإنا خَشِينا أن ما رَدّه كتابٌ جاء منك لِغَضَبِ غَضِبْتَهُ علينا، وإنا نَعوذُ بالله من غَضَبِه وغَضَبِ رَسُوله. وإنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ استغشّهم وهَمَّ بهم، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ عُذرَهم في الكتاب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ . . . إلى آخر الآية[٢].

[٦٢١٠] وقال مجاهدٌ وقتادةُ: أرسل رسولُ الله ﷺ الوليدَ بن عُقبَةَ إلى بني المُصطَلِق لِيُصَدِّقَهُم، فَتَلقَّوه بالصَّدَقَةِ، فرجع فقال: إن بني المُصطَلِق قد جَمَعت لك لِتُقاتِلَكَ ـ زاد قتادة: وإنهم قد ارتدُّوا عن الإسلام ـ فبعث رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد إليهم، وأمره أن يَتَثَبّت ولا يَعْجَلَ. فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فَبَعث عُيونَه، فلما جاؤوا أخبرُوا خالداً أنهم مُستَمْسِكُون بالإسلام، وسَمِعُوا أذانهم وصَلاتَهم، فلما أصبحُوا أتاهم خالدٌ فرأى الذي يُعجِبه، فرجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره الخبر، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآيَةَ. قال قتادةُ: فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «التَّبَيُّنُ من الله، والعَجَلةُ من الشيطان»[٣]. وكذا ذكر غيرُ واحد من السلف، منهم: ابنُ أبي ليلى، ويزيدَ بن رُومَانَ، والضَّحّاكُ، ومقاتِلُ بن حَيّانَ، وغيرهم في هذه الآية: أنّها نزلَت في الوليد بن عُقبَةَ، والله أعلم.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: اعلموا أن بين أظهُركم رسولَ الله فَعَظِّموه ووَقِّروه، وتأدّبوا معه، وانقادُوا لأمره، فإنه أعلَمُ بمصالحكم، وأشفَقُ عليكُم منكُم، ورأيه فيكُم أتمُّ من رأيكم لأنفسِكم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]. ثم بَيَّن أنَّ رأيَهُم سخيفٌ بالنسبة إلى مُراعَاةِ مصالحهم فقال: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى عَنَتِكم وحَرَجكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٧١﴾ [المؤمنون: ٧١]. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، أي: حَبّبه إلى نفوسكم وحَسَّنه في قُلوبكم.

[٦٢١١] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا بهزٌ، حَدَّثنا علي بن مسعَدَة، حدثنا قتادةُ، عن أَنَسٍ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «الإسلامُ علانِيَةٌ، والإيمانُ في القلب». قال: ثم يُشِير بِيَدِه إلى صَدْرِه ثلاث مرات، ثم

---

(١) أخرجه الطبري ٣١٦٨٥ وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف لكن يصلح للاعتبار به.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٦٨٦ وفيه عطية العوفي ضعيف، لكن لأصله شواهد.

(٣) أخرجه الطبري ٣١٦٨٧ عن مجاهد وكرره ٣١٦٨٨ عن قتادة وهذه المراسيل تقوي الروايات المتصلة، المتقدمة آنفاً. والله أعلم.

يقول ـ: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»[1]. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾، أي: وبَغَّضَ إليكم الكفر والفسوقَ ـ وهي: الذنوبُ الكِبَار، والعصيانُ وهي جميع المعاصي. وهذا تدريجٌ لكمال النعمة. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾، أي: المُتَّصِفُون بهذه الصفةِ هم الراشدُون الذين قد آتاهم الله رُشْدَهُم.

[٦٢١٢] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا مَرْوان بن مُعاوِيَةَ الفَزَارِيُّ، حدَّثنا عبد الواحد بن أَيمَنَ المكِّي، عن ابن رِفَاعَةَ الزُّرَقي، عن أبيه قال: لما كان يومُ أُحدٍ وانكفأ المشركون، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «استوُوا حتى أُثنيَ على ربِّي ـ عَزَّ وجَلَّ ـ». فصاروا خَلْفَه صفوفاً، فقال: «اللهُمَّ لك الحمد كلُّه، اللهُمَّ لا قابضَ لما بَسَطتَ، ولا باسِطَ لما قبضتَ، ولا هادِيَ لمن أَضْلَلتَ، ولا مُضِلَّ لمن هَدَيتَ. ولا مُعطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا مانِعَ لما أعطيتَ. ولا مُقرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُباعِدَ لما قَرَّبتَ. اللهُمَّ ابسُط علينا من بَرَكاتِكَ ورحمَتِكَ وفَضْلِك، ورزقِك. اللهُمَّ إني أسألكَ النعيم المُقِيم الذي لا يَحُولُ ولا يَزُول. اللهُمَّ إني أسألُكَ النعيمَ يوم العَيلة، والأمنَ يوم الخوف. اللهم، إني عائذ بك من شَرِّ ما أعطيتنا، ومن شَرِّ ما مَنَعتنا. اللهُمَّ حَبِّب إلينا الإيمانَ وَزَيِّنه في قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكُفرَ والفُسوقَ والعصيانَ، واجعلنا من الراشدينَ. اللهُمَّ توَفَّنا مُسلِمين وأحيِنا مُسلِمين، وألحِقنا بالصالحين، غير خَزَايا ولا مَفْتُونين. اللهُمَّ قاتِلِ الكفرَة الذي يُكَذِّبون رُسُلَك ويَصُدُّون عن سَبِيلِكَ، واجعل عليهم رِجزَك وعَذابك. اللهُمَّ قاتل الكفرَة الذين أُوتُوا الكِتَابَ، إلَهَ الحقِّ»[2]. ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَروان، بن معاوية، عن عبد الواحد بن أَيمَنَ، عن عُبَيد بن رفاعة، عن أبيه، به.

[٦٢١٣] وفي الحديثِ المرفُوعِ: «من سَرَّته حَسَنتُه وساءته سَيِّئتُه فهو مُؤمِنٌ»[3]. ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً بالإِصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعضٍ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ١٣٤ وابن حبان في «المجروحين» ٢/ ١١١ وأبو يعلى ٢٩٢٣ والبزار ٢٠ وابن عدي ٥/ ٢٠٧. ومداره على علي بن مسعدة، وهو مختلف فيه. قال الهيثمي في «المجمع» ١٦٠: وثقه ابن حبان، والطيالسي، وأبو حاتم، وابن معين. وضعفه آخرون اهـ قلت: وما نقله الهيثمي عن ابن حبان فيه نظر. فلم أجده عنده في «الثقات» بل ذكره في «المجروحين» وقال: كان ممن يخطىء، على قلة روايته، وينفرد بما لا يتابع عليه، فاستحق ترك الاحتجاج بما لا يوافق الثقات. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها غير محفوظة. وقال البخاري: فيه نظر اهـ وقال أبو داود: ضعيف. وقال النسائي: غير قوي. فالجمهور على توهينه، وأنه تفرد بهذا الحديث، وهو إلى الضعف أقرب، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٠٤٤٥ وأحمد ٣/ ٤٢٤ وإسناده لين، ابن رفاعة هو عبيد، ويقال عبيد الله، وثقه العجلي وابن حبان فقط.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٦٥ والنسائي ٣٤٣ وابن ماجة ٢٣٦٣ وأحمد ١/ ١٨ وابن حبان ٧٢٥٤ من حديث عمر بن الخطاب، وهو حديث صحيح.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾، فسمَّاهم مؤمنينَ مع الاقتتالِ. وبهذا استدلَّ البخاري وغيرُه على أنه لا يخرُج من الإيمان بالمعصيةِ وإن عَظُمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابَعهم من المعتزلة ونحوهم.

[٦٢١٤] وهكذا ثَبَت في صَحِيح البُخاري من حديث الحَسَنِ، عن أبي بَكْرَةَ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ خَطَب يوماً ومعه على المنبر الحسنُ بن علي، فَجَعل ينظُر إليه مرة وإلى الناسِ أُخرَى ويقول: «إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلحَ به بين فِئتين عَظِيمتَينِ من المُسلِمينَ»[١]. فكان كما قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أصلح الله تعالىٰ به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعاتِ المَهُولَةِ. وقولُهُ: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: حتى تَرجِعَ إلى أمر الله ورسوله وتَسْمَع للحقِّ وتُطِيعه.

[٦٢١٥] كما ثَبت في الصحيح عن أنس أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلتُ: يا رسولَ الله، هذا نصرتُه مظلوماً فكيف أنصرُه ظالماً؟ قال: «تمنَعُه من الظلم فذاك نصرُك إيّاه»[٢].

[٦٢١٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عارمٌ، حدثنا مُعتَمِرٌ قال: سَمِعتُ أبي يُحَدِّث أن أنساً قال: قيلَ للنبيِّ ـ ﷺ ـ: لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيٍّ؟ فانطَلَق إليه نَبيُّ الله ـ ﷺ ـ ورَكِب حماراً، وانطلقَ المسلمون يمشُونَ، وهي أرض سَبِخَةٌ، فلما انطلق إليه النبيُّ ـ ﷺ ـ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريحُ حِمارِك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمارُ رسولِ الله أطيبُ ريحاً منكَ. قال: فَغَضِبَ لعبدِ الله رجالٌ من قومه، فَغَضِب لكلِّ واحدٍ منهما أصحابُه، قال: فكان بينهم ضربٌ بالجَريد والأيدِي والنِّعالِ[٣]، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾. ورواه البخاريُّ في الصلح عن مُسَدَّدٍ، ومسلم في المغازي عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهُما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه.

وذكر سعيد بن جُبَير أن الأَوْسَ والخزرجَ كان بينهما قتالٌ بالسعَفِ والنعالِ، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآيةَ، فأمر بالصلح بينهما. وقال السديُّ: كان رجلٌ من الأنصار يقال له: عمران، كانت له امرأة تُدعَى أم زيد، وإنَّ المرأة أرادت أن تَزُورَ أهلَها فَحَبسها زوجُها وجَعلها في عُلِّيَّةٍ له لا يدخلُ عليها أحدٌ من أهلها. وإنَّ المرأة بَعَثت إلى أهلِها، فجاء قومُها وأنزلوها لِينطَلِقُوا بها، وإن الرجل قد كان خَرَج، فاستعان أهلُ الرجل، فجاء بنو عَمِّه لِيَحُولوا بين المرأة وبين أهلِها، فتدافعوا واجتلَدُوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية. فبعث إليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أَمْرِ الله تعالىٰ. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، أي: اعدِلُوا بينهم فيما كان أصابَ بعضُهم لبعض، بالقِسْطِ، وهو العَدْلُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾..

[٦٢١٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمي، حدثنا عبد الأعلى، عن معمرٍ، عن الزهريِّ، عن سعيد بن المُسيِّب، عن عبد الله بن عَمْرٍو أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ المُقسِطينَ في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يَدَيِ الرحمن، بما أقسَطُوا في الدنيا»[٤]. وَرَواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به. وهذا إسنادٌ جيِّدٌ قويٌّ، رجالُه على شَرْطِ الصَّحيح.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٠٤ وأبو داود ٤٦٦٢ والنسائي ٢٥١ وأحمد ٥/ ٤٤ وابن حبان ٦٩٦٤.

(٢) تقدم في سورة المائدة آية ٢.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٩١ ومسلم ١٧٩٩ وأحمد ٣/ ١٥٧، ٢١٩ وأبو يعلىٰ ٤٠٨٣.

(٤) أخرجه النسائي ٥٩١٧ ـ ٣/ ٤٦٠ وإسناده صحيح.

[٦٢١٨] وَحَدَّثنا محمد بن عبد الله بن يَزِيدَ، حدثنا سُفيان بن عُيَينة، عن عَمرو بن دينار، عن عَمرو بن أَوْسٍ، عن عبد الله بن عَمرو، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «المُقسِطُون عند الله يوم القيامة على مَنابِرَ من نُورٍ على يمين العرش، الذين يَعدِلُون في حُكمِهم وأهاليهم وما وَلُوا»(١). رَوَاه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عُيَينة، به. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أي: الجميع إخوة في الدين.

[٦٢١٩] كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يُسلِمُه»(٢).

[٦٢٢٠] وفي الصحيح: «والله في عَون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(٣).

[٦٢٢١] وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظَهر الغَيبِ قال الملك: آمين، ولك بمثله»(٤). والأحاديث في هذا كثيرة.

[٦٢٢٢] وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحُمهم وتواصُلِهم كمثل الجَسَد الواحِد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجَسَد بالحُمَّى والسَّهَرِ»(٥).

[٦٢٢٣] وفي الصحيح أيضاً: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيان يَشُدُّ بعضُه بعضاً». وشَبَّك بينَ أصابعِهِ(٦).

[٦٢٢٤] وقال أحمد: حدثنا أحمدُ بن الحجاج، حدثنا عبدُ الله، أخبرنا مُصعَبُ بن ثابت، حدثني أبو حازِم قال: سَمِعتُ سهلَ بن سعدٍ الساعدي يُحدِّثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ المؤمن من أهلِ الإيمانِ بمنزلة الرأسِ من الجَسَد، يألَمُ المؤمنُ لأهلِ الإيمان كما يألم الجَسَد لما في الرأس»(٧). تفَرَّد به أحمد، ولا بأس بإسنادِهِ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، يعني الفِئتَين المُقتتِلتَين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: في جَميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيقٌ منه تعالى للرحمةِ لمن اتَّقاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝١١﴾

ينهَى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارُهم والاستهزاءُ بهم.

[٦٢٢٥] كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْصُ الناس ـ ويُروَى: وغَمطُ الناس»(٨). والمرادُ من ذلك احتقارُهم واستصغارُهم، وهذا حَرامٌ، فإنه قد يكون المُحتقَر أعظَمَ قدراً عند الله تعالىٰ وأحبَّ إليه من الساخر منه المُحتقِرِ له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، فَنصَّ على نَهيِ الرجال، وعَطَف

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٢٧ والنسائي في «الكبرى» ٦/ ٣٠٠ وأحمد ٢/ ١٥٩، ٢٠٣ وابن حبان ٤٤٨٥.

(٢) تقدم في سورة الإسراء آية ٥٣، وهو في الصحيح.

(٣) تقدم تخريجه، وهو في الصحيح.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٣٢ و٢٧٣٣ وأبو داود ١٥٣٤، من حديث أبي الدرداء.

(٥) متفق عليه، وتقدم في سورة الفتح: ٢٩.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٦ ومسلم ٢٥٨٥ والترمذي ١٩٢٨ وأحمد ٤/ ٤٠٥ من حديث أبي بردة.

(٧) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠ وإسناده حسن في الشواهد.

(٨) تقدم تخريجه في سورة البقرة آية ٦١ وسورة آل عمران آية ٢٢.

بِنَهْي النساءِ. وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا تَلمِزُوا الناس. والهمّاز اللمّاز من الرجال مذمومٌ ملعونٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهمزة: ١] فالهَمْزُ بالفعل، واللَّمْزُ بالقول، كما قال عز وجل: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ⑪﴾ [القلم: ١١]، أي: يَحْتقِرُ الناسَ ويَهْمِزُهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللمزُ بالمقال، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا يقتل بعضُكم بعضاً. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، وقتادةُ، ومقاتلُ بن حيان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا يطعن بعضُكم على بعض. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، أي: لا تَتَداعَوا بالألقاب، وهي التي يَسُوء الشخص سماعُها.

[٦٢٢٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيل، حدثنا داودُ بن أبي هِندٍ، عن الشعبيِّ: حَدَّثني أبو جَبِيرَةَ بن الضحّاك قال: فينا نزلت في بني سَلِمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، قال: قَدِم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينةَ وليس فينا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحدٌ منهم باسم من تلك الأسماءِ قالوا: يا رسولَ الله، إنه يَغضَبُ من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾(١). ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وُهَيب، عن دَاود، به. وقولُهُ جل وعلا: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾، أي: بئس الصفةُ والاسم الفسوقُ وهو التنابزُ بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعَتُون، بعد ما دخلتم في الإسلام وعَقَلتُموه. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾، أي: من هذا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ⑫﴾

يقولُ تعالى ناهياً عبادَه المؤمنين عن كثير من الظنِّ، وهو التهمَة والتخوُّن للأهل والأقارب والناسِ في غير مَحَلِّه، لأن بعضَ ذلك يكونُ إثماً محضاً، فَلْيجتنَب كثيرٌ منه احتياطاً.

وروينا عن أمير المُؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ولا تَظُنَّنَّ بكلمةٍ خَرَجت من أخيك المُسلِم إلا خيراً، وأنت تَجدُ لها في الخير مَحملاً.

[٦٢٢٧] وقال أبو عبد الله بنُ ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضَمْرة نصرُ بن محمد بن سُلَيمان الحِمْصِيُّ، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي قيس النَّصْرِي، حدثنا عبد الله بن عُمَر قال: رأيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ يطوفُ بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيبَ ريحَكِ! ما أعظمَكِ وأعظَم حُرمَتَكِ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لَحُرمة المؤمن أعظمُ عند الله حُرمَةً منك، مالِه ودمِه، وأن تَظُنَّ به إلا خَيراً»(٢). تَفرّد به ابنُ ماجه من هذا الوجه.

[٦٢٢٨] وقال مالكٌ، عن أبي الزّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إيّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تَحسَّسُوا ولا تَجسَّسُوا ولا تنافسُوا ولا تَحاسدُوا ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً»(٣). رَواه البخاريُّ عن عبد الله بن يُوسُفَ، ومسلمٌ عن يحيى بن يحيى، وأبو داودَ عن القَعْنَبِيِّ، ثلاثتُهم عن مالك، به.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩٦٢ وأحمد ٤/ ٢٦٠ والترمذي ٣٢٦٨ والبخاري في «الأدب المفرد» ٣٣٠ وإسناده على شرط الصحيح، لكن اختلف في صحبة أبي جبيرة، ووصله أحمد ٥/ ٣٨٠ وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٩٣٢ وإسناده ضعيف، نصر ضعيف الحديث، وأبوه شبه مجهول.

(٣) متفق عليه، وتقدم في النساء: ١٢.

[٦٢٢٩] وقال سفيانُ بن عُيَيْنَة، عن الزهريّ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تقاطَعُوا ولا تدابَرُوا ولا تباغَضُوا ولا تحاسَدُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يَحلُّ للمسلمِ أن يَهجُر أخاه فوقَ ثلاثةِ أيام»[(١)]. رواه مسلمٌ والتِّرمذي ـ وصَحَّحه ـ من حديث سُفيان بن عُيَيْنَةَ، به.

[٦٢٣٠] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله القُرمطي العَدَوِيّ، حدثنا بكر بن عبد الوهّاب المَدَني، حدثنا إسماعيلُ بن قَيسٍ الأنصاريُّ، حَدَّثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرِّجال، عن أبيه، عن جَدِّه حارثةَ بن النعمانِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثٌ لازماتٌ لأُمّتي: الطِّيرة، والحَسَدُ، وسوءُ الظن». فقال رجلٌ: ما يُذهِبُهنَّ يا رسولَ الله ممن هُنَّ فيه؟ قال: «إذا حَسَدْتَ فاستغفِرِ الله، وإذا ظَنَنتَ فلا تَحقَّقْ، وإذا تَطَيّرت فَامضِ»[(٢)].

[٦٢٣١] وقال أبو داود: حَدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبَةَ، حدثنا أبو مُعَاوية، عن الأعمش، عن زيدٍ قال: أُتي ابنُ مسعودٍ فقيل: هذا فلان تَقطِر لحيتُه خَمراً. فقال عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسُّس، ولكن إن يظهَرْ لنا شيءٌ نَأخُذْ به[(٣)]. سَمَّاه ابنُ أبي حاتم في روايَتِه الوليدَ بن عُقْبَةَ بن أبي مُعَيط.

[٦٢٣٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم، حدثنا ليثٌ، عن إبراهيم بن نَشِيطٍ الخَوْلاني، عن كعب بن عَلْقَمةَ، عن أبي الهَيثم، عن دُخَين كاتب عُقْبَةَ قال: قلت لعقبة: إنَّ لنا جيراناً يَشرَبُون الخمرَ، وأنا داعٍ لهم الشُّرَطَ فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عِظهُم وتهدَّدْهُم. قال: فَفعل فلم يَنتهُوا. قال: فجاءه دُخَين فقال: إني قد نهيتُهم فلم ينتهُوا، وإني داعٍ لهم الشُّرَطَ فَتأخُذهم. فقال له عُقبَةُ: وَيحَكَ لا تفعَلْ! فإني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «مَن سَتَر عورَةَ مؤمنٍ فكأنما استحيا مَوءودَةً من قَبْرِها»[(٤)]. ورواه أبو داود والنسائي من حديثِ الليثِ بن سَعْدٍ، به نحوَه.

[٦٢٣٣] وقال سُفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاويةَ قال: سَمِعتُ النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إنك إن اتبعت عَوْرَاتِ الناس أفسدتَهُم، أو: كِدْتَ أن تُفسِدَهم». فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سَمِعها معاويةُ من رسول الله ـ ﷺ ـ نَفَعه الله بها[(٥)]. رواه أبو داودَ منفرداً به من حديث الثَّورِيِّ، به.

[٦٢٣٤] وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عَمْرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، حدثنا ضمضمُ بن زُرعَةَ، عن شريح بن عُبَيد، عن جُبَير بن نُفَير، وكُثَيِّر بن مُرّة، وعَمرو بن الأسود، والمقدام بن مَعدِ يكرب، وأبي أمامة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الأميرَ إذا ابتغى الرِّيبة في الناسِ أفسدهم»[(٦)]. ﴿وَلَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٦٥ ومسلم ٢٥٥٩ (٢٣) والترمذي ١٩٣٥ والطيالسي ٢٠٩١٠ وعبد الرزاق ٢٠٢٢٢ وأحمد ٣/ ١١٠ و١٦٥ و١٩٩ وابن حبان ٥٦٦٠.

(٢) أخرجه الطبراني ٣٧٢٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٤٦: فيه إسماعيل بن قيس، ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٩٠ وإسناده على شرط البخاري ومسلم، زيد هو ابن وهب.

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٧٥٨ وأبو داود ٤٨٩١ وأحمد ٤/ ١٥٣ وابن حبان ٥١٧، وهو حديث مختلف فيه؛ صححه الشيخ شعيب في «الإحسان»، وذكره الألباني في «الضعيفة» ١٢٦٥، والجزم بضعفه فيه نظر؛ والأشبه أنه حديث حسن أو يقرب من الحسن، والله أعلم.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٨٨٨ وإسناده حسن، راشد فيه كلام لكنه ثقة.

(٦) حسن. أخرجه أبو داود ٤٨٨٩ وإسناده لين، جبير بن نفير، وابن مرة، وابن الأسود، من التابعين. حديثهم مرسل. وأما المقدام وأبو أمامة فصحابيان. فحديثهما موصول. وسعيد بن عمرو، مقبول لكن توبع في «المستدرك» ٤/ ٣٧٨، وابن عياش، صدوق في روايته عن أهل بلده ـ الشامين ـ وهذا منها، ومن فوقه ثقات. فحديثه هذا حسن إن شاء الله.

تَجَسَّسُوا﴾، أي: على بعضِكم بعضاً. والتجسُّس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسُوس. وأما التحسُّس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يُستعمَلُ كل منهما في الشرّ.

[٦٢٣٥] كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تجسَّسُوا ولا تحسَّسُوا ولا تباغضُوا ولا تدابَرُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً»(١). وقال الأوزاعي: التجسُّسُ: البحثُ عن الشيء. والتحسس: الاستماعُ إلى حديثِ القوم وهُم له كارِهُون، أو يَتَسمَّعُ على أبوابهم. والتدابُر: الصَّرْمُ. رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نَهيٌ عن الغِيبة، وقد فسَّرها الشارعُ.

[٦٢٣٦] كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القعنبيُّ، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العَلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قيل: يا رسولَ الله، ما الغِيبةُ؟ قال: «ذِكرُك أخاكَ بما يكرَهُ». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»(٢). ورواه الترمذي عن قُتَيبة، عن الدَّراوَرْدِيّ، به. وقال: «حسنٌ صحيحٌ». ورواه ابنُ جرير عن بُندارٍ، عن غُنْدَر، عن شُعبَةَ، عن العَلاءِ. وهكذا قال ابنُ عُمَر، ومسروقٌ، وقتادةُ، وأبو إسحاقَ، ومعاوية بن قُرَّةَ.

[٦٢٣٧] وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأَقمَرِ، عن أبي حُذَيفة، عن عائشةَ قالت: قلت للنبيّ - ﷺ - حَسْبُكَ من صَفِيّةَ كذا وكذا! - قال غير مُسَدَّد: تعني قَصِيرةً - فقال: «لقد قلتِ كَلِمَةً لو مُزِجت بماء البحرِ لَمَزَجَتْه». قالت: وحَكَيتُ له إنساناً فقال - ﷺ -: «ما أُحِبُّ أني حكيتُ إنساناً وإنَّ لي كذا وكذا»(٣). ورواه الترمذيُّ من حديث يحيى القَطّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِي، ووكيعٍ، ثلاثتُهم عن سُفيانَ الثوريّ، عن علي بن الأقمر، عن أبي حُذَيفة سَلَمَة بن صُهَيبة الأَرْحَبي، عن عائشةَ، به. وقال: «حسنٌ صحيحٌ».

[٦٢٣٨] وقال ابنُ جرير: حدثني ابن أبي الشوارب، حدثنا عبدُ الواحد بن زياد، حدثنا سُلَيمان الشيباني، حدثنا حَسّان بنُ المُخارِق أنَّ امرأةً دخلَت على عائشةَ فلما قامت لتخرجَ أشارَت عائشةُ بِيَدِها إلى النبيّ - ﷺ - أي: أنها قَصِيرةٌ - فقال النبي - ﷺ - «اغتبتيها»(٤). والغِيبَةُ محرَّمة بالإجماع، ولا يُستثنَى من ذلك إلا ما رَجَحت مصلحتُه، كما في الجرَح والتَّعديل والنَّصِيحة. كقوله - عليه السلام - لما استأذن عليه ذلك الرجلُ الفاجرُ:

[٦٢٣٩] «ائذَنُوا له، بِئْسَ أَخُو العَشِيرة»(٥).

[٦٢٤٠] وكَقَولِه ﷺ لفاطمَة بنتِ قَيسٍ وقد خَطَبها معاويةُ وأبو الجَهْم: «أما مُعَاويةُ فصُعلوكٌ، وأما أبو الجَهمِ فلا يَضَع عَصَاه عن عَاتِقِه»(٦). وكذا ما جَرَى مجرى ذلك، ثم بَقِيَّتُها على التحريم الشديد، وقد وَرَد

---

(١) تقدم تخريجه قبل خمسة أحاديث.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٤ والترمذي ١٩٣٤ وأحمد ٢/ ٣٨٤ و٣٨٦، ورجاله رجال مسلم، لكن عبد العزيز فيه لين، ولكن لحديثه شواهد، وتوبع عند الطبري ٣١٧٤١.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٥ والترمذي ٢٥٠٢ وإسناده على شرط مسلم.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٧٤٩ وفيه حسان بن مخارق الشيباني، وقد وثقه ابن حبان وحده، ولم يدرك عائشة.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٥٤ و٦١٣١ ومسلم ٢٥٩١ (٧٣) وأبو داود ٤٧٩١ والترمذي ١٩٩٦٠ وأحمد ٦/ ٣٨ وابن حبان ٤٥٣٨ من حديث عائشة.

(٦) متفق عليه، وتقدم.

فيها الزجر الأكيدُ، ولهذا شَبَّهها تبارك وتعالى بأكْلِ اللّحم من الإنسان الميّت، كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أي: كما تكرَهُون هذا طبعاً، فاكرَهُوا ذاك شرعاً؛ فإنَّ عُقُوبَته أشدُّ من هذا. وهذا من التنفير عنها والتحذِير منها.

[٦٢٤١] كما قال ـ عليه السلام ـ في العائِدِ في هِبَتِه: «كالكَلْبِ يَقِيءُ ثم يَرْجِع في قَيْئِه»، وقد قال: «ليس لنا مثلُ السّوء»[١].

[٦٢٤٢] وثَبَت في الصِّحاح والحِسَان والمسانيد من غير وجه أنه ـ عليه السلام ـ قال في خطبة حَجَّةِ الوداع: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[٢].

[٦٢٤٣] وقال أبو داودَ: حدثنا واصلُ بن عبد الأعلى، حدثنا أَسباطُ بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلَمَ، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ المسلِم عن المسلِم حَرَامٌ، مالُه وعرضُه وَدمُه، حَسْبُ امرىءٍ من الشرّ أن يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ»[٣]. ورواه الترمذي عن عُبَيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به. وقال: «حَسَنٌ غَرِيبٌ».

[٦٢٤٤] وحدثنا عثمان بن أبي شَيبة، حدثنا الأسودُ بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عَيَّاش، عن الأعمش، عن سَعِيد بن عبد الله بن جُرَيج، عن أبي بَرْزَةَ الأسلمي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا معشَرَ من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَه، لا تغتابوا المسلمين ولا تَتَّبِعوا عَوراتِهم، فإنه من يَتَّبع عوراتِهم يَتَّبع الله عورَتَه، ومن يَتَّبع الله عورَتَه يفضَحْه في بيته»[٤]. تفرد به أبو داود.

[٦٢٤٥] وقد رُوي من حديث البراء بن عازب. فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مُصعَبُ بن سلام، عن حَمزَة بن حبيب الزيات، عن أبي إسحاق السَّبيعي، عن البراء بن عازب قال: خَطَبنَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى أسمعَ العَوَاتق في بيوتها ـ أو قال: في خُدُورها ـ فقال: «يا مَعْشَر مَن آمن بِلسانِهِ، لا تغتابُوا المسلمين ولا تَتَّبِعوا عَوْرَاتهم؛ فإنه من يَتَّبع عورةَ أخِيه يَتَّبع الله عَوْرَته، ومن يَتَّبع الله عورَته يَفْضَحْه في جَوْفِ بيته»[٥].

[٦٢٤٦] طريق أخرى عن ابن عُمَر، قال أبو بكر أحمدُ بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحُسَين بن واقد، عن أوفى بن دَلْهَم، عن نافع، عن ابن عُمَر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يا معشرَ مَن آمَنَ بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابُوا المسلمين ولا تَتَّبِعوا عَوْرَاتِهم، فإنه من يَتَّبع عورات المسلمين يَتَّبع الله عَوْرَته، ومَن يَتَّبع الله عَوْرَته يَفْضَحْه ولو في جَوْفِ رَحْلِهِ». قال: ونظر ابنُ عُمَر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمَكِ وأعظمَ حُرمتك، ولَلْمؤمن أعظمُ حرمةً عندَ الله مِنْكِ[٦].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٢٢ من حديث ابن عباس، وعجزه، هو صدر الحديث.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٦٤ (٣٢) وأبو داود ٤٨٨٢ والترمذي ١٩٢٧.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٤٨٨٠ وإسناده حسن، وله شواهد.

(٥) جيد. أخرجه أبو يعلى ١٦٧٥ وأبو نعيم في «الدلائل» ٣٥٦ وإسناده قوي في الشواهد.

(٦) جيد. أخرجه الترمذي ٢٠٣٢ وابن حبان ٥٧٦٣ وإسناده حسن لأجل أوفى بن دلهم، وله شواهد.

[٦٢٤٧] قال أبو داود: وحدثنا حيوةُ بن شُرَيح، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن ثَوبان، عن أبيه، عن مكحولٍ، عن وَقَّاصِ بنِ ربيعةَ، عن المُستَورِدِ أنه حَدَّثه: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن أَكَل برجلٍ مُسلم أَكلَةً فإن الله يُطعِمُه مثلها في جَهَنَّم، ومَن كُسِيَ ثوباً بِرَجلٍ مُسلِم فإن الله يكسُوه مثلَه في جَهَنَّم. ومَن قام بِرَجُلٍ مقام سُمعَةٍ ورياءٍ فإنَّ الله يقُوم به مقامَ سُمعَةٍ ورِيَاءٍ يوم القِيامة»(١). تفرد به أبو داود.

[٦٢٤٨] وحدَّثنا ابن مُصَفَّى، حدثنا بقيَّةُ وأبو المغيرة: حَدَّثنا صفوانُ، حدثني راشدُ بن سعد وعبد الرحمن بن جُبَير، عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما عُرِج بي مَرَرْتُ بقوم لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يَخمِشُون وُجوهَهُم وصُدورَهم، قلت: مَن هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكُلُون لحومَ الناس، ويَقعُون في أعراضهم»(٢). تفرَّد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي. به.

[٦٢٤٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العَمِّي، حدثنا أبو هارون العَبْدِيّ، عن أبي سعيد الخُدري قال: قلنا يا رسولَ الله، حدِّثنا ما رأيتَ ليلةَ أسريَ بك؟ قال: «ثم انطُلِق بي إلى خَلْقٍ من خَلْقِ الله كثير، رجالٍ ونساءٍ مُوَكَّل بهم رجالٌ يَعمِدُون إلى عُرْض جَنب أحدهم فَيَحذُون منه الحُذْوَةَ مثل النَّعلِ ثم يَضعُونها في فِيّ أَحَدِهم، فيقال له: كُل كما أَكَلتَ، وهو يَجدُ من أَكلِه الموتَ ـ يا محمد ـ لو يَجدُ الموت، وهو يُكرَه عليه. فقلت: يا جِبْرِيل، مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمَّازون اللمَّازون أصحابُ النَّمِيمةِ. فَيُقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وهو يُكْرَه على أَكْلِ لَحْمِه»(٣). هكذا أورد هذا الحديث، وقد سُقناه بطوله في أول تفسير سورة سبحان ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

[٦٢٥٠] وقال أبو داود الطيالسي في مُسنَده: حدثنا الربيعُ، عن يزيد عن أنس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أمر الناسَ أن يصومُوا يوماً ولا يُفطِرَنَّ أحدٌ حتى آذن له. فَصَام الناسُ، فلما أمسَوا جعل الرجلُ يجيء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فيقول: ظَلِلتُ منذُ اليوم صائماً، فائذن لي فأفطر. فيأذنُ له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسولَ الله، إن فتاتين من أهلِك ظَلَّتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فَلْيُفطِرا. فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما صامتا، وكيف صامَ مَن ظلَّ يأكُل لحومَ الناس؟ اذهب فَمُرهما إن كانت صائمتَين أن يَستَقِيئا». ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقةً فأتى النبي ـ ﷺ ـ فأخبره، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار»(٤). إسنادٌ ضَعِيفٌ، ومَتنٌ غريبٌ.

[٦٢٥١] وقد رواه الحافظُ البيهقيُّ من حديث يزيدَ بن هارون: حدثنا سُليمان التيمي قال: سَمِعتُ رجلاً

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨١ وفيه بقية بن الوليد، مدلس، وقد عنعن، فالإسناد ضعيف لكن للحديث شواهد انظر «الصحيحة» ٩٣٤.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٨ وأحمد ٣/ ٢٢٤ وإسناده صحيح على شرط مسلم، وله شواهد.

(٣) في إسناده أبو هارون واسمه عمارة بن جوين، وهو ضعيف لكن الحديث في مقام الترهيب. وفي الباب أحاديث كما ترى، والله أعلم.

(٤) أخرجه الطيالسي ٢١٠٧ وابن أبي الدنيا في «الصمت» ١٧٠ وفي «ذم الغيبة» ٣١ وإسناده ضعيف لضعف يزيد ابن أبان الرقاشي.

يُحدِّث في مجلس أبي عُثمانَ النَّهدي عن عُبَيد ـ مولى رسول الله ـ أن امرأتَين صامتًا على عَهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ وأن رجلاً أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إن هاهنا امرأتَين صامَتًا. وإنهما كادتا تَموتان من العَطَشِ قال: فأعرَضَ عنه أو سكت، ثم عاد. قال ـ أُرَاهُ قال: بالهاجرة ـ. فقال: يا نبيَّ الله، إنهما ـ والله ـ قد ماتَتًا أو كادتا تَموتان. فقال: «ادعهما». فجاءتا، قال: فَجِيءَ بقَدَحٍ ـ أو عُسّ ـ فقال لإحداهما: «قِيئي». فقاءَت من قَيحٍ ودَمٍ وصَدِيدٍ، حتى قاءَت نصفَ القَدَح ثم قال للأخرى: «قيئي». فقاءت قيحاً ودماً وصديداً ولحماً ودماً عَبيطاً وغيره حتى ملأت القَدَح. فقال: «إن هاتَين صامتا عَمَّا أحلَّ الله لهما، وأفطَرَتا على ما حَرَّم الله عليهما، جَلَست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس»[1]. وهكذا رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي، كلاهما عن سليمان بن طِرخان التيمي، به مثله أو نحوه.

[٦٢٥٢] ثم رواه أيضاً من حديث مُسَدَّدٍ، عن يحيى القطان، عن عُثمانَ بن غِياثٍ، حدثني رجل أَظُنُّه في حَلْقَةِ أبي عثمان، عن سعدٍ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ: أنهم أُمِروا بصيام، فجاء رجلٌ في نصفِ النهار فقال يا رسولَ الله: فلانةٌ وفلانةٌ قد بَلَغتا الجَهد. فأعرضَ عنه مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «ادعهما». فجاء بعُس[2] ـ أو: قَدَح ـ فقال لإحداهما: «قِيئِي» فقاءت لَحماً ودَماً عَبيطاً وقَيحاً، وقال للأخرى مثلَ ذلك، ثم قال: «إنَّ هاتَين صَامَتَا عما أَحَلَّ الله لهما، وأفطرتا على ما حَرَّم الله عليهما، أتت إحداهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحومَ الناس حتى امتلأت أجوافُهما قيحاً»[3]. قال البيهقي: كذا قال عن سعد، والأول ـ وهو عبيد ـ أصحّ.

[٦٢٥٣] وقال الحافظ أبو يعلَىٰ: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مخلد، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير عن ابن عَمّ لأبي هُرَيرة، [عن أبي هريرة][4] أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إني قد زَنَيتُ. فأعرضَ عنه، حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة قال: «زنيتَ؟» قال: نعم. قال: «وتَدْرِي ما الزنا؟» قال: نَعَم، أتيتُ منها حَراماً ما يأتي الرجلُ من امرأته حلالاً. قال: «ما تُريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تُطَهِّرني. قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أدخلتَ ذلك منكَ في ذلك منها كما يَغِيب المِيلُ في المُكْحُلة والرِّشاء في البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر بِرَجْمِهِ فَرُجِم، فسمع النبي ـ ﷺ ـ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تَرَ إلى هذا الذي سَتَر الله عليه فلم تَدَعْهُ نفسه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب. فسار النبي ـ ﷺ ـ ثُمَّ مَرَّ بجيفة حمار فقال: «أين فلانٌ وفلانٌ؟ انزلا فَكُلا من جيفة هَذا الحِمار». قالا: غَفَر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟! قال: «فلما نِلتُما من أخيكما آنفا أَشدُّ أَكْلاً منه، والذي نَفسي بيده إنه الآن لَفِي أنهارِ الجَنَّة ينغمس فيها»[5]. إسناد صحيح.

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ٤٣١ وأبو يعلى ١٥٧٦ والأصبهاني في «الترغيب» ٢٢١١ والبيهقي في «الدلائل» ٦/ ١٨٦ وإسناده ضعيف. فيه راوٍ لم يسمّ.

(٢) العُسّ: القدح العظيم.

(٣) ضعيف. أخرجه البيهقي ٦/ ١٨٦ وفيه راوٍ لم يسم أيضاً. وقد أخطأ الراوي فقال عن «سعد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم» بدل «عبيد». وأياً كان فالإسناد ضعيف، والمتن غريب. والله أعلم.

(٤) سقط من كافة النسخ، والاستدراك من مسند أبي يعلى.

(٥) إسناده ضعيف لجهالة ابن عم أبي هريرة وبهذا الإسناد أخرجه أبو داود ٤٤٢٩ والبيهقي ٨/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨ عن ابن عم أبي هريرة عن أبي هريرة به. وأخرجه عبد الرزاق ١٣٣٤٠ وأبو داود ٤٤٢٨ وابن الجارود ٨١٤ والدارقطني ٣/ ١٩٦ ـ ١٩٧ وابن حبان ٤٣٩٩ و ٤٤٠٠ والبيهقي ٨/ ٢٢٧، عن أبي الزبير عن عبد الرحمن بن الصامت عن أبي هريرة. وعبد الرحمن هذا يقال له: ابن هضاض، وابن هضاب. وهو غير مشهور وثقه ابن حبان وحده، وقال الحافظ في التقريب: =

[٦٢٥٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الصَّمد، حدثني أبي، حدثنا واصل ـ مولى ابن عُيَينة ـ حدثني خالد بن عُرفُطَةَ، عن طلحةَ بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كُنَّا مع النبي ـ ﷺ ـ فارتفعت ريحُ جيفةٍ مُنتِنَةٍ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أتدرُون ما هَذِه الريحُ؟ هذه ريحُ الذين يَغتابُونَ النَّاسَ»(١).

[٦٢٥٥] طَرِيقٌ أُخرَى، قال عَبْدُ بن حُمَيدٍ في مُسنَدِهِ: حدثنا إبراهيمُ بن الأشعث، حدثنا الفُضَيل بن عياض، عن سليمان، عن أبي سفيان ـ وهو طلحة بن نافع ـ عن جَابر قال: كُنَّا مع النبيِّ ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ فهاجَت ريحٌ مُنتِنة، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ نفراً من المنافقين اغتابُوا ناساً من المُسلِمينَ، فلذلك بُعِثت هذه الريحُ». وربما قال: «فلذلك هاجَت هذه الريحُ»(٢).

[٦٢٥٦] وقال السديُّ في قوله تعالىٰ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ زَعَم أن سَلْمان الفارسي كان مع رجلين من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ يخدُمهما ويَخِفُّ لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان نائماً لم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه فلم يَجِداه، فضربا الخباء فقالا: ما يُريد سلمان ـ أو: هذا العبد ـ شيئاً غيرَ هذا: أن يجيء إلى طعام مقدُورٍ، وخِباءٍ مضروبٍ! فلما جاء سَلْمان أرسلاه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يطلب لهما إداماً، فانطلقَ فأتى رسولَ الله ومعه قَدَح له، فقال: يا رسولَ الله، بعثني أصحابي لِتؤدمهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنَعُ أصحابَك بالأُدْمِ؟ قد ائتدموا». فرجَع سلمان يُخبرهما بقولِ رسول الله ـ ﷺ ـ فانطلقا حتى أتيا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقالا: لا، والذي بعثك بالحقِّ ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا. قال: «إنكما قد ائتدمتُما بسلمانَ بقولكما». قال: ونزلت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ إنه كان نائماً(٣).

[٦٢٥٧] وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العربُ تخدُم بعضُها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعُمَر رجل يخدُمهما، فناما فاستيقظا ولـم يُهيِّىء لهما طعاماً، فقالا: إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا له: ائتِ رسولَ الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يُقرِئانك السلام، ويَستأدِمانكَ. فقال: «إنهما قد ائتدما». فجاءا فقالا: يا رسولَ اللهِ، بأيِّ شيءٍ ائتدمنا؟ فقال: «بِلَحْمِ أخيكما، والذي نَفسِي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفِرْ لنا يا رسولَ الله. فقال: «مُرَاه فلْيَستَغفِرْ لكما»(٤).

---

= مقبول. وقال الذهبي في الميزان: لا يعرف من هو. وقال عنه البخاري: لا يعرف إلا بهذا الحديث. وقال النباتي في «ذيل الكامل» من لا يعرف إلا بحديث واحد، ولم يشتهر حاله، فهو في عداد المجهولين. والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الجيفة فالإسناد ضعيف، مداره على عبد الرحمن ابن عم أبي هريرة، وهو مجهول، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥١ والبخاري في «الأدب المفرد» ٧٣٢ وابن أبي الدنيا في «الصمت» ٢١٦ وإسناده ضعيف، عرفطة وثقه ابن حبان وحده، وطلحة فيه لين، وقال علي المديني وشعبة: لم يسمع من جابر سوىٰ أربعة أحاديث، قلت: وتلك الأحاديث الأربعة أخرجها البخاري في «الصحيح» وليس هذا منها.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» ١٠٢٨ والبخاري في «الأدب المفرد» ٧٣٣ وهو معلول كسابقه، والمتن غريب.

(٣) هذا معضل. أسنده ابن أبي حاتم كما في «الدر» ٦/ ١٠٢ عن السدي. وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» ٤/ ٣٧٤: ذكره الثعلبي بدون إسناد، ولا راوٍ. وورد عن ابن أبي ليلى نحوه اهـ. فالخبر ضعيف حيث لم يرو بإسناد متصل.

(٤) لم يسق المصنف إسناده بتمامه. وحبان فمن فوقه ثقات كلهم، فلينظر فيما دون حبان، فإن المتن غريب بل هو باطل في حق أبي بكر وعمر، ثم إن قول الإنسان لمخدومه «النؤوم» ليس بغيبة، وقد صح عنه ﷺ أنه قال ذلك لحذيفة وغيره. وقد ورد نحو هذا في حق رجل لم يسمَّ، وليس في حق أبي بكر وعمر. وهذا أخرجه أبو يعلى ٦١٥١ والطبراني في =

[٦٢٥٨] وقال الحافظ أبو يعلَى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن أكل من لحم أخيه في الدنيا قُرِّب له لحمهُ في الآخرة، فيقال له: كله مَيْتاً كما أكلته حياً ـ قال ـ فيأكله ويَكْلَح ويَصيح»(١). غريب جداً.

وقولُه عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبُوه في ذلك واخشَوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: توَّابٌ على من تاب إليه، رحيمٌ بمن رَجَع إليه، واعتَمَد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريقُ المغتاب للناس في توبته أن يُقلِعَ عن ذلك، ويعزِمَ على ألا يعودَ. وهل يُشترَط الندمُ على ما فات؟ فيه نزاعٌ، وأن يتحلَّل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يُشترَط أن يَتحلَّله فإنه إذا أعلَمه بذلك رُبما تأذَّى أشدَّ مما إذا لم يعلَم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يُثنيَ عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمُّه فيها، وأن يَرُدَّ عنه الغيبةَ بِحَسبِهِ وطاقته، فتكون تلك بتلك.

[٦٢٥٩] كما قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بنُ أيُّوب، عن عبد الله بن سليمان: أن إسماعيل بن يحيى المَعَافِريَّ أخبره أن سَهْل بن معاذ بن أنس الجُهَني أخبره، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن حَمَى مؤمناً من منافق يَعيبه بعثَ الله مَلَكاً يحمِي لحمَه يوم القيامة من نار جَهنَّم. ومن رَمَى مؤمناً بشيءٍ يُريد شَيْنَه حَبَسه الله على جِسْرِ جَهنَّم حتى يخرج مما قال»(٢). وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله ـ وهو ابن المبارك ـ به بنحوه.

[٦٢٦٠] وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاقُ بن الصباح، حدثنا ابنُ أبي مَريم، أخبرنا الليثُ: حدثني يحيى بن سُلَيم أنه سَمِع إسماعيل بن بَشِير يقول: سَمِعتُ جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سَهل الأنصاري يَقُولان: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن امرىءٍ يخذُل امرأً مسلماً في موضع تُنتَهك فيه حُرمَتُه ويُنتَقص فيه من عِرْضه إلاَّ خَذَله الله في مواطن يحب فيها نصرته. وما من امرىءٍ ينصر امرأً مسلماً في موضعٍ يُنتقص فيه من عِرْضِه، ويُنتَهكُ فيه من حُرمَتِهِ إلا نَصَره الله في مواطن يحب فيها نصرته»(٣). تفرد به أبو داودَ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً للناس أنه خَلَقهم من نفسٍ واحدةٍ، وجَعَل منها زوجَها، وهما آدمُ وحوَّاء، وجعلهم شُعوباً وهي أعمُّ من القبائل، وبعدَ القبائل مراتبُ أُخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذِ، وغير ذلك. وقيل: المراد بالشعوب بطونُ العجم، وبالقبائل بطونُ العرب، كما أن الأسباطَ بطونُ بني إسرائيل. وقد

---

= «الأوسط» ٤٦١ من حديث أبي هريرة، وفيه محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف جداً قاله في «المجمع» ١٣١٤٤. وورد من حديث ابن مسعود أخرجه الطبراني ١٠٠٩٢ وقال في «المجمع» ١٣١٤٥: رجاله رجال الصحيح اهـ والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣١٢٩ وقال الهيثمي: فيه ابن إسحق مدلس، ومن لم أعرفه اهـ ولعله في «المسند الكبير» لأبي يعلى. حيث لم أجده في الصغير، ولا عزاه له الهيثمي.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٨٨٣ وأحمد ٣/ ٤٤١ وإسناده ضعيف، سهل بن معاذ ضعفه ابن معين، وضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» ٢/ ٢٠٦، ولعجزه شواهد راجع «الترغيب» ٤١٩٠ ـ ٤١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨٨٤ وأحمد ٤/ ٣٠ وابن أبي الدنيا في «الصمت» ١/ ٢٤٠ وإسناده ضعيف لجهالة إسماعيل بن بشير، وهو في ضعيف أبي داود ١٠٤٠.

لَخصت هذا في مُقدِّمة مفردة جمعتها من كتاب «الإنباه» لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب «القَصْدَ والأَمَم في مَعرِفة أنسابِ العربِ والعَجَم». فجميعُ الناس في الشرف بالنِّسبة الطينية إلى آدَمَ وحَوَّاء سواءٌ، وإنما يتفاضلُون بالأمور الدِّينية، وهي طاعة الله ومتابعةُ رسولِه - ﷺ - ولهذا قال تعالى بعد النَّهي عن الغيبَةِ واحتقار بعضِ الناس بعضاً، مُنبِّهاً على تساويهم في البشرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾. أي: ليحصُل التعارفُ بينهم، كلٌّ يرجع إلى قَبيلته. وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، كما يقال: فلانُ ابن فلان من كذا وكذا. أي: من قبيلةِ كذا وكذا. وقال سُفيان الثَّوري: كانت حِمْيرُ ينتسبون إلى مَخَالِيفها وكانت عَرَبُ الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

[٦٢٦١] وقد قال أبو عيسى الترمذيُّ: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك بن عيسى الثَّقَفِي، عن يزيد - مولى المُنبَعِثِ - عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي - ﷺ - قال: «تَعلَّموا من أنسابكم ما تَصلون به أرحامَكُم؛ فإنَّ صِلَةَ الرحم مَحبَّةٌ في الأهل، مَثرَاةٌ في المال، مَنسَأةٌ في الأثَرِ»[١] ثم قال: «غريب، لا نَعرِفه إلا من هذا الوجه».

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، أي: إنما تتفاضَلُون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب. وقد وَرَدت الأحاديثُ بذلك عن رسولِ الله - ﷺ -.

[٦٢٦٢] قال البخاري - رَحِمه الله -: حدثنا محمد بن سَلَام، حدثنا عَبْدَة، عن عُبَيد الله، عن سَعِيد بن أبي سعيد، عن أبي هُرَيرة قال: سُئِل رسول الله - ﷺ -: أيُّ الناسِ أكرمُ؟ قال: «أكرمُهم عند الله أتقاهُم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرمُ الناس يوسف نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابن نبي الله، ابنُ خليلِ الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك!. قال: «فَعَن معادِنِ العربِ تَسألُوني»؟ قالوا: نعم! قال: «فخيارُكم في الجاهلية خيارُكم في الإِسلام إذا فَقِهُوا»[٢]. وقد رواه البُخاريُّ في غير مَوضِعٍ من طرق عن عَبْدَة بن سليمان. ورواه النسائيُّ في التفسير من حديث عُبَيد الله - وهو ابن عُمر العُمَري - به.

[٦٢٦٣] حديث آخر، قال مسلم - رحمه الله -: حدثنا عَمرو الناقد، حدثنا كَثير بن هشام، حدثنا جعفر بن بُرْقان، عن يزيد بن الأصَمّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٣]. ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كَثير بن هشام، به.

[٦٢٦٤] حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، عن أبي هِلال، عن بكر، عن أبي ذَرٍّ قال: إن النبيَّ - ﷺ - قال له: «انظُر، فإنك لستَ بخيرٍ من أحمَرَ ولا أسوَدَ إلا أن تَفضُلَه بتقوَى الله»[٤]. تفرد به أحمد.

---

(١) أخرجه الترمذي ١٩٧٩ ورجاله ثقات معروفون سوى عبد الملك بن عيسى، فإنه مقبول كما في التقريب. ولعجزه شواهد كثيرة، وانظر «الصحيحة» ٢٧٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٣.

(٣) تقدم في سورة الحج، آية: ٣٧.

(٤) أخرجه أحمد ٥/١٥٨، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٧٨: رجاله ثقات إلا أن بكر بن عبد الله المزني، لم يسمع من أبي ذر اهـ فالإسناد ضعيف. لكن له شاهد من حديث أبي سعيد أخرجه البزار ٢٠٤٤ و ٣٥٨٣ وقال الهيثمي ١٣٠٧٩: رجال البزار رجال الصحيح اهـ، وفي الباب أحاديث.

[٦٢٦٥] حديثٌ آخرُ، قال الحافظُ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عُبَيدة عبد الوارثِ بن إبراهيمَ العَسْكَرِيُّ، حدثنا عبد الرحمن بن عَمرو بن جَبَلة، حدثنا عُبَيد بن حُنَين الطائي، سَمعت محمد بن حَبِيب بن خِرَاش العَصَرِيَّ يُحدِّث عن أبيه: أنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «المسلمون إخوةٌ، لا فَضْلَ لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى»(١).

[٦٢٦٦] حديث آخر، قال أبو بكر البزّار في مُسْنَده: حدثنا أحمد بن يحيى الكُوفي، حدثنا الحسن بن الحُسَين، حدثنا قيس ـ يعني ابن الربيع ـ عن شَبِيب بن غَرْقَدَة، عن المُستَظِلِّ بن حُصَين، عن حُذَيفةَ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّكم بنو آدم وآدم خُلِق من تُراب، ولَيَنْتَهِيَنّ قوم يَفخرون بآبائهم أو لَيَكُونُنّ أهونَ على الله من الجِعْلان»(٢). ثم قال: لا نَعرِفُه عن حُذَيفة إلا من هذا الوَجه.

[٦٢٦٧] حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سُلَيمان، حدثنا أَسَدُ بن موسى، حدثنا يحيى بن زَكَريا لفظاً، حدثنا موسى بن عُبَيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر قال: طافَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومَ فتحِ مَكّة على ناقتِه القَصواء يستلم الأركان بِمِحْجَنٍ في يده، فما وجد لها مُناخاً في المسجِد حتى نَزَل ـ ﷺ ـ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المَسِيلِ فأُنِيخَت. ثم إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ خَطَبهم على راحِلَتِه، فَحَمِدَ الله وأثنى عليه بما هو له أهلٌ، ثم قال: «يا أيها الناسُ، إن الله أذهبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وَتَعَظُّمها بآبائها، فالناس رجلان: رجلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كريم على الله. وفاجرٌ شقِيٌّ هَيِّن على الله، إن الله يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾. ـ ثم قال ـ: أقول قولي هذا وأستغفِرُ الله لي ولكم»(٣). هكذا رَواه عَبْدُ بن حُمَيد، عن أبي عاصم الضحاكِ بن مَخْلَدٍ، عن مُوسى بن عُبَيدة، به.

[٦٢٦٨] حديثٌ آخر، قال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، عن الحارث بن يَزيدَ، عن عَليِّ بن رَبَاح عن عُقبَةَ بن عامِرٍ أَنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنّ أنسابكُم هذه ليسَتْ بِمَسَبَّةٍ على أحدٍ، كلّكُم بنو آدمَ طَفُّ الصاعَ لم تَمْلَؤُوه، ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلا بدينٍ وتقوَى، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيئاً بخيلاً فاحشاً»(٤).

[٦٢٦٩] وقد رواهُ ابنُ جرير، عن يونس، عن ابن وَهب، عن ابن لَهيعة، به. ولفظه: «الناسُ لآدم وحَوّاءَ، طَفُّ الصاع لم يَمْلَؤُوه، إنّ الله لا يسألكُم عن أحسابكُم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إنّ أكرمكُم عندَ الله أتقاكُم»(٥). وليس هو في شيء من الكتب الستّةِ من هذا الوَجْهِ.

[٦٢٧٠] حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريكٌ، عن سِمَاكٍ، عن عبد الله بن عَمِيرة زوج دُرّة ابنة أبي لهب، عن دُرّة بنت أبي لهب قالت: قام رجلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ وهو على

(١) إسناده ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ٣٥٤٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٨٠: عبد الرحمن بن عمرو، متروك اهـ وكذبه غير واحد، وقال الحافظ في «الإصابة» ٢/ ١٨: هذا إسناد متروك اهـ.

(٢) أخرجه البزار ٢٠٤٣ و ٣٥٨٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٨٩: فيه الحسن بن الحسين العرني، وهو ضعيف اهـ لكن للحديث شواهد كثيرة. والجعل: حيوان كالخنفساء.

(٣) فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد يتأيد بها إن شاء الله.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٥ والطبراني ١٧/ ٢٩٥ وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف لكن للحديث شواهد.

(٥) أخرجه الطبري ٣١٧٧٢ وإسناده كسابقه.

المنبر فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ فقال ـ ﷺ ـ: «خيرُ الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله ـ عزّ وجلّ ـ، وآمَرُهم بالمعروفِ، وأنهاهُم عن المنكر، وأوصلُهم للرحم»[(١)].

[٦٢٧١] حديثٌ آخرَ، قال الإمامُ أحمد: حدثنا حسنٌ، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا أبو الأسودِ، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجَبَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ شيءٌ من الدنيا، ولا أعجَبه أحدٌ قطُّ، إلاّ ذو تُقىً[(٢)]. تفرد به أحمدُ رحمه الله.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عَليمٌ بكم، خَبيرٌ بأموركم، فَيهدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء، ويرحَمُ مَن يشاء، ويُعذِّب من يشاء، ويُفَضِّل مَن يشاء على مَن يشاء، وهو الحكيمُ العليمُ الخبيرُ في ذلك كلِّه. وقد استدلَّ بهذه الآيةِ الكريمةِ وهذه الأحاديثِ الشريفةِ مَن ذهب مِن العُلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يُشترَط سوى الدين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وذهَب الآخرونَ إلى أدِلَّةٍ أخرى مذكورةٍ في كتب الفقه، وقد ذكرنا طَرَفاً من ذلك في «كتاب الأحكام»، ولله الحمدُ والمنَّةُ. وقد رَوَى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سَمِع رَجُلاً من بني هاشم يقول: أنا أولى الناس برسُولِ الله. فقال: غيرُك أولى به منك، ولك منه نَسَبُه.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقولُ تعالى منكراً على الأعراب الذين أوَّل ما دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفُسِهم مقام الإيمان، ولم يتمكّن الإيمان في قُلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استُفِيد من هذه الآية الكريمة أنَّ الإيمان أخصُّ من الإسلام، كما هو مذهبُ أهل السنةِ والجماعةِ، ويدلُّ عليه حديث جبريل ـ عليه السلام ـ حسن سَأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان. فَترقّى من الأعمّ إلى الأخص، ثم للأخصّ منه.

[٦٢٧٢] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن الزهريِّ، عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص، عن أبيه قال: أعطى رسولُ الله ـ ﷺ ـ رِجَالاً ولم يُعطِ رَجلاً منهم شيئاً، فقال سعدٌ: يا رسولَ الله، أعطيتَ فلاناً وفلاناً ولم تُعطِ فلاناً شيئاً، وهو مُؤمِنٌ؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «أو مسلمٌ» ـ حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ـ ﷺ ـ يقول: أو مسلمٌ ـ ثم قال النبي ـ ﷺ ـ: «إني لأُعطِي رجالاً وأدع مَن هو أحبُّ إليَّ

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤٣٢ وإسناده لين، شريك ساء حفظه لما تولى القضاء، وسماك فيه كلام.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٦٩ وأبو يعلى ٤٥٥٢ من حديث عائشة، وفيه ابن لهيعة، وقد ضعفه الجمهور. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٨١: هو لين، وبقيه رجاله ثقات.

منهم فلا أعطيه شيئاً مخافة أن يكبّوا في النار على وُجوهِهِم»(١). أخرجاه في الصحيحَين من حَدِيث الزهريّ، به. فقد فرّق النبي ـ ﷺ ـ بين المُسلِم والمؤمن فَدَلّ على أن الإيمانَ أخصُّ من الإسلام. وقد قرّرنا ذلك بأدلته في أول شَرْح كِتاب الإيمانِ من صحيح البخاريّ ولله الحمدُ والمنّةُ. وَدَلّ ذلك على أنّ ذاك الرجلَ كان مُسلِماً ليس منافقاً، لأنه تركه من العطاء ووكَلَه إلى ما هُو فيه من الإسلام، فَدَلّ هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مُسلِمون لم يستحكِم الإيمانُ في قُلوبهم، فادّعوا لأنفسِهم مقاماً أعلَى مما وصلُوا إليه، فَأُدّبوا في ذلك. وهذا معنى قولِ ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقتادةَ، واختاره ابن جرير. وإنما قُلنا هذا لأن البخاريّ ـ رحمه الله ـ ذهب إلى أن هؤلاء كانُوا منافقين يُظهِرونَ الإيمان وليسُوا كذلك. وقد رُوِي عن سعيد بن جُبَير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، أي: استسلمنا خوفَ القتلِ والسِّباءِ. قال مجاهد: نَزَلت في بني أسدِ بن خُزَيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنُّوا بإيمانهم على رسول الله ـ ﷺ ـ.

والصحيحُ الأول أنهم قومٌ ادّعَوا لأنفُسهم مقام الإيمان، ولم يحصُلْ لهم بعد، فَأُدّبوا وأُعلِمُوا أن ذلك لم يَصِلُوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لَعُنّفُوا وفُضِحُوا، كما ذُكِرَ المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، أي: لم تَصِلُوا إلى حقيقةِ الإيمانِ بعدُ. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾، أي: لا ينقُصْكم من أُجوركم ﴿شَيْـًٔا﴾، كقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكُمّلُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، أي: لم يَشكُوا ولا تَزَلزَلُوا بل ثَبَتُوا على حالٍ واحدةٍ، وهي التصديقُ المحضُ، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وبَذَلُوا مُهَجهم ونفائس أموالِهم في طاعةِ الله ورِضوانِهِ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، أي: في قولِهم إذا قالوا: إنّهم مُؤمِنُون، لا كبعضِ الأعرابِ الذين ليس مَعَهم من الدِّين إلا الكلمة الظاهرةُ.

[٦٢٧٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيلان، حدثنا رِشدينُ، حدثني عَمرو بن الحارث، عن أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعِيد قال: إن النبي ـ ﷺ ـ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسُوله ثم لم يرتابوا وجاهَدُوا بأموالهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله، والذي يأمنه الناسُ على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرَفَ على طَمَع تركه لله ـ عَزَّ وجَلّ ـ»(٢) وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، أي أتخبرُونه بما في ضمائركم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفَى عليه من مثقالِ ذَرّةٍ في الأرضِ ولا في السماء، ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.
ثم قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾، يعني الأعراب الذين يَمنُّون بإسلامهم ومُتابعتهم ونُصرتهم على الرسول ﷺ، يقولُ الله تعالىٰ راداً عليهم: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾، فإنّ نَفعَ ذلك إنما يعودُ عليكم، ولله المنّةُ عليكُم فيه، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. أي: في دَعْوَاكم ذلك.

[٦٢٧٤] كما قال النبي ـ ﷺ ـ للأنصار يوم حُنَين: «يا معشَرَ الأنصار، ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكُم الله

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧ ومسلم ١٥٠ وأبو داود ٤٦٨٣ والنسائي ٨/ ١٠٣ و١٠٤ وأحمد ١/ ١٦٧.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٨ ح ١٠٦٦٦ وإسناده ضعيف، له علتان: الأولى رشدين بن سعد، وهو متروك. ودراج ضعيف وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم، وهذا منها.

بي؟ وكنتم مُتفرقين فألَّفكم الله بي؟ وعَالَةً فأغناكم الله بي؟»[1]. كُلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسولُه أَمَنُّ.

[٦٢٧٥] وقال الحافظُ أبو بكر البَزّار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجَوْهَرِيُّ، حدثنا يحيى بن سَعِيدٍ الأُمَوِيُّ، عن مُحمَّد بن قيس، عن أبي عَون، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبّاس قال: جاءت بَنُو أسدٍ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العربُ، ولم نُقاتِلك. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ فِقهَهم قليلٌ، وإن الشيطان يَنطِقُ على ألسنتهم». ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ ثم قال: لا نعلَمُه يُروَى إلا من هذا الوَجْهِ[2]، ولا نعلَمُ رَوَى أبو عون محمد بن عُبَيد الله، عن سعيد بن جُبَير، غير هذا الحديث. ثم كرَّر الإخبار بِعِلْمِه بجميعِ الكائنات، وبَصَرِه بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

## آخر تفسير سورة الحجرات، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) تقدم في سورة الأنفال آية ٦٣.

(٢) إسناده حسن، رجاله ثقات، وأخرجه النسائي في «التفسير» ٥٣٩ من طريق آخر، وفيه عطاء بن السائب يصلح للاعتبار به، وله شواهد انظر تفسير الشوكاني عند هذه الآية بتخريجي.

ترتيبها ٥٠ — سُورَةُ قٓ — آياتها ٤٥

# وَهِيَ مكيَّةٌ

هذه السورةُ هي أوّلُ الحزب المُفصَّل على الصحيح، وقيل: من الحُجُرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من (عَمّ)، فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماءِ المُعتَبَرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورةَ هي أول المفصَّل ما رواه أبو داود في سُنَنه، باب تحزيب القرآن ثم قال:

[٦٢٧٦]حدثنا مُسَدَّد، حدثنا قُرّان بن تمام (ح) ـ وحدثنا عبد الله بن سَعيد أبو سعيد الأشجُ، حدثنا أبو خالد سليمان بن حَيَّانَ ـ وهذا لفظُه ـ عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يَعْلَى، عن عثمانَ بنِ عبد الله بن أوسٍ، عن جده ـ قال عبد الله بن سعيد في حَدِيثِهِ ـ: أوس بن حُذَيفة ـ ثم اتفقا قال: قَدِمنا على رسول الله ـ ﷺ ـ في وَفْدِ ثَقِيفٍ، قال: فنزلت الأحلافُ على المُغيرة بن شعبة، وأنزلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بني مالك في قُبَّةٍ له. قال مُسَدَّدٌ: ـ وكان في الوفد الذين قَدِموا على رسول الله ـ ﷺ ـ من ثقيف ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ كلَّ ليلةٍ يأتينا بعد العشاء يُحَدِّثنا ـ قال أبو سعيد: قائماً على رجليه حتى يُرَاوحَ بين رجليه من طُول القيام، فأكثرُ ما يُحدِّثنا ما لَقِي من قومه قُرَيش، ثم يقول: «لا سَوَاء وكنا مُستضعَفين مستذلين ـ قال مُسَدَّد: بمكَّةَ ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سِجَالُ الحرب بيننا وبينهم، نُدَال عليهم ويدالون علينا». فلما كانت ليلة أبطأ علينا عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأتَ علينا الليلة! قال: «إنه طَرأ عليّ حِزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أُتِمَّه». قال أوس: سألتُ أصحابَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ: كيف تحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاثٌ، وخمسٌ، وسبعٌ، وتسعٌ، وإحدى عشرةَ، وثلاثَ عشرةَ، وحزبُ المفصل وحدَه[١]. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن يعلى، الطائفي به. إذا عُلِم هذا فإذا عَدَدتَ ثمانياً وأربعين سورةً فالتي بعدهُنَّ سورة ق. بيانه: ثلاثٌ: البقرةُ، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدةُ، والأنعامُ، والأعرافُ، والأنفالُ، وبراءةُ. وسبعٌ: يونسُ، وهودٌ، ويوسفُ، والرعدُ، وإبراهيمُ، والحِجْرُ، والنحلُ. وتسعٌ: سبحانَ، والكهفُ، ومريَمُ، وطه، والأنبياءُ، والحجُّ، والمؤمنونَ، والنورُ، والفرقانُ. وإحدى عشرةَ: الشعراءُ، والنملُ، والقصَصُ، والعنكبوتُ، والرومُ، ولقمانُ، وآلم السجدة، والأحزابُ، وسَبَأ، وفاطر، ويس. وثلاثَ عشرةَ: الصافاتُ، وص، والزمرَ، وغافرُ، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرفُ، والدخانُ، والجاثيةُ، والأحقافُ، والقتالُ، والفتحُ، والحُجُرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصَّلُ كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة ق وهو الذي قُلناه، ولله الحمدُ والمنّة.

---

(١) أخرجه أبو داود ١٣٩٣ وابن ماجه ١٣٤٥ وأحمد ٤/ ٣٤٣، وإسناده لين، عبد الله بن عبد الرحمن ضعفه قوم ووثقه آخرون، وعثمان وثقه ابن حبان وحده، وروى عنه غير واحد، وقال الحافظ في «التقريب»: مقبول. والحديث في «ضعيف أبي داود» ٢٩٧.

[٦٢٧٧] قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي، حدثنا مالك، عن ضَمْرَة بن سعيد، عن عُبَيد الله بن عبد الله: أن عُمَر بن الخطاب سأل أبا واقد اللَّيثيّ: ما كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربَتْ[١]. وَرَواه مسلم، وأهلُ السنَن الأربعة، من حديث مالك به. وفي رواية لمسلم، عن فُلَيح عن ضَمْرَة، عن عُبَيد الله، عن أبي واقد قال: سألني عُمَر، فذكره.

[٦٢٧٨] حديثٌ آخرُ، وقال أحمد: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرَارة، عن أمّ هشام بنتِ حارثةَ قالت: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور النبي ـ ﷺ ـ واحداً سنتين، أو سنةً وبعضَ سنة، وما أخذتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ إلا على لسانِ رسول الله ـ ﷺ ـ، كان يقرؤها كلَّ يوم جُمُعةٍ على المنبر إذا خَطَب الناس[٢]. رواه مسلم أيضاً من حديث ابن إسحاق، به.

[٦٢٧٩] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن خُبَيبٍ، عن عبد الله بن محمد بن مَعْن، عن ابنة الحارثِ بن النعمان قالت: ما حَفظت (ق) إلا من فِيّ رسولِ الله ـ ﷺ ـ يخطُب بها كُلّ جُمُعةٍ. قال: وكان تَنُّورنا وتَنُّورُ رسول الله ـ ﷺ ـ واحداً[٣]. وكذا رواه مسلم، والنسائيُّ، وابن ماجه، من حديثِ شعبة، به. والقصدُ أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ بهذه السورةِ في المجامع الكبار، كالعيد والجُمَع، لاشتمالها على ابتداء الخَلْق والبَعْثِ والنشُور، والمعادِ والقيامِ، والحسابِ، والجنَّةِ والنارِ، والثوابِ والعقابِ، والتَّرغيب والتَّرهيب؛ والله أعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء التي تقدم ذكرها في أوائِل السوَرِ، كقوله: ﴿صٓ ـ نٓ ـ الٓمٓ ـ حمٓ ـ طسٓ﴾ ونحو ذلك، قاله مجاهدٌ وغيرهُ. وقد أسلفنا الكلامَ عليها، في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادتِهِ. وقد رُوي عن بعضِ السلَفِ أنهم قالوا ﴿قٓ﴾: جَبَلٌ محيطٌ بجميع الأرض، يقال له: قاف. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خُرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس، لِما رأى من جَواز الرواية عنهم فيما لا يُصدَّق ولا يُكذَّب. وعندي أن هذا وأمثالَه وأشباهه من اختِلاق بعض زنادقتهم، يُلْبِسون به على الناس أَمْر دِينهم، كما افترى في هذه الأمةِ ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديثَ عن النبي ـ ﷺ ـ وما بالعهد من قِدَم، فكيف بأُمَّةِ بني إسرائيل مع طُول المدى، وقِلّة الحُفّاظ النقّاد فيهم، وشُربهم الخمور، وتحريفِ عُلَمائهم الكَلِم عن مواضعه، وتَبديل كُتُبِ الله وآياتِه!

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٨٩١ وأبو داود ١١٥٤ والترمذي ٥٣٤ والنسائي ٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤ وابن ماجه ١٢٨٢ وأحمد ٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨ وابن حبان ٢٨٢٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٧٣ ح ٥٢ وأحمد ٦/ ٤٣٦.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٨٧٣ ح ١ وأبو داود ١١٠٠ والنسائي في «التفسير» ٥٤٠ وأحمد ٦/ ٤٣٥.

[٦٢٨٠] وإنما أباحَ الشارع الروايةَ عنهم في قوله: «وحَدِّثوا عن بني إسرائيل، ولا حَرَج»[١]، فيما قد يُجَوِّزه العقل، فَأَمَّا فيما تُحيله العقول ويُحكم عليه بالبطلان، ويَغْلِب على الظنون كَذِبه، فليس من هذا القَبيلِ، والله أعلم.

وقد أكثر كثيرٌ من السلَف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخَلَف، من الحكاية عن كُتُب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمدُ والمنَّة، حتى إن الإمام أبا مُحمَّد عبدَ الرحمن بن أبي حاتم الرازيَّ ـ رحمه الله ـ أوردَ هاهنا أثراً غريباً لا يصح سندُه عن ابن عباس فقال: حَدَّثنا أبي قال: حُدِّثت عن محمد بن إسماعيل المخزومي: حدثنا ليث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خَلَق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها، ثم خَلَق من وراء ذلك البحر جَبَلاً يقال له: (قاف) السماء الدنيا مرفُوفةٌ عليه. ثم خلق الله تعالىٰ من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبعَ مَرَّاتٍ. ثم خَلَق من وراءِ ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جَبَلاً يقال له: (قاف) السماء الثانية مَرْفوفة عليه، حتى عَدَّ سبعَ أرضين، وسبعةَ أبحرٍ، وسبعةَ أجبُلٍ، وسبعَ سَمٰوات. قال: وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]. فإسنادُ هذا الأثر فيه انقطاعٌ، والذي رواه ابنُ أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿قٓ﴾ قال: هو اسمٌ من أسماء الله، عز وجل. والذي ثبت عن مجاهد: أنه حرفٌ من حُروفِ الهجاء، كقوله تعالىٰ: ﴿صٓ ـ نٓ ـ حمٓ ـ طسٓ ـ الٓمٓ﴾ونحو ذلك. فهذه تُبعِد ما تقدَّم ع ابن عباس. وقيل: المراد قُضِيَ الأمر والله، وأن قوله جل ثناؤه: ﴿قٓ﴾ دَلَّت على المحذُوفِ من بقية الكلم كقول الشاعر:

قلت لها: قفي فقالت قاف

وفي هذا التفسير نظرٌ؛ لأن الحذفَ في الكلام إنما يكون إذا دلَّ دليلٌ عليه، ومِن أين يُفهَمُ هذا من ذِكرِ هذا الحرفِ؟ وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، أي: الكريم العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾. واختلفوا في جَوابِ القَسَم ما هو؟ فحكى ابنُ جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾. وفي هذا نظرٌ، بل الجوابُ هو مضمونُ الكلام بعد القسم، وهو إثباتُ النبوَّة، وإثباتُ المَعادِ، وتقريرُه وتحقيقهُ وإن لم يكن القسم مُتلقًّى لفظاً، وهذا كثيرٌ في أقسام القرآن كما تقدَّم في قوله: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهكذا قال هاهنا: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: تعجبوا من إرسالِ رَسُولٍ إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، أي: وليس هذا بعجيبٍ، فإن الله يَصطفِي من الملائكة رسلاً ومِن الناس. ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تَعَجُّبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوُقوعه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾؟ أي يقولون: أئِذا مِتنا وبَلِينا وتَقَطَّعت الأوصالُ منا وصرنا تُراباً، كيف يُمكِن الرجوعُ بعد ذلك إلى هذه البِنْيَةِ والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي: بعيدُ الوقوعِ، ومعنى هذا أنهم يَعتقِدُون استحالته وعدَم إمكانه، قال الله تعالى رَاداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: ما تأكلُ من أجسادهم في البِلى، نعلَم ذلك ولا يخفَى علينا أين تفرَّقت الأبدان، وأينَ ذهبت، وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، أي: حافظ لذلك، فالعلمُ شاملٌ، والكتابُ أيضاً فيه كلُّ الأشياءِ مَضبُوطةٌ. قال العَوفي، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾،

(١) تقدم في سورة الأعراف آية ١٩٠.

أي: ما تأكل من لُحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادةُ، والضحّاك، وغيرهم، ثم بيَّن تبارك وتعالى سببَ كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ⑤﴾، أي: وهذا حالُ كلِّ مَن خَرج عن الحقِّ، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريجُ: المُختلِف المُضطرِب المُلتبِسَ المُنكرُ خِلالُه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ⑧ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨ ـ ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ⑪﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً للعبادِ على قُدرتِهِ العظيمةِ التي أظهَرَ بها ما هو أعظَمُ مما تَعجَّبُوا مُستبعِدين لوقُوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾، أي: بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ ـ قال مجاهد: يعني من شُقوقٍ. وقال غيره: فُتوق. وقال غيره: صُدوع. والمعنى متقارب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤]، أي: كَليل، أي: عن أن يَرى عيباً أو نقصاً. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، أي: وسَّعناها وفرَشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، وهي: الجبالُ، لئلا تَميدَ بأهلها وتضطربَ، فإنها مُقرَّةٌ على تيَّارِ الماءِ المحيطِ بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من جَميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ④⑨﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حسن المنظر ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾ أي: ومشاهدةُ خلْق السمواتِ وما جُعِل فيهما من الآيات العظيمة تبصرةٌ ودلالةٌ وذكرى لكل عبد مُنيب، أي: خاضع خائفٍ وَجِلٍ رَجّاع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾، أي: نافعاً: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾، أي: حدائقَ من بساتينَ ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾، وهو: الزرع يُراد لحَبِّهِ وادِّخاره. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾، أي: طوالاً شاهقاتٍ. وقال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسن، وقتادةُ، والسديُّ، وغيرهم: الباسقاتُ الطِّوالُ. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، أي: منضودٌ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾، أي: للخلْقِ، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وهي الأرض التي كانت هامدةً، فلما نَزل عليها الماءُ اهتزت وربَت وأنبتَتْ من كلِّ زوج بَهيج، من أزاهيرَ وغيرِ ذلك، مما يحار الطَّرْفُ في حُسنها، وذلك بعد ما كانت لا نباتَ بها، فأصبحت تَهتزُّ خَضْراء، فهذا مثالٌ للبعثِ بعدَ الموتِ والهلاكِ، كذلك يُحيي الله الموتى. وهذا المُشاهَدُ مِن عَظيم قُدرته بالحِسِّ أعظمُ مما أنكرَه الجاحدُون للبعثِ، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ③③﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ③⑨﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ⑫ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ⑬ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ⑭ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾

يقولُ تعالى مُتهدِّداً لِكُفّار قريشٍ بما أحلَّه بأشباههم ونُظرائهم وأمثالهم من المكذِّبين قبلَهم، من النَّقماتِ والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نُوحٍ وما عذَّبهم الله تعالىٰ به من الغَرَق العامِّ لجميع أهلِ الأرض، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان، ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾، وهم أمته الذين بُعِث إليهم من أهل سَدُومَ ومعاملتها في الغَورِ، وكيف خَسَفَ الله تعالىٰ بهم الأرضَ، وأحال أرضَهم بُحَيرةً منتنةً خَبيثةً، بكفرهم وطُغيانهم ومُخالَفتهم الحقَّ، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾، وهم قوم شُعَيب ـ عليه السلام ـ، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾، وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سُورة الدخَان، بما أغنى عن إعادَته هاهنا، ولله الحمدُ والشكر. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: كلٌّ مِن هذه الأمم وهؤلاء القُرون كَذَّب رَسُولَه، ومَن كذَّب رسولاً فكأنما كَذَّب جميع الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسولٌ واحدٌ، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كَذَّبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، أي: فَحَقَّ عليهم ما أوعدَهم الله تعالىٰ، على التكذيب من العذاب والنَّكالِ. فَلْيحذَرِ المُخاطَبون أن يُصِيبَهم ما أصابهم، فإنهم قد كَذَّبُوا رَسُولهم كما كَذَّب أولئك. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾، أي: أفأعجَزنا ابتداءُ الْخلقِ حتّى هُم في شَكٍّ من الإِعادةِ؟، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: والمعنى أن ابتداء الخلق لم يُعجِزنا والإِعادةُ أسهلُ منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

[٦٢٨١] وقد تَقَدَّم في الصَّحيح: «يقولُ الله تعالى: يُؤذِيني ابنُ آدَم، يقولُ: لن يُعِيدني كما بَدَأني، وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عليَّ من إعادَتِه»(١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

يُخبر تعالى عن قُدرته على الإِنسان بأنه خالقُه، وعِلمُه محيطٌ بجميع أُمورِه، حتى إنه تعالى يعلَم ما تُوسوِسُ به نفوسُ بني آدم من الخير والشر.

[٦٢٨٢] ثبتَ في الصَّحيح عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله تجاوزَ لأُمّتي ما حَدَّثت به أنفسَها ما لم تقل أو تعمَل»(٢). وقولُهُ عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، يعني ملائكته تعالى أقربُ إلى الإِنسان من حَبْلِ وَرِيدِه إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فَرَّ لئلا يلزم حُلول أو اتِّحاد، وهما مَنفِيّان بالإِجماع، تعالى الله وتقدَّس، ولكن اللفظ لا يَقتَضِيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، كما قال في المُحتَضَرِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني

---

(١) وهذا الأثر لا يصح عن ابن عباس. فهو منقطع بين ابن أبي حاتم ومحمد بن إسماعيل. وفي الإسناد أيضاً ليث بن أبي سُليم، وهو ضعيف الحديث. والأثر من الإسرائيليات المردودة.

(٢) تقدم تخريجه في سورة الروم: ٢٧.

ملائكته. وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وكذلك الملائكة أقربُ إلى الإنسان من حَبْلِ ورِيدِه إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك، فَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ في الإنسان كما أنَّ لِلشَّيطانِ لَمَّة.

[٦٢٨٣] وكذلك: «الشيطانُ يجري من ابن آدمَ مجرَى الدم»[١]، كما أخبر بذلك الصادقُ المصدوقُ. ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، يعني المَلَكين اللَّذين يكتُبان عملَ الإنسان. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، أي: مُرْصَدٌ ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾، أي: ابنُ آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾، أي: ما يتكلَّم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، أي: إلاَّ ولها من يُراقبها، مُعَدٌّ لذلك يكتبها، لا يترك كلمةً ولا حركةً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. وقد اختلف العلماءُ: هل يكتُب المَلَكُ كلَّ شيءٍ من الكلام؟ وهو قولُ الحَسَنِ وقتادةَ، أو إنما يكتُب ما فيه ثوابٌ وعِقابٌ كما هو قولُ ابنِ عباس؟ على قولين، وظاهر الآية الأولُ، لعموم قوله تبارك وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾.

[٦٢٨٤] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبيه، عن جَدّه علقمَةَ، عن بلال بن الحارث المُزَني قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الرجُلَ ليتكلَّم بالكلمة من رِضوانِ الله تعالى ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بلغت، يكتُب الله عز وجل له بها رِضوانَه إلى يوم يلقاهُ. وإنَّ الرجُلَ ليتكلَّمُ بالكَلِمَةِ من سَخَط الله تعالى ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بَلَغت، يكتُب الله تعالى عليه بها سَخَطَه إلى يوم يَلْقَاه». قال: فكان عَلْقَمةُ يقول: كَم مِن كَلامٍ قد مَنَعنيه حديثُ بلالِ بن الحارث[٢]. ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو، به، وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح». وله شاهد في الصحيح.

وقال الأحنفُ بن قيس: صاحبُ اليمين يكتُب الخيرَ، وهو أميرٌ على صاحبِ الشمال، فإن أصاب العبدُ خطيئةً قال له: أَمسِك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتُبَها، وإن أبى كَتَبها. رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسن البصريُّ وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدَم، بُسِطت لك صحيفةٌ، وَوُكِّل بك مَلَكان كريمان، أحدُهما عن يَمينك، والآخرُ عن شِمالك، فأما الذي عن يَمينك فيحفَظُ حَسَناتِك، وأما الذي عن يَسارك فيحفَظُ سَيِّئاتك، فاعمل ما شِئتَ، أَقلِلْ أو أَكثِر، حتى إذا مِتَّ طُوِيَت صَحِيفتك، وجُعِلت في عُنُقِك معَكَ في قَبْرِك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]. ثم يقول: عَدَل ـ والله ـ فيك مَنْ جعلك حَسِيب نفسِك. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾، قال: يكتُب كُلَّ ما تَكلَّم به من خير أو شرٍّ، حتى إنه ليكتُب قولَهُ: أكلتُ، شَرِبتُ، ذَهَبتُ، جِئتُ، رَأَيتُ، حتى إذا كان يومُ الخميس عُرِض قولُهُ وعملُه، فَأُقِرَّ منه ما كان فيه من خَيرٍ أو شَرٍّ، وأُلقِيَ سائرُه، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]. وذُكِر عن الإمام أحمد أنه كان يَئِنُّ في مَرَضِه، فَبَلغه عن طاووس أنه قال: يَكتُبُ المَلَكُ كلَّ شيءٍ حتى الأنينَ. فلم يَئِنَّ أحمدُ حتى مات، ـ رحمه الله ـ. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾، يقول تعالى وجاءت ـ أيُّها الإنسانُ ـ سكرةُ الموتِ بالحقِّ، أي: كَشَفت لك عن اليقين الذي

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٢٨ و تقدم في البقرة: ٢٨٤.

(٢) تقدم تخريجه.

كنتَ تمتري فيه ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الذي كُنتَ تفرُّ منه قد جاءك، فلا مَحيدَ ولا مَناصَ، ولا فَكاكَ ولا خَلاصَ.

وقد اختلفَ المُفسِّرون في المخاطب بقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسانُ من حيث هُو: وقيل: الكافرُ، وقيل غيرُ ذلك.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا إبراهيمُ بن زياد ـ سَبَلان ـ أخبرنا عَبّاد بن عبّاد، عن محمد بن عَمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جَدِّه علقَمة بن وقاص أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: حَضرت أبي وهو يموتُ، وأنا جالسةٌ عند رأسه، فأخذته غِشْيَةٌ، فتمثَّلتُ ببيت من الشعر:

مَـــنْ لا يَـــزَالُ دَمْـعُـــهُ مُـقَـنَّـعـــاً ... فـــإنَّــــه لا بُـــدَّ مَـــرَّة مَـدْفُـــوقُ

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾. وحدثنا خَلَف بنُ هشام؛ حدثنا أبو شِهاب، عن إسماعيلَ بنِ أبي خالد، عن البَهِيّ قال: لما أن ثَقُل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ جاءت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ فَتَمَثَّلت بهذا البيت:

لَعَـمْـرُكَ مَـا يُـغْـنِـي الـثَّـرَاءُ عَـن الـفَـتَـى ... إذَا حَـشْـرَجَـتْ يَـومـاً وضَـاقَ بِـهـا الـصَّـدْر

فكَشَفَ عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قُولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾. وقد أوردت لهذا الأثر طُرُقاً كثيرة في سيرَةِ الصِّديق عند ذكر وفاتِهِ، ـ رضي الله عنه ـ.

[٦٢٨٥]وقد ثَبَت في الصَّحِيح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسَحُ العرقَ عن وجهه ويقول: «سبحانَ الله! إن للموت لَسَكَراتٍ»[١]. وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾قولان، أحدهما: أن (ما) ها هنا موصولة، أي: الذي كنتَ منه تحيدُ ـ بمعنى تَبْتَعِد وتنأى وتفِرُّ ـ قد حَلَّ بك ونَزَل بساحتك. والقول الثاني: أن (ما) نافية بمعنى: ذلك ما كنتَ تقدرُ على الفرار منه ولا الحَيْد عنه.

[٦٢٨٦]وقد قال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا محمد بن علي الصائغ المكيّ، حدثنا حفصُ بن عُمَر الجُدِّيُّ، حدثنا معاذ بن محمد الهُذَلي، عن يونسَ بن عُبَيدٍ، عن الحسن، عن سَمُرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مثلُ الذي يَفِرُّ من الموتِ مثلُ الثعلب، تطلُبه الأرض بدَينٍ، فجاء يسعى حتى إذا أَعْيَا وابْتَهَرَ دخل جُحْره، فقالت له الأرضُ: يا ثعلب، دَيني. فخرج وله حُصَاص[٢]، فلم يزل كذلك حتى تَقَطَّعت عُنُقُه ومات»[٣]. ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾، قد تَقَدَّم الكلامُ على حديثِ النَّفخ في الصورِ[٤] والفَزَع والصَّعق والبعث وذلك يوم القيامة.

---

(١) تقدم تخريجه في سورة الحجرات آية ٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥١٠ من حديث عائشة وتقدم.

(٣) الحُصاص: شدة العدو.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبراني ٦٩٢٢ والعقيلي ٤/ ٢٠٠ وأعله بمعاذ بن محمد الهذلي، وقال: فيه نظر، ولا يتابع على رفعه. وذكره الذهبي في «الميزان» ٢١٥٧ في ترجمة حفص بن عمر الجُدّي، ونقل عن الأزدي قوله: منكر الحديث جداً اهـ ثم أسنده العقيلي من طريق آخر عن سمرة موقوفاً وصوبه.

[٦٢٨٧] وفي الحديثِ أن رسولَ الله ﷺ قال: «كيفَ أنعَمُ وصاحِبُ القَرْنِ قد التَقَم القرنَ وحَنَى جَبْهَته، وانتظر أن يُؤذَن له». قالوا: يا رسولَ الله، كيف نقولُ؟؟ قال: «قولوا: حَسْبُنَا الله ونِعمَ الوكيل». فقال القوم: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل[١]. ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾، أي: مَلَكٌ يسوقُه إلى المحشر، ومَلَكٌ يشهَدُ عليه بأعماله. هذا هو الظاهرُ من الآية الكريمة. وهو اختيارُ ابنِ جَرِير. ثم رَوَىٰ من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن يحيى بن رافع ـ مولى لثقيف ـ قال: سَمِعتُ عثمان بن عفان يخطُب، فقرأ هذه الآية ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾، فقال: سائِقٌ يسوقُها إلى الله، وشاهدٌ يشهدُ عليها بما عَمِلت. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيد. قال مُطَرِّفُ، عن أبي جَعفرٍ ـ مولى أشجَعَ ـ عن أبي هُرَيرة: السائقُ: الملك، والشهيد العملُ. وكذا قال الضحاك والسديُّ. وقال العَوفيّ عن ابن عباس: السائقُ من الملائكة، والشهيدُ الإنسانُ نفسُه، يشهَدُ على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً.

وحكى ابنُ جرير ثلاثةَ أقوالٍ في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾.

**أحدُها**: أن المرادَ بذلك الكافرُ، رَوَاه عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقولُ الضحَّاكُ بنُ مُزَاحم وصالح بن كَيسان.

**والثاني**: أنَّ المرادَ بذلك كلُّ أحد من بَرٍّ وفاجرٍ، لأن الآخرةَ بالنسبةِ إلى الدنيا كاليقَظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حُسَين بن عبد الله بن عُبَيد الله بن عباس.

**والثالث**: أن المخاطبَ بذلك النبي ـ ﷺ ـ. وبه يقول زيدُ بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنتَ في غفلة من هذا القرآن قبل أن يُوحَى إليك، فكَشفنا عنك غطاءَك بإنزالِه إليكَ، فَبصرُك اليومَ حديدٌ. والظاهر من السياق خلافُ هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيثُ هو. والمراد بقولِه تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، أي: قَوِيٌ، لأن كل واحدٍ يومَ القيامة يكون مُستَبصِراً، حتى الكفارُ في الدنيا يكونونَ يومَ القيامة على الاستقامةِ، لكن لا ينفعُهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن المَلَك الموكَّل بِعَمَلِ ابنِ آدَمَ، أنَّه يشهد عليه يوم القيامة بما فَعَل، ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾، أي: مُعَدٌّ مُحضَر بلا زيادةٍ ولا نُقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابنُ آدم الذي وَكَّلتني به، قد أحضرتُه ـ. وقد اختار ابنُ جَرِير أنه يَعُمُّ السائِقَ والشَّهِيدَ، وله اتجاهٌ وقوةٌ ـ فعند ذلك يحكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الخليقة بالعدلِ فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾. وقد اختلف

---

(١) تقدم تخريجه باستيفاء.

النحاة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطِبُون المفرد بالتثنية، كما روي عن الحجّاج أنه كان يقول: يا حَرَسيُّ، اضربا عُنُقه. ومما أنشد ابنُ جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تَزجُراني ـ يا ابن عفّان ـ أنزَجِرْ وإنْ تتركاني أحْمِ عِرْضاً مُمنَّعا

وقيل: بل هي نونُ التوكيدِ، سُهّلت إلى الألف. وهذا بعيدٌ، لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيدِ، فالسائق أحضَره إلى عَرْصَةِ الحساب، فلما أدّى الشهيدُ عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائِهِ في نار جهنّم وبئسَ المصير. ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾، أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾: مُعانِدٍ للحق، معارضٍ له بالباطل مع عِلمِه بذلك. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، أي: لا يُؤدّي ما عليه من الحُقوقِ، ولا بِرَّ فيه ولا صِلَةَ ولا صدقَة، ﴿مُعْتَدٍ﴾، أي فيما يُنفِقهُ ويَصرِفه، يتجاوَز فيه الحد. وقال قتادة: ﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطِقه وسيرته وأمره. ﴿مُّرِيبٍ﴾، أي: شاكٍّ في أمره، مُريب لمن نظر في أمره. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: أشرَكَ بالله فعبَد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

[٦٢٨٨] وقد تَقَدَّم في الحديثِ «أن عُنُقاً من النار يبرز للخلائق فينادي بصوتٍ يُسمِعُ الخلائقَ: إني وُكّلتُ بثلاثة، بكلِّ جبار عَنيد، ومَن جعل مع الله إلهاً آخَرَ، وبالمُصَوِّرين. ثم يَنطَوي عليهم»(١).

[٦٢٨٩] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا مُعاوية ـ هو ابن هشام ـ حدثنا شيبانُ، عن فِرَاس، عن عطية، عن أبي سَعيد الخُدري، عن نَبيِّ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «يخرج عُنُق من النار يَتَكَلّم، يقول: وُكِّلت اليومَ بثلاثةٍ: بكُلِّ جَبّارٍ، ومَن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قَتل نفساً بغير نفسٍ. فَتنطوِي عليهم، فَتقْذِفهم في غَمرات جهنم»(٢).

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرُهم، هو الشيطان الذي وُكّل به، ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، أي: يقولُ عن الإنسان الذي قد وافى القيامةَ كافراً، يَتبرأ منه شيطانُه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، أي: ما أضللته، ﴿وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانِداً للحق. كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، يقوله الربُّ ـ عزَّ وجَلَّ ـ للإنسيِّ وقرينِه من الجنِّ، وذلك أنهما يختصِمان بين يَدَي الحقِّ تعالى، فيقول الإنسيُّ: يا ربِّ، هذا أضَلَّني عن الذِّكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطانُ: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: عن منهج الحقّ. فيقول الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، أي: عِندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾، أي: قد أعذرتُ إليكم على ألسِنة الرسُلِ، وأنزلتُ الكتبَ، وقامت عليكم الحُجَجُ والبيِّناتُ والبراهينُ. ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾، قال مجاهد: يَعني قد قَضيتُ ما أنا قاضٍ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لستُ أُعذِّب أحداً بذنبِ أحدٍ، ولكن لا أُعذِّب أحداً إلاّ بذنبِهِ، بعد قيام الحُجّةِ عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ

---

(١) تقدم تخريجه في سورة آل عمران آية ١٧٣ وسورة الكهف آية ٩٩.

(٢) تقدم تخريجه في سورة إبراهيم: ١٥.

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه يقولُ لجهنَم يوم القيامة: هل امتلأتِ؟ وذلك لأنّه تبارك وتعالىٰ وَعَدها أن سيملؤها من الجِنّة والناسِ أجمَعين، فهو ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يأمرُ بمن يأمرُ به إليها ويُلقى، وهي تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، أي: هل بَقِي شَيءٌ تزيدوني؟ هذا هو الظاهرُ من سياق الآية، وعليه تدلُ الأحاديث:

[٦٢٩٠] قال البخاري عند تفسير هذه الآيةِ: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حَرَمِيُّ بن عُمَارَة، حدثنا شعبةُ، عن قتادةَ، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يُلقَى في النار وتقولُ: هل مَن مَزِيدٍ؟ حتى يَضَع قَدمه فيها، فتقول: قَطْ قَطْ»[١].

[٦٢٩١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيدٍ، عن قتادةَ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تَزالُ جَهنَّم يُلقى فيها وتقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يضَعَ ربُّ العِزّةِ فِيها قدمَه، فَيَنْزوِي بعضُها إلى بعضٍ، وتقول: قَطْ قَطْ، وعِزّتِك وكَرمِكَ. ولا يزالُ في الجَنّةِ فضلٌ حتى يُنشِيءَ الله لها خلقاً آخرَ، فَيُسكِنَهم في فُضُول الجَنّة»[٢]. ثم رواه مسلم من حديث قتادةَ، بنحوه. ورواه أَبانُ العطّار وسليمان التّيمي، عن قتادةَ، بنحوه.

[٦٢٩٢] حديثٌ آخَرُ، قال البخاريُّ؛ حدثنا محمد بن موسى القَطّان، حدثنا أبو سفيان الحِمْيري سَعيد بن يحيى بن مهدي، حدثنا عوفٌ، عن مُحمّدٍ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رفعه، وأكثرُ ما كان يُوقِفهُ أبو سفيان ـ: «يقالُ لجهنَّم: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل مِن مَزِيدٍ؟ فيضَعُ الربُّ ـ عَزّ وجَلّ ـ قدَمَه عليها، فتقول: قَطْ قَطْ»[٣]. رَواه أيُوبَ وهشامُ بن حَسّان، عن محمد بن سيرينَ، به.

[٦٢٩٣] طريقٌ أُخرَى، قال البخاريُّ: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن هَمّام، عن أبي هُريرة قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «تحاجّت الجنةُ والنارُ، فقالت النارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرين والمتجبِّرين. وقالت الجنةُ: مَالي لا يدخُلني إلا ضُعَفاء الناس وسقَطُهم. قال الله ـ عَزّ وجَلّ ـ للجنة: أنتِ رَحمتي، أرحمُ بكِ مَن أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنتِ عذابي، أُعَذِّبُ بكِ من أشاءُ من عبادِي. ولِكُلّ واحدةٍ منكُما مِلْؤُها، فأما النارُ فلا تَمتلِيءُ حتى يَضَع رجله، فتقول: قَطْ قَطْ، فهنالك تمتلِيءُ، ويُزوَى بعضُها إلى بعضٍ، ولا يظلم الله عز وجل من خَلقِهِ أحداً، وأما الجَنّة فإن الله عز وجل يُنشِيءُ لها خلقاً آخَرَ»[٤].

[٦٢٩٤] حديث آخر، قال مسلمٌ في صَحِيحه: حدثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ، حدثنا جَرير، عن الأعمش،

---

(١) أخرجه أبو يعلى ١١٣٨ و ١١٤٦ وأحمد ٣/ ٤٠ والبزار ٣٥٠٠ و ٣٥٠١ والطبراني في «الأوسط» ٣٢٠، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٦١٣: أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح. وسبقه المنذري إلى ذلك فقال في «ترغيبه» ٣٦٠٤: رواه أحمد والبزار، وفي إسناديهما عطية العوفي وهو ضعيف، ورواه الطبراني بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح اهـ وفي الباب من حديث أبي هريرة، أخرجه الترمذي ٢٥٧٧ وقال: حسن صحيح غريب اهـ فهو شاهد لما قبله يرقى إلى درجة الحسن.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٨ و ٧٣٨٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٦١ ومسلم ٢٨٤٨ والترمذي ٣٢٧٢ وأحمد ٣/ ١٣٤ و١٤١.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٩.

عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «احتجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبِّرون. وقالت الجنةُ: فيَّ ضُعَفاء الناس ومساكينُهم. فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنتِ رَحْمَتي، أرحمُ بكَ مَن أشاءُ مِن عبادي. وقال للنار: إنما أنتِ عذابي، أُعذِّب بكِ من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها»(١). انفردَ به مسلمٌ دونَ البخاري، من هذا الوجه، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد رواه الإمام أحمدُ من طريق أُخرى، عن أبي سعيدٍ بأبسطَ من هذا السياق، فقال:

[٦٢٩٥] حدثنا حسنٌ وروحٌ قالا: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن عطاء بن السائب، عن عُبَيد الله بن عَبدِ الله بن عُتبَةَ، عن أبي سعيد الخُدري أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «افتَخرتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النارُ: يا ربِّ، يدخُلني الجبابرة والمتكبِّرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أيْ ربِّ، يدخُلني الضعفاءُ والفقراءُ والمساكينُ. فيقول الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ للنار: أنتِ عذابي، أُصِيب بكِ مَن أشاء. وقال للجنة: أنتِ رحمتي، وَسِعتِ كلَّ شيءٍ، ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤها فَيُلقَى في النار أهلَها فتقول: هل من مزِيدٍ؟ ويُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويُلقى فيها وتقولُ: هل من مزيدٍ؟ حتى يأتيها ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، فيَضَع قَدَمه عليها، فتنزوي وتقول: قَدْني، قَدْني. وأما الجنةُ فيبقَى فيها أهلها ما شاء الله أن يبقَى، فينشىء الله لها خلقاً مَا يشاء»(٢).

[٦٢٩٦] حَدِيثٌ آخر، وقال الحافظ أبو يعلَى في مسنده: حدثنا عُقبة بنِ مُكْرم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت، عن زرّ بن حُبَيش، عن أُبَيّ بن كعب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يُعَرِّفُني الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ نفسَه يوم القيامة، فأسجدُ سجدةً يرضَى بها عني، ثم أمدحُه مِدْحَةً يرضى بها عني، ثم يُؤذَن لي في الكلام، ثم تَمرُّ أمتي على الصراط ـ مضروبٌ بين ظهرانيَ جَهنَّم ـ فيمرُّون أسرع من الطَّرف والسَّهمِ، وأسرَعَ من أجودِ الخيل، حتى يخرجَ الرجل منها يحبُو، وهي الأعمال. وجَهنَّم تسأل المزيدَ، حتى يضَعَ فيها قدمَه، فَيَنزوِي بعضها إلى بعض وتقول: قَطْ قَطْ! وأنا على الحوضِ» قيل: وما الحوضُ يا رسول الله؟ قال: «والذي نفسي بيده إنَّ شرابَه أبيضُ من اللبن، وأحلى من العَسَل، وأبردُ من الثلج، وأطيَبُ ريحاً من المسكِ. وآنيتُه أكثرُ من عددِ النجوم، لا يشرَب منه إنسانٌ فيظمَأ أبداً، ولا يُصرَفُ فيَروى أبداً»(٣). وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو يحيى الحِمَّاني، عن نَضر الخَزَّاز، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾، قال: ما امتلأتُ. قال: تقول: وهل فيَّ من مكان يُزادُ فيَّ؟ وكذا رواه الحَكَمُ بن أبانَ، عن عكرمة: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: وهل فيَّ مدخلٌ واحدٌ؟ قد امتلأتُ!. قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي مريم أنه سَمع مجاهداً يقول: لا يزال يُقذَف فيها حتَّى تقول: قد امتلأتُ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. وعن عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ نحو هذا فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حينئذٍ: هَلْ بقي فيَّ من مَزِيدٍ يسع شيئاً؟. قال العوفي، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقَى فيها موضعٌ يَسَعُ إبرةً، والله أعلم.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٥٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٤٧.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ١٣ وفيه عطاء بن السائب، وقد اختلط وسمع منه حماد قبل الاختلاط وبعده، والظاهر أن هذا مما سمعه قبل الاختلاط فإن المتن محفوظ له شواهد وطرق.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾، قال قتادةُ، وأبو مالك، والسديُّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: أُدنِيَت وقُرِّبت من المتقين ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يومَ القيامة، وليس ببعيدٍ، لأنه واقعٌ لا محالَةَ، وكلُّ ما هو آتٍ قريب. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾، أي: رجاع تائب مقلع، ﴿حَفِيظٍ﴾، أي: يحفظ العهدَ فلا ينقضُه ولا ينكثُه. وقال عُبَيد بن عُمَير: الأوّابُ الحفيظُ الذي لا يجلس مجلساً فيقومُ حتى يستغفرَ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾، أي: مَن خاف الله في سرِّه حيثُ لا يراهُ أحدٌ إلا الله عز وجل.

[٦٢٩٧] كقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه»(١). ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: وَلَقِي الله عز وجل يومَ القيامةِ بقلبٍ سَلِيم مُنِيبٍ إليه خاضع لديه. ﴿ادْخُلُوهَا﴾، أي: الجنةَ ﴿بِسَلَامٍ﴾، قال قتادة: سَلِمُوا من عذاب الله عز وجل، وسَلَّم عليهم ملائكةُ الله. وقولُهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: يُخلَّدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعَنُون أبداً، ولا يبغُون عنها حِوَلاً. وقولُهُ جلت عظمته: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: مهما اختارُوا وَجَدُوا، مِن أيِّ أصنافِ الملاذِّ طَلَبوا أُحضِرَ لهم.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عَمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّة، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن كُثَير بن مُرَّة قال: مِن المَزِيد أن تَمرَّ السحابةُ بأهلِ الجنّةِ فتقول: ماذا تُرِيدون فأمطره لكم؟ فلا يَدعُونَ بشيءٍ إلا أمطَرتهُم. قال كُثَير: لئن أشهَدَني الله تعالىٰ ذلك لأقولَنَّ: أمطِرينا جواريَ مُزَيَّناتٍ..

[٦٢٩٨] وفي الحديث عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال له: «إنّك لَتشتَهِي الطيرَ في الجَنّةِ فَيَخِرُّ بين يَدَيكَ مَشوياً»(٢).

[٦٢٩٩] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن عامر الأحولِ، عن أبي(٣) الصِّدِّيقِ، عن أبي سعيد الخُدرِيّ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا اشتهى المؤمنُ الوَلَد في الجَنّةِ كان حَمْلُه وَوَضْعُه وسِنّهُ في ساعةٍ واحدةٍ»(٤). وَرَواه الترمذيُّ وابنُ ماجَه عن بُندارٍ، عن معاذِ بن هشام، به. وقال الترمذيُّ: «حسن غريبٌ»، وزاد: «كما يَشتَهي». وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

[٦٣٠٠] وقد تقدم في صَحِيح مسلم عن صُهَيب بن سِنان الرومي أنها النظرُ إلى وَجهِ الله الكريم. وقد روى البزّار وابن أبي حاتم، من حديث شَريك القاضي، عن عُثمان بن عمَير أبي اليقظَان، عن أنس بن مالكٍ في قوله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، قال: يظهرُ لهم الربُّ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في كل جُمُعةٍ(٥).

---

(١) باطل بهذا اللفظ، فيه عبد الغفار، كذاب وضاع، وهذا الخبر من وضعه، حيث انتزعه من عدة أحاديث لكن لم يصب في ذلك فإنه يذكر أن الناس يدخلون الجنة والنبي ﷺ ما زال علىٰ الحوض، وهو معارض بأحاديث صحاح وأنه عليه السلام أول من يدخل الجنة، فالحديث باطل بهذا اللفظ، وأما منجماً، فلكل فقرة شاهد صحيح.

(٢) تقدم تخريجه في سورة البقرة آية ٢٧١.

(٣) تقدم الكلام عليه.

(٤) وقع في الأصل «أبي بكر الصديق» والظاهر أنه إقحام من بعض النسّاخ.

(٥) غريب. أخرجه الترمذي ٢٥٦٣ وابن ماجه ٤٣٣٨ والدارمي ٢/ ٣٣٧ وأبو يعلىٰ ١٠٥١ وابن حبان ٧٤٠٤ وأبو الشيخ في «العظمة» ٥٨٥ كلهم عن عامر الأحول، عن أبي الصِّدِّيق الناجي عن أبي سعيد. ورجاله رجال البخاري ومسلم سوىٰ عامر بن عبد الواحد، فإنه من رجال مسلم. وفيه ضعف. جاء في «التهذيب» ما ملخصه: قال أبو طالب عن أحمد: =

[٦٣٠١]وقد رواه الإمامُ أبو عبد الله الشافعيُّ مرفوعاً فقال في مُسنَده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني موسى بن عُبَيدة، حدثني أبو الأزهر معاويةُ بنُ إسحاقَ بن طلحةَ، عن عُبَيد الله بن عُمَير أنه سَمِع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نُكتة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما هذِه؟» فقال: هذه الجمعةُ، فُضِّلت بها أنتَ وأُمَّتُك، فالناس لكم فيها تَبَعٌ، اليهودُ والنصارى، ولكُم فيها خيرٌ، ولكم فيها ساعة لا يُوافِقُها مُؤمن يدعُو الله بخير إلا استُجيب له، وهو عندنا يومُ المزيد. قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «يا جبريلُ، وما يومُ المزيدِ؟» قال: إنَّ ربَّك تبارك وتعالىٰ اتخذ في الفِرْدَوس وادياً أفيحَ فيه كُثُب المِسْكِ، فإذا كان يومُ الجُمُعة أنزلَ الله تعالىٰ ما شاءَ من ملائكته، وحَوْلَهُ منابِرُ من نُور، عليها مقاعدُ النبيِّين، وحَفَّ تلك المنابرَ بمنابر من ذَهب، مُكَلَّلةٍ بالياقوتِ والزبرجَدِ، عليها الشهداءُ والصدِّيقُونَ. فجلسوا من ورَائهم على تلك الكُثُبِ، فيقول الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: أنا ربُّكم، قد صَدَقْتُكُم وَعْدِي، فَسَلُوني أُعطِكم. فيقولون: رَبَّنا، نسألك رِضْوَانك، فيقولُ: قد رَضِيتُ عنكم، ولكم عَلَيَّ ما تَمَنَّيتُم، ولديّ مزيدٌ. فهم يُحبُّون يومَ الجمعة لما يُعطيهم فيه ربُّهم تبارك وتعالىٰ من الخير، وهو اليومُ الذي استَوى فيه ربُّكم على العرشِ، وفيه خَلَق آدَمَ، وفيه تقومُ الساعة»[(١)]. هكذا أورده الإمَامُ الشافعيُّ في كتابِ الجُمُعَةِ من الأمّ، وله طُرُق عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ. وقد أورد ابنُ جَرِيرٍ هذا الحديث من رواية عثمان بن عُمَير، عن أَنَسٍ بأبسَطَ من هذا، وذكر هاهنا أثراً مُطَوَّلاً عن أنسِ بن مالكٍ موقوفاً، وفيه غَرَائِبُ كثيرةٌ.

[٦٣٠٢]وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَنٌ، حدثنا ابنَ لَهيعة، حدثنا درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعِيد، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الرجُلَ في الجَنَّة لَيَتَّكِىءُ في الجنَّةِ سبعينَ سنةً قبل أن يتحوَّل، ثم تأتِيه امرأةٌ فَتضربُ على مِنكَبِه، فينظر وجهَه في خَدّها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تُضِيء ما بين المشرِق والمغرِبِ. فَتُسَلِّم عليه، فَيردُّ السلامَ، فيسألها: من أنتِ؟ فتقول: أنا من المزيدِ. وإنه ليكون عليها سبعونَ حُلَّةً، أدناها مثلُ النعمان من طوبى، فَيَنفُذها بَصَرُه حتى يَرَى مُخَّ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان إنَّ أدنى لؤلؤةٍ منها لَتُضِيءُ ما بين المشرقِ والمغرِبِ»[(٢)]. وهكذا رواه عبدُ الله بن وهب عن عَمْرِو بن الحارِثِ، عن دَرَّاجٍ، به

---

= ليس بشيء. وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ليس حديثه بشيء. وقال أبو داود: سمعت أحمد يضعفه. وقال النسائي: ليس بقوي. وقال ابن معين: لا بأس به. وقال أبو حاتم: ثقة لا بأس به. وضعفه حميد بن الأسود. وذكره العقيلي في الضعفاء. اهـ فالرجل مختلف فيه. والمتن غريب، ولذا قال ابن القيم في «حادي الأرواح» ص ١٦٧: إسناده على شرط الصحيح، لكنه غريب جداً اهـ وقال الترمذي عقبه: اختلف أهل العلم في هذا، فقال بعضهم: في الجنة جماع، ولا يكون ولد، هكذا روي عن طاووس ومجاهد والنخعي. وقال محمد ـ البخاري ـ قال ابن راهويه: حديث «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة واحد كما يشتهي» ولكن لا يشتهي. قال البخاري: وقد روي عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: إن أهل الجنة لا يكون لهم فيها ولد. اهـ. الخلاصة: تبين من كلام إسحق أنه على فرض. صحة الحديث. لكن ليس فيه وقوع ذلك، وإنما فيه بيان أن الآخرة هي محل الخوارق، ومشى الألباني على ظاهره فذكره في «صحيح ابن ماجه» ٣٥٠٠!؟ والله أعلم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الشافعي ٣٧٤ وإسناده ضعيف، فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو واهٍ. لكن ورد من وجوه آخر وقد تقدم تخريجه. وانظر «مسند أبي يعلىٰ» ٧/ ٢٢٩ و«المجمع» ١٠/ ٤٢١. والله الموفق.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قبل هؤلاء المُنكِرين: ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: كانوا أكثرَ منهم وأشدَّ قوةً، وأثارُوا والأرضَ وَعَمرُوها أكثر ممّا عَمرُوها، ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾، قال ابنُ عباس: أثَّروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾: ضَرَبُوا في الأرض. وقال قتادةُ: فساروا في البلاد، أي: ساروا فيها يبتغُون الأرزاقَ والمتاجرَ والمكاسبَ أكثرَ مما طفتم أنتم فيها. ويقال لمن طَوَّف في البلاد: نَقَّب فيها. قال امرؤ القيس:

لَـقَـدْ نَـقَّـبْـتُ فـي الآفَـاقِ حَـتّـى ... رَضِـيـتُ مِـنَ الـغَـنِـيـمَـةِ بـالإيَـابِ

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾، أي: هل من مَفَرٍّ كان لهم من قَضاءِ الله وقَدَره؟ وهل نَفَعهم ما جَمَعُوه، ورَدَّ عنهم عذابَ الله إذ جاءهم لِمَا كَذَّبوا الرسلَ؟ فأنتم أيضاً لا مَفَرَّ لكم ولا مَحيد، ولا مَناصَ ولا محيص. وقولُهُ عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾، أي: لعبرةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، أي: لُبٌّ يَعِي به. وقال مجاهدٌ: عقلٌ، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي استمَع الكلام فوَعاه، وتَعقَّله بقلبِهِ وتَفهَّمه بلُبِّه. وقال مجاهدٌ: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾، يعني: لا يُحدِّثُ نفسَه بغيره ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال: شاهدُ القلبِ. وقال الضحّاكُ: العربُ تقول: ألقى فلان سمعَه: إذا استمع بأُذنيه وهو شاهد، يقول غيرَ غائب. وهكذا قال الثوريُّ وغيرُ واحدٍ. وقولُـهُ سبـحـانـه وتـعـالـىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾، فيه تقرير للمعادِ، لأنَّ مَن قَدَر على خلقِ السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهنَّ قادرٌ على أن يُحييَ الموتى بطريقِ الأوْلَى والأحرَى. وقال قتادةُ: قالت اليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله ـ خَلَق الله السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيام، ثم استراحَ في اليوم السابع، وهو يومُ السبت، وهم يُسمُّونه يومَ الراحة، فأنزل الله تعالىٰ تكذيبهم فيما قالُوه وتأوَّلوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾. أي: من إعياءٍ ولا نَصَب ولا تعب، كما قال في الآيـة الأخـرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧]. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني المُكذِّبين، اصبِرْ عليهم واهجُرهم هجْراً جميلاً، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاةُ المفروضةَ قبل الإسراء، ثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبلَ الغروبِ في وقتَ العصرِ، وقيامُ الليل كان واجباً على النبي ـ ﷺ ـ وعلى أُمّتِهِ حَوْلاً، ثم نُسِخَ في حَقِّ الأمّة وجوبُه. ثم بعد ذلك نَسَخ الله تعالىٰ ذلك كُلّه ليلةَ الإسراءِ بخمس صلوات، ولكن مِنهنَّ صلاةُ الصبح والعصرِ، فهما قبل طُلوع الشمسِ وقبلَ الغروبِ.

[٦٣٠٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا إسماعيلُ بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كُنّا جُلوساً عند النبيِّ ـ ﷺ ـ فنظر إلى القمر ليلةَ البَدْرِ فقال: «أما إنّكم سَتُعرَضُون على ربِّكم فَتَرونَه كما تَرَون هذا القمر، لا تُضامُون فيه، فإن استطعتُم ألاَّ تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس

وقبلَ غُرُوبِها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[١]. ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيلَ، به

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾، أي: فَصَلِّ له، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾. ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابنُ أبي نَجِيح، عن مُجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيحُ بعد الصلاةِ.

[٦٣٠٤] ويُؤيِّد هذا ما ثَبَت في الصحيحَين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء فُقَراء المهاجرين فقالوا: يا رسولَ الله ذَهَب أهل الدُّثور بالدرجات العُلَى والنَّعِيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يُصَلُّون كما نُصَلِّي، ويَصُومون كما نَصومُ، ويَتَصدَّقُون ولا نَتَصدَّق، ويَعتِقون ولا نَعتِق! قال: «أفلا أُعَلِّمكم شيئاً إذا فَعَلتموه سَبَقتم مَن بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضَلَ منكم إلاَّ مَن فَعل مثل ما فعلتم؟ تُسَبِّحون وتحمدُون وَتُكبِّرون دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسولَ الله، سَمِع إخوانُنا أهلُ الأموالِ بما فَعَلنا. ففعلوا مثله. قال: «ذلك فَضْلُ الله يؤتيه من يشاء»[٢].

والقولُ الثاني: أنَّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، هما الركعتان بعد المغرب، ورُوِي ذلك عن عُمَر وعلي، وابنِه الحَسن وابنِ عَبَّاس، وأبي هُرَيرة، وأبي أُمَامة. وبه يقولُ مجاهدٌ، وعكرمةُ، والشَّعبيُّ، والنخعيُّ والحسَنُ وقتادةُ، وغيرهم.

[٦٣٠٥] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ وعبد الرحمن، عن سُفيانَ، عن أبي إسحاقَ، عن عاصم بن ضَمْرَةَ، عن عَليٍّ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي على أَثَرِ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ ركعتَين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دُبُر كُلِّ صلاة[٣]. وَرَواه أبو داود والنسائيُّ، من حديث سُفيانَ الثَّوريِّ، به. زاد النسائيُّ: ومُطَرِّف، عن أبي إسحاق، به.

[٦٣٠٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاقَ الهَمْدَاني، حدثنا ابنُ فُضَيل، عن رِشدينِ بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابنِ عبَّاس قال: بِتُّ ليلةً عندَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فَصَلَّى ركعتَين خَفِيفتَين، اللتَينِ قبلَ الفَجْرِ، ثم خَرَج إلى الصلاة فقال: «يا ابنَ عبَّاسٍ. ركعتَين قبلَ صلاةِ الفجر إدبار النجوم، وركعتَين بعد المغرب إدبار السجود»[٤]. ورواه الترمذي عن أبي هِشام الرِّفَاعي، عن محمد بن فُضَيلٍ، به. وقال: «غَريب لا نعرِفه إلاَّ من هذا الوجه».

[٦٣٠٧] وحديثُ ابن عباس وأنه باتَ في بيتِ خالته مَيمُونةٍ وصَلَّى تلك الليلة مع النبي ـ ﷺ ـ ثلاث عشرةَ ركعةً[٥]، ثابتٌ في الصحيحَين وغيرهما. فأما هذه الزيادة فغريبة لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورِشدينُ بن كُرَيبٍ ضعيفٌ، ولعلّه من كلام ابنِ عَبَّاس موقوفاً عليه، والله أعلم.

---

(١) تقدم تخريجه، وإسناده ضعيف لأجل ضعف ابن لهيعة، ودَرّاج.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٣ وأحمد ٤/ ٣٦٢ والطبراني ٢٢٢٤٠ وابن حبان ٧٤٤٣.

(٣) متفق عليه، وتقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود ١٢٧٥ وأحمد ١/ ١٢٤ وفيه عاصم ضعفه غير واحد.

(٥) إسناده ضعيف. وفيه رشدين بن كريب. جاء في «الميزان» ٢٧٨١: قال أحمد: منكر الحديث. وقال علي المديني وجماعة: ضعيف. وقال البخاري: منكر الحديث اهـ. والحديث في الصحيحين ليس فيه لفظ «يا ابن عباس...».

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ يا محمدُ ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾، قال قتادة: قال كعبُ الأحبار: يأمرُ الله تعالىٰ مَلكاً أن يُنادِيَ على صَخرةِ بيتِ المقدسِ: أيتُها العظامُ البالية، والأوصالُ المتقطعةُ، إن الله تعالىٰ يأمرُكُنّ أن تَجتمِعْنَ لفصلِ القضاءِ. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعني النفخةَ في الصورِ التي تأتي بالحقِّ الذي كان أكثرُهم فيه يمترُون. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجداثِ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾، أي: هو الذي يبدأُ الخَلقَ ثم يُعيده، وهو أهونُ عليه، وإليه مَصيرُ الخلائق كُلِّهم، فيجازِي كُلاً بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾، وذلك أن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يُنزِل مطراً من السَّماء تَنبُت به أجسادُ الخلائق في قبورها، كما ينبت الحبُّ في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجسادُ أمر الله تعالىٰ إسرافيلَ فَيَنفُخُ في الصور، وقد أُودِعَت الأرواحُ في ثُقَبٍ في الصور، فإذا نَفخ إسرافيلُ فيه خَرجت الأرواحُ تَتوهَّج بين السماء والأرض، فيقول الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: وعزتي وجلالي، لترجعَنَّ كلُّ روح إلى الجَسَد الذي كانت تعمُره، فترجع كلُّ رُوح إلى جَسَدِها، فَتَدِبُّ فيه كما يَدِبُّ السمُّ في اللديغ وتنشق الأرضُ عنهم فيقومُون إلى موقِفِ الحساب سراعاً، مبادرين إلى أمر الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

[٦٣٠٨] وفي صَحِيح مسلم، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنا أول مَنْ تنشقُّ عنه الأرضُ»[1].

وقولُه عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، أي: تلك إعادةٌ سهلةٌ علينا، يسيرةٌ لَدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨]. وقولُه جل وعلا: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: نحنُ عِلمُنا محيطٌ بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يَهولنك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]. وقولُه تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، أي: ولستَ بالذي تجبُر هؤلاءِ على الهُدَى، وليس ذلكَ مما كُلفت به. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، والضحاكُ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، أي: لا تَتَجبَّر عليهم. والقولُ الأوّلُ أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جَبّاراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، بمعنى: وما أنت بمُجبِرهم على الإيمانِ إنما أنت مُبلِّغ. قال الفراء: سَمِعت العرب تقول: جَبَر فلانٌ فلاناً على كذا، بمعنى أجبَرَه. ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، أي: بَلِّغ أنت رسالةَ ربِّك، فإنما يتذكَّر مَن يخافُ الله ووعيدَه ويرجُو وعدَه، كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله جل جلاله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢]. ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾

(١) متفق عليه، وتقدم في آخر آل عمران.

[البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾. كان قتادةُ يقول: اللهُمَّ، اجعلنا ممن يخافُ وعيدَكَ، ويرجُو موعودَكَ، يا بارُّ يا رحيمُ.

# آخر تفسير سُورَةِ (ق)، والحمدلله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل

(١) تقدم تخريجه.

# سورة الذاريات

ترتيبها ٥١ — آياتها ٦٠

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

قال شعبةُ بن الحَجّاج، عن سِمَاكٍ، عن خالدِ بن عَرْعَرة أنه سَمِع علياً ـ وشُعبة أيضاً، عن القاسم بن أبي بَزَّة، عن أبي الطفَيل، أنه سَمِعَ عَلياً ـ وثَبَت أيضاً من غير وَجهٍ عن أمير المؤمنين عَليٍّ بن أبي طالب: أنه صَعِد مِنبَر الكُوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالىٰ، ولا عن سُنَّة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكَوَّاء فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾؟ قال: الريحُ. قال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾؟ قال: السحابُ. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾، قال: السفُن. قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾؟ قال: الملائكة.

[٦٣٠٩] وقد رُوي في ذلك حديث مرفوع؛ فقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا إبراهيمُ بن هانيءٍ، حدثنا سَعيد بن سلام العَطّار، حدثنا أبو بكر بن أبي سَبْرَةِ، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المُسيِّب قال: جاء صَبيغُ التَّميمي إلى عُمَر بن الخطّاب فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبِرني عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾، فقال: هي الرياحُ، ولولا أني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُه ما قلتهُ. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾، قال: هي السَّحابُ، ولولا أني سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾. قال: هي الملائكةُ، ولولا أني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقُوله ما قلتُه. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾. قال: هي السفُن، ولولا أني سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقوله ما قلتُه. ثم أمر به فَضُرِب مئةً، وجُعِل في بيت، فلما بَرَأ دعا به فضربه مئةً أُخرى، وحمله على قَتَب وكَتَب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناسَ من مُجالسته. فلم يَزَل كذلك حتى أتى أبا موسى فَحَلف بالأيمان المغلظة ما يَجدُ في نفسه مما كان يُجد شيئاً. فكتب في ذلك إلى عُمَر، فكتب عُمَر: ما إخاله إلاَّ صَدَق، فَخَلِّ بينه وبين مُجالَسَةِ الناسِ[1]. قال

(١) باطل. أخرجه البزار ٢٢٥٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٦٥: فيه أبو بكر بن أبي سبرة، وهو متروك اهـ. وله علة ثانية سعيد بن سلاّم العطار، ذكره الذهبي في «الميزان» ٣١٩٥ وقال: كذبه ابن نمير. وقال البخاري: يذكر =

أبو بكر البزّار: فأبو بكر بن أبي سَبْرَةَ لَيِّنٌ، وسَعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديثِ. قلت: فهذا الحديثُ ضَعيفٌ رفعُه، وأقربُ ما فيه أنه موقوفٌ على عُمَر، فإنَّ قصةَ صَبيغ بن عِسْلٍ مشهورةٌ مع عمر، وإنما ضَربه لأنه ظَهَر له من أمره فيما يسأل تَعنُّتاً وعِناداً، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صَبِيغ مُطَوَّلةً، وهكذا فَسَّرها ابنُ عبَّاس، وابنُ عُمَر، ومجاهدٌ، وسَعِيد بنُ جَبير، والحَسَنُ، وقَتَادةُ، والسدِّيُّ، وغيرَ واحدٍ. ولم يَحْكِ ابنُ جَرِيرٍ وابنُ أبي حاتم غيرَ ذلك. وقد قِيلَ: إنَّ المرادَ بالذارياتِ: الريحُ كما تقدم، وبالحاملاتِ وِقراً: السحابُ كما تقدم، لأنها تحمِلُ الماءَ، كما قال زيدُ بن عَمرو بن نُفَيل:

وَأسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا

فأما ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ فالمشهورُ عن الجمهور ـ كما تقدَّم ـ أنها السفنُ تَجري مُيسَّرةً في الماء جَرْياً سهلاً. وقال بعضهم: هي النجوم تجرِي يُسراً في أفلاكها، ليكونَ ذلك تَرَقِّياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلَى منه، فالرياحُ فوقها السحابُ، والنجومُ فوق ذلك، والمقسمات أمراً: الملائكة فوقَ ذلك، تَنزِلُ بأوامر الله الشرعية والكونيَّة. وهذا قَسَمٌ من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على وقوع المَعَادِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾، أي: لخبرُ صدقٍ، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أي: لكائنٌ لا محالَةَ. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾، قال ابنُ عباس: ذاتِ البَهاء والجَمال والحُسن والاستواءِ. وكذا قال مجاهدٌ وعِكْرِمةُ، وسعِيد بن جُبَير، وأبو مالكٍ، وأبو صالح، والسديُّ، وقتادةُ، وعَطِيَّة العوفيُّ، والربيعُ بن أنس، وغيرهم. وقال الضحّاك، والمنهالُ بن عمرو، وغيرهما: مثل تَجعُّد الماءِ والرملِ والزَّرع إذا ضَرَبته الريحُ، فَينسِجُ بعضُه بعضاً طرائقَ، ذلك الحُبك.

[٦٣١٠] قال ابنُ جرير: حدثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ عُلَيَّة، حدثنا أَيُّوب، عن أبي قِلابَة، عن رَجُلٍ من أصحابِ النبي ـ ﷺ ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ من ورائِكم الكَذَّابَ المُضِلَّ، وإنَّ رأسَه من وَرَائه حُبُكٌ حُبُكٌ» يعني بالحبك: الجُعُودة(١).

وعن أبي صالح ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: الشدَّةِ. وقال خُصَيف: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: ذات الصَّفَاقةِ. وقال الحسنُ بن أبي الحسن البَصريُّ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: حُبِكَت بالنجُوم. وقال قتادةُ: عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدَان بن أبي طلحة، عن عَمرو البِكَالي، عن عبد الله بن عَمرو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾، يعني: السماء السابعة. وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماءَ التي فيها الكواكبُ الثابتةَ، وهي عند كثير من عُلماء الهَيئة في الفَلَك الثامن الذي فوقَ السابع، والله أعلم. وكلُّ هذه الأقوال تَرْجع إلى شيءٍ واحدٍ، وهو الحُسن والبَهاء، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فإنها من حُسنها مرتفعةٌ شفَّافةٌ صفيقةٌ، شديدةُ البِناءِ، مُتَّسِعة الأرجاءِ، أَنِيقَةُ البِهَاء، مُكَلَّلةٌ بالنجوم الثَّوابت والسيَّارات، مُوَشَّحة بالشمسِ والقَمَر والكواكِب الزَّاهِرَاتِ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾، أي: إنكم ـ أيها المشركون المُكَذِّبون للرسل ـ لفي قَوْلٍ مُختَلِفٍ مُضطَرِبٍ، لا

---

= بوضع الحديث. وضعفه النسائي وغيره. وقال أحمد: كذاب. وقال العجلي: لا بأس به اهـ وله علة ثالثة ابن المسيب لم يدرك عمر. لكن هذه العلة غير قادحة، مراسيل ابن المسيب جياد.

(١) أخرجه الطبري ٣٢٠٤٨ عن أبي قلابة عن رجل من الصحابة عن النبي ﷺ، وجهالة الصحابي لا تضر، إذا صح الإسناد إليه. وإسناد هذا الحديث إلى أبي قلابة صحيح، لكن يخشى أن يكون أبو قلابة سمعه من رجل مجهول عن رجل من الصحابة، فإن أبا قلابة كثير الإرسال والرواية عمن لم يلقه. والمراد بالكذاب ههنا «الدجال» وقد صح هذا الحديث بغير هذا السياق. والله أعلم.

يلْتَئم ولا يَجتمِعُ. وقال قتادةُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾، ما بين مُصدِّقٍ بالقرآن ومُكَذِّب به. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾، أي: إنما يَرُوج على مَن هو ضَالٌّ في نفسه لأنه قولٌ باطلٌ، إنما ينقادُ له ويَضِلُّ بسببه ويُؤفَكُ عنه مَن هو مأفوكٌ ضالٌّ غُمْرٌ لا فَهمَ له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣]. قال ابنُ عباس، والسديُّ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾: يَضِلُّ عنه من ضَلَّ. وقال مجاهدٌ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾: يُؤفَن عنه من أفِنَ. وقال الحسنُ البصريُّ: يُصرَف عن هذا القرآن مَن كَذَّب به. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾، قال مجاهِدٌ: الكَذَّابون. قال: وهي مثلُ التي في عَبَس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾. والخرَّاصون: الَّذين يقولون: لا نُبعَثُ، ولا يُوقِنُون. وقال علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾، أي: لُعِن المرتابُون. وهكذا كان معاذٌ ـ رضي الله عنه ـ يقول في خُطَبِه: هَلَكَ المرتابون. وقال قتادةُ: الخرَّاصون أهل الغِرَّة والظنون، وقولُهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: في الكُفر والشكِّ غافِلُون لاهُون. ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾: وإنما يقولون هذا تكذيباً وَعِناداً وشكّاً واستبعاداً. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، وغيرُ واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾. يُعذَّبون كما يُفتَن الذهبُ على النار. وقال جماعةٌ آخرون كمجاهدٍ أيضاً، وعكرمةَ، وإبراهيمَ النخعيِّ، وزيد بن أسلَمَ، وسُفيانَ الثَّوري: يُفتَنُون يُحرَقُون. ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾، قال مجاهدٌ: حَريقكم. وقال غيرُه: عَذَابكم. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، أي: يُقَال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً؛ والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقولُ تعالىٰ مُخبراً عن المُتَّقين لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: إِنَّهم يومَ مَعادهم يكونُون في جناتٍ وعُيون، بخلاف ما أُولئك الأشقياء فيه من العذاب والنَّكال، والحَريق والأغلال. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال ابنُ جرير: أي عاملين بما آتاهم ربّهم من الفرائض ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: قبل أن يَفرِض عليهم الفرائضَ كانوا مُحسِنين في الأعمال أيضاً. ثم روىٰ عن ابن حُمَيْد: حدثنا مِهران، عن سُفيان، عن أبي عُمَر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، قال: من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قبل الفرائِض يَعْمَلُونَ. وهذا الإسنادُ ضعيفٌ، ولا يَصِحُّ عن ابن عباس. وقد رَواه عُثمان بنُ أبي شَيبة، عن معاوية بن هِشَام، عن سُفيان، عن أبي عُمَر البَزَّار، عن مُسْلِم البَطين عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فذكره. والذي فَسَّر به ابنُ جرير فيه نظر، لأنَّ قولَه تبارك وتعالىٰ: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حالٌ من قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ فالمُتَّقون في حال كَونهم في الجنات والعُيُون آخِذُون ما آتاهم ربُّهم، أي: من النعيم والسرور والغِبطَةِ. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله جل جلاله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾. ثم إنه تعالىٰ بَيَّن إحسانَهم في العمل، فقال جل وعلا: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، اختلف المفسرون في ذلك على قولَين: أحدهما: أنَّ (ما) نافية، تقديرُه: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعُونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضِي عليهم ليلةٌ إلاّ يأخذُون منها ولو شيئاً، وقال

قتادة، عن مُطَرِّف بن عبد الله: قَلّ ليلةٌ تأتي عليهم لا يُصلّون فيها لله ـ عزّ وجلّ ـ، إمّا من أوّلها وإمّا من أوسَطِها، وقال مجاهد: قَلّ ما يَرقُدون ليلة إلى الصباح لا يَتَهجّدُون، وكذا قال قتادةُ، وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يُصلّون بين المغرب والعشاء، وقال أبو جعفر الباقِر: كانوا لا ينامُون حتىٰ يُصلّون العَتَمَة. والقولُ الثاني: أن (ما) مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هُجُوعُهم ونومُهم، واختارَهُ ابنُ جرير وقال الحسنُ البصري: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كابَدوا قيام الليل، فلا ينامُون من الليل إلاّ أقلّه، ونَشِطُوا فمَدُّوا إلى السَّحر، حتىٰ كان الاستغفارُ بِسَحَر. وقال قتادة: قال الأحنفُ بن قيس: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾كانوا لا ينامُون إلاّ قليلاً، ثم يقول: لستُ من أهل هذه الآية.

وقال الحسنُ البصري: كان الأحنفُ بن قيس يقول: عرضت عَمَلي على عمل أهلِ الجَنّة فإذا قومٌ قد باينُونا بَوناً بعيداً، إذا قومٌ لا نَبلُغ أعمالَهم، كانوا قليلاً من الليلِ ما يهجَعون. وعرَضْتُ عملي علىٰ عمَل أهل النار فإذا قوم لا خيرَ فيهم يُكَذِّبُون بكتاب الله وبِرُسُل الله، يُكَذِّبون بالبعثِ بعد الموت، فَوَجدتُ مِن خيرنا منزلة قوماً خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: قال رجلٌ من بني تميم لأبي: يا أبا أُسامَةَ، صفةٌ لا أَجِدُها فينا، ذَكَرَ الله تعالىٰ قوماً فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن ـ والله ـ قليلاً من الليل ما نَقُوم. فقال له أَبِي: طُوبىٰ لمن رَقَدَ إذ نَعَس، واتّقىٰ الله إذا استيقظ.

[٦٣١١] وقال عبدُ الله بن سَلاَم: لما قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينة انجفَلَ الناس إليه، فكنتُ فيمن انجفَلَ فلما رأيتُ وجهَه عرفتُ أن وجهَهُ ليس بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذّاب، فكان أولُ ما سَمِعتُه يقول: «يا أيها الناسُ أَطعِمُوا الطعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وأفشُوا السلام، وصَلّوا بالليل والناسُ نيامٌ، تدخُلوا الجَنّة بِسَلاَم»(١).

[٦٣١٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن بن مُوسَىٰ، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، حدثني حُيَيّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمْرو أنّ رَسولَ الله ﷺ قال: «إن في الجنة غُرَفاً يُرىٰ ظاهِرُها من باطِنها، وباطُنها من ظاهِرِها»، فقال أبو موسىٰ الأشعريُّ: لِمن هيَ يا رسولَ الله؟ قال «لمن ألانَ الكَلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً والناسُ نيامٌ»(٢).

وقال مَعمرٌ في قوله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ كان الزهريُّ والحسنُ يقولان: كانوا كثيراً من الليل ما يُصَلُّون. وقال ابنُ عباس، وإبراهيم النخعيُّ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾: ما ينامون وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ وهذا القول فيه بُعْدٌ وتعسّف. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ قال مجاهد، وغيرُ واحد: يُصَلُّون. وقال آخرُون: قاموا الليل، وأَخّروا الاستغفارَ إلىٰ الأسحارِ. كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفارُ في صَلاةٍ فَهُوَ أحسنُ.

[٦٣١٣] وقد ثَبَت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله يَنزِلُ كلَّ ليلة إلى سماءِ الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ الليلِ الأخير، فيقولُ: هل من تائبٍ فَأتُوب عليه؟ هل مِن مُستغفِر فَأغفرَ له؟ هل من سائلٍ فَيُعطىٰ سُؤْلَهُ؟ حتىٰ يَطْلُعَ الفجرُ»(٣). وقال كثيرٌ من المفسّرين في قوله تعالىٰ إخباراً

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٤٨٥ وابن ماجه ٣٢٥١ والحاكم ٣/ ١٣ وهو حسن، وله شواهد.

(٢) فيه ابن لهيعة ضعيف الحديث. لكن له شواهد، وتقدم تخريجه، والله الموفق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١١٤٥ و٦٣٢١ و٧٤٩٤ ومسلم ٧٥٨ وأبو داود ١٣١٥ والنسائي ٤٨٠ وابن ماجه ١٣٦٦ وأحمد ٢/ ٢٦٧ وابن حبان ٩٢٠.

عن يعقوبَ، أنه قال لِبَنيه: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا أخَّرهُم إلى وقتِ السحرَ.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾: لما وَصَفهم بالصلاة ثَنّىٰ بِوَصْفِهم بالزَّكاةِ والبرِّ والصِّلَةِ، فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾، أي: جزءٌ مقسُوم قد أفرزُوه للسائِل والمحروم، أما السائلُ فمعروفٌ، وهو الذي يَبْتَدِىءُ بالسُّؤَالِ، وله حقٌ، كما قال الإمام أحمد:

[٦٣١٤] حدثنا وكيعُ وعبدَ الرحمن قالا: حدثنا سُفيان، عن مُصعَب بن محمد، عن يعلَىٰ بن أبي يحيىٰ، عن فاطمة بنتِ الحُسَين، عن أبيها الحُسَين بن علي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «للسائل حقٌ وإن جَاءَ على فَرَسٍ»(١) وروَاه أبو داود من حديث سُفيان الثوري، به. ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب. وروي من حديث الهِرْمَاسِ بن زيادٍ مَرْفُوعاً. وأما المحرومُ فقال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ: هو المُحارَفُ الذي ليس له في الإسلام سَهْمٌ. يعني لا سَهْمَ له في بيتِ المالِ، ولا كَسْبَ له، ولا حِرْفَة يَتقوَّت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يتَيسَّر له مَكسبُه، وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مالٌ إلاّ ذَهَب، قَضَىٰ الله تعالىٰ له ذلك. وقال أبو قِلابة: جاء سَيْلٌ باليمامة فذهَبَ بمال رَجُلٍ، فقال رجل من الصحابة: هذا المحرومُ، وقال ابن عباس أيضاً، وسعيد بن المسيِّب، وإبراهيم النخعي، ونافع ـ مولىٰ ابن عمر ـ وعطاء بن أبي رباح: المحرومُ المُحَارَف. وقال قتادة، والزهريُّ: المحرومُ الذي يَسألُ الناسَ شيئاً،

[٦٣١٥] قال الزهريُّ وقد قال رسولُ الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوّاف الذي تَرُدُّهُ اللقمة واللقمتان، والتمرةُ والتمرتان، ولكن المسكينُ الذي لا يَجدُ غِنى يُغنيه، ولا يُفطَنُ له فَيتصدّقَ عليه»(٢) وهذا الحديث وقد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر. وقال سَعِيد بن جُبَير: هو الذي يَجيء وقد قُسِم المَغنَمُ، فَيُرضَخُ له. وقال محمدُ بن إسحاق: حدثني بعض أصحابنا قال: كُنَّا مع عُمَر بن عبد العزيز في طريق مَكَّةَ فجاء كَلْبٌ فانتزع عُمَر كَتِف شاة فَرَمىٰ بها إليه وقال: يقولُون: إنه المحرومُ. وقال الشعبيُّ: أعياني أن أعلَم ما المحرومُ. واختار ابنُ جَرير أنَّ المحروم هو الذي لا مالَ له بأيِّ سَبَب كان، وقد ذَهَبَ مالُه، سواء كان لا يقدرُ على الكَسبِ، أو قد هلك مالُه أو ثَمَرُه بآفة أو نحوِها. وقال الثوريُّ، عن قيس بن مُسلِم، عن الحسن بن محمد أن رَسولَ الله ـ ﷺ ـ بعث سَرِيَّةً فَغَنِمُوا، فجاء قوم لم يشهَدُوا الغنيمة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾. وهذا يقتضي أن هذه مَدَنيَّةٌ، وليس كذلك، بل هي مكيَّةٌ شامِلَةٌ لما بعدَها.

وقولُهُ عز وجل: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾، أي: فيها من الآياتِ الدالَّةِ على عَظَمة خالِقها وقُدرته الباهرة، مما قد ذَرَأ فيها من صنوف النباتِ والحيوانات، والمهاد والجبالِ، والقِفَاز والأنهارِ والبحارِ، واختلافِ ألسِنةِ الناسِ وألوانِهم، وما جُبِلوا عليه من الإراداتِ والقُوَىٰ، وما بينهم من التفاوُتِ في العقُول والفُهوم والحركاتِ، والسعادة والشقاوةِ، وما في تركيبهم من الحِكَم في وَضع كُلِّ عضو من أعضائهم في المَحلِّ الذي هو محتاجٌ إليه فيه، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾، قال قتادة: من تَفَكَّر في خَلقِ نفسه عرف أنه إنما خلق ولُيِّنَت مفاصِلهُ للعبادَةِ. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ يعني المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني الجنة، قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحدٍ. وقال سفيانُ الثوريُّ: قرأ واصلُ الأحدبُ هذه

---

(١) فيه يعلىٰ ضعيف، لكن له شواهد، وتقدم الكلام عليه.

(٢) صحيح. هذا مرسل وورد موصولاً عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، أخرجه أبو داود ١٦٣٢ والنسائي ٥/٨٥ ـ ٨٦ وابن حبان ٣٣٥١، وأصله في «الصحيحين».

الآيَة: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فقال: ألا أرىٰ رِزْقِي في السماء وأنا أطلبُه في الأرض؟ فدخل خَرِبَةً فمكث ثلاثاً لا يُصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدَوخَلَةٍ من رُطَب ـ وكان له أخ أحسَن نيَّةً منه، فدخل مَعَهُ فصارتا دَوخَلَتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتىٰ فرَّق الموتُ بينهما. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾، يُقسِم تعالىٰ بنفسه الكريمةَ أنَّ ما وَعَدَهم به من أمْرِ القيامةِ والبعث والجزاءِ كائنٌ لا محالةَ وهو حَقٌّ لا مريَةَ فيه، فلا تَشكُّوا فيه كما لا تشكُّون في نُطقكم حين تَنطِقُون. وكان معاذٌ ـ رضي الله عنه ـ إذا حَدَّثَ بالشيءِ يقولُ لصاحِبِه: إنَّ هذا لحقٌّ كما أنَّك ها هنا.

[٦٣١٦] قال مُسَدَّد، عن ابن أبي عَدِيّ، عن عَوف، عن الحسنِ البصريِّ قال: بَلَغني أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «قاتَلَ الله أقواماً أقسَمَ لهم ربُّهم ثم لم يُصَدِّقوا»(١). ورواهُ ابنُ جُرَير، عن بُندارٍ، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، فذكره مُرسَلاً.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

هذه القِصَّةُ قد تقدَّمت في سورة (هُود)، و(الحِجر) أيضاً. وقولُه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: الذين أرْصَدَ لهم الكرامةَ. وقد ذَهَب الإمام أحمدُ وطائفةٌ من العلماء إلىٰ وجُوب الضِّيافة للنزيلِ، وقد وَرَدت السنة بذلك، كما هو ظاهر التَّنزيل. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ الرفع أقوىٰ وأثبتُ من النصب، فَرَدُّهُ أفضلُ من التسليم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليلُ اختارَ الأفضلَ، وقولُهُ تعالىٰ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وذلك أنَّ الملائكة وهم: جبريلُ وإسرافيلُ وميكائيلُ قَدِموا عليه في صورة شباب حِسَان، عليهم مَهَابة عَظيمة، ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾. وقولُهُ عز وجل: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، أي: انسلَّ خِفْيَةً في سُرعَةٍ، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: من خيار مَالِه. وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]: مَشْوِيٌّ على الرَّضْفِ، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه مِنهُم، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: تَلَطُّفٌ في العبارة وعَرضٌ حَسَنٌ. وهذه الآيةُ انتظمت آدابَ الضِّيافة، فإنه جاء بطعام من حيثُ لا يشعُرون بسرعة، ولم يمتنَّ عليهم أوَّلاً فقال: نأتيكم بطعام؟. بل جاء به بسُرعَةٍ وخَفاءٍ، وأتىٰ بأفضل ما وَجَدَ من ماله، وهو عِجلٌ فَتِيٌّ سَمِينٌ مَشوِيٌّ، فَقَرَّبه إليهم، لم يَضَعْهُ، وقال: اقتربُوا، بل وَضَعهُ بين أيديهم، ولم يأمُرهم أمراً يَشُقُّ علىٰ سامِعِه بصيغةِ الجَزْم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، علىٰ سبيل العَرْض والتلطُّفِ، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضَّل وتُحسِن وتَتَصدَّق فافعَلْ. وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، هذا مُحَال على ما تقدَّم في القصة في السورة الأخرىٰ، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي: استبشَرت بهلاكهم، لتمرُّدهم وعتوهم على الله تعالىٰ، فعند ذلك بَشَّرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاقَ يعقوبَ. ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

---

(١) أخرجه الطبري ٣٢١٩١٠ وهو ضعيف. لكونه مرسلاً، ومراسيل الحسن واهية.

عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هـود: ٧٠ ـ ٧٣]. ولهذا قال سبحانه وتعالى هاهنا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، فالبشارةُ له هي بشارةٌ لها، لأن الولد منهما، فكلٌ منهما بُشر به، وقولهُ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾، أي: في صَرْخَةٍ وعَيْطَةٍ ورَنَّةٍ، قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعِكرمةُ، وأبو صالح، والضحاك، وزيدُ بن أسلم، والثوريُّ، والسدي، وهي قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾، أي: ضَرَبت بيدها على جَبينها، قاله مجاهد وابنُ سابط، وقال ابنُ عبّاس: لَطمت، أي تعجُّباً كما تَتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف أَلِد وأنا عجوز، وقد كنتُ في حال الصِّبا عقيماً لا أحبَلُ؟ ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: عليمٌ بما تَستحِقُّون من الكَرامة، حَكيمٌ في أقواله وأفعاله.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

قال الله مخبراً عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦] وقال ها هنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾، يعنون قومَ لُوطٍ، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعلّمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، أي: مُكتتبةً عنده بأسمائهم، كل حَجَر عليه اسمُ صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾، وقال تعالى هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وهم لوطٌ وأهلُ بيته إلاّ امرأتَه. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، احتج بهذه الآية من ذَهَب إلى رأي المعتزلة، من لا يفرّق بين مُسمَّى الإيمان والإسلام، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيفٌ، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم، ولا ينعكس فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ولا يلزم ذلك في كلِّ حال. وقولهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: جعلناها عبرةً لما أنزلنا بهم من العذابِ والنَّكالِ وحجَارة السِّجّيلِ، وجعلنا مَحلّتهم بُحَيرةً مُنتِنةً خبيثةً، ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين، الذين ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾، أي: بِدليلٍ باهرٍ وحُجّةٍ قاطعةٍ، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فَأعرَض فِرعَونُ عما جاءه به مُوسَىٰ من الحقِّ المبين استكباراً وعناداً. وقال مجاهدٌ: تعزَّز بأصحابه. وقال قتادةُ: غلب عَدُوُّ الله على قومه، وقال ابنُ زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾، أي: بِجُموعِهِ التي معه، ثم

قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] والمعنى الأولُ قويٌّ كقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي: مُعرضٌ عن الحق مُستكبرٌ. ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكونَ ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾، أي: ألقيناهم ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾، وهو البحرُ، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، أي: وهو ملومٌ كافرٌ جاحدٌ فاجرٌ مُعانِدٌ. ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ أي: المُفسِدة التي لا تُنتِجُ شيئاً قاله الضحاكُ، وقتادة، وغيرهُما. ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تُفسِدهُ الريحُ ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾، أي: كالشيءِ الهالكِ البالي.

[٦٣١٧] وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عُبيد الله ابنُ أخي ابن وَهب، حدثنا عمي عبدُ الله بنُ وهب، حدثني عبد الله ـ يعني ابنَ عَيَّاش القِتْباني ـ حدثني عبد الله بن سُليمان، عن دَرّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفي، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «الريح مُسَخَّرةٌ من الثانيةِ ـ يعني من الأرضِ الثانية ـ فلما أراد الله أن يُهلك عاداً أمر خازنَ الريح أن يُرسِلَ عليهم ريحاً تُهلِكُ عاداً، قال: أي رَبِّ، أرسِلَ عليهم الريحَ قَدْرَ مَنْخَرِ الثَّورِ؟ قال له الجَبّار تبارك وتعالى: لا، إذاً تُكفَأُ الأرضُ ومن عليها، ولكن أُرسِلُ عليهم بِقَدر خاتَم، فهي التي يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾»[١] هذا الحديث رفعه منكر، والأقربُ أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عَمرو، من زامِلتيه اللَّتين أصابهما يومَ اليَرْمُوكِ، والله أعلم. قال سعيدُ بن المُسيّب وغيرُه في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾، قالوا: هي الجَنُوب.

[٦٣١٨] وقد ثبت في الصحيح من رواية شُعبَة، عن الحكم، عن مجاهِدٍ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نُصِرت بالصبا، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبُور»[٢].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾، قال ابنُ جرير: يعني إلى وقتِ فَنَاءِ آجالكم. والظاهرُ أنَّ هذه كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧] وهكذا قال ها هنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظرُوا العذابَ ثلاثةَ أيام، فجاءهم في صبيحةِ اليوم الرابع بُكرَةَ النهارِ، ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾، أي: من هَرَبٍ ولا نُهوض، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾، أي: ولا يَقدِرُون على أن ينتَصِرُوا مما هُم فيه. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، أي: وأهلكنا قَومَ نوحَ من قبلِ هؤلاءِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، وكل هذه القِصَصِ قد تقدَّمت مبسوطة في أماكن كثيرة، من سُوَرٍ مُتعدِّدةٍ؛ والله تعالى أعلم.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى مُنبِّهاً على خَلْقِ العالم العُلوي والسفلي: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾، أي: جعلناها سقفاً محفُوظاً رفيعاً ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾، أي: بقُوَّةٍ. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والثوريُّ، وغير واحد. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أي: قد

(١) إسناده ضعيف والمتن منكر. وتقدم تخريجه في الروم: ٤٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٠٥ ومسلم ٩٠٠ وتقدم في الأحزاب: ٩.

وَسَّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عَمَدٍ، حتىٰ استقلَّت كما هي، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾، أي: جعلناها فِراشاً للمخلُوقاتِ، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، أي: وجعلناها مهداً لأهلها ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: جميعُ المخلوقات أزواج: سَماءٌ وأرضٌ، وليلٌ ونهارٌ، وشمسٌ وقمرٌ، وبَرٌّ وبحرٌ، وضِياءٌ وظَلامٌ، وإيمانٌ وكفرٌ، ومَوتٌ وحَياةٌ، وشَقاءٌ وسَعادةٌ، وجنةٌ ونارٌ، حتىٰ الحيواناتُ والنباتات. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لِتعلَموا أن الخالقَ واحدٌ لا شَريكَ له، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه، واعتَمِدُوا في أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: لا تُشرِكُوا به شيئاً، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

يقولُ تعالىٰ مُسَلِّياً نَبِيَّه ـ ﷺ ـ: وكما قال لك هؤلاء المشركونَ، قال المُكَذِّبون الأولون لِرُسُلِهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾! قال الله تعالىٰ: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾، أي: أوصىٰ بعضُهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لكن هم قومٌ طُغاةٌ، تشابَهت قلوبُهم، فقال مُتأخِّرهم كما قال مُتقدِّمهم قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: فَأعرِضْ عنهم يا محمدُ، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، يعني فما نَلُومك على ذلك، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾، أي: تنتَفِعُ بها القلوبُ المؤمنة، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، أي: إنما خلقتُهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلاّ لِيُقرُّوا بعبادتي طَوعاً أو كَرهاً، وهذا اختيار ابنِ جرير. وقال ابن جُرَيج: إلاّ ليعرفونِ، وقال الربيعُ بن أَنسٍ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلاّ للعبادة. وقال السُّديُّ: من العبادة ما ينفَعُ ومنها ما لا ينفعُ، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادةٌ، وليس ينفعهم مع الشرك، وقال الضحّاكُ: المراد بذلك المؤمنُونَ، وقولُهُ تعالىٰ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

[٦٣١٩] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيدَ، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسولُ الله ﷺ: «إني أنا الرزاقُ ذو القوّة المتينُ»(١). ورواه أبو داودَ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، من حديث إسرائيلَ، وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيح». ومعنىٰ الآيةِ أنّه تعالىٰ خلقَ العبادَ ليعبدوه وحدَه لا شريكَ له، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء، ومَن عصاه عَذَّبه أشدَّ العذاب، وأخبر أنه غيرُ محتاج إليهم، بل هُم الفقراء إليه في جَميع أحوالهم، فهو خالقُهم ورازقُهم.

[٦٣٢٠] قال الإمَام أحمدُ: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمرانُ ـ يعني ابن زائدةَ بن نَشيط ـ عن

(١) صحيح شاذ. أخرجه أبو داود ٣٩٩٣ والترمذي ٢٩٤٠ والنسائي في «الكبرىٰ» ٧٧٠٧ و١١٥٢٧ وأحمد ١/ ٣٩٤ و٤١٨ وابن حبان ٦٣٢٩ وأبو يعلىٰ ٥٣٣٣ والحاكم ٢/ ٢٣٤ و٢٤٩ سكت عليه الحاكم! والذهبي!، وهو علىٰ شرط الشيخين، لكن المتن شاذ، فإنه يخالف المثبت في المصاحف.

أبيه، عن أبي خالد ـ هو الوالبي ـ عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: قال الله تعالىٰ ـ: «يا ابن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنىٰ، وأسدُّ فَقْرَك، وَإلاَّ تفعل ملأتُ صَدرَك شُغلاً ولم أَسُدَّ فقرَكَ»[١]. ورواه الترمذي وابنُ ماجَة، من حديث عِمرَان بن زائدة، وقال الترمذيُّ: «حسن غَرِيبٌ».

[٦٣٢١] وقد رَوىٰ الإمامُ أحمد، عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سَلاَّم أبي شُرَحبيل، سَمِعت حَبَّةَ وسَوَاءَ ابني خالد يقولان: أتينا رسولَ الله ﷺ وهو يعمَلُ عَملاً ـ أو يبني بناءً ـ وقال أَبو معاويةَ: يُصلِح شَيئاً ـ فأعنَّاه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرّزق ما تَهَزّزت رُؤوسكما، فإنَّ الإنسان تَلِدهُ أُمُّهُ أحمَرَ ليس عليه قِشرَةٌ، ثم يعطيه الله ويرزُقه»[٢].

وقد ورد في بعض الكتب الإلهيّة: يقول الله تعالىٰ: ابنَ آدم، خلقتُك لعبادَتي فلا تَلعبْ، وتَكفَّلْتُ برزْقِكَ فلا تَتْعَب، فاطلبني تَجدْني، فإن وجدتَني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإن فُتُّكَ فاتَك كلُّ شيءٍ، وأنا أَحبُّ إليْكَ من كلِّ شيءٍ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العَذَاب، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، أي: فلا يستعجلُوا ذلك، فإنه واقعٌ لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يعني يومَ القيامة.

## آخر تفسير سورة الذاريات. ولله الحمد والمنة

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٤٦٦ وابن ماجه ٤١٠٧ وأحمد ٢/٣٥٨ وإسناده لين، فيه زائدة، وهو مقبول. وله شاهد حسن من حديث معقل بن يسار، أخرجه الحاكم ٤/٣٢٦ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/٤٦٩ وابن ماجه ٤١٦٥ وتقدم تخريجه في الروم: ٤٠.

# فهرس المحتويات